خالد محمد خالد

إسلاميات

الدين للشعب

كما تحدث القرآن

كما تحدث الرسول ﷺ

عشرة أيام في حياة الرسول

إنسانيات محمد

أبناء الرسول في كربلاء

والموعد الله

دار الفكر

بيروت

إهـــــــداء2006
ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران
الإسكندرية

إسلاميات

خالد محمد خالد

إسلاميات

الدين للشعب

كما تحدث القرآن

كما تحدث الرسول ١-٢

عشرة أيام في حياة الرسول

إنسانيات محمد

أبناء الرسول في كربلاء

والموعد الله

١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م
مطبعة اوفست الانتصار
بغداد - العراق

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

عندما صدر كتاب خالد محمد خالد الأول « من هنا نبدأ » عام ١٩٥٠ وكان قد كتبه عام ١٩٤٨ ، اعتبرته أوساط الدارسين الغربيين إيذاناً بحدوث تغييرات سياسية واجتماعية عميقة بمصر والعالم العربي [١] وربما لم يكن من الانصاف في شيء أن نبدأ هذه الكلمة عن خالد محمد خالد وإسلامياته بالحديث عن كتابه الأول الذي لم يعد يمثل موقفه الحالي ، لكننا رمينا من وراء ذلك الى تبيّن تميز الكاتب وإحساسه العميق بقضايا أمته ، ثم إخلاصه لنفسه وللناس فيما يكتبه ، وفي مواقفه المعروفة في الخمسينات والستينات .

هذه الحرارة التي ميزت « من هنا نبدأ » ميزت أيضاً سلسلته « رجال حول الرسول » وتميز إسلامياته هذه . الفرق بين خالد محمد خالد وأي كاتب إسلامي آخر أن خالداً يعيش فعلاً مايكتب عنه ومن يكتب عنهم ، ويؤمن إيماناً عميقاً بأن الأمة التي صنعت في ظل القيم الأولى رجالاً عظاماً ومجتمعاً عظيماً قادرة مرة أخرى أن تصنع الأشياء العظيمة نفسها في ظل نفس القيم . الاسلام كما يفهمه خالد محمد خالد هو دين للناس لحياتهم ، ومصالحهم ، ومشاعرهم وطبيعتهم . إن الطقوس والجوانب التعبدية ليست جانبه الرئيسي ، هذا على الرغم من أنها تتناسق تناسقاً

---

(١) راجع : *Hanna,s. and Grandev : Arab Socialism (Leiden : Brill 1969) P. 147.*

وقد ترجم الكتاب الى الانجليزية عام ١٩٥٣ .

رائعاً مع جوانبه الأخرى لما فيه مصلحة الانسان الحقيقية وسعادته . وعندما يشعر المسلمون أن الإسلام ليس عبئاً ، بل عقيدة حية وضعها المولى سبحانه في خدمة الانسان ولصالح تقدمه ورفاهه وصلاحه ، عندها تعود الصلة الصحيحة بين الاسلام وبينه ، هذا التصحيح في الفهم هو ما يقصده الكاتب في « الدين للشعب» في هذا السياق ينبغي أن نفهم أيضاً كتابه « كما تحدث القرآن » إنه يصاحب الدارس في رحلة عبر القرآن الكريم في سبيل فهم عاديٍّ ومباشر لكتاب الله ، ولحلوله لمشاكل الناس والكون ، دونما قيود على حرية حركة العقل في الموقف من القرآن من جانب المفسرين الجدليّين أو رجال الفرق الاسلامية المختلفة . إنه عودة بالشعب الى دستوره عبر معايشةٍ للنص المعجز تتخطى حجب التقليد والرهبة الجدلية. هذه الملامسة لروح القرآن المتجددة دائماً تتبعها ملامسة لروحية الرسول القائد ﷺ في « كما تحدث الرسول » إن الرسول لم يقم في صومعةٍ يطلق منها حكماً ونصائح ، بل عاش مع الناس وعانى كما عانوا وحرص على كرامة انسانيتهم أكثر مما حرصوا ، لما قاساه هو نفسه في طفولته وشبابه . من هذا المنطلق وفي هذا السياق ينبغي النظر إلى حديث الرسول الأكرم من خلال حياته ، والى حياته من خلال سنته ، فإذا تحقق ذلك أمكن للمسلم لا أن يقتدي برسوله فقط ؛ بل أن يستفيد من تجربته الطويلة عليه السلام ليكون أكثر حريةً ومرونةً في المواقف التي تحتاج أكثر من الاقتداء الشكلي أو الظاهري. في الأسفار الثلاثة لـ « كما تحدث الرسول » عرض خالد محمد خالد حياة الرسول الكريم من خلال سنته ومواقفه ؛ الرسول المقاتل ، والرسول الداعية ، والرسول الزوج ، والرسول الصديق ، والرسول الأب ، بهذه الطريقة يمكن للمسلم أن يتخذ رسوله قدوة في مواقف حياته المختلفة.

من أجل « القدوة » هذه يتابع خالد محمد خالد معايشته لرسول الله في « انسانيات محمد » إنه يريد تركيز الحديث على الطابع البشري المحض الذي يشترك فيه الرسول مع غيره من الناس .. والذي تفوق فيه على سواه من الناس.

هذا الطابع البشري هو الذي يبهج ويبهر لأنه من صنع إنسان مثلنا ، وذلك يمنحنا ثقة بأنفسنا ، واحتراماً عظيماً لبشريتنا • وللمرة الألف يذكرنا خالد محمد خالد بما أوشكنا أن ننساه بل قد نسيناه منذ قرون • إن الدين لنا ، وان الرسول لنا ، وإن القرآن لنا، لحياتنا وسعادتنا،وصلاحنا إن انسانية الإنسان التي تمثلت ذُراها في رسول الله ﷺ قادرة على أن تصبح سعادة مصفاة إن فهمت دين الله، والتزمت بوحي الله ، وعاشت إنسانيتها مع ذلك كما عاشها الرسول الكريم •

من القرآن إلى رسول القرآن ، ومن رسول القرآن إلى « أبنائه » • «أبناء الرسول في كربلاء » • وهل هناك محنة أعظم أو أفظع ؟ أبناء رسول الله - ولمّا يكد ضريحه عليه السلام يجف يُساقون فيقتلون والقتلة والمقتولون جميعاً : نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ! أعظم ما صنعه آل الرسول في ذلك هو أنهم جعلوا الحق قيمة ذاته ، ومثوبة نفسه ، فلم يعد النصر مزية له ولم تعد الهزيمة إزراءً عليه • إنهم ضميرنا نحن ، ضمير كل المعذبين والمتعبين الذين سلبتهم الظروف أغلى الأشياء : الحياة الكريمة ؛ ولأنهم يمثلوننا في إسلامنا الأول ، ويمثلون جدهم عليه السلام في شموخه ودعوته ؛ لذلك ثاروا ولو لم يثوروا لما بقي لنا من الأمر شيء ، ولما أدوا حقً جدهم عليه السلام كما ينبغي لأسباط بررة أن يفعلوا •• ثورتهم أبقت لنا « لاطاعة لمخلوقٍ في معصية الخالق » في مواجهة « الطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره » ما دام الإمام من رجال دعوة النبي وأتباعها •

ولأن الاسلام دين للناس لكل إنسان لنا نحن البشر العاديين أيضاً ، فإننا نحن العاديين وبدين الله الذي جعله للناس نستطيع أن نبلغ ذرىً من الفضيلة والحكمة والطهر تتقاصر دونها الأعناق • هذا ما يدلل له خالد محمد خالد في « والموعد الله » إنه يعرض سير رجال صالحين ، صاروا بدورهم قدوة ، لتلمسهم خطى رسول الله ، ولهلهم للميعاد • ليقينهم بأنً « الموعد الله » ولوضعهم ذلك نصب أعينهم في حلهم وترحالهم ، منشطهم ومكرههم عاشوا حياة أخرى غير حياة

الغافلين ، وتفجرت الحكمة من جوانبهم ، وتفتحت عيونهم على حقائق ومذاهب وسبل هي حلم البشرية الدائمة . هـؤلاء الرجال الذين بقوا كما بقي رسولهم وقدوتهم بشراً هم نبراس على الطريق .

عندما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت : كـان خلقه القرآن . وخالد محمد خالد الذي درس الرسول ، ودرس خلفاءه وأصحابه يعود في دراساته هـذه الى تلمس جوانب جديدة في الاسـلام وكتابه ورجاله وأخـلاقه .

عسى هذه الإسلاميات تكون خطوة على الطريق ، طريق الرسول ، طريق الخلق القرآني ، بل طريق القرآن .

١ ذو القعـدة ١٣٩٨ هـ

٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٨ م

دار الفكر

* * *

الدِّينُ للشعب

منقحة

في مايو عـام ١٩٥٣ ظهـر هـذا الكتاب في طبعتـه الأولى تحت عنـوان [الدين في خدمة الشعب] ·· وهو العنوان الذي كنت قد أذعت باسمه بعض الأحاديث في الإذاعة المصرية غـداة قيام ثورة ٢٣ يوليو ٩٩ ولم يقدر لتلـك الأحاديث أن تتم ·· فوقفت إذاعتها ·· ثم أخرجناها في كتيب تحت العنوان السالف في الطبعتين : الأولى والثانية ··

وفي طبعته الثالثـة زيدت موضوعاته ، ثم آثرت أن يكـون عنوانـه ! [الدين للشعب] بدلا من « في خدمـة الشعب » ···

وها هو ذا ؛ يجيء اليوم في طبعته الجـديدة ·· مع الأسفار الباقية في عـداد الطبعات المشروعـة ··

وأقول : المشروعة ·· لأن طبعات أخـرى مسروقة · قـام بطبعها مـن هـذا الكتاب وغـيره من كتبي بعض الغوغـاء المتطفلين على حرفـة النشر من الذين لا ذمـة لهم ، ولا ضمير ··

وللكتاب من اسـمه نصيب ··

فهـو يتعرض لبعض القضايا المنوط بهـا مصـير الشعوب ·· ثم هـو يغمرها بضوء الدين · بكل ما يمثله الدين من شـمول ··

إن تعـاليم السيد المسيح ، وتوجيهات سيدنا محمـد ـ عليهما صـلاة ربنـا وسـلامه ـ تتزامل في درء الضر عن البشرية : وتجـاهد في سبيل تثبيت خطـاها على طـريق الخـير ، والتقـدم ، والصلاح ··

وعلى صفحات هـذا الكتاب ، نسمع « كلمـة الدين » في هديرها المبارك : تزيح من أمـام الإنسان ومستقبله · كل قوى الردة ، والبغي ، والظـلام ··

حقوق الإنسان من حقوق الله

هذا الحديث أول الأحاديث التي أذيعت تحت عنوان « الدين في خدمة الشعب » غداة قيام الثورة توكيداً للحق في تحرير الشعب من استبداد القصر والاقطاع .

غايتنا من هذه الأحاديث أن نُزَوِّد الوعي الجديد بمبررات دينية صادقة ، ونضع أمام عقل الشعب وقلبه المفاهيم الحقة لكلمات السماء ، وغايتنا أيضاً ، أن تنفي عن الدين عبث العابثين ، ولَغْوَ المبطلين ، حتى يَفيء إليه أولئك الذين شردوا منه أو كادوا .. وحتى يأنس الناس اليه في يقين وحُب ، ويتخذوا منه في رحلة الحياة رفيقاً وعَضُداً ..

وحديث الليلة يريد أن يكشف عن الزمالة الأبدية القائمة بين دين الله وحقوق الإنسان . ويريد أن يقيم الدليل على أن توقير الله ورعاية حقوقه ، يقتضيان توقير الإنسانية ورعاية حقوقها .

وإنكم لتعلمون ، أنه قد سار عَبْرَ التاريخ كثير من الفلسفات والمبادىء التي نادت بحقوق الإنسان وحرضت عليها .. ولكن من حق الدين عليكم أن تعلموا أنه فضلا عنا لدور الباسل الضخم الذي قام به لتحرير الإنسان ، فإن أول وثيقة سجلت حقوق الإنسان كانت وثيقة دينية ... وإن الكتب المنزلة جميعها لتسجل هذه الحقيقة ، ويصورها القرآن الكريم في وضوح حين يحدثنا عن قصة أبي البشر .. آدم .

والآن ، نستطيع أن تتخيل اللحظة الحاسمة ، فنرى آدم قادماً من الغيب . حيث كان في تلافيفه المغيبة مجرد مشيئة تنتظر التنفيذ ...

وها هو ذا قد وقف بين يدي ربه يؤدي تحية القدوم... ويتقبلها ربه بقبول حسن ... ويفطن آدم إلى أن أولى رسالات الله إلى البشر ممثلين في أبيهم ، على وشك أن تلقى ، فيلقي سمعه ويفتح فؤاده .. وتشرق كلمات الله فإذا هي في إيجاز وحسم وثيقة بحقوق هذا الإنسان ، وعهد يكتبه الله على نفسه حيالها .

يا آدم « إنَّ لكَ ألاّ تجوعَ فيها ولا تَعْرى .. وأنك لا تظمأ فيها ولا تَضْحَى »

وهكذا تلقَّى أبو البشر أول تأمين ضد العَوز ، فلا عُرْيَ ولا جوع ...

وعندما دقّت ساعة الرحيل إلى الأرض كان وعي آدم لا يَزال مُفعَماً بهذه الحقوق .. بيد أنها قبل اليوم كانت مكفولة بقدرة خارجة عنه .. أما اليوم ، وفي الأرض المجهولة التي ولَّى وجهه شطرها ؛ فإن عليه وحده صيانة هذه الحقوق . ولكأنما أراد الله أن يهيئه لما سيعانيه في سبيلها من صراع ؛ فقال : « اهبطوا ، . بعضكم لبعض عدو » ...

وصدق نذير السماء .. فمرق من صفوف الإنسانية شذّاذ تقمصت أجسادهم طبائع الوحوش وضراوة الذئاب ، وأبوا إلا عُلوّاً في الأرض وفساداً.. فهبّ الخيرون لحماية التراث والنهوض بالأمانة .. هنالك نشب الصراع المشروع من أجل حق الإنسان في أن يظل إنساناً ...

لا يجوع ... وسواعده هي التي تنبت الحب .
ولا يَعْرى ... وأنامله هي التي تنسج الثوب .
ولا يُستعبد ... وقد ولد حراً .

والآن . ندع الموكب المصطرع يمضي لمستقر له . ريثما نلقاه بعد حين . وتعالوا نعرف كيف دعم الدين حقوق الإنسان ، ولماذا ...؟

أما كيف ، فقد سلك الدين لذلك سبلا كثيرة . لكن أروع وسائله وأذكاها تتمثل في مناداته بمبدأ التوحيد ...

لقد مضى يحطم بالتوحيد كل حاجز يقف بين الإنسان وباريه • ويدحرج على الأرض أولئك الأرباب الكاذبين الذين انتفخت أوداجهم بالغرور والظلم ، يزعمون أنهم ظلال الله في الأرض • وهم سعير يتلظى وهجير يضطرم •

نعم • إن إعلان الإله الواحد ، كان الضربة القاصمة التي حطمت عن الإنسان أغلاله ، ومزقت قيوده ، وهوت بالمتألهين عن عروشهم الملحدة ، وقيل للانسان يومئذ •• قيل للرجل العادي •••

أنت وحدك ظل الله في الأرض •• أنت خليفته •• أنت نفخة من روحه ••• أنت شهبة من نوره•••انهض ، هذا الكون لك•••والشمس تجري من أجلك••• ليس بينك وبين الله وسطاء ••• استعن بالله ، ولا تعجز •••

ومضى رسل الله عليهم السلام يخاطبون بغي البغاة ، وضعف المستضعفين ، ويعلنون في قوة وإصرار أن لباب رسالاتهم تحرير الإنسان ونشر لوائه •

وقف إشعيا يقول :

« إن الرب مسحني لأبشر المساكين أرسلني لأعصب منكسري القلب•••لأنادي للمسبيين بالعتق ، وللمأسورين بالانطلاق »•

وصاح عيسى في المساكين :

ــ « الحق أقول لكم : إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله » •••

فماذا كان يعني بالولادة من فوق •••؟؟

كان يعني أن يريقوا في أنفسهم الخانعة كل مشاعر العزة والسمو والامتداد ••• حتى تترعرع من ذبول ، وتنتعش من خمول ، وتولد من علياء •

وأراد أن يؤكد المعنى الذي سلف • وهو ربط البشرية بربها ربطاً وثيقاً لا يتخلله شفيع ولا وسيط • فخاطب تلامذته قائلا :

« .. سيسلمونكم إلى مجالسهم ؛ وتُجلدون في مجامعهم وتساقون أمام الولاة والملوك من أجلي ؛ فمتى أسلموكم فلا تهتموا بما يقولون ، فسيوحَى إليكم ما تنطقون ؛ لأنكم لستم المتكلمين . بل روح الله هو الذي يتكلم فيكم » ..

وجاء دور محمد ، فبلغ ذروة التحريض على التحرر والعزة . وأحدقت تعاليمه بالطغيان من كل مكان . وانطلق يجلجل بوحي الله :

« الناس سَواسِيةٌ كأسنان المُشط » ...

لا نبالة للدم .. ولا امتياز بالوراثة .. ولا كرامة بمال أو نسب .. إن أكرمكم عند الله أتقاكم .. ثم نحا بدعوة التحرير نحواً مدمدماً ؛ فقال يخاطب أصحابه ويخاطب الأجيال :

ـ إذا ذهب كسرى فلا كسروية بعده ... وإذا ذهب قيصر فلا قيصرية بعده .. ولقد أظلكم من الله خير جديد ... نبوة ، ورحمة .. !

لكأنه اليوم معنا ، ولكأنه يحرضنا ويعنينا .

أرأيتم أيها السادة كيف كان رسل الله يتكلمون ؟

أرأيتم هذه الصورة العابرة للأمانة التي حملوها في مشقة وكَبَد ، والجهد الذي بذلوه من أجل الإنسان وحقوق الإنسان .. ؟

إذن ؛ فاسمعوا لماذا أمرهم ربهم أن يحرروا الناس وينفضوا عنهم كل مذلة وعار .

لقد اختار الله الإنسان ليعمر هذا الكوكب الذي نعيش على ظهره ونضرب في مناكبه . وما كان له وهو عان مُوثَق ذليل أن يجد لمهمته سبيلا ... ولو أنه قدر لنا أن نرى الأرض قبل أن يفد الإنسان إليها ... وكيف أحالها من عماء موحش إلى تحفة تزدان بآثار عقله وما عملت يداه ، إذن لآمنّا في بداهة وتسليم بأنه قبس من الإله .

ولقد اختاره أيضاً ليكون خليفته في الأرض ، ومنفذاً لمشيئته عليها ، وأعلن ذلك في كتابه الكريم حين قال سبحانه : « إني جاعل في الأرض خليفة » .. وما دام ذلك كذلك ، فلا بد أن يتاح لهذا الإنسان من فرص الكرامة والعزة والسيادة ـ ما يجعله أهلاً لتمثيل إله اتصف بالعزة والكبرياء والسيادة ...

من أجل ذلك ـ جئنا نعلن في يقين وصدق ، أن حقوق الإنسان من حقوق الله .



ومن أجل ذلك أيضاً دعى الله البشر ليرتفعوا ، فقال : « كونوا ربانيين » .

ودعا الرسول عليه السلام دعوة مماثلة فقال : « تخلقوا بأخلاق الله . إن ربي على صراط مستقيم » .

وقد يسأل سائل ، كيف يعنى الدين بحقوق الإنسان كل هذه العناية ثم لا يلغي الرق بآية حاسمة ..؟؟

والجواب ، أن الدين يؤثر التطور على الطفرة ، وفي أيام نزوله وإهلاله كان الرق يمثل في النظام الاجتماعي « عقدة حيوية » وحاجة ملحة ، ولم يكن من الممكن لأكثر من سبب أن يجتث ويحذف . فنادى الدين بحق العبيد في الحرية والحياة ، ، وشرع مبدأ العتق ونظمه وحرض عليه . ثم ضاعف حقوق الأرقاء على أسيادهم حتى يدفعهم العجز عن الوفاء بها إلى إطلاق سراحهم ..

لقد كانت أثينا مهد الحرية . وطالما تغنى شعراؤها بحرية الرقيق ، ومع ذلك فقد عجزت أثينا عن إلغائه لأن دور الإلغاء في التطور لم يكن قد أزف وحان .. ورغم استمرار هذه الدواعي فقد لعب الدين دوراً إيجابياً في تحريرهم وفي التعجيل بعصر التسريح المطلق والإلغاء التام .

لقد وقف الرسول عليه السلام يمحو عنهم اسم العبودية : فقال :

« لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي وليقل فتاي وفتاتي » .

وقــال :

« هم إخوانكم فأطعموهم مما تطعمون ، وألبسوهم مما تلبسون» .

أيها السادة هذا حديث سريع ينبىء عن المنزلة التي يريد الله للإنسان أن يتبوأها . فامضوا نحوها في غير تهيب أو وجل ، وانفضوا عن أنفسكم كل إحساس بالنقص أو عجز عن اختيار المصير .

* * *

ليس في دين الله إقطاع

قبل البدء في الحديث ، تعالوا نجيب معاً على هذا السؤال :

مَنْ مِن رسل الله عليهم السلام يقبل ضميره الحر التقي أن يحمل وزر تجويع الجماهير الكادحة ؟

ومَن مِن رسل الله عليهم السلام يسيغ ضميره الحر التقي أن تملك الأرض فئة باغية عاطلة ، وتملك مع الأرض الماء والهواء والبشر ... تجبى إليها ثمرات كل شيء . ويحرم المجهدون في سبيلها من كل شيء .

مَنْ . . ؟؟

أهو موسى . . ؟؟

لقد كان لباب رسالة موسى أن يقوض الاستبداد في شخص فرعون ويحطم الاستغلال في شخص قارون . ويمن بالحرية على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين .

أهو عيسى . . ؟

لقد نظر عيسى ذات يوم إلى الحقول الباذخة التي زرعها الحفاة للطغام واختلج رأسه في غيظ وقال : إنها حقول منجوسة . وإن صياح الحصادين قد دخل إلى أذني رب الجنود . . !

أم هو محمد . . ؟

ولكن محمداً هو الذي جاء يحمل من لدن ربه وثيقة زاكية تخبر الناس

أن الله سخر لهم ما في السماوات والأرض جميعاً منه . وتصرخ في وجوه الكانزين أن من احتكر طعام قوم أربعين يوماً ؛ فقد برئت منه ذمة الله ورسوله . !

إذن ، ليس في هؤلاء الثلاثة المرسلين ولا إخوانهم الذين سبقوهم بإيمان من يسيغ هـذا الرجس .

وإذن : فليس في دين الله إقطاع ...

ولكي نزداد اقتناعاً بهذه الحقيقة علينا أن نعرف ما هو الإقطاع . والإقطاع ـ يا صحاب ـ هو سيادة الغرور على الحـق .

هو سيطرة البغي على العـدل .

هو استعلاء الأنانية على الواجب .

بدأ في نماذجه البدائية يوم انتفضت في الإنسان القديم غرائز الشر ووضع الكهنة دين الناس يومئذ في خـدمة الملوك وذهبوا يقنعون الجماهير أن الأرض التي يزرعونها ليست لهم ؛ وإنما هي للآلهة الجاثمة في المعابد ، والآلهة وهبتهـا للملوك يهبون بعضها لمن يشاؤون من الخـدم والموظفين .

ثم أخـذ الإقطاع شكلا طاغياً في أعقاب انحلال الامبراطورية الرومانية يوم رأى المستضعفون أنفسهم مثلومي العزم مجردين من القوة والحول ، فلاذوا بالسادة الأقوياء ليحرسوهم من سطو الغزاة وقطاع الطريق ... فرفض السادة حمايتهم إلا إذا جعلوا أموالهم وأنفسهم وأهلهم مِلْكاً لهم .. وهكذا بين عشية وضحاها ، وبكلمة واحـدة من أمراء الإقطاع ، انقلب الأحرار عبيداً ؛ يبنون ما لا يسكنون ، ويزرعون ما لا يأكلون ... !

ومضى الزمن ينادي بعضه بعضاً ... فإذا الإقطاع ينقرض ويبيد ، وإذا حقوق الإنسان تزحف فتحتل مواقعه وحصونه ، ويتحول الرعايا إلى أمة .. والعصابة إلى دولة .

ولكن سوء الحظ أغرى فلول الإقطاع المنهزمة بالمكث في هـذه الرقعة المظلومة من الأرض ـ مصر ، وما حولها ... إذ قامت نظم من الحكم أرادت مشيئتها السامية أن تكـون الوارث الشرعي لذلك الحيوان المنقرض البـائد ـ الإقطـاع ...

وإذا كنا لا نطيق بقـاء هذا الكابوس ، فليس فقط لأنه يحرمنـا اللقمة ويضربنا بالجوع والمرض ... بل لأنه يذكرنا بالشقوة التي كابدها آباء لنـا كرام سقطوا تحت مطارق بغيه وأهواله ... ويذكرنا بالغـزاة الذين تطفلوا على بلادنا وساموها الخسف والعذاب .

نعم ، يذكرنا بأن السلطان سليمان التركي عندما تولى الخلافة بعـد أبيه سليم أعلن في (فرمان وقح) أنه « المالك الحر لجميع أرض مصر » ويذكرنا بيوم آخر جمعت فيه وثائق امتلاك الأرض من آبائنا وأحرقت ثم ذريت في الهواء .

ويذكرنا بيوم ثالث حين قسم إسماعيل الأرض إلى تفاتيش ومضى يوزعها في سخاء لم يكلفـه شيئاً على خـدم القصور وأغوات البلاط تاركاً أصحابهـا الحقيقيين يأكلون الجـوع ويلبسون العـراء ... !

تصوروا هذا الوضع الشاذ ، ثم انظروا ببداهة . هل يقبله دين ؟

لقد كاد الحق يلتبس على كثيرين يوم كان بعض المتحدثين الرسميين باسم الإسلام يتجشأون في كـل يوم فتوى تشحذ ضراوة الإقطاع ، وتمكن قبضته الآثمة من أعنـاق الملايين التعسة ، وتضفي على الظـلم الاجتماعي ألواناً من المشروعية والتقديس .

أما اليوم ، فقد دقت ساعة الخلاص معلنة وفاة الإقطاع وتسريح كهنته .

واليوم ، يعلم الناس جميعاً أن الله لم يكذبهم وعده ، وأن الدين لم يساهم قط في الظلم الذي كان يؤودهم ، وأنه أنزل من السماء ليكون في خدمتهم هم ، وليس في خـدمة الفراعين أو القوارين .

سادتي ... إن مسافة الخلف بين الدين والإقطاع بعيـدة جـداً .
فالدين : عـدل وإخـاء ، والإقطاع عبودية وعدوان ..
الدين : كَدٌّ وعمل ، والإقطاع تبطل ونهب ..
الدين ، سياج للفضيلة ، والإقطاع تحـدٍّ لكل فضيلة .

الدين ، يقـول للناس ليس فوقكم سوى الله ، والإقطـاع يقول للناس أنا ربكم الأعلى ...

الدين : صيحة مُنْقِذة ، والإقطاع وطأة مميتة ...
الدين ، يقول للناس : خذوا ، والإقطاع يقول للناس . هاتوا ...
فكيف يلتقيان ..؟؟

وإنه لظلم للمنطق وللحق أن نعتبر الإقطاع في مصر مِلكية . فالحقيقة أنه احتكار ، والفارق بين الملكية والاحتكار كالفارق بين رجل يحمل في يده قرشاً وآخر يحمل مشرطاً ينهب به جيوب الناس . وإذا سلمنا جدلاً بأن الإقطـاع مِلكية ، فلن يكون في هـذا ما يبرر بقاءه فالدين يعطي الحاكم الصالح حـق توجيه هـذه الملكية نحو صالح الأمـة واستيفاء ضروراتها ، توجيهاً ينظـم التحديد والتأميم معـاً ...

أتظنون أن الله يلعن من يحتكر حفنات من القمح .. ثم يرضى عن احتكار الأرض التي تنبت القمح ...؟!

وإذا سئلنا لماذا لم يُصَفِّ الرسول الإقطاع ويوزع التفاتيش ... نجيب سائلين ــ ولماذا لم يركب الرسول القاطرة البخارية ..؟!!

إن الرسول لم يفعل الثانية لعـدم وجـود قاطرة ، وهـو أيضاً لم يوزع التفاتيش لأنه لم يكـن في جزيرة العرب تفاتيش ... وحسبه ــ عليه السلام ــ ما ترك من المبادىء الحرة والتوجيهات الحاسمة ... فهو القائل :

« إن الأشْعَرِيِّين كانوا إذا أرْمَلوا في غزو ، أو قلَّ في أيديهم

الطعام ؛ جمعوا ما عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه فيما بينهم .
فهم منّي وأنا منهم » .

وهذه الفقرة الأخيرة ـــ فهم مني وأنا منهم ـــ تزكية وتأييد للنهج الـذي اتنهجـه الأشعريون .

وهو الذي بلّغنا عن الله هذه الوثيقة الفاصلة :

« وسخّر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه . إن في ذلك لآيات لقـوم يتفكرون » .

وإنكم لتلاحظون أن الآية الكريمة تضع الأرض تجـاه السماء . وكأنهـا تقول لنا : هل يستطيع أحـد من الناس كائناً ما كان جاهه وثراؤه ، أن يحتكر لنفسه ولأبنائه من بعده ؛ ضوء القمر وحرارة الشمس ، والسحاب الثّقال ...؟ ـــ إن منافع الأرض كمنافع السماء لا ينبغي لعصابة من الإقطاعيين أن تحتكرها وتذهب بخـيرها ...

على أن أمامنا صحابياً جليلا لم يكد يلمح فاشية الإقطاع تفشو بعـد فتح الإسلام لبعض البلاد الزراعية حتى اندفع كالرصاص المقذوف يكافح الإقطاعيين ويتحـداهم ...

ذلكم هو أبو ذَرٍّ العظيم ... ولقد حملت الصحف منـذ عامين فتوى دينية ، لبعض المتحدثين الرسميين باسم الدين ... نعتوا فيها أبا ذر بالفوضوية والشغَب .. كي يضائلوا من قيمة العمل الجليل الذي قاوم به الإقطاع ...

ولكن اسمعوا أيها السادة .. إن في نبأ أبي ذر ما قد يدلّ على أن الرسول عليه السلام يقر سعيه ومذهبه . فلقد قال له ذات يوم قبل وفـاته :

« يا أبا ذر ... إنك تعيش وحدك ، وتموت وحـدك وتبعث وحدك ... وستلقى بعـدي أذى كثيراً فاصبر حتى تلقاني على الحوض ... »

قال أبو ذر ••• يا رسول الله •• هـذا الأذى • في طاعة أم في معصية • ؟

فأجابه الرسول •• وعلى فمه ابتسامة كضوء الفجر ••• بـل في طـاعة يا أبا ذر » •

وهكذا تنبأ الرسول بنضال صاحبه ووصف موضوع النضال بأنه طاعة وحـق •

سيداتي ••• سادتي ••• ليس الدين في استنكاره للإقطـاع إلا استجابة حية لأمـاني البشر وتصويراً صادقاً لطبائع الأشياء •

فطبائع الأشياء تتطلب أن تقوم في الناس حكومة ترعاهم •• ومن المحال أن تجتمع في بلد ما ، حكومة وإقطاع •• إن وجـود أحدهما يعرقل وجـود الآخر • ذلك أن غـاية الحكومة إقامة العـدل والأمن والمساواة ، والإقطاع بطبيعته وغرائزه ضد العدل والأمن والمساواة • وإذن ، فللدولة ــ أي دولة ــ أن تختار بين الحكومة والإقطاع ، ولن يجتمع الاثنـان في وطن إلا إذا اجتمع الثلج والنـار في إناء ، ثم لم يطغ أحدهما على الآخـر • وقد رأيتم كيف طغى الإقطاع على الحكم في بلادنا حتى تبرَّ كل شـيء تتبيراً ، وردَّ روحنا الحي تراباً في تراب •

أيها السادة ! تحيتي لكم ، وعما قريب إن شـاء الله سيقول بعضنا لبعض في حبور وجذل : كان في مصر إقطاع [1] •••

(١) كان هـذا الحـديث قد اذيع قبـل أن تقـوم الثورة بتنفيذ الاصلاح الزراعي •

حق الشعب في أن يحكم نفسه بنفسه لنفسه

عندما تريد أمة أن تسترد سيادتها وتَنفضُو عن نفسها حكم الفرد نسمعها تنـادي : أريد الديموقراطية ...

والديموقراطية كما يعرفونها هي : أن يحكم الشعب نفسه ؛ بنفسه ؛ لنفسه.

أن تنهض الحكومة من صفوف الشعب ، وأن تجيء ثمـرة اختيار حـر يمارسه الشعب ، وأن يكون سلوكها من الجد والاستقامة بحيث تصير مَغانم الحكم جميعها إلى الشعب .

والحكم الذي يستكمل هذه العناصر ، هو وحده الجدير بالبقـاء فالبشر ليسوا ضيعة تورث ؟ ولا سلعة تباع ، ولا قطيعاً يسام .. ولقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً .. ويجب أن يظلوا كذلك . وما دامت مقتضيات الاجتماع اليوم تتطلب وجود حكومة تسوس الناس وترعاهم ، فلا بد من أن تجيء هـذه الحكومة وليدة رغبة صادقة تعبر عن ثقة الشعب بها ، واطمئنانه إليها ، وتعاضده معهـا . خاصة وقد نزل المجتمع عن جزء من حريته للدولة نظير قيامها بخدمته ، والدين يبارك حكم الشعب نفسه بنفسه ، لنفسه . ويهيىء له سبيل ذلك في عزم أكيد .

ولما كان الإقطاع ، والملكيـة المطلقة هما الحاجز الشاهق الذي يحول بين الشعب وحريته . فقد أعمل الدين معاوله لدكهما وتقويضهما .

ولقد حدثتكم في الحلقـة الأولى ، كيف طارد الدين الإقطاع وكافحه ، والليلة ترون ، كيف ازدرى الملكية المطلقة وصارعها ، حين رآها تقف حجَر عثرة ضد أمـاني البشر ، وحقهم في أن يختاروا حكامهم بأنفسهم ، لا أن يُفرضوا عليهم بشهادة الميـلاد .. ! !

فحين جاوز أحد فراعين مصر القدماء حدوده واستعلى بجبروته على الناس يقتل أبناءهم ، ويستحيي نساءهم .. ويقول لهم في غطرسة وبغي : « أليس لي مُلكُ مصر ، وهذه الأنهار تجري من تحتي » ...؟

عندما حدث ذلك اصطنع الله موسى ، وقال له :

« اذهب إلى فرعون إنه طغى » .

وهكذا كان مجرد طغيان فرعون سبباً كافياً لإرسال رسول يزجره ويرد الحرية المسلوبة إلى ذويها .

وجاء موسى . وقام صراع طويل بين النبوة الهادية والملكية المطلقة وانتهى الصراع أخيراً عند شاطىء البحر .. حيث ابتلع اليَمّ فرعون ثم بصقه على الشاطىء ليكون لمن خلفه آية ومثلا ..

إن تقدير الدين لديموقراطية الحكم لا يتمثل فقط في حثه عليها حين يقول :

« وشاوِرْهُم في الأمر » .

« وأمرُهُم شورى بينهم » .

وقول الرسول لصاحبيه أبي بكر وعمر :

« لو ذهبتما لرأي ما خالفتكما » .

بل يتمثل قبل ذلك وبعد ذلك في عدم ارتياحه بل في كراهيته للملكية المطلقة باعتبارها مظهراً خطيراً لسلب سلطان الشعب وإلغاء إرادته ...

وإنكم لترون القرآن الكريم لا يذكر الملوك المستبدين بخير أبداً .. فهو تارة يتهمهم بالسلب على لسان الخضر فيقول :

« وكان وَراءهم مَلِكٌ يأخذ كل سفينة غصباً » ...

وتارة أخرى يتهمهم بالفساد والبطش على لسان بلقيس فيقول :

« إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعِزَّةَ أهلها أذِلَّة وكذلك يفعلون » .

وقول القرآن : « إذا دخلوا » .. إيماء واضح إلى أن الملكية المطلقة كثيراً ما تكون بضاعة مجلوبة تغـزو البلاد وتفرض عليها سلطانها .

ومرة ثالثة يتهمها بالتبذخ والترف . فقد دخل عمـر يوماً على رسول الله عليه السلام فألفى الحصير قد أثر في جنبه فبكى وقال : ألا تتخذ لك فراشاً ليناً يا رسول الله ، فأجـابه الرسول :

« ماذا ياعمر .. أتظنها كِسْرَوِيّة؟ إنها نُبوّة لا مُلْك »...

وهكذا ينهض الدين في وجه هذا الطراز الغاشم من الحكم .. لماذا ؟ لأنه تعويق آثم لتقدم الحيـاة .. وأنانية جاهلة تسخّر الناس للعمل ضد أنفسهم وتضع القيم السامية في خدمة الغرور والباطل ..

والدين في هذا المنهج ينسجم مع الفطرة انسجاماً وطيداً .. هذه الفطـرة التي أوحت إلى رواد الحضارة جميعهم أن يهتفوا بأن الأمة مصدر السلطان ، وأن المؤهل الوحيد للحاكم ــ أي حاكم ــ هو ثقة الشعب ، فإذا اختفى هـذا المؤهل اختفى الحاكم لفوره وساعته .

وإمعاناً من الدين في تزكية حكومة الشعب ، ضرب رسول الله المثل بنفسه ، وترك للناس من بعده حق اختيار رائدهم الجديد . دون أن يفرضه عليهم .

وكذلك فعل عمر .. فحين سأله أصحابه أن يستخلف عليهم رفض وقال :

« ما لي ولأوزاركم ، أحملها حياً وميتاً » .. ؟ !

ثم رفض أن يكون لابنه عبد الله شيء من الأمر . وقال : حسب آل عمـر أن يحاسب منهم رجل واحد . ويُسأل عن الأمة ، ظلَم فيها أم عدَل .. ! ؟

ولا تزال كلمته ــ رضي الله عنه ــ شـعاراً مرتفع الرنين في ضمير الزمن ، تلك الكلمة التي زجر بها واحـداً من كبار ولاته فقال :

« متى استعبدتم الناس وقد ولَدتهم أمهاتهم أحراراً ... ؟ »

على أن أبرء الوسائل التي يمكن الدين بها لحكم الشعب يتمثل في محاربته

كل ألوان التأثير على الشعب ، وفي تعرية الحكم من جميع مظاهر الأبهــة التي تجعــله في أعين الناس زخرفاً مرغوباً .

ففيما يتصل بالتأثير على الناس يحرم الرشوة ويلعن مانِحَها وآخذها . ويعتبر شــراء الذمم كبرى الكبائر والموبقات .. ويحــرم على الناس شهادة الزور ، ويترك لأئمة الدين أن يبينوا للناس أن إعطــاء الصوت في الانتخابات شــهادة صلاحية المرشح لتحمل مسؤوليات وظيفته كنائب . فإذا لم تصادف هذه الشهادة أهلهــا ، كانت زوراً ، وإثماً ، وضلالاً .

وفيما يتصل بتعرية الحكم من مظاهر الزخرف والإغراء . نجــده يطالب الحاكم بألاَّ يتميز عن الناس في شــيء ، وألا يجاوز مرتبة حدود كفايته . وألا يبيت شبعان ، وفي الأمــة جائع واحــد ، وألا يتخذ له حاجباً يصــدّ المظلومين عن بابه ، وألاّ يقبل هــدية مهما تكن ، تأتيه وهو يمارس الحكم بين النــاس . ويعلن الرسول في حــديثه ؛ أن الحكم أمانة شاقة تفضي بأصحابها إلى الشقاء والخزي إلا إذا أخــذوها بحقها وأدوا ما عليهم فيها .

اسمعوه يقــول :

« لَيَتَمَنَّيَنَّ أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم معلقة بالثريا يُدلَّوْن بين السماء والأرض وأنهم لم يلوا عملا » .. ! !

بل وأكثر من ذلك نجد الدين يحرم على الناس التهافت على الحكم . وينزع ثقته من الذين يطلبونه ويسعون إليه .

ذهب العباس إلى رسول الله عليــه السلام يسأله أن يوليه إمارة فقــال الرســول :

« إنّا والله لا نُوَلّي هــذا الأمر أحداً يسأله ، أو أحداً يحرص عليــه ... » .

وليس معنى هذه النصوص التي سردناها أن تصطبغ الحكومة بصبغة دينية

خاصة ... فالإسلام إذ يزكي حكومة الشورى يترك للناس حرية اختيار وسائلها وتحديد غاياتها ، ورسم مناهجها ووضع دستورها .

أيها السادة : هكذا يريد الله لخلقه أن يعيشوا سادة في ظلال حكومات يختارونها ويحسنون اختيارها . فلا تفرطوا فيما لكم من حق ولا تختاروا من لا يرعى لكم حرمة ، ولا يخشى فيكم ذِمّة .

أيها السادة !

ارفعوا رؤوسكم ؛ فقد وضح الطريق .



حق الشعب في الحرية والسلام

حين أتحدث عن الحرية والسلام ، يغمرني إحساس عميق بجلال الإنسانية وروعة كفاحهـا ...

وأتصور الأجيال التي ذهبت في الدهـر الأول ...

أتصورها وهي تخوض معارك الهول ، وتقاتل من أجل حريتها وسلامهـا وحوش الغاب ، ووحوش البشـر ، وقسوة الطبيعة . وتذهب فريسة حـروب طائشة آثمـة .

أتصور الذين نَعَتَهم التاريخ بأنهم كانوا يُسخَّرون لصيد الضفادع من الغدران كي لا تقلق الأمير الإقطاعي في نومه ! !

ويُجلدون بالسياط إذا نهروا كلاب سادتهم التي تخرب حقولهم .

ويساقون إلى المـوت إذا عارضوا رغبة الملك في افتراع بناتهم والسطو على زوجاتهم .

أتصور المشاهد الدامية ، وأسـأل نفسي : كم من القرون المليئة بالمشقة والفـزع والهول ، قطعتها الإنسانية مشياً على الشوك ، وعلى الجليد ، وعلى الأشـلاء حتى جعلت الإنسان سيد نفسه ، ورفعت فوق حطام قاتليه ــ لواءه المعقود بالكرامة والعـزة ، وشادت حضارة فاتنة سامقة مطردة نحـو التفوق والكمال، وهيأت له وسائل العيش في موادعة وحب وسلام ؟؟

ثم أعود فأقتنع بأنه ليس ثمة ما هو أكثر ضلالا وإثماً من تلك المحاولات الفاجرة التي تبذل لعرقلة الموكب الزاحف . ورده على أعقابه حيث الحـرب ، والظـلم ، والانحطاط ...

وأيَمَّمْتُ وجهي شطر الدين لأنظر هل هو مع الحرية أم عليها وهل يؤازر التقدم الهادف أم الرجعية البلهاء ... ؟ وهل هو صديق السلام أم صديق الحرب ... فإذا هو — يا أصدقائي — نصير متحمس للحرية . وللتقدم ، وللسلام .

ولقد رأيتم من أحاديثنا السابقة . كيف يقف الدين مع الحريات السياسية للناس فيزكي حق الشعب في اختيار حاكمه اختياراً لا يشوبه ضغط ولا إكراه . ويزكي حقه في تقويم الحاكم وعزله إذا انحرف وجار .. ويمكّن الإنسان من ثمرة عمله وإنتاج يده تمكينا ينفي عنه التسخير والاستغلال ...

وها نحن أولاء ، نبصره في إعجاب شديد وهو يدعو لحرية النقد ويحرض عليه .

وحين يسخر سخرية فاضحة من الذين يقولون :

« إنَّا وجدْنا آباءنا على أمَّة وإنَّا على آثارهم مُقتدون » .

وحين ينادي بحرية المعارضة ، فيقول :

« إذا رأيتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يَعُمَّكم الله بعذاب » .. !

وحين يبارك حريةًا لفكر وانطلاقه ، فيقول الله للناس ؟

« سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلْق » .

ويقول الرسول لمعاذ :

« بم تحكم إذا عرضت لك قضية ليست في كتاب الله ولا في سنة رسوله .. ؟ » حتى إذا أجاب معاذ قائلا — أجتهدُ رأيي لا آلو .. يضمه الرسول إلى صدره وهو يقول : «الحمد لله ...»

ولما استعمل أصحابه عقولهم استعمالا أثار بعض الشك في نفوسهم ذهبوا إليه « عليه السلام » في تفزع وأسى ، فإذا هو يقول لهم في تهلل وبشر :

— « لا تجزَعوا ، هذا صريح الإيمان — نحن أحق بالشك من

إبراهيم إذ قال : رب أرِني كيف تُحيي الموتى ... ؟ قال أوَلمْ تؤمن . ؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي » .

وهكذا ، وقبل أن يظهر ديكارت وفلسفته بقرون بعيدة ، احترم ابن عبد الله العقل ، وجعل الشك طريقاً إلى المعرفة ، ومنفذاً إلى اليقين .

أما السلام فبينه وبين الدين رحم لا تنقطع أبداً ..

هـذا هو المسيح يقول :

« إني أريد رحمةً لا ذبيحة ...
من أراد أن يُخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً ... »
« طوبى للوُدَعاء . لأنهم يَرِثون الأرض .. طوبى للرحماء ، لأنهم يُرحمون .. طُوبى لصانعي السلام .. لأنهم أبناء الله يُدْعَوْن ، » ! !

وهذا هو محمد يُسأل عن أفضل الأعمال فيجيب :

« بَذْلُ السلام للعالَم » ...

ويدمدم على دعاة الحرب والدمار بتعاليمه المضيئة التي تجعل السلام عقيدة ...

اسمعوه يقول :

« والذي نفسي بيده لا تؤمنوا حتى تَحابُّوا ... ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفْشوا السلام بينكم »
« ألا أخبركم بأفضلَ من درجة الصيام والصلاة ؟ إصلاحُ ذات البين » ...

ولكي يؤكد هذا المعنى في أخلاق الفرد قال :

« إذا مرَّ أحدكم في مجلس أو سوق وفي يده نَبْلٌ فليأخذ بنِصالِها ، لا يخدش بها أحداً » ...

ثم لكي يؤكده في أخلاق الأمم نادى بقول الله :

« يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

نعم . لتعارفوا ... لا لتحتربوا وتتصارعوا .

أما القتال في الإسلام فقد كان ولا يزال موثقاً بضرورة الدفاع عن النفس ، مقيـداً بقول الله سبحانه :

« قاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين » .

وهو بهذه المثابة محصور في أضيق الحدود لا يهدف إلى إفنـاء الجماعات عن طريق الذرة وحرب الجراثيم . بل يفرض على الناس ألا يجاوزوا في قتالهم مكان المعركة ، ويدعوهم لأن يكونوا ــ إنسانيين فيقول :

« لا تقتلوا امرأة ، ولا وليداً . ولا تحرقوا زرعاً ، ولا نخيـلا ، ولا تنهبوا ولا تمثلوا . واجتنبوا الوجه لا تضربوه . »

لقـد وقع الضمير السياسي للعـالم في مأساة ... وأصبح شعاره اليوم قـول الشاعر :

قَتْلُ امـرئ في غـابة ... جـريمـة لا تغْتَفَـر
وقَتْلُ شـعبٍ كامـلٍ ... مسـألةٌ فيهـا نظَر ! !

فما أشد حاجته إلى كلمة سواء، تحيل صحراءه المجدبة واحة خيرة وديعة... أيها السادة ــ إننا الآن نعيش في ثورة نقلتنا خطوات إلى أمـام .. ومن حقنا بعد هذه الوثبة أن نتمتع بسلام طويل المدى في الداخل والخارج حتى ندعـم وثبتنا ، ونرعرع نهضتنا .

فلنتشبث بالسلام إذن ، ولنربأ بأنفسنا أن نكون علفاً لحرب عـدوانية لا هدف لهـا ، ولا شرف فيهـا .

ولنلخّص حياتنا ونهجنا في هـذا الشعار :

أحـرارٌ دائماً ...

مع السلام أبـداً ...

حق الشعب في المساواة

كان الناس أمة واحدة ، يسعدون معاً ويشقون معـاً ، ويدأبون جميعاً ، حتى اقتحمت حياتهم عوامل لم يكن منها بد ؛ فقلبت الأوضاع ونأت بهم عـن الرشد .. وأتى على البشرية حين طويل من الدهر ، وهي تتراكض في وجود تعس مظلم . يَحقِر الأعـزُّ منها الأذل ... ويلتهم القوي فيها الضعيف .

وجـاءها الأنبياء ... ومر بهـا الفلاسفة والرواد ، فدقوا جميعاً طبول المساواة . وأخـذوا بيد الإنسـان المستعبد لشهوات القاهرين ومصالحهم نحـو التحـرر والخلاص .

وقف « بركليز » يقول :

« سنفتدي بالحياة نظامنا الذي ارتضيناه ، نظامنا الذي يهـدف لتحقيق مصالح الأكثرية لا الأقلية ؛ والذي يجعل أساس التفاضل بين الأفراد ، الموهبة والعمل لا الثروة والجاه » .

واقترب عيسى عليه السلام من الفقراء والمستضعفين ليرفع معنويتهم المنهارة فقـال لهـم :

« ما أسعدَكم أيها الفقراء فلَكم مَلَكَة الله » .

وأراد أن يجرئهم على المترفين الذين لم يكن أحـد يستطيع أن يرفع بصره إلى مواطىء أقدامهم فناداهم : ـــ

« ما أشقاكم أيها الأغنياء فإنكم قد نلتُم عزاءكم . إنَّ ولوج الجمل في سَمِّ الخياط لأسهل من دخولكم ملكوتَ الله » ! !

ثم استدار بوجهه نحو الذين كانوا عوناً للانانية والاستعلاء فصاح فيهم :

« يامن تحبون الصدارة في المجامع والتحيات في الأسواق ويل لكم ..
يا من تضعون على عواتق الناس أحمالاً لا يضاق حملها وأنتم
لا تمسونها بأصبعكم ويل لكم » .

ثم أعلن أهدافه الإنسانية في عزم أكيد فأخذ يتلو كلمات أشعياء :
« إن الرب مسحني لأبشر المساكين . أرسلني لأعصب منكسري
القلب . لأنادي للمسبيين بالعتق . وللمأسورين بالانطلاق ..
لأعزي كل النائحين » .

وعلى قمة التطور الديني وقف محمد عليه السلام يؤكد المساواة بين البشر
جميعاً فيقول :

« الناس سواسية كأسنان المشط . لا فضل لأحد على أحد
إلا بالتقوى . كلكم لآدم . وآدم من تراب » .

وحمّل نفسه كل تبعات هذا المبدأ ، والتزمه التزاماً سيطر على فكره ،
وسلوكه فهو حين يدخل على أصحابه ويقومون له ينهاهم قائلا :
« لا تقوموا ، كما تقوم الأعاجم . يعظّم بعضهم بعضاً » .

وهـو حين يناديه أصحابه ـ أنت سيدنا وابن سيدنا ، يزجرهم قائلا :
« لا يستهوينّكم الشيطان فما أنا سيّد أحد . إنما أنا عبد
الله ورسوله » ..

وهو حين يسمع أحد صحابته ينابذ أخاه قائلا له : يابن السوداء . يغضب
حتى تنتفض عروق وجهه ويقول : ـ

« ويحك يا أبا الدرداء ... أردّة إلى الجاهلية ؟ ! ليس لابن
البيضاء على ابن السوداء فضل . » ! ! !

وهو يوم يخرج مع أصحابه في غزو أو سفر يعمل مثل ما يعملون . فإذا قالوا
له : نحن نكفيك ذلك يا رسول الله ... أجابهم :

« إني أكره أن أتميَّز عليكم » ..!!

ولقد زاره يوماً وفد من أعيان قريش وكبرائها مظهرين استعدادهم للإيمان به والإصغاء له بشرط أن يجعل لهم يوماً وللفقراء يوماً ... قائلين — ما كان ينبغي لصعاليك مكة وعبيدها أن يجلسوا منا بمنزلة الأنداد والقرناء ... فإذا الوحي يدمدم بقول الله — :

« واصبرْ نفسَكَ مع الذين يَدْعون ربَّهم بالغَداة والعَشِيِّ يُريدون وجهه ، ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم ، تُريدُ زينةَ الحياة الدنيا ، ولا تُطعْ مَن أغْفَلْنا قلبَه عن ذِكرِنا واتَّبَع هواهُ وكان أمرُه فُرُطاً ... »

وهكذا حملت النبوة الهادية مشعل المساواة من زمن بعيد وحَضَّتْ عليها بنفس العزم الذي حضَّت به على عبادة الله ... وما كان بوسعها ألا تفعل ؛ فالدين الذي لا يقدس المساواة يفقد ذاته لأن غاية الدين الأولى إنهاض الكرامة البشرية ، ولن يتأتى ذلك وفي الناس آلهة وعبيد .

ولا شيء يعدل حاجة الناس إلى المساواة ، . سوى حاجتهم إلى المساواة.. فالشعور بالدّونيّة يمسخ الملكات الإنسانية ويشوه الرقي البشري .

والإحساس بالتمايز الظالم والتفاوت الآثم يقسم الأمة على ذاتها ، ويجعلها نهب خاطرات الحقد ونوازع الانتقام ، لا سيما إذا كان هذا التمايز أمام القانون ؛ حيث ينجو الأشرار الذين يسرقون الملايين ليشيِّدوا بها حياة باذخة . ويسجن الفقراء الذين يسرقون الملاليم ليدفعوا بها مجاعة محققة . !

هنا يجلجل دين الله على لسان أحد رواده الشجعان :

« والذي نفس محمد بيده ، لو سرقت فاطمة بنت محمد ، لَقطع محمد يدها » ..!!!

وهنا أيضاً تعمل المساواة داخل حدودها المشروعة دون أن تتعداها فلا تَزِرُ

وازرة وزر أخرى، ولا يؤخذ زيد بجريمة عمرو وكل امرئ بما كسب رهين.

أيها السادة إذا كان لله ظل في الأرض، فظله المساواة؛ لأنها العدل ولأنها الحق. ولأنها السلام .. وليست المساواة أن يتساوى الناس فيما يأكلون وفيما يلبسون. بل أن يتساووا في الحقوق والواجبات وفرص الحياة جميعها.

إن المساواة ترفض أن يكون الهناء والرخاء في جانب. ويكون الحزن والمسغبة في جانب آخر، ترفض أن تكون الحرية والسعادة لقوم، وتكون العبودية والهوان لآخرين.

ترفض أن تملك عصابة كل وسائل الإنتاج، وتذهب ملايين الناس وقوداً لهذا الإنتاج .. !!

ترفض أن يكون الطريق إلى البرلمان: العصبية والنصاب العقاري أو المالي. وأن يكون الطريق إلى المناصب: النفوذ والجاه .. !!

وبعبارة فاصلة:

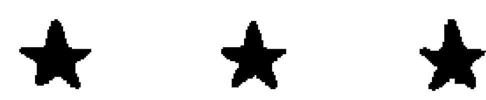
ترفض الظلم: لأنه ضلال.

ترفض التمايز، لأنه غرور.

ترفض التعصب. لأنه انقراض.

فلتكن المساواة عقيدتنا — أفراداً: ومجتمعاً، ودولة.

وتعالوا نقض أيامنا على هذه الأرض سواسية وإخواناً.



حق الشعب في المعارضة والمقاومة

لا أعرف فارقاً — أيَّ فارق — بين حق الشعب في المعارضة : وحقه في التنفس . فكلاهما عملية لابد منها لتأمين الوجود ، واستمرار الحياة ...

ولقد أودع الله في كل إنسان قدرة على التمييز . وجعل له عقلاً يلهمه ويهديه .

وتفاوت العقول يقتضي بالبداهة تفاوت الآراء ..

ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولكنه وهو يُعدّهم لحياة لها قيمة . تركهم يدركون بقوة العزم والجهد والتفاعل والتجربة الغاية المنشودة من خلقهم ، ألا وهي الصعود بإنسانيتهم إلى ذروة الكمال الميسور .

والقيمة الأخلاقية لحياتنا تتمثل أولا وقبل كل شيء في حبنا الحق واستجابتنا له ..

والذين يحبون أنفسهم أكثر مما يحبون الحق . هم وحدهم الذين ينكرون على الناس إبداء آرائهم ، والتعبير عن أنفسهم ..

وهؤلاء يحاربهم الدين بنفس العزم الذي يحارب به الكفر . ويرى فيهم تعبئة ملحدة ضد التقدم والارتقاء ..

وإننا لنستطيع أن نقول : إن رسل الله جميعاً بدأوا زعماء معارضة . وقادة مقاومة ، وحين يقص الله علينا من أنبائهم ، يفتح أعيننا على الظروف التي اقتضت إرسالهم .. وهي في مجموعها تعطيهم صورة الثائر المنقذ الذي جاء ليقول « لا » .. وليقود الجماهير ضد الجهل وضد الظلم ، وضد الانحطاط . حتى لو كان الجهل جهلها .. والظلم ظلمها .. والانحطاط انحطاطها ..

فهذا إبراهيم — عليه السلام — يسأل سادة قومه :

« ما هذه التماثيلُ التي أنتم لهـا عاكِفون .. ؟ »

« قالوا : وَجَدْنا آباءنا لهـا عابدين » .. !

« قال : لقد كُنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين » ..

وحين تبلغ المعارضة مداها دون أن تردع قوى التعصب والعناد ، ينتقل إبراهيم إلى طور آخر من أطوار الصراع ، هو طور المقاومة فيصرخ بين ظهرانيهم :

« والله لأكِيدَنَّ أصنامكُم بعد أن تُولُّوا مُدْبِرين » ..

ثم يحمل معوله وينهال عليهـا حتى يجعلها جُذاذاً ..

وحين يساق إلى النار التي أججوها لإحراقه لا يجزع ولا يُروَّع بل يتحداهم في سخرية ويقول :

« أفٍّ لكُم ولِما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون » .. ؟ !

أليس هذا مشهداً فذاً يجعل مبدأ المعارضة والمقاومة شعيرة من شعائر الله ؟

وهـذا نوح ينـادي كبراء قومه :

« اتقوا الله ، وأطِيعون » ..

فيجيبونه :

« ما نَراكَ إلا بشـراً مثلَنا .. وما نراك اتَّبعك إلا الذين هم أراذِلُنا » .

يعنون الجماهير الفقيرة الكادحة .. فيجيبهم :

« إن تَسْخَرُوا مِنَّا، فإنَّا نَسْخَرُ مِنْكُم كما تسْخرون » ..

ويفتح الله بينه وبينهم ويهبط إلى الأرض بسلام من ربه وبركات عليه وعلى أمم ممن معه ، ويَدْهَمُ خصومه الموج ليصيروا من المغرقين ! !

وذلكم شعيب يتحدى الذمم الناهبة العطنة فينادي أصحابها .

« أوفوا الكيلَ ولا تكونوا من المخسرين، وزنوا بالقسطاس المستقيم . ولا تبخسوا الناسَ أشياءَهم ولا تعثَوا في الأرض مفسدين » ..

فيجيبونه :

« إنما أنت من المسحَّرين . ما أنت إلا بشرٌ مثلنا . وإنْ نظنُّك لمنَ الكاذبين » ..

فيرد عليهم في ثقة بالمصير :

« اعملوا على مكانتكم إني عامل ؛ فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب . وارتقبوا إني معكم رقيب » .

وهكذا تتوالى مشاهد التطور والتحرر ، تقاوم البلى والعفَن . ويقوم بها في مشقة فادحة وكبَدٍ أليم : أنبياء الله المصطفون ورسله الأخيار .

وجاء دور محمد، فشحذ نزعة المعارضة وإرادة المقاومة وشدَّ زنادَهُما إلى أقصاه .. وقف يتلو على الناس آيَ الله فيقول ، وكأنه يرتل نشيداً ثورياً :

« وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرِجنا من هذه القرية الظالمِ أهلُها واجعل لنا من لدُنكَ ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » .. ؟

وليس ذلك فحسب ، بل إن الرسول عليه السلام ليبشر بفلسفة جديدة في منتهى الروعة والإثارة فهو لا يرى المقاومة المشروعة عملا من أعمال التقويض والهدم بل عملا من أعمال البناء والانتصار للحياة .. اسمعوه يقول : انصر أخاك ظالما أو مظلوماً ، فإذا سئل كيف تنصره ظالما أجاب : ردوه عن ظلمه ، وهكذا وضع : انصر مكان قاوم .. واعتبر المقاومة العادلة انتصاراً للأهداف الإنسانية الخيرة .. وشيء آخر ، فهو يعتبر المظلوم الذي يصبر على الضيم ، ظالما يحمل

من الأوزار مثلما يحمل ظالمه سـواء بسواء . ويبشر المستضعفين الذين يسالمون كبراءهم وينحنون لهم بمصـير أليم .

وينقل عن ربه صورة للفريقين إذ يقوم بينهما حوار فاشل يلقي كل منهما تبعة الحيف على الآخر وينتهي بضراعة الذين أقاموا على الضَّيْم قائلين :

« ربَّنا إنَّا أطَعْنا سادَتنا وكُبراءَنا فأضلُّونا السَّبيلا . ربَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذابِ والْعَنْهُمْ لَعْناً كَبيراً » .

فيجيبهم الله في حـزم عادل :

« لكلٍّ ضِعف » أي لكم عذاب ولهم عذاب ..

ولقـد كان سلوك الرسول في تقبل النقد والمعارضة عجبـاً . وأكثر من عجب .. انظروا ..

وقف يوماً يوزع مال الله على الناس ، وأخذ أعرابي نصيبه . فاستقله .. ثم مدّ يده بالسوء وجذب الرسول من طوق ثوبه جذباً عنيفاً وقال :

يا محمد . زدني فليس المال مالك ولا مال أبيك ..

واستلَّ عمر سيفه صائحاً .. دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق .

فابتسم الرسول في حنان رطيب وقال :

« دعه يا عمر .. إنَّ لصاحِبِ الحقِّ مَقالا » .

وكان عليه السلام يقول :

« إذا عَجزَت أمتي عن أن تقول للظالم ، يا ظالم ، فقد تُوُدِّعَ منهـا » .

أيها السادة .. عارضوا الاستبداد ، أينما يكون ، وإذا لم تجِدْ المعارضة ، فقاوموه ، واعلموا أن يـد الله فوق أيديكم . تميط عنكم العجز وتَحْسِمِ الهوان [1] .

---

(١) اذيع هـذا الحديث والاحاديث الخمسة السالفة غداة قيام ثورة الشعب في ٢٣ يوليو ، توكيدا لحق الامة في دحض الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي وتصفية ركائزهما من عرش وإقطاع واستعمار .

هـذا المـال

يقص علينا حكيم بن حزام صاحب رسول الله هذا الحديث :

ذهبت إلى رسول الله يوماً ، وسألته مالاً فأعطاني ، ثم سألته ، فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني ... ثم قال :

« يا حكيم : إن هذا المال خَضِرٌ حُلْو ، فمن أخذه بسخاوَة نفس ، بُورِكَ له فيه ، ومن أخذه بإشراف نَفْسٍ لَم يُبارَكْ له فيه ، وكان كالذي يأكل ولا يشبع » .

ليس رسول الله هو الذي يزجر الناس عن الحياة . ويذودهم عن الثراء فلطالما كان يسأل الله في دعائه أن يرزقه العفاف والغنى . ولطالما تعوذ بالله من الكفر والفقر . حتى سأله أصحابه يوماً قائلين :

يا رسول الله نراك تقرن الكفر بالفقر ، أهما توأمان ؟ قال : نعم هما توأمان .

وكان يقول في مناجاته ربه :

« اللهمَّ أصْلِحْ لي دُنْيايَ التي فيها مَعاشي » .

وكان يدفع أصحابه إلى تمرس العيش والحياة بكلتا يديه . فنراه مثلا يأمر رجلا جاء يسأله . أن يذهب فيبيع من متاعه المتواضع ما يساوي درهمين . ثم يأمره أن يشتري بأحدهما طعاماً لأهله وبالثاني قدوماً يحتطب به حتى لا يكون عالة على مجتمعه . فيفعل الرجل . ويغنيه الله من فضله .

وأيضاً ليس الرسول عليه السلام بالذي يدعو الناس للتكالب على الثروة تكالباً يفقدهم إنسانيتهم ، ويشحذ ضراوتهم ، ويلاشي من نفوسهم كل شعور بفضائل الحياة وواجباتها . ولكنه يختار للناس طريقاً وسطاً ، ويروض غريزة

التملك فيهم على الاستقامة والأناة ويدعوهم ليعيشوا في الأرض من غير بغي ، ويمشوا في مناكبها مشياً سوياً لا نزق فيه ولا سعار .

وإنه ليصف المال بما سمعتم ، "خضر" حلو ، له رعرعة ولذة ، يسر العيون ويفتح الشهيات ، وشيء فيه مثل هذه الدواعي الآسرة الفاتنة جدير بالناس أن يقبلوا عليه في أناة ورفق .

وهو عليه السلام يقرر حقيقة خالدة هي : أن الذين يطلبون المال وينشدون الثروة بسخاوة نفس أي في ذمة واعتدال ، يبارك لهم فيه ، أما الذي يطلبه في شراهة وجشع فهو كالمبطون الذي لا ينتفع بما يأكل من طعام .

كان لبعض الأسر خادم مردت على سرقة الأطعمة من مطابخ الجيران ولما استيئس ذووها من أمرها ساقوها إلى نيابة الأحداث ، وهناك تسلمها مكتب الأحداث للخدمة الاجتماعية وعرض الفتاة على طبيب ، ليكشف عن البواعث المرضية لهذا الانحراف .

هنالك وقف الطبيب على السر ، فقد كان جوف المسكينة مرتعاً لديدان الأسكارس ، وهي ديدان نهمة تسطو على كل طعام يدلف إلى المعدة وتذهب منه بنصفه على الأقل ، ولم يكن عجباً أن تعود الفتاة بمجرد علاجها من هذه الديدان شريفة النفس عفة اليد .

هناك ديدان شبيهة بديدان الأسكارس تعايش بعض الضمائر المريضة وتلتهم كل ما في هذه الضمائر من زاد ، وفضائل ، ومثل .

ثم تتركها ضامرة ممحلة ، وليس بها شيء من البر ولا من القناعة ، ولا من الإيمان ، وإذا انطفأت هذه الأضواء في قلب رجل تاه دليله ، وإذا تاه دليله استحوذ عليه القلق والهلع فيجري وراء المال يجمعه ، حاسباً أن المال وحده هو المأمن والملاذ ...

مسكين صاحب هذه النفس .. إن في أقصى نفسه آفة ترعى نعيمها وتلتهم

ثقاها حتى تدعها كالهشيم . ولكي ينهض الجماعون للمال من هـذه البخرة المضروبة عليهم لا بد لهم من علاج . وعلاجهم بأيديهم . أن يضعوا أموالهم في خدمة الجماعة وأن يسعوا إليها في قصد . وقد تبدو لهم هذه المحاولة سفراً بعيداً بسبب ما ران على قلوبهم من كزازة وجشع . ولكن لا بأس ، فالخطوة الأولى هي وحدها العقبة وهي المشكلة فليبدأوا بها . إن السعادة والسكينة من ورائها .

أيها السادة ــ مرة أخـرى أقول ــ إن الإسلام لا ينهاكم عن تنمية الثروة وإربائها . ولكنه يريد لكم مع المال الوفير ، سكينة النفس واستتباب العقـل ؛ وقديماً قال حكيم :

« يا ربّ خلِّ مباذخ الحيـاة الدنيا تحت أقدام الحمقى . وأعطني عقلا غير مضطرب » . !

والذي يُكِبُّ على وجهه في جمع المـال ، ويجري وراءه كالمسعور لـن يتأتّى له أبد الدهر أن يجد سكينة نفسه ؛ إن أسـوأ الرذائل عاقبة . تلك التي تتنكر في ثياب فضيلة ، وكثير من النهمين يقنعون أنفسهم بتعلات كثيرة واهية . بيد أن الحقيقة في أعماقهم تصرخ ــ إنكم لكاذبون ؛ وهذه الوصاة الكريمة التي تضمنها الحديث ، تمثل أحد المبادىء الرشيدة في العلاقات الإنسانية .

ذلك أن الفرد الذي تستعر في كيانه رغائب الاكتناز تختفي من نفسه معالم الإنسان المتمدين ؛ وينطلق كالوحش السائب غير مقيد سلوكه بقوانين المجتمع ولا اعتباراته ؛ طاغياً على حقوق الآخرين من الناس . ومثل هذا العمـل جريمة لا ضد صاحبه فحسب ؛ بل ضد الجماعة أيضاً لأنه يحرم أعضاءها من فرص رغيدة كانت ستتاح لهم أو لبعضهم لولا هذه الآفـة المتبدية في صورة إنسان .

إن المال في يد الرجل العاقل المستأني ؛ خادم طيب .. ولكنه مـع المتهالك المتطاول ، سيد مستبد .. يتحكم فيه ويسخره ، ويمحق كل راحته وكل كرامته ؛ وما كان الضنك الذي يعانيه الناس إلا وليد عصابة آبقة من الناس تملكتها رغبة

جامحـــة في الاقتناء ، فذهب أصحابها يجمعون المـــال بأصابعهم المتشبثة لا يعنيهم من حلال جـــاء أو من حـــرام .

سادتي ــ ذهب سعد بن أبي وقاص إلى رسول الله عليـــه السلام وقـــال يا رسول الله : أوصني وأوجز ؛ فأجـــابه النبي :

« إياك والطمع ، فإنه فقر حاضر » .. ؟ !

فانتفعوا بهذه الوصية وتعلموا إنكار الذات ، ولا تشوهوا حياتكم بالقلق الذي لا يشبع ، والنهم الذي لا يقنع ؛ ولنرتفع بكرامتنا إلى المستوى الـــذي نطل منه على المال ؛ فنراه وسيلة لا غـــاية . وخادماً لا سيداً .. ولنعتبر بمصارع العدائين الـــذين يلهثون وراء الثروة حتى تقطعت أنفاسهم ؛ فلا هم أدركوها ولا بقيت لهم حيـــاة .

إن أولئك المعتدلين في رغباتهم الذين يسيرون إلى الثروة على صراط مـــن الفضيلة والأمانة والاتئاد ، هم وحـــدهم الجديرون بحياة حميدة نافعـــة ليس فيهـــا دمـــوع .



أناقة النفس

سيدتي :

أنت تحرصين على أناقة ثوبك ..

وتحرصين على أناقة تكوينك ..

وتحرصين على أناقة منزلك .. وليس في هذا ما يضيرك أو يسيء إليك ، فالله جميل يحب الجمال ، ويحب النظافة ..

وإنما يضيرك أن تنسَيْ أجلَّ ألوان الأناقة وأزكاها .. تلك هي أناقة النفس .

وأناقة النفس فضيلة تنقص الكثيرين منا ـ نحن الرجال والنساء . بيد أن هذا النقص يبدو في المرأة أكثر وضوحاً ، لأنها أكثر إشراقاً .. وكلما توهج الضوء ، التمعت النقيصة ، ووضح العيب ..

وأناقة النفس ـ كذلك ـ ليست شيئاً يوجد على قارعة الطريق ولا سلعة تباع في المتاجر والحوانيت ، ولا رحيقاً نستحلبه من أثداء الأمهات .

بل هي ثمرة رياضة روحية ، ودأب عقلي وأخلاقي ..

نعم .. هي ثمرة استجابة واعية ، تجعل من الرقة الواهنة ، إخلاصاً حياً ـ ومن الثرثرة الفارغة ، معرفة نابضة ، ومن الوجود المهمل ، حياة نافعة .. والمرأة التي تبلغ هذه المنزلة من الرقي النفسي ، هي التي تهز المهد بيمينها والعالم بيسراها .. وتستطيع وحدها ـ دون الأخريات ـ أن تلهم الحياة نبوغها وتقواها ..

سيدتي ..

إن الوطن في محاولته الجديدة يريد منك أن تهبيه مواطناً زاكي النفس .

فالفساد الذي تغشَّى حياتنا ، وخيَّم عليها كل ذلك الدهر الطويل لن تلغيه القوانين ــ ولكن تلغيــه الإرادة المنبعثة من أنفس أنيقة ، نظيفة ، مترفعة ، تأنف الإسفاف ، وتسمو فــوق الصغار .

ولن تستطيعي أن تعاوني ولدك على إنهاض شخصيته ، وترقية نفسه ، إلا إذا سبقتِـه إلى ذلك ، فكنت ذات شخصية ناهضة ، وروح مضيء ..

وإنك لقادرة على أن تحملي نفساً أنيقــة ، بمثــل قدرتك على أن ترتدي الثوب الأنيق .. ولن يتطلب الأمر منك مشقة ولا عُسْراً ..

إنما يتطلب إيماناً بحتمية الظفر بهذه الفضيلة .. إيماناً بأن أناقة الروح أدعى للإغراء المهيب ، والإجلال الودود من أناقة الثوب .. إيماناً بأن الحياة قد ضاقت ذرعاً بعارضات الأزياء .. ومضت تتلَمَّسُ في المرأة الجديدة والفتاة الجــديدة روعة الروح ، وجلال الهدف ، واستقامة الطريق ..

أعرف نساء كثيرات ، تحيط بالواحدة منهن هــالة كاذبة من ضوءٍ باهت مصنوع .

يسر منظرها الأعين بادىء الأمر ، حتى إذا تكلمت فضحت نفسها فإذا في رأسها الذي كان يبدو فاتناً ، جمجمة "خَرِعَة" غبية .. وإذا وراء صدرها الذي كان يبدو ودوداً . قلب مُفعم بالسوء والسواد وهكذا تنطفىء الهــالة . ويرتد ضوؤها الشاحب ظلاماً في ظلام .. ! !

ذلك ، لأن الضوء لم يكن قادمــاً من النفس ، لم يكن منبعثاً من الروح والأعماق ، بل كان مجلوباً من الخارج . لا تمــده عِظمة باطنة .. ولا يمسك به تيــار الفضائل الكامنة ..

والوطن الذي يَزهَل بهذا الطراز من النساء يُبتلى بشر ما يمزقه فالمرأة نصف الأمة وعليها أن تفكر كما يفكر الرجل ، وتعمل مثل الذي يعمل ، وتضرب في كل مناكب الأرض بعزم بصير ، وساعد قدير ..

ولن يتأتى لهـا ذلك . وهي مشغولة بزخرفها .. تاركة عقلهـا يموت من الجوع . وروحها يلهث من الظمأ ..

نحن اليوم بحاجة إلى الفتاة التي تعنى بعقلها أكثر مما تعنى بجسمها .

وترى في حفيف أوراق كتاب تحمـله وتطالعه ، جرساً أعـذب وأنغم من وَسْوَسة الحلي وصليل الذهب ، وتَشَمّ من تراب الأرض ومن دخان المصانع عبـيراً ، دونه كل العطور التي تمـلأ معاطسها ..

وتشغل جميع وقتها بإعـداد نفسها ، وإمداد أمتها ..

وأيضاً .. في حاجة إلى السيدة التي تفعل مثل ذلك ..

لقد روى التاريخ عن فاطمة بنت النبي عليه السلام أنها كانت تملأ اللحظة العابرة من حياتها بالعمل والحياة فكانت — في وقت واحد — تدير الرحى بيدها ، وتداعب مهـد الحسين برجلها ، وتتلو القرآن بلسانها ، وتفسره بقلبها ، وتبكي من خشية الله بعينيها .. ولو أسعفها زمانهـا بأكثر من ذلك من وسائل الدأب والجـد ، لأقبلت عليه في شجاعة وغبطة ..

وها هي ذي — مدام كوري — معجـزة إنسانية خالدة تتلألأ بين بنـات جنسها ، وتناديهن أن كل شيء ممكن .. ومن سار على الدرب وصل .

ماذا فعلت مدام كوري — أيتها السيدات — حتى اقتعدت من التاريخ أعلى منائره وأبراجه . لا شـيء سوى الإيمان بنفسها .. وما كان لها أن تؤمن بنفس مريضة ، محطمة ، مظلمة ، عطنة .. لذلك كانت خطوتها الأولى — أن تثقف نفسها ، وترعاها ، حتى إذا تألقت فرضت عليها إيماناً بقدرتها وثقـة بجلالها ..
وهذا هو ما تدعوكم إليه مصر الحديثة ..

أن تضعن الوداعة مكان التصنع •• والبساطة مكان التظاهر •• والإيمان مكان الغرور •• والحماس مكان الترهّل •• والعمل موضع اللهو •• والحب بديل الغيرة ••

وأن تقفي أمام نفسك ،أكثر مما تقفين أمام المرآة ••

وأن تجعلي لحياتك غرضاً سامياً ، وهدفاً نبيلا ••

إذا فعلت ذلك ، كنت تلك الأم ، التي تخلق أمّة ••

وإذا لم تفعلي ، فأنت يا سيدتي مهما اصطنعت من زخرف وزينة حطام ••

"حطام" يطفو فوق العُباب ••

* * *

سيري مع القافلة

سيدتي ..

منذ ثمانين عاماً ــ تقريباً ــ تقدمت فتاة أمريكية إلى غرفة التشريح تحمل لأول مرة في تاريخ المرأة مبضع الجراحة .. تقدمت لتشهد كبير أطباء «رُوزنبرج» يومئذ، وهو يقوم بتشريح جُثة لرجل .

فغر الحاضرون أفواههم من الدهشة، وازدحمت على وجوههم المشمئزة كل علامات الوجوم، والمقت، والاحتجاج ..

وجابهها كبير الأطباء بقوله :

ــ ليس يَجمُل بامرأة أن تشهد تشريح جُثة رجل .. !

فأجابت من فورهـا :

ــ أيُّ فارقٍ بينه، وبين أن يشهد رجل تشريح جثة امرأة ؟ !

ومضى الطبيب يُمعن في إحراجها، فقال :

ــ إن العلة التي قضت على المريض قد أصابت من أعضائه عورة ..

فأجابته :

ــ إن أعضاء الجسم كلها يجب أن تكون في عيني الطبيب سـواء ..

وبهت الدكتور « بارنر » والتوى لسانه الطويل تحت وطأة المنطق الصارم : والحجة البالغـة .

وفتحت الفتاة الجريئة طريقاً جديداً للمرأة، وللحضارة ..

* * *

هذه القصة، وعشرات مثلها . تصور الكفاح الباسل الذي مارسته المـرأ لتصير شيئاً مذكوراً، ولتأخذ مكانها المشروع في قافلة الحياة .

فهل تستطيعين الآن ــ يا سيدتي ــ أن تسألي نفسك عن مــدى ارتباطك بهــذه القافلة ، أو عن مدى تخلفك عنهــا .

إن العمل ، هو وحــده جواز المرور إلى القافلة والانخراط فيها .

العمل بكافة ضروبه وألوانه ... في البيت ، وفي المجتمع .

العمل من أجل نفسك وطفلك وزوجك .. والعمل من أجل بيتك ووطنك .

إن الأيام التي حكمت على المرأة أن تعتكف في دارها ، وتنطوي على نفسها ، وتنفض يدها من تبعات الوجود لم تكن سوى أعراض غيبوبة طارئة ألمت بالحياة وتغشت الإنسانية ثم ذهبت ولن تعود . وإن مصاير الأمم تقررها اليوم : الطاقة الكامنة في داخلهــا ، والعمل المبذول في سبيلها ، وأنت تمثلين نصف الطــاقة وتحملين نصف الأمانة . وفي يديك إذا شئت أن تتحولي إلى كارثة محققة : متى استسلمت للبطالة أو أضعت طاقتك الزاخرة في عمل تافه صغير .

وهذا الحديث موجه للفتيات اللاتي يستقبلن الحياة . وللأمهــات اللاتي صاغ لهن الماضي نمطاً كسولا من حياة رتيبة بحيث لم يعُد بوسعهن أن يجــدن لتغييره ســبيلا .

أما الأوليات ، فلكي ينسجن بأنفسهن وهُنَّ في بداية الطريق حياة نافعــة مجيدة متعددة الآفاق والإمكانيات .. وأما الأخريات فلكي يساعدن بناتهن على أن يكنَّ لبنات حية في البناء الجديد ، وأن يجئن استئنافاً لشباب العقل وشباب الروح ، الذي تغضَّنَ في أمهاتهن قبل الأوان .

يجب أن تشحذ الفتاة الجديدة جميع إمكانياتها حتى تؤدي ضريبة الهــواء الذي تتنشقه من سماء مصر .. والماء الذي نشربه من نيل مصر .. والعبير الذي نشمه من تراب مصر .

ويجب إذا وضعت قدمها على عتبة المدرسة ألا تغادرها حتى تقطع الشوط كاملا .. وحتى تزود من الثقافة بحظ وافر يمكنها من أن تعمل كما يعمل الرجل ، وتكسب كما يكسب .

إن الفتــاة التي تستطيع أن تكون زوجة وكاسبة تسدي لزوجها ، ولبيتها وبنيها أجل الخدمات ، إذ ترفع مستوى دخل الأسرة ، فيرتفع منسوب حياتها .

سيدتي .. إن العمل يجلو الشخصية ويجدد شبابها ، ويجعلك في المجتمع خيراً لا غنى عنه ، بدلا من أن تكوني شراً لا بد منه .

لماذا تنعم الأسرة في البــلاد المتحضرة ، ولا تتدغدغ تحت مطارق الشقاء والفــاقة ؟

لأن الرجل يعمل ويكسب ، والمرأة تعمــل وتكسب ، والأبنــاء القادرون يعملون ويكسبون . حتى طلاب المدارس والجامعات ... يقضون عطلة الصيف في حرف يجمعون بها نفقات العام الدراسي المقبل .

أما هنا .. في بلادنا ــ ، فإن رجلاً واحــداً هو الزوج .. ينوء كاهــله المضنى بنفقات أسرة كاملة عاطلة فيذبل شبابه ، ويهرم عزمه ويموت قبل الأوان مخلفاً وراء ظهره المنقوض سيدة مترهلة من السمنة والاكتناز .

تعلمي كل شــيء ... واعملي أي شــيء .. وإذا كنت بحكم ظروفك غير قادرة على العمل في الوظيفة . فاخلقي لنفسك عملا بالمنزل يملأ فراغك المبعثر ، ويشد أزر ميزانيتك الضحلة الخائرة .

وانفخي في أولادك روح العمــل ... واضربي لهم الأمثال بعظماء البشر الذين كانوا ، وهم يطلبون العــلم ، يجمعون الحشائش من مزرعة ، أو يغسلون الأطباق في مطعم ، أو يبيعون الصحف في الطــريق .. ثم كان جزاؤهم الحــق ومثوبتهم الأكيدة أن صاروا للبشرية أئمة وأعلاماً .

إذا فعلت ذلك أيتها السيدة ، وأنت أيتها الفتاة ، كنت عضواً نافعاً متألقــاً في قافــلة الحيــاة ..

* * *

درس من محمد

في هذه الأيام الحاسمة من تاريخنا ، وحيث تتلفّت ذات اليمين وذات اليسار متطلعين إلى أصدقاء يشدون أزرنا ، ينبعث من أعماق التجربة الإنسانية صوت يقـول :

« إذا لم يكن لك من ذات نفسك صديق ؛ فلن يكون لك في الأرض كلهـا صـديق » ..

وينادينا محمد بن عبد الله من وراء القرون .

« استَعِنْ بالله ولا تعجز ، واعلم أنّ النصر مع الصبر » .

ليس معنى هـذا أن نرفض صداقة الخيرين الشرفاء . وأن نعطي ظهورنا لحياة وللأحياء . ولكن معناه أن نبـدأ في علاقاتنا الإنسانية بأنفسنا ، فنثق بها . نجعلها أهلا لهـذه الثقة بأن تتيح لها كل فرص القوة والعزة والنماء .

إنه لمن العسير بل الممتنع على الذين يفقدون الثقـة بأنفسهم أن يكونوا سيئاً ، أو أن يظفروا من الحياة بشيء .

وفي تاريخ الرسول عليه السلام عبرة تعزز هذا المعنى ، وتجمع عزمنـا على نطة البـدء في طريق الخلاص .

ذلك أن اليوم الذي أرسى فيه محمد قواعد دعوته ، ووقع وثيقة انتصاره ، يكن يوم « الهجرة » حيث نجـا برسالته من هلاك يطارده ولا يوم « بدر » بث أظهره الله على أعدائه وأهال عليهم تراب القليب ... ولا يوم « الفتح » بث جـاء الحـق وزهق الباطل .. ولا يوم طرقت أبوابه بعوث الملوك تنثر

تحت أقدامه ولاءهم ... إنما انتصر محمد ، وفرض عظمته على التاريخ في يوم آخـر وفي مناسبة أخـرى .

يوم كان يغـدو وحيداً ، ويروح فريداً ، والمستقبل المجهول يبدو متجهماً في نهـاية طريقٍ موحشة تعج بالسباع المتربصة ، والكلاب اللاهثة .

يومئذ ، والأمل في الظفر ــ أدنى ظفر ــ كالأمل في بنـاء قصر هائل مـن أشـعة القمـر .. !

يومئذ ، ومحمد أعزل من كل شيء ... من المال ، والسلاح ، والأنصار .

يومئذ ، والساعات تمـر به حزينة مقهورة ، استطاع أن يهمس في سمع الزمن : أن افسح لي بين أيامك طريقاً ؛ فقد قررت أن أسـير .. !

ومن هنا كان محمد رمـزاً عظيما ... ولم يكن مجرد رسول . امتحنته الأيام امتحاناً رهيباً حين وسَّط المشركون عمه أبا طالب بينه وبينهم ؛ فجلس إليـه يقـول :

ــ يا ابن أخي : إن قريشاً تشكو من تسفيهك أحلامهم وشتمك آلهتهم . وهم يعرضون عليك المال حتى تكون أغناهم .. والجاه حتى تكون أشرفهم .. والمنصب حتى تكـون سيدهم .. وأنا أنصحك بالكف عنهـم حتى لا يصيبنا ويصيبك منهم سـوء ..

وانفرجت شفتا محمد ، وتألقت دمعاته على وجنتيه كَحَبِّ الجُمان وقال :

« يا عم : والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يقضيه الله ، أو أهلك دونه .. » ! ! !

قالها عليه السلام . وهو في مثل هدوء المحيط وقوته ..

فالجداول الصغيرة هي التي تثرثر بموجاتها الهزيلة الوهنانة .. أمّا المحيط فيبتلع الأعاصير ، ويطـوي العواصف . ثم يمضي في جـلاله المهيب لا تسمع له لَغطـاً ...

وازدهى وجه أبي طالب وراءَ قناع من السكون ، وتحرك رأسه كمن أصابه دوار البحر ، أو دوار المحيط ...

ورأى المستقبل من خلال الكلمات البلورية ... وشدَّ يده على يد ابن أخيه قائلاً :

« ــ امضِ لما أمرك ربك . ولن أسلمكَ إليهم أبداً » .

ومضى محمد عليه السلام يهدر ، ليس معه بادىء الأمر أحد سوى نفسه ... سوى ثقته بصلابتها ، وجدارتها ، وتقاها .

واليوم ما أشد حاجتنا إلى استذكار هذا الموقف الجليل ... فهناك من يأخذون المسالك على الكاتب الحر ، والحاكم الحر ، والمواطن الحر ... يَعِدونهم ويُمنّونهم . ويحذرونهم من تسفيه أحلام طواغيت الغرب المتمثلة في دولة الاستعمار الرجيمة .

فإذا كان الإنسان المتمرد على هذه الطواغيت الفاجرة حاكماً ، أو رائداً لوَّحوا له بالمال حتى يُشري ... وبالجاه حتى يَشْرف ... وبالمنصب حتى يسود ، فإذا أخفق ذهبُ المعزّ بدا سيفه يُخوِّف ويُرعب ... ولكنه لن يخوف سوى الجبناء الذين ليس بداخلهم أنفس رفيعة أبية يثقون بها ، يعتمدون عليها .

ترى ماذا كان يحدث لو أن ابن عبد الله خضع لإغراء أعدائه أو إرهابهم ؟

كانت رسالة العدل والحق ستفقد نصيراً من أقوى نصرائها .. وكانت خطوات الطغيان ستسرع المسير بقدر ما تبطىء خطوات الحق وتتعثر . ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته . فاختار لها رجلا لا يبيعها بالشمس ، ولا بالقمر ..!!

إن البشرية اليوم تعبُر الطريق إلى مستقبلها على صراط حاد دقيق . وإن أي خيانة أو انحراف من المغامرين والأفاكين قد يهوي بالإنسانية كلها إلى مكان سحيق .. فلننسج على منوال محمد ..

وليقف هذا الشرق الأوسط ــ مفتوح الأعين على كل مؤامرة ، وليحذر أن يكون قنطرة أو مهاداً للطواغيت الباغية .

إننا لا نتخلى عن واجبنا حيال أنفسنا وحدها . إذا نحن هادَنّا الاستعمار أو حالفناه . بل نتخلى عن واجبنا حيال البشرية كلها ... بل نخون هذه البشرية في أثمن ممتلكاتها ، وهي الحرية والحياة ..

سيحاول المستعمرون أن يفتنونا عن تبعاتنا .. سيحاولون أن يضيع في رنين الذهب وضجيج الدولار هتافات ضمائرنا .. سيقعدون لنا بكل مَرْصَد ...

سيجلبون علينا بِرَحَمُوتِهم . ورَهَبوتِهم .. ! !

ومع هذا ففي وسعنا أن ننتصر عليهم ، ونهزأ بهم ، إذا عرفنا كيف نؤمن بأنفسنا ونحترم تبعاتنا ونزهد في مغرياتهم الموبقات . ويجعل كل واحد منا من نفسه رجلا يقول في تحد وإصرار :

ــ « والله . لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، ما تركت هذا الأمر حتى يقضيه الله أو أهلك دونه » .



قاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا

في حديث لنا سبق ، عرضنا فكرة الدين عن الحرية والسلام وبَشَّرْنا بأنبياء الله يصنعون للسلام فُلْكاً مبسوطة الشراع . ونريد اليوم أن نتحدث عن الفارق بين السلام والاستسلام . نريد أن نعرف متى يكون السلام هواناً وجبناً . ومتى يكون القتال سلاماً وأمناً .

وفي الوقت الذي نُدْعى فيه من قاتلينا وجلادينا إلى امتشاق الحسام يصير لزاماً علينا أن نحملق في وجوه الحوادث لنتبينها ونسدد أبصارنا وبصائرنا إلى من حولنا لنميز الصديق من العدو ، والخبيث من الطيب ، والحق من الضلال .

وإنه لَيطيب لي دائماً أن أقف مع الحق ؛ ولو سألتني أمتي أن أختار لها ، ما آثرت عليه سواه .. وهناك من الناس من يرون في التشبث المستمر بصحبة الحق غرارة وسذاجة . ويقولون : هناك مُقابل للحق يجب ألا ينسى .. وهو المنفعة .. !

أصحيح هذا .. ؟

أصحيح أن المنفعة تقابل الحق . ؟

أصحيح أنها أولى من الحق بالتقدير والاعتبار ؟

أما أنا فأرى في كل يقين ، أن المنفعة النقية مرادف للحق ، وليست مقابلا له .. ومن ثم لا أجد مجالا للمفاضلة بين المنفعة والحق لأن المنفعة هي الثمرة الحتمية للحق . هذه سنة الله في كَوْنه وخلقه . ولقد ضرب مثلا للحق والباطل فقال :

« كذلك يَضْرِبُ اللهُ الحقَّ والباطل فأمَّا الزَّبدُ فَيَذْهَبُ

جفاءً وأمّا ما ينفع الناسَ فيمكثُ في الأرض كذلك يَضْرِب الله الأمثــال » .

وفي مجال السياسة الدولية ، ينشب اليوم صراع عسير بين الحق والباطل .. بين الذين يؤمنون بحقوق الإنسان والذين يكفرون .. وحينما نرسل أبصارنا نجـد في روابي أفريقيا ، وعلى نجود آسيا ، شعوباً مستبسلة تريد أن تقـذف بالحق على الباطل لتدمَغَه .

ففي تونس والجزائر ومراكش ..
وفي مصر والعراق وشرق الأردن والسودان ..
وفي الهند الصينية ، والملايو ، وتنجانيقا ، وفيتنام [1] ..

في كل هذه الأقطار وفي أخرى غيرها ، تلتقي الحرية والاستعمار في معركة تكاد تكون فاصلة .. وإنه لحدث مجيد في تاريخ الإنسان ، أن تقف هذه الشعوب العزلاء في وجه عصابة ضخمة عاتية من دول كبرى أعلنت ألوهيتها في الأرض . ومشت في مناكبها بالإثم والبطش تحمل الدولار في يُمناها .. والقنبلة الذرية في يسراها .. ! !

نعم ، إنهـا لمعجزة يصنعها المستضعَفون بأنفسهم لأنفسهم ، حين يعلنون بكفاحهم الجسور استعصاءهم على كل رغبة ورهبة ، وحين يجدون رغم خصاصة عقولهم وبطونهم وَعْياً يرشدهم ، وسواعد تشق لهم الطريق .

يا أيهـا المستضعفون في الأرض ..

يا أيها المناضلون عن حريتكم .. عن أعراضكم .. عن أقواتكم .. عـن سلامكم .. أنتم اليوم جند الحق في هذه الأرض ليبلُغ بكم أمراً كان مقدوراً .. ولن نُهـزَم أبداً ما دام معنا وعيُنا وإصرارنا ، وما دام الحق رائدنا وحجتنا ؛ ومهما يطل الليل ويَعْتِم ، فإن وراءه فجراً مشرقاً ، وصُبحاً بهيجاً .

(١) لقـد ظفرت هـذه الامم باستقلالهـا .

وفي غمار الأحداث الهائلة التي تدور بنا ، وحيث تختلط صيحات الحق بهمزات الباطل ، وإذ يركبُ اللَّجاجةَ أقوام منا اصطنعهم الاستعمار لنفسه واتخذهم مَطايا ذُلُلا . ينبثق من تعاليم الله شموع كضوء الفجر تلهمنا وتهدينا .

إلى أي شيء تُدْعَى مصر وما حولها .. ؟

إن شعوب هذه الرقعة تدعى اليوم لتخوض الحرب [1] ..

ضِدَّ مَنْ .. ؟

ومعَ من .. ؟

ضِدَّ نفسها .. ومع أعدائها الذين مزَّقوها شر مُمزَّق ، وجعلوها سخرية وعاراً .. ! !

يا للذِّلَّة إذن ، ويا لَلْهوان ..!!

إن المبدأ الذي يرسم علاقاتنا السديدة الرشيدة بمعركة اليوم الذي يتهيأ العالم لها .. يتمثل في قول الله تعالى :

ـ « لاينهاكُمُ الله عن الذين لَمْ يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ولم يُظاهروا على إخراجكم .أن تَبرّوهم وتُقْسِطوا إليهم إن الله يحبّ المُقْسِطين » .

« إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهَروا على إخراجكم أنْ تولَّوْهم ، ومن يتولَّهم فأولئك هم الظالمون ؟ » .

والآن ، فلنسأل أنفسنا ، ولنسأل سكّان الكرة الأرضية جميعاً .

مَنْ من دول العالم يقاتلنا في ديننا ، ويُخرجنا من ديارنا ، ويُظاهر على إخراجنا .. ؟

---

(١) كتب هذا الحديث في أخريات عام ١٩٥٣ . وكانت هناك محاولات لربطنا بأحلاف عدوانية . لكننا قاومنا وانتصرنا عليها .

- مَن الذين شرّدوا عرب فلسطين ، وانتهبوا منهم أموالهم وأرضهم وأعراضهم وديارهم ٠٠ ؟

مَن الذين مكّنوا لإسرائيل وزودوها بالمالْ والعتاد وقالوا لها : كوني شوكة الجنْب للعرب الصعاليك ٠٠ ؟

من الذين قتلوا ولا يزالون يقتلون الكهول والولدان والنساء في مصر وفي سوريا وفي العراق وفي تونس وفي الجزائر وفي مراكش ٠٠ ؟

مَن الذين حبسوا عنا السلاح ، وسرقوا أقواتنا ؟ ٠

من الذين يقفون في المحافل الدولية ضد حقوقنا ، ويُناصرون علينا أعداءنا ٠٠ ؟

من الذين أعلن وزير خارجيتهم وجيوش بريطانيا تسحقنا في القنال ، « أن دولته تؤيد بريطانيا في موقفها،ولا تعترف بمشروعية إلغاء مصر لمعاهدة ٣٦ »٠٠٠؟

ـ أيها السادة ـ أولئك هم الذين ينهانا الله في كتابه عن أن نَبرّهم وتتخذ منهم أولياء وحُلفاء ٠ فإذا ما وصل الأمر إلى أن نقاتل معهم ، ونذهب علفاً لمدافعهم ؛ فان مغادرة الحياة على أية صورة ومثال ، تصبح فريضة الفرائض ، وشعيرة الشعائر ٠ وبَطْنُ الأرض آنئذٍ خير لنا من ظَهرِها ٠٠

وهناك آية أخرى تكشف عن وجه آخر لعلاقاتنا مع هؤلاء ٠ تلك هي قوله تعالى :

« قاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين » ٠

إن الله سبحانه وتعالى لا يريد لنا أن نكون سلبيين مع هؤلاء الذين تحالفوا على مصيرنا ٠ بل يحرضنا على قتالهم ، لأنهم البادئون ، والظالمون ٠

أيّ سَنَدٍ من دين ٠٠

أي سند من خُلُق ٠٠

أي سَنَد من منفعة . يَأرِزُ إليه أولئك الذين يدعوننا اليوم للدخول مع الغرب في أحلاف عسكرية عدوانية ..؟

الغرب الـذي غربت فيه كل آمالنـا ، والذي لن يكون أبـداً مَشْرِقاً لمستقبلنا .. !

لا أعرف صورة من صور الإلحاد في دين الله ، والنكوص عن الشرف والحق والواجب أبشع من هذه الصورة .. صورة أمـة أو أمم تحَيِّي قاتليها ... وتموت في سـبيل جلادها الأثيم ! !

يا ويح العـرب لو فعلوها . !

أنقاتل الذين يسالموننا ، ونعاضد الذين يقاتلوننا ، ويذبحوننا ذبح النعاج ؟

وَيْ .. كأنَّه لا يُفْلِحُ الظالمون . ! ! !

لقد وعدنا هؤلاء أنفسهم بالإفراج عَن حريتنا مواعيد عرقوب .

أنصدقهم اليوم ، وهم الذين يخدعوننا في كل يوم مرة أو مرتين ؟ ؟

لطالما حاربنا مع عصابة الشر والإفك والعـار ..

لطالما وضعنا كل إمكانياتنا في خـدمة بغيها وبأسها .

فماذا كان منهم .

كان أن زَفُّوا إلينا في ليلة سوداء عروس الشرق الأوسط إسرائيل ...!!!

وكان أن ازدادوا جثوماً على بلادنا ، وتقتيلا لأحرارنا ، وتشتيتاً لوحدتنا .

فمن كان منا صاحب وعي ، فلينتفع بالتجربة ...

ومن كان ذا دين فليقرأ قـول ذي الجلال :

« قاتلوا الذين يُقاتلونكم ، ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين » .

مَعاً : حتى لا ننتحر البشرية

بين نزوة الانتحار ، وإرادة البقـاء يتأرجح مصير الحياة ، والأحياء . فهل تتفوق النزوة ، أم تتفوق الإرادة .. ؟

إنا لنعلم أن الإرادة أحق بالفوز وأجدر ... ولكن في واقع حياتنا كأفراد ، وكجماعات ، وأمم ، مواقف تنتصر فيها النزوة وتفوز .

في تلك المواقف يتقلص نفوذ الإرادة ، ويتقاعس إقدامها ، وتتبلبل أمـام واجباتها ، فتتقدم النزوة مهتبلة الفرصة . وتحتل المسرح ، وتقوم بدور البطل ، وتصنع الحوادث لحسابها .

هكذا تعلمنا تجاربنـا .

ولطالما داعبت نزوة الانتحار بني الإنسان .. وكلما سمعتم كتاب الله يحدث عن قرية بَطِرَت معيشتها ، فاذكروا نزوة الانتحار التي أوْدَتْ بهـا .

أمم كثيرة ، ومدَنيات مختلفة ، صعدت في جو السماء وأحاطت بسرادقاتها الأرض ، ثم مادت ، وبادت ، وقضي أمرها كأن لم تَغْنَ بالأمس .

ووراء كل نهـاية من تلك النهايات ، كان بطر المعيشة ونزوة الانتحار .

يريد الناس أن يموتوا لأنهم يخافون الموت .

ويريدون أن يحاربوا لأنهم يخافون الحرب .

وليس ذلك بعجيب ، فبقية من عصر الغابة والظلام لا تزال تترسب في أعماق تفكيرهم ووجدانهم . لتقول لهم : اليأس إحدى الراحتين . ومنهاج اليائس تجاه مشكلته أن يحطم المشكلة عن طريق تحطيم ذاته ، ويتخلص منها ، بالتخلص من الإحساس بها وبالتالي بالتخلص من الحياة نفسها ! ! !

وهذه فلسفة كل من يختار الانتحار ، واضحة كانت تلك الفلسفة أم غامضة .

والبشرية اليوم تتفلسف .. وتمارس من الفلسفة في وَلَع شديد ؛ ذلك النوع الذي يسعى بهـا إلى المصير المروع المذموم .

إن نزوة الانتحار تراودها في جنون قاتل ، فهل تذهب في جنونها المسعور إلى أمنيتها .؟؟

هل تتحول الأرض الجميلة العامرة المضاءة بعقل الإنسان وتصميمه ، إلى مقبرة .؟!

هل تتحول الحياة إلى مأساة ، والمدنية إلى خرائب وأطلال ..؟

هل تعود الأرض للشمبانزي مرة أخرى يسودها ، ويتفوّق عليها ؛ ويعيد الكرّة ، فيحاول إنجاب إنسان آخر أهدى سبيلا ، وأكثر رُشْداً ..؟!!

لشدَّ ما يبدو ذلك مُزعجاً ومُسلّياً ..

أجل مُسلّياً ، لأن نزوة الانتحار كجميع نزواتنا يُدثّرها فرح غامض ، ولذة مخبولة .

ولكن نزوة الانتحار لن تنتصر .

إن الأرض صغيرة جداً في سنها .. إنها لا تزال في طفولتها . والحياة فوقها تدرج وتحبو .. وليس بهذه السرعة سيطويها القدر ، ففرصتها لم تنته بعد ... بل لعلّها بسبيل أن تبدأ ، وتحقق في ظل العقل والسلام معجزاتها .

إن عقل الإنسان وإرادته سينتصران ، يا أصدقاء الحياة .. فلا تراعوا ، ولا تفزعوا .

ولكن لا يخدعنكم تفاؤلكم الحق عن تبعات الموقف والتزاماته .

فالإرادة التي ستفوز هي إرادتكم .. إرادتنا جميعاً .

أنت ... وأنا ... وجارنا ...

هذا الذي يجلس على منصة الحكم في كل بَلد ، وذاك الذي يعكف على كتابه في كل بَلد .. والآخر الذي يكنس الشارع ، أو يهز الآلة ، أو يدير الساقية في كـــل مكان ..

تلك المشيئات المتضامنة المتكتلة ، المتفانية ، هي التي ستقطع دابر النزوة ، وتعلن انتصار الحيـــاة .

إن إرادة البقـــاء ستنتصر ، لأنهـــا إرادة الله .

لقد أعطانا الله الحيـــاة وديعة . وأغرى همتنا بالعمل الصامد الصاعد حين قال يخاطبنا عن هـــذه الوديعة :

« إني مُستَخلِفُكُم فيها فَناظِرٌ كيفَ تعملون [1] » . !

كم هو رائع الدلالة ، هـــذا التعبير :

« فَناظِرٌ كيف تعملون » !

فالعمل وحده هو رسالتنا على هذه الأرض .. وعندما تقف الحياة والفناء في معركة فاصلة وجهـــاً لوجه ، فإن نوع العمل يتحدد ويستبين كفلق الصبح ــ وهو مَحْقُ هـــذا الفناء ، وسحق قواه .

فصلاتُنا ، ومَناسِكُنا ...

مَحيانا ، ومماتنـــا ...

تفكيرنا ، وإصرارنا ...

كل خفقة في صدورنا ... كل تهلّل على ثغورنا ... كل خاطرة في ذاكرتنا .. كل كلمة على ألسنتنا .. كل نبض قوي في شراييننا .. كل عزم في سواعدنا ... يجب أن يُعَبَّأ اليوم لاجتياز المنزلَق الفاغـــر ، ولدَحْرِ نزوه الانتحـــار ، وإرادة الحـــرب ..

---

(١) ليست آيـة وإنما فقـرة من حديث شريف .

ولستُ أدري ، ما هي على وجـه التحـديد الوسيلة الناجعة المجـدية لهـذه التعبئـة .

ولكني أدري أن الإنسانية تنطوي على سـرٍّ حافل .. وأنها حين تُجمع ـ ولو في إصرار صامت ـ على أمر ؛ فإنها تبلغـه لا محالة .

فليكن دورنا إذن التبشير بالحياة . ودعوة الناس لمعانقتها ..

والتنفير من إرادة الانتحار ... ودعوة الناس ـ جميع الناس ـ لتحدِّيها وازدرائهـا ...

لنقل للفرد ـ أي فرد ـ وحيث يكون . في كل شعوب الأرض وأقطارها .

العن في نفسك إرادة الانتحـار ...

والعنها جَهْـرة ...

واحتقر في نفسك كل داعية للفنـاء ...

واحتقر علانيـة ...

وادفع الضرائب إذا كانت ستنضج لك رغيفاً ، أو تُرعرع زهرة ...

واقبض يديك ، إذا كانت ستصنع الخراب ، والنهاية ، والمصير الأليم ...

احمل في قلبك دوماً إرادة السلام ، والبقاء ، والحب ، والحياة ..

فإذا حمل كل إنسان هذه الإرادة ...

إذا حملناها ، معاً ، وجميعاً ، فالفوز لا محالة لنا ، ولها ، وللحياة ..



الثروة القومية من شعائر الله

حدثتكم من قبل عن نظرة الإسلام إلى المال . وإنه ليراه عصباً من أعصاب الحياة ، ويدرك شهوة الناس الضاربة إلى اقتنائه . ولقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام ، أن الدنيا خضرة حلوة . مشيراً بهذا إلى إغرائها الشديد ، وسيطرتها الضاغطة على الأنفس .

ومن ثم ، فقد دعانا إلى الرفق في طلبها . وحذرنا من أن نمضي وراءها بأعين معصوبة ...

ألم أحدثكم من قبل بكلماته الرشيدة يقول فيها عن الدنيا . « من أخذها بسخاوة نفس بورك له فيها ، ومن أخذها بإشراف نفس لم يبارك له فيها » .

ولقد كان محمد قدوة شامخة .. ليس في موقفه كفرد تجاه المال وضراوته فحسب ، بل وفي مسؤوليته الاجتماعية تجاه أموال الناس ، وحقوق الأمة .

إذا خان أحد من ذلك المال درهماً واحداً ، فكأنما خانه جميعه ، وفي هذا الموطن ، لا يقبل محمد شفاعة ، ولا يبذل تسامحاً ، ولا يتأول موقفاً ..

أهدى رفاعة بن زيد الجذامي للرسول غلاماً يقول له مدعم ..
وفي غزاة وادي القرى ، أصابه سهم وهو يحط رحل رسول الله عليه السلام..
فقيل له : يا رسول الله ، هنيئاً لغلامك ، أصابه سهم فاستشهد .
فأجابهم :

« كلا إن الشملة التي أخذها من الغنائم يوم خيبر : لتشتعل عليه ناراً » .

أي ولاء للأمانة .؟

وأية رعـاية لأموال الناس ! ؟

« إن الشملة التي أخذها من الغنائم يوم خيبر ، لتشتعل عليه ناراً » .. !!!

رجل سولت له نفسه أن ينال من الغنائم ما ليس له بحق .. وهو لم يضع في كثير ، إنما هي شملة .. تساوي بضعة دراهم ..

ولكن السرقة هي السرقة .. والخيانة هي الخيانة .. لا يحددها الكم ، وإنما تحـدد نفسها .

ولكن . أهذا كل ما كافح به الرسول ضراوة الحرام في الأنفس الخائنة .. أن يتوعد أصحابها بالنار ، بعد الموت .. ؟ ؟

أبـداً ...

وإنما أعـد لهم في هذه الحياة جزاء صارماً . حرمانهم من الثقـة التي تؤهلهم لولاية أمور الناس ، وعزلهم عنهـا .

علم ذات يوم أن أحـد ولاته قبل هدية . فغضب غضباً شديداً . واستدعاه إليه . فلما قدم سأله ، كيف يأخذ ما ليس له بحق ؟ ..

فأجـابه الوالي معتذراً بأنه إنما أخذ هدية ، ولم يأخذ رشوة .

فقال محمد كلماته الحازمة الواعية :

« أرأيت لو قعد أحدكم في داره . ولم نولّه لنـا عمـلاً أكان الناس يهدونه شيئاً .. ! ! ! »

ثم أمره أن يدفع بالهدايا إلى بيت المال .. ونحّاه عن العمل .

من أراد أن يتعرف إلى رجل يرعى أموال الشعب ، كما يرعى أكثر شعائر الله قدسية وإلزاماً . فليقترب من محمد .. إنه ذلك الرجل .

ولقد طبع خلفاءه بطابعه ..

فأبو بكر . الخليفة الأول يقف ديدباناً يقظاً على مال الأمة .. بادئاً بتحديد موقفه من نفسه ، فيحرمها حقها . ولا يمنحها كفاء عمله ومنصبه أكثر من حسو طائر قنوع .. !

ويثني ببنت أحب الناس إليه ، هاديه ، ومنقذه من غاشية الجاهلية .. رسول الله عليه السلام ..

فبعد موت النبي ، حسبت بنته فاطمة رضي الله عنها ، أن لها حقاً في سهم الرسول بخيبر . فقصدت الخليفة أبا بكر تقول له :

من يرثك إذا مت ..؟...

فيجيبها : ولدي ، وأهلي ..

قالت : فما بالك ورثت رسول الله دوننا ..؟

فأجاب : يا بنت رسول الله ، والله ما ورثت أباك ذهباً ولا فضة .!

قالت : إذن ، فأين سهمنا بخيبر ، وصدقتنا بفدك . ؟

أجابها أبو بكر رضي الله عنه :

ـ يابنت رسول الله ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

إنما هي طعمة أطعمنيها الله حياتي . فإذا مت ، فهي بين المسلمين .

وهكذا عادت فاطمة ، لم تظفر بحاجتها ، فقد اقتنعت بأنه حق الناس ، وليس حقاً لها .. ولم يتأول أبو بكر ليرضيها ، وهو الحريص أبلغ الحرص على إرضائها .. ! ! !

ولقد كان عمر يركض وراء بعير من بعران الدولة ليبلو عافيته ، ويطمئن عليه . ذاكراً أنه وديعة الله عنده ..

ولا يزال يرن في ضمير الحياة صوته الواثق ، وهو يقول :

« والله لو ضاع بالعراق بعير من أموال المسلمين . لخشيت أن يسألني الله عنه يوم القيامة » . ! !

هكذا يرعى الدين أموال الناس التي جعلها الله لهم قياماً ؛ ويقيم من تعاليمه، ووصاياه ، وزواجره ؛ أسواراً شاهقة تذود عنها طمع الطامعين .

فمن نال من تلك الأموال بغير حق ، حمل وزر صنيعه في دنياه :

« ومَن يَغْلُل ، يأتِ بما غلَّ يوم القيامة » .

ولم يكفّ الدين عن المال يد الحاكم المستغل فحسب ، بل كفّ عنه كذلك يد الفرد السفيه .

فهو إذ ينهى عن التبذير ، ويجعله قرين الكفر حين يقول الله سبحانه وتعالى :

« إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، وكان الشيطان لربه كفوراً » .

هو إذ يفعل هذا ، يحدد للانسان تجاه الثروة القومية للأمة موقفا دقيقاً فطنا .. ويضع عينه على حقيقة كبرى ، هي أن هذا المال الذي نتداوله ؛ ليس حقاً خالصاً لنا ، ولو بدا أنه كذلك .. بل هو حق مشترك . يتطلب حماية مشتركة .

وإذا كان الاختلاس جريمة ؛ لأنه سطو على مال الشعب ، وإذا كان تبذّخ الحاكم جريمة ، لأنه إهدار وضياع مال الشعب . فإن تبذير المرء في ماله الخاص ، جريمة كذلك .. لأنه تبديد لجزء من الطاقة الحية للأمة ؛ ولأنه تمهيد لبقية جرائم المال .

فالإنسان الذي اعتاد ألاّ يرعى في ثروته الخاصة عهداً ولا ذمة ، سيكون نفس الشخص حين يوكل إليه شأن من شئون الثروة العامة للأمة ..

والإنسان الذي تعوّد الترف ، منفقاً من ماله ، يكون أكثر مبادرة إلى السرقة والانتهاب ، حين ينضب جيبه ويُمحل .. أفيأخذنا العجب إذن ، حين نسمع أنباء ما فرضه الرسول وخلفاؤه على أنفسهم من تقشف يكاد يشبه المجاعة .. ؟؟!

كلا . فلقد كانوا في مقام القدوة .. وما كاد ميزان القدوة يضطرب قليلا في خلافة عثمان ،حتى كانت الفتن العاصفة تلفّ حياة الناس بمثل الضّباب .. !

أما قبل هذا ، والميزان راسخ وقويم ، فليس ثمة فِتن ، وليس ثمة سوى حياة عامرة بالصفاء ، وبالتضحية ..

لقد كان للرسول شعار آثر به نفسه وأهله ..

ذلك الشّعار هو أن آل محمد هم أول من يجوع ، إذا اضطُر الناس لأن يجوعوا .. وآخر من يشبع ، إذا قُدِّر للناس أن يشبعوا .. ! !

ولقد كان لابنته فاطمة حق في بعض الفَيْء ، فذهبت تطلب لنفسها خادماً ، كبقية الناس ، ولكن أباها ردّها رداً جميلا .. وأعطاها مكان حقها قُبلة أبوية حانية على جبينها ، وقال لها وهو يجفف دموعها :

« ألا أدلكِ على خير من خادم .. ! سَبِّحي ربّك عند نومك ثلاثاً وثلاثين ، واحْمَديه ثلاثاً وثلاثين ، وقولي الله أكبر أربعاً وثلاثين .. ! ! !

ويعيش أبو بكر بدرهمين في اليوم ..

ويدعو عمر ابنه لأن يأكل يوماً خبزاً وزيتاً ، ويوماً خبزاً وملحاً ، ويوماً خبزاً وماء ..

ويخاطب أمعاءه التي أمَضّها سوء التغذية فيقول :

« قَرْقِري قَرْقِري كيف شئت ، فوالذي نفس عمر بيده لن تذوقي اللحم أبداً ، حتى ينزل الرخاء بالمسلمين » ..

ويدخل الحسن البصري على إبراهيم بن أدهم ، فيجد أمامه كسرة خبز ونصف خيارة .. ويدعو الحسن ليشاركه طعامه ، فتبدو من الحسن حركة كأنه يتساءل بها : أين الطعام .. ! !

ويبتسم إبراهيم قائلا :

« كُلْ يا حسن .. فإن الحلال لا يتّسعُ للإسراف .. ؟ ! »

وبعد ، فما كان الدين ليجهل قيمة المال ونفعه . وما كان ليخلي بين الناس والثروة القومية بلا ضابط أو توجيه .

وإذا كان قد ترك لنا وضع النظم والقوانين التي تحمي هذه الثروة وتنميها ؛ فإنه قبل هذا ، ومع هـذا ، قد ترك لنا من كلماته الهادية . ومن سلوك رواده وصفوته ، مايجعل رعاية الثروة القومية في شتى صنوفها إحدى شعائر الله ..

وفي سبيل هذا ، هدم بمعاوله كل آفات الدخل القومي من إقطاع واحتكار على النحو الذي أسلفنا تبيانه في حديثنا « ليس في دين الله إقطاع » .



طيبات الحياة، جميعاً لهم

في أساطير الفرس القـدماء قصة طريفة عن ملك من ملوكهم أراد أن يصعد في جوّ السماء ويجوب أقطارها .

وأدلى برغبته هذه إلى مشيريه الذين انطلقوا يتدبرون الأمر ، ويفكرون .

وأخيراً اهتدوا إلى حيلة بارعة . فقد لاحظوا أن النسر طير قويٌّ جبـار ، حتى إنه ليختطف الحمل أحياناً ويطير به عبر الفضاء ..

أفلا تستطيع نسور أربعة أن تحمل الملك إلى حيث يريد ..؟

وهكذا جلبوا أربعة نسور صغيرة ناشئة . وسهروا على تربيتها . وشحذ قواها . حتى إذا كبرت وصارت قادرة على العمل الذي ستكلّف به . جاءوا بخيمة مربعة . وغرسوا في كل ركن من أركانها عوداً من الصلب يحمل في رأسـه قطعة لحم كبيرة . وفي كل ركن من هذه الأركان أيضاً رُبط نسر كبير . وجلس الملك وسط الخيمة ... ولبث في مكانه لا يَريم .

وبعد حين ، ذاقت النسور مسّ الجوع ، ورنت أبصارها إلى فـوق . فوجد كل نسر فوق رأسه قطعة كبيرة من لحم شهيّ ... فأخذت في الطيران جميعاً ... وكانت كلما ازدادت جوعاً ، ازدادت إصراراً في الصعود محاولة أن تبلغ قطع اللحم التي كانت بطبيعة الحال تعلو ، كلما علت النسور وارتفعت . !

وأخيراً أدركها الكلال والإعياء . وحطم الجوع والجهد المنزوف قواها . فلا هي تدرك اللحم فتأكل ، ولا هي هاجعة مستريحة من النَّصَب .. !

وهكذا هوت إلى الأرض مهدودة القوى • وهوى معها الملك مدغدغ الأضلاع • ! !

أوعيتم هذه القصة جيداً •• ؟

ألا إنه عبر الزمان الطويل ، هم بعض دعاة الدين : مسيحيين ومسلمين ، أن يجعلوا من الناس نسوراً مخدوعة ، إذ أغرقوا في تحدثهم عن الزهد إغراقاً ، جعل منه ، أعني الزهد قطعة اللحم التي سترد عن أرواحهم حدة الجوع والسغب ••

وما كان الدين الصحيح ليفعل هذا ويرضاه •

« قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده : والطيبات من الرزق •• ؟ »

« قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا •• »

وإنها لعبارة جليلة ، وآية دقيقة التركيب ، دقيقة المفهوم •

« الطيبات من الرزق » ••

فهي تنفي وتستبعد كل ما كان خبيثاً •

وهذا هو الحد الفاصل بين ما ينبغي للناس أن يزهدوه ، ويرفضوه ، وما يحق لهم أن يأخذوه وينعموا به ••

فإذا ترك الإنسان الدنيا ، وعلق بصره بالقيم التي اصطنعتها له ظروف غير طبيعية ، من زهد متطرف ، واعتزال ، ونبذ كامل للحياة • أملاً في الوصول إلى تحقيق ذاته ، وتحقيق تبعاته في الأغلب من صور هذا النزوع سيجد بصره مشدوداً إلى قطعة لحم ليس إلى إدراكها سبيل •••

لقد عاش الناس دهراً مديداً وهم مخدوعون بقطع اللحم الطائرة •

فعل ذلك بهم سادتهم الذين كانوا يعلون في الأرض علواً كبيراً ،

ويسخرون لشهواتهم كل شيء . ويتخذون من البشر ــ جميع البشر ــ رقيقاً وعبداناً ...

وكانوا يطلقون أمام أعينهم السَّغْبانة قطعاً من اللحم مختلفة ومتنوعة ، ليهدئوا بها روعهم ، ويختلسوا جهدهم .

تارة تتمثل قطعة اللحم في أن السلطان ظل الله في أرضه ، فكل تضحية في سبيله مثوبتها الرضوان .. !

وتارة تتمثل في أن الدنيا جيفة قذرة لاتليق بذوي الهمم العالية من الرجال..!

وتارة تتمثل في أن خالق الخلق ، قد قسم الرزق . ولكلٍّ حظّه المعلوم . فمن حاول المزيد ، فقد أسخط الله ، وكفر بقضائه .

ولكن الدين يوم جاء لم يكن غافلا عما يعمل الظالمون ولا غافلا عما يأفك المبطلون .

فقد ذهب يجلجل في وعي الناس أن ليس لله سبحانه ظل على الأرض ، سوى العدل ، والرحمة ، والمحبة ...

أمّا السلاطين السفهاء ، فظلال الشياطين .. !

وذهب يخبرهم أن الحياة لم تخلق ليبصق عليها . بل ليقدسوها ، وليعملوا أعظم العمل ، ويسعوا أبلغ السعي ، حتى يزيدوها عمارة ، وبهاء ، ونمواً ..

كذلك بدّد في قوة ، أوهام العجز التي كانت تقول لهم ، ليس في الإمكان أبدع مما كان .. ودعا القدرات البشرية إلى محق كل ظلم ، ومقاومة كل إعنات . وتحويل الحياة إلى مكان أفضل وأبهج وأسمى .. !

أجَل ..

من أجل تحرير البشرية جاء موسى ، وعيسى ، ومحمد ، وإبراهيم ، وبقية رفاقهم من المرسلين .

تحريرُها مِمَّ؟؟؟؟

ليس من الملوك الطاغين ، والقياصرة المدمرين ، فحسب ..

بل ومع ذلك ، من الأوهام التي كانت تُكبِّل عزمهـا ، وتطفىء نور الله في عقلهـا .

وهكذا نفهم كلمـة المسيح حين يقول :

« جئت أدعو المأسورين إلى الانطـلاق » .

ونعِي كلمة محمد وهـو يقول :

ــ « إنما أنا رحمـة مُهـداة » .

فأسرى العجز لا ينطلقون إلا إذا جاوزوا مخاوفهم وأوهامهم .

والرحمة المهـداة ، لا تحقق وجودها إذا بقي الناس في حضيض عاداتهم الذهنية والاجتماعية القديمة التي كانوا عليها ، يوم لم يكونوا يعيشون لأنفسهم بقدرِ ما يعيشون لسادتهم الباغين .

يجوعون ، ليشبعوا .. ويزهدون ليقتنوا ، ويموتون تحت سنابك خيلهم المطهمة ، وصافناتهم الجياد .. ! ! !

فلينطلق الناس نحو الحياة . وليأخذوا في شوق وإصرار كل طيباتهم . فهي لهـم ...

وإن الدين لم يأت ليبارك الجوع واليأس . بل جـاء ليكون سناداً للناس في دأبهم الحثيث على ممارسة العمل من أجل عيشة راضية وحياة حافلة .

ولن يكون أبداً ، عقبةً في سبيل الحياة ، وطَيِّبات الحياة .

الاستعمار الحاد

نحن ، شعوب هذه المنطقة ، نعيش في البلاد التي ظهر فيها موسى ، وعيسى ، ومحمد •••

وتنعكس على حياتنا ، وعلى مطامحنا ، تلك الحقائق الخالدة التي جاء بها الرسل الثلاثة ، والتي اتفقوا عليها ، وبذلوا جهداً مشتركاً لتثبيتها ودَعْمِها •••

وأولى هذه الحقائق أن الله خلق عباده أحراراً •• ويريد لهم أن يعيشوا أحراراً •••

ولقد قاوم موسى فرعون من أجل الحرية •••

وحاول المسيح في عمره المبكر أن يضع عن كاهل المأسورين نيرَ قيصر •••

وعلى يد محمد أتمت عمليات المقاومة آخر مراحلها ، وأجهز الإسلام على كسرى ، وقيصر ••• وطوى بيمينه الضاربة الامبراطوريتين اللتين كانتا تستعمران معظم الأرض •• امبراطورية الروم ، وامبراطورية الفرس •• !

ولقد ظهر الاستعمار على أرضنا هذه ، في عصر متقدم جداً ••

ولكن الاستعمار الحديث الذي شنّته على العالم دول الغرب الأوروبي ، ربما يبدأ في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي على يد أسبانيا •

أسبانيا ••؟؟!

لعلنا الآن نعجب لهذا •• ولكن ليست أسبانيا وحدها هي التي مال استعمارها للغروب ، وتوارى أمام زحف الحرية وتقدمها • بل هناك امبراطوريات أخرى كثيرة لم يبق منها سوى العبرة والمثل • !

فقد كان ثمة « امبراطورية ألمانية » استحوذت على تنجانيقا ، والشمال الشرقي من غينيا الجديدة كما سيطرت على التوجو ، والكامرون والجنوب الغربي من أفريقيا ...

فأين ذهبت ، وذهب استعمارها .. ؟

وكان ثمة امبراطورية برتغالية ، واستعمار برتغالي ، يبسط جناحه على المحيط الهندي ويبسط جناحه الثاني على طول الشاطىء الأفريقي .

وكان هناك امبراطورية هولاندية تحتل باستعمارها العاتي سيلان ، وجاوا ، وسومطرة ، وكل أندونيسيا .

بل كانت كذلك تستعمر جزءاً هاماً من أمريكا .

وكانت « نيويورك » هذه التي تقوم فيها اليوم الأمم المتحدة . إحدى مدائنهم .. وكانوا يدعونها « امستردام الجديدة » ! ! !

وكان هناك امبراطورية النمسا والمجر ، وكان هناك الامبراطورية البريطانية والفرنسية ، وكان الاستعماران الانجليزي والفرنسي يثقلان على الأرض بأوزارهما . ويلقيان ظلهما الكريه على كل مكان ، في آسيا ، وفي أفريقيا ، بل وفي أوربا أحياناً .. وفي العالم الجديد ، حيث كانت الولايات الأمريكية تدين بالولاء للوطن الأم ، وتدفع له الجزية والضريبة ، حتى تبينَت أخيراً على يد « توم بين » أنه ليس وطناً ، وليس أماً .. وإنما هو استعمار ولصوصية ...

هذه قصة الاستعمار في سطور . عملاق عاش على دماء الغافلين يوم كان التاريخ حدثاً ناشئاً .. فلما استيقظ النوام ، وشبَّ التاريخ وفتح عينيه . هَزُلَ العملاق وتلاشى ، وكنسته ريح الحرية إلى منفىً سحيق ...

ترى هل ينتكس التاريخ ، ويعود طفلا .. ؟

وهل يُبعَث الاستعمار مرة أخرى ليمضغ البشرية الناهضة ، ويعيدها أشلاءً ومِزَقا .. ؟

ليس ثمة ريب في استحالة هذا الوهم ، وبُعده عن العقول .

ومن خلال هذه المُدْركات ، تتبين شعوب البلاد العربية طبيعة دورها ، وكل الواجبات التي يفرضها عليها هذا الدور وتُمْليها ..

إننا نحمل عبئاً ثقيلا جــداً .

فآخــر جولات الاستعمار تتم اليوم عــلى أرضنا وهي جولات يائسة ، وصحيح أن ضربة اليأس تنتهي بالخيبة والهزيمة . بيد أنها تستجمع كل قُوى الضارب ، ومنتهى إمكانياته .

ولقد كُتب على سكان هذه المنطقة أن تكون هــذه الضربة من نصيبهم ولكنهم سَيُثابون عليها ، ليس فقط بتحرير أنفسهم وبلادهم ومصيرهم .. بل وبالذهاب بشرف الإجهاز النهائي على الوثن الجبار « الاستعمار .. ! »

على أن مكافحتنا الاستعمار تُمثل معنى آخر باهراً ، إذ هو امتداد لدورنا التاريخي الذي فرضته رسالات الله ، هذه الرسالات التي اختارت منطقتنا لتكون أرض تحركاتها ، وموطن نشاطها ..

فنحن نناهض الاستعمار ، لأنه سرقة لأرزاقنا .

ونناهضه ، لأنه تــزيق لوحــدتنا .

ونناهضه ، لأنه عدوان على حقوق الإنسان فينا ..

وأيضاً نناهضه ، لأنه إلحــاد" بشع ..

إلحاد في آيات الله ومشيئته ..

وإلحاد في حقوق الإنسان وحريته ..

وهــكذا ، فنحن في عصياننا الباسل للاستعمار ، وفي مقاومتنا الرشيدة لصَلَفه ومحاولاته ، إنما نرفع لواء الله ، ولواء الإنسان ، ونمضي تحت رايــة الدين ، وراية الحضارة ...

إن الغرب المسيحي يفضح نواياه ، حين يصر على الاستعمار في نفس الوقت الذي يؤكد فيه غيرته على الدين ومقته الإلحاد ...

فمن أيّ كلمات المسيح أخـذ جواز المرور إلى الأرض الحرة التي يريد أن يحولها إلى مستعمرات ... ؟؟

ومن أيّ كلمات محمد ؛ يريد منا أن نستجيب لما يدعونا إليه من ضَيم ، ومذَلّة .. ؟؟ !

إذا كان الغرب الغيور على الدين ، يخشى علينا الفتنة والكفر . فإن موقفنا منه ينبغي أن يزداد صعوبة وتعقيدا .

فهو يريد استعمارنا ...

وفي نفس الوقت يودّ ـ حسب ظاهر منطقه أن نزداد بالدين ـ أيٍّ دين ـ التحـاماً ، ونزداد له ولاء ..

والولاء للدين يتطلب أول ما يتطلب دغدغة الاستعمار وإهانته .
والاستعمار في بلادنا ، لم يجيء حتى الآن إلا من ذلك الغرب .
وهكذا تتجسم المشكلة ، وتبدو خيبة أمل الغرب مريرة .. ! !
على أنه ليس من واجبنا أن نضع لهذا الإشكال حلا .
ولكن الحلول المطلوبة منا اليوم ، هي لمشكلتنا مع الاستعمار نفسه .
ليس علينا ، أن نُنَسّق له منطقه ، حتى يبدو غير مُهلْهَل ، وغير متناقض .
بل ربما يجب علينا أن نفضح هـذا التناقض إذا استطعنا .

إننا من كافة الوجوه مكلفون بمقاومة الاستعمار والإجهاز عليه في جولته الأخـيرة .

وبذلك نحقق أبهى مظاهر الإيمان بالله . وبالإنسان ..



النَّاسُ إِخْوَة

بين الدين والطبيعة تبادل مستمر ، فهو يأخذ منها ويَصبُّ فيها .

يضع عينه على ضروراتها .. ثم يستجيب لها بتعاليمه فيزكيها .. ويدعو للموقف الصحيح تجاهها ...

وإذا قلنا : الدين .. فنحن نعني روحه ولُبابه المستهدِف فَيْن دائماً سعادة الإنسان وخيره ..

ومن هذه الأشياء التي يلتقي فيها الدين والطبيعة لقاء سعيداً ووثيقاً . الاجتماعي والإنساني ...

فالاجتماع ضرورة .. وليس في مقدور الإنسان أن يعيش وحده . والعزلة وَهْم .. ونحن في أقصى حالات اعتزالنا نشارك الناس ويشاركوننا دون أن ندري ...

ولقد سارع الدين إلى تلبية هذه الضرورة وعمل على دَعْم الإخاء البشري بكل سبيل مستطاع ، فالناس إخوة ...

وأخوتهم هذه ، حقيقية ، لا مجازية . فأبوهم واحد . بل إن الإخاء لينفسح ويتراحَبُ حتى يشمل الكائنات كلها .

ولقد كان جليلا وصادقاً ، القديس « فرانسيس » حين قال :

« أخي الطير » ... ! ! !

أجل . إن كل ما في كون الله أخ لنا ورفيق .. وإحساسنا بهذه الأخوة ينفذ بنا إلى أسرار الكون الكبرى وحقائقه الخالدة .

والفترات الرضية العظيمة في تاريخ البشر ، هي تلك التي كان يتفوق فيها التعاون على الخذلان ، والإخـاء على الفرقة ...

وللدين في تزكية الإخـاء البشري دور جـدّ عظيم .

ها هو ذا المسيح يرسل القول والتعاليم كسنا الفجر .

« سمعتم أنه قيل تحبُّ قريبك وتبغِضُ عدوك .. وأما أنا ، فأقول لكم : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنِيكم ، أحسِنوا إلى مُبغضيكم . وصلّوا من أجل الذين يُسيئون إليكم ويطردونكم ... »

ثم يبين أن هذا السلوك سبيل الكمال الذي يطمح إليه المؤمنون فيقول :

« لأنـه إن أحببتم الذين يُحبونكم فأيُّ أجـرٍ لكـم أليسَ العشّارون أيضاً يفعلون ذلك .. ؟؟ »

« وإن سلّمتم عـلى إخوتكم فقط ، فأيُّ فضل تصنعون ؟ ؟ . أليس العشّارون أيضاً يفعلون هكذا ؟ ؟ . »

« فكونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم الـذي في السموات هـو كامـل ... »

وهذا هو محمد عليـه السلام ، لا يترك سبباً من أسباب إيناع الإخـاء والتكافل إلا سلكه وأتاه .

وفي أحاديثه التي ترسم آداب الحديث ، وآداب المشي ، وآداب المعاملة ، وآداب العلم ، وآداب الاجتماع كله ... نُبصر فيضاً مشرقاً يبهر الأبصار ..!

فهو يرعى الإخاء والمحبة والتعاضد في كل مواطن الحيـاة .. في البيت ، وفي الشارع ، وفي السوق .. وحيث يلتقي إنسان بإنسان ..

ويبدأ فيعلن في حديث له أن الله يسأل عن صحبة ساعة .. ! !

أي أنك إذا التقيت صدفـة بإنسان ، فإن الله سائلكما عـن الدقائق التي ستقضيانها معـاً ...

ثم يقول :

« لو كنت آمراً أحداً أن يَسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » ...

ويقول :

« إياكم والظن ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث . ولا تجسّسوا ، ولا تَحسَّسوا ، ولا تَنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً » .

ويقول :

« إذا كانوا ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون الثالث ، فإن ذلك يحزنه » .

ويقول :

« لا تؤمنوا حتى تحابّوا » .

« إذا أحبَّ أحدكم أخاه ، فَليخْبِرهُ أنه يحبه » .

ويقول :

« ما من رجل يعود مريضاً إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له » .

« والذي نفسي بيده ، لأن أمْشِيَ في حاجة أخٍ لي حتى تقضى ، أحب إلي من أن أعتكف في مسجدي هذا شهراً » .

ويقول :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فَليكرِم ضيفه . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » .

ويقول :

« لايحلّ لمؤمن أن يَهْجُرَ مؤمناً فوق ثلاث » .

ويقول :

«من رأى عورَةَ أخيه ، فستَرَها ، كان كمن أحيا مَوْءُودة » .

والصداقة الإنسانية كالكائن الحي ، تموت جوعاً إذا لم تجد غذاءها .. وغذاؤها في كل حركة طيبة ...

في البسمة الصادقة ، في الكلمة الحلوة . في المعاونة اليسيرة العابرة ...

وإنا لنبلغ من العظمة نفس المستوى الذي نبلغه من مشاركتنا الآخرين في سرائهم وضرائهم .

وحين نبذل للناس من ذوات أنفسنا مودة وصفاء . فإن الحياة بين الباذل والمبذول له تتحول إلى بهجة أكيدة ، وتتوارى كل مُنغِّصاتها . وتذوب في حرارة هذه العاطفة الودود الصادقة .

والعلاقة بين الإنسان والإنسان ، من أثمن ألوان نشاطنا .

والدين الذي يدرك هذا ، يدعونا لأن نكون أكفاء لهذه العلاقة ، حريصين عليها ... وهذا يقضي أن نرعى كافة حقوق الإخاء البشري رعاية كاملة ، ونعمل على توسيع نطاقه .

ومن هنا سر دعوته الحارة إلى التسامح والبذل .

فأنت لا تحسن مؤاخاة الناس ، إذا تتبعت عوراتهم . وتسقَّطْتَ زلاَّتهم ..

ولا تحسن مؤاخاتهم ، إذا ذكرت لهم نقائصهم ، وتناسيت فضائلهم ومزاياهم .

ولا تحسن مؤاخاتهم ، إذا أردت أن تكون آخذاً فحسب . ولست معطياً .

ولا تحسن مؤاخاتهم ، إذا بخلت عليهم بكلمة اعتراف وتكريم ، وإذا لم تجعل عناءهم موضع ازدهائك ، وإطرائك وتقديرك .

ولا تحسن مؤاخاتهم إذا أردت أن يكونوا طبعات مكررة لك وأن يلغوا آراءهم من أجل رأيك .

فالإخاء ، والصداقة يعنيان أن يكون هناك أكثر من واحد .. اثنان أو ثلاثة ، أو ما شاء الله من كثرة .. لأنها تفاعل وتبادل . فمحاولتك التفرد والأثرة ، يبطلان حكمة الصداقة ، وينفيان قيامها .

وما ترك الدين ذلك ، ولا شيئاً من ذلك ، إلا ألقى عليه إشارة ضوئية تشير إلى أهميته ، وإلى حتميته من أجل إيناع الإخاء الإنساني بين الناس .

فلنفسح الطريق للكلمة

ذات يوم : قــدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي يسأله نصيباً من الفيء .. وأخذ مكانه من الصّف ، ومضى الرسول يعطي الناس ، وبعد أن انتهى من توزيع الأعطيات ، اندفع الأعرابي نحوه في غلظة وبَداوة ، وجذبه من جِماع ثوبه وهو يقول :

ـ يا محمد ، زدني .. فإن المال مالُ الله ، وليس مال أبيك ...

وابتسم الرسول عليه السلام في رضا عظيم ... وقال : وهو يهز رأسه ...

ـ صدقت يا أعرابي .. المال مال الله .. ! ! !

ولكن الصحابة الذين شهدوا هذا الحوار ، آلمهم أبلغ الألم فظاظة الأعرابي ، وسوء تصرفه ... وكان أكثرهم امتعاضاً عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. فشق الناس كصفحة السيف ، وواجه الأعرابي هاتفاً : دعني يا رسول الله أضرب عنقه .

فازدادت ابتسامة الرسول تألقاً ، وقال :

« دَعْهُ يا عمر . فإن لصاحب الحق مقالا » ..!!

هذا مشهد ...

وهناك مشهد آخر ، حين وقف عليه السلام يخطب أصحابه فقال :

« ألا لا يَمنعنَّ رجلا هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه » ...

ومشهد ثالث ، حين راح يعلّم أصحابه فيقول لهم :

« لا يكونن أحدكم إمَّعة يقول : إذا أحسنَ الناسُ أحسنْت ، وإن أساءوا أسـأت ...

ولكن لِيُوطّن أحدكم نفسه ، إذا أحسن الناس أن يُحسِن ،

وإذا أساءوا أن يتجنّب إساءتهم » .

هكذا يدعو محمد عليه السلام إلى الموقف الرشيد الذي يجب على كل إنسان أن يتخذه تجاه الحق والباطل .

يقول كلمته مؤيداً الحق دون مُبالاة بالعواقب .

ويقولها ، دامغاً الباطل دون مجاملة أو تهيّب .

والحق والباطل يمازجان كل شئون حياتنا الدنيا ، ويختلطان فيهما اختلاطاً يكاد يخفي معالمهما المُمَيِّزة .

ومن ثم كان دور الكلمة الحرة الصادقة الجريئة في تمييز الخبيث من الطيب عظيماً ومحتوماً .

وليس ثمة واجب أقدس من واجبنا تجاه هذه الكلمة : مسطورة كانت أم ملفوظة .

وهذا الواجب يتمثل في إفساح المجال أمامها حتى تنطق قوية كالحق ، ومبينة كفلَق الصبح .

الكلمة ...

ما أروع ما تعبر عنه هذه الحروف اليسيرة ..

إنها لتشير إلى المفتاح الذي كان ، ولا يزال يفض أمام التقدم الإنساني كل باب مغلق .

وما أكثر شهداء الكلمة عَبْر التاريخ ...

كان سقراط شهيدها في معركة الحقيقة ...

والمسيح ، شهيدها في معركة المحبة ...

ومحمد ، شهيدها في معركة التوحيد الكبرى ..

وعشرات ، ثم مئات ، ثم آلاف من أفذاذ البشر . عبّدوا طريق الحضارة بالكلمة ، ثم قدموا حياتهم العظيمة قرباناً لها ...

وليس يضيق بالرأي المخالف سوى مغرور صغير ، وإنما يفتح قلبه للرأي المعارض ، كل عظيم صادق العظمة ، مضيء الوجـدان .

على أن الدين ، وهو يحمي الكلمة الشريفة من أعـدائها ، لم يَنْسَ أن يحميها من أصدقائها .

وأصدقاؤها ، هم أولئك الذين يُفتنون بها فتوناً يقف بهم عندها ويعميهم عما سـواها ...

كما أنه وهو يدرك قيمة الكلمة، حذَّر من الخطر الكامن في سوء استعمالها..

فدعانا إلى التفكير قبل القول ؛ فإذا تكلمنا ، فعن سداد وصدق .

يقول الله سبحانه :

« وقولوا للناس حُسْناً »

« وقولوا قولاً سديداً » ..

ويقول الرسول محذِّراً :

ـ « وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على مَناخِرِهِم إلا حَصائِدُ ألسنتهم » ؟؟!

ويعتبر الدين الكلمة المتجنية الظالمة بهتاناً وإثمـاً مبيناً ، والكلمة الموتورة الحاقـدة ، ضلالاً بعيـداً ، والكلمة الواشية الكاذبة ، خسراناً لصاحبهـا ، ووبالاً عليـه ..

طالما كان الرسول يقـول لقومه :

« لا تحدِّثوني عن أصحابي شيئاً ؛ فإني أحبُّ أن أخرُجَ إليكم وأنا مُنْشَرِحُ الصدر ».

وبهذا السلوك الفذ ، يرسم حقاً آخر من حقوق الكلمة : ألاَّ نقولها لِنوغر بها الصدور ، وألاَّ نُصغي إليها إذا كانت تحمل هذا الغرض الحقير .

إن سلطان الكلمة ، وشرفها ، لا يتمكنان من أمـة إلا رفعا شأوها وفتحا أمامها أبواب مستقبل فاضل وعظيم .

الجماعة والفرد

عناية الدين بالإنسان فائقة ، واهتمامه به مثابر وعميم .

وإنه لينظر إليه نظرة يلتقي فيها الحبّ بالإكبار ، والعطف بالإيثار ؛ لقاءاً سعيداً وأكيداً .

والإنسان في نظر الدين ليس مجرد حدث بيولوجي ، بل ولا مجرد كائن حي .. إنما هو مُمثل عظيم لِقيم عظيمة تتجسَّد فيه وتعمل عن طريقه ... هو روح عاقل . قادر على أن يجعل من الفوضى نظاماً ، ومن النقص كمالاً ؛ لأن الله الذي برأه وسوَّاه ، قد هيَّأه لهذا الدور وأمدَّه من لدنه بالعون الذي يجعل خُطاه سديدةً موفقة ..

والإنسان في نظر الدين ، هو النوع كله ، مُمثَّلاً في أفراده ... وهو الفرد ، حاملاً خصائص نوعه ...

ومن ثم ، نجد الدين ينجح نجاحاً بعيداً في تحديد مكان الفرد من الجماعة ، ومكان الجماعة من الفرد . من غير أن تستدرجه متاهات الفلسفة أو الوهم .

أجل . من غير إيغالٍ في الجدل . ودون إطناب في التدليل يهتدي الدين ويهدي إلى العلاقة بين الفرد والجماعة ، في صورتها السَّوية الرشيدة .

والذي يفقه نصوص الدين وروحه — أيّ دين — لا يُعييه إدراك النظرة الدينية إلى هذه العلاقة .

وفي المسيحية والإسلام خاصة ، تبدو القضية واضحة مُبينَة .

* * *

فالفرد في منهج الدينَيْن • هو اللَّبِنَة الحيَّة التي ينهض بها وعليها الكيان الإنساني •• كيان النوع بأسره •

والإيمان بالفرد ووضعه في مكانه الحق لايعنيان الاعتراف بالواقع فحسب•• بل ويعنيان إعطاء هذا الواقع فرصته في الامتداد وتحقيق ذاته •

فالفرد ، يعني : المسؤولية •

وكل استبعاد للفرد من حركة الحياة ، يعني إهدار أعظم مبادىء الحياة — المسؤولية •

وإذا اختفت المسؤولية • فقدت الحياة الإنسانية مقوماتها ، بل قولوا : فقدت ذاتها •

فالمسؤولية تبدأ مع الفرد ، وتبلغ كمالها في حركته الحرَّة الدائبة •

ومن ثَمَّ رأينا الدين يخاطب الإنسان الفرد بكل تكاليفه ، ويجعل منه موضوع الشرائع والرسالات •

« من له أذنان للسمع ، فليسمع »

« ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه »

« من أراد أن يخلص نفسه يُهلكها ، ومن يهلك نفسه من أجلي • يجدها » •

هكذا تكلم المسيح مُحملا الفرد مسئوليته عن نفسه •• عن فَرديته • مقرراً بهذا ، الوجود المستقل للفرد الإنساني والحقوق الطبيعية التي تقتضيها مسئوليته •

ويتحدث القرآن الكريم في الموضوع ذاته :

« مَن عمِل صالحاً فلنفسه ، ومَن أساء فعلَيْها » •

« يوم تَجدُ كل نفس ما عمِلتْ من خير محْضراً وما عمِلَتْ من سوء » •

« وتُوَفَّى كل نفس ما عَمِلَتْ وهم لا يُظلمون » .

« فَمِنْكم كافر ، ومنكم مؤمن . والله بما تعملون بصير » .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره »

« ومَن يعمل مثقال ذَرَّة شراً يره »

« فَمن أبْصَر فَلِنَفْسِه . ومَنْ عَمِيَ فعلَيْها » .

ففي هذه الآيات أيضاً يخاطب القرآن الفرد الإنساني . مُعلِّماً إياه أن حياته . إنما هي مسئوليته وحده . وأن نفسه ومصيره إنما يُشكِّلان واجبه وحقه .. مسئوليته وحريته ..

وقيمة الفرد الإنساني لدى الدين تتمثَّل أول ما تتمثَّل في هذا الموطِن الجليل .. والمعنى الباهر .

فإذا كان النوع الإنساني قد اختُبِر واصطُفي . ليحمل كلمة الله وينفِّذ فوق الأرض مشيئته . فإن الفرد — أولا — هو الذي يتشكل منه النوع كله .. والفرد — ثانياً — هو الذي تناط به مسئوليات هذا التكليف وهذا الاختيار .

ومن مسئولياته كفرد . تتشكَّل المسئولية الجماعية كلها .

وكما قلنا من قبل : إن الدين لايرى في إقرار الفردية لإنسانية مجرد اعتراف بالواقع . بل هو يتضمَّن هذا الإقرار مسئوليتنا تجاه هذا الواقع بتمكينه من تحقيق ذاته .

فالفرد الإنساني هو الذي يخاطبه الدين بتعاليمه .. هو الذي يتلقى أوامره ونواهيه .. هو الذي يحمل أمام الله مسئولية حياته . ومسئولية مصيره . وهو الذي يُزكِّي نفسه أو يدُسُّها في التراب ..

« ومَن جاهد فإنما يُجاهد لنفسه »

« ولا تكسِبُ كل نفسٍ إلا عليها »

« وأنْ ليسَ للإنسان إلا ما سَعى ، وأنَّ سعيَه سوف يُرى ».

« ومَن يَكسِب إثماً ، فإنما يكسِبُه على نفسه » .

هكذا تحدث القرآن العظيم .

فالفرد ــ أيّ فرد ــ دولة مستقلة ذات سيادة... له حقوقه وعليه واجباته.

وهو يحمل من القدرات الممنوحة له من بارئه سبحانه ، ما يجعله قادراً على أن يمارس حقَّه وواجبه في مُستوى الخير العام .. وتلك هي عظمة الإنسان، بل بهذا صار الإنسان إنساناً .

ففرديته لا تعمل ولا تستطيع أن تعمل في عزلة وخَواء ــ إنها ملتحمة الوشائج والأسباب بالجماعة الإنسانية كلها ، وهنا نلتقي بعلاقة الفرد بالجماعة كما يراها الدين .

إن الجنس البشري عند الدين ، حامل رسالة عظمى ..

هذه الرسالة لا يستطيع فرد مهما يطل عمره وتتنوّع عبقريته أن ينفرد بأدائها . بل ولا يستطيع ذلك جيلٌ بأسْره ، ولا أجيال بأسْرها ، ولو اجتمعت على قلب رجل واحد ...

ذلك أن هذه الرسالة ــ رسالة النوع البشري بَعيدة المُنتَهى إن كان لها مُنتهى .

وإذ كان لكل فرد دور في هذه الرسالة ، فإن دوره يجب أن يُؤدَّى وَفْق مُقتضيات الرسالة نفسها .

ورسالة البشر في الحياة ماثلة في تحقيق أقصى غايات الكمال الميسور ، الكمال الروحي ، والكمال المادي .

وسير الجماعة الإنسانية نحو تلك الغايات العُلى ، يعني ويتطلب أن يؤدي الفرد واجبه ودَوْرَه ويملأ جميع الفراغ المحجوز له بين صفوف الجماعة .

وعمل الفرد مع الجماعة في جيله وعصره ، مُساوٍ لعمله مع النوع الإنساني بأسْره .

أي أن الإنسان الفـرد ، حين يؤدي واجبه وينجز مسئوليته في مستوى القيم الصالحة التي تهدي عصره وجيله ، يكون بهذا قد أدّى واجبه ، لا تجـاه هذا الجيل الذي عاصره فحسب ، بل تجاه نوعه الإنساني كله ... ويكون كأنه قد عاش عمر النوع الإنساني كله عاملاً معه وفي سبيله ...

* * *

وعمل الفرد الإنساني مع جماعته ، يؤهله لترقية نفسه وذاته .

إذ أن هذا العمل مع الآخرين ومن أجلهم ، يطهر الفرد من أنانيته ويساعده على تخطّي تخومه القريبة المحدودة ، وينقله من صفوف الذين لا يعيشون إلا ليأخذوا .. إلى صفوف أولئك الذين جاءوا الحياة ليعطوا ..

يقول الانجيل : ـ

« وأما مَن عمِل وعلّم ، فهذا يدعى في ملكوت السماوات عظيماً » .

ويقول القرآن :

« فأمّا مَنْ أعطى واتّقى وصدّق بالحُسْنى فسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » .

أجل ـ إن العطاء هو الميزان ..

وقدر كل إنسان عند ربه ـ وفي جماعته ، ومجتمعه ، مساوٍ للقدْر الذي يعطيه الحيـاة والأحيـاء .

وليس معنى العطـاء هنا قاصراً على العطاء المـالي .. صدقة أو تبرعاً ، أو مكافأة ..

لا ـ بل العطاء بأوسع وأجـزل معـاني العطاء

فالكلمة الطيبة الهادية ، عطاء ..

والاختراع النافع ، عطاء ..

والحُكْم الصالح ، عطاء ..

والنقــد النزيه ، عطاء ..

وبذلُ العون لمحتاجه ، عطاء ..

وإقرار العــدْل ، عطاء ..

وحُبُّكَ الناس ، عطاء ..

وإقالةُ العثَرات ، عطاء ..

وستْر العوْرات ، عطاء ..

وكل بذلٍ تتطلبه الحياة والجماعةُ منك في غير إرهاق لك أو بغي عليك .
فإنما هو عطاء ، يرفع قدرك ويزيد أجرك .

والفرد مطالَب بأن يعطي كل ما يستطيع إعطاءه ــ ولقد عاب القرآن الكريم قوماً يعطون أقلَّ مما يستطيعون فقال :

« أفرأيتَ الذي تولَّى .

وأعطى قليلا وأكْدى » .

فالعطاء، هو الرابطة التي تربط الفرد بجماعته، وتجمعه وإيَّاها على سَواء ..

والعطاء هنا ، هو الواجب .

والتعبير عن الواجب بالعطاء ، يرفع من قيمة الواجب إذ يجعله عمــلا من أعمال الضمير ، لا من أعمال القانون ..

يجعل الرغبة ، لا الرهبةَ مَصْدَرَه ..

كما يجعله مَثوبَة نفسه ، لأن الذي تحوَّل الإلزام لدَيه إلى شغف .. والواجب إلى عطاء ، يكون قــد بلغ من توفيق الله له ونعمته عليه الشأو العظيم الذي يجعل حياته كأنهــا هــدية الله إليه .. !

* * *

وهذا العطاء .. هذا البذل في سبيل الخير العام للمجتمع وللناس : هو كذلك ــ المعيار الذي يُحدد شرف الإنسان الفرد ، فليس شرف الفرد وكرامته إلا انعكاس عطائه السديد من أجل الحق والخير في مجتمعه وعالمه .

وكل أمجاد الأرض لا تغني شيئاً عن الفرد الإنساني الذي يأخذ ولا يعطي .. وإذا أعطى جاء عطاؤه زيفاً وغشاً ..

وكل أمجاد العصَب والنَّسَب ، لا تغني صاحبها شيئاً ، ما لم يكرمه الله ويشرفه بتوفيقه لأن يُعطي الحياة من خير نفسه وعمله .

يقول المسيح عليه السلام :

« لا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم ، لنا إبراهيم أباً ، لأني أقول لكم : إن الله قادر أن يُقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم » .

ويقول القرآن الكريم :

« إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ويقول الرسول عليه السلام :

« لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى وليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى » .

* * *

وحين تقوم العلاقة بين الفرد الإنساني والجماعة الإنسانية على هذا النَّسق، يصير من الممكن أن ينال الفرد أقصى غايات حقه في الحرية والإرادة والاختيار .

كما يصير من الممكن أن ينال المجتمع أقصى آماد حقه في الولاء والتعاضد والإيثار .

وتصبح حرية الفرد ، بركة على المجتمع وعوناً له ..

وتصبح سيادة المجتمع ، سيادة للفرد وإنماءً لوجوده ..

هذا هو نهج الدين ــ في إيجاز ــ وهذه نظرته إلى مكان الفرد في الجماعة ، ومكان الجماعة من الفـــرد.

وحين تستقيم الأمور على هذا النحو ، يحيا الناس حياة راضية .

وحين يَحيفُ بعضٌ على بعض ، ويطغى المجتمع على الفرد ، أو يتنكر الفرد للمجتمع ويفقـد الولاء المتبادَل بينهما إرادته ورُشـده ؛ فآنئـذٍ تناديهم كلمات ربهم :

« إنَّ الله لا يظلم الناس شيئاً ولكنَّ الناسَ أنفسَهم يظلمون ».

* * *

كل شيء للإنسان

تجتاح بعض الناس أحياناً فكرة مغلوطة عن الدين •

ويقوم في روعهم وَهمٌ عريض ، يُحدثهم أن الدين يمتهن الإنسان حين يملي عليه طريقة حياته ، وحين يُكبِّل إرادته ويضعه داخل دائرة مغلقة من الحظْر والتحــريم •

وضحايا هذا الوهم يجيئون دائماً من الذين لا طاقــة لهم بالبحث والتأمل والتفكــير •

ذلك أن أيَّة نظرة عاقلة يتجه بها ناظرها نحو العمق لا بد وأن تُفيءَ على صاحبها فهماً مُضيئاً لحقيقة الدين •

فالدين ــ كلّ دين ــ كرَّم الإنسان أبلــغ تكريم •

ويبدأ التكريم بإعلام الإنسان أن كل شيء في أرضه وكوكبه ؛ بل وخارج أرضه وكوكَبه ، مُسخَّر له ؛ وموضوع في خدمة مصيره •

فالإنسان عند الدين ملِكُ عالمِه المُتوَّج ، وسيده المطاع •

هتف بهــذه الحقيقة المسيح حين قال :

« إنما جُعل السبت للإنسان ، ولم يُجعل الإنسان من أجل السبت » •

أي أن كل شيء في عالمنا ، قد جُعل في خدمة الإنسان ، وليس العكس •

وهتف بهــا القرآن حين قال :

« وسخَّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه » •

بل إن القرآن الكريم ليفيض في تعداد الكائنات المسخَّرة للإنسان إمعاناً منه في توكيد سيادته ورفع لوائه .

فالبحار ، والأنهار ، والليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، والنجوم كل أولئك مسخَّرات للإنسان .

انظروا واقرأوا :

« وهو الذي سخَّر البحرَ لتأكلوا منه لحماً طرِيّاً » .

« وسخَّر لكم الأنهار » ...

« وسخَّر لكم الشمسَ والقمر دائبين » ..

« وسخَّر لكم الليلَ والنهارَ » ..

« والسَّحابِ المسخَّرِ بين السماء والأرض »

« والنجومُ مُسَخَّراتٌ بأمره » ..

* * *

في هذه التزكية الباهرة للإنسان يكشف الدين عن مدى تقديره الإنسانَ ، ومدى تكريمه إياه ، وحقيقة نظرته إليه .

فالإنسان ، ذلك العملاق الذي نهض قائماً فوق أرضه ، ووَسْط عالمه لم يُخلق عبثاً ولا يُتركُ سدًى ..

« أفَحسِبتُم أنما خَلقناكُم عبثًا » .. ؟؟

« أيَحسب الإنسان أن يُترَكَ سُدًى » .. ؟؟

لا .. إن الإنسان ــ كما يحدث القرآن ــ لم يخلق عبثًا ، بل خُلِق لدور عظيم ، لا حدود لعظمته ..

ولن يُترك سدًى ، بل سيُعينه الله على دوره ، ويُسخر له كل شيء حوله ومعه .. كل شيء تحته وفوقه .. ثم يسأله بعد عن نكوصه وتفريطه ..

* * *

وإن ما يأخذه الواهمون على الدين ، ويظنونه تحدّياً لإرادة الإنسان لَهُوَ في الحقيقة أصدق وأروع شواهد إكبار الدين للإنسان .

فالمسئولية التي يلقيها الدين عليه ليست تكبيلا لإرادته ، بل دعوة لها إلى العمل .. ليست ضغطا على حريته ، بل هتافا باستخدام هذه الحرية .. ليست انتقاصاً من سيادته ، بل توكيدا لحقوق هذه السيادة ..

فأنت لكي تكون سيداً في أسرتك ، أو في قومك ، يجب أن تكون أهلاً لتحمّل مسئوليات هذه السيادة .

والإنسان فوق ظهر كوكبه ، سيد هذا الكوكب ـ وهي ليست سيادة الظُّفُر والنّاب ، بل سيادة التفوّق والتكامل . فمسئولياته إذن لا تعني شَحذ أنيابه وأظفاره .. بل تعني وتتطلب شحذ قُوى تفوّقه واكتماله .. قُوى عقله وإرادته وروحه .

وهذا يعني أن تكون مسئولياته أخلاقية وعقلية .

ويعني أن تكون تدريبات عقله وروحه من نَمَط يُتيحُ للعقل وللروح أن يبلغا في رعاية الله شأوَهُما .

فإذا دُعيَ الإنسان إلى الإيمان بالله ، فلأنّه بهذه العبادة ينشىء ولاءً لازماً بينه وبين خالق الكون العظيم ـ الله رب العالمين ..

وإذا دُعي إلى عبادة الله ، فلكي يُنمّي داخل ذاته ووعيه القدرة على رؤية الأبعاد الأخرى غير المنظورة في الوجود والكون ، ولكي ترفعه لحظات العبادة إلى مجالات تلك الأبعاد فلا يظل مُخلِداً إلى الأرض مفتوناً بها .

وإذا شُرعت له التكاليف فلكي تتدرب إرادته على الصمود والنموّ ..

وإذا دعاه الدين إلى الإيمان بالغيب كله فلكي يُولّي وجهه وعقله شطْر الكون المملوء بالأسرار ليوسّع من تخوم وطنه ويواصل خُطى تفوقه وتقدمه .

وإذا دعـاه إلى الإيمان بالخلود . فلكي يزداد إيماناً بنفسه واهتماماً بمصـيره .

* * *

كل هذا يشكل تكريم الدين . واهتمامه بالإنسان الذي فضّله الله عـلى كثـير ممّن خلق .

« ولقد كرّمنا بني آدم ، وحملناهم في البرّ والبحر . ورزقناهم من الطيّبات وفضلناهم على كثيرٍ ممن خلقنا تفضيلا .. »

* * *

هذه هي مكانة الإنسان ومنزلته عنـد الدين ـ سيّد كوكبه وعالمه ، والجدير بكلما لهذه السيادة من مزية وحق ..

بيدَ أنّ الإنسان مضى في دروب بعيـدة ومتاهات نائية يلتمس فيهـا حكمة حيـاته !

ولئن كان من حقـه أن يفعل ؛ فإن من واجبه ألا يحطّم المصابيح التي وضعتها أقـداره على طريقه .

وأول هذه المصابيح وأخلصها ضوءاً ، هو الدين .

ولو أنّ الناس يفقهون جوهـر الدين . ويدركون روحـه ، لما هرب منه هارب . ولا أسـاء به الظنّ لاغِب ..

وهذا سرّ حاجته الدائمة إلى الدين . أعني إلى جوهـر الدين وروحه .. ففيهما يجد سكينته ويقينه وتقاه .. وفيهما يلتقي بجميع نفسه ، وبحقيقة ذاته .

* * *

إن الإنسان الذي رفع مراسيه وأبحر وسط الظلام والهول كان يجـد في باطنه وتحت حناياه إرادة نافذة تلحّ عليه ، وتشيع في نفسه الأمل ، وفي خطاه العـزم والتوفيق ..

في حلكة الظلام.. في متاهات الزمن.. تحت وطأة القوارع والزلازل..
في غمرات الجهل والتيه .. حيث لا أمل له في نجاة .. ولا رجاء في حياة ..
حيث تتساقط السماء كسفاً..وتتفجر الأرض براكين..وتسيل الأمواه طوفاناً..

حيث ذلك كله .. وأضعاف ذلك كله تلف الإنسان في ضبابها الخانق ويأسها الجاثم ؛ كان صوت ينبعث من أعماقه يقول له : تقدم إن كل هذا الهول سيلقي بين يدي عزمك سلاحه ؛ ويتحول بخاره المحتدم إلى طاقة مسخرة لك وذلول .. ! !

ماذا كان مصدر هذا الصوت يومئذ .. ؟ الفلسفة .. ؟ العلم .. ؟

كلا ، فما كان مع الإنسان في تلك الدهور الغائرة الغابرة منهما شيء . وما كان معه سوى إحساسه الديني . حتى قبل أن تتبين له حقيقة الدين .

فلما جاء الدين ؛ وجاء المرسلون ، وجد إحساسه القديم قاعدة أطلقت وعي الإنسان وأضاءت بصيرته وروحه ..

وصحيح أن الدين تعرض في مراحل سيره وتطوره لكثير من الفتن وابتلي بكثيرين أساءوا استخدامه ؛ وحاولوا تطويعه لأهوائهم .

ولكن حتى تلك الفترات التي أصيب الدين فيها بالضعف ؛ تنهض كأعظم شاهد على مدى تكريمه الإنسان ..

فحين كان الدين متألقاً متفوقاً ، كان الإنسان مثله متألقاً متفوقاً ، عزيزاً .. كريماً ..

وحين كانت الفتن تنتابه والضعف يغشاه ؛ كان الإنسان بكل حقوقه يتقف في مهب الزوابع . وتتوالى عليه الضربات والإهانات ..

حدث ذلك في عصور ضعف المسيحية . حين استبد بها وزيف حقيقتها بعض باباوات العصور الوسطى .

وحـدث أيضاً في عصور ضعف الإسلام • حينما كانت الخلافة العباسية تنهـار ، وحينما كانت الخلافة العثمانية تترنّح ••

إن الأديان تختلف في تفاصيلها من دين إلى دين، لكن جوهرها جميعاً واحد••

والإسلام مثلا ، اتّسع فقهه واتسعت شريعته لمذاهب كثـيرة ، وجرى بين شاطئيه نهر دافق من التفسيرات والآراء •

بَيْد أنّ جوهره واحد •• هو جوهر كل دين جـاء به من السماء وحي ، ومن الله هُـدى •

وهذا الجوهر الثابت للدين هو الذي يحمي دائماً وأبداً حقيقة الإنسان ، ويحفظها من أن تنال منها الفلسفات مهما تتسع ، والعلوم مهما تكتشف •

فاذا اكتشف العلم تأثير أمعـاء الانسان وغدده على سلوكه •• رفع الدين صوته قائلا : ورغم هذا فإن بين جَنْبَيْه إرادة ربّانية تقهر كل صعب •

وإذا كشفت الفلسفة عن دروب العقل التي لا تؤذن بانتهاء ، وتناقضات الحياة والتاريخ ، هتف الدين قائلا :

ومع هذا ، فقد أودع الله فيه بصيرة ونوراً يشحذان لديه حاسّة الاتجاه ، ويهديانه آخر الأمر إلى الحـق والصواب •

هكذا يحمي الدين حقيقة الإنسان •• هكذا تظلّ الحاجة إليه قائمة وباقية ما بقي الإنسان ناهضاً يحمل أعبـاءه في استبسال ، ويتابع مصيره في ثبات •



الرَّجل العاديّ

في الأيام التي يتمتع فيها الضمير الإنساني بالرّشْد والعافية تُعنى البشرية عناية بالغة بالكادحين من أبنائها .. هؤلاء الذين نسميهم « الرجال العاديّين » ..

وحين يغشى الظلام والمرض والتخلّف هذا الضمير ، تزْاورُ البشرية عن واجبها حيال الرجل العادي ، وعن الفقير الذي وضعته ظروفه ومقاديره في الصّفوف الخلْفية .

وحينما يفقد « الرجل العادي » نُصراءه ، يجد الدينَ دائماً في كل زمان وفي كل مكان يذود عنه ، وينادي إليه ، ويقرر حقوقه في صوت صادح جهير .

عندما قال المسيح لأحد الأثرياء :

« إن أردت أن تكون كاملاً ، فاذهب وبعْ أملاكك . وأعط الفقراء » ..

وعندما قال الرسول :

« والله لا يؤمن . مَن بات شبعان وجاره جائع » ..

عندما قال الرسولان الكريمان هذا المبدأ . وقرّراه . كانا بهذا يبحثان عن الوسيلة المجدية التي تؤمّن لقمة « الرجل العادي » وتحمي رزق أهل بيته .

وعندما فرض الإسلام فريضة الزكاة .. وجعلها ضريبةً يدفعها كل قادر . كان يعطي نموذجاً للوسائل الكريمة التي تضمن للرجل العادي حق عَيْشه في كرامة .

فالزكاة بوصفها « ضريبة » تصبح حق الدولة .. وآخذها لا يكون جامعَ

صدقات ، بل آخذ حق .. وهو لا يأخذ حقاً جاءت به أريحية غنيّ .. بل حقاً فرضه الله وملّكه إياه ..

والدين الذي يجعل من الضمير وجهته .. أعني الذي يخاطب الضمير دوماً بتكاليفه وأوامره .. لا يَحصر اهتمامه بالرجل العادي في حقوقه التي يجعل منها قانوناً ، لأنه مع اهتمامه بهذا المعنى وعدم إهماله إياه ، يعلم أن الناس قادرون على الزيغ من القانون مهما يكن إلزامه ، وأن أعظم ضمان وأبقاه ، هو أن يحمل الضمير وحده أبداً ، مسئولية الاقتناع والطاعة والتنفيذ ..

من هنا جاءت عنايته بالناس العاديين شاملة عميقة ..

فهو يُوصي بهم في مرضهم .. وفقرهم وغُربتهم ..

يوصي بهم يتامى .. ومساكين .. ومَدينين ..

وهو لا يَكل أمرهم إلى حماية القانون وحده .. بل وإلى حماية الضمير قبلاً ..

أي أنه لا يهتم فقط بما لهم من حق قانوني .. بل ويهتم بما لهم من حق اجتماعي وإنساني ، وذلك بإحاطتهم بكل مظاهر الاهتمام ، والمشاركة الكريمة ، والتكريم الحَفِيّ .

يصف المسيح عليه السلام عُقبى الأبرار الذين يُعنَون بأولئك المستضعفين ، فيخبر أنهم يجلسون إلى يمين الله ، ويُنادَون :

« تعالَوا يا مُبارَكي أبي ، رِثوا الملكوت المعَدّ لكم منذ تأسيس العالم ..

« لأني جعتُ ، فأطعمتموني .. عطشتُ ، فسقيتموني .. كنتُ غريباً فآويتموني .. عُرياناً فكسوتموني ، مريضاً فزرتموني .. مَحبوساً فأتيتم إليّ » ..

فيجيب الأبرار حينئذ قائلين :

« يا رب متى رأيناك جائعاً ، فأطعمناك •• أو عطشاناً فسقيناك •• ومتى رأيناك غريباً فآويناك •• أو ُعرياناً ، فكسوناك •• ومتى رأيناك مريضاً ، أو محبوساً ، فأتينا إليك » ••! ؟

فيجيب الملك ، ويقول لهم :

« الحـق أقول لكم • بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هـؤلاء الأصاغر ، فبي فعلتم » •

ويجيء الرسول عليه السلام ، فلا يوصي الضمير الإنساني بهؤلاء الناس العاديّين فحسب ، بل ويَضْرعُ إلى ربه أن يجعله واحداً منهم فيقول :

« اللهم أحْيني مسكيناً • وأمِتني مسكيناً . واحشرني في زمـرة المساكين » •

ويقول عليه السلام :

« َمن أراد أن ُتستجاب دعوته وأن تكشف كربتهُ ، فلْيُفرّج عن ُمعْسِر » •

ويرسم رسول الله صورة ُمعبِّرة فيقول:

« احتجَّت الجنة والنار •••

فقالت النار : فِيَّ الجبارون والمتكبرون ••

وقالت الجنة : فِيَّ ضُعفاء الناس ومساكينهم ••

فقضى الله بينهما ••

قال للجنَّة : أنت رحمتي ، أرحم بك من أشـاء ••

وقال للنار : أنت عذابي ، أعذب بك من أشـاء •• » ! !

ويهتم الرسول بإعلاء الشأن الاجتماعي للرجل العادي ، فيتحدث كثـيراً عن الميزان الذي يزن الله به عباده •

« إن الله لاينظر إلى صُوَرِكم،ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم» •

ليس هناك ما يصون للرجل العاديّ حقه في الرّفعة والكرامة مثـل هـذا المبـدأ العظيم .

فإذا فات الرجل العاديّ بهاءُ المنظر ووجاهتـه . فإن ذلك لا ينبغي أن يُبرر تجاهُله أو انتقاصه . لأن المظاهر تُراب في تراب . وإنما ينظر الله إلى قلوب عبـاده وأعمالهم .

وإن أحد أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ليتلو علينا هذا النبأ ، فيقول :

« مرّ رجل على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقـال لرجل جالس عنده : ما رأيك في هذا . ؟ فأجاب : إنه من أشراف الناس ، وإنه والله لحَرِيٌّ إن خطَبَ أن يُنكَح ، وإن شفَع أن يُشفّع ..
« فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم مرّ رجل ، فقال له الرسول : ما رأيك في هذا ..؟ فقال : يا رسول الله . هذا رجـل من فقراء المسلمين . حرِيٌّ إن خطَب ألا يُنكَح ، وإن شفَع ألاّ يُشفّع ، وإن قال ألاّ يُسمع لقوله ..
« فقال الرسول : هذا ، خيرٌ من ملء الأرض من مثل ذاك.» ..

ويجعل الرسول بذلَ العـون للمحتاجين إليه شـعيرة من شعائر الضمير الحـرّ الرشيد .

« لأن أمشِيَ مع أخ في حـاجة أحبّ إليَّ من أن أعتكفَ في مسجدي هـذا شهراً » .

أرأيتم ، كيف يرفع الرسول الخِدمة الاجتماعية والإنسانية إلى أعلى مراتب الأعمال الصالحات .. ؟

ولْنقرأ هـذا الحديث أيضاً :

« إن لله خلْقاً ، خلَقهم لحوائج الناس يفزَعُ الناس إليهم في حوائجهم أولئك الآمنون من عذاب الله » .. ! !

إن الرجال العاديين • هم في كل أمة وقود حياتها المبارك ؛ فعلى كواهلهم أكثر من سواهم تنهض المسئوليات ، وبسواعدهم وجهودهم أكثر من غيرهم تتم الأعمال وتتقدم الجماعات •• وكل إهمال لشأنهم وإهدار لحقهم لا يصيب الأمم بالتخلف فحسب • بل ويباعد بينها وبين الإنسانية الراشدة •

وقبل أن يكون بين الناس فلاسفة وفلسفة ، ومؤرخون وتاريخ وعلماء وعلم ، كان هناك المرسلون يجمعون الكادحين والناس البسطاء العاديين تحت راية الله ليرتفعوا بهم إلى مكانهم الحق ، ويبلغوا بهم قدرهم المسطور •• ! !

ومن قرابة ألفي عام••كان المسيح يعطي ظهره في استغناء ، للذين يستعلون على الناس بثرائهم ، أو بجاههم ، أو بمناصبهم •• وكان يبحث عن البسطاء فيختار منهم حوارييه ، وعن الجموع الكادحة فيمنحها قلبه وحبه وبركته •

ومنذ قرابة ألف وأربعمائة عام • كان محمد رسول الله يتلو على الناس قول ربه ووعده :

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ؛ ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين » ••

وكان يتلو عليهم أيضاً قوله تعالى :

« تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً » •

وكان هو نفسه يضع هذا المبدأ موضع التنفيذ الصادق الأمين فيتخذ من المستضعفين أصدقاءه وجلساءه ، وجنود دعوته ، وحملة رايته •

ويقول لأصحابه :

« أبغوني ضعفاءكم — أي هاتوهم إلي — فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم » ••

وحين دفعه حسن النية ، وطهارة القصد إلى الإقبال على أحد السراة

والعنفوة يدعو إلى كلمة الله ، مُرجِئاً لهذا السبب الاهتمام بأمر أحد فقراء المسلمين جاء يسأله ويستهديه .. نزل الوحي أسرع من الضوء حاملاً إليه عتابَ ربه في أسلوب مُحذِّر .

« عَبَسَ وتوَلّى . أن جاءه الأعمى ، وما يُدرِيكَ ، لعلَّه يَزَّكّى .. أو يذَّكَّرُ فتنفعَه الذكرى ، أمّا مَن استَغْنى ، فأنتَ له تَصدَّى ..؟؟ وما عليكَ ألاَّ يَزَّكّى . وأمّا مَن جاءكَ يسعى ، وهو يخشى ، فأنتَ عنه تلَهَّى ..؟ كلاَّ » .

هذه صورة مشرقة يجد فيها البُسطاء العاديّون والكادِحون مكانهم الحي عندالله .. ومنزلَهم الرفيع الذي بوَّأهم الدين إياه .

ألَم أقُل لكم من قبل : إن الدين أقدر من سواه على أن يَحمي حقيقة الإنسان .. ؟؟

في العلاقات الاجتماعيَّة

البشرية عند الدين . ليست مجرد حيوانات ناطقة ، كما يُعرِّف المناطقة الإنسان . بل هي ، كائنات حية عاقلة مُهذبة .

والإنسان لأخيه الإنسان كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً .

ولقد رأينا من قبل وجهة نظر الدين في مكان الفرد من الجماعة .

وهنا نبصر بعض توجيهاته الرشيدة السديدة في مسئولية الفرد تجاه العلاقات الاجتماعية .. هذه المسئولية التي تجعل من الناس بشراً مهذَّبين .

واهتمام الدين بالعلاقات الاجتماعية ، لا يهدف إلى خلْق الإنسان المهذَّب فحسب ، بل ويهدف إلى زيادة أعداد المهذبين ، فذلك السبيل ، خيرُ السُّبُل لقطع الطريق على الشرّ وعلى قُوى التخريب والنكْسة والفساد .

لقد عبَّر المسيح تعبيره الرائع الجزيل عن واجب الفرد تجاه علاقاته بالناس حين قال :

« أحِبُّوا أعداءكم » ..

« أحسِنوا إلى مُبغضيكم » ..

« باركُوا لاعِنيكُم » ...

إن البشر في معاناتهم الحياة يتقَصَّدون أذى وحماقة ، كما يَنْضَحون خيراً وبِشْراً ..

وما لم يكن هناك قدر مشترك ومتبادل من التسامُح والتفاهُم والوُدّ ؛ فإن الحياة تُصبح بالنسبة لهم جميعاً قاسية وجرداء ..

وليست المشكلة أن يحمل الإنسان نفسه على حب أحبابه وأصدقائه فهو لا شك محبهم من غير أن يبذل في هذا الحب جهداً .

إنما المشكلة في أن يحمل الإنسان نفسه على محبة الآخرين الذين قد يبغضونه .. وقد يضايقونه .. فالأمر كما يقول المسيح :

« إن أحببتم الذين يحبونكم ، فأي فضل لكم ... ؟

« فإن الخطاة أيضاً يحبون الذين يحبونهم .

« وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم فأي فضل لكم ؟ فإن الخطاة أيضاً يفعلون هكذا » ..

إن العلاقات الاجتماعية والإنسانية بين بني البشر ، لتجد في تعاليم السيد المسيح هذه ، ذروة اكتمالها .

وإن السيد المسيح ليلخص القضية كلها والمسئولية كلها في هذا المبدأ .

« كما تريدون أن يفعل الناس بكم ، افعلوا أنتم أيضاً بهم هكذا » .

وحين يصبح التناصح واجباً ، ونقد الخطأ مطلوباً ، فإن الدين في هذا المقام يجعل الرفق ، والنبل ، والصدق في ممارسة النقد فريضة محتومة .

فالإنسان الذي تتحول فضيلة التناصح على شفتيه شماتة .. ويجعل من نقده تشهيراً . إنسان يرثي له الدين ويزدريه .

أولا : لأنه هو نفسه لا يخلو من أخطاء ...

وثانياً : لأنه لوث فضيلة النقد حينما أحالها إلى شماتة وتشهير .

وهنا نلتقي بالسيد المسيح يقول :

« من كان منكم بلا خطيئة ، فليرم بحجر » ..

ونرى رسول الله يرفض أن يواجه شخصاً معيناً بخطئه أمام الآخرين ، حتى لا يحرج شعوره . بل ينتهز عليه السلام فرصة اجتماع عام ثم يقول :

« ما بال أقوام يفعلون كذا . وكذا » ..

تاركاً صاحب الخطأ يعرف نفسه ، ويدرك خطـأه في صمت وسَتر . وكان يعلم أصحابه فيقول :

« من رأى عَوْرَةً فسترها ، كان كمن أحيا مَوْؤودة » .

وبهذه القاعدة الذهبية في العلاقات العامة بين الناس لا يهدف الدين إلى حماية المجتمع فحسب من الثرثرة المسِفّة ، والتشهير الأثيم ، بل ويخلق للفضائل ، الظروف الملائمـة لنموها وإشاعتها .

ذلك أنه لا شـيء كالرفق يُعالج النفس ويُقوّي ضعفها .

كما أن ذلك خـير سبيل لتعويد الناس عـلى أن يَغفِرَ بعضهم لبعض ويتسامح بعضهم تجاه البعض ، فلا يُقابل الإنسان كلَّ أذى يُوَجَّه إليه بأذىً جديد ، يزيد من رصيد الشرّ والسُّوء .

وإن الدين لكبير الاهتمام بهذا الخلق .. خُلُق التسامُح والمغفرة .

وإنه لَيرثي للإنسان الذي يَدينُ الناس بكل ما يخطئون ، ويقتصّ منهم عن كل إساءة يُوجهونها إليه .

ذلك لأن مثل هـذا يَدين نفسه وهو لا يدري ، لأنه غـير معصوم من الخطأ .. وسوف يَقترفُ بدوره في حق الآخرين سوءاً ، فما لم يكن متسامحاً وصفوحاً ، فإنه لن يكون أهلاً لِصَفْح الآخرين وتسامُحهم تجاهَه ..

وإن المسيح ليضرب لهذه القضية مثلا باهراً . فيقول :

« .. لذلـك يُشبه ملَكوتُ السماوات إنساناً ملكا ، أراد أن يُحاسب عبيده ..

« فلما ابتدأ في المُحاسبة، قُدّم إليه واحد مديون بعشرة آلاف...

وإذ لم يكُن له ما يوَفّي ، أمر سَيّدُه أن يُباع هو وامرأته وأولاده وكل ماله ، ويُوفّى الدَّيْن ، فخرَّ العبد وسجَد لـه قائلا : يا سيّد تمهّلْ عليَّ فأوَفّيك الجميع ..

« فتحنّن سيد ذلك العبد ، وأطلقه وترك له الدين ..
« ولما خرج ذلك العبد وجد واحداً من العبيد رفقائه كان مديوناً بمائة دينار ، فأمسكه وأخذ يعنّفه قائلا : أوفني ما لي عليك .. فخر العبد رفيقه على قدميه ، وطلب إليه قائلا : تمهّل عليّ فأوفيك الجميع ..
فلم يرد ، بل مضى وألقاه في سجن حتى يوفي الدين » ..
« فلما رأى العبيد رفقاؤه ما كان . حزنوا جداً وأتوا ، وقصّوا على سيدهم كل ماجرى ..
« فدعاه حينئذ سيده وقال له : أيها العبد الشرّير .. كل ذلك الدين تركته لك ؛ لأنك طلبت إليّ .. أفما كان ينبغي أنك أنت ترحم العبد رفيقك ، كما رحمتك أنا .. ؟؟
« وغضب سيده وسلّمه إلى المعذّبين حتى يوفي كل ما كان عليه..
« فهكذا أبي السماوي يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته » .

إن المسيح عليه السلام يضرب هذا المثل الذي يستمد شكله من واقع الحياة في أيامه .

فقد كان الناس أيامئذ يباعون في ديونهم التي يعجزون عن سدادها .

وهو بهذا المثل يكشف عن حاجة الإنسان .. كل إنسان .. إلى الرحمة والمغفرة .. ومن ثمّ فواجبه أن يتسامح مع الآخرين وأن يغفر ما استطاع للذين يسيئون إليه .

ويدحض الرسول عليه السلام إغراء الغضب وشرّه ، باعتباره — أي الغضب — القوة العمياء التي تصدّ الإنسان عن كل صفح وأناة ، تدفعه إلى الأذى والانتقام ، فيقول :

« ليس الشديد بالصرعة — أي الذي يصرع غيره وينتصر عليه

في عِراك ــ •• إنما الشديد الذي يملكُ نفسه عند َالغضب » •

كما يقول عليه السلام لمن جاءه يسأل أن ُيوصيه بجِماع الخير :

« لا تَغضَبْ » •

ويرسم صورة زكيّة لصنوف الناس من حيث استجابتهم لرذيلة الغضب فيقول عليه السلام :

« •• ألا وإن منهم البطيءَ الغضب ، سريعَ الفيْء ــ أي سريع الرجوع عن غضبه ــ والسَّريعَ الغضب ، سريعَ الفيء • والبطيء الغضب ، بطيءَ الفيء •• فَتِلْكَ بِتِلك •

ألا وإن منهم بطيءَ الفيء سريعَ الغضب •

ألا وخيرهُم َبطيءُ الغضب ، سريعُ الفيء ، وشَرّهم سريعُ الغضب ، بطيءُ الفيء » •

* * *

ويواصل الدين سعيه وعمله في إقرار العلاقات الاجتماعية على خير الأنماط وأزكاها ، ُمزيحاً من طريق سلامتها كل عوامل التثبيط والخذلان •

فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« إياكم والظن ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا َتجسَّسوا •• ولا َتحسَّسوا • ولا َتنافَسوا •• ولا َتحاسَدوا •• ولا تباغضوا •• ولا َتدابَروا •• وكونوا عِباد الله إخواناً » •

إن كل هذه الآفات التي ينهىَ عنها الإسلام • ويضع هجْرها وتركها بين واجبات المسلم الكبرى ، من أكثر ما ُيمزّق سكينة الحياة ويقطع حبل الوُدّ بين ذويها •

والعلاقات الاجتماعية تفشل فشلاً أكيداً في كل جماعة تروج بينها مثل هذه الآفات •

وللعلاقات الاجتماعية عند الرسول "نسق" شامل . حتى لكأنه قانون ينتظم كل حاجاتها .

فللمجلس آدابه .. وللصداقة آدابها .. وللنصح آدابه .. وللسير في الطريق آدابه .. وللحديث آدابه .. وللزيارة آدابها .. بل وللمصافحة طريقتها وآدابها .

ويقدر الإسلام أبلغ تقدير كل همسة . وكل خلجة يمكن أن تنمي مشاعر الود بين الناس ، حتى البسمة العابرة في وجه من تلقاه .. ! !

ويقول عليه السلام :

« يا أبا ذر ، لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » .

ولكي نرى طرفاً من الآداب التي وضعها الإسلام لكل حالات النشاط اليومي بين الناس مما يزكي سلامهم وسلام علاقاتهم الاجتماعية ، علينا أن نطالع هذه التعاليم لرسول الله عليه السلام :

« إياكم والجلوس في الطرقات .

قالوا : يا رسول الله . ما لنا بد من مجالسنا ، نتحدث فيها .

فقال : إذا أبيتم إلا المجلس ، فأعطوا الطريق حقه .

قالوا : وما حقه يا رسول الله ..؟

قال : غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » .

ويقول عليه السلام :

« لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا ، وتفسحوا يفسح الله لكم » .

ويقول :

« إذا كانوا ثلاثة، فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه » .

ويقول :

« إذا أحبَّ أحدكم أخاه فليخبره أنه يحبه » .

« إذا آخى الرجلُ الرجلَ فليسأله عن اسمه واسم أبيه ، وممَّن هو ؛ فإنه أوصلُ للمودَّة » .

وإذا غلبك البغض لأحد فليكن بغضاً رفيقاً :

« أبغِض بغيضك هوناً ما؛ عسى أن يكون حبيبك يوما ما » .

والعلاقات الاجتماعية يجب أن تكون إيجابية بنَّاءة ، وهذا يتم بالتعاون الوثيق وبذل العون .

« مَن كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته » .

« والله في عَون العبد ، ما دام العبد في عون أخيه » .

« وإنَّ أحدكم مرآةُ أخيه ، فإن رأى به أذى ، فليُمِطه عنه » .

« مَن ذَبَّ عن عِرض أخيه، رَدَّ الله النارَ عن وجهه يوم القيامة » .

وعلى الناس أن يحتفظوا لعلاقاتهم الاجتماعية . بحرارة الوُد ، باستثمار كل مناسبة تزكّي حماس المودَّة .

« تصافحوا ، يذهب الغِلّ » .

« وتهادَوْا ، تحابوا وتذهب الشحناء » .

وإهمال هذه العلاقات إهمالا يبلغ بها حدَّ القطيعة ، وِزرٌ عند الدين كبير وخطير .

يقول عليه السلام :

« مَن هجر أخاه سنَةً ، فهو كسَفك دمه » .

تلك نظرة سريعة نلقيها على الروح النبيل والفهم السَّديد اللذين يعالج الدين بهما قضية العلاقات الاجتماعية بين البشر .

هذه العلاقات التي تتّسع مع اتساع فرصها الطبيعية ، مجالات الحب البشري والإخاء الانساني ، وتبلغ الجماعة — أي جماعة — بسببها غايتها المرجوّة من التهذيب والسّمو .

احترام الحياة

تبلغ الحياة في أحضان الدين غاية أمنها ومنتهى عافيتها .

وفي تعاليم الرسول عليه الصلاة والسلام تنعم الحياة بقداسة وجلال .

وإذا كانت الحياة في شتى مفرداتها ووحداتها ، تبدأ بالميلاد . فإن لحظات الميلاد هذه يراها الرسول أعياداً .. ! !

ولو رأيناه عليه السلام . وهو يستقبل النبتة الطالعة . تلدها الأرض في حنان . لرأينا عظمة الإنسان في أبهى مشاهدها ..

إن منظر النبتة تنشق عنها تربتها ، أو الزهرة تتفتح عنها أكمامها ، ليملأ نفسه بالغبطة ، ويهز كيانه بالفرح .. !

وإنه عليه السلام . ، ليقترب منها ، ويلثمها بفم محب ويداعبها بأنامل حانية .. فإذا كانت طلائع ثمر موسمي احتضنتها نظراته العابرة ، وقال متفائلا بها ، ومتحدثاً معها :

« عام خير وبركة إن شاء الله » .. ! !

وهو عليه السلام يهتز غبطة وفرحاً وشكراً ، لكل حادث ميلاد ..

فكل ميلاد جديد ، هو في تقديره حادث عظيم يثير أشواقه . ويبعث اهتمامه .. حتى ميلاد الهلال عندما يبزغ في أولى ليالي ظهوره يستقبله الرسول في حفاوة وحنان ، ويناجيه قائلا :

« هلال خير وبركة إن شاء الله » .

ثم يبتهل إلى ربه العظيم قائلا :

« اللهم أهلّه علينا باليُمن والإيمان والسلامة والإسلام » ..

ثم يعود فيناجيه الرسول قائلا :

« ربي وربُّكَ الله » ...

وإذا كانت الحياة — أيّة حياة — إنما تبـدأ بالميلاد .

فإنها تستبقي وجودها بالنُّموّ والاستمرار .. ثم بحفظ مقاديرها وتأمين مصايرها ..

وفي هذا المجال يقف الدين إلى جوار الحياة يشدّ أزرها ويقدس حقّها ..

فالنبات الذي وُلد ، وداعبت براعمه نسمات الوجود ؛ صار له حـق مقدس في النمو . وفي الاستمرار حتى يبلغ أجله .

وتعهُّده بالسَّقي والرعاية والخدمة ، ليس عملا من أعمال الدنيا فحسب.. بل هو قبل ذلك عبادة يعِدُ الدين عليها بمثوبة الله وجزيل عطائه .. ! !

والحيوان ، له بحـق الميلاد حق الحيـاة ..

ولحياته حُرمات يصونها الدين ويحفظها .

أجـل ..

إن حياة الحيوان التي تبـدو لبعض الناس ضياعاً وهدراً يحترمها الدين احتراماً أكيداً ، ويعلن حقوقها إعلاناً مجيداً .

ها هو ذا رسول الله يقول :

« في كل كَبدٍ رطْبَةٍ أجْر » ..

ويضع أمـام الضمير البشري مثلين باهرين لامرأتين اختلفت طريقتهما في احترام حيـاة الحيوان :

أما الأولى : فكانت بَغِيّاً لا تظن أن لها في رحمة الله نصيباً كانت تسير في يوم صائف قائظ ، فرأت كلباً يلهث من الظمأ ، وهو يطوف ببئر يريد أن يبـلغ

ماءه وما هو ببالغه .. فرقَّ له قلبها . وخلعت خفَّها وملأته من مـاء البئر ، وقدمته للكلب حتى شرب وروي . فشكر الله لها وغفر لها ..

أما الثانية : فامرأة حبست هرة .. فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض . فكانت النار جزاءها وعقباها ..

وحتى حين يُذبح الحيوان لا يفقد حقه في الرعاية والرحمة ..

يقول عليه الصلاة والسلام :

« إن الله كتب الإحسان على كـل شـيء فإذا قتلتم ، فأحسنوا القِتْلَة ، وإذا ذبحتم ، فأحسنوا الذِّبحة ، وليُحِدَّ أحـدكم شَفْرَته ... وليُرِحْ ذبيحته » ..

وقد يجد أحدنا من حقه إذا قرصه برغوث مثلا .. أن يقتله كيف شاء ..؟!

كلا .. فحتى حيـاة البرغوث على تفاهته وضآلته وأذاه . يتدخل الدين لحمايتها من الألم والعذاب .. ! !

تُرى إلى أي مدى يحترم الدين إذن حيـاة الإنسان .. ؟ ؟
إلى أي مدى يحفظ لها حقها في الأمن،ويدرأ عنها الكيد والألم،والاغتيال..
ألا إن الدين ليذهب في هذا الحفاظ إلى أبعد مدى .

ومن رأى المسيح وهو يُحاور رئيس المجمع اليهودي بسبب علاجه مريضاً في يوم سبْت ، لرأى « ابن الإنسان » و « روح الله » في موقف تناهى سمُوه وجـلاله .

ففي يوم سبْت ، جاءته امرأة تعاني آلام المرض وعـذابه .

واليهود يومئذ ، يحرِّمون مزاولة أي عمل يوم السبت حتى لو يكون إنقـاذ حيـاة إنسانية من آلامها .. !!

وعالج « المسيح » المريضة فشفاها الله ببركاته من فورها .

جمع رئيس المجمع الناس ليحاكم « المسيح » أمامهم وسأله :

— كيف تبرئ في يوم السبت .. ؟؟

وفي مثل حدة السيف مضاء . وألقاً . جاءه رد المسيح :

— « يا مرائي ..

« أفمن سقط حمارك في بئر يوم السبت . أنقذته وأبرأته ..

« وحين يمرض إنسان . تنتظره في علته إلى يوم الأحد » ..؟!

ثم أطلق صيحته المباركة الجليلة :

« إنما خلق السبت من أجل الإنسان » .

« ولم يجعل الإنسان من أجل السبت » .. ! !

أجل : إن كل شيء مسخر لحماية الإنسانية .

كل شيء .. الشرائع . والقوانين . والأخلاق . والتقاليد . والنظم والحكومات . والمجتمعات . والمبادىء والفلسفات ..

كل مبدأ يحترم حياة الإنسان . ويصونها . ويقدسها . فهو مبدأ حق وعدل يستحق بدوره الإجلال والاحترام .

وموقف آخر للمسيح عليه السلام . عندما هاجمه الغوغاء والحرس الروماني ليأخذوه [1] .

سألهم :

« من تطلبون » .. ؟؟

قالوا :

« زيد الناصري » .

قال :

« أنا هو .. ولست أسألكم إلا شيئاً واحداً — أن تدعوا هؤلاء

---

(١) راجع كتاب (معاً على الطريق ، محمد والمسيح) للمؤلف .

يذهبون لبيوتهم حتى أستطيع أن أقول لأبي حين ألقاه : إن الذين أعطيتني لم أهلِكْ منهم أحدا » .. ! ! !

إن حياة تلامذته ، لا حياته هو . هي موضع مسئوليته حتى في هذا الموقف الذي يدَعُ الحليم حيران .. ! !

إن مسئوليته عن الذين اتبعوه .. والذين تولّى قيادتهم إلى الله تنسيْه في هـذا الموقف الرهيب نفسه ، وسلامته . ومصيره .

وليس يعنيه إلا حيـاة هؤلاء الذين أئتمنته عليهم المقادير ..

وكل ما يرجوه ويبتغيه أن يقول لربه حين يلقـاه :

« إن الذين أعطيتَني ، لم أهلِكْ منهم أحـداً » .. ! !

وتبلغ خدمة الحياة عند محمد رسول الله غايةً تفوق كل تقدير .

فالحياة الإنسانية مقدسة لدَيْه . مقدسة في دينه .. مقدسة في تفكيره .. مقدسة في شعوره .. مقدسة في سلوكه ..

وهو لم يُرق دماً قط إلا في حرب مشروعة . يدافع فيها عن دينه وحقـه ، ويواجه فيها المشركين وجهـاً لوجـه .

أجَل . إن الإسلام يعرف القتال ، لا يعرف القتل . والقتال عنـده ليس فتنة ، ولا مغامرة ، بل هو جهاد مشروع يعلنه الإمام أو الحاكم ضد مشركين ، أو كافرين ، أو خوارج ، تخرج جيوشهم لمحـاربة الإسلام والاعتداء على الناس .

يقول القرآن الكريم :

« قاتلوا الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا » .

ويقول :

« قاتلوا المشركين كافّة ، كما يُقاتلونكم كافّة » .

ويقول :

« فإن اعتزلوكم . فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم ، فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » .

أمّا دون هذا ، فالإسلام لا يصون الحياة الإنسانية من القتل فحسب ، بل ومن أهون مظاهر الترويع والإخافة .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« لا يشيرَنَّ أحدكُم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري لعلَّ الشيطان يَنزِعُ في يده » ...

ويقول :

« من أشار إلى أخيه بحديدة ؛ فإن الملائكة تلعنه حتى ينتهي » ..

ويصونها من التعذيب والألم ، فيقول :

« إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا » ..

ويصونها من القتل والغيلة ، فيقول :

« لَزوالُ الدنيا جميعاً،أهونُ على الله من دمٍ سُفِكَ بغير حق».

ويقول :

« يجيء المقتول آخذاً قاتِلَه وأوداجُه تَشْخَبُ دماً . يقول : يا رب ، سَلْ هـذا فيم قتلني » .. !!

ويقول :

« لا يقفَنَّ أحدكُم موقفاً يُقتَلُ فيه رجل ظُلماً ؛ فإن اللعنة تنزل على كل من حَضَره حين لم يدفعوا عنه ...

« ولا يَقِفنَّ أحدكم موقفاً يُضرب فيه رجل ظلماً ؛ فإن اللعنة تنزل على كل مَن حضره حين لم يدفعوا عنه » .

* * *

وبعد ...

فإن لحياة الإنسان حرمتها عند خالقها وبارئها .

وإن لدم الإنسان حرمته عند واهبه ومُجريه ..

وإن كل فرد إنساني ، بناء بناه الله وسوّاه ..

فمن ذا الذي يملك القدرة والجرأة على أن يهدم بناء الله .. ؟!

ويبلغ احترام الدين حياة الإنسان غايته الجليلة حين لا يجعل هذه الحياة ملكاً لصاحبها .. بل هي «مِلْك» لله الذي خلقها . وهي «مِلْك» للحياة الإنسانية التي أصبحت تشكّل جزءاً منها .

ومن ثَمّ لا يملك الإنسان ـ أي إنسان ـ أن يتخلص من حياته بالانتحار .. بل ولا يملك حق إهمالها وتعريضها للخطر والهلاك .

يقول الرسول عليه السلام :

« مَن تحسّى سُمّاً فقتل نفسه ، فسُمّه في يده يتحسّاه في نار جهنم خالداً مُخلّداً فيها أبداً » ..

وكان عليه الصلاة والسلام إذا رأى أحد أصحابه يجهد نفسه في العبادة ينهاه ، ويدعوه للرفق بنفسه ، وبحياته قائلا :

« إن لِبَدَنِكَ عليك حقاً » .

* * *

هكذا يحترم الدين الحياة ويقدسها .

وهكذا يصون حقوقها في الأمن ، وفي الاستمرار ..

ذلك أن الله العظيم لم يجعل الحياة عبثاً ، ولم يخلق عباده سدى .

بل إن لكل إنسان حيّ دوره الذي تنمو به الحياة ، ولكل إنسان حيّ ، مصيره الذي لا يملك الفصل فيه سوى الله .

كما تحدث القرآن

في فبراير عـام ١٩٦٢ ، صدرت الطبعـة الأولى من هـذا الكتاب وكان يمثل أول محـاولة من جانبي للدراسات القرآنية المباشرة ٠٠ ولم يكـن ـ كما سيراه القارىء ـ يتبع المنهج التقليدي الذي يتناول القرآن العظيم عن طـريق تفسير السور او الآيات ٠ بل كان يمثـل نمطا آخـر يتناول القرآن من خلال القضايا والموضوعات ٠

فهو ـ مثلا ـ يعـرض قضية « الإنسان العادي » رمـز الكادحين البسطاء الودعـاء ٠٠ او قضية « وحـدة الدين » أو سواهما من القضايا التي تجدونها بين دفتي الكتـاب ، ومن خـلال هـذه القضايا يولي وجهـه شـطر القـرآن الكـريم ، متتبعا آيـاته التي تضيء هـذه القضايا بنوره ، وتغطي احتياجاتها بحكمتـه ٠

ولقد كان العزم ـ ولا يزال ـ ان يكون هذا الكتاب بمثابة الجزء الأول ، تتلوه عـدة اجـزاء ٠٠

بيد اني بعـد صدوره ، نادتني سير الخلفـاء الراشدين ، وسير الرجال الذين نهضوا حـول الرسول ٠٠ واستغرق تاليفهـا وإخراجهـا مـن الوقت ما شغلني عن متابعـة كتاب [كما تحـدث القرآن] ٠

والآن ، وانا اقـدم هـذه الطبعة الجـديدة والثالثة منه ، ياخذني الحنين القـديم إلى إتمـامـه ٠

وإني لاسـأل الله سبحانه ان يهيىء لي من الامـر رشـدا ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حول مائدة القرآن ، نلتقي اليوم ضيوفاً مباركين ..

هذا الكتاب الذي وفد على الدنيا منذ ألف وأربعمائة عام ، والذي ألقاه « روح القدس » على قلب الرسول محمد ، ليكون من المنذرين ، « بلسان عربي مبين » .

ولقد اختلف ناس كثيرون حول هذا القرآن الكريم ، منذ اللحظة الأولى لمجيئه ..

وحتى اليوم ، لا يزالون يختلفون ..

بيد أن الحقيقة التي لم يختلف فيها أحد ، ولم يجحدها جاحد ومعه عقله ، هي تلك المعجزات العظمى التي حققها القرآن بما شاد من عالم .. وبما رفع من قيم .. وبما أضاف إلى الحضارة الإنسانية من أرصدة لا تفنى عن طريق الدنيا المسلمة التي أيقظها ، وجمع شعثها ، وأخرج خبئها النفيس ، وجمعها تحت رايته وإيمانه ..!!

* * *

فالإسلام بكل فتوحاته العقلية ، والروحية ، والحضارية لا يذكر ، إلا ويذكر — قبلاً — هذا القرآن الذي كان معقد العزم ، وموطن السر ، وجماع الطاقة .

هذا الكتاب الذي لم يخلف موعده ، مع القلة المؤمنة التي كانت ذات يوم بعيد تستخفي بإيمانها ، وتهرب بحياتها من الشر المتربص بها في طرقات

مكة ومنحنياتها .

لقد وعدها القرآن ــ يومئذ ــ أحلاماً ، تذهل من فرط خيالها الأحلام ..!!

لكن لم تكد الأيام تمضي حتى صار الحلم حقيقة ..والخيال وثيقة .. وإذا العقيدة المستخفية المرتجفة تأخذ مكانها فوق الشمس .. وإذا الدنيا تدور في فلكها .. وإذا بها تنجب الدعاة الربانيين ، والحكام العادلين ، والعباقرة ، والفلاسفة ، والعلماء .. ويتفيأ الناس ظلالها أفواجاً وزمراً .. وتردد ملايين الألسنة، في عشرات الأقطار .. آيات ذلك القرآن العجب والكتاب المبين .!

* * *

وهذه الصفحات التي تطالعها تحت عنوان « كما تحدث القرآن » لا تزعم لنفسها أنها تقدم القرآن ، أو تفسره ، أو تنتظم بحثاً عنه ..

إنها تلقي السمع ، لا أكثر .. وترسل البصر وراء موكب من آياته الباهرات .

إننا نقرأ الآية من القرآن ، فلا تلبث حتى تذكرنا بآية أخرى مماثلة لها .. ثم تنادي الآية الثانية إلى خواطرنا ، آيات أخرى كثيرات .. وإذا نحن آخر الأمر أمام قضية كاملة ، كونت الآيات المبثوثة هنا وهناك ، كل عناصرها ، وقالت فيها قولاً بليغاً ..!!

ولقد أغراني هذا ، بأن أتتبع بعض الآيات البينات على هذا النسق .

* فإذا آيات ، القرآن يتحدث خلالها عن نفسه ، ويطرح بنفسه كل مايدور حوله من أسئلة الشك واليقين .

وكانت هذه ــ الفصل الأول من كتابنا هذا .

* ونادتني آيات أخرى ، وجدتها في النهاية تنحي القوة عن طريق الحق، وتضع المنطق ، والحجة ، والإقناع ، مكان التسلط ، والإكراه .

وكانت هذه ــ الفصل الثاني من الكتاب .

* وسرت وراء مجموعة ثالثة من الآيات .. فإذا أنا أمام كل حقوق « المواطن العادي » يرسم القرآن في بهاء عظيم كلَّ مبادئها الأساسية ، ويرفع بها راية البعث للجماهير الكادحة ، وللناس البسطاء ، الودعاء ..

وكانت هذه ـ الفصل الثالث من الكتاب .

* ثم بَصُرْتُ بآيات ، تتبع القرآن بها مآسي الناس ، وكُرُباتهم ، وحاجاتهم ، وشكاواهم .. تَتَبَّعها في حنان واهتمام ويقظة ، فبهرتني الطريقة التي يتلقى ويعالج بها تلك المشكلات .

وكانت هذه الآيات ـ الفصل الرابع من الكتاب .

* ثم ألقيتُ السَّمْع ، وهو شهيد ، والبصَرَ ، وهو مُنْبَهِر وحديد إلى آيات ، سمعتها تعزف لَحْناً عجباً ، لحن « وَحْدَة الدين » .

الدين واحد ، منذ أول داع إلى الله : حتى محمد خاتَم الأنبياء والمرسلين ..

وكانت هذه ـ الفصل الخامس من الكتاب .

* ثم دعاني المشهد الحافل ، حيث الأرض هناك غاصة بالأصنام المهشَّمة ، والأوثان المحطَّمة ، والأرباب الكاذبة المخلوعة ، والخرافات المثْخَنَة .

وأدركتُ من فوري أنني أمام الأرض التي دارت عليها أعظم معارك القرآن .. معركة « التوحيد » .

* وعلى صَدْح الآيات التي تُعلن وُجود الله ووحدانيته ، كان الفصل السادس لهذا الكتاب .

عَبْر هذه الرحلة القصيرة الممتعة ، لم أحاول أن أخْلَعَ على الآيات معنى أريده .. ولم أكلّفها غايات لا تريدها .. بل تركتُها تقودُني وحدها إلى غاياتها الباسلة الجليلة ، فإذا أنا أمام فتح عظيم مبين ، أتمه القرآن لحساب الإنسان .. لحساب عقله ، وكرامته ، وضميره ..

ولقد يأذَن الله ذو الفضل العظيم ، فنعود إلى متابعة هذه الرحلة التي

يتحدث القرآن خلالها ، ونصغي نحن إلى هـذا الحديث .

* * *

ولقد أوحَى إليَّ انبثاثُ الآيات وتفرّقها في كثير من السُّوَر ، بينما هي حين تتجمّع في مكان واحـد ، أو سورة واحدة تكوّن قضايا مكتملة العناصر والسِّمات .. أقول أثارَتْ هذه الظاهرة في نفسي ، هذا السؤال .

ـ لماذا لَم يُرتّب القرآن نفسَه ترتيباً موضوعياً ؟؟

فيجمع في سورة النساء مثلا ـ كل آياته التي تعرض قضية المرأة وحقوقها..

ويجمع في سورة « الشّورى » كل ما قاله عنها .

ويجمع في سورة الأنبياء كل ما يريد أن يقوله عنهم .. وهكذا ..

ولم أبحث عن الجواب طويلا ـ فسرعان ما أدركْت في ضوء القرآن نفسه ـ أن القرآن لم يُرتّب نفسه ترتيباً موضوعياً لسبب يسير ،هو أنه ليس كتاباً مُؤَلّفاً .

أجَلَ ... فلو كان القرآن كتابا مؤلفـاً ، لانتَـهج ذلك النَّهْج الذي لم يكن يَؤُودُهُ ، أو يُعجزه .

ولكن القرآن هتّاف بآيات الحق والهدى، يُعطي المناسبةَ حقها في كل حين.

ولو كان الرسول عليه الصلاة والسلام مُؤَلّفاً للقرآن ، لعمد ولَو في آخر عهده بالدنيا إلى ترتيب القرآن وَفق المادة والموضوع .

ولكن الرسول لم يكن يُؤَلّف القرآن ، إنما كان يتلقّاه ..

وفي أسْمَى حالات التّفتّح الروحي ، كانت الآيات البيِّنات تهطل كالغيث، بالهُدى ودِين الحـق، نافِضَةً عن الضمير الإنساني غُبار الجهل ، وعِبْءَ الخرافة ، ووطأة الرّضوخ .

كانت ، ولا تزال تهدي لِلّتي هي أقْومُ غاية .. وأهدَى سبيلا ...

خالد محمد خالد

الفصل الأول

.. عن نفسه
تلك آيات الكتاب

مائتان وثلاثون آية أو تزيد ، تحدث القرآن فيهـا عن نفسه وطرح خِلالها كل الأسئلة التي تتعلّق به ، وأجاب عنها .

ما هو .. ؟

من أين جـاء .. ؟

ولماذا جـاء .. ؟

هل هو سحر ؟ هل هو شـعر ؟ هل هو إفكٌ مُفترى ؟ هل هو أساطيرُ الأولين . ؟؟

هل هو نقض لما سبقه ، أم هو مُصدِّقٌ الذي بين يدَيْه من الكتاب ؟

ولماذا لم يأت جمـلة واحـدة .

وهل جـاء لقريش وحدها .. ؟ أم هو ذِكْرٌ للعالمين .. ؟

وما موقفه من الذين ارْتابوا فيه، والذين خاصموه وولَّوْا عنه مُدْبرين..؟

عشرات الأسئلة طرحها القرآن تِباعاً ، وأجاب عنها في وضوح .. كما جلّى بهـا حقيقته وحكَى بهـا قصته .

* * *

وأول ما يلقاك حين تفتح المصحف هذه الآيات :

« ... ذلك الكتاب لا ريبَ فيه ، هُدًى للمتقين الذين يؤمنون

بالغيب • ويقيمون الصلاة . ومما رزقناهم ينفقون •
والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون •
أولئك على هُدًى من ربهم • وأولئك هم المفلحون » •

سورة البقرة

هذا هو القرآن ، وهـذه هي أُسْرَته ••

أما هو ــ ف « كتابٌ لا ريب فيه هُدًى للمتقين » •

وأما أُسْرَته ، فهم « الذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك » •

وإنها لَبدايةٌ سعيدة وباهرة ، يُنحِّي القرآن بها عن نفسه صفة الإقليمية ، والعنصرية . والطائفية •

فجميع الذين لهم إيمان بالله ، وبالحق . وبالغيب ــ القرآن كتابهم ••
وهو إذن لم يأت لينقض ما سبقه ، بل جـاء يُكَمِّل ويُتمِّم •
والذين يؤمنون به ، يؤمنون حَتْماً وضِمْناً بكل ما سبقه من كتاب •

أما الذين يقفون بإيمانهم عند بعض الكتب السابقة لا غير ، فأولئك يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض •

« نزّل عليك الكتاب بالحق مُصدّقاً لما بين يديه . وأنزل التوراة
والإنجيل من قبلُ هُدًى للناس ؛ وأنزل الفُرقان » •

سورة آل عمران

وإذا كانت التوراة والإنجيل ــ الكتابان اللذان يتحدث عنهما القـرآن ، لم يكونا فِرْيةً ولا ضلالا ــ إنما كانا رحمة للناس وهُدىً ؛ فكذلك القرآن الذي جـاء يتمم رسالة الكتب السابقة والصادقة •

« وما كان هذا القرآنُ أن يُفْتَرى من دون الله ، ولكنْ تصديقَ
الذي بين يديه ، وتفصيلَ الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » •

سورة يونس

وهـذه ــ لَدَى القرآن ــ حقيقة لا ينبغي أن تغيب عن المؤمنين بالكتب السابقة إذا كانوا لا يخسون إيمانهم ، ولا يُحرّفون الحقيقة أو ينكرونها •

« والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه مُنَزَّلٌ من ربّك بالحق» .
سورة الأنعام

بَيْدَ أنَّ هناك فريقاً سيُجمّد إيمانه عند أحد الكتب السابقة وحين يُدعَى إلى الإيمان بهذا القرآن سيكفر ويَثْني عِطْفَه .

« وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل اللهُ قالوا نؤمنُ بما أُنْزِلَ علينا .
ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق مُصدقاً لما معهم » . سورة البقرة

والقرآن يرى في هذا الموقف إنكاراً لقضية الإيمان كلها ، فما دام هو مُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتب ، فلماذا لا يشمله إيمان المؤمنين بها . ؟؟

ولماذا ـ وهو في هذا الموقف بالذات يناقش كبار اليهود الذين حملوا يومئذ راية الجحود والعداوة للقرآن ـ لماذا يكفرون به وقد كانوا من قبل يستَفتِحون على الذين كفروا ..؟ لماذا يجحدونه اليوم .. ؟

يقولون : إنه الولاء لإيمانهم وكِتَابهم ، وأنبيائهم ؟

وعندئذ يَجْبَهُ القرآن سَريرتهم قائلا :

« فَلِمَ تقتلون أنبياء الله من قبلُ إن كنتم مؤمنين » ؟ سورة البقرة

وهو يزيد باطلَهم دَحْضاً ، وحجتهم ضعفاً حين لا ينكر من الكتب السابقة شيئاً ، ولا ينكر عليها شيئاً .. بل يجعلها دائماً موضع إجلاله وتوقيره .

« ومِن قَبلِه كتابُ موسى إماماً ورحمة » . سورة الأحقاف

« ولْيحكُم أهلُ الإنجيل بما أنزل الله فيه » . سورة المائدة

ثم هو يدعو المؤمنين به إلى الإيمان بكل ماسبق من نبي ، ورسول ، وكتاب .

« قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا ، وما أُنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أُوتِيَ موسى وعيسى ، وما أوتِيَ النبيون من ربهم . لا نُفرّقُ بين أحدٍ منهم ونحن له مسلمون » . سورة البقرة

ثم يلتفت القرآن صوب محمد رسول الله ، فيخبره أن الذين يجحدونهما معاً — القرآن والرسول — إنما يستجيبون لجهالات تملي لهم، وأحقاد تستحوذ عليهم .

والذي يصدر عن جهل حرون ، أو تعصب أعمى ، أو حقد ملتاث . لا يزيده وضوح الحجة وانتصارها إلا صدوداً وجحوداً ، فامض أنت في طريقك غير عابىء بهم ، ولا آس عليهم :

« وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً ؛ فلا تأس على القوم الكافرين » . سورة المائدة

* * *

وبنفس النهج الذي ينهجه القرآن في محاجة أهل الكتاب ، يواجه من قبل عبدة الأوثان من مشركي مكة وكفارها .

هؤلاء الذين :

« قالوا : أضغاث أحلام . بل افتراه ، بل هو شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون » ..!! سورة الأنبياء

« وقالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب » . سورة فصلت

« وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها ؛ فهي تملى عليه بكرة وأصيلا » .. سورة الفرقان

وقالوا : — « إفك قديم » .. سورة الأحقاف

وقالوا : — « إنما يعلمه بشر » .. سورة النحل

هؤلاء الذين لم يدعوا اتهاماً ينال من القرآن في زعمهم إلا اقترفوه .

هؤلاء الذين رأوا في القرآن قدراً جاء يذيع نعي آلهتهم ، ونعي الضلال الذي وجدوا آباءهم عليه عاكفين .. تدرج القرآن معهم في سبيل تهنئة أضغانهم ، وتصحيح فهمهم ، وتألف قلوبهم .

وهو إذ يُدرك دَوْرَ الأنانية التي تُحرك الناس وتحدد الكثير من وجهاتهم، يسأل كفار قريش : لمـاذا تُخاصمون القرآن ..؟ أخوفاً منه على أمجادكم .. ؟ ويْحَكم إذَن .. إنه إذا كان لكم مَجْدٌ يُرتَقب ، فلن يَصِلكُم به سببٌ مثلَما يَصِلُكم به هذا الفرقان .

« لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذِكْرُكُم ، أفلا تعقلون » !! سورة الأنبياء

وإذا كانت الأمم لا يخلّد أمجادها شـيء ، مثلما يُخلّدها انتشارُ لسانها ولغتها . فهذا الكتاب سبيلكم إلى الخلود .

« إنا أنزلناه قرآناً عربياً » . سورة يوسف

« بلسانٍ عـربي مُبين » .. سورة الشعراء

« قرآناً عربياً غيرَ ذي عِوج » .. سورة الزمر

على أن هذا القرآن وهو يُذكّر المشركين بهذا النفع الأدبي الذي سيُفيئه عليهم إيمانهم به ، لم يكن يريد أن يتملّقهم ، أو يحملهم على أن يُنشئوا علاقاتهم به وَفْقَ هذا النفع وهـذا الاعتبار .

إنما كان يُذلّل لا غير ، بعضَ الصعاب التي تلقيها غرائزُهم في طريقهم ، وإلاّ فهو إذ يمنّ عليهم بأنه عـربي مبين ، يكشف في نفس الوقت عن التبعات الكبرى التي تترتب على هـذا الاعتبار .

« وما أرسَلْنا من رسول إلا بِلِسانِ قومه لِيُبَيِّنَ لهم » .
سورة إبراهيم

« فإنّما يَسَّرناهُ بلسانك لِتُبَشِّرَ به المتقين ، وتُنْذِرَ بـه قوماً لُدّاً » . سورة مريم

« فإنما يَسَّرناه بلسانك لعلهم يتذكرون » . سورة الدخان

« ولو نَزّلناه على بعض الأعْجَمين ، فقـرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين » . سورة الشعراء

فهو كتاب عـربي مبين ، يخاطبهم باللغة التي يَفهمون ، ويدعوهم إلى الله الحق الذي هم به مشركون .

وحين يذهب خصوم القرآن في عداوته كل مذهب ، يتعقبُهم القرآن ناقضاً إفكهم وداحضاً باطلهـم بأسلوب إيجابي سمح ، لا يُعنَى بتفنيد قولهم ، لأنهـم لا يقولون منطقـاً يستحق التفنيد ، إنما يُعنَى بكشف محاسنه هـو ومزاياه ، وتِبيان نفعه وإلقاء مزيد من الضوء على حقيقته .

فهم ــ مثلا ــ يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام :

« قلوبنا في أكِنَّةٍ مما تدعونا إليه وفي آذاننا وَقْرٌ ، ومن بيننا وبينِكَ حجاب » . سورة فصلت

فيرد عليهم القرآن مقرراً أن ذلك أمر طبيعي ...!! ويقول :

« قل هو للذين آمنوا هُدًى وشِفاء .. والذين لا يؤمنون ، في آذانهم وَقْرٌ وهو عليهم عَمًى ... أولئك يُنادَوْنَ من مكان بعيـد » . سورة فصلت

وهم حـين تفلس حجتهم ويقولون للرسول : « ائْتِ بقرآن غير هـذا » يكشف القرآن عن التواء منهجهم في التفكير ، ويبين أن الأزمـة التي يعانونها ، ليست أزمة القرآن ، بل هي في الحقيقة أزمة الإيمان ــ فهم في ريب ، بل في جحود بالحقيقة الكبرى التي جـاء القرآن يقررها وينشر عبيرها .

وما داموا لا يؤمنون بالله الواحد الأحـد ، ولا يرجُون لقاءه ، فسيظلون هكذا يَعْمهون ..

ولو أنهم آمنوا بأنّ وراء هذه الآيات إلهاً حكيماً عليماً ، ما طالبوا الرسول بتبديلها ، ولَعرفوا أنّه لا يملك هـذا الحق أبدا .

« وإذا تُتلى عليهم آياتُنا بيناتٍ ، قال الذين لا يرجون لقاءنا ائتِ بقرآن غير هذا أو بَدّلْه ، قل ما يكون لي أن أُبَدّله من تِلْقاء نفسي

إن أتّبع إلا ما يوحَى إلي ، إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يوم عظيم ، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ، ولا أدْراكم به ، فقد لبِثتُ فيكم عُمُراً من قبله . أفلا تعقلون » ..!؟ سورة يونس

ويؤكد القرآن هذا المعنى لرسول الله حتى لا يضيق صدره إذ يراهم يكذبون بالقرآن ، ويستنكفون عن طاعته .

يؤكد القرآن للرسول أن نور آياته يُعشي أبصارهم ، ويقتحم قلوبهم الغُلْف المُغلقة ، وأنهم لا يَشكّون في صدقه ، ولكن أزمتهم الخانقة هي حرصهم على آلهتهم ، وكفرانهم بالله الحي القيوم .. وما دام القرآن يهتف بوحدانية الرب ، فهم عنه معرضون .

« فإنهم لا يُكَذِّبُونك ، ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون » .
سورة الأنعام

« وإذا ذكَرْتَ ربّك في القرآن وحدَه ، وَلّوْا على أدبارهم نُفوراً » . سورة الإسراء

« فاسْتَمْسِكْ بالذي أوحِيَ إليك، وإنك على صراط مستقيم . وإنه لذكرٌ لك ولقومك ، وسوف تُسئلون . واسأل من أرسلنا من قبلك من رُسلنا ، أجعلنا من دون الرحمن آلهةً يُعبدون » .؟
سورة الزخرف

★ ★ ★

وحين يلجأ المشركون تارة ، واليهود تارة أخرى إلى التشكيك في القرآن زاعمين أن الله لا يُنزّل على أحد من الناس وحياً ، وقائلين : « ما أنزَلَ الله على بشَر من شيء ، يجيبهم القرآن الكريم قائلا :

« قل مَن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تُبدونها وتُخفون كثيراً ، وعُلّمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم » .؟ سورة الأنعام

ثم يلتفت إلى الرسول قائلا :

« قُل الله ، ثم ذَرْهُمْ في خَوضِهِمْ يلْعبون » • سورة الأنعام

« بل كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولَمَّا يأتهم تأويلُه » •

سورة يونس

وحين تأخذهم العزة بالإثم ، ويعجبون لماذا لم يجد الوحي سوى محمد ليتَنَزَّل عليه ، ويأتيه بهذا القرآن ، يجيبهم :

« والله أعلم حيث يجعل رسالته » • سورة الأنعام

وإذْ يأخذهم الغرور الأهوج الكاذب ، ويظنون أنه لو كان هـذا القرآن حقاً ، لهدتهم إلى الإيمان به قلوبهم ، ولمَا الْتفَّ حوله الفقراء المستضعفون مِن دونهم ، يردّ عليهم القرآن في تهكّم ذكي :

« وقال الذين كفروا للذين آمَنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليـه ،

وإذْ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفْكٌ قديم » ••!!!

سورة الأحقاف

ويمعن الكفار في إفكهم•• يُمعنون في محاولتهم العاجزة المفلسة ، فينعَتون القرآن بكل ما توحي به أحقادهم •

فهو في زعمهم سِحر •• وتارة شِعر ، وتارة مُفترى •• وتارة كهانة ••!!

ويُدَمْدِمُ القرآن عليهم بمنطق يخطف أبصارهم ، ويدُكّ أباطيلهم •• وتَتابعُ الآيات في نشيدٍ قدسي مُجلْجِلْ :

« فلا أُقْسِمُ بما تُبصرون ، وما لا تُبصرون • إنه لقولُ رسول كريم • وما هو بقولِ شاعر ، قليلاً ما تؤمنون • ولا بقول كاهنٍ ، قليلاً ما تَذَكَّرون • تنزيلٌ من رب العالمين • ولو تَقوَّلَ علينا بعضَ الأقاويل • لأخذْنا مِنه باليمين • ثم لقطَعْنا منه الوَتين • فما مِنْكُمْ مِن أحدٍ عنه حاجزين • وإنه لَتذكِرَةٌ للمتقين • وإنا لنعْلَم أنَّ مِنكم مُكذِّبين • وإنه لَحسرةٌ على الكافرين • وإنه لحقّ اليقـين » • سورة الحاقة

ثم يثني زمام الحديث في ختام حاسم حافل ، مُوجهاً القول إلى الرسول •

« فَسَبِّحْ باسْمِ ربك العظيم » • سورة الحاقة

ويتركهم القرآن ، يتخبطون في غيظهم ، ويتهاوَوْن تحت أضوائه النابغة ، كالفَرَاش المخبول ، حين يعلن في حزم أنه لن يشغل نفسه بتُرَّهاتهم . وأنه سيمضي محققاً ظفراً بعد ظفر • وفاتحاً قلوباً إثر قلوب ، وهادياً إلى الله وإلى الصراط المستقيم أجيالاً من بعدها أجيال ، مُتسلحاً بالكلمة المضيئة الهادية •

أجل ، بالكلمة وحدها •

الكلمة التي لا تتكون من أسِنَّةٍ ، ولا مِن رِماح • بل من حُروفٍ بسيطة سَهْلة :

« ا • ل • ر — تِلْكَ آيات الكتاب الحكيم » • سورة يونس

« طَ • س • م — تلك آياتُ الكتاب المبين » • سورة الشعراء

« طَ • س — تلك آيات القرآن وكتاب مبين » • سورة النمل

« ا • ل • م — تلك آياتُ الكتاب الحكيم » • سورة لقمان

بهذه الكلمات المُيَسَّرة في تركيبها ، المعجزة في جوهرها ، الفاصِلَة في منطقها وحجتها • يمضي القرآن مُخلِّفاً وراءه كَيْدَ الكائدين له والمتربصين به •

جاعلا حَسْبهُ أولئك الذين فتحوا لآياته قلوبهم :

« الذين إذا تُلِيتْ عليهم آياتُه زادتْهُمْ إيماناً وعلى ربهم يتوكلون » • سورة الأنفال

ولهؤلاء يُقدِّم نفسه ويُنْبِئُهُم ماهو ••؟ وكيف يَتَنَزَّل ••؟ ولماذا يجيء ••؟

إنه : « بيانٌ للناس ، وهُدًى وموعظة للمتقين » • سورة آل عمران

« وإنه لَتنزيلُ رب العالمين • نَزلَ به الرّوحُ الأمين : على قلبك ، لِتكون من المُنْذِرين » • سورة الشعراء

« نزَّله روحُ القُدُسِ من ربك بالحق ، ليُثَبِّتَ الذين آمنوا وهُدًى وبُشرى للمسلمين » • سورة النحل

وبماذا نَزَل ؟ ولماذا نزل ؟؟

ما موضوعه ...؟ ما وجهته ورسالته ...؟

يجيب القرآن في إيجاز مُبدعٍ شامل عميم .

« وبالحق أنزلناه ، وبالحق نَزَل » . سورة الإسراء

« ما أنزلنا عليك القرآن لِتشقَى ، إلا تذكرةً لمن يخشى ... » .
سورة طه

« كتــاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد » . سورة إبراهيم

ولماذا لا تأتي آياته كما يهوى الناس ، وساعة يريدون ...؟

« وما نتنزَّلُ إلا بأمــر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا ، وما بين ذلك ، وما كان ربك نَسِيـًّا » . سورة مريم

ولماذا لم يتنزَّلْ جملة واحــدة ؟؟

« كذلك لِنُثَبِّتَ به فؤادك ، ورتَّلناه ترتيلا !! وقرآناً فرَقْناهُ لِتقرأهُ على الناس على مُكْث ونزَّلناه تنزيلا » . سورة الإسراء

ولماذا لم يفتح جميع القلوب بنوره مادام حقاً، ولماذا لم يَطْوِ أفئدة الظالمين ...؟؟

« ونُنزِّل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين ولا يزيــد الظالمين إلا خسارا » . سورة الإسراء

« وإنه لَهدى ورحمة للمؤمنين » . سورة النمل

وما طبيعة تركيبه ...؟

« منه آيات مُحكَمات هُنَّ أُمّ الكتاب وأُخَرُ مُتَشابهات . فأمَّا الذين في قلوبهم زَيْغٌ فيتَّبِعون ما تشابَهَ منه ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلهِ ، وما يعلمُ تأويله إلا الله . والراسخُون في العلم يقولون آمنَّا به كُلٌّ مِن عند ربنا، وما يذَّكَّر إلا أولوا الألباب» .
سورة آل عمران

ولمن جــاء هــذا القرآن ...؟

لقريش وحدها..؟ أم للعرب جميعاً..؟ أم للناس كافة..؟ إنه لهؤلاء جميعاً.
لقريش . ولمن حولها من العرب . وللعالمين ..

- « وإنه لَذِكْرٌ لك ولقومك » . سورة الزخرف
- « وهذا كتاب أنزلناه مُبارَكٌ مصدقُ الذي بين يديه ، لتنذر أمَّ القرى ومَنْ حولها » . سورة الأنعام
- « إن هو إلا ذِكْرٌ للعالمين » . سورة ص

إنه تنزيل رب العالمين ، فليكن إذن للعالمين جميعاً .. للناس كلهم ..

« إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق » . سورة الزمر

« هذا بصائرُ للناس وهُدًى ورحمةٌ لقوم يوقنون » . سورة الجاثية

* * *

هكذا حدثنا القرآن عن نفسه .

هكذا أعطانا طرَفاً مضيئاً من قصته ، ومن رحلته ، كما أعطانا قبَساً من جوهره وحقيقته .

ومن خِلال الآيات التي تلوناها ومن خلال آياته جميعاً ، نرى كتاباً عَجباً وفُرقاناً عظيما ، عقدَ نيّتَه وعزمَه على تحقيق أسمى غاية وبلوغ أعظم غرض .. ألا وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور عن طريق هدم الخرافة ، وإعلان سيادة العقل . ووصْل الإنسان بالربّ .

ولقد قام هذا الكتاب المبين في أقل وقت ، بأعظم عمل . وأنجزَ في بضع سنوات ، المهمة التي عقدَ عزمه على إنجازها ، وجعل حمَلته والمؤمنين به رُواداً ينتشرون في الأرض ــ في قلوبهم إيمانهم .. وفي أيْمانهم قرآنهم ..

وفي عشرات البلاد والأقطار نُكّست أعلام ، ودالَت دُول ، حيث ارتفعت مكانها راية القرآن ، وقام عالَمُه ..!!

وعلى طول الزمن ، منذ ألف وأربعمائة عام ، إلى يوم الناس هذا ، وإلى أيامهم المقبلة ، والقرآنُ ناشرٌ ضياءه ، مُذيعٌ نداءه ، يَهدي إلى الله الأحد عالماً

متراحب الأبعاد ، وخلائقَ وافرة الأعداد .

كل كلمة من آياته شريعةٌ ، وعقيدة ، ومِشعل خالد الضياء على طريق القافلة المؤمنة .

* * *

وقديماً وقفَتْ قريش تأتمــر في بأس ويأس ، بآيات هــذا القرآن . وهي تتنزَّل آية ، آية .

وكانوا يُمنعون في الكيد لحاملِ الراية .. محمد رسول الله ، فيملأون مكة شكوكاً حــول الآيات الهاطلة كالغيث .

وكان القرآن يطمئنه ويقول له :

« لكِن الله يشهدُ بما أنزلَ إليك .. أنزَلَه بعلمــه .. والملئكة يشهدون .. وكفى بالله شهيداً » . سورة النساء

وحين كان كيدهم يتزاحم حول القرآن ، كالنُّذُر المخيفة ، كان محمد يفزع ، وتأخذه الهموم الجليلة خوفاً على ذلك النور أن يتمكن أعداء الله من إطفائه .

ولكنَّ القرآن يهدىء رُوعه ويقول في ثقة عزيزة .

« وتمَّت كلمةُ ربك صِدقاً وعــدلا » . سورة الأنعام

« والسماءِ ذات الرَّجْع . والأرضِ ذات الصَّدْع . إنه لقولٌ فصْلٌ . وما هو بالهزل » .. سورة الطارق

« فذَرْني ومَن يُكذب بهذا الحديث . سَنَسْتَدْرِجُهم من حيث لا يعلمون » . سورة ن

ويعطيه الله وعداً ، يجِدُ بَرْدَ كلماته في صدره ، وتَفِيءُ إليه كلّ سكينة نفسه .

ويَذهب عنه الرَّوْع ، وتجيئه البُشرى حينَ تنزل عليه هذه الآية :

« إنَّا نحن نزَّلنا الذِّكْر ، وإنَّا له لَحافظون » . سورة الحجر

الفصل الثاني

.. عن منهج الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة

محمد بن عبد الله .

إنسان أمين ، صادق ، وديع ، أوّاب .

في قلبه إيمان يُخصب الأفئدة .. وفي عينيه أسَى عَذْب ، يتوهّج كلما طوّفَت خواطره حول الضلال الذي يُعانيه قومه .. وعلى جبهته الضارعة نِفارُ عزم رشيد ، يحكي تصميم صاحبه على أن يحمل رشده تِجاهَ الحياة كلها والأحياء جميعاً .

وإنه ليتلمّس إلى الله طريقاً ، ويرجو منه موعداً .. فالله هو الذي سيهديه الصراط المستقيم .. الله هو الذي سيريه الحق الذي يبحث عنه ، ويثبت على الطريق خُطاه .

ويجيئه الهدى واليقين .. ويدعوه الله ليحمل إلى الناس كلمته ، ويبلغهم رسالته . ويستقبل العِبء الجليل بعزم المرسلين .

وبين الأفواه الفاغرة من الدهَش ، والعيون المحملقة من وَقْع المفاجأة ، وقف ذات يوم يعلن رسالته ويقول وسط الجمع الحاشد من قومه :

« إني رسول الله إليكم جميعا » . سورة الأعراف

وتمضي الأيام كالدهور ، كل ساعةٍ منها تلقي على كاهل الرسول متاعبها ومصاعبها ، وتُنذره في نفس الوقت بمتاعب الساعة التي تَليها ..!!

وسلّطت قريش على النبي ومَن سارعَ إلى الإيمان به أضغانها ، وأحقادها المسلّحة بكل وسائل التعذيب والاضطهاد .

هذا ، يُعذَّب حتى تفيض رُوحه ..!!

وذاك ، يُعذَّب وكل أمانيّه في الحياة أن تَفيض رُوحه ..!!

ومحمد تنتظره السخريات في كل طريق ، وتتهاوَى عليه الحجارة تُدمي وجهه المُحِبّ الودُود ..

ألا يستطيع أن يغضب ..؟

ألاَ يستطيع أن يرد ولو على كل مائة لَطْمةٍ من خُصومه، بلطمة واحدة منه ..؟

إن له من شرَف مَحْتِده جاهاً يهيئه لأنه يُقاتل، ويحفزُه لأنه يُجرب قُوَّته ولو في معركة غير متكافئة .. معركة يُواجه فيها وهو وحيد أعزل ، مُجتَمِعاً قَبَليّاً شَحَذَ أنيابه ، وجمع كَيدَه .!

إن للطبيعة البشرية مَهما يَسْمُ بها صفاء الجوهر حدوداً .

ولِينُ الجانب مهما يُوطّىء أكْناف صاحبه ، فإن له مع الشرّ موعداً يتحوّل عنده إلى قصاص ومُناجَزة .

والناس عادة ، لا يُسارعون إلى الغضب وفي أيديهم أزِمّة القوة والسلطان والغلَب .

إنما يحتاجون إلى الغضب إبّان ضعفهم ، ومقاومتهم .

ورسول الله ، في الأيام التي نزلت عليه فيها هذه الآيات كان في حاجة إلى قدر من الغضب يحميه ، ويدرأ عنه غوائل التربُّص والعدوان .

بل إنه في ذلك الموقف الذي دثّره الوحي خِلاله بهذه الآيات الكريمة ، كان يعيش في دوّامة من الأحداث التي لا تدع مجالاً للحلم ، ولا مجالاً للعفو ، ولا مَجالاً للمهادنة .

وحين نتصور أو نَتخيّل المشهد الذي تألّقت فوق أهواله هذه الآيات

الباسمةُ الحافلةُ بالسَّكينة والصَّفْح ، نرَى عجباً أيَّ عجب ..

فالمشهد هناك في ساحة أحُد بالمدينة ، حيث فرغ لِتَوّه أعنف قتال دار بين المسلمين والمشركين ، وحيث عانقت أرضَ المعركة جثث ضحاياها وشهدائها من المؤمنين .. جثث لم يتركها أعداؤها سليمة .. بل شوَّهوها ومثَّلوا بها في وحشية داكنة .

ونزل رسول الله ومعه أصحابه ليودع إخوانه الذين استشهدوا وليحملوهم إلى حيث يدفنون . ولكنه لم يجد شيئاً يحمله ..!!

وجد الجثث قد تحوَّلت إلى أشلاء ممزقة ..!!

لم يقنع المشركون بقتل المسلمين ، بل مثَّلوا بالجثث الصريعة الشهيدة شرَّ تمثيل ..!!

ودار بصرُ الرسول بين معالم الكارثة المُقوَّضة .

سبعون شهيداً من خيار صحبه.. كلهم قد مُثّل بهم.. أنوفٌ مَجدوعة.. وآذان مصلومة .. وأعضاء مبتورة .. ووسط هؤلاء جميعاً ، أحَبّ الناس إلى رسول الله .. عمه العظيم حمزة .. نفس المشهد .. ونفس المصير ..!

وَيْ ... وأطلق الرسول الأمين زفرة ملؤها الأسى ، وأدار وجهه قليلا .. وعزّ على عينيه وَقْعُ مُصابه ؛ فنادت دموعها لتحجب بها قليلا أو كثيراً من المشهد المثير .

وأخذ المسلمين تيارٌ جارف من الغضب والغيظ ، وصاحوا من فَرط حنْقهم على صَوْت رَجُلٍ واحد : « والله لئن أصَبْنا منهم يوماً مثل هذا ، لنزيدنَّ على صنيعهم، ولَنُمثّلن بهم مُثْلةً لم يُمثلها أحد من العرب بأحد أبداً» .

ورسولُ الله ساكت ، كأنّهُ راضٍ عن وعيدهم وغيظهم .. بل ويُروَى أنه هو أيضاً قد وعد جثمان عمه ، وهو يودعه ويُناجيه بأن يثأر له وينتقم .

ولكنْ ، ما يكادون ينتهون من الصلاة على الشهداء ؛ ولا يكادون يفرغون

من دفنهم حتى تنزل الآيات الكريمة العظيمة :

« ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنَة ، وجادلهم بالتي هي أحسن • إن ربك هو أعلم بِمَنْ ضلَّ عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين — وإن عاقَبْتُم فعاقبوا بمثل ما عُوقِبْتُم به •• ولَئِن صبَرْتُم لَهُوَ خيرٌ للصابرين — واصْبر وما صَبْرُكَ إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تكُ في ضَيْقٍ مما يمكرون • إن الله مع الذين اتقوْا والذين هُمْ مُحسنون » •

ويُفيق الرسول عليه الصلاة والسلام من رُعَواء الوحي ، ووجهُه يتألّق تحت ضَوْء المغفرة ، ويقول : « بل نَصبرُ يا رب » ••!

ويُصغي المسلمون لآيات الله• تُلامِس صدورهم المتفجرة وَعيداً، وغَيْظاً ، ولَهباً •• تُلامِسُها هذه الآيات فتُحيلُها بَرداً وسلاماً وصبْراً وسُلواناً ••!

وفيما بعد •• حين جاء يوم الفتح ، ودخل الرسول وأصحابُه مكة ظافرين ، وقف أحد الذين لم ينْسَوْا بعدُ هولَ فاجعة أحُد ، وصاح :

— « لاَ قُريشَ بعد اليوم •• اليومَ تُستباحُ مكة » •••

فإذا النبيّ ، يرسل صوته الشَّكور قائلا :

— كُفّوا عن القوم •• اليومَ تُعظَّم الكعبة •••!!

* * *

ليس أروع ما في هـذه الآيات أنها نزلت على قوم يتفجرون ألماً ويعانون هزيمة ويصلونَ ظلماً ؛ فقالت لهم : اعدلوا ••

وليس أروع ما فيها أنها نزَلَت على قوم يتوهَّجون نقمة وغيظاً •

ليس ذلك أروع ما للآيات من دلالة ، على الرغم من أنها في هذا وحـده ، وبهـذا وحده ، تفوق كل روعة آخذَة ، وكل جَلال ميسور ••

إنما أروع ما فيها أنهـا نقَلَت المشهدَ من زمـانه ومن مكانه ، ونقلَت

الرسول ، والأصحاب ، والدعوة ، إلى لُباب ِ جوهرهم الذي لا ينبغي أن يغيبَ عنهم ، ولا ينبغي أن يذهبوا بعيداً عنه ..

والآن ، فلننظر ..

هـذا رسولٌ يخوض مع أصحابه معركة اضطره إليهـا خصوم قسـاة ، يريدون أن يطفئوا نور الله ..

ولقد انتهت المعركة بهزيمة مُزلزلة ..

فما الآيات المناسبة ـ في تقدير الناس ـ لهـذا المقام ..؟

ما الآيات التي يمكـن أن ينتظر المهزومون سماعها وبين أيديهم أشْـلاء إخوتهم المستشهدين ..؟؟

لعلهم كانوا يتوقعون آياتٍ تشدّ فيهم زِنادَ المقاومة وتثير قـوى المُجابَهة..

آيات إذا لم تُضاعِفْ في أنفسهم اللّهفة على القِصاص ؛ فلا أقلَّ من ألاَّ تدعُوَهم إلى الصفح والصبر ..!!

آياتٍ تُمجد المعركة التي انتهت ، وتَقرع الطبول للمعركة المقبلة ، وتبشر المهزومين بنصر قريب..!! هذا ماكان يُتوقّعُ نزوله من الآيات..فهل حدث..؟؟

أبداً .. لم يحدث من ذلك شـيء ..

بل جاءت الآيات تذكّر الرسول بحقيقته وجوهره..وحقيقةِ دعوته وجوهرها..

جاءت تذكره بعمله الأساسي في هذه الحياة .. تُذكّره بأنه صاحب دعوة ، لا قائد جيوش .. بَطَلُ رسالة ، لا بطلُ حُروب .. وكذلك أصحابه الذين آمنوا معـه ..

لَكأنَّ الآيات الكريمة تقول له :

ـ لقد هُزمت وأصحابك الهزيمة المريرة .. وما في ذلك بأس .. فأنت لم تُرسَل لتحقق انتصارات عسكرية في جبهاتَ قتال ؛ حتى تأسُوَ على هزيمة ، . إنما أرسِلْتَ لتردَّ الإنسان إلى الربّ .. وتَدحضَ الحواجز المصطنعة بين

الخالق والخلْق ، وتهدي لِلَّتي هي أقْوم ، وتقود النفس البشرية إلى خلاصها ومَنْجاها ..

ــ إن مواقفك في جبهات القتــال ليست سوى لحظات عارضة ، تفرضها ضرورات لا تملك لهــا دفعــاً ..

أمَّا أنت أولا ، وآخراً ، فلستَ إلا رسولا .. لستَ إلا مذكّراً ونذيراً .

فإذا كُنتَ الآن ترى السلاح نشوانَ في أيدي أعدائك ، مثلوماً مُهشَّماً في أيدي أصحابك ..

إذا كنت الآن تسمع قريشاً تدق طبول الفرح ، وأصحابك يزفرون أنين الهزيمة ..

إذا كنت الآن ترى إخــوانك صَرْعى ، لم تتركهم الكراهية العميــاء جثثاً هاجعة .. بل أبَتْ إلا أن تمثل بها لترضي حقدها اللئيم المسموم .

إذا كنت ترى كل هــذا فلا تجزع .. لأنك لست ظافراً بقدر ما تربح من معارك .. بل بقدر ما تربح من قلوب ..!!

لستَ منتصراً بقدر ما تَقْتُل من خصوم .. بل بقدر ما تُحيي من أنفُس ، وبقدر ما تَهــدي من ضلال ..!!

من أجل هذا ، انسَ حديث المعركة ووَقْع الهزيمة وتذكّر عملك الرئيسي في هــذه الحيــاة .

« ادْعُ إلى سبيلِ ربك بالحكمة والموعظة الحسنة .. وجادلهم بالتي هي أحسن » .

أهناك « إنسانية » أروع من هــذه ..؟؟

حتى وهو في قلب المعركة يتلقّى حصادها ، لاتقول له الآية: « **قاتِلهم** بالتي هي أحسن » بل تقول له : ــ « **جادلهم** بالتي هي أحسن » ..

سبحان ربنا العظيم ..!!

وتلك ظاهرة لا أعرف لها نظيراً في الدلالة على أن محمداً لم يكن يصنع رسالته ، إنما كان يتلقاها من لَدُن حكيم خبير .

* * *

والقرآن لا يَفْتَأ يدعو الرسول إلى « التي هي أحسن » .

ولا يفتأ يضرب له الأمثال التي تدعَم يقينه ورُوح السلام لَديه .

فهو يُذكِّره بموسى وهارون ، حين أرسلهما الله إلى فرعون ذي الأوتاد ، فقال لهما سبحانه :

« اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا لهُ قولاً ليِّناً لعلَّه يتذكر أو يخشى » . سورة طـه

وهو قبل أن يدعوه إلى الأخذ بالحكمة والموعظة الحسنة ، يذكره بإبراهيم خليل الرحمن :

« إن إبراهيم كان أمَّة ، قانتـاً لله حنيفاً ، ولم يك من المشركين — شاكراً لأنْعُمِه ، اجْتباه وهداه إلى صراط مستقيم — وآتيناه في الدنيا حسنة ، وإنه في الآخرة لمن الصالحين . ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » . سورة النحل

والقرآن كذلك يدعو الرسول الى أن يعلم قومه وأمته والناس جميعاً هـذا السلوكَ الحانيَ البـارّ .

« وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن ، إن الشيطان ينزَغ بينهم ، إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً ، ربكم أعلَمُ بكم ، إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم وما أرسلناك عليهم وكيلا » .

سورة الإسراء

بيْدَ أنَّ هذا النَّهج يحتاج إلى مُصابرة شديدة ، ومُثابرة أشد وهنا يدعو القرآن محمداً ليصبر ويُصابر .

« فاصبر على ما يقولون » . سورة طـه

« واصبر ، وما صبرُك إلا بالله ولا تحزن عليهم ، ولا تكُ في ضيق مما يمكرون » . سورة النحل

« واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا » . سورة المزمل

« فاصبر إن وعد الله حق » . سورة غافر

« فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً » . سورة الإنسان

ويضرب له الأمثال أيضاً بإخوانه الذين سبقوه على طريق الدعوة الى الله ، والذين استعانوا بالصبر والصلاة .

« إن إبراهيم لحليمٌ أوّاهٌ منيب » . سورة هود

« وإسماعيل ، وإدريس ، وذا الكِفْل ــ كلٌ من الصابرين » . سورة الأنبياء

* * *

إن القرآن يصوغ من عبارة « التي هي أحسن » مبدأ من أبهى وأعظم مبادىء العلاقات الإنسانية في البأساء والضراء معاً .

« ادفع بالتي هي أحسنُ السيئة ، نحن أعلم بما يصفون » . سورة المؤمنون

« ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليٌ حميم » . سورة غافر

« خُذِ العفْو وأمُر بالعُرف وأعرض عن الجاهلين » . سورة الأعراف

« ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هيَ أحسن » . سورة النحل

« فإن حاجّوك فقل أسلمتُ وجهي لله ومن اتّبعنِ ، وقل للذين أوتوا الكتاب والأمّيين أأسلمتم ، فإن أسلموا فقد اهتدَوْا .. وإن تولّوْا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد » . سورة آل عمران

والرسول صاحب دعوة ، ومبلّغ رسالة .

وهل غير الحوار الأمين وسيلٌ للبلاغ وسبيل للاقناع ..؟؟

إنه لا سلطان له على ضمائر الناس .

« لستَ عليهم بمسيطر » . سورة الغاشية

وليس من حقه بحال أن يُكرِه الناس على أن يؤمنوا إيمانه، ويقتنعوا اقتناعه.

« أفأنتَ تُكرِهُ الناس حتى يكونوا مؤمنين » .؟؟ سورة يونس

إن عليه أن يهتف بكلمة الله ، ويجهر بالحق ، فمن أبْصَرَ فلِنَفسه ومَن عَمِيَ فعليها ، دون أن يُكرِهَ أحداً على هَجْر اقتناعه .

إنّ عليه أن يصون إيمانه ، وإيمان أصحابه من وطأة الإغراء ، والهَوى ، ويحميه أيضاً بكل وسائل الحماية ، من إرهاب الخصوم وعدوانهم .

« لِكل أمّةٍ جعلنا مَنْسَكاً هُمْ ناسِكوه ، فلا يُنازِعُنّكَ في الأمر ، وادْعُ إلى ربك . إنّكَ لعَلى هُدى مستقيم » .

سورة الحج

« وإذا رأيْتَ الذين يخوضون في آياتنا فأعْرِضْ عنهم حتى يَخوضوا في حديث غيره ، وإمّا يُنْسِيَنّكَ الشيطان فلا تقْعُدْ بعدَ الذكرى مع القوم الظالمين » . سورة الأنعام

« .. إذا سَمِعتُم آياتِ الله يُكْفَرُ بها ويُسْتهزأ بها ، فلا تقْعُدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره » . سورة النساء

« إنْ جادَلوكَ فقُلِ اللهُ أعلمُ بما تعملون » . سورة الحج

ذلك هو المنهج الأمين العادل الذي يرسمه القرآن العظيم لرحلة الكلمة في عالَم الرسالة والبلاغ — حِوارٌ قائم على المنطق ، باحثٌ عن الحق ، راغبٌ في إسداء الخير ..

« لاَ إكراهَ في الدين ، قد تبيَّن الرّشْدُ من الغَيّ » .

سورة البقرة

والذي يُخطىء الحقيقة اليوم ، لن يُخطئها غداً .. ومع الأيام يُراجع الناس أنفسهم ، وتتكشف لهم معالم الطريق ، ويفصل الله فيما اختلفت العقول فيه .

« وإن كان طائفةٌ منكُم آمنوا بالذي أُرسِلتُ به ، وطائفةٌ لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يَحْكُمَ اللهُ بيننا وهو خيرُ الحاكمين » .

سورة الأعراف

وإلى أن ينبلج الفجر ، ويَتَّضح السبيل ، فَلِكُلٍّ رأيهُ وهُداه .

« لكُم دينكُم ولِيَ دين » . سورة الكافرون

فإذا أسرف الخصوم على أنفسهم ، وقالوا على الله الكذب وهم يعلمون ، وبَسطوا أيديهم بالسوء والعداوة ليصدوا عن سبيل الله مَن آمَن .. وليحملوا الناس كَرهاً على هجر إيمانهم بالله ، وبالحق ، فلا بد للحق — حينئذ — من أن يَحمي نفْسَه ويَمتَشِقَ سلاحه .

وعندئذ ، لا — قَبْلئذ — يرفع القرآن في وجه البأس بأساً مثله فيقول :

« وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا » .

سورة البقرة

* * *

الفصل الثالث

.. عن البسطاء الكادحين
وما يدريك لعله يزكى

« عَبَسَ وتولَّى ، أن جاءَه الأعمى وما يُدريكَ لعلَّه يزَّكَّى ، أو يذَّكَّرُ فتنفعَه الذِّكْرى . أمَّا مَن استغنى ، فأنتَ لـه تَصدَّى ، وما عليك ألاَّ يزَّكى ، وأمَّا من جاءك يسعى وهـو يخشى ، فأنت عنه تلَهَّى ..؟ كلا إنها تذكِرَة .. » .

سورة عبس

* * *

لم يكن من بين أمانِيِّه ــ عليه السلام ــ أن يذهب من الدنيا بمال ، ولا بشهرة ، ولا بمجـد .

إنما كانت أمانِيُّه ، أن يكثر عدد الذين يهديهم الله به من الضلال .

كان منتهى آمـاله أن يلقى ربه الكبير في موكب حاشـد حافل من الذين استجابوا لله وللرسول .. الذين اسـتطاع أن يلوِي أزِمَّة قلوبهم الضالَّة .. ويكبَح جماح شهواتهم المتمردة ، ويغرس في قلوبهم مكان الشِّرك توحيـداً ، ومكان الجحود إيماناً ، ومكان الكراهية حباً ، ومكان الزَّيغ معرفة ، وفهماً ، وبصـيرة .

ولقد سلك الى هذه الغاية كلَّ سبيل ، فثابَر ، وصابَر ، ولايَن القلوب القاسية ، وبذلَ من ذات نفسه فوق حلم الحالمين وصبر الصابرين .

وكان وهو يدير بصره حول قومه يُبرِّح به الأسى من أجل أولئك الذين تخدعهم أباطيل الحيـاة ، ويغرهم بالله الغرور .

وكان معنياً بعشيرته الأقربين .. وكان يرى كل قريش ، ثم كل النـاس عشيرة له وأهـلا .

وكان يعلم أن أكثر العامَّة يتبعون كُبراءهم . ومن ثم فقد طالما تمنى أن يهديَ الله الى الإيمان كُبراء قريش وعِلْيَتها .

إنهم إن هُدوا وآمنوا ، جاء الناس على أثَرهم سِراعاً راغبين ، وتخلَّصوا من عَقابيل الشرك والجهالة ، وانطلقوا مع الدين الجديد نحو المصايِر العظيمة الواعِدَة ..

* * *

وإنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ لَجالسٌ ذات يوم مع واحد من سادة قريش وكبرائها ، يحدثه عن الإسلام ويُحبِّب إليه الإيمان ، ويكرِّه إليه الكفر ، ويدعوه إلى عبادة الحي القيُّوم .. وإنه لَكَبير الأمل في أن يرقَّ قلبه ويلين .. فإذا تمَّ ذلك ، يكون الله قد هدى رجلا تقتفي آثارَه عشرات من الرجال ..

وإذْ هو يتحدث إليه ، يُقبل عليهما « ابنُ أمِّ مَكْتوم » واحدٌ من فقراء المسلمين يتحسَّسُ الطريق بعكّازته ، فهو مَكْفوف البَصر ، ضَرير .

ويقف على رسول الله عليه السلام ، يسأله بعض أمور الدين ويقول له : أرْشِدْني يا رسول الله .

وكأنَّما أحسَّ الرسول أن « ابنَ أم مكتوم » جـاء في غير أوانه .. فإن نظرةً واحدة من « السيد القرَشِيّ » إلى هذا المسلم الفقير المُتَسَرْبِل بأسماله المتواضعة ، ستُحرك في أعماقه النفور من دينٍ سيُسَوِّي بينه وبين هذا الأعمى الفقير ، كما ستأخذه العزَّة بالإثم ، فلا يُبدِي عن اقتناعه ــ اذا هـو اقتنع ــ أمام واحـد من العامَّة مثل ابن أم مكتوم .

ولعلّ الرسول رأى أن حديثه الى السيد القرشي ، كان قد بلغ اللحظة الحاسمة التي تَستسلم عندها قوى المقاومة ، حيث أقبَلَ ابن أم مكتوم آنئذ ، فقطع تسلسُلَ الحديث ، وقطع أيضاً تسلسُلَ الشعور الذي كان دائراً داخل نفس السيد القرشي ، والذي كان يتجه في طواعيةٍ صَوْبَ التفهم والاقتناع .

ولم يكن بدٌّ من أن يُعرض الرسول عن ابن أم مكتوم . ويستأنف الحديث مع صاحب الحق فيه .. بَيْدَ أن إعراضه عليه السلام كان مصحوباً بمظاهر الضيّق وعدم الارتياح .

وهكذا ، لم يكد المجلس ينتهي حتى كانت الآيات الكريمة تتنزّلُ على قلب محمد تؤاخذه على ما صَنع ، وتُدير القضية في حوار سريع حاسم ، يُشعرك أن السماوات كلها قد شُغلت حينئذ بأمر هذا المسلم الفقير الضرير ..!!

وعلى الرغم من أن الآيات تخاطب الرسول مباشرة ، فإننا نراها تستعمل صيغة الماضي ، وتُوَجه الحديث الى ضمير الغائب لا إلى ضمير المخاطَب .. فهي لا تقول : عَبَسْتَ وتولَّيْتَ .. بل تقول عبَس ، وتولّى ..

وكأنها تريد بهذا أن تُعلن أن الموقف الذي وقفه الرسول من ابن أم مكتوم ليس من طبيعته ولا من شيمته .

إنه قد يليق بإنسان آخر غير محمد .. أما هو فلا ، ولهذا فإن ذلك الموقف كان دخيلا على طبيعته ، وخلُقه ، وشيمته .. ولهذا أيضاً نرى الآيات ، كأنما تُجَرّد من ذلك الموقف ذاتِه شخصاً آخر تؤاخذه وتُدينه وتقول : « عبَس .. وتولّى . أن جاءه الأعمى » .

لذلك لم يكد الوحي ينتهي من تسجيل مَأخَذِ العبوس والإعراض ، مستعملا ضمير الغائب .. حتى عاد إلى ضمير المخاطَب وهو يزكّي جوهر الإيمان وجوهر الرسالة الكريمة .

فتقول الآية الكريمة :

« وما يدريك لعلَّه يزَّكَّى أو يذَّكَّرُ فتنفعه الذكرى » .

لكأنَّ القرآن يقــول للرسول :

إنما أنت هــادٍ ، ونذير .

إنما أنت مُزَكٍّ ومُذكِّر .

وإنك لترفع راية الله وتدعو إلى كلمته .

والله لا يريد أحداً لثرائه ولا لجــاهه .

إنما يريد مَنْ يُلقي السمْعَ وهو شهيد .

يريد من يسارع إلى مغفرة من ربه ، وبين جوانحه قلبٌ سليم .

يريد الذين يرَوْن في كلمــة الله خلاصَ أنفسهم ، وخَلاصَ مصايرهم ، ويُقبلون عليهــا بروحٍ مُشتاق .

أولئك هم أصفياؤه وأحِبَّاؤه .

أفَتَرن جاءك منهم واحد يتعثر في خُطاه ، ويبحث عن هُداه ، تُعرض عنه وتتولى ، وتمنح اهتمامك ، وحرصك « قاروناً » من « قوارين » المال ووَجهاً عن عِليْة قريش وزعمائها ، جرياً وراء قلبه الزائغ ، وأمَلاً في خلاصه المسلوب ..؟؟

« وما عليك ألاَّ يزَّكَّى ..!! وأمَّا مَنْ جاءك يسعى .. وهــو يخشى .. فأنت عنه تلَهَّى ..؟؟ كلا .. » . سورة عبس

إن هذا الذي جاءك تسبقه إليه أشواقه ، وضَراعاته وابتهالاته أحــقّ بإقبالك عليه ، وسعيك إليه .

أفقيرٌ هو من المال ، والآخر غَنيّ ..؟؟

أضعيفٌ هو في قومه ، والآخر قَويّ ..؟؟

لا بأس ..

فأولئك هم الذين يريدهم الله ..

المُتعَبون ، الذين يتلمسُون الراحة ..

التائهون ، الذين يبحثون عن مَرْفَأ .

الخائفون ، الذين يبحثون عن مَأمَنْ .
المستضعفون ، الذين يبحثون عن ملاذ .
الشُّعْثُ الغُبْرُ المدفوعُون بالأبواب .
البُسطاء الكادحون المالئون حياتهم بالعمل والعَناء ..

أولئك الذين من أجلهم — قبل سواهم — رُفِعَتْ « رايةُ الله » في الأرض لتُظِلَّهم تحتها ، ولتعلن يوم عالمَهم ، وبَعْثَ أيامهم وزحفَ صفوفهم ..

فلا تَشغَل نفسك بكل عُتُلٍّ مستكبر .

وأقْبِلْ بكل نفسك ، وكل شَغَفك وحُبك على هؤلاء البسطاء ، الفقراء ، الوُدَعاء ..

إن في داخل أجسامهم الضامرة الوَهْنانة : قلوباً شامخة مؤمنة ، أعطَتَ الله موعداً ليَجِدَتها حيث يريد ، وساعةَ يدعو .

وقالوا : « ربَّنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير » .

* * *

تلقَّى رسول الله من ربه هذا الدرسَ الأريب العظيم ، فلم يعد أبداً يَأبَهُ بأولئك العِلْيَة الذين كان يرى في هداهم كَسْباً كبيراً لقضية الحق والخير والإيمان .

وعاد إلى الصفوف الخَلْفية يمنحها كل حرصه وحدَبه وعنايته .

ولم يعد يقبل عليه « ابن أم مكتوم » في أي وقت وفي أي مكان إلا ويحتفي بمقدمه ويقول : « أهلا بمن عاتبَني فيه ربي » ..!!

وحَذِقَ الرسول الدرس تماماً ، لأن القرآن لم يزلْ يُذكِّره به دائماً ..

فذات يوم وهو جالس مع نفر من أصحابه الفقراء ، فيهم صُهَيْب ، وبلال ، وعمّار ، وخَبَّاب — مرَّ بهم مَلأٌ من قريش ، فقالوا للرسول :

— يا محمد ، أرضيتَ بهؤلاء من قومك ..؟ أهؤلاء الذين مَنَّ اللهُ عليهم مِنْ بيننا .؟ ألا تجعل لهم يوماً ولنا يوماً ، فإنا نَستَحي أن ترانا العرب مع هؤلاء

الصعفة والعبيد ..؟!

وجاءت آيات الله كالبرق، تخطف أوهامهم، وتقول للنبي:

« ولا تَطْرُدِ الذين يدعون ربَّهم بالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُريدون وجهَه . ما عليكَ من حِسابهم من شيء، وما مِن حِسابِك عليهم من شيء فتطرُدَهُمْ فتكون من الظالمين .. وكذلك فَتَنَّا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء مَنَّ الله عليهم مِنْ بيننا ..؟ أليسَ اللهُ بأعلمَ بالشاكرين .. » . سورة الأنعام

ولا يفتأ الوحي يذكره بهذا السلوك ويحضُّه عليه .

« واصْبر نفسَك مع الذين يدعُون ربَّهم بالغَداةِ والعَشِيِّ يريدون وجهه، ولا تعْدُ عيناكَ عنهم تُريد زينةَ الحياة الدنيا، ولا تُطعْ مَن أغفلْنا قلبه عن ذِكْرِنا واتَّبع هَواه وكان أمرُه فُرُطا » . سورة الكهف

ويُذكّره بأيام الله، وما شهِدَتْه من محاولات ذَوِي الثراء والبأس ليُبْعِدوا عن نور الله عباده الفقراء .. وكيف كانوا يُعيِّرونَ أنبياءهم بمن سارع إليهم من المستضعفين .

فقوم نوح يقولون له :

« وما نَراكَ اتَّبعك إلاَّ الذين هم أرَاذِلُنا، بادِيَ الرأي، وما نَرى لكُم علَينا من فَضْل » . سورة هود

وألحَّ قومُه عليه . كي يُنحِّيَ عنه فقراءَ المؤمنين، فما كان جوابُه ــ كما قصَّ القرآن الكريم إلا أن قال :

« ومَا أنا بِطارِدِ الذين آمنوا إنهم مُلاقُوا ربِّهم ولكني أراكُم قومـاً تجهلون .. وياقوم مَنْ ينصُرني من الله إن طردتُهم .. أفلا تذكَّرون » . سورة هود

ويُمعن القرآن في خَضْدِ شوكة الصَّلِفِينَ بمكانتهم، المزهُوِّين

بجاههم ، المستَعْلين بأموالهم ، فيضرب لهم مثلاً ، يتلوه عليهم ليزدجروا ؛ كما يتلوه على الضعفة من المؤمنين ليزدادوا فرحاً بما معهم من نعمة الهدى واليقين .

أما بَطل ذلك المثال فهو قارون .

« إن قارون كان من قوم موسى فبَغى عليهم ، وآتيناه من الكُنوز ، ما إنَّ مفاتِحَهُ لَتنُوء بالعُصْبَةِ أولي القوة . إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يُحب الفرحين . وابتَغ فيما آتاكَ اللهُ الدار الآخرة ، ولا تَنْسَ نصيبَك من الدنيا وأحْسِنْ كما أحسَنَ الله إليك ، ولا تَبْغِ الفسادَ في الأرض ؛ إن الله لا يحب المفسدين .

قال : إنما أوتيتُه على علم عندي .. أوَلَمْ يعلم أنَّ الله قد أهلك من قبله من القرون مَن هو أشَدُّ مِنه قُوةً وأكثرُ جمعاً — ولا يُسئَلُ عن ذنوبهم المجرمون فخرج على قومه في زينته ، قال الذينَ يريدون الحياة الدنيا ، ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظٍّ عظيم .

وقال الذين أوتوا العلم : وَيْلَكُمْ ، ثَواب اللهِ خيرٌ لِمنْ آمن وعَمِلَ صالحاً ، ولا يُلَقَّاها إلا الصابرون . فخسفنا بِه وبداره الأرض ، فما كان له من فِئَةٍ ينصرونه مِن دون الله وما كان من المنتصرين . وأصبح الذينَ تمنَّوْا مكانه بالأمس يقولون وَيْ كأنَّ الله يبْسُطُ الرزق لمن يشاء من عباده ويَقْدِر ، لولاَ أنْ مَنَّ الله علينا لَخَسفَ بنا ، وَيْ كأنَّه لا يُفلحُ الكافرون — تلك الدارُ الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلُوًّا في الأرض ولا فساداً ، والعاقبةُ للمتقين » . سورة القصص

* * *

أكانَ القرآن بموقفه هذا ، يُمجِّد الفقر ، ويتحدَّى الثَّراء ..؟ كلا . وإنما هو يرد الإنسان الى جوهره وحقيقته . ويرفع قدره فوق كل مُواضعات

العرف الإنساني حين تضطرب في يد هذا العرف معايير القيم وحقائق الأشياء .

ففي كل زمان ومكان ، ينظر الناس الى أهل الثراء والحظوة ، نظرة ملؤها التوقير ، والمهابة .. بينما ينظرون الى أهل الخصاصة والفقر ، نظرات تتراوح بين الرثاء والازدراء .

والقرآن يواجه هذا الميزان المختل المضطرب بمنطق صارم حاسم .

منطق يستمد صدقه من إدراكه لحقيقة الإنسان .

هذه الحقيقة المتمثلة في أنه ـــ أي الإنسان ـــ حامل مشيئة الله في الأرض .. وهو بحكم كونه « خليفة الله » كما ذكر القرآن ، فإن وظيفته في هذا الكوكب ، تحقيق الغرض الجليل الذي ارتبطت ـــ في ضمير الأزل ـــ أسباب وجوده ، بحتمية تحقيقه .

إن النوع الإنساني لم يوجد لتنشطر صفوفه إلى أغنياء ، وفقراء .. ولا إلى سادة وعبيد .. ولا الى أقوياء وعجزة .. ولا إلى رعاة ، وسوائم ..

إنما وجد ليتحرك صفاً واحداً ، داخل حظوظ متكافئة من القدرة ، والسيادة والكفاية ..

يرفض أن تقرر « شهادات الميلاد » مصاير الناس ، وتحدد أقدارهم ..!!

وهو إذا كان يعلن أن الله فضل بعض الناس على بعض في الرزق . فإنه لم يكن يعني أبداً أن هناك ناساً خلقوا ليعلفوا .. وآخرين خلقوا ليترفوا ...!!

لم يكن يعني أبداً أن أقدار الناس في الحياة يحددها عدد الأموال التي في جيوبهم وخزائنهم .

إنما يحددها نصيب كل فرد من الجوهر الإنساني ذاته .

وما الجوهر الإنساني هذا ..؟؟

إنه الحقيقة الحرة التي انتشرت في ملايين الأجيال من البشر ، تعبر عن نفسها وتحقق ذاتها ..

إنه العمل الدائم في صدق ، وشوق ، وذمّة ، لتحقيق الخير العام ، والكمال العــام ، وتمكين جميع البشر من أن يصيروا « مُواطنين سعداء » في « مدينة الله الفاضلة » .

ونصيب كل فرد في هذا العمل الجامع ، وهذا السعي المشترك ، هــو الذي يحدد قــدره ، ومكانه .

لا الفقر ولا الغنى .. لا الصحة ولا المرض ..

لا البياض ولا السواد .. لا السيطرة ولا التبعيّة ..

لا شيء من ذلك كله ، يحق له أن يتحكم في أقدار الناس وفي مصايرهم .

إنه العمل وحده... العمل الصالح الذي يستمد خصائصه من جوهر الإنسان وجوهر رسالته .

فالفقير الذي يحمل في هذا العمل عِبْئَه ،عظيم وإن قَعَــد به فقره .

والثريّ الذي يتخلّف ويُخْلِدُ إلى الدَّعَة ، صغير وإن قفز به ثَراؤه .

فإذا تخلّف الفقير ، وتقدّم الثريّ ، فقد باءَ الأول بالإثم ، ولم يشفع له فقره .. وذهب الثاني بالخير ، ولم يقعد به ثراؤه ..

فالعمل السّديد النافع من أجل خير النفس وخير النوع ، هو المعيار الذي يُوزَنُ به الناس .

« فَمن يعمل مثقال ذَرَّةٍ خيراً يَرَه ، ومن يعمل مثقالَ ذَرَّةٍ شَــرًّا يَرَه » . سورة الزلزلة

و « قارون » الذي عرَضت الآيات السالفة نبأه ، لم يُضْرَبْ مثلا للشر بسبب ثرائه ، بل لأنه بَغَى على الناس بهــذا الثراء .

فعُلُوّهُ وفسادُه هما اللذان ساقاه إلى مصيره الوخيم ، وليس ثراؤه وغِناه .

من أجل هذا ختم القرآن الكريم قصة قارون بهذه الآية الباهرة :

« تلك الدارُ الآخرةُ نَجْعَلها للذين لا يُريدون عُلُوًّا في الأرضِ ولا فَساداً ، والعاقبة للمتقين » . سورة القصص

★ ★ ★

ومن أجل هذا أيضاً ، يَضرِب المثَل في القرآن أكثرَ من مرة ، فتقول آياته الصادقة :

« ضَرَبَ الله مثلاً ، عبداً مملوكاً لا يقدرُ على شيء . ومَن رَزَقْناه مِنّا رزقاً حسَناً فهو يُنفق منه سِرًّا وجَهراً ، هَلْ يَسْتوُون ..!؟ الحمدُ لله ، بل أكثرُهم لا يعلمُون ..

وضَرَبَ الله مثلاً رجلين أحدُهما أبْكَمُ لا يَقْدِرُ على شيء ، وهو كَلٌّ على مَولاه ، أيْنَما يُوَجِّهه لا يَأتِ بخير .. هل يستوي هو ومَن يأمُر بالعدل ، وهُو على صراطٍ مستقيم » ..؟؟ سورة النحل

فالذين يضَعُون ثروتهم ، والذين يضعون طاقتهم في خدمة الخير العام ، هم المثَل الطيِّب والأعلى في هذه الحياة .

أما الذين ينسحبون من تبعاتِهم تِجاه هذا الخير العام ، فأولئك هم عبيد العجز ، ومماليكُ المَهانة ـ أثرياء كانوا ، أم فقراء .. سادَة كانوا ، أم تَبَعاً ..

ذلك هو معيار التفوّق الذي يرسمه القرآن .

وهو حين يقول :

« ورَفع بعضَكم فوق بعضٍ درجات » سورة الأنعام

« انظر كيف فضَّلْنا بعضَهم على بعض » سورة الإسراء

فتلك ، أفضليةُ العمل .. والدرجاتُ التي يتبوَّأُها الناس بما يبذلون من جُهدٍ شريف لتحقيق أغراض شريفة .

وإن القرآن الكريم ليُصَحِّح في أفهام الناس معنى التفوق والتَّبَوُّء إذ يقول :

« ولَو شاءَ الله لجعلَكُم أمَّةً واحدةً . ولكن ليبلوَكم فيما
آتاكُم فاستَبِقوا الخيرات .. إلى الله مَرْجعُكمْ جميعاً
فيُنبِّئكُم بما كنتم فيه تختلفون » . سورة المائدة

أجَل .. « فاسْتَبِقوا الخيرات » .

هذا وحده ، المعراجُ الذي رفعه القرآن للناس كي يصعدوا عليه إلى كل كمالٍ ميسور ، وإلى كل رفعة مأمولة .

وهذه وحدها ، السِّمة المميِّزة للذين تؤهلهم جهودهم العادلة لأن يأخذوا مكانهم مع بُناة الحياة ..

* * *

من أجل إقرار هذه الحقيقة ، عاتب الله رسوله حين لَوَى اهتمامه ـ ذات مرة ـ عن مؤمن فقير مُؤْثِراً عليه واحداً من السادة ، طمع الرسول في إسلامه !.

وعلى الرغم من صدق النيّة ونُبل المقصد ، فإن القرآن لم يرضَ لهذه الواقعة أن تمرَّ دون أن تكون موضع تساؤل منه ومؤاخذة .. ودون أن يَقْرعَ عندها الأجراس ، معلناً حقوق « المُواطن العادي » ومقدساً كرامته ..!!

ولم يشأ القرآن لهذه الواقعة أن تمرَّ دون أن يُسجل في هذه الآيات ، وفي آيات أخرى مُماثلة ، المعايير السديدة العادلة التي تحدد أقدار الناس وتجعل التفاضُل بينهم موصول الأسباب بهذه المعايير نفسها ، لا بما تواضَعوا عليه من زخرف الحياة وغُرورها ...

وعلى الرغم من أن الرسول عليه السلام كان بما فطره الله عليه من خُلُق عظيم آخذاً بتلك المعايير العادلة ، وآخذاً مكانه دوماً مع البسطاء ، الفقراء ، الوُدعاء .

على الرغم من هذا فإن الله سبحانه وتعالى لم يدَعْ هذه الهفوة تمرّ دون أن يجعل منها درساً يملأ رنينه الصادق وَعي الناس جميعاً عَبْر الأحقاب والأجيال .

« عبَس وتولّى ، أن جاءه الأعمى ، ومَا يُدريك لعله يزَّكّى ، أو

يذَّكر فتنفعَه الذكرى ـ أما مَن استَغْنى، فأنتَ له تَصدى..؟
وما عليك ألاَّ يَزكّى !! وأما مَن جـاءك يسعى ، وهو يخشى ،
فأنه عنه تَلهَّى ؟! كلاَّ .. إنها تَذْكِرَة.. » . سورة عبس

★ ★ ★

إن القرآن يريد أن يهدي الناس إلى عالَم يَقوم الإخاء فيه مكان التمايُز ، والحبّ مكان الكراهية ، والتّناصر مكان التربُّص .

عالَم ، يكون الولاء فيه للحق ؛ لا للمنفعة .. وللجوهر الباقي ؛ لا للأغراض الزائلة ..

وإذ كان الإنسان مَحطَّ الرجاء في حمل كل أمانة جليلة من أمانات الحـق والحياة ، فيجب أن يتحرر هذا الإنسان من كل ضغط يعُوقه .

وإذا كان « الإنسان » أو « الإنسانية » هما مجموعة أفراد .. فلا بد إذن من أن يتحرر كل فردمن كل ضغط .

ومن شـرَّ هـذه الضغوط ـ الإحساس بالدونيَّة .. إحساس الفـرد ـ أيّ فرد ـ بأنه ضئيل ، وبأنه هَمَل ، وبأنه شيء غير منظور . وغير مذكور .

ولهذا لم يكد القرآن يرى فرداً من الأمة يتعرض لهذا الموقف حتى سارع إلى نجدته ؛ ووقف بجانب كرامته وحقه . يذود عنهما في إصرار وجلال . ويرفض أن يَنال منهما شيء ، حتى لو كان الثمن هـداية عظيم من عظماء قريش لعله إن أسلم ، دخَل الناس على أثره في الدين أفواجاً ..!

ويُراحِبُ القرآن هـذه الدائرة . ويهتف هتافاً قُدْسياً بكل حقـوق « الفرد العادي » وحقوق الناس « جميع الناس » فينفخ فيهم من روحـه عزَّة وكرامة ، ويدْعوهم لينهضوا مَرْفوعِي الجِباه ، ويقول لهم :

« ولا تَهِنوا ولا تحزَنوا ، وأنتم الأعْلَوْنَ إن كنتم مؤمنين ».
سورة آل عمران

ويُذكّرهُم بأنهم مع الله على موعـد دائماً :

« ولقد صدَقَكم الله وَعْدَه » . سورة آل عمران

ثم يرفع أقدارهم إلى المنتهى فيقول :

« وهو الذي جعلكم خلائفَ الأرض » . سورة الأنعام

ثم يرفعهم إلى مستوى المسئوليات العامة ، ويرفعهم إلى مستوى القيادة ، ومع مَن ..؟؟ مع رسول الله الذي اختاره الله واصطفاه فيتلقى الرسول نفسه أمر القرآن بألاّ يُبْرِم من دون الناس أمراً بل يشاورهم ويستفتيهم :

« وشاوِرْهمْ في الأمر » . سورة آل عمران

ويُمهد القرآن لهذا الأمر بالشورى تمهيداً تناهى في الحكمة والروعة فهو يقول :

« ولوْ كُنْتَ فظاً غليظَ القلب لانْفَضّوا من حَولِك فاعفُ عَنْهم واستغفِرْ لهم .. وشاوِرْهمْ في الأمر » .

سورة آل عمران

تصوروا رسولاً ينزل عليه الوحي من ربه ، ثم يدعو أناساً عاديين : فقراء ، بُسَطاء..ويسألهم : مارأيكم ..؟ وبم تشيرونعليَّ..؟ ثم ينزلعند رأيهم..!!

ألا يرفع هذا السلوك من أقدار الناس أمام أنفسهم ..؟

ألا يمنحهم ذلك ثقة كاملة بأنهم سادة ، وبأنهم الأعْلَوْن ..؟

ألا يدفعهم ذلك إلى الإيمان بأنهم أهل للرسالة الجليلة التي حملوها وبأن مسئوليتهم عن حفظها لا تقل عن مسئولية الرسول نفسه ؟.

بلى.. ولقد مضى الرسول يلبي دعوة القرآن ، ويستشيرهم في كلخطوة..

استشارهم يوم «بدر»، فأجابوه، وقد رأوه يُفوّضهم في تقدير الموقفكله :

ــ « يا رسول الله . والله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك » .

وشاوَرَهم يوم أُحُد .. وكان رأيه ألاّ يخرج إلى العدو ، وكان رأي المسلمين أن يخرجوا ، فنزل عند رأيهم .

وشاوَرَهُمْ يوم الخندق •• وكان من رأيه أن يُصالح الأحزاب على ثُلُث ثمار المدينة ، وعارض رأيَه بعضُ المسلمين ، فتخلَّى عن رأيه ونزل على رأيهم •

بل شاوَرَ أصحابه في أخصِّ شئونه ••

فيحدثنا الإمام «ابن كثير» أنه حين شاعَ حديثُ الإفك وتعرضت أم المؤمنين « عائشة » رضي الله عنها لمؤامرة دنيئة أرادت أن تنال من سمعتها الطاهرة أملاً في إيذاء الرسول وإحراجه ، دعا النبي أصحابه وقال لهم :

ــ « أشيروا عليَّ معشر المسلمين، فوالله ما عَلِمْتُ على أهلي من سوء » ••!!

والقرآن العظيم ، يكاد يتركنا نفهم أنه يُعلِّق على الشورى أكبر الآمال في تحرير الناس من الهوان ، فهو في آية أخرى من آياته يقرن الشورى بالإيمان والصلاة ، ويجعلها مثل الإيمان ومثل الصلاة واجباً على الناس جميعاً ، وليست فرصة لصفوة أو لطائفة فيقول القرآن في وصْف المؤمنين :

« والذين استَجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأمرُهُمْ شُورى بينهم » • سورة الشورى

فليست الشورى ترفاً ••

وليست فرضَ كِفاية ، ينوبُ بعضُ الناس في أدائه عن بعض •

بل وليست مُجرد حق يملك أصحابُه أن يتنازلوا عنه •

إنما هي صفة ثابتة تأخذ مكانها في الآية إلى جوار الصفات الأساسية للمؤمن، كالإيمان بالله ، وكالصلاة •

بل إن هــذا المقطع من الآية ، المقطع الذي لا يزيد عن كلمات ثلاث هي : « وأمرهم شورى بينهم » ــ كانت أهميته لدى القرآن بالغة ، إلى حد أنه سمَّى السورة التي تضم هذه الكلمات الثلاث باسم « الشورى » ••!!

سورة تنتظم ثلاثاً وخمسين آية ، ليس بها عن الشورى سوى هذه الكلمات الثلاث ، ثم يعطيها القرآن سمتها ويخلع عليها اسمها •!

ومغزى آخر ، له دلالته الكبرى ..

فسورة الشورى هذه مكّيّة ، نزلت في مكّة ، وفرض القرآن على المسلمين الشورى وهم يقيمون يومئذ في بلد يعج بخصوم أقوياء .

وكان القرآن يومئذ معنياً ببناء « الشخصية المؤمنة » ، فهو إذن لا يرى في الشورى سبيلا للوصول إلى القرارات الحكيمة التي تتطلبها سلامة الجماعة ، فحسب ...

بل ويراها قبل هذا ، سبيلا — أي سبيل — إلى بناء الفرد القوي ، وشحنه بكل قوى الثقة ، والتهلل ، والإبداع .

* * *

على هذا النسق الباهر — بَدْءاً من : « عبس وتولى » ، إلى « وشاورهم في الأمر » — مضى القرآن الكريم يرفع من قدر « المواطن العادي » وينشىء له عالمه الكبير . ويعده لتسلم الراية .!

مضى يبشر بمساواة شاملة صادقة، ليس لها سقط متاع، ولا نفاية أتباع..!

مساواة لا غبن فيهـا ، ولا ضراوة لهـا .

ومن بلال ، وصهيب ، وخبّاب ، وإخوانهم البسطاء الودعـاء — أسس القرآن أمة جاءت في أوانها ؛ لتصحح موازين الحياة ، وتقوّم اعوجاجها .

* * *

الفصل الرابع

.. عن اهتماماته الانسانية
والله يسمع تحاوركما

ذات يوم ، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب يجتاز شوارع المدينة ومعه بعض أصحابه ، سمع صوتاً يناديه من وراء ، يا عمر .

فالتفت عمر ، فإذا سيدة عجوز تقبل عليه ، ولا تكاد تبلغه حتى تستوقفه قائلة :

ـ رُوَيدَكَ يا عمر حتى أكلمَك كلمات قليلة ..

ويقف أمير المؤمنين أمامها خاشعاً ، وتتحدث إليه فتقول :

ـ « يا عمر . عهدي بك وأنت تسمّى « عُمَيْرا » تصارع الفتيان في سوق عكاظ ، فلم تذهب الأيام حتى سُمِّيت « عمر » .. ثم لم تذهب الأيام حتى سُمِّيت « أمير المؤمنين » .. فاتقِ الله في الرعية ، واعلم أنه من خاف الموت ، خشِيَ الفَوْت » ..!!!

وانبرى إليها أحد أصحاب عمر ، قائلا : لقد اجترأتِ على أمير المؤمنين ..

فجذبه عمر من يده ، وقـال له :

ـ « دعها فإنك لا تعرفها .. إنها « خَوْلَةُ بنت حكيم » التي سمع الله قولها من فـوق سماواته ، وهي تجادل الرسول في زوجها وتشتكي إلى الله . فعُمَرُ والله حَرِيٌّ أن يسمع كلامها » ..!!!

فمَن كانت هذه السيدة العجوز التي استوقفت أمير المؤمنين في الطريق لتقول له : كنت « عُميرا » فأصبحت « عمر » •• وكنت « عمر » فصرت « أمير المؤمنين » ••؟!

إنها السيدة التي أفرد القرآن لها سورة من سُوَره أسماها سورة «المجادلة» •

ولكن ــ قبل أن نُطالع قصتها ــ ما شأن القرآن بها ••؟

إن شأنه بها ومعها ، هو شأنه بمشاكل الناس التي كان يتتبعها في يقظة ، ودأبٍ ، ورحمة •

المشاكل التي كان يتتبعها من أكبرها إلى أضألها باهتمام ودود ، ويرسم على ضوئها مبادىء الشريعة والسلوك •

وسوف نرى كيف أنجز القرآن مهمته هذه •

ولْنعُد إلى النبأ الذي بدأنا به الموضوع ــ نبأ « المُجادلة » التي أصغى إليها أمير المؤمنين في خشوع ؛ لأن الله من قبل سمع حِوارها وشكواها •

* * *

ذات يوم كان الرسول عليه الصلاة والسلام جالساً في فِناء داره، ومعه زوجته عائشة ، حين قدِمتْ عليهما سيدة تضطرب خُطاها ، وتضطَرِمُ أنفاسها •

إنها « خَوْلَةُ بنت حكيم » زوجة « أوس بن الصامت » جرى بينها وبين زوجها نِقارٌ أغضبه ، فحرّمها على نفسه قائلا : أنتِ عليَّ كظَهْرِ أمّي ••

وكان هذا أولَ ظِهار يقع في الإسلام ، فلم تدْرِ الزوجة إن كانت بهذا الظّهار قد طُلقت أم هي غير طالق •• فحملت هَمَّها ، وأسرعت إلى رسول الله •

قالت :

ــ يارسول الله ــ زوجي « أوْس »، أكَلَ مالي، وأفْنى شبابي ، ونَثرْتُ له بطني ، حتى إذا كَبِرَتْ سِنّي ، وانقطع ولدي ظاهَرَ مني ••

فأجابها رسول الله قائلا :

ـ ما أراكِ إلاّ قد حَرُمْت عليه ..

وعادت « خَوْلَة» تحاوِرُ الرسول وتقول :

ـ إنّ لي صِبْيَةً، إنضَمَستُهم إليه ضاعوا، وإن ضممتُهم إليّ جاعوا..

وعــاد الرسول يقول :

ـ « ما أراكِ إلا قد حرُمْتِ عليه » .

وبكَتْ « خَوْلَة » وقالت : إلى الله أشكو أمري وأمر صِبْيتي .

ومضَت تَبدىء في شكواها وتُعيد . ورسول الله يسمع صامتاً .

وفجأة أخذَه مِثلُ الرّعَواء ، وأظلَّتْه السكينة التي كانت تأخذه حين ينزل القرآن على قلبه ، فيذهب في استغراق بعيد .

وأوْمأتْ « عائشة » إلى الزوجة ، أن اصمُتي .

وبعد لحظات من الصمت الحكيم ، حرك الرّسول لسانه الصدوق بآيات من القرآن الكريم :

« قَد سَمِع اللهُ قولَ التي تجادلُكَ في زوجها ، وتَشتكي إلى الله ... واللهُ يَسمعُ تَحاوُرَكُما ، إنّ الله سميع بصير .

الذين يُظاهِرُون مِنكم مِن نِسائِهم ، ما هُنّ أمهاتهم ، إن أُمهــاتُهم إلا اللاّئي وَلدْنَهم ، وإنَّهُم ليقولون مُنكَراً مِن القولِ وزُورا ، وإنّ الله لَعفُوٌ غفور .

والذين يُظاهِرونَ مِّن نِسائِهم ثم يَعودون لِما قالوا فتَحريرُ رقبةٍ مِن قبلِ أن يتماسَّا ذلكم تُوعظون به والله بما تعملون خبير .

فَمن لم يجِدْ فَصِيام شهرين مُتتابِعَيْن مِن قبل أن يَتماسَّا، فمن لم يستطع فإطعام ستين مِسكيناً . ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله، وتِلْكَ حدودُ الله وللكافرين عذاب أليم » سورة المجادلة

وحين أتمّ الرسول تلاوة الآيات أرسل في طلب الزوج ، فجاء يسعى :

وسأله الرسول :

ـ أتجد رقبةً تُعتقها ..؟ قال : لا

قال الرسول : أتستطيع أن تصوم شهرين مُتتابعين ...؟

قال الرجل : والذي بعثك بالحق إني إذا لم آكل المرتين . والثلاث يكاد يَعْشُو بَصري ..!!

سأله الرسول : أتستطيع أن تُطعم ستين مِسكيناً ..؟

قال : لا . إلا أن تُعينَني .

فأعانه الرسول عليه السلام بثلاثين صاعا .

* * *

عندما ظاهَرَ الرجل من زوجته قائلا لها : أنتِ عليَّ كظهر أمي . ولم يكن لهذه الواقعة سابقة في الإسلام ، سارع القرآن إلى تِبْيان حُكْمها .

ولقد جاء حُكْمُه زاجراً لكل من يُحاول أن يَجترح مثل هذا السوء .

فعُروة الزواج عُرْوَةٌ وُثْقَى لا يُريد الله لها أن تتَرنح تحت رحمة النزوات الطارئة .

وإذا كان « الطلاقُ » أبغضَ الحلال إلى الله ، فماذا يكون « الظِّهار » وهو أشدّ عبثاً بالحياة الزوجية . وأشدّ تهديداً لها ..؟!

لقد جعل القرآن كفّارته مُوجِعةً حتى يستقيم الأزواج على الجادّة .

وحين نعود إلى جوهر الواقعة التي نحن بصددها، نجد مايَبْهَرُ الألباب حقاً.

فالمرأة لم تكد تحمل بَثَّها وشكواها إلى رسول الله .. حتى خفَّ القرآن لنجدتها مُسجِّلاً كلماته وحُكمَه في مشهدٍ حافل ..! ثم تاركاً بين سُوَره المباركة سورة تحمل قصة « البطَلة » التي أثارت هذا الموقف كله بِحِوارها

ـ تلك هي : سُورةُ « المُجادلة » ..!!

ولسوف نجد هذا الاهتمام يتجلّى ويتألّق في كل مُناسبة فلا يكاد يسأل سائل حتى يتنزّل القرآن بالجواب .

ولا يكاد « يتأزَّم أمر » حتى يتقدم القرآن بالحلول .

ولا يكاد « يأتمر متآمر » حتى يَدهمه القرآن بأضوائه الكاشفة ، فيكشف خَبْئَه .

ومن مشاكل السلوك العابرة ، إلى مشاكل المجتمع الغامرة ، كان القرآن يتنزل دائماً وحثيثاً بحلوله السديدة .

★ ★ ★

كان أصحاب رسول الله يتزاحمون حول مجلسه ، وإذا سبق أحدهم إلى هذا المجلس ظافراً بمكان ، فإنه يضنّ به ولا يتخلى عنه تحت وطأة أي اعتبار .

فهذه الرقعة الصغيرة التي يشغلها المسلم بقعوده بين يدي الرسول تساوي عنده « عرشاً » .. بل هي خير وأبقى من كل « العروش » فكيف يتركها لغيره مهما يكن هذا الغير ..؟

وذات يوم قدم جماعة من البدْريّين ، الذين شهدوا غزوة بدر ، وكانوا بصفتهم هذه موضع رضاء الله ، وتقدير رسوله .. فلم يجدوا لهم في مجلس الرسول مكاناً دانياً ، فظلوا وقوفاً حتى شقّ على رسول الله عليه الصلاة والسلام وقوفهم .

ولم يتكرر ذلك بعد ، فإن القرآن سرعان ما جاء يقول :

« يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسَّحوا في المجالس فافسَحوا يفسَح الله لكم ، وإذا قيل انشزُوا فانشزُوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير » .

سورة المجادلة

★ ★ ★

ويهاجر الرسول إلى المدينة ، ويؤمَر أن يجعل قبلته في الصلاة « بيت المقدس » .

ويَمتثلُ الرسول أمر ربه ، طاوياً صدره على حَنين مُتوقد ، ومَشبُوب إلى « الكعبة » .. وإنه ليُقلِّبُ وجهه في السماء . وكأنّه ينتظر منها — على

شوق ــ كلمةٌ تَشفي صدره ، ويَقر بها حَنينهُ .. كلمةٌ تَأذَنُ له أن يتخذ من الكعبة قِبْلة لصلاته .

ويتنزَّل القرآن :

« قَد نَرى تقلّبَ وَجْهِك في السماء فَلنُوَلّينّك قِبلةً ترضاها ، فوَلِّ وجهك شَطْر المسجد الحرام ، وحيثُ ما كنتم فولوا وجُوهكم شَطْرَه » . سورة البقرة

ويتخذ اليهود هذا التحول مدعاة للتهجّم على الرسول وإشاعة الشكوك والرِّيَب ، وَبثِّ الفتنة بين المؤمنين .

ويطرحون هنا وهناك أسئلتهم الخبيثة : لماذا غيَّر محمد قبلته .؟

ويُسارع القرآن ليقمَعَ بمنطقِه المُبين مَكرَ الماكرين ويقول :

« سَيقولُ السُّفَهاءُ مِن الناسَ ماولاَّهُمْ عَن قِبْلتهم التي كانوا عليها ؟ قل لِله المشرقُ والمغربُ يهدي مَن يشاءُ إلى صراط مستقيم » . سورة البقرة

ويتساءَلُ المؤمنون في قلق عن مصير إخوانهم الذين ماتوا وهم يُصلّون إلى القبلة الأولى فيطمئنهم القرآن قائلا :

« وما كان الله لِيُضيعَ إيمانَكم . إن الله بالناس لَرؤوفٌ رَحيم » . سورة البقرة

* * *

ويسأل الرسولَ أصحابُه عن الخمر والميسر ، فتنزل الآيات :

« قل فيهما إثمٌ كبير ومَنافع للناس ، وإثمهما أكبرُ من نَفْعهما » . سورة البقرة

وبهذه الآية هَيّأ القرآن الأذهان لخطوة تالية ، لم يلبث أوانها أن جاء فنزلت الآية :

« لا تقرَبوا الصلاة وأنتم سُكارى » . سورة النساء

وبهذه الآية أيضاً اقترب القرآن من كلمته الأخيرة في شأن الخمر والميسر ، فما إن حلّ الميقات المناسب لهذه الكلمة حتى قالها :

« يا أيها الذين آمنوا ، إنما الخمر ، والميْسِرُ ، والأنصابُ ، والأزلامُ رِجْسٌ من عمَل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » ..
سورة المائدة

★ ★ ★

وكان الرجال الذين يرعون في أكنافهم يتامى، يخلطون أموالهم إلى أموالهم .. فلما نزلت الآية :

« إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظُلْماً ، إنما يأكلون في بطونهم ناراً ، وسَيَصْلَوْنَ سعيرا » . سورة النساء

تأثّمَ أولياءُ اليتامى وعزَلوا أموالهم وحدها .. بل وعزلوا طعامهم وشرابهم . وذهبوا في التحوّط مذهباً بعيدا سبّب المتاعب لهم ولليتامى أنفسهم .

فسارَعَ القرآن يدلّهم على الطريق الوسَط ، ويأمرهم بالقصد حين سألوا الرسول :

« ويسألونك عن اليتامَى، قُلْ إصلاحٌ لَهم خير. وإن تُخالِطوهُمْ فإخْوانكم ، واللهُ يعلم المُفسِدَ من المُصْلِح » . سورة البقرة

وإن القرآن لَيَتتبّعُ حاجات الناس في ذلك المجتمع الذي ينشأ باسْمِه، وتحت رايته ، ويتتبّعُ أسئلتَه جميعاً ، فيجيب عنها .

« يَسألونك : عن الأهِلّة » ؟ سوره البقرة

« يسألونك : عن الشهر الحرام » ؟ سورة البقرة

« يسألونك : عن الأنفال » ؟ سورة الأنفال

« يسألونك : ماذا ينفقون » ؟ سورة البقرة

« يسألونك ماذا أحِلّ لهم » ؟ سورة المائدة

وحتّى هـذه أيضاً ..!!

وليس في مشاكل الناس ما هو صغير ، وما هو خطير .

فأمام كل مشكلة مهما تكن ضئيلة ، يتحرك القرآن بكل قدراته وكل مسئولياته .

وإذا كانت المشكلة واقعة حال خاصة ، لم يعالجها داخل هذا الواقع فحسب .. بل يضعها تحت المجهر ، حتى إذا رأى كل مضاعفاتها المحتملة عالجها — العلاج الشامل القيم ، وجعل من علاجه هذا قانوناً عاماً وشرعة ومنهاجاً .

غاضب رجل امرأته ذات يوم ، وأراد أن يكيد لها ويغيظها ، فقال : والله لا أطلقك أبداً ، ولا آويك أبداً ..

فسألته الزوجة : وأنى لك هذا ...؟

قال : أطلقك حتى إذا أوشكت عدتك على التمام راجعتك .. ثم أطلقك ، وهكذا ..

فشكت الزوجة إلى رسول الله . وانتظر الرسول هدى ربه . فنزل القرآن بهذه القاعدة العامة .

« الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » .

سورة البقرة

ثم أدار القرآن نوره على القضية كلها فذهب ينظم الحياة الزوجية ويحفظ للمرأة كل حقوقها إذا رأى الزوج فراقها فيقول :

« ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً » .

« فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً » .

ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه » .

سورة البقرة

وهذه عظمة القرآن حقاً ..!

فهذا الكتاب الذي يَشغَل نفسه بأسْمَى القِيم وأخطر القضايا ، لا يجد بأساً ــ أي بَأس ــ في أن يُعطي اهتمامه وبنفس الدرجة ، للمشاكل العارِضة التي قد تسبب للناس بعض الألم ، أو بعض الحيرة ..

الكتابُ الذي يتحدث عن الله الواحد الأحد ... ويتحدث عن المصير .. وعن الدور الجليل الخالد الذي اصطُفِي الإنسان لأدائه على هذه الأرض ..

القرآن الذي يتحدث عن هذه القضايا الكبرى، لا يستنكفُ عن إلقاء سَمْعه لمن ذهبوا يسألون عن المحيض. ثم يَشغَلُ نفسه بهذا السؤال، ويسارع بالجواب:

« قُل هُو أذًى، فاعْتزلوا النِّساءَ في المَحيض ولا تَقرَبوهُنَّ

حتى يطْهُرْن » . سورة البقرة

ونظرته إلى الأشياء مُفعمةٌ دائماً بالجلال والحكمة .. وهو ينفذ إلى اللُّباب المستَتِرِ الذي لا تقع عليه العين وسط الزحام .

فهو ــ مثلا ــ كي لا تُضارَّ الطفولة الغريرة الغَضَّةُ بأي خلاف ينشأ بين الوالديْن ، نراه يُفرِد لحقها في الرضاع بعض آياته .

« والوالداتُ يُرضِعْنَ أولادهُن حوليْن كاملين لِمن أراد أن يُتِمَّ الرَّضاعة .

وعلى المولود لهُ رِزقُهُن وكِسوَتهُنَّ بالمعروف لا تُكلَّفُ نفسٌ إلا وُسْعَها .

لا تُضَارَّ والدةٌ بولَدِها .

ولا مولودٌ لهُ بولده ..

وعلى الوارِثِ مثلُ ذلك ..

فإن أرادا فِصالاً عن تراضٍ مِنهما وتَشاوُرٍ فلا جُناح عليهما .

وإن أردْتُم أن تسترضِعوا أولادكُم فلا جُناح عليكم إذا سلَّمتم ما آتيتم بالمعروف .

واتقوا الله ، واعلموا أن الله بما تعملون بصير » • سورة البقرة

ألا فلننظر مرة أخرى هـــذه الآية •

« فإن أرادا فِصالاً عن تَراضٍ منهما وتَشاوُرٍ » •

إن الفِصال هنا ، يعني الفِطام •

وفطام الرضيع قبل عامين ، مسألة تشغل القرآن ••

تماماً ، كما تشغله قضية التوحيد والإيمان ••!!

وهو يشترط إذا كان الفِطام قبـل عامين أن يتمّ عن تراضٍ من الأبوين وتَشاوُر ، حتى يوفر بهذا للرضيع كل حماية ممكنة •

هـــذه رعاية فذّة خارقة ، ولقـد كان الرسول الذي يتنزل عليه القرآن يعيهـا جيـداً •

من أجل هذا قال عن ولده إبراهيم ، وهو يبكيه :

ــ « إن ابني مات على الثَّدْي ، وإن له مُرضِعاً في الجنة » •

لكأنَّ حق الرضيع في اللبَن حق مقدس غير مَجْذُوذ ، فحتى إذا مات قبل أن يستكمل أجلَ رضاعه ، كان من حقه أن يستكمله في فرصة أحلى وأغلى •• في الجنّة ••!!

لقد أعطى القرآن هذه القضية اهتماماً فائقاً ، وفي أكثر من سورة ، وفي آيات كثيرة ، أخـذ يقرر حق الرضيع في الثّديِ الحنُون •

وإن مغزى هذه العناية ــ كما أسْلَفْنا ــ يتمثل في أن الكتاب الذي يعطي كل هذا الاهتمام لأمور يبدو أنها خارجة عن موضوعه ، هو كتاب كريم جاء يهتف بالهدى ودين الحق •• جاء يؤسس وطناً جديداً للعقل وللروح وللضمير •• جاء يختم الرسالات والأديان ، فما بالهُ يَشغل نفسه بالمرضعات والرُّضعاء ؟!!

حين أتأمل هذا المغزى الباهر أجد نفسي أمام جلال فريد ••!!

* * *

وهو كذلك يُعنى كل العناية بالمترملات اللاتي غيَّب الموت أزواجهن — متى تنتهي عِدَّتهن ..؟ متى يَصِرن في حِلٍّ من الزواج إذا أرَدْنَ ..؟ ويُعْنَى بالمُطلَّقات بعد زواج ..

وبالمُطلَّقات « مِن قَبْل أن تَمَسُّوهُن » ..!!

★ ★ ★

ويَكْشِفُ بأس الجاهلية عن الأطفال الذين يقتلهم آباؤهم خشية الإملاق .

« قد خَسِرَ الذين قَتلوا أولادَهم سَفَهاً بغيرِ علم » .

سورة الأنعام

« ولا تقتلوا أولادكم خشيةَ إملاق ، نَحن نَرْزُقهم وإياكُم إنَّ قتلَهم كان خِطْئاً كبيراً » .

سورة الإسراء

وعن البنات اللاتي كان نصيبهن الوأد والدَّسّ في التراب .

« وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأنثى ظَلَّ وجهُه مُسودًّا وهو كظيم . يتوارى من القوم مِن سُوء ما بُشِّرَ به ، أيُمْسِكُه على هُونٍ أم يدُسُّه في التراب . ألا ساءَ ما يَحْكُمون » .

سورة النحل

وحين يرى القرآن العظيم فاشِية الربا تَفْشُو ..، « والفائدة » المُبهظة تلْفَحُ عافية الناس وتَهْرأُ حياتهم ، يُرسِل آياته المُشرِعَة .

« الذين يأكلُون الرِّبا لا يَقُومون إلاَّ كما يقُومُ الذي يتخبَّطُه الشيطانُ من المَسِّ ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيعُ مثلُ الرِّبا .. وأحلَّ الله البيع وحرَّم الرِّبا . فَمن جاءه مَوعِظة مِن ربه فانتهى فلَه ما سَلَف وأمرُه إلى الله . ومَن عاد فأولئك أصحابُ النار هم فيهــا خالدون » .

سورة البقرة

قالوا : إنما البيعُ مثل الربا ..

حُجة داحِضَة أرادوا بها أن يُبرروا جريمة الاغتيال التي يغتالون بها حياة الناس تحت ضغط العوز والحاجة فيجبَهُهُم القرآن بالحكم الحاسم .

« أحَلَّ الله البيع وحَرَّم الرِّبا » . سورة البقرة

ثم يُتبع هـذه الآية بآيات أخرى :

« يمحقُ الله الربا ويُرْبي الصدقاتِ والله لايحب كُلَّ كفَّار أثيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا ما بَقِيَ من الرِّبا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذَنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تُبْتم فلَكُم رُءوسُ أموالِكم لا تَظْلمون ولا تُظْلَمون » .

سورة البقرة

آيات رادعة قارعة يُضمِّنها القرآن كل غـيرته على الضعفاء ، وكل نقمته على مصَّاصي الدمــاء .

من أجل هذا ، لم يَكد المسلمون يَرَوْن قرآن الله يحرمه على هذه الصورة الرهيبة حتى سارعوا إلى نَبْذِه عنهم ، ومَن كان منهم يتعامل به قبل تحريمه ، وضَع كل ما كان له فيه.. واسترد مَحْض مالِه لا غير ، وحتى رأس ماله هذا ، راح يطهره بِفَيْضٍ من الصدقات ، والإنفاق على المعسرين .

* * *

كان القرآن يتتبع آلام الناس فيفندها ، وجراحاتهم فيضمِدُها ، ومَشاكلهم فيقول فيها قولاً بليغـاً .

كان كأنَّما عينه على كل حـركة . وكأنما أذنه على كل همسة ، فلا يكاد يسمع أنيناً إلا خفَّ بالنجدة . ولا سؤالا إلا سارَعَ بالجواب ، ولا يكاد يرى عثرة إلا بادَرَها بالهدى ، ولا ظلمة إلا بدَّدها بالضياء ..!

كان دائماً : ــ

« يهـدي لِلَّتي هي أقْوَم ، ويُبَشِّر المؤمنين الذين يعمـلون الصالحات أنَّ لهم أجـراً كبيراً » ..

الفصل الخامس

.. عن وحدة الدين

أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه

منذ بدأ القرآن يتنزَّل إلى أن أتمَّ حديثه وبلغ ختامه ؛ وهو حريص على أن يبثَّ في وعي الناس أنه يخاطبهم جميعاً ؛ وينشد الخير لهم كافة .

ولقد دعا الرسولَ أول ما دعاه إلى أن ينذر عشيرته الأقربين .

ثم أمره أن ينذر أمَّ القرى ــ مكة ــ وما حولها ..

ثم دعاه ليحمل مسئولياته تجاه البشر كلهم ، مذكِّراً إياه أن هــذا القرآن الذي يتنزل عليه ليس كتابَ قبيلة ، ولا كتاب أمة .. إنما هو « ذكرٌ للعالمين » ..

ولما هالَ الرسولَ ضخامةُ العبء ، ولعله ساءل نفسه ؛ كيف سينقل هذه الآيات والهدى إلى العالمين ، قال له القرآن :

« إنْ عليك إلا البلاغ » . سورة الشورى

ولقد صدق الله وعده ، وحقق القرآن نبوءته ، فسارت آياته مسير الشمس في كل الدنيا ، وكل الأجيال .

* * *

والقرآن الذي جاء ينادي « العالمين » ، يعلم أنَّ من قبله كتباً ، وديانات ، ورسلا ، ومؤمنين .

ولم يكن له بدٌّ من أن يبدأ دعوته العميقة الشاملة ببيان مكانه من تلك الكتب والرسالات ، ومكانها منه .

ولقد أعلنها واضحة مبينة أنه ليس بِدْعاً من الكُتُب ، وأنه لا يبدأ نهجاً جديداً لم تعرفه الحياة من قبل ، إنما يستأنف الرحلة المباركة التي بدأتها كتبٌ سابقة ، وأنبياء سابقون .

إن القرآن وإن كان ينسج خيوط دعوة جديدة إلا أنه إنما ينبعث من ضمير الرُّشْد الأول ، وإنما يحمل راية إبراهيم ، وموسى ، وعيسى .. ويُبلِّغ بلسان عربي مبين نفسَ الحجة البالغة التي صدَحَت بها من قبل ، التوراةُ والإنجيل .. وهكذا خاطب القرآن الرسول فقال :

« ما يُقالُ لك إلا ما قد قِيلَ للرسُل من قَبْلك » . سورة الأنبياء

* * *

نحن الآن أمام غرض من أجلّ وأسمى الأغراض التي زكاها القرآن .

هـذا الغرض الجليل الباهر ، يتمثل في أن هناك ديناً واحـداً وليس ثمة أديانٌ شتَّى ..

ألا فلنمض مـع هـذه السطور من البحث في أناة وانتباه كبيرَيْن — فهنا سيطالعنا القرآن الكريم بأعظم مُحاولاته وأسماها .

إنه يبدأ بالرسول وبالذين آمنوا معه فيُؤَكِّدُ لهم هذه الحقيقة يُرَكِّز عليها أبصارهم وبصائرِهم :

« ما يُقال لك إلا ما قد قيل للرسُل من قبلك » . سورة الأنبياء

ويزيد هذا تبياناً فيقول :

« شَرَعَ لكُم من الدين ما وَصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصَّيْنا به إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، أنْ أقيموا الدين ولا تتفرَّقوا فيه » . سورة الشورى

« أقيمُوا الدين ، ولا تتفرَّقوا فيه » ....!!

ويُعلن احترامه وتوقيره للكِتابيْن الكبيرين اللذين حملا الرسالةِ من قبله

ـ التوراة والإنجيل فيقول :

« وقَفَّيْنا على آثارهم بعيسى بن مريم مُصدِّقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هُدًى ونور » . سورة المائدة

ويُبارك المؤمنين بعيسى ويُحسن وصْفهم قائلا :

« وجعلْنا في قلوب الذين اتَّبعوه رَأفةً ورحمة » . سورة الحديد

ولكي لا تضيع معالم الوحدة الدينية ، وتتقطع أواصر الرَّحِم والقربى النابضة في كل الرسالات والكُتُب ، ذهب القرآن يُقاوِم الذين يُحرِّفون التوراة والإنجيل وما أُنزل من عند الله .. وناداهم :

« يا أهل الكتاب لِمَ تَلْبِسُونَ الحقَّ بالباطل ، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون » . سورة آل عمران

ولكنه وهو يقاومهم يحرص على ألاَّ يسلُك تجاهَهم سُلوكاً يزيد من حدَّة الخلاف ، ويُصيب « وَحْدَة الدين » بأذى ، فهو يُبادرُ ويعلن أنْ ليس أهل الكتاب جميعاً ممَّن يلْبِسُون الحق بالباطل ، ولا ممَّن يُحرِّفون الكلِم عَن مواضعه .. بل إن فيهم الأبرار الصادقين .

« لَيْسُوا سَواءً ، من أهل الكتاب أمَّةٌ قائمة يتلُون آياتِ اللهِ آناءَ الليل وهم يَسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينْهَوْنَ عن المنكر ، ويسارِعون في الخيرات . أولئك من الصالحين » . سوره آل عمران

« ومِن قَوم مُوسى أمَّةٌ يهدون بالحق ، وبه يعدلُون » . سورة الأعراف

وحتى أولئك الذين يُحرِّفون الآيات ، ويقيمون الصعاب والمتاعب أمام القرآن من أهل الكتاب ، يُوصي القرآن بهم خيراً فيقول :

« ولا تُجادِلوا أهْلَ الكِتابِ إلاَّ بالتي هي أحسن ــ إلا الذين ظَلَموا منهم ــ وقولُوا آمنا بالذي أنزِل إلينا وأنزِلَ إليكم ،

وإلاهنا وإلاهكم واحد ، ونحنُ له مسلمون » . سورة العنكبوت

إنه حريص على أن يقرر «وَحدة الدين» فأولئك الذين آمنوا بكتابٍ واتبعوا رسولا ليسوا سوى إخوة أشِقّاء لكل المؤمنين في كل الأزمان والأيام والأجيال..

وهو يوصي المؤمنين أن يقرروا هذه الحقيقة ويهتفوا بهـا دوماً .

حتى حين يُجادلون أهـل الكتاب عليهم أن يقولوا « آمنا بما أنزل إلينا ، وما أنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد » .

والقرآن يدعو أبناءه إلى اعتناق « وحـدة الدين » ، ويجعل الإيمان بهـا جـزءاً من صميم العقيدة والإيمان .

هكذا تُفصح الآيات السالفة ، وهكذا تفصح هذه الآية :

« يا أيها الذين آمَنوا ، آمِنوا بالله ورسوله **والكتاب** الذي نَزَّل على رسوله .. ، **والكتاب الذي أنزل من قبل** .. ومَن يكفر بالله ، وملئكته وكتبه ، ورسـله ، فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً » .

سورة النساء

وهو يصف المؤمنين بأنهم :

« يؤمنون بما أنزِلَ **إليك** ، وما أنزِلَ من **قبلك** » . سورة البقرة

* * *

وبعد أن يُرسِيَ قواعد هذه الوَحدة في قلوب المسلمين ، يذهب إلى أهل الكتابيْن الكبيرين ــ التوراة والإنجيل ، ليعـالج التمزّق الذي جنوا به على إيمانهم ــ ويبدأ القرآنُ فيُعلن عجَبه كيف يختلف الذين يتلون كُتُباً مقدسة ، مصدرها جميعاً واحد ، وغايتها كلهـا واحدة ..؟!

« وقالت اليهودُ ليْسَتِ النصارَى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهودُ على شيء ، وهم يتلون الكتاب » ..!! سورة البقرة

ثم يسارع ، فيسألهم : لماذا يكفرون بمحمد ..؟

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » . سورة آل عمران

ولماذا يكفرون بالقرآن ، وهو مُصدّقٌ لما معهم من كُتُب ، وداعٍ إلى احترامها والإيمان بها ..؟!!

ولماذا يكفرون بالإسلام إن كانوا مؤمنين ..؟

إن الإسلام ليس عنواناً على طائفة معينة من الناس .

بل كل دينٍ : إسلام ..

وإبراهيم أبو الأنبياء جميعاً كان دينه الإسلام..وكل ذَرارِيه مسلمون...

فالذين كتابهم التوراة ، والذين كتابهم الإنجيل ، لا بد إذن في تقدير القرآن أن يكونوا مسلمين ، لأن « إبراهيم » الذي جاء موسى وعيسى ومحمد على عَقِبِه ، وساروا على نهجه ، كان أولَ المسلمين .

« ما كان إبراهيمُ يهودياً ، ولا نَصرانيا ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين » . سورة آل عمران

« وإذ يرفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ . ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . ربنا واجعلنا مُسْلميْن لك ، ومن ذريتنا أمةً مُسلمةً لك .. » . سورة البقرة

فالقرآن إذن لا ينشىء ديناً جديداً ، إنما يبعث من جديدٍ دين إبراهيم .

« إنَّ أوْلَى الناس بإبراهيم لَلَّذين اتَّبعوه ، وهذا النبيّ والذين آمنوا ، والله وليّ المؤمنين » . سورة آل عمران

وهو يرفع نفس الراية .. رايةَ التوحيد . ويُعيدها إلى مكانها الأعلى .

ويختار كلمة « الإسلام » لا ليميزَ بها قوماً من قوم . ولكن لأنها العنوان القديم لِتُراث إبراهيم ..

و « إبراهيم » نفسه ، أول من سمى الدين « إسلاما » .

ومفهوم كلمة « إسلام » تتسع لكل مؤمن في كل زمان .

فالمسلم عند القرآن هو :

« من أسْلَم وجْهَهُ لله وهو مُحْسِنٌ ، واتَّبع مِلَّة إبراهيم حنيفـاً » . سورة النساء

ولهذا ، فالقرآن في حواره مع أهل الكتاب يعجَب ويتساءل لمـاذا اختلفوا وتقسَّموا إلى « يهود » و « نصارى » ..!!

أليسوا جميعاً أبناء إبراهيم ..؟

وإذن ، فلماذا لا يسيرون على هُداه ..؟

لماذا يقاتل بعضهم بعضاً ، وتقول اليهود ليست النصارى على شيء . وتقول النصارى ليست اليهود على شيء ..؟!

ولماذا ، والفريقان أهل كتاب ، يُجادلون ويناوئون أهلَ القرآن وهم لهم إخـوة .. ؟

« وقالوا كونوا هُوداً ، أو نصارى تهتدوا . قل بَلْ مِلَّة إبراهيم حَنيفاً وما كان من المشركين » . سورة البقرة

ويسألهم القرآن أيضاً ، لماذا وأنتم أبناء إبراهيم تُقاومون النبيَّ الذي جـاء يبعث مِلَّته ، ويحيي عقيدته ..؟؟

« ومن أحْسَنُ ديناً ممَّن أسلم وجهَه لله وهو محسن ، واتَّبع مِلَّة إبراهيم حنيفاً ، واتَّخذ الله إبراهيم خليلا » . سورة النساء

إن الدين الذي جاء به موسى ، والذي جاء به عيسى ، والذي جاء به محمد ، هو في حقيقته دين واحد ، ما دام الكل أبناء إبراهيم ..

وهذا الدين الذي بدأ بإبراهيم ، ثم حمل أمانته أنبياء كثيرون في مقدمتهم موسى ، والمسيح ، يُختتم اليوم بمحمد ، ويَستكمل موضوعَه وبناءَه بالقرآن.

« اليومَ أكْملتُ لكم دينَكم » . سورة المائدة

وهذه الأجيال المتساوقة ، والصفوف الهائلة من البشر الذين ساروا تحت راية الدين من إبراهيم ، إلى محمد . إنما هم في حقيقتهم أبناء أمة واحدة ووطن

روحي واحـد .

« إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » . سورة الأنبياء

فلماذا تَقطَّعوا أمرهم بينهم ..؟ هكذا يتساءل القرآن ــ ولماذا يكفرون بما أنزل على محمد ، وهو الحق من ربهم .؟ لماذا يؤمنون بكلمات الله الأولى ، ويَجْحدون كلمته الأخيرة ..؟؟

هل الإسلام أمر طارىء عليهم ..؟

أبداً ، إنه لم يكن كذلك قط .. بل كان ولا يزال :

« مِلَّة أبيكم إبراهيم ، هو سَمَّاكُمُ المسلمين » . سورة الحج

هل تعصَّب لنفسه وانطوى عليها ..؟ .

أبداً ، بل اعتبر الإيمان ناقصاً ومردوداً ما لم يستوعب تقديس جميع الرسل وجميع الكتب وكل المرحلة السابقة من الدين .

« قولوا آمنا بالله ، وما أنزِل إلينـا . وما أنزِل إلى ابراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، وما أوتِيَ موسى ، وعيسى ، وما أوتِيَ النَّبيُّون من ربهم . لا نُفرِّق بين أحد منهم ونَحنُ له مسلمون » . سورة البقرة

هل اختص أتباعه ــ دون الآخرين ــ بفضل الله ورحمته . ؟

في الآيتين التاليتين أحكم جواب :

« وقالوا لَن يدخل الجنـة إلاَّ مَن كان هُوداً أو نَصارَى تلك أمانِيُّهم . قل هاتُوا برهانكم إن كنتم صادقين » . سورة البقرة

« بَلى من أسْلَم وجهَه لله وهو مُحسنٌ ، فله أجره عند ربه ، ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون » . سورة البقرة

هكذا يَضع القرآن هذه المُقابلة الفاصلة ...

فبينما يردد بعض أهل الكتاب يومذاك من اليهود والنصارى ، أن رحمة الله

خالصة" لهم وحدهم ، إذا بالقرآن يقول لهم . لا ، بل هي لكل من يحمل قلباً ويأتي عملا صالحاً ... هي لكل من يُسْلم وجهه لله وهو مُحسن :

« إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى . والصابئين . من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هُمْ يَحزنون » . سورة البقرة

هكذا يضرب القرآن مثلاً ، ليس يُشبهه مَثَل — في رحابة الأفق ، وعالمية الدعوة ...!!

فهو يقول :

« إن الدين عند الله الإسلام » . سورة آل عمران

وما الإسلام ...؟؟

إنّه : « مِلّة إبراهيم حنيفاً » . سورة النساء

« فاتبِعوا مِلّة إبراهيم حنيفاً » . سورة آل عمران

ومَنْ إبراهيم ...؟؟

إنّه أبو الأنبياء جميعاً .

« وَوَهَبْنا لَهُ إسحاق ويعقوب ، كُلاً هَدينا ، ونوحاً هدينا مِن قبل ، ومِن ذُريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين .

وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس . كل من الصالحين .

وإسماعيل واليَسَعَ ويونس ولوطاً ، وكُلاً فضلنا على العالمين..

ومن آبائهم وذُرِّياتهم ، وإخوانهم ، واجْتَبيناهُمْ ، وهديناهُم إلى صراطٍ مستقيم » . سورة الأنعام

هذا — إذن — كما يقرر القرآن إبراهيم أبو الأنبياء ، قال الله له :

« إني جاعلُك للناس إماما» . سورة البقرة

وهو أيضاً الرائد الأول والرسول الأول للدين ..

« إذ قال له ربه أسْلِمْ ، قال : أسلمتُ لرب العالمين . ووصّى بها إبراهيمُ بنيه ، ويعقوبُ : يا بَنِيَّ إنَّ الله اصطفى لكم الدين فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ..

أم كُنتم شُهداء إذْ حضر يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون مِن بعدي : قالوا نعبد إلاهَكَ وإلاهَ آبائك ، إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحاق ، إلهاً واحداً ، ونحن له مسلمون » .

سورة البقرة

فما دام الدين دينَ إبراهيم

وما دام إبراهيم أبا الأنبياء جميعاً ، وقائد الزحف الديني كله .

وما دام أهل الكتاب جميعاً يُقرّون بهذه الحقيقة ، ويرون في إبراهيم عليه السلام الأب ، والمعلّم ، فلماذا — إذَن — لا يسيرون صفاً واحداً تحت راية إبراهيم ..؟؟

بهذا المنطق الصادق الأخّاذ ، عرضَ القرآن قضية « وَحْدَةِ الدين » . وعلّم محمداً أن يقول :

« إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم . ديناً قِيَماً ، مِلّة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين » .

سورة الأنعام

وأذّن بين الناس جميعاً قائلا :

« أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه » .

سورة الشورى

* * *

ولكن ، إذا كان الدين واحداً .. ففيم إذَن كان الأنبياء العديدون ، والرسل الكثيرون ..؟؟

إن القرآن يُعلّمنا أن الناس تختلف ألسنتهم ومشاكلهم واستعدادهم ، من أمة إلى أمة ، ومن جيل إلى جيل ، وذلك يقتضي أن يكون لهم هُداة يخرجون من نفس البيئة ونفس الصفوف .

« ولِكُلِّ قومٍ هَاد ». سورة الرعد

هُداة يُجَلُّون روح الأمة ، ويحملون خصائصها ، ويدركون مشاكلها . ويتكلمون لسانها .

« وما أرسلنا من رسولٍ إلاَّ بلسانِ قومه لِيُبَيِّنَ لَهم » .
سورة إبراهيم

وهؤلاء الهُداة والمرسلون ، مهما يتتابَعوا ويكثُروا ، فهم لا يتناقضون أبداً ، إنما يُركِّزون جميعاً بأساليبَ شتَّى على حقيقة واحدة ، هي الحق ، والخير . هذه الحقيقة التي هتف بها قديماً إبراهيم :

« أنِ اعبدوا الله ، ما لكم من إلهٍ غَيرُه » . سورة المؤمنون

« واعملوا صالحاً » .. سورة المؤمنون

فالإيمانُ برسولٍ واحد يقتضي الإيمان بكل المرسلين .

والإيمان بكتاب يقتضي الإيمان بالكتب جميعاً .

من أجل ذلك طالب القرآن أتباعه أن يؤمنوا بجميع الرسل ، والأنبياء ، والكُتُب ، ليحققوا بهذا الإيمان « وَحْدَة الدين » .

كما طالبَ أهلَ التوراة ، وأهل الإنجيل أن يؤمنوا بمحمد وبالقرآن ، ليحققوا بهذا الإيمان كذلك « وَحْدَة الدين » .

واعتبر القرآن أيَّ نُكوص عن هذا السبيل ، نُكوصاً عن شرْعة إبراهيم .

كما قرر أن العقيدة تتعرض للخطر الجسيم إذا أنكر صاحبها رسولاً من الرسل ، أو كتاباً من الكتب :

« إن الذين يكفرون بالله ورسُله ، ويقولون نُؤمِنُ ببعضٍ ونكْفر ببعض ، ويُريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا .
أولئك هم الكافرون حقاً ، وأعْتَدْنا للكافرين عذاباً مُهيناً .
والذين آمنوا بالله ورسُله، ولم يُفرِّقوا بين أحَدٍ منهم ، أولئك

سوف يُؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيماً » • سورة النحل

ولقد أعطى القرآن جميع الأنبياء من ولائه وحبه واحترامه عطاءً مُفيضاً ، وحيّاهم في أنفسهم ، وفي جهادهم تحياتٍ طيبات •

فعَن إبراهيم قال :

« إن إبراهيم كان أمّة » • سورة النساء

وعن داود قال :

« وآتاه الله الملك والحكمة » • سورة البقرة

وسليمان :

« ووهبنا لداود سليمانَ نِعمَ العبدُ ، إنه أوّاب » • سورة ص

وإدريس :

« إنه كان صِدّيقاً نبياً ، ورفعناه مكاناً علياً » • سورة مريم

وأيوب :

« إنا وجدناه صابراً ، نِعم العبدُ ، إنه أوّاب » • سورة ص

ويونس :

« وإن يُونُسَ لَمِنَ المرسلين » • سورة الصافات

ويوسف :

« إنه من عبادنا المُخلصين » • سورة يوسف

ولوط :

« وأدخلناه في رحمتنا ، إنه من الصالحين » • سورة الأنبياء

وموسى :

« إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي •• فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » • سورة الأعراف

وهارون :

« ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان ، وضياءً وذِكراً للمتقين » .

سورة الأنبياء

ونوح :

« إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » .

سورة آل عمران

وزكريا :

« ذِكْرُ رحمةِ ربك عبدَه زكريا » . سورة مريم

ويحيى :

« مُصَدِّقاً بكلمة من الله، وسيِّداً، وحصوراً، ونبياً من الصالحين » .

سورة آل عمران

ومريم :

« يامريم إن الله اصطفاكِ، وطهركِ ، واصطفاكِ على نساء العالمين » .

سورة آل عمران

وعيسى :

« اسمُه المسيح عيسى بن مريم ، وجيهاً في الدنيا والآخرة، ومن المقرَّبين . ويكلم الناس في المهد وكهلاً ، ومن الصالحين » .

سورة آل عمران

« وآتينا عيسى بن مريم البيِّناتِ ، وأيَّدْناه بروح القُدس » .

سورة البقرة

جميع الأنبياء — هود — شعيب — صالح — إدريس — إلياس — جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، حيَّاهم القرآن ، ورفع مَشاعِلَهُم — عالياً — .

ولكي لا يَدَعَ منهم أحداً دون أن يذكره بحفاوَة ، قال بعد أن فصَّل أسماءهم تفصيلا .

« مِنهم من قَصَصْنا عليك ، ومنهم من لم نَقْصُصْ عليك » .

وهو من خلال عرض سِيَرهم ، يكشف عن وَحدة الدعوة والدين التي

انتظمت جهادَهم جميعاً •

فما من نبيٍّ منهم ولا رسول ، إلا كانت أولى كلماته لقومه :

« اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً » •

كلهم هتفوا بهـذا المبـدأ المقدس •

كلهم بلا استثناء •• جاءوا ليُحرِّروا الضمير الإنساني من عبوديته الهابطة للأوثان والأصنام ، وليَصِلوه بالإله الحق ، الذي ليس كمثله شيء •

وهـذا هو لُباب الدين وقاعدته ••

يبدأ كل رسول بدعوة الناس إلى الله الواحد الأحـد •

وينذر عمره كله لإحقاق هـذا الحق ، • ثم عن طريق هذا الإيمان • وبقوته التي تستقر في نفوس المؤمنين يواجه كلّ رسولٍ نقائص قـومه وخطاياهم ، فيعظُهم فيها ، وينهاهُم عنها ، ويقدم لأمته الحلول المناسبة لمشاكلها •

أما المضمون الحيّ لكل كتاب ، وكل دعوة ، فواحد لا يتغير ، هو الإيمان بالله ، والعمل الصالح •

هذا الذي عبَّر عنه القرآن في إيجـاز وشُمول :

« قالوا ربُّنا الله ، ثم استقاموا » سورة فصلت

هذا هو ما يريد أن يضع أساسَه ويُعلي بناءه ••

هـذا هو الجوهر الذي توالَتْ مواكب المرسلين لِتُنادي إليـه عقول الناس وأفئدتهم ••

فكيف إذن ، يصير الدين ، الذي هو أداةُ جَمْع ، لا تشتيت •• وسبيلُ وَحْدة ، لا فُرقة ••

كيف يصير ،أو بعبارة أهْدَى،كيف يُصَيِّره الناس أداةَ مُنابذة وخلاف؟؟!

إن القرآن يضع جَوهر القضية في مستوى كل بَصَرٍ رشيد •

وإنه ليدعو البشر إلى صراط مستقيم حين يقول لهم :

« أقيموا الدين ، ولا تتَفرَّقوا فيه » ••

الفصل السادس

.. عن قضية التوحيد

ذلكم الله ربكم

مَن شاء أن يرى القرآن ، وهو في أروع حالات توقده ، وتألقه وتحفّزه ، وسناه ، فلْيَرَهُ ، وهو يتحدث عن وحدانية الله ، وقدرته ، ورحمته .

إن آيات القرآن ، حين تتحدث عن الله لتبلغُ قِمَّة الاحتدام الذكي ، والتفوّق المنطقي .. وتصولُ الآيات وتجولُ في ميدان اكتظت أرضه بالأصنام ، والأوثان ، والشركاء ، والشبهات ..

وتكاد تسمع للآيات مثل الصلْصلة ، وهي تدَمْدِم على الآلهة الزائفة ، والأرباب المجلوبين ..!!

تكادترى الآيات الكريمة ، وكأنها تعدُو ، وتقتحم ، وتتواثبُ ،وتدْهَمُ ، وتُنْذِر . وتُطوّق ، وتُباغِت ، مُتعقبةً أباطيل الشرك وأكاذيبه ــ في كل مكان .. في كل زمان .. في كل مُناسبة ..!!

والقرآن العظيم ، حين يتحدث عن الله ، فإنما يتحدث عن الله الأحد .. فليس الله عنده إلا واحداً أحداً ..

وحيث يُوجد التعدّد ، لا يكون ثَمَّتَ إله ..

ذلك لأن الله لا يتعدد ، ولا يتكرّر ، ولا يتغير ..

« إنما الله إله واحد » . سورة النساء

والقرآن في هذا لا يزعم لنفسه أنه أتى بجديد ، بل هو ينادي في إلحاح : أنْ تلك دعوةُ إبراهيم ومِلّته .

« إن إبراهيم كان أمّةً ، قانتاً لله حنيفاً ، ولم يَكُ من المشركين » .
سورة النحل

فإصرار القرآن على وحدانية الله ، ورفضه كل تعدد في ذات الله ..

إصرارُه على رفض التشبيه والتمثيل بالنسبة لله الذي ليس كمثله شيء ..

إصراره هذا ، وذاك ، إنما هو توكيد للحنيفيّة الأولى التي جاء بها أبو الأنبياء والمرسلين « إبراهيم » عليه الصلاة والسلام :

ثم هو توكيد لما هتف به موسى ، وعيسى ، وكل رسول كريم ..

ومن ثمّ ، يُفيض القرآن في تبيان هذه الحقيقة ويقص علينا تجربة أبي الأنبياء مع حقيقة التوحيد .

* * *

يخبرنا القرآن ، كيف ذهب إبراهيم عليه السلام يبحث عن الله حين أحس من تلقاء نفسه أن هذا الوجود لا يمكن أن يخلو من مُدبّر مُقتدر حكيم .

وكان إحساساً رشيداً ، لم يمنعه إيمان الناس جميعهم بالأصنام ، من أن يستجيب للحق الذي كان يُلحّ عليه ليراه .

« ولقد آتينا إبراهيم رُشده من قبل ، وكُنّا به عالِمين » .
سورة الأنبياء

رأى إبراهيم أصناماً مَشيدَة ، وكواكب معبودة ... وأبصر قومه مُوَزّعين — بعضهم جاثٍ أمام صنم يناجيه ، وبعضهم جاثٍ أمام نجمٍ يدعوه .

أما أصنام الأرض التي يبنيها الناس بأيديهم ثم يعبدونها ، فقد رفضها في بدَاهةٍ سريعة ..

ومضى يُقلب وجهه في السماء ضارعاً إلى الله الحق كي يكشف له الهُدى ، ويَقدُرَ له اليقين .

« فلما جَنَّ عليه الليل رَأى كوكباً ،قال : هذا ربي ، فلما أفَلَ
قال : لا أحِبُّ الآفلين .
فلما رأى القمر بازغاً قال هـذا ربي ، فلما أفَلَ قال : لَئِنْ لمْ
يهدِني ربي لأكونَنَّ من القـوم الضالين .
فلما رأى الشمس بازِغَةً قال : هذا ربي ، هذا أكبر ، فلما أفلَتْ ،
قال يا قوم إني بريءٌ مما تشركون .
إني وجَّهتُ وجهيَ للذي فطَرَ السماواتِ والأرضَ حنيفـاً ،
وما أنا مِن المشركين » . سورة الأنعام

هكذا يجمعنا القرآن الكريم بأبي الأنبياء « إبراهيم » وهو يطالع الحقيقة بعد طول عَناء ، ويُعلن أن إلاَهه وإلاهَ الناس واحد ، فاطر السماوات والأرض ..

ويتابع القرآن تجربة أبينا إبراهيم ، فينقل إلينا حواره مع أبيه ومع قومه حـول قضية الإيمان :

« إذ قال لأبيه : يا أبتِ لِمَ تعبدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبصر ولا
يغني عنك شيئاً ..؟
يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتِكَ ، فاتَّبِعْني أهْدِكَ
صراطاً سَوِيّاً .
يا أبت لا تعبُدِ الشيطان ، إنَّ الشيطان كان للرحمن عَصِيّاً .
يا أبَتِ إني أخاف أن يمسَّكَ عذاب من الرحمن فتكون للشيطان
وليّاً ... » .

ويجيبه أبوه :

« أراغبٌ أنت عن آلهتي يا إبراهيم ؟
لَئِن لم تَنْتَهِ لأرْجُمنَّك ، واهجُرْني مَلِيّاً » .

ويجيبه إبراهيم :

« قال سلام عليك ، سأستغفر لك ربي إنه كان بي حَفِيّاً .

وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربي عسى ألا أكون
بدعاء ربي شقيا » . سورة مريم

ويمضي القرآن ، يعرض تجربة إبراهيم مسلطاً عليها الأضواء في ألوان شتى ليظهر كل بهائها وكل دلالتها .

والقرآن إذ يعنى بهذه التجربة الباهرة ، إنما يدعم حقيقة الإيمان والتوحيد دعماً وثيقاً، ويعطي الناس من رائد هذه الحقيقة قدوة تجل عن النظير في ثباتها وصدقها وروعة انتصارها .

لقد احتال قومه عليه ليفتنوه عن إيمانه فأخفقوا .

ثم لجأوا إلى تخويفه وترويعه بنقمة آلهتهم ، قاصين عليه الأساطير تلو الأساطير . متضمنة غضب الآلهة ، الذي حاق بمن كفر ، وعذابهم الشديد الذي دمدموا به على من جحدهم واستنكف عن عبادتهم .!!

فما كان جواب « إبراهيم » إلا صلصلة بيقينه ، وجلجلة بإيمانه ، وهتاف عال باسم ربه الأحد الحفيظ ، الكبير المتعال .

« وحاجه قومه : قال أتحاجوني في الله وقد هدان ؟ ولا أخاف
ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً ، وسع ربي كل شيء
علماً ، أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم
أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق
بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ الذين آمنوا ، ولم يلبسوا إيمانهم
بظلم ، أولئك لهم الأمن ، وهم مهتدون » . سورة الأنعام

ويعرض القرآن مشهداً آخر ، مشهد الذي فتنه ملكه . وغره جاهه ، ولعله كان ملك « بابل » فأراد أن يفتن الخليل عن إيمانه :

« ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك..إذ
قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت ، قال أنا أحيي وأميت ..

قال إبراهيم . فإنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بهـا من المغرب ، فبهت الذي كفر ، والله لا يهدي القوم الظالمين » .

سورة البقرة

والقرآن يسوق هذه المحاورة ليُرينا بها كيف كان إبراهيم يُفصح عن إيمانه ، بالمنطق .. ذلك لأن الإيمان بالله .. وجودِه ووحدانيتِه ، ليس لُغزاً من الألغاز ، ولا أحْجية من الأحاجي ؛ إنما هو حقيقة تجد في العقل وفي المنطق أداة للتعبير عن نفسها ، وإقامة الحجة على صدقها .

فعندما سـأل « مَلك بابل » نبيَّ الله إبراهيم برهاناً ، لم يأته بخارقة من الخوارق ، بل توسَّل بالمنطق فأجابه : برهاني قصة الحيـاة والعَدم ، فحيثُما تُقلِّب بصرك ترى وجوداً شامخاً ونامياً ، وتجد حيـاة متجددة دائبة . فهـذه البيضة التي يخرج منهـا ديك يصيح ، أو طائر يطير ..! وقطرات المـاء ، التي يتشكَّل منها الإنسان ــ الذَّكرُ والأنثى ..

هل أصنامُكم هذه تصنع من ذلك شيئاً ، أو تُحدث منه أمراً ..؟ كلا .. ولكنْ : « ربِّيَ الذي يحيي ويميت » .

ويجيبه الملك في سخرية عاجزة :

« أنا أحيي وأميت » ..!

ذلك أنه يتصور تحت وطأة صلفه وجبروته ، أنه حين يدعو ــ مثلا ــ رجلين قد حُكم عليهما بالإعدام لجرم اقترفاه ، فيعفو عَن أحدهما ، ويُنجز الحكم في الآخـر .

يتصور أنه لو صنع شيئاً كهذا ، يكون قد أمات وأحيا .!!

ولكنَّ إبراهيم عليه السلام يبلغ من الفطنة والهُدى ، ما يربأ به عن مُناقشة هذا الخوَاء ، فيتخطاه في سُهولة إلى برْهان آخر ، وهو أيضاً برْهان كوْني ، يستمد جوهره وشكله من معطيات العقل والحسّ فيقول :

« فإن الله يأتي بالشمس من المشرق ، فأتِ بها من المغرب » .

في تهكم قاصف ماحق . وهو في نفس الوقت منطق واضح وصادق ، أدلى إبراهيم ببرهانه الثاني .

إن هذه الشمس التي تمضي في حركة مُقَدَّرةٍ موقوتة لا تفعل ذلك وحدها .. بل إن لها رَبّاً يُمسكها ويهديها ، فَمُرْها أن تقف ، أو غيّر إذا كنت إلهاً مَدارها ، ومَسيرها ، وحركتها .

ثم يقول القرآن في حُبور وتهلّل :

« فبُهِتَ الذي كَفَرَ » ...!!

* * *

وينقلنا القرآن إلى مشهد آخر ، تتوالى فيه الحجة البالغة داحضة أوهام الشرك وأباطيل المشركين .

« واتْلُ عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟
قالوا نعبدُ أصناماً ، فنظلّ لها عاكِفين .
قال : هل يسمعونكم إذ تَدْعون ؟ أو ينفعونكم، أو يَضرّون ؟
قالوا : بل وَجَدْنا آباءنا كذلك يفعلون .
قال : أفرأيتم ما كنتم تعبدون ؟ أنتم وآباؤكم الأقدمون ..؟
فإنهم عدوٌّ لي ، إلا ربَّ العالمين الذي خلقني ، فهو يَهدين .
والذي هو يُطعمني ، ويَسْقين . وإذا مرضتُ ، فهو يَشفين .
والذي يُميتني ، ثم يُحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يومَ الدين » سورة الشعراء

إنه يتخذ من مظاهر الخلق دليله إلى الخالق ، وهو في هذا الحِوار يُركّزُ على دَحْض هذه الأصنام وكشف زيْفها .

هو يريد أن ينزع من صدور قومه كل إيمان بهذه الأصنام ، وكل ولاء واحترام لها ، فإذا ما تمّ له ذلك ، وخرج الإيمان بها من القلوب وحَلّ مكانه فراغ نظيف ،قدّم هو الإيمان الحق الذي يملأ هذا الفراغ .

هذه هي الخطة التي قضى إبراهيم في انتهاجها عمراً طويلا ، وإن كان

القرآن يُجسّلها في مشهد وجيز . فيرينا ــ أولاً ــ نقدَه للأصنام تمهيداً للتشكيك فيهـا . وطَرْدِها من قلوب عابديها .

« هل يَسمعونكم إذ تَدْعُون ..؟؟
أو ينفعونكم، أو يَضُرون » .؟؟

فإذا كانوا ، لا يَسمعون ، مجرد سَمْع .. ولا ينطقون مُجرَّدَ نُطق ..

وإذا كانوا لا يملكون لكم ، بل ولا لأنفسهم نفعاً ولا ضراً .. فبأي منطق وبأيعقل تخِرّون لها سُجَّدا، ولا تعبدون الله الحق الذي خلَقكم وما تعلمون، والذي يُطعم ويَسقي ، ويُميت ويُحيي ، ويهدي ويَشفي ..؟؟

« ما هـذه التماثيل التي أنتم لهـا عاكفون ؟
قالوا : وَجَدْنا آباءنا لهـا عابدين
قال : لقد كنتُم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين
قالوا : أجِئْتنا بالحـق أم أنتَ من اللاعبين ؟.
قال : بل ربكم ربّ السماوات والأرض الـذي فَطَرَهُنَّ وأنا على ذلكم من الشاهدين .
وتالله لأكيدَنَّ أصْنامَكم بعد أن تُوَلُّوا مُدْبرين » .

سورة الأنبياء

لقد جاءت الساعة الفاصلة ، حيث ازدحمت نفس إبراهيم بالمقت لهذا الهوان الذي يتمرَّغ فيه قومه وهم لا يرعَوُون .

أناسٌ معهم عقولهم ، ومعهم حَواسُّهم ، ثم يحملون القرابين والأطعمة إلى حجارة مَنْحوتَة ..

عجباً..!! ألا سألوا أنفسهم ، ماذا ستصنع بهـا الأصنام ؟.

ثم هم يعبدونها ويرجون نفعها . ويخافون عذابها .. فمتى قدَّمت لإنسان نفعاً ، أو ألْحَقتْ بأحدٍ ضَرّا ..؟

أيمكن أن يكون هؤلاء الناس في تقديسهم لهذه الأوثان يَصدُرون عن عقل..؟

أبداً .. إنما هم يصدُرون عن خوف ..

فإذا رأوا أصنامهم هذه تتحطم وتتهشَّم ، ثم لا تستطيع حتى حماية نفسها ، زالَت عنهم المخاوف التي تقودهم إلى عبادتها ..

وهكذا يتخذ إبراهيم قراره .

ويعرض القرآن علينا هذا المشهد في حماسٍ وحـركة ، حتى نكادُ نحسّ كأنّه كان هُناك ، مع إبراهيم .. خطوة خطوة .. وخَلْجَةً خلجة .. وهمسة همسة .. بل كأنه هناك يحضه ويُحرّضُه ، ويهتف به ويهلل له :

« إذ جاءَ ربَّهُ بقلب سليم . إذْ قال لأبيه وقومه ماذا تعبُدون ؟ أئِفكاً آلِهةً دُونَ الله تريدون ؟ فمـا ظنّكم برب العـالمين .؟ فنظَرَ نظْرةً في النجوم ، فقال إني سقيم . فتولَّوْا عنه مُدْبرين . فرَاغَ إلى آلِهتهم،فقال : ألاَ تأكلون..؟!مالَكُمْ لاتنطقون..؟! فراغَ عليهم ضَرْباً باليمين. فأقبلوا إليه يزِفّون. قال: أتعبدونَ ما تَنحِتون ؟! والله خلَقكم ، وما تعملون . قالوا : ابْنُوا لَهُ بُنياناً ، فألْقُـوهُ في الجحيم . فأرادوا به كَيْـداً ، فجعلناهم الأسْفلين . وقال : إني ذاهبٌ إلى ربي سَيَهدين » .

سورة الصافات

* * *

أجلْ .. « إني ذاهب إلى ربي سيهدين » .

ويحكي القـرآن انتصار سيدنا إبراهيم : الذي أنجـاه الله من محاولات أعدائه ، ثم سار في الأرض مُهاجراً ومُذكّراً .

والقرآن إذ يفيض في تبيان هذا النبأ ، إنما يعرض كما قلنا قصة الإيمان بالله وبوحدانيته ، في نقطة بدئها وانطلاقها .. في فَجرها البعيد ، حيث كان ثَمّتَ مُؤمن واحد وسط أقوام مشركين وثنيين .

وكأنّ القرآن يطرح هـذا السؤال :

ـ ماذا كان المصير ...؟؟

أما الذين قضوا أيامهم جاثين أمام أوثانهم وأصنامهم ، فقد ذهبوا مع الأوثان بدداً وخلفوا هباء ..!

أما ذلك المؤمن الواحد ، فقد أخرج الله من صلبه أنبياء بررة ، حملوا الراية ... وتوارثوا المشعل ..

فكان إسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ..!

وكان يحيى ، وإشعياء ..

وكان موسى ، وعيسى ، ومحمد ..

وكان هدى ملأ الأرض ، ورحمة أدركت الناس ..

هذا هو بطل الإيمان إذن ، ورائد قافلته عبر الزمان الطويل .

هذا هو الذي حياه القرآن في ختام حديثه المفيض عنه فقال :

« سلام على إبراهيم » . سورة الصافات

وهذا هو الأب والمعلم الذي لم يزل القرآن دائماً يذكر به رسول الله محمدا ، ويدعوه إلى متابعته ، ويناديه دائماً :

« أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ، وما كان من المشركين » .

سورة النحل

« قل : إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ، ديناً قيماً ، ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين » .

هذا هو رائد الإيمان الذي كانت حياته ، وكانت دعوته ، ورسالته : « اعبدوا الله واتقوه » .

لم يتل القرآن قصته للتسلية ، ولكن ليزكي بها قضية الوحدانية والإيمان .

من أجل هذا قال وهو يختم أحد مشاهد القصة :

« إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون » . سورة العنكبوت

وقال : وهو يهدي الناس إلى حقيقة الإيمان وطريقه :

« قد كانت لكم أسْوَةٌ حَسنةٌ في إبراهيم والذين مَعَه » .
سورة الممتحنة

★ ★ ★

ومن أجل شرح قضية الإيمان بالله ، ومن أجل شَحْذ الولاء لها والاقتناع بها . يحكي القرآن قصة موسى ، إذ ناداه ربه :

« إنني أنا الله ، لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاةَ لِذِكْري » .
سورة طه

وإذ أمره أن يُواجه « فرعون » بآياته ، مُسلحاً بإيمانه ، مُزوَّداً بيقينه .

« اذهب أنت وأخوك بآياتي ، ولا تَنيا في ذِكْري . اذهبا إلى فرعون إنه طغى . فقولا له قولاً لَيِّناً ، لعله يتذكَّرُ أو يخشى .
قالا : ربَّنا إننا نخاف أن يفرُطَ علينا أو أن يطغى . قال :
لا تخافا ، إنني معكما أسمع وأرى » .
سورة طه

وعند هذا المشهد يقف القرآن بالمؤمنين به وقفةً ذاكرة ، فالإيمان بالله يُمتحن في هذا المقام امتحاناً ظافراً .

والرسول الذي يحمل هذا الإيمان في قلبه . دون أن يكون معه شيء من وسائل القوة والحوْل، يُواجه « فرعون » بكل بأسه وقوته .

والرسول . تتحرك فيه طبيعة البشر فيخاف من هذه المواجَهَة ، ويُحاذِرُ عُقْباها .

وهو يناجي ربه ، ويَبُثُّه ضعفه ، وخوفه .. فماذا يملكان ، هو وأخوه من أسباب التوقّي والنجاة ..؟

ولكنَّ الله يأمره أن يتقدم .

أوَلَسْتَ ، وأخوك مؤمنَيْن بي ..؟

إذن :

« لا تخافا ، إنني معكما أسمع وأرى » .
سورة طه

« فاذهبا بآياتنا . إنا معكم مستمعون » . سورة الشعراء

ونفس الحجاج الذي دار بين إبراهيم وملك بابل .. يدور هنا . بين موسى وفرعون ..

« قال فرعون : وما رب العالمين ..؟ قال : رب السماوات . والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . قال لمن حوله . ألا تستمعون؟ قال : ربكم . ورب آبائكم الأولين . قال : إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون . قال : رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون » . سورة الشعراء

ويتابع القرآن مشاهد القصة مشهداً ، مشهداً ، عارضاً المحن التي يتعرض لها الإيمان ، والمناورات المبهظة التي تقتضيه الصبر الطويل ، والعزم الجليل .

فيعرض ثبات الإيمان في فؤاد موسى وهارون حين يواجهان سخط فرعون وعذابه ..

ثم ثبات الإيمان في قلوب السحرة الذين بدأوا جولتهم مع التوحيد، قائلين:

« بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون » . سورة الشعراء

ثم أتوا على نهايتها ساجدين لله ، كافرين بفرعون ، وصائحين من فرحتهم بالإيمان الذي ألقاه الله على أفئدتهم :

« آمنا برب العالمين ، رب موسى وهارون » . سورة الشعراء

ثم ثبات الإيمان ، حين جلس موسى وأخوه يتلقيان الكيد من قومهما .. من بني إسرائيل الذين أنجاهم الله من البلاء المبين ، فما شكروه ، وما حفظوا الإيمان الذي كان سبب نجاتهم ، وموئل حياتهم ؛ بل نكثوا وضلوا ، وذهبوا يمكرون بمنقذهم ورسولهم .

« فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، قالوا : يا موسى اجعل لنا إلاهاً ، كما لهم آلهة .. قال إنكم قوم تجهلون . إن

هؤلاء مُتَبَّرٌ ما هم فيه ، وباطلٌ ما كانوا يعملون • قال : أغَيْرَ الله أبغيكم إلاهاً ، وهو فضَّلكم على العالمين » ؟ سورة الأعراف

« واتَّخذَ قَومُ موسى مِن بَعده من حُلِيِّهم عجلاً جسداً ، له خُوار • ألم يَرَوا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلا ؟ اتَّخذوه ، وكانوا ظالمين • ولمَّا سُقِط في أيديهم ، ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا : لئن لم يَرحمنا ربُّنا ويغفر لنا لَنكونَنَّ من الخاسرين • ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسِفاً ، قال : بِئسما خلَفْتموني من بعدي ، أعجلتم أمرَ ربكم ؟ وألْقى الألواح ، وأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه ، قال ابنَ أمَّ ، إن القوم استضعفوني ، وكادوا يقتلونني ، فلا تُشمت بيَ الأعداء، ولا تجعلني مع القوم الظالمين• قال رب اغفر لي ولأخي،وأدخلنا في رحمتك،وأنت أرحم الراحمين» •
سورة الأعراف

ثم يؤكد القرآن عظمة الإيمان واستغناءه ، فيردد الآية التي أعلن بها موسى النبي ، استخفافه بمؤامرات قومه ومكرهم •

« وقال موسى • إن تكفروا أنتم ومَن في الأرض جميعاً ، فإن الله لَغنيٌّ حميد » • سورة إبراهيم

ثم يُحَيِّي القرآنُ الإيمانَ الوثيق في نضال موسى وهارون ، كما حيَّاه من قبل في تجربة إبراهيم • فيقول :

« سلام على موسى وهارون ، إنا كذلك نجزي المحسنين ، إنهما من عبادنا المؤمنين » • سورة الصافات

★ ★ ★

وينتقل القرآن إلى تجربة الإيمان مع المسيح •

ويجمعنا بهذه التجربة الكبرى من أولى لحظاتها ، من قبل أن يشهدها المسيح ذاته !!

أجَل .. منذ قالت أمه ، وهو لا يزال في بطن الغيب :

« أنّى يكون لي غلام ، ولم يمْسَسْني بَشَر ، ولم أكُ بغيّا ؟؟
قال كذلكِ قال ربّك هُوَ عليّ هيِّن ، ولنجعله آيــة للناس ،
ورحمةً منّا ، وكان أمراً مقضياً » . سورة مريم

فالقرآن يرى في حياة المسيح كلها من بدايتها إلى مُنتهاها . برهاناً وثيقــاً من ألمع وأصدق براهين الإيمان بالله .

« إن مَثَل عيسى عند الله ، كمَثَل آدم خلَقَه من تُراب ، ثم قال
له كُنْ ، فيكون » . سورة آل عمران

« وجَعَلْنا ابن مـــريم وأمّهُ آية ، وآويناهما إلى رَبْوة ذاتِ
قرارٍ ومَعين » . سورة المؤمنون

كما أنّ موضوع هذه الحياة ، وهُتافَها العالي ، ومسعاها الدائب ، كـــان حــــول الإيمان بالله ..

فبين الذين أسماهم المسيح « الخِراف الضالّة » وقف يزجر دعاة الكفر والعصيان .

ووَسْط الذين كانت « روما » تُصَدّر إليهم عِبادة قيصر ، وقف المسيح يُعلن بكل قوة وعزم ، أنه لا إله إلا الله .

ويتتبّع القرآن كلماته وعظاته فينقلها إلينا ، مُزكّياً بهـــا قضية الإيمان .

« وجئتكُم بآيــة من ربكم ، فاتقوا الله وأطيعون ، إن الله ربي
وربكم فاعبدوه ، هــذا صراط مستقيم » . سورة آل عمران

إنها نفس الآيات التي ردّدها ورتّلها من قبلُ إبراهيم ، وموسى ، وكلّ صالح من الأنبياء والمرسلين : ــ « الله ربي وربكم » .

وحين يرى القرآنُ قضية « الوحدانية » تتعرض للخطر بين أتبـــاع المسيح نفسه ، يتقــدم حاملاً مسئوليته تِلْقاءَ عقيدةٍ يرى أنها تحت وطأة الغُلُوّ في

التقديس • قد خرجت عن الطريق :

« يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة • انتهوا خيراً لكم ، إنما الله إله واحد • سبحانه أن يكون له ولد • له ما في السماوات وما في الأرض ، وكفى بالله وكيلا » •

سورة النساء

والقرآن يعلم أن عقيدة التثليث ، إنما أزجتها الرغبة المغالية في تكريم المسيح وتقديسه •

من أجل هذا يقرر أن وضع المسيح في مكانه من الله ، باعتباره رسول الله ، وعبده ، وكلمته ، لا ينقص من قدره شيئاً ••

أو لم يكن إبراهيم نفسه عبداً من عباد الله ورسولا من رسله ••؟

وموسى الذي جاء المسيح ليكمل ناموسه ، ألم يكن كذلك : لا غير ••؟

وهكذا يقول القرآن عن المسيح :

« لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله » •   سورة النساء

وينقل القرآن القضية إلى مستوى أعلى ، فيناقشها مع المسيح نفسه خلال حوار دار بين الله والمسيح• أو بتعبير أصح، خلال دفاع درأ به المسيح عن نفسه مسئوليته عن عقيدة التثليث •

« وإذ قال الله يا عيسى بن مريم ، أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلاهين من دون الله ؟ قال : سبحانك ، ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ، أن اعبدوا الله ربي وربكم ، وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم ، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب

عليهم • وأنت على كل شيء شهيد • إنْ تُعذِّبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنتَ العزيز الحكيم • قال الله : هذا يومُ ينفعُ الصادقين صِدْقُهم ، لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورَضُوا عنه ، ذلك الفوزُ العظيم » •
سورة المائدة

إذن ، فالمسيح قد جاء هذه الحياة ليأخذ دوره بين الذين اصطفاهم الله كي يعلنوا ألوهيته ، ووحدانيته وليدْعوا الناس إلى الصراط المستقيم •

« صِراطِ الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض » •

والقرآن إذ يُلقي أضواءه على الراية المؤمنة التي رفعها المسيح مُنادياً بالله الواحد الأحد ، إنما يفعل ليؤكّد الحقيقة التي دأبَ الهتاف بها ، ألا وهي أنه إنما جاء ليبعث العقيدة الدارِسة التي نادى بها إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وجميع المرسلين •

فهذه العقيدة هي الدين — كُلّ الدين — وقديماً أوصى إبراهيم بنيه فقال :

« يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدين » • سورة البقرة

وسمّى التوحيد إسلاماً، وأسْمى الدين إسلاماً، فأنْهى وصيته السالفة قائلا :

« فلا تَمُوتُنَّ إلا وأنتم مسلمون » • سورة البقرة

هكذا عرض القرآن قضية الإيمان والتوحيد ، إذ يرفع إبراهيمُ قواعدها ، ولواءها • وإذ يرفعها كذلك إسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، والأسباط ، ويرفعها موسى وعيسى ، ويرفعها خَاتَمُ المرسلين محمد ••

وهو بهذا العرض ، وخِلاله يُذكّر أهل الكتاب بهذه الحقيقة ، ويناقشهم حَولَها مُناقشة يرجو أن يُعيد بها إلى عقيدتهم نُورَ « إبراهيم » ، ورنينَ صِدقه ونَبْض هُداه •

★ ★ ★

والقرآن يدير هذا الحِوارِ المجيد حول قضية التوحيد ، مع أهل الكتاب ،

بعـد أن أداره من قبـل ، وعلى نطاق واسع مع المشركين الذين اتخـذوا من الأصنام آلهة يُعبدون .

فبَيْنَ الرَّعيلِ الأوَّل من آياته ، نزلت تلك الآيات الهاتفة بالإله الواحد الأحد ، والتي فندت في منطق كاسح وثَنية قريش ، وأذاقت أصنامها من سُخريتها اللافحة ، وحِجاجها المُدَمْدِم ..!!

ولقد وضع القرآن فَوق كاهل محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام هذه الأمانة الكبرى منذ بدأ يُخاطبه ويتنزَّلُ عليه :

« يا أيها المُدَّثِّر .. قُمْ فَأَنْذِر .. وربَّك ، فكَبِّر » .

سورة المدثر

إن القرآن يدعوه أن يهتف باسم الله وحـده .. « ورَبَّك فكَبِّر » ..

أجَل . « رَبَّك » ، لا أربابَ قريش ولا آلهتها التي نحتوها من الحجارة بأيديهم ، أو نحتها لهم آباؤهم الأقدمون ..

إن كل ولاء ، وطاعة .. إن كل توقير وتقديس ، لن يكون إلا لله رَبَّك ، وربِّ هؤلاء الحيارَى التائهين ، وربِّ الناس جميعاً .. فلا تَدْعُ مع الله أحداً.

« واذْكُرِ اسْمَ رَبِّك ، وتبَتَّل إليـه تَبتيلا . ربِّ المشرق والمَغْرِب ، لا إله إلا هو ، فاتَّخذْهُ وكيلا » .

سورة المزمل

وتتوالى الآيات في سرعة الضوء ، وتِبْيانِه . :

وتتملْمَلُ قُريش أول الأمر ، وتكتفي بالسخرية ، تُسرِّي بها عن نفسها الجَزِعَة ، وتُغالب بها مخاوفها النامية ، فيذهب نفرٌ من وجهائها الى الرسول ويقولون له ! .

ـ يا محمد ، انْسُبْ لنا ربك ..!

إنهم لا يتصورون إلهاً بغير « أسرة » ..! وهم يطالبون الرسول ، ما دام قد اتخذ إلاهاً غـير آلهتهم ، بأن يدُلهم على نسَبِ رَبِّه .. مَن أبوه ..؟، ومَن

عائلتــه ٠٠ ؟ !

ويجيبهم القرآن في هــدوء :

« قُل هُوَ اللهُ أحَد ٠ ٠ الله الصَّمَد ٠ ٠ لَمْ يَلِدْ ، ولم يولَدْ ٠ ٠ وَلَمْ يكُن له كُفُواً أحَد » ٠

سورة الصمد

يذهبون ، ثم يعودون بسخرية جديدة ، بَطَلُها هذه المرة « أُبَيّ بن خلَف » ٠

جاء إلى رسول الله عليه السلام، ممسكاً بيده قطعة من عظام باليَة ، وضَعها في كَفه ، ثم أخذ يسْحَقها بأصابعه ، ويَذْروها في الهواء ، ويقول للرسول :

أتزعُم أن ربَّك سيبعث هذه مرة أخرى ٠٠؟!

ويتقدم القرآن بإجابته السَّاخرة ، القاهرة :

« وضرَبَ لنــا مَثَلاً ، ونَسِيَ خلْقَه ٠٠ قال : مَن يُحْيِي العِظام ، وهي رَمِيم ٠٠؟ قُل يُحييها الذي أنْشأها أوَّلَ مرة ، وهو بِكُلّ خَلْقٍ عليم » ٠

سورة يس

أجَل — إن القوة التي خلَقت الإنسان من العَدم ، قادرة على أن تُعيده ٠

« وهو الذي يبدأ الخلق ، ثم يُعيده ، وهو أهْوَنُ عَلَيْه » ٠

سورة الروم

« قال ربك هو عليّ هَيِّن ، وقد خلَقْتُك من قبلُ ولَمْ تَكُ شَيئاً » ٠

سورة مريم

« ما خَلْقُكُم ولا بَعْثُكُم إلا كَنَفْسٍ واحــدة » ٠

سورة لقمان

ثم يضرب لهم مَثَلا ، يجعل الأمر الذي يستنكفون عن تصديقه ، ويستبعدون تحقيقه ، بديهَةً من البَدَائِه المُسَلَّمة فيقول متحدثاً عن الله سبحانه :

« ومن آياته أنك ترى الأرضَ خاشعة ، فإذا أنزَلْنا عليها المــاء

اهتزَّت ورَبَتْ ـ إن الذي أحياها لَمُحْيِي الموتى إنه على كل
شـيء قـدير » . سورة فصلت

وينمو في صـدر قريش الحَنَق ، والضيق .. فيذهب إلى أبي طالب عم النبي وفدٌ من رجالها يتقدمهم أبو جهل بن هشام ، والعاص بن وائل ، والأسود ابن المطَّلِب ، والأسود بن عبد يغوث ويدخلون على أبي طالب ، ويقولون له :

ـ أنت كبيرنا وسيِّدُنا ، فأنْصِفْنا من ابن أخيـك .. مُرْه أن يكفَّ عن شَتْمِ آلهتنا .

ويُرسل أبو طالب إلى ابن أخيه مَن يدعوه إليه ..

ويجيء الرسول ، ويَسمع مقالة قريش لعمه ، فيقول لأعضاء وفدها هؤلاء :

ـ أرأيتم لو دعوتكم إلى كلمة هي خير لكم ممَّا تجمعون ..؟

ويقول أبو جهل . هاتها ..

ويقول الرسول :

ـ تقولون : لا إله إلا الله ...

وتفزع رجالات قريش ، ويعلو عُوَاؤها ، ويقولون :

« ساحِرٌ كَذَّاب .. أجَعَلَ الآلهة إلَهاً واحداً .. إنَّ هـذا
لَشَيءٌ عُجاب » . سورة ص

فينادي القرآن الرسول قائلا :

« قُل إنَّما أنا مُنذر . وما مِن إلهٍ إلا اللهُ الواحدُ القهَّار ..
رَبُّ السماواتِ والأرضِ ، وما بينهما ، العزيزُ الغفّار » .
سورة ص

ويخوض القرآن معـركة التوحيد مع أولئك المشركين ، ومع كل مُشْرِك كان أو سيكون .

يخوضُها في غـير هـوادة ، مُنْتَضِياً حُجَّتَه البالِغة .. مُمْتَشِقاً مَنطقَه الذَّكي .

« يا أيها الناس ، ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعوا له .. إن الذين تَدْعُون من دُون الله ، لن يَخلُقوا ذُباباً ولو اجْتَمَعُوا له .. وإن يَسْلُبْهُمُ الذبابُ شيئاً لا يستَنْقِذُوه منه ، ضَعُفَ الطّالِبُ والمطْلُوب » . سورة الحج

ثم يُدَمْدِمُ عليهم بآياته الدّاحِضة :

« قُل ادْعُوا الّذين زَعمتُم من دُون الله ، لا يملكون مِثْقالَ ذَرّةٍ في السماوات . ولا في الأرض .. » . سورة سبأ

« إنْ تَدْعُوهم ، لا يَسمعوا دُعاءَكم ، ولو سَمِعُوا ، ما استَجابوا لكم ، ويومَ القيامة يَكفُرون بِشِرْكِكم ، ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبير » . سورة فاطر

« واتّخَذوا مِن دُونِ الله آلِهةً ، لِيكُونوا لهم عِزّاً ، كلاّ ، سيكْفُرون بعبادتهم ، ويكونون عَلَيْهم ضِدّاً » .. سورة مريم

« واتّخذوا من دونِه آلهةً ، لا يَخلُقون شيئاً ، وهُم يُخلَقون. ولا يَملكون لأنفسهم ضَرّاً ، ولا نفعاً ولا يملِكون مَوتاً ، ولا حَياةً ، ولا نُشوراً » . سورة الفرقان

« أيُشْرِكون ما لا يَخْلُقُ شيئاً ، وهُم يُخْلَقون ؟؟ ولا يستطيعون لهم نَصراً ، ولا أنفُسَهم ينصرون » . سورة الاعراف

وفي ختام الملحمة الحافلة يخاطبُ القرآن رسول اللهَ ، مُثَبِّتاً فؤادَهُ على ما معه من عقيدة وإيمان ..

« قل : هذه سَبيلي ، أدْعُو إلى الله ، على بَصيرةٍ ، أنا ومَن اتّبعَني .. وسبْحانَ الله وما أنا من المشْرِكين » . سورة يوسف

* * *

من خِلال هذا الحوار الدّؤوب ، مع المشركين تارة ، ومع أهل الكتاب تارة

أخرى .. كان القرآن يشرح للناس حقيقة « الله » .

كان يقود الوجدان البشري ، والعقل الإنساني إلى الله الحق : في آيات ميسرة واضحة ، وفي منطق جزل مبين .

وكان سبيله لهذا ، إعمال العقل ، وتحريك قوى النظر والتأمل والاقتناع .

فالأحاجي ، والألغاز والأساطير ، لاتدل على الله ؛ لأن الله « هو الحق المبين » .

والحق المبين إنما يسار إليه في هدى العقل البصير والرؤى الرشيدة .

« أفلا تتفكرون » .. سورة الأنعام

« أفلا تعقلون » ..؟ سورة المؤمنين

« أفلا تتذكرون » ..؟ سورة السجدة

« أولم يتفكروا في أنفسهم » ..؟ سورة الروم

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » . سورة العنكبوت

« إن في ذلك لآيات للعالمين » . سورة الروم

« ... لآيات لقوم يعقلون » . سورة النحل

« لآيات لقوم يتفكرون » . سورة الروم

فالقرآن يقدم « الله » إلى عباده في موكب حافل من آيات قدرته ، ورحمته ، وعظمته .

فمن هو الله ..؟

إن القرآن لا يحدثنا عن لونه ، ولا عن حجمه ، ولا عن شخصه ، لأن الله أعلى وأجل من أن يعرف بهذه الأعراض .

« الله نور السماوات والأرض . سورة النور

« ليس كمثله شيء ، وهو السميع البصير » . سورة الشورى

وإذا أردنا أن نعرفه ، فلنُدِر أبصارنا في الآفـاق وفي أنفُسنا ، فهُنالك وهُنا نرى من آياته الكُبرى ما يدلُّنا عليه .

« الله الذي رفع السماوات بغير عَمَدٍ ترَوْنَها » . سورة الرعد

« وهو الذي مَدَّ الأرض ، وجعلَ فيها رواسِيَ وأنهاراً ، ومِن كُل الثَّمراتِ جعَل فيهـا زوْجَيْن اثنَيْن ، يُغشِي اللَّيل النهار . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكَّرون . وفي الأرض قِطَعٌ مُتجاوِراتٌ ، وجنَّاتٌ من أعنابٍ ، وزَرعٌ ونَخِيل صِنْوانٌ وغَيرُ صِنْوانٍ يُسْقى بماءٍ واحد . ونُفضِّلُ بعضَها علَى بَعضٍ في الأُكُل . إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون » .
سورة الرعد

« وسَخَّر الشمس والقَمر . كلٌّ يجري لِأجلٍ مُسمًّى » .
سورة الرعد

« وسَخَّرَ لكُم الشمسَ والقمـرَ دائِبَيْن ، وسَخَّرَ لكُم الليلَ والنهار » . سورة إبراهيم

« ... والنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ . إنَّ في ذلك لآياتٍ لقـومٍ يعقلون . وما ذَرَأ لكم في الأرض مختلفاً ألْوانُه ، إن في ذلك لآية لقوم يَذَّكَّرون » . سورة النحل

« والله خلقَ كُلَّ دابَّةٍ من ماء ، فمنهم مَن يَمشي على بطنه ، ومنهم مَن يمشي على رِجْلَيْن ، ومنهم مَن يمشي على أربع . يَخْلُق الله ما يشاء ، إن الله على كل شـيء قدير » . سورة النور

«والله أنبَتَكُم من الأرض نَباتـا » . سورة نوح

« ومِن آيـاتِه أنْ خلَقكُم مِن تُراب ، ثم إذا أنتُم بشَرٌ تَنتَشِرون » . سورة الروم

« ومِن آياته أنْ تَقومَ السماءُ والأرضُ بأمرِه » .
سورة الروم

« يُمْسِكُ السَّماواتِ والأرضَ أن تزُولا » . سورة فاطر

« تَبارَكَ الذي جعَل في السماءِ بُروجاً ، وجعَل فيها سِراجاً ، وقمَراً مُنيراً » . سورة الفرقان

« والشمسُ تجري لِمُسْتقَر لهـا ، ذلك تقديرُ العزيزِ العليم ، والقمرَ قَدَّرْناهُ مَنازِل حتى عَـاد كالعُرجون القـديم ، لا الشمسُ يَنبغي لها أنْ تُدْرِكَ القمَر ، ولا اللَّيلُ سابِقُ النَّهار ، وكُلٌّ في فَلَكٍ يسْبَحون » . سورة يس

« والأرضَ مَددْناها ، وألْقيْنا فيها رواسِيَ ، وأنْبَتْنا فيها من كُل شيءٍ مَوْزُون » . سورة الحجر

« أمْ مَنْ جَعلَ الأرضَ قراراً ، وجعَلَ خِلالها أنهارا ، وجعَلَ لَها رواسِيَ ، وجَعَل بين البَحْرين حاجِزاً ؟ أإلهٌ مـع الله ؟ ، بل أكثرُهم لا يعلمون » . سورة النحل

« وترى الجبال تحسَبُها جامِدةً ، وهي تمـرُّ مَرَّ السحاب ، صُنْعَ الله الذي أتْقَنَ كُل شيء » . سورة النحل

« إنَّ في خَلْق السماوات والأرض ، واخْتِلاف اللَّيل والنهار ، لآياتٍ لأولي الألْباب » . سورة البقرة

« ألَم تَر أنَّ اللهَ يولِجُ الليلَ في النهـار ، ويولِجُ النهار في اللَّيْل ....؟؟ » . سورة لقمان

« يُكَوِّرُ اللَّيْلَ علَى النهار ، ويُكَوِّرُ النهارَ على الليل » .
سورة الزمر

« يُغْشِي اللَّيلَ النهارَ ، يطلُبه حَثيثاً » . سورة الأعراف

« أنزَلَ من السَّماء ماءً فسَلَكَهُ يَنابيعَ في الأرض » . سورة الزمر

« وأنزلنا من المُعْصِرات ماءً ثَجَّاجا ، لِنُخرج به حَبّاً ونباتاً وجنّاتٍ ألْفافا » . سورة سبأ

* * *

من خلال النظر في هــذه الآيات الكبرى ، يُريد القرآن أن يصلَ الناسَ بِربِّهم ، وأن يتعرفوا إليه بتأمُّلهم وتفكيرهم .

فالله ، هو القويّ المقتدر ، والخلاَّقُ العظيم .. وهو من وراء كل هــذا الكون المديد البعيد ، الرحيب العجيب .. هو مِن ورائه بقوته وقدرته وإبداعه ، وهو مِن ورائه مُحيط .

مَن شاء أن يراه ، فها هو ذا . في كل آثارِ رَحْمته ، وقدرته .

في النَّبْتَةِ الطالعة ..

في القَطرة الهاطلة ..

في الشُّعاعة الحافلة ..

في مَواقِع النجُوم .

في الليل إذا يغشى ..

والنَّهار إذا تجَلَّى ..

في الشمس تَجري لمُسْتَقَرٍّ لهـا ..

وفي الأرض تمرّ مرَّ السَّحاب ..

في كُل ما خَلَقَ الله من شَـيء .. نستطيع أن نرى الله نُورَ السماوات والأرض وبارِئهُن العظيم ..!!

فإذا أردنا أن نعرف طَرَفاً من صِفاته .. فالقرآن لا يبخل علينا بما نُريد .

« هُوَ أهْلُ التقوى ، وأهلُ المَغْفِرَة » . سورة المدثر

« عالِمُ الغَيْب والشَّهادَةِ ، العزيزُ الرحيم » . سورة السجدة

« لا يُخلِفُ الميعـاد » .	سورة آل عمران
« ولَن تجِدَ لِسُنَّةِ الله تبديلا » .	سورة الفتح
« وهو الغفور الوَدود » .	سورة البروج
« خيرُ الماكِرين » .	سورة آل عمران
« البَرّ الرحيم » .	سورة الطور
« لا يُحب الظالمين » .	سورة آل عمران
« يَقْضي بالحق » .	سورة المؤمنون
« سريع الحساب » .	سورة إبراهيم
« شديد العقاب » .	سورة البقرة
« كتب على نفسه الرَّحمة » .	سورة الأنعام
« وهو العزيز الحكيم » .	سورة فاطر
« وهو الوليّ الحميد » .	سورة الشورى
« ذي الطَّوْل لا إله إلا هو ، إليه المصير » .	سورة المؤمن
« ومَن أصْدَقُ من الله قيلا » ؟	سورة النساء
« وهو الحكيم الخبير » .	سورة سبأ
« الكبير المُتَعال » .	سورة الرعد
« وهو الفتاح العليم » .	سورة سبأ
« عليمٌ بذاتِ الصُّدُور » .	سورة فاطر
« لا تأخذهُ سِنَةٌ ولا نَوْم » .	سورة البقرة

« وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السماوات والأرض » . سورة البقرة

وأخيراً ..

« هُوَ الَّذي يُصَلِّي عليكم ومَلائِكَتُه لِيُخْرِجَكُم مِن الظُّلمات إلى النور ، وكان بالمؤمنين رحيما » . سورة الاحزاب

« فَذالِكُم الله ربُّكُم الحَقّ ، فماذا بعدَ الحقِّ إلاَّ الضَّلال ، فأنَّى تُصْرَفُون » ؟؟!! سورة يونس

* * *

على هذا النَّحو ، توفر القرآن على قضية الإيمان والتوحيد ، كما لم يتوفَّر على قضية أخرى سواها .

وما كان بوسْعه ألاَّ يفعل .

فلقد جاء القرآن – يوم جاء – إلى دنيا مُثقلةٍ بآلهة كاذبة من أصنام الحجر .. وأصْنام البشر ..

والفطرة الإنسانية يومئذ ، كانت تجتاز في كل الأرض ؛ لا في مكة وحدها ، مِحْنةً عاتية مُظْلمة .

والقرآن الذي يعي تماماً مسئوليته عن هذه الفطرة كان لا بد له أن يردَّها إلى جوهرها .

وسبيل ذلك أن يردَّها إلى الإله الحق ، ويحررها من كل خضوع ، ورضوخ .

من أجل ذلك ، ذهب القرآن الكريم يبُثّ في أفئدة الناس يقيناً كاملا بأن الله وحده الرحيم الودود ، هو بارئهم وإلاههم .. ومنه وحده يستمدّ الضمير الإنساني سيادته وكيانه .

ويريد القرآن بهذا أن يحرر الناس من كل عبودية زائفة ، يفرضها عليهم

الأقوياء بأموالهم ... أو بسلطانهم ... أو بما معهم من جاه وصلف ..

فقضية الإيمان بالله الواحد الأحد ليست مجرد شعار ديني يرفعه القرآن ، بل هو يراها كبرى الحقائق التي إذا خرجت الحياة الإنسانية عن فلكها السيّار ، تبددت وتلاشت .

وحين نتلو الآيات التي زكى بها القرآن قضية التوحيد هذه ، نلمح في يسر الغرض الإنساني الذي ترفعنا إليه هـذه الآيات ، ألا وهو تحطيم الأغلال التي ترسف فيها إرادة الإنسان ، وفتح طريق التطور والنمو أمام حرية الضمير .

* * *

كما تحدث الرسول

منقحة

الجزء الأول

دَعَا إِلَى ٱللهِ ، فالْمُسْتَمْسِكُونَ بِهِ   مُسْتَمْسِكُونَ بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْفَصِمِ
لَمْ يَمْتَحِنَّا بِمَا تَعْيَا الْعُقُولُ بِهِ   حِرْصًا عَلَيْنا ؛ فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهِمِ

« البوصيري »

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

في اوائل عام ١٩٦٢ ، ظهر لي كتاب « كما تحدث القرآن » وقلت يومها في مقدمة الكتاب :

« إن هذه الصفحات لا تزعم لنفسها انها تقدّم القرآن ، او تفسره .. إنها تلقي السمع ، لا أكثر .. وترسل البصر وراء موكب من آياته الباهرات .

إننا نقرا الآية من القرآن ، فلا نلبث حتى تذكرنا بآية اخرى مماثلة لها.. ثم تنادي الآية الثانية ، آيات اخريات كثيرات وإذا بنا آخر الأمر امام قضية كاملة كوّنت الآيات المبثوثة هنا وهناك كل عناصرها ، وقالت فيها قولا بليغاً .

وإني لا احاول ان اخلع على الآيات معنى اتكلفه ، ولا أكلفها غايات لا تريدها .. بل اتركها تقودني وحدها إلى غايتها الباسلة الجليلة ؛ فإذا نحن امام فتح عظيم يتمه القرآن لحساب الإنسان ـ لحساب عقله ، وضميره ، ومصيره » ..

كان ذلك منهجي في كتاب « كما تحدث القرآن » ..

وهو نفس منهجي اليوم في كتابنا هذا ..

فوحدة المضمون والجوهر ، القائمة بين بعض الاحاديث وبعضها الآخر ، تكشف عن موكب عظيم من الاتجاهات التقدمية الراشدة في تعاليم الرسول وتوجيهاته من غير ايّ تدخل من جانبنا ، ودونما اي تكلف او إضافة ..

المهم ، ان تكون وحدة المضمون والجوهر دليلنا .. وعندئذ تعطينا كلمات الرسول اروع اسرارها ..

إننا خلال قراءتنا كتب الحديث والسنة قد نلتقي مثلا بحديث اخذ

مكانه في كتـاب الصلاة ، او الحج ، أو البيوع ، لعلاقـة فقهية بين الحديث ، وهذه الموضوعات ·· بيد اننا حين نتمعن جوهر الحديث ، ومضمونه الإنساني نجـده وثيقة باهـرة من وثائق « حقـوق الإنسان » ، فإذا استطعنا ـ اولا ـ ان نبصر وحـدة المضمون هـذه ·· واستطعنا ـ ثانيا ـ ان نتتبعها في جميـع ما يؤلف بينها من نماذج ، وجـدنا أنفسنا امـام القيم الإنسانية الكبيرة تشرق من احاديث الرسول وكانها تكتب وتقـدم اليوم في اوضا مفاهيمها ، واصدق خصائصها ·· ! !

وهذه هي المحاولة التي حاولتها في كتاب « كما تحدث القرآن » بالأمس·· والتي احاولها في كتابنـا هـذا ، اليوم ، راجيا ان تكـون نهجا مجـديا لفهم اصـول الإسـلام ··

وهـذه المحـاولة ، لا تستقصي في هـذه الصفحات نفسها ولا تستوعب غاياتها ·· إنما تعطي نموذجـا لا اكثر ·· ودليلا ، لا اقل ··

ومن المعـروف أن الرسول عليـه السلام زورت عليـه احـاديث كثـيرة لم يقلهـا ··

ولكن من المعـلوم ايضا ، ان الله سبحانه وتعالى هيا للسنة من افـذاذ الرواد في صدر تاريخ الإسلام من توفروا في جهد عظيم على تمييز الصحيح من الزائف ، آخـذين في ذلك بادق موازين النقـد والانتقـاء ·

ولقـد اعتمدنا في كتابنـا هـذا على الأحاديث التي صحت نسبتها إلى رسول الله بوجـه من وجـوه الصحة ، او بكل تلك الوجـوه ··

★ ★ ★

والآن ، إلى كلمات الرسول لنسمع ، ونرى ··

خـالد محمد خـالد

.. عن النفس الباطنة

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وطيد الثقة بالإنسان .—

وهــو بما علّمه ربه يدرك القدر العظيم الهائل الكامن في أعماق كل فرد إنساني ، والذي إذا أحسنَ إطلاقه أتى من الخير العظيم ، ومن العظمة الخيِّرة كل مُعجز وعجيب ..

ورسول الله محمد ، داعية هــدى .. وصاحب رسالة .. وحامل مشعل السماء .. ومن ثمّ فهو دائب الحرص على أن تكثر وتنموَ صفوف الذين آمنوا وعملوا الصالحات .. وإن أشواقه لَتنثال من نفسه الكبيرة انثيالا مُتدَاركاً وراء بطولات الروح الإنساني .. تلك البطولات التي تتمثل في الغَلَب على الهــوى وترتفع بأصحابهــا فوق مُستوى الضعفاء في هُداهم وتقاهُم ، إلى مُستوى الأبرار الذين يصير وجُودهم آخر الأمر وكأنه مَثوبة الله وهديته للنوع الإنساني بأســره ..

أولئك هم الذين جــاء محمد ليبحث عنهم ، ويخرجهم من بين الصفوف المزدحمة ، فينفض عنهم غبــار التّيه ، ويشد فيهم زناد التفوّق ، ويجعل منهم رايات مبسوطة وخفاقة في جوّ الحياة .

وليس لجواز مرورهم إلى الله علاقة — أدنى علاقة — بالثروة ولا بالعائلة ولا بالمنصب ، ولا بالجاه .. إنما هي ثروة الروح .. وحَسَبُ الروح .. إنما هو الرّنوّ العظيم إلى ما عند الله من هُدًى ويقين .. إنما هو سعي الرواد ، وزهد الرواد ، وإصرار الرواد على كشف طريق الروح وتعبيده ، وعلى الوصول بالنفس إلى مجال كمالِها الميسور من غير ضرّاء مُضِرّة ، ولا فتنة مُضلة ..

هذه غاية تتطلب قوة عظمى لا جرَم .. بَيْدَ أنها لن تكون بحالٍ قوة العضَل المفتول ، ولا النفس المتسلطة ، ولا الجموح العاصف ، بل قوة النفس الباطنة ..

النفس الباطنة ، هي القدَر الذي يحملنا في رحلة التفوق والكمال إذا ألهِمَت تقواها .. وهي القدَر الذي يُدحرِجُنا في مهاوي التعاسة والضلال ، إذا ألهِمَت فجورها ..

وتحويل النفس الباطنة إلى نفس مطمئنة .. ونفْس مُشعَّة بالخير ، توّاقة إلى الكمال ، هو غاية الدين ، وغاية المرسلين في تَعْلية النوع الإنساني وبعث إرادة الخير فيه .

وللنفس الباطنة قُوتها وريّها ..

وإن خير ما تتغذى به وترتوي لهو الإخلاص ..

إن نوايانا تشكل أعمالنا وتوجّهها ، والعمل مهما تكن ضخامته وخطره ، لا يكون جليلا ولا يكتب له الخلود الحق إلا بقدر ما تكون النوايا التي أطلقته جليلة وصادقة ..

وهذا هو ما يجعل للنفس الباطنة قيمتها ودورها .. فالنفس الباطنة في جوهرها ، هي إرادة الخير بكل ما تمثّله هذه الإرادة من صِدق وإخْبات .. هي استقامة الضمير في أبهى صُوَر هذه الاستقامة .

ومن أجل كشْف هذه النفس ، ومن أجل دَعْم وجُودها وبَعث رُشدها ، يتحدث الرسول عنها حديثه العذْب العميق .

ها هو ذا عليه السلام يبدأ ، فلْنُصغ إليه :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لِكل امْرِىءٍ ما نَوى » .

قاعدة ترتكز عليها ، وتنهض فوقها كل قيم الحياة ، و « بوصلة » تحدد وجْهَا لسلوك الإنساني وتميزُ خبيثَه من طيّبه .

فالأعمال ــ جميع الأعمال ــ لا تستمدّ قيمتها من شكلها الخارجي .. بل من ضميرها الخفيّ ...!!

أجل ، إن لكل عمل ضميره .. وضمير العمل ــ أيّ عمل ــ هو النّية .. هو الإرادة الباطنة التي تحفزنا إلى هذا العمل .

انظر .. قد يبسط رجل مائدته الحافلة بألوان الطعام ، وصنوف الطيّبات ، ويدعو إليها حَشْداً من الوُجهاء .

وقد يدعو رجل آخر ضيفاً إلى مائدته الضامرة ، فلا يستويان عند الله مَثَلاً ، ولا يستويان مَثَلا كذلك أمام المعايير الصحيحة للضمير الإنساني الرشيد .

قد يكون صاحب المائدة الضامرة . والجهد المقلّ خيراً ثواباً من صاحب المائدة الحافلة بما يفتح الشّهيّات .

لماذا ..؟ لأن وراء جهده المتواضع نيّة طيبة . ونزعة خيِّرة فهو ــ مثلا ــ قد آوى إلى طعامه فقيراً يسدّ في حياء جَوْعَته .. بينما الأول أراد من مائدته المسْرفة أن يتبذّخ ويزهو ويُنمي رصيده من الجاه الباطل والغرور الكاذب ..!

وهذا مثال يتكرر في شَتّى مستويات العمل والسلوك .

إن رسول الله ﷺ يعلم تماماً إن العمل ــ كل عمل ــ يفقد روحه إذا فقد ضميره .. أي إذا فقد النيّة الصالحة التي تجعل منه عملا صالحاً .

من أجل ذلك ، أنشأ هذا الحصر الجامع : « إنما الأعمال بالنيات » ..

ومن أجل ذلك أقام الميزان الحق الصحيح الذي توزَن به أعمال البشر « وإنما لِكل امرىءٍ ما نوى » ..

ليس هناك أروع في عالم الأخلاقيات من هذا النّهج ، وهذا المعيار .

انظروا ... إنه ، عليه السلام ، لم يقلْ : « لكل امرىءٍ ما عمل » .. بل قال : « لكل امرىءٍ ما نوى » ...!!

ذلك أن ــ أحلامنا ــ لا أعمالنا ، هي التي تكشف بصورة أوضح عن جوهرنا ، وعن حقيقة نفسنا الباطنة .

فالرجل الذي يقف في المسجد مُصلياً ــ مثلا ــ وهو يحلم بليلة حمراء آثمة ، أو بخصم له يقتله ويخوض في دمه .. ليس أصدق جوهراً من ذلك الآثم الذي ترنو أحلامه وأشواقه إلى لحظة توبة تنقله إلى طاعة الله وهُداه .

ليس معنى هــذا أن العمل الطيب في ظاهره ، غير مرغوب فيه ما لم تصحبه نوايا طيبة .. كلا

إنما معناه أن الرسول عليه السلام يفتح أعيننا على لُباب الحقيقة ، فيعلمنا أن النوايا الطيبة الخالصة تتطلب منّا جهداً دائماً لا نظفر بها ، لأنها ليست ضرورية لكي يكون العمل طيباً فحسب .. بل هي ضرورية كذلك لبقاء أعمالنا داخل نطاق الصلاح والخير .

فنوايانا وأحلامُنا تعيش فينا ومَعنا أكثر مما تعيش أعمالنا .

وهــذا المعنى الجليل الباهر نأخــذه من قول الرسول :

« إنما يُبعثُ الناس على نِيَّاتِهم » .

إن الرسول يؤمن ببعث لا ريب فيه ، حيث يقف الناس جميعاً بين يدي أحكم الحاسبين ، وحيث « تَجِدُ كُلُّ نَفسٍ ما عَمِلَتْ مِن خَيرٍ مُحْضَراً ، وما عَمِلَتْ من سُوءٍ تَوَدُّ لو أنَّ بَينَها وبَينَهُ أمداً » ..

في ذلك اليوم يبعث الناس على نِيَّاتِهم، أي أن نوايانا تسعى بين أيدينا أينما كنا وكانت لنا حياة .

والعمل الذي كان يبدو شجاعة في الحق . أو مُبالغة في الجود .. أو تفانياً في خدمة الناس .. لن ينظر الله إليه حتى ينظر أولا وقبلا إلى النوايا التي كانت من ورائه تدفعه وتقوده .

فإذا وجدت النية الصالحة بعثتْ هي العمل إلى الوجود من جديد ، ولقي من الله حفـاوة ومثوبة .

وإذا لم تكن ثمَّتَ نية صالحة ، بقي العمل مطموراً تحت رماد مَهيل ، ولم يجد صاحبه مَثوبَةً تنتظره ولا عاقبة تسرُّه ..

وإن رسول الله ليبلغنا هذه الحقيقة في مشهد فذٍّ وآسِر ، يرسمه لنا بيانه الرشيد وقوله السديد فيقول :

« انطلق ثلاثة نفرٍ ممن كان قبلكم حتى أواهمُ المبيت إلى غـار ، فدخلوا ، فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار ، فقالوا : إنه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلاأن تدعو الله بصالح أعمالكم ، فقال رجل منهم : ـــ اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبُق [(١)] قبلهما أهلا ولا مالا ، فنأى بي طلبُ شجر يوماً فـلم أرُحْ عليهما حتى ناما ، فحلبتُ لهمـا غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما ـــ أهلي ـــ فلبثتُ والقِدح على يـدي أنتظر استيقاظهما حتى بَرِقَ الفجر ، فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة ، فانفرجت شيئاً غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها ... وقال الآخـر : اللهم كانت لي ابنة عم ، كانت أحب الناس إليَّ فراودتها عن نفسها فامتنَعتْ مني حتى ألمَّتْ بها سنة من السنين فجاءتني وأعطيتها عشرين ومائة دينـار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت ، حتى إذ قدرتُ عليها قالت : لا يحلّ لك أن تَفُضّ الخاتم إلا بحقه ، فتحرَّجتُ من الوقوع عليها فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ ، وتركتُ الذهب الذي أعطيتها ـــ اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغـاء وجهك فافرُجْ عنا ما نحـن فيه ، فانفرجت

(١) الغبوق : الشراب ليلا ، وهو هنا شراب اللبن .

الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها .

وقال الثالث ، اللهم إني استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فثمَّرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال لي : أدِّ إليَّ أجري ـ فقلت له : كلّ ما ترى من الإبل والبقر والغنم أجرُك ..! ، فقال : يا عبد الله لا تستهزىء بي ، فقلت : إني لا أستهزىء بك . فأخـذه كله ، فلم يترك منه شيئاً ـ اللهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فافرجْ عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة ، فخرجوا يمشون » .. ! !

* * *

في هذا المشهد الباهر يرسم الرسول صورة مبينة لِدَوْرِ النفس الباطنة ، والنيَّة الخالصة في تقييم العمل ، وتحديد مَثوبته .

فهؤلاء الثلاثة الذين انغلق عليهم الغار . وكادوا يهلكون داخل جوفه المعْتِم لم يتوسَّلوا في هـذه اللحظة البائسة الحرجة بأعمالهم ، بل توسَّلوا بالدوافع النفسية التي كانت وراء هذه الأعمال .

إن كل واحد منهم يقول في مُناشدته ربه « اللهم إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك ، فافرُجْ عنا ما نحن فيه » .

إنهم يتوسَّلون بما في أعمالهم ومواقفهم تلك من ضمير .. من صدق وإخلاص ..

وهذه العبارة « ابتغاء وجه الله » تتمثل فيها عنـد الرسول ، القِبْلة التي يجب أن يَؤمَّها الناس في كل عمل يعملون .

« ابتغاء وجـه الله » تمثل المعيار السَّوِيَّ الصادق لكل دوافع النفس ونوايا الضمير .

فإذا كان الناس مُطالبين بأن تكون دوافع أعمالهم خيرة ، ومستقيمة ، فإن سبيلهم لهذا حتى لا تتفرق بهم السُّبُل ، هو أن يقصدوا بأعمالهم تلك وَجْه الله العليِّ العظيم .

ولكن لماذا وجه الله بالذات !؟ وماذا تعني عبارة « وجه الله » !؟

إن « وجه الله » يعني هنا الخير المطلق ، والعظمة المطلقة ، فإذا توخّيتَ بعملك وجه الله تجرّد عملك حتماً من كل غرض وعَرَض وتحرّر من فوره من كل الموبقات التي قد تحتجزه عن التحليق إلى مدار ذلك الخير المطلق وتلك العظمة المطلقة .

إن العمل ابتغاء وجه الله يربط الإرادة الإنسانية بأوثق العُرى وأقوى الأسباب .

وحين ينتمي عملك إلى وجه الله وصِبْغته ، يظفر بك هذا الانتماء بسيادة عُظمى على نفسك ، وعلى عالمك الذي حَوْلك ، ويمنح إرادتك مَضاءً لا يعرف اليأس .. وعقلك ضياءً لا يعرف الظلمة .. ورُوحك تهللاً لا تعرف الحسرة ولا الكآبة ..

وهنا يقول الرسول عليه السلام :

« طوبى للمخلصين ، أولئك مصابيحُ الهدى : تنجلي عنهم كلُّ فتنة ظلماء » ..!!

وتقوم البواعث الصالحة ، والنوايا الطيبة مقام الأعمال حين تحول الظروف دون إنجاز الأعمال وممارستها .

يقول « أنس » رضي الله عنه :

« رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال لنا : لقد تركتم بالمدينة أقواماً ، ما سرْتم مَسيراً ، ولا أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم ..

قالوا : يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ..؟

قال : حبسهم المرض .. »

وهكذا يرفع الرسول النوايا الصالحة إلى مستواها الحق .

فهؤلاء الذين لم يخرجوا إلى الجهاد مع النبي والمسلمين ، كتب لهم جميع

أجر الذين خرجوا وجاهدوا، واستشهدوا.

فكيف ظفروا بهذا الأجر وهم لم يغادروا بيوتهم في المدينة ولم تغبّر لهم قدم..!؟

إنها النفس الباطنة والنوايا الخيّرة. فقد كانت جوانحهم تنطوي على الرغبة والعزم، ولكن المرض قعد بهم، وحال بينهم وبين ما يودّون.. هنالك تقدمت نواياهم الصادقة فملأت الفراغ الذي كان على العمل أن يملأه، وأظفرتهم بكل ثواب الصالحين والعاملين..!

إن عناية الرسول عليه السلام بالبواعث والنوايا تبلغ شأوها البعيد في اهتماماته النبيلة الجليلة.

وهو لا يضع عينه على العمل مهما يكن بادي النفع والعظمة حتى ينظر أولاً باعث هذا العمل، والإرادة النفسية التي دفعته وصاغت وجوده.

لقد كان الجهاد في سبيل الله يمثل عند الرسول ذروة الصالحات والقربات، ومع هذا فما كان الرسول يراه شيئاً مذكوراً إذا لم يكن وراءه نية طاهرة تقصد وجه الله.

يحدثنا أبو أمامة صاحب رسول الله فيقول:

« جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله، أرأيت رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له..؟ فقال الرسول: لا شيء له.. وكرر الرجل سؤاله، والرسول يقول له: لا شيء له، ثم قال عليه السلام: إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً، وابتغي به وجهه ».

ماذا يفسد نوايانا، وينحرف ببواعثنا الباطنة عن رؤية الحق الذي يجب أن نعمل له ونعيش دوماً في خدمته..؟؟

إنها رؤية الناس، وطلب الشّهرة والزّهو بينهم..

فأنت حين تعمل عملا ، أو تضحي تضحية من أجل أن تبلغ بهـذا العمل أو بتلك التضحية حظوة وجاهاً عنـد الآخرين ، ستكون مضطراً أن تؤدي عملك هذا على النمط الذي يُرضي أولئك الذين تبتغي لديهم الجاه ، والحظوة ، وليس على النسق الذي يتطلبه الحق ، وتتطلبه المقاييس السديدة لهذا العمل .

وحين يخضع الحق لأهواء الناس تفسد كافـة العلاقات التي تصل قوى الحياة بعضها ببعض وتضطرب المقاييس التي تحمي سدادَ الحياة ، ويشيع الزيف والبهتان ، فتمسي حياة الناس لغواً وفراغاً وبَلْبلة .

من أجل ذلك يتقدم الرسول عليه السلام فيُدمدم على الرياء ، ويُصليه من نقمته ومن غضبه .

والرياء ، هو الاسم الحقيقي لحالة فقدان الصدق والإخلاص ..

ونحن نفقد الصدق والإخلاص حين نمارس أعمالنا ، وأعيُننا على أطماع باطلة نرجو أن تكون أعمالنا سُلماً إليها ..

حين نعبد الله ــ مثلاً ــ ليقول الناس عنا عابدون ..

حين نخطب ، ونكتب ، ليقول عنا الناس جهابذة ..

حين ننشد المناصب لنزهو بها على الناس ونستعلي ..

حين نأتي الأعمال ، لا لأنها واجبات نؤديها وننتظر عليها ثواب الله ، وسكينة النفس . بل لأنها جواز مرورنا إلى مقاعد الشهرة بين الناس .

وليس إثماً ولا خطيئة أن يكون لك نصيبك من المجد أو الشهرة إذا كنتَ من هواتهما .. شريطة أن يَجيئا ثمرة غير مقصودة لعملك ومسعاك ، لا أن يكونا الباعث المحرِّك والوجهة المقصودة .

إن الرياء آفة تمحق الأعمال وتردها تراباً في تراب ..

وإن الرسول عليه الصلاة والسلام ليضمِّن تعاليمه وأحاديثه زجراً أكيـداً عن كل ريـاء .

وها نحن أولاء أمام « لوحة » أخرى باهرة ، يرسم فيها الرسول ويُصوِّر ازدراءه الرياء ومقته له فلنطالعها :

« عن أبي هـريرة رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : إن أوَّلَ الناس يُقضى عليه يوم القيامة رجل استشهد ، فأُتِيَ به فعرَّفه الله نعمته فعرفها قال الله له : فما عملتَ فيها ..؟ قال : قاتلتُ في سبيلك حتى استشهدت ، قال : كذبتْ ، ولكنك قاتلت لأن يقال : هو جريء ، فقد قيل ..! ثم أمر به فَسُحب على وجْهه حتى ألقي في النـار ..

وزجل تعلم العـلم وعلَّمه وقرأ القرآن ، فأُتِيَ به فعرَّفه نِعمه فعرفها ــ قال : فما عملت فيها ..؟ قال : تعلمتُ العـلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن ، قال كذبت ، ولكنك تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء ، فقد قيل : ثم أمِر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النـار ..!!

ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال فأُتِيَ به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملتَ فيها ؟ قال : ما تركتُ من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك ــ قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال هو جواد فقد قيل : ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النـار » ..

من المعروف بداهة أن كلمات الرسول هذه ، لا تعبِّر عن ازدرائه الشجاعة ، ولا العـلم ، ولا السخاء ..

وإنما تعبِّر عـن رثائه الشديد للذين يأتون هـذه الفضائل بنوايا رديئة وشرِّيرة .. إنهم بهذا يلوِّثون الفضيلة ..! فحين توضع الشجاعة ، أو يوضع العـلم ، أو يوضع الجود في خدمة أغراضٍ رخيصة باطلة يكون هذا العمل إهانة لهذه الفضائل وتزييفاً لهـا .

فالذين يعملون وشعارهم : انظرونا •• لا يرتفعون وفق معايير الرسول إلى مستوى الرشـــد ، ولا ينالهم من عاقبة أعمالهم إلا ما تؤهلهم له نواياهم الهابطة وأطماعهم الدنيــا ••

وإن الرسول عليه السلام ليحذر أصحابه والناس جميعاً من أن يغتال الرياء منهم ثمار كدّهم وأعمالهم فيقول :

« من سَمع سَمّع الله به ، ومن يُرائي يُرائي الله به » ••

* * *

ويرى الرسول في الرياء ضرباً من الشرك بالله •

ذلك أن الإيمان القويم بالله يعني ألاّ يرتفع فوق جاهه جاه ، وألاّ يُطلب من غــيره ما لا يملكه أحــد سواه •

ومثل هذا الإيمان يرفع الثقة بالنفس إلى مستوى تتحرر فيه من كل رغبة في مُداهنة الآخرين ومسايَرتهم والتماس المثوبات منهم •

والرياء لا يكون في العبادة وحــدها •• بل ينتظم كل انحراف في البواعث المحركة لكل واجباتنا في الحيــاة ••

فكل الواجبات عبــادة •

وأنت تكون ضحية الشّرك الخفيّ كلما مارست واجباتك في مستوى أهواء الناس ، لا في مُستوى الخير العــام الذي تحققه هذه الواجبات •

وجدير بك آنئذ أن تلتمس مثوبتك ممن عملت لهم ، وليس من الله الذي لم تقنع به مُثيباً ومُعطياً ••!!

هذا هو رسول الله يتحدث :

« إن أخْوفَ ما أخــاف عليكم ، الشّرك الأصغر » قالوا : وما الشّرك الأصغر يا رسول الله ••؟ قال « الرياء •• يقول الله عز وجل إذا جــزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تُراءون في

الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ••؟؟ » •

وإنه عليه الصلاة والسلام ليُوصي أصحابه دوماً أن يفتحوا أعينهم على هذا العدو المتربص حتى لا يندسَّ خِلسةً بين نواياهم وبواعثهم فيفسدها •

وقف ﷺ ذات يوم خطيباً في أصحابه فقال :

« يا أيها الناس ، اتقوا هذا الشرك ، فإنه أخفى من دبيب النمل »

قالوا : وكيف نتقيه يا رسول الله وهو أخفَى من دبيب النمل ؟•

قال « قولوا اللهم إنا نعـوذ بك أن نُشرك بك شيئاً نعلمـه ، ونستغفرك لما لا نعلمـه » •

★ ★ ★

ولكن أين تقدير الرسول للطبيعة الإنسانية إذن ولاحتياجاتها المحتومة من تقدير الآخرين وثنائهم ••؟؟

إن الرسول بتعاليمه السالفة لم يَجحد الطبيعة الإنسانية ، ولم ينكر عليهـا حقها في أن تكون مزاياها وفضائلها موضع التكريم والتقـدير والثناء •

الخطر الذي يُحاذره الرسول ويخشاه ، هو أن يمارس الإنسان واجباته ، ويعبر عن فضائله ، لا بباعثٍ من ولائه لهـذه الواجبات وتلك الفضائل •• بل ليكون بين الناس وجيهاً •

وموضع الخطر هنا ، أن قلبـه المعلَّق برضاء الناس وتملُّقهم سيجعله مع الاستمرار عبداً لأهوائهم •• وحين يصير الحق في جانب ، والناس في جانب آخر ، يتبعُ الناس ويُخالفُ الحق • وقد يفعل ذلك وهو لا يدري أنه يتحدَّى الحـق ويَنْتبذُ منه مكاناً قصيّاً •• ذلك لأن بصيرته التي تعودت أن ترى الأشياء من خلال الملَق ، تمسي وقد اجتاحتها الرغبة في مصانعة الغير بعيدةً عن مواطن الرشد والحق ، ولا تعود تعرف الناس بالحق ، بل تعرف الحق بالناس •• وآنئذ تصاب النفس الإنسانية بشَرٍّ ما يمزقها •

إن الذين يعملون ليظفروا بثناء الناس لا غير • يتصرفون وكأنهم بما عند الناس أوثق منهم بما عند الله •

وواجب الإنسان أن يعمل ابتغاء وجه الله الذي منحه القدرة والتوفيق • فإذا صار عمله ذاك موضع الحفاوة والثناء ، فلا تثريب عليه ولا حرج ، ولا ينقص هذا الثناء من أجره مثقال ذرة •

سأل صحابيٌ رسول الله فقال :

« يا رسول الله : إني لأعمل العمل منْ الخير في السرّ لا يعلمه إلا الله • ولم أبتغ به إلا وجهه ثم أصبح فأرى الناس يتحدثون به ، فينشرح لحديثهم صدري أمِنَ الرياء ذلك ••؟؟

فأجابه الرسول عليه السلام : « لا ، ليس ذلك رياء ، إنما هو عاجلُ بُشْرى المؤمن » ••

صدق رسول الله •• فحين يأتيك من الناس ثناء أنت له أهل ، ثناء لم تبع به إخلاصك وصدق نواياك ، فإن هذا الثناء يكون بمثابة القسط الأول واليسير من مثوبة الله لك •• إنه كما قال الرسول « عاجل بُشْرى المؤمن » •

إن ولاءنا لواجباتنا يدوم ويبقى ما دمنا نتوجه بهذه الأعمال إلى الله •

ونحن نلحظ ذلك واضحاً ومُبيناً في الأسلوب الذي يعالج الناس به واجباتهم تِلقاء العلاقات الإنسانية ••

فالصداقة مثلا ، التي تستمد خصائصها ووجودها من بواعث نقية وصادقة تدوم وتقهر كل دواعي الفرقة ، والجحود ، والخذلان ••

أما الصداقة التي تزجيها أطماع مُتبادلة ، ومنافع زائلة ، فإنها ليست أكثر من قطيعة في ثياب تنكرية •

إن أجلها قصير ، وعاقبتها خُسْر ••

وهنا نلتقي برسول الله يقول :

« إن من عباد الله أناساً ، ما هُمْ بأنبياء ولا شهداء يَغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى !! » . قالوا يا رسول الله تُخبرنا من هم..؟ قال : « هم قوم تحابّوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور .. لا يخافون إذا خاف الناس ... ولا يحزنون إذا حزن الناس ، وقرأ هذه الآية : (ألا إنَّ أولياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ) » ..!!

مَن هؤلاء الذين يُقسم الرسول أن لهم كل هذه المثوبة وهذا الرضوان ..؟؟

إنهم طائفة من ذوي البواعث الربانية الطاهرة ..

إنهم قوم أحبَّ بعضهم بعضاً . لا من أجل أواصر ، أو منافع .. إنما هم « تحابوا في لله » ..!!

اعمل عملك ابتغاء وجه الله وحده .. ودَعْ عبير هذا العمل يطلق الألسنة بإطرائك ، ويملأ الأفئدة بحبك ، ويدل الناس عليك فآنئذ لا تثريب ولا حرج .. ولكن احذر أن تعمل الخير رياء وسمعة .. طمعاً وزهْواً ، فإنك بهذا لا تضيع أجرَكَ فحسب ، بل وتلوّث الخير أيضاً ..

* * *

ولئن كان الرسول عليه السلام يُحاذر على سلامة النفس الباطنة من الرياء ، فإنه بنفس القدْر ولنفس السبب يخاف عليها النفاق ..

إنتفوق النفس الباطنة ، يعني كما ذكرنا من قبل .. « استقامة الضمير » ..

واستقامة الضمير لا تكاد تبين في شيء كما تبين في نقاء البواعث التي تبتعث فينا إرادة العمل ، والحوافز التي تقود أعمالنا .

وإذا كان الرياء يدفع أعمالنا بعيداً عن نهج الإخلاص اللازم لسلامتها ، فإن النفاق يدفعها بعيداً وبعيداً عن كل صواب وحق .

فأولئك الذين يرصدُون رياح المنافع والأهواء قبل أن يَبْحرُوا بأطماعهم الملتاثة ، قوم تجعل منهم أنانيتهم المظلمة والمفرطة قبحاً يُكدِّر جمال الحياة ، وآفةً تستنفد جهد الخير في مقاومتها ودَحْضها .

لماذا ينافق المنافقون .. ؟

لأنهم صغار جبناء يسترون بالنفاق صَغارَهم وهواهم ..

أو لأنهم ذوُو أطماع غير مشروعة ، يتوسلون بالنفاق لإنجازها ..

أو لأنهم إمّعات وفقاقيع طافية على السطح البارد ، فهم يعبرون بالنفاق عن خَوائهم .

إن هؤلاء ، وهؤلاء ، وأولئك ، لا يمكن أن تصدر عنهم أعمال جليلة القدر ، ولا يتركون في الحياة بعد رحيلهم عنها سوى بصمات مهزوزة ، إذا هم تركوا شيئاً على الإطلاق .

وإذْ كان هؤلاء ضحايا النفاق ، وإذ كان النفاق شديد الوطأة على النفس الباطنة ، ممعن الإصرار على تشويهها وإضلالها ، فقد شن الرسول عليه حملة قاهرة من أحاديثه المباركة وتوجيهاته السديدة .

وإنه ليبدأ فيقول :

« إن شر الناس ذو الوجهين : الذي يأتي هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه » ..

ويقول :

« من كان له وجهان في الدنيا، كان له يوم القيامة لسانانِ من نار ».

ويصوِّرُ الرسول ازدراءه النفاق واشمئزازه منه في هذا التشبيه الساخر الذي يدمغ به المنافقين ، فيقول عليه السلام :

« مَثل المنافق ، كمثل الشاة العائرة بين الغَنمين ــ تَعير إلى هذه مرة ، وإلى هذه مرة » ..!!

* * *

إن الرسول إذْ يَدحَض النفاق، إنما يفعل هذا عن إدراك كامل للأخطار الماحقة التي تحلّ بكل جماعة يروج النفاق فيها .. هنالك تزّاوَرُ الحقيقة وتختفي، ويسي كَبْتُ الصدق فضيلة تلك الجماعة .. وتفقد الجماعة قدرتها على الاحتفاظ بشرف مسئولياتها .

ذلك أن النفاق ابن شرعي للكذب والخيانة، وحين يصير الكذبُ وتصير الخيانةُ العملةَ الرائجةَ بين قوم، فقل: عليهم العفاء .

يقول الرسول عليه السلام:

« آية المنافق ثلاث:

إذا حدّث كذب .. وإذا وَعد أخلف .. وإذا اؤتمن خان . »

وفي حديث آخر يضيف الرسول إلى خصائص النفاق والمنافق آفتين أخريين فيقول:

« إذا عاهَد غدَر .. وإذا خاصَمَ فجَرَ .. » .

وهكذا يحمل النفاق بين طياته، عقوبته وقصاصه ..

فهو إذ يجعل من صاحبه كذاباً، وخائناً، وغادراً، إنما يحوّله إلى مسْخ شائه، ويجعل وجوده ـ مجرد وجوده ـ عبْئاً على الحياة تحاول دائماً أن تلقيه على الأرض وتسحقه تحت قدَمها .

* * *

ويدرك الرسول ﷺ أن الحياة الإنسانية لا يستقيم أمرها إلا بالقدْر الذي تسود به حرية الضمير، حيث يتحرّى الناس الحق ويتبعونه، وحيث يكون الاقتناع الحر الرشيد سبيلهم إلى معرفة الحق وإدراكه .

وحين ينافق الناس، يُزيفّون أنفسهم وآراءهم، ويخادعون أنفسهم والآخرين .

وحين يُخفي الناس اقتناعهم الحقيقي وراء غلالات النفاق أو حجبه، فإن حياتهم تفقد كل مقوّماتها وكل قيمتها .

وهنا يتقدم الرسول ليقي الحياة شر هـذا الدمار ، فيقول :

« لا يكن أحدكم إمَّعة ، يقول : إذا أحسن الناس أحسنتُ ، وإذا أساءوا أسأت ــ ولكن ليُوطدْ أحدكم نفسه . إذا أحسن الناس أن يُحسن ، وإذا أساءوا أن يتجنَّب إساءتهم » .

* * *

وحين يُشكّل الرأي ضرباً من الشُّورى أو النصيحة التي تتطلبها مصالح الجماعة والأمة ، فإن الرسول لا يراه مجرد رأي ، بل هو الدين وهو الأمانة .

فيقول عليه السلام :

« الدين النصيحة .. قلْنا لمن يا رسول الله ..؟ قال : لله ولرسوله ؛ ولأئمة المسلمين وعامَّتهم » .

كذلك يقول : « المستشار مؤْتمن » ..

ويقول :

« كفى بك إثماً أن تحدِّث أخاك حديثاً ، هُو لَكَ به مُصدِّق .. وأنت له به كاذب » ..

ويقول :

« من أشار على أخيه بأمرٍ يَعلم أن الرُّشْد في غيره فقد خانه » ..

إن النفاق هنـا ، أي عنـدما يتمثَّل في الرأي نصيحة مُلحَّة أو مَشورة مرجوَّة ، يكون حيث وضعه الرسول ــ خيانة وهواناً ، لا سيَّما حين يترتب على تزييف الرأي ضياع حق أو تأييد باطل .

وهنا يقول عليه السلام :

«من أعان على خصومة بغير حق، كان في سَخَط الله حتى يَنزِع» ..

« ومن أعـان على خصومة بظـلم ؛ فقد باء بغضب من الله » ..

* * *

بيد أن الرسول عليه السلام ينادي الناس إلى أن يحكوا اقتناعهم في صدق ،

ويعبروا عن أنفسهم في شجاعة ، لا ينسى أن يبسط أمامهم النهج القويم لهـذا السلوك ؛ فليس ينفع الناس شيئاً أن ينجوا من النفاق ، ويقعوا في البهتان أو سوء الأدب .

وهنا يقـول عليه السلام :

« إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسِنَكم أخلاقاً ..

وإن أبغضكم إليَّ ، وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثرثارون ، والمتشدّقون ، والمتفيهِقون » .

ويقول :

« ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلُق حسَن ، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء » .

وحين يسأله مُعاذُ بن جبل قائلا : أئنّا لمؤاخذون بما نتكلم به ..؟ يجيب الرسول :

«وهل يكُبّ الناس في النار على وجوههم إلاّ حصائد ألسنتهم» ..؟

كذلك لا يريد الرسول ممن يتفوّقون على دواعي الإمَّعيَّة والنفاق ، أن يتورطوا في مزالق التزمت والتنطّع ..

إن سَعَة الأفق لازمة ، لكي يصل الإنسان إلى الرّشْد والسَّداد ، ولكي يبلغ مطالع الضوء في الحـق الذي ينشده ، والحقيقة التي يرجوها ـ شريطة ألا تتحول سَعة الأفق هذه إلى تبرير جديد يخفي نفاقاً وهروباً .

إن التزمّت كالنفاق، كلاهما يطمس معالم الحق ويُخفيه عن البصائر والأبصار. وهنا يقول الرسول : « هلك المتنطّعون » ..

ويقول :

« من أعطي حظّه من الرفق ، فقد أعطي حظّه من الخـير ، ومن حُرم حَظّه من الرفق ، فقد حُرم حظّه من الخير » ..

* * *

كان الرسول ــ عليه السلام ــ يطارد النفاق في كل مظانّه ، ولما خشي أن تتحول المبالغة في الإطراء والمدْح إلى نفاق المادح وغرور الممدوح نهى عن هــذا ورَفضه ، ودعا إلى القصْد فيه •

يروي أبو بَكْرة رضي الله عنه وهو من أصحاب رسول الله هذا الحديث :

« ذُكر رجل عند النبي ﷺ فأثنى عليه رجلٌ خيراً فقال النبي : وَيْحك قطعتَ عُنق صاحبك ــ إذا كان أحدكم مادحاً لا مَحالة فليقل : أحسب كذا وكذا ، ولا يزكّي على الله أحداً » ••

بل لقــد زجــر أصحابه الذين قالوا له يوماً : أنت سيدنا ، وقال لهم : « لا يَستَهْوينكم الشيطان » ••

إن تبادُلَ الناس مشاعرَ التقدير فيما بينهم ، لأمــرٌ يباركه الرسول •• ولكن حــين تتجاوز هذه العلاقة مَدَاها المشروع وتتحوّل إلى مداهنة باطــلة ومجاملة كاذبة يحدوها الضلال ويغشاها الزيف والزور ، فآنئذ يشجب الرسول تلك العلاقة ويَدحضها ، لأنها تعتاق نمو النفس الباطنة نحو كمالها المقدور ••

* * *

ومع الرياء والنفاق ــ في مجال تحرير النفس الباطنة ــ تواجه تعاليم الرسول وكلماته آفــة ثالثة ــ تلك هي : الكبر •• إن بين الثلاثة وشيجة وثقى ، وآصرة محكمة ، وإنها لتترَعرَع جميعها في مستنقع واحد •• مستنقع النفس الخواء التي ليس لها ما يشغلها سوى النفايات والأطماع الرخيصة ••

إن أعمالنا حين يتعتها الرياء ، يهدر الرياء مثوبتها •• وحين يتعتها النفاق ، يهدر النفاق عظمتها •• وحين يتعتها الكِبر ، يهدُر الكِبر إنسانيتها ••!!

وإذا ضاع من العمل مثوبته ، وعظمته ، وإنسانيته ، فماذا بقي منه وله ••؟ وماذا بقي لصاحبه•••؟

إن النفس الباطنة خلال عرُوجها إلى الكمال مطالبة بأن تنبذ نبذاً أكيــداً هــذا الثالوث من الآفات •

من أجل ذلك ، فإن الرسول الذي دحض الرياء ، والنفاق ، يدحض بنفس العزم آفة الكِبر ويفضح مضمونها اللاإنساني •

وإنه ليبدأ حديثه عنهـا فيقول :

« ألا أخبركم بأهل النار ••؟ كل عُتُلٍّ جوّاظ مستكبر » ••

إذا تصورنا النار ــ معزلا ــ يعزل فيه أولئك الذين ترشحهم له خطاياهم ، فإن الكبر نار حقـاً ، لأنه يعزل صاحبه عن البشرية المتحضرة الأنيسة ، ويحبسه داخل قوقعة غروره وخيلائه ••

وإذا كانت النار « معزلا» يمورُ بألوان العذاب وصنوف البؤس ، فإن الكبر أيضاً هو تلك النـار ، لأن المستكبر المنتفخ الأوداج يعاني من العـذاب النفسي ويحيط به من المقت والسخرية ما يجعل حياته جحيماً •

إن المتكبر يحرم نفسه بكبريائه من كل فرح الحياة وبهجتها ، هـذا الفرح وهذه البهجة الكامِنان في البساطة والوداعة وإيلاف الناس والحياة •

فليست نار الآخرة وحدها ، هي عقبى المتكبرين ، ولكنها نار الدنيا أيضاً •• نار كبرهم واستعلائهم وغرورهم •

وهم بهذا الكبر يحرمون أنفسهم من الجنتين ــ جنّة الدنيا ، حيث طمأنينة النفس وراحة القلب ، ومحبة الناس ــ وجنّةِ الآخرة حيث ثواب الله ورضوانه •

وهنا يقول الرسول :

« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذَرّة من كِبر » •

ولنفتح أبصارنا جيداً على قول الرسول ــ في قلبه ــ فإن ذلك يربط الكبر بالنفس الباطنة رباطـاً طبيعياً ، ويعلمنا أن الكبر مأواه ومسكنه تلك النفس •• مأواه ومسكنه نوايانا وبواعثنا ، وهي أخطر مكمن يستطيع الكبر أن يوجه منـه ضرباته المميتة ــ لا إلى الناس ، بل إلى صاحبه ذاته •

إن الرسول عليه السلام لم يقل : من كان في سلوكه مثقال ذرة من كبر ••

بل قال : « من كان في قلبه مثقالُ ذرة من كبر » ..

وفي هذا أيضاً تبيان لجوهر الكبر وحقيقته ، فليست مظاهر الأناة والاعتداد، واحترام النفس كبراً ، ولا شيئاً من كِبر ..؟ لأن الكِبر نيَّة مُضمرة تعبِّر عن نفسها في مظاهر أخرى من طبيعتها وأمثالِها .

ألا يكشف الرسول لنـا تلك الصورة أو الصوَر التي تتقمصُها رذيلـة الكبر لتعمل عن طريقها ..؟

نعم ، إنها صُوَرٌ كثيرة ، وإن الرسول ليلخصها لنا في هذا الحديث .

فلقد سأله سائل ذات يوم قائلا :

« يا رسول الله : إن أحدنا ليُحِبُّ أن يكون ثوبه حسناً ونعـله حسناً ، أفمن الكبر ذلك ..؟

فأجاب الرسول قائلا : إن الله جميـل يحب الجمال وإنما الكِبْر بَطر الحق وغَمْطُ الناس » .

أجل ــ هذا هو الكِبْر .. بطر الحق وغمط الناس ــ فحين نحاول أن نضع أنفسنا فوق الحق نكون قد بطرنا الحق .

وحين نحاول أن نضع أنفسنا فوق الناس نكون قد غَمطْنا الناس .

وفي كلتا الحالتين نكون ضحايا الكِبْر ــ ولكن ، أليس ثمة سبيل للوقاية من الكِبْر قبل أن يَستفحل في النفس جُثومهُ وخطره .؟ بلى هناك سبيل :

أن تلتزم دائماً مكانك كواحد من الناس . هكذا يقول الرسول :

« كلكم لآدم ، وآدم من تراب » ..

« ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى » ..

« الناس سواسية كأسنان المشط » ..

وأن ترد نفسك أولا فأولا إلى حقيقتها :

وحقيقتها ، أنها لا تملك أي امتياز يجعلها فوق الناس إذ مهما تكن

مواهبها ونبوغها . فإن ذلك كله نعمة الله عليها ـ ونعم الله لا تشكر إلا بالتواضع الخيِّر النبيل .

فإذا ترك أحدنا نفسه يتراكم فيها ويَرين عليها الشعور بالزهْو والاستعلاء ، فإن الكبر سرعان ما يلف حياته كلهــا في ضبابه .

وهنا نسمع الرسول يقــول :

« لا يزال الرجل يذهب بنفسه ، حتى يكتب في الجبارين فيصيبه ما أصابهم » .

لكن الناس بطبيعتهم يهوون الرفعة ويسعون إليها .

أجل ــ وإن رسول الله لا يحرمهم حقهم في هذا الذي يحبون .. إنما هــو يريد لهم رفعة خالصة نقية عادلة . لا يشوبها كــدر الهوى ولا ظلمة الغرور . وإنهم لينالون الرفعة كاملة غير منقوصة . كلما ابتعدوا عن الكبر ، وتواضعوا لله ، وتواضعوا بين عبــاده .

يقــول الرسول :

« مازاد الله عبداً بعفو إلا عزًّا ..وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله » .

إن التواضع نعمة من الله يهبها لكبار النفوس . بينما الكبر عَزاء يقــدمه الغرور لصغار النفوس ، وكلما تحلى قوم بالتواضع ، رأيت الإخاء بينهم وثيقاً ، والأواصر مشدودة ، والمودة ربانة .

عندئذ . يحمل قويهم ضعيفهم .. ويحترم كبيرهم صغيرهم .. ولا تلقاهم عن طريق الخــير ناكبين .

والرسول وهو يقاوم رذيلة الكبر لا يهدف إلى سلامة الفرد فحسب ، بل وسلامة المجتمع كلــه .

ذلك أن الكبر إذا ســاد الناس ، وانطوت كل نفس على زهوها تعرضت المودات الإنسانية لشر وبيل .

من أجل هذا نرى الرسول عليه السلام يعطي توكيدات مستمرة للتواضع ولين الجانب خلال تطبيقاته العلمية لمبادئه .

فحين كان يرى الناس ينأون عن الفقراء لفقرهم بينما يعظمون ذوي الثراء والجاه : لثرائهم وجاههم ـ كان هو يعطي كل حفاوته للفقراء ؛ ويبسط لهم رداءه حين يقدمون على مجلسه .

وإنه ليرفع كفيه إلى السماء في ابتهاله الضارع :

« اللهم إني أسألك فِعْلَ الخيرات .. وتَرْكَ المنكرات وحُبَّ المساكين » .

ويكسر حِدَّة الكبر الناشيء عن الثروة فيقول :

« قمت على باب الجنة ؛ فكان عامّة من دخلها المساكين » .

وفي حديث آخر يقول :

« أما الأغنياء فإنهم على الباب يحاسَبون ويُمَحَّصُون » .

صورة جميلة ؛ ومعنى واضح ، يقولان للناس ، إنه عندما تستقيم الموازين ، فإن ثراءكم لا يزيد في أقداركم مثقال ذرة ، لأن المال عرض زائل ؛ ولا يدن وجوده على أية فضيلة أو مزية اللهم إلا حين يوضع في خدمة الخير والحق .. وهو حين يكون كذلك فإنه لاينبغي أن ينفخ أوداجكم زهواً ؛ ولا أن يلوي أعطافكم صلَفاً ولا أن يشعركم بأي امتياز على الذين لم يملكوا من الثروة ما تملكون ومن ثمَّ :

«أحبوا الفقراء وجالسوهم » ...

ومثل الثراء في ذلك ، المنصب ؛ فلا فضل لذي المنصب الأعلى على صاحب المنصب الأدنى . ولا حق للأول في أي زهو أو استعلاء يحضه عليهما الغرور .

فالناس العاديون أصحاب دَور عظيم في الحياة يجعلهم عظماء .. وليس ما يبدو على ظواهرهم من بساطة ومَسكنة ؛ نداء إلى امتهانهم أو النظر إليهم من فوقٍ بعيد ففي هؤلاء البركة والخير .

هكذا يقول الرسول :

« ابغوني في ضعفائكم ، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم ».

ويحدثنا مصعب بن سعد فيقول :

« رأى سعد رضي الله عنه أن له فضلاً على من دونه ، فقال رسول الله ﷺ : « هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم » ..؟؟

إن الرسول لا يعني بالضعف العجز .. إنما يعني البساطة .. ويعني بالضعفاء ، الناس العاديين .. الملايين التي تكدح وتعمل ثم تذهب من الحياة بضرورات العيش أو تكاد دون أن تتململ أو تقنط أو تلقي بمسئولياتها إلى أرض اليأس والإفلاس ..

إن السمنة في المنصب أو الجاه لا ترشح صاحبها قط للاستعلاء على عباد الله.

[إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة].

هكذا يقول الرسول عليه السلام .

أتراه يعني سمنة اللحم والشحم ..؟! كلا .. وما ذنب من ينمو جسمه وخلاياه فيتفاقم طولا وعرضاً ..؟!

إنما يعني الذين يتعاظمون ويترهلون في صلفهم بغير حق . يعني الذين يأخذهم الكبر بعيداً عن الناس العاديين الذين هم في الحقيقة صناع الحياة . ولولاهم ما كان للحياة معنى ولا نماء .

هؤلاء الذين يصف الرسول خيارهم ، بأنهم خير عباد الله ، وينعتهم في مقال آخر بأنهم « ملوك الجنة » ..!!

هؤلاء الذين ترى أحدهم :

« .. أشعث ، أغبر ،، ذا طمرين ، لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » ..!!

* * *

هكذا يقاوم الرسول الكبر ، كما قاوم من قبل النفاق والرياء .

وهو عليه الصلاة والسلام ، إذ كان يرى الكبر بطر الحق وغمط الناس ٠٠ فإن للرياء وللنفاق نفس الدور وكلاهما تزييف للحق وبهت للناس ٠

والثلاثة معاً ، يشكّلون خطراً ماحقـاً على الشخصية الباطنة ، التي يريد الرسول لها الكمال ، وعلى استقامة الضمير التي يرجو الرسول لها المَنعة ٠٠

إن ثمت آفات كثيرة تفسد النفس الباطنة وتقعُد بها عن مُتابعة مِعراجها ٠

لكن هذه الثلاثة ــ الرياء والنفاق والكبر ــ هي شرّ تلك الآفات جميعاً ؛ لأنها أقدرها على التسلل والتنكّر والإيغال ٠٠!!

وإن الذين تخلّو نواياهم وأعماقهم من تلك الآفات لا يَهبون الحياة أعمالا سليمة وعظيمة ونافعة فحسب ٠٠ بلى إنهم يصبحون جزءاً حياً من ضمير الحياة ٠

وحَسبهم هــذا مَثوبة ٠٠ وحَسبُهم أجــراً ٠٠!!!

* * *

الفصل الثاني

.. عن الفطرة المؤمنة

يؤمن الرسول عليه الصلاة والسلام أن كل مولود يولد على الفطرة — « فطرةَ الله التي فطرَ الناس عليها » .

وفي هذه الفطرة تكمن وتتهلل البديهة التي تهدي صاحبها تلقائياً الى الحق ، وتوجه أحاسيسه ورؤاه نحو خالق هذا الوجود المعجز العظيم .

وهذه البديهة تولد معنا وتنمو معنا .. ولكنها كأي شيء فينا يحتاج نموها إلى رعاية وزاد .

والأنبياء والمرسلون يقدمون إليها زادها ويحولونها إلى بصيرة مضاءة بنور ما فتح الله عليهم من آياته وعطاياه .. أي يحولونها الى فطرة عارفة مؤمنة .

ولقد ركبت الطبيعة البشرية بحيث لايستطيع الناس أن يعيشوا بغير إيمان .. الإيمان بأي شيء يفرض نفسه على الاقتناع والوجدان .

وحين ينظر كل منا الى نفسه ويجوس خلال تجربته يجد هذه الحقيقة في حياته .. حتى الذين يلحدون — نراهم مؤمنين بإلحادهم .!!

ودور الدين السماوي — أي دين — أن يهدي الناس الى الإيمان بالحق .. ويساعد الفطرة على نموها الجزيل والقويم .

ومن عناصر الإيمان الرشيد تتكون الفطرة الرشيدة الثاقبة .

وحين تتبع أحاديث الرسول في هذا المجال ، نجد الفطرة المؤمنة تتألق

بنور ما بثَّ فيها من حكمة ، وتتشكل بهدى الله في أحسن تقويم .

إن نقطة البدء في ترشيد الفطرة وتمكينها من هداها ، إدراك أن هذا الخلق وذاك الكون لم تنجبهما صدفة عمياء .. بل هما من صنع قوة ، لها كل العلم ، وكل الاقتدار — وهي قوة الله رب العالمين .

« كان الله تعالى ، ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على المـاء ، ثم خلق السماوات والأرض ، وكتب في الذكْر كل شيء » .

هكذا تحدث الرسول ..

ففي البدء بل قبل البـدء كان الله ، الأول بلا بداية .. وكانت قدرته ترفّ فوق عـالم من الماء ، أي عالم خلو من كل مظاهر الحياة . ثم خلق السماوات والأرض . وبثَّ فيهما وفي كونه الكبير من الحياة والأحياء ما لا يمكن حصره ولا وصفه . ثم كتب في الذكر كل شـيء . راسماً السنن والقوانين التي ستحكم هذه القوى المخلوقة وتحدد مسيرها ، وتنظم علاقاتها .

صورة جميلة ومحكمة يشير بها الرسول في غير غموض وفي غير فضول ، إلى إيمانه بمنشىء الكون وبارئه ..

فإذا اهتدت الفطرة إلى الإله الذي خلق وأبدع ، فإن عليها أن تعـرفه ، واحداً ، أحداً ، ليس له شريك يُعينه .

وإن الوحدانية لتمثل عند الرسول أعظم بل أجمع خصائص الإيمان بالله . وتكاد تذوب أمام عظمة مثوبتها كل خطايا الإنسان .

يقول رسول الله لمعـاذ صاحبه :

« يامعاذ ، أتدري ما حق الله على العباد ، وما حق العباد على الله .؟

قال معاذ : الله ورسوله أعـلم .

قال الرسول : فإن حق الله على العباد ، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وحق العبـاد على الله عز وجل . ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً .

قال مُعاذ : قلتُ يا رسول الله ، أفلا أبَشِّر الناس ؟
قال الرسول : لا تبشرهم فيتكلوا » .

ومن أجل تطهير الضمير الإنساني من كل بقايا الشرك سيما في ذلك العهد البعيد الذي كان المسلمون الأوائل فيه ، حديثي عهد بدنيا الأصنام والأوثان . راح الرسول عليه السلام يقصر كل مظاهر التعظيم والإجلال على الله وحده ، وراح يقطع على قوى الشرك ومغرياته كل خطوط الرجعية .

فالحلف بغير الله ، تعظيم لغير الله ، ومن ثم فهو شرك :
« من حلف بغير الله فقد أشرك » ..

وعند الله وحده مَفاتح الغيب ، فمن ذهب يلتمس معرفة الغيب عند غير الله ، فقد أشرك :

« من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول ، فقد كفر بما أنزل على محمد » .

وإذا قرَّ في الفطرة إيمانها بوجود الله ، وإيمانها بوحدانيته فإن الرسول بعد هذا يحدثها عن كمال الله المطلق .

فهو سبحانه حي لا يموت :
« أنت الحي الذي لا تموت ، والجن والإنس يموتون » ..

وهو لا ينام ولا يَغفُو :
« إن الله لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام » ..

وهو قريب من عباده يسمع سرهم ونجواهم . ويبصر ظِلالهم ووَقع خطاهم .
« يا أيها الناس ، اربَعوا على أنفسكم . إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً ، وإنه معكم أينما كنتم » ..
وهو جل جلاله جواد كريم ..
« إن يمين الله ملأى — وكلتا يديه يمين — سحَّاء الليل والنهار

لا تغيض أبـداً » ••

وهو بعبـاده رحيم وتواب ••

« إن الله يَبسُط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يـده بالنهار ليتوب مُسيء الليل » ••

وهو ليس كمثله شيء ، ولا يستطاع وصفه إلا بأنه نور السماوات والأرض •

« سئل رسول الله ﷺ • كيف رأيت ربك يا رسـول الله ••؟ فأجاب نور" أنَّى أراه » ••

والله بقدرته وبعلمه وبآثار رحمته في كل مكان وزمان ••

وإيمان الفطرة بهذا ينأى بها عن كل جدل عقيم حول ذات الله :

« يسأل الرسول عليه السلام جارية أين الله ••؟ فتشير إلى السماء • فيقول الرسول : إنها مؤمنة » ••

وفي ذات المعنى يقول عليه السلام :

« لو سقط دَلوُ أحدكم في بئر ، لوقع على الله » ••

ليس لله مكان يجده لا في السماء ولا في الأرض ، وإنما يعني الرسول في كلا الحديثين وفي الأحاديث الأخرى المماثلة تنزيه الله عن مكان بذاته لأنه وهو مبدع الوجود كله يتجلَّى في الوجود كله وهو مع خلقه جميعاً أينما كانوا •

ولقد كان الرسول يستشعر هذه الحقيقة ويُحسُّها إحساساً عميقاً وعريقاً ، فلم يكن يغفل عن الله لحظة ـــ وهذا هو المظهر السديد للإيمان •

ومن ثم فقـد كان إذا هَمَّ لينـام يقول :

« باسمك ربي وضعتُ جنبي ، وبكَ أرفعه ، إنْ أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرْسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين »••

وإذا استيقظ من نومـه قال :

« الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » •

« أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد لله ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » ..

وإذا خرج من بيته قال :

« باسم الله توكلت على الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .
اللهم إني أعوذ بك أن أضِلّ أو أُضَل ، أو أزِلّ أو أزَل ، أو أظلِمَ أو أظلَم ، أو أجهَل أو يُجهلَ عَلَيّ » .

وإذا فرغ من طعامه قال :

« الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا ، وكفانا وآوانا ، وجعلنا مسلمين » .

وإذا رأى الهلال ، يبزغ أول أمسيات شهر جديد ، نظر إليه في حبّ ، وناجاه قائلا :

« هلالُ خير وبركة إن شاء الله — اللهم أهِلّه علينا باليمن والإيمان ، والسلامة والإسلام — ربي وربك الله » .

وإذا دخل بلداً أو قرية قال :

« اللهم ربّ السماوات السبع وما أظْلَلْن ، وربّ الأرَضين وما أقْلَلْن ، وربّ الشياطين وما أضْلَلْن — أسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، وأعوذ بك من شر هذه القرية وشر أهلها وشر ما فيها » ..

وإذا خرج في سفر قال :

« اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل . اللهم إني أعوذ بك من وَعْثاء السّفر ، وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال والولد » .

وإذا عاد من سفره قال :

« آيبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون » ..

أرأيتم ...؟! كل خطوة في حياته، وكل حركة، بل وكل خلجة من خلجاته، موصولة العرى بالله، ولها ابتهالها الخاص إلى الله ...!!

وهو حين يعلم الناس أن يصنعوا ذلك، لا يريد منهم مجرد كلمات تردد، وأدعية تتلى .. إنما يريد أن تكون هذه الابتهالات مظهر إيمانهم الذكور لله، والشكور له .

فهذا هو الله في وعي الرسول وإيمانه ...

مصدر الوجود كله، ومصدر الخير جميعه .. ومن ثم لا يتحرك إلا مولياً وجهه شطره، راجياً رحمته وملتمساً عونه .

وما دام ذلك كذلك .. وما دام الأمر كله لله، فإن من تمام الإيمان به، التوكل الحق عليه، واللجوء الدائم إليه ــ وهذا يفسر الارتباط الروحي الوثيق الذي يتجلى في ابتهالات الرسول هذه التي أسلفنا طرفاً منها والتي يرجو الرسول لجميع الناس أن يكون لهم منها نصيب .

إن الرسول يريد بهذا أن يعلم الناس فن الحياة الراشدة المطمئنة ــ فحين ينجح أحدنا في إسلام قلبه لله على هذه الصورة، فما عساه في الحقيقة فاعل ..؟

إنه يجمع أعمق حاجات النفس بأعمق حقائق الإيمان .. بل إنه يؤلف بين حاجات نفسه وحقائق إيمانه، فإذا الصعاب والمشاق التي تتقطع الأنفاس إعياء منها ــ تتحول إلى انسيابات وديعة تقهر الصخر وتتخذ فوق عنفوانه سبيلا سرباً ..

إن الناس يصابون بالضجر، وبالجزع، وباليأس حين يشعرون أنهم موكولون إلى حولهم وقوتهم لا غير، وحين يتصورون قوتهم هذه فقاعة تائهة ومعزولة ..

أما حين يرسلون سنا البصائر إلى مصدر الوجود الأعظم ويحسون المدد اللانهائي الذي يصب في قواتهم والذي تتصل به طاقاتهم اتصالا يشد الإيمان أزره، فإن قواهم ساعتئذ تتفوق على الضعف وعلى اليأس وعلى الخذلان .

وفي هذا المعنى يقول الرسول قولا بليغاً :

« احفظ الله يحفظك .. احفظ الله تجده تجاهك . إذا سألت،

فاسأل الله .. وإذا استعنتَ ، فاستعن بالله ..
واعلم أن الأمة لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك
إلا بشيء قد كتبه الله لك ..
وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء
قد كتبه الله عليك » ..

هذا هو برهان الإيمان ، وهو برهان يتضاءل أمامه كل برهان .

ـ أن ينطوي قلبك الذكيّ على حسٍ صادق بأن الكلمة الأخيرة في كل شيء إنما هي لله رب كل شيء .. وأنه بقدر إيمانك بالله وبقدرته ، يجيء تفوقك على كل المعوقات .

ولكن هذا الارتباط الذهني والنفسي بالله سبحانه لا ينبغي أن يعني نفض اليد من المسئولية .. بل هو على العكس ينمي الشعور بها والصبر عليها .

فهذا الإيمان بالله المدبّر لكل شيء ، القادر على كل شيء ، يعني في نفس الوقت المزيد من البذل والجهد .

ذلك أن الإيمان عند رسول الله ليس خاتمة مطاف .. بل هو ميثاق العمل وفق مرضاة الله .

ووجود الإيمان يعني عند الرسول وجود العمل الذي يقتضيه هذا الإيمان. فمثلا يقول عليه السلام :

« مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه .. ومَن كان
يؤمن بالله واليوم الآخر ، فَلْيصل رحمه .. ومَن كان يؤمن بالله
واليوم الآخر ، فليقل خيراً أو ليصمُت » .

هكذا ، يستعمل الرسول هذا التعبير كثيراً ، فيجعل الخير والهدى والصلاح براهين الإيمان وبيّنات وجوده .

إن الإيمان بالله يعني التعرف عليه في الرخاء ، والصبر على الحق والخير مهما يتطلّبا من عناء .

وها هو ذا ــ عليه السلام ــ يقــول :

« تعرَّف إلى الله في الرخــاء ، يعرفك في الشدة ..
واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك..
واعلم أن النصر مع الصبر ..
وأن الفَرَجَ مع الكرْب ..
وأن مــع العسر يسراً .. » .

أجل .. تعرَّف إلى الله في الرخاء ، يعرفك في الشدة .

أروع تعبير يقال في هــذا المقام ليجعل حمل تبعات الرشد نقطة البــدء في السير إلى الله .. وجوهر التوكل على الله .

فالخطوة الأولى عليك ..

واعلم ــ كما قال الرسول ــ أن النصر مع الصبر ، فكل انتصار على أنفسنا وعلى مُوبقات الحياة ليس مفاجأة تضعها الأقدار تحت وسائدنا .. بل هو ثمرة الصبر .. وثمرة العمــل ..

« مَن يستعفف ، يُعفَّه الله .. ومن يَستَغْنِ يُغْنِه الله » .

بيد أن الخطوة الأولى التي هي متروكة لنا ، والعمل الذي يبلغنا غرضنا ، لا يتهيأ لهما النجــاح والسداد والبرّ إذا انفصلا عن الله ، وعن الإيمــان الذي يستدر عون الله ورحمته وعطاءه .

كما أنهما لا يدركان القصد إذا أساء صاحبهما فهم حقيقة الإيمان وما يتطلبه من مُثابَرة .

وهنا يقول الرسول :

« والعاجز من أتبعَ نفسه هواها ، وتمنّى على الله » .

* * *

والإيمان بالله ، وتعلق الرجاء الإنساني بقدرته ورحمته ليسا مجــرد عَزاء

يقدمه الرسول للمؤمنين•• بل هما حقيقة حمل كل بَراهين صِدقها العظيم •

وليس على النـاس إلا أن يقتربوا بعملهم الصالح من دائرة هذه الرحمـة الإلهية الجزيلة ، هنالك يبصرون القوى المذخورة الهائلة التي يضعها الله في خدمتهم والتي يصورها الرسول أبدع تصوير في حديث قُدْسيّ يحكيه عن ربنا سبحانه :

« إذا تقرَّب العبد إليَّ شبراً ، تقرّبت إليه ذراعاً ••
وإذا تقرب إليَّ ذراعاً ، تقربت منه باعاً ••
وإذا أتاني يمشي ، أتيته هَرْوَلة » •• !!

ويُتم الرسول الصورة في حديث آخر عن الله تعالى أيضاً فيقول عن الذي يتقرب إلى الله حتى يحبه الله :

« •• فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به ، وبَصَرهُ الـذي يُبصِر به » ••

أرأيت ••؟

إذا ذهبت إلى الله ماشياً •• بادَر الطريق إليك مُهرولا •••

إن الله ليس في مكان فيُمشى إليه فيه •• وهو سبحانه لا يهرول ، ولكنهـا لوحة باهرة فذّة يُظهر الرسول فيها الحقيقة التي يؤمن بها ــ حقيقة أنَّ وَصْل الإرادة الإنسانية بالله عن طريق الإيمان الحق به . هو الوسيلة الناجحة التي تجعل من الانسان ربانياً وصدّيقاً •

* * *

وعلى الرغم من أن الإيمان قوةٌ وحدَه ، إلا أنه ينمو بالعمـل الصالح ؛ ويزداد فاعليّة وبركة عندما تناط الحياة بغرض خَيِّر وعظيم •

وحين يرتبط العمل بالإيمان في تعاليم الرسول ونهجه • نجده يُبادر فيصون الإيمان من الغرور الذي قد يَبْتَعِثه العمـل الصالح في نفس صاحبه ، وذلك بأن يغرس الرسول في الأفئدة المؤمنة الحقيقةَ التي تؤكد أن الهدى هُدى الله ،

وأن الخير كله بيده ، وأن عبادة العابدين وتقوى المتقين وخير الأبرار الخيّرين لا يزيد الله شيئاً ، وإنما ترسلُ نعمة الهدى غَدَقَها على المهتدين .

وأمام هذا الحديث المفيض الذي يحكيه الرسول على لسان ربه الكبير يأخذنا انبهار سعيد :

« يا عبادي ، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً ، فلا تظالموا ..

يا عبادي ، كلكم ضالٌّ إلا من هديته ، فاستهدوني أهدِكم ..
يا عبادي ، كلكم جائع إلا مَن أطعمته . فاستطعموني أطعمكم ..
يا عبادي، كلكم عارٍ إلا مَن كسوته، فاستكسوني أكْسكم..
يا عبادي . إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم ..

يا عبادي . إنكم لَن تبلغوا ضُرِّي فتضروني .. ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني ..

يا عبادي . لو أن أوّلكم . وآخركم . وإنسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلبِ رجلٍ واحدٍ منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ..
يا عبادي . لو أن أوّلكم . وآخركم . وإنسكم وجنّكم كانوا على أفجر قلبِ رجلٍ واحد منكم ما نقص ذلك من مُلكي شيئاً ..
يا عبادي . لو أن أوّلكم ، وآخركم ، وإنسكم ، وجنّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيتُ كل إنسان مسألته ما نقصَ ذلك مما عندي إلا كما ينقص المِخْيَط إذا أدْخل البحر ...
يا عبادي ، إنما هي أعمالكم أحْصيها لكم ، ثم أوَفيكم إياها .. فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه » ..

* * *

أجل..لن يبلغ العباد نفع الله حتى ينفعوه..ولن يبلغوا ضره حتى يضرّوه.. ولو أنهم جميعاً صاروا في العبادة رهباناً قدّيسين فأنفسهم أفادوا، وما زادوا بطاعتهم في ملك الله ذرّة ..

وإن الهدى لنعمة من الله وحده أفاءها عليهم حين يسّر لهم أسبابه .

ثم هو بعد هذا ورغم هذا لا يظلمهم شيئاً ؛ لأنه سبحانه وتعالى حرّم الظلم على نفسه ..

وإنما هي أعمالهم يُحصيها ، ثم يُوَفيها حقها .

إن الإنسان حين يدرك عن بينة أن عمله الصالح نعمة من الله عليه ، وتوفيق منه له ، فإن هذا الإدراك الصحيح يدرأ عن إيمانه وعمله خطر الغرور والزهو ، وينجيه من إثم التألّي على ذوي التراث ..

والرسول عليه السلام يعلم أن الإيمان الوثيق والعمل الصالح ينموان بعيداً عن تزكية النفس والدَّل بطاعتها .

وإنه ليرفع صوته عالياً بهذا الحديث :

« ثلاث مهلكات : شُحّ مُطاع .. وهَوًى مُتَّبع .. وإعجاب المرء بنفسه » .

ويقول الرسول لأصحابه يوماً :

« لَن ينجُوَ أحد بعمله .

قالوا : ولا أنت يا رسول الله ..؟

قال : ولا أنا ، إلاّ أن يتغمّدنِيَ الله برحمته » .

وعلى الرغم من اصطفاء الله له وحياته التي تضاهي كل لحظة منها عمراً كاملا في طاعة الله ، فطالما كان يقول :

« إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة » .

عندما يتزامل الإيمانَ بالله ، عملٌ صالح من هذا الطراز يبقى للإيمان

صفاؤه ويقينه : ويبقى للعمل تقواه وإيمانه .

ولا سبيل لأن يظل العمل الصالح قرينَ الإيمان الصادق ، إلا بأن يستمدّ العمل جوهرَه من الإيمان .. أن يكون الإيمان بالله ضمير هذه الأعمال الصالحات ، وآية ذلك ألاّ يصحْبها غرور الطاعة ، لأنه ما دام التوفيق للخير نعمة الله وحده ، فإن نعم الله تشكر بالتواضع والعرفان والمزيد من الضّراعة والخشية .. وبهذا يصير العمل نفسه إيماناً ..

وتتسع دائرة الإيمان — عند الرسول — حتى تشمل في حقيقتها وفي مَثوبتها ما يحسبه الناس أشياء يسيرة وعابرة ..

وهنا يقول الرسول عليه السلام :

« الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياة شُعبة من الإيمان » ...

* * *

وللعمل الصالح عند الرسول جدّيته وأهميته ، ومن ثم فهو ينظم شعائره ومناهجه تنظيماً هندسياً ، فلكل عبادة فرائضها ثم نوافِلُها ..

الوضوء — مثلا — له فرائضه ثم له سُنَنه ، ونوافله ..

وللصلاة فرائضها ، ثم سُنَنها ونَوافِلُها .. وللزكاة ، والصوم ، والحج.. فرائضها .. ثم لها سُننها ونَوافلُها .

فإذا غادرنا العبادة إلى العمل الاجتماعي في الحياة العامة ، ألفينا الرسول يعطيه نفس المكانة من الجدّية والأهمية ، فتصير لكل من نماذج هذا العمل فرائضه ونوافله ..

والفرائض عند الرسول ، سواء في أعمال العبادة أو أعمال الحياة — تمثل ذلك القدْر من الالتزام ، الذي يجعل الإنسان أهلا للمسئولية .

أما النوافل فتمثل الانطلاقة التي تجعل الإنسان مُحباً للمسئولية وعاشقاً لها..

وهذا أروع تقديس للعمل الذي يكون الإيمان ضميره ونوره ..

إذ بينما نوافل الأعمال عند كل الناس تمثل هوناً من النشاط وهوناً الثواب ..

إذا الرسول يراها، وكأنها ذروة بين الذرى مرتفعة لألاءة .

ومن ثم نراه يقول حاكياً عن الله سبحانه :

« .. ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه .. فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به. وبصره الذي يبصر به » ..

وعندما يخلو العمل من الإيمان ، فإنه لا يعدو أن يكون غرضاً من أغراض الأنانية والسلبية والانتهازية ..

أما العمل المترع بالإيمان . النابض به — لا سيما الإيمان بالله العلي الأعلى ؛ فإنه الطراز الوحيد من العمل الذي يواجه مسئوليات الحياة في غبطة وشجاعة .

إن الإيمان هو الشيء الوحيد الذي يجعل من العمل — أي عمل — رسالة ، ومبدأ ، وقيمة ، وراية ..

ومن هنا فالمؤمن عند الرسول عليه الصلاة والسلام ليس هو من يعمل الخير فحسب .. بل ومن يساعد الآخرين على فعل الخير .

لنسمع قوله عليه السلام :

« من دعا إلى هدى . كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً » ..

وهو يقول :

« لأن يهدي الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم » .

ويربط الرسول هذه الإيجابية الخيرة النبيلة في حمل مسئوليات الحياة .. يربطها بالإيمان ربطاً مباشراً فيقول :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

أتعرفون للإيمان تصويراً أعظم من هـذا التصوير ..؟

لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يحمل تبعاته تجاه الناس بنفس الشوق وبنفس الجهد اللّذيْن يحمل بهما تبعاته تجـاه نفسه ..

ولم يقل الرسول في حديثه الكريم حتى « يرجو » لأخيه ما يرجو لنفسه ، أو حتى « يتمنّى » لأخيه ما يتمنى لنفسه .. بل قـال حتى « يحب » لأن الحب هو أقوى دوافع النفس ، ومنه تنبثق أعمق حاجاتها ورغائبها ..

فليس يكفيك لكي تكون مؤمناً أن ترغب لأخيك أو تتمنى لأخيك .. بل يجب أن تحِب لأخيك ما تحب لنفسك .

هنا ، وفي هـذا الحديث يرتفع الإيمان ، ويرتفع العمل الذي ضميره الإيمان إلى مستوى أسمى تبعات الوجود والحيـاة ..!

وفي هـذا المجـال أيضاً يقول الرسول :

« الدَّالّ على الخـير كفَاعِله » ..

فما دمت تُحب الخير لنفسك ، فالإيمان يفرض عليك أن تحبه لغيرك ..

وحتى حين تعجز عن فعل ما هو خير وصالح ، فإن الإيمان يفرض عليك أن تدُل الآخرين على هذا الخير وتناديهم إلى هذا الصلاح : فلعلّ فيهم من يكون أقْدَر مِنْك على فعل ما أعجزك إدراكه .

وهنا يقول الرسول :

« فرُبَّ مبلَّغ أوْعَى من سامع » ..

« ورُبَّ حامل فقهٍ إلى مَن هو أفقه منه » .

« ومن دَلّ على خير فله مِثْلُ أجر فاعله » ..

إن تبعات الرُّشْد التي يفرضها الإيمان بالله كثيرة — فإذا عجز إنسان عن إدراك بعضها ، فإن ذلك لا يبرِّر له حضَّ الآخرين على أن يحـذُوا حَذْوَه ويضعفوا ضعفه .. بل عليه أن يكون أميناً على حقيقة الرُّشْد ، وعليه ألا يكتمها

عن الناس ، ويقدم إليهم بدلا منهـا فلسفة عجزه وهَواه ، فإن فعل فقـد أضاف إلى ضعف بنيـانه خيـانة إيمانه ..

هـذا رسول الله يقول :

« .. ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره فقد خانه » .

ويبلغ الإيمان ذروة مجده في وَعي الرسول حين تتبدّى حقيقته .

وحقيقته أنه ليس تكليفاً للانسان بقـدر ما هو تكريم .

ومن عجب أن ذلك المعنى يكشف عنه ذلك الجانب الذي نحسبه نحن نقطة الضعف في قضية الإيمان ـ ذلك هـو الإيمان بالغيب .

فالإيمان بالله يتطلب عنـد الرسول الإيمانَ بالغيب . وهو عليـه السلام يشخص ذلك الغيب في الملائكة ، والكتب المنزلة ، والرسـل ، واليوم الآخـر ، والقـدر خـيره وشـره .

« .. قال : فأخبرني عن الإيمان ..

قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكُتبه ، ورُسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقـدر خـيره وشـره » .

أفي الإيمان بهـذا ، ما يضعف قضية الإيمان ..؟ أنّى ، وكيف ..؟

إن الذي يؤمن بالله لا يجد أية صعوبة في الإيمان ببقية الأركان .

فالله ذاته غيب بالنسبة لوجودنا الحسّيّ كله ، بل هو سبحانه أكبر حقائق ذلك الغيب الرحيب .

فإذا آمنت بالله ، وهو غيب ، يصير من اليسير أن تؤمن ببقية الغُيوب ..

وإن خير ما يحدد حاجة الناس إلى عقيدة دينية ، هو الكشف عن مضمونها الإنساني .

وأمامَ عقيدة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث وبالقدر ، نجد مضمونها الإنساني تقدمياً إلى أقصى حـدود التقـدم .

فالملائكة هم قوى الخير غير المنظورة .

والكتب والرسل ، هي قوى الخير المنظورة التي أدت دورها على أرضنا وبين صفوفنا .. أي هي التراث الإنساني الحي النابض في الأرض بكلمة السماء ..

واليوم الآخر ، هو البعث بعد الموت.. وهو يعني أن الإنسان أجَلّ خطراً ، وأبقى ذكراً من أن ينتهي بتلك الغيبوبة العميقة التي تأتيه فجأة فتنتزعه من وجوده.. إنه أعظم شأناً من أن ينتهي هكذا كالشهاب .. بل إن له لبقاء وخلوداً .

والقدر يعني أن الحياة لا تتخبطها العشوائية ولا الصدفة المبهمة .. بل يحكمها قدرٌ حكيمٌ عليم لا حصر لقوانينه وشرايينه .

ويعني عند الرسول حقيقة أخرى لها أهميتها التي لا تُضاهَى ، وهي أنه لا يوجد في العالم كله ، ولا في الكون كله قوة تستطيع أن تقف في طريق المشيئة الإلهية ، أو أن تعرقل إرادة الله .

وهذا بدوره يعني أن الإنسان الذي يمسك اللهُ بمقاديره إنما يأوي إلى ركن شديد ، وإنما تُسانده في حياته قدرة لا تحدّ ولا تُغلب .. وأن كل خير يناله ، وكل ضر يُصيبه ، فإنه لا ينبغي أن يكون مَثار زَهْوه ، ولا مثار جزعه .

بل عليه أن يوطد إيمانه ويُرعرع وجوده باحترام مشيئة الله والتسليم بحكمته في نفس الوقت الذي يمارس فيه تبعاته ، ويحمل أمانته وَفق الأسباب والقوانين التي دُعِينا للسير معها وفي صُحْبتها .

فالمضمون الإنساني لهذا الإيمان يعني أنّ الإنسان موضع تكريم عظيم .. لأن الذي توضع على طريق تقدمه قوى الخير المنظورة كالمرسلين ، وغير المنظورة كالملائكة ، تهديه وتشد أزره ..

والذي لم يُخلق ليفنى كما تفنى الهوام ، بل خلِق ليبقى ، ويستأنف حياته في خلود أبدي لا يُؤذِن أبداً بانتهاء .. لا يمكن أن يكون إيمانه بهذا مدعاة لتخلفه وتقهقره .. بل هو يحفزه إلى مَلء حياته الدنيا بالخير والتفوق حتى

يؤهله ذلك لاستئناف حياته بعد الموت في مستوى رضيٍّ وعظيم ..

وهكذا يبدو الإيمان بالله ، وبالغيب قوة تقود آمال البشرية نحو مصيرها الأفضل والأمثل .

وهكذا يرى الرسول في هذا الإيمان مصدر تكريم وتمجيد للانسان .

* * *

والإيمان والعمل عند الرسول مسئولية عين ، لا مسئولية كفاية .. أي أنهما تبعة الوجود لكل فرد بذاته .. لا يغني أحد عن أحد بإيمانه وعمله .

« يا معشر قريش ، لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم ، تقولون : يا محمد .. يا محمد .. فأقول هكذا » ...!!

وأشار بيده إشارة معناها : فأعرض عنكم ...!!

ولقد أكرمه عمه أبو طالب إكراماً عظيماً ، ودافع عنه ما كان حياً دفاعاً مجيداً ، وامتدح دينه جَهرَةً في شعر تحدى به كفار قريش .

وكان بود الرسول لو يستطيع أن يشفع له عند ربه ، لكن الله نهاه .

وإيمان الرسول الذي يكفي عالماً بأسره ، لم يُغن عمّه الأثير لديه شيئاً .

وهكذا ، وقف الرسول يعلن في أسف :

« يا عم النبي محمد ، لا أغني عنك من الله شيئاً » ...!!

* * *

إلا إن أروع ما تتلقى الحياة البشرية من دروس ، لهو هـذا الدرس :

الإيمان الحق ، والعمل الصالح تبعة الوجود ـ كل وجود ـ لا مُحاباة في موازين الله :

« يا فاطمة بنت محمد .. يا صفيّة بنت عبد المطلب ، وعمة رسول الله اعملا لأنفسكما ، فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً » ...!!

ذلك لأن الإيمان فطرة .

والفطرة هي إرهاص الحقيقة في كل نفس وقلب .

والفطرة لا بد أن تعمل لكي تعطي بناءها الروحي تكامله واستمراره .

وكما ينتهي الجسد ، وينزل به الموت إذا كف القلب عن عمله .. كذلك ينزل العطب بالروح إذا كفت الفطرة عن عملها .

وهذه الفطرة لا يراها الرسول أسطورة ، أو رمزاً مبهماً .. بل هي البصيرة التي أودعها الله أفئدة عباده ، وهي بالتالي حجة الله على خلقه .

من أجل ذلك فهي فطرة ذكية وعليمة ، وهي لا تستمد منطقها وحجتها من وراء الحس .. بل من قلب الكون تستمدهما .. ومن نماذج الحس والمادة تستنبطهما .. من الزهرة .. من الصخرة .. من القطرة .. من الأنملة والبنان .. من السحاب والرعد والبرق .. من اختلاف الليل والنهار .. من الحياة .. من النمو .. من الموت والبلى .. من القول والصمت .. من الناس ، والدواب والشجر ، والأنعام .. من الشمس ، والقمر ، والنجوم ..!!

من هذا الكون الذي لابد أن يكون له خالق تستمد الفطرة منطق إيمانها بالله .

وهي لا تلجأ إلى معرفة الله عن طريق شخصه ، فليس لله سبحانه شهادة ميلاد ولا بطاقة شخصية ..!! إنما تعرفه جل وعلا عن طريق آثار رحمته وقدرته وعظمته .

وهكذا نرى الرسول يقول :

« تفكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في الله فتضلوا » .

إن الإيمان بالله لا يعرف عند الرسول طريقة الفضول والتنطع في البحث عن حقيقته .

وحين تنتفض في النفس نوازع الفضول الضال لتسأل عن الله ما هو ؟ ومن أين ..؟ وكيف ..؟ ومتى .. فإن الرسول لا يدعو ضحايا هذه النوازع لأكثر من

أن يُديروا حِدقَ أبصارهم وبصائرهم شطر آثار القدرة الإلهية •• شطر هــذا الكون المذْهِل ؛ حيث يرون الله في كل معجزات الكوْن •• وفي كل ذرّاته ••!!

وعندئذ سيهتفون مع الرسول :

« اللهم أنت السلام •• ومنكَ السلام •• تباركْتَ يا ذا الجــلال والإكــرام » ••!!

« لا إله إلا الله •• ولا نعبد إلا إياه •• له النعمة •• وله الفضل •• وله الثنــاء الحسَن » ••

« لا إله إلا الله •• مُخلصين له الدين ولو كَرِه الكافرون » ••

★ ★ ★

ولما كان الإيمان بالله فطرة ••

ولما كانت الفطرة تُنمِّي نفسها وتُربي يقينها بالله عن طريق المعرفة والتأمل••

من أجل ذلك لم تكن الشكوك المناوئة للإيمان تشكل عند الرسول إثمــاً ولا خطــراً ••

وهذه من أعظم نظرات النبوة حصافة وبرّاً ، فالشكوك التي تُراود العقل أو الوجدان في إلحاح •• والتي تزحَمُ النفسَ بعلامات استفهام حائرة •• والتي تحاول أن تجلي الإيمان عن مكانه في أفئدة المؤمنين •• هــذه الشكوك لا يراها الرسول إلا دليلا على حيوية الإيمان وشبابه •

يروي ابن مسعود رضي الله عنه هذا النبأ عن بعض أصحاب رسول الله فيقول :

« قالوا يا رسول الله ، إن أحدنا ليَجدُ في نفسه ما لَأنْ يحترق حتى يصير جُممَة أو أن يخرّ من السماء إلى الأرض ، أحب إليه من أن يتكلم به ••فأجابهم الرسول قائلا : ذلك مَحْض الإيمان »••

وفي رواية أخرى للحديث قال الرسول :

« أوَقدْ وجدتموه ــ يعني حديث النفس المنطوي على الشك ــ أوَقدْ وجدتموه ••؟ ذلك صريحُ الإيمان » ••!!!

وفي رواية ثالثة يقول الرسول :

« الحمد لله الذي ردَّ كيد الشيطان إلى الوسوسة » ..

فهذه الشكوك ليست إلا وَسوسة لا تصيب من الإيمان مَقْتلا ، بل تشحذ قوى الحياة فيه وتملأ شرايينه يقظة وعافية ..!!

وهذا الموقف من الرسول عليه السلام تجاه الشك ، يمثل أعظم خدمة تؤدَّى لقضية الإيمان . إذْ أراح النفس البشرية من معاناة هـذه الشكوك التي لا بد منها .. وبدلا من أن يجعل منها خصماً عنيداً يستنفدُ الإيمانُ طاقته في مقاومتها — جعلها عليه السلام جزءاً من عمليـة الإيمان ذاتهـا .

« ذلك مَحْض الإيمان » ..

وبذلك يخسر الشك المعركة في لحظة واحـدة ، وإلى الأبد .

كما أن هـذا الموقف يمثل الإيمان الراسخ للرسول .. بأن الإيمان بالله فطرة ، وأن هـذه الفطرة المؤمنة لا تتجرع الإيمان وإنما تحياه في بداهة تنطمس أمامها كل محاولات الزيغ والضلال .

* * *

الفصل الثالث

.. عن أزمة الإنسان

للوجود الإنساني أزمة .. نشأت معه ، وتطورت ، ولا تزال تصاحبه وتواكبه .

وهذه الأزمة تتناول الوجود الإنساني كله عند الفلسفة ، وتتناول بعضه عند الدين .

فالإيمان بالله ، الذي يشكل لدى الفلسفة جزءاً هاماً من أزمة الإنسان ، ليس عند الدين وعند المرسلين إلا مفتاحاً للأزمة الإنسانية كلها ، وعلاجاً شافياً منها .

من أجل ذلك ، وحين نتتبع أحاديث الرسول التي تعرضت لأزمة الإنسان ، لا نقف عند أزمة الإيمان بالله ، لأنها لا وجود لها كأزمة في هذا المجال .

إن الإيمان ـ عند الرسول ـ هو كما قلنا في الفصل السالف ، فطرة تهدي لحقيقتها بنفسها .

وحتى حين تتعرض هذه الفطرة لإلحاحات الشك ـ وهو من وجهة نظر الدين ـ الموقف الوحيد الذي يمكن أن يجعل من قضية الإيمان أزمة إنسانية ـ نقول حتى حين يحدث ذلك ، فإن علاج هذه الحالة عند الرسول هو أن تستأنف الفطرة نفسها ، غير عابئة بهذا الشك ، وغير واقفة عنده ، ولا متلكئة بجانبه .

ذلك لأن هذا الشك لا يمثل أزمة ، ولا خصومة ـ إنما هو عند الرسول وكما ذكرنا من قبل ، رد فعل لحركة الإيمان وحيويته .

وإذا حدث أن شكّل هذا الشك أزمة ، فإن ذلك يكون من صنع الإنسان نفسه .. من صُنع العقل الذي استضاف الوهم العابر ، ومضى يُقيته ويُغذيه ، حتى جعل منه فلسفة ومنهجاً وأزْمة ..!!

أما الرسول عليه السلام : فيدحَرُ ضراوة الشك تماماً حين يجعله « صريح الإيمان » و « محض الإيمان » .

وطبيعي أنه لا يجعل الشك ذاته محض الإيمان إنما يقصد شعورنا به .

فإذا انتهى شعورنا بالشكوك العارضة عند هـذا الإدراك السديد بأنها لا تشكل أدنى خطر على الإيمان ، وأنها ليست موضع مؤاخذة عند الله ، فإن هذا كفيل بأن يلغي الشك كأزْمة ويحيله إلى رصيد للإيمان .

إن كل فطـرة في ملكوت الله ، وفي كونه المملوء بالأسرار المذهلة ، لترتدّ إلى صاحبها حاملة إيماناً فطرياً صادقاً بأن الصدفة لم تشدْ هـذا البناء العظيم ، وإنما لهذا الكوْن خَالق ، هو الله رب العالمين .

أما أزْمة الإنسان مع الغيب ، فقائمة سواء كان هذا الغيب مصيره ، وما بعد موته من عُقبْى .. أم كان قدراً سبق به الكتاب وأنيط بالإنسان إنجـازه .

وأحسب أن أحاديث الرسول وهي تواجه مسائل المصير والقدَر ، كانت تُبصر وتُحس معاناة الإنسان هـذا الجانب من الإيمان .

إن أحاديث الرسول في هذا المجال تتحرك وكأنها تواجه أزمة ، أزمة فكر وشعور ، يُحسُّها الرسول عنـد الآخرين ، ويسمع همسها داخل ضمائرهم ، وتَتبدّى في حديث المؤمنين عنها ، وأسئلتهم حولها .

فكيف واجهت أحاديث الرسول وهـديه أزمة الإنسان مـع مصيره .. وأزمته مع قدَره ..؟؟

إن روعة المصير تتمثل عند الرسول في البعث بعـد الموت .

ولكن كيف يموت الناس وكيف يبعثون ، ولمــاذا ؟..

هنا في يُسْر فذ وبَداهـَة محكمة يجيب الرسول :

« لَتموتنَّ كما تنامون..ولَتُبعثن كما تستيقظون..ولَتجزَوُنَّ بالإحسان إحساناً .. وبالسوء سوءاً ... » .

هـذه هي القضية في غير تأزّم أو تعقيد .

كما ننـام ، نموت . وكما نستيقظ ، نُبعث .

وكأن النوم واليقظة تذكير يومي بالموت وبالبعث..وتدريب يومي عليهما..!!

إننا حين ننـام نغيب عن الحيـاة .. وحين نستيقظ نستأنف الحيـاة .

فالموت والبعث كذلك .

بيد أن الموت هنا غياب طويل ، وانتقال إلى مستوى آخر من الحياة .

ولماذا ؟ ليجد المحسن مَثوبة إحسانه ، وليجد المسيء عاقبة عدوانه .

وليستأنف الناس الحياة هناك ــ كل في المنزلة التي أعدها لنفسه أثنـاء مقـامه في دنيـاه .

ولكن كيف يبْعثون .. هؤلاء الذين تحولت أجسامهم إلى رماد ..؟

يجيب الرسول عليه الصلاة والسلام حـين وقف بين أصحابه ذات يوم خطيباً فقـال :

« يا أيها الناس ! إنكم تحشرون إلى الله حُفاةً عُراةً ، غُرْلاً ــ كما بدأنا أول خلق نُعيده ، وعداً علينا إنا كنا فاعلين » .

أجل ، هكذا أنبأه القرآن العظيم .

« كما بَدَأنا أوَّلَ خَلْقٍ نُعيدُهُ » .

و« ما خَلقُكم ولا بعثُكم إلاَّ كنَفْسٍ واحـدةٍ » .

و« قال من يُحْيي العظامَ وهِيَ رَمِيمٌ .؟؟

قل يُحييها الذي أنشأها أوَّلَ مرَّةٍ » ..!!

فالقضية عند الرسول في منتهى اليسر :

وإذا ما سئل : كيف يُبعث حيّ من حفنة رماد ٠٠؟! يجيب سائلا : وكيف يُخلق حيّ من قطرةِ مَنِيٍّ ٠٠؟!

إننا ندفن في الأرض بذرة جافة ٠٠ حبة ذرة مثلا ، أو حبة قمح ، فإذا بهـا تنتفض حياة وتنْبثق من تحت التراب شجرة تهتز خضرة وعنفوانا ٠

هذا المشهد يمثل عند الرسول أصدق براهين البعث والحياة الأخرى ٠

سئل عليه السلام هذا السؤال : « يا رسول الله كيف يعيد الله الخلق ٠٠؟ » فأجاب السائل قائلا :

« أما مررت بوادي قومك جدْباً ، ثم مررت به يهتزّ خَضِراً ٠٠ فتلك آية الله في خلقه ، وكذلك يُحيي الله الموتى » !!

وليس شرط البعث أن يبعث الموتى بنفس جلودهم الأولى وأشعارهم وأظفارهم ٠٠ بل المهم فيه هو أن الفرد الإنساني الذي جاء الحياة وعمل بها وعاش أيامها ، لن يكون الموت ختام نشاطه ووجوده ، بل إن له لَبعثاً آخر في حياة أخرى ٠

ذلك أن الرسول يؤمن بأن الإنسان روح وجسد ٠٠ والروح لا تفنى ٠٠ بل ولا تموت ٠ وهذا الروح هو جوهر الإنسان ، وجوهر بعثه كذلك :

« إنما نَسْمة المؤمن طير يَعلَقُ في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم بعثه » ٠

هكذا تحدث الرسول ٠٠

على أن أزمة المصير الإنساني بالنسبة للفرد إنما تتركز مَهُولَةً ، ومخوفة في الموت نفسه ٠٠ هذا الحادث البيولوجي الذي نهتز منه رُعباً وفَرَقاً ٠

وعلى الرغم من أن شمول المأساة يخفّف من وقعها ، فالموت رغم شموله جميع الأحياء من بدء الحياة إلى منتهاها ـ لا يزال الهول الذي يبعث في حياتنا الجزع والألم ٠

وكل محاولة لحل أزمة مصيرنا ــ تخفق لا محالة إذا هي عجزت عن تفسير الموت تفسيراً يطمئننا ويجعل بيننا وبينه جواً من الثقــة .

ولقد واجهت أحاديث الرسول ظاهرة الموت على النهج الذي يزيل عنــه ضراوته وبأســه .

فهو أولا ــ ليس فناء مطلقاً لا يلتقي بعــده الأهل والأحباب بل هو انتقال يتلوه لقــاء وخــلود .

وهو كحادث عضوي ليس محنة لروح الإنسان الطيب الصالح .

بل يحكي لنا الرسول صورة الموت للذين عاشوا حياة خيِّرة فيقول :

« إذا حُضِرَ المؤمن أتت ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء، فيقولون : اخرجي راضية مرضياً عنــك إلى رَوح وريحان .. ورب غــير غضبان .. فتخرج كأطيب ريح المسك ... » .

ولقد قال له بعض أصحابه يوماً : « يا رسول الله ، إنا لنكره الموت » .

فأجابهم عليه الصلاة والسلام :

« ليس ذلك ، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته ؛ فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامَهُ فأحَبَّ لقــاء الله ، وأحبَّ الله لِقــاءه » .

وإنه لمن الطبيعي أن تكون هــذه الصورة المريحة للموت مَثوبة المؤمنين والطائعين ... ومع ذلك ، فإن الرسول عليه السلام يرجو نفس المصير الطيب لكل أولئك الذين يرْجون رحمة الله ويخافون خطاياهم .

هذا « أنسٌ » صاحبُ رسول الله يقول :

« دخل النبي على شاب وهو في الموت ، فقال : كيف تجــدُك ..؟

فقال : أرجو الله ، يا رسول الله وأخاف ذنوبي ..

فقال ﷺ : لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وأمَّنهُ مما يخــاف » .

ويرسل الرسول رياح التفاؤل رُخاءً مُطَمْئنة ، ويبث الرجاء في الله والأمل في رحمته بثاً رحباً فيقول :

« من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » •

فإذا عرفنا أن كل إنسان في ساعة احتضاره يتطلع قلبه إلى عَون الله ورحمته• وأنه يتجه شعورياً • ولا شعورياً إلى الله مؤمناً به ، مُبتهلا إليه ، شأنه في ساعات عسرته كلها •

إذا عرفنا ذلك تصورنا الباب الذي يفتحه الرسول للأمل في رحمة الله ساعة لقائه ، وبعد لقائه ••

هكذا تواجه أحاديث الرسول أزمة المصير مواجهة تبعث الأمن ، وتهب السكينة ، وتجعل الغيب صديقاً وأنيساً ••!

فكيف واجهت أزمة وجوده ••؟ أزمته بين قدره واختياره ••؟؟

* * *

إن القدَر باعتباره السّنن والقوانين التي جعلها الله قياماً للكون وللأشياء تنظم سيرها، وتحكم نشاطها، لا يسبب أية أزمة في فكر الإنسان ولا في شعوره••

ولكن القدَر بوجهه الآخر ، أي باعتباره قوة غيبية تتحكم في خطوات الإنسان وسعيه ، هو الذي يمثل جانباً من أزمة الإنسان •

وهذا المفهوم للقدَر ميراث إنساني •• لا يذهب إليه ولا يتأثر به المتدينون وحدهم •• بل وكثيرون سواهم من غير ذوي الدين •

والذي يشكل أزمة في هذا المفهوم ، هو ــ أولا ــ وضع النتيجة قبل السبب و ــ ثانياً ــ إلغاء الاختيار الإنساني ••

ونبدأ فنقول : إن القدر بمفهومه هذا ، أي باعتباره حكماً مسبقاً على حياة الإنسان وسعيه ومصيره ، قد اعترفت أحاديث الرسول بوجوده •

« لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليُصيبه » .

ويروي « أنس » رضي الله عنه هذا النبأ :

« كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول : يا مُقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك ، فقلنا : يا رسول الله ، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ..؟؟

قال : نعم ، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء » .

ولكن إلى أي مدى يتعارض الإيمان بالقدر على هذه الصورة مع الاختيار الإنساني الذي لا بد من توفره لكي يصبح الإنسان مسؤولا ..؟؟

إن الإجابة عن هذا السؤال لا تكشف عن مكانة الاختيار فحسب ، بل وتساعد على كشف المفهوم الإنساني المتطور لعقيدة القدر .

وإنا لنلتقي بالإجابة عن السؤال في أحاديث الرسول على مرحلتين .

أولاهما : تطالب المؤمنين بألا يجعلوا من القدر موضوع جدل فلسفي تكثر فيه المزالق وتنمو معه ضراوة المراء .. فالقدر بصورته تلك نوع من الغيب ، وأولى صفات المؤمنين أنهم يؤمنون بالغيب ..

وإيمانهم بالغيب ليس دليل تخلّف .. بل سِمَة تفوّق .. لأن كل تفكير متفوق مستنير لا يرضى لنفسه أن يحجر على المستقبل ، ولا على ما لم يعلم بعد من أسرار الكون والحياة .

فلا تنازُع إذن حول القدر في شِرْعَة الرسول ..

« خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتنازع في القدر ، فغضب حتى احمرَّ وجهه ، كأنما فقئ في وَجْنَتَيْه الرّماز ، وقال أبهذا أُمِرْتم : ؟ أم بهذا أُرسِلتُ اليكم ..؟

إنما هَلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر ، عَزَمْتُ عليكم ألا تتنازَعوا فيه » .

أما المرحلة الثانية : وهي امتداد للمرحلة الأولى ، فهي تشرح المفهوم الإنساني والواقعي للقدر . وفيها يطالب الإنسان بالعمل ، وحمل مسؤوليات حياته كلها ، ليس ذلك فحسب ـ بل والإيمان بالسبب والنتيجة باعتبار العلاقة الحتمية بينهما صورة من صور القدر ذاته .

سأل الصحابة رسول الله يوماً :

« يا رسول الله . أرأيت أشياء نتداوى ، بها .. هل تردّ من قدر الله شيئاً ..؟

فأجاب عليه السلام : هي من قدر الله .. »

إن العلاقة بين النتائج وأسبابها ، والتي تمثل أهم قوانين الحياة الإنسانية ، تأخذ مكانها إذن لا كشيء خارج عن القدر ، بل كوجه من وجوهه .

ويحكم الرسول الربط بين الأسباب والنتائج حين يجعل الحجْر الطبي ـ مثلا ـ واجباً فيقول عليه السلام :

« إذا سمعتم بالطاعون بأرض ، فلا تدخلوها .. وإذا وقع بأرض وأنتم فيها ، فلا تخرجوا منها » .

وحين تتبع أحاديث الرسول وتوجيهاته ، نجد المطالبة بالعمل وإقرار المسئولية الشخصية واضحيْن ، يناديان الناس في جهرة وبيان ..

والمثوبات المترتبة على العمل الصالح، والعقوبات المترتبة على العمل السيىء.. كل ذلك ينطق به موكب طويل من أحاديث الرسول .

فهل تقرر هذه الأحاديث مسئولية الإنسان ، في الوقت الذي لا تؤمن فيه بوجود مبررات هذه المسئولية .؟؟

بداهة ، لا ..

إذن فكيف يحل هذا التناقض بين كوْن الإنسان منفذاً لأحكام قدر مكتوب ، ومختاراً في نفس الوقت لأعماله ثم مسئولا عنها ..؟

إنني أضع السؤال على هذا النحو . لأن المتحدثين في مسألة القدر تعوّدوا أن يصوغوه كذلك .

لكني أعترف بأن وضع السؤال هكذا . يبعدنا عن الفهم الصحيح للمسألة ، ويُدنينا من الجدل العقيم الذي لعلّ الرسول كان يتقصده حين نهى أصحابه عن التنازع في القــدر .

وأحسب أن المسألة توضع وضعاً سديداً صحيحاً حــين يُجعل السؤال عنهــا هكذا .

ــ ما دامت كل أحاديث الرسول تؤكد اختيار الإنسان ومسئوليته فما مغزى الإيمان بوجــود قــدر ..؟

ونجيب في ضوء أحاديث القدر نفسها . بأن مستوى هذا الإيمان ووظيفته ــ شحْذُ كل طاقات الإنسان . وإنهاض قوى الاقتحام والمخاطرة لديه .

لأن الإيمان بالقدر لا يقول له : نَمْ ، وانتظر قدَرَك .. بل يقــول له : قُم . واكتشف قدَرَك ..

أجل . فإذا كان قدر كل منا يرادف مستقبله المغيّب المجهول أعني . إذا كان المستقبل المغيب قدراً مكتوباً ، فاكتشاف هذا المستقبل قدر أيضاً .

وإن الرسول ليربط ربطاً محكماً بين عملنا كقدر . وغيبنا كقدر حين يقول :

« اعملوا . فكلٌّ ميَسَّر لما خُلق له » .

إن في هذا الحديث مَذاقاً آخر للقدر ، فالقدر ليس ما يعتاقك عن العمل .. بل هو قوة تُيسّرك للعمل وتيسّر لك العمل ..

إن الإيمان بالقــدر يعني أن تنهض قائماً إذا أصابتك مصيبة . وألا تجترّ مرارتها ، لأنهــا قدر لم يكن من تلافيه بد ..

إن معنى إيمانك بأنه لم يكــن من تلافيه بد ، أنه لا فائدة من أن تستهلك

أعصابك في النـدم واجترار الغصص والمرارة ؛ وافنـاء عمرك في : « لو أني فعلت .. ويا ليتني لم أفعل .. » .

إن الإيمان بالقدر يقول لك ساعتئذ .. قم .. انهض .. حذار أن تتحول إلى حطـام .

إن الله معك ، وإذا كان أصابك هذا الضرّ بما كسبت يداك ، فعنـد الله مفاتحُ الغيب ومغانمُ العوَض ..

لنسمع حديث الرسول هـذا :

« المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كـلٍّ خير .. احرص على ما ينفعك .. واستعن بالله ولا تعجز .. وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلتُ كذا لكان كذا وكذا ؛ ولكن قل : قدّر الله ، وما شـاء فعل » .

إن هذا الصوت المبارك الذي ينـادي الإنسان قائلا :

[احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجز] .

إنهذا الصوت ليشرق من خـلال رنينه وكلماته أصدق معـاني القدر وأجلّ مرامي الإيمان به .

فالحرص على ما ينفعك ، هو حرص على قدرك ، وهو نقل هذا القدر من عالم الغيب إلى عالم الشهادة ، والتطبيق .

إن الإيمان بالقدر .. هذا الإيمان الذي يتكامل بحتمية العمـل واعتباره مساوياً في الأهمية والوجوب للإيمان بالله .

الإيمان بالقدر على هـذا الوضع ـ وهو وضعه الصحيح ـ لا يعني إلا تزويد الإنسان بكل قوى الغلب والتفوّق .

إن يقينك بأن تحويلا مالياً ضخماً ينتظرك في البنك .. وأنك لن تنـاله إلا إذا انتقلت بنفسك دون نائب أو وكيل لتأخذه وتلقـاه ..

هذا اليقين لن يجعلك تتثاقل عن الذهاب أو تنام قرير العين منتظراً أن تطرق النقود بابك .. بل ستحفزك إلى الحركة والسعي المشتاق إلى حيث ينتظرك المال .

إن هذه صورة مبسطة للموضوع ، فإيمانك بأن قدرك لن يخطئك .. وأن سعيك وعملك لإدراك هذا القدر محتومان حتمية القدر نفسه ، إيمانك هذا لن يثبط عزمك . بل سيملأ حركتك بالأمل ، ومسعاك بالشوق .

وهكذا تحل أحاديث الرسول أزمة الإنسان مع القدر .

[احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز] .

* * *

بعد ذلك تجيء ضمن أزمة الإنسان أفدح وأهم أنواعها — تلك هي أزمة سلوكه ..

ولسنا نعني السلوك بمعناه الوعظي . ولا بمعناه الأخلاقي المدرسي .. إنما نعني معناه الأعم والأرحب : نعني معناه الإنساني كله . الذي يمثل موقف الإنسان من كل علاقاته بنفسه . وبالحياة . وبالأحياء جميعاً :

فإذا كانت الحياة الإنسانية في كل جملتها لا يستقيم لها أمر إلا إذا استقامت علاقاتها التي تربط بين قواها المختلفة ووحداتها المتباينة ، فإن الفرد الإنساني كذلك لا تستقيم لحياته أمر ، ما لم يسر وفق دستور تلك العلاقات .

وعلى الرغم من أن العلاقات الإنسانية تمثل معراج التفوق الإنساني . فإنها في نفس الوقت تمثل لباب المعضلة وجوهر الأزمة ذلك أن كل زيف ينتابها يعكس نفسه فوراً على الحياة كلها وعلى من فيها ..

وذلك ثانياً ، أنها من صنع الناس . ومن ثمّ فهم يضمنونها من أهوائهم ومكرهم ما يبعدها عن السداد والصدق . وصحيح أن الإرادة الخيّرة للنوع الإنساني تنتصر كثيراً ، ولكنها مع الأسف — تنتصر أخيراً ، وبعد أن يكون الخطأ المتعمد قد أوقع أجيالا كثيرة في أخطبوط زائف يطوّق حياتهم .

إن نوع العلاقات الإنسانية ، وحظها من الصدق الموضوعي أو الزيف المتطفل يشكلان أخطر القوى العاملة في حيـاة السلوك الإنساني ـ رفعة وانحطاطاً .

والإنسان كنوع .. والإنسان كفرد .. كلاهما يشترك في ذات المصير الذي تفضي إليه تلك العلاقات، لأن كليهما يسير بنفس النهج وعلى نفس الطريق .

والعلاقات الإنسانية متنوعة ومتجددة ، وإن كانت القيم التي تبثهـا هي دائماً ثابتة وواحـدة .

وكثيراً ما تمد التقاليد في عمر نوع من العلاقات استنفد حق وجوده .. وعندئذ يتعرض السلوك الإنساني لبَلْبلة تبدّد الكثير من رَوِيَّته وسكينته ورُشْده .

من أجل ذلك ، فإن واجب كل رسالة كبرى يجيء لتصحح أوضاع الحياة ؛ ولتضع القافلة البشرية على طـريق الهدى والخير ـ إنما يبدأ باحترام ضرورة التغيّر والتطـور ..

وهكذا رأينا القرآن يشن حملات دائمـة على الذين كانوا يَخلدون إلى الأرض ، ويرفضون رؤية الجديد ويقولون :

« إنّا وَجَدْنا آباءنا على أمّة ، وإنّا على آثارِهِمْ مُقتدون » .

ولقد كان أقسى ماعاناه الرسول من تمرّد قريش راجعاً إلى عَضِّها بالنواجذ على علاقات زائفة تربطها بعقائد وأصنام وتقاليد لم يَعدْ لها في حياة الرشد مكان .

وقف الرسول عليه السلام يقول للمؤمنين :

« أبغض الناس إلى الله تعالى ثلاثة :

* مُلحد في الحرَم ..
* ومُبْتَغٍ في الاسلام سنة الجاهلية ..
* ومُطَّلبُ دم امرىء بغـير حق ليُهريق دمه .. »

إن الاسلام جاء ليعلن إنهاء الجاهلية وبزوغ مرحلة جديدة تستأنف بهـا

قوة الهدى والخير والتقدم طريقها .

فكل مبتغ في الإسلام سنة الجاهلية. إنما يزيف العلاقات الجديدة ويزوّرها.

وإنها للفتة تناهت في الذكاء والعظمة أن يضع الرسول هذا الذي يحاول أن يفرغ في الإسلام ظلمات الجاهلية وتقاليدها مع الملحد في الحرم والمطارد حياة بريئة ليزهقها .

فالشبه بين الثلاثة تام ومتكامل .

فالتشبث بإقحام تقاليد ضالة على منهج الهدى والرشد ، يشبه الإلحاد في الحرم . وأيضاً تتمثل فيه جريمة المطاردة الظالمة لأجيال بريئة بغية إزهاق حقها في حياة جديدة وهدى جديد ..

ويقول عليه السلام :

« من سكن البادية جفا .. ومن اتبع الصيد غفل » .

فحتى من الناحية الشكلية ، ينبغي أن تكون البيئة في المستوى الحضاري لتقدم الإنسان تحت لواء القيم الفاضلة التي تهدي خطاه .

* * *

إن علاقاتنا بالأشياء يجب أن تكون دائماً صادقة وصحيحة .

وهذه هي الخطوة الأولى في حل أزمة السلوك الإنساني وتناقضاته .

ومهما يكن من أمر تنوعها وتجددها ، فإن ثمة معياراً لا يخطىء يجب أن تناط دائماً إليه ـ ذلك هو الخير ..

إن تحقيق الخير العام ينبغي أن يكون غاية السعي البشري .

وكل فرد يصوغ أعماله وفق الخير ، ويملأ نفسه بحب الخير ، فذلك هو صاحب العلاقات الصادقة الصحيحة .

وهنا نسمع الرسول يقول سائلا أحد أصحابه :

« كيف أصبحت يا زيد ..؟

فيجيبه : أصبحتُ أحِبّ الخير وأهله ، وإن قدرت عليه بادرت إليه ، وإن فاتني حزنت عليه ، وحننت إليه ...

فيقول الرسول عليه السلام :

« تلك علامة الله فيمن يريد » ...

أجل ، إن هذا الطراز من الناس هو ما يحبه الله .

ــ الذين يحبون الخير وأهله ، فإذا أسعفتهم قدرتهم سارعوا إليه . وإذا قعد بهم ضعفهم حزنوا عليه ، واشتاقوا إليه .

هــذه أصدق سمات ذوي العلاقات الرشيدة بالحياة .

وإن طريق كل فرد إنساني يريد الغَلب على أزمة سلوكه لَيبدأ من هنا .. جعْل الخــير قِبْلَة أعمــاله .

وحتى إذا انتابه القصور والتقصير ، فإن الولاء المنطوي عليه قلبه للخــير سيجعله دائماً قريباً من السداد وعافية الضمير .

ويضرب الرسول أمثالا كثيرة لنماذج الخير كاشفاً بهــا عن النبض الانساني النبيل الذي يجعــل العمل خــيراً .

فلنأخذ منهــا هــذا المثال :

« بينما رجــل يمشي بطريق . اشتدّ عليه العطش فوجدَ بئراً ، فنزل فيها فشرب ، ثم خرج فإذا كلبٌ يلهث .. يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثلَ الذي كان قد بلغ مني ، فنزل البئر ، فملأ خُفَّه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رَقِيَ فسقى الكلب ، فشكر الله له ، وغفر له » .. !!

وهناك رواية أخرى للحديث تجعل بطل القصة بغيّاً .

فما هذا العمل الذي استأهل شكر الله ومغفرته . ؟

إنه عمل يسير وهين .. ولكنــه خير ..

وفي هذا المثال الذي يضربه الرسول للخير نجد كل خصائص الخير •• فيه روح النجدة التي لا تسأل : مَن ••؟ ولا ما الثمن •• وإنما تلبي نداء الواجب الذي لا يتمثل في كونه جليلا ، أو يسيراً ، وإنما يتمثل في كونه واجباً لا غير ••

حين يضع الناس علاقاتهم ببعضهم وبما حولهم على طريق الخير . فإن حظ هذه العلاقات من الصدق والصواب يظل وافياً •

إننا نعيش داخل حياة تعج بالضرورات وبالمغريات •

فهناك الثروة . والمنصب ، والجاه ••

هناك الفراغ •• وهناك العمل •

هناك الصحة •• وهناك المرض •

هناك الناس •• والأشياء ••

هناك النظم •• والتقاليد •• والقوانين ••

ثم هناك النفس برغباتها التي لا تقف عند حد •

وهناك العقل والغريزة في سباقهما الأبدي •

وإن علاقاتنا بكل هذه الأشياء هي التي تحدد نوع سلوكنا ونوع حياتنا •

وهنا نلتقي برسول الله يقول :

« نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحّة ، والفراغ • » •

هذا أول إخفاق وأخطره يواجه الإنسان في علاقاته بالحياة •• ألاّ يحسن استثمار صحته ، واستثمار فراغه •• أن يَغبن نفسه ، فيبعثر صحته في غير نفع •• ويبعثر فراغه في غير خير ، فتتحول حياته إلى صفقة خاسرة ••!

من أجل ذلك يوصي الرسول فيقول :

« خذ من شَبابك لهَرمك •• ومن غناك لفقرك •• ومن صحتك لِسُقْمك •• » •

فنوع علاقاتنا وارتباطنا بالصحة وبالفراغ ، بداية هامة لبناء الحياة •

وإن الوقت عند رسول الله ليتحول إلى صفقة رابحة إذا هو مُلِيءَ بأي

عمل نافع لصاحبه وللناس ــ من أكثر الأعمـال جلالا وخطراً ، إلى إماطة الأذى عن الطريق ، أو التبسم في وجـه صديق •

والعمل الإنساني عند الرسول يتمثل في جهاد دائم بالنفس وبالمال في سبيل الحق والخير •• فإن لم تكن ثمة قدرة على فعل الخير ، فلا أقل من تجنب الشرّ •

سأله أعرابي يوماً : يا رسول الله ، أيّ الناس خـير ••؟
فقال عليـه السلام :
« رجل جاهـد بنفسه ومـاله ••
ورجل في شِعب من الشعب يعبد ربه ويدَعُ الناس من شَرّه »•

فعلاقاتنا بالناس يجب أن تهـدف دائماً إلى إسداء الخير المستطاع لهم ، وتجنيبهم كل شـر من جانبنا •

وتنمو هـذه العلاقة إذا مَارستْ دورها في غير شعور بالاستعلاء على الآخرين الذين هم أقل توفيقاً وهُدًى •

ذلك لأن العلاقة إذا انتابها هـذا الشعور تحوّلت من غير أن يشعر صاحبها إلى شماتة وتعيير ، وهما الحالقتان اللتان تحلقان كل عمل صالح ، كما تحلـق الموسى الشعر ••

وهنا نسمع الرسول يقول :
« من عَيَّر أخاه بذنب ، لم يَمت حتى يعمله • » •
ويقول :
« لا تظهر الشماتة بأخيك ، فيرحمه الله ويبتليك » •

إن تقـدير الظروف التي تعمل في الآخرين وتسبّب ضعفهم ليست دلالة على فقه صاحبها وفطنته فحسب ••

بل ودلالة على أنه يحمل قلباً قد تفوّق على الزيغ والقساوة •
وتنمو هـذه العلاقة بين الانسان والناس ، بتنحية الفضول عنهـا ••

هـذا رسول الله يتحدث : ـ

« إنَّ من حُسْن إسلام المرء تركه ما لا يَعنيه » .

ويروي « أنس » رضي الله عنه هـذه الواقعة فيقول :

توفي رجل من الصحابة ، فقال رجـل : أبشر بالجنة ..

فقال له الرسول : « وما يدريك ..؟ لعلّه تكلم فيما لا يعنيه ، أو بخل بما لا ينقُصه » ..!!

إن الرسول لا يرفض هنا رجـاء البشرى لإنسان ميْت ، ولكنه ينتهز هذا الموقف الحاسم ليلقي هـذا التحذير الشديد من كل فضول شرّير .

على أن تركَ المرء ما لا يعنيه ، لا يعني أن يتخلّى عن واجبه تجـاه أخطاء الآخرين التي يستطيع تصحيحها .

فمن عناصر العلاقات الرشيدة بالناس وبالجماعة ، التّواصي بالحـق .

يقول عُبـادةُ بن الصامت :

« بايَعنا رسول الله ﷺ على أن نقول بالحق أينما كُنا ، لا نخاف في الله لَومة لائم » .

إن الرسول ليرى في هـذا التواصي شعيرة من شعائر الله وركنـاً تنهض فـوقه الحيـاة .

« والذي نفسي بيده لتأمُرنَّ بالمعروف ، ولَتنهونَّ عن المنكر ، أو ليوشكنَّ الله أن يبعث عليـكم عقـاباً منه ثم تدعونه فـلا يُستجاب لكم » .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد مظاهر التواصي بالحق وبالخـير .

وجَدْوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليست ماثلة في تقويم السلوك الإنساني وحسب .. بل هي ماثلة بصورة أهمّ وأجلّ في أنهما ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ خـير وسيلة للمحافظة على قيم الحيـاة نفسها وإبعاد الزيف والتحريف عنهـا .

من أجل ذلك كان تعظيم المعروف ، واستهجان المنكر فرض عين على كل فرد إنساني ـ حتى هذا الذي يعجز أحياناً عن فعل معروف .. ويعجز أحياناً عن تجنب إثم .. لأن هذا سبيل محتوم لكي يبقى للقيم الفاضلة سلطانها وصدقها .

★ ★ ★

وكل صنوف العلاقات ، إنما يحدد مصيرها علاقة المرء بنفسه .

هذه نقطة البدء تماماً .

وإنا لنلتقي بكثرة من أحاديث الرسول تقول للإنسان :

« عليك نفسَك » .

« ابدأ بنفسِك » .

ولكن ليست أزمة الإنسان في علاقته بنفسه أن يبدأ بها أو لا يبدأ .. فكل إنسان يعرف أنه لا بد أن يبدأ بنفسه .. إنما الأزمة هي نفسه ذاتها .

وأحاديث الرسول عليه السلام في هذا المجال تحدد لنا معالم الأزمة السلوكية للنفس الإنسانية .. حيث تتمثل في :

* الخَواء الذي يوحِشُها عندما تفقد إيمانها ..
* اليأس الذي يَنْهشُها عندما تفقد سلطانها على نزعاتها .
* التردِّي الذي يحيق بها عندما تبالغ في الفعل ، أو تبالغ في التَّرك . أي عندما تكون مُفْرِطة في الخير .. أو مُفَرِّطة فيه .
* الحرب الأهلية التي تعانيها حين يفقد العقل والغريزة السلام والتفاهم ، وتتحوَّل النفس بينهما إلى أرض قتال ..!!

★ ★ ★

فأما الخواء والفراغ ، فقد عولجت أزمة النفس الإنسانية منهما بالإيمان .

هذا الإيمان الذي يراه الرسول فطرة مستقرة في ضمير كل إنسان يولد .. والذي يملأ النفس بحلاوته أمناً ورجاء وقوة .

★ ★ ★

أما اليأس والقنوط ، فلا ينجبهما شيء مثل ما ينجبهما استحواذ الخطأ والرغبات الآثمة على النفس .

هنالك تفقد النفس سلطانها على أمرها ، وثقتها بقوتها .. ثم يضعف أو يزول أملها في النجاة .. وآنئذ تصاب بشر ما يمزقها .

والرسول عليه الصلاةو السلام ، يدرك تمام الادراك أي خطر ماحقٍ يلده اليأس ويدَمِّر به الأنفس .

وإن أحاديثه وتوجيهاته لتدحض كل استسلام لهذا الموقف .

وسبيله لهذا أن يذكّر النفس بأن الأمر كله لله .. وأن أبواب رحمته وفضله لا توصد أبداً ..!!

فلنصغ إلى حديثه هذا :

« يقول الله عز وجل : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد .. ومن جاءبالسيئة فجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مثلها أو أغفر » .

ثم يُحدث أحاديث مفيضة عن مغفرة الله ورحمته فيذكر الناس دائماًبأنها أوسعُ من ذنوبهم وأكبر من خطاياهم .

فذات يوم يبصر الرسول ومعه أصحابه ، أمّاً قد ضمّت طفلها إلى صدرها في رفق وحب ورحمة .. فيسأل أصحابه :

« أترون هذه طارحة ولَدها في النار ..؟

فيجيبون : لا ، والله .

« فيقول عليه السلام : اللهُ أرحم بعباده من هذه بولدها » .

ويمعن الرسول فيإقناع النفس برحمة الله الواسعة .. ويضرب لها مثلا حسابياً فيقول :

« إن لله تعالى مائة رحمة أنزَلَ منها رحمة واحدة ــ بين الجن والإنس ، والبهائم ، والهوام ــ فيها يتعاطفون ، وبها يتراحمون ،

وبها تعطف الوحش على ولدها ، • وأخَّر الله تسعاً وتسعين رحمة يرحم بهـا عبـاده يوم القيامة » •

هذا هو المثل البليغ الذي يصور به الرسول رحمة الله سبحانه

فلو افترضنا أن رحمة الله مائة جزء فإن كل مظاهر الرحمة في الأرض إنما هي جزء واحد • وثمة تسعة وتسعون جزءاً يرحم الله بها عباده ، ويضمد بها جراحهم •

وهذه لوحة أخرى يتضمنها الرسول صورة عذبة باهرة لرحمة الله •

« يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه فيقول : أتعرف ذنب كذا ••؟ أتعرف ذنب كذا••؟ فيقول : رب أعرف ، فيقول الله له : فإني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم • ويعطى صحيفة حسناته » •

* * *

في واحة من الأحاديث ، رحبة مزهرة كورد الربيع ــ صور الرسول رحمة ربه وأفاض في وصفها ، قائلا للنفس البشرية لا تقنطي من رحمة الله • ولا تفقدي أبداً يقينك بقدرته على انتشالك من الوحل ، وتطهيرك من الإثم ، وإلباسك لباس التقوى • وتتويجك بالرحمة والمغفرة والمثوبة •

وصحيح أن الرسول خوّف النفس الآثمة من عذاب الله •••

وكان لا بد أن يفعل •• فليست أزمة النفس ولا مأزق الحياة في أنّ للشر عقاباً •• بل تكون الأزمة والمأزق لو لم يكن ثمة طـريق للعودة إلى الخير وإلى الرحمة مفتوح على أوسعه أمـام النفس •

وإن الرسول ليؤكد وجود هـذا الطريق •• يؤكد أن الله أكثر شوقاً إلى عبـاده الذين أبعدتهم الخطيئة عن رحابه وأنه يبسط إليهم يمينه ــ وكلتا يديه يمين ــ ويدعوهم إليه •

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » •

صورة حلوة لحنان الله وحرصه على عبـاده .

ويحكي الرسول عن الله عز وجل هـذا الحديث :

« يقول الله تعالى : يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي » ...

فمن حيث علاقة النفس بالله حين يغلبها على أمرها أي خطأ أخلاقي ، يفسح الرسول دائرة الأمـل في الخلاص فيخبر أن العثرات والأخطاء ليست الحساب الختامي لرصيد سلوكنا .. بل إن المستقبل مليء بفرص الخير .. وليست العبرة بالبدايات وحدها .. بل وبالنهايات قبلا . وهنا يقول عليه السلام :

« إنما الأعمـال بخواتيمها » .

* * *

بيد أن الرسول لا يكتفي بهذا في طمأنة النفس ودعم ثقتها بذاتها ومعاونتها على تخطي اليأس الناجم عـن تورطها في الخطأ .. بل إنه ليسلك لهذه الغـاية الكريمة سبيلا أخرى .

وسبيله هذه المرة أن يضع الأخطـاء الأخلاقية في مكانها الصحيح .. فهي ليست القوى الماردة التي تصرع الإنسان نهائياً .. بل هي إفراز طبيعي للنشاط النفسي .. يشبه تماماً الإفراز الطبيعي لنشاطنا الفسيولوجي .

وكل إنسان عرضة لأن يأثم ويخطىء ..

والذين لا يأثمون ولا يخطئون قط هم الموتى وحـدهم ، لسبب يسير ، هو أنهم لا يتحركون .

ويوضح الرسول هذا المعنى ويوكده توكيداً يكشف عن إدراكه للأهمية القصوى التي يرتبها على اقتناع الناس به .

فيقول عليه السلام :

« والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، وجـاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله تعالى ، فيغفر لهم » ..

بَداهة . وأكثر من البداهة ، أن الرسول لا يريد أن يَحضَّ الناس بهـذا على أن يجعلوا ارتكاب الذنوب ضمن هواياتهم ..!!

إنما هو يكشف عن حقيقة حيَّة ، هي أن الناس لا ينبغي أن يضيفوا إلى أخطائهم ، اليأس من محو هذه الأخطاء .. ولا اليأس من رحمة الله وقدرته على تبـديل سيئاتهم حسنات .

ويزيد الرسول الأمر وضوحاً حينما ينظر إلى الخطأ ، كفرصة يتيح لصاحبه إذا هو تفوق عليه ، تجربة غنية بالموعظة والنفع ، فيقول عليه السلام في حكمـة بالغـة ومشْرقة :

« لا حليمَ إلا ذو عَثْرة .. ولا حكيم إلا ذو تجربة » .

بهذا تُحل نصف الأزمة .. أزمة النفس في مجال السلوك الإنساني .

وبهذا يهيئها الرسول عليه السلام للعمل الصالح ، وهنا يجيء دور الآفتين : الثالثة والرابعة اللتين أشرنا إليهما من قريب .

وهما المبالغة في العمل .. أو المبالغة في ترك العمل .. والصراع بين العقـل والغريزة صراعاً يشعل في النفس حرباً أهليـة .

وهاتان الآفتان وثيقتا الصلة ، حتى لكأنهما آفـة واحدة ، وهما يُشكلان نصف الأزمة .. وما كان الرسول عنهما غافلا .

فهو ـــ عليه السلام ـــ في ضوء تقديره للطبيعة الإنسانية ولضعفها ، يدرك أن الاعتدال في الطاعة لا يقل أهمية عن الطـاعة نفسها .

وهو يعاون النفس البشرية على تخطي أزْمتها ، فيدعوها لترك التطرف في العمـل ، حتى حين يكون هـذا العمل عبادة .

« إن هـذا الدين متين ، فأوغِلْ فيه برفق ؛ فإن المنبَتَّ لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى » .

« إن هـذا الدين يُسر .. ولن يُشادَّ الدين أحد إلا غلبه ..

فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا •• » •

إن الإيغال في العبادة ذاتها في غير أناةٍ وقصد قد يبعث في النفس الملل •
والعمل حين يشوبه الملل يفقد الكثير من بهـائه ونشاطه •
من أجل هـذا يقول ، عليه السلام :

« عليكم من الأعمال ما تطيقون : فإن الله لا يملّ حتى تملوا » •

والتطرف في العمل يملؤ النفس بالإرهاق الذي يجعل العمل يضطرب بين يديها ويتلعثم ، ويأتي على غـير وجهه السديد •

وهنا ، ومن أجل هـذا يزجر الرسول عن التطرف وينهى حتى لو يكون العمـل صلاة •

« إذا نَعَس أحدكم وهو يصلي ، فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري ، لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه » •

وحين يرى رجل قد صام وهو مسافر يأمره أن يفطر ويقول :

« إنه ليس من البرّ أن تصوموا في السفر ، وعليكم برخصة الله عزّ وجل التي رخص لكم فاقبلوها » •

لعل أحداً ، لا يتصور أن يذود رسولٌ عن العبادة إذا أوغلوا فيها وبالغوا في المزيد منهـا •

بيد أن الرسول محمداً عليه السلام خبير ــ وأي خبير ــ بالطبيعة البشرية وباحتياجاتها ، وبحقها الكامل في الرّوْح والراحـة •

وهكذا نسمعه يقـول :

« إن لربك عليك حقاً ، وإن لنفسك عليك حقا » •

وهو لا يرسل هذه التوجيهات إرسالا عابراً •• بل هو يعنيها ، ويعني أن يصوغ بهـا ومنها قانون العمل والعبادة •

ولا يتسامح مع أي عابد أو عامل يجعل المبالغة أسلوب عمله وعبادته .
ولنصغ إلى « أنس » رضي الله عنه يروي هذا النبأ .

« جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النبي ﷺ يسألون عن عبادته .
فلما أخبروا ، كأنهم تقالوها وقالوا : أين نحن من النبي ﷺ
وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ..
قال أحدهم : أما أنا ، فأصلي الليل أبدا ..
وقال آخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ..
وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ..
فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال :
أنتم الذين قلتم كذا ، وكذا ..
أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد .. وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .

* * *

إن العقل والغريزة . بل إن الطبيعة الإنسانية ، بكل احتياجاتها وخصائصها لتبلغ في هذه التعاليم الرشيدة تكاملها .

وإن الرسول ليوفق بين كل مطالب النفس توفيقاً عادلا وحصيفاً ..
وطالما كان يقول لأصحابه : « ساعة .. وساعة » ..!!
أي أعطوا أنفسكم حقها في العمل وحقها في المرح .
اعملوا في غير مشقة ، وامرحوا في غير تبذل .

والرسول عليه السلام يعلم أن الإنسان روح وجسد .. نور وطين .. وتلك هي أزمة الإنسان الكبرى ــ اصطراع الخير والشر ، في داخله ، والسباق العاصف بين قوى الروح وقوى الجسد .

يرسم الرسول لهذا الصراع صورة ، هذا معناها :
« ما منكم أحد يصبح إلا ومعه ملك يناديه : يا عبد الله هلم إلى الخير .. وشيطان يناديه ، بل هلم إلى الشر » .

وإن التركيب النفسي والجسدي للانسان ليجعل الخطأ الأخلاقي إفرازاً حتمياً لا مهرب منه ولا مَفر .

إن الاستقامة الكاملة المطلقة ليست من حظ البشر بحال .

وهكذا يقول الرسول :

« استقيموا ، ولَن تُحصُوا » ...

ولم يطمع الرسول أبداً . أن يتجنب الناس الخطأ بصورة تامة ..

إنما أراد لهم ألاّ يُصرّوا على الخطأ .

فالإصرار على الخطأ ، وليسَ الخطأ ذاته : هو آفة الانسان .

ويرى الرسول أن قوى الروح غالبة مهما يكن تمرّد النفس وثورة الجسد .

يقول « أنس » : ـــ

« كنت عند النبي ﷺ . فجاءه رجل . فقال : يا رسول الله إني أصبتُ حداً فأقمه عليّ . ولم يسأله ، وحضرَت الصلاة فصلى النبي ﷺ . فلما قضى النبي الصلاة . قام إليه الرجل ، فقال : يا رسول الله : إني أصبت حداً . فأقم فيّ كتاب الله تعالى ، فسأله الرسول : أليس قد صليت معنا ؟ قال : نعم .. قال : اذهب فإن الله قد غفر لك ذنبك » .

في هذا الأسلوب من معالجة النفس ومقاومة الإثم . يُشير الرسول إلى عامل هام من عوامل التفوّق الخلقي ، هو ألا نقضي العمر في اجترار الندم الذي يُولد اليأس ، بل علينا أن نضاعف من حسناتنا وأن ننمّي فضائلنا ثم نَدعها هي حين تنمو وتتكاثر تغطي أخطاءنا . وتلاشيها .

ليس الإنسان المستقيم عند رسول الله ، من لا خسائر له ..

بل هو الذي تفوق أرباحُه خسائرَه ..

هو الذي ترجَحُ فضائلهُ أخطاءَه ..

وإن هذه النظرة لتتشكل وتتجسد في الميزان الذي يحدث عنه الرسول كأداة لفحص الأعمال وتقييمها ..

فطالما كان عليه السلام يذكر الناس بأن نجاتهم معقودة برجحان حسناتهم على سيئاتهم ..

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها :

« قعد رجل بين يدي رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنَّ لي مملوكين يَكْذبونني ، ويخونونني ، ويعصونني — وأشتمهم وأضربهم ، فكيف أنا منهم ..؟

فقال له الرسول : يُحسَبُ ما خانوك ، وعَصَوْكَ وكذَبوك ويُحسبُ عقابك إياهم .. فإن كان بقدر ذنوبهم كان كفافاً ، لا لكَ ولا عليك .. وإن كان دون ذنوبهم ، كان فضلا لك .. وإن كان فوق ذنوبهم اقْتُصَّ لهم منك ..

قالت عائشة : فتنحَّى الرجل فجعل يبكي ويهتف ، فقال رسول الله ﷺ : أما تقرأ كتاب الله تعالى :« ونَضَعُ الموازينَ القِسْطَ لِيَومِ القِيامةِ . فلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً . وإنْ كان مِثْقالَ حبةٍ من خَرْدَلٍ أتَينا بها ، وكفَى بنا حاسبين » .

فقال الرجل : والله يا رسول الله ما أجِدُ لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم ، أشهدك أنهم أحرار » ..

إن التحليل النهائي لفكرة الميزان وصورته ، ترسم الموقف الممتلىء فطنة ورحمة وسمواً ، الذي وقفه الرسول من الطبيعة الإنسانية مقدراً تناقضاتها الهائلة، وداعياً الناس كما أسلَفنا ألا يبنوا تفوقهم الأخلاقي على أنقاض معركة خاسرة يحاولون بها مَحْو طبائعهم .

بل أن يجعلوا سبيلهم لهذا التفوق تنمية ما معهم من فضائل ، حتى تكون حسناتهم أرْبى من سيئاتهم ونَفْعهم أكثر من إثمهم، وحتى تكون بواعث التفوّق

لديْهم أسبق وأشدّ من نوازع التخلف والهُبوط •• على أن تسير إلى جانب هذا محاولتهم المعتدلة للجنوح عن الإثم •

وهنا يقـول الرسول :

« وأتْبِـع السَّيئةَ الحسَنة تمحُها » •

* * *

وفي توجيهات الرسول بشأن أزمة السلوك هـذه •• نجـده عليه السلام يعطي أهمية بالغـة لمبدأ : ــ الوقاية خير من العلاج ــ •

وكلمة الوقاية ، هي في الاصطلاح الديني التقوى •

ويرى الرسول عليه السلام أن الوقاية ، أو التقوى خير سبيل لِتفادي كل أزمات السلوك الإنساني ومآزِقه •

ولكن كيف تكون هذه الوقاية ، أو هذه التقوى ••؟ هنا نجد الرسول يقول :

« لا يبلـغ العبـد درجة المتقين حتى يدَعَ ما لا بأسَ بهِ ، حـذراً مما به بأس » •

إذا كانت أولى مراحل التقوى والوقاية ، تبدأ من ترك ما به بأس •• فإن تمام هذه التقوى وقمّتها يتمثلان في ترْك ما لا بأس به ، إذا كان ثمة احتمالُ مَظنة إفضائه إلى ما به بأس ••

أي أن يترك الإنسان أحياناً ما أحلّ له فعلُه ، حذراً مما حُرّم عليه فِعْله •

والرسول عليه السلام يبني قاعدته هذه في التقوى على مبدأ « سيكلوجي » سليم فيقول :

[من حَام حَوْل الحِمَى ، يُوشك أن يقـع فيه] •

ويزيد المعنى وضوحاً فيقول :

« الحلال بَيِّنٌ • والحرام بَيِّن ، وبينهما أمور مشتبهة فمن تَرك ما شُبّه عليـه من الإثم كان لما استبان أتْرك ، ومن اجْترأ على

ما يشك فيه من الإثم ، أوشَكَ أن يُواقع ما استبان .
ألا وإن حِمَى الله ما حَرَّم ، ومَن يرتَع حول الحمى يُوشِك
أن يُواقِعَه » ...

فأخذ زمام النفس ـ ولكن في غير قَسْر ـ بعيداً عن مزالق الطريق خير سبيل لنجاتها .

ولكن كيف تتبين ما ليس به بأس ، مما به بأس ..؟
هنا يضع الرسول قاعدة عامة ومعياراً لا يخطىء ، فيقول :
« البرّ ما اطمأنَّتْ إليه النفس .
والإثم ما حاك في صدرك ، وخشيتَ أن يطلع عليه الناس » .

وبعد .. فنستطيع الآن أن نبصر خطوات تربية النفس وتجنيبها أزمةَ السلوك مُلخَّصة في هذا الحديث :
« اتَّقِ الله حيثما كنت ...
وأتْبِعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها ..
وخالِقِ الناس بخُلق حسَن » ..



الفصل الرابع

.. عن فضائل الحياة

عن فضائل الحياة ، تحدث « ابن عبد الله » أروع حديث ..

والحياة عنده ــ عليه السلام ــ لا تنفصل عن الأحياء فهي منهم وإليهم ..

وللحياة الإنسانية قواعدها وفضائلها التي إذا أخذت فرصتها ساعدت البشر على أن يكونوا صالحين ، خيِّرين ، سعداء .

ولفضائل الحياة قدَاستها التي توازي أهميتها البالغة .

ورعاية هذه الفضائل وتنميتها من أعظم أعمال الإنسان وأحقها بالمثوبة .

كما أن الإساءة إليها ، إساءة إلى الحياة كلها .

وكل محاولة لتزييف هذه الفضائل ، جناية ترتكب لا ضدّ جيل ، أو جيلين ، أو ثلاثة .. بل ضد الحياة في مداها البعيد .

من أجل هذا يبدأ الرسول فيضع هذه القاعدة :

« مَن سَنّ سُنَّةً حسنَةً ، فله أجرُها وأجر مَن عمل بها إلى يوم القيامة » ...

إن هذا الحديث نَصّ مُباشر في وجوب رعاية فضائل الحياة وفي التحذير من تحريفها .

وهذا طبيعي من رسولٍ جاء يسمو بالحياة ، كما أنه إدراكٌ سديد لقيمة الحياة ودوْرها .

لقد وُجدت الحياة قبل الإنسان ، فهو ضيف طارىء عليها .. وهي أبقى منه . فليس من حقه أن يسيء إليها .. بل إن واجبه ألا تظلَّ كيوم جاءها ووفد عليها .. بل لا بد من أن يضيف إليها الكثير من الخير والجمال .. فهـذا هو دوْره ، ومن أجل ذلك جـاء ..

وإن ما يُسمى بالحياة الإنسانية ، ليمثل الطوْر الأرقى في مسيرة الحياة على الأرض ، فكل إساءة لفضائل الحياة الإنسانية ، هدم لروح الرقيّ في الحياة كلها .

من أجل ذلك ، ليس من حق إنسانٍ ما قعد به ضعفه عن اللحاق ببعض تلك الفضائل أن يُهوِّن من شأنها ، وأن يعطي للناس مبرِّرات تركها والتخلي عنها ، حتى يصبحوا وإياه سواء ، وحتى لا يُفْضحي عجزه عن إدراكها مأخذاً عليـه . بل إنَّ واجبه ألا يُضيف إلى خطيئة عجزه خطيئة جحوده. واجبه أن يرفع الصوت عالياً بقيمة هذه الفضائل وحَتْميتها وتقديسها،وإن خانه التوفيق في إدراك بعضها.

ذلك أن فضائل الحياة ليست ــ كما قلنـا ــ مِلكاً لجيل ، بل هي ملك للحيـاة جميعها .

حتى لو قصَّر جيل بأسره في تحقيق هذه الفضائل أو بعضها ، فإن بقـاء احترامه لها وشعوره بقداستها ، يُبقي لها أهميتها اللازمة للأجيال المقبلة .

ولنضْرب لهـذا مثلا ..

إن سكان الأرض اليوم يقاربون ثلاثة آلاف مليون نسمة إلا قليلا .

أرأيتم هذه الأعداد الهائلة ..؟ ثلاثة آلاف مليون نسمة تقريباً ..؟!

بعد مائة عام لا غير .. لنْ يكون على ظهر الأرض أحد من هـذه الثلاثة آلاف مليون ..!! سيكوْن الموت قد طواهم جميعاً ..!!

وخلال مائة سنة تالية ستعيش ثلاثة أو أربعة آلاف مليون أخرى ، وعنـد منتهى تلك المائة الثانية .. ستكون تلك الأعداد الهائلة قد اختفت هي الأخرى .. وهكذا يقوم الزحام وينفضّ .. بينما الحياة ماضية باقية ..!! فكلما بقيت لهـا فضائلها ونَمَتْ ، كان ذلك خيراً للأحياء الوافدين جميعاً ..!!

وكل دَعْم لفضائل الحيــاة ليس دعماً لهــا في زمان بعينه ، ولا في جيل بذاته .. بل هو دَعْم لها ما بقيت الحياة على وجه الأرض .. ومَثوبة هــذا الدَّعْم تلاحق صاحبها ما بقيت الحياة على وجــه الأرض .

والآن ، لنقرأ حديث الرسول مرة أخرى .

« مَن سَنَّ سُنَّة حسنة ، فله أجرها وأجر مَن عمل بهــا إلى يوم القيــامة ..

ومَن سَنَّ سنة سيئة ، فعليه وزرها وَوِزْرُ مَن عمــل بهــا إلى يوم القيــامة » .. !!

وحديث آخر يُصور أبلغ تصوير إيمان الرسول عليه السلام بمسئولية كل فرد عن قوانين الحيــاة وفضائلها :

« ليس من نفس تُقْتَل ظُلْماً إلا كان على ابن آدم الأوَّل كِفْلٌ من دَمِها ، لأنه كان أول من سَنَّ القتل » .

ولقد تعلم الرسول هــذا الدرس العظيم من القرآن حين قال له :

« مَن قتَل نفساً بغير نفسٍ ، أو فسادٍ في الأرض ، فكأنَّما قتَلَ الناسَ جميعاً .. ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً » .

إن فضائل الحياة مثل أحيائها تماماً .. فمن زيَّف فضيلة من فضائله فكأنما زيف الحياة جميعاً .

* * *

وقول الرسول عليه السلام « من سن سنة حسنة فلهُ أجرها » إلى آخــر الحديث .. قوله هذا يشير إلى أن تنمية فضائل الحياة .. جزء هام من عمليــة رعايتها وتطبيقها .. شريطة أن تكون هذه التنمية امتداداً ، وانتشاراً لخصائص الفضائل ذاتهــا .

وهــذه هي ما عبَّر الرسول عنها بأنهــا « سنَّة حسنة » ..

فإذا كانت التنمية مَسْخاً لخصائص الفضائل وانحرافاً عن جوهرها فتلك هي « السنة السيئة » ..

ولئِن كانت فضائل الحيـاة تصان بالعمل الذي يعطي القدوة .. فإنهـا كذلك تصان بالقول الذي يحفظ الحُرْمَة ..

فواجب كل إنسان أن يدعو ــ كما ذكرنا من قبـل ــ إلى احترام فضائل الحيـاة حتى حين يتخلف عن بعضها .

وهنـا نسمع الرسول يقول :

« بلّغوا عني ولو آية .. فرُبَّ مُبَلَّغ هـو أوْعى من سامع ، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

إن العمل في سبيل إدراك الفضائل سيتفاوت حتماً بين الناس : ولكن إطراء هذه الفضائل يجب أن يجيء بالإجماع ؛ ليبقى للحياة الإنسانية ضميرها وروحها .

وإن الرسول يشجعنا على انتهاج هذا المسلك بكل صدْقِه ومَبشِّراته .

فذات يوم سأله أحد أصحابه في أسىً قائلا : ــ

يا رسول الله : الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم ..؟؟

فأجابه الرسول ــ عليه السلام ــ قائلا :

« المرءُ مَع مَن أحَبّ » ..

أجل ، إن المرء مع من يُحب ، ومع ما يُحب .. فحبك الخـير ، وحبك الفضائل .. حتى في حالات ضعفك يجعل لك في القافلة المباركة مكاناً .

ويضرب الرسول لهـذه الحقيقة مثلا باهراً فيصور لنا جماعة جلسوا في مسجد يعبدون الله ، ويذكرونه ..

وهناك في أقصى المسجد ، قعـد رجل وحده ، لم يأخذ مكانه بينهم عابداً وذاكراً ..

وتمر ملائكة الرحمة بهذه الجماعة العابِدَة ، فتباركها .. ثم تلقي نظـرة

على ذلك الجالس بعيداً •• ثم يقول بعض الملائكة لبعض فلنباركه أيضاً ، فهؤلاء القوم لا يشقى جليسهم ، أو حسب نَصّ الحديث النبوي •

« هم القـوم ، لا يَشْقَى جليسهم » •••!!!

إنها صورة رائعة تبين أن لعلاقاتنا النفسية بالخير وبالفضيلة قدرها وثوابها •

* * *

وفضائل الحياة ــ كما يراها الرسول ــ تتمثل في كل قيم الخير والحـق والجمال •• تتمثل في كل ما أمـر الله به أن يوصَل ••

وسيكون حسبنا أن نعرض نموذجاً لأمهات هـذه الفضائل التي تشكّلُ روح الحياة وضميرها •

وأول ما نلقـاه في هـذا النموذج ــ الحب ••

* الحب ••

إنه ليقف على رأس فضائل الحياة ويعبد الطريق أمام كل قوى الخير فيهـا ــ وفي حَضّ الرسول على الحب ، وتوصياته بشأنه يبدأ بتطهير مَنابِعه ــ وذلك بأن ينحّي عنه كل دواعي الوصولية والغرض •• أجل ليس الحب عند الرسول « اتفاقاً تجارياً » بين تاجرين •• بل « ميثاقاً » بين روحين •• ولكي يأتي الحب من منابعه الطاهرة ••ثم لكي يبقى وينتصر على معوقاته لا بد أن يتجرّد من كل غرض زائل ، ومنفعة رخيصة •• وذلك بأن يكون خالصاً صافياً متفوقاً •• وذلك ــ مرة أخرى ــ بأن يكون لله رب العالمين •

الحب بهذه المثابة يقف في المكان الأول من صف فضائل الحياة جميعها •

ها هو ذا الرسول يتحدث :

« أفضلُ الأعمال : الحبّ في الله ، والبغض في الله » ••

ويقول أيضاً عليه السلام :

« يقـول الله تبارك وتعـالى : وَجبت محبتّي للمتحابّين فيَّ ، والمتجالسين فيّ ، والمتزاوِرِين فيَّ •• » •

ويرتفع الحب إلى مستوى أصبح به طريقاً إلى الإيمان وذلك حين يقول الرسول:

« والذي نفسي بيده . لا تدخلوا الجنـة حتى تؤمِنوا .. ولا تؤمنوا حتى تَحابّوا .. » .

وإذا كانت الصلاة والصيام يمثلان عند الرسول أهم وأجلّ أركان الدين ؛ فإنه ليرفع إلى مستواهما كل عمـل من شأنه أن يُرعْرِع فرص الحب ؛ ويضيق شقة الخلاف بين الناس . فيقول عليه السلام :

« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة ، والصيام ، والصدقة ..؟؟
قالوا : بلى يا رسول الله .. قال : إصلاحُ ذات البيْن .. » .

وإيمان الرسول بالحب ، جعـله يتتبع كل عمل يسهم في إيناعه وإنمائه ، فيجعل منه شعيرة وعبادة وقرْبى ـ مهما يكن هذا العمل يسيراً وعابراً .

فالرسول يريد للحب أن يعلن عن نفسه ، وألا يظل مخبوءاً تحت الجوانح .
يقول عليه السلام :

« إذا أحبَّ أحدكم أخاه فليخبره أنه يحبه » .

والرسول يريد للحب أن يدْعم وجُوده ، فلا يقوم بين الناس من بعيد ..

« إذا آخى الرجلُ الرجلَ فليسأله عن اسمه واسم أبيه وممن هو ، فإنه أوصَلُ للمودة » ..

وإذا كانت كل علاقة بين اثنين عرضة للتغييرات الطارئة والخلافات العابرة ، فإن الرسول عليه السلام لا يريد أن يسمح لهذه الخلافات بمجاوزة قَدْرها .. لا يسمح لها بأن تتحول قط إلى خصومة وقطيعة ـ من أجل ذلك نجده يَحرمها عامل الزمن الذي تسعى الخلافات للإفادة منه في دَعْم نفسها . فيجعل الرسول الأيام الثلاثة أقصى أمدٍ مسموح به لبقـاء الخلاف .

« لا يَحِـلّ لمسلم أن يهجُر أخـاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان ؛ فيعرض هذا ، ويعرض هذا ـ وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » .

أجَل .. لا ينبغي أن يزيد الهجر ــ إن وقع ــ عن ثلاث ؛ حتى لا تتعرض العلاقات الحبيبة للصدأ . فإذا هي استطاعت ، فالإثم كبــير .

يقول عليــه السلام :

« من هجرَ أخاه سنَة ، فهو كسَفْكِ دَمِه » ..!!

ولكي تبقى المحبة ريّانة نامية ، يُعنَى الرسول بتنحية كل أسباب السُّوء عنها ، فسوء الظن ، والتطفل والحسد ، ــ وكل هــذه الآفات تعوق نمو المحبة وتتحدّى بهاءها ، وإذن فليزْجر عنها الرسول زجراً شديداً .

« إياكم والظن ؛ فإن الظن أكْذب الحديث .. ولا تحسَّسوا .. ولا تجسَّسوا .. ولا تنــافَسُوا .. ولا تحاسَــدوا .. ولا تباغَضُوا .. ولا تدابروا .. وكونوا عِباد الله إخــواناً » .

وإنه عليه السلام ليزدري كل وشاية تَنال من حُب امرىء لأخيه .

ولقد كان يضرب بنفسه المثَل والقدوة . فيقول للناس :

« لا تُبلغوني عن أصحابي شــيئاً فإني أحب أن أخــرج إليكم منشرح الصــدر » ..!!

وهو يصون الحب الذي يجب أن يكون جوهر العلاقات الإنسانية كلها ، من الفُضول الشَّديد الذي يُؤذي الناس ويدمر رُوح الثقة : ها هو ذا يقول :

« يا معشر من أسلم بلسانه ولم يُفْض الإيمان إلى قلبه . لا تُؤذوا المسلمين ، ولا تُعيِّروهم ، ولا تتبعوا عَوراتهم ؛ فإن من تتبــع عــورة أخيه المسلم تتبَّع الله عورته ومَن يَتَتَبَّع الله عَورته يفْضحه ولو في جَوْف رَحْله » ..

ويقول عليه السلام :

«إنك إن اتبعت عوراتِ المسلمين أفسدتهم أو كدتَ تفسدهم »..

إن الرسول ليدفع بعيداً ، بعيداً ، كل مَظانّ الإساءة إلى رابطة الصداقة والحب .

فلنقرأ هـذا الحديث الذي لا يحتـاج إلى تعليق :

« إذا كانوا ثلاثـة ، فلا يتناجَى اثنان دون الثالث ؛ فإن ذلك يحـزنه » ••!!!

ويتتبع الرسول هـذه الدقائق في فطنة عظيمة فيقول :

« لا يحلّ لرجل أن يجلس بين اثنين إلا بإذنهما » •

ويقـول :

« تصافحوا ، يذهب الغل••وتهادوا، تحابوا، وتذهب الشَّحناء »••

وهو لا يدع أي فراغ ينفذ منه الهجر أو السَّأم إلى هذه الرابطة الجليلة بين الناس ، ولايترك الأخـوة والمحبة عرضة للذبول •• بل يجعلهما دائماً مَصباً للاهتمامات الإنسانية النبيـلة ••

حتى عطاس الإنسان يتخذ الرسول منه فرصة طيبة لإنعاش عاطفة الإخـاء وإرْواء فضيلة الحبّ ••!!

« إذا عطس أحدكم فحمد الله فشمِّتوه ، وقولوا يرحمك الله » •

واللقـاء العابر في الطريق فرصة للشدِّ على اليدَيْن •• فرصة للمصافَحة التي تنقل عن طريق الرَّاحَة المصافِحة حنان القلب وولاء الروح •

وإن الرسول ليجعل المصافحة هـذه شعيرة وعبـادة •

« ما مِن مُسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غُفر لهما قبل أن يتفرقا »•

وزيارة المعافَى وعيـادة المريض من الفرص الخيِّرة التي تتيح لمسئوليات الحبّ أن ترتفع إلى مستواه •

وهنا يقول الرسول :

« من عاد مريضاً ، أو أخاً له في الله تعالى ، ناداه منادٍ أن طِبْتَ وطاب مَمشاك ، وتبوَّأتَ من الجنة منزلا » ••

ولكي يكون الحب طبيعياً وسوياً ، فإنه لا ينبغي له أن يتخطى حقوق الأهل

والجيرة فيه .. بل لا بد أن يبدأ بهؤلاء ، فيعطيهم حقهم كاملا غير منقوص .

« خيرُكم خيرُكم لأهله . وأنا خيرُكم لأهلي » .

« خير الأصحاب عند الله خيرُهم لصاحبه .. وخيرهم عند الله خيرهم لجاره » .

« ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره » .

والحب لدى الرسول . أسمى من أن يكون وسيلة للمحاباة .

فليس معنى الحب أن تحابي من تحب مُحاباة يدفع العدل والحق ثمنها ... فآنئذ يتحول الحب إلى أنانية وجوْر ..

وحين نواجه هذه الحقيقة في تعاليم الرسول عليه السلام فإننا نلقاها في قدوته وسلوكه العظيم .

ولنقرأ هذا النبأ أولا .. وهو نبأ يحكيه الإمام علي كرّم الله وجهه محدثاً به أحد الصحابة :

ــ « ألا أحدثك عني وعن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وكانت من أحب أهله إليه ..؟ قلت بلى ..

قال : إنها جرّت ، بالرّحا ، حتى أثرت في يدها .. واستقتْ بالقربة ، حتى أثرت في نحرها .. وكنست البيت ، حتى اغبرّت ثيابها .. فأتِيَ النبي ﷺ بخدم ، فقلت لها : لو أتيت أباك فسألته خادماً ..؟ فأتته ، فوجدت عنده شغلا فرجعت ، فأتاها من الغد ، فقال : ما كان حاجتك ..؟ فسكتت .. فقلت : أنا أحدثك يا رسول الله : إنها جرّت بالرّحا ، حتى أثرت في يدها .. وحملت بالقربة ، حتى أثرت في نَحرها ..

فلما أن جاء الخدم أمرتها أن تأتيك تستخدمك خادماً يقيها حرّ ما هي فيه ..

فقال الرسول لابنته : اتقي الله يا فاطمة ، وأدّي فريضة ربك ،

واعملي عمــل أهلك •• » •••!!

هنا كانت المحاباة حقاً لا جوْراً •• بل هي حــق وليست محاباة أبدا ••

ففاطمة رضي الله عنها ــ لم تطلب لنفسها بِدْعاً من دون الناس •• وإنمــا طلبت ما هو حــق للناس جميعاً •

وفاطمة ــ كانت ملءِ قلب أبيها ، فلم يحب الرسول أحد من البشر كما أحب ابنته العظيمة البَتُول فاطمة عليها السلام ••

وعلى الرغم من أن فاطمة طالبت بحق ، إلا أن الرسول كان قد انتهج لنفسه ولأهل بيته مبدأ فحواه أن يكون وآلُ بيته آخرَ من يظفرون بعطايا الدنيا حين تجود الدنيا على المسلمين ببعض عطاياها •• وأن يكون وأهل بيته ، أولَ الجياع إذا جاع الناس •• وآخر من يشبع إذا شبع الناس •••!!

فلما ذهبت أحب الناس إليه ترجــو خادماً ، كان لا يزال في ضعاف الناس من لم يظفر بعدُ بخــادم •

وإذن فإن دَوْر فاطمة لم يأت بعد •• وقد لا يجيء أبداً •••!!

وحين التَقى وجهــاً لوجه ــ حبه ومبدؤه ، لم يصطدما ، بل حلّقا معــاً كجَناحيْ مَلاك حامليْن شــرف المسئولية إلى ذروة التفوق اللائق بإنسان في مستوى محمد بن عبد الله •••!!

إذا أردنا أن نبصر أعظم تكريمٍ للحب ، وأروع ولاء له ، فمن مثل هــذا النهج ، وهذه التعاليم • فليس المهم أن نحب •• ولكن المهم أن يكون حبنا صادقاً وأميناً ،وبعبارة واحــدة أن يكون حبُّنا حبّاً ••

* * *

ومن فضائل الحياة التي يوصي بها الرسول ، ويعرف لها قــدرها :

* التفاؤل :

إنه الربيع الذي تنتعش فيه الملكاتُ والقدراتُ الانسانية فتعمل في غبطة

وابتهـاج •

وإذْ كانت الحياة عند رسول الله مجالَ العمل الصالح النافع فإن التهلل والرجـاء يصيران عبادة يُثابُ عليها صاحبها •

أجل ، إن التفاؤل ليرتفع في وَعي الرسول وشِرْعَته إلى منزلة العبـادة والقُربات وإنه ليخبرنا أن الله سبحانه لا يريد عباده إلا متفائلين دائماً •• ذلك أن التفاؤل يعني حسن الظن بالله ، واتساع الرجـاء في رحمته وبِرّه •

يقول الرسول عليه السلام :

« قال الله عز وجل : أنا عند ظنّ عبدي بي ، إن ظنّ خـيراً فله ، وإن ظنّ شـراً فله » •••

ويوصي الرسول قائلا :

« لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل » •

وجوهر التفاؤل عند الرسول ، يتمثل في الارتباط الوثيق والصالح والمتهلل بكل مسئوليات الحيـاة ••

هـذا هو جوهر التفاؤل ، وتلك غايته •• وهنا يقول الرسول عليه السلام :

« إذا قامت الساعة ، وفي يد أحدكم فَسيلةٌ فليغرسها » •

إن هـذا الحديث العظيم يمثل التعبير النهائي لقضية التفاؤل كلهـا •

فمن الذي كان ينتظر عن رسول تحدث طويلا عن أهوال الساعة أن يطلق هـذه الصيحة الفتيّة الخلاّقة •••؟؟

إن هـذا الحديث يشبه تماماً أن نقول :

ـ « إذا جاءك الموت وفي يدك عملٌ فأتمّه » •••!!

إن التفاؤل يجـد في حديث الرسول هـذا ، أقوى نصير ، وأرحب أمل •

فحتى أهوال القيامة التي لا تشبهها أهوال ، لا ينبغي أن تسلب المرء تفاؤل

روحه : وسكينة نفسه ، وإقباله المغتبط على العمل ..!!

* * *

إن مشاق الحياة لكثيرة ، وكثيراً ما يهرب الناس منها إلى اليأس ، قائلين أن اليأس إحدى الراحتين ..

وإن الحياة الإنسانية لتزخر بأولئك الذين يتمنون الموت ليخلصهم من متاعبهم.

إن مجرد هذه الزفرة التي يُطلقها الناس تحت ضربات الزمن وضَراوة العيش ، لا يقبلها الرسول ، بل هو يرفضها ويدحضها ؛ لأنها تضعف التفاؤل .

وضعف التفاؤل عند الرسول يعني ضعف الإيمان بالله ، وضَحالَة الثقة في فضله . وهنا نسمعه عليه السلام يقول :

« لا يتمنَّيَنَّ أحدكم الموت .. إمَّا محسناً ، فلعله يزداد ، وإما مسيئاً فلعله يستعتب » ..

منطق رائع ! إن الإنسان في حياته كلها بين فوز يطمع منه في مزيد .. أو إخفاق يرجو أن يجاوزه ويتفوق عليه ..

من أجل ذلك ، لا يرى الرسول مبررا لليأس ..

وفيمَ ييأس الإنسان ..؟ وفيم يتمنى الخلاص من الحياة ..؟

إنه إما أن يكون محسناً ، فالحياة فرصته ليزداد إحساناً .. وإما أن يكون مسيئاً ، فالحياة فرصته ليقاوم ضعفه ويحول سيئاته إلى حسنات .

ولنصْغ لهذا الحديث أيضاً :

« لا يتمنينَّ أحدكم الموت لضرٍّ أصابه ، فإن كان ولا بد فاعلا ، فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي .. وتوفَّني إذا كانت الوفاة خيراً لي » ..

إنه حين يستبدّ اليأس بالإنسان ويغلبه على أمر يرده عليه السلام إلى من بيده المقاليد وإليه المصير .

إنه إبقاءٌ على نضرة التفاؤل وحيويته يقول لمن عَمَّى عليه اليأسُ السبيل ، إن الحياة والموت بيد الله .. فادْعه أن يختار لك منهما أسعد ميقات ..!!

* * *

والرسول بما معه من بصيرة ، ينفذ دوماً إلى أعماق القضايا والمشكلات .

فهو بنور بصيرته يدرك العلاقة الوثقى بين اليأس والطمع ..

أجل ، إن الذين لا يعرفون الاعتدال وهم يحددون مطالبهم من الدنيـا ، يعيشون في همٍّ مقيـم ..

وهمومهم تلك ، تقودهم إلى اليأس والضياع .

وإن أكثر الناس قدرة على التهلل والتفاؤل ، هم أكثر قدرة على القناعة ، وعلى الاعتدال فيما يطلبون .

أولئك هم السعداء حقـاً . وما أعذب وأصدق محمداً وهو يقول :

« من أصبحَ منكم آمِناً في سِرْبه .. معافى في جسده .. عنده قوت يومه ، فكأنما حيزَت له الدنيا بحذافيرها » ..

إن الذي يعنينا في عبارة « عنده قوتُ يومه » هو مَدلولها الضِّمْني ، لا الحـرْفي ..

فالرسول لا ينهى الناس عن الادّخار المشروع ، بل هو يدعوهم أن يتخذوا من غِناهم لفقرهم .

وإنما تعني هـذه العبارة مثلا يضربُ للقناعة التي يجب أن يتسربَلَ بهـا الناس وهم يخوضون غمار الحيـاة .

فالثراء الزائد عن الحاجة ليس سبيلا إلى السعادة بقدر ماهو طريق إلى الشقاء.

يقول عليـه السلام :

« تَعِسَ عَبْد الدرهم والدينار » .

وإن تحديد مطالبنا في الحياة ، وعـدم التوسّع فيها توسعاً يمليه الشره

والطمع ، لخير طريق لكي نربح أنفسنا ، ونربح الحيـاة •

وغنى النفس أبقى للتفاؤل وأصْونُ للغبطة والسكينة من غنى المـال •

« ليس الغِنى عن كثرة العَرَض ، ولكنَّ الغنى غنى النفس » •

هكذا يقول الرسول :

ويقول أيضاً :

« إن هذا المال خَضِرٌ حلْو ، فمن أخذه بسخاوةِ نفس : بورك له فيه • ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه • وكان كالذي يأكل ولا يشبع » ••

إن معنى « سخاوة نفس » ، القناعة والاعتدال ونبْذ التهافت •

ومعنى « إشراف نفس » ، التهالك والطمـع •

وفي هذا الحديث يرفع الرسول من قدْر المـال إذا توسلنا إليه بأنفس مترفعـة مطمئنة •

ويحذر من شرِّه ، إذا انساقت وراءه الأنفس لاهثةً : طامعة : مسعورة •

* * *

إن الربط بين الترفع عن الطمع ، والتفاؤل ليكشف جوهر التفاؤل وحقيقته •

فحقيقة التفاؤل أنه الحالة التي لا تقع فيها النفس تحت ثقل الفزع ووطأته •

وقد يفزع الإنسان من عدو مرير ــ بيد أن العدو سيختفي من حياته يوماً •

وقد يفزع من مرض منغص ــ بيد ان المرض يوماً سيزول أما حين تكون دواعي الفزَع مقيمة في نفسه • لا طارئة عليها ••

حين تصير جزءاً من ذات نفسه • فهذا هو الفزع الذي ترزح النفس تحت وطأته ثم ترزح • حتى تفقد كل أملٍ في التفاؤل والغبطة ••

وإن الطمع ليصنع ذلك كلـه •

إن الطمع أقدر الرذائل جميعاً على تحويل طاقة الإنسان إلى « غُدد نفسية »

إن صحَّ هـذا التعبير • تفرز على الدوام مزيداً من الطمَع ••

وتفرز بالتالي مزيداً من الكآبة، واليأس، والفزع •

إن الطمع والقلـق تَوْأمان •

ولا يذهب الطمع إلى نفس، إلا ويقول له القلَق خُذني معك ••

والطامع لا يربح الحياة ولا يحياها، إنما يخسرها ويعانيها •

من أجل هذا عرف « ابن عبد الله » العظيم كيف يُؤمِّن التفاؤل ويحميه حين كشف عن الطمع كآفة مُهلكة، وخَصْم وبيل •

والرسول ــ عليه السلام ــ لا يكتفي بإعطاء التفاؤل مضمونه الحق، وقيمته الكبرى على النحو الذي رأينا فحسب ••

بل إنه ليحيّيه في كل مظاهره وأشكاله حتى اليسير منها والمألوف •

فهو مثلا ــ يُحب التيامُن ويوصي به • فيقول:

« ابدأوا بمَيامنكم » •

وتقول عائشة رضي الله عنها:

« كان رسول الله ﷺ يحب التيمُّن في شـأنه كله » ••

وهو أيضاً يحب الأسماء الحسنة التي توحي بالبشر، ويشجع على التسمِّي بها ••

وهو ينهى الناس عن التطيّر والتشاؤم ويوصيهم إذا خرج أحدهم من داره فرأى، أو سمع ما يكره ألاّ يستسلم لتشاؤمه، وينصرف عن عزمه •• بل عليه أن يمضي قُدماً، وأن يهزم هواجس نفسه وتشاؤمه بهـذا الدعاء:

« اللهم لا طيْرَ إلا طيْرُك ••

ولا خَيْرَ إلاّ خـيرُك ••

ولا إله غـيرُك ••

اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ••

ولا يذهب بالسيئات إلا أنت •• » •

* * *

وتمثل التفاؤل عند الرسول قوة من قوى المجتمع ، يجب تنميتها وإرْباؤها .

ولا ينبغي سلب الأنفس سكينتها ، وتفاؤلها ، حتى لو يكون ذلك في سبيل ترويضها على الفضيلة والخير .

ذلك أن الخير لا يأتي به الشرّ .

وإن إغراء النفس بالتشاؤم لشر يُفضي إلى شرور ..

من أجل هذا يقول الرسول :

« إذا رأيت الرجل يقول : هلك الناس ، فهو أهلكهم » .

إن الوعاظ والمصلحين ، هم أحق الناس بتدبُّر هذا الحديث .

فهم من كثرة ما يتحدثون ، وأيضاً من طول ما يُعانون ، يحلو لهم أن يقولوا : فسد الناس .

بَيد أنَّ إصدار الأحكام اليائسة على الناس بهذا الأسلوب قد يصلح أن يكون ثأراً من الفشل ، ولكنه عند الرسول ليس الأسلوب القويم في هداية الناس وبعث قواهم النفسية نحو الهدف الصالح ، قريباً كان أم بعيداً .

ذلك لأن الأنفس تحيا بالتفاؤل وبَثّ الأمل . وهنا يقول الرسول :

« بشّروا ، ولا تُنفّروا » .

ويقول :

« من لا يرحم الناس ، لا يرحمه الله » .

إن الرسول عليه السلام إذْ يوصي بالتفاؤل ، وإذْ يوضح لنا مفهومه وحقيقته على النحو الذي رأينا ..

إنه إذْ يفعل ذلك ليتركنا نفهم العلاقة الوثقى بين الحياة الصالحة الناجحة ، والتفاؤل المتهلل .

ذلك أن الحياة تلقي على الناس مسئوليات لا تنتهي ، وتجابههم بالكثير من المواقف والمصاعب والمشكلات .

وما لم يكونوا مسلحين دوماً بروح الغبطة وذكاء القلب ، وتهلل النفس ، فإن الصعوبات تقهرهم من أول الطـريق .

والإنسان ــ كما يراه الرسول ــ لم يخلق للهزيمة ، إنما خلق للفوز المتمثل في إنجـاز الدور الذي من أجـله برأه الله .

ومن ثم أعطى الرسول فضيلة التفاؤل ، بل ضرورة التفـاؤل كل هـذا الحظ من الاهتمام .

ومن بين فضائل الحياة ، وقف الرسول طويلا عند هـذه الفضيلة :

* الرحمـة :

إن الرحمة من فضائل الحياة ، بل من قيمها التي أفقدها الاستعمال اللفظي كثـيراً من معنـاها الحـق ..

فالرحمة اليوم كثيراً ما تعني عنـد الناس مجـرد موقف نفسي يتسم بالأريحية التي تتصدق بها على الآخرين .

هي موقف رثاء لآلام الناس ، أو موقف عون لهم .. بيد أنه في كلتـا الحالتين نوع من أنواع التصدق والتفضل .

لكن الرحمة .. عند رسول الله لها مفهوم آخر ، هو مفهومها الحق العظيم ..

فهي ضريبة الوجود الإنساني وأولى تبعاته ، والذي لا يعطيها لا يستحقها ..

يقول عليـه السلام :

« مَن لا يَرحَم ، لا يُرحَم » ..

« لا يرحمُ الله ، مَن لا يرحَمُ الناس » .

وهي آية التكامل الانساني أيضاً ..

يقول عليه السلام :

« لا تُنزَعُ الرحمةُ إلا من شَقي » .

وهي ـ ثالثاً ـ عَصَبُ التكافل الإنساني .

« مثلُ المؤمنين في تَوادِّهم ، وتراحُمهم ، وتَعاطفهم مثلُ الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعَى له سائرُ الجسد بالسهر والحمى » .

هـذه هي الرحمة عند الرسول :

ضريبة الوجود .. وآية التّكامُل .. وحقّ التّكافُل ..

* * *

إن الرّشْد الإنساني لا يُفصح عن نفسه بِسِمةٍ مّا ، مثلما يفصح عن نفسه بالرّحمة .

فالرحمة قـوة نفسية لا يمتلكها إلا أهل العزْم العظيم .

وإن من اليسير على أي امرىء أن يكون قاسياً ، لأن القسوة زفير الغرائز ، تزفره في غير تكلف أو مشقّة .

لكن ليس كل إنسان قادراً على أن يكون رحيماً .. أي أن تكون الرحمة طابَع حياته ، وجَوْهر علاقاته .

ذلك أن الرحمة بمفهومها الذي أسْلفناه تتطلب من قـوة النفس وعظمة الروح ما يجعل صوتها العاقل الوَدُود أعلى رنيناً وأنفذ حُكماً .

ولقـد كان الرسول يُعلم الناس هذه الحقيقة ويجعـل الرحمة عنصراً مُسيطراً في كل شـيء ..

حتى التبعات والتكاليف ـ لا بد أن يُمارسها الناسُ في رحمـة ..

حتى قواعد الحياة وقوانينها لا بد أن تتوخّى الرحمة في وضْعها وتنفيذها .

يقول عليه السلام :

« إن أعظم المسلمين في المسلمين جـرماً ، مَن سأل عن أشياء لم تكن محرّمة عليهم ، فحُرّمَتْ بسبب مسألته » .

إلى هـذا المدى ، كان الرسول يكره أن تتسعَ حول الناس دائرة التحريم والحَظْر ، فتضيق بسبب ذلك دائرة حركتهم الحرّة واختيارهم الحرّ ؛ فتعظم المشقّة ؛ وتتضاءل الرحمة ..!!

ولطالما كان الرسول يؤكد هـذا المعنى لأصحابه ، فيقول :

« إنما بُعثْتم ميسرين ، ولم تُبعثوا مُعسرين »

وكان إذا أرسل والياً على قوم زَوّدَهُ بهـذه الوصية العظيمة :

« بشّروا ، ولا تنفّروا ، ويسروا ، ولا تُعسروا » .

وإنه عليه السلام ليقول :

« من نفّس عن مسلم كُرْبَة من كُرب الدنيا ، نفّس الله عنـه كُربة من كُرب يوم القيامة .
ومَن يَسَّرَ على معْسِرٍ في الدنيا ، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة ..
ومن ستر على مسلم في الدنيا ، ستَر الله عليه في الدنيا والآخرة ..
والله في عَوْن العبد ، ما دام العبدُ في عَوْن أخيه » .

* * *

ولأن الرحمة مسئولية ، لا نافلة .. وواجب ، لا صَدَقة ..

أقول : لأنهـا كذلك ، فإنّ الرسول لم ينظر إليها كصَفقَة مُتبادَلة بين اثنين .. ولا كمودّة دافِئة يَبذلها القريب لقريبه ، والصديق لصديقه لا غَير .

لا .. بل هي حق الناس كافة .. وواجبُ الناس كافة .. الجميع يبذُلونها ، والجميع ينالونها . يقول عليه الصلاة والسلام :

لن تؤمنوا حتى تراحَموا
قالوا يا رسول الله . كلّنا رَحيم
قال : إنه ليْس برحمة أحدكم صاحبه .. ولكنها رَحْمة العامة » ..!!

* * *

هكذا الرحمة عنده .. لا تتجزأ ، ولا تحتكر : بل تبذل لكل الناس بذل السماح .

ومرة أخرى تقول : إنها لا تبذل كصدقة .. بل تبذل كحق وفريضة ..

« أعط الأجير أجره ، قبل أن يجف عرقه » .

هكذا قال الرسول :

وهو في الحديث البليغ يجعل الرحمة أكثر من واجب ..

إنه يجعلها ضمير كل واجب .. وضمير كل عدالة ..

فإذا كان الواجب والبذل يتطلبان إعطاء الأجير أجره ؛ فإن الرحمة التي هي ضمير هذا الواجب وهذا العدل ، تتطلب أن يكون العطاء في أوانه حتى يكون سماحاً ، ووفاءً ، ونجدة .

أجل .. « قبل أن يجف عرقه » ...!!!

كذلك يقول عليه السلام وهو يتحدث عن حق نوعٍ آخر من الأجراء — أولئك الذين يعملون في خدمة المنازل .

إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يطعم .. وليلبسه مما يلبس .. ولا يكلفه ما يغلبه .. فإن كلفه ما يغلبه فليعنه عليه » .

فهنا أيضاً — إذا كان الواجب والعدل يتطلبان منك أن تطعم خادمك وتكسوه ، فإن الرحمة التي هي ضمير هذا الواجب وذاك العدل تدعوك لأن تطعمه من نفس طعامك ، وتلبسه من مثل لباسك وكسائك ، وأن تعينه على العمل إذا شق عليه العمل ...!!

وعلى هذا النسق تمضي القاعدة على الدوام .. قاعدةُ أن الرحمة يجب أن تكون ضمير كل عمل .. ضمير كل واجب .. ضمير كل قانون ..

فحتى في العقوبات المشروعة التي لا يملك الرسول نفسه حق التصرف

فيها ، نجده يهتف بالرحمة ، ويجعلها ضمير القانون وضمير العدالة ..

ها هو ذا عليــه السلام يقول :

« ادْرَءُوا الحدودَ بالشبهات » .

ويقول ، وما أبرَّه حــين يقول :

«إنالإمام إنْ يُخطىءْ فيالعفو،خَير مِنْ أنيخطىء فيالعقوبة» .

ويقول عليه السلام :

« إن الله يعذب الذين يعذّبون الناس في الدنيا » .

* * *

إن الرحمة عنــد ابن عبد الله ليست نافِلة ، ولا صدَقة ... إنما هي روح العدل ، وربيعُ الحياة ، وضمير الحق والواجب .

وإنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ ليقدسها ويقدّس الرِّفْق الذي هو مظهرها .

فلنصغ إلى حــديثه الودود .

« إن الله رَفيق ، يُحبّ الرفق ، ويُعطي على الرِّفق ما لا يعطِي على ســواه » .

ويقــول : ــ

« من يُحــرم الرفق ، يحرَم الخيرَ كلَّه » .

ويقــول : ــ

« اللهمَّ من وَلي من أمر أمتي شيئاً فشَقَّ عليهم ، فاشقُقْ عليه ، ومَن وَلي من أمْر أمتي شيئاً فرَفق بهم فارفق به » .

إن الرسول عليه الصلاة والسلام ، يريد من كل الناس أن يكونوا رُحَماء .

ذلك أنه يعلم الظروف العسيرة التي يعمل البشر داخلهــا ، ويعلم أن في الحياة الدنيا من الشـّواظ والألم ما لا يحتاج إلى قساوَة تزيده .. بل إلى رحمة تَكسر حدَّة الألم وتجعل الحيــاة مُحتَملة وطيبة .

وإذا كانت الرحمة عنـد الرسول لا تتجزأ بالنسبة للناس ، فهي أيضاً ، لا تتجزأ بالنسبة لحقيقتها . وبالنسبة لكل ذي حق فيهـا ..

ومَن هُم أصحاب الحـق فيها ..؟

إنهم عند الرسول ليسوا البشر وحدهم ، بل وكل كائن حيّ .. الحيوان ، والطّير ، والهـوامّ ..

انظـروا ...

« دَخَلَت امرأة النار في هرّة حَبَسَتْها ، فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض » ..

وانظروا أيضاً هـذا الحديث :

« .. والشّاة إن رحمتها ، رحمَك الله » ...!!

ويُبصر عليه الصلاة والسلام ، بَعيراً ضامِراً ومجْهداً ، فيقول لصاحبه :

« أفلا تتقي الله في هـذه البهيمة التي ملكك الله إياها » ؟

وحتى حين يذبح الناس الحيوان ليأكلوه ، يجعـل الرسول الرحمة واجباً وضميراً فيقول :

« إذا ذَبحتم، فأحسنُوا الذِبْحة..ولْيُحِدَّ أحدُكم شَفْرته.. ولْيُرحْ ذبيحته » .

* * *

وبعد . فإن الرسول ليُعطي التعبير النهائي لإجلاله الرحمة وتقديسه إيّاها ، حين يجعلها العنوان الأوحد لدوره كلـه .. ولرسالته كلها .. بل وحين يجعلها جوهر هـذا الدور ، وهـذه الرسالة فيقول عليه السلام :

« إنّما أنا رَحمَةٌ مُهدَاة » ...!!

* * *

ومن فضائل الحياة الجليلة حدثنا الرسول عن :

* الوفـاء

وحين يتحدث « ابن عبد الله » عن الوفاء ، فلا ينبّئك به مثلُ خبير ..!!

إن أحاديثه ــ عليه السلام ــ عن الوفاء ، كأحاديثه عن كل شـيء .. تبدو وكأنها تشكّل قانوناً ، وترسمُ منهجاً ..!!

والوفـاء في أحاديث الرسول حـق ، وواجب .

حـق لك عند الآخرين ..

وواجب عليـك تجاههم .

وإن الرسول عليه السلام ليضعُ يده على نقطة البدء الصحيحة في واجب الوفـاء وفضيلته .

تلك هي : الوفـاء لأبويك ولعشيرتك الأقربين .

فما نسمّيه « برّ الوالدين » و « صلة الرّحِم » ليس إلا أوليات الوفاء ، وبدء مسيره وعمله ، فإذا كان الوفاء يعني حفظ حقوق الصُّحبة والعشرة وإجلال ذكراهما دوْماً، فأيّة صحبة أحق بالرعاية والإجلال من صُحبة الوالدة والوالد..؟!

إن الرسول يتحدث عن هذه البداية ، حين جـاءه سائل يسأله عن أحقّ الناس بحُسْن صحابته ، فإذا هو يجيب قائلا :

«أمك..ثم أمك..ثم أمك..ثم أبوك..ثم أدْناكَ فأدناكَ»...

ويجيب سائلا آخر فيقول :

« ... أمك ، وأبوك . وأختك ، وأخوك ...

ومولاك ــ أي قريبك ــ الذي يَلي ذاك.. حق واجب . ورَحِمٌ موصولة »..

ولأن الوفاء جَوهرُ برّ الوالدين ، نجـد الرسول يضع على رأس البرّ كله ، احتفاظ الإنسان بالمودة الدافئة لكل ذِكْرى تحمل عبيرهما :

« إن أبر البر ، صلةُ الولد أهلَ وُدّ أبيه » ..

ولقــد جاءه رجل ذات يوم يسأله :

ـ يا رسول الله ، هل بَقي من بر أبَويَّ شيء أبرّهما به بعــد موتهما ؟؟

فأجــابه الرسول :

« نعم ، الصلاة عليهما .. والاستغفارُ لهما . وإنفاذ عهدهما من بعدهما..وصلة الرحم التيلاتوصل إلا بهما..وإكرامصديقهما»..

وفي تعاليم الرسول وأحاديثه نرى الوفاء للوالدين يكاد يزْحم الولاء لأكثر فروض الدين وأركانه ..

فذات يوم ذهب شاب إلى الرسول ، حيث جرى بينهما هذا الحوار العظيم :

قال الفتى :

« يا رسول الله ، أبايعُك على الهجرة والجهاد أبتغي الأجــر من الله تعــالى :

فقال الرسول : هل من والديك أحــد حي ..؟؟

قال : نعم كِلاهُما حيّ ..

قال الرسول : وتبتغي الأجر من الله تعالى ..؟؟

قال : نعم ..

قال الرسول : فارجع إلى والديك ، فأحْسِن صحبتهما » ..

* * *

ويَلي الوالدَيْن في حــق الوفاء ، الأقارب ، والجيران ..

فالوفاء للرَّحم عنــد الرسول شرط الإيمان ..

« من كان يُؤمن بالله واليوم الآخر ، فليصل رَحِمَه » .

ولما كان الناس قد يهربون من صلة الرحم مَخافة تكاليفها المادية ، فقــد أنبأهم الرسول أن مخاوفهم تلك باطلة .. وأن صلة رحم لا تفقر صاحبها ، بل هي بابٌ من أبواب الرزق ، وسببٌ من أسباب الندَى والخير .

« من أحَبَّ أن يُبْسط له في رزقه ويُنسأ له في عمره ، فليصل رَحِمَه » ..

ووفاء كل من الزوْجين لصاحبه ، له عند الرسول مكانته وقداسته ..

ولا منتهى هنالك لوفاء هذين اللذين امتزجت حياتاهما ، وصارا كنفس واحدة ـ يقول عليه السلام :

« لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرتُ الزوْجة أنْ تسجد لزوجها » ...!!

ويوصي الأزواج بمثل ذلك فيقول :

« استوصوا بالنساء خيراً ، فإنهنَّ عَوانٌ عندكم » ..

* * *

وينتقل حق الوفاء بعد هذا للجار ..

واهتمام الرسول بحق الجوار والوفاء للجار يصور إدراكه لا ريب ـ عليه السلام ـ لفحوى العلاقات الإنسانية وحقوقها .

فجارُكَ ، هو أقرب الناس إليك ، ومن ثمَّ فإن عينك قريبة من دخائله وأسراره .. من مشاكله وآلامه ...

فجحودك حقوقه عليك ، وأنت تُصبِّحه وتُمسِّيه يعني أنك ستكون أكثر جحوداً لحقوق الآخرين الذين لا يقعون منك بهذا القرب ، ولا يرتبطون بك هذا الارتباط ..

وأهمّ حقوق الوفاء للجار، ألاَّ يأتيه من جاره مَساءة، أو مخافة أو مكروه.

وإن الرسول عليه السلام ليجعل هذا الحق توأم الإيمان ، فيقول :

« واللهِ لا يؤْمِن .. واللهِ لا يؤْمِن .. واللهِ لا يؤْمِن ..

قيل مَن ، يا رسول الله ؟

« قال : الذي لا يأمَن جارُه بَوائقَه » .

كذلك يدعو الرسول إلى أن تكـون الحسنى والمودّة سبيل التعامل بين الجـار وجـاره .

« مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليحسن إلى جـارة » .

ويقول عليه السلام :

« خـيرُ الأصحاب عند الله ، خيرُهم لصاحبه ، وخـير الجيران عنـد الله ، خيرُهم لجـاره » .

وتمتَدّ ذراعا الوفاء ، حتى تؤديا التحية لكل ذي يدٍ ومعروف .

ـ يقول عليه السلام :

« من أسْدى إليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به ، فادْعوا الله لَه » ..

وللوُدعاء الطيبين من ذوي المنازِل والمكانة حقهم من الوفاء والتوقير .

« ليس مِنّا مَن لم يرحَم صغيرنا ، ويَعرف شَرَفَ كبيرنا » ..

كما يقول عليه السلام :

« أنزلوا الناس مَنازِلهم » ..

والوفاء للأصدقاء يَمثل في تعالِيم الرسول ، وفي سلوكه مَكاناً عَلياً .

والوفاء للصداقة يعني عند الرسول شيئاً أعظم من المجاملة ..

إنه حمل كل مسئوليات الصُحبة في غبطة وأمانة ..

« انصر أخاك ظالماً ، أو مظلوماً ..

قيل : أنصُرُه مظلوماً .. فكيف أنصرُه ظالماً ..؟؟

قال : تحجزه عن الظـلم ، فإن ذلك نصْره » ..

إن الوفـاء للصديق يعني عنـد رسول الله الارتفاع بمستوى الصداقة إلى ذروة كمالِها الميسور ، وجعلها على الدوام علاقة طاهرة ونظيفة .. وذلك بالتناصح الأمين .

« إن أحدكم مرآة أخيه .. فإن رأى به أذًى . فليُمِطْه عنه » ..

إن وفاء الصديق لصديقه يعني في تعاليم الرسول ألا يسْلمَه ، أو يَظلمه ، أو يخذُله ، أو يَكْذِبَه .

وبعبــارة واحدة قالهــا الرسول :

« لا يؤمن أحــدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

لكن إجلال الرسول للوفــاء ، وإجلال الصداقة دفَعه إلى التَّحوّط في اختيار الصديق .

إن وفاءَ القاتلِ لقاتلٍ مثلِه، لن يكون له من ثمرة إلا زيادة عَدد ضحاياهما.

ووفاء لص للص مثله . أو غاشٌ لغاشٌ مثلــه ، أو مرتشٍ لمرتش مثله ، لن يثمر إلا مزيداً من الإثم والسوء .

ووفاءٌ مثلُ هــذا ، لا يلوث فضيلة الوفاء فحسب .. بل ويلحق بحقوق الناس وأمنهم الأذَى والرَّوْع .

من أجل ذلك ، يتحوَّط الرسول في اختيار الأصدقاء حتى إذا التَقى اثنان على حُب ووفــاء ، كان في لقائهما الخير ، لنفسيهما وللناس .

يقول عليه السلام :

« الرَّجُل على دين خليله .. فلينظر أحدكم من يُخالِلْ » ..

إن صديقك ، هو الامتداد الطبيعي لك ، ومَزية الصداقة أنها تعوضك عن طريق الصديق ، المزايا التي تنقصُك .

فإذا اختار أحدنا أصدقاءه من بين الوصوليين ، والمنافقين ، والكذَّابين ، والخــونة ، والمرتشين ..

إذا اختار أصدقاءه من بين الذين لا يرون الحياة إلا سيجاراً وكأساً .. وإلا مكراً أو غَدراً .. وإلا نفعية وأنانية .. فإنه بذلك يعرض حياته لأفدح خسران يحيق بهــا ..

وكل وفــاء يشدّ هــذه الصداقات بعضها إلى بعض لا يراه الرسول إلا تخريباً لفضيلة الوفاء ذاتهــا ، وإلا تعاوناً على الإثم والعدوان .

وإن الرسول عليه السلام ليضرب مثلا لكلا الفريقين .. الفريق الجدير بالصحبة ، وبالوفاء .. والفريق الذي ليس له في الصحبة ولا في الوفاء نصيب ، فيقول : —

« إنما مثلُ الجليس الصالح ، والجليس السوء ، كحامِل المسك ، ونافخ الكير .

فحاملُ المسك إما أن يُحْذيك — أي يعطيك — وإما أن تبتاع منه .. وإما أن تجد ريحاً طيبة ..

ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك .. وإما أن تجد منه ريحاً خبيثة » ..

ويزيد الرسول هذا المعنى وضوحاً وحسماً إذ يقول : —

« مَن أعَانَ ظالماً سُلِّط عليه » .

والصداقة عَوْن ، والوفاء لها عَوْن وأيّ عَوْن .

من أجل ذلك حرص الرسول وهو يتحدث عن الوفاء ، وعن الصداقة أن يحذرنا من سوء الاختيار حين نتعجل أو نُسيءُ اصطفاء الأصدقاء ..

* * *

ولا يقف الوفاء في منهاج الرسول عند هذه الدوائر وحدها . بل إنه لَيَنْداحُ ، ويتراحب حتى يسع الناس جميعاً .

فالوفاء الحق ، هو الذي يبذُل نفسه لكل الناس .

فهذه الصفوف الهائلة من مواطنيك ، ثم من البشر جميعاً ، إنما يعملون من أجلك أشياء كثيرة ، ويُسْدون إليك منافع شَتّى فلا بد أن تكون وفياً لكل الناس مَن تعرف ، ومَن لا تعرف .

ووفاؤك للناس يعني أن تؤدي دورك في الحياة في أمانة وصِدق ، حتى تكون نافعاً لهم جميعاً .

* إن جميع الناس اخوة .

* وكل فرد مطالب بأن يرجو للآخرين ما يرجوه لنفسه من خير .

هذه بإيجاز هي قضية الوفاء للبشر لدى الرسول وفي تعاليمه .

فهو عليه السلام يقول — أولا — :

« كونوا عباد الله اخوانا » .

ثم يرسم — ثانيا — حق هذا الإخاء في قوله :

« لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

* * *

والآن ننتقل الى فضيلة أخرى من أجل فضائل الحياة .. تلك هي :

* الأمانة :

إن أحاديث الرسول عن الأمانة لكثيرة .

وإنها لتصور في توفيق عظيم المكانة الجليلة للأمانة ، والدور العظيم الذي تؤديه في تماسك الحياة الإنسانية وترشيد الجنس البشري .

وعندما يتحدث الرسول عن الأمانة لا يتحدث عنها كمجرد فضيلة .. بل تبدو في تعاليمه وكأنها جوهر الفطرة الإنسانية كلها .

اقرأوا هذا الحديث :

« إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن ، ثم علموا من السنة .. » .

فقبل أن يجيء للناس رسالات الهدى من ربهم كان معهم الجوهر في قلوبهم .. كان معهم الأمانة ..!

ومعنى أن الأمانة في جذر القلوب أنها كما ذكرنا جوهر الفطرة ، فإذا ضاعت الأمانة من أحد ، فقد ضاعت منه فطرته .. وآدميته ..

أي تقديس للأمانة أبلغ من هذا التقديس ..؟؟!!

ورسول الله لا يتحدث عن الأمانة ذلك الحديث العابر السريع الذي يصوّرها في صُورها العاديّة كحفظ الودائع مثلا ..!!

كلا .. إنه ليراها عماد الأمــر كله .. أمر الحياة والأحياء وإنه ليتحدث عنها في شمول فَطِنٍ عظيم .

فكل مسئولية أمــانة .

والمسئوليات من أعلاها إلى أدناها ليست سوى مستويات متكررة للأمانة — من أجل ذلك ، فالرسول عليه السلام وهو يتحدث عن الأمانة ، إنما يتحدث عن مسئوليات الحياة كلهــا ، والأحياء جميعاً .

وإن أحاديثه الكريمة السّديدة لتتسلسل في الأمر بها والحضّ عليهــا من بَدْءِ مستوياتها إلى مُنتهاها .

انظروا ..

« إذا حدّث الرجل أخاه بحديث ثم التفت ، فهو أمانة » ..!

إن التفاتة الذي يتحدث مع آخر ، تُنبىء عن رغبته في ألا يكــون هناك ثالث يسمع حديثه .

إن مُجرد هذه الرغبة واللّفْتة العابرة ، تجعل الحديث عند الرسول أمانة يجب أن تُصان وتحفظ .

وانظروا أيضاً ..

« إن من أعظم الخيانة عند الله يوم القيامة — الرجلُ يُفضي إلى امرأته،والمرأة تُفضي إلىزوجها،ثم ينشر أحدهما سِرّ صاحبه»..!

فلحظات النّجْوى بين الرجل وزوْجته ، لهــا كل هذه الحُرْمة حُرمَة الأمــانة . وحق الأمــانة .

على هذا النّسَق تَتَبع الأحاديث المُباركة مستويات الأمانة كلها حتى تَصل بنا إلى أمانة المــال ، وأمانة الحُكم ..

أما المــال ، فالأمانة فيه أن يؤخذ طيباً حلالا ، في غــير خيانة أو إثم .

« إن الله طيِّب ، لا يَقبل إلا طيباً .

وإن الله أمــر المؤمنين بما أمر به المرسَلين فقال : يا أيها الرّسُل كلوا من الطيِّبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم .

وقال : يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم . ثم ذكــر الرجلَ يطيل السفر ، أشعثَ .. أغبرَ .. يمدّ يديه إلى السماء! يا ربّ ، يا ربّ ، ومَطعَمه حرام ، ومَشربه حــرام ، وملبسُه حرام ، وغُذيَ بالحرام ، فأنّى يُستجابُ له » ..؟؟

ويسأله سعد بن أبي وقاص رضي الله عنــه أن يدعُوَ له ليكون مستجاب الدَّعــوة ، فيجيبه الرسول :

« يا سَعد ! أطِبْ مطعمك ، تكن مُستجابَ الدعوة » .

* * *

وإن كــل الذين تــدور أيديهم في اقتصاديات النــاس وأموالهم لَتعظم مسئوليتهم عن الأمــانة .

فالتجار ذوو مسئولية كبيرة يرفعهم أداؤها إلى درجات عاليــة .

« التاجر الصدُوق الأمين مع النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين .. » .

وأيّ غش يقترفه التاجر ، يلقي به بعيداً من صفوف المؤمنين .

« مَن غشَّنا ، فليس منّا » ..

وأما الذين يصلهم بأموال الناس وظيفة ومنصب . فإن مسئوليتهم عــن الأمــانة تفوق كل وصف .

إن الذي يرى الرسولَ وهــو يُواجه خيانةً من مال الأمــة أو سفهاً في إنفــاقه ، ليَرى أمــراً عجيباً ..

فهذا الرسول الرحيم العظيم الذي طالما التَمس المعذرة ورجا رحمة الله للخطائين .. يقف أمام الخيانة ، وكأنه لا حيلة له أبداً .. ولأول مرة نراه يخجل أن يسأل الله المغفرة لآثِم ــ ذلك لأن الآثم هذه المرة ، خائن .. خان مال الأمة، وهو عند الله إثم مبين ..!!

لنقرأ هذا النبأ :

أهدى رِفاعة بن زيد للرسول خادماً ..

وفي غزوة وادي القرى أصابه سهم وهو يحط رَحْل رسول الله ﷺ فأقبل الصحابة على الرسول يُعزّونه ، ويقولون : هنيئاً له يا رسول الله ، لقد ذهب شهيداً .

فأجابهم الرسول قائلا :

« وما يدريكم ..؟ إن الشَمْلة التي أخذها من المغانِم يوم خيبر ، لتَشتعل عليه ناراً » ...!!

شملة ..؟؟

شملة تساوي درهما ، أو حتى بضعة دراهم ، يُطاردُ إثمها صاحبها حتى بعد أن مات شهيداً .. وبين يدي رسول الله ..

إنه لولاءٌ للأمانة ليس له نظير ..!!

* * *

إن كل قرش يناله موظف خلسة أو جهرة دون أن يؤذَن له في أخذه بحق ، فهو غلول وخيانة .

وفي هذا يقول الرسول :

« من استَعْمَلْناهُ على عمل ، فَرزَقْناه رزقاً .. فما أخَذ بعد ذلك فهو غلول » ..!!

إن الرابطة بين الوظيفة والأمانة تبلغ في تعاليم الرسول وشريعته مبلغاً

من التقديس عجيباً ..

فهو ـ مثلا ـ يرفض رفضاً مطلقاً أن يَقبل الموظف هدية ـ مهما تكن ـ جَزاء عمل أدّاه يدخل في نطاق واجبات وظيفته .

إن هـذا يفتح باباً خَلْفياً للخيانة والتفريط في الحقوق العـامة .

وقف عليه السلام خطيباً ذات يوم فقال :

« أما بعـد ،

فإني أستعملُ الرجل منكم على العمـل مما ولاّني الله ، فيأتي فيقول : هـذا لكم .. وهـذا أهْدِي إلي ..

أفلا جلس في بيت أبيه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً ..؟؟

والله لا يأخذ أحـد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقيَ الله يحمله يـوم القيامة .. اللهم هلْ بلّغْت ... » !!

* * *

وعن « أمانة الحكم » ، تحدث الرسول باهتمام عظيم ، وألقى تعاليمه الهادية إلى الحكام ، والوُلاة ، والقُضاة ، وإلى كل من يحمل مسئولية ذات بال في الأمة .

فهـذا الحكم بكل ألوانه أمـانة عظمى .

يقول عليه السلام عن الولاية :

« إنها أمانة .. وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا مَن أخذها بِحقّها ، وأدّى الذي عليه فيهـا » .

ولأن الحكم مسئولية وأمانة ، فإن الرسول عليه السلام لم يكن يطمئن إلى الذين يتهالكون عليه .

وإنه ليضع في هـذا مبدأ يقول :

«إنّا والله لا نُولّي هذا الأمر أحداً يسأله،أو أحداً يَحرص عليه» .

ويُوصي عبد الرحمن بن سَمُرة قائلا :

« يا عبد الرحمن . لا تسأل الإمـارة فإنك إن أوتيتها عن مسألة وُكلتَ إليها . وإن أعْطيتها من غير مسألة ، أعِنْتَ عليها »

وتحقق أمانة الحكم نفسها عند رسول الله بتحرِّي القِسط والمعْدَلَة .

« إن المقْسِطين عنـد الله على منـابرَ من نور عن يَمين الرحمن ــ وكلتا يديه يَمين ــ الذين يَعدلُون في حُكمهم ، وما وَلوا » .

كذلك تحقق نفسها بالثقة وبالحب المتبادَلين بين الناس وحكامهم .

« خيـار أئمتكم الذين تُحبونهم ويُحبونكم ، وتُصلُّون عليهم ويُصلُّون عليكم » .

واختيار الحـاكم أعْوانه من بين الذين يخلصون للحـق ، شرط محتوم لتحقيق أمـانة الحكم .

وهنا يقول الرسول :

« إذا أراد الله بالأمير خيراً ، جعـل له وزيرَ صِدق : إن نسيَ ذكَّرهُ ، وإن ذكَر أعـانه ..

وإذا أراد الله به غير ذلك ، جعـل له وزير سُوء : إن نسِيَ لم يذكِّره ، وإن ذكرَ لم يُعنْه » .

* * *

وتعني أمانة الحكم عند رسول الله ﷺ الإخلاص الكامل للناس . وتحرِّي الصواب المحض في كل ما يتصل بمصايرهم .

وهنا يقول الرسول مُحذِّراً :

« ما من عبدٍ يسترعيه اللهُ رعيَّةً ، يموت يوم يموت ، وهو غاش لرعيته إلا حرَّم الله عليه الجنة » .

ويقول أيضاً :

« ما مِنْ أمتي أحـد وَلِيَ من أمر الناس شيئاً ، لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه إلا لم يَجِـد رائحـة الجنة » .

وتتطلب أمـانة الحكم عنـد الرسول نزاهةً مطلقـة :

« لعن الله الراشِيَ والمُرْتَشي في الحكم » .

« من استعملْناه على عمل فكَتَمَنا مخْيَطاً فما فوقه كان غلولا يأتي به يوم القيامة » .

وتتطلب أمـانة الحكم عملا دائباً لخير الناس وتلبية مستمرة لحقوقهم ، وأبواباً مفتوحة لآلامهم وآمالهم .

يقول عليه السلام :

« ما مِنْ إمام يغلق بابه دُون ذوي الحاجة والخَلَّة والمسْكَنة ، إلا أغلق الله أبواب السماء دُون خَلَّته ، وحاجته ومسْكَنته » .

وتتطلب قبل هـذا ، وبعـد هـذا ، الرفق والأناة .

ولقد ابْتَهل الرسول كثيراً إلى ربه راجياً رحمته وتوفيقه لكل ذي حـكم رفيق ــ فقال عليه السلام :

«اللهم مَن وَلِيَ من أمر أمتي شيئاً فرَفق بهم ، فارْفق به » .

وبعـد ...

فهكذا تحدَّث الرسول عن فضائل الحياة ، وإنا لَنُسَمِّيها فضائل تجوّزاً في التعبـير .

أما هي ، فأكثر من فضائل .. إنها قِيم الضمير الإنساني وقوانينه وواضحٌ أننا لم نتحدث عنها جميعاً ، بل جئنا بنموذَج يومِىءُ إلى بقيَّة تلك الفضائل ، ويَدلّ عليهـا .

* * *

والآن ، وسطور الكتاب تبلغ غايتها ، تعالَوْا نُرسل تحياتنا ــ في خشوع وحبّ ــ إلى هـذا الرسول الكريم .

كما تحدّث الرّسول ﷺ

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بين يدي الكتاب :

هذا هو الجزء الثاني من كتاب « كما تحدث الرسول » ، يجيء في طبعته الاولى • متمما لجهد سبق ، ومبشرا ـ إن شاء الله ـ بجهد قادم تخرج به بقية الاجزاء إلى عالم القراءة والقراء •

ولقد كنت بدات محاولتي هذه عام ١٩٦٣ عندما ظهرت اول طبعة للجزء الاول •

والحق انني لم اكن يوما على عزم بإخراج الكتاب في اجزاء •

ولقد كانت غايتي ان اقدم نموذجا ـ احسبه نافعا ـ للطريقة التي ينبغي ان تقدم بها احاديث الرسول عليه وآله وصحبه افضل الصلاة وازكى السلام مشكلة مسيرة من الموضوعات المترابطة : دينية كانت او إنسانية ، او اجتماعية واخلاقية •

إن الكثير الطيب من احاديث الرسول صلى الله عليه وسلم مبثوث في الامهات والمراجع تحت العناوين التقليدية المعروفة ـ وهو عمل من اجل الاعمال التي نهض بها رجال صدقوا حبهم لله ولرسوله ؛ فقاموا ـ ماجورين مشكورين ـ بهذا العمل النبيل والجليل •

بيد اننا في عصرنا هذا الذي نعيشه ويعيشنا قد نكون مطالبين بجهد جديد تجاه احاديث الرسول وتعاليمه •• جهد يعتمد في عرفان وإجلال على جهود الائمة والاعلام الذين سبقوا إلى خدمة الحديث النبوي وسبقوا فيه سبقا بعيدا ومجيدا ، هذا الجهد الجديد يتمثل في عرض طائفة من قضايانا الهامة •• قضايا الإنسان والحياة التي تشكل اهمية في تطورنا الروحي والمادي ، ثم نجمع من احاديث الرسول عليه السلام ما يفيء بحكمته جوانب هذه القضية ويكشف ابعادها ، وما يكشف لنا المفاهيم الجديدة والمعاصرة لاحاديث الرسول • فمثلا ـ في الجزء الاول الذي ظهر ـ كما ذكرت ـ عام ١٩٦٣ كان ضمن فصوله فصل عن « ازمة الإنسان » تناولت فيه ازمة وجودنا وازمة حياتنا ، وازمتنا تجاه مصيرنا •

وحين ذهبت استلهم احاديث الرسول الكريم ، وجدت منها فيضا غدقا •

وكانهـا جميعا قيلت في هـذا الموضوع بالذات ـ ازمـة الإنسان ..

إن هـذا العمل يتطلب ـ لا ريب ـ توفيق الله سبحانه ، حتى نستطيع ان نحسن اختيار الحـديث ، ثم نحسن فهمه ، ونقف على كل العطاء الـذي يمنحه ويعطيه .. قـد تكون هناك احاديث تضعها مراجعنا القيمة مثـلا في ابواب الصلاة .. او الزهد .. او صلة الرحم .. ومع دلالتها المتسقة مـع هـذه الأبواب ، تكون لهـا دلالة اخـرى تتصل بقضية ما من احـدث قضايا العصر سياسية او اجتماعية ، او اقتصادية ، او تربوية ..

فهذا هو النهج الذي اخرجت محاولتي الأولى لانادي إليه كل من يريد ان يخـدم السنة النبوية ، ويخـدم بها الناس والحياة .

وعلى الرغم من ان الجـزء الاول طبع اكثر من مرة ، فانه لم يحمل هذه الصفة .. اي اعتباره جـزءا من كتاب تتوالى بعـده بقية الأجـزاء ، لعـدم نهوض عزمي يومئذ وانعقاده بهـذه المهمة .. ولشغفي في ذلك الحين وما بعده بتقـديم طائفـة من مؤلفـاتي عـن بعض القضايا والمواقف والشخصيات التي بهـرتني في تاريخنـا الإسلامي الوثيق والعـريق ..

★ ★ ★

ثم صح مني العـزم على إتمـام المحـاولة ، سائلا الله سبحانه ان يغفر لي تطفلي هـذا ، على رحاب الرسول .. وان يهبني مـع المغفرة توفيقا وإخلاصا ، ونعمـة ، ورحمـة ..

وإذن ، فهـذا الكتاب ، الذي تحملونه بايمانكم ، هو الجـزء الثاني من كتاب (كما تحـدث الرسول) ارجو ان تتلوه اجـزاء .

ولقـد اعتمدت ـ ما استطعت ـ عـلى الأحاديث المشهود لها بالوثاقة والصحـة .

وكان بودي ان اقـوم بتخريج نصوص الاحاديث وردها إلى كتب السنة التي جمعتها ، بيد ان ذلك كان سيملأ صفحات الكتاب بالهوامش ، الأمر الذي يتسع له كتاب كبير الحجم واسع المدى ، ولقد لا يتسع له كتاب قريب غلافاه .

على انني ارجو ـ بعـد ان يتم ظهور الأجـزاء الثلاثة الباقية ويتـاح لها فيما بعد ان تظهـر كلها في كتاب واحد ـ ان تحمل صفحاته تخريجا لجميـع الاحـاديث .

وجـزى الله نبينا عنا خـير الجـزاء ، واطيبه ، وازكاه ..

خـالد محمد خـالد

نَضَّرَ اللهُ امرءًا،
سَمِعَ مقالتي، فوعاها،
فأدَّاها كما سمِعَها..
فرُبَّ حاملِ فقهٍ،
إلى مَن هو أفقَهُ منه..
ورُبَّ مُبَلَّغٍ،
هو أوعى من سامِع..

الرَّسول
عليه صلاة الله وسلامه

الفصل الأول

.. عن العلاقات العلوية

الانسان وربه

تقوم علاقة الإنسان بربه على رأس المهام التي من أجلها جاء الأنبياء والمرسلون . وفي سبيل تبيانها وإجلالها كرسوا حياتهم أجمعين ـ عليهم صلاة الله وسلامه .

وإذ كان الرسول « محمد » ﷺ الخاتم لمسيرة إخوانه المباركين ، والمتلقي آخر كلمات الوحي إلى البشر ؛ فقد راح يعطي اهتماماته العميمة والراسخة لتلك العلاقة الروحية والسلوكية التي تصل الإنسان بربه الكبير المتعال ، والتي ترفع بدورها مستوى الحياة الإنسانية إلى أعلى مستويات الكمال الميسور لبني الإنسان .

ولقد كان أمام الرسول طريقة واحدة لإنشاء هذه العلاقة ـ تلك التي علمه إياها القرآن الحكيم :

« بلَى ، مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وهو مُحْسِنٌ ، فلَه أجرُهُ عند ربِّهِ ، ولا خَوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنونَ » .

فإسلام الوجه إلى الله سبحانه في إحسانٍ لطاعته وعبادته ، وهو جوهر العلاقة العلوية والروحية التي تصل العبد بربه ، والتي تجعل منه « ربّانياً » له عند الله منزلة ومقام .

ولكن ؛ لكي يُسْلم الإنسان وجهه إلى الله ، ويسعى إليه بالعمل الصالح والحياة الطيبة ، لا بد ـ أولاً وبداهة ـ أن يكون قد عرفه ، وآمن به .

إن أولى تبعات وجودك ، أن تؤمن بالله الذي منحك هذا الوجود .. وحين تؤمن به الإيمان الصحيح الصادق ، فسيقتضيك هذا الإيمان أن تعبده وتطيعه .

فِطْرَةَ الله .. ولكي تعرف الله : « استَفْتِ قلبَك » .

أجل .. ففي أعماق كل فرد إنساني يقين كامن وكامل بوجود الله . يقـول عليه السلام :

« كل مولود يُولَدُ على الفِطْرة » .

مشيراً إلى قول الله سبحانه في قرآنه الكريم :

« فِطْرَةَ الله التي فطرَ الناسَ عليهـا » .

الناس .. لا المسلمون ، ولا اليهود ، ولا النصارى .. بل الناس جميـع الناس . معهم فطرة الله ، وفي أعماقهم المسْتَتِرَة برهان وجوده وآية ألوهيته ووحدانيته ، وإذا كنا نراكم فوق هذه الفطرة الصدأ ، وظلام نفوسنا وأعمالنا ، فانها رغم ذلك كامنة هناك ، وتعبِّر عن نفسها بشتى الرؤى والمشاهد والتجارب. بَيْدَ أننا عنهـا من الغافلين ..

إن الرسول عليه الصلاة والسلام يبدأ معنا بدعوتنا إلى نفض الغبار والصدأ والظلام عن فطرة الله الثاوية في أعماقنا .. ثم الإصغاء لنجواها وصوتها .. عندئذ سنجد الإيمان بالله ، بل سنجد الله سبحانه ملء رُوعنا ، وقلوبنا ..

فاذا تم لنا ذلك ، فسيكون علينا أن نؤمن برسله وكتبه لكي نعيش ونحيـا في نور رسالاته ، وهدي كلماته .. ولسوف يحدثنا المرسلون عليهم صلاة الله وسلامه عن الغيب العظيم بكل ما يحفل به من أسرار تبهر الألباب وحقائق تتحدى الجحود ، وسيكون علينا أن نؤمن بكل ذلك الغيب ، وسيكون هـذا الإيمان تحـريراً لنا من غرورنا .. وفي نفس الوقت سيكون مِسْباراً لإيماننا بالله .. وحادياً لأشواقنا إلى ما وراء عالمنا المنظور ، ودنيانا المحدودة .

فالإيمان ــ كما يعلمنا الرسول :

« أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخـر ، وتؤمن بالقَدَرِ خيرِه وشرِّه » .

إن علاقة الإنسان بربه ، تفقد وجودها إذا نكص عن هذا الإيمان . أو إذا آمن ببعض وكفر ببعض .

* * *

فأما عن الإيمان بالله ، فما هـو بحاجة إلى دليل .. إن كل ما في بداهة الكون العظيم ــ من قطرة الماء إلى الشموس والمجرَّات شاهدة على وجوده . هاتفة بألوهيته .

وكل ما في الآفاق . وما في أنفسنا دليل وبرهان ..

وإنما نعمَى عن الله سبحانه ، لأننا نريد أن نراه وكأنه واحد من الناس أو شيء من الأشياء ، تتسع لرؤيته حدَقَتنا الصغيرة ، وتلمسه حواسنا الكليلة ..!!

كذلك تعجز البراهين التي نحاول التعرف إليه عن طريقها ، لأنها نفس البراهين التي نحاول أن نستدل بها على وجود نهر ، أو بحر ، أو حفريات ..!!

لا ، إننا لا نستطيع أن نرى الله جَهْرة ، كما نرى أشياء الدنيا ، وهـذا من رحمته بنا ..

يقول عليـه السلام :

« حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره » ..!!

ولقد سئل عليه السلام :

« كيف رأيت ربك ..؟ فأجاب : نورٌ أنّى أراه » ..

إننا نعرفه ــ سبحانه ــ بآثار قدرته ورحمته التي لم يقل أحد منـذ وعى الإنسان نفسه : إنه يشترك مـع الله في خـلق السماوات والأرض والإنسان . أجل . هو وحـده الذي قال لنا :

« أنا ربكم . فاعبدون » .

ومحاولة معرفته بنفس الأسلوب الذي نعرف به المخلوقات، سذاجة مضحكة.

من أجل هـذا يقول الرسول :

« تَفكَّروا في خلق الله ، ولا تَفكَّروا في الله ؛ فتضلوا » ..

إن هذا الحائر الصغير الذي نسميه « العقل » عاجز عن فهم أشياء كثيرة تحفل بها دنيانا ، بل عاجز حتى اليوم عن معرفة كُنه أو حقيقة أشياء اكتشفها واخترعها كالكهرباء مثلا ، فأنى له أن يعرف بوسائله المادية القاصرة من « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » ..؟!

« يا أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد » .

هكذا يعلمنا الرسول عليه السلام .. وإن الناس في كل عصر وجيل ليؤمنون بأن أباهم واحد ، فلماذا يستريب مستريبهم في أن لنا ربّاً .. وأنه واحد ..؟؟

إن كل كشوف العلم تزيد ــ حتى أصحابها العلماء أنفسهم ــ انبهاراً بالنظام المذهل والحكمة المعجزة القائمين وراء كل حركة ووراء كل ذرة في هذا الكون العظيم .

★ ★ ★

والإيمان بالله يعني أنه قد قام « ميثاق » بين العبد وربه ..

وها هو ذا رسول الله عليه الصلاة والسلام يتلو علينا بعض بنود هذا الميثاق :

« احفظ الله ، يَحْفظْك ..

احفظ الله ، تجده تِجاهَك ..

تعرَّف إلى الله في الرخاء ، يَعرِفْك في الشدَّة : ..

إذا سألتَ ، فاسأل الله ..

وإذا استعنتَ ، فاستعنْ بالله ..

واعلم أن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك ، لم ينفعوك إلا بشيء

كتبــه الله لك ..

ولو اجتمعوا على أن يضروك، لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك..

جَفَّت الأقلام، وطُويَت الصحف » ..

هكذا نرى الإيمان في حقيقته، فاذا هو « طاقة» جبارة لا يتخلّى عن امتلاكها والعضّ عليها بالنواجذ سوى تعس مخبول ..!

وسيسأل سائل: من الذي لا يتمنى أن يمتلك هذه الطاقة ..؟ وبالتالي. فمن الذي لا يتمنى أن يلقي جسده المجهَد، وأثقاله المبهظة على مرفأ الإيمان ..؟

ولكن أين السبيل إليه إذا تاه عنه العقل في زحام الشكوك والضلالات ..؟

ألا إن السبيل إليه لَيسير .. بل إنه لا يكاد يكون له سبيل؛ لأنه معك، وإنه لأقرب إليك من يدك ولسانك وبَنانك ..

إن كل ما يُطلب منا حتى نجد الإيمان ملء قلوبنا: هو أن نوقظ فطرة الله فينا .. لا أن نخلقها أو نوجدها .. فهي ــ كما قلنا من قبل ــ ثاوية في أعماقنا.

يقول عليه السلام، وهو يحدثنا عن الله عز وجل.

« إني خلقت عبادي حُنَفاء كلهم، فأتتهم الشياطين فاجتالَتْهم عن دينهم وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمَرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً ».

فأنت إذن خُلقت مؤمناً بالله الواحد الأحــد الذي لا شريك له ولا مثيل ..

فلماذا تنسى أنك مؤمن .. ؟

ولماذا تذهب في حيرة تعسة، وعصبية مضحكة لتبحث عن إيمان.؟ أو عن دليل يُفيء عليك الإيمان.؟ ولماذا تؤمن ببعض الكتاب وتكفر ببعض.؟ وتؤمن ببعض الرسل، وتكفر ببعض ..؟؟!

لماذا تشوه الإيمان الذي منح الله كلاًّ منا فطــرته وهاتفه ودليله.؟ ولماذا تتوهم غيــابه عنك وانفلاته منك ..؟ ليس عليك سوى أن تحرك فطرتك وألا

تطمرها تحت تراب الغفلة والإعراض .. وهــذه آية صدق الإيمان وضرورته وتلقائيته .. فهو لا يحتاج إلى معاناة عقلية ليدلك على وجــود الله . بل على العكس ، نرى نفي الله هو الذي يحتاج إلى دُهورٍ من المعاناة والتفكير ، ثم لا يجد المستريبون حيلة ، ولا يهتدون سبيلاً ..!!

إنه في داخلك ، وهو جزء من صميمك.. تماماً مثل قلبك وكبدك ورئتيك .!

ولكن لأنه الجزء النوراني فيك ، فهو لا يُدرَك ولا يعمل إلا بالتفاتِ الروح إليه ..

أجل .. إن مجرد لفتة صادقة من الروح إلى الفطرة التي أودعها الله إيانا كافية لتفجير طاقة الإيمان وإضاءة أنواره جميعاً ..

* * *

وحين تؤمن بالله .. أعني حين تتألق فطرتك بنور ما أودعها الله .. فآنئذ ستؤمن برسله الذين اصطفاهم ليهدونا إليه وإلى ما يريده لنا من خير وصلاح .

وستؤمن بملائكته ــ هــذا العالم الجليل غير المنظور ، والحافل بعبادٍ لله مكرمين ، منهم من يحفظنا بأمر الله ..

وستؤمن بكتب الله المنزلة لتضيء لنا الطــريق ..

وستؤمن بالقدر إيماناً يقول لك : « اعقِلْها ، وتوكّل » .

ليس على ظهر الأرض قوة تستطيع أن تحول بينك وبين خير ساقه الله اليك.. أو تدفع عنك سوءاً صنعته لنفسك وخلّى الله بينك وبينه .

وستؤمن بخلود الروح ، وبالبعث بعد الموت ، لأن رسل الله أخبرونا بذلك كله صادقين .. ولأن البداهة ترى في ذلك تفسير حكمة الخلق وحكمة الحياة .. وصدق القرآن إذ يقــول :

« الذي خلَق الموت والحياة لِيَبلُوَكُم أيُّكُم أحسَنُ عمَلاً وهــو العزيز الغفور » .

* * *

المُرسَلون .. لقد حدثنا الرسول « محمد » ﷺ عن الكتب التي سبقت القرآن ، وعن الرسل الذين خُتموا به .. وضرب لمسيرتهم المثل الجميل بقصر كبير رحيب وَوارِف ، قد اكتمل بناؤه إلا موضع لَبِنَة لم تأخذ مكانها في البناء بعد ، ويُشكّل فراغها ثغرة فيه ، ثم يقول عليه السلام في تواضع عظيم :

« فأنا تلك اللَّبِنَة » ..!!

من أجل هذا كان معنى اشتراط الإيمان برسالته أن هـذا الإيمان يتضمن ــ في نفس اللحظة ولنفس السبب ــ الإيمان بجميع إخـوانه الذين سبقوه من الأنبياء والمرسلين .. ولقد أمره القرآن الكريم أن يقول هو وأصحابه والمسلمون معه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها :

« آمنّا بالله.. وما أُنزلَ إلينا ، وما أُنزلَ إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاقَ ويعقوبَ والأسْباطِ .. وما أوتِيَ موسىَ وعيسىَ .
وما أوتِيَ النبيّونَ من ربِّهمْ ، لا نُفَرِّقُ بين أحَدٍ منهم ، ونَحْنُ له مُسْلِمونَ » .

وحدثنا ــ عليه السلام ــ عن الملائكة مؤكداً وجودهم ومحتماً الإيمان بهم ، وهل كان « جبريل » الذي تنزّل على الرسول بالقرآن كله ، ولَبِثَ مع النبي ثلاثةوعشرين عاماً يُسدّد خُطاه، وينقل إليه نعمة الله..هل كان إلا ملكاً كريماً..؟؟

ولقد رأى الرسول الملائكة كثيراً ، فهم قادرون على التجسد عندما يشاءون.

خرج عليه السلام يوماً وراء جنازة أحدِ المسلمين وكان مُجهَداً ، فجيء له بدابة يركبها فأبى .. ولما سئل فيما بعد عن سبب رفضه الركوب قال :

« إن الملائكة كانت تمشي ؛ فلم أكن لِأركب وهم يمشون » .

ولقد قاتل معه الملائكة يوم بدر فاتحة معاركِ الإسلام ، وأكد القرآن هذا المشهد في آياته ..

ولقد رأى «جبريل» عليه السلام أكثر من مرة، وفي أكثر من تجسد وصورة.

ويبدو أن بعض الأرواح الخيرة الطاهرة من البشر المؤمنين ، تتحول في

البرزخ وعند الله سبحانه إلى شيء شبيه بالملائكة ، أو يُؤذَن لها أن تشارك الملائكة بعض نشاطهم وتَساميهم •

يقول عليه السلام عن الشهيد العظيم « جعفر بن أبي طالب » رضي الله عنه :

« رأيت جعفر بن أبي طالب ملَكاً يطير في الجنة مع الملائكة بجناحين » •••!!!

وإن كثيراً من ملائكة الله ليعملون بأمره سبحانه في حفظ المؤمنين على الأرض ، وفي تزكية نفوسهم ، ومباركة جهودهم ، وتسديد أفكارهم وخطاهم •• عن طريق المشاركة غير المنظورة والإلهام الحكيم ••

★ ★ ★

كذلك حدثنا الرسول عن البعث بعد الموت، وجعَل الإيمان به حتماً وفرضاً•

إن عظمة الإيمان ماثلة في إيمانك بالغيب الذي أخبرك به المرسلون •• ففي الإيمان بالغيب اعتراف نبيل وجليل بقدرة الله وبعظمته وبصدق كلماته •• على أن الرسول عليه السلام حين طُلِبَ إليه أن يقيم دليلا مُقْنِعاً على البعث ؛ اختار الدليل بديهة من البدائه الرائعة والباهرة • سأله سائل يوماً :

ـ « كيف يبعث الله الموتى ، وما آية ذلك ••؟ » ••؟

فقال الرسول للسائل :

« أما مَررْتَ بوادي قومك جَدْباً ••؟ ثم مررت به يهتز خَضِراً ••؟ فتلك آية الله في خلقه ، وكذلك يبعث الله الموتى » •••!!

إنه يريد أن يقول له ولنا : هل رأيت مثلا بذرة مّا ؟ حبة ذرة مثلا•• أو حبة قمح •• ما هي وما شكلها ••؟ إنه جزء صغير تافه من جماد لا حركة فيه ولا حياة •• ومع ذلك ، فإنها لا تلبث بعد دفنها في الأرض المجدبة حتى تشق الأرض شقاً وتبزغ من تحت ترابها وطينها نباتة خضراء تتألق حياة ، ثم ساقاً أو عوداً يحمل ، لا الحبة الواحدة التي ألقيت في الأرض •• بل يحمل مئات الحبات في نضَدٍ عظيم ••!!

إن الذي بعث الحبة الجافة اليابسة الميتة في هذا الخلق العجيب قادر على أن يحيي الموتى •• ويبدو أن الرسول عليه السلام ، لا يضرب بَعْث الحبة مثلا لبعث الإنسان بأسلوب مجازي يبتغي بـه تقريب الواقـع أو تسديد الاقتناع فحسب •• بل يضربه كصورة مطابقة لما سيحدث للإنسان عند بعثه ونشوره •

فكما أن شجرة المانجو لن تتسامق عالية مثمرة إلا منبعثة من بعض بقاياها القديمة ، وهي بذرة المانجو •• وكما أن عود القمح بسنابله لا يرده إلى الحيـاة إلا حبة واحدة تطويها الأرض تحت ثراها •• فكذلك الإنسان ــ كل إنسان •• كل فرد إنساني ــ لا بد أن يبقى من جسده « بذرة » ينبعث منها خلقه الجـديد يوم يبعث الله من في القبور •• يقول عليه الصلاة والسلام :

« إن في الإنسان عظماً لا تأكله الأرض أبداً • فيه يُركَّب الخلق يوم القيـامة •

قالوا : أي عظم هو ، يا رسول الله ••؟

قال : عَجْب الذَّنب » ••

ويزيد المعنى توضيحاً في حديث آخر :

« يأكل التراب كل شيء من الإنسان ، إلا عَجْب ذَنَبِه •

قيل : وما هو يا رسول الله ••؟

قال : مثل حبة خردل •• منه تنشأون •• » •

و « عَجْب الذنب » هو عظمة في أدنى الصُّلب ، وعند منتهَى العمود الفقـري ••

وهكذا يضعنا الرسول أمام واقع ، أو على الأقل أمام مثال في قوة الحقيقة والواقـع •

فهنا حبة قمح جافة ميتة ، يبعث الله منها كائناً يهتز خُضرة وبهجة وحياة ••!!

وهنا «عَجْبُ ذَنَب» عظمة جافة ميتة يبعث الله منها إنساناً يتفجر حياة••!!!

ثم لماذا نستبعد بعث الإنسان على الله •• ولا نستبعد خلقه •• مع أن الغرابة

والإعجاز في الأمرين واحد ..؟ فمن قطـرة ماء خلقك أول مرة .. ومن عظمة صماء يبعثك مرة أخرى ..!!

إن الأمر في منتهى اليسر عندما يشاء الله ..

وإنا لنشهد عمليتي الموت والبعث كل يوم . ولكننا عنهما غافلون.فليذكّرنا الرسول إذن فيقول :

« والذي نفسي بيده ، لَتموتُنَّ كما تنامون ، ولَتبعثن كما تستيقظون ..

ولَتجزوُنَّ بالإحسان إحساناً ، وبالسوء سوءاً » .

كما ننام نموت .. وكما نستيقظ نُبعث .. ومن كان في شك من المـوت والبعث، فليعش إن استطاع بلا نوم ، وبلا استيقاظ ..

* * *

وفي ختام حديثه عن الإيمان ، حدثنا عليه الصلاة والسلام عن القدَر ..

« وتؤمن بالقدر ــ خيره ، وشرّه » .

والإيمان بالقدر موصول العُرَى بالإيمان الحـق بوجود الله وبألوهيته وحـده ، وبقدرته الكاملة على كل شـيء .

وصدق سبحانه إذ يقول :

« إنما أمرُنا لشيء إذا أردناه ، أن نقولَ له كُنْ فيكون .. » .

وهذا الإيمان ليس مَدْعاةَ تثبيط وتَواكُل . بل إنه لَيُفيء على صاحبه قوة عارمة لا تبقي على صعب إلا ذللته .. ولا مستحيل إلا قهرته .

ذلك أنه حين تؤمن كما قال الرسول :

«أنَّ ماأصابك لم يكن لِيخطئك، وما أخطأك لم يكن لِيُصيبك»..

فانك آنئذ تستطيع ــ ما دمت ماضياً على الطريق المستقيم ــ أن تعمـل بطاقةٍ قوية .. ولم لا ..؟ وأنت ساعتها إنما تستمد ثقتك وعزمك واقتدارك من

مالك القوة جميعها ، رب الأرض والسماء ••؟ •

*　*　*

إن من يتم له هـذا الإيمان بالله ؛ وبملائكته ، وبرسله ، وبكتبه ؛ وباليوم الآخر ، وبالقدر •• ستكون علاقته بالله ؛ وبالغيب العظيم كله قد وجدت عافيتها ونورها •• وسيكون عليه آنئذ أن يتهيأ لأعظـم هجـرة في وجودنا الإنساني بأسره •• وهي ليست هجرة من مكان إلى مكان ــ بل هجرة إلى الله ••!!

إلى رحابه •• إلى الملأ الأعلى من أحبابه •• مع خاتم رسله الداعي إليـه بخاتم الكتب ــ القرآن •• وبخاتم الأديان ــ الإسلام ••

« إن الإسلام بني على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبـده ورسوله ، وإقـام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » •

يقول عليه السلام :

« المهاجر من هَجر ما نَهى الله عنه » •

ويسأله سائل :

« يا رسول الله • أيّ الهجرة أفضلُ ••؟

فيجيبه عليه السلام : أن تَهجر ما يكرهُ ربك » •

فالهجرة إلى الله بالروح وبالإرادة ، وبالعمل الصالح والقلب السليم ــ هي أولى ثمار الإيمان •• وفي نفس الوقت أولى ضمانات بقـائه ونمائه ••

ذلك أن فتن الحياة الدنيا لاتَفْتَأ تُغري وتُضِلّ ••وإنها دائماً لفي مزيد••

يقول عليـه السلام :

« إن من ورائكم أياماً ، الصبرُ فيهن ــ أي على طـاعة الله ــ كالقبض على الجمر •• للعامل فيهن ــ أي بطاعة الله ــ مثل أجر خمسين •

قال بعض أصحابه : يا رسول الله : أجر خمسين منا أم منهم ••؟

« قال: بل أجر خمسين منكم ».

فهذا الواقع الذي يتراءى للرسول، مُصوِّراً تفَاقُم السوء وزحف المغريات، وتَطاوُلَ أعناق الفتن- ينادي المؤمنين الراغبين في أن يظلوا في حِمَى الله إلى الهجرة الدائمة إليه.

وكلما تكاثرت الفتن، واستَشْرَتْ ضراوة الشهوات، كانت الدعوة إلى الهجرة أكثر إلحاحاً.

ومرة أخرى، ليست الهجرة هنا هجرة من مكان إلى مكان.. بل هجرة إلى الله بعمل صالح وقلب سليم.

يقول عليه السلام: « الهجرة هجرتان: هجرة الحاضر، وهجرة البادي.

« فهجرة البادي- أي ساكن البادية أو الريف- أن يُجيب إذا دُعي.. ويُطيع إذا أُمِر..

« وهجرة الحاضر -أي ساكن الحضر والمدينة- أعظمها بلية.. وأفضلها أجراً »..!!

إنه- عليه صلاة الله وسلامه- يدرك ما يعانيه العائشون في قلب المدن الزاخرة من تواثب المغريات والشهوات عليهم وعلى ما معهم من إيمان وتقوى.

من أجل هذا، فحاجتهم إلى هجرة الروح أدعى وألزم، وذلك يكون بإسلام الوجه والقلب إلى الله في عبادة خالصة- ليس شرطاً أن تكون كثيرة.. وإنما الشرط أن تكون دائمة وخالصة. يقول عليه الصلاة والسلام: « إن أحب الأعمال إلى الله أدومُها، وإن قَلّ.. »

فالهجرة إلى الله بالمعنى الذي أبانه الرسول عليه السلام، متوسلة بالإحسان في عبادته- هو السبيل الذي يدعونا إليه سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم لنقيم مع ربنا وبارئنا أفضل العلاقات وأتقاها وأسماها..

ولقـــد دعانا إلى ذلك بأحاديثه وتوجيهاته •• وقبل الأحاديث والتوجيهات دعانا بالقدرة الحسنة التي تجلّى فيها ولاؤه المطلق لله ، والتي أعطى بها من المثل الأعلى ما لا نظير له ولا مزيد بعـــده ••!

* * *

لقد أسلم وجهه لله ، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه . وجعـــل له سبحانه ، صلاته ونُسُكَه ، ومَحياه ومماته ، وأترَع كل لحظات وجـــوده وحياته بذكره وحمده وتمجيده ـــ فلم يكن يصبح أو يمسي •• يقعد أو يمشي •• ينام أو يصحو •• يتحرك أو يسكن •• لم يكن في ليله ونهاره . في سره وعلانيته . في جهاده ونسكه إلا قانتاً أوّاباً يحيا بالله ومعه ، لا يرنو لغير جلاله ولا تقع عينه إلاّ على آياته وآلائه ، ولا يتألق في خاطره إلا سنا بهائه ونور جلاله •

« اللهم ربنا لك الحمد ••

مِلْءَ السماوات ، ومِلْء الأرض •• ومِلْء ما بينهما •• ومِلْء ما شئت من شـــيء بعـــد ••

أهـــلَ الثناء والمجـــد ••

أحقّ ما قال العبـــد ، وكلنا لك عبد ••

لا مانع لما أعطيت •• ولا مُعْطِيَ لما منعت ••

ولا ينفع ذا الجَدِّ منـــك الجَدّ ؟؟• »

في أي سماء عالية كانت علاقة الرسول بربه تُحلّق •؟؟

وبأي هُيام كانت تغرد وتُمجِّد ••؟؟

هو ذا ، إمام المحبين ، وإمـــام العارفين ، يتأنق في ابتهالاته وضَراعاته تَأنُّق لمحبور المشتاق •

ألم يكن يكفيه أن يقول (اللهم ربنا لك الحمد •• كل الحمد) ، ثم يكررها كما يشاء ••؟ بلى ـــ كان يكفي ؛ ولكن حبه الدافق •• الزاخر والفياض يأبى لا التعبير عن فُيوضه بأقصى ما يملك المنطق الإنساني من إيضاح وتفصيل ••

وبأقصى ما يملك الحساب من عدد ومدد ..!!

« اللهم ربنا لك الحمد » ..

كم ..؟ وأيّان ..؟

« مِلْءَ السماوات » .

لكن السماوات لا تكفي روحه المأخوذة بجلال ربها وحبه ، فهي تبغي المزيد..

« ومِلْء الأرض » ..

والأرض أيضاً لا تكفي .. فليكن المزيد !!

« ومِلءَ ما شئت من شيء بعد » ..

إنه يريد أن يُعطِّر الكون كله ، ويملأه كله — ما هو كائن منه وما سوف يكون — بحمد الله وتمجيده ؛ لأنه وحده :

« أهل الثناء والمجـد » ..!!

ثم لا يكاد عليه السلام يقول : (أحقّ ما قال العبد) حتى يعقبها بتخصيص تذوب كلماته حباً وشوقاً وعبودية وإخباتاً ، فيقول :

« وكلُّنا لكَ عبد » ..!!!

لقد كان عليه السلام يرفع إلى ربه هذا الحمد في الصلاة ، وبعد أن ينهض قائماً من ركوعه الطـويل الذي كان يستغرقه استغراقاً كلياً وهو يسبح ربـه ويقول : (سبحان ربي العظيم) .

إنه يعرف الله حـق معرفته .. ويعلم أن له ملك السماوات والأرض وما فيهن ، وإليه يرجع الأمر كلـه .

من أجل هـذا ، فهو إذ يمجده ، وإذ يدعونا لتمجيده ، إنما يريد تمجيداً بِسَعَةِ هذا الكون . وعَددِ ما فيه من خلق ربنا ونعمته .. ثم بعد هذا يقول ويأمرنا أن نقول لله عز وجل :

« لا نُحْصي ثناءً عليك ... أنتَ كما أثنيتَ على نفسك » !!

إنه ــ كما رأينا ــ يذكر الله ويثني عليه ، ويريدنا أن نذكر الله وتثني عليه بأقصى ما في الحساب من أعــداد وأمداد ..

انظروا :

« سبحان الله ، وبِحَمْدِه ..
عدد خلقه .. ورِضا نفسه ..
وَزِنَةَ عرشه .. ومِداد كلماتِه .. » .

إن هــذا التخصيص بالنوع وبالعدد لا يصور المبالغة في تمجيد الله . بل يصور العجز عن وجود الكلمات والأدوات التي يُمجَّدُ بها سبحانه كما ينبغي له أن يمجد .. وهي لا ترتل آياتِ حمده وحسب ، بل وتَصْدَعُ في إقرار مطلــق بأنه صاحب الملك كلــه ذو الجلال والإكرام .

« اللهمَّ إني أصبحت أُشهدك .. وأشـــهد حَملة عرشــك .. وملائكتك.. وجميع خلقك.. أنك أنت الله وحدك لا شريك لك ، وأن محمداً عبدك ورسولك » ..

هو وحــده ، لا شريك له ..

وتلك هي القضية .. وهذا أول نور تنسج منه علاقتنا الوثقى بربنا الــذي لا شريك معه ولا كفء له .. فالرسول عليه السلام يريد لعلاقة المؤمن بربه أن تكون ممثلة لحقيقة إيمانه ويقينه ، وأن تكون قلباً مفعماً بحضور الله ، وروحــاً محبورة بالشوق إليه ، وكياناً مُسْلِماً ذاته لله رب العالمين .. ها هو ذا يقول ، ويعلمنا أن نقول :

« اللهم أسلمتُ نفسي إليك ..
ووجَّهتُ وجهي إليك ..
وألجأتُ ظهري إليك ..
رغبة ورهبة إليك ..
لا مَلْجأ ، ولا مَنْجى منك إلا إليك ..

آمنتُ بكتابك الذي أنزلت ..
وبنبيك الذي أرسلت » ..

إن إسلام النفس إليه ، وتوجيه الوجه إليه ــ رغبة في رضوانه ورهبة من سخطه . مع الإيمان الواثق بأنه لا ملجأ منه إلا إليه ــ كل هذا يعني حين يصدر من قلب خاشع صادق مُتبتل أن صاحبه قد عرف الله . وإذن فعليه أن يحمل تبعات الرشد التي تُفيئُها معرفة الله .

إن معرفة الله تعني اليقين بأنه الإله الواحد الأحد الذي لا إله غيره .

وتعني اليقين بأنه خالق كل شيء ومالك كل شيء ..

وتعني الرغبة المشتاقة، والحرص الوثيق على طاعته وعبادته والتماس رضاه..

وهذا كله يعني من جديد توحيده ..

والتوحيد الذي تقوم به علاقة الروح ببارئها لا يتمثل وحسب في شهادة أن لا إله إلا الله ..

إن هذه الشهادة بالقلب وعلى اللسان إنما تمثل وثيقة الانتماء إلى عالم الإيمان والمؤمنين .. وهي (شهادة جنسية) تحدد نوع المُواطنة بالنسبة لحاملها وصاحبها .. تحدد انتماءه لوطن مّا .. لكنها لا تحدد وحدها مَدى ولائه لهذا الوطن ، ولا مَدى حبه وأمانته وإخلاصه ..

وهنا ، ونحن نبحث في كلمات الرسول وأحاديثه عما يزكّي علاقتنا بالله ويُصحّحها ، ويَهبها العافية والنور والتُقى ، ندرك في يُسر جوهر توحيد الله وحقيقته .

إنه ماثل في كلمات الرسول هذه :
« أسلمتُ نفسي إليك
ووجهت وجهي إليك
وألجأت ظهري إليك » .

تجرد كامل لملاقاته والاتجاه إليه . فليس ثمة ما يشغل عنه أبداً ..

لا اختيار ؛ لأنه أسلم نفسه إليه ..

ولا مطمح ؛ لأنه وجّه وجهه إليه ..

ولا مخافة ؛ لأنه ألجأ ظهره إليه ..

وإذن فالأعمال كلها والطاعات كلها إنما تتجه في استحياء وخشوع وتقوى إليه وحده .. لا تتلفت ذات اليمين ولا ذات الشمال بحثاً عن غيره يُرغَب ؛ لأنه ليس هناك في بهائه وجلاله سواه .

ومن لم يملأ الله عينه ونفسه ورُوعَه ؛ فقد خَسِرَ نفسه .. ومن جعل بعض عمله له ، وبعضه لغيره ؛ فقد خسر عمله .. ومن كرس حياته له . ولغيره معه ؛ فقد خسر حياته .. هكذا يعلمنا الرسول الأمين فيقول :

يقول الله تعالى في حديث قُدْسِيّ :

«أنا أغنَى الشركاء عن الشرك» .

عبارة وجيزة ، لكنها فاصلة كالسيف المرهَف .. فالله سبحانه أغنى الشركاء عن الشرك ، فإذا لم يَكْفِكَ وحده فاذهب إلى من شئت .. أما أن تجعل له شريكاً من هوًى تهواه .. أو أحداً من خلقه تخافه وترجوه ؛ فذلك دنَس يُغلق في وجهك الأبواب ، وبُهتان تسقط به دعوى إيمانك وتوحيدك .

إن التوحيد يتطلب منك أن تكون كل أعمالك وقرباتك خالصة لوجه ذي الجلال والإكرام .

فالإخلاص فيما تقوله لله .. وفيما تعمله من طاعة الله .. وفي مشاعرك تجاه الله .. هو روح علاقتك بالله ..!!

إذا رأيت نفسك ، أو رأيت غيرك في عمل من شأنه أن يكون لله وحده ؛ جاءك النداء الرهيب :

« أنا أغنَى الشركاء عن الشرك » .

إن علاقتك بالله يجب أن تكون متحررة لله رب العالمين .

وكل الطاعات والعبادات التي تتبع منها يجب أن تكون خالصة لوجه الله وجلاله . متجردة له ..

إن هذا التجرد من كل الشوائب والتطلعات يجعل علاقتك بالله في مستوى القبول والرعاية التي يمنحها سبحانه عباده المخلصين الأخيار ، ويجعل منك عبداً « ربانياً » ، ونوراً يمشي بين الناس ..!

يقول عليه الصلاة والسلام :

« طوبى للمخلصين . أولئك مصابيح الهدى ، تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء » .

* * *

إنك حين ترسل بهدية إلى من تحب ، أو إلى من ترجو نفعه وتخاف ضره ؛ فإنك تتحراها من أجود وأنقى ما تملك وتستطيع . وبقدر ما يتقبلها هو بالغبطة والشكر يكون حبورك وسعادتك .. أما إذا حدث لأمر ما أن رفضها فكم يكون جزعك صاعقاً وأليماً ..؟؟

وإن الأعمال التي تتقرب بها إلى الله سواء كانت مناسك ، أو أخلاقاً ، أو عطاء .. لتتبوأ عنده سبحانه مقاماً كريماً حتى حين يكون باعثها الخوف منه ، ما دامت خالصة لوجهه الكريم . لكنها لا تجد هذا المقام ولا بعضاً منه ، إذا كانت لله ولغيره معه ..

يقول الرسول الكريم :

« إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً ، وابتغي به وجهه » .

فنوع العمل ـ لا عدده ولا كمه هو الذي يعطيه درجة التفوق والقبول .

ووجهة العمل . هي التي تفتح له الباب ، أو ترده خائباً مدحوراً .

إن لربنا من الجلال ما يجعله يرفض الثنائية في الاتجاه إليه . حتى حين يكون ذلك الثاني موضع حبه ورضاه .

يقول عليه السلام :

« يا أيها الناس ..

أخلصوا أعمالكم . فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له ..

ولا تقولوا : هذه لله ، وللرحم . فإنها للرحم وليس لله منها شيء..

ولا تقولوا : هذه لله . ولوجوهكم ، فإنها لوجوهكم وليس لله منها شيء » ..!!!

لكم أوصى الله بالرحم ، وقدس حقوقها حتى قال في حديث قدسي :

« أنا الرحمن .. خلقت الرحم ، وشققت لها اسماً من اسمي » ..

ومع هذا ، فحتى هذا الذي اشتق له اسماً من اسمه لا مكان له في وجهة أي عمل نرفعه إلى الله ..!

إن المسألة ليست مسألة الإخلاص فحسب ـ فمن الممكن وجود الإخلاص وراء عمل يُراد به وجه الله وخير الرحم .. إنما القضية قضية توحيد ..

فهل نحن مُوحِّدون اللهَ حقاً ..؟ وهل تقوم علاقتنا به سبحانه على توحيدٍ خالص له .؟ وتجرّد كامل لهذا التوحيد ..؟

هذا هو ما يدعو إليه الرسول ، لأن هذا ما يريده الله من عباده . وما ينادي به القرآن ، ويهتف به الإسلام .

وحين تسطع في القلب أنوار هذا التوحيد . فإن أي عمل للمؤمن حتى إزاحة حصاة من الطريق ، لن يجد له اتجاهاً ولا قِبلة سوى الله ..

والله سبحانه إذا كان يريد من أعمالنا وعبادتنا أن تجيء معبرة عن توحيده الحق . فليس ذلك لأنها تزيد في جلاله أو في ملكه شيئاً . بل لأنها تزيد في إيماننا

وترفع من مقدرتنا على السيادة الفاضلة على أنفسنا وعلى الحياة ..

من أجل هذا ، كان توحيد الله فيما نعمل ونعبد ، أيْ كان الإخلاص لوجهه الكريم ضرورة أكثر من العمل ومن العبادة — لأن هذا الإخلاص هو الذي يغير أنفسنا إلى أفضل . وهو الذي يهب أرواحنا تلك السيادة المرجوة .

إن من المعلوم بَداهَةً أن الله غني عن العالمين ، وأنه جل جلاله وعز جاهه لا يناله عمل أو عبادة ، وإنما كما ذكر القرآن الكريم :

« يناله التقوى منكم » .

وهو فَرِحٌ بتقوانا ، لا لأنها رصيد له .. بل رَصِيدٌ لنا .. ومِعراج لتفوقنا الروحي الذي يريده الله منا لصالحنا نحن ولحساب مصيرنا ..

من أجل هذا ، لم يكن يعنيه من العمل مهما عظم وضخم إلا روحه .. إلا هـذا التيار الخفي والخَفيّ الذي يكشف عن مدى توحيدنا الله فيما نعمل وفيما نعبـد .

ولهذا يخبرنا الرسول عليه السلام أن ثَمَّةَ أعمالا صالحة لم يأتها الإنسان قط . ثم هو يجدها عنـد الله بكل ثوابها ونعمتها — كتلك الأعمال التي يتمناها الإنسان ابتغاء وجـه ربه ، لكن ظروفه لا تسعفه بانجازها .

فهذا الذي يتمنَّى أن يصلح بين متخاصمين .. أو يدفع ظلماً عن مظلوم ، أو يفرج كربة مكروب ، أو ينشىء للخير مؤسسة ، أو ينجز أيّاً من الأعمال النافعة والقربات المطلوبة ، لا لشيء إلا ليقدم إلى الله هدية وتحية مخلصاً له الوجهة والنية والعمل .. ثم لا يجد لما يتمنى سبيلا ، يلقى الله وفي صحيفته كل هـذا الذي وَدَّه وتمناه ..

لماذا..؟لأنه بنواياه الطيبة وحَّد الله وعرف قدره وأخلص له وأسلم إليه أمره..

وفي هـذا يقول عليه السلام :

« إنما الدنيا لأربعة نفر ..

* عبد رزقه الله مالاً وعلماً . فهو يتقي فيه ربه . ويَصِلُ فيه رحمه . ويعلم الله فيه حقاً . فهذا بأفضل المنازل ..

* وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً . فهو صادق النية . يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ــ فهو بنيته وأجرهما سواء ..

* وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يخبط في ماله بغير علم ولا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم الله فيه حقاً ــ فهذا بأخبث المنازل ..

* وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ــ فهو بنيته ووزرهما سواء .. » .

فهنا فريقان من الناس :

أولهما ــ تهفو إلى الخير نفسه . لكنه لا يجد إليه سبيلا . فله من الأجر مثل الذين عملوا سواء بسواء ..

وثانيهما ــ تهفو إلى السوء نفسه . ولا يجد إليه سبيلا . فعليه بنواياه هذه لا عقاباً ــ فإن الله برحمته لا يعاقب على سريرة لم تتحول إلى ذنب ــ بل بَواراً تُصاب به علاقته بربه . وتَخلياً من الله عنه .. وكَمْ في هذا وحده من عذاب وعقاب ..!!!

لقد شرَع الله العبادات والقربات لتكون الوسيلة لإحياء الإنسان وإمداد روحه بنضرة التوحيد ونوره . ومن ثم كانت المسافة بين نوايانا ورضوانه ، أقرب من المسافة بين أعمالنا ورضوانه .. يقول النبي عليه السلام :

« يقول الله عز وجل لملائكته : إذا أراد عبدي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ــ أي سيئة واحدة .. وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة ..

وإن أراد أن يعمل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة . فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلى سبعمائة » .!!

إنه توحيد الله توحيداً يجـرد بواعثنا وحوافزنا من الرغبة إلا إليه ، ومن الرهبة إلا منه ــ هو الذي يسبر غور أعمالنا ويزن قيمتها .

فبمجرد أن تنوي الخير ابتغاء وجهه ، يكتب لك ثواب الخير على الفور حتى وإن حيل بينك وبين فعـله ..!

ذلك لأن الغـاية من الفعل قد أدركت ، وهي رؤيتك لله وحده لا شريك له حين تبتَّلتَ إليه بقلبك وبنواياك ، هنالك استقامت عقيدتك واستقام طريقك ، وأدركتك التقوى التي يريدها الله لعباده .

★ ★ ★

وتوحيد الله على هذا النحو ، يمنحنا مقدرة لا تنتهي .. لماذا ؟ لأن توحيده هذا يعني اليقين بأنه لامعقِّب لحكمه ولا رادَّ لأمره... يعني أنه وحده واهب القوة ومانح التوفيق .. يعني أنه وحده الضار والنافع .. وإذن فليس لمن وحَّده وآمن به أن يخاف شيئاً ، أو يُجْفِلَ أمام خطر ، أو يهرب من تبعة ، أو يركن إلى قوته التي تخبو وتغيض .

إن تجريد أعمالنا ، وتكريس حياتنا لله تصحح توحيدنا له وتؤكد لجوءنا إليه ، وتعني تصميمنا المبارك الميمون على أن نجعل من أنفسنا أهلا لحبه ورضاه.. وأهلا لعبادته ونعمته ..

عندئذ نجـد الطريق إليه مفتوحاً رَحْباً تنادينا إليه الآية الكريمة :

« إن الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين » .

★ ★ ★

أجَل .. فبالتوبة الصادقة النصوح تجد علاقتنا بالله مفتاح الطريق ، وبها تَتلقى من الله العلي المجيد بُشرى الصلاح والقبول .

ويعلمنا الرسول ﷺ أن التوبة ، عزم رشيد على خَلْعِ كل أوثان النفس والهوى والحياة .. وتطهُّر جميل من كل المعاصي وأدرانها ، والآثام وأثقالها ،

والشهوات وأباطيلها ..

هي لجوء إلى الله . واحتماء بحماه ..

هي برءٌ جسيل وجليل من الإثم والفسوق والعصيان .. واتجاه بالروح وبالنفس وبالعمل إلى مغفرة الله ورضوانه ..

ويلازم التوبة استغفار دائم إلى الله الغفور الرحيم .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« طوبى لمن وُجِدَ في صحيفته استغفار كثير » ..!!

ويقسم عليه الصلاة والسلام ـ وهو الذي لا يُعرَف له ذنب قط ـ فيقول :

« والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة » ..

ذلك أن الاستغفار . ليس فقط لتطهير النفس من الذنب .. بل ولتطهيرها من العُجب ..

وحين لا يكون ثمة ذنب ولا عُجْب ، كما هو شأن الرسول الكريم يكون الاستغفار إقراراً بجلال الرب وضَراعة العبد . وهو مقام يجد فيه المرسلون والصدّيقون من حلاوة الرضا ما لا عينٌ رأتْ ، ولا أذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَر على قلبِ بَشر ..!!

ثم إن الاستغفار كما يعلمنا الرسول عليه السلام يمثل دعاءً مستجاباً . حتى ولو لم يُضَمِّنه المرء حاجته .

يقول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم :

« مَن لزم الاستغفار جعل الله له من كل هَمٍّ فَرَجاً ، ومن كل ضِيقٍ مَخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

كما أنه الضمان أن يظل القلب كالمرآة المجلوّة تتألق على صَفائِه ونقائه رُؤَى الجلال والحق .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« إن للقلوب صدأ كصدإ النحاس ، وجلاؤها الاستغفار » ..

وعلاقة العبد بربه تتطلب مراجعة مستمرة للتبعات التي تفرضها ، وللسلوك الذي نحمل به هـذه التبعات .

إننا في حياتنا الدنيا ، ومع الذين نحبهم أو نخافهم ، نراجع باستمرار مع أنفسنا سلوكنا تجاههم ، ولا نكاد ننتهي من لقاء لنا معهم ، حتى نستعيد الحديث الذي دار بيننا وبينهم باحثين عما عسانا نكون قد قارفناه من لحن أو خطأ ..

فحديثك إلى الله ، وسلوكك مع الله ، وأفكارك عن الله ، ومشاعرك تجاه الله ــ كل هذه التي تشكل علاقتك بالله سبحانه ، لا بد أن تكون موضع تساؤل ومراجعة ، حتى لا ترين عليها أخطاء مقصودة ، أو تشوبها أخطاء طارئة .

من أجل ذلك أوصى الرسول عليه السلام بالتوبة .. فالتوبة هي هذه المراجعة التي تكشف عوائق تقدمنا الروحي وأخطاء سلوكنا ، فتدرك ذلك كله بالإنابة ، والتصحيح والرجوع إلى الحق الذي يريده الله ، والخير الذي يرضاه ..

يقول عليه الصلاة والسلام ..

« اتق الله حيثما كنت ..

وأتبع السيئة الحسنة تمحها ..

وخالق الناس بخلق حسن » .

فلنتأمل قوله عليه السلام :

« وأتبع السيئة الحسنة تمحها » .

نعرف منها جوهر المراجعة التي يعطيها الرسول اسم « التوبة » وحقيقتها ..

فهي ليست مراجعة نظرية ، أو تأملا فلسفيا .. إنما هي تصحيح سريع وفوري لكل خطأ .. ومتابعة متساوقة متلاحقة لكل سيئة .

وهذه هي « التوبة » التي يأمر بها الرسول ويراها ضرورية لبقاء علاقتنا بالله

ناضرة وطاهرة .

* * *

إن حاجتنا إلى التوبة نابعة من طبيعتنا البشرية ـ فطبيعتنا قابلة للخطأ . بل صانعة له ، وإن الأخطاء لتتفصّد منها كما يتفصد العرق من مَسامّ الجسد ..

ويبدأ الرسول ترويض النفس بإنقاذها من الانسحاق تحت وطأة الذنب . وفي نفس الوقت بإنقاذها من الإصرار عليه . يقول عليه السلام :

« كُلُّ بَنِي آدم خَطَّاء ..
وخـير الخطائين ، التوابون » .

فالمهم في موقفنا من الخطايا ألاَّ ندعها تتراكم وتنغلق علينا حلقة بعد حلقة ، ضاربة بكثرتها حصاراً قاسياً ومميتاً حولنا .. بل نعالجها أولا فأولا ..

يقول عليه السلام :

« إذا أسأتَ فأحسِنْ ..
وأحْدِث لكل ذنب توبة » .

ويقول :

« إن مَثَلَ الذي يعمل السيئات ، ثم يعمل الحسنات ، كمثل رجل كانت عليه دِرع ضيقة قد خنقته ثم عمل حسنة فانفكّت حلقة ، ثم عمل حسنة أخرى فانفكت أخرى ، حتى تخرج إلى الأرض » .

ولا يتأتى أن تكون الحسنة حسنة إلا إذا كانت تغييراً للسيئة التي ارتُكبت. فالذي يسرق ـ مثلا ـ ثم يتصدق ويُحسن ، لا تكون الصدقةُ الحسنةَ الماحيةَ لجريمة السرقة ، إنما يمحوها النزوع عنها ورد الحقوق إلى ذويها ، ثم يضاعف محوَ آثارها بعد ذلك فعلُ الخير في شتى صوره وأشكاله .. أما أن يبقى الإنسان سادراً مع ذنبه ممنّياً نفسه بأن له حسنات أخرى ستحلّ وَثاقه ، فهنا الخطأ المميت .!!

صحيح أن الله سبحانه لن يَبخسك حقك في حسنة واحدة تأتيها . ولكن

صحيح أيضاً أنه لن يتسامح معك في إصرارك على خطيئة أو خطايا يمقتها ولا يرتضيها ..

وعلى هذه الحقيقة يفتح الرسول أعيننا فيقول :

« إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كان نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ، ونزَع ، واستغفر ، صُقِل منها .. وإن زاد زادت حتى يُغلَّف بهـا قلبه .. فذلك هو الران الذي ذكره الله في كتابه فقـال : (كلاَّ بل رانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون) » .

فهنا لا بد ـ كما يذكر الرسول ـ من توبة ، ونزوع ، واستغفار .

ويجيء النزوع قبـل الاستغفار ، لأن التغيير الحقيقي هـو جوهر التوبة والاستغفار .

أما حركـة اللسان بكلمات الاستغفار مهما تكن كثرتها دون عمل جاد لمحق الخطيئة والإقلاع عنها ـ فعمل غير صالح ، يقول عنه عليه السلام :

« المستغفر من الذنب ، وهو يقيم عليه كالمستهزئ بربه .. » .

نعوذ بوجه ربنا الكريم وبسلطانه العظيم .

* * *

ويوصي الرسول أن يكون النزوع ظاهراً وباطناً .. نزوع عن الفعـل ، والهوى .. نزوع عن الذنب ذاته ونزوع عن مجرد الرغبة فيه ..

وقد يجد الإنسان الإرادة القاهرة التي تحمله على تجنب إثم مّا .. ولكن أنّى له أن يمحوه من تلافيف النفس وقيعان الرغبة ..؟؟

هنا يدلنا الرسول الكريم على الطـريق ..

إن اشتهاء الذنب، أو مجرد الرغبة فيه، أو لا مبالاةَ شعورنا بخطره ـ حالة نفسية. أي أنها تدور داخل النفس دون أن تأخذ جوارحنا فيه دور التنفيذ والعمل.

وإذن. فعلاج هذا الموقف النفسي. يكون بموقف نفسي مثله ..فماذا يكون..؟

إنه الندم على ما كان . بصورة تجعل النفس تشمئز منه . وتود لو كان بينه وبينها بُعْدَ المشرقين ..

يقول عليه الصلاة والسلام :

« النـــدم توبة » .

ويقول :

« النادم ينتظر من الله الرحمة » .

بيد أن الرسول عليه السلام حين يعالج الذنوب بالندم ؛ فإنما يريد من الندم ابْتِدارَه .. لا اجْتِرارَه ...!!

أجل ــ إنه يريد الندم الذي نبادر به خطايانا فور وقوعها ؛ وفور تذكّرنا لها ؛ وفور كل اشتهاء عارض من النفس إياها .. لكن لا يريده اجتراراً مضنياً ، ينسينا الرجاء في رحمته والشوق إلى عافيته .

إنه لا بد من النـــدم كعلاج لِتطلّعات النفس الأمّارة بالسوء .. ولا بد ــ أيضاً ــ من استخدامه برفق وحكمة .

عندما نستخدم الكي بالنـــار كعلاج ضروري لبعض آفات البدن ؛ فانتــا نستخدمه كالومض الخاطف . أما إذا حسبنا أن الشفاء في الإكثار مجرد الإكثار ، فإن ذلك كفيل بحرق البدن وقتل المريض ...!!

فالندم بالحكمة في استخدامه، لا بالكثرة المميتة،علاج تطلعات النفس الأمارة.

وهو حين يتم بهذه الحكمة يكون نعمة لا نقمة ، ورحمة لا عذاباً ، وهـــذا معنى قول الرسول :

« النادم ، ينتظر من الله الرحمة .. والمعجب ينتظر المقت » ...!!

ومع الندم، يوصي الرسول بالرجاء حتى يحقق مزيجهما عافية النفس وتقاها.

وهذا الرجاء الذي تهب نسائمه الحانية من أحاديث الرسول ليس أمنية عاطلة ، بل وعداً ناجزاً وحقيقة قائمة . وهو وعد من الله في آيات كتابه وعلى لسان رسوله بالعفو والمغفرة والعافية لمن يزكي علاقته بالله بتوبة خالصة يطرح بها أرضاً كل مُوبِقَةٍ تُوبِقُه .. وكل إثم يسحقه . يقول لنا حبيب الله ورسوله :

« التائب من الذنب ، كمن لا ذنب له » .

سبحان ربنا الحليم الكريم .. التائب من الذنب ، يعود كما ولدته أمه طاهراً ، ناضراً ، معافى ..!!

ثم ماذا ؟ يا رسول الله ...؟؟

« إذا تاب العبد من ذنوبه ، أنسى الله عز وجل حفظته ذنوبه ، وأنسى ذلك جوارحه ومعالمه من الأرض حتى يلقى الله يوم القيامة وليس عليه شاهد من الله بذنب » ...!!

هذا مَحْوٌ كامل لآثار الجريمة والذنب .

إن القرآن الكريم يقول :

« يَوْمَ تَشهدُ عليهِمْ ألسنَتُهمْ وأيْديهِمْ وأرجلُهُمْ بما كانوا يَعْمَلُونَ » .

أي أنه ليس هناك عمل سيىء تفلت من عقابه ، بل ولا نقدر على إنكاره ـ فثَمَّ شهود منا علينا .. ألسنتنا .. أيدينا .. أرجلنا .. أبصارنا وأسماعنا .. كل جوارحنا يدعوها الرقيب الحسيب القادر المقتدر يوم القيامة أن تتقدم لتتكلم ، فتشهد علينا بكل ما اجترحنا ، حتى هذا الذي نسيناه .. جوارحنا لا تنساه ولا تخطئه .

يقول ربنا في قرآنه الكريم :

« أحْصاهُ اللهُ ، ونَسوهُ » .

لكن التوبة كما يحدثنا القرآن ، وكما رأينا في الحديث السالف لرسول الله ،

كفيلة إذا كانت صادقة . بأن تضع عنا شهادة هؤلاء الشهود العدول ..

« أنسى الله عز وجل حفظته ذنوبه ..
وأنسى ذلك جوارحه ، ومعالمه من الأرض ، حتى يلقى الله وليس عليه شاهد من الله بذنب » .

وليس ذلك فحسب ..

بل إن القرآن الكريم ليغمرنا بالبشرى حين يقول عن التوابين :

« فأولئك يُبَدِّلُ اللهُ سيئاتِهم حَسَنات » .

* * *

ويحدثنا الرسول عن حب الله للتوبة وللتائبين حديثاً يجعل الأفئدة تطير هُياماً بالتوبة وشوقاً إليها .

يقول عليه السلام :

« إن الله يبسط يده بالليل ؛ لِيتوبَ مُسيءُ النهار ..
ويبسط يده بالنهار ؛ لِيتوبَ مُسيءُ الليل .. »

بل أكثر من هـذا يقول عليه صلاة الله وسلامه :

« والذي نفسي بيده ، لَو لم تُذنبوا ، لذَهب الله بكم ، ولَجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله ، فيغفر لهم » .

إلى هذا المدَى المذهل يحب الله أن يكون غفوراً ، وأن يكون تواباً شكوراً ..؟

فلماذا ..؟ أهو يُشبع بذلك حاجة في نفسه ..؟ حاشاه ، فهو الغني الحميد ، وهو الكبير المتعال .

إنما يُشبع حاجات في أنفس عباده حين يخبرهم أن كل أبوابه مفتحة لهم حين يرجعون .. وكل رحمته سابغة عليهم حين يطلبون ..

فإذا أقلقهم الخوف من عدله ، طَمْأنهم الرجاء في فضله .. ولا بأس أبداً مهما تكثر الذنوب وتعظم الخطايا ــ فان التوبة الصادقة لا تَهَبُ التائب عفو الله

وحسب ــ بل تهبه حبه أيضاً :

« إن الله يحب التوابين ، ويُحب المتطهرين » •

بل وتهبه عطاء آخر ما كان يخطر للتائب ببال ، ذلكم هو فرح الله وحُبوره بعودة عبده الغائب والآئب !!

أجل •• فَرحه وحُبوره ــ لا لومه وتقريعه •• وإن الرسول ليضرب لهذا مثلا ــ برجل كان يسير في صحراء موحشة ، حتى إذا وجد شجرة جلس يتفيأ ظلها ، وغلبه النوم ، ثم استيقظ فلم يجد راحلته•• لقد ذهبت بما عليها من متاع••

واستبدَّ به يأس قاتل ، واستسلم للموت ينتظره حين يجيء في أيٍّ من طوارق الصحراء والتّيه ، وفقدان الغذاء والماء ••

وأسلمه اليأس لنوم عميق •• وفجأةً استيقظ كالمأخوذ ، وكاد يطير من الفرح ، إذ رأى راحلته فوق رأسه من جديد •• ويقول الرسول عليه السلام :

« للهُ أشدّ فرحاً بتوبةِ عبده المؤمن مِن هذا براحلته » ••!!

★ ★ ★

ولما كانت التوبة ندماً على الإثم ، ونزوعاً عنه ، وعزماً وثيقاً على عدم العودة إليه ، اقتضى ذلك أن تجيء والحياة مقبلة ، لِتمثل نية صادقة من العبد على طاعة الله والتقرب إليه •

أما التوبة التي يلقيها صاحبها في سَكْرة الموت : فجوابها الحق : هيهات هيهات ••

يقول الرسول عليه السلام :

« إن الله يَقبل توبةَ عبده ما لم يُغَرْغِر » • •

أي ما لم يبلغ سَكراتِ الموت ولحظات النهاية ••

وهذا الحديث يكشف عن فضل الله الواسع ، فهو يفتح أمام عبده أبواب

رحمته وقَبوله حتى النهـاية .

وهو إذا كان يغلقها دون توبته ساعة الموت ، فلأنها ليست توبة.. بل وقاحة بما يمثله من كذبٍ على الله وخداع له ..

كذلك يكشف هذا الحديث الشريف عن الخطر الذي يتهددنا بتأجيل التوبة والتسويف فيها ــ فلا تدري النفس متى تكون مَنيَّتها وكم من أحياء يتفجَّرون عافية وبأساً وحبوراً بالحياة يأتيهم الموت بغتة فاذا هم في أكفانهم راقدون ..

من أجل هـذا يقول الرسول :

« هلَك المسوِّفون » ..

ويقول واضعاً أعيننا على أخطر آفات التوبة :

« .. واحـذروا التسويف ؛ فإن الموت يأتي بغتة .. ولا يغترن أحدكم بحِلم الله عز وجل ؛ فإن الجنة والنار أقرب إلى أحـدكم من شِراك نعـله ..

ثم قرأ : « فمن يعملْ مِثقال ذرة خيراً يرَه .. ومن يعملْ مِثقال ذرة شرّاً يره » .

إن الرسول عليه الصلاة والسلام ، يرى في إرجاء التوبة والتكاسل عنهـا والتسويف فيها مقامرة خاسرة بمصير الإنسان . ومن ثم فهو يدعونا إلى المبادرة إليها . وإلى مداومة الأخـذ بها ..

إن هذا لايدل على تقوى العبد وحسب.بل ويدل علىحصافته وحِذْقِه..

يقول عليـه السلام :

« الكَيِّس من دانَ نفسه ، وعَمِل لما بعد الموت .. والعاجز من أتبعَ نفسه هواها ، وتمنَّى على الله الأماني » .

أجل .. ذلك إنسان كَيِّس وحَصيف . هذا الذي يُخضع نفسه لمراجعة التوبة أولاً بأول .. وإنه بهـذا لا يستنقذ حياته وروحه من الأخطـار الماثلة

وحدها.. بل ويحميها من مفاجآت الزمن ومعوقاته ، ويربح السباق المحتوم الذي نجري فيه نحن والأيام كفرسَيْ رهان ..

وهـذا ما كان يعنيه الرسول وهو يعلمنا ويقول :

« بادِروا بالأعمال سبعاً ..

* هل تنتظرون إلا فقراً مُنسيا ..؟

* أو غنى مطغيا ..؟

* أو مرضاً مفسداً ..؟

* أو هرَماً مُفنِّـداً ..؟

* أو الدجّال ، فشرٌّ غائب ينتظَر ..؟

* أو الساعة ، فالساعة أدهَى وأمرّ » ..

إنه عليه السلام يُحذرنا هجوم المهالك التي تنتظر على الطريق .

فالليـالي من الزمـان حُبَالَى مُثقلاتٌ، يَلِدْنَ كل عَجيبة

وهو يذكرنا منها بهذه السبع التي إذا لم نسبقها سبقتنا ، وإذا لم نُبادرها بالتوبة النَّصوح والعبادة الخالصة ، جابَهَتْنا هي بما يملأ نفوسنا حسرة على ضياع الفرصة ، وفوات الأوان .

إن التوبة الصادقة ، هي نَضْرة النعيم ترقرق في حياة التائبين ووجوههم ، وتجعـل أفئدتهم رقيقة ..

وصدَق أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه إذ يقول :

« جالِسوا التوابين ؛ فإنهم أرق أفئدة » ..!!

* * *

وصِدْق التوبة ونجاحها ليسا مقرونين بنبذ الإثم والتفوق على إغـرائه فحسب .. بل هما كذلك مقرونان بنبذ القنوط والتفوق على تثبيطه .

ذلك أن القنوط من رحمة الله خطيئة فادحة ، لأنه يعني تصور إله عاجز عن

المغفرة أو بَخيلٍ بالرحمة ـ حاشا ربنا وسبحانه .. كما أنه أعني ـ القنوط ـ آكبر عائق لانطلاق النفس من إسارها .

وإذا كانت قيمة التوبة أنها تحررك من أصفادك العائقة وأغلالك الموبقة ـ فالقنوط لا ريب من أخطر هذه الأصفاد وتلك الأغلال .. ومن ثمَّ كان خطيئة تحتاج إلى التوبة منهـا .

من أجل هذا يعلمنا الرسول عليه السلام أننا إذ نتوب إلى ربنا ونخلص له الدين ، فإن علينا أن نُحلّق إليه بجناحين مباركين : الرجـاء والخوف ..

الرجـاء في الله ، والخوف من الله ..

الرجـاء في رحمته ورضوانه .. والخوف من غضبه وخذلانه ..

* * *

سمع الرسول عليه السلام ذات مرة أعرابياً حديث عهد بالإسلام يدعـو ربه ويقـول :

« اللهم ارحمني ومحمداً ، ولا ترْحَمْ معنا أحَداً .. » .

فضحك الرسول عليه السلام لِسذاجة الرجل وقال له :

« لقد ضَيَّقت واسعاً ، يا أخا العرب » !!

لقـد خاف الرجل ألا تتسع رحمة الله لكثيرين ـ فأراد أن يقصرها على نفسه .. أو عليها مع الرسول ..!!

وإن كثيرين منا لَتغشاهُم نفس السذاجة وهـم لا يشعرون .. كثيرون يَدْعون وهم من إجابة الله في شك .. وكثيرون يسمحون لليأس أن يحجبهم عن رؤية الرحيم الكريم .. والمجيد الودود .

وعلاقة المؤمن بربه بحاجة إلى حظٍ كبير من الرجـاء في الله ـ وإلى حظ مماثل من الخوف منه .. بحاجة إلى محبته ، وإلى توقيره .. وتستقيم هـذه

العلاقة بقدر التوازن الذي يتم من شعور المؤمن بالرجاء وشعوره بالخوف .. شعوره بالمحبة ، وبالتوقير ..

إن الذين يستسلمون للخوف من مساءلة الله وحسابه دون أن تهب عليهم نسمات الرجاء الحانية يجنحون بعيداً عن المرفأ وهم لا يشعرون . ومثلهم الذين يستسلمون للرجاء استسلاماً ينسيهم حساب الله ويلهيهم عن حقيقة توقيره ..

وكل اختلال في التوازن بين الخوف والرجـاء في قلب المؤمن ، يرجع في الحقيقة إلى طبيعته أو إلى مسلكه تجاههما .. أما هما — الرجـاء والخوف — فيتبادلان المهمة المنوطة بهما تلقائياً في حِذق كبـير .

فالرجاء في شيء ينادي الخوف من فقده والخوف من شيء ينادي الرجـاء في أمنه .. لكن مزاجنا النفسي هو الذي يفرط في استخدام أحدهما فيطغى على الآخر . ويجرف النفس في طريقه إلى الإفراط في اليأس بلا أمل . أو في الرجـاء بلا كابح ..

من أجل هذا ، كان الرسول حريصاً على أن يُحلّق المؤمن بجناحي الرجاء والخوف .. المحبة والتوقير .. لكي يبلغ بهما من رضوان الله ونعمته ما تقرّ به عينـاه .

والخوف من الله على أية حال مختلف عن الخوف من غـيره ..

إن الخوف منه سبحانه وتعالى يُكافأ بالمغفرة وحسن المآب . يضرب الرسول لهـذا مثلا فيقول :

« إن رجلا كان قبلكم رغسَه الله مالاً — أي أكثر ماله — فقـال لبنيه لما حضره الموت : أيّ أبٍ كنت لكم ..؟ قالوا : خير أب .. قال : فإني لم أعمل خيراً قط ، فإذا مت فاحرقوني ثم اسحقوني ، ثم ذَرّوني في ريح عاصف ..

ففعلوا ، فجمعه الله ، فقال : ما حملك على ما صنعت ..؟

قال : مخافتك ..

فتلقاه الله برحمته » ..!!!

فمخافة الله كما يدركها الرسول ليست سبيلا إلى الرعب والفزع ، بل هي حافز إلى المزيد من العمل الصالح ومن التقوى . يقول عليه السلام :

« مَن خاف أدْلَج .. ومن أدلج بلَغ المنزل . ألا إن سِلْعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » .

فالخوف هنا داع إلى الإدلاج ، أي المبادرة بالسير إلى الله قبل أن يمتلىء طريق الحياة بالعوائق والعقبات .

ولقد كان الرسول في مقامه العالي، يخاف الله مخافةَ من يعرف قدره العظيم .!!

ولقد سئل عليه السلام عندما أخذ الشيب يبرق من شعر لحيته ورأسه. فقال :

« شَيَّبَتْني هُودٌ وأخواتها » .

يعني سورة « هود » وسورة « يونس » وأخواتهما من السور الممتلئة بالآيات الراعِدة والمنذرة ..

وقرأ يوماً سورة « الدهر » ثم قال :

« إني أرى ما لا تَروْن ، وأسمع ما لا تسمعون

أطَّت السماء ــ أي سمع أزيزها ــ وحق لها أن تَئِطّ ..!!

ما فيها موضع قدَم إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله ..

والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ، ولبكيتم كثيراً ، ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله » ..!!

فالذي كان يعلمه الرسول عليه الصلاة والسلام ، ملأ قلبه خشية لله وتوقيراً له .. ولكن لم يملأه فزعاً ولا رُعْباً ــ وهذه مزية الخوف من الله .. فهو مهما يكن ضغطه ووقعه على النفس ، لا يكاد يزايلها حتى يُخلِّف لها سكينة الأمن ، وبَرْدَ اليقين ..

يقول العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه .

« كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ تحت شجرة ، فهاجت الريح ، فوقع ما كان فيها من ورق نَخِر ، وبقي ما كان من ورق أخضر ..

فقال رسول الله ﷺ : ما مَثَلُ هذه الشجرة ....؟؟

قال القوم : الله ورسوله أعلم....

فقال : مَثَلُ المؤمن إذا اقشعر من خشية الله عز وجل . وَقَعَتْ عنه ذنوبه ، وبقيت له حسناته » .

فالخوف من الله كما يراه الرسول وكما يعلمنا إياه : هو امتلاء الفؤاد بخشية الله وبإجلاله .. وحَسْبُه أنه عبادة وقُرْبى تجد النفس فيها هناءها وتترقّب ثوابها ..!!

ولقد حدّث الله عباده عن عطائه ونعمه وجنانه ثم قال :

« ذلك لمن خاف مقامي ، وخاف وَعِيد » ..

* * *

من أجل هذا كان الخوف والرجاء تجاه الله عز وجل . وجهين لفضيلة واحدة ، تزكو بها علاقة العبد بربه وتستقيم بها على طريق الدين خُطاه ..

وكان حديث الرسول عن الرجاء قريباً من حديثه عن الخوف أو الخشية .. باعتبار أن كُلاً منهما مُفْضٍ إلى رحمة الله ورضوانه .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« قال الله تعالى : يا ابن آدم .. إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي .. يا ابن آدم ، لو بَلَغَتْ ذنوبُك عَنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ..

يا ابن آدم ، لو أتيتني بِقُراب الأرض خطايا ــ أي بمثلها ــ ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة » ..!!!

فإذا لقيت الله لا تشرك معه في الألوهية إلاهاً آخر .. ولا تشرك معه في الطاعة ، طاعة الشيطان والهوى والخطيئة ؛ فإنه يَعِدُ توبتك الصادقة ويثيبك على حسن ظنك به ورجائك فيه بملء الأرض مغفرة .

والرجاء في الله ــ مع توقيره وطاعته ــ فضيلة العارفين ؛ لأنه يعكس فهماً مستقيماً وسديداً لعظمة الله وَجُودِه ..

وحين وصف القرآن الكريم عباد الله المؤمنين بأنهم الذين :

« يَرجون رحمتَه ويخافون عذابَه » .

قصد أن يقرن الرجاء بهذه الصفة الخاصة من صفات الله سبحانه ــ وهي الرحمة ليعلمنا أنها أقرب إلينا من أنفسنا ، وأوسع من ذنوبنا . ويفسر الرسول ذلك فيقول :

« لمّا خلق الله الخلق ، كتبَ في كتاب فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبَتْ غضبي » ..!!

ولْننظر إلى اللفتة الباهرة التي يتضمنها هذا الحديث الصادق .. فالرسول عليه الصلاة والسلام ، يبدأ إعلان هذه البشرى بقوله : « لما خلق الله الخلق » .

ومعلوم بداهة أن رحمة الله بكل كمالها واتساعها أقدم من الخلق جميعاً ؛ لأنها من أخلاق الله القديم ، الذي لا أول لوجوده .. فلماذا هذا التوقيت في الحديث وما معناه .. معناه أن الله الذي خلق الخلق يعلم ضعفهم ، ويعلم قوى الإغواء والإغراء والتثبيط التي تقاوم رغبتهم في طاعة الله وحسن عبادته .

ومن ثم فهو مُذْ خلقهم ، وهو يُدَثّر عَوْرَيهمْ بستره الجميل ، ويغطي أخطاءهم بغفرانه الجزيل ، ويتلقى اعتذارهم برحمته الواسعة ..!!!

كان النبي بين أصحابه يوماً حين رأى امرأة تُلْقِمُ ثديها شفتي رضيع ، وهي تضمه إلى صدرها في حنان مُفيض . فقال لأصحابه :

« أترون هذه طارحة ولدها في النار ..؟

قالوا: لا والله ، يا رسول الله ..

فقال عليه السلام : فالله تعالى أرحم بعباده من هذه بولدها .. » !!

إنه بأحاديثه الكريمة يُعَرِّفنا بفضل الله العميم والعظيم ، ويُدخلنا فراديس الرجـاء والرحمة والأمن مطمئنين متهللين .. وإنه ليضرب مَثَلا تناهى في الجمال والصدق فيقول :

« أمرَ الله عز وجل بعبد إلى النار ، فلما وقف على شفتها ، الْتفَتَ
وقال : أمَا والله يا رب ، إنْ كان ظني بك لَحَسَن ..!!
فقال الله : رُدّوه .. أنا عند حسن ظن عبدي بي .. » !!!

سبحانه .. بيده الخير ، وهو على كل شـيء قدير ..

* * *

وحين يحقق المؤمن لنفسه حظاً متكافئاً من الرجاء والخوف ، يجد نفسه يتجه تلقائياً نحو فضيلة أخرى وكبرى ، تُحِلّ علاقته بربه في أحسن تقويم .

تلك هي فضيلة الحياء من الله .

فمع محاولات الترقي الروحي وتزكية النفس بتقوى الله يجد المؤمن نفسه فجأة وقد حكَمَتْ تصرفاته كلها تلك الشعيرة الباهرة ــ الحياء من ربه ..

لم يعد العذاب والعقاب الحافزَيْن اللذين يَصْرِفانِه عن السوء .. بل الحياء من ذي الجلال والإكرام .!!

إن الحيـاء من الله . إذا كَسا نفساً مؤمنة ، أفاء عليهـا من التقى والهدى والعفاف والاستقامة ما يجعلها قُدوة ومِثالا ..

إن الحياء لا يحجـز صاحبه عن الآثام وحسب .. بل ويحجزه عن مجـرد التطلع إلى ما لا يليق . والرغبة فيما لا طاعة لله فيه ..

ولقد علّمنا الرسول بقدوته وبسلوكه كيف يكون الحياء من الله . بل وكيف يرتفع الحياء فيصير شكراً لله ..

فذات يوم . وقد تورَّمت قدماه من طول القيام في صلاة الليل ، وتَغضَّن ما تحت جفنيه من كثرة البكاء ، سُئل : لِمَ كل هذا وقد غفر الله لك ما تقدَّم وما تأخَّر ؟ فكان جوابه :

« أفلا أكون عبداً شكوراً » ..؟!

إجابة تتفجَّر حياء وتوقيراً ، يقدمها هذا النبي الكريم القائل :

« إن لكل دين خُلُقاً .. وخُلُق الإسلام ، الحياء » .!!

فيمَ كان عَناؤه في العبادة والنُّسك ..؟ أستغفر الله العظيم .. أأقول عَناؤه ..؟ هو الذي سمَّاه غِبطة روحه ، وقرة عينه ..؟!

فيم كان بكاؤه الذي كان ينبعث من صدره أثناء بعض صلاته وله أزيز كأزيز المِرْجَل ..؟!

أكان بكاؤه من خوف ..؟ هو الذي قال له ربه الكريم :

* « ولَسوفَ يُعْطيكَ ربُّكَ فتَرضَى » .
* « وما أرسلناكَ إلاَّ رحمةً للعالَمينَ » .
* « وإنَّكَ لَعلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » .

لقد كان بكاؤه المتبتل ، ودموعه الأوَّابة ، التعبيرَ الذي يملكه ويقدر عليه ليعلن به حياءه الشديد من ربه العلي الذي غمره بفضله وحبه واصطفائه . والذي كان يلقي ذاته بين يديه في ضراعة العاجز عن شكره مهما يُفِضْ في شكره، ويقول :

« سبحانك .. لا أحصي ثناءً عليك »

« أنت كما أثنيت على نفسك » ..!!

* * *

وحين يتم للعبد توحيد الله بالإخلاص له .. ويَجُبّ كل أخطائه بتوبةٍ نَصوح يعتذر بها إلى ربه،ويبدأ بها عهداً جديداً يعبق بأريج عفو الله وعبير طاعته..

عندما تحقق ذلك لنفسك ، فهَيِّئْها للتزود بأعظم طاقات الروح وأمضى

قواها .. طاقة التوكل على الله ..

وإنما أقول : «طاقة التوكل» لأن التوكل الصحيح طاقة لا منهى لأبعاد نفوذها وآماد اقتدارها .

والقلب العامر بهذه الطاقة تكاد نبضاته تتحول إلى مقادير ..!! عندما خاطب الله عباده قائلا :

« وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » .

كانت الآية الكريمة تدلهم على أصدق وآلق سمات الإيمان وبراهين وجوده ..

وكذلكم حين ساق القرآن الكريم هذا الحوار الفاصل السريع :

« الذينَ قالَ لهمُ الناسُ إنَّ الناسَ قدْ جمعُوا لكُمْ فاخْشَوْهُمْ، فزادَهمْ إيماناً، وقالوا حسبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيل.. فانقلَبوا بنِعْمَةٍ من الله وفَضْلٍ لم يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ، واتّبَعوا رِضْوانَ اللهِ ، واللهُ ذو فَضلٍ عَظيمٍ » .

فالتوكل الحق ذُخْرُ طاقة ، ومنبع قوة لا نظير لها بين ما نعرف من طاقات وقوى ..!!

ويبدأ التوكل عند رسول الله بالتوحيد أيضاً ـ فما دام الله وحده هو الله .. وما دام الأمر كله له ، والقوة كلها منه ، ففيم اغترار العبد بحوله وقوته ..؟

إن تفويض الأمر لله ، وحسن التوكل عليه ، ودوام اللجوء إليه ليس سوى إقرار بالحقيقة المطلقة ، واعتراف بواقعٍ لا مهرب منه ولا ريب فيه .

وإذا كان الإنسان لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فكيف يملكها له غيره أو كيف يملكها هو لغيره ..؟؟

إن رؤية النفس والاغترار بقوتها وقدرتها من شرّ ما يطمس علاقتنا بالله سبحانه .

وها هو ذا الرسول يقول ضارعاً لربه ومولاه :

« اللهم لا تَكِلْني إلى نفسي طَرْفَةَ عين فأعْجز .. ولا إلى الناس فأضيع » ..!!!

فهو مع ما أنعم الله عليه من بصيرة تتوقد ذكاء ونوراً ، يخاف أن يَكِلَه الله إليها ، ويسأله ألا يتخلى عنه ولو لطرفة عين ..!!

إن تجرد العبد من حوله وقوته ، ولِياذَهُ بحول الله وقوته ، آية على أنه قد عرَف الطريق .

ومن ثم ، ولكي تظل علاقتنا بالله مُضاءةً بنور توحيده والثقة به — راح الرسول يزكي فينا الثقة بالله وحسن التوكل عليه .

وإنه عليه السلام ليصف المؤمن ويكشف عن أبهى خِصاله ، فيقول :

« أن يكون بما عند الله ، أوثَقَ منه بما في يده » .

ويعلمنا أن نبدأ أمورنا كلها باستخارة الله فيها ؛ لكي يبقى توكلنا عليه مشدود الآصِرَة ، ولكي نهتدي بِخَيرَةِ الله إلى الصواب والسداد في أمرنا ..

يقول عليه السلام :

« إذا هَمَّ أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل — أي بعد الصلاة :

اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدِرُك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ؛ فإنك تقدر ولا أقدر ، وتَعلم ولا أعلم ، وأنتَ علاّم الغيوب .

اللهم إن كان هذا الأمر خيراً لي في ديني ومَعاشي وعاقبة أمري ، وعاجل أمري وآجله ، فاقْدُره لي ، ويسِّره لي ، ثم بارك لي فيه .

اللهم وإن كان هذا الأمر شرًّا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري وعاجل أمري وآجله ، فاصرفه عني واصرفني عنه ، واقدُرْ لِيَ

الخيرَ حيث كان ، ثم رَضِّني به •
ويُسمِّي حاجته ••• » •

ولقد كان عليه السلام يقول ويعلمنا أن نقول :
« اللهم خِرْ لي واختَرْ لي » •
« اللهم دبِّر لي ؛ فإني لا أحسن التدبير » •

وحتى يحفظ التوكل السديد علاقتنا بالله من البلبلة ، والضياع : رأينا الرسول عليه السلام يرفض التطيُّر والتشاؤم ويعلمنا إذا رأينا أو سمعنا ما قد يحملنا على التشاؤم أن ندعو ربنا قائلين :

« اللهم لا طَيْرَ إلا طيرُك••ولا خيرَ إلا خيرُك••ولا إله غيرك••
اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت••ولا يذهب بالسيئات إلا أنت »•

إننا بهذه الثقة المطلقة بالله ، نستطيع أن نجاوز موقف التشاؤم والتثبيط إلى سداد الحياة ، وخيرها ، وعطاياها ••

* * *

والتوكل الحق على ربنا سبحانه مُبشر بأن العلاقات بين العبد وربه قد بلغت ذروة الصدق والكمال بما انتظمته من نور المعرفة به •• وحسن الظن ، وتمام اليقين ••

وهذا معنى قوله عليه السلام :

« لو توكَّلتم على الله حق تَوكُّلِه ؛ لرزقكم كما يرزق الطير ••
تغدو خِماصاً ، وتَروحُ بِطاناً » ••

فالمؤمن يجيد التوكل ويمتلك حقيقته إذا هو بلغ في ثقته بقدرة الله وبعطائه مبلغَ الطير التي تهديها غريزتها وإلهامُ الله الكامن فيها بأن الله رازقها لا محالة •• وأنها لا تبحث عن رزقها إلا بالقدر الذي يبحث به رزقها عنها ••!!

ويدلنا هذا الحديث على أن التوكل يقين وحركة ؛ يقين بأن الله قد قدَّر كل

شـيء تقديراً .. وحركة تسعى في جـد لاكتشاف هـذا المقدور واكتسابه .

يقول عليه السلام :

« واعلـَمْ أن ما أصابك لم يكن لِيـُخْطِئـَك ، وما أخطأك لم يكن لِيـُصِيبك » ..

فحين نعلم هـذا وتتيقنه ، يـُسلحنا التوكل إذن بقوى عظمى تكتسح كل ما تفجؤنا به الليـالي من مخاوف ومخاطر ، وتمكننا من السير بخطى واثقة في دروب الحيـاة ..

وهكذا لا يعود التوكل توَاكـُلاً ولا خذلاناً ، ولا إخلاداً للقعود والكسل .. بل حركة دائبة يدفعها قلب موصول العرى بالله ، راسخ اليقين بما عنـده .

كما لا يبدو وكأنه ضربٌ من خِداع النفس ،بل شَحْنٌ لها بالإدراك الحق لعظمة الله وقدرته وهيمنته .. وهو إدراك لا ينسى وهو يـُسلم الأمر لله أن يأخذ بالأسباب التي هيأها الله .

إن الناس جميعاً يحفظون كلمة الرسول :

« اعـْقِلـْها ، وتوكـّل » .

وهي في تركيزها الشديد تعطي التعبير النهائي لحقيقة التوكل ومـُداه .

* * *

والتوكل ــ أو بتعبير أصح ــ « روح التوكل » التي نعنيها بحديثنا هذا ، تقضي من الإنسان ألا يسيء الظن بما يختـاره الله له . بل يتقبله بقلب شكور وجبهة ساجدة .

يقول عليه السلام :

« يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه بحيث يذكرني » .

وهنا نلتقي بركيزة أخرى من ركائز علاقتنا بالله ..

ذلكم هو الرضا به والرضا عنه .. وأصحاب هـذا الرضا هم الذين نعتهم

القرآن الكريم بأنهم :

« رضِيَ الله عنهم ، ورَضُوا عنه » .

إن علاقتك بالله سبحانه تهتز صورتها وتفقد نورها أمام أي جزع تعبر به عن قضاء الله وتقديره عليك .

أما التهلل والحمد فيزيدانها نوراً وسكينة ..

يقول عليه السلام :

« عجباً لأمر المؤمن .. إن أمره كله له خير
* إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له ..
* وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له ..
وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » .

حقاً إن أمره لعجيب .. هذا الذي يقهر إغراء الخير ، فيضع مكان الزهو به تواضعاً وشكراً ، ويقهر إغواء الضر ، فيضع مكان الجزع منه تسليماً وصبراً .. وترتفع علاقته بربه من خلال هذا السلوك الفريد إلى حيث لا يمسها نصب ولا لغوب ..

يقول عليه السلام :

« ذاق طعم الإيمان من رضي بالله تعالى رباً » .

فمن رضي بربوبية الله ركع أمام قضائه ، وسجد لمشيئته .

وكم هي باهرة وآسرة وممتلئة هذه الكلمة « رَضِيَ » فالله لا يفرض نفسه على الناس ، ولا يكرههم على اعتناق ربوبيته .

كل ما هو مطلوب من الإنسان أنه إذا « رضي بالله رباً » فإن عليه أن يعرف حقه وقدره ، وأن يتقبل قضاءه وقدره .

والناس يرضون بالله ويرضون عن الله تلقائياً إذا جاءهم الخير وغمرتهم النعمة .. بيد أنهم يجزعون إذا مسهم السوء .. والعلاقة التي تنهض على أساس

كهـذا لا تبشر بخـير .

من أجل هذا حرص الرسول على ألا يكون ذِكْرُنا لله وشكرنا إياه ورضانا عنه عند حدوث ما نكره ، أقل منه عند مجيء ما نحب ..

جلس عليه السلام يوماً بين أصحابه فقال :

« مَن أُعطِيَ . فشكر
وابتُلِيَ ؛ فصبر
وظَلَمَ ؛ فاستغفَرَ
وظُلِمَ ؛ فغفَرَ » .

ثم سكت ، حتى سأله أصحابه : ماذا لهم يا رسول الله .؟ فقال :

« أولئك لهم الأمنُ وهم مهتدون » .

فالبلاء الذي ينزل بالناس في أنفسهم أو في أهلهم ، أو في أموالهم وحياتهم ، لا ينبغي أن يهــز علاقتهم بالله وحسن ظنهم به .. لأنه يحمل في مشقته المائلة نعمة كامنة ..

يقول عليه الصلاة والسلام :

« ما يَبْرَحُ البــلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض وما عليــه خطيئة » .

ولقد دخــل عليه يوماً وهو موعوك ، أحد أصحابه ، وأحس وهو يصافح الرسول بارتفاع حرارته فقال : « ما أشد حُمَّاكَ يا رسول الله » .

فأجــابه الرسول :

« إنا كذلك ..
يُشدَّدُ علينا البلاء ، ويُضاعَف لنا الأجــر » .

فنكبات الحياة ومشاقها لا تذهب بَدداً إذا أصيب بهــا المؤمن .

ها هو ذا رسولنا يتحدث :

« ما يصيب المؤمنَ من نصَب ، ولا وصَب ، ولا همٌّ ، ولا حزَن ،ولا أذىً ، ولا غمٌّ ، حتى الشوكةُ يُشاكُها إلا كفّرَ الله بهــا من خطاياه » .

وكل الذي يتمناه المؤمنون الصادقون ألا يكون البلاء الذي ينزل بهم مظهر سخط من الله عليهم ، أما البلاء ذاته فما ينبغي أن يزيد علاقتهم بالله إلا رسوخاً وعمقاً وألَقاً .. وها هو ذا رسول الله يبشرهم :

« أشد الناس بلاء ، الأنبياء ..
ثم الأمْثَل ، فالأمثل » .

بل ها هو ذا ــ عليه صلاة ربنا وسلامه ــ يخبرنا أن البلاء قد يكون معراجاً يرقى بأصحابه إلى الدرجات العُلَى ، ويقترب بهم من حضرة الملك الأعلى ، فيقول :

« إن العبد إذا سبقتَ له من الله منزلة فلم يبلغها بعمل . ابتلاه الله في جسده ، أو ماله ، أو ولده ثم صبره على ذلك حتى يبلّغه المنزلة التي سبقت له من الله عز وجل » .

ويخبرنا الرسول الكريم في صورة من أبهى الصور التي يعرفنا بها رحمة الله وحنانه ــ أن المؤمن حــين يمرض ، ويحمله مرضه على الأنين والتأوّه ، تضرع الملائكة الذين هم معه من حفظته إلى ربهم ، فيقول الله سبحانه :

« إني أحب أن أسمع صوته » . :

أجل .. كم من عباد الله يحب أن يسمع تغريدهم وهم يشكرونه ..

ولكنهم يغفلون ، فيبتليهم بشيء من الضر ليسمع أنينهم وهم يدعونه ؛ وهم خلال ما يصيبهم من ضر ، وما يجدون من ألم يطهرهم تطهيراً ، ويهيئهم لمقعــدِ صِدقٍ عنــده .

ها هو ذا عبــده ورسوله يقول :

« ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في النفس والولد والمــال ، حتى

يلقيا الله تعالى وما عليهما خطيئة » .

وها هـو ذا ، يقول :

« من أصيب بمصيبة في مـاله أو في نفسه فكتمها ولم يشكها إلى الناس ، كان حقاً على الله أن يغفر له .» .

بهـذه الأحاديث الصادقة يقدم الرسول تفسيراً حقيقياً ، وليس مجرد عزاء للبلاء ولما يمكن أن يكون وراءه من خـير ونعمة .

ولكن الرسول الذي آتاه الله الحكمة لا يريد لعلاقة المؤمن بربه أن تصح من جانب، وتسوء من جانب آخر .. فهو يحذر من أن يكتسي الرضا بالقضاء والصبر على البلاء بفاشية من الغرور ورؤية النفس .

لذلك لا يكاد يسمع واحـداً من أصحابه يدعو الله قائلا :

« اللهم ارزقني الصبر » .

حتى يقول له :

« بل قل : اللهم إني أسألك العافية » .

بل ها هو ذا عليه السلام لا يكاد — يوم الطائف — يقول في ابتهاله المأثور :

« إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي » .

حتى يتبعها من فـوره بقوله :

« ولكنَّ عافيتك أوسع لي » .

إن الإلحاح على الله بالعافية — فضلا عن حاجة الإنسان إليها — يمثل عبودية مفتقرة إلى الله ، ليس معها ما تزهو به من قـوة وجلَد ..

من أجل هـذا ، ولكي يحيا المؤمن دوماً في نور فقره إلى الله جعل الرسول الدعـاء بالعفو والعافية أفضل الدعـاء فقال :

« ما من دعـوة يدعو بها العبد ، أفضل من : اللهم إني أسألك العفـو والعافية » .

وتسأله أم المؤمنين « عائشة » رضي الله عنها :

« يا رسول الله . أرأيت إن علمتُ ليـلة القـدر ، ما أقول فيهـا ؟ »

فيجيبها عليه السلام :

قولي : « اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » .

فالتضرع إلى الله في سؤال العاجز المفتقر ضرب من التقى كبـير القيمـة عظيـم الثواب .

والعلي الكبير ، يحب عباده الذين يمشون على الأرض هَوْناً ، ويدعونه تَضرّعاً وخُفْيَة ..

من أجل هـذا يوصي الرسول بالدعـاء ، لتقوى به علاقتنا بالله وتزدهر .

* * *

يقول عليه الصلاة والسلام :

« الدعـاء هـو العبـادة » .

« الدعـاء مُخّ العبـادة » .

ثم يعلمنا الدعاء بكل شعائره.ويحضنا على مداومته واستمرار لَهَجِنا به..

ذلك لأن الدعاء يصور يقيننا بالله إلهاً ، ومقتدراً ، ووهّاباً .. والذي يطلب من ربه كل حاجاته ، ويذكره عند كل مسعىً له ، إنسان حسن المعرفة بالله ،وثيق الصلة به سبحانه، واللهَج بالدعاء والابتهال إلى الله ودوام سؤاله دليل على توحيده.

يقول عليه السلام :

« إذا سألت فاسأل الله .. وإذا استعنت فاستعن بالله » .

ولأن سؤال الله في كل شيء ، اعتراف بفضله في كل شيء ، فقد أمرنا الرسول أن نسأل ربنا حاجتنا كلها حتى النزر اليسير منها . يقول عليه السلام :

« ليسأل أحـدكم ربه حاجته كلها حتى الملح .. وحتى شِسْع نعـله إذا انقطع » ..

ولأن الدعـاء عبادة يطالبنا الرسول بحضور القلب حين ندعو :

« اعلموا أن الله لا يستجيب دُعاءً من قلب غافل لاهٍ » .

ولأنه مظهر لفضل الله ، يطالبنا الرسول ألا نكون أنانيين فنختص به أنفسنا دون الآخـرين :

« ما من مسلم يدعو لأخيه بظهـر الغيب إلا قال له الملَك ، ولك مثـله » .

* * *

إن قضية الدعاء ليست من القضايا العادية بحيث نمر بها سراعاً ونحن نتحدث عن علاقتنا بالله . وإنها لتشغل من الموضوع جانباً .

فهنا وأنت تدعو الله وتسأله ، تكشف عن حقيقة إيمانك به . وعن درجـة عبوديتك له ..

ويقينك بالإجابة مُساوٍ لمـا في قلبك من الثقة به ، من أجل هـذا يعلمنا الرسول ويقول :

« ادعو الله وأنتم موقنون بالإجـابة » .

لا مكان للشك ولا للتردد :

« وإذا دعا أحدكم فلا يقل : اللهم اغفرلي إن شئت . اللهم ارحمني إن شئت .. ولكن لِيَعْزِم المسألة ، فإن الله لا مُسْتكْرِه له..»

ولا معنى لليأس أمام إرجـاء الإجـابة :

« يُستجاب لأحـدكم ما لم يَسْتبطيء » .

وتبادل العلاقة بين الله وعباده تتجلى في الدعـاء تجلياً باهراً .

فهو سبحانه لا يستجيب دعاءنا فحسب .. بل إنه ينتظره ويحب سماعه ..!!

سَلُوا الله تعالى من فضله ، فإن الله يحب أن يُسأل :

« وأفضل العبـادة ، انتظار الفَرَج » .

ويضعنا الرسول أمـام مشهد تذوب الأفئدة من فرط حنـانه إذ يصور لنا ذلك الجلال الفريد عندما يقترب الله من عباده في الهزيع الأخير من الليل إلى صلاة الفجر ، حيث الأنامُ نيام ... إلا جماعة من عباده ، تجافَتْ جنوبُهم عن المضاجع وخرّوا لربهم سُجّداً وبُكياً .. هنالك يغمرهم الرحمن بنوره ، وينادي :

« أنا الملِك .. أنا الملك ..

مَن يدعوني ، فأستجيبَ له ...

من يسألني ، فأعطيَه ..؟

من يستغفرني ، فأغفرَ له ..؟ » .

أرأيتم ..؟ هـذا ربنا يبحث عنا .. يفتقد أصواتنا الصادعة ، وابتهالاتنا الضارعة ..!!!

من ذا الذي يَسأل ، فيُعطَى ..؟

ومن يريد ، فيأخـذ ..؟

* * *

إن الرسول يؤكـد لنا استجابة الله دعاء من يدعوه يؤكـدها ملء يقينه بقول الله له :

« وإذا سألكَ عبادي عنّي فإني قريبٌ أجيبُ دَعْوةَ الدّاعِ إذا دَعـانِ ..

فَلْيستَجيبوا لي..ولْيُؤمِنوا بي.لَعلَّهُمْ يَرْشُدُونَ » .

وإنه ليهدي إلى الصواب أولئك الذين يتساءلون : لماذا ندعو ولا نجـد إجابة .؟ فيقول : وهو بَداهةً يحدث المؤمنين الذين يستحقون الإجابة من الله :

« ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيهـا إثم ولا قطيعة رحم ، إلا أعطاه الله بهـا إحدى ثلاث ..

• إما أن يعجل له دعـوته ..

• وإما أن يدخرها له في الآخرة ..

• وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » •

ولقد قال أصحابه الذين سمعوا منه هذا الحديث المبشر :

يا رسول الله ، إذن نكثر

فأجابهم قائلا :

« الله أكثر » ••

بل لقد بلغ يقين الرسول بإجابة الدعاء حداً جعله ينهانا عن أن ندعو على أنفسنا أو على أولادنا في لحظة غضب •

يقول عليه السلام :

« لا تدعو على أنفسكم ، ولا على أولادكم ، ولا على خدمكم ، ولا على أموالكم ، حتى لا توافق من الله ساعة عطاء ، فيستجيب لكم » ••

إن نوع الدعاء الذي نتجه به إلى الله ، ودرجة إلحاحنا على الله في خشوع وتقوى ، ويقيننا بقدرته وبفضله ــ كل هذا يمنحنا علاقة ناضرة بالله •

إن الدعاء قربة عظمى تزكو بها النفس والروح ، لأنه استجابة الله •

« يا عبادي ••

• كلكم جائع إلا من أطعمته : فاستطعموني أطعمكم

يا عبادي ••

• كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم

يا عبادي •••

• إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم ••

يا عبادي •••

• لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل سائل مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر •• » •

أرأيتم ..؟؟

إن الله يقرع أبوابنا .. أجل ، هو .. لا نحن .. هو الكبير المتعال . ينادينا كي نسأله..ويدعونا أن ندعوه... ويفتح لنا أبواب رحمته وفضله بغير حساب.. وبهذا الحنان الغامر من ذي الجلال والإكرام تعثر علاقتنا بالله على شِرْبِها العذب الموورود ... فهنا الرجاء الذي لا منهى له في رحمة الله وعطائه .. وهنا اليقين لكل صاحب يقين بقبول ضراعته واستجابة دعائه ..

إن مزية الدعاء الأولى أنه يجعل علاقتنا بالله سبحانه : في حركة ربّانية مستمرة . وفي تبادل خَفِيٍّ بين الله وعبده ــ يحمل من العبد الدعاء . ويحمل من الله الإجابة ، . على النحو الذي يعلم فيه الخير لعبده .

من أجل هذا ، كان أحب الدعاء إلى الرسول ، كل دعاء يصور عجز العبد وافتقاره الحقيقي إلى الله .

فهو ــ مثلا ــ يستغفر الله ويدعونا أن نستغفره بهذه الصيغة :

« اللهم أنت ربي ، لا إله إلا أنت .. خلقتني وأنا عبدك .. وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت .. أبوء لك بنعمتك عليَّ .. وأبوء بذنبي فاغفرلي . فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت .. » .

ويصف الرسول هذه الصيغة بأنها« سيد الاستغفار »فلماذا كانت كذلك..؟ لأنها كما ترى . تحمل كل إقرار العبد ، وفقر العبد ، وولاء العبد للعليِّ الأعلى الذي بيده الأمر وإليه المصير ..

ويحدثنا « عبد الله بن عمر » رضي الله عنهما ، فيقول :

« لم يكن رسول الله ﷺ يَدَعُ هذه الكلمات حين يُمسي ويصبح » :

« اللهم إني أسألك العفو والعافية في الدنيا والآخرة ..

اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ، ودنياي وأهلي، ومالي..

اللهم استُر عَوْراتي ، وآمِن رَوْعاتي » .

« اللهم احفظني من بين يديَّ ، ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي ، ومن فوقي ، وأعوذ بعظمتك أن أُغْتال من تحتي – يعني أن يخسف بأرض هو فيها » .

إنه – عليه السلام – يعلم المؤمنين كيف يخضعون لله في دعائهم ، وكيف يرجون رحمته ويخافون عذابه .. فالروح والطريقة والكلمات التي نلجأ بها إلى الله جديرة بأن تزكي علاقتنا بالله ، وتزيد هذه العلاقة عافيةً ونوراً .

ولكن ، لماذا يجعل الرسول الدعاء مُخَّ العبادة ..؟

ألأنه يمثل حقيقة الإيمان ، ومَدى اليقين الذي يحمله المؤمن لربه .

ألأنه تجديد مستمر لروح العلاقة القائمة بين الله وعباده ..؟

من أجل ذلك كان الدعاء مخ العبادة ..

* * *

ولكن مع هذا كله ، وربما قبل هذا كله – لأنه ذكر لله .. وآمُركُم بذكر الله .. يجيء على رأس الركائز التي يقيم الرسول عليها علاقتنا بالله سبحانه ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ، إن علاقة الإنسان المؤمن بربه تحقق بذكر الله أقصى كمالها واكتمالها ، ذلك أنها تتحول من علاقة إلى « معية » فيصبح العبد الذاكر في معية الله وبين أفراد رعيله ..

يقول عليه السلام :

« يقول الله : أنا عند ظن عبدي بي ..
وأنا معه إذا ذكرني ..
فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ..
وإن ذكرني في مَلأٍ ذكرتهِ في مَلأ خير منهم » .

فالحديث هنا يعطي هذه المعية الجليلة شكلها حين يخبرنا أن المؤمن الذي

يذكر الله في نفسه . يذكره الله في نفسه .. والذي يذكره في ملأ ، يذكره الله في ملأخـير منهم ..

ولقد سأل سائل رسول الله : ــ أي الأعمال أحب إلى الله ..؟

فأجـابه الرسول عليه السلام :

« أن تموت ، ولسانك رَطْبٌ ، من ذِكْرِ الله » .

وذكر الله ، هو ذكـر الله ... وسواء كان بالتسبيح ، أو بالاستغفار أو بالتهليل ــ والتهليل هو الذكر « لا إله إلا الله » أو كان بقراءة القرآن .. الجوهر في هـذا كله أن يحمل الذكر اسمه وحقيقته .

لقد سماه الله ورسوله « ذكر الله » ، فاذا ما انتهى إلى أن يكون مجـرد ترداد لاسم الله سبحانه بلسان عَجُول وقلب مشغول فما هو بذكر أبداً .. إن معنى ذكر الله وجود حالة من الحضور الكامل في حضرة الله..والاستحضار الواعي لعظمته ولجلاله ، ثم ذِكْره في خشوع ويقظة ينتظمان القلب والجوارح معاً ..

فالذاكرون ربهم بهذا الحضور هم المعنيون بقول الرسول :

« سَبَق المفرّدون »

قال أصحابه :

« وما المفرّدون يا رسول الله ..؟ »

قال عليه السلام :

« الذاكرون الله كثيراً .. يضع الذكر عنهم أثقالهم فيأتون يـوم القيامة خِفافاً » .

إن مزية الذكر ماثلة في أنه لا شيء يقهر الشيطان مثله .. يقول عليه السلام :

« وآمركم بذكر الله .. ومثل ذلك رجل طلبه العدو سِراعاً في أثره حتى أتىَ حِصناً حَصِيناً فأحرز نفسه فيه ..

وكذلك العبد ، لا ينجو من الشيطان إلا بذكر الله » .

ومزيته كذلك أنه يطمس نوازع التثبيط في النفس .. ذلك أن الذي تدوي في جنبات روحه وروعه معاني « لا إله إلا الله » إلى فترة طويلة من الوقت الذي يقطعه الذاكر في خشوع وتقوى لا يلبثْ مع مداومة الذكر حتى يجد نفسه سيداً لكل نفسه ، سيداً على هواه ، مجاوزاً كل آفات التثبيط والخذلان .

ولعل هــذا ما عناه الرسول بقوله :

« من عجز منكم عن الليل أن يُكابِدَه ..
وبخل بالمــال أن ينفقه ..
وجَبُن عن العــدو أن يجاهده ..
فليكثر ذكر الله » ..

أجل .. إن ذكر الله لن يكون كفارة لكل هذا العجز وحسب ، بل إنه قبل هذا سيكون القوة التي تقهر هذا العجز .. سيكون النور الذي يكنس ظلمات اليأس ، والمقدرة التي تجعل من عجز المؤمن خيراً ماضياً .. وتملأه بعافية الدين والإرادة والضمير .

لقد عُنِيَ الرسول بذكر الله حتى جعله فارقاً بين الحياة والموت ها هو ذا عليه السلام يقــول :

« مثل الذي يذكر ربه ، والذي لا يذكر الله ، مثل الحي والميت ».

وإن « أم أنس بن مالك » رضي الله عنهما لتسأله : ـــ يارسول الله أوصني ..

فيوصيها عليه السلام قائلا :

« اهجري المعاصي ، فإنهــا أفضل الهجرة ..
وحافظي على الفرائض ، فإنها أفضل الجهــاد ..
وأكثري من ذكــر الله ، فإنك لا تأتين الله بشيء أحبَّ إليه من كثرة ذكــره » .

إنه لا قربة ولا عبادة إلا وتمثل وشيجة مباركة ميمونة بين الله وعبده .

ولكن ذكـر الله خاصة فضلا عن كونه وشيجة من أقوى هذه الوشائج ، فهو عيد من أعياد الروح أو فرح من أسعد أفراحها ..!!

يقول عليه الصلاة والسلام :

« لا يقعـد قوم يذكرون الله ، إلا حفتْهم الملائكة ، وغَشيتهم الرحمة . ونزلت عليهم السكينة ، وذكرَهم الله فيمن عنده » .

بل إن الرسول ليخبرنا أن هـؤلاء الذين يجتمعون على ذكر الله وتحفهم الملائكة ينال من بركاتهم كل من شهد مشهدهم وشمّ عبيرهم واقترب من رياضهم، حتى ولو لم يشاركهم الذكر ؛ لأن الله يقول لملائكته :

« هم القوم لا يشقى جليسهم » ..!!

ومجالس الذكر التي يجتمع ذووها على خير وفي خير ، خاشعين لله . نابذين الرياء والبدعة ، مخلصين له الدين — إنما هي من رياض الفردوس ، وإن تك في الدنيــا .

ألم تمر يوماً باحدى سفارات الدول في القاهرة ..؟

إن السفارة تقــع في أرض مصرية ، وتحتــل مكاناً في شارع من شوارع القاهرة .. ومع ذلك فهي بمجرد دخولك من بابها أرض أخرى تتبع الدولة التي تمثلها السفارة ، وتتمتع بكل حصاناتها وحقوقها .

إن مجالس الذكر تنعقد فوق مكان ما من أرض الناس . ولكنها في حقيقتها تتبع أرضاً أخرى .. بل سماء أخرى .. تتبع الفردوس الأعلى وتتمتع بكل ما للفردوس الأعلى من حصانة وجلال وبهاء ونعيم . يقول عليه الصلاة والسلام لأصحــابه :

« إذا مررتم برياض الجنــة فارتعوا » .

قالوا : « وما رياض الجنة يا رسول الله » .؟

قال : « مجالس الذكر » ..

* * *

وإن الرسول ليدعونا أن نذكر الله دائماً ..

من أجل هذا يعلمنا كلمات نقولها حين نصبح . وحين نسي ، وحين ننـام . وحين نصحو ، وحين نغادر الدار وحين نعود إليها .. وحين نرى المطر . والشمس. والسحاب .. وحين نشتري أو نلبس جديداً ــ وحين نفرح . وحين المصيبة .. وحين نرجو . وحين نخاف .

في كل مواقف الحياة وحالاتها .. في كل أوقاتهـا ولحظاتها . يعلمنا أن نذكر الله ربنا بكلمات تُوائِم المناسبة.. وحين نكون في مجلس مّا ننفضّ عنه ؛ فإن الرسول عليه الصلاة وأبهى السلام يُشفق علينا أن نكون قد نسينا ذكر الله في مجلسنا هـذا .

من أجل ذلك يأمرنا بعد كل مجلس نشهده ؛ ونتبادل فيه الأحاديث العابرة.. أحاديث الحياة الدنيا أن نختمه بهـذا الابتهال :

« سبحانك اللهم وبحمدك »

« أشهد أن لا إله إلا أنت »

« أستغفرك . وأتوب إليك »

ويصف هـذه الكلمات بأنهـا :

« كَفّارة لما يكون في المجلس » .

* * *

وذِكر الله يعني تمجيده والثناء عليه . واستغفاره والتضرع إليه ..

وكثيراً ما كان الرسول يعلم أصحابه أفضل هذه الأذكار .. فهو يدعوهم إلى الإكثار من :

« سبحان الله وبحمده » .

« سبحان الله العظيم » .

« لا حول ولا قوة إلا بالله » .

« سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » .

وكثير غـيرها من آيات التسبيح والتهليل والحمد .. بيد أنه كان يعطي حفاوة خاصة للذكر « لا إله إلا الله » فيقول عليه السلام :

« أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي : لا إله إلا الله » .

ويقول لأصحابه : « جدّدوا إيمانكم »

فيسألونه . « وكيف نجدد إيماننا ..؟ »

فيقول عليه السلام :

« أكثروا من قـول لا إله إلا الله » .

وثَمَّ حديث يفسر حفاوة الرسول بها ، وحَضّه المستمر عليها ــ ذلكم هو :

« اللهم إنك بعثتني بهذه الكلمة ، وأمرتني بها ، ووعدتني عليهـا الجنة ، وأنت لا تُخلِفُ الميعاد » .

فـ « لا إله إلا الله » هي عنوان الدين كله ، وهي جوهره وموضوعه .

وذكر الله بهـا يجمع القلب بحقيقتها ، فإذا هو أوّاب لله وحـده ، وإذا الشخصية الإنسانية كلها تدور في أجلّ الأفلاك وأقدسها .

المهم أن تعرف كيف تقولها . وكيف تذكر الله بهـا ، وكيف يرتلها قلبك قبل أن يرددها لسانك .

ولهذا كله علامة ــ تلك هي أنك ترتفع مع « لا إله إلا الله » في سمو بعيد عن كل كبيرة ، بل عن كل صغيرة ، وأن تجد نفسك في تقدم مستمر نحو الله ، يقول عليه الصلاة والسلام :

من قال : لا إله إلا الله مخلصاً دخـل الجنة ..

« قيل : وما إخلاصها يا رسول الله ..؟ »

« قال : أن تحجزه عما حرم الله » .

* * *

الصلاة نور :

ونصل الآن إلى أعظم مشاهد الذكـر والعبادة قاطبة .. نصل إلى العروة الوثقى التي لا تضاهيها عروة في علاقتنا بالله . تلك هي : الصلاة ..

يقول عليه السلام في انتشاء عظيم بحلاوة الصلاة ..

« وجُعِلَتْ قرة عيني في الصلاة » .

أجل .. إن المؤمن لا تسمو علاقته بالله بأروع ولا بأجمع من الصلاة ــ هذه التي كان الرسول من شَغفه بها ، يكثر منها ويطيل فيها حتى تتورم قدماه ..

وإذا دعا مُؤذِّنَه « بلالا » رضي الله عنـه لإقامتها قال في حبور بهـا وشوق إليهـا :

« أرِحْنا بهـا ، يا بلال » .

إن علاقتنا بالله تسمو سموها البعيد والمجيد كلما خلصت من شوائب الهوى والإثم والخطأ .. ولما كنا بشراً ، فنحن عرضة للخطأ دوماً ، فماذا هناك يستطيع أن يغسل هذه الأخطاء أولا فأولا ..؟ إنها الصلاة .. وماذا هناك يزيد من جلال علاقتنا بالله ومن بهائها ..؟ إنها الصلاة ..

« ما من مسلم يتوضأ ، فيسبغ الوضوء ، ثم يقـوم في صلاته ، فيعلم ما يقول ــ أي يتمها في خشوع وتدبر ــ إلا انْفتَل ــ أي خرج منها ــ وهو كيوم ولَدته أمـه » .

ويضرب لها مثلا ، فيقول عليه السلام :

« أرأيتم لو أن نهـراً بباب أحـدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات .. أيُبقي ذلك من دَرَنِه شيئاً ..؟ »

قالوا : « لا يبقي ذلك من دَرَنِه شيئاً »

قال : « فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بهن الخطايا » .

ولقد ذكر الصحابة يوماً رجلا مات ولم يعرف له جليل عمل في طاعة الله ، فقال لهم الرسول :

« وما يدريكم ما بلَغتْ به صلاته » .

فالصلاة لصاحبها نعم الشفيع عند الله. ونعم الآخذ بيد العبد إلى رحاب الله.

يقول «حذيفة» رضي الله عنه : «كان رسول الله ﷺ إذا حزَبَهُ أمر صلَّى» ..

فها هو ذا إمام النبيين وخاتم المرسلين لا يجد خيراً من الصلاة واسطة بينه وبين ربه . كلما أهمه أمر .. فيهـا يناجي ربه ؛ وفي سكينتها الحلوة وطمأنينتها المريحة يتلقى من الله الأمن والنعمة والعافية .

من أجل هـذا قال في حبور ويقين :

« وجُعِلَتْ قرة عيني في الصلاة » .

إن أهمية الصلاة لعلاقة العبـد بربه كأهمية الروح للجسد ــ وكما أن الجسد يفقد حياته وبقاءه بمجرد أن تغادره الروح ؛ فكذلك علاقتنا بالله تفقـد ذاتها في الزمن الذي تجحد فيه الصلاة وتحرم نفحاتها .

وفي هـذا يقول عليه السلام :

« لا دين لمن لا صلاة له ..

إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد » .

ويقول :

«استقيموا، ولن تُحْصُوا..واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة».

إننا في هجير الحياة تلفحنا الخطايا من كل جانب ، ونَبُوء بإثم ما نلغو به من قول ، وما ننزلق إليه من عمل ، أفلا نحتاج إذن إلى ما يذكرنا بحق الله علينا ، وإلى ما يغسل هذه الأوضار عنا أولا بأول ؟ .

إن الصلاة هي ذلك المذكِّر . وذلك المطهِّر ..

ولقد صدق « عبد الله بن مسعود » صاحب رسول الله ، إذ يقـول :

« تحترقون ، تحترقون .. ؛ فإذا صليتم الصبح غسلَتْها ..

ثم تحترقون ، تحترقون •• ؛ فإذا صليتم الظهر غسلتها ••
ثم تحترقون ، تحترقون •• ؛ فإذا صليته العصر غسلتها ••
ثم تحترقون ، تحترقون •• ؛ فإذا صليتم المغرب غسلتها ••
ثم تحترقون ، تحترقون •• ؛ فإذا صليتم العشاء غسلتها ، ثم تنامون فلا يكتب عليكم ذنب حتى تستيقظوا! » ••

* * *

الحق أنه لو كانت الصلاة تباع بأغلى الأثمان ، لما وجد العاقل مندوحة من شرائها•• فالسكينة التي تفيئها على النفس ، واليقين الذي تبنيه داخلها ، والغبطة التي تنتشي بها الروح — كل أولئك يجعل منها أثمن ما يطلب المؤمن ، ويجعل أوقات أدائها أسعد لحظات الحياة •

وإذا كنا لا ندرك للصلاة هذه القيمة ، ولا نجد فيها وبها حلاوة الإيمان . وجلال القرْب ، وبَرْد اليقين ، فلأننا لا نؤديها كما ينبغي أن تؤدى ، ولا ننشد فيها الروح والمضمون ، بل يشغلنا عدد ركعاتها وشكل حركاتها ••

يقول الرسول عليه السلام .
« الصلاة نور » •

فما الذي يضيء في المصباح الكهربائي • أهو زجاجه الخارجي أم أسلاكه الدقيقة الباطنة ••؟

إنها الثانية هي التي تضيء •• ولا تكاد تحترق حتى يعم الظلام •

وكذلك الصلاة •• فوراء أشكالها الظاهرة روح إذا لامسْناه فَجّر فينا الضياء •

وحين قال القرآن الكريم :
« قد أفلح المؤمنون •• الذين هم في صلاتهم خاشعون » •

كان يفتح أعيننا على هذا الروح الكامن في حركات الصلاة ، وحين قال

الرسول عليه السلام :

« إنما يُكتب للمرء من صلاته ما عَقَل منها » .

كان يعني روحَ الصلاة كذلك ..

لقد سأله سائل عن أحب الأعمال إلى الله سبحانه . فقال :

« عليك بكثرة السجود ، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة .. وحطَّ عنك بها خطيئة » !!

فهل السجود في حركة سريعة وعابرة وخالية من الروح قادر على منح هذا الغفران وهذا الرضوان ..؟

يقول الرسول فيما يحكيه عن ربه عزَّ وجلّ :

« وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليّ مما افترضته عليه .
ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به .. » .

فهذا الذي لا يتقرب المتقربون إلى الله بمثله .. والذي يفيء على صاحبه كل هذا الحب المُفيض من الله لا يمكن أن يكون عملا آلياً خالياً من الروح .. وإذا كانت الصلاة روح الدين ، فالخشوع والحضور ، والإخبات روح الصلاة..

ويبدأ الخشوع والحضور والإخبات في الصلاة بإتمام أدائها في طمأنينة وأناة .. يقول النبي عليه السلام :

« أسوأ الناس سَرِقَةً ، الذي يسرق من صلاته ..
قالوا : يا رسول الله : وكيف يسرق من الصلاة ؟.
قال : لا يتم ركوعها ولا سجودها » .

ويضرب للمصلي المتعجل مثلا فيقول :

« مثل الذي لا يتم ركوعه ، وينقر في سجوده ، مثل الجائع يأكل التمرتين لا تغنيان عنه شيئاً » .

إن الصلاة بمثابة « خط هاتفي » بين المؤمن وربه •• فأيُّنا لو كان يملك هـذا الخط مع ملك أو رئيس دولة لا يتمنى استثماره في كل حين ••؟ وأينا لا يتمنى أن تطول المحادثة وتطول ••؟؟

إن المؤمن القانت في صلاته ـ قائماً يقرأ الفاتحة •• أو راكعاً يقول : سبحان ربي العظيم •• أو ساجداً يقول : سبحان ربي الأعلى •• أو جالساً يحيِّي ربه بالتحيات المباركات الطيبات •• ليس في كل صلاته هذه إلا مناجياً ربه •• ففيم العجَلة لمن كان له عقل ••؟ وفيم الذهول وتبديد الذهن في تفاهات الدنيا •؟

لقد كان الرسول يسجد ، فلا يريد أن يقوم ••!!

كانت حلاوة الإيمان كلها ، وغبطة الروح كلها •• وسعادة الدنيا والآخرة جميعاً تملأ لحظات سجوده، وتنساب في الحروف التي يصوغ منها ابتهاله ونجْواه••

« سجدَ وجهي للذي خلَقه وصوَّره ••
وشقَّ سمعه وبَصره ••
تبارك الله رب العالمين ••
اللهم لك سجدت، وبك آمنت ، ولك أسلمت، وعليك توكلت » •
« سبُّوح قدّوس ، رب الملائكة والروح ••
سجد لك سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي » ••

وكثير غيرها من التسبيح والتمجيد لله العلي الكبير • [كانت الصلاة روحه المتصلة بالله دوماً تجد أسعد أوقات اتصالها في الصلاة] •

ولقد وعـد الرسول كلَّ مُصَلٍّ في خشوع وحُضور بأقباسٍ من ذلك الضياء، ورياحين من ذلك الرضوان •

المهم أن نعرف كيف نصلي •

إن الفارق كبير بين من يحـرك أعضاء جسمه حركات تلقائية تائهة لا تعني شيئاً •• ومن يحركها حـركة مدروسة منسقة ليحصل بهـا على تفوق رياضي

وسلامة بدنية ..

وكذلك ، فالفارق كبير بين من يصلي .. والذي يصلي ليصل بصلاته هذه إلى تفوق روحي مأمول ، وليدخل بصلاته دائرة الضوء والرحمة والرضوان .

لقد سمع الرسول يوماً أحد المؤمنين وهو يصلي خلفه يقول بعد أن نهض من ركوعه :

« ربَّنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه » .

فسأل عليه السلام بعد أن أتم صلاته : « من المتكلم ..؟؟ »

قال الرجل : أنا ..

فقال له النبي : « لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها ، أيهم يكتبها أول » !!.

فهل كل من قال هذه الكلمات تتسابق ملائكة الله لكتابتها ورَصْدِها ..؟

ولماذا إذن حظيت من ذلك المؤمن بكل هذه الحفاوة وهذا القبول ..

إن حديث الرسول يحمل الجواب والتفسير ــ فلو أنها خرجت من فم الرجل وحده لذهبت كما تذهب آلاف الكلمات .. لكنها لا بد كانت تحمل خشوعَ وقنوتَ وإخباتَ كل ذرة في قلبه وروحه وكيانه .

اقرأ الفاتحة في خشوع متأملا كلماتها المضيئة .. وسبِّح ربك وأنت راكع أو ساجد في خشوع ، وأدِرْ على الكلمات التي تسبحه بها وتدعوه قلبك وخاطرك ــ واطمئن وتأنَّ ولا تَعْجَل عَجلة من يريد أن يُفلت من موقف يملأ بالضيق نفسه !!.

بينما الرسول يجلس في المسجد يوماً مع أصحابه ، أشار إلى سارية من سواري المسجد وقال :

« لو كان لأحدكم هذه السارية ــ أي العمود ــ لكَرِه أن تُجْدَع ــ أي تقطع ..

فكيف يَعْتمد أحدكم فيجدع صلاته التي هي لله ..؟!

أتمّوا صلاتكم ، فإن الله لا يقبل إلا تاماً .. » .

ولقد لمح يوماً رجلا يسرع في القيام الذي يلي الركوع . فغضب وقال :

« لا ينظر الله إلى صلاة عبد ، لا يقيم فيها صُلْبه بين ركوعها وسجودها » ..

إن الرسول عليه الصلاة والسلام يعلمنا أن الصلاة كائن حي ـ يزداد حياة بالخشوع والحضور وجلال الأداء .. ويفقد من حياته بقدر ما يفقد من خشوعنا وحضورنا .. وبقدر ما هي رحمة ونعمة وعافية ورضوان لمن يحسن أداءها .. فإنها ـ أعاذنا الله ـ تكون عكس ذلك لمن خذَلَها وأزهق روحها وخشوعها ..

هذا « أنس » يحدث عن رسول الله ..

« ... ومن صلاّها لغير وقتها .. ولم يسبغ لها وضوءها .. ولم يتم لها خشوعها ، ولا ركوعها ، ولا سجودها ـ خرجَتْ وهي سوداء مظلمة ، تقول : ضيَّعك الله كما ضيعتني .. » .

هذا ، بينما يختلف الأمر تماماً بين الصلاة ومن يؤديها أداءها الحق السليم .

ففي نفس هذا الحديث الذي يرويه « أنس » رضي الله عنه يقول عن النبي :

« من صلى الصلوات لوقتها ، وأسبغ لها وضوءها ، وأتَمَّ لها قيامها وخشوعها ، وركوعها ، وسجودها ، خرجت وهي بيضاء مُسْفِرَة ، تقول : حفظك الله كما حفظتني » .

* * *

حقاً . لقد كانت الصلاة قرة عين الرسول .. وما كانت كذلك قطعاً إلا لجلال منزلتها عند ربه العلي الكبير . وحين تتتبع حديث الرسول عن الصلاة وتوجيهاته بشأنها ترى في يسر هيامه العظيم بها . يقول عليه السلام :

« يتَعاقَبون فيكم : ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .. ويجتمعون في صلاة الصبح ، وصلاة العصر .. ثم يعرُج الذين باتوا فيكم ،

فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟
فيقولون : تركناهم وهم يصلون .. وأتيناهم وهم يصلون .. »

إنه عليه صلاة ربنا وسلامه مشغوف بعالَمٍ له بالصلاة دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النحل . إنه يريد أن يرى أمته ويرى أتباعه مع الله دوماً في أوثق العرى به ، وأسعد المواقف معــه وبين يديه .. في الصلاة .

« أتيناهم ، وهم يصلون .. وتركناهم ، وهم يصلون » .

ولم لا يشغف بالصلاة ويسعد ؟ ولم لا يوصي أمته بها آناء الليل وأطراف النهار ، وقد سمع ربه يقول في حديث قدسي :

« قَسَمْتُ الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل » .

لقد كان الرسول حَفِيّاً بعبادة ربه جميعها ، بيد أن حفاوته بالصلاة تقف وحــدها بين كل تِلْكُمُ الحفاوات .

إنه يدرك ما للصلاة من منزلة عند الله ، ويعلم سرها الأعظم في نقل المؤمنين إلى عــالم القداسة والاجتباء ، ألم تكن أولى وصايا الله له بالصلاة أن جعلهــا خمسين في اليوم والليلة ، ثم خففت إلى خمس لها أجر الخمسين ..؟ أليس في ذلك وحــده ما يكشف عن القدر العظيم للصلاة وعن مكانتها الرفيعة عند الله ..؟

من هنا كانت حفاوة الرسول بهــا من أولى لحظات التأهب لهــا ـــ من الوضوء ، إلى السعي لهــا ، إلى شهود جماعاتها في المساجد ، إلى ختامها ، إلى انتقاء أطايب الدعاء والتسبيح فيها .. إلى كل مايتعلق بها من قول وعمل وشعور !! .

لقد شرع عليه السلام لكل خطوة في مشوارها الطويل آدابه .

إنهــا أعظم قربات العبد إلى ربه ، فلتكن من البهاء والجلال في المستوى القريب من أن يكون لائقاً بعظمة الله وجلاله .

وهكذا يمنحها الرسول عليــه الصلاة والسلام من اهتماماته وتوجيهاته الكثــير الطيب ..

إنه يبدأ معها من الطهارة الكاملة ، فيدعو المؤمنين ويوصيهم أن يتطهروا من الجنابة أولا بأول ؛ حتى لا تعوقهم الجنابة عن صلاة مفروضة أو نافلة .

ويدعوهم للاستبراء الكامل في غير وسوسة كلما قضى أحـدهم حاجته ..

ويأمرهم أن يقربوا الصلاة دائماً في ثياب طاهرة ، وعلى أماكن طاهرة ..

وإذا كانت الصلاة تبدأ بالوضوء ، فقـد رفع عليه الصلاة والسلام من شأنه مكاناً عاليـاً .

يقول صلى الله عليه وسلم :

« إن أمتي يُدْعَوْنَ يوم القيامة غُرًّا مُحَجَّلِين ، مِن آثار الوضوء .. فمن استطاع منكم أن يطيل غرته ؛ فليفعل » .

أجل .. يأتي المصلون يوم القيامة بيض الوجوه والأيدي والأقدام تكسو جباههم التقية أنوار الوضوء والصلاة .

والوضوء لأنـه باب الصلاة ، كان كذلك باب المغفرة لصاحبه . يقـول عليه السلام :

« من توضأ فأحسن الوضوء ، خرجت خطاياه من جسده ، حتى تخرج من تحت أظفاره » .

ويزيد بُشْراه هـذه تحديداً ؛ فيقول :

«ما من امرىء يتوضأ فيحسن وضوءه إلا غُفِرَ له ما بينه ــ اي الوضوء ــ وما بين الصلاة الأخرى حتى يصليها » .

ترى لماذا والوضوء ليس صلاة ، ذهب بكل هذه المنزلة بين العبادات ..؟

ذلك أنه درجة الاستعداد النفسي عند العبد حين يهم بالوقوف بين يدي الله في الصـلاة ..

من أجل هذا ، كان الرسول يتوضأ في صمت وخشوع وكأنه يصلي .. ؛ لأن لحظات الوضوء هـذه لا تمثل إعدادَ الجوارح الظاهرة من الجسم للصلاة

بتنظيفها وتطهيرها فحسب .. بل تمثل قبل ذلك وأهم من ذلك . إعـداد النفس كلها وتركيز حضورها استعداداً للموقف العظيم أمام الله رب العالمين ..!

وكلما كان هـذا الاستعداد النفسي والتهيؤ الروحي يقظاً وكاملا . كانت نظرة الله إليه شاكرة وغامرة .

من أجل هـذا بشّرنا الرسول عليه السلام بأن خطايا المتوضيء تخـرج حتى من تحت أظفاره ..

ومن أجل هـذا كان الوضوء على المكاره ـ كأن يكون بالماء البارد في الأوقات الشاتية ـ أعظم أجـراً ..

يقول عليه الصلاة والسلام :

« ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ..؟
قالوا : بلى يا رسول الله ..
قال : إسباغ الوضوء على المكاره.. وكثرة الخطا إلى المساجد.. وانتظـار الصلاة بعد الصلاة .. فذلكم الرّباط .. فذلكم الرباط .. فذلكم الرباط » !!

فإسباغ الوضوء على المكاره يقف في الدرجة والمنزلة مع كثرة الخطا إلى المساجد ، ومع انتظار الصلاة في المسجد بعـد الصلاة .. ثم هو ـ كما يخبر الرسول عليه السلام ـ نوع آخر من الرباط في سبيل الله .

* * *

ولأن الوضوء إعداد مباشر للنفس كي تقف بين يدي ربها سبحانه . ثـم سبحانه ـ أوصانا الرسول عليه السلام أن نعقبه على الفور بصلاة .

فإذا توضأ الإنسان قبل وقت الفريضة بساعات ، يوصيه الرسول أن يتبع وضوءه بصلاة ركعتين ليتم بهما المواجهة الروحية التي من أجلها شرع الوضوء .

ذات مرة توضأ النبي بين نفـر من أصحابه ـ أفرغ على يديه من الإناء

فغسلهما ثلاث مرات ، ثم تمضمض واستنشق واستنثر . ثم غسل وجهه ثلاثاً ، ويديه إلى المرفقين ثلاثاً ، ثم مسح برأسه •• ثم غسل رجليه ثلاثاً ثم قال:

« من توضأ نحو وضوئي هذا ، ثم صلى ركعتين لا يُحدِّث فيهما نفسه ، غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه » •

* * *

ويريد الرسول للصلاة أن تكون مهرجاناً دائماً لعبادة الله : تَخفُق على الدوام أعلامها ، وتسطع أنوارها ، وتصدح تراتيلها •

لهذا يوصي بالأذان لها حتى لو يكون الإنسان وحده في حقل ؛ أو صحراء ، أو فلاة ••

يقول « أبو سعيد الخُدْرِيّ » صاحب رسول الله لأحد إخوانه :

« إني أراك تحب الغنم والبادية ، فاذا كنت في غنمك أو باديتك فأذّنت للصلاة فارفع صوتك بالنداء ؛ فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جِنٌّ ، ولا إنس ، ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة •• سمعتُه من رسول الله ﷺ » •

ويخبرنا الرسول عليه السلام أن للأذان من المثوبة والفضل وحسن الجزاء ما لو علمه الناس لتنافسوا عليه وتزاحموا حتى لا يفضَّ زحامهم وتنافسهم سوى إجراء قرعة بينهم تحسم النزاع •!!

« لو يعلم الناس ما في النداء ــ الأذان ــ ، والصف الأول ،ثم لم يجدوا إلا أن يَسْتَهِمُوا عليه لاسْتَهَمُوا » •

ويدعو للمؤذنين فيقول :

« اللهم أرشِدِ الأئمة ، واغفر للمؤذنين » •

ولأن مواقيت الصلاة في عصر النبي لم تحددها الساعات ، بل كانت تعتمد على حركات فلكية ، أطلق الرسول على المؤذنين وصفاً جميلا فنعتهم بأنهم « رعاة الشمس والقمر » ••!! يقول عليه السلام :

« إن خيار عباد الله ـ الذين يُراعون الشمس والقمر والنجومَ لِذكر الله » .

ويقولُ في حديث آخــر :

« إن أحب عباد الله إلى الله ، رعاة الشمس والقمر ــ يعني المؤذنين ــ وإنهم لَيُعرَفون يوم القيامة بطول أعناقهم » !!

★ ★ ★

والعلاقة الروحية التي تصنعها الصلاة للعبــد ، وتدنيه من رحاب ربنــا ورضوانه ، تبدو في بعض كلمات الرسول وكأنها محسوسة ومُباشرة .

يقولُ عليه الصلاة والسلام :

« إن أحدكم إذا قام يصلي ؛ فإن الله تعالى قِبَلَ وجهه » .

وإنه عليه السلام لَيزيد هــذا المعنى توكيداً حين يجعل مجرد المرور أمام المصلي عملا تناهى في الحمق والعدوان ؛ فيقول عليه السلام :

« لو يعلم المارّ بين يدي المصلي ماذا عليه ، لكان أن يقف أربعين خيرٌ له من أن يمر بين يديه » ..!

يقولُ راوي الحديث : لا أدري ، قال أربعين يوماً .. أو شهراً . أو سنة ..

وفي حديث آخر يرويه الترمذي عن « أنس » :

« لأن يقف أحدكم مائة عام ، خير له من أن يمر بين يدي أخيــه وهــو يصلي » .

فماذا هناك وراء هذه الحرمة ، بل القداسة للفراغ اليسير الذي يفصل بين المصلي واتجاهه وقبلته ..

ماذا هناك من القداسة حتى يصبح انتظار أربعين عاماً أو مائة عام خــيراً للإنسان وأسلمَ لمصيره من أن يقتحم هذا الحِمى المقدس ولو بخطوة واحدة ..؟ إن هذا التحذير البالغ يصور في وضوح ما يعنيه الرسول الكريم وهو يقول :

« إن أحدكم إذا قام يصلي ، فان الله تعالى قِبَلَ وجهه » .

وتوكيداً آخر للمعنى الجليل .. يوصي الرسول كل من يقف للصلاة أن يتخذ أمامه ساتراً ، فإذا كان عموداً أو شيئاً قائماً جعله المصلي عن يمينه قليلا أو إلى يساره قليلا حتى لا يبدو كأنه يستقبله ويتجه إليه .. فاذا رأى وهو يصلي أحداً يهم بالعبور من هذه المسافة التي تفصل بين المصلي والشيء الذي اتخذه ساتراً فعليه آنئذ أن يمد يمينه ليمنع ذلك العابر بقوة ..

يقول صلى الله عليه وسلم :

« إذا كان أحدكم يصلي ، فلا يَدعْ أحداً يمر بين يديه ، ولْيدرأه ما استطاع » .

إن قول النبي :

« فإن الله تعالى قِبَلَ وجهه » ..

يفسر لنا هذا الاهتمام الذي يعطيه عليه الصلاة والسلام لموقف الصلاة .

وإذا كان هذا المصير الأليم لمن يَخْترِم اتجاه المصلي بخطوة أو ببعض خطوة .. فماذا على المصلي نفسه إذا هو لم يحترم جلال الموقف الذي يقفه بين يدي الله ، فراح يذرع ببصره الآبق وعينيه الزائغتين كل ما أمامه من فضاء وأشياء ، وكأنه واقف في شارع أو جالس في مقهى ..؟!!

إن التلفت في الصلاة بالبصر الزائغ والنظرات الضالة إهدار لحرمة الموقف العظيم .. ولست أدري ، إذا كان المصلي يعتقد أنه واقف بين يدي الله حقاً ، وأن الله تِجاهَه ، فَمن هناك خيرٌ من الله يرسل وراءه بصره الزائغ ، وذهنه المبدَّد ، وقلبه الفارغ المشغول ..؟ من أجل هذا ، يقول النبي عليه السلام :

« لا يزال الله مُقبلا على العبد في صلاته ما لم يلتفت ، فإذا صرف وجهه انصرف عنه » .

ويقول :

« إياك والالتفات في الصلاة ، فان الالتفات في الصلاة هلكة » •

بل إن قداسة الموقف تبلغ في إدراك الرسول المدى الذي يحتجز فيه بصر المصلي حتى عن النظر إلى السماء ، لما قد يفضي ذلك إليه من تشاغل أو ضياع الخشوع •

يقول عليه السلام :

« ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم لَيَنْتَهُنّ عن ذلك ، أو لَتُخْطَفَنَّ أبصارهم » •

إن وقار الصلاة وجلالها يفرضان على المصلي ألا يجاوز ببصره مكان سجوده ـ ففي هذا عون وثيق على إحراز الخشوع الكامل والحضور الحق ••

* * *

ولقد جعل الرسولُ الصلاةَ الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ، فقال :

« بين الرجل والكُفر ترك الصلاة » •

وقال عليه صلاة الله وسلامه :

« بين الكُفر والإيمان ، ترك الصلاة » •

وقال :

« العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » ••

وهذه الأحاديث الصحيحة بما تحمل من رهبة ، تكشف عمّا لجوهر الصلاة من قداسة وخطر • إذْ أن مجرد الحركات اللاهية الخالية من روح وخشوع وتأمل ، لا يكون لها وحدها هذه القداسة التي تجعلها فاصلا شاهقاً بين الإيمان والكفر ، وفي هـذا يقول الرسول عليه السلام :

« إن أحدكم إذا قام يصلي، فإنه يناجي ربه، فلينظر كيف يناجيه »•

لقد أبصر واحداً يصلي ذات يوم وهو مشغول البال والروح عن صلاته ، فناداه الرسول بعد فراغه منها وقال له :

« ألا تتقي الله ••؟؟
ألا تنظر كيف تصلي ؟ »•

ولقد تحدث الرسول عليه الصلاة والسلام عن الذي لا يعطي الصلاة حقها من الخشوع والأناة فقال عنه :

« لا ينظر الله إليه ، وإن كان على الله كريماً » •!!

وحين نأخذ مشهداً من مشاهد الرسول الكريم وهو واقف في الصلاة بين يدي ربه الأعلى ندرك جلال الموقف الذي تمثله الصلاة ، ونلمح المغانم الجزيلة الهائلة ، التي تظفر بها علاقة المؤمنين بربهم حين يُحسنون الصلاة •• [يصف أحد هذه المشاهد واحد من أصحاب النبي فيقول] : ــ

« رأيت رسول الله ﷺ يصلي ، ولصدره أزيز كأزيزِ المِرجل من البكاء » !!

ويصف الإمام علي كرم الله وجهه مشهداً آخرِ في أيام غزوة بدر ، فيقول :

« ••• ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم ، إلا رسول الله ﷺ ، تحت شجرة وهو يصلي ويبكي حتى أصبح » !!

ألم يقل عليه السلام :

« ••• وجُعِلَت قرّة عيني في الصلاة » ••؟

فهو إذن حَرِيٌّ بأن يَفيض فيها دمعه •• ويئزَّ كالمرجل صدره ؛ لأن استشعار جلال الله إنْ بالخوف أو بالرجاء ، أثمن وأبهى ما تتطلع إليه أرواح الأوابين •• فكيف بمن لا يستشعر هذا الجلال وحسب • بل يعيشه ويحياه ويفنى فيه ويتضمّخ به •• وأين ••؟ في أقرب قُرْب ، وأعلى مقام ••؟!!

* * *

لقد بلغ هُيامه بالصلاة وتقديسه إياها أن جعل الخُطا إليها خُطىً إلى الجنة•

ولأنه يريدها ــ كما سبق أن ذكرت ــ مهرجاناً دائماً لعبادة الله وتحميده

وتمجيده ، فقد أعطى صلاةَ الجماعة كل اهتمامه وكل دعواته وصلواته وبركاته .

« من مَشى في ظلمة الليل إلى المساجد ، لَقِيَ الله عز وجل بنورٍ يوم القيامة » .

ولنقرأ هذا الحديث له عليه الصلاة والسلام :

« صلاة الرجل في جماعة تضعُف — أي تزيد — على صلاته في بيته وفي سوقه خمساً وعشرين ضِعْفاً .. وذلك أنه إذا توضأ فأحسن الوضوء ، ثم خَرَج إلى المسجد لا يُخْرجه إلا الصلاة ، لم يخط خطوة إلا رُفعت له بها درجة ، وحُطَّ عنه بها خطيئة — فإذا صلى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه ما لم يُحْدِث ، تقول اللهم صَلِّ عليه .. اللهم ارحمه .. ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة » ..!!!

أليس هذا مهرجاناً من المثوبة والعطاء والرضوان والبر ، يُقيمه الله للذين أقاموا لجلاله مهرجانات العبادة والصلاة .

« في بيوتٍ أذِنَ الله أن تُرفَعَ ويُذْكَرَ فيها اسْمُهُ » .

هذه البيوت التي تَنَزَّل حبها على قلب الرسول الكريم فأحاطها برعاية وتكريم يتعاظمان كل وصف .

إنه يقول في بنائها :

« مَن بنى لله مسجداً — صغيراً كان أو كبيراً ، بنى الله له بيتاً في الجنة » .

ويقول في الحفاظ عليها :

« جَنِّبوا مساجدكم صبيانكم ، ومجانينكم ، وشِراءكم وبيعكم ، وخصوماتكم ، ورفعَ أصواتكم ، وإقامة حدودكم ، وسَلَّ سيوفكم ، واتخِذوا على أبوابها المطاهر .. وجمِّروها في الجُمع » ..

لقد رأى عليه السلام ذات يوم نخامة في قبلة المسجد . فتغيظ لمنظرها — وأخذ عُرجوناً فحكّها به ، ثم دعا بزعفران فغسل به مكانها وطيّبه !!

إن للمسجد قداسته التي يتحدد بالولاء لها حقيقة إيمان المؤمن ودرجة علاقته بربه .. فحسبه أن يكون اسمه : « بيت الله » . ثم إنه المكان الذي تقف الدنيا كلها بكل سلطانها وهَيْلمانها خارج بابه — ففي داخله وتحت سقوفه لا تجد سوى صفوف من العابدين خشعت لله ووقفت ضارعة بين يديه ، وحيثما ترنو وتُولّي فثَمَّ وجهُ الله .. [لقد وُضع تحت الأقدام كل تَمايُز ، وكل غرور ، وكل استعلاء .. وليس ثَمَّ سوى صاحب البيت وربه الأعلى] ..!

« وأنَّ المساجد لله ، فلا تَدْعُوا مع الله أحداً » .

أجل .. هذا هو المسجد في الإسلام ، وهذه قداسته .. [من أجل هذا وفّر الرسول له كل الضمانات التي تبقي له سكينته وجلاله] .

فهو ينهى عن الحديث فيه بغير صلاة أو ذِكْرٍ لله .. لكي يظل معبداً لا مُنتدى ، .

يقول عليه السلام :

« سيكون في آخر الزمان قوم يكون حديثهم في مساجدهم — ليس لله فيهم حاجة » ..

وهو يغضب إذ يُتخذ سوقاً أو أدنى من ذلك ..

يقول عليه السلام :

« إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع في المسجد ، فقولوا : لا أربح الله تجارتك ..

وإذا رأيتم من يَنشُد ضالته في المسجد ، فقولوا : لا ردَّها الله عليك » .!!

إنه إصرار جليل ونبيل على أن تبقى بيوت الله لله .

وإن درجة التأسِّي بالرسول في احترام بيوت الله ، مساوية لدرجة الصدق في علاقتنا بالله .

فاحترام المسجد بالصمت . وبالسكينة ، وبعــدم إقحام فضول حياتنا الدنيا ولغوها وضوضائها عليه ، وبالأدب الرفيع معه وفيه ــ جــزء من تبعاتنا الدينية تزكو بأدائها علاقتنا بالله .

ماذا نأخذ به أنفسنا من حياء وأدب وخشوع حين ندخل على ملك أو رئيس ..؟

إنك في المسجد تجلس إلى ملك الملوك ورب العالمين .. وإذا أخطأت أدب المجلس في بيته ومسجده ، فإن خسرانك فادح ومبين .

لقد حرص الرسول حتى على طريقة جلوسنا في المسجد أن تكون مهذبة وخاشعة .

فقد دخــل المسجد يوماً فرأى رجــلا جالساً مُشبِّكاً أصابعه بعضها في بعض فنهــاه وقال :

« إذا كان أحدكم في المسجد ، فلا يُشَبِّكَنَّ ؛ فإن التشبيك من الشيطان » .

إنه موئل للصلاة والعبادة لا غير .. وليس لشيء آخر أبداً .

من أجل هذا ، فإن أجر الجلوس فيه كالصلاة .. وله ثواب قريب من ثوابها .!!

يقول عليه الصلاة والسلام :

« إن أحدكم لا يزال في صلاةٍ ماكان في المسجد ، حتى يخرج منه » .

* * *

هذه هي البيوت التي جعل فيها مع الجماعة أفضل من بضع وعشرين صلاة ..

والتي جعــل الخطى إليهــا خُطىً إلى الجنة .

يقول عليه السلام :

« لا يتوضأ أحدكم ، فيحسن وضوءه ، فَيُسبغه ، ثم يأتي المسجد

لا يريد إلا الصلاة إلا تبشبش الله إليه — أي تهلل وفرح — كما يتبشبش أهل الغائب بطلعته » .!!

أيّ هيام عظيم هـذا الذي يملأ فؤاد النبي بالصلاة وبيوت الله .؟

وإنه لا يسوق هـذه المبشرات تشجيعاً ، بل تقريراً لواقع وحقيقة ، فحواهما أن الله يمنح هـذا العطاء فعلا لرواد بيوته .. وليس أدل على هـذا من نبئه مع بني سَلِمة .

ولننصت لـ « جابر » رضي الله عنه يرويه لنا :

« خَلَت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك النبي ﷺ ، فقال لهم : بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد ..

قالوا : نعم يا رسول الله قد أردنا ذلك ..

فقال عليه السلام : يا بني سَلِم ! :

ديارَكم ، تُكتب آثارُكم .

ديارَكم تُكتب آثاركم » . !!

فهو عليه السلام يخبرهم أن أجرهم في خطوات قليلة تنقلهم إلى المسجد حين يسكنون قريباً منه — ليس كأجرهم في مِشوار طويل .. من أجل هـذا دعاهم أن يظلوا في ديارهم القاصية لتكتب لهم آثار مسعاهم الطويل والجليل إلى بيت الله كلما قصدوه كل يوم خمسَ مرات للصلاة ..

وهكذا يقول عليه السلام :

« أعظم الناس أجراً في الصلاة ، أبعدهم إليها مَمْشى » ..!!

هكذا كان حبه للمسجد وتمجيده له ..

ولقد بشّر بأن أحد السبعة الذين يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله .

« رجل قلبه مُعَلّق بالمساجد » .

إن كلمتي « قلبه معلق » ترينا الصلة الحميمة بين حديثنا هذا عن المسجد

وعن الصلاة أو حديثنا عن علاقة المؤمن بالله •

فامتلاء القلب بحب الصلاة وبحب بيوتها إلى درجة التعلق والوجد ، لا يكون إلا صورة صادقة لعلاقة كاملة مباركة وثيقة العرى والأسباب بين العبد وربه •• من أجل هذا يقول ﷺ :

« إن عُمّار بيوت الله ، هم أهل الله عز وجل » •

ويقول :

« إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد ، فاشهدوا له بالإيمان » •

إنك في المسجد لا تجالس جماعة المؤمنين من الناس وحسب • إنك هناك مع خلق آخرين من الملأ الأعلى •• مع ملائكة الله سبحانه • والرسول إذ يخبرنا بهذا لا يعني مجاز القول بل يقصد حقيقته •

فلقد رأى يوماً بعض المسلمين يدخلون المسجد وقد فاحت منهم رائحة ثوم نيء أكلوه • فقال :

« من أكل البصل ، والثوم ، والكراث ؛ فلا يقربن مسجدنا •• ؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم » ••!!

فهذه الكلمات والطريقة التلقائية التي تتحدث عن حقيقة مفروغ من تيقنها • تؤكد لنا أن الرسول عليه السلام حين يخبرنا أننا في المساجد نجالس الملائكة فإنما يعني ما يقول تماماً •• وهذا سر حرصه الشديد على أن تحتفظ المساجد بكل جلالها — فلا لغو فيها ولا صياح ، ولا بيع ولا نوم ، ولا شيء مما ينافي جلالها ، فهي بيوت الله •• وهي مثوى ملائكته في الأرض •• وهي مكان تمجيده وحده ، وعبادته دون سواه ••

* * *

وإذا كانت هذه منزلة المساجد عند الله وعند رسوله ؛ فكم يكون هجرها خطيئة وبوارا •••؟!

من أجل هذا ، أعلى الرسول — كما رأينا قبلاً — من قدر صلاة

الجماعة . وفي المساجد بالذات ، لما يعلم من كرامتها على الله ومنزلتها عنده .

ولقد وعَى أصحابه والصالحون من بعدهم هذه الحقيقة ، فكانت المساجد ، وكانت صلاة الجماعة فيها تفوق عندهم الدنيا وما فيها .

يقول « عبد الله بن مسعود » صاحب رسول الله ﷺ :

« لقد رأيتُنا وما يتخلَّف عنها إلا منافقٌ معلومُ النفاق ..
ولقد كان الرجل يُؤتى به يُهادى بين الرجلين ــ أي يسنده اثنان من إخوانه لمرضه أو ضعفه ــ حتى يُقامَ في الصف » !!

ويقول أيضاً :

« إن رسول الله ﷺ علَّمنا سُنَنَ الهدى . وإن من سنن الهدى الصلاةَ في المسجد الذي يُؤذَّن فيه » ..

ويعلمنا الرسول ﷺ أن مسئولية المسلم عن ترك الجماعة في المسجد تزداد ويزداد معها وِزره ، كلما كان مكان عمله أو تجارته أو مسكنه قريباً من المسجد ، بحيث يسمع الأذان للصلاة ثم لا يُلبِّيه . هنا ، لا رُخصة في التخلف عن الجماعة ولا عذر إلا لضرورة قصوى وبالغة .

ولنسمع ما يرويه لنا « أبو أمامة » صاحب رسول الله يقول :

« أقبل ابن أم مكتوم ، وهو أعمى ، وهو الذي أُنزل فيه قول الله تعالى (عَبَس وتولَّى ، أنْ جاءه الأعمى) أقبل إلى رسول الله فقال : يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ... إني كما ترى قد دَبَرتْ سِنِيَّ ، ورقَّ عظمي ، وذهب بصري ، ولي قائد لا يُلائمني قِيادُه إياي ــ أي لا يحسن السير بي ــ فهَل تَجد لي رخصة في الصلاة في بيتي ...؟

فقال له الرسول ﷺ : هل تسمع المؤذن في البيت ...؟

قال : نعم يا رسول الله ...

قال الرسول : ما أجد لك رُخصة ..

ولو يعلم هذا المتخلف عن الصلاة في الجماعة ما لهذا الماشي إليها ، لأتاها ولو حَبْواً على يديه ورجليه » ...!!!

فهذا صحابي مكفوف البصر ، كبير السن ، رقيق العظم ، لا يُرخص له الرسول في ترك الجماعة ما دام يسمع الأذان بهـا والنداء إليها .

ذلك أن وضع المؤمن كله ، يصير موضع تساؤل مُقلق حين يتعود أن يسمع نداء الله، أو النداء إلى الله ، فيمضي مُكِباً علىوجهه دون أن يهرول إليه مُلبياً.!!

* * *

ولأنَّ القضية قضية علاقة المؤمنين بالله والتسامي بالروح إلى منازل الأبرار والمتقين ؛ فقد حاول الرسول ﷺ أن يجعل من بيوتنا مساجد ، حتى لا تكون هَجْراً مهجوراً ... وحتى لا تخلو من ذكر الله وعبادته فتمتلىء ظلاماً ..!!

من أجل ذلك ، جعل البيوت أفضل مكان لصلاة النوافل ، في الوقت الذي جعل المساجد أفضل مكان لأداء الفرائض ... يقول عليه الصلاة والسلام :

« إذا قضى أحدكم الصلاة في مسجده ، فليجعل لبيته نصيباً من صلاته ؛ فإن الله جاعلٌ في بيته من صلاته خيراً » .

إنه يعلمنا عليه الصلاة والسلام أن نبعث في بيوتنا الحياة والنور بالصلاة فيهـا ، فيقول :

« اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ... ولا تتخذوها قبوراً » !!

كما يقـول :

« ... أما صلاة الرجل في بيته فنور ؛ فنوِّروا بيوتكم » ...!!

* * *

لا أحسب أن هناك مبالغة في القول بأن الرسل عليهم صلاة ربنـا وسلامه إنما جاءوا ليعلموا الناس كيف يؤمنون بالله وكيف يعبدونه .

فالعبادة الحقـة والخالصة لله رب العـالمين هي خـير مِعراج للشخصية

الإنسانية ، تعرج عليه إلى أعلى مستويات الكمال المقدور لها ... وهي بالتالي بَلْسَم الحياة الإنسانية من أمراضها وآفاتها ، وطريقها المستقيم اللاحب إلى مصيرها الخيِّر الآمِن القويم .

ولم يقل أحد : إن العبادة تعني التخلي عن التبعات التي تقيم بناء الجماعة ، وتحفظ استمرار وتقدم الحياة ... إنما قال لنا المرسلون جميعاً : إن عبادة الله هي العون الأعظم على تمكين البشر من حمل تبعاتهم تجاه الجماعة وتجاه الحياة...

وسيدنا « محمد » خاتم أنبياء الله ورسله ، يلقي علينا في هذا أصدق الكلمات وأزكى الدروس .

إن الإنسان إذا تلوَّثت روحه ، أو صدَأت وبَارتْ ، فقَدَ النور الذي به يرى .. والحكمة التي بها يعرف ... والقدرة التي بها يُبدع ... بل إنه يفقد جوهر وجوده وحياته . ويمسي شَبَحاً مهما انتفخت أوداجُه ، وتمايلت أعطافُه ... ومهما يكن سلطانه وأعوانه وثراؤه ونجاحه . . إن عبادة الله الحقة الخالصة القائمة على النهج الذي رسمه الوحي والرسول ، هي قبل سواها . بل دون سواها — التي تمنح الشخصية الإنسانية نورها وعافيتها ومقدرتها ؛ بما تصل بينها وبين الله من عُرىً وتُقىً ورضوان عظيم ... وهي وحدها التي تمنح الحياة الإنسانية سلامها وأمنها وفضائلها واستمرارها القوي الصالح القويم .. فاذ لبث الرسول ﷺ عمره كله يدق أبواب القلوب الغُلْق لتنفتح على معرفة الله وعبادته ؛ فلأنه كان يعلم أن هذه العبادة هي خير زادٍ للبشرية — أفراداً وجماعات وأمماً ...

إن المرسلين لم يُبعثوا في فراغ ، ولم يجيئوا إلى خَواء ... لقد جاءوا في عصور كان للبشرية فيها عقلها وذكاؤها ومدنياتها . وما من أحد يستطيع أن يجحد قيام المدنيات السابقة في الصين ، والهند ، ومصر منذ آلاف السنين . ولا حضارات ، ما بين النهرين في ذلك الدهر البعيد .

فالعقل والذكاء والمعرفة ، والجَبروت الإنساني في تسخير الطبيعة وبناء

الحياة ــ كل ذلك كان يَعْمُر العصور التي عاصرها المرسلون وهتفوا فيهــا بكلمات الله •

ومن ثَمَّ ، فان الله لم يرسل رسله ليعلموا الناس الأبجدية •• أو ليلقوا فيهم دروس محو الأمية •••!!

كما أنه سبحانه لم يرسلهم ليعلموا البشرية كيف تبني مدنها وسدودها ، وتنشىء مدنياتها وتنسخ حياتها مع حضارتها •!!

لقد كان العقل الإنساني بكل نفوذه واقتداره يعلم وينشىء ويَشيد •

ولكن الله سبحانه ، وهو أعلم بمن خَلق ، يعلم أن العقل وحــده لا غناء فيه ولا جدوى منه ، بل ولا خير فيه لمن لا يمتلك معه الروح العظيم الذي يهديه إلى الغيب وما فيه من أسرار لا تؤذِن بانتهــاء ••• وإلى رب الغيب الذي له ما في الأرض وما في السماء ••• من أجل ذلك أرسل رسله ••• أرسلهم بِروحٍ من أمره ليبعثوا الروح الإنساني وليقودوه إلى معرفة الله•••إلى تقديس الله••• وإلى عبادة الله ••• فالبشرية بلا روح تعبد الله وتعرفه محكوم عليها بالخسران وبالبوار ، ولو كان معها من شَوامخ العقول ومُعجِز الذكاء ، وباهر الحضارات عــدد رمل الأرض وحصاها ••!!

إنهــا آنئذ تكون مقطوعة الصلة بمصدر وجودها وحياتها ونورها •

إنها آنئذ تكون قد سجَنَتْ نفسها في عنــق الزجاجة ، وليكن ذلك العنق من ذهب ، ودُرٍّ ، وياقوت ••• لكنه مع ذلك سيكون كافياً لإزهاق روحها ؟؟

ومهما تملأ البشرية أبعادها الأربعة لكلمايستطيعه ذكاؤها وعلمها ،فستظل تشعر باختناق ما لم تتجه إلى البعد الآخر وتتخذ منه مجلى حياتها وانتعاشها •

ولم يدلنا على ذلك البعد بكل رياحه البَشْرَيات ، وبكل هــوائه النقي الذي يبعث من في القبور سوى أنبياء الله ورسله ••• ولم يكن ذلك البعد الغائب سوى معرفة الله وعبادته •

أجل... بهذا البعد المفقود الذي اكتشفه لنا الأنبياء والمرسلون تمَّ بَعْثُ الإنسان...!!

* * *

فاذا قضينا مع سيدنا محمد رسول الله هذا الوقت المبارك الذي نقضيه الآن ونحن نتلو أحاديثه وتوجيهاته عن علاقتنا بالله وكيف تزكو وتتألق؛ فانما نطالع فقرة من كتاب جليل باهر أعطَى فيه البشرية كلها عطاء جزيلا واسعاً في فن ارتياد ذلك البعد المفقود... بُعْدِ الروح بكل ما تحمله من أشواق إلى خالقها وبارئها ومُنتهاها...!!

وإذا أطَلْنا وقفتنا مع الصلاة، فلأنها «غِذاء الملِكَة»..!! أجل غذاء الروح الذي لم يُعْرف مثله غـذاء.

«اعلموا أن خير أعمالكم الصلاة»..

هكذا يقول الرسول...

ويُسأل:

«يا رسول الله. أيّ الأعمال أحب إلى الله...؟

فيجيب عليه السلام:

الصلاة على وقتها».

ولنصغ لهـذه الكلمات المَواضي المرهَفة:

* «لا إيمان لمن لا أمـانة له»
* «ولا صلاة لمن لا طهور له»
* «ولا دين لمن لا صلاة له»
* «إنما موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد»!!!

أجل.. لا دين لمن لا صلاة له؛ لأن الصلاة؛ وبالطريقة التي شرعها الإسلام خاصة.. خمس فرائض في اليوم، عدا النوافل والسنن ــ تعني التجدد المستمر

للشعور بالمسئولية أمام الله .

فنحن لا نصلي الخمس في ساعة واحدة من النهار ... بل هي موزعة على ساعاته الأربع والعشرين ... وبين كل فريضة وأخرى وقت تقطعه في كل ما في حياتنا من عمل ولهو ، وصدق وكذب ، وحق وباطل . فاذا علمت أنك خلال ساعات اليوم ستقف بين يدي الله خمس مرات . تناجيه خلالها وتتحدث معه ؛ فسيتوفر لك من الحياء لا محالة ما يجعلك تتوقى شيئاً فشيئاً مَزالق اليوم وآثامه ومغرياته . وعندئذ يسلم لك دينك ، وتسلم لك نفسك .

ثم إن رأس الدين هو الإيمان ... الإيمان بالله إلهاً ؛ وسيداً . ورباً ... والصلاة هي الكيان الخارجي لهذا الإيمان . هي الواقع الحي لوجوده ... فأنت تؤمن بالله ...؟؟ حسن ... إن أبسط مظاهر هذا الإيمان أن تطيعه فيما ينفعك ولا يضرك ... يُسعدك ولا يُشقيك ...

وإن أبسط مظاهر هذا الإيمان أن تسعد بدقائق تقضيها مع من آمنت به ... مع القاهر فوق عباده ، مع الوهاب مالك الملك ذي الجلال والإكرام ... صَلِّ إذن له ... واسجد ، واقترب .. وإذا لم تفعل فإيمانك لغو ... ودينك لغو ... أجَلْ ...

« ولا دين لمن لا صلاة له » !!!

ثم إن دنيانا — كما قلنا — تَعِجّ بالشواغل والشهوات وبحوافز الطمع والطموح ، وبهواتف اليأس والجزع . ونزعات الحقد والبغضاء والحسد .

والصلاةُ التي شرعها الله لنا خمس مرات على طول النهار وامتداده .. إنما هي فرار بالنفس خمس مرات كل يوم من ذلك المستنقع الوخيم ، إلى روح وريحان ، ولحظات مُترعة بمَناعِم الرضا والسكينة والقناعة والمحبة والسلام ... فمن ظفر بها سلم له دينه ... ومن قضى العمر كله في قِيعان المستنقع . فأيّان يكون له دين ...؟؟

لقد أوصانا الرسول بالصلاة كما لم يُوص بفريضة أخرى ... ذلك أنه علم من ربه ومن القرآن الذي أوحي إليه ، كم تبلغ ضرورتها للإنسان وقداستها عند الله ، أليس القرآن العظيم هو الذي يغمره بهـذه الوصايا :

* « اتلُ ما أوحِيَ إليك من الكِتابِ . وأقِمِ الصَّلاةَ ، إنَّ الصَّلاةَ تَنْهى عن الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ » .
* « وأمُرْ أهْلَكَ بالصَّلاةِ ، واصْطَبِرْ عليهـا » .
* « وأقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَي النَّهارِ ، وزُلَفاً من اللَّيل » .
* « وسَبِّحْ بحَمْدِ ربِّكَ قَبْلَ طُلوعِ الشمسِ وقبل غروبها ، ومن آناءِ اللَّيلِ فَسبِّحْ وأطْرافَ النَّهارِ لعلَّكَ تَرضى » .
* « قُمِ اللَّيلَ إلاَّ قليلاً .. نِصفَه أو انقُصْ منه قليلاً ... أو زِدْ عليه ورَتِّلِ القرآنَ تَرْتيلاً » .
* « أقِمِ الصَّلاةَ لِدُلوكِ الشَّمسِ إلى غَسَقِ اللَّيلِ ، وقُرآنَ الفجْرِ ، إنَّ قرآنَ الفجْرِ كان مَشْهوداً » .

صلى الله عليك يا حبيب الله ... لقد سارعت إلى أمره ، وصليت آناء الليل وأطراف النهار . ووجدت من حلاوة الإيمان والقرب والشهود في الصلاة ماجعلها قرة عينك ونور روحك ... فجئت في إلحاح نبيل تدعونا إليها وتحضنا عليها ؛ لننال من حلاوتها ونورها وبركاتها ما أنت حريص على أن يفوز به الناس . جميع الناس...ذلك أنك كما وصفك ربك الكبير ، حريص علينا ورؤوف رحيم..!!!

لقد أوصاه الله ــ فيما أوصاه ــ بالصلاة في غسق الليل وفي الفجر .. وعلى الفور تنعكس هذه الوصية الإلهية في وصاياه هو للمؤمنين .. وفتح أعينهم وقلوبهم على مغانم هذه الأوقات النادرة الباهرة .

فيقول عليه السلام :

* « من صلَّى العشاء والفجر في جماعة كان كقيام ليلة » .
* « من استطاع منكـم أن يشهد الصلاتين : العشاء والفجـر

ولو حَبْواً ؛ فليفعل » .

* « إن هاتين الصلاتين — العشاء والفجر — أثقل الصلوات على المنافقين ...
ولو تعلمون مافيهما لأتيتموهما ولو حَبْواً على الرُّكَب» ...!!
* « أفضل الصلاة بعد الفريضة ، صلاة الليل » .
* « صلوا بالليل والناس نيام ؛ تدخلوا الجنة بسلام » .
* « إذا أيقظ الرجل أهله — أي زوجته — من الليل ، فصلّيا ، كُتِبا في الذاكرين والذاكرات » .
* « يُحشَر الناس في صعيد واحد يوم القيامة ؛ فينادي مناد : أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ... فيقومون وهم قليل . فيدخلون الجنة بغير حساب ..
ثم يؤمر بسائر الناس إلى الحساب » ...

لقد أمره ربه أولا ...

و — ثانياً — سارع إلى ربه يقيم الليل إلا قليلا ... ويقف في صلوات طويلة خاشعة والناس كلهم نيام ؛ حتى تتورم قدماه ، وهو لا يني ولا يستريح ، لأن حلاوة التهجد أحلّته عالماً آخر من المباهج والغبطة وعطاء الله ...!!

و — ثالثاً — أقبل مسرعاً على الأمة وعلى الناس يدعوهم ، أنْ تعالَوْا ... وانظروا ... واسمعوا ... وذوقوا ...!!

تعالوا إلى ما لا عين رأت؛ ولا أذُن سمعت . ولا خَطَرَ على قلب بشَر..!!
تعالوا إلى صلاة الليل ، وقرآن الفجر .
« إن قرآن الفجر كان مشهوداً .. »

* * *

أرأيتم هذه المسيرة المباركة إلى الله ...؟؟

أرأيتم هذا المنهج الميمون الذي أضاء به الرسول علاقة المؤمن بالله

وهـَداها ... ومنحها سدادها وتقاها ..؟؟

إن ذلك كله رهن بالوعاء الذي سيحمله ويحتويه ، وما كان لرسول الله أن يـَغـْفـُل عنه ، أو ينسى خطره العظيم .

لقد نهض الرسول يدعو أصحابه والمؤمنين جميعاً أن يحرصوا أبلغ الحرص على اللقمة الحـلال ... فالحلال الطيب الذي لا غلو فيه ولا سرقة ، بل ولا شبهة . هو أولا وآخراً جواز المرور إلى الله .. يقول عليه السلام :

« كـُلّ لحم نبت من حرام ، فالنار أولـَى به .. » .

والجسد الذي تكونت خلاياه من المال الحرام ، لا يصلح أن يكون مَعلـَماً من معـالم الله والهـدى في الأرض .

ها هو رسول الله يتحدث عن :

« ... الرجـل يطيل السفر ، أشعثَ أغبـَر . يمدّ يديه إلى السماء : يا ربّ يا ربّ ... ومطعمه حرام ، ومَشْربه حرام ، وملبسه حرام ، وغـُذيَ بالحرام ... فأنـَّى يـُستجاب لذلك » ؟!

مـِثل هذا التعس كـُل عبادته خواء ، وكل ضراعاته هباء ، ما دام الحرام غـذاءه وكساءه .

ولقد قصده يوماً خاله « سعد بن أبي وقاص » رضي الله عنـه يسأله أن يدعو الله ليجعله مستجاب الدعوة . فقال عليه الصلاة والسلام :

« يا سعد ، أطب مطعمك ، تكن مستجاب الدعوة ...

والذي نفس محمد بيده . إن العبد ليقذف اللقمة الحـرام في جوفه ، ما يـُتقبـّل منه عمـلٌ أربعين يوماً وأيما عبد نبت لحمه من سحت ، فالنـار أولى به .. » .

فـَتحرّي الحلال في رزقك ومعيشتك وعملك ، هو جـُماع الأمر كلـه ، والخير جميعه .

وبقــدر ما يجري في عروقك من دم أزجاه الحلال يكون دينك خالصاً ، وتكون علاقتك بالله باهرة ناضرة .

وبقدر ما يجري في عروق أبنائك من دم أزجــاه الحلال يكون فلاحهم ونجــاح سعيهم .. .

وليكن ختام حديثنا هذا ، هــذه الرائعة من جَوامع كَلِمِه عليه الصلاة والسلام :

« خــيرُ دينكم الورَع » ! !



الفصل الثاني

..عن العلاقات الإنسانية
الإنسان وعالمه

في الفصل الأخير من الجزء الأول ــ كما تحدث الرسول ــ أصغينا خاشعين لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، وهو يحدثنا عن المحبة ويضعها على رأس فضائل الحياة التي تزكو بها وتنمو وتتألق •• ورأينا كيف يتتبع ــ عليه الصلاة والسلام ــ كل ما يسهم في إيناع الحب وإنمائه من عمل وخالجة ، فيجعل منه ومنها شعيرة وعبادة وقربى •

والآن •• وفي ضياء حديثه الصادق الهادي الكريم ، نرى كيف تعثر « العلاقات الإنسانية » على دستورها الشامل والوثيق •

إن الرسول الذي يرفع في الأرض شعلة السماء ، والذي جاء يصحح للإنسانية مسيرتها الآبدة لم يكن لينسى دور العلاقات الإنسانية الراشدة في دعم قوى الحياة والإنسان •• لم يكن لينسى عملها الفذ في إضاءة الضمير الإنساني بنور الخير ودفع التقدم الإسلامي إلى كماله الميسور والمقدور •

وإن أحاديثه الكريمة وتوجيهاته الخيرة لتستوعب كل صور هذه العلاقات وترسم لها طريقها الصحيح •

تستقرئها في كل نماذجها ، وتطلبها في شتى مظانها ، وترسم لها الطريق ، وكأنها تضع لها دستوراً وقانوناً •

وأول ما يُعنى به الرسول الكريم في مجال العلاقات الإنسانية علاقة الإنسان بنفسه .

ذلك أن الإنسان — أي إنسان — لكي يكون سَوِيَّ التعامل مع الآخرين لا بد أن يكون أولا سوي التعامل مع نفسه ، فالمنشقّ على ذاته الكارهُ لها الساخطُ عليها ، هيهات أن يظفر المجتمع منه بما حُرِمَتْه نفسه التي هي أقرب الأحياء والأشياء إليه .

وعلاقة الإنسان بنفسه تجد مُناخها الخصب وأرضها الطيبة وأزْرها المشدود في الهدى الذي بعث الله به رسله وأنبياءه . فبقدر ما تنال من هذا الهدى والنور تكون قدرتك على نسج أصدق وأسمى العلاقات بينك وبين نفسك — وبقدر ما تبتعد عن الهدى والنور ، يكون جفاف تلك العلاقات وضمورها .

يقول الرسول عليه السلام:

« إن مَثَل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضاً — فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير .. وكان منها أجادِبُ أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ..

وكان منها قِيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ » ..!!

إن الناس يتفاوتون تفاوت الأرض وهي تستقبل الغيث .. فهناك الأرض التي تفتح للغيث الهاطل صدرها .. وتمتصه مسامُّها في حبور وغبطة ؛ حيث تخرج بعد ذلك خَبْأها وعطاياها .. [وهناك الأرض العقيم — لكنها أجادب وحياض تختزن الماء وتحتويه ، فيأخذ منه من شاء لما شاء .. فهذه أيضاً ذات نفع وخير] ..

ولكن هناك الأرض الثالثة — قيعان لا تمسك ماء ولا تخرج نبتاً فليس لها في غيث السماء حظ ولا نصيب .. إن الناس لكذلك .

فالذي يتلقى هدى الله ليحيا به يقف مع الأبرار الذين يمدون الحياة

الإنسانية دوماً بخـير زادها ..

والذي يختزن الهدى ليغترف منه القاصدون . له دوره المشكور في إمداد الحياة بهـذا الزاد ..

أما الذي لا يهتـدي ولا يساعد الآخرين على هُدى : فما له في الخـير من نصيب ..

والرسول عليـه الصلاة والسلام يكره للإنسان أن يكون كتلك القيعان المخـذولة البائرة .

وإنه عليه الصلاة والسلام ليدعونا إلى الهـدى حتى نكون أهلا للعطاء وأهـلاً للإعطـاء .

إن أحـداً لا يقدر على عون الآخرين مادام عاجزاً عن عون نفسه . فأعِنْ نفسك واقترب من هدى الله ونوره قدر ما تستطيع . ثم أعنها بأن تجعل حياتك معها قائمة على علاقات سديدة ورشيدة .

وأول عناصر هذه العلاقة الرشيدة مع النفس ألا تُجاوز بها قدرها وكذلك ألاّ تَبْخَسها قدرها ..!!

لا تجاوز بها قدرها بالغرور والصلَف والكبرياء . فالكبرياء لله وحده .. يقول عليـه السلام :

« لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يُكتب في الجبارين : فيصيبه ما أصابهم » ..

أجل .. فحيث يغفل الإنسان عن حقيقته : وحيث يركب هـواه ليطير به ويحلق فوق عباد الله بغياً وعُتُوّاً ، لا يكون ثمة أمن ولا إيمان .

وسواء عليك أن يكون داعي الغرور إعجابك بنفسك ، أم تباهيك بحسبك . يقول عليـه السلام :

« إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية ــ أي تفاخرها وكِبْرَها ــ

إنما هو مؤمن تقي .. أو فاجر شقي ...
الناس كلهم بنو آدم . وآدم من تراب » .

وكما يكون الخير في ألا تجاوز بالغرور قدرك .. يكون كذلك في ألا تبخسه بالجهل والإذعان والهوان .

يقول عليه السلام :

« لا يكونَنَّ أحدكم إمَّعَة » .

و « الإمَّعَة » إنسان وضع نفسه تحت أقدام العجز ، ودَحْرجَها على أرض المهانة ..

وإذا وضع الإنسان نفسه في مكانها الحق ، فلا هَوان ولا عدوان .. ولا صلف ولا اتضاع ، فانه قادر بعدئذ على أن يشيد بقية العلاقات الرضية التي تهيىء له مع نفسه أطيب وأسعد وأزكى حياة .

وهنا تتابع أحاديث الرسول إضاءة الطريق بنورها وسناها .. يقول عليه السلام :

« إذا نظر أحدكم إلى من فضّل عليه في المال فلينظر إلى من هو أسفل منه ، فذلك أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم » .

إن شر ما يُنغص حياتنا الباطنة هو ذلك التطلّع المغيظ المحنِق إلى من هم فوقنا في النعمة وأكثر منا في الثراء .

وإن شر ما يمزق وحدتنا مع أنفسنا ويفقدنا نعمة السكينة ، ذلك الطمع الذي يَؤزّنا أزاً عنيفاً لا من أجل أن نحقق لأنفسنا حياة مستورة طيبة ، بل لكي نَلحق بالآخرين حتى لا يكونوا أرجح منا في موازين الجاه والثراء ..

والذين يُصابون بهذا العُصاب تنحدر علاقتهم بأنفسهم إلى هاوية القلق والحيرة والقنوط .

من أجل هذا ، وحتى لا يفقدَ الإنسان طمأنينته ودينه ينادينا عليه السلام :

« يا أيها الناس ، هلمّوا إلى ربكم ، فإن ما قلَّ وكفى ، خير مما كثر وألهى » .

* * *

وتزكو علاقة الإنسان بنفسه حين يكون ظاهره وباطنه سواء .. فكلما استقام الشكل والجوهر في إنسان ، تكونت له شخصية مُشِعَّة تريح الأعين وتهب الثقة ..!! يقول عليه السلام :

« ما كَرِهْتَ أن يراه الناس منك ، فلا تفعلْه إذا خَلَوْتَ بنفسك » .

إن هذا الحديث الكريم يهيىء المدخل القويم والسوي لعلاقات صحيحة فاصلة تصل الإنسان بالمجتمع وبالبيئة ، لأنه إذا أصبحت نظرة الناس إليه ضمن الموازين التي تحدد سلوكه وتحكم أخلاقياته ، فمعنى ذلك أنَّ علاقته الباطنة بهم تقوم على الرغبة الحقيقية في احترامهم ، وعلى الرغبة الحقة في الظفر باحترامهم .. ليس ذلك فحسب .. بل ويعني ذلك أيضاً أن ثمة ولاء مشتركاً بين ضمير المجتمع وضميره لتلك القيم والفضائل التي تظلل المجتمع وتَسودُه .. والإنسان الذي يحقق لنفسه هذا المستوى يكون من أقدر الناس على إعطاء العلاقات الإنسانية حقها من المبادرة والتأييد .

وإذا استقامت العلاقة بين المرء ونفسه على النسق الودود والسديد الذي تهيئه له تعاليم الرسول الأكرم ، يستطيع في ضياء التعاليم نفسها أن يعيش ويحيا في علاقات متسامية مع البيئة كلها والناس أجمعين .

وتتجه أحاديث الرسول إلى وحدات البيئة والمجتمع لتغطيها جميعاً في تدارُكٍ وتَساوُقٍ بحاجتها من العلاقات الراشدة الجانبية . فتبدأ بالعلاقات العائلية ..

* * *

« خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » .

هكذا يتحدث الرسول عليه صلاة الله وسلامه مركزاً على العلاقات الإنسانية داخـل الأسـرة .

إن الأسرة أول وحدة اجتماعية يتدرّب الإنسان فيها على ممارسة علاقاته كلها مع المجتمع .. وهي المجال الحيوي الأول الذي تمر فيه الشخصية وتترعرع فضائلها . ومن ثم تتجه أحاديث الرسول إليها في حفاوة وتَنَقٍّ .

فَبِرّ الوالدين الذي يجعـل منه الرسول فريضة مقدسة لا يعني واجب الوفاء لهما فحسب ، بل ويعني مـع ذلك تدريب الإنسان على اكتساب فضيلة التعايش القويم والودود مع الناس جميعاً . لقد سئل عليه السلام يوماً هذا السؤال :

يا رسول الله . إن لي مالاً وولداً ، وإن أبي يحتاج مالي ..

فأجاب عليه السلام سائله :

« أنت ومالك لأبيك » .!!

وفي هـذه العبـارة الموجزة والمركزة يصوغ الرسول الكريم العلاقات الإنسانية داخل الأسرة في تعبيرها النهائي .. كما يعطيها الانعكاس الشامل خارج الأسرة حيث الجماعة العريضة والبيئة الواسعة ...

فمبدأ « أنت ومالك لأبيك » يعطي علاقة الولد بوالديه صيغة قانونية تجد امتدادها خارج الأسرة في كل التبعات المالية التي يفرضها الإسلام والرسول على الإنسان تجـاه وطنه ومجتمعه ..

وكذلك سئل عليه الصلاة والسلام مـرة أخرى من إحـدى المسلمات هـذا السؤال :

« يا رسول الله .. إن أمي ماتت ، وكان عليها صيام شـهر ، أفأصوم عنهـا ؟

قال الرسول : نعم صومي عنهـا .

قالت : وإنها لم تحج ، أفأحج عنها ..؟

قال الرسول .. نعم . حجّي عنهـا » .

وهنا أيضاً نجد صيغة قانونية لعلاقة المرء بأبويه إذ يحمّله الحديث الشريف تبعات ٍفات الوالدين أداؤها وهو اليوم قادر على هذا الأداء ..

وهـذه الصيغة القانونية نجد امتدادها هي الأخرى خارج الأسرة في كل تبعات التكافل الاجتماعي الذي يفرضها الإسلام ورسوله على الإنسان تجاه غير القادرين في المجتمع من مُعسرٍ في معيشة ، أو عاجز عن أداء دينه ، أو غازٍ لا يجد ما يقاتل به أو أرملة ويتيم ومسكين .

فالبر المتبادل بين الآباء والأبناء يُشكّلُ جـزءاً هاماً من المركز الحيوي للعلاقات الإنسانية كلها ـ ليس بسبب المعنى العبادي في هذا البر وحسب ؛ بل ولأنه كما ذكرنا الدرس العملي الأول الذي يشكل مقدرتنا على احترام العلاقات الإنسانية في شتى أوضاعها وآفاقها . وكلمة الرسول عليه السلام :

« خـيركم ، خـيركم لأهـله » .

تخلق هـذا الفَرض في أحسن تقويم ، فليس خير الناس لأهله ، الأناني الذي يضعهم فوق الناس أجمعين .. بل هـو الإنسان الفياض الذي يتعلم من برّه أهله برّ الناس جميعاً ، والذي تتحول فضائله العائلية إلى فضائل إنسانية .

* * *

وتتألق اهتمامات الرسول عليه الصلاة والسلام بالعلاقات الأسرية عند إنشاء الأسـرة وتكوينها .

وإنه لينفي عنها غائلة الغلو في الصداق مرتفعاً بها عن مستوى الصفقة ، فيقول عليه السلام :

« خـيرُ الصداقِ أيْسَرُه » .

إنها لفتة ذكية وحانية ، لا تزال وستظل حاجة الناس إليها عَبْر العصور ماثلة ، تلك التي يستهل بها رسول الله بناء الأسرة وإنشاءها .

إنه يريد لهـذا البناء الميمون أن ينهض على أسس الإخاء ، لا المفاضلة ..

والثقة ؛ لا المساومة .. والإيثار ، لا الأثَرة ..!!

ولا شيء ينشىء ، ثم ينمي علاقاتٍ رَيّانةً وصالحة في جو الأسرة مثل بدايةٍ من هذا الطراز الذي يصوغه الرسول ..

فالغُلوّ في الصداق والتكلّف فيه فوق الطاقة والجهد بداية عسرة ومعوقة للعلاقات المنشودة .

من أجل هذا يُولي الرسول حَدَبه واهتمامه لهذه البداية التي يحددها المهر والصداق .

ذهب إليه يوماً أحد أصحابه يخبره أنه تزوج..فسأله الرسول عليه السلام :

« على كَمْ تزوجتها » ..؟

ويجيب الصحابي : على أربع أواق ..

ويقول الرسول مستكثراً وربما مستنكراً ..

« على أربع أواق ..؟؟

كأنكم تنحتون الفضة من عَرض الجبل » ؟!..

والرسول عليه السلام خير من يعلم أنه « لا يصحّ إلا الصحيح » ومن ثم فهو لا يترك أمر العلاقات الأسرية للمصادفة ولا يدعها تتشكل في فراغ .. بل يهيىء لها كل ظروف الحياة والنماء .. ومنذ اللحظات الأولى لتكوين الأسرة. بل للتفكير في تكوينها يتولى بتوجيهاته الرشيدة القضية كلها .. انظروا ..

خطب صحابي من الأنصار واحدة من بنات قومه.فسأله الرسول عليه السلام:

« أنظرتَ إليهـا ..؟ »

قال الرجل : لا ..

فقال النبي :

« اذهب فانظر إليها ، فان في أعين الأنصار شيئاً »..

من هذه النقطة البعيدة تبـدأ اهتمامات المعلم الأكرم بعلاقات العائلة .

إنه لايشيد هذه العلاقات فوق هُوة فاغرة..ولا يرفع بناءها في فراغ .. وإنه ليَعلم دور الطبيعة الإنسانية في كل عمل إنساني . ومن ثم فهو لا يخرجها من حسابه أبداً في كل التكاليف التي يشرعها والآداب التي يسنها .. إنه يطلب إلى الخاطب أن يكون على بينة من مستوى الجمال الذي يرتضيه وتقنع به نفسه.

لماذا ..؟ ليس لأن الجمال عند كثير من الناس مقصود لذاته فحسب .. بل أكثر من ذلك ؛ لأن الجمال في عملية الزواج سبيل لإرباء روح الود وإنعاش علاقات الأسرة .

يوضح ذلك قوله عليه السلام لصحابي آخر :

« انظر إليها ، فانه أحرَى أن يُؤدَم بينكما » .

بل نراه في حديث آخر يرسل امرأة خاطبة لتتبين من أمر المخطوبة ما لا تستطيع أن تتبينه إلا أنثى مثلها قائلا لها :

« شمّي معاطسها ، وانظري عُرقوبها » .

وإنه ليَذكُر أن المرأة تُخطب وتُرغب لمالها ، ولحسبها ولجمالها، ولدينها..

وهو إذ يضع كل ذلك موضع التقدير ، يفتح بصائرنا وأبصارنا على أهم هذه الدواعي وأزكاها قائلا :

« فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك » .

ومع تركيزه هذا على ذات الدين ، ومع أنه رفض كل تمايز باطل ، ونادى الناس جميعاً ليكونوا سَواسِيَة كأسنان المشط ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .. مع هذا كله لم ينس عليه الصلاة والسلام حقيقة التكافؤ بين الزوجين باعتبار ذلك ضرورة تقتضيها سلامة الحياة الزوجية وصيانة علاقات الأسرة من كل تحلل وبوار ..

ودعوة النبي إلى هذا التكافؤ من أصدق آيات ولائه للحياة الإنسانية وأصدق آيات فطنته في تناول مشكلاتها . فالناس مختلفون في مستويات حياتهم

ومتباينون في الظروف التي تجعل منهم أنماطاً شتى في تقاليدهم وتربيتهم وأخلاقهم وأسلوب حياتهم ، وفي تلك الفروق الدقيقة التي تكاد تشكل كلاً منهم على حدة ، وكأنه من عالم وحده .. فما تعارف من تلك الأنماط المتباينة تداعى وائتلف .. وما تناكر منها تباعد واختلف ...!!

ولكي تقوم الأسرة وتنهض على علاقات قوية ودائمة دعا الرسول عليه السلام إلى احترام هذه الحقيقة عندما يهم اثنان ببنـاء أسرة وتكوين عائلة .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« ثلاث لا يؤخرن :

* الصلاة إذا أتت ..
* والجنازة إذا حضرت ..
* والأيم إذا وجدت لها كفؤاً » .

إنه تعبير دقيق يصور المعنى المطلوب ويقرره ، فهو عليه السلام لم يقل إذا وجدت لها زوجاً .. بل كفؤاً ..!!

ولقد جاءته ذات يوم فتاة تشكو أباها وتقول :

إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته ، فرد الرسول الأمر إليها وقال لها : إن شئت أمضيت الزواج وإن شئت نقضته ..

وهذه الواقعة تضيف بعداً جديداً لموضوع الكفاءة . فالزوج هنا ابن عم الزوجة — أي أنهما من مستوى عائلي ومعيشي واحد . بيد أن هناك فارقاً آخر في الدين وفي الخلق .. وهو فارق لا يقل أهمية عند الرسول ، ولا ينسى دوره في تقويم الكفاءة وتقييمها . من أجل هذا يقول عليه السلام :

« إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه .. إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير » .

فالدين نسب ، والخلق حسب .. وهما يشكلان عنصراً أساسياً في تحديد

الكفـاءة وتشخيص الكفء .. دون أن تنسى ضرورة التماثل المطـلوب بين المستويات الاجتماعية بكل ما تحمله من توافق وفروق ــ الأمر الذي أحسن أمير المؤمنين عمر وعيه وأهميته فقال :

« لأمنعن تزوج ذوات الأحساب إلا من الأكْفاء » .

إنه يمتثل أمر نبينا عليه الصلاة والسلام :

« تخيَّروا لِنُطَفِكم ، فأنكِحوا الأكْفاء وانكحوا إليهم » .

ولكي تبدأ العلاقات الأسَرية بداية سليمة وتنمو نموها المرتقب ، رفَض النبي في شدة زواج الخلسة .. ذلك الذي يتم عن طريق الإغراء والخطف حيث تجمع شهوة جامحة بين ذكر وأنثى ، فيتزوجان بعيـداً عن رغبة ولي الأمر أو رغمـاً عنـه . . هنا يقول عليه السلام :

« لا نكاح إلا بوليّ » .

ويقـول :

« أيمّا امـرأة تزوجت بغير إذن وليها فإن نكاحها باطـل .. باطـل .. باطـل » .

وليس ذلك إقراراً بحق الأبوة فحسب .. بل ورعاية لعلاقات الأسرة ودعماً لصرحها القويم .. بدليل أنه عليه السلام يضع رغبـة المخطوبة ورضاها موضع التقدير والاعتبار ، فيقول عليه السلام :

« لا تُنكَح الأيّم ــ أي الثيب ــ حتى تُستأمر ، ولا البكـر حتى تُستأذن » .

ويقول أيضاً :

« الأيّم أحـق بنفسها من وليها .
والبكر تُستأذن في نفسها » .

إنه إنسان باهـر ورسول كريم يرعَى العلاقات الإنسانية في كل مظاهرها وأنماطها ، وهو إذ يضع تشريعه للأسرة يولي العلاقات التي تحكمها كل عنـايته

ورعايته واهتمامه .. إنه عليه السلام لَحريص" على ألا ينظر الناس إلى الزواج كصفقة ــ من أجل هــذا راح يُنحِّي عنه كل النوازع والمشاعر التي لا تتفق ومستواه الإنساني الجليل .

ولكن ، ما مصير العلاقات الإنسانية داخل الأسرة إذا تعرضت لبعض عوامل الخُلْف والشقاق التي تُقحمها على الناس ظروف الحياة .

ماذا يفعل الزوجان بمشاركةٍ فشلت في الاستمرار . وحياة بينهما صارت لا تطــاق ؟..

أيُمسك كل منهما صاحبه على هُون ، أو حقد متربص وبغض مكظوم ..؟ أم يتفرقان ويُغني الله كُلاً من سَعته ..؟؟

أجل .. كيف يتصرف زوج فشل نهائياً في تقبل الحياة مع زوجته ، وكيف تفعل زوجته ..؟.

أيُترك الناس ليتصرف كل على طريقته تجاه رُدود الأفعال الناجمة عــن أفعال وأحــداث تفرض الخصومة والقطيعة ، أم يكون هنــاك سبيل موحَّد ومشروع يتيح للانفصال الذي لم يعد منه بد أن يتم في ظروف وادعة لا تتحول العلاقات الإنسانية فيها إلى مِزَق وأشلاء ..؟.

إن علاقات الإخاء والمحبة والتفاهم والتعاضد بين الناس تأتي في المقام الأول دوماً لدى الرسول الكريم .

وهكذا ، ورعاية منه لهــذه العلاقات داخل الأسرة . بلَّغ الناس بشريعة الطلاق بعد أن تستفرغ كافة الجهود لإزالة أسبابه .

وإن وصفه للطلاق رغم إيجاز العبارة التي تناوله بهــا لآية" في الأدب العالي والحس الرفيع :

« أبغضُ الحلال إلى الله الطلاق » .!!

لم يكــن لإنسان ــ فضلا عن رسول يحمل كل هــذا الولاء للعلاقات

الإنسانية ــ أن يدَع الحياة الاجتماعية تتفجَّر وتتدهور تحت وقع أسَر مغلقة ورازحة تحت نوازع الحقد والخصام والتربص دون أن تجد باباً تخرج إلى محاولات جديدة تهبّ عليها منها نسمات حب وسلام .

فإذا أضفنا إلى هذا إيمانه بأنه آخر مشرع يبلغ كلمة السماء ، بدت مسئوليته وإحساسه بهذه المسئولية واضحاً ومفسراً لكل اهتماماته النبيلة بمشكلات الإنسان .. ولأن يفترق زوجان جفَّت تماماً رغبتهما في البقاء . خير من أن يظلا رازحَيْن تحت نيرٍ يُشقيهما بِلَظاه .. ولأنْ يتحول الزواج الذي فقد أسباب بقائه إلى انفصال وطلاق ، خير من أن يتحول إلى نير وجحيم ..!!

ولقد كان الرسول على وعي حكيم وسديد بكل العوامل والظروف وهو يكفّ يده عن حق الذين يضنيهم زواج فاشل في قَصْمِه وإنهائه . هذه واقعة زوجة اسمها « بريرة » وزوج اسمه « مغيث » ، لنصغ إلى حَبْر الأمة « عبد الله بن عباس » يرويها لنا فيقول :

« كان زوج بَريرة يقال له مُغيث ، كأني أنظر إليه يطوف طرق المدينة خلفها ، ودموعه تسيل على لحيته ..

رآهما الرسول يوماً فقال لعمه العباس وكان جالساً معه : ألا تعجب من حبِ مُغيث بَريرة .. وبغض بريرة مغيثاً ..؟.

ثم قال لها ــ عليه السلام ــ وكانت قد انفصلت عنه :

ألا تُراجعينه يا بريرة ..؟

فقالت للنبي : يا رسول الله ، أتأمرني فأطيع . أم تشفع فأختار ..؟

قال الرسول : بل أشفع يا بريرة ..

قالت : لا حاجة لي فيه » ..!!

في عصر الرسول عليه السلام ، كان للعلاقات الإنسانية من القداسة ، وكان لها من الولاء والاحترام ما لم يكن يسمح بتعكير نقائها وصفائها فضلا عن تركها

لثارات الحقد والانتقام .. ولقد كان المسلمون الرواد ينظرون إليها من خلال تعاليم رسولهم وقدوته نظرة المخبتين الأوابين .

كانوا يرون في انطوائها على أي حقد أو غش أو خديعة ضرباً من الكفر ، وليس مُجرد عِصْيان ! !

هذه زوجة" مسلمة تكتشف بعد الزواج أنها وزوجها على طرفي نقيض .. وتعجز كل محاولاتها لتقبل حياتها الزوجية ، فتذهب إلى الرسول قائلة له :

« يا رسول الله : إني لا أنكر على زوجي في خُلُق ولا دين .. ولكنني أخشى الكفر في الإسلام » .

أرأيتم ..؟

هي تشهد أن زوجها صاحب دين وخلق .. ولكن تيار العاطفة الإنسانية بينها وبينه مقطوع .. هي لا تحبه كزوج ولا تألفه كشريك حياة . ومع ذلك تعيش معه تحت سقف واحد .. تحمل اسمه ويحمل اسمها .. فكيف يصح ذلك ..؟ إنها ترى في مشاعرها الخالية من حبه ، وفي معاشرته وسط هذه المشاعر شيئاً يشبه الكفر :

«إني لا أنكر عليه في دين ولا خلق ولكنني أخشى الكفر في الإسلام» .

هذا إجلال فريد بل أكاد أقول تقديساً فريداً للعلاقات الإنسانية ، عزيز علينا أن نجد له نظيراً ..

هي إذن عاجزة عن أن تحب زوجها وتألفه .. الأمر الذي لا حيلة لها فيه .. ولا حيلة للزوج أيضاً . فهو بشهادتها معه من الدين ومن الخلق ما لم تنكره وما لم تكن له بسببهما أي مأخذ أو شكاة .

والفصل بينها وبين زوجها يقتضي منها تضحية بمالها تقابل تضحية الزوج بقلبه وحبه .

هنالك سألها الرسول : ماذا كان أمْهَرك ..؟ أي دفع لك مهراً وصداقاً ..؟

قالت : حـديقة ..

قال عليه السلام : أتردّين عليه حديقته ..؟

قالت : نعـم .

فقال الرسول لزوجها :

« اقبل الحديقة ، وطلّقها تطليقة » .

* * *

لم يستخدم الرسول كلمة « تطليقة » في هذه العبارة ليزخرفها بالسّجع .. بل استخدمها لأنه يعنيها ويعني بها مزيداً من الحرص ومن الحدب على العلاقات الإنسانية وهو يقنن لشرعة الطلاق ..

إنه عليه صلاة الله وسلامه لا يريد أن يغلق الباب نهائياً أمام أي أمل ولو خافت في إمكان استئناف الحياة الزوجية مستقبلا في ظل ظروف تساعده .. وهو لهـذا يأمر بتطليقة واحـدة حتى يظل الباب مُوارباً أو مفتوحاً أمـام الرجعة لو قدر لهـا أن تكون .

ولم يكن موقف الرسول والإسلام من إباحة الطلاق إلا صورة صادقة من صور إبقائه على العلاقات الأسرية ودعم بنائها ـ الأمر الذي فهم نقيضه بعض الذين يسيئون الفهم وتُعْوِزهم النظرة الذكية والمخلصة .

فالرسول عليه السلام لم يترك سبيلا لتفادي الطلاق إلا أوصى به وحض عليه ـ وحسْبه أنه اعتبره حتى وهو ضرورة مُلحّة ، أبغض الحلال إلى الله ..

بل إن تعـدد الزوجات ـ الأمر الذي أسيء فهمه هو الآخر ـ قُصد فيما قُصد من حكمة تشريعه ، أن يكون حائلا دون تمزق الأسر بالطلاق ..

فالزوج الذي جانبه التوفيق في زواج ما ، ولم يعد له خلاص في غير الطلاق ، يضع الإسلام أمامه فرصة أخرى تبيح له إنشاء زواج آخر مع الإبقاء على حرمة زواجه الأول وكرامته ما وُجِد لذلك سبيلا ..

وهنا : وفي حالة التعدد هذه يزداد توكيد الرسول لحرمة العلاقات الإنسانية — لا سيما داخل الأسرة التي هي أولى لَبِنات المجتمع ووحداته — فيرفعها إلى مرتبة العدل المفروض .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من كان له امرأتان ، ولم يعدل بينهما ، جاء يوم القيامة ، وشِقّه ساقط » !!.

أجل .. ليس للهوى مهما تكن حوافزه وأسبابه مكان فيما يريد الرسول لعلاقات الأسرة وعلاقات الناس من وشائج مشدودة بأواصر الحرمة والتوقير .

ويعطي الرسول التعبير النهائي لقداسة العلاقة بين الزوجين ، حين يقول للزوجات :

« لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها » ..

وحين يقول للأزواج :

« استوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عَوانٌ عندكم ، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك ، إلا أن يأتين بفاحشة مُبيّنة » .

ويوقظ فينا ملكة التعقل والتمييز حين يخبرنا أن ثمة في الشخصية الإنسانية من الفضائل والمزايا ما لا ينبغي أن نعمى عنه حين يثير غضبنا خطأ ما ، أو نقيصة ما ..

فيقول عليه السلام للأزواج :

« لا يَفْرَكْ مؤمن مؤمنة — أي يفارقها أو يغاضبها — إنْ كَرِهَ منها خلُقاً ، رضِيَ آخر .. » .

إنه لا يترك سبيلا يستديم العلاقة الخالصة المخلصة بين الزوجين .. أو بينهما كوالدين وبين الأبناء إلا دعا إليها ، وبارك السائرين نحوها .

وإنه ليُخرج من صفوف المؤمنين كل من يعمل على إفساد علاقة زوجية قائمـة ..

يقول عليه الصلاة والسلام :

« ليس منا من خَبَّب امرأة على زوجها » .

أي أفسدها عليه ، وسار بينهما بالوقيعة والفتنة .

ويضرب عليـه السلام مثلا بليغاً لقداحة الإثم الذي يرتكبه من يخرّب علاقات الأسرة على هذا النحو فيقول عليه السلام :

«إن إبليس يبعث سراياه .. فأدناهم منه منزلة ، أعظمهم فتنة .. يجيء أحدهم ، فيقول : فعلت كذا ، وكذا ، فيقول له إبليس : ما صنعتَ شيئاً . ثم يجيء أحدهم فيقول : ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته ، ويقول له : نعْم أنت » ..

* * *

ومسألة المال ، والنفقة والمعيشة ، من أكثر أسباب الطمأنينة في الأسرة إن جرت ريحها رُخاء .. ومن أكثرها إزعاجاً وتنغيصاً إذا تعثرت وتاهت .

والعلاقات الإنسانية داخل الأسرة تزدهر وتترعرع بقدر ما تتوَقّى الأسرة مشاكل العيش والنفقة .

وهنا يمتد للأسرة وللعلاقات الإنسانية فيها بَلْسَم شاف وترياق مبارك من تعاليم الرسول وأحاديثه .

ويبدأ عليه السلام فيعلمنا أن أفضل وأزكى صنوف النفقات التي تنفقها ــ هي تلك التي تسدّ بهـا حاجات أهلينا .

يقول عليه السلام :

« دينار أنفقته في سبيل الله ، .

ودينار أنفقته في رقبة ــ أي حررت به رقيقاً ــ ..

ودينار تصدقت به على مسكين ..
ودينار أنفقته على أهلك .
أعظمها أجراً ، الذي أنفقته على أهلك » ...

ليس معنى ذلك بَداهةً ، أن يعيش الإنسان أنانياً ، ويكُفّ يده عن النفقة في سبيل الله وسبيل الخير ، ما دام وُسِّع له في رزقه ..

إنما ينحصر الحديث الذي سَلف في الذي لا تواتيه فرصة الإنفاق عن سَعة .. فيمن يبدأ أولا ..؟

يقول له الرسول : ابدأ بأهلك ..

وإنه ـ عليه السلام ـ ليحدد الخطوات في حديث آخر يقول فيه :
« .. على نفسك .. وزوجتك .. وولدك .. وخادمك .. » .

وحتى ذلك النزاع الذي تثيره رغبة كثير من الزوجات في الاستئثار بكل شيء ، وحرمان آباء أزواجهن وأمهاتهم وأرحامهم من بعض ما يقدر عليه الأزواج من فضل وبذل .

حتى هذه ، لم ينسها الرسول الكريم .. فبعد أن انتهى من دعم حق الزوجة والولد والخادم في النفقة أولا ، عاد وقال :
« وابدأ بمن تعول ..
أمك وأباك .. وأختك وأخاك ..
وأدناك ، فأدناك » ..

إن العلاقات الإنسانية تتبدد كالعِهن المنفوش ، حين تضيق دائرة التكافل المحتوم وتنغلق في وجوه أحق الناس بالبر والحنان وبالعون الواجب المفروض .. وهكذا يدفع الرسول غوائل الأنانية والنكران التي تبدر من زوجة جائرة أو ابن جحود . !!

وحين يعطي النبي اهتمامه لكفاية البيت والأهل أولا ، فإنما ينبه بهذا إلى

تلك التصرفات الرعناء التي يشغف بها كثيرون ، فيبعثرون دخلهم في مظاهر فارغة كاذبة .. بينما بيوتهم في حاجة مُلحّة إلى ما يَضيع خارجها رياء أو سَفها ..

وهنا يقول معلمنا الأعظم عليه أفضل الصلاة وأبهى السلام :

« كفى بالمرء إثماً أن يُضيّع مَن يَعول » .

وكما يلفَح هذا الزجر ـــ الزوج المضيِّع ، يلفح كذلك الزوجة المسرفة .. فان كليهما ـــ الزوج والزوجة ـــ مسئول عن طمأنينة الأسرة بما يتعاونان عليـــه من قصد وتنظيم .

يقول عليه السلام :

« كلوا ، واشربوا ، وتصدّقوا ـــ ما لم يُخالطه إســراف ، ولا مَخيلَة » .

ويقول عليه السلام :

« إنما أخشى عليكم شهوات الغيّ في بطونكم ، وفروجكم ، ومُضِلاّت الهوى » .

ولقد رأى عليه الصلاة والسلام ذات يوم رجلا عظيم البطن من السِّمنة ، فقال له وهو يشير إلى بطنه :

« لو كان هذا ، في غير هذا ، لكان خيراً لك » ..!

وأحسب أن هذا القول يتجه للمرأة أيضاً إذا حولت ميزانية بيتها إلى بطن كبير ، وجسم مُترهِّل ، وسِمنة متفشية ..!!

إن القصد في المعيشة من أكثر دواعي الاستقرار في الأسرة ، والاستقرار في الأسرة ضروري لكل ما ننشد للعلاقات الإنسانية من سلام وازدهار .

وبهذه التوجيهات التي تحدث بها الرسول إلى الأسرة وعنها ، والتي جئنا بومضات منها ، تجد العلاقات الإنسانية إحدى ركائزها ، وأحد أسسها ، كمـا تجـد منطلقها إلى المجتمع الكبير والعريض ؛ لتكفل له في ظل التوجيه النبوي

الكريم حياة نامية .. حانية .. متسامية ...

* * *

وتنْداحُ العلاقات الإنسانية في الأسرة لتنتظم فيها الرحم وكل ذوي القربى ، ويُضفي النبي على هذا النوع من العلاقات خاصة ـ حفاوة ربَّانية ، تجعل التفريط فيها نقصاً في الدين لا يرضاه لنفسه مؤمن .

وإن الرسول عليه السلام ، ليَعلم أن العلاقات الإنسانية داخل الأسرة ، هي الفرصة الجليلة لتدريب الإنسان على حِذْق العلاقات والولاء لها في طول المجتمع وعرضه .

لأن الفضائل الإنسانية تزكو بالتدريب .. وخير فرص التدريب ما كانت في نطاق تقبل عليه النفس وتألفه بحكم ظروف تلقائية وثيقة .. الأمر الذي نجده متوفراً في مجال الرباط العائلي ..

وإذا كانت أنانية البعض تريد أن تقف بهم عند الحدود الضيقة للأسرة من زوجة وولد وإخوة فان الرسول عليه السلام يدعونا للخروج إلى القرابة القريبة والبعيدة ـ تلك تشكل الامتداد الحق للأسرة وللرحم ..

ويبدأ عليه السلام ، فيقول لنا :

« الرَّحِم معلقة بالعرش ، تقول : من وصلَني وصلَه الله .. ومن قَطعني قطَعه الله .. » .

ويقول :

« يا معشر المسلمين . اتقوا الله وصِلوا أرحامكم فإنه ليس من ثوابٍ أسرع من صِلَة الرحم » .

فالرحم معلقة بالعرش .. كيف ..؟ إن كل ما للقرابة من حق ، يلوذ بالله سبحانه من القطيعة التي تُضيِّع هذه الحقوق وتدسُّها في التراب ..

إن كل هذه الحقوق بكل ما تمثله من حاجة ، وهموم ، وكروب وكل

ما تتطلع إليه من غوث ، ونجدة ، وبر ، تلوذ بالله الحفيظ للعليم سائلة إياه أن يبارك الذين يحملون مسئولية وصلها وأدائها ، وأن يأخذ لها حقها قصاصاً عادلا من الذين يتنكرون لها .

ويصوغ الرسول الكريم هذا المعنى في صورة من أبهى قلائد القول يقول :

« إن الله تعالى خلق الخلق .. حتى إذا فرغ منهم ، قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة قال : نعم ، أما ترضَيْنَ أن أصِلَ من وصلك ، وأقطع من قطعك ..؟

قالت : بلى ..

قال الله : فذلك لك » .

« ثم قال ﷺ : اقرءوا إن شئتم : (فهل عَسيتُم إن توليتُم أن تُفسدوا في الأرض ، وتُقطِّعوا أرحامكم .. أولئك الذين لعنهم الله فأصمَّهم وأعمى أبصارهم) » .

فهنا ، يعطي الرسول أروع صور هذه العلاقة المهيبة ، حين يكشف عن الحاجة القصوى التي تحرك القرابة نحو طلب الحنان والتعاطف والنُّصرة .. حتى لكأنها من فرط وحدتها ووحشتها وتَضوّعها تطرح نفسها بين يدي الله وتحت عرشه مستغيثة به ، ضارعة إليه .. وحين يتبادل الناس التواصُل ويُعطون الرحم والقربى حقها يكونون قد حققوا واحداً من أهم واجبات الإيمان .. لكن الرسول عليه السلام يُجِلّ هذه العلاقة عن أن تكون شيئاً يشبه الصفقة .

ومن ثَم يقول :

« ليس الواصِلُ بالمكافِىء .. ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رحمه وصلها » .

إنه يريد لعلاقاتنا . لا سيما في هذا المستوى القريب أن تبرأ من التبادل النفعي أو الأناني .. فأصِل قريبي لأنه يصِلُني ، وأزور أخي لأنه يزورني .. فإذا امتنع امتنعت .!!

لا .. ليس الواصل بالمكافىء .. أي الذي يصل ــ فقط ــ من يصله ..

إن العلاقات الإنسانية عامة ، والأسرية خاصة ، أجل مقاماً وأسمى منزلة عند الرسول من أن يعطلها عزوب أحد الأطراف عنها وتقصيره فيها .

ها هو ذا عليه السلام يقول :

« ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة ..؟ أن تصل من قطعك .. وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك » ..!!

فأن تصل من قطعك ، وليس من وصلك وحسب .. هذه هي البطولة .. وهذا هو المسلك الكريم الذي تبقى به لعلاقاتنا الإنسانية رحمتها وبهاؤها ..

ولقد سئل الرسول يوماً من أحد المسلمين هذا السؤال :

« يا رسول الله ! :

إن لي قرابة . أصلهم ، ويقطعونني .. وأحسن إليهم ، ويسيئون إلي .. وأحلم عنهم ، ويجهلون علي ..

فقال الرسول للسائل : إن كنت كما قلت ، فكأنما تسفهم المل ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك » .

إن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل .. أي لك الحجة عليهم وأنت ببرك هذا رغم إساءتهم ، وبوصلك رغم قطيعتهم تخجلهم وتذل غرورهم .. وسيأتي اليوم الذي يقعون فيه أسرى مودتك وإحسانك لأن معك من الله ظهيراً ونصيراً وسلطاناً .

إنه عليه السلام حريص لا ريب على إنعاش علاقاتنا وإيناسها وإحيائها بتبادل الود والصلة والحب ، ابتغاء وجه الخير .. ولكن إذا نكص أحد الأطراف عن واجبه ، فالرسول يدعو الآخرين ألا يعاملوه بالمثل . وإلا تعرضت علاقاتنا للذبول والضمور والتلاشي . الأمر الذي يعيذنا منه الحريص علينا ، والرحيم بنا ــ عليه صلاة ربنا وسلامه ..

* * *

ومن الأسرة إلى المجتمع العريض الرحيب تتقدمنا أحاديث الرسول وتوجيهاته ليجد المجتمع فيها أوثق دواعي تواصله وتكامله .

ويدرك النبي الكريم ما تمتلىء به حياة الناس من ضوضاء ومثبطات ... يدرك أن الظروف والمواقف والمشكلات التي تعمل على تخريب العلاقات الحلوة الآمنة بينهم ، أكثر وأكثر من الأخرى التي تعمل على جمع الشمل وإرهاف الإخاء ..

من أجل هذا ، لم يشأ أن يترك علاقاتنا الإنسانية هذه لرحمة الأحداث ، ور دود أفعال المواقف ، وتحكم الظروف .. إن ذلك يجعلها « قشة » في مهب الريح .

بيد أنها تقوى وتدوم إذا صاغ لها « ضميرها » الذي تركن إليه ، وتستمد منه ـ مهما تكن الظروف .. ولقد وجد هذا الضمير في ربط هذه العلاقات ربطاً وثيقاً وكاملا بالله رب العالمين .

أنت إذا أخذت نفسك برحمة الضعيف ، وتوقير الكبير ، والتواضع للناس ، وإنشاء كل وجوه العلاقة الحسنة معهم ، لكي يمتدحوك أو ينفعوك ، فسيأتي اليوم الذي تهمل فيه هذه الفضائل والشعائر كلها أو بعضها إذا تغير تقديرك لمدحهم أو لنفعهم ..

أما إذا أخذت نفسك دائماً أن تصنع ذلك ابتغاء وجه الله ومرضاته فقد ضمنت لفضائلك هذه بقاء وخلوداً ..

وهذا هو « الضمير » الذي يبثه الرسول في علاقاتنا الإنسانية لتبقى وتدوم ـ أن يكون الله وجهتنا ، ولا شيء معه ..

وهكذا قال عليه السلام وهو يتحدث عن الذي يرزق حلاوة الإيمان :

« .. وأن يحب المرء ، لا يحبه إلا لله تعالى » .

انظروا .. (لا يحبه إلا لله تعالى) ..

هذا هو الضمير الرشيد والمجيد لعلاقاتنا كلها .. أن تحب ، وتزور ، وتعطف، وتصل، وتجامل، وتتعامل، لا لشيء ما ، إلا ابتغاء وجه الله العلي العظيم.

عندئذ لن يضيرك إهمال ، أو نكران .. ولن تكون العلاقة بينك وبين مجتمعك صفقة .. بل قُربى يرعاها الله بحنانه .. ويتغمدها برضوانه ..

وسيظل الرسول عليه السلام يؤكد هذا المعنى ويُذكّرنا به ..

إنه حريص على أن تكون كل أعمالنا لله .. وهو أكثر حرصاً على هذا في مجال علاقاتنا الإنسانية ؛ لأنها ستبور حتماً إذا هي خضعت لأسلوب البيع والشراء .. وهاتِ ، وخُذْ .. بينما هي تحيا وتزدهر وتتألق كلما كان حاديها الرغبة فيما عند الله من رضا وثواب . وسيقول لنا الرسول كثيراً :

« ... وكونوا عباد الله إخواناً » .

وسيربط هذا الإخاء بضميره الحي .. ابتغاء وجه الله فيما ننشد من إخاء وصحبة ، وفيما نأتي من مجاملة ومودة وصلات ، يقول عليه السلام :

« يقول الله تبارك وتعالى : وجبَتْ محبتي للمتحابّين فيَّ ، والمتجالسين فيَّ ، والمتزاورين فيَّ » ..

* * *

ويريد الرسول للناس أن يكون اجتماعهم على خير ، وأن يكون تلاقيهم وتواصلهم وما بينهم من علاقات قائماً على المعروف لا المنكر .

إن الفضائل بين الناس نسب يشد بعضهم إلى بعض ، ها هو ذا يقول :

« الأرواح جنود مُجنّدة ، ما تعارَف منها ائتلف وما تناكَر منها اختلف » .

وهذا هو النسب الحق والحسب الباقي الذي يهيىء لصاحبه مكاناً في قافلة المباركين من الناس .

يقول عليه السلام :

« ومَن بَطَّأ به عملُه ، لم يُسرع به نَسَبُه » ..

إن سداد العلاقات الإنسانية يتمثل أولا في أنها تنادي الشرفاء إلى بعضهم وتقيم بينهم تكافلا يجعل دائرتهم دائماً في اتساع ، وعددهم في مزيد ..

وإن الله ليَبارك هذا النوع من العلاقات ويبارك أصحابه . ليس في الدنيا وحسب .. بل وفي الآخرة أيضاً ..

يقول عليه السلام :

« أهل المعروف في الدنيا ؛ هم أهل المعروف في الآخرة .. وأول من يدخل الجنة أهلُ المعروف » .

ولكن ذلك لا يعني عنــد الرسول أن ينطوي أهل المعروف على أنفسهم ، ويقيموا علاقات مُتجهِّمة مع الآخرين .

إن للشريعة حــدودها وعقوباتها وزواجرها تتولى بهــا عــلاج الخطيئة والخطائين .. أما مجال العلاقات الإنسانية فمن الخير أن يبقى مُفتَّح الجنبات بكل ما يمثله من عون وغوث وسلام ؛ لأنه بما يزخر به من تفاعلات كريمة قادر على الأخذ بأيدي الذين يتعثرون ــ إلى عالم الصلاح والفضيلة .

إن العلاقات الإنسانية من شأنها أن تفتح عينيها على ما عند الناس من خــير وفضل، وأن تُغْضيَ عما بهم من ضعف ، فإنها إذا عكفت على مساءاتهم تجترّها، وتعيِّرهم بها وقعت تحت إغواء القطيعة ، وفقدت دورها في جمع الشمل والدعوة إلى الخــير . يقول عليه السلام :

« يا مُعاذ .. أحْسِنْ خُلقَكَ للناس » .

إن كلمة « للناس » تزن كثيراً وتدلّ على كثير ، فهناك أحاديث كثيرة تأمر بحسن الخلق .. وامتلاك الإنسان كثيراً من الفضائل يرفع من قيمته وقدره .. لكن هذه الفضائل تظل كالطاقة المحتبسة حتى تُلقي على الناس وعلى المجتمع انعكاسها الباهر ؛ فتدل على أصالتها .. أو انعكاسها المتجهم القاسي ؟ فتــدل على ضَحالتها ..

يقول عليه السلام :

« إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » ..

ونلاحظ هنا أن النبي عليه السلام . لم يستعمل كلمة « المؤمنين » أو حتى « المسلمين » بل كلمة « الناس » .

ذلك أن هناك قدراً من الخلق ومن التعامل الحسن الكريم ، ومن العلاقات الحانية المسعفة..هناك قدر من ذلك كله يجب بذله للناس ، جميع الناس..حتى يستقيم أمر الحياة الإنسانية ، وحتى تبقى أبواب الرجوع إلى الصواب وإلى الخير مفتحة أمام الشاردين عنها ..

من أجل هذا ، وحتى حين يكون المقام مقام دعوة إلى الدين ذاته نجد الرسول يقول :

« بشروا ، ولا تنفروا .. ويسروا ، ولا تعسروا » .

إن هذا الجانب من حسن الخلق الذي يتمثل في التعامل المباشر والمستمر بين الناس بعضهم البعض . كان على الدوام موضع اهتمام الرسول ﷺ وموضوع حديثه ووصاياه ؛ لأنه يعلم أن العلاقات السوية والرشيدة مرهونة بوجوده .

يقول عليه السلام :

« إن أحبكم إلي أحاسنكم أخلاقاً .. الموطئون أكنافاً .. الذين يألفون ويؤلفون » .

فهنا في هذا الحديث تزكية مباشرة للأخلاق الاجتماعية التي تتأثر وتؤثر وتلتحم بالعلاقات الإنسانية .. فتوطئة الأكناف . والألفة والإيلاف ـ كلها تحمل من رحابة المفهوم وسعة الدلالة ما يجعلها وعاء لكل الأخلاق الاجتماعية في غير نقصان .. ويتم عليه السلام حديثه فيقول :

« وإن أبغضكم إليّ المشاؤون بالنميمة .. المفرقون بين الأحبة .. الملتمسون للبرآء العيب » .

إنه تتبع دقيق للآفات النفسية التي تفرز أخلاقاً مخربة للصفوف الإنسانية، مثبطة لأسباب التفاهم والود والإخاء بين الناس :

من أجل هـذا يقول عليه السلام :

« حسن الخلق نماء . وسوء الخلق شؤم » .

ولئن كان هذا المعنى صحيحاً بالنسبة للفرد ذاته ـ بمعنى أن حسن خلقه يأتيه بالخير ، وسوء خلقه يجلب عليه السوء والشر .. فإنه أكثر صحة وانطباقاً على المجتمع في علاقاته بالفرد .. فطيّب الأخلاق نماء لمجتمعه ، لأنه بحسن خلقه دعوة وقدرة إلى كل فضيلة وخير .. وأما سيىء الأخلاق فشؤم على مجتمعه . لأنه بسوء خلقه وفظاظة نفسه وغلظ قلبه وتجهم سلوكه دعوة وقدوة إلى السوء والشر .. والرسول عليه الصلاة والسلام بهذه التوجيهات لا يهيىء الظروف الرضية للعلاقات الإنسانية فحسب .. بل هو مع ذلك ، وربما قبل ذلك ، يعمل على إيجاد الشخصية الصحيحة التي تستطيع بحسن خلقها ولباقة تصرفاتها أن تمارس علاقتها مع الآخرين في رفق وعذوبة وسداد ..

وفي هذا السبيل يقول عليه السلام :

« ألا أخبركم على من تحرم النار ..؟؟ تحرم على كل هيّن .. ليّن .. سهل » .

فالهين ، اللين ، السهل ، هو ذلك الإنسان الذي تشيع تصرفاته في العلاقات الإنسانية من الدفء والهدوء والسكينة ما تقرّ به عيناها ..

يقـول عليه السلام :

« من أعطي حظه من الرفق ، فقد أعطي حظه من الخـير .. ومن حرم حظه من الرفق ، فقد حرم حظه من الخـير » .

ولأنه وأصحابه وتابعيه ، إنما يعايشون المجتمع الإنساني إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، فقد حمّلهم عليه الصلاة والسلام مسئوليتهم تِجاه الرفق به والحدَب عليه حين قــال :

« إنما بُعثتم ميسِّرين •
ولم تُبعثوا معسِّرين » •

وإنه ليقول للأشجّ على ملأٍ من أصحابه :

« إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله : الحلمُ •• والأناة » ••

ويكشف للناس عن طبيعة القوة الخيِّرة الفاضلة التي هي شَرف لصاحبها فيقول :

« ليس الشديد بالصُّرعة •• إنمــا الشديد الذي يَملِك نفسه عنــد الغضب » •!!

فهذه القوة وحدها : هي التي تمنح العلاقات الإنسانية سلامها وسلامتها وحُبورها وانتصارها ؛ لأنها ــ أي هذه القوة الرشيدة ــ ستوقّيها مَزالِق الحنق والغضب ، ومَهاوِيَ التمزق والقطيعة ••

وهذه القوة حين تكون طابَع الشخصية بالنسبة لأفراد المجتمع فان العلاقات الإنسانية تكون قد استقرت على قاعدة صُلْبة لا تهتز ولا تتداعى •

★ ★ ★

بعد هذا مباشرة ينتقل بنا الرسول عليه الصلاة والسلام إلى نقطة هامة ، حيث يبين لنا طبيعة العلاقات الإنسانية ودرجة أهميتها •

فهل هي أسلوب في المجاملات الرقيقة والإنسانيات العابرة • ؟

أم هي مسئولية دينية واجتماعية بكل ما للمسئولية من مَعانٍ وخصائص وجــزاء •• ؟

إنها عند الرسول وفي الإسلام مسئولية دين ، وحقّ مجتمع •• فعنــدما

يقــول الرسول مثلا :

« ليس منّا من لم يرحم صغيرنا ، ويُوقّر كبيرنا » .

وعنــدما يقــول :

«من لم يشكُر الناس ، لم يشكر الله » .

وحــين يقــول :

« لا تؤمنوا حتى تحابّوا » .

وحــين يقــول :

« من اطّلَع في بيت قوم بغير إذنهم ، فقد حلّ لهم أن يفقأوا عينه » .

هــذه الأحاديث .. وكلهــا عن آداب المجتمع وحقوقه ، وعن العلاقات الإنسانية ـ ألا تدل بما فيها من تَنقّي الإيمان تارة .. والحرمان من مزايا الانتماء إلى الجماعة المؤمنة تارة أخرى .. والعقوبة بِفَقْء العين مرة ثالثة .. ألا يدل ذلك كله على أن علاقاتنا بالمجتمع وبالناس ليست في الإسلام ، وليست عنــد الرسول مسألة ثانوية تعيش على هامش تعاليمه وتوجيهاته ..؟ إنما هي واجب كبير يلقى مع واجبات الدين والحياة مسئوليته المحتومة ، أجل .. هي مسئولية دين وحق ومجتمع ، وإن أحاديث الرسول عليه السلام لتتعاون مع الناس لتبلغ أسمى منازل الوفاء بهــذه المسئولية وهذا الحق .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« إن دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم حرام عليكم . كحــرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا .. ألا هل بلّغت » .

أجل . بلّغتَ يا رسول الله ، أصدق البلاغ وأوفاه . فدماء الناس وأموالهم وأعراضهم لها قداسة تذود عنها كل طامع .. ومن هذه الحرمات المصونة المحفوظة تبــدأ علاقات الناس مَسيرها المطمئن الشريف ..

يقول صلى الله عليه وسلم :

« إن أرْبى الربا ـ أي شرّه وأفدحه ـ استطالةُ الرجل في

عرض أخيه » ...!!!!

فأدنى الواجبات تجـاه العلاقات الإنسانية التي تشد الناس بعضهم إلى بعض، وتجعل منهم عائلة واحدة ــ هو أن يحفظ بعضهم بعضاً بالغيب، فلا يذكر الرجل أخاه بالسوء، ويطلق فيه لسانه بغير حساب، منتهزاً فرصة غيابه .

وصدق الله العظيم :

« أيُحِبُّ أحدُكُم أنْ يأكُلَ لحْمَ أخيهِ ميْتاً » ..؟!

إن الرسول عليه الصلاة والسلام يضيق نفساً، ويتفجّر غضباً من هـذا السلوك الذميم .. وإنه ليعود فيردد نفس المعنى الذي رأيناه في حديثه السالف في صورة أشد، فيقول عليه السلام :

« أشد الربا، وأربى الربا، وأخبث الربا ــ انتهاك عرض المسلم، وانتهـاك حرمته » .

إنه عليه السلام ينشىء حرمات شاهقة لسرائر الناس وأسرارهم . ذلك أنه ما يترتب على خدشها من دمار ماحق . ليس للعلاقات الإنسانية وحدها . بل وللبنـاء الاجتماعي ذاته .

ولعله بذلك حـين قال :

«إنك إن اتبعت عورات المسلمين، أفسدتهم أو كدتَ تفسدهم» ..

بل إنه عليه السلام ليزجر الحاكم عن تتبع تلك الأسرار إذا كان حريصاً على صلاح مجتمعه وإصلاحه .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم » .

ويضرب عليه السلام أصدق الأمثلة وأروعها حين جاءه واحد من المسلمين واسمه « ماعز » يعترف بخطيئة الزنا ويسأل الرسول أن يقيم عليه حـد الله .. وأمام اعتراف الرجل وإصراره على اعترافه رغم الفرص الكثيرة التي لوّح بهـا الرسول كي ينجو من الحد ــ لم يكن ثمة بد من إقامته ..

ولكنْ ، حين علم الرسول أن الذي دفع « ماعزاً » إلى الاعتراف وزيّنه له رجل اسمه « هزال » •

قال له النبي :

« لو سترته بثوبك ، كان خيراً لك » •!!

إنه ولاء عجيب لحرمات الناس وأعراضهم • لا يني الرسول الكريم عن ترداده وتمجيده •• ولا يكفّ عن الدحض والرفض لكل افتيات عليه ••!

« يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه • لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم ؛ فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته •• ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته » ••

ومن يجيء هذا الولاء ••

يجيء من رسول بعث ليزكّي الفضيلة ، ويدْحَر الرذيلة •• رسول يقول :

« أنا آخذ بحجزكم عن النار ، أقول : إياكم وجهنم ، إياكم والحدود •• إياكم وجهنم ، إياكم والحدود •• إياكم وجهنم ، إياكم والحدود » • !

ويتحدث عن الذين يأتون يوم القيامة ومعهم من الخير أعمال كأمثال جبال تهامة ، يجعلها الله هباء منثوراً •• وذلك لأنهم كما تحدث عنهم عليه السلام :

« قوم إذا خلَوْا بمحارم الله انتهكوها » •

من هذا الرسول الداعي إلى الله وإلى صراط مستقيم ، يجيء هذا التكامل الفذ بين حرصه على الفضيلة والطاعة •• وحرصه النبيل على أعراض الناس وحرمات الجماعة ••

ذلك لأنه يعلم ما في ذلك من صلاح عظيم ليس لأمر الناس فحسب ؛ بل وللفضائل التي يدعو إليها ••

ثم إنه عليه السلام لا يَسوق الناس ولا يريد من أحد أن يسوق الناس إلى

الفضيلة والخير بالسوط ولا بالتقريع .. إن أحرص ما يحرص عليه أن يقوم الملكوت الأخلاقي للضمير الإنساني في الجماعة وفي الفرد .. وأن تزكو وتزدهر في كل إنسان ملكة التمييز الأخلاقي التي هي ركيزة الفضائل الإنسانية . بل ركيزة الوجود الإنساني ـ وذلك لا يتأتى بخذلان الإنسان وإذلاله ، ولا بتتبع عوراته وتضخيم زلاته ألم يقل لنا الرسول من قبل :

«إنك إن اتبعت عورات المسلمين، أفسدتهم أو كدت تفسدهم »..؟

إنه لهـذا يقولها .. ولهذا يرفضها ويدحضُها ..

إن الرسول يرضيه من الناس ويريد منهم ولهم أن يتغنَّوْا دائماً بما معهم من فضل وبما فيهم من خير ـ فذلك أفضل السُّبل لإرواء علاقاتهم بحنان الود والمحبة والإخاء .

إنه يريدها علاقات نقية صافية . ومن ثَمَّ فهو يرفض غمز الناس وتجريحهم؛ لأنه ليس فيهم من خطأ وأخطاء . فاذا لم يجد كل منهم إلى حظيرة يتهارَشُ نزلاؤها في ضلال بعيد .!!

ولقد كان عليه السلام يرفض أدنى تسامح في هذا السبيل .. فهذه زوجته الأثيرة « عائشة » تذكر « صفية بنت حُيَيّ »زميلتها بكلمة هينة وعابرة فتقول : « إنها قصيرة » .. فيغضب الرسول ويقول لعائشة :

« لقد قلتِ كلمة لو مُزِجَتْ بماء البحر لمزَجَتْه » أي لجعلته عَكِراً كَدِراً .. !!

وإذْ كان يجلس يوماً بين أصحابه استأذَنَ رجل من الحاضرين وانصرف ، وكان به عجز يجعله يقوم بصعوبة ويمشي بمشقة .. فلما وَلَّى ذاهباً ، قال بعض الحاضرين ـ ويبدو أنه كان حديث عهد بالإسلام ـ ما أعجزَه وأضعفه ..

فغضب النبي من قوله وقال :

« اغتبتَ صاحبك ، وأكلتَ لحمه » .

بل إنه لسائر ذات يوم في الطريق ومعه أصحابه فاذا ريح مُنتنة تهب على

الطريق ــ ربما سببها وجود مستنقع أو جيفة في مكان غير منظور .

وأراد الرسول أن يضرب هـذه الريح المنتنة مثلا لرذيلة ينفر منها أصحابه فلم يجـد أنسب لهـا من رذيلة اغتياب الناس وتجريحهم .. هنالك التفت إلى أصحابه وقال لهم :

« أتدرون ما هـذه الريح .. ؟

هـذه ريح الذين يغتابون المؤمنين » . !!

وكثـيراً ما يقـع الناس في ضلال التفسيرات المغرضة ، فيظنون أنهـم ناجون من وِزر الغيبة ما داموا يجرحون الآخرين بحـق لا بباطل .. ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام يخبر هـؤلاء أن الغيبة باطل كلها . فقـد سأل أصحابه يومـاً :

« أتدرون ما الغيبة ..؟؟

قالوا : الله ورسوله أعـلم ..

قال : ذكرك أخـاك بما يكره ..

قال قائل : يا رسول الله ، أرأيت إن كان في أخي ما أقول ..؟؟

قال الرسول : إن كان فيه ما تقول ، فقد اغتبتَه .. وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتَّه » أي افتريت عليه وقذفته ..

وإذا كان الرسول يشجُب الغيبة ويدمغها ؛ فإنه في نفس الوقت ينـادي بالمقاومة المشروعة لها ، حتى تجد العلاقات الإنسانية حماية من التردي الـذي تسببه ، والخذلان الذي تجلبه .

فيقول عليه الصلاة والسلام :

« من ردَّ عن عِرض أخيه ، ردَّ الله عن وجهه النار يوم القيامة ..

.. ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة » .

ولقـد رأينا موقفه الشخصي من زوجته حـين قالت كلمة لا تُحسَب في الكلمات الجارحة ، فاذا هو يخبرها أن كلمتها هـذه كافية لأن تمـلأ البحر

كـدراً وعكراً ..

* * *

وفي الطريق ، وهو يقتلع الأشواك التي تدمي علاقات الناس وتمزق وحدتها رفض الوشاة والنمامين وكنسهم بنظراته المشمئزة الساخطة ؛ لأن دورهم في تخريب العلاقات الإنسانية بشع ورجيم . لقد أعلن حرمانهم من رحمة الله فقال :

« لا يدخل الجنة نمّام » .

وقال :

« إن النميمة والحقد في النار ، وإنهما لا يجتمعان في قلب مسلم » .

فالنمام مالم يتب من إثمه ، ويرجع عن فساده وإفساده مهيأ لمصير تعس وبيل .

والرسول إذ يلقي به خارج الجماعة ، فلأنه يعلم خطره عليها ، وخطره على سلام العلاقات التي تربط بين الناس وسلامتها . يقول عليه السلام :

« خيار عباد الله ، الذين إذا رُؤوا ذُكِرَ الله .

وشِرار عباد الله ، المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبة » .!!

* * *

وكلما تحدث الرسول عن خيار الناس وشرارهم ، رأيناه في الكثير الطيب من حديثه يضع في لوحة الاختيار أولئك البناة الذين يسهمون بأخلاقهم وبسلوكهم في بناء العلاقات الإنسانية وشد أزرها .. ثم يضع في قائمة الأشرار أولئك الهدامين الوالغين الذين يسهمون بسوء مسلكهم ورداءة طباعهم في تشويه تلك العلاقات وتخريبها .

وفي هذا الحديث الذي سنراه الآن ونطالعه ، نرى الرسول عليه الصلاة والسلام وكأنه يتميز غيظاً عليهم وهو يأخذهم من شتات ويركمهم جميعاً ، بعضهم فوق بعض ، كأنهم كَوْمة حثالةٍ مَهينة ..

فذات يوم والرسول بين أصحابه قال لهم :

« ألا أنبئكم بشراركم ؟

قالوا : بلى يا رسول الله

قال إن شرّكم ــ الذي ينزل وحده ــ أي الأناني الذي لا يعرف إلا نفسه ــ ويجلد عبده ، ويمنع رِفده ــ أي عطاءه ..

أفلا أنبئكم بشر من ذلك .. ؟

قالوا : بلى إن شئت يا رسول الله ..

قال : من يُبغض الناس ، ويُبغضونه ..

أفلا أنبئكم بشر من ذلك ..؟

قالوا : بلى إن شئت يا رسول الله ..

قال : الــذين لا يُقيلون عثـرة .. ولا يقبلون معــذرة . ولا يغفرون ذنبــاً ..

أفلا أنبئكم بشر من ذلك ..؟

قالوا : بلى إن شئت يا رسول الله ..

قال : من لا يُرجى خــيره .. ولا يؤمَن شره » .

أرأيتم كيف يكفأهُم الرسول ويقذف بهم فريقاً فوق فريق كأنهم جِيَف" مُنتنة .. ؟؟

ثم مَن هم هؤلاء .. أليسوا جميعاً من مخربي علاقات الإنسان ..؟

فالذي يمنع رفده ، والذي يبغض الناس ويبغضه الناس ، والذي لا يقبل العذر ولا يغتفر الخطأ ، ولا يقيل العثرة ولا يصفح عن الزلة ، ثم هــذا الذي لا ينال الناسَ منه خير" ، ولا ينجون منه من شر .. أليسوا جميعاً من أعــداء المجتمع وأعداء سلامه وطمأنينته ..؟!

* * *

فإذا طهرت حياة الجماعة من هــذه الآفات المحبِطة ، ومن قاطعي الطريق على أمنهــا وسكينتها وسعادتها ووحدتها ــ تمضي بنا أحاديث الرسول الكريم لتقف بنا أمــام مسئولياتنا عن علاقاتنا الإنسانية في كل مواطنها ومظانها ــ خطوة

خطوة .. ومَوْطناً موطناً .

فعلاقاتنا معاً ـ في الطريق .. وفي العمل.. مع الضعفاء .. ومع الأقوياء .. مع الناس العاديين . ومع الصفوة والحاكمين .. سلوكاً ، وفكراً ، وشعوراً .. كل أولئك ، وكل ذلك ، لا تغـادر أحاديث الرسول منه صغيرة ولا كبـيرة من المسئولية والحق إلا أضاءت عندها الأنوار ، ففتحت عليهـا الأعين ، وحدّدت تجاهها نوع الأداء والولاء والعطاء ..

إن الخدم ، وأبناء السبيل .. بل والسائلين الشحاذين ، وكل الذين لا تقع عليهم العين لتفاهة شأنهم بين الناس ، يأخذون مكانهم الحق في توجيهات الرسول وأحاديثه عن العلاقات الإنسانية .. ولهم فيها عنـده من الحقوق ما للأباطرة والملوك . بل أكثر مما للأباطرة والملوك ، لأن الرسول يُعطي على قدر الحاجة .. وهو ـ عليه السلام ـ يعلم أن حاجة المستضعفين والفقراء والناس العاديين إلى الاحترام والتخفيف عنهم بالمعاملة الحسنة والكلمة الطيبة، أكثر من حاجة الآخرين.

ثم إنه لا ينسى كم بين صفوف هؤلاء الذين لا تقع عليهم العين مِن :

« أشعثَ ، أغبرَ ، ذي طِمْرين ، مدفوعٍ بالأبواب لو أقسمَ على الله لأبرّه » ..!!

* * *

أترى هذا اليتيم الذي يتعثر في خَطْوِه ، ويتلفت في نظرات كليلة تائهة ، كأنه يبحث عن أبيه وسط الزحام ..؟

إن رسول الله وأشرفَ خلق الله لَيقف له تحية !!

وإنه لينادي إلى حبه وإلى رعايته وإلى تكريمه .. أولئك الذين يمرون عليه ولا ينظرونه لأنهم في سباق مع حياتهم الدنيا ..!

ها هو ذا عليه السلام في نور نبوته وجلال رحمته ، يَضُمّ أصبعيه السبابة والوسطى ويقول :

* « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين »
* « مَن عالَ ثلاثة من الأيتام ، كان كمن قام ليله وصام نهاره ، وغـدا وراح شاهراً سيفه في سبيل الله » .
* « امسَحْ رأس اليتيم ، وأطعِم المسكين » .

انظروا ...

امسَحْ رأس اليتيم .. إنه إنسان مقرور يهرَؤُهُ فقدُ الحنان .. امسح رأسه .. اقترب منه .. ابتسم له .. طيِّب خاطره .. أدخِل البهجة على روحه الظامئة بكلمة .. بلمسة .. ببسمة ..

إن العلاقات الإنسانية تحقق كل مجدٍ لها حين تُضفي على هـذا اليتيم المحروم من حنانها ودفئها .

* * *

وهل تبصر هـذا الشيخ العجوز المتهدم ..؟

إن رسول الله ، وأشرف خلق الله ، ليَقف له تحية !!..

وإنه ليَوصي بإكرامه ، ويجعل ذلك علامة للإيمان وسبيلا من سُبل الانتماء إلى الجماعة المؤمنة ، بينما يفضي فقدانها إلى النقيض ..!!

ها هو ذا عليه السلام يقول :

« ليس منا من لم يوقّر الكبير ، ويرحم الصغير » .

« ليس منا من لم يرحم صغيرنا .. ويعرف حق كبيرنا » .

« إن من إجلال الله ، إكرام ذي الشيبة المسلم » . !

فهنا نوع من العلاقات الإنسانية يتّسِم بالنبل ، وبالوفـاء .

النبل .. لأن هؤلاء الطاعنين في السن قلّما يُرجى منهم ما يطمح إليـه الناس عـادة من منافع ومآرب ؛ فتكريمهم أقـرب إلى الإخلاص وأدنى إلى الصدق .. ثم إنهم في سنهم المتقدمة يحتاجون في التعامل إلى كثـير من الأناة والصبر والملاحظة ــ الأمر الذي لا يقدر عليه عادة إلا النبلاء ..

وأما الوفاء .. فلأن كل تكريم لهؤلاء يعني الوفاء لما قدموه للحياة وللأحياء ـ كما أنه يمثل تحية الوداع لهم ، وهي تحية ما أجدرهم بها وأحوجهم إليها .

من أجل هـذا ، كانَ الرسول باراً بهم وحفياً . بما قال من أحاديث ، وبما سلك من سلوك .

وما أبهاه عليه السلام وهو يُغرينا بالمزيد من احترامهم وإكرامهم فيقول :
« البَرَكَة مع أكابِرِكُم » .

والأرملة ، والمسكين ، لهما كذلك حق معلوم في الكلمة الطيبة والسلوك المهذب ، والعون الوثيق ..

« الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله .
وكالقائم لا يَفْتُر .. وكالصائم لا يُفطِر » .

عليه صلاة الله وسلامه ..

مَن مثله أعطى العلاقات الإنسانية كل هذا الحدَب . وهـذا التوقير ، وهـذا الولاء ..؟!

إن المثوبة لتَعظُم كلما عظمت الحاجة إلى المشاركة والحنـان .

فالأرملة ، لأنها فقدت عائلها ، وفقدت معه أشياء كثيرة ، كان الساعي عليها لغير غرض هابط بطلا ، له من الأجر المأمول عند الله مثل ما للمجاهد في سبيل الله .. ومثل ما للعابد يقوم الليل لا ينـامه .. ومثل ما للصائم يصوم الدهر لا يفطـر فيه .. وكذلك كان الساعي على المسكين ، لأن المسكين فقَد سَنَده في الحياة . ولا يُمسِك به أن يهْوِيَ ويَميد ، سوى حنان القلوب الكبـيرة والمروءات العاليـة ..

* * *

وهـذا المريض ، يُغالب العلة وتُغالبه .. ويُصارع السقم ويصارعه ، وهو أكثر الناس حـاجة إلى كل ما تستطيعه العلاقات الإنسانية من سلوى ،

وعون ، وبث للعزيمة والأمل والطمأنينة والسرور .. هناك عند كل مريض ؛ نجد باقة من الزهر الندِيّ العَطِر ، مُهداة من الرسول الذي أرسله الله رحمة للعالمين .. وهذه بعض زهراتها الطيبات :

* « من عاد مريضاً ، لم يزلْ في خُرفة الجنة حتى يرجع ..
  قيل : يا رسول الله ، وما خُرفة الجنة ..؟
  قال : جَناها .. » !!
* « عودوا المرضى ، ومُروهم فليدعوا لكم ؛ فإن دعوة المريض مستجابة وذنبه مغفور » .!!
* « من عـاد مريضاً ، ناداه مُنادٍ من السماء : طِبْتَ وطاب ممشاك ، وتبوّأتَ من الجنة منزلا » .!!

أما الجانب الآخر من الباقة ، فيتمثل في البُشريات الباهرة التي يَبَشِّر بها الرسول كل مريض يصبر لحكم ربه ، ويرضى بقضائه .

إن الرسول عليه السلام يخبرنا بما لعيادة المريض من جلالٍ وخطر حين يقـول لنـا :

« إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم . مرضتُ ؛ فلم تَعُدْني ..
قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ..
فيقول الله له : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تَعُدْه ..؟
أمَا إنك لو عدْتَه لوجدتني عنـده » .

أية صورة من صور الحث والتكريم تفوق الصورة أو حتى تضاهيها ..؟!

وأنّى للعلاقات الإنسانية أن تجد لها ضميراً كهذا الذي تجده في كلمات الرسول ..؟

* * *

وحين يقترب الناس بعضهم من بعض في المسكن أو في العمل تصبح الحقوق

والواجبات المتبادلة بينهم أكثر رُحْماً . وتصير دواعي الاهتمام بالعلاقات الإنسانية أشد وأكبر .

وعندئذ نجد أحاديث النبي وتوجيهاته يرتفع صوتها الكريم ، ويزكو حماسها النبيل ، وتتوالى وصاياها وعطاياها .

فالعلاقة بين الجار وجاره تبلغ في الإسلام وعند رسوله عليه الصلاة والسلام مبلغاً يصبح كل تفريط معه وكأنه تخريب للإيمان ذاته .

« مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يؤذِ جارَه » .

وكأنما وجد الرسول في هذه الصيغة شيئاً من الهوادة ، فراح ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ يثبتها بأخرى شديدة النذير ، عارمة الرهبة :

« والله لا يؤمن .. والله لا يؤمن .. والله لا يؤمن ..

قيل : مَن يا رسول الله ..؟

قال : الذي لا يأمَنُ جارُه بَوائِقَه .

قالوا : وما بوائقه ..؟

قال : شرّه .. » .

إلى هنا والإيمان يُنفى عن الذي لا يكُفّ عن جاره شره .. فهل هذا هو الذي يطلبه الرسول لعلاقات الجيرة وحسب ..؟

لا .. فثَمَّ خطوة ثانية نحو واجب آخر .

« والذي نفسي بيده ، لا يؤمن عبد حتى يجب لجاره مايحب لنفسه » ! !

وفي حديث آخر « حتى يحب لأخيه » فالجار أخ .. والأخ جار .. ولكليهما حق في العلاقات الودودة الرشيدة .

كذلك في حديث آخر يُسأل عليه السلام :

وما بوائقه ..؟

فيجيب :

« غَشْمه ، وظلمـه » •

وهو تحديد فسيح يدخل فيه ، لا سيما كلمة « غَشْمه » كل تصرف أحمق فيه أذى للجار أو فيه إقلاق لراحته ، أو إحراج له •• على أن أعظم تتويج لحقوق الجار يتمثل في هـذه الكلمات المتلألئة :

« ما زال جبريل عليه السلام يوصيني بالجار ، حتى ظننتُ أنـه سَيُورِّثه » ••

ويأخـذ الرسول في التركيز على بعض هاتيكم الحقـوق :

« •• إن مَرِض عُدتَه •• وإن مات شيَّعته •• وإن استقرضك أقرضتَه •• وإن أعوزَ سترته •• وإن استعانك أعنته » •

وكل مكرمة يقدمها جار إلى جـاره زيادة في إيمانه •

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم جـاره » •

وكل بخل عليه بما يسد حاجته نقص بل ضياع للإيمان :

« ما آمن بي من بات شبعان ، وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم » •

وكما أن العلاقة بين مساكنهم وأعمالهم •• أعني علاقة الجوار ــ تحتاج إلى المزيد من الرعاية والحفاوة ؛ فإنها كذلك بحـاجة إلى الكثير من الصبر ؛ لأن العلاقات الذاتية والقريبة والكثيرة لا تخلو من المضايقات والتوتر •• ومن ثم كانت أحق بالأناة وأجـدر بالصبر معها وعليها •

فجار السوء ، لا ينصح الرسول بمعاملته بالمثـل ؛ لأن في ذلك توْسِعَة لدائرة السوء ، وإهداراً لحقوق الجـوار •

إنما يتمثل سداد العلاقات ورشدها ــ آنئذ ــ في الصبر على ذلك الجار •

« إن الله عـز وجـل يحب ثلاثة ••

ثم ذكر منهم •••

رجل له جار يؤذيه ، فيصبر على أذاه حتى يكفيه الله إياه بحياة أو مـوت » .

ويرفع الرسول عليه السلام من شأن الجار الصالح فيجعله يُمناً وسعادة . يقول عليه الصلاة والسلام :

« مِن سعادة المرء ـــ الجار الصالح ، والمركب الهنيء ، والمسكن الواسع » .

وكأنه يوصي الناس إذا صادفهم هـذا الجار الصالح أن يعضوا عليـه بالنواجذ ، فانه رحمة لهم وأمـان .

« إن الله عز وجل ليدفع بالجار الصالح عن مائة بيت من جيرانه البـلاء » .

ثم قرأ عليه السلام الآية الكريمة « ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » .

* * *

وللضيف في العلاقات الإنسانية حظ كبير . ذلك أن الضيافة فضلا عما لها من حقوق خاصة .. فإن لها حقوقاً أخرى باعتبارها الوسيلة والسبب لإحيـاء فضيلة من أبهـر فضائل الجماعة الإنسانية ـــ تلك هي فضيلة التزاور وإحيـاء المودّات بين الناس .

فالتزاور بقصد إرضاء الله بوصل الإخاء والمودة واستدامة الصحبة والألفة. عمل جليل يوصي به الرسول ويبشر بخير ثواب . يقول عليه السلام :

« يقول الله تبارك وتعالى في حديث قدسيّ : وجَبَتْ محبتي للمتزاورين فيَّ » .

فالمتزاورون في الله ، مبشرون بحبه ورضوانه ..

« من زار أخاه المؤمن ، خاض في الرحمة حتى يرجع » .

وحرص الرسول على التزاور موصول العرى بحرصه على دحر القطيعة

والهجران باعتبارهما من أخطر آفات العلاقات الإنسانية وأشدها إيذاء .

« لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ــ يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا .. وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » .

إن المسلم في تقدير الرسول أكثر حرصاً على العلاقات الإنسانية ووفاء لحقها .. فهكذا ينبغي أن يكون .

وهو لهذا في مقام القدوة للآخرين في هذا المجال .. ومن ثم كان استسلامه لدواعي الهجر والخصام أمراً محرماً عليه .

ولكن الرسول عليه السلام لا يُشرِّع ضد الطبيعة الإنسانية السليمة بل يشرع لها ..

وهو لهذا يدرك أن من الخصومات ما يحتاج بعض الوقت لتجِفَّ جراحه ــ فسنح بعض الوقت ، ولم يجعله طويلا حتى لا تظمأ العلاقات وتجفّ .. فوقّت المدة بثلاثة أيام لا تزيد .!!

أيّ حدَبٍ على العلاقات الإنسانية ، وأي تتبع لتفصيلاتها يفوق هذا ، أو يضاهيه ..؟!

والرسول عليه الصلاة والسلام لا يُحمِّل المسلم مسئولية القطيعة حين يكون أحد طرفيها فحسب .. بل يحمله مسئولية السكوت عن كل قطيعة بين الآخرين ..

أجَل .. إن للمسلم عند الرسول الكريم مكانة يضمِّنها عليه السلام من المسئوليات النبيلة ما هي كُفْؤ له ، وجديرة به .

والمؤمن الذي علّمه رسوله أن يقول عقب كل صلاة :

« اللهم أنت السلام .. ومِنك السلام.. فَحيِّنا ربّنا بالسلام ».

لا يستطيع ولا يملك إلا أن يكون غصن الزيتون عند كل خصومة ، وكلمة الرحمة في كل شحناء .. وداعي الألفة واللقاء والإخاء عند كل قطيعة ..

وما أروع الرسول الكريم وهو يوضح هــذه التبعة فيقول :

« ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ..؟
إصلاح ذات البين » .

بل إنه ــ عليه السلام ــ وهــو أكثر ما يكون مقتاً للكذب يبيح القليل الأبيض منه في سبيل رَتْقِ المودّة وجمع الأفئدة . يقول عليه السلام :

« ليس بالكاذب من أصلح بين إثنين ، فقال خيراً أو نَمى خيراً » .

وإنه ليقول يوماً لصاحبه « أبي أيوب الأنصاري » رضي الله عنه وعــن الصحابة أجمعين :

« يا أبا أيوب .. ألا أدلّك على عمل يرضاه الله ورسوله ..؟
صِلْ بين الناس إذا تباغَضوا .. وقَرِّب بينهم إذا تباعدوا » .

إنه عليه صلاة الله وسلامه يعلم ما تزدحم به حياة الناس من مشكلات لا تفتأ تصيب علاقاتهم وإخاءهم بضربات الخصومة ومَحْقِ القطيعة .

ويعلم أن خــير وسيلة لِتدارُك هــذا الخطر ، تصفية المواقف اللافحة أولاً فأولاً .

وذلك لا يتأتى إلا إذا حمل الناس مسئولياتهم تجاه بعضهم البعض . لا سيما مسئوليتهم عن درء غوائل الخصومة وإفشاء مواهب المحبــة والتآخي . فاتحين أعينهم على كلمات الرسول في هذا السبيل ، ومُلْقين السمع لقول الله سبحانه :

« لا خَــيرَ في كثيرٍ من نَجْواهم ، إلاّ من أمرَ بصدَقة ، أو
مَعْروف ، أو إصلاحٍ بين الناس . ومنْ يفعَلْ ذلك ابتغــاءَ
مَرْضاة الله ، فسوفَ نُؤْتيه أجْـراً عَظيماً » .

وصدق ربنا العظيم ..

* * *

ولنعد الآن إلى حقوق الضيافة في وضعها الخاص بها ، بعد أن رأينا حقهـا كوسيلة طيبة للتزاور ودرء القطيعة والهجر ..

والضيافة أوسع من الزيارة ، إذ هي في الغالب زيارة مُسافرة مُرتحِلة ٠٠ فيها سفر ونصَب ، وانتقال من بلد إلى بلد ٠٠

ويبدأ الرسول فيجعل إكرام الضيف من آيات الإيمان :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه » ٠

وتبصر انعكاس وصيته بالضيف ، وتزكيته هذا اللون من العلاقات ــ على أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين ــ في هذه الواقعة التي كان بطلها أحــد الأنصار ٠٠

فذات مساء نزل على مسجد الرسول بالمدينة ضيف ، وقال عليه السلام : « من يضيف هذا الليلة » ؟ فقال رجل من الأنصار أنا أضيفه يا رسول الله ٠٠

وانطلق به إلى داره ، فقال لزوجته : هل عندك شــيء ٠٠؟ قالت : لا ٠٠ إلا قوت صبياني ٠

قال : (فعلِّليهم بشيء ــ أي اسرحي بهم في الحديث حتى يناموا ــ فإذا أرادوا العشاء فنوِّميهم ٠٠ فاذا دخــل ضيفنا فأطفئي السراج ، وأريهِ أنّا نأكــل معــه ٠٠

ففعلت ما أمرها به ٠٠ وجلسا مع الضيف ، يوهمانه في الظلام أنهما يأكلان معه ٠٠ وأكل الضيف ، وباتا طاويين جائعين ٠

وفي الصباح يغدو الأنصاري على رسول الله ٠ فلا يكاد يراه حتى يتهلل له ويقــول :

« قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما » ٠!!

أجل ٠٠ لقد رأى الله وسمع ما كان بين الرجل وزوجته وإيثاره الضيف ، ليس على نفسيهما فحسب ٠ بل وعلى فلَذات أكبادهما ٠٠ فأنبأ رسوله ليَفرح بأصحابه ٠ ونزلت الآيات تمجد هــذا الصنيع الرفيع ، وتقــول .

« ويُؤْثِرون على أنفُسهم ، ولو كان بهم خَصاصَة ٠٠ ومَن يوقَ شُحَّ نفسِه ، فأولئك هم المفلحون » ٠

الحق أننا لا نعرف ديناً . ولا فلسفة ، ولا حضارة ، تمنح العلاقات الإنسانية في شتى نماذجها ومواقعها من الرعاية والتكريم ما يمنحها إياه الإسلام ورسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم .

إن الرسول لم يدْعَمْ هذه العلاقات بمجرد الدعوة إلى رعايتها .. بل كان يرسم لها قانوناً ملزماً . وتقاليد مرعية .

ففي هذه النقطة مثلا ــ لا يوصي بالضيافة وصاةَ مُحبِّذٍ ثم ينتهي الأمر .. بل يضع لها قانونها . فيجعل للضيف حقاً واجباً مفروضاً في الضيافة ثلاثة أيام .

« للضيف على من نزل به من الحق ثلاث » .

ويسأله أحد أصحابه : ماكرامةُ الضيف يارسول الله .؟ فيجيب عليه السلام:

« ثلاثة أيام ، فما زاد بعد ذلك فهو صدَقة » .

إننا هنا أمام رسول يُشرِّع للعلاقات الإنسانية ولا يتركها لمجرد التحبيذ والتعاطف .

فهو يعطي الضيف حقه ثلاثة أيام ، فإن زاد المضيف عليها فله أجر الزيادة وفضلها .. ثم إنه عليه السلام يوصي الضيف ألا يزيد عن الثلاث حتى لا يُحرج أهل البيت ويُسبب لهم الضيق والضجَر .. لنقرأ هذا الحديث الكريم :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه .. جائزته يوم وليلة ..

والضيافة ثلاثة أيام ، فما كان بعد ذلك فهو صدقة . ولا يحل له ــ أي للضيف ــ أن يثْوِيَ عنده ــ أي المضيف ــ حتى يُحرِجَه !! » .

فإذا كان الضيف عابراً ومتعجلا ، فجائزته يوم وليلة .. وإن كان مقيماً ، فحقه في الضيافة ثلاثة أيام ، ومن الخير له ألايطيل بعدها مكثه ، حتى لا يحرج مضيفه ويُؤثّمَه ..!!

وطبيعي أن هذا التوجيه لا يحجر على الضيافات الخاصة كضيافة الأقربين

رَحِماً أو صداقة والتي يَسعد أهل المنزل باستطالة مَداها ..

والرائع الباهر في تعاليم الرسول هذه ، ليس تنظيم الضيافة وتقنينها فحسب ، بل والروح الذي يعالج به أمرها ..

فهو عليه الصلاة والسلام إذ يدرك أنه يُشرع للعلاقات الإنسانية ، يَحرص على أن تظل خفيفة الظل والوقع على الأنفس .

إنه — عليه السلام — لا يريد علاقات شكلية .. بل يريدها وثيقة العرى بالروح وبكل ما في الروح من حب وحيوية وغبطة . من أجل هذا يقول :

« ولا يَحِلّ له أن يَثْوِيَ عنده حتى يُحرجه » .

ويزيد ذلك تفسيراً فيقول عليه صلاة الله وسلامه :

« وعلى الضيف أن يرتحل — أي بعد الأيام الثلاثة — حتى لا يُؤثّم أهل المنزل » .

إنه لا يريد أن يقوم أهل المنزل بالضيافة وهم لها كارهون ، فتصبح الضيافة وتصبح العلاقات الإنسانية عبئاً ثقيلا ، وواجباً كريهاً ، . لا — إنه يريد أن تبقى هذه العلاقات وتبعاتها سابحة في تيار الرغبة الصافية والإيثار التلقائي ، والحب الوثيق ..

وهو لهذا ، وتتمة لما سبق يوصي المضيف ألا يشقّ على نفسه في التكلّف لضيفه حتى لا يملّه ويمل ضيافته .. كذلك يوصي الضيف أن يهشّ لكل ما يقدم إليه مهما كان متواضعاً ويسيراً ، وأن يتقبله بقبول حسَن ، وروح شاكرة ..!!!

يقول عليه الصلاة والسلام :

« نُهيتُ وأمتي عن التكلّف » .

ولنُصْغ إلى «عبد الله بن عميرة » يقص علينا هذا النبأ :

« دخل على « جابر » صاحب رسول الله ﷺ نفرٌ ، فقدم إليهم خبزاً وخَلاًّ — وقال : كلوا فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : نعم الإدامُ الخلّ .. » .

« ثم قال : إنه هلاكٌ بالرجل أن يَدخل إليه النفر من إخـوانه ، فيحتقر ما في بيته أن يقـدمه إليهم •• وهلاكٌ بالقوم أن يحتقروا ما قُدِّم إليهم » •!!

فالصحابي الجليل « جـابر » يقدم الخبز والخل لضيفانه غير متحرج ولا آسف ، لأنه لم يكن يقدر على غيرهما يومئذ •• ولكنه في مـرة ثانية أو مرات أخَر سيقدم طعاماً أشهى وأطيب ، لأنه سيكون ساعتها في مقدوره ••

وهو يخبرنا أن الناس يظلمون أنفسهم ويظلمون العلاقات الإنسانية معهم حين يضايقهم ويزعجهم ألا يجدوا للضيف إلا القليل •• كما يظلمون أنفسهم حين يستقلّ الضيف ما يقدَّم إليه ولو كان خبزاً وخَلاً ••

* * *

ولا تكون العلاقات الإنسانية إنسانية إلا بقدر ما يُبذل فيها من جهد إيجابي يتناول خدمة الناس وتخفيف لأواءِ الحياة وشدتها عنهم •

وإذا كان هـذا الجهد يتمثل في بذل جاه ، أو مال ، أو عمل ، فإنه لا ينبغي أن يبخل به أبـداً •

إن الذي يُقرض أخاه ليفرج كربه ، إنما يقرض الله الذي يضاعف الحسنة إلى عشرة أمثالها •• إلى سبعمائة ضعف ••

والذي يُساند بعونه من يحتـاج إلى هـذا العون إنما يساعد نفسه فى ذات الوقت •

وهـذا هو الحـق الذي يؤكده الرسول حين يقول :

« •• والله في عـون العبد ، ما كان العبـد في عـون أخيه » •

والذين يفزع الناس إليهم في حوائجهم، عليهم أن يشكروا الله سبحانه على هذه النعمة ، إذ جعلهـم مَفْزعاً ولم يجعلهم الفازعين •• وجعلهم مَقصِداً ، ولم يجعلهم قاصدين ••

يقول عليه السلام :

« أحب الأعمال إلى الله عز وجل .. سرور تدخله على مسلم ، تكشف عنه كُربة .. أو تطرد عنه جزعاً .. أو تقضي عنه ديناً . »

ويقول عليه السلام :

« من كان في حاجة أخيه ، كان الله في حاجته .. ومن فرَّج عن مسلم كربة ، فرج الله عنه بها كربة من كُرَبِ يوم القيامة » .

* * *

ولما كان المال قِوامَ الحياة ، كان البذل منه في سبيل غوث الآخرين وخدمتهم من أجلّ القربات إلى الله سبحانه .. ثم من أوثق أسباب التواصُل بين الجماعة ..

وحين يفشو في مجتمعٍ الحرصُ الكَنودُ على المال ، والشح به ومنه ؛ فإن العلاقات الإنسانية في هذا المجتمع تتفسَّخ وتنهار انهياراً يُقوِّض أو يكاد يقوض المجتمع كله .

من أجل هذا قال الرسول يحذرنا :

« اتقوا الشُّحَّ ؛ فإن الشح أهلَك من كان قبلَكُم .. حَملهم على أن سفَكوا دماءهم ، واستحلّوا مَحارمهُم » .

كيف يحمل الشح الناس على سفك الدماء واستحلال المحارم ..؟

وما علاقته بهذا ..؟

علاقته واضحة .. فتفشِّي الشح في جماعة يعني نُضوب العلاقات الإنسانية فيها بكل ما تمثله من تعاطف وتعاون وإيثار وإغاثة .

وإذا ضاع من مجتمع كل هذا في زحمة شُحِّه وهلعِه وأنانيته ، انفتح الطريق لموبقات سفك الدماء ، وإنتهاك الحرمات ..

يقول الرسول أيضاً :

« إياكم والشح ؛ فإنما هلَك من كان قبلكم بالشح ..

أمرهم بالقطيعة ، فقطعوا •• وأمرهم بالبخل ، فبخلوا •• وأمرهم بالفُجور ، ففَجروا • » •

إن الشح مرتبط دائماً بعقوبة الهلاك ••

وكلما تحدث الرسول عنه قرنه بالهلاك ، كما رأينا في الحديثين السالفين ، وكما نرى في أحاديث أخرى كثيرة •

يقول عليه السلام :

« ثلاثٌ مُهلِكات ••

شُح مُطاع •• وهوىً مُتَّبَع •• وإعجاب المرء بنفسه » •

بينما هو يرفع قدر السخاء ويجعله زينة الدين ، ومناط السيادة في الدنيا •

يقول صلى الله عليه وسلم :

« إن الله استخلص هذا الدين لنفسه ، فلا يَصْلحُ لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق •• ألا فزيِّنوا دينكم بهما » •

ثم يُسأل : من السيد في أمتك ••؟ فيجيب عليه السلام :

« رجل أعطِيَ مالاً ، ورُزِق سَماحة » ••!!

* * *

وكل الأسباب والأعمال والقربات التي تزكّي العلاقات الإنسانية وتباركها وتنميها ـ إنما يتوّجها أولا وأخيراً كلمتان ثقيلتان في الميزان خفيفتان على اللسان ـ هما : حُسْن الخلق !!•

أجل •• خفيفتان على اللسان ، بيد أنهما في ميزان الصلاح والخير ترجَحان شَوامِخَ من الأعمال ••

يقول عليه السلام :

« ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن »•

ويقـول :

« إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجة الصائم والقائم »

أي الذي يصوم نهاره ويقوم ليـله ..!!

إن « حسن الخلـُق » هو الطاقة التي تستمد منها علاقاتنا الإنسانية خير زادها وأبقاه وأهناه .. ذلك أن كثرة عدد الأخيار في المجتمع تعني على الفور زيادة رصيده من أفضل العلاقات وأزكاها . ولا يزداد عدد الأخيار إلا بقدر ما يزداد حسن الخلق .

فأكثر الناس خيراً ، هم أحسنهم أخلاقاً ..

وأحسن الناس إسلاماً ، هم أحسنهم أخلاقاً ..

وأحب الناس إلى الله وإلى رسوله ، هم أحسنهم أخلاقاً ..

بهـذا كله نادى الرسول وتحدث .

وحسب « حسن الخلق » ؛ جمالا وجلالا : أن الله العلي الأعلى حين أراد أن يزكي عبده ورسوله ، لم يزكّه بأحسن من الخلق فقال سبحانه :

« وإنك لعلى خلـُق عظيـم » .

ثم حسبه بعد هـذا أن يقول الرسول فيه :

« ذهب حسن الخلـُق بخـير الدنيا والآخرة » .

* * *

ومن أجل أن يسود في المجتمع حسن الخلق الذي يـُفيء على علاقاته العافية والمودة ، راح الرسول يرفض ويستبعد الشحناء ، والغضب ، والحسد ، والكبر ــ بوصفها جميعاً من إفراز الحماقة الرعناء التي تـُدهوِر العلاقات إلى الهـوة الفاغرة ، بلا مبرر حقيقي .. إنما هو الطيش والنزَق والغرور .

لطالما كان الرسول يـُركـّز وصيته في كلمة واحـدة .. هي :

« لا تغضب » .

وإنه ليكشف عن البطولة الحقـة فيقول :

« الصُّرَعة ــ أي القوة ــ كل الصُّرَعة ، كل الصرعة : الرجـل الذي يغضب ، فيشتد غضبه ، ويحمرّ وجهه ، ويقشعر جلده ..

فَيصرعُ غضبه » !!!

صورة باهرة يسرد فيها الرسول كل مظاهر الغضب وتَوتّراته ، وتشنّجاته .. ثم فجأة يتقدم ضبط النفس فيمحو في لحظة ما رسمه الغضب من ألوان قاتمة ، وينتصر حسن الخلق ..!!

والرسول عليه السلام يعلم أن نزعة الغضب ضاغطة ، وأنها بحاجة إلى تدريب مستمر للخلاص منها .. لهذا يأمر مَن فَجأهُ الغضب أن يغير من حالته ، فإن كان قائماً قعد أو مشى .. وخير من هذا أن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويغادر المكان كله .. أو يتوضأ ويصلي ركعتين إن كان ذلك ميسراً له .

وحتى إذا تملّك الإنسانَ الغيظُ فعليه أن يكظمه .

« ما من جُرعةٍ أعظم عند الله ، من جُرعةِ غيظٍ كظمها عبد ابتغاء وجه الله » .

فإن غضب الإنسان وأفلَتَ الزمام من يده ، فعليه أن يتخلص سريعاً من وطأته ، فبذلك يظل في دائرة السلامة والأمن .

يقول عليه الصلاة والسلام ، وهو يتحدث عن أصناف الذين يَغضبون :

« .. ألا وخيرُهم بَطيء الغضب ، سريعُ الفَيء أي الرجوع عن غضبه ..

وشرهم سريع الغضب ، بطيء الفَيء » .

* * *

ويستنقذ الرسول الكريم علاقات الناس من الغضب ، لتنجو بعد هذا من عواقبه ومضاعفاته ــ الشحناء والقطيعة ..

فالشحناء والسِّباب والمهاترة ــ كل هذه حالِقة تحلق أواصِرَ الود والإخاء والمحبة والألفة بين الناس ..

وإن الشحناء لتبدأ بين اثنين، ثم لاتلبث أن تجر إلى وبائها عائلاتٍ وشيعاً..

من أجل هذا ، حذرنا الرسول منها ولم يُخْفِ عنا ما تفضي إليه من طرد وعقاب .

إنه عليه الصلاة والسلام ليتحدث عن نفحات القبول التي ينعم الله بها على عباده في بعض المناسبات الفاضلة التي تمتد بركاتها إلى كثير من الناس .

« ... فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرىء لا يشرك بالله شيئاً ، إلا امرؤ كانت بينه وبين أخيه شحناء ، فيقول سبحانه ، اتركوا هذين حتى يصطلحا » .!!

وإنه عليه السلام ليقول في جوامع كلمه :

« لا تقاطعوا .. ولا تدابروا .

ولا تباغضوا .. ولا تحاسدوا .

وكونوا عباد الله إخواناً » .!!

فالشحناء ، والحسد ، والقطيعة ، وباء يحذر الرسول منه على أنفسنا ، وعلى أخلاقنا ، وعلى علاقاتنا الإنسانية التي هي من أجمل مباهج الحياة .

واستخدامه في التعبير الألفاظ الدالة على تبادل الإساءة مثل التقاطع والتباغض والتحاسد . إشارة إلى أن هذه الخطايا تبلغ ذروتها القاتلة عندما يستجيب الطرف الآخر لإغوائها، فيجابه مبغضه ببغض مثله.. وحاسده بحسد مثله .. وخصمه بخصومة مثلها .. بدلا من أن يلقى ذلك بالتسامح والعفو .!!!

إن الرسول لا يريد أن يتحول جميع الناس إلى حمقى !! فإذا ارتكب أحد اثنين حماقة الشحناء والسفه ، فليكن الثاني أكثر بالعلاقات وبالإخاء براً .. ولن يضيع عند الله ولا عند الناس أجره ..

وهكذا يقول عليه السلام :

« ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً » ..

أجل .. فبينما نظن نحن أن كرامتنا رهن الانتقام الأشد ممن يسيء إلينا — إذا الرسول عليه السلام يكشف جهلنا ، ويخبرنا أن الكرامة والعز في العفو وفي الصفح الجميل ..!!!

* * *

وإن الرغبة الشريرة في القصاص والانتقام بحجة الحفاظ على الكرامة ، منشؤها البعيد آفة الكبر •

والكبر لهذا ولغير هذا : من ألدّ أعداء الحياة الهادئة المتسامية وأكثر من غيره افتراساً للعلاقات الإنسانية •

من أجل هذا صبّ الرسول عليه قوارع زجره وامتهانه •

* « من تكبّر قصمه الله : وقال اخسأ ؛ فهو في أعين الناس صغير » ! !

* « ألا أخبركم بشرّ عباد الله ••؟ الفظّ المستكبر » • !

إن المستكبر لا يكون إلا فظاً •• فالكبر والفظاظة وجهان لأردأ عملة بشرية •• وحسْب العلاقات الإنسانية أن تسمع كلمة « فظ » لتولي الأدبار ناجية بنفسها ، والمستكبر طُفيْليّ في المجتمع الإنساني . ولا مكان له فيه • من أجل هذا استُبعِد من صفوف هذا المجتمع في الجنة ••

يقول عليه الصلاة والسلام :

« لا يدخل الجنة إنسان في قلبه مثقال حبة خردل من كِبر » !•

ولقد بلغ من وَقْع الأحاديث المتوعدة على أنفس الصحابة أن حاول بعضهم ترك التجمّل المشروع في ملبسه خشية أن يزجّ به ذلك في المستكبرين ، لولا أن طمأنهم الرسول وأعطاهم تفسيراً علمياً لآفة الكِبْر فقال :

« الكِبْر بَطر الحق ، وغَمط الناس » •

فالاستعلاء على الحق ، والتعالي على الناس والنظر إليهم من علٍ — هما شر مظاهر الكبر •

ولماذا يستكبر أولئك الحمقى ••؟ وما مزيتهم على الناس إذا هم فقدوا الخلُق الكريم ، وأول شمائله التواضع ••؟

« انظر ، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود ، إلا أن تفضُله بتقوى » •

هكذا يتحدث الرسول •• فهل ينظرون ••؟؟

إن الخلق الكريم — كما قيل — شيء هين — وجه طليق . وكلام ليِّن ..
يقول عليه السلام :
« لا تحقِرَنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طَلْق ».
ويسأله أحد أصحابه عما يُدخله الجنة ، فيقول له — فيما يقول — :
« أطيب الكلام » ...
إنه عليه الصلاة والسلام يدرك ما تفعله الكلمة الطيبة ، والبسمة المتهللة ، والنظرة الودود في شد أزر العلاقات الإنسانية وبعث حيويتها ، وإرباء تألقاتها..
من أجل هذا يوصي بها ويُثيبُ عليها ، ولا يترك لفتةً مهما تكن عابرة إلا أمر باستخدامها في توثيق عرى المحبة والأخوة بين الناس . !!
ها هو ذا عليه السلام يُسأل :
« أيّ الإسلام خير ..؟ » .
فيجيب .
« تطعم الطعام ..
وتقرأ السلام على من عرفتَ . ومن لم تعرف » .
إنه يريد إفشاء السلام — على من نعرف ، ومن لا نعرف — إنعاش أواصر الحب بين الناس ، وإرواء علاقاتهم دوماً بذوب الحنان ..
من أجل هذا يقول :
« ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تَحاببتم ..؟ أفشُوا السلام بينكم » ..

* * *

وبعد ..
فلا يزال هناك كثير طيب مما أفاءه الرسول من أحاديثه وتوجيهاته ورعايته على العلاقات الإنسانية .. ولئن بدا أن هذا الكتاب قد شَرُفَتْ صفحاته بالكثير من هذه الأحاديث الكريمة ، فلنعلم أن هذا الكثير ما هو إلا قليل مما غمرت به الأحاديث النبوية الكريمة موضوعنا هذا .

والـذي يـُطالع في تراث الكـَلـِم الطيب للرسول العظيم ما اختص بـه « العلاقات الإنسانية » من حفاوة وحنان وتوقير ، سيرى إلى أي غاية مذهلة كان احتفاء الإسلام ورسوله الكريم بقضايا الحياة وقضايا الإنسان ..

والجليل الباهر في الموضوع ، أنه وهـو يصوغ لنا بأحاديثه وبقـدوته وبسلوكه أجمل وشائج التواصل والتكامل في علاقتنا الإنسانية لم يكن ينشد الكمال فيها لأتباع دينه فحسب .. بل للناس جميعاً .!!

ولقـد رأينا كيف كان في أكثر هـذه الأحاديث يستعمل كلمة « الناس » و « عبـاد الله » .

وحين كان عليه السلام يستعمل كلمـة « مسلم » أو « مؤمن » . فلكي يضَع المؤمن أو المسلم تجـاه مسئوليته كقدوة لغيره وكمثل وهاد ودليل يسير على دربه الذين لا يعرفون ..!!!

لقـد سُئل يوماً عن أفضل الأعمال ، فقال :

« بـَذْلُ السلام للعالـَم » ...

وما أعرف . ولا يعرف أحد أروع ولا أجمع من هـذه الكلمات الثلاث ، يقولها رسول يحدث الناس عن الدين ، لا عن السياسة .. ومـَتى ...؟ منـذ ألف وأربعمائة عـام .!!

بذل السلام ..

ولِمـَنْ ...؟؟

للعالـَم ... ليس للعرب قومه ، ولا للمسلمين أمته .. بل للعالم .. للعالم كلـه .. وليس عالـَم جيله وعصره .. بل عـالم الأجيال والعصور ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليهـا ..

لقد كان يعرف النور الذي خـُلقَ منه ، والدورَ الجليل الذي اصطـُفيَ له. وعاش يحيا في نور قـول الله له :ـ

« وما أرسـلناك إلا رحمـةً للعـالمين » .

كما تحدث الرسول

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا هـو الجـزء الثالث من كتاب (كما تحـدث الرسول) يجيء في طبعته الأولى ، آخـذا مع الجزءين السالفين مكانه في البحث الذي نحـاول بـه ان نضع فهمنـا لأحاديث الرسول في دائرة ضـوء جـديد ... ضارعين إلى الله سبحانه ان يتم علينا نعمته ، ويرزقنا التوفيق حتى نبلغ الغـاية في هـذا العمل ، وفيما نعتزم من بحوث واعمـال .

* * *

وينتظم هـذا الجـزء اربعـة فصول :

اولهـا ـ عن المـال ...

وثانيها ـ عن العمـل ...

وثالثها ـ عن الصداقة والصحبة ...

ورابعها ـ عن الثقـافة والعـلم ...

* * *

وكما قلت في محاولاتي السابقة ، اقـول الآن : انني لا أزعـم اني أوفي على الغـاية او استفرغ الجهـد فيما انا بسبيله . ؛ فإن جهـدي المتواضع سرعان ما ينتشي بالنور الذي تشعه أحاديث الرسول ؛ فيقنع في غمار حبوره : بما يحـرزه في بدايات مسـيره ...

* * *

وكما راينا في الجزءين السالفين ، سنرى في هـذا الجـزء وفيما يتلوه إن شـاء الله من اجـزاء ، كيف كانت اهتمامات الرسول الكريم بقيم الإنسان وقيم الحيـاة ، وبمستقبل الإنسان ومصيره عند الله ، اهتمامات لا تفتر ولا تغفـو ... اهتمامات تتالـق دومـا تحت ضـوء إخلاص باهـر ومكـين ، لله ولعبـاده .

وفي حكمة مطمئنة تزيد العالمين بصيرة وعلما . وترد الجاهلين إلى طريق الرشد والهدى والصواب ، يوجه الرسول صلوات الله وسلامه عليه وصاياه الحانية وتوجيهاته الراشدة في لهفة من نعته الله العظيم بقوله :

« لقد جاءكم رسول من انفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ،

حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم » .

فمع هذا الرجل المبارك من أحاديث الحريص علينا ، الرءوف بنا والرحيم ، جزاه الله عنا خير ما جزى نبيا ورسولا .. مع هذا الغيث الغدق من كلماته ووصاياه واحاديثه ـ تعالوا نتزود بخير زاد ، ونتبين في سنا ضوئها طريق الخير ، ورشد الحياة ...

خالد محمد خالد



الفصل الأول

.. عن المال

جعل الله المال للناس قياماً ... ومنذ بدأ الناس يتداولونه ويتعاملون به ، وهو آخذ بنواصي حياتهم . يكاد يصرّفها كيف يشاء ذات اليمين وذات الشمال ... صوبَ الفضيلة وفي اتجاه الرذيلة .

ومنذ بدأ الفكر الانساني يشرَع في تفسير الحياة واكتشاف قوانينها وضعَ كلتا عينيه على المال كقوّة سائدة في حياة البشر ومُهيْمِنة عليها ...

والفلاسفة الذين وقفوا طويلا مع مشاكل المال كثيرون . تتفاوت نظراتهم ، وتتعارض مذاهبهم ـ بيْدَ أنهم جميعاً يلتقون في وفاق كامل عند أهميته البالغة ومركزه العريق بين كل قوى الحركة والبناء في حياة الإنسان ...

* * *

وما كان المال بكل مزاياه ومشاكله ليخفى دوره على معلم البشرية وأستاذها سيدنا « محمد » رسول الله إلى الناس كافّة .

وإنا لَننبهر حين نُواكِبُ أحاديثه عليه صلاة الله وسلامه وهي تستعرض المال في شتّى قضاياه ومجالاته وأزماته : فمِن أين يأتي ..؟ وكيف ..؟ وأين يُنفق ...؟ وكيف ...؟

وما نوع العلاقات التي يُنشئها ويَفرضها على حياة الناس ، ويُشكّل بها ظروف المجتمع .. ؟

وأي هذه العلاقات يكون موضع القبول والتعضيد .. ؟

وأيهـا يستحق الدَّحض والرَّفض ..؟ وما نوع الأزمات التي نُزجيها تناقضاته الكثيرة ...؟ وما انعكاسها على حياة المجتمع وسلوك الناس ..؟ وأين نجـد الحلول السعيدة التي تُصفّي تلك الأزمات وتجعل المال دوماً في مكانه المشروع ــ خادماً مطيعاً ... وليس سيداً مستبداً ..؟؟

كل ذلك تُحصيه أحاديث الرسول عـدداً . وتغمره ضياء ، ونُجلّيه في حكمة ويُسْر ما لهما من نظـير ..

ولْنبدأ بهـذا الحديث .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« إن هـذا المـال خَضِر" حلو ..
ونعم الصاحب المسلم هـو : لمن أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ...
وإن من يأخذه بغـير حقه كمن يأكل ولا يشبع . ويكون عليـه شهيداً يوم القيامة » ...!!

فالمال « خضر حلو » لأنه قوام الحياة وسبيل إيناعها بكل مباهج الخـير والنعمة والتقدم . وهو للمسلم نعم الصاحب والأخ والصديق ؛ ما دام يُعطي المكرمات حقها ويرعى به وفيه حقوق الآخرين الذين يتلمسون عون القادرين ثم هو لا يؤخذ انتهاباً ، ولا استلاباً . ولا اغتصاباً ...

أجل ... لا بد أن يُؤخذ بحقه ويُنال بوسائل مشروعة تضبطها قواعـد الشرف والأمانة والتعفّف ...

وأخيراً فهو ليس وسيلة متاع فحسب ، بل هو بوسائل تحصيله وبطريقـة إنفاقه ، شاهد على نوع الحياة التي يحياها صاحبه ، وله كلمة فاصلة في تقـرير مصير هـذه الحياة ...!!

فالمال الذي يدخل جيوبنا ثروة ، ويخرج منهـا نفقة ، ليس مجرد صفقة نستخدمها في تحقيق مطالبنا وإسعاد حياتنا ..

بل إنه سيكون علينا شهيداً ..

وهو يقرر بطريقة حاسمة مصايرنا في هــذه الحياة ، وعند الله ...!!!

ولسوف تزيدنا أحاديث الرسول الكريم علماً بهذا الدور الخطير للمــال في حياتنا وفي حياة أولادنا وذَراريِنا ...

إنه عليه السلام يؤكد قيمة المال حتى لا نُخدع عن أهميته ...

ثم يؤكد قيمة المشروعية في تحصيله واكتسابه ، حتى لا ننخدع له ...

ها هو ذا عليه السلام يعيد علينا القول في حديث آخر ..

« إن هــذا المال خَضِرٌ حُلْو
فمن أخذه بسخاوة نفس ، بورِكَ له فيه ومن أخذه بإشراف نفس
ــ أي بطمع وشرَه ــ لم يبارَكْ له فيه ، وكان كالذي يأكــل
ولا يشبع » ...!!

إن سخاوَة النفس تعني هنا ، القناعة والتعفّف والشرَف . شرف الوسيلة وشرف القصد .. وإن اشراف النفس يعني التهالك الشَرِه ، والتهافُت المرذول .

وهكذا ، وحين يخبرنا الرسول أن المال حلو خَضِر ... يخبرنا في ذات اللحظة أنه ليس كذلك إلا حين يحتفظ بازدهاره وبنضارته ...

وهــذا الازدهار ، وهذه النضارة مرتبطان أوثق ارتباط بما تتضمنه وسائل اكتسابه من طهر ونزاهة ومشروعية ...

* * *

والرسول الكريم حين يمنح المال هذا الوصف الأنيق والدقيق « خَضِرٌ حلو » لا يعني إطراءه بكلمة شاعرية ... إنما يعني تبيان أهميته وخطره ...

فهو « خَضِر » لأنه ماء الحياة وباعث النَّماء فيها ــ سواء في ذلك حيــاة الأفراد والجماعات والشعوب ...

وهو « حُلو » ... تستطيع حلاوته أن تجعل الحياة بهيجة إذا أحسِنَ

ستشارها ... وتستطيع أن تفتن الناس وتستدرجهم إلى المهاوي الفاغرة إذا سيء استخدامها ..

من أجل هذا يبدأ عليه صلاة الله وسلامه بخلق « ضمير المال » في نفس الإنسان .

إنه لا يعالج قضايا المال بأسلوب الأرقام الذي يعالجها به فلاسفة الاقتصاد والاجتماع ... بل يعالجها بروح الرسول وببصيرة المعلّم ...

وإنه لا يربط مشاكل الثروة والمال بحركة الأسواق . وحركة التاريخ ... بل يربطها أولاً وقبْلاً بحركة الضمير ونَبْع الروح .

من أجل هذا ، يبدأ بتخفيف وطأته . ونفي ضراوته .

إنه عليه الصلاة والسلام يعلم إغراءه الشديد القاتل . ويدرك ما تفرضه ضرورات العيش وجلبَة المنافسة من تكالُب وتهوّر واستسانه . ومن ثمّ يبدأ بتذكير الناس بربهم ورب المال .. وهو بهذا يدعوهم لاستخدام « الفرامل » خلال زحفهم وعَدْوِهم في عالم التحصيل والارتزاق .

« يا أيها الناس ...

اتقوا الله . وأجمِلوا في الطَلَب . فإن نفْساً لن تموت حتى

تستوفِيَ رزقَها وإنْ أبطأ عنها ..

فاتقوا الله وأجمِلوا في الطَلَب ...

خذوا ما حلَّ . ودَعوا ما حرُم » !!

هكذا يبدأ رسول رب العالمين في رسم علاقتنا بالمال — الإجمال في طلبه وتحصيله . وهذا الرفق الذي يدعونا إليه الرسول . خلال اكتسابنا الثروة والمال ، يتحقق — بادىء ذي بَدْء — بالتزام الحلال . وتَجنُّب الحرام .

« خُذوا ما حلَّ ودَعوا ما حرُم » .

إن المال رزق الله وعطاؤه وفضله ... والذي يبتغي لنفسه ولأهله من

عطاء الله . ورزقه . لا ينبغي له أن يتحدّى الله بارتكاب المأثم في طلب هذا الرزق وذاك العطاء .

وفي هذا يُعلمنا الرسول فيقول :

« ... ولا يَحملنّكم استبطاء الرزق أن تأخذوه بمعصية الله ؛ فإن الله لا يُنال ما عنده إلا بطاعته » .

إنك إذا ذهبت تطلب المال من غير حِلّه ، وبغير حقه ، سيتركك الله وما تريد . وقد تظفر منه بالكثير الكثير ... ولكن الكارثة تنتظرك لا محالة على الطريق ؛ لأن الله رفع يده عنك ، وويل لمن يكون هذا مَثْواه ومصيره .

يقول عليه السلام :

« لا يُعجبنّك رَحْبُ الذراعين بالدم ، ولا جامع المال من غير حِلّه ، فإنه إن تصدّق به لم يُقبل منه . وما بقي كان زاده إلى النار ...!! » .

إن الرسول عليه الصلاة والسلام يُشكِل « ضمير المال » أجمل وأصدق تشكيل وهو يردّ يقيننا إلى الله إبّان تحصيل المال واكتسابه .

« يا أيها الناس ...

إني ما آمركم إلا بما أمركم الله ، ولا أنهاكم إلا عمّا نهاكم الله عنه ، فأجْمِلوا في الطلب . فوَالذي نفسُ أبي القاسم بيده إن أحدكم ليَطلبُه رزقُه كما يطلبه أجله » ...

إنه يريد لنا أن نكون « سادَةَ المال » ، لا « عَبيدَه » ..

وذلك لا يتم إلا بالكرامة في طلبه وبالأناة في السعي إليه .

ولا شيء يغرس هذه الكرامة في أنفسنا اللاّهِثة وراء المال والثروة مثل اليقين بأن الله هو الرّزاق ذو القوة المتين .. ومثل اليقين بأن الثروة الصالحة النافعة ، لا تقاس بالكثرة . فكم من ثروات تتعاظم العدّ والإحصاء ذهبت مع الريح مُخلّفة وراءها الخراب والحسَرات .

وهنا يُعلمنا خير المعلّمين فيقول :

« إن الغِنى ليس عن كثرة العَرَض ..ولكنَّ الغِنى غِنى النفس » .

أجلْ .. هنا يضع الرسول أيدينا على جوهر القضية كلها ، ويُبوِّءُ علاقتنا بالمال أرفع مكان .. فالغِنى لا تقرره الأرقام ، إنما يقرره الرضا واليقين .

وما أكثر الهلَع والشقاء اللذين يُصيبان من يرتبط المال في رُوعه بالترف ، لا بالكفاية .. وبالكثرة لا بالبركة ..

وما أجزَل السعادة التي يُفيئها الرضا واليقين .

من أجل هـذا ، تبدأ نقطة البدء في تصحيح علاقتنا بالمـال من السيطرة الحكيمة على اشتهائه وتطلّع النفس إليه .

يقول عليه السلام :

« طوبى لمن هُدِيَ للإسلام .. وكان عيشه كَفافا .. وقَنع .. »

فالقناعة التي يظن الحمقى أنها عزاء العاجزين هي أثمن ما يمتلك الإنسان الرشيد من خير الدنيا وعطائها ومتاعها ..!!

وحين يقول لنا الرسول الكريم :

« مَن أصبح آمناً في سِرْبِه .. مُعافى في بَدنِه .. عنـده قوتُ يومه .. فكأنما حِيزتْ له الدنيا بحذافيرها » .

حين يحدثنا الرسول هذا الحديث ، فإنه لا يقوله للتصبير ولا للعزاء .. بل لتقرير حقيقة صادقة ، يستطيع كل منا من خِلال حياته هو أن يَصْدَع بصدقها العظيم . فالأناة ، والرفق ، والقناعة في اكتساب المـال نقطة البدء في المسلك الصحيح والرشيد .

وحتى لا يجرفنا تيّار التطلّع إلى ثراء الآخرين يوصينا الرسول فيقول :

« إذا نظر أحدكم إلى مَن يفضُل عليه في المال والرزق ؛ فلينظر إلى من هو أدْنى منه .. فذلك أجْدَر ألاَّ تزدروا نعمـة الله عليكم » !!!

أجـل .. فـَدون كل مـُقِلٍّ مـُقلـُّون كثيرون .. ونـِعـَمُ الله على عباده لا تتمثل في المال وحده ، فهناك الصحة ، والتوفيق ، والستر ، والعافية ..

هناك عشرات النعم التي يتمنى كثيرون من الأثرياء أن ينالوها ولو بكـل ثرواتهم ولكنهم لا يستطيعون ..!!

إن الله سبحانه يُعطي ويَدَع ..

وليس الذين يُقَلِّل لهم في العطاء بأدْنى منزلة لديه ..

بل إنه سبحانه كثيراً مايَكِلُ قوماً إلى ما ملأ به قلوبهم من الغِنى والخير..

يقول عليه السلام :

« إن الله يعطي الدنيـا من يُحب ، ومَن لا يُحب .. ولا يعطي الآخـرة إلا من يُحِبّ » ..

فالرضا بالقليل هو الكثير.. ورَوْح الحياة وريحانها ليسا في كثرة المال.. بل في غنى النفس وترفعها ورضاها .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« .. وإن الله بقسطه وعدله جعـل الرَّوْح والفرَج في الرضا واليقين ..

وجعل الهمّ والحزن في السَّخَط » ..

* * *

ويواصل الرسول عليه السلام توجيهه الحكيم في تصحيح علاقات الناس بالثروة وبالمال ؛ فيفتح بصائرنا وأبصارنا على ما للمال من ضراوة أشدّ وأنكى من ضراوة الخمـر ..

ويكشف عليه الصلاة والسلام عن جانب من طبيعتنا البشرية يحفزنا دوماً إلى حب المـال والتهالك عليه ، ويدعونا إلى الحـذر الشديد من تسلّط هـذه الآفة على مشاعرنا ومسْلكنا .

يقول عليه السلام :

« قلب الشيخ شابٌ على حب اثنتين ــ طول الحياة، وكثرة المال »!!

أجل .. فمن المهد إلى اللحد ، والنفس توّاقة أبداً إلى المزيد ثم المزيد من المال ومن الثراء .. بيْدَ أنَّ الحرص الذي تولده الرغبة المسعورة في هذا المزيد . يُشكل في تقدير الرسول خطراً رهيباً على ضمير المرء ودينه ؛ حتى إنه عليه السلام لَيَرى أن انطلاق ذئاب جائعة في غنم هاجعة تمزق لحومها وتلتهمها أدنى ضرراً وأقل خطراً مما يصنعه بدين المرء حِرصُه المسعور على جمع المال .!!!

ولَطالما كان عليه السلام يتعوّذ بالله من (نفس لا تشبع) ..

إن الرسول يقرر أن الشَّغف بالمال وبجمعه قَصْدٌ محتوم لطبيعتنا .

وكما أننا لا نستسلم لنزغات السوء في طبيعتنا هذه ؛ فإن الإفراط في التعلّق بالمال واحد من تلك النزغات التي أمِرنا بتوقّيها .. يقول عليه الصلاة والسلام :

« لو كان لابن آدم واديان من مال لابتَغى إليهما ثالثاً .. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب .. ويتوب الله على من تاب » ..!!!

ويتألق نفس المعنى في كلمات أُخَر من حديثه الكريم :

« لو أن ابن آدم أعطِيَ وادياً من ذهب ، أحبَّ إليه ثانيا ..
ولو أعطيَ ثانياً ، أحبَّ إليه ثالثاً ..
ولا يسدّ جوف ابن آدم إلا التراب ..
ويتوب الله على من تاب » ..

فتلك طبيعة الإنسان إذن ، والقَدْر المشروع من هذه الطبيعة خير . والمال حينئذ خَضِرٌ حلو .. أما إذا تخطّينا تُخوم التعفف والقناعة والقَصد والرضا، فآنئذ لا يسد جوف ابن آدم إلا التراب .. ويبقى على الإنسان أن يقوم بواجبه الفوريّ في تصحيح علاقته بالمال ..

« ويتوب الله على من تاب » !!.

* * *

وإذا كانت الطبيعة الإنسانية مُفرِطة الشغف بالمال ، واسعة الحيلة في التكالُب عليه ، دائبة التطلع إلى المزيد منه ، فلا بد إذن أن تكون لها شكائم تخفف من لهفتها وتكالُبها ..

وهناك من الأفراد من يحققون بطولات روحية وأخلاقية في الترفع والزهد.. بيد أنّ الكافة من الناس لا يقدرون على مثل هـذا التفوق البعيد ـ فليكن حسبهم أن يقفوا عند حدود الله في المال والثراء .

وأول هذه الحدود أن يكتسبوا ثروتهم من حلال ، وألا يجاوزوا المشروع الذي أحلّه الله وأباحـه .

وهنا تفيض أحاديث الرسول وتوجيهاته لِتدعَم حُبّ الحلال واحترام المشروع في قلوبنا..فما لم يتقيد الإنسان في طلب الثروة بالمشروع وما لم يتجنب الحرام والبغي ، فإن مصيره ومصير المجتمع إذا ساده هذا السلوك يكون وبيلا.. ها هو ذا رسول الله يقول :

« طلَب الحلال واجب على كل مسلم » .

فالحلال أول ما يعطي المال صفة القبول والاحترام . وكل ثروة لا تأتي عن هذه الطريق ، فهي وباء .. يقول عليه الصلاة والسلام :

« والذي نفْس محمد بيده ، إن العبد لَيقذِفُ اللقمة الحـرام في جوفه ما يُتقبّل منه عملٌ أربعين يوماً .
وأيّما عبد نبَت لحمه من سُحت فالنار أولى به » ..

إن المال الحرام عقيم .. لا خير فيه لصاحبه في الدنيا ولا في الآخرة .

وبعض الناس تدفعهم البلاهة إلى الظن بأن بعض الخير يصنعه بماله الحرام وكَسْبه المشبوه كفيل بأن يضع عنه وِزْرَه ..!

وإلى هؤلاء يوجّه الرسول حديثه :

« من اكتسبَ مالاً من مأثَم ، فوصَل به رَحِمه ، أو تصدَّق به ، أو أنفقه في سبيل الله جُمع ذلك كله فقُذِف به في جهنم » ..

ويفسّر الرسول ذلك بقوله :

« إن الله تعالى طيِّب ، لا يَقبل إلا طيباً » .

فالذين يفعلون الخير قُرْبى إلى الله وابتغاء وجهه الكريم ، عليهم أن ينتقوا أطيب ما عندهم من الطيبات . لا أن يُقدموا الخبيث الذي اكتسبوه بغير حق .

والرسول الكريم حريص على تذكيرنا دوماً بإغراء الحرام وتحذيرنا منه ، لا سيما في عصور التدهور الأخلاقي ، حيث لا يردع الناس عن طلب الثراء الحرام رادع :

« يأتي على الناس زمان لا يُبالي المرء ما أخَذ ، أمِن الحلال أم مِن الحرام » .

وحين تتقهقر القِيم الفاضلة إلى وراء ، وتأخذ مكانها حوافز النفعية والوصولية والطمع . يُمسي الاستغناء عن المال الحرام سذاجة أو ضعفاً أو رذيلة في أعين الجاهلين من الناس وما أكثرهم حينذاك ..!!

وفي مثل هذه الفترات المرهِقة للشرفاء يرسل الرسول عزاءه الحق بحكمه الصادق :

« لا تَغبِطنَّ جامع المال من غير حِلّه ، أو من غير حقّه . ، فإنه إن تصدّق به لم يُقبل منه . وما بقي كان زادَه إلى النار » .

والرسول عليه السلام يربط دوماً كل نشاطنا وأعمالنا في الدنيا بجزائها في الآخرة .

وهو بهذا لا ينسى أن يُذكّرنا بمسئوليتنا تجاه ثرائنا وأموالنا ـ عند الله يوم القيامة :

« لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع :

* عن عمـره ، فيم أفنـاه ؟
* وعن شبابه ، فيم أبلاه ؟
* وعن مـاله ، من أين اكتسبه وفيم أنفقه ؟
* وعن علمـه ، ماذا عمـل فيه ؟ » .

* * *

ولكي نتجنب المال الحرام علينا أن نبتعد تماماً عن منطقة الخطر كلهـا ـ وذلك لا يتاح لنا إلا إذا تجنبنا في كسبنا الشبهات .

ومن ثمَّ كان الرسول عليه السلام حريصاً على فتح عيوننا على الخطر المحدق بكل كسب تغشاه الشبهة والريبة .

« .. فمن اتقى الشبهات ، استبرأ لدينه وعرضه .. ومن وقع في الشبهات ، وقع في الحرام » ..

ويتناول الرسول بالتفصيل مواطن الحـرام وكثيراً من مواطن الشبهة في مجال اكتساب المال على النحو الذي سنراه قريباً .

بيد أنه يسبق ذلك كله بأن يضع الميزان في قلب الإنسان وضميره :

« استفت قلبك ..
والبرّ ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب .
والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر .. وإن أفتاك الناس وأفتوك » !!

إن كل إنسان يعرف التمرة مـن الجمرة ..!! وفي مسائل المال خاصة ليس ثمت غموض . فمصادره المشروعة واضحة كالنهار .. ولا عذر لآكـل الحرام ، فالحلال هنا بيّن ، والحرام أكثر بياناً وظهوراً .

وحين يضع الرسول الميزان في قلب الإنسان وضميره يؤكد بذلك وضوح الطـريق ..

وحتى لا يتردد الإنسان في غير مدعاة للتردد ، يحسم الرسول الأمين

الأمر كلــه بهذه القاعدة الباهرة :

« دَعْ ما يَريبُكَ : الى ما لا يَريبُكَ » .

هذا هو الميزان الصادق .. وفي مقدرة كل إنسان الاحتكام إليه والاهتداء به ــ فكل مآتي الكَسْب التي تريبُك ، ويُرسِل ضميرك عندها إشارة التردد والحذر . دَعْها دون تلكّؤ أو تردد إلى الأخرى التي لا تريبك والتي تطمئن إليهــا النفس ويسكن القلب .

ولكن أمام صُوَر الحرام الواضحة والصارخة ، ليس هناك سوى الرفض المطلق لها : حتى يظل المــال وتبقى الثروة خيراً لصاحبها لا نقمة تدمّر حيــاته وتنفحه بأســوأ مصير .

وتقف بنا أحاديث الرسول طويلا أمام صور هذا الحرام وآفاته .

إن شهوة المــال أعْتى شهوات الإنسان ، وما لم توضع لأسباب اكتسابه وتحصيله ضوابط حازمة ، فإن الفوضى تعمّ المجتمع لا محالة ، وتتحول الجماعة إلى ذئاب وكلاب .. والرسول في كل توجيهاته بشأن المال حريص أنبل الحرص على أن تظــلّ « الوظيفة الاجتماعية » للمال على رأس النوايا والحوافز التي تدفع الناس إليه وتحفزهم لتحصيله .

والوظيفة الاجتماعية للمال تتمثّل في سلامة الأسباب المفضية إليه .. ثم في سلامة المنهج الذي يتمّ به إنفاقه واستثماره والانتفاع به .

وعلى الطريق التي يزدحم الناس فيها ليكتسبوا الثروة والمال تتربّص بهم مغريات ضارّة ، وآفات مهلكة .

وتنهض أحاديث الرسول بكل ضيائها لتكشف لنا هــذه الآفات .

* * *

وعلى رأس هذه الآفات المهلكة يجيء الاحتكار .. والرسول عليه الصلاة والسلام يرفض كل ثروة تجيء من هذه الطريق .

يقول عليه السلام :

« الجالِبُ مرزوق ، والمحتكر ملعون » •

والجالب هو الذي يجلب احتياجات الناس من مطعم وملبس •• يجلبها من مواطنها البعيدة أو القريبة ، ثم يضعها في متناول الناس بأسعار هادئةبارَّة •

هذا الإنسان يدعو له الرسول بوفرة الرزق ويبشّره بها •

أما المحتكر الذي يوصِد على تلك الحاجيات أبواب مخـازنه ليبيعها في السوق السوداء أو بالسعر الفادح الشَّرِه ، فهو ملعون لا تفتأ اللعنة تطـارد أمواله حتى تجعلها هباء ولو بعـد حين •

يقول عليه السلام :

« بئس العبـد المحتكر ••

إن أرخص الله الأسعار حَزِن •• وإن أغلاها فرِح » !!

فمجرد الحزن حين ترخص الأسعار ، ومجرد الفـرح حين تربو وتزداد ، قَذَرٌ يلوّث المال ؛ لأنه يَشِي بنفسٍ طامعة خبيثة تفرح لحزن الآخـرين ، وتحـزن لفرحهم ••!!

أجل •• فالسعر الرخيص تَهْوي إليـه أفئدة الملايين من المستهلكين •• والرجل الحصيف في جمع ماله ، النبيل في تحصيل ثروته ورزقه هو الذي يمضي بمشاعره ومسلكه في نفس الاتجـاه الذي يرجـو الناس منـه يُسْر عيشهم وضرورات أرزاقهم •

إن الرسول ﷺ حريص على أن تظلّ مصادر الرزق للناس بعيدةً عـن كل مناورة ومؤامرة •

وكل تاجر يتسبب بأنانيته في احتكار هذه الأرزاق أو في رفع أسعارها ، لا يجد له في رحاب الله ولا في رحاب رسوله مكاناً ••

يقول عليه السلام :

« من احتكر طعاماً ، فقد برئ من الله وبَرِئ الله منـه » •

ويقـول :

«من احتكر على المسلمين طعامهم، ضربه الله بالجذام والإفلاس».

ويقول عليه السلام :

« من دخل في شـيء من أسعار المسلمين ليُغْلِيَه عليهم ، كان حقاً على الله تبارك وتعالى أن يُقْعِدَه بِعُظْمٍ من النـار يوم القيـامة » .

فليس الطعام فقط هو الذي يتوعّد الرسول محتكره ..

وليس الاحتكار فقط هو الذي يجلب لصاحبه الدمار واللعنـة ..

بل إن مجرد المساومة أو المزايدة التي تفضي إلى إغلاء سعر شيء ــ أيّ شيء مما يحتاجه الناس ،كفيل بأن ينزل صاحبه مكاناً سحيقاً من غضب الله وعذابه.

إن هذه الأحاديث الكريمة التي تتفجر حكمة ، مثلما تتفجّر ثورة ونقمة على الذين يتوسلون إلى الثراء والمال بإنزال الضّرّ بالآخرين لتُلقي ضوءها الكاشف على جرائم القوى التي تحتكر في الصناعة أو في الزراعة أو في التجارة مصـادر الرزق ومفاتيح الحياة للأمـة والمجتمع .

وحين يقول الرسول عليه السلام :

« الناس شركاء في ثلاثة ، الماء والكلأ ، والنار » .

فإنما يشير أيضاً إلى تلك الضرورات التي لا ينبغي لفرد ولا لأفـراد أن يحتكروها من دون المجتمع والناس .

* * *

وتنقلنا أحاديث الرسول إلى صورة أخرى من صور الحرام الذي نُواقعه إبّان سعينا لتحصيل الثروة والمـال .

ذلكم هو الغِشّ في كل أزيائه وأشكاله .

والغِش من أكثر الخطايا احتمالاً للتأويل والتماس العـذر والتبرير ..

فما أيسر أن يخدع الانسان نفسه بأن هذا الذي يقترفه ليس حراماً . لأنه مثلاً لم يسرق ، ولم يكره ضحيته على ما أراد •• ولكن كقضية عامَّة يُرسل النبي نذيره هـذا :

« بئس العبدُ عبدٌ يستحلّ المحارم بالشُّبهات » •

فشبهة الغشّ كشبهة السرقة البَواح •• وكما أننا نكره أن نُخدَع في أي معاملة نتعاملها ، أو سلعة نشتريها ، ونذهب نتحرّى أمرنا حتى نضمن سلامة ما أخذنا ــ فكذلك يجب أن نتحرّى الأمر بالنسبة للآخرين حتى نكون على يقين بأننا لم نغشّهم ولم نخدعهم •

يقول عليه الصلاة والسلام :

« مَن غَشّنا ، فليس مِنّا • والمكر والخداع في النار » •

إن هـذا الربط الحكيم بين الغش والخداع والمكر ، يقطع الطريق على أولئك الذين يستخدمون ذكاءهم الشرّير في غِشّ الناس أولا •• ثم في إقناع أنفسهم بأنهم لم يقترفوا خطيئة ولا إثماً ••!!!

ويحدثنا « أبو هريرة » رضي الله عنه فيقول :

« مرّ رسول الله ﷺ على صُبْرة طعام ــ أي كَوْمة طعام ــ فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً ، فقال : ما هـذا يا صاحب الطعام ••؟ قال : أصابته السماء ــ أي المطر ــ ••

فقال الرسول : أفلا جعلْتَه فوق الطعام حتى يراه الناس ••؟ مَن غشّنا ، فليس مِنّا » ••

فالذين يجمعون المال ، ويُنَمّون ثرواتهم بالغش أيّاً كان سَمْته ولونه ، لا مكان لهم في صفوف الأمة الراشدة •

فالراشدون المؤمنون يتحلّوْن أول ما يتحلّون بالأمانة والتناصُح •

يُروى عنه عليه الصلاة والسلام :

« المؤمنون بعضهم لبعض نَصَحة وادّون ، وإن بَعُدت

منازلهم وأبدانهم ..

والفَجَرَةُ بعضهم لبعض غَشَشَةٌ مُتخاونون ؛ وإن افتربَتْ منازلهم وأبدانهم » !!!

أجل .. إن التناصُحَ أوضح آيات الإيمان . وهو في مواطن الإغراء أكبر قداسةً ، وأكثر لزوماً .

من أجل هـذا يقول الرسول :

« لا يحلّ لأحـد يبيع شيئاً إلا بيَّن ما فيه ..

ولا يَحِلّ لمن علم ذلك إلا بيَّنه » .

فالكشف عن حقيقة الشيء ، وتبيان عيوبه وسوآته ــ أي شيء يكـون ــ ليس واجباً فردياً ، يُناط بصاحب المنفعة فيه وحسب .. بل هو واجب اجتماعي وجَماعي ، يُنادي إليه كل الذين يعلمون ويعرفون .

* * *

وكما يُحرّم الرسول عليـه السلام الغِش حـين يكون تمويهاً في نوع السلعة ، يحرمه بقوة أيضاً حين يكون تمويهاً وتطفيفاً في وزنها وكَيْلها . ويُحاذر الرسول الكريم من خطيئة التطفيف ، لا على الفرد المطفّف وحـده . بل وعلى الجماعة التي تشيع فيها هذه الخطيئة .. فيقول عليه الصلاة والسلام وهو يذكر مئات من الناس يحقّ عليهم عذاب الله وغضبه :

«..ولا نَقَص قومٌ المكيالَ والميزان إلا قطع الله عنهم الرزق ».

ويقول في حديث آخـر :

« .. ولم يَنقُصوا المكيال والميزان إلا أخِذوا بالسنين وشِدَّة المئونة وجور السلطان عليهم » .

فاكتساب المال عن طريق السرقة في المكيال والميزان يمثل سعياً حثيثاً إلى الخراب والوبال ، وإن بدا لصاحبه أنه سبيل للاستكثار .

إن البيع والشراء من أكثر ، بل لعلهما أكثر مصادر المال وأرحب مجالات حركته . وفرص الزيف والاختلاس والمخاتلة وافرة في مجال التجارة لمن يشاء .

من أجل هذا حرص الرسول الرحيم على تحذيرنا العميم والدائب من مزالق هـذا السبيل . وهو في نهيه عن تطفيف الكيل والميزان ، إنما يريد أن يحررنا من إغراء ما في البيع والشراء من أهـواء .

من أجل هـذا أراد لكل بيع أن يكون سليماً نظيفاً سديداً .

وكل شائبة تغري بربح حـرام ، يحذر الرسول منهـا .. ولكي تسلم الصدور تمامـاً من شوائب البيع والشراء أمَرَ البائع أن يكون واضح الأسلوب واضح النوايا .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« لا يَحل لأحـد يبيع شيئاً إلا بَيَّن ما فيه .

ولا يحلّ لمـن عـلم ذلك إلا بيَّنه » .

فكشف مثالب الصفقة مطلوب قبـل كشف مزاياها . ومن ستر عيوب صفقته فقـد خان وخَسِر .

يقـول عليه السلام :

« من باع عيباً لم يُبيِّنه لم يزل في مقت الله » .

وحين يتحرّى الرجـل الحلال في كسْبه . فيعرض سلعته عرضاً واضحاً لا غشّ فيه ، لن يكون بحاجة إلى مواقعة خطيئة أخرى ـــ تلك هي خطيئة اليمين الكاذبة الغَمُوس التي يستخدمها آثماً في الترويج لسلعته .

يقول عليه السلام :

« الحلف منفقة للسلعة . ممحقة للكسب » .

وفي حديث آخر يقول عليه السلام :

« اليمين الفاجرة منفقة للسلعة . ممحقة للكَسْب » .

فتصريف السلعة باليمين الفاجرة الكاذبة أو حتى يتعوّد اليمين الصادقة عمل غير صالح ، لأن العادة — أيّ عادة — تملك قوة الاستدراج .. فإذا جعل التاجر الحلف بالله على طرف لسانه دوماً مطمئناً لصدقه فستستدرجه عادة الحلف إلى الكذب حتى يُواقعه غير متحرج ولا متردد .

ولكي يُبارَكَ للبائع في كَسْبه ، وللمشتري في حاجته رسم الرسول النهج الذي يغني كلا منهما عن التحايل والمضاررة .

يقــول ﷺ :

« البيِّعان بالخيار ما لم يتفرَّقا ..

فإن صدَقَ البيِّعان وبيَّنا ، بورِكَ لهما في بيعهما ..

وإن كَذبا وكَتَما ، فعسى أن يربحا ربحاً مّا ويمحقا بركةبيعهما » .

فالبيِّعان — البائع والمشتري — في خيار من أمرهما إلى أن يتفقا .. وعلى كل منهما أن يحرص على ألاّ يبخس الآخر حقه .. فإن احتال أحدهما ونجحت حيلته في أن يأخـذ ما ليس له بحق فسيربح فعلا ربحه العاجل ، ولكن المحْق والتّلف والخسـران .. كل ذلك سيحيق سريعاً بالحرام الذي أخـذ !!

* * *

ويحرص الرسول حرصاً جليلا ونبيلا على أن يكون كَسْبنا طيباً .

ها هو ذا يُبَشّر ويقـول :

« طوبَى لمـن طاب كَسْبه ، وصلَحتْ سَريرتُه ، وكَرُمتْ علانيتُه ، وعزل عن الناس شرَّه » .

والذي يطيبُ كسبه ويعزل عن الناس شره ، ليس هـو من يتجنب الغش والاحتكار والكذب فحسب .. بل هو مع ذلك وقبل ذلك ، من يتجنب الاتجار فيما حرَّم الله من مطعم حرام ومشرب حرام وسلعة حرام .. يقول عليه صلاة الله وسلامه :

« إن الله تعالى حرم بيع الخمور ، والميتة ، والخنزير والأصنام » .

وذات مرة حدث تساؤل في مجلسه عليه السلام حول بيع الخمر فقال :

« إن الذي حرّم شربها ، حرّم بيعها » ..!!!

فالاتجار في كل ما هو محظور ومحرّم سبيل للكسب الخبيث والثراء الدَّنِس . ومن ثَمّ نهى الرسول عنه وحذّر منه .

« لا تبيعوا القينات المغنيات ولا تشتروهن ولا تعلموهن . ولا خير في تجارة فيهن .. وثمنهن حرام » .

فالجواري اللائي يُبَعْن لمتعة الجسد أو متعة اللهو والسماع سبيل كَسْبٍ قذر وحرام .. والمؤمن الصادق طيّب ، يسعى إلى الطيبات ويتجنب الخبائث ولا ينمّي لحمه من سُحْت ، ولا يضاعف ثروته بالحرام ..

* * *

ويتعقب النبي الكريم آفات المال والثروة حتى يبلغ آفة الربا وجريمته فيَدْمُدِم عليها ويجعل أصحابها نكالا ..

فالربا استغلال بشع لحاجة الإنسان وضعفه وبؤسه .

ثم هو يخلق طبقة من الأثرياء العاطلين الجشعين الذين كثيراً ما يتحوّل المال بين أيديهم إلى سوط عذاب ..

من أجل هذا ، جعله الرسول واحداً من شرّ الموبقات التي دعا إلى تجنّبها والهروب منها ..

يقول عليه السلام :

« اجتنبوا السَّبعَ الموبقات ..

* الشرك بالله ..

* والسِّحر ..

* وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق ..

* وأكل الرِّبا ..

* وأكل مال اليتيم ..
* والتولي يوم الزحف ..
* وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

فجريمة الربا تأخذ مكانها إلى جوار الشرك بالله وقتل النفس بغير حق .

وكل مال يسهم الربا في إنشائه وإنمائه ، فإنما ينتظره المحق الذي توعَّد الله في قــوله الفصل :

« يَمْحَقُ اللهُ الرِّبــا » .

ولبشاعة هذا النوع من الكَسْب : لم تُصَبُّ اللعنة على صاحبه وحده . بل وعلى كل مشترك فيــه .

يقول « جابر بن عبد الله » صاحب رسول الله ﷺ :

« لعن رسول الله ﷺ آكل الربا .. ومُؤْكِلَه .. وكاتبه .. وشاهــده ..
وقال : هم سَواء » !!!

فالذي يُعطي الربا . والذي يأخذه ، والذي يحرر عقده ، والذي يشهده ، كل هــؤلاء تغطيهم لعنة هــذا الإثم .. أفلا يدل ذلك على ما في الربا من ضلال وما له من وبــال ..؟!!

ويحدثنا « عوف بن مالك » رضي الله عنه :

« قال رسول الله ﷺ : إيَّاكَ والذنوب التي لا تُغفر ..
* الغُلول ــ فمن غَلَّ شيئاً أُتِيَ به يوم القيامة .
* والربا ــ فمن أكل الربا بُعث يوم القيامة مجنوناً يتخبَّط ..
ثم قرأ قوله تعالى : (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كمــا يقوم الذي يتخبَّطه الشيطان من المسّ) » .

فالغُلول ــ وهو اختلاس الأموال العــامة وسرقتها ..

والربا ـ وهو الإقراض بالفوائد المضاعفة ، ـ كلاهما ـ كما يقول الحديث من الذنوب التي تكاد من فرط بشاعتها لا تُمَنّى بغفران ..!!

* * *

والغُلول ليس سرقة فحسب ، وليس كَسْباً حراماً فحسب .. ولكنه مع ذلك تخريب وبيل وخيانة مُبينة ، لأنه عدوان على أموال عامة ، لا يملكها فرد . إنما تملكها الجماعة والأمة .. وهي لكثرتها وكثرة الأيدي العاملة فيها تُغري بحملقة الأعين ، ونزعات الأنفس ؛ فإذا تحوّل ذلك إلى فعل ؛ فسرعان ما تتسع دائرة العدوى به وتكثر الأيدي الناهبة والمختلسة ، فتقع الأموال العامة التي هي حق الأرملة والضعيف والعامل والكادح واليتيم والمريض والمسكين : والتي تقوم بها وعليها مصالح الأمة وضرورات حياتها .. تقع هذه الأموال فريسة الاختلاس والغلول والضياع .

وللأموال العامة حرمة لو يعلمها الناس ما جرؤ أحد على العبث بها .

وهي لا تتمثل في النقود وحسب .. بل وفي كل ما تتكون منه الثروة العامة للأمة .

يقول « أبو هريرة » صاحب رسول الله :

« قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فذكَر الغلول فعظّمه وعظّم أمره حتى قال : لا ألْفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رُغاء ، يقول يا رسول الله أغثني .. فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغْتُك ..

ولا ألْفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمْحَمة. يقول : يارسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك ..

ولا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة ، على رقبته شاة لها ثُغاء . يقول: يارسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك..

ولا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة ، على رقبته نفس لها صياح .

يقول: يارسول‌الله أغثني ، فأقول : لا أملك‌لك شيئاً، قد أبلغتك..
ولا ألفين" أحدكم يجيء يوم القيامة ، على رقبته رِقاع تَخفق .
يقول: يارسول‌الله أغثني ، فأقول : لا أملك‌لك شيئاً، قد أبلغتك..
ولا ألفين" أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت ، يقول :
يا رسول الله أغثني ، فأقول : لا أملك لك شيئاً ، قد أبلغتُك » .

ففي هذا الحديث الكريم تعداد لبعض الأصناف التي تتكون منها الثروة ، وقد جاء المال في ختامها وهو الذي عبَّر عنه الرسول بالصامت .. فالصامت هو المال ذهباً أو فضة أو أوراقاً نقــدية .

وكل اختلاس أو انتهاب لما ليس لك بحق ستحمل وزره الفادح في دنياك ويوم يقوم الناس لرب العالمين .

وأحاديث الرسول الزاجرة عن الاختلاس والغلول تبلغ ذروتها في واقعــة « رفاعــة بن يزيــد » ..

ورفاعة هذا كان يعمل في خدمة رسول الله بعد إسلامه القريب والحديث . وفي احدى الغزوات اختص نفسه بشملة من الغنائم ــ والغنائم أموال عــامة ــ لا ينبغي لأحــد أن يأخذ منها شيئاً إلا بعد حصْرِها وقَسْمِها وفق القواعد المشروعة .

وذات يوم أصاب « رفاعــةَ » سهمٌ قاتل من كمين للعدو كان يتربص بالمسلمين ..

وسمع الرسول بعض أصحابه يغبطونه على استشهاده فقــال والأسَى يكسو وجهه ..

« إن الشملة التي أخذها من الغنائم لتشتعل عليه نارا » ..

أو َبعد هذا نذير ووعيد للذين يعيثون في الأموال العــامة للأمة وللدولة . فساداً ونهباً وغلولا ..؟!

ولطالما كان عليه الصلاة والسلام يُحذِّر أصحابه الذين يعملون وُلاة أو

قوّامين على أمور الناس من الأموال العامة . ويضرب لهم المثل برجل بعثه ساعياً على قوم فغلّ نَمِرَةً أي بُردة من صوف .. يقول عليه السلام :

« .. فَدُرِعَ مثلها من نار » ...

أي عوقب على فعلته هذه بعد موته بأن أُلبِسَ درعاً من نار تتلظى بها روحه في بَرْزَخِها .

★ ★ ★

وإذا كان الغلول يعني الاعتداء على الأموال العامة بطريق مباشر كالاختلاس والسرقة ، فإنه يعني أيضاً العدوان بطريق غير مباشر . وذلك بالامتناع عن إعطاء ما في أموالنا من حق معلوم ..

فالضرائب العادلة المشروعة حق للدولة وللأمة ، والأموال المتحصلة منها أموال عامة .. فامتناعك عن دفع ما عليك من حق ضريبي يعني أنك غَلَلْتَ وسرقت من الأموال العامة نفس القدر الذي كان يجب عليك دفعه .

وهذا المعنى يوضحه لنا سِرّ اهتمام الإسلام بالزكاة .

فالزكاة ضريبة تناهت في العدل والرحمة ، فهي لا تُكلّف المموّلين من أمرهم عُسْراً ، بل تأخذ منهم القليل الهيّن ، وتفرض عليهم اليسير المستطاع .. ثم هي ترجع بكل خيرها إلى فقراء الأمة ومرافق الدولة ..

ومن ثمّ كان حديث الرسول عن الزكاة حديثاً في صميم قضية المال وموضوعه . وكعادته دوماً عليه صلاة الله وسلامه ، يحاول أن يجعل الضمير هو القانون .

فهو إذ ينادينا إلى الزكاة ، يؤكد لنا في صدق عظيم أنه يدعونا إلى ما يزكّي أنفسنا ويطهر أرواحنا ، بل ويُنمّي أموالنا .

« حَصّنوا أموالكم بالزكاة » .

فالزكاة ليست ضريبة عليك .. بل هي قبل هذا ضريبة لك ..

وهي لأنها حق الفقراء عندك ، فإن الله يبارك لك إذا أعطيت هذا الحق .

يقول عليه السلام :

« تُخرج الزكاة من مالِك ، فإنها طُهرة تطهرك » .

إنها لا تطهر المؤمن من إثم النكوص عن إحدى فرائض الدين فحسب . بل هي تطهر روحــه من كل شوائب الافتتان بالمال والتكالُب عليه والشُحِّ به ، كما تطهره من أحقاد المحرومين ، وحسد الحاسدين .

يقول عليه السلام :

« إذا أدَّيت زكاة مالك ، أذهبتَ عنك شرَّه » .

هكــذا يربط الرسول الكريم فريضة الزكاة بالضمير أكثر مما يربطهـا بالقانون .. فهو يريد للمؤمن أن يكون ربّانياً .. لا يخدم المال وإنما يستخدمه في كل ما يرضي الله وينفع عباده . من أجل هــذا يريد الرسول أن نُعطي زكاة أموالنا مهما بلغ حجمها وقدرها بمشاعر الرضا والحبور ، لا التأفّف والضجَر .

يقول عليه السلام في معرض حديثه عن النموذج الصالح للمسلم الصالح :

« .. وأعطى الزكاة ، طَيِّبةً بهــا نفسه » ..

وهو ﷺ لا يفرض الزكاة على المال وحده .. بل وعلى أنواع أخرى من مصادر الثروة ـــ كالزروع والثمار والأنعام .. ولأنه يريد للزكاة أن تكون عطاء روح وضمير ، لا إكراه سلطة وقانون ، فقد دعا المؤمنين ألا يقفوا العطاء عنــد مقادير الزكاة وحدها .. بل وعليهم أن يجاوزوها إلى المزيد من العطاء .

سئل عليه السلام يوماً عن أشياء لم تُفرض فيها الزكاة . فكان جوابه :

« .. ما أُنزِلَ عليَّ فيها إلا هذه الآية الفــذَّة الجامعة :

فمن يعمل مثقال ذرَّة خيراً يرَه .. ومن يعمل مثقال ذرَّة شراً يره » .

فكل عون تبذُله للناس من مالك خير يتألّق في رصيدك عنــد الله .

عن « أنس بن مالك » رضي الله عنه يقول :

« أتى رجل من تميم إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله .

إني ذو مال كثير ، فأخبرني كيف أصنع ..؟ وكيف أنفق ..؟
فقال الرسول : تخرج الزكاة من مالك ، فإنها طهرة تطهرك ..
وتصل أقرباءك .. وتعرف حق المسكين . والجار ، والسائل »

ففي المال حقوق كثيرة تقتضيها إنسانية الإنسان مع الحق الذي تقتضيه فرائض الدين .

وإذا كانت الزكاة قد فرضت على المسلم ، فلكي تضمن الحق الأساسي والضريبة المحتومة أولا .. ثم لتكون تدريباً للأنفس المجبولة على الشح ، والأخرى المهيأة للبر والخير ، كي تنمّي فيها الأريحية الكريمة المعطاءة .. والزكاة عند الرسول قربى يشكر العبد بها ربه على نعمائه .

من أجل هذا يدعونا الرسول أن نعطيها حين نعطيها بأعين قريرة وأفئدة فرحة محبورة .. كما يدعونا أن نقدمها بشعور الإهداء .. نعطيها ، وكأننا نقدم إلى ربنا هدية ..!!

يقول عليه الصلاة والسلام :
« .. ويؤتي الزكاة محتسباً ، طيبةً بها نفسه » ..

ويقول في حديث آخر :
« .. وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه ، رافدةً عليه كل عام .
ولم يعط الهرمة ولا الدَّرِنة ولا المريضة ...
ولكن من وسط أموالكم ، فإن الله لم يسألكم خيره ، ولم يأمركم بشرّه » .

والزكاة فريضة يتقاضاها القانون ، إذا عجز الضمير الرشيد عن هداية المانعين لها . يقول عليه صلاة ربنا وسلامه :
« من أعطى زكاة ماله مؤتجراً — أي راغباً في ثوابها من الله — فله أجرها .

ومن مَنعهـا . فإنّا آخذوها . وشَطْر مـاله . عَزْمَة من عَزَمات ربنـا » .

فمانع الزكاة ، الأناني بماله . المغتال حقوق الله في هذا المال لا يُترك في غيّه . بل تؤخذ منه الزكاة ، ويؤخذ منه المزيد ردعاً له وعقاباً .

ولقد رأينا خليفة رسول الله ﷺ « أبا بكر » الصدّيق رضي الله عنـه وأرضاه ، يهتف في وجه الفتنة التي خاضها قوم قرروا الإضراب عن دفع الزكاة !

« والله لأُقاتِلَنَّ من فـرّق بين الصلاة والزكاة . فإن الزكاة حـق المـال . » .

« والله لو مَنعوني عَناقاً أو عقالاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتُهم على منعهـا » ..

والعناق هو الأنثى من ولد المعز..والعقال هو الحبل الذي تُربط به الدابة.

والحق أن موقف الرسول من الزكاة . وموقف الإسلام عامّة ليكشف عن الإنسانية الباهرة للرسول ولدينه .

فهو عليه السلام يراها دائماً وأبداً حـق الفقراء في أمـوال الأغنياء .

ثم هو يحمي الفقراء ويذود عن حقهم هـذا بكل سبيل ..

ثم هو بعد ذلك وقبل ذلك لا يكلف الأغنياء عُسْراً، ولا يفرض عليهم رهَقاً.

ولنُصغ لهذا الحديث يرويه ابن عباس . ابن عم الرسول :

« بعث رسول الله ﷺ مُعاذاً إلى اليمن فقال له : إنك تقدُم على قوم أهل كتاب . فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله تعالى .
فإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله فرَض عليهم زكاة تؤخـذ من أغنيائهم وتُردّ على فقرائهم .
فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم وتَوَقَّ كرائم أموالهم » ..!!

بالله ما أبهاه ، وما أحناه ، وما أروعه ..!!

انظروا ــ إنهــا من الأغنياء إلى الفقراء •• ثم•••

« توَقَّ كرائم أموالهم » ••

حتى الأغنياء الذين يُؤخذ منهم لا يريد الرسول أن يسيئهم •• ومن أجل هــذا جاءت وصيته الكريمة :

« توَقَّ كرائم أموالهم » •

ولكن ، ماذا إذا تحجّرت الضمائر وقست القلوب ، ووقعت النفوس في براثن الشح وهوى الاكتناز ••؟

وماذا ، إذا لم يجــد الناس ضميراً يدفعهم ، ولا قانوناً يردعهم ••؟

هنالك يخبرهم الرسول أن القصاص في أثرهم ، وأن عقاب الله مُدَّخر لهم• يقول عليه الصلاة والسلام :

« ما من صاحب ذهب ولا فضة ، لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفحت له صفائح من نار ، فأحْمِيَ عليها في نــار جهنم،فيكْوى بها جنبه وجبينه وظهره•••كلما بردَتْأعيدت له »•

وحين يتحول منع الزكاة من عصيان فردي إلى عصيان جماعي •• أي حين تصبح السِّمة الغالبة على المجتمع الإسلامي تجاهل الزكاة ومنعها ، فآنئذ تغيض من هذا المجتمع منابع رزقه وتغشاه أزمات العيش والحياة •

يقول عليه السلام :

« •• ولم يَمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القَطر من السماء » •

ومنع القطر هنا لا يعني منع الأمطار وحــدها ، بل يعني نُضوب مصادر الثروة وأسباب الرزق ، كما يعني تفشّي التدهور واندلاع الأزمات ••

* * *

ولا يرى الرسول في الزكاة أداة لحق المال فحسب ، بل هي كذلك خــير تحصين له وأوثق تأمين • يقول عليه الصلاة والسلام :

« حَصّنوا أموالكم بالزكاة » .

فالزكاة سبيل لنماء المال وحفظه عند الله وعند الناس .. أما عند الله ، فلأن الزكاة تعني شكر الله على نعمائه والله سبحانه يقابل الشكر على النعم بإعطاء المزيد منها ..

وأما عند الناس ، فلأن الزكاة حين تُنفَق في سبُل المعروف والبرّ ، فتصلُ رحِماً ، وتفرج كَرباً ، وتغيث ملهوفاً ، فإنها تترك في نفوس الناس ذكرى طيبة ومودّة دافئة لهذا الذي أدّى زكاة ماله .. وحين يحاط الثراء بالمحبة بدل الحقد وبالرضاء والدعاء مكان التربص والمقت ، فإنه بهذا يكون في مأمن عظيم ونُزُلٍ كريم ..

* * *

ويتجلّى إدراك الإسلام لأهمية العلاقات التي يطرحها المالُ على الجماعة والناس تجَلياً ثاقباً حين يطالعنا موقف الرسول من الديون ..

فَللدَّين في تعاليم الرسول وأحاديثه ما يُشبه القداسة .. ولنبدأ بهذا الحديث الذي يرويه لنا « أبو سعيد الخُدْريّ » صاحب رسول الله :

« سمعت رسول الله ﷺ يقول : اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدَّيْن .. » .

« فقال رجل : يا رسول الله ، أتَعدِل الكفر بالدَّيْن ..؟ » .

« قال الرسول : نعم » !!!

إن الديون حين يَستمرِئها الناس تُلحِق بالحرمة التي يريدها الإسلام للمال خطراً محدقاً وضرراً ماحقاً .

فالدَّيْن ، الذي هو همّ بالليل وذلّ بالنهار ، لا يركن إليه في الأعم الأغلب ، سوى أولئك الذين يُؤْثِرون المأخذ السَّهل ، ويتنكّبون طريق المعاناة ، والصبر والسعي الدؤوب .

وهؤلاء قلّما يُضمرون نوايا السَّداد ، وقلّما يقدرون عليه .. ومن ثم

كان زجر الرسول لهم قوياً ، لأن هذا المسلك حين تفشو في مجتمع مّا فاشيته يضعضع روح الثقة في الجماعة ، ويتسبب في تحريف علاقات الناس بالمال عن طريق الخير والتعاون والرشد إلى طريق الشح والضن والانطواء ... ثم إن استمراء الدين ، لا سيما إذا كان ثمة عزم على المطل أو عجز عن السداد ، يعني الرغبة في أكل أموال الناس بالباطل ـ الأمر الذي يرفضه الرسول ويحذر منه أشد تحذير . والرسول بهذا ، يريد أن يريح الناس من هم ثقيل يقض المضاجع ويحني الجباه ، ويذل الأنفس .

إنه عليه السلام يقول :

« لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها .. قالوا : وما ذاك يا رسول الله ..؟ قال : الدين » !!!

ويحدثنا الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنهما :

« كان يؤتى بالرجل الميت عليه الدين ؛ فيسأل الرسول : هل ترك لدينه قضاء ..؟

فإن حدث أنه ترك وفاء لدينه صلى عليه . وإلا قال : صلوا على صاحبكم ..

فلما فتح الله عليه الفتوح قال : أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؛ فمن توفي وعليه دين فعلي قضاؤه..ومن ترك مالاً فلورثته ».

إلى هذا المدى الرهيب تبدو مسئولية الدين واضحة وفادحة .

فالرسول الذي هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وهو على الموتى من المؤمنين أكثر حدباً وعطفاً وبهم أكبر رحمة ورأفة ، يتحرج عن الصلاة على ميت مدين لم يترك وفاء لدينه .. حتى إذا أفاء الله عليه من مغانم الفتوح ، كان أول ما يبادر به وإليه سداد الدين عن كل مسلم يموت وعليه دين ...

هنا تبدو حرمة الحقوق عند رسول رب العالمين ..!!

إنها حرمة تشبه القداسة ، وقلما نجد لها في تشريعات البشر

ـ مذ وجدوا ـ نظيراً ..

وليس معنى هذا الزجر المدمدم عن الديْن ، أنه محظور أو حرام ..

إنه مباح في حدود الضرورة ؛ وفي حدود العزم الصادق على الوفاء .

يقول عليه صلاة الله وسلامه :

« من أخذ أموال الناس يريد أداءها ، أدّى الله عنه ..

ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها ، أتلفه الله » .

ويقول عليه السلام :

« ما مِن عبد كانت له نيّة في أداء دينه ، إلا كان له من الله عون » .

فالرسول إنما يزجر عن الدّيْن الذي يورّط الناس به أنفسهم في مواقف الحرج والبوار والمماطلة ، وهو لا يريد لأحد أن يصير الدّيْن قاعدة حياته ، أو مصدراً من مصادر عيشه ورزقه .

كما لا يريد أن تفسد بسبب الدين علاقات الناس التي ينشد لها أقصى منازل الوئام والودّ والثقة .

من أجل هـذا مقت المطْل ، وقال :

« مَطْلُ الغَنيّ ظُلم » .

أي أن امتناع القادر على الوفاء بما عليه من دَيْن ظلم وإثم .

* * *

وفي الجانب الآخر من المشهد نرى حنان الرسول يفيض غَدَقاً على المدين الذي اضطرته ظروفه القاهرة فاستدان ، ثم اضطرته مرة أخرى للعجز عن الوفاء .

هنا يتقدم الرسول بتعاليمه الحانية موصياً بإنظار المُعسِر . أي إعطائه مهلة أخرى وفرصة جديدة يتأتّى له فيها السّداد في غير مشقة أو عُسْر .

يقول عليه السلام :

« كان فيمن قبلكم تاجر يُداينُ ، فكان إذا رأى مُعْسِراً قال

لفتيانه : تجاوزوا عنه ؛ لعلّ الله يتجاوز عنا .. فتجاوز الله عنه »

ويقول الرسول الأمين أيضاً :

« من سرّه أن ينجيه الله من كرب يوم القيامة فلينفّس عن مُعْسِرٍ ، أو يضع عنه » .

فإرجاء موعد الوفاء بالديْن ومدّ أجله أمام المعسر المعْوز عمل نبيل له من الله ثواب جزيل ، وأروع منه أن يضع الدائن المقتدر عن مدينه العاجز بعض الدَّيْن أو جميعه .

هكذا يُمسك الرسول العظيم بالميزان في حكمة باهرة .. فهو ينهى عن التورط في الديون ، واستمرائها .

ولكن إذا فرضَتْها الظروف على قوم خفّ إليهم بالنجدة .. وهو يوصي بهم دائنيهم ويَعِدُهم على رفقهم الرحمة وحسن ثواب ..!!!

وإن عطفهُ على المدين ورحمته به لتحمل حاجة المدين إلى أعتاب الفضل الإلهي ، فيعلمهم أن يقرعوا بعجزهم باب الله ، ويضرعوا إليه كي يَنْضُوَ عنهم أوزار الديْن وأثقاله .

دخل ﷺ المسجد ذات يوم في غير وقت صلاة . فوجد صحابياً من الأنصار يسمى « أبا أمامة » فسأله الرسول :

« يا أبا أمامة ، ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت صلاة ..؟؟»

قال أبو أمامة : هموم وديون لزمتني يا رسول الله ..

ويبدو أن النبي لم يكن معه يومئذ ما يقضي به ديْن صاحبه ، فدلّه على الفيض الرحيب قائلاً له :

« أفلا أعلمك كلمات إذا قلتها أذهب الله همّك ، وقضى عنك دَيْنك .. ؟

قل إذا أصبحت وإذا أمسيت :

* اللهم إني أعوذ بك من الهمّ والحزَن
* وأعوذ بك من العجز والكسل
* وأعوذ بك من البخل والجبن
* وأعوذ بك من غَلَبَةِ الدَّيْن وقَهْر الرجال » .

يقول « أبو أمامة » : فلزمت هذا الدعاء حتى أذهب الله همي وقضى ديْني ..

* * *

هكذا يتلقى المال من أحاديث الرسول الكريم فلسفته الرحيمة والحكيمة .

ولئن كُنَّا لم نأت إلا على النَّزر اليسير من أحاديث الرسول عن المال وقضاياه ومشكلاته إلا أننا في هذا القليل المبارك نستطيع أن نرى نمَطاً فريداً في عرض قضية المال . ونستطيع بهذا القليل المبارك أن نهتدي إلى أمثل منهج وأهدى سبيل يصوغ علاقتنا بالثروة وبالمال .

ولقد هدى إلى هذا المنهج رسول الأمَّة « الوسط » والدِّين « القيِّم »..

الرسول الذي كان يستعيذ بالله من شر فتنة الغنى ... وشر فتنة الفقر ..

والرسول الذي بقدر ما دعا إلى التعفف في جمع المال والقناعة في اكتسابه ، دعا بنفس الحفاوة إلى الحفاظ عليه وحذَّر من إهداره وتضييعه ..

والذي اختار « الوسَط القَوام » طريقاً لجمعه واكتسابه ـ فلا تهالك ، ولا تقصير .. وطريقاً لبذله وإنفاقه ـ فلا إسراف ولا تقتير .

والذي جعل جوهر علاقة الإنسان به ماثلاً في أنه ـ أي المال ـ خادم مطيع . لا سيد مستبد ..

وأن ما قلَّ منه وكفى . خير مما كَثُر وألْهى .. وأنه وسيلة الإنسان الصالح إلى الحياة الصالحة .. لا أكثر من ذلك ولا أقلّ .

(فمن أبْصَر فلنفسه . ومن عَمِيَ . فعليها . وما ربّك بِظلاَّم للعبيد) ..

* * *

الفصل الثاني

.. عن العمل

ذات يوم كان صلوات الله عليه وسلامه يجلس مع نفر من أصحابه .. ومرّ بهم رجل يتفجّر نشاطاً وعافية، يُسرع الخطى نحو غايته وعمله .

وبَهر جَلَدُه ونشاطه وحيويته بعض الأصحاب فقال قائلهم متعجباً :

ـ يا رسول الله، لو كان هـذا في سبيل الله ..؟!!

فقال الرسول عليه السلام :

« إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله ..
وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين، فهو في سبيل الله..
وإن كان خرج يسعى على نفسه يُعِفّها ، فهو في سبيل الله ..
وإن كان خرج يسعى رياء ومُفاخرة ، فهو في سبيل الشيطان » ..!!

بهذا المشهد ، وبهذه الكلمات نستهلّ غُدُوَّنا مع أحاديث رسول الله وهي تحدثنا عن العمل حديث مُعلّم عظيم ورسول كريم .

وصدق رسول الله وهو يتحدث بنعمة الله عليه فيقول :

« أوتيتُ جَوامعَ الكَلِم، واختُصِرَ ليَ الكلام اختصارا » .

ففي هذه الكلمات الوجيزة جـداً التي تحدّث بهـا عن الرجل الذي بهر أصحابه بجلده وبنشاطه ، كاد ـ عليه السلام ـ يلَخص كل ما يمكن أن يُقال عن العمل من كلام طويل وأحاديث مفيضة .

وفي سرعة ومَض الضوء وضعتنا كلماته الحكيمة الوجيزة أمام العمل بكل

جوهره . وبكل قِيَمه . وبكل أبعاده ..!!

فالرجل الذي غبطه أصحابه على حيويته ونشاطه ، وتمنَّوْا لو بذل طاقته العارمة في سبيل الله اتخذ منه الرسول ومن المشهد كله مادّة لبَيان قضية العمل كلها .

فالعمل ليس بظاهره وشكله .. بل ببواعثه وغاياته .

وكل عمل وراءه العزم على أداء واجب ، وفعل خير ، فهو في سبيل الله .

والإخلاص روح العمل .. فكل عمل يبتغي به صاحبه الرياء ، ويغشاه الضلال في القصد وفي المسلك ، فهو في سبيل الشيطان .

والعمل الرشيد ليس هو الذي يسدّ فراغه ويؤدي دوره فحسب .. بل هو مع ذلك وقبل ذلك ـ الذي لا يعطي أحداً فرصة الكسل والتقاعس والعالة . بل يشد زناد الحركة والعمل والاهتمام لدى الآخرين .. وهذا ما يكشف عنه سرّ التخصيص والتحديد في قول الرسول ﷺ :

« إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً ... »

وقوله :

« وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين .. » .

وقوله :

« وإن كان خرج يسعى على نفسه يُعِفّها ... » .

فتحديد الأولاد بالصغار ، والأبوين بالعجَزة الكبار .. بل وتخصيص الغاية من السعي على النفس ، بأن تَعَفّ عن المسألة وتكفى مئونتها ، لا أن تنتفخ بالمال ، وتبطر وتختال .. هذا التحديد يشير إلى الحكمة الباهرة التي يدرك بها الرسول الكريم أذكى وأعمق خصائص العمل السديد والرشيد .

إن كل سعي على الأولاد ـ وإن كانوا كباراً ـ عمل مشروع ومقبول .. وكل سعي على الآباء والأمهات ـ وإن كانوا صغاراً ـ عمل صالح ومشروع ..

وكل سعي على النفس ولو لطلب المزيد من الثراء والنّعمة ، عمل مشروع ..

فلماذا التخصيص في هـذا الحديث بالأولاد « الصغار » وبالآباء والأمهات « العجزة الكبـار » ..

ثم لماذا ربط السعي على النفس بالتعفف، لا بالاستكثار، ولا بالتبذخ...؟؟

إنها اللفتة الذكية الثاقبة نحو جوهر العمل النافع والعظيم ..!! فالعمل العظيم النافع ، هو الذي لا يُفرز بخدماته أناساً من المتبطلين والعاطلين الذين يعيشون عالةً على ما يقدمه عمل الآخرين من خدمة وعطاء ..

والعمل النافع العظيم هو الذي يبتغي به الانسان تحقيق الحياة الآمنة في رزقها ــ لا الحياة المترفَة الطامعة الشَّرِهة ..

وإذا كان العمل ضرورة كل حيٍّ وكل حياة . فحق الجميع إذن أن يعملوا .. وواجب الجميع أن يعملوا .. حتى الأبناء الذين يمكن أن يعولهم الآباء ــ عليهم أن يعملوا ما داموا كباراً .. وحتى الآباء الذين يمكـن أن يعولهم أبناؤهم ، عليهم أن يعملوا ما داموا قادرين .. وهـو مثل يُضرب لكل قادر ولكل قادرة على العمل من بني الإنسان .

ويرتفع الرسول الكريم بالعمل الرشيد إلى مكانة مرموقة تسمو على كل ما يُغنيه العمل علينا من منافع الدنيا ومباهجها وأرباحها .

فهو ليس وسيلةً للتقدم والنجاح ودعم الحياة وحسب .. بل هو فوق ذلك كله .. طاعة وعبادة وقُربى .. أجل ــ هو في سبيل الله !!!

* * *

لقد أحب الرسول العمـل وعشقه وداوم الحثَّ عليه والدفع إليه بشكل يبهر الألباب . والحـق أن علاقة الرسول بالعمل وتقديره له ، من أوضح أمائر التكامُل في شخصية الرسول العظيم ..

فالرسول الذي دأبه التنسُّك والعبادة ، والذي يحمل راية دين لا يعرف الدنيا إلا معبراً للآخرة ، يَحتفل بالعمل ويحتفي به حفاوة تكاد تجعله ، بل هي

تجعله نسكاً وعبادة وفريضة من فرائض الدين ..!!

والعمل الذي نتحدث عنه هنا ـ هو العمل عامّة ، العمل في شتّى صوره ومجالاته .. العمل في الوظيفة ، وفي التجارة ، وفي الحقل ، وفي المصنع .. في الطب ، في التدريس ، في الهندسة .. في كل ما يزاول الناس من عمل ، وكل ما يمارسون من نشاط ، وكل ما يحترفون من حرفة .. شريطة أن يتم في نطاق الذمّة والشرف والاستقامة والإتقان .

فالعمل الصالح الذي يتّسم بل يتشكّل من كل عناصر الصلاح والخير هو الذي يعنيه الرسول حين يتحدث عن العمل .

وهذا العمل هو في تعاليم الرسول وأحاديثه عَصب الحياة وسِرّ بقائها . ومن ثمّ فهو واجب الأحياء حتى الرمق الأخير فيهم .. وهو حق الحياة حتى الرمق الأخير فيها ..

ولست أعرف ولا أحسب غيري يعرف أروع ولا أجمع ولا أزكى من هذا الحديث في هذا المجال :

« إذا قامت الساعة ، وفي يد أحدكم فَسيلَة ، فليغرسها » ..!!!

هاتوا كل ما كتب فلاسفة البشر وعباقرتهم عن توكيد الأمل وتقديس العمل في الحياة ، فلن تجدوا مثل هذا الذي قاله الرسول أبداً ..!!!

إن الفَسيلَة هي الواحدة من صغار النخل تُقتطع من الأم أو تقلع من الأرض ثم تغرس فيها لتنمو بعد هذا وتكبر .

والرسول في حديثه الباهر هذا ، يقول للناس :

ـ إذا قامت القيامة بغتة ، وكان أحدكم يتهيأ لغرس فَسيلَة ؛ فلا يُلْقِها من يده لأن القيامة قامت ، والحياة انتهت ..

لا .. بل عليه أن يتم عمله ويغرس فسيلته كما لو كان موكب الحياة لا يزال يمضي ويهدر ..!!

أي إيمان بالعمــل هــذا الإيمان ..؟

وأي إذكاء لروح الأمل بعد هذا الإذكاء ..؟

في هذا الحديث النبويّ الكريم يبدو العمل ، وكأنه غــاية ذاته .. فليس وسيلة لشيء ، ولا يحــدد غايته شــيء آخر سواه .

فحتى في اللحظة المباغتة التي تعلن انتهاء الحياة ، وتعلن قيام الساعة لتُجزى كل نفس ما عملت وما كسَبَتْ .. حتى في هــذه اللحظة الحاسمة الحازمة حيث لا يصير العمــل جدوى ــ لا سيما إذا تمثّل العمل في زرع نباتة ، أو غرس فسيلة ، يوصي الرسول الجامع لكل حكمة ، ولكل فضل أن نمضي في العمــل وكأن شيئاً مّا لم يحدث .

أجــل ..

« إذا قامت الساعة ، وفي يد أحدكم فَسيلَة ، فليغرسها » ..!!!

* * *

والعمــل في تعاليم الرسول كرامة .

« ماأكل أحــد طعاماً قط خــيراً من أن يأكل من عَمــل يده .
وإن نبيّ الله داود كان يأكل من عمــل يده » .

فإذ تعمل وتكدح ، ثم تأكل من عملك هــذا وكدحك وعرق جبينك ، فهذا نمط رفيع من أنماط الكرامة والشرف .

« ما كسبَ الرجل كسْباً أطيب من عمــل يده » .

وشرف العمــل وكرامته يرجعان إلى ذات العمل وفضائله .. وليس إلى نوعــه أو درجته .

« لأن يأخذ أحدكم أحبُلَه ــ أي حباله ــ فيأتي بحزمة من حطب على ظهــره فيبيعها فيكُفّ الله بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس ــ أعطَوْه أم منعوه » ..

فأن يأخذ رجل حبلا ليوثق به حزمة من حطب احتطبه وجمعه ، فهذا عمل يبدو في أعين الناس تافهاً وصغيراً .

لكنه في الموازين الصحيحة للعمل ، جليل وعظيم لأنه جُهدٌ بُذِلَ في سبيل اكتساب رزق حلال شريف .

ولقد سُئل الرسول عليه السلام :

ـ أيّ الكَسْبِ أطيب ..؟

فقال ﷺ :

« عملُ الرجل بيــده وكل بيع مبرور » .

وتركيز الرسول على « عمل الرجل بيده » إعلاء لشأن الحرف التي تبدو في أعين الناس شاقة أو مهينة ، وتزكية للحرفيين والصناع الذين يمارسون بأيديهم المجهدة والمجاهدة أعمالهم وما يصنعون .

وإن رسول الله ليزيد هؤلاء بهاءً حين يقول :

« إن الله يحب المؤمن المحترف » .

وحين يلقى واحداً من أصحابه ذات يوم ولا يكاد يصافحه حتى يجد في كفه خشونة غير مألوفة . فيسأله الرسول :

« ما بالُ كفيك قد أمْجَلتا » ؟؟

فيجيبه الصحابيّ : من أثر العمل يا رسول الله ..

فيرفع الرسول كفيه على ملأ من أصحابه ـ ثم يقبلهما ويُلوّح بهما كأنهما راية ، ويقول مباهياً بهما ومُطْرِياً لهما :

« كفّان يحبهما الله ورسوله » ..!!!

والحق أن حنان الرسول الكريم على الذين يعملون بأيديهم لا ينتهي أبداً . وإنه ليرجو لهم كل مثوبة وخير .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« مَن أمسى كالاًّ من عمل يده ، أمسى مغفوراً له » .

إن للرسول عليه الصلاة والسلام طريقته الفذّة في السمو بالجهد الإنساني دوماً إلى ما هو فوق كل مغانم الدنيا وعطاياها .

إنه يربط الجهد الإنساني الكادح والنبيل بالجزاء الأوفى والعطاء الأبقى .. ثواب الله وعطائه .. فمع أن الذي يُمسي كالاًّ من عمل يده لا يُحرَم ثمار عمله وكدّه ، إلا أن الرسول الكريم يرنو دائماً ويرجو دائماً ما هو أبقى من هذه الثمار العاجلة وهكذا راح يبشر العاملين والكادحين :

« من أمسى كالاًّ من عمل يده ، أمسى مغفوراً له » .

فمغفرة الله ورضوانه هما المثوبة الباقية التي يبشر بها الرسول كل عامل وكادح .. وليس فقط ما يُفيئه العمل من ثمار وعطاء .

* * *

وإجلال الرسول للعمل ، يساوي تماماً مقته ورفضه للمسألة التي يزجيها عدم العمل .. وكأنه ـ عليه السلام ـ في زجره الشديد عن المسألة ، إنما يدفع الناس إلى العمل بكلتا يديه ، بوصفه ـ أعني العمل ـ الوسيلة الوحيدة اللائقة بالمؤمن كي يحصل على رزقه وعيشه ، وكي يُسهم مع العاملين في عِمارة الحياة.. وإنه عليه الصلاة والسلام ليُدَمْدم على الذين يخلدون إلى البطالة والكسل ، ثم يتسوّلون من جهود الآخرين ما يعيشون به في مذلة وهوان .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من سأل الناس تكثّراً ، فإنما يسأل جمراً ، فَلْيستقلَّ أو ليستكثر » .

ويقول عليه السلام :

« المسألة كلُوح في وجه صاحبها يوم القيامة » .

ويبايع النبي أصحابه فيما يُبايعهم على ألا يسألوا الناس شيئاً . ويدرك

الصحابة رغبة الرسول الكبيرة في أن يعتمد أصحابه بعد الله سبحانه على أنفسهم وأن يواجهوا أمورهم بالتحمّل والتجمّل والصبر .

فيذهبون في ترك المسألة مذهباً بعيـداً .

يحدثنا أبو عبد الرحمن عوف بن مالك الأشجعي صاحب رسول الله فيقول :

« كنا عند رسول الله ﷺ ، فقال : ألا تبايعون رسول الله ..؟؟

وكنّا حديثي عهد ببيعته .. فقلنا : قد بايعناك يا رسول الله ..

فقال عليه الصلاة والسلام : ألا تبايعون رسول الله ..؟

فبسَطْنا أيدينا ، وقلنا : علامَ نبايعك ..؟

فقال : على أن تعبدوا الله ولا تشركوا بـه شيئاً .. والصلوات الخمس .. وتسمعوا وتطيعوا .. ولا تسألوا الناس شيئاً ..

فلقـد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحـداً يناوله إياه » ..!!!

لقد تحرّجوا وتورّعوا عن سؤال الناس إلى هـذاالمدى البعيد .. فإذا سقط سوط أحدهم وهو يركب ناقته أو دابته . نزل ليأخذه بنفسه ، رافضاً أن يسأل أحـد إخوانه أو أحـد العابرين أن يناوله إياه .

ولا يجيز الرسول المسألة إلا في الضرورات القاهرة ..

ها هو ذا عليه السلام يوصي أبا بِشْر قَبَيْصَة بن المُخارق فيقول :

« يا قَبيصة .. إن المسألة لا تحل إلا لأحـد ثلاثة :

* رجل تحمّل حمالة ـ أي أنفـق ماله في سبيل صلح بين فئتين متقاتلتين ، أو في ضمانٍ أو دية ـ فحلّت لـه المسألة حتى يصيبها ثم يمسك .
* ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلّت لـه المسألة حتى يصيب قوامـاً من عيش .
* ورجل أصابته فاقة ، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحِجى مـن

قومه : لقد أصابت فلاناً فاقة ، فحلت له المسألة حتى يصيب
قواماً من عيش .
وما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت.. يأكلها صاحبها سحتاً» ..

إن الرسول عليه السلام يخشى ويُحاذر أن يعتمد فريق من الناس على المسألة ويتركوا العمل .. وليست المسألة المنهيّ عنها هي تلك القاصرة على صورة التسول المعروفة .. فهذه أدنى صور المسألة وأشكالها .. ثم لها بعد ذلك صُوَر شتّى وأشكال كثيرة . وكلها هوان نعوذ بالله منه.. هوان لا يريده الرسول الكريم للمؤمنين أبداً .

يقول عليه السلام :

« اليد العليا خير من اليد السفلى
والعليا هي المنفقة .. والسفلى هي السائلة » .

ويقول عليه السلام :

« .. فاستعِفّ عن السؤال ، وعن المسألة ما استطعت » ..

ويقول :

« ومن يَسْتَعِفّ ، يُعِفّه الله ومن يستَغْنِ ، يُغْنه الله ، ومن يتصبَّر ، يُصبره الله » .

وحتى لا تكون المسألة استجابة لشره النفس ورغبتها في احتواش المزيد من أي سبيل ، يهيب بنا الرسول عليه صلاة ربنا وسلامه أن نجعل القناعة والأناة على رأس فضائلنا ، ويعلّمنا أن كرامة النفس خير وأبقى .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« ليس الغنى عن كثرة العرَض ، ولكن الغنى غنى النفس » .

وفي حديث جليل يقول لنا عليه السلام :

« عش ما شئت ، فإنك ميّت ..

واعمل ما شئت ، فإنك مجزي به ..
وأحبب من شئت ، فإنك مفارقه ..
واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل ..
وعزه استغناؤه عن الناس » .

فعز المؤمن في استغنائه عن الناس ، ليس الاستغناء الذي يعني اعتزالهم والتخلي عن مشاركتهم أخذاً وعطاء .. بل الاستغناء الذي يعف النفس عن كل تطلع غير كريم .

« قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنع » ...

وارتباط النهي عن المسألة بالدعوة للعمل في تعاليم الرسول يعني أن غياب أحدهما يؤكد وجود الآخر .

فالذي يؤثر الفراغ والكسل والتبطل ، لن يجد أمامه شاء أم أبى سوى سبل المسألة والاقتراض والتهالك في هوان وشقوة ...

والذي يجد العمل ويعمل ويكدح ويجني ثمار عمله تعف نفسه . وتعلو يده ، ويحيا حياة طيبة وكريمة .

من أجل هذا كان البديل الصحيح لحياة الفقر والمسألة والتكفف ، هو العمل .. ثم المزيد من العمل .

ولنصغ إلى أنس رضي الله عنه يحدثنا فيقول :

« جاء رجل من الأنصار إلى النبي ﷺ فسأله ..

فقال النبي : أما في بيتك شيء ..؟

قال : بلى .. حلس ــ أي كساء غليظ ــ نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء ..

قال الرسول ائتني بهما ..

فأتاه بهما فأخذهما الرسول بيده ، وقال : من يشتري هذين ..؟

قال رجل : أنا آخذهما بدرهم .

قال رسول الله : من يزيد على درهم ••؟
قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين •• فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاري وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوماً وائتني به ، فأتاه به فشدّ الرسول فيه عوداً بيده ثم قال : اذهب فاحتطب وبع ولا أرينّك خمسة عشر يوماً •
ففعل ، وجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً • وببعضها طعاماً •
فقال رسول الله : هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة » •

فالعمل كان البديل الفوري الذي دفع الرسولُ السائل إليه فأفاء الله عليه بركة العمل خيراً كثيراً ووفيراً •

وبركة العمل لا تجيء من الجهد المبذول فيه وحسب •• بل تجيء قبْلاً من رضوان الله ، ومن تكفّله بإنجاح كل عمل طيب وكل كدح شريف •

فالله سبحانه يعد عباده العاملين وعداً كريماً وناجزاً إذ يقول في قرآنه العظيم :
« لا أضيعُ عملَ عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى ـ بعضكم من بعض » •

* * *

لذلك ، ولكي تظلّ رحمة الله وتوفيقه قريبين منا ونحن نعمل ، يوصينا الرسول عليه السلام بواجبات العمل وآدابه ••
وأولها ـ الإتقان ••
يقول عليه السلام :
« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه » •

وإتقان العمل لا ينفصل عن العمل •• بل إن إتقان العمل هو العمل ذاته •

فالآلة التي تصنعها أو تصلحها بغير إتقان ، يمكن أن تؤدي إلى كارثة — كان الخير ألاّ تصنعها أو ألاّ تصلحها ..

وإن كل تقدم صناعي أو علمي — أو حضاري بصفة عامة ، لا يرجع إلى ما تقوم به الأمة المتقدمة من أعمال بقدر ما يعود إلى الإتقان الذي تُنجَز به هذه الأعمال .

وعدم إتقان العمل — أيّ عمل — يجاوز صفة الإهمال إلى جريمة الغش . وهنا يقول عليه السلام :

« مَن غَشَّنا ، فليس مِنّا » .

ولقد كان الرسول دائم الدعاء إلى الله :

« اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل » .

وعلّمنا أن نضرع بهذا الدعاء دوماً .. لأن العجز والكسل لا يقعدان بالناس عن العمل فحسب .. فكثيراً ما يجد الناس أنفسهم مضطرين لأن يعملوا كي يعيشوا .. إنما خطر العجز والكسل في أنهما يقعدان بنا عن الرنوّ إلى الكمال المستطاع والطموح الخيِّر الذي يحضّنا على إجادة أعمالنا وإتقانها .

* * *

ويدعونا الرسول إلى جانب إتقان العمل إلى الإقبال عليه في حيوية ونشاط وشَغَف .. من أجل هذا يوصي بالبكور في السعي إلى العمل ويبشرنا بأن هذا البكور سبيل إلى وفرة الرزق وبركته ..

يقول عليه الصلاة والسلام :

« اللهم بارِك لأمتي في بُكورها » .

ثم يقول :

« باكِروا الغُدُوّ في طلب الرزق ، فإن الغدُوّ بركة ونجاح » .

وتخبرنا السيدة « فاطمة الزهراء » بنت الرسول عليه وعليها صلاة الله

وسلامه ــ أن الرسول زارهم ذات يوم صبحاً فوجدها مضطجعة . فناداها :

« يا بُنيَّة ، قومي اشهدي رزق ربك ولا تكوني من الغافلين » .

أجل .. فكل الأعمال .. حتى أعمال المنزل العادية يطالب الرسول بحقها في البُكور وفيما يُفيئه البكور من حيوية وتفتح ونشاط ..

من أجل هذا ، كان الرسول يكره لأصحابه أن يناموا بعد صلاة الفجر ، وكان يدعوهم أن يواصلوا اليقظة والصحو حتى يشهدوا بواكير النهار، ويُدْلفوا إلى أعمالهم ناشطين مُوَفَّقين .

* * *

ويعلمنا الرسول عليه السلام أن نمارس العمل في حكمة وأناة وتعفّف . فالتهالك والإفراط خوفاً من فوات الرزق ، أو طمعاً في ماليس لنا بحق . يفسد العمل ويُغَشِّيه بغواشي الحرص والشَّره .

« يا أيها الناس . اتقوا الله وأجْمِلوا في الطَّلب ، فإن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبْطَأ عنهـا .

فاتقوا الله وأجْمِلوا في الطلَب » .

« خُذوا ما حلّ ودَعوا ما حَرم » ..

هكذا ينادينا الرسول ويعلمنا .. إن الرزق يبحث عنا بقدر ما نبحث عنه .. ولن تموت نفس حتى تستوفي رزقها المقدور وأجلها المعلوم ــ فالتهالك والطمع والأنانية لن تزيد رزقك شيئاً .. إنما تفقدك سكينة النفس وشرفها وكرامتها . كما تفقـد العمل بهاءه ونقاءه .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« وإن استبطأ أحد منكم رزقه فلا يطلبه بمعصية الله . فإن الله لا يُنالُ فضله بمعصيته » .

هنا يضع الرسول العمل في إطاره السويّ الصحيح .. فكثيراً ما تجمح بنا الرغبة في تحسين دَخلِنا إلى البحث عن المال من أي طريق .. وفي أي عمل..

وفي سبيل ذلك كثيراً ما نزحم جهدنا بأعمال مُبْتسرة وغير متقنة •

يعلمنا الرسول ألا نستبطىء الرزق ، وإن استبطأناه فلْنُحاذر أن نتعجله بوسائل غير مشروعة ، لأننا بهذا نُعرّض أنفسنا لمقت الله •

إن أكثر ما يحرص عليه الرسول الكريم وهو يحض على العمل ويدعو إليه ـ أن نمارس أعمالنا في قناعـة وشرف •• وألا نجعل العمل يستعبدنا نُشداناً للمزيد الطاغي من الثراء أو الجاه ، أو النجاح •

يقول عليه السلام :

« إن الغِنى ليس عن كثرة العرَض، ولكن الغِنى غِنى النفس »•

ويقـول :

« إن الرزق ليَطلبُ العبد ، أكثر مما يطلبه أجلُه » •

ويحدثنا « أبو ذرٍّ » صاحب رسول الله • فيقول :

« جعل رسول الله ﷺ يتلو هذه الآية (ومَن يتّقِ الله يجعلْ له مخرَجاً ويرْزقْه من حيث لا يَحْتسب) فجعـل يرددها ويقول : يا أبا ذرّ •• لو أن الناس أخذوا بها لَكفتْهمْ »•

والعمل عند الرسول لا ينفصل عن فضائله أبداً •• وفضائل العمل لا تتمثل في طريقة ممارسته فحسب •• بل وفي النية التي تدفعنا إليه ، والغاية التي نرجوها منه •• والعمل ـ أي عمل ـ يفقد روحه إذا فقدنا النبْل في نواياه وأغراضه •• وآنئذ يصبح العمل عبئاً ثقيلا ، وروتيناً كريهاً ، ويُحرَم البركة والسكينة •

يقول عليه السلام :

« من كانت الدنيا هَمّه ، فرّق الله شمله ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كُتِب له » •

إننا مطالبون بعمارة الحيـاة • ولكن معنى هـذا أن نتحول إلى أطماع مسعورة لا نعرف سوى الدنيا داراً •• وتنحصر اهتماماتنا في أنفسنا وحـدها ومصالحنا وحـدها ••

إن العمل في هـذا الطريق المنمذود يُحرَم عون الله وتوفيقه .

أما العمل الذي يتوخّى الخير العام مع خـير صاحبه ، وتَحْفِزه النوايا الصالحة ، لا الأنانية المغلقة ، فهو الجدير بحب الله ورعايته ..

يقول عليه السلام :

« مَن لم يهتمّ بأمر المسلمين فليس منهم .
ومن لم يُصبِح ويُمْسِ ناصحاً لله ولرسوله ولكتابه ولإمـامه ولعامّة المسلمين ، فليس منهم » .

فالعمل الذي تنحصر اهتماماته في صاحبه وحده عمل مبتور .

وكلما كثرت اهتمامات العمل وتفتحت على آلام الآخرين وآمالهم ، كان في ذلك سداده ورشاده .

* * *

من أجل هذا يجب أن نمارس أعمالنا بعيداً عن التنافس الحاقد والسّباق المجنون . يقول الرسول :

« لا يَبْغِ بعضكم على بعض » .

فكل مزاحمة غير مشروعة لأخيك في العمل ــ تجارة كانت أم صناعة ، أم وظيفة ، بغي عليـه .

ويقول عليه السلام :

« لا يَبِعْ بعضكم على بَيع أخيه » .

إن أرض الله واسعة ، ورزقه أوسـع ــ فمنافسة الآخرين بحيث يلحقهم الأذى والضرّ ، تفقد العمـل مروءته وشرفه ..

* * *

ويتابع رسولنا الكريم خصائص العمل الرشيد وفضائله وآدابه في كـل

مجالاته وحِرَفه .

فالعمل في التجارة — مثلا — آفته الكذب ، والغش والأنانية والطمع — فيُزيح الرسول كل هذه الآفات بتعاليمه ووصاياه .

وينادي التجار إلى خير ما يزكّيهم ويزكي أموالهم وأعمالهم عند الله وعند الناس ..

فيقول ﷺ :

« إن أطيب الكَسْب ، كَسْبُ التجار :

* الذين إذا حدّثوا ، لم يكذبوا
* وإذا ائتمِنوا ، لم يخونوا
* وإذا وَعدوا ، لم يُخلِفوا
* وإذا اشترَوْا ، لم يَذُمّوا
* وإذا باعوا ، لم يَمدَحوا
* وإذا كان عليهم ، لم يَمطُلوا
* وإذا كان لهم ، لم يُعَسِّروا » .

عليك صلاة الله وسلامه يا خير المعلّمين ..!!

إن العمل في التجارة يبلغ شأوَهُ العظيم حين تصبح هذه صفاته وأخلاقه .

والتاجر الذي يحقق هذه الخصال ، يبشره الرسول أكرم بُشرى فيقول :

« التاجر الصَّدوق الأمين مع النبيين والصِّدّيقين والشهداء والصالحين يوم القيامة » .

أما حين يتخلّى التجار عن فضائل عملهم وواجباته فإنهم يمحقون بهذا أنفسهم وأعمالهم وأموالهم — وفي هؤلاء يقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« إن التجار ، هم الفُجّار » .

قال أصحابه :

ـ يا رسول الله . أليس قد أحـل الله البيع ..؟

قال الرسول :

« بلى .. ولكنهم يَحلفون فيأثمون ويُحدِّثون فيكذبون » .

فأخلاق العمل التجاري تزكو بالصدق ، وتزكو بتجنب الحلف الذي يُروِّج به التجـار بضاعتهم .

يقول عليه السلام :

« خاب وخَسِر ـ المنفِق سِلْعتَه بالحلفِ الكاذب » .

ولقد خرج ﷺ يوماً على أصحابه وهم يتبايعون فقال :

« يا معشر التجار !! »

فرفعوا إليه أبصارهم وأعناقهم مُصْغين إلى نداء الرسول وكلماته ..

واستأنف النبي حديثه إليهم قائلا :

« إن التجار يُبعثون يوم القيامـة فُجّاراً ، إلاّ من اتقى الله، وبَرَّ ، وصدَق » .

ويُحذر الرسول التجار قائلا :

« إياكم وكثرة الحلِف في البيع ، فإنه يُنفِّق ، ثم يَمْحق .. » .

أي أن الحلف قد يساعد التاجر في بيع بضاعته ، ولكنه لما يسببه من غضب الله سبحانه يمحق ذلك الربح وينزع منه بركته ... لهذا يقول الرسول :

« ويل للتاجر من (بلَى والله ..) و (لا والله) » .

ويقول عليه السلام :

« رحم الله رجلا سمحاً إذا باع ..
وإذا اشترى .. وإذا اقتضى .. » .

وفي التجارة يكون إغراء الحرام ضارياً .. وتذهب النفس مذهباً بعيداً في اهتبال هذا الحرام إذا كانت طالحة .. وإذا كانت صالحة فقد يغشاها الضعف

فتذهب تحتال . وتحاول أن تكسو الحرام كساء الحلال .

وهنا يرسل الرسول نذيره :

« إياكم والشبهات ..

من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ..

ومن حام حول الحمى ، يوشك أن يقع فيه » .

ولقد وعى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ما لتوجيهات الرسول هذه من قيمة ، فكان يدعو التجار أن يتفقهوا في الدين حتى يعرفوا حلال الأمر من حرامه.

وكان رضي الله عنه يقول :

« لا يبع في سوقنا إلا من تفقه في الدين » .

* * *

وحين يكون العمل في مجال الصناعة ، نرى الرسول ﷺ يرسم له فضائله وتبعاته :

« ويل للصانع من (غد) ، و (بعد غد) » !!

هذه أولى آفات الصناعة والصانع .. غد الذي لا ينتهي ، والذي يتمادى ويتمطى حتى يصير شهوراً ..!!

فهنا كما في أي عمل آخر ، يصبح الصدق ضرورة ، واحترام الكلمة والموعد المضروب واجباً وشعيرة ..

والصناعة قوامها الإجادة والإتقان ..

وهنا يقول الرسول حديثه المضيء :

« إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه » .

وفي الصناعة أكثر من غيرها يكثر الأجراء الذين يعتمدون في معاشهم على أجرهم اليومي أو الأسبوعي .

وهنا يقول الرسول عليه السلام :

« أعطوا الأجير أجرَه ، قبل أن يَجِفَّ عرقه » .

أي تعبير يمكن أن يحمل من السمو والرحمة والمعدلة ما تحمله هذه الكلمات الحانية الوجيزة :

« قبل أن يَجِفَّ عرَقه » ..؟!!

إن رحمة الرسول تعظُمُ دائماً وتزداد كلما كان المقام مقام ضعف وضعفاء . ولطالما كان يقول :

« ابْغوني ضعفاءكم ، فإنما تُنصرون وترزقون بضعفائكم » ..

أجل .. إنهم الضعفاء مالاً .. والضعفاء حالاً ـ أولئك الذين يقفون وراء المحراث في الحقل ، ووراء الآلة في المصنع ، ووراء المدفع في الميدان .. والذين بجهادهم يُحرَز النصر ، وبجهدهم وعملهم يجيء الإنتاج والرزق ..

« إنما تُنصَرون وتُرزَقون بضعفائكم » .

* * *

وحين يكون العمل في مجال الزراعة يبدأ الرسول ﷺ بالحضّ على الجهد المبتكر الخلّاق ؛ فهو عليه الصلاة والسلام يكافىء من يسبق إلى أرض مَوات مهملة ، فيصلحها ويعمرها ويحولها إلى أرض زراعية خضراء معطية ـ يكافئه بأنه يجعل الأرض له .

يقول عليه السلام :

« من أحيا أرضاً مَيْتَةً فهي له » .

ويقول :

« من عَمر أرضاً ليست لأحد ، فهو أحقّ بها » .

ويهتم الإسلام بالعمل الزراعي ، حتى إنه ليُجيز أخذ الأرض ممن يهمل أمرها ولا يزرعها ويستثمرها .. وإلى جوار هذا يرفض الرسول أي عدوان على الغير .

إن تجاوز الأراضي المزروعة وتلاصقها كثيراً ما يثير النزاع والخصومة حين يحاول الجار أن يختلس من أرض جاره ما ليس له بحـق •

وفي هـذا يقول الرسول محذراً :

« مَن ظلم قيدَ شبر من الأرض طُوِّقه إلى سبع أرَضين » •

إن الجـزاء من جِنس العمل ••!!

والزارع الذي لم يقنع بأرضه ، فراح يلتهم من أرض جـاره بضعة أشبار ، يُجازيه القدَر جـزاء ساخراً ••

لَكأنه يقول له : أتريد المزيد من الأرض ••؟ خذ ما تريد من سبع أرضين ، لا من أرض واحـدة ••؟!!

يقول عليه السلام :

« من أخذ من الأرض شبراً بغيرِ حقه طُوِّقه من سبع أرَضين »•

ولقد سئل الرسول يومـاً :

ــ أي الظـلم أظلم ••؟

فقال عليه السلام :

« ذراع من الأرض ينتقصها المرء من حق أخيه • وما من حَصاة من الأرض يأخذها إلا طُوِّقَها يوم القيامة إلى قعر الأرض » •

إن في مثل هـذا العمل المنكر عدوانين ••

عدواناً على ملك غـيره ••

وعدواناً على حـق جاره ••

ويزداد هـذا المعنى وضوحاً في قول الرسول :

« تجدون الرجلين جاريْن في الأرض أو في الدار ، فيقتطع أحدهما من حظ صاحبه ذراعاً •• فيُطَوَّقه من سبع أرضين »••

* * *

ويُبشِّر الرسول العاملين في حرث الأرض وزراعتها بأجر آخر يأتيهم من حيث لا يحتسبون ، فيقول عليه السلام :

« ما مِن مسلم يزرع زرعاً ، أو يَغرس غرساً ، فيأكل منه طـير ، أو إنسان ، أو بهيمة إلا كان له به صدَقة » .

ولقد رأينا من قبـل حفاوة الرسول ببناء الحياة حين ضرب لهـذا مثلا بفسيلة النخـل فقال :

« إذا قامت الساعة وفي يد أحـدكم فسيلة فليغرسها » ..

* * *

وحين يكون العمل في مجال الوظيفة ، يحدثنا الرسول حديثاً جامعاً .

ويبدأ الرسول الكريم فيعلمنا أن كل شاغل وظيفة إنما هو فيها راعٍ لأماناتها وراعٍ لمصالح الناس فيهـا .

« كلكم راعٍ ، وكلكم مسئول عن رعيته » .

إننا من طـول ما ألِفْنا بعض الآياتِ القرآنية وبعض الأحاديث النبوية ، أصبحنا لا نهتز من أعماقنا للسِّرِّ الباهر الذي تحمله ، والحكمة الثاقبة التي تمنحها ..

والحديث الذي نتلوه الآن من هذا النمط الرفيع الذي نردده بألسنتنا دون أن ننفذ إلى أعماقه الزاخرة الباهرة .

« كلكم راعٍ .. وكل راعٍ مسئول عن رعيته » .

ليس هناك كلمات تضع الفرد الإنساني في مكانها الصحيح مثل هـذه الكلمات .

أجل .. إنه ليس الراعي هو الحاكم وحده .. وليست المسئوليات الضخمة التي يُحسب لها حساب ، هي مسئوليات الحكام الكبار وحدهم .. بل إن لكل مسئولية أهميتها وقدْرها في ميزان العمل والجزاء .. وأيضاً فإن لكل عامـل

ومسئول أهميته وقدره في ميزان الحياة وعالم الأحياء .

« كلكم راع ... » .

وكل إنسان يشغل وظيفة ، فهـو راعٍ لا تقل مسئوليته ولا تقل أهميته عن الراعي الأول في الجماعة والأمة وهو الحاكم .. لأن أهمية الحاكم وخطـر مسئولياته إنما هي في الحقيقة مجموع أهميات ومسئوليات الرّعاة الآخرين .. العاملين والموظفين من أدناهم شأناً إلى أعلاهم منصباً .

« وكل راعٍ مسئول عن رعيته » .

وكل إنسان في محيط عمـله ، كَبُرَ أم صَغُرَ .. مسئول عـن كافة المصالح التي أُتْمِنَ عليهـا .. مصالح الناس الذين عليه أن يرعاهم ويرعى قضاياهم بضمير يقظان .

إن حوائج الناس تظفـر من قلب الرسول ومن تعاليمه وهَدْيِه بالحظ الأوفى من الحنان والإكبار ..

« مَنْ وَلاّه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجَب دون حاجتهم وخَلّتهم وفقرهم ـ احتَجبَ الله تعالى دون حاجته ، وخَلّتِه وفقره يوم القيامة » .

لننظر إلى قوله عليه السلام « شيئاً » ..

« مَنْ ولاّه الله شيئاً » .

إنها تدلنا على ما للمسئولية مهما صَغُرَت من رهبة وحساب فأي عمل ـ وأي شيء يناط بك عمله ، تتساوى مسئوليتك عنه بالأعمال الكبار والمسئوليات الجسام ـ لا سيما إذا كان هذا العمل ، أو هذا الشيء موصول العُرى بحوائج النـاس ..

لقد رأينا كل مسئول عن وظيفة أو عمل ، إنما هو راع مسئول . فلنقرأ الآن هـذا الحديث :

« ما مِن عبد يسترعيه الله رَعيّةً يموت يوم يموت وهو غاشٌ

لرعيته ، إلا حرم الله عليه الجنة » .

هكذا ترسم الأحاديث الكريمة النبوية شخصية العمل الوظيفي — إنه رعاية ، وصاحبه راع ، وكل راع مُحاسَب ومسئول .

* * *

وتتتبّع أحاديث الرسول بعض صفوف هؤلاء الرّعاة والعاملين الموظفين ، مُبشّرة محسنيهم ، ومُحذّرة المسيئين .

وشرّ هؤلاء هم الذين يأكلون حقوق الناس ويفسدون عليهم حياتهم .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« إن شَرّ الرّعاء الحُطمَة » .

والرّعاء ، هم الرّعــاة ..

والحُطَمة .. هــو الذي يأكل ما ليس لهِ بحــق ؛ ويُفسد في الأرض ، ويُسبّب للناس الأزمات والمشكلات ..

ثم تضع الأحاديث النبوية بعض هؤلاء تحت المجهر والضوء .

الأمراء ، والعُرَفاء ، والأمنــاء ، والشرطة ، وجُباة الأموال والضرائب ، وآخرون .. فتحدد أحاديث الرسول ﷺ الذين يزيغون عن الحق من هؤلاء ، ويركبون هواهم ، ويستسلمون لغرور سلطانهم ..

يقول عليه الصلاة والسلام :

« ويل للأمراء .. ويل للعرفاء .. ويل للأمناء ..

ليَتمنّيَنّ أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم مُعلّقة بالثّريا ، يتذبذبون بين السماء والأرض ، ولم يكونوا عملوا على شيء » .

فالنّمط الرديء من الأمراء ، والعرفاء وهم رؤساء الجماعات والأعمال ، والأمناء على الأمــوال ومصالح الناس .. ينتظرهم جزاء جنوحهم عن الحــق عذاب شديد .

ويحدثنا المقدام بن مَعْديكَرِب رضي الله عنه فيقول :

« ضرب رسولُ الله ﷺ على منْكِبيَّ ، ثم قال : أفلحتَ يا قُديم إذا متّ ولم تكن أميراً ولا عريفاً » .

ويقول الرسول لصاحبه ؛ « أبي ذَرّ » رضي الله عنه :

« يا أبا ذر » ..

إني أراك ضعيفاً ، وإني أحب لك ما أحب لنفسي .

« فلا تأمّرَنَّ على اثنين ، ولا تولينَّ مال يتيم » ..

* * *

إن الرسول الذي تلقى من ربه كتابه الحكيم .. هذا الكتاب الذي لا يذكر الإيمان ــ على كثرة ما يذكره ــ إلا مقروناً بالعمل الصالح ، لهُوَ أكثر العالمين إدراكاً لدور العمل وقيمته ، وأوفى العالمين ذِمّة لواجباته ومسئولياته ..

★ ★ ★

الفصل الثالث

.. عن الصداقة والصحبة

قال عنه ربه جل جلاله ، وهو يقدمه للناس ويَمُنّ به عليهم :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عَزيزٌ عليه ما عَنِتّم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

وأراد عليه صلاة الله وسلامه أن يعرفنا بجوهر رسالته ، ويرفعنا إلى مستوى الإدراك السديد لدعوته ، فقال :

« إنما بُعِثت لأتَمّمَ مَكارم الأخلاق » .

فالرسول الحريص علينا ، الرحيم بنا ، يعلم أن خيرنا كله ماثل فيما بُعث من أجله ـ مكارم الأخلاق .

وعلى رأس مكارم الأخلاق ، يجيء « حسن الصحبة » .

ولستُ أعرف في أدب الصحبة وحقوقها أروع ولا أجمع من قول الرسول الكريم :

« إن الله يسأل عن صُحبة ساعة » !!

صُحبة ساعة .. لِقاءٌ عابر مع إنسان آخر يُشكّل موقفاً يسألنا الله عنه ...!! هذا إجلال للصحبة ليس له نظير ...!!

والصحبة في تعاليم الرسول تبدأ بالنفس فنحن لا نصاحب أحداً أبداً أكثر ولا أطول مما نُصاحب أنفسنا .

من أجل هذا ، تبدأ حقوق الصحبة والتزاماتها بنوع علاقتنا بأنفسنا .

كيف نصاحب أنفسنا ، وكيف نصادقها ، وكيف نتعامل معها ..؟

يقول عليه السلام :

« ابدأ بنفسك » .

فحين نكون أصدقاء طيبين لأنفسنا، نكون أو نصير أصدقاء طيبين للآخرين.. والصحبة الأمينة الصالحة للنفس ، تتمثل في ألاّ نشقّ عليها ، أو تَشُقَّ علينا .. أي أن يمضي الإنسان بنفسه على صراط مستقيم ـ صراطِ الله وهدْيِه ونوره ..

والتدريب الحقيقي لآداب الصحبة ، يبدأ بترويض النفس وتعليتها .. هذا العمل المجيد الذي أعطاه الرسول وصفه الحق حين قال لأصحابه :

« رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، جهاد النفس » .

وجهاد النفس الذي يتم بعيداً عن مُناخ الصداقة لها والصحبة معها كثيراً ما يزيدها ضلالا وإباقاً .

فتعذيب النفس واضطهادها ، والاعتماد في ترويضها على القسوة والقسْر ، كثيراً ما يُفضي إلى المزيد من تمرّدها ـ يقول عليه الصلاة والسلام :

« عليكم بالرفق ، فإن الرفق خير كله » .

« ماكا ن الرفق في شيء إلاّ زانه .. ولا نُزع الرفق من شيء إلا شانه .. » .

وينهانا أن نَغْلُو في الدين والعبادة :

« فإن المُنبَتَّ لا أرضاً قطع ، ولا ظَهراً أبقى » .

ويأمرنا بالقصد والاعتدال والأناة في ترويض أنفسنا ، وفي تعبُّدنا ، وفي أمرنا كله .

يقول عليه السلام :

« القصد والتُّؤَدَة وحسن السَّمْت ، جزء من خمسة وعشرين جـزءاً من النبوة » .

وكثيراً ما يُعبِّر الرسول عن النفس تعبيراً يوحي بالحنان ويوصي بالرفق ، إذْ يقـول :

« نفسُك التي بين جَنْبَيْك » !!

أجل .. وهل هناك ما هو أقرب إليك وألصق بك مما هـو بين جنبيك ؟ وإذكان أول واجبات الصحبة أن تكون صادقاً مع صاحبك ، وناصحاً أميناً له ؛ فإن هـذا أيضاً هو أول واجباتك تجاه نفسك .

وفي هـذا يقول الرسول :

« الكَيِّس من دانَ نفسه ، وعمِل لما بعد الموت ..

والعاجز من أتْبَعَ نفسه هواها ، وتمنَّى على الله الأمانِيّ » .

فمحاسبة النفس في غير إذلال ، وتقويمها في غير قتال ــ هو أول ما تفرضه عليك حقوق صحبتها ومعايشتها ..

أما تركها في هواها ، وتركُ النصح لها . فخيانة لها ولحقوق الصحبة معها .

والموازنة بين التسامح والمؤاخذة ، وبين الرفـق والضغط ــ هي أكثر ماتستقيم به الصحبة مع أنفسنا ومع الآخرين .

ولـما كان الناس أسرع ميلاً بالطبع إلى الشدة والغلظة .. جاءت وصايا الرسول بالرفق كثيرة ومباركة ..

« إن الله رفيق يحب الرفق ، ويُعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على سواه » .

إن الرسول الكريم إذ يضع « العُنف » مقابلا « للرفق » إنما ينبهنا إلى أن أي انزلاق يبعدنا عن الرفق ، سيوقعنا من فوره في نقيضه ــ العنف ــ كما يوقِعنا في نقيض آخر له ، هو الحماقة والخُرْق ..

يقول عليه السلام في حديث آخر :

« إن الله عزّ وجلّ ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخُرق » .

ثم يدلنا على حصيلة كل من الرفق والخُرق فيقول :

« الرفق يُمن ، والخُرق شؤم » .

وإنه عليه السلام لا يجعل الرفق خُلقاً وفضيلة فحسب .. بل هو سِمَة أمته وعلامتها المميِّزة ..

يقول عليه السلام :

« إنما بُعِثتم مُبشِّرين ، ولم تُبعثوا مُعسِّرين » .

وتصف السيدة عائشة رضي الله عنها النهج الدائم للرسول ، فتقول :

« ما خُيِّر رسول الله بين أمرين إلا اختار أيسرَهُما ، ما لم يكن إثماً .. فإن كان ثَمّ إثم كان أبعد الناس منه » .

* * *

وحين تحسُن صحبة الإنسان لنفسه وتستقيم ، تحسُن وتستقيم صحبته للآخرين .

وهنا تعلمنا أحاديث الرسول إلى أن أوْلى الآخرين بحُسْن الصحبة هم الأهل والأقربون .

فالأقربون أولى بالمعروف لأن لهم حقَّيْن . لا حقاً واحداً .. حق الرَّحِم ، وحق الصحبة . والإنسان الذي لا خير فيه لأهله ، لا خير فيه لغيرهم .

ومن هنا يؤكد الإسلام على صلة الرحم .. ويستوصي بها الرسول خيراً ، ويوصي بها في حفاوة بالغة .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من سرَّه أن يبسط الله تعالى له في رزقه ، وأن يَنْسأ له في أثَره ـ أي أجله ـ ، فلْيَصِل رَحِمه » .

* * *

ومن الأهل والأقربين ، يبدأ الرسول ﷺ بحقوق الصحبة بين الزوجين فليس هناك مُعايشة أطول وألصق من معايشة الزوجين .

وأوسع مجال لتدريب النفس على فضائل الصحبة والتزاماتها ـ هو هذا المجال . فالذي يُخفِق في إضفاء المودة والاحترام على حياته الزوجية والعائلية ، يكون أكثر إخفاقاً فيما وراء ذلك .

من أجـل ذلك ، ولما للحياة الزوجية من حُرمة وجلال ـ تعطيها أحاديث الرسول وتوجيهاته الكثير الطيب من الاهتمام .

« لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجهـا » .

ويدعو الأزواج لحسن الصحبة مع الزوجات فيقول :

« استوصوا بالنساء خـيراً » .

ويقول عليـه السلام :

« لا يَفرَكْ ـ أي لا يكره ـ مؤمن مؤمنة .. إن كَرِهَ منها خُلُقاً ، رَضِيَ آخر » .

إن الرسول يضع على كاهل الرجل واجبات كثيرة ليؤدي حقوق الصحبة مع الزوجة أفضل أداء .

« أكمل المؤمنين إيماناً ، أحسنُهم خُلُقاً .. وخيارُكم خيارُكم لنسائهم » .

هكذا يعلمنا الرسول ، ويدعونا إلى التأسّي به حين يقول :

« خيركم ، خيركم لأهـله .. وأنا خيركم لأهـلي » .

* * *

وتنقلنا أحاديث الرسول إلى أوسع رحاب الصداقة والصحبة .

ولما كان الصديق والصاحب هو الوجه الآخر لنا والعنوان الدالّ علينا ؛

فإن أول ما يدعونا إليه الرسول ــ أن نحسن اختيار صحابتنا وأصدقائنا .
يقول عليه الصلاة والسلام :

« المرء على دين خليله ، فلينظر أحدكم من يُخالِل » .

ومن كتابنا « الوصايا العشر » أنقل هــذه السطور :

« إن اختيار الصديق يشكل في حياتنا أهمية بالغــة . ذلك لأن كلاً منا تفتقد حياته جوانب يتمنى إدراكها .

وكل منا يود لو استطاع أن يختار حياته .. أما وذلك غير ممكن فإننــا نلتمس العوض عنــد أصدقائنا ، فنختار منهم الذين نستطيع أن نستدرك بهم ما فات حياتنا من فرص الخير والتفوق .

ذلك أن الصديق بحياته وبفضائله يصير امتداداً لك وتتمة ..

وإن حياتك لتتأثر به، وتنعكس عليها كل مناقبه ومزاياه .

فإذا اخترته وأحسنت اختيــاره ، كنت كأنك اخترت حيــاتك من أولى لحظاتها . فمزاياه التي تنقصك ، تصبح ملكاً لك .. والفضائل التي ضاعت منك في زحام الحياة ، تعود إليك مع هذا الصديق .

والحياة السامقة التي كنت تود أن تحياها وتكونها تقترب منك إذا أخذت صديقك على غِرارها ومن طرازها ..

لا تختر الصديق لثرائه ولا لجــاهه ، فالحياة كثيراً ما تسخر من أصحاب هذا الاختيار بأن تخبىء لهم في الطريق خيبة أمل عريضة تفاجئهم بها في قهقهة وشماتة .

إنما عليك أن تختار الصديق لثراء روحه ، ووجاهة خصاله ، وأناقة نفسه ، ووثاقة خُلقه ، وتماسك بنيانه ..

لا تختره مهذاراً ثلاّباً . يُسلّيك بالتندر على الناس ، فهــذا هو الذي يهبط بحياتك إلى الحضيض .. والذي يقول اليوم « لك » ليضحكك.. سيقول

غـداً « عنك » فيبكيك !!

لا تختره حاقداً ــ شعار حياته : سحقاً للناجحين ؛ فإن العواطف مُعدِية .. وصحبتك لهذا التعس تجعلك مثله تعساً .

لا تختره من الذين يرون الحياة لهواً ولعباً .. وسيجاراً وكأساً ؛ فإن الحياة في صحبة هؤلاء تتحول إلى تفاهة ويَباب : بل اختر الصديق الذي يرى في نجاح الآخرين نجاحاً له وحُسن ثواب .

اختر دافيء اللسان ــ عفّ النفس ، ريّان الضمير .

اختر من لحياته قيمة ــ بما يبذل من جهـد .. وبما يحمل من واجب .. وبما يُمارس من دَوْر عظيم .. » اهـ .

ومن نفس الكتاب (١) ومن ذات الموضوع ننقل هذه السطور :

« من مادة لغوية واحدة ، جاءت كلمتا « صدق » و « صداقة » .. وكلمتا « صادق » و « صديق » .. والصداقة التي هي أغلى مِنَح الحيـاة ــ تمتزج امتزاجاً كاملا بالصدق الذي هو أسمى فضائل الحياة ..

لا تصدق أنك تستطيع الحياة بغير أصدقاء ، ولا تصدق اليأس حين يلقي في رُوعك أن الصداقة أسطورة .. وأن الناس ــ جميع الناس ــ ذئاب !!

وليس عليك لكي تكتشف مزايا الصداقة وحتميتها ولكي تعلم أن الأصدقاء في الدنيا كثيرون .. ليس عليك لتبلغ هذا إلا أن تبدأ أنت فتكون صديقاً طيباً .

جرد من نفسك قاضياً على نفسك وأدِنْها قبل أن تقف من الآخرين قاضياً وديّانا .. فإذا بدا لك منها قصورها وتقصيرها .. وإذا تبينت أنه ينقصك الكثير من خصال الصدق وسِماته ؛ فاعلم أنه من هنا غُمّت عليك رؤية الصداقة ورؤية الأصدقاء ، وابدأ بنفسك وكن صديقاً طيباً ..

وابدأ هذه البداية بأن تعرف : ما الصداقة ..؟ الصداقة سلوك تعبر به

(١) الوصايا العشر ، للمؤلف .

النفس عن حاجتها إلى نظـير .

والصداقة مشاركة خالصة بين اثنين أو أكثر على مستوى رفيع من النبـل والتفاهم والإيثار .

والصداقة ليست « اتفاقاً تجارياً » بين اثنين ..

بل هي « ميثاق » بين قلبين وحياتين وإنسانيَّتين رفيعتين .

فزوِّد نفسك بفضائل الصداقة ، وعَبِّئها بهـذا المدد الكبـير من الحب والخير ، ونمِّ فيها نزعة الإيثار حتى تتَّسع وتتراحَب لإيلاف الناس جميعا .

كن صديقاً لمن تعرف ولمن لا تعرف .. وأسهم في حـل مشكلات الذين يدفعهم الأمل فيك حتى لو لم تربطك بهم رابطة ذاتية ..

وتألم في نبل للأسى الإنساني حيث يكون ..!

اجعل من نفسك مرفأ تأوي إليه الزوارق التائهة التي زلزل الإعصار ثباتها . وليكن اسمك كنـداء النجدة لا يكاد يسمعه المفزَّعون حتى تسكن ضلوعهم الواجفة ، وتعود إليهم طمأنينتهم الضائعة » اهـ .

* * *

هذا إيجاز للفكرة التي ينبغي أن نكوِّنها عن الصداقة والصُّحبة .

وإن رسول الله ﷺ ليلخص لنا كل ما للصداقة من تبعات وفضائل حـين يقول في وصيته الجامعة :

« كن خيرَ ابْنَـيْ آدم » .

أي كلما كنتَ ثانيَ اثنين فكن خيرهما أو ثالثَ ثلاثة ، أو رابع أربعـة ، فكن خيرهم .

وليس المقصود بالخيرية والأفضلية هنا التعاظم والتعالي .. بل كن خيرَهم بأن تكون أكثرهم ولاءً للصحبة ، وحِفاظاً على حقوقها .

كن أكثرهم صفحاً عند الغضب •• وأكثرهم بذلاً عند الحاجة ••وأسرعهم رجوعاً بالود عند القطيعة •• وأكثرهم التماساً للعذر عند الزلّة ••

كن أصدقهم نصيحة •• وأسبقهم إلى نجـدة ••

هذا هو المعنيّ بقول الرسول :

« كُنْ خَيْرَ ابْنَيْ آدم » ••

ولكي تزدهر الصداقة وتنمو ، يُجنبها الرسول الكريم أخطار الوشاية • وإنه عليه الصلاة والسلام لَيضرب المثل ويُعطي القدوة إذ يُعلم أصحابه قائلا :

« لا تُبلّغوني عن أصحابي شيئاً . فإني أحب أن أخرج إليـكم منشرح الصدر » ••!!!

حيّاه الله من معلّم عظيم ••

إنه ينشد للناس أقصى مايستطاع من الطمأنينة والستر والسلام والعافية •

لقد نظر « عبد الله بن عمر » رضي الله عنهما ـ وهو تلميذ عظيم لرسول الله •• نظر يوماً إلى الكعبة متمثلا كل ما لها من حرمة وجلال • ثم قال :

« ما أعظمك ، وما أعظم حرمتك

وإن المؤمن لأعظم حُرمةً منك » ••

فإذا أضيف إلى حـرمة الإيمان حرمة الصداقة والصحبة ، فكم تكـون المسئولية عنهـا كبيرة وخطيرة ••؟!

* * *

والخُلطة الذاتية بين الناس ينجم عنهـا قليل أو كثيرٌ من اختلاف وجهات النظر ، ومن سوء التفاهم •

وهنا يوصي الرسول بالبلْسَم الشافي ، وهو الصفح الجميل •

إن نسيان الإساءة وطيّها تحت جناح المغفرة والصفح ـ أمـر ضروري لاستبقاء الصداقة وطيدة نقية شامخة ••

من أجل ذلك يخبرنا الرسول أن أحبَّنا إليه ، وأقربنا إلى نفسه وقلبه :

« .. أحاسِنُكم أخلاقاً ..

المُوطأون أكْنافاً ..

الذين يألَفون ، ويؤلَفون » .

بينما يخبرنا أن أكثر الناس شرّاً هم :

« .. الذين لا يُقيلون عَثْرَة

ولا يَقْبلون معذِرة

ولا يغفرون ذنباً » ..

فأن تجعل من نفسك « عدّاداً » لإحصاء زلاّت صديقك — فذلك يعني أنك لا تصلح للصداقة أبداً .

أما أن تغفر زلاّته . وتنساها ، وتساعده على نسيانها — فذلك هو الموقف الأجدر بالصديق .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« من أتاه أخوه مُتنصِّلاً — أي معتذراً — فليقبل ذلك ، مُحِقاً كان أو مُبْطِلا » ..

تأمَّلوا هذه العبارة :

« مُحِقاً كان أو مُبطلا » .

إن مجرد الاعتذار ، اعتراف بالخطأ — ومن ثَمَّ يستوي أن يكون تفسيره لخطئه مصاحباً للحقيقة أو مُجافياً لها ، ما دام يقدم اعتذاراً صادقاً عن خطئه وزَلَّته ..

* * *

ويصون الرسول الكريم الصداقة من « الأرَضة » الخبيثة التي تأكل الصداقة شيئاً فشيئاً — تلك هي النميمة .

ولقد ذهب النمَّامون بكل مقت الرسول وغضبه ...

«إن أبغضكم إليَّ، المشَّاؤون بالنميمة.. المفرقون بين الأحبَّة» ...

ويُبَوِّىء الرسول الصحبة مكانها الصحيح ويضعها في مُناخها الصحِّي والسَّوِيّ ، إذ يعلمنا أن الصحبة الخالصة هي التي تكون لقاء في الخير وعلى الخير . والتي تتخذ سياجها من قول الله سبحانه وتعالى :

« وتعاوَنوا على البرِّ والتقوى، ولا تعاوَنوا على الإثم والعدوان» .

وإن الرسول عليه الصلاة والسلام ليبشر العائشين في هـذا الطراز من الصداقة والصحبة بأعظم ثواب . فمِن السبعة الذين يُظِلُّهم الله بظله يوم القيامة :

« .. رجلان تحابّا في الله ، اجتمعا عليه ، وتفرَّقا عليه » .

والحب في الله ـ يعني صحبة بلا غرَض .. ويعني صحبة بلا شرّ .. ويعني صحبة تتعاضَد وتتكاثَف على حب الخير وفعله وإسدائه ..

ولكي تبلغ الصحبة هـذا المبلغ ، يجب أن تكون نقيَّة من الداخل . وأن تُشاد على ركيزة قوية من التناصُح والرّشد فالصديق يخون الصداقة ، ويخون صديقه إذا لم ينبهه في رفق إلى مساوئه ، وإذا لم يكن مرآة صافية يرى فيها كل هَناتِه .. وهنا يعلمنا خاتَمُ المرسلين فيقول :

« .. وإن أحدكم مرآة أخيه فإن رأى به أذىً ، فلْيُمِطْه عنه » .

* * *

ويرى الرسول للصداقة وللصُّحبة أن تتنفس دوماً هواءً نقياً .. وهواؤها النقي يتمثل أول ما يتمثل في الثقة المتبادلة .. فماذا يلتهم الثقة مثـل هواجس الظنون العمياء ...؟؟ من أجل هذا ينادينا بهذه الحكمة المتألقة :

« إياكم والظنّ ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث » .

هل الظنّ حديث ..؟

أجـل . إنه حديث النفس ، وهو كما يصفه مَن آتاه الله الحكمة وفَصل الخطاب ـ أكذب الحديث ـ .

وأكذب الحديث هذا ، يشكل خطراً ماحِقاً على الصداقة •

من أجل ذلك رأينا الرسول الأكرم يدْحَضُه ويرفضُه ، ثم هو — عليه السلام — لا يكتفي بهذا ، بل يقطع عليه سبيله وطريقه • فأنت حين تسيء الظن بصديقك تتجنّبه ، وبتجنّبك يكون سوء الظن قد حقق غرضه •

وهنا يعتبر النبي هذا التجنب هَجْراً وقطيعة ، وينهى عنهما نهياً حازماً فيقـول :

« لا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث » •

وكأنه — عليه السلام — رخّص في أيام ثلاثة لا غـير ، ليستطيع الإنسان خلالَها أن تهدأ نفسه وتسكن ثائرته ، ويتبيَّن صوابَه من خطئه ، وتعود حرارة الصحبة بعدها عامرة غامرة ••

★ ★ ★

وحتى المجاملات الرقيقة التي تُنعِش الصداقة وتُوَرِّد مُحيَّاها ، يختصُّها الرسولُ بالكثير الطيب من وصاياه ، وأحاديثه •

فتبادُل الهدايا في غير مشقّة ، يأمرنا به :

« تهادَوْا ، تحَابّوا » •

و « إياكم والتكلّف » ••

وإطراء الصداقة والتحدث بنعمة الله بها ، يدعونا إليه :

« إذا أحبَّ أحدكم أخاه ؛ فليخبره أنه يحبه » •

ولقاء صاحبك ببسمة وَدود :

« من المعروف أن تَلْقى أخاك بوجه طَلْق » •

بل لنسمع قول الرسول أيضاً :

« أحبُّهما إلى الله ، أحسنهُما بِشْراً لصاحبه » •

وحتى حين يعطَس صاحبك يأمره الرسول أن يحمد الله ، ويأمرك أن تقول

له : يرحمك الله ..

* * *

إنه تتبّع ذكي باهر لكل احتياجات الصحبة وأخلاقياتها .

وإن الرسول لحريص على أن يتحول المجتمع المسلم كله إلى أسرة واحدة . يُوَقِّر صغيرها كَبيرها . ويرحم كبيرُها صغيرها .. أسرة صَدِيقة تجري المودَّة والمحبة من كل أفرادها مَجْرَى الدم في الشرايين والأوردة والعروق .

من أجل هذا يستثمر فرصة الجمعة التي كتبها الله ضِمْن الصلوات المفروضة . فيحضّ على شهودها بكل سبيل ، راجياً أن يحقق هذا اللقاء الأسبوعي تجديد شباب الصحبة دوماً وإرْباء صفوفها .

يقول عليه السلام :

« الجمعة حق واجب على كل مسلم في جماعة ما » ..

فيجعل من حقوق الاجتماع والتجمّع هذا اللقاء الذي يتيح للإخاء فرصة دائمة تملأه رِيّاً وتنفَحُه شباباً ..

ومثل ذلك أيضاً في الحضّ وفي الثمرة ــ صلاةُ الجماعة التي كان النبي دائم الوصاة بها والتبشير بالثواب عليها .

إن المجتمع الكبير يتكون من عِدّة صداقات تقوم بين أفراده وأعضائه .

وهذه الصداقات المبثوثة في المجتمع هي الخلايا التي تُمدّه بالحياة .

فإذا كانت خلايا سليمة ، سَلِم أمره وسَلِمت عاقبته .

وإن كانت خاوية تَحطَّم الأمل في مستقبله .. وليس أدلّ على تقدير الرسول لهذه الخلايا ــ أعني هذه الصداقات المفردَة التي تقوم بين اثنين أو أكثر منهما .. ليس أدل على تقدير الرسول لها من هذا الصنيع الجليل الذي صنعه غَداةَ هجرته وأصحابه من مكة إلى المدينة ..

فعلى الرغم من أن المسلمين جميعاً ــ مُهاجريهم وأنصارهم كانت تجمعهم

أعظم أواصر الحيــاة •• وهي آصرة الإسلام والإيمان •• فإن الرسول عليــه الصلاة والسلام راح يعقد آصرة خاصة وصداقة خاصة بين كل اثنين من أصحابه الأنصار والمهاجرين •

إن هذا لَدرس" باهر وعظيم يلقيه خير المعلّمين وإمام المرسلين في قيمــة الصُّحبة وجلال الصداقة •

* * *

والصداقة والصحبة تتسمان في تعاليم الرسول وأحاديثه حتى تنتظم الخيِّرين من البشر جميعاً •• فأصدقاء الغيب ــ الذين لا نعرفهم ولم نلتق بهم ــ لهم من الود ومن الحقوق مثل ما لأصدقاء الشهادة ــ الذين نعرفهم وتقوم بيننا وبينهم صلات وعُرى ــ ••

والنهج الذي تُعبر به صحبتنا لمن لا نَعرف عن نفسها يتراوح بين التوقير والحب • أجــل •• فنحن مطالبون بتوقير من يستأهلون التوقير ممن لا تجمعنا وإياهم خُلطة دانية ، وهــذا الخلُق من صميم آداب الصحبة ؛ لأننا في حياتنا الفاضلة لا نصحب الناس إلا من خلال أنفسنا ••

وأنفسنا في صحتها الأخلاقية لا تهبُ الحب والتوقير لمن تعــرف وتألف فحسب •• إنما تَهبهُما لكل من هو أهل لهما وجدير بهما ، يقول عليه الصلاة والسلام :

« إن مِن إجلال الله تعالى ــ إكرام ذي الشَّيْبةِ المسلم ، وحاملِ القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه ، وإكرام ذي السلطان المُقسط » •

فهذه الأنماط من الناس يدعونا الرسول لصحبتها بالتوقير والاحترام حتى إذا لم تجمعنا بهم صداقة مُباشرة •• لأنهم يمثلون القِيَم الفاضلة التي تصون بهــاء الحيــاة ••

وصحبتنا لهم عن طريق توقيرهم واحترامهم تُعبر في صدق عن ولائنا للحياة • ولهذا جعل الرسول إجلالهم من إجلال الله سبحانه •

وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام :

« ليس مِنا من لم يرحم صغيرنا ويَعرف شرَف كبيرنا » .

إننا حين نتأمل هاتين الكلمتين (شَرَف كبيرنا) ندرك كم كان الرسول عظيماً وهو يُنشىء العلاقات الاجتماعية في أحسن تقويم ..

فالكبراء بسِنِّهم ، والكبراء بأخلاقهم ، والكبراء بخبراتهم ، والكبراء بتاريخهم وبعطائهم للحياة ..

كل هؤلاء لهم « شرف » يجب أن يُرْعى ويُصان .

وحين نؤدي لهم حق التوقير نكون قد صحِبناهم خير صُحْبة حتى لو لم نعرفهم ويعرفونا .

وفي هذا المعنى الجليل تحدثنا السيدة « عائشة » أن رسول الله ﷺ قال :

« أنزِلوا الناسَ مَنازِلَهم » .

إن ذلك لا يعني النزوع إلى طبقية أو امتياز .

إنما يعني الفهم السديد والولاء الرشيد لأقدار الناس الذين تتمثل فيهم ، وبالتالي في احترامهم فضائل الحياة واحترامها ..

* * *

إننا إذ نحب أهل الخير نكون قد صحبناهم حتى من غير أن يتم بيننا وبينهم لِقاء ..

وننال مَثوبَة هذه الصحبة التي لم تكلّفنا شيئاً ــ بأن نكون منهم ومعهم حتى لو لم ترتفع بنا مناقبنا إلى مستواهم ..

سئل الرسول عليه السلام يوماً : الرجلُ يحب القوم ، ولما يلحَق بهم ..

فقال عليه الصلاة والسلام :

« المرء مَعَ مَن أحبَّ » .

ويسأله أعرابي أيضاً ويدور بين الرسول وبينه هذا الحوار :

الأعرابي : يا رسول الله . متى الساعة ..؟

الرسول : وما أعْدَدتَ لها ..؟

الأعرابي : ما أعددتُ لها من كثيرِ صوم ولا صلاة ولا صدقة .. ولكن حب الله ورسوله .

هنالك يقول له الرسول :

« أنتَ معَ مَن أحْبَبْتَ » .

إن « الصحبة الروحية » من أزكى أنواع الصحبة وأبقاها وأتقاها ..

والصحبة الروحية هي تلك التي تجمع بين قلوبنا وأولئك الأفذاذ المباركين من عباد الله .. هؤلاء الذين نقرأ عنهم، أو نسمع بهم، أو نَتَنسّمُ عبيرهم في الحياة ..

انظروا ...

هذا « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه مع جلال قدْرِه وسَبْقِه يظل يسأل الوفود القادمة من اليمن عن رجل لم يعرفه قط ولم يلْقه أبداً .. لكنه سمع الرسول عليه السلام يتحدث عنه في حب وتقدير ـ ذلكم هو « أُوَيْس ابن عامر القَرَنيّ » .

لقد عاش « عمر » سنين عَدداً تحمله أشواقه إلى هذا الرجل الصالح ..

وكلما التقى بوفد من وفود اليمن سألهم عنه حتى التقى به ذات يوم فكان من أسعد أيام حياته .

قال له عمر حين لقيه : لقد أوصاني رسول الله إن لقيتُكَ أن تستغفر لي ..

فاستغفر له « أوَيْس » ودعا له ..

ثم سأله أمير المؤمنين وقد علم منه أنه يقصد الكوفة :

ـ ألا أكتب لك إلى عاملها ؟

قال أوَيس : أكون في غَبْراء الناس أحب إليّ ..!!!

* * *

إن صحبتنا الصالحين الذين لم تجمعنا بهم خلطة مباشرة تكشف عن حقيقة أنفسنا وما لها من خطوط الخير والفضيلة .

لقد قال الرسول عن الأنصار رضوان الله عنهم :

« لا يحبهم إلا مؤمن . ولا يبغضهم إلا منافق » .

فهؤلاء أبرار لم نرهم . وتفصل بيننا وبينهم قرون بعيدة . ومع هذا فحبهم وبغضهم مسبار للنفس الطيبة والنفس الخبيثة .

وهكذا كل الناس الطيبين الأبرار . نصحبهم بحبنا وتوقيرنا ومحاولة التأسي بهم ، فنكشف عن جمال معدننا وصدق فطرتنا ..

* * *

ولضعاف الناس حقهم في صحبة كريمة نبيلة ، حتى إذا لم يجمعنا بهم لقاء .

وحين علّم الله رسوله قائلا :

« فأما اليتيم فلا تَقْهَر . وأما السائل فلا تَنْهَر » .

كان الإسلام يرفع عاليـاً لواء الصحبة النبيلة والتواصي الرحيم الجليل لضعفة الناس ..

إن حُسْن الصحبة لأولئك الذين وضعتهم ظروف حياتهم في أول السلم الاجتماعي لتزن عند الله أقداراً عظيمة ..

ولنطالع معاً هـذه الواقعة :

« قدم أبو سفيان يوماً بعد إسلامه على مجلس فيه سلمان . وصهيب . وبلال وبعض أصحابهم . فقالوا حين رأوه : ما أخذت السيوف من عدو الله مأخذها ..

فقال أبو بكر رضي الله عنه : أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ..؟

وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره .

فقال الرسول له : يا أبا بكر . لعلك أغضبتهم ..؟ لئن كنت

أغضبتهم لقد أغضبتَ ربك ..
فأسرع أبو بكر إليهم معتذراً يسألهم : يا إخوتاه أأغضبتكم ..؟
قالوا : لا ... ويغفر الله لك يا أخانا .. » !!!

إنه أبو بكر الصديق بكل أدبه الجمّ العظيم وسجاياه الوادعة وشمائله الرحيمة الودودة .

مع هذا يخشى الرسول أن يكون أغضب بكلماته هذا النفر من فقراء الصحابة الأجلاء .

أي أدبٍ للصحبة في أي زمان .. في أي مكان .. يعدل أدب هذا المعلم الكريم عليه صلوات الله وسلامه وعلى آله الطاهرين وأصحابه الأكرمين ..؟!

وبعد ، فإن الصحبة في الإسلام غالية .

ولعل من أوثق ما يكشف عن قيمتها في أحاديث الرسول عليه السلام قوله :

« يقول الله تعالى : ما لِعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضتُ صَفِيّه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » ..

لقد تعودنا أن يكون العزاء لمن يفقدُ واحداً من أهله وذويه ..

أما حين يفقد صديقاً ، فإن الإسلام لا يُزجي إليه العزاء وحسب .. بل يجعل ثواب صبره على فقده الجنة ..!!

وحين نتأمل كلمة « صَفِيّه » نرى فَيْض تقدير الرسول للصداقة وللصّديق..لقد كان المسلمون جميعاً يلتمسون من رسول الله الدعاء المستجاب..
بيد أنا نجد الرسول الأكرم يقول لصاحبٍ له مسافر وهو يودعه :
« لا تَنْسَني من دعائك يا أخي » .

الحق أن هذه الكلمات من رسول الله عليه صلاة الله وسلامه لتُمثل على صدر الصّحبة أرفع وسام ...!!

* * *

الفصل الرابع

.. عن الثقافة والعلم

ما نسميه اليوم بالثقافة . كان يُسمى في الزمن الأسبق « الفقه » .. ليس ذلك الفقه بمعناه الاصطلاحي . أي العلم الذي يتحدث عن أصول العبادات والمعاملات .. بل الفقه بمعناه الموسوعي . أي البصيرة التي تكوّنها المعرفة الواسعة والتجربة الرشيدة .

وفي أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام نلتقي كثيراً بكلمتي « فقه وفقيه » تحملان هذا المعنى الذي تحمله اليوم كلمتا « ثقافة ومثقف » .

فإذا كانت الثقافة اليوم تعني ما يعكسه العلم على صاحبه من ثراء العقل والروح .. بحيث يمتلك هذا المتعلم المثقف نور الشخصية . ونفاذ النظرة .. وبحيث يُؤتى القدرة على التفاهم مع عقل الحياة وجوهر الأشياء .. وبحيث تكون له دائماً وجهة نظر نابعة من اقتناعه تجاه الحياة وقضاياها ..

وبكلمة واحدة : إذا كانت الثقافة تعني « البصيرة العارفة » التي تهدي العقل . وتقود السلوك ، وتضيء الشخصية ، فإن « الفقه » كما نراه في الكثير من أحاديث الرسول هو ذات الشيء الذي نسميه اليوم « ثقافة » .

وحسبنا الآن أن نطالع هـذا الحديث الكريم .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« رُبَّ حامل فقهٍ ، لا فِقْه له ، ورُبَّ حامل فقهٍ إلى من هو أفْقَهُ منـه » .

(رُب حامل فقهٍ لا فقه له ..) أي رُبَّ حامل علم ومختزن معرفة لا فقه

له .. يعني لا يملك ذلك الشيء الثمين الذي يعكسه العلم وتضفيه المعرفة على العقل والروح ..

(ورُبَّ حامل فقهٍ إلى من هو أفقهُ منه).. أي رُب حامل علم وموسوعة معارف .. لا يُجاوز هذه التخوم ، بينما هناك من يأخذ من علمه ويتتلمذ عليه ، ثم يتفوّق عليه بالفقه المتمثل في حسن الفهم وحسن التقدير .. وفي تألق الفكر وعبقرية الشعور ..!!

وبعبارة أخرى فإن معنى الحديث تماماً : كم من عالم غير مثقف ..

وذلك وفق المفهوم الذي أسلفناه للثقافة . لا ذلك المفهوم الرخيص الذي تلوكه الألسنة في غير تقدير للثقافة ولا توقير .

والفقه بمعنى الثقافة ، واضح في حديث الرسول الذي قدمناه ، ووُضوحه في أحاديث أخرى ــ كان الرسول يعلمنا بها أنه ليس المهم أن تكون عالماً ــ مجرد عالم ــ بل أن يجعل العلم منك إنساناً فقيهاً .. مثقفاً .. لا تختزن المعرفة فحسب .. بل تحولها إلى مُناخ عقلي وروحي تحيا فيه ويحيا معك فيه خَلْق كثيرون .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« إنما العلم بالتعلم ، وإنما الفقه بالتفقه » .

فإذا كان العلم يتطلب معاناة التحصيل ، فإن الثقافة تتطلب معاناة النظر والفحص والتأمل الوثيق والتمثّل العميق ..

« إنما الفقه بالتفقه » .

أي أن جوهر العلم في تقدير الرسول يتمثل في الفقه .. الفقه بمعناه الذي نتحدث عنه .

بيد أن العلم لا ينفصل عن الفقه ، فهو مادته التي منها يجيء الفقه ، وتتشكل البصيرة والثقافة ..

الأولوية في الذين يلونه رأساً في صفوف الصلاة لا للأكثرين ورعاً ونسكاً وعبادة .. بل للأكثرين علماً وفقهاً .

« ليلني منكم أولوا الأحلام والنهى » .

ليلني منكم ذوو العقول الراجحة المتميزة بالعلم وبالحكمة وبالمعرفة .

وإذا كان هذا هو المكان الذي يبوئه الرسول أهل العلم والنهى في الصلاة ، فهل يكون مكانهم أدنى من ذلك فيما وراءها من صفوف المجتمع ودنيا الناس ..؟!

إن أمر الرسول عليه السلام أن يليه في الصلاة العلماء والحكماء لا يعني تكريم مقامهم وإعلاء شأنهم فحسب ، بل يعني مع هذا .. وقبل هذا .. تبيان مكانهم الحق ووضعهم الصحيح في الجماعة والأمة .

فمكانهم دائماً أمام الناس ، يهدونهم للحق ، ويرتادون لهم الطريق ، ويشعون على الجموع بنور ما معهم من حكمة وعلم وتجربة ..

والرسول إذ يجعل مكانهم في الصلاة أقرب المصلين إليه وأولاهم به إنما يؤكد في نفس الوقت ما يعنيه بالعلم وبالحكمة وما يعنيه بالعلماء والحكماء .

وإنه ليزيد المعنى وضوحاً حين يقول :

« أفضل العبادة الفقه » .

وقوله :

« من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً ، سهل الله به طريقاً الى الجنة » .

فالعلم النافع المضيء الذي يهدي القلوب إلى الله ، ويهدي العقول إلى الصواب ، ويحقق للناس السلام والأمن وعافية الحياة . هو العلم . وأصحابه هم العلماء ..

من أجل هذا يجعل الرسول طلب العلم فرضاً ، فيقول عليه الصلاة والسلام :

« طلب العلم فريضة على كل مسلم » .

ويجعل المعاناة في تحصيله جهاداً ينتهي ساعة ينتهي بالاستشهاد .

يقول عليه السلام :

« من خرج في طلب العلم . فهو في سبيل الله حتى يرجع » .

ويقول أيضاً :

« من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة » .

« إذا جاء الموت طالب العلم وهو يتعلم مات وهو شهيد » .

ويخبرنا الرسول أن كل أمجاد الدنيا . كاذبة وزائلة . إلا مَجد الاستقامة والعلم . فالذين يقطعون أعمارهم وثباً وراء المال . أو الشهرة . أو الجاه . ثم لا يعمُرُ قلوبهم هدى . ولا يَعمُر عقولَهم علم — إنما هم التعساء الضائعون .

يقول عليه السلام:

« الدنيا ملعونة . ملعون ما فيها — إلا ذِكْرَ الله . وما والاه .. وعالماً . ومتعلماً » .

من أجل ذلك فإن التنافس الذكي السديد ليس هو الذي يدور حول أيٍّ من مغريات الدنيا ومُضلاتها .. بل هو ما كان موضوعه الخير والعلم .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

« لا حسد إلا في اثنتين :

* رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هَلَكَتِه في الحق .

* ورجل آتاه الله الحكمة . فهو يقضي بها ويعلمها » .

فالمال الذي ينفقه صاحبه في كل وجوه البر والعون والخير ..

والحكمة التي تهدي الناس إلى الصواب والحق ..

هذان وحدهما . هما مَهوى كل تنافس واعٍ وفاضل ورشيد ..

* * *

إن عظمة العلم ماثلة في أنه نور الحياة ونور الأحياء •

فحتى العبادة والدين ، يظل العلم نورهما ••

من أجل هذا ، يقول عليه الصلاة والسلام :

« فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » •

ذلك أن الشيطان يجد طريقه سهلا إلى كل عبادة لا يضيئها نور العلم والفقه ، بينما تفلس كل محاولاته لتسوّر عبادة ينفحها العلم ويهديها ويضيئها •

ولقد ذكر للرسول رجلان ـ عابد ، وعالم ، فقال عليه السلام :

« فضل العالم على العابد ، كفضلي على أدناكم » •

أي تكريم للعلم وللعلماء يفوق أو حتى يقارب هذا التكريم •

لقد تعلم الرسول من ربه الأعلى فضل العلم حين كان أول أمر يتلقاه من ربه :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق » •

وحين نزل عليه الوحي بقول الله سبحانه :

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » •

وحين تنزلت عليه عشرات الآيات القرآنية التي تحض على التفكير والتدبر والبحث وتعلن في جلال عظيم أن الله سبحانه :

« يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً • وما يذّكّر إلا أولوا الألباب » •

وهكذا تحدث عليه الصلاة والسلام عن العلماء فقال :

« إن العلماء ورثة الأنبياء •• » •

« إن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً ، ولكن ورّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر » •

من كان يعرف في تكريم العلم والعلماء أروع من هذا فليأتنا به ••!!

ولنقرأ هـذا أيضاً :

« إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع » ..!!

* * *

ولكن أي علـم يريده الرسول ..؟

إنه ـ أولا ـ العلم الذي يفسر للناس أمور دينهم ويدفع حياتهم في طريق الفضيلة والخير، ويوثق أسباب اتصالهم بالله، بارئهم وربهم ..

يقول عليه السلام :

« تعلموا الفرائض والقرآن ، وعلموا الناس ؛ فإني مقبوض » .

ويقول :

« نضر الله امرءاً سمع مقالتي فحفظها ووعاها ، وبلغها من لم يسمعها » .

فالعلم الذي يقدم للناس دين الله وسنة رسوله ، يأتي على رأس كل أنواع العلم وصنوفه . وذلك بما ينتظمه من تبيان لأحكام الشريعة وأسرارها . وبما ينهض به من أمر بمعروف ونهي عن منكر ..

وبعد هذا يجيء العلم بكل أشكاله ، مادام ينفع الناس وينمي عطايا الحياة..

فالعلم الذي يقود خطى الحضارة في رشد ، ويسهم في دفع التقـدم الإنساني ، في كل ضراوته وفي مجالاته التي تعود على الحياة الإنسانية بالنفـع والخير ـ علم ينال حظه الوافر من أحاديث الرسول وتعاليمه ..

يقـول عليه السلام :

« الحكمة ضالة المؤمن ، فحيث وجدها فهو أحق بهـا » .

فالحكمة حيث تكون ومن أي مصدر تجيء ضالة المؤمنين ـ عليهم أن يبحثوا عنها ويحرصوا عليها..بل هم أولى الناس بكل علم يطور مقدرة الحياة .

ويقول عليه السلام :

« إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث :
* صَدقة جـارية ..
* أو علم يُنتفع به ..
* أو ولدٍ صالح يدعو له .. » .

فقول النبي عليه السلام : [علم ينتفع به] ينتظم علوم الحياة التي تنفع الناس ، وتُيَسر لهم وعليهم وسائل العيش ، والتي تزيد ثراءهم العقلي والروحي .

لقـد وَعى الرسول قول الله سبحانه وتعالى :

« وفوقَ كل ذي عِلْمٍ عليم » .

« وما أوتيتُم من العلم إلا قليلا » .

فما هـذا العلم الذي لا مُنتهى لأبعـاده ولا حصر لعلمائه ..؟

إنه علم الدنيا والآخرة .. علم النُسُك وعلم الحياة .. علم الكون بكل ما يستطيع أن يصل إليه من كشوف وأسرار :

العلم الذي تتم به عمارة الأرض وإزهار الحياة ، أينما كان وحيثما يكون .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« اطلبوا العـلم ولو في الصين » .

فلا حدود من تُخوم الأرض ، ولا حدود من تُخوم العقيدة تردّ المسلم عن أخـذ العلم النافع والحكمة الصادقة .

فالجهل هو الخطيئة الفادحة التي يُعيذُ الرسول منهـا أمته .

وكل عِزٍّ ــ كما يقول الأحنف ــ لا يوجد بعلم فإلى ذُل مصيره ..

ولقد وَعى علماء الإسلام رُوح التوجيه النبويّ الكريم فتفوّقوا في كل صنوف العلوم وتألقوا ، وعلّموا الدنيا وصنعوا الحضارات .

* * *

والرسول إذ يأمرنا أن نطلب العلم ولو في الصين ، يبشرنا بالجزاء الأوفى

عن كل مشقة نلاقيها وكل كَبَدٍ نُعانيه في طلب العـلم .

يقول عليه الصلاة والسلام :

«من سلك طريقاً يلتمس فيها علماً سهَّل الله له به طريقاً الى الجنة» .

ولأن العلم بهذه المَثابة والمكانة ، فقد راح الرسول الكريم يُذكِّر بأخلاق العلماء وأخلاق طلاّب العلم .

وراح يهـدي إليها ويدلّ عليهـا .

يقـول عليه السلام :

« تَعلَّموا العلم ، وتَعلَّموا للعلم السكينة والوقار ، وتواضعوا لمن تتعلمون منـه » .

إيجاز يتفجَّر حكمة وهدًى .. فأنْ يتعلم الناس العلم ــ مجرد العـلم ــ لا يأتون أمراً مَذكوراً .

أما أن يتعلموا مع العلم أو قبله تلك الصفات الخُلقية العالية التي تجعـل العلم نوراً وقدوة ورحمة ، فذلك هو العلم حقـاً .

وهنا يقول الرسول مشيراً إلى بعض تلك الصفات :

« وتعلَّموا للعـلم السكينة والوقار » .

ويُجلّ الرسول العلم عن أن يتخذه أصحابه وسيلة وغرضاً للزهو الكاذب .. فالعالم الحق هو الذي يزداد تواضعاً وتفانياً كلما ازداد علماً .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« لا تَعلَّموا العلم لِتُباهوا به العلماء ، ولا لِتُماروا به السفهاء ، ولا ــ لِتَحتازوا ــ به المجالس ..

فمن فعـل ذلك .. فالنار .. النار .. » .

فالعلم كما يعلمنا الرسول عليه الصلاة والسلام أجلّ وأعلى من أن يُتَّخذ قوتاً لغرور الأنفس الصغيرة وزَهْوِها الرخيص .

إن الرسول يريد العلم خالصاً لوجه الله ، مُضَمَّخاً بفضائل النفس ، بعيداً عن مزالق الهـوى ..

يقول عليه السلام :

« من تعلّم صَرْفَ الكلام ـ أي فصيحه ـ لِيَسْبِيَ به قلوب الناس لم يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً » .

فالعلم ـ لا سيما حين يكون دعوة إلى الله ، يجب أن يَبْرَأ من رغبة النفس في الوصول به إلى أيٍّ من أغراض الدنيا الباطـلة ، ويجب أن يبرأ من خطيئة التعـالي به والرياء .

* * *

ويُجِلّ الرسول العلم عن أن يكون زُلْفى لذي سلطان ، أو أن يوضع في خدمة سلطان ظالم ، يستعين به على تبرير ظلمه ودَعْم سلطانه ..

بل حتى إذا ظن العلماء أنهم قادرون على تَحامي فتنة السلطان حين يقتربون من أصحابه ، يبادر الرسول فيَدْحَضُ هذا الوهم ويحذر من سوء العاقبة .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« إن ناساً مـن أمتي ، سيتفقّهون في الدين ، يقرأون القرآن ـ يقولون نأتي الأمراء فنصيب من دنياهم ، و ـ نحتفظ ـ بديننا .. ولا يكون ذلك .. فكما لا يُجْتَنَى من القَتاد إلاّ الشوك ، كذلك لا يُجْتَنَى من قُربهم إلاّ الخطايا » .

* * *

ويريد الرسول الكريم للعلم أن يُنشر عن سَعَة ، وألا يبخل به أهله وذووه ..

« ما من رجـل يحفظ علماً فيكتمه إلا أتى يوم القيامة مَلْجوماً بلجـام من نار » .

إن الجزاء من جنس العمل .. وكما ألجم هـذا نفسه حين بخل بالمعرفة وبالعلم على الناس ـ يُلْجَم نفس اللجام يوم يقوم الناس لرب العالمين .

والعلم ينبغي أن يكون دعوة إلى الخير وتأييداً له وتوكيداً .

أما تسخيره للشر ومشايعته الباطل فإثم يُحذر منه الرسول :

« من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور مَن تبعه ؛
لا يَنقُص ذلك من أجورهم شيئاً ..
ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه ،
لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً » .

فمسؤولية العلم والعلماء ذات خطر عظيم .. وكل علم يهتف بالخير ويَدْعم الفضيلة والسلام والحق ، ينتشر نوره وتعظم عند الله مَثوبته ..

وكل علم يُسَخّر لخدمة الباطل ، فإن عقابه يكون وبيلا .

من أجل هذا يُرسِل الرسول فينا هذا النداء الجليل :

« تَناصحوا في العلم ؛ فإن خيانة أحدكم في علمه أشدّ من خيانته في ماله ... وإن الله مُسائِلُكم » .

ويقول عليه السلام :

« لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع :

* عن عمره ، فِيمَ أفْناه ..
* وعن شبابه ، فِيمَ أبْلاه ..
* وعن ماله ، من أين اكْتَسبه ، وفيم أنفقه ..
* وعن علمه ، ماذا عمِل فيه » .

فالعلم ــ لا علم الدين وحده ، بل وعلوم الدنيا أيضاً ــ لا مكان له ، ولها . ولا مجال سوى خدمة الحق وإسداء العون للبشرية . فإذا عمل بعيداً عن هذا المجال فقد يتحول إلى لعنة على صاحبه وعلى الناس . من أجل هذا ، كان الرسول يتعوّذ كثيراً ويقول :

« اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع .. » .

* * *

ودَوْر العلم في القدوة الصالحة موضع اهتمام الرسول وحرصه .

ولكي يبلغ العلم مبلغ القدوة النافعة ، ثم لكي تكون لقدوته قوة التأثير والإقناع يجب أن يكون مُيسَّراً سمحاً ..

يقول عليه السلام :

« حدّثوا الناس بما يعرفون، أتُحبون أن يُكذَّب الله ورسوله »؟!

فغموض العلم وتعاليمه ، عملٌ غير صالح يرى فيه الرسول افْتياتاً ـ ليس على حق الناس وحدهم ـ بل وعلى حق العلم ذاته ، وحق الغايات الجليلة التي يعمل العلم في سبيلها ..

كذلك يجب أن يكون العلم في خدمة الحق والحقيقة وحدهما ..

وكل محاولة لِزَجّ العلم في متاهات الهوى والباطل والنفاق وَبالٌ على العلم وعلى الناس .

من أجل هذا يقول الرسول الكريم :

« إن أخوَف ما أخاف عليكم بعدي ، كل منافق عليم اللسان » .

فالذين يتبذّخون بالعلم ويتوسلون به لإحراز الوجاهة والجاه والنفوذ ، مُضحّين بكرامته في سبيل أطماعهم الرخيصة ونفاقهم اللاهث ـ هم خطر ماحق على الأمة التي يُعايشونها .

والعلم الصحيح يبحث عن الصواب دوماً .. ومن ثَمّ فالجدَل الذي يُمثل معارك ذكاء ، باطل ينهى عنه الرسول ويُحذر منه .

إن المناقشة التي تبحث عن الصواب ، وإن الحوار الذي يُيَمّمُ وجهه شَطْرَ الحق ـ هما اللائقان بالعلم وبالعلماء . أما الجدال لمجرد الرغبة في الغَلَبة ، والزّهْوِ بالذكاء ، فباطل وضلال . وهنا يقول الرسول عليه السلام :

« ذَروا المِراء لقلة خيره ..

ذروا المراء ، فإن المؤمن لا يُماري ..

ذروا المراء ؛ فإن المُماري قد تَمَّتْ خسارته » .

ويقول صلى الله عليه وسلم :

« ما ضَلَّ قوم بعد هُدى كانوا عليه إلاّ أوتوا الجدَل » .

فكل جَدل لا يبتغي أصحابه به رؤية الصواب والحق . ليس سوى هُراء وضــلال .

ويُقيم الرسول ميزاناً لقضايا الفكر والعــلم حين يقول :

« إنما الأمــور ثلاثة :

* أمر تبيَّن لك رُشده ، فاتَّبِــعه ..

* وأمر تبيَّن لك غَيُّه ، فاجتنِــبه ..

* وأمر اختُلِف فيه ، فَرُدَّه إلى عالم . » .

وإذْ يأمرنا الرسول أن نردَّ ما نختلف فيه إلى عالم، فإنه لا يعني أن نكون مجرد مقلدين وإمَّعات ..! إنما يعني أن نعرض عقولنا وأفكارنا على عقول الآخرين وأفكارهم الذين هم أكثر منا في موضوع الخلاف تخصُّصاً وأوسع علماً .

أما أن يتنازل الإنسان عن عقله وتفكيره . فأمر لا يعنيه الحديث ..

يقول عليه الصلاة والسلام :

« لا يكونَنَّ أحدكم إمَّعَة ، يقول إذا أحسن الناس أحْسَنْتُ.. وإذا أساءوا أسأت » ..

* * *

لقد درَّب الرسول الكريم عقــول أصحابه وعقول المسلمين على التأمل والنظــر أبلغ تدريب .

ولقد كانت حفاوته وحفاوة دِينه بالعــلم وبالعلماء تفوق كل نَظير .

وإن هذا الوصف الباهر الذي يصف العلمَ به واحد من أصحاب الرسول ، لَيدلنا على عمق الولاء الذي غرسه النبي في أفئدة أصحابه للعلم وللعلماء .

يقول صاحبُ رسول الله « معاذ بن جبل » رضي الله عنه :

« تعلّموا العلم ؛ فإن تعلّمه لله خشية .. وطلبه عبادة .. ومُذاكرته تسبيح .. والبحث عنه جهاد .. وتعليمه لمن لا يَعلمه صدقة .. وبذله لأهله قُربة .. إنه معالم الحلال والحرام .. ومَنار سُبل أهل الجنة .. وهو الأنيس في الوحشة.. والصاحب في الغُربة .. والمحدِّث في الخلوة .. والدليل على السراء والضراء ... والسلاح على الأعداء .. والزَّين عند الأخلاء .. يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة تُقتَصّ آثارهم ؛ ويُقتدى بفعالهم ، ويُنتهى إلى رأيهم .

ترغب الملائكة في خلّتهم ، وبأجنحتها تمسهم ، ويستغفر لهم كل رَطب ويابس .

وإن العلم حياة القلوب من الجهل .. ومصابيح الأبصار من الظُّلَم .. يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العُلى في الدنيا والآخرة .

والتفكّر في العلم يَعدِل الصيام.. ومُدارسَته تعدِل القيام.. به توصَل الأرحام .. ويُعرف الحلال من الحرام ..

وهو إمام العمل ، والعمل تابعه ..

يُلهَمُه السعداء .. ويُحرَمه الأشقياء .. » .

* * *

هكذا بلغ العلم أرفع المنازل في أفئدة أصحاب الرسول بوحي كلماته وسلوكه ووصاياه ..

وهكذا بقي العلم في كل عصور التاريخ الإسلامي يقود خُطى الموكب العظيم الذي ظلّ يحمل راية التوحيد والإيمان والفضيلة والخير قروناً تلوَ قرون.

وما نحسب العلم بلغ الغاية في رُشده وهَدْيه ونفعه للناس وإحيائه للروح وللعقل وللضمير ــ مثل ما بلغ من ذلك كله في ظل الأمّة المسلمة .. خيرِ أمّةٍ أخرِجَت للناس ..!!

* * *

عشرة أيام في حياة الرسول ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

ثلاثة وستون عاماً ٠ عاشها صاحبها العظيم في جلال يبهر الألباب ٠

ومن يوم مولده ، إلى يوم مماته ٠ وحياته الطاهرة تتشكل في احسن تقويم ، وتتألق بخصال فطرها على الكمال خلاقها الأعلى ؛ لتكون للاحياء قدوة ، وللحياة نوراً ٠٠

وهو مذ اهلّ على الحياة فوق هذه الارض ، وكل قوى الحياة ومظاهرها في خضمّ التغيير ٠٠ فلم يكن ـ عليه صلاة الله وسلامه ـ مجرد إنسان يجيء إلى الدنيا في زحام الوافدين عليها كل صباح ومساء ٠٠ بل كان « قوة طبيعية » جاءت تسيطر على الزمان والمكان ، وتعيد تشكيل الناس وتشكيل الحياة !!

بل كان اكبر من ذلك ٠٠ كان « قوة إلهية » جاءت لترد الروح الإنساني إلى مداره الأول حول الله الحق الذي خلق السماوات والارض ، وجعل الظلمات والنور ٠

ولأن الله اصطفاه لنفسه ولرسالته ؛ فلا عجب إذن ان جاءت حياته ، وان كانت ايامه مثالا بالغ الكمال في التقى ، والطهر ، والجلال !!

* ولقد كانت هذه الحياة ولا تزال ، كتابا مفتوحاً ومقروءاً ٠

وفي تاريخ البشرية كلها ، بكافة روادها وصفوتها وقادتها ، لا نكاد نعرف حياة نقلت إلينا انباؤها ، وحفظت لنا وقائعها في وضوح كامل ، وتفصيل عميم شامل : كما حفظت وكما نقلت حياة (محمد بن عبد الله) رسول الله رب العالمين ٠ ورحمته المهداة إلى البشر اجمعين ٠٠!!!

فكل كلمة قالها ٠٠ وكل خطوة مشاها ٠٠ كل بسمة تالقت على محياه٠٠ كل دمعة تحدرت من مآقيه ٠٠ كل نفس تردد فيه بحمد الله وتكبيره ٠٠ كل مسعى ساره مع مقاديره ٠٠ كل مشاهد حياته ، حتى ما كان منها من خاصة امره وأسرار بيته واهله ٠٠ كل ذلك نقل إلينا بحروف كبار ، موثقا باصدق واعرق ما عرف التاريخ الإنساني من وسائل وبينات ٠٠!

* ولقد رحل عن دنيانا إلى الرفيق الأعلى ، من قرابة الف واربعمائة عام ٠ ومع هذا فنحن إذ نقرا سيرته وتاريخه اليوم ، لا نحسّ اننا نقرا عنه ٠٠

بل لكأننا نسمعه ونراه ونعيش بأنفس مبهورة ، نفس المشاهد التي نطالعها مكتوبة ومسطورة ••!

ولا عجب في هـذا أيضاً •• فما دام الله قـد اختاره ليختم بـه النبوة والأنبيـاء ، فإن من الطبيعي ـ وحيـاته ستكون نهجـاً ودليلا لأجيـال لا منتهى لأعـدادها ـ أن تكون هـذه الحياة بكل تفاصيلها أشد وضوحاً وألقـاً مـن فلـق الصبح وروائعـة النهـار • لا بالنسبة لعصره فحسب ، بل وبالنسبة لكل العصور وكل الأجيال التي ستجد في تلك الحيـاة المباركة نورها وهداها ••!!

* ومن هـذه الحياة الطاهرة ، الناضرة ، الممتلئة ، تحاول صفحات هـذا الكتاب أن تجتزيء بضعة أيام تقف عنـدها وتتلبث معهـا ، وتحيا في دائرة ضوئها وقتاً مباركاً تفيء علينا فيه من أسرارها وعطـاياها •

أجل •• من بين أيام حيـاته العظيمة البارة التي كانت جميعها سواء في العنـاء والجهـد •• وفي السمو والمجـد •• نختار هذه الأيام العشرة • لنرى خـلال مشاهدها المفعمة بالتركيز بعض خصائص ذلك التفوق المقتدر الـذي حبا الله به شخصية رسوله ، عليـه وعلى آله وصحبه أفضل الصلاة وأزكى السلام •

* ونحن إذ نخصها بالاختيار : لا يعني ذلك أننـا نضـع حيـاة الرسول موضع المفاضلة والانتقـاء •• فحياته كلهـا بكل أيامها ولحظاتها سـواء فيما أعطت من جهـد ، وسـواء فيما أدركت من سمو ، وسواء فيما غمرها الله به من نعمـة وفضل وكمال •• إنما يعني اختيارنا هـذه الأيـام أننا وجـدنا فيها مدخـلا رحباً لتلك الحيـاة الشاهقة العميقة العظيمة •• مدخلا يفضي بنا الى الكثير من أسـرارها المضيئة ، ويجمعنا على الكثير من خصائصها المتفوقـة ، وشمائلها المتألقة ، وعطـائها الذي لا يتقاصر أبداً ولا يغيض !!!

* وطبيعي أننـا لا نعني باليوم هنـا ، الوحـدة الزمنيـة المتمثلة في أربـع وعشرين ساعة ، وإن طـابق ذلك أكثر الأيام التي اخترناها •• إنمـا نعني باليوم ـ الظرف التاريخي للمناسبة أو الواقعة التي تشدّ انتباهنا وإصغاءنا • سـواء تمثل هـذا الظـرف في يوم واحـد ، أو تمثل في بضعة أيـام • فالوعاء الزمني للموقف المختار ، هـو اليوم الـذي تتابع أحـداثه الجليلة مطالعين من خلالها وخـلاله أروع ما عرف البشر من جـلال النسك ، وعظمـة القصـد ، واستقامـة السبيل •

* والآن ، نستطيع أن نقترب في خشـوع وغبطـة ••

خشوع من يدركون جـلال المناسبة وما يبتعثه لقـاؤها من تهيب وحياء ••

وغبطـة مـن يتوقعون المغـانم الجـزيلة ، التي ستظفر بهـا الروح في هـذا اللقـاء ••!!

خـالد محمد خـالد

يوم التحكيم

(وما كانَ اللهُ ليُعذِّبهُم وأنتَ فيهِمْ)

كان هــذا اليوم قبل الرسالة بخمسة أعوام ..

وعلى الرغم من أننا آثرنا أن تكون الأيام التي أخذناها لموضوع هــذا الكتاب ، من الفترة التالية لبدء الوحي والواقعة في سنوات النبوة والرسالة .. فإنه لم يكن ثمّة بُدّ من مجاوزة القاعدة التي وضعناها ، تجــاه هذا اليوم الفــريد ! !

إنه اليوم الوحيد بين الأيام العشرة . نختاره من سنوات ما قبل الوحي . سنوات التهيؤ والإعــداد .

وما كان لموضوع كهذا الذي نحن بسبيله أن يبلغ تمامه دون أن تُمثّل فيه فترة التهيؤ والإعداد ببضعة أيام . وما أكثر الأيام الماجدة العظيمة التي تزخر بهــا حياة الرسول قبل أن يناديه الوحي ، ويشرق عليه يوم الاصطفاء .

بيْدَ أنّ المجال القريب لبحثنا هذا لم يُتح لنا أن نستطرد مــع روائع تلكم الأيام . فاخترنا ذلك اليوم الذي يمثل أصدق تمثيل فترة ما قبــل الوحي بكل خصائصها ، ومزاياها ، وإرهاصاتها .!

إنه يوم قوي النبْض ، باهر السَّمت ، بالغ الدلالة ..!!

وإنه لينهض شامخاً لألاءً فوق قمة فترةٍ من الحياة ماضية . وفترة أخرى آتية .. فيعلمنا بصوت مسموع تفسير الآية الكريمة القائلة :

(اللهُ أعلَمُ حيث يجعل رسالتَه) ..!!

أجَل .. سيكشف لنا هــذا اليوم ، بل ستكشف لنا ساعة واحــدة من

ساعات ذلك اليوم كل ما زخرت به الأربعون عاماً التي سبقت بدء الوحي والرسالة من أمانة وطهر واستقامة وعظمة .. كما ستصدح دقاتها بأعظم إرهاصات المصير الإنساني ، متمثلاً هذا الإرهاص في الإيماءة الصادقة إلى الرجل الذي سيحمل تبعات الغد تجاه الناس أجمعين والذي سيحمل كلمة الله للعالم في نبوة راشدة ، وحنيفيّة سَمحة واعدة والذي سيكون رحمة مُهداة وحُجّة قائمة ..!!

* * *

ولنبدأ حديثنا عن يوم التحكيم هذا ، بعرض صورته التاريخية : فقبل بزوغ الإسلام بسنوات خمس ، والرسول ﷺ في الخامسة والثلاثين من عمره المبارك، لم يأته الوحي بعد ، وروحه تغذّ السير في بحثها عن الحق وعن الحقيقة — أجمعت قريش أمرها لبناء الكعبة أقدس ما ورثوا وما عرفوا .. كانت الكعبة يومذاك رضَماً من الحجارة المرصوصة بغير مِلاط يمسكها ويزينها ، بل وبغير سقف مرفوع .

والآن وقريش تريد أن ترتفع ببنائها وتُضفي عليها من العمارة ما يليق بولائهم لها ، فقد تواصَوْا على أن يخصوها بأطيب ما يكسبون . لقد وقف فيهم أبو وهب بن عمرو بن عائذ بن مخزوم ، وهو خال والد الرسول ، وقف يقول لهم :

« يا معشر قريش .. لا تُدخلوا في بنائها من كَسْبكم إلا طيباً.. لا تُدخلوا فيها مهر بغِيّ ، ولا بيع رِبا ، ولا مظلمة أحد من الناس ... » .

ونهضت قريش بالعمل ، جامعة له ما يحتاج من حجارة ، وملاط ، وأخشاب، ولكي يكون شرف القُربى وثوابها من نصيب القبائل جميعاً قسموا أركانها على القبائل ، حيث تشترك في كل جانب منها أكثر من قبيلة .

ونهضوا يبنون ، حتى أفضى البناء الى موضع الركن ، حيث يقوم « الحجر الأسود » رامزاً في جلال مَهيب لِكَدْح « إبراهيم وإسماعيل » في سبيل

الله والدين .

فَمَنْ ، من الناس أو من القبائل سيذهب بشرف رفع الحجر ووضعه في مُتكئه ومكانه ..؟؟

ذاك شرف ، ليس في وُسْع قبيلة ما ، أن تدَعَه يفلت منها إلى قبيلةأخرى سواها ، ولو اقتضى الأمر انتضاء السيوف وملاقاة الحتوف .

ولقد طال بينهم اللجاج والخلاف ، ثم احتدم الخصام وتسعَّرت المغايظ . وغشَّاهم نذير حرب أهليـة طاحنة ، حين جاء بنو عبد الدار بجَفْنة مملوءة دماً ، ثم ألقوا ، هم وبنو عَدي أيديهم في تلك الجفنة ، متعاهدين معاً على الموت في سبيل ألاَّ يفوتهم ذلك الشرف العظيم والقرْبى الجليلة .

بقيت قريش في ذلك التوتر المنـذر بالسوء خمسة أيـام .. وفي اليوم السادس . وقد غصَّ المسجد الحرام بجموعهم المتربصة والمتحفِّزة ، أشار عليهم واحد من شيوخهم أن يحكِّموا بينهم فيما هم فيه مختلفون أوَّل داخل عليهم . وتواثقوا جميعاً على قبول هـذه المشورة .

وجلسوا جماعات وحِلَقاً يغشاهم قَلق .. وعيونهم شاخصة نحو الباب ترقَّب ..!!

ترى مَن هـذا الذي ستختاره الأقدار ليجمع الشمل ويَرْأبَ الصَّدع . ويهـدي لِلَّتي هي أقـوم ..؟؟

ها هو ذا يبزغ فجـأة ، في لحظـة من أكثر لحظات الحياة امتلاءً بالتهلل والبشرى . ولا يكاد القـوم يبصرونه حتى ترتفـع أصواتهم بكلمات ، كأنهم وإيَّاها على موعـد .

هـذا الأمينُ ، رَضِينا ..
هـذا ، محمـد ..!!!

ويتقدم « محمد » عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .. يتقدم ليعـرف : ما الخبر ؟ حتى إذا تبيَّنه ، حنَى رأسه في خشوع شاكراً لربه اصطفاءَه إياه لهذه

المهمة الجليلة ... ولم يبحث عن الحل ، فقد كان إلهامه وكانت بديهته مُهيَّأيْن دائماً للعمل القويم الناجز حينَ تَعمْى السُّبُل على الآخرين .

وبسط نحـوهم يديه قائلاً :

« هَلُمّ إليّ ثوباً » ...

وأسرعوا إليـه بثوب بسطه الرسول ، ثم وضع الحجر في وسطه ونادى الجموع المتحفِّزة آمراً إياها أن تأخذ كلّ قبيله بطرف من الثوب حتى إذا فعلوا ، طلب إليهم أن يرفعوه جميعاً إلى أعلى ، وحين بلغوا مكانه المرموق أخذ الرسول الحجر بكلتا يديه وثبّته في مقامه . وواصلت قريش عملية البناء ..!!!

* * *

كان هذا اليوم ، يومَ الإرهاص العظيم .. واليوم الذي بدأت السماء فيه ــ وربما لأول مرة ــ تضع مُصطفاها ومختارها داخل دائرة الضوء الواسعة الرحيبة ، وتقـدمه داخل دوره المنتظر بأسلوب رامز ، ريثما تقدمه في الغد القريب جهـاراً علَنـاً ..

صحيح أن حياته السالفة كانت ممتلئة بالإيماءات المسفرة لدوره المرتقب .

ومنذ وُلد ــ عليه الصلاة والسلام ــ والإرهاصات بشأنه وبدَوْره تتوالى في مشاهد تبهر الألباب .. عندما كان في ديار بني سعد مع مرضعته « حليمة » .. وعندما كان طفلاً ينأى عن اللهو مع أترابه ولِداتـه ، ويقـول :

« أنا لم أُخْلَق لهـذا » ...!!

ثم حـين صار شاباً ، تُجمع قريش على نعته بالأمين . وتُضفي عليـه من احترامها وإجلالها إجماعاً لم يظفر بمثله سواه .. وحين بَهَر « بحيرا الراهب » الذي وقف أمام مخايل النبوة المستكنّة في أعماقه جذلان مبهوراً ، يهز أبا طالب بكلتا يديه ويصيح به :

« ارجع بابن أخيك هذا إلى بلده ، واحذر عليه من يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منـه ما عرفتُ لَيَبْغُنّه شراً .. وإنه لكائن

لابن أخيك هـذا شأن عظيم » .

ثم حين اهتدى بفطرته النقية وبصيرته الذكية إلى ما في وثنيات قومـه من ضلال فعزف عنها ورفضها . ولم يَحْنِ جبهته العالية لصنم ولا وَثَن ، وراح يبحث عن دين إبراهيم ، ملتمساً العون والهدى من رب العالمين .

نقـول : صحيح أن حياته كلها قبل النبوة وقبل يوم التحكيم هذا ، كانت موكباً من الإرهاصات الصادقة المبينة .. بيد أن ليوم التحكيم مزيةً ينفرد بهـا عن بقيـة الأيام. فالإرهاص فيه متكامل ومباشر بدور المنقذ ، ودور الرسول.. المنقذ الذي سيكون على يديه خلاص العالم من ظلماته الماحقة ، والرسول الذي لن يجيء به إلى منصة القيادة اختيار الناس ، بل اصطفاء السماء ..

فأما عن « المنقذ » ، فها هو ذا يحسم ببصيرته المضاءة بنور الله نزاعاً محتدماً كان على وَشْك أن يتحول إلى حرب أهليـة تحمـل كل ضراوة الجاهلية ، وبأس القَبَلية ..

وأما عن « الرسول » فها هو ذا في يوم التحكيم لا يجيء به الناس . بـل يجيء به القـدَر العظيم .

ألم تتفق قبائل قريش على تحكيم أول قادم .. فمن الذي اختار هـذا القـادم .. ؟

أهي قريش .. كلا ولا أحـد من الناس .. إنما اختارته المقادير !! وكان « محمد الأمين » هـو الرجل المختار .. وهذا الذي حدث يوم التحكيم مثّل إرهاصاً وثيقاً بالمستقبل القريب لهـذا الرجل .. إن قوة أعلى من قـوة البشر ستصطفيه وتختاره لمهام أجلّ وأعظم ، مثلما اختارته اليوم لمهمة التحكيم .

هذا هو الرمز الحيّ والذكيّ ليوم التحكيم . وهذه قيمته الثمينة كيـوم خـالد في حيـاة الرسول .

ولا تقف دلالة الرمز ، وجـلال القيمة عند هذا المعنى الذي ذكرناه ، بل

تستند إلى الأسلوب الذي عالج به الرسول الموقف حيث يشكل هو الآخر إرهاصاً مُبيناً بالمنهج الذي سيمارس به النبي دوره غداً على مسرح الحياة .

إن الرجل الذي أخرج قريشاً من حيرتها يوم التحكيم ، سيقدَّر له في غد أن يخرج العالم كله من حيرته وضلاله ، مُرسَلاً إليه من رب العالمين .

والطريقة التي بدّد بها حيرة قريش اليوم وعالج بها محنتها : ترهص في وضوح بالمنهج الذي سيتوصل به غداً لتبديد حيرة العالم وظلماته فماذا كان جوهر تلك الطريقة ، لنرى من خلالها جوهر هذا المنهج ..؟ إنه « التوفيق » ..

أجل .. لقد كان أسلوب الرسول يوم التحكيم أسلوباً « توفيقياً » وفّق به في براعة فائقة بين الاتجاهات المتنابذة ، وأحلَّ به مكان النفرة والتمزّق وحدة متعاضدة حققت لنفسها الخير من أقرب طريق .

وهكذا سيكون لُباب منهجه عندما يُوحى إليه ، ويحمل رسالة الله إلى الناس .

سيكون أبرز خصائص هذا النهج أنه « توفيقي » يمثل الأمر الوسَط ويتوخى الاعتدال والقَصْد .. والناس الذين يتفرقون شيَعاً بحجة التشيّع للحق ، سيكشف هو لهم التخوم المشتركة بينهم جميعاً ليجتمعوا فوقها ويبلغوا منها وبها مطالع الحق .

وكأنما القرآن الكريم يعبر عن هذا المنهج « التوفيقي » حين يقول :

(وكذلك جعلناكم أمَّةً وسَطاً) .

وهو منهج يتّسق مع طبيعة الرسول وفطرته ، فلقد كان القصد لا العُنف ، سبيله دائماً إلى استجلاء الحق وإقراره .

تقول زوجه « عائشة رضي الله » عنها :

« ما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين ، إلا اختار أيْسَرَهما . ما لم يكن إثماً » .

ولسوف نرى العمل التوفيقي للرسول يبرز في وضوح وقوة خلال مساعيه لإذابة الجليد بين أصحاب الديانات السماوية ، حتى يلتقوا جميعاً حول الحق .

وإن القرآن الكريم ليزكّي هذا المنهج التوفيقي ، كما يبين في نفس الوقت مفهومه الصحيح فيقول منادياً الرسول عليه السلام :

(قل يا أهلَ الكتاب تعالَوْا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألاَّ نعبد إلاَّ الله ، ولا نُشْرِكَ به شيئاً ، ولا يتَّخذَ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله) .

فدعوة أهـل الكتاب إلى « كلمة سواء » محاولة عظمى للتوفيق بين الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيَعاً ..

وربْطُ « الكلمة السَّواء » بجوهر الحقيقة الدينية، وهو عبادة الله وحده ، ونَبْذُ كل مظاهر الإشراك به .. ربْطُها بهـذا الجوهر يكشف صفة هـذا المنهج التوفيقي .

إنه ليس منهجاً « تَبريرياً » ولا منهجاً « تَمْعِيّاً » بل هو منهج يعمل في خدمة الحق وحده ، ومن أجل سيادة الحق وحده .

إنه تجميع حـول الحق ، لا ضِدَّ الحق . وحين تتناوله يد أستاذ في فن التجميع والمؤاخاة ، مثلما كان رسول الله ، فإن آثاره العظيمة تجاوز آنئذ كل تصورات الفوز وأحـلام النجاح .

ولقد كان « ابن عبد الله » عليه صلاة الله وسلامه أستاذ هـذا الفن العظيم . ذلك أنه كان تعبيراً عن طبيعته الطيبة وتكوينه الوَدود .

لقد وصفه الذين عاصروه وصَحبوه فقالوا :

...أجـود الناس كفاً ، وأشجعهم قلبـاً ، وأصدقهم لهجـة ، وألْيَنُهم عَريكة ، وأكرمهم عِشرة .

من رآه بديهة هابَه ، ومن خالطه معرفة أحبَّه ، يقول ناعِتُه :

لم أرَ قبله مثله ، ولا بعدَه ....!!

فهذا الذي هو ، ألْيَن الناس عريكة ، وأكرمهم عشرة ..

هـذا الذي تبعث بداهته الهيْبَة ، وتتفجّر مخالطته المحبّة ..

هـذا الذي لم ينتقم لنفسه من شيء ولا من أحد أبداً ..

هل يستطيع أن يكون إلا داعية وفاق وإخاء ومحبّة ..؟!

* * *

ترى ماذا كانت ردود الفعل لدى قبائل قريش يوم التحكيم عندما رأت المقادير تضع أمامها وفوقها جميعاً هـذا الأمين « محمداً » ليكون بطل الموقف.. يحسم النزاع المستعر في لحظة ، وبأسلوب تناهى يُسْراً ، وحكمة ، وذكاء ..؟!

إنه نجاح يشد زناد الحسد في النفوس المتطلعة .. وما أكثر هذه النفوس يومئذ . وما أسرع استجابتها للحسد الضاري في عالم القبائل القائم على التفاخر والزهو والاستعلاء .

ومع هـذا ـ وتلك عجيبة أخرى من عجائب يوم التحكيم ـ لم يَنِدّ عن تلك الأنفس بَصيص حَسَد .. لقد رأوا جميعاً في النجاح الذي أحرزه « الأمين محمد » نجاحاً لهم ومَجْداً لهم وفخاراً .. وخلال السنوات الخمس التي تلَتْ يوم التحكيم إلى أن بدأ الوحي ، واختير الأمين للرسالة ، ومكانةُ « الأمين » في قومه تزداد سنىً ورفعة ، ونفوذاً ..

فما سِرّ هذه الظاهرة التي تبدو وكأنها ضد طبائع الأشياء ..؟!

كيف ظلّ أربعين عاماً بين قوم تتلمظ فيهم مَشافِر الحسد والتنافس دوماً ، دون أن تبدو بادرة حسد ضد ما تتمتع به شخصيته الجليلة من نباهة الذكْر وجلال القدْر . ؟

كيف حدث هـذا مع رؤية قريش له ، وهو يعزف عن أصنامها فلا يشارك قط في عبادتها ، بل ولا في احترامها .؟!

لكأنَّ الله سبحانه قد وضع قريشاً أمام هـذه الحقيقة ، لتكون أبلغ حجّة عليها حين تناوىء رسوله يوم يدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار ، ونبذ ما هم فيه غارقون من وثنية وجاهلية وضلال ..!!

ولقد واجهت قريش المأزق الوبيل واصطلت بناره فعلاً ، حين وقفت ضد الرسول والرسالة .. سُقط في أيديهم ، ولَعْثَم الخبال أحلامهم ..!!

ولقد وجدوا أنفسهم عاجزين عن أن يتنكروا للأربعين عاماً التي عاشـها « محمد » ، بينهم ، تبهرهم منه كـل يوم عظمـة فضائله وتكامل شمائله .. وعاجزين عن تناسي الحب والاحترام اللذين أضْفَوْهما عليه طوال الأعـوام الأربعين .. وتلَفّتوا صَوْب ذلك اليوم القريب ـ يوم التحكيم ـ إذ قبائل قريش في المسجد الحرام تلعق الدم من الجِفان تحفزاً للقتال ، فجأة يَهِلّ عليهم « الأمين محمد » فيصيحون كالغرقى أدركتهم زوارق النجاة :

هـذا الأمين ، رَضِينا ..!!!

تلَفّتوا صَوْب ذلك اليوم ، فتغَشّتهم الحيرة والتساؤل .

أما الراشدون منهم ، فأدركوا أن ذلـك اليوم كان إرهاصاً ليوم الوحي العظيم ، ومن ثَمَّ سارَعوا إلى النبي مُصدّقين ومؤمنين .

وأما الغاوُون ، فلا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، ويؤودهم الانتقاص من حيـاة تتحدّى كل مغمز ، فلا تسعفهم قرائحهم العاجزة إلا بذلك الأفَن المضحك إذ قالوا : لقد أصابه من الجن مَسّ .!!!

لكن شَباةَ الحـق تجيد توجيه الوخْز الموجع إليهم ، رادّةً كيـدهم إلى نحـورهم ..

ويتقـدم الوحي لكشف زيفهم ومَحْق باطلهم ، فلا يتكلمون ببادئة ولا عائدة إلا ابتدرهم من الوحي حجّة وسلطان .!!

فلنُوَلِّ وجوهنا ـ الآن ـ شَطر ذلك اليوم الأول من أيـام الوحي ، فإنه يوم باهر ومثير ..!!!

يوم الوحي

(اقْرَأْ ورَبُّكَ الأكْرَم)

هذه مكة تموج بالمسرّات والمباهج .. وأهلها ، أولئك العرب الذين جعلتهم الصحراء والتقاليد جبابرة وأقيالاً فارهين ، منطلقون وراء أمجادهم يغنّون ويمرحون .. لا قيود تمسكهم ، ولاسدود تذودهم .. الحياة كلها مهرجان عريض دائم ، وهم فيه أبطال حلبته المبرّزون ..!!

قوافل تجارتهم لا تكفّ عن السّرى والمسير .. وأسواقهم المفعمة بمباريات الشعر ومبارزات الرياضة ، لا تنفضّ في مكان إلا لترفع أعلامها في مكان سواه ..

وشوارع مكة تعجّ بشبابها المعطّر النشوان الذي لا تخبو قط أشواقه إلى الشهوة واللذاذات ..!!

ودار الندوة مثل خلايا النحل ، تموج بزعماء العشائر والقبائل ، شيباً وشباباً .

ومَجائم الأصنام حول الكعبة ، وفي أفناء مكة وخارجها ، زاخرة بالوافدين يهتفون لـ « اللاتِ ، والعزّى ، وهُبَل » .

وأفراد قلائل ، بل لنقلْ : نادرون ، يعبرون ذات الشوارع ويرتقون ذُرَى الجبال صامّين آذانهم عن لَغو قريش ، باحثين عن الحقيقة مستشرفين رؤاها من بعيد .. وبَعيد ..!! أولئك هم « الحنفاء » يؤمنون أن وراء آلهة قريش وأوثانها حقيقة هي الحق المبين .. وإله واحد أحد ، هو رب العالمين .. ولكن كيف السبيل إلى معرفته ومعرفة ما يتقربون به إليه من طاعة ونُسُك ..؟

ويرحلون عن الدنيا ، واحداً إثر واحد ، دون أن يصلوا أو يخبروا الناس عن الحق الذي قضوا أعمارهم عنه باحثين !!

* * *

وتعلو أصوات الزحام .. زحام الحياة بكل ترفها واستهتارها ، وأيضاً بكل جدّها ونشاطها .. وتمضي الأيام في مكة هادرة صاخبة ، مثقلة بفجورها وتقواها .. وما أندر تقواها ..!!

وبعيداً عن ذلك الزحام ، كانت روح تقيّة ، نقيّة ، ورعة متسامية ، تستشرف الحق وتكدح في سبيله . روح إنسان فطره الله على كل ما هو فاضل وكامل وعظيم .

في أناة ، كان يتأمّل .. وفي فطنة ، كان يتفحّص .. وفي طهر ، كان يحيا .. وفي تقوى ، كان يتعبّد .

ولكن ، إلى مَن يتجه بعبادته وتقواه ..؟!

إلى الله ، لا ريب ..

وأنّى له معرفة الله في بلد لا مكان فيه لغير تلكم الآلهة المبثوثة هنا وهناك . ولا صدى في ضمائر أهلها إلا لما لهذه الأوثان من قداسة وأنباء ..؟؟

ألا إن رؤية الحقيقة من خلال ذلك الضباب الكثيف المتراكم لأمر يسير على مَن وطّن نفسه ونذر حياته لاستجلائها .

فإذا كانت مكة يومئذ بلاد الأوثان ، فقد كانت قبلئذ وطن الحنيفية السمحة التي هتف بها إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

وليس عسيراً على من يعطي أصنامها ظهره ، أن يطالع ولو بعد حين رؤى الحق تتداعى عنها مشارف تاريخ بعيد ومجيد ..

وهذا ما صنعه الأمين « محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم » .

إنه يدرك عن طريق فكره صلة النسب التي تربطه بخليل الله إبراهيم .. هذه الصلة التي سيعبر عنها فيما بعد أصدق تعبير فيقول :

« إن الله اصطفى من ولــد إبراهيم إسماعيل واصطفى من ولد إسماعيل كنانة واصطفى من بني كنــانة ، قريشاً واصطفى من قريش ، بني هاشم واصطفاني من بني هاشم فأنا خيــار : من خيار ، من خيار » .

كذلك يدرك عن طريق روحه حاجته ، وحاجة قومه ، بل وحــاجة البشرية كلها إلى دعوة إبراهيم من جــديد .. تلك الدعوة التي ترتفع بالناس إلى أعلى مستويات الوجود حين تجمعهم حول الله ربهم وخالقهم ، وحين تقف بهم بين يديه وحــده . لا يرجون ولا يخافون سواه ..

وهكذا أعطى ظهره لأصنام قومه ، واستدبر كل ما تموج به مكة من صخب ولهو وفتون ، وراح فوق رمالها اللاهبة وصحرائها الصارمة ، وجبالها المتحدية يتتبع في مثابرة ودأب وهيام أقــدام أبيه « إبراهيم » ويتنسم عبــير روحه ، ويضرع إلى الله في إخبات وتبتل أن يهديه إلى تراث ذلك الأب الجليل والرسول الخليل ، وأن يهيئه لحمل رايته وشعلته ..!!

* * *

كانت النبوءات برسول يخرج في هذه الأمة ، تملأ الزمان والمكان . ولعله حــين كان يستعيد ذكريات طفولته وشبابه ، يغمره الحنين إلى أن يكون هــو مَجْلى تلك النبوءات :

● ألم يكن هــو « الرضيع » الذي أعرض عنه النسوة السّعديات اللائي جئن « مكة » يلتمسن الرّضعاء ، فصرفهن عنه يُتْمُه ... حتى إذا لم تجــد « حليمة السعدية » سواه حملته مستعينة بالله ، ولا تكاد تبدأ رحــلة عودتها إلى ديارها حتى تنطلق أتانها العرجاء كأنهــا الريح .. وحتى تدر شارفها العجفاء فيحلبون منها غَبوقاً وصَبوحاً ، وما كانت من قبل تدر قطرة لبن واحــدة .. ثم لا تكاد تبلغ ديار قومهــا ويثوي الرضيع اليتيم بينهم حتى تتوالى بركاته وآيــاته ..؟؟

● ألم يكن هو « الطفل » الذي حملته « حليمة » مرضعته إلى عرّاف من هذيل تعوّد الناس أن يذهبوا إليه بأطفالهم ليتنبأ لهم . فلم يكد يراه ويتفرس ملامح وجهه المضيء حتى صاح : يا معشر هُذَيْل .. يا معشر العرب .. اقتلوا هذا الصبي . فوحقّ الآلهة . ليهدمَنَّ دينكم ، وليحطمن أصنامكم ، وليظهرن أمره عليكم .. واختطفته حَليمة من بين يديه وفرّت به مذعورة مبهورة .

● وأليس هو الذي افتقدته « حليمة » يوماً في ظهيرة حرّها شديد وبعد طول بحث وسَعْي ألفته نائماً في صحراء تذيب شمسها الحديد ثم إذا هو داخل دائرة من الظل تسامت جسمه وتغطيه دون أن تزيد . وترفع حليمة رأسها إلى السماء فلا ترى مُزعة سحاب ، وتتحسس الأرض في ذهول . لعلّ هناك شيئاً ما يلقي على الطفل ظلاله ــ لكنها لا تجد شيئاً ، فتنتشي لهذا المشهد المبارك ، وتُقبل على طفلها تشمّه وتضمّه وتقبّله ، ثم تحمله في حنان راجعة به إلى أهلها ودارها ..؟؟!!

* * *

● ألم يكن هو « الشاب » الذي لم يكد « بحيرا الراهب » يبصره في رحلة الشام حتى مـلأ الجوّ تسبيحاً لله وتمجيداً ، وحتى أقبل عليه يتنسّم عبيره ، ويستهدي مقاديره ، وحتى أقبل على عمه « أبي طالب » يوصيه به ويُحذّره عليه من يهود ...؟؟

● أليس هو الذي قضى شبابه وحياته طهراً ، وصدقاً ، وأمانة ، واستقامة وتنسّكاً ، حتى لقد كانت قريش بأسرها تعامله في شبابه الباكر ، وكأنه سيدها وأميرها .

* * *

ثم هذه النبوءات القديمة . والتي تتحرك الآن فجأة وبقوة ، يلخصها جميعاً ويصدح بها آخر الحُنفاء « زيد بن عمرو بن نُفَيْل » .

« شامَمْتُ اليهودية والنصرانية فكرهتهما فكنت بالشام وما

والاه . فأتيت راهباً في صومعة . فذكرت له كراهيتي لعبادة الأوثان وارتيابي في اليهودية والنصرانية فقال لي : يا أخا العرب ، إنك تطلب ديناً ما أنت بواجدٍ مَن يحملك اليوم عليه .. ولكن قد أظلَّ زمان نبي يخرج من بلادك التي جئت منها . يبعث بدين إبراهيم حنيفاً مسلماً فارجع إلى بلدك . فإنه على وَشْك أن يبعث .. هذا زمانه ... هذا زمانه ... » .

* * *

قلنا : إنه كان يحدوه الحنين لأن يكون الموعود بفضل الله ونعمته .

ومَن ذا الذي لا يشرئب لشرف اصطفاء الله واجتبائه ..؟

على أن كل النبوءات المشيرة إليه . والدالة عليه لم تكن ـ كما يبدو من سيرته ـ أكثر من حافز له على المزيد من الإخلاص في تطلعه إلى الحق . وفي تحنثه وتضرعه وتعبده لله الذي يهديه إليه قلبه . وإن لم يهده إليه بعد ، نبأ يقين .. أو وحي مبين .

كانت روحه تهفو إلى معرفة الله . ومعرفة النهج الذي يريد الله من عباده أن يعبدوه به .. وحسبه ذلك لإرواء ظمئه وإشباع تطلعه .. أن يُريَه الله مناسكه . وأن يتقبله واحداً من عباده المتقين المحسنين .. أما إذا كان سبحانه يدخر له نعمة أسبغ . وفضلاً أوفى . فيصطفيه رسولاً له يبلغ كلماته . ويهدي إليه عباده . فالله أعلم حيث يجعل رسالته . وذلك فضله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم .

وهكذا راح يعكف بكل شوقه وعزمه على مناجاة ربه . والتأمل في ملكوته . نافضاً وراء ظهره كل ما تزخر به مكة من صخب وزحام .

وحُبِّبت إليه الخلوة ، فكان يكثر منها ويستزيد ، ولم تسع خلوات داره لآفاق روحه ، فكان يشد رحاله إلى غار حراء يقضي فيه كل عام شهراً .

يتحنث فيه ويتعبد ، حيث لا نبأة تسمع هناك ولا همسة .. بل هدوء مفرط يكاد يسمعك نبض الدم في العروق ..!!

ومع كل يوم كانت روحه تضيف إلى رصيدها من الصفاء والألق جديداً .

وأخذت سمات النبوة تلقي عليه مخايلها .. فها هو ذا يمتلك نعمة « الرؤيا الصادقة » فلم يعد يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح !!..

وها هو ذا لا يجد غناء كافياً في الشهر الذي يقضي فيه خلوته بغار حراء .. فيقسم أيامه بين داره في مكة ، ومتنسكه في الغار ..!!

وذات نهار من شهر رمضان سنة تسع وستمائة للميلاد ، وهو هناك . جاء اليوم الموعود .. يوم الوحي والاصطفاء .

وجاءه الملك ..

أي عالم باهر مليء بالجلال والهدى والخير ، فتحت أبوابه الدنيا هاتان الكلمتان : « جاءه الملك » ؟؟!!.

ألا ، وقبل أن تحملنا النشوة إلى بعيد ، علينا أن نحتفظ بثقلنا حيث نحن من الحديث لنتابع موضوعنا في أنبائه الفذة ودلالاته العظمى ..

ولنصغ في خشوع إلى الأمين « محمد » الذي صار في هذه اللحظة « رسول رب العالمين » .

لنصغ إلى الرسول الأمين في هذا الجزء من الحديث الذي وصف به مشهد الغار ويوم الوحي :

« ... فقال : اقرأ .. قلت : ما أنا بقارىء .. فأخذني ، فغطني ــ ضمه بقوة واعتصار ــ حتى بلغ مني الجهد .. ثم أرسلني ــ تركني ــ فقال : اقرأ .. قلت : ما أنا بقارىء .. فأخذني ، فغطني الثالثة ، حتى بلغ مني الجهد .. ثم أرسلني ، فقال :

(اقرأ باسم ربّك الذي خلَق ..
خــلَق الإنسان من علَق ..
اقرأ ، وربُّكَ الأكــرم ..
الــذي علّم بالقلــم ..
عــلّم الإنسانَ ما لم يعـلَم) » ..

أهلاً إذن يوم الاصطفاء ، ودقّت ساعاته الماجــدة ..

أعلنت السماء إذن مُختارَها ومُصطفاها الذي طال ترقّبه ، وانتظاره ..

صدقت إذن كلمات الكتب ، ونُبوءات الحنفاء والقدّيسين ..

وها هو ذا ، في مكان منعزل عن صخب الحياة ، في أعمق غور لأعلى جبل ، حيث أوى إلى هناك ناسكاً طَهوراً يضرع إلى ربه كي يدلّه عليه ، يهبط عليــه سفير السماء في جلاله ، حاملاً نور الله إلى المتبتّل الأوّاب ، وحاملاً إلى البشرية وثيقة رُشْد جديد سيكون إمامها فيه وأستاذها ومعلمها هذا الإنسان الودود ، حفيد إبراهيم ، ودعوته وبُشراه ..!!

* * *

تُرى لو لم يكــن يوم الوحي هذا ، بين أيام الدنيا ، فأي مصــير كانت البشرية ستلاقيه ..؟؟

إن الكلمة التي استهلّ بها الوحي نجواه مع رسول الله لتقــدم لنا أروع وأجمع ... وأوجز وأنجز جواب ..

فإذا كان العلم ، جوهَر كل حضارة أقامها الإنسان على ظهر أرضه ، وكوكبه..

وإذا كان الإسلام ــ فيما بعــد ــ قد قدّم للدنيا حضارة متكاملة تدين لها كل الحضارات التي جاءت بعده ، حتى تلك التي استهدفته بشنآنها وعدوانها .

إذا كان ذلك كذلك فإننا نستطيع أن ندرك في يُسر لون المصير الذي كانت البشرية ستلقاه وتتردّى فيه لو لم يكن يوم الوحي .. يوم « اقرأ باسم ربك » : يوم « القرآن » و « محمد » و « الإسلام » بين أيامها ، بل على رأس أيامها .

كذلك نستطيع أن ندرك في يسر ، لماذا كانت أُولى كلمات الله إلى رسوله « اقــرأ » ..

لم تكن « صَلِّ » ولا « صُمْ » ، ولا « تعبَّد » بل كانت : اقرأ ..

هذه « الكلمة » التي لخصت جوهر الإسلام ومستقبله ..

فهو لن يكــون دين تكريس ديني فحسب . بل ولا دين سلوك فحسب ، إنما هو قبل ذلك وفوق ذلك « دين حضارة » .. جاء ينشيء عالماً جـديداً بكل ما تحمل كلمتا « عالم » و « جديد » من معنى ودلالة .

ولكي يستيقن الناس عَبْرَ الزمان كله أن هذه الحضارة المقبلة هي عطـاء السماء ، فقد اختير استاذها وبانيها ذلك الذي لاعهد له من قبل بقلم ولا بكتاب.. ذلك أنه لن يكون مخترعاً لهذا الدين ولحضارته .. إنما هو مُبَلِّغ عن الله .. ناقل عطاياه من السماء إلى الأرض .. ومن ثمَّ سيكون معه من المقدرة ما يغير به كيمياء الزمن ، وكيمياء البشر وكيمياء الحياة ..!!

ومن يدري .. فلعل الضمّات الثلاث الشديدة التي ضمّه الملك بها حتى كادت أضلاعه تنسحق تحت ضغطها ، والذي وصفها الرسول في حديث آخـر قائلا : « فغطّني حتى ظننت أنه الموت » .

أقول : لعلّها كانت إجراء مقصوداً لتغيير كيمياء جسده هــو ــ وتغيير كيمياء روحه هــو ــ عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ــ حتى يتسع جسده وروحه للقوة الجديدة التي أفرِغت فيهما ليحتملا عبء الرسالة وأهوال النضال.

ولعلّ انقطاع الوحي عنه بعد هــذا اللقاء الأول لفترة بلغت سنوات ثلاثاً ، كان إجراء ضرورياً ، حتى يتمكن الجسد والروح معاً من استيعاب القوة الإلهية الجديدة التي أفرغها الوحي فيهما ، وحتى تتكيف كيمياء طبيعته البشرية بذلك المدَد العُلوي الذي نقلته إليه الضمّات الثلاث الضاغطة التي احتواه بها ملَك الله جبريل ..

* * *

والآن ، لنمض مع « يوم الوحي » في بقيته المجيدة .

إن الرسول يغادر الغار مُسرعاً تغذّ الرهبة خُطاه . يسائل نفسه ما هـذا الذي حدث فجأة وعلى غير انتظار ..؟ ويتلفت وراءه . وأمامه ، وعن يمينه وعن شماله ، فيطمئن إلى أنه وحـده ، وليس ثمت من يتبعه .. بيد أن الأفق يلتمع فجأة بضياء عجيب ، فيرفع الرسول رأسه ليرى .. فإذا هو هناك يملأ الأفـق في جلال مَهيب .. نفس الملك الذي كان من لحظات يمـلأ عليه غـار حراء ، وتمخر الرعدة العَذْبة جسده من جديد ، ولا يدري أيان يسير ، فتتشبث قدماه بالأرض ، وتستقبل أذناه هـذا النـداء :

« يا محمد ! أنت رسول الله ، وأنا جبريل » .

فيغشاه من وقع المشهد ما يغشاه ، وتزداد قدماه التصاقاً بسوطئهما كأنهمـا من الأرض بعض غِراسها ..!!

ويغيب الضوء ، ويغيب معه مشهد الملَك ، ويستأنف الرسول سيره مقتلعاً من الرمـال خُطـاه ..

ولا يكاد يبلغ داره ، ويلقى زوجه « خديجة » حتى يلقي نفسه في حِجرها وبين يديها ، وكل جسده يرتجف كالزلزال .

وتهتف « خديجة » وقد التمع وجهها الجليل تحت ضوء الأمـل واليقين :

« أبْشر يا ابن عَمّ ، واثبُتْ !!

فوالذي نفس خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة .»

ويقول لها الرسول ، وقد أخذ الرَّوْع يُزايله ، والسَّكينة تقترب منه :

« لقد خشيتُ على نفسي » .

وتجيبه خديجة :

« كلا .. وأبْشِر .. فوالله لا يُخزيك الله أبداً . إنك لتَصِل الرَّحِم وتَصدقُ الحديث وتحمل الكَلَّ وتكسب المعدوم وتَقْري الضيف وتُعين على نوائب الحـق » .

لم تعِش « خديجة » التجربة التي عاشها الرسول في الغار .. كانت بعيدة عن هذا الذي حدث فجأة ، وانتهى فجأة .. في لحظات ، كأنها قرن من الزمان..!!

من أجل هذا ، كانت فرصتها مُهيأة لكي تقول كلماتها هذه في هــدوء ..

وجزاها الله خيراً . فقد كان موقفها ذاك جديراً بمن اختارها القدر على عِلْم لتكون قرينة هــذا الرسول ..!!

★ ★ ★

ترى لو أن « محمداً » كان يطمح إلى مجد النبوة ، ويعمل لبلوغ هــذا المجد بوسائل مصنوعة ومُتكلّفة ــ أكانت حالُه عند مجيء الوحي إليه ستأخذ هــذا الطابع الذي رأينا ..؟

كلا .. بل ولا كانت الأقدار ستختاره لهــذا العطاء .

لكن « محمداً » كان يرجو الله ربّه .. كان يريد الله ربّه .

لم تكن فيه ذرّة طموح لمجد ديني . أعني لمجد يكتسبه باســم الدين .. بل كان كله طموحاً لتكريس ديني .. كان كلــه شغفاً وهُياماً بعبودية خالصة يطرحها في تواضع وبكاء بين يدي ربه العلي الكبير .. وكان كله شغفاً وهُياماً بأن يعرف الحق ، ثم يهديه إلى البشرية الحائرة ويهديهــا إليه . ثم كانت مزاياه التي فطره الله عليها تؤهله لكل ذلك .. فكان فضل الله عليه عظيماً .

★ ★ ★

لم يكن من طبائع الأشياء أن تنجو « خديجة » من ذهول المفاجأة رغــم الكلمات الحانية التي ألهمتها حكمتها إياها ، لتُسَرّيَ بهــا عن الرسول رهبة المشهد ، وتخفف من وقعه وهيمنته .

لم يكن من طبائع الأشياء ، ولا من طبائع البشر ألاّ ينتقل إليها من الرهبة نصيب ، مهما حاولت بهدوئها المتبدّي أن تكتم الرّهبة وتخفيها .

صحيح أن رهبتها لم تكن شيئاً مذكوراً بالنسبة لرهبة الرسول الذي عاش

التجربة وعاناها •• بيد أنها رهبة تثير من الحيرة •• وحيرة تثير من الرهبة ما يدخل الذكاء الإنساني مهما تكن مقدرته في أزمة تساؤل وقلق •

ولقد استطاعت « خديجة » العظيمة حقاً أن تلقى وجه المفاجأة بثبات كان نابعاً من شخصيتها الفريدة •• أما بقية المفاجأة . فقد كانت بحاجة إلى نجدة أخرى تعطي لما حدث تفسيراً . وتضفي على الروع الذي لا يزال مأخوذاً ، المزيد من السكينة واليقين •• وتمثلت لها هذه النجدة في ابن عمها « ورقة بن نوفل » واحد من الذين استهجنوا عبادة الأوثان والأصنام ••وأضنى نفسه في البحث عن الدين الحق •• وحين أدركه الإعياء ألقى رحاله على مرفأ من مرافيء النصرانية متمثلاً في ذلك المذهب الذي كان يرى في المسيح بشراً . لا إلها ••

وهكذا اقترحت « خديجة » على « الرسول » : أن يذهبا إلى « ورقة » علّهما يجدان عنده رأياً وتفسيراً ••

كان « ورقة بن نوفل » على علم واسع بالتوراة والإنجيل •• وقد قضى شطر عمره في البحث عن دين حق يعبد الله به • وخلال رحلاته وأسفاره التقى بكثير من الأحبار والرهبان والناسكين . ولطالما سمع نبوءة تتردد بأن رسولاً يبعث إلى الحياة دين إبراهيم على وشك أن يُبلّ ويظهر • وذهبت بعض النبوءات إلى أبعد من هذا . فحددت مكان ظهوره ـ مكة وما حولها •

وعاش « ورقة » بقية عمره ينتظر على شوق يوم الظهور . ويمني نفسه بصحبة الرسول الذي أجمعت نبوءات العارفين على قرب مجيئه . لذلك وطّن نفسه على الاستقرار بمكة في انتظار الرسول •

وهكذا لم تكد « خديجة » تقدّم نبأ زوجها عليه السلام . قالت له :

يا ابن عم ! اسمع من ابن أخيك . حتى جاءته أشواقه العميقة . وأقبل على الرسول تصغي إليه في انبهار عظيم •

ولا يكاد الرسول ينهي حديثه حتى يتهلل « ورقة » وينيض بشرا ويعانق الرسول ويقول له :

« هذا هو الناموس الذي أنزل على موسى ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومـك » .

ويسأله الرسول : « أو مُخرِجِيَّ هم » ..؟

ويجيبه ورقة : « نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً » .

بهـذه الحفاوة ، وبهذا اليقين تلقّى « ورقة » النبأ الحـق الذي كان من قبل نبوءة طال تطلعه إليهـا .

وانه ليتمنى أن يدركه يوم البعث ليكون أول المؤمنين وأقوى النُّصراء .

لكنه سيموت وشيكاً . قبل أن يجيء يوم البعث العظيم .

وهكذا لم يُقدّر له رغم فرحه الغامر أن يؤمن بالرسول وبالدين الجديد .

ذلك أن الدين الجديد لم يكن قد أعلن ميثاقه بعد .. والرسول لم يؤمر أن يبشر بشيء ، أو أن يتلقى بيعـة .

إنه الآن يعيش في يوم الوحي .. يوم « اقرأ باسم ربك الذي خـلق » .

وبعد حين يجيء يوم البعث .. يوم « يا أيها المدثر : قم فأنذر » .

وبين اليومين زمن ليس بالقصير ، سينقطع فيـه الوحي لحكمة يعلمهـا الحكيم العليـم .

وخلال هـذه الفترة ، ستكون روح الرسول قد أشربَت النور الجديد وتهيأت لاستقبال موكبه العظيم .

وخلالها أيضاً ستكون أشواقه الحسية والعظيمة إلى الوحي قد قهرت كل مخاوفه وتهيبه ، وأعطت روحه مَناعة هائلة ضد أي توجّس أو تساؤل .

أجَل : لقد ترَكَ لأشواقه المحتدمة والعارمة تشكل مُناخ علاقته بالوحي حين يعاوده ويجيئه ، وتُنضج استعداده الأخير لصحبته ..

وهكذا ، رأيناه عليه السلام ، ينطلق أمام ضغط أشواقه إلى الجبل . مقلّباً

وجهه في السماء ، معتصراً مآقيه بدموع الحب والرجاء ، هاتفاً ضارعاً من أعماق صمته المدوّي ، علّ روح القدس يَمُنّ عليه بعَوْدٍ قريب .

لكن روح القدس لا يملك من أمره شيئاً .. وفيما بعد سيخبر الرسول بهذه الحقيقة قائلاً له :

(وما نَتَنَزَّلُ إلا بأمر رَبك له ما بين أيدينا وما خلْفنا وما بين ذلك وما كان ربُّكَ نَسِيّاً) .

وظلّ يعاود قنن الجبال راجياً أن يراه .

وعلى الرغم من احتدام أشواقه ، وتوقد لهفته ، وتوجُّسه الرهيب ، من أن يكون الله قد أهمل أمره وقَلاه .. على الرغم من ذلك كله ، فإن ذلك كله لم يذهب به إلى حد الرغبة في تحرير نفسه من هذا القلق بالتخلص من الحياة — كما تزعُم بعض الأقاويل .

إن كل عناصر الموقف ترفض وتدحَض هذه المقولَة .

فليس محمد بشخصيته الراسخة وشمائله الشامخة ، من يصنع ذلك أو يفكر فيه .

ثم ان الأشواق حين تتفجَّر على النحو الذي عاناه الرسول ، يكون من شأنها أن تمنح الأمل والرجاء ، لا القنوط واليأس .

أما اختياره المرتفعات ليناجي فوقها نفسه ، ويتحسس أملَه ، فلأنها دائماً أصلح مواطن التأمل ، والتماس السكينة ، وتوقُّع الإلهام .

* * *

ألا ما أجلّها من حكمة — تلك التي أرادت أن يَفْتُر الوحي عنه إلى حين ..

فإلى جانب كونها فرصة تستوعب فيها الروح شحنة النور التي تلقتها في أول لقاء مع جبريل .

وإلى جانب كونها مجالاً لتجميع كل قوى الشخصية وحشد طاقاتها لتقوى على الصحبة الطويلة للوحي .. تلك التي ستدوم ثلاثة وعشرين عاماً كاملة .

وإلى جانب كونها تمكيناً لعلاقته المقبلة مع الوحي عن طريق تحريك أعماقه بالشوق الوثيق والحميم .

وإلى جانب ما قد تومىء إليه من منحه حق الاختيار ، إن شاء أن يتقدم حاملاً من أعباء الرسالة ما يطاق وما لا يطاق . وإن شاء فليتأخر ، قبل أن يرتبط مع الوحي بعهد وميثاق ..

نقول : إلى جانب هذا الذي يمكن أن نلتمس فيه بعض الحكمة في انقطاع الوحي عن الرسول إلى حين .. فقد كان في وسعه خلال تلك الفترة أيضاً . أن يعيش في نور الآيات الخمس التي لقنه الوحي إياها في الغار .

هذه الآيات التي تطل كلماتها المعدودة على موكب زاخر من المعاني والدلالات .

هذه الآيات التي لم تستهل حديثها معه عن القرشي ، ولا عن العربي .. بل عن الإنسان :

« علَّم الإنسان ما لم يعلم » .

وكأنها تشير إلى التخوم البعيدة والفسيحة لرسالته .. فهو ــ عليه الصلاة والسلام ــ لن يكون لقريش وحدها ، ولا للعرب وحدهم ، بل للناس كافة وللبشر أجمعين .

كذلك سيكون في وسعه أن يروض نفسه على الكثير من الصبر والاحتمال وتجريد يقينه من كل علاقات الحياة والناس .. هذه الأمور الكبرى التي سيذكره القرآن بها كثيراً فيما بعد قائلاً له :

(فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم) .

(واصبر لحكم ربك ، ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً) .

(ولولا أن ثبتناك ، لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا) .

* * *

أجَل .. إن مع الرسول الآن ، وخلال فترة انقطاع الوحي عنه أعظم فرص امتلاك الصبر والاحتمال والتجريد .

وكأنما أرادِ الوحي بانقطاعه عنه أن يُتيح له هذه الفرصة في ذروة تعبيراتها ومسلكها .

فالذين هامت قلوبهم بحب الله ونَذْرِ حياتهم له سبحانه : قد يطيقون الصبر معه ، أي مع ما يتوسلون به لمرضاته من عبادات بالليل والنهار .

وقد يطيقون الصبر في سبيله ،بما يحتملون من أذىً واضطهاد .

لكن الأمر الذي يجاوز طاقتهم حقاً : هو الصبر عنه ...!!

ومن ثم لا نجد نبياً ولا ولياً ولا قديساً يزلزله في أهوال الحياة كلها شيء إلا أن يُسلب نعمة حب الله له ، وحبه لله .

فالصبر عن الله أمر فوق طاقة كل قديس بل وكل نبي .. فكيف إذا عانى هذا الموقف الرهيب رجل جمعه مع الله وحي سَبَّبه وأحسَّه . ورآه ..؟ كيف إذا عاناه رجل أرسل الله إليه وحياً وسفيراً يباركه باسمه ويبلغه تحيته ورضوانه ثم إذا هو فجأة ينقطع عنه دون أن يعطى وعداً بلقاء ...؟؟

هنا الفرصة التي لا تتكرر ؛ لكي تحلّ في روح الرسول وشخصيته أقصى ما عرف البشر وما لم يعرفوا من قوى الصبر والاحتمال والتجريد .

فأما الصبر والاحتمال ، فها هو ذا يرى في لحظة من الزمان ـــ الشمس ملء يمينه .و القمر ملء يساره .. ثم فجأة لا يراهما .. ولا يرى إلا فراغا وحيرة .. وليس أمامه سوى الصبر حتى تعود الفرصة اليتيمة . إذا كان مقدَّراً لها أن تعود . ولكي يصبر على مثل هذه التجربة ويحتملها . فإن عليه أن يُمارس نوعاً من الصبر لم تعرفه الدنيا من قبل ..!!

وأما التجريد .. تجريد يقينه بربه من كل العلاقات . حتى تلك التي تكون مثوبة لليقين وانعكاساً له .. فها هو ذا يظفر بما لا يخطر على قلب بشر من

الناسكين والعابدين ــ وحي من الله يزوره ويُقرئه آيــاته ، ويقول له : أنت رسول الله . وأنا جبريل ... ثم يمضي كأنه لم يجيء ، وكأن لم يكن . بل وينقطع وقتاً طويلاً دون بادرة عَودة ....

أهناك فرصة أجود من هذه وأبلغ ليجرّد الرسول يقينه من كل علاقــة ويحرره بصورة مطلقة لرب العالمين ، ولذات اليقين ..؟؟

أجل ، إن انقطاع الوحي يعني هذا ...ولكأنه يقول للرسول : ليأت الوحي، أو لا يأتي ..

ليذهب عنك إلى حين ... أو فليذهب عنك إلى الأبد ... ذاك أمــر ، لله مَردّه ومَرجِعه .. أما أنت فلتَبق مكانك من العبادة والنّسك ... ولْيبقَ يقينك في دائرة تبتّله وتجرّده ... ولْتبق روحُك حيث هي سابحة في فَلَك العبودية الخالصة ..

وبكلمة واحدة ... ابق مكانك ، ولا تُرد من الله سوى الله ..!!

* * *

ولقداجتاز الرسول التجربة بنجاح عظيم ، باذلاً أقصى ما يملك البشر من طاقة ــ مُعانياً من مقاومة القلق . ومن دعــم قُوى الاحتمال والصبر في نفسه ما لا يقدر عليه سوى أولي العزم من المرسلين ..

وبعد حين سيجيئه الوحي في صلْصَلة فرحٍ عظيم ، مستأنفاً معه الرحــلة المباركة ، تالياً عليه قول ربه العلي الكبــير :

(بسم الله الرحمن الرحيم .

ن ــ والقلَم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربّك بمجنون . وإنّ لك لأجراً غــير ممنون . وإنك لعلى خُلُق عظيم ...) .

لقد نجح « محمد » وفاز فوزاً عظيماً .

نجح رسول الله ، وجاء الوحي يتوّجه بأكرم وأشرف وأطهر تاج ...

(وإن لك لأجراً غير ممنون وإنك لعلى خُلُق عظيم) .

هل نستطيع أن نتصور بهجة العيد وجلال العيد الذي أقامته السماء لصفيِّها ورسولها . حيث يتلقى فيه بعد طول قلق وتساؤل واصطبار نداء الله العظيم أن : ها أنذا معك من جديد ومعك دائماً ، يا صاحب الخُلق العظيم...؟؟!!

* * *

هنيئاً لك ، أبا القاسم ، ما أُعْطيت وأوليت ... وهنيئاً لأمتك بك .

والآن ، فمع وحي الله وسفيره .. لن تُقلِّب وجهك بعد اليوم باحثاً عنه... فهو معك بإذن ربه ، يتنزّل على قلبك بالنور والفرقان . فغداً يتلو عليك :

(يا أيها المزَّمِّل .. قم الليل إلا قليلاً . نِصْفَه ، أو انْقُصْ منه قليلاً ، أو زِدْ عليه ، ورتّل القرآن ترتيلاً) .

وبعد غد ، يأتيك بإعلان البعثة والرسالة والتكليف :

(يا أيها المدَّثِّر ، قُم ، فأنْذِر ...) .

ثم تتوالى روحاته وغدواته ، بين السماء والأرض .. بين الله ورسوله .

لسوف يصحبك ثلاثاً وعشرين سنة .

وسوف لا تفتقد أبداً مدَد ربِّك ، ولا صُحْبة خليلك .. وستَتِمّ النعمة لك .. وعليك يا أبا القاسم ...

ولسوف يعطيك ربك فترضى ...

* * *

يَوْمُ الطائف

(واصْبِرْ ، حتَّى يَحْكُمَ اللهُ)

...لم يَدعْه الوحي يلتقط أنفاسه حين عـاد إلى داره يرتجف على إثْر لقاء من تلك اللقاءات التي تجددت بعد فترة الانقطاع ، فلحق به سريعاً ، يدعوه أن ينهض من تحت غطـائه :

(يا أيها المُدَّثّر ، قُمْ ، فأنْذِر) .

ونهض من فوره .. فما عاد هناك تساؤل حول المهمة العظمى التي اختير لها ، والتي من أجلها جاءه الوحي أول أمس ، وأمس ، واليوم ..

(قُمْ فأنذر ، وربَّكَ فكَبِّر) .

هو إذن رسول الله وخاتم النبيين ..

هو الرسول الذي تنبأ به الأنبياء ، وتحدثت عنه الكتب ، وانتظره الزمان .

فلينهض إذن على بركـة ربـه مبشراً ونذيراً . وداعيـاً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منـيراً .

ولقد نهض قائماً .. ووجَّه لله وجهه وقلبه حنيفاً مُسْلماً ..

وراح يدعو لله على بصيرة ، ومعه ذلك الرصيد الباهر والنادر من الخُلق والفضيلة وعظمة الشخصية واستقامتها .

« يا معشر قريش .

أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريـد أن تُغير عليكم ، أكنتم مُصَدِّقيَّ ..؟؟

صاحوا جميعاً بكلمات واحدة :

نعم فما جربنا عليك كذباً قط .

إذن ، فأنا رسول الله إليـكم » .

وحدث وُجوم وهجوم ..

أما الوجوم فقد احتوى الأكثرية في تيهه . وأما الهجوم فقد تولى كِبْرَه أبو لهب في صلف وجهـالة ..!!

ومن تلك اللحظة المجيدة بدأت قافلة الإسلام سيرها . تنمو أعداد رجالها وجنودها في أناة وبطء . ولكن في أصالة ورسوخ .

ويأخـذ مكان الصدارة فيهـا « خديجة » و « علي » و « أبو بكـر » و « زيد بن حارثة » .

ثم يسارع إليها « عثمان بن عفّان » و « سعد بن أبي وقاص » و « الزبير ابن العوّام » و « طلحـة بن عبيد الله » و « عبد الرحمن بن عوف » و « بلال » و « خبّاب » و « ابن مسعود » و « عمار » و « ياسر » و « سمية » و « سعيد بن زيد » و « فاطمة بنت الخطاب » و « مصعب بن عمير » .

ويُنادي الهُدى رُوّاده ، فيسارعون إليـه مُعانقين مصايرهم الشهيدة والمجيدة تحت راية الله . وبين يدي رسوله .

وينفتح باب دار الأرقم ليستقبل هذه الثلة المباركة المستخفية من كيـد الضـلال .

وتلمح قريش بذكائها ما سيكون لهذه الدار المتواضعة المستخفية من خطر عليهم وعلى ما يعبدون .

وتتفيّح كبرياؤها ، فتلهث وراء النور تتحداه في سُعار وشراسة .

ويصمد المؤمنون على قلتهم . فيغطي صمودهم وثباتُهم قريشاً بهـوانٍ ما عرفت مثله هـواناً .

ويصيبها الخبال ، فتذهب إلى « أبي طالب » تعرض عليه أن يُقايضها على ابن أخيه بأي فتى يختاره من فتيان قريش البُسْل المغاوير ، ويدرك «أبو طالب»

ما أصابهم من جنون ، فيجيبهم في سخرية منهم ورثاء لهم :

« أتعطوني ولدكم أربيه وأغذوه وأسلمكم ولدي، لتقتلوه »..؟!

ويقف العمّ ، والزوجة .. أبو طالب ، وخديجة إلى جانب الرسول بكل ما لهما من جاه واقتدار .

وتفقد الوثنية صوابها ، فتتنادى إلى حلف وبيل تقاطع به بني هاشم جميعاً ، وتعزلهم عن الحياة والجماعة في وحشية مبهظة .

وتوغل في صبّ العذاب على المؤمنين لاتفرّق بين الوجهاء منهم والفقراء ، وإن كان للفقراء من ذلك النصيب الأوفى .

ولكن هنالك .. في وجه العاصفة وأمام زئيرها الرهيب كان يقف « رسول الله » باسماً ، مطمئناً .. ينفض بطمأنينته وتهلّله عن كاهله وعن كواهل أهله وأصحابه كل ما تقذف به قريش من أذى وضر وعذاب .

كانت بسمته الواثقة المستبشرة تملأ أفئدة الحافّين حوله سلاماً وغبطة وأمناً ..

وكانت إشارة عذبة ترسلها سبّابته إلى الأمام ، كافية لأن تملأ قلوب أصحابه بجسارة ترفعهم فوق مستوى كل ما عرفت الدنيا من هول وخطر .

ذلك أنهم كانوا يعرفون ما تقوله هذه الإشارة ، ويؤمنون به أرشد إيمان ــ لقد كانت تقول لهم :

ــ لا بأس .. واصبروا .. فغداً النصر .. وبعد غد ، الجنة . ويصبر المؤمنون . ويصابرون ..

ولكن العزيز عليه عنتهم ، الرؤوف الرحيم بهم ــ عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ــ لا يطيق عذابهم وإن أطاق عذابه ، فيأمرهم بالهجرة إلى الحبشة راضياً أن يبقى وحده هدف قريش التي استسلمت لنداء أحقادها استسلام المجانين .

وذات عام ..

وهو عام جدير بالوصف الذي يحمله ، إذ نُعِتَ بعام « الحزن » فقدَ الرسول عمه الحبيب « أبا طالب » وزوجته الوفية « خديجة » •

فقد العم الرجل ، الذي ذاد عنه وضحّى في سبيله كما يذود وكما يضحي أفذاذ الرجال •

وفقدَ الزوجة التي أعطت من إيمانها وحنانها وجاهها أجزل عطاء ••

والآن ، يخلو الجو لقريش أكثر من ذي قبل ، فتلاحق المصطفى المختار بسفاهاتها الشرسة •

وهي لا تخجل من اقتراف الإهانات الصغيرة الهابطة ضد هذا الذي كانت تشمّ عبير فضائله ، وتعامله رغم حداثة سنه كما لو كان أميرها وسيدها ••!!

ها هي ذي تغري به من سفهائها من يلقون عليه التراب والروث •

وتنحني ابنته العظيمة « فاطمة » فوق ردائه باكية تميط عنه الأذى وتغسله•

وفي صبر المصطفين الأخيار يجفف دمعها بكفّه الحانية ، ويقول لها :

«لا تحزني يا بُنيَّة ، فإن الله مانع أباك» ••!!!

لم يزايله اليقين لحظة أن الله مانعه وحافظه وراعيه •• ومن ثمّ أسلم لعذابهم واضطهادهم جسده •• أما روحه ، فهيهات لملء الأرض بأساً وحقداً وقوة وبغياً أن ينال منه منالاً •

وهكذا ــ شأنه في هذا شأن أولي العزم من الرسل ــ لم يقاوم اضطهادهم بالصبر فحسب •• بل وبالمزيد من العمل ، وبالمضي قدُماً على نفس الطريق الذي ملأه رصداً ، وحراباً ، وهولاً ••!!

وذات يوم راح يلتمس لدعوته مؤمنين جدداً ، وفي نفس الوقت يمنح نفسه المرهقة ساعات من الراحة والأمل بإبعادها عن جو الاضطهاد القاتل الذي تصبّه عليه قريش وحيداً •••

وشد رحاله إلى الطائف ..

وكان يومـاً عجباً ..!!!

* * *

إن مزايا ذلك اليوم الفريد ودلالاته تستبين من وقائعه وأحداثه ، فبموت أبي طالب ، أوغلتْ قريش في ركوب أحقادها ، وفي ملاحقتها الرسول بالأذى والضُّرّ ..

ولقـد صوّر ــ عليه السلام ــ هذه الحقيقة بقـوله :

« ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » .

هنالك بدا له أن يرحل إلى الطائف ، يبلغ ثقيفاً كلمة الله ، ويستنصر بهـم حين يسلمون على قريش وجنونها ..

إنه يرفض اليأس ويدحَضُه بالعمل والمثابرة .. وفي نور يقينه بالمهمة التي اصطفاه الله لأدائها راح في حُلكة الأحداث يرى طريقه ويبصر غايته .

وحَمَلةُ المبادىء الكبيرة ليسوا شجعاناً في أعمالهم وحسب ، بل هم كذلك شجعان في آمالهم وأحلامهم . لا سيما إذا كانوا من المرسلين .

وهكذا نرى الرسول عليه الصلاة والسلام يتخطى بآماله وبأحلامه كـل عوائق القنوط ودوافع اليأس .

فهـو إذ يرى أهله وعشيرته وأعرف الناس بصدقه وأمانته ونبل شمائله واستقامة نهجه .. حـين يراهم يكذبونه ويحاربونه ، لا يستسلم لمنطق اليأس الذي يقول : إذا كان هـذا صنيع الأقربين والذين يعرفون .. فكيف إذن يكون صنيع الآخـرين .؟

لم يستسلم لهـذا المنطق رغم إغرائه ، بل امتدت آماله وأحلامه إلى الآفاق البعيدة التي لا تبشر بخـير ولا بعطـاء .

أجَلْ .. إنه رسول ، عليه البلاغ .

(إنما أنتَ مُنذِر ، ولكلٍّ قومٍ هاد) .

وهكذا ، سافر إلى الطائف .. وهناك بدأ بثلاثة من سادتها وأشرافها راجياً أن يصيروا — إذا هداهم الله لدينه — قدوة تجري ثقيف وراءها .

وكان هؤلاء الثلاثة إخوة وأشقاء ، أبناء عمرو بن عُمير . أقبل عليهم رسول الله يدعوهم إلى الهدى ، ويحدثهم عن الإيمان ، ويبشرهم بمثوبة الله ورضوانه إذا هم ناصروه وآزروه واتبعوا النور الذي أُنزل معه . لكنه فوجىء بقلوب أقسى من الصخر . لم يكتف أصحابها بجحود ما يسمعون ، بل جاوزوا الجحود إلى السخرية ، وتحريض السفهاء من أهليهم وعبيدهم على توجيه الإساءات المؤلمة إلى شخصه الكريم .

لقد تخلى سادة ثقيف هؤلاء عن أبسط مظاهر الخلُق العربي — إكرام الضيف الغريب ..!!

لقد كان جوابهم لدعوة الرسول إياهم أن قالوا : « ألم يجد الله غيرك يرسله » ..؟؟ ثم نادوا سفهاءهم وعبيدهم ليشيعوا الرسول بالسباب والسخريات والحجارة يقذفون بها أكرم الخلق وإمام الهُداة ..!!!

ولم يفجعه الموقف على ما فيه من نذالة وسفالة ، بقدر ما توجّس من خيفة الشماتة : ومرارة التشفّي حين يبلغ قريشاً هذا الذي لقيه في الطائف من ثقيف .

ومضى .. تلاحقه مظاهرة السفهاء صاخبة نابحة ، حتى وجد بستاناً فأوى إليه ، وراح يجفف الدم الذي يسيل من عقبيه اللتين أدْمَتْهما حجارة السفهاء .

وأخذه على نفسه الحنان ، فتندّت بالدمع عيناه ..!! إنه منذ وُلد حتى يومه هذا ، أي طوال ثمان وأربعين عاماً وهو يعيش بين الناس في مهرجان حافل بالحب ، والحفاوة والاحترام .. ثم ها هو ذا اليوم ، يلقى الذي يلقاه .

ولكن ، أي بأس إذا كان هذا وأضعافه معه في سبيل الله ..؟؟

أي شرف عظيم أن يناله الضر لأنه يرفع في الأرض راية الحق والهدى والخير ..؟

وأي شيء يجعل الحياة عظيمة ، سوى ألم عظيم ..؟؟

هنالك أسند ظهره إلى إحدى شجيرات البستان ، وبسط كفيه إلى السماء مناجياً ربه وضارعاً إليـــه :

« اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقِلَّة حيلتي ، وهواني على الناس ،
يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعَفين ، وأنت ربي ، إلى مَن تَكِلُني .. إلى بعيد يتَجهَّمُني ..؟ أم إلى عدو ملكْتَه أمري ؟
إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي ..!! ولكن عافيتك أوسع لي ..
أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمـــر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك ، أو يحِلَّ عليَّ سخطك .
لك العُتْبى حتى ترضى .
ولا حول ولا قـــوة إلا بك » ..!!

إنهـــا معزوفة جليلة ، لروح جليل .

إنهـــا ابتهالات رسول أوّاب قدرَ الله حقَّ قدره ، وأسلم وجهـــه وقلبه وكله لمشيئته ورضاه .

« إن لم يكن بكَ غضب عليَّ فلا أبالي » .

ولكن ... وحتى لا تَشِي هـــذه الكلمات بشيء من الزهو بالقوة والخيلاء بالقـــدرة والصمود والاحتمال . يشفعها على الفور بكلمات تجرد حولَه من حَوله . وقوته من قـــوته .. وتعلن عبوديته المطلقة لربه . وحاجته المطلقـــة لحـــول الله وقـــوته ..

« .. ولكنَّ عافيتك أوسعُ لي » !!!

أيّ سكينة نفس .. وأي طمأنينة روح ــ وأي ذكاء قلب .. في ذلـــك الموقف الذي يملأ النفس كرباً ويأساً وبؤساً ..؟؟!!!

« لك العُتْبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » !!

* * *

ولكن ، لماذا يا ترى تركته المقادير يواجه هذا الموقف البالغ الصعوبة والحرج .. ؟

إنه لا ألم أمضّ للنفوس الكبيرة ولا أشقّ عليها من الإهانات الصغيرة .

إن النفوس الكبيرة تحتمل الآلام الكبيرة مهما يكن عنتها وضرّها في طمأنينة وشموخ .

أما الإهانات الصغيرة التي تجرح كرامتها ووقارها ، فكثيراً ما تكون فوق طاقتها واحتمالها ..

وإنّا إذ نقرأ ابتهال الرسول الذي مرّ بنا من قريب لنكاد نحسّ مذاق المرارة وطعمها في قوله:

« وهواني على الناس » ...

فلماذا ترك الرسول لهذه المحنة القاسية ..؟

إنه درس يوم الطائف العظيم ..

إنه الدرس الذي يعلّم الحياة ويعلم الأحياء أن آلام ذوي المبادىء الصادقة وتضحياتهم ليست الطريق إلى سيادة هذه المبادىء وحسب ...

بل هي من صميم تلك المبادىء وجوهرها .

هي جزء من ذاتها وتكوينها ـ فلا حقيقة بغير ألم وتضحية ..

ولا فضيلة بغير ألم وتضحية ...

ووفق الطراز الذي تكون منه الرسالة ، ويكون منه صاحبها وحاملها ـ تكون الآلام وتكون التضحيات نوعاً وكمّاً ..

من أجل هذا ، كان الوحي يعني ما يقول حين نادى الرسول ليلقي عنه دثاره وقال له : (ولربّك فاصبر) .

إنهما كلمتان اثنتان .. بيد أن لهما رهبة تنذر بجسامة التضحية التي سيكون عليه أن يبذلها ويحتمل كل ظروفها .

وفيما بعد.. وعلى طول طريق الرسالة سيظل الوحي يذكّره بهذه الوصاة :
(فاصبر كما صبر أولي العزم من الرسل) .

أجَلْ ــ أولوا العزم . فالأمر يتطلب صبراً فوق كل المستويات المألوفة للناس ! !

والألم الذي يجابه أولي العزم من المرسلين لا يحمل تعويضاً ولا عزاء في كل حين .. أي أنه لن يكون دائماً من تلك الآلام التي تطرحها عداوة الأنداد والأكفاء ، وفي مستوى لا يهينُ كبرياء الروح وإن أرهقَ الجسد بالعذاب ... لا ، لن يكون كذلك دائماً ، بل سيجيء أحياناً خلواً حتى من هذا العزاء . سيجيء في صورة إهانات صغيرة وشاملة ، تتمثل في إخراج الألسنة وحكّ الأنوف . وقذف الشتائم والسخريات ، وتحريض السفهاء والغلمان والمجانين يحصبون بالحجارة ، ويحثون التراب ويهللون ويصخبون ويعربدون !!!

* * *

لم يكن ذلك الذي لقيه الرسول في الطائف عقاباً له ولا لَفْت نظر لخطأ اجترحه . فهو ــ عليه السلام ــ لم يخرج من مكة إلى ثقيف إلا استمراراً لعملية التبليغ والنذارة التي أمِرَ بها .

فتركُه يعاني هذا الموقف إذن، لم يكن إلا درساً من دروس النبوّة ومشهداً من مشاهد القدوة التي تترك للأجيال عَبْرَ القرون ذُخرها ونهجها وهداها ..

إنه درس لكل من سيقدَّر له أن يحمل راية الحق والهدى والإيمان ، كي يبذل بذل السّماح كل ما يملك عزمه الوثيق من تضحيات ، وأن يحتمل في صبر وشجاعة كل ما يُطرح عليه من أوصاب وآلام .

هو درس لهؤلاء جميعاً .

وهو عزاء صادق لهم عن كل ما يلقون من جحود وسخرية وهوان .

وهو نذير لهم بأن ما ينعمون به من عظمة الشخصية وعظمة العقيدة لن

يجعلهم بمنجاة من الإهانات السافلة التي تغثي النفس وتغيظ الروح ...!!!

* * *

جلس الرسول ــ كما ذكرنا ــ يشكو إلى ربه ضعف قوته وقلة حيلته وهوانه على الناس، ويكشف آماد ثباته العظيم بقوله:

« إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ».

كما يكشف عن حقيقة عبوديته لله واعتماده عليه بقــوله:

« ولكنّ عافيتك أوسع لي ».

ويبصره من بعيد صاحبا البستان. فيدعوان خادماً لهما ويأمرانه أن يحمل إلى الرسول طبقاً فيه قطف كبير من عنب.

ويذهب الغلام، واسمه « عدّاس » وكان نصرانياً، حاملاً طبق العنب إلى رسول الله، واضعاً إياه بين يديه.

ويغمره الرسول بضياء من ابتسامته الشاكرة. ثم يبسط يمينه نحو قطف العنب قائلا: (بسم الله).

باسم الله ...؟؟

لقــد أثارت هذه « البسملة » دهشة الغلام وعجبه. وعلى الفور دار بينه وبين الرسول هــذا الحوار.

قال عدّاس: هذا والله كلام لا يقوله أهل هــذه البلاد.

وقال الرسول: فمن أي البلاد أنت ..؟ وما دينك ..؟

أجاب عدّاس: أنا نصراني. من أهــل نينَوى.

قال الرسول: من بلد الرجل الصالح، يونس بن مَتّى ..؟؟

قال عدّاس: وما علمك بيونس بن متى ..؟

قال الرسول: إنه أخي. كان نبياً، وأنا نبي مثله.

تقول الرواية التاريخية التي تروي لنا هذه الواقعة:

« فأكَبَّ عدّاس على رسول الله ﷺ يُقبّل رأسه ويديه وقدميه »..!!

وأراد القدر الحكيم أن يجعل من هذا المشهد الفريد درساً آخر مجيداً من دروس يوم الطائف ، مقدماً النموذج البشري الذي سيقع عليه اختيار السماء ليحمل رايتها في الأرض .

لقد أراد الرسول حين نزل الطائف أن يوفر على نفسه أحقاد أشرافه وعليته حين يرونه لا يبدأ بهم ومعهم الزيارة والحديث .. أراد أن يشعرهم بأهميتهم له ولدعوته ، فنزل أول ما نزل ببيت من بيوت الزعامة في ثقيف ، فما كان جواب أهل هذا البيت إلا حطة ونذالة .

وحين احتمى بالبستان من غوغائية المهرجين الذين سلطوا عليه لم يحرك صاحبا البستان « عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة » ساكناً من أجل الاستماع له ، وتفهم أمره . وهما أيضاً أصحاب جاه وزعامة في قريش والطائف معاً .

وفجأة .. ومن رُكام هذا الضلال الساخر يُخرج القدر خَبأه العظيم غلاماً فقيراً أجيراً ، ليس له جاه ، ولا ثراء ، ولا منصب . يقرأ وجه الرسول في لحظة . ثم يستيقن صدقه ، ويعطيه كل قلبه ويقينه وحبه وإيمانه في اللحظة التالية ..!!

وهكذا أجاد القدر التوقيت ، كما أجاد الاختيار ، كما أجاد صُنع الإرهاص..

ففي نفس اللحظة التي كانت الأرض تقدم له فيها أقصى ما معها . من برٍّ مثلاً في قطف عنب ، كانت السماء تقدم إليه أولى نفحاتها ممثلةً في هذا الروح الذي يهتز إيماناً وحباً وعظمة ..!!

وفي نفس الدقائق التي أعرض عنه فيها المستعلون في الأرض ، وأغروا به سفهاءهم ، قدَّم القدَر في شخص « عدّاس » صورة البسطاء الكادحين الذين سيكوّن منهم جنده وحزبه ورَعيله .

أجل.. لقد كان ظهور « عدّاس » في تلك اللحظة إرهاصاً بالمفاجآت الباهرة التي ستكتب تاريخ الإسلام ورسوله ، وتتضمن انتصارهما العظيم .

كان ظهوره في تلك اللحظة إرهاصاً بنوع البشَر الذين يدّخرهم الغيب لنصرة هذا الدين وهذا الرسول ، من البسطاء الشرفاء الذين لا تقع عليهم الأعين في زحام الحياة .

كذلك كان ظهوره إرهاصاً بالمودّة والنصرة اللتين سيظفر بهما الإسلام من النصارى أتباع المسيح .

(.. ذلك بأنَّ منهم قِسّيسين ورُهباناً ، وأنهم لا يستكبرون).

(وإذا سمعوا ما أنزِل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عَرَفوا من الحق ، يقولون ربَّنا آمنّا ، فاكتُبْنا مع الشاهدين) .

* * *

وغادر الرسول الطائف راجعاً إلى مكة ، بعد أن استغرقت رحلته السريعة هذه بضعة أيام تغيرت قريش خلالها ، وكأنها شهور وأعوام .

لقد وجدهم الرسول حين عاد إليهم يتميزون غيظاً ، ويشتعلون حقداً .. ورأى أنيابهم تصطك وتتهيأ للافتراس .

ولكنه كان قد حذِق درس الطائف ؛ فمن ظلام اليأس الدامس ، ينبعث أمَل.. ومن تحت وطأة الضلال والإفك تنهض أرواح خيِّرة تعانق الحق والنور..

وكان قد اتخذ من محنة الطائف مَزيّة .. أليس قد خرج إلى هناك ليدعو أهل ثقيف إلى الله ، فجابهته الوثنية بغدرها ومكرها ، آملة أن تفتّ في عَضده ، وتَفُلّ باليأس عزمه . ؟

إذن فليكن تحدّيه لها ماثلاً في نفس الصورة وذات الوسيلة .. الخروج إلى القبائل ، وملاقاة الغرباء الذين لا يعرفهم ولا يعرفونه ، وعَرْض الإسلام عليهم في تفانٍ ومثابرة .

وكانت مواسم الحج خير فرصة لتحقيق ما يريد .

وسوف يلقاها جميعاً قبيلة بعد قبيلة .. هاتفاً بينهم وفيهم :

« •• إني رسول الله إليكم ••
يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون
من دونه من هـــذه الأنداد •
وأن تؤمنوا بي ، وتصدّقوا بي ، وتمنعوني حتى أبلّغ عن الله
ما بعثني بــه » •

وسوف ترفض القبائل وتهرب من النور •• وحتى الذين سيعرفون منهم أنه الحق ، سيدخلون مع الرسول في مساومات يرفضها من فوره ، كما حـــدث مع بني عامر بن صعصعة •• لم يكد الرسول يدعوهم إلى الإسلام حتى نهض واحـــد من شيوخهم ، توسَّم في النبي الصـــدق والنبوة ، وصاح في قبيلته بكلماته هـــذه :

« والله • لو أخذت هذا الرجل من قريش لأكلتُ به العرب » •

ثم قال للرسول عليه السلام :

« أرأيت إن نحـــن بايعناك على أمرك ، ثم أظهرك الله على مَن خالفك ، أيكون لنا الأمر مِن بعـــدك ••؟ » •

فأجـــابه الرسول :

« الأمـــر لله ، يضَعُه حيث يشاء » •

إنه دين لا صفقة •••

وحتى في ساعات وحدته هذه وعُسرته هـــذه ، يرفض أن يعطي قبيلة كبيرة كهذه مجرد أمنية دنيوية يكسب بها نصرتهم وحمايتهم ، لأن القضية قضية الله ، وهي أجلّ من أن تتحول الى صفقة وموضوع مُساومة ••

ويمضي للقـــاء القبائل في كل موسم حج ، وكل تجمُّع لهم خلال أسواقهم المشهورة وأعيادهم الحاشدة ، يدعو •• ويُحارب ، حتى يأتي يوم موعـــود يجمعه الله فيه بمن اختارهم سبحانه ليكونوا أنصاره الأبرار ••

يومُ العقبة

(هو الذي أيّدك بنصره، وبالمؤمنين :)

.. وأخيراً، اقترب الوعد الحق . وأوشكت سنوات مكة أن يُطوى كتابها، ليبدأ في المدينة عهد جديد .

وهنا نلتقي بأهمية « يوم العقبة » ومزيته الكبرى .. فهو اليوم الذي يشير إلى نهاية عهد وبداية عهد آخر : نهاية عهد الاضطهاد والتعذيب والمطاردة من جانب قريش، والانكسار والاحتساب والصبر من المؤمنين .. وبداية عهد :

(أُذِنَ للذين يقاتَلون، بأنهم ظُلِموا وإن الله على نصرهم لقدير) ...

أجل .. كان يومُ العقبة ذاك، يومَ الإسلام العظيم .. فلولاه ما كانت الهجرة إلى المدينة، ولولاه ما كانت سنوات المدينة العشر التي غزا النبي خلالها غزواته الموفقة الظافرة، وأرسى خلالها الأسس الوثقى لعالَم الإسلام والمسلمين ..!!

فيوم العقبة كان الفَجْرَ الصادق لعصر القوة والغلَبة والعزة التي أفاءها الله على رسوله ودينه والمؤمنين .

وهو يوم امتلأ بتخطيط وإنجاز أكثر مواقف الإسلام حزماً وحسماً .. وذكاء ومضاء .. ومخاطرة وتوفيقاً ..

* * *

ولقد شهدت « العقَبة » أياماً ثلاثة في أعوام ثلاثة .. كذلك شهدت بيعتين في عامين متتاليين ..

ونحن هنا نختص بالحديث يوم العقبة الأخير . وهو الثالث بالنسبة للأيام

التي التقى فيها الرسول بطلائع أهل المدينة .. والثاني بالنسبة لليومين اللذين شهدا البيعة التي تمت بين الرسول وطلائع الأنصار ، أي اليوم المعروف في كتب السِّيرة بـ « بيعة العقبة الثانية » .

وطبيعي أن اللقاءات الثلاثة التي شهدتها العقبة بين الرسول والأنصار إنما تشكل في فحواها الأخير لقاءً واحداً، ويوماً واحداً، رغم مابينها من مسافة زمنية.

من أجل هـذا ، فإن الحديث عن أيٍّ منها ، يتضمَّن تلقائياً الحديث عنها جميعـاً .

* * *

بدأ ذلك اللقاء العظيم في السنة العاشرة لبعثة الرسول عليه الصلاة والسلام عـام (٦٢٠) للميلاد ..

وكان الرسول عليه السلام قد واصَل عَرْض نفسه على قبائل العرب ، وأعطى مواسم الحج أهمية وعناية ، فثَمَّ قبائل من كل أطراف الجزيرة يستطيع أن يلتقي بهـا ويبلغها كلمات ربه .

وفي مَوسم الحجّ ، في العام العاشر من بعثته التقى بنفر من حجاج المدينة جلس إليهم وسألهم عـن موطنهم ؟ فأجابوه أنهم من المدينة ، ومن الخَزْرَج إحدى أكبر قبيلتين تقطنان المدينة وتَسودانها .

قال لهم عليه السلام : « أفلا تجلسون أكلّمكم » ..؟؟

واستجابوا لرغبته ، فدعاهم إلى الله ، وحدَّثهم عن الدين الحـق وأودع صدورهم قبساً من النور الذي معه .

ويشاء الله الذي لا تُدركُ حكمته ، ولا تُغلَب مشيئته ، أن يكـون اليهود الذين سيصيرون فيما بعـد ألَدَّ أعداء الرسول ودينه .. يشاء الله أن يصطنع منهم السبب والحافز وراء إقبال أهـل المدينة على الإسلام ودخولهم فيه أفواجـاً .

ذلك أنهم ـ أي يهـود المدينة ـ كانوا في صراع دائم ضـد الخزرج والأوس ، وضد الخزرج بصفة خاصة .. وكان هؤلاء وثنيين يعبدون الأصنام ، بينما اليهود أهل كتاب وأتباع رسول .

ولقد كانوا كلما احتدم النزاع بينهم وبين الآخرين توعدوهم بظهور نبي قَرُب أوانه ، تبشرهم التوراة بقدومه .. قائلين : إنه حين يظهر سيكونون من أتباعه وأنصاره ، ولسوف يقاتلون تحت رايتـه الخزرج والأوس جميعاً حتى يُخضعوهم أو يُبيدوهم ...!!

ولقـد بدأ الرسول حديثه إلى هـؤلاء النفر من الخزرج بسؤال يتألق نـوراً وإلهامـاً .

لقد سألهم : « أمِن مَوالي يهودَ أنتم » ...؟؟

وهكذا ، وبهذا السؤال وضع المؤشّر تجاه الموجة المطلوبة ، فآتت أثرها الحاسم العجيب .

لقد بلّغهم الرسول دعوة الله في إيجاز ويُسْر ، وأعطاهم الفرصة ليفكروا ويتدبروا ..

وفيما هم يتشاورون ، ذكّرهم سؤال الرسول بما كان اليهود يتوعدونهم به دوماً ، فقال أحـدهم :

« يا قوم .. والله إنه للنّبيّ الذي توعّدتْنا به يهود . فلا يسْبِقنّكم إليـه » .

وعادوا الى النبي ، يخبرونه أنهم قد تقبّلوا أحسن قبول ما عرض عليهم من هـدى ونور ، وقالوا له :

« إنّا تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العـداوة والشر مثـلُ الذي بينهـم .

وحين نرجع إليهم سندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الـذي

أجبناك إليه من هـذا الدين .
فإن يجمعهم الله بك ، فلا رجل أعزّ منك » .

ولم يتم بينهم وبين الرسول بيعة .. لقد أعلنوا إيمانهم وتصديقهم ووعدوا بإبلاغ مَن وراءهم من الأهـل والعشيرة .

وعادوا إلى بلادهم مُباركين ..

كانوا ستة رجـال .. ما أجمـل أن نتشرّف ونتزين هـذه الصفحات بأسمائهم الميمونة .

إنهم : أسعد بن زُرارة ، وعوف بن الحارث بن رفاعة ، ورافع بن مالك بن العجلان ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وعقبة بن عامر بن زيد ، وجابر بن عبد الله.

وإنّا إذ نذكرهم برضوان الله وبركاته ، لنذكر فيهم ومعهم إخوانهم الذين سيأتون على أثرهم ويدخلون في دين الله أفواجاً .

* * *

عاد الرجال الستة إلى المدينة ، وكان اسمها « يَثْرِب » ، فحدثوا قومهم بما رأوا من نور الرسول ، وبما سمعوه من حديثه الصادق المضيء .

وفي موسم الحج من العـام التالي ، جاء منهم إلى مكة اثنا عشر رجلاً ، بينهم خمسة من الستة الذين شهدوا اللقاء الأول مع رسول الله .

واجتمع بهم الرسول في نفس المكان ، وبايَعهم « بيعة العقَبة الأولى » .. وكانت كما يحدثنا عنها « عُبادة بن الصامت » أحد المبايعين :

كنتُ فيمن حضر العقَبة الأولى .. وكنا اثني عشر رجلاً ..
فبايعنا رسول الله ﷺ على ألا نشرك بالله شـيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ..

وقال لنا الرسول :

« إن وفيّتم ، فلكم الجنة ..

وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذّب .. وإن شاء غفر » ..

وأحسّ الرسول بنور بصيرته ، وبما سمع من مبايعيه أن رياح الإسلام بالمدينة تجري رخاء ، وأن المسلمين الجدد بحاجة إلى معلم وفقيه ، فاختار من بين أصحابه « مصعب بن عمير »[1] فصحب وفد الأنصار إلى المدينة ، وهناك فتح الله له وعلى يديه فتحاً عظيماً ..

وفي موسم الحج من العام التالي . كان « مصعب بن عمير » يدخل مكة ومعه ثلاثة وسبعون رجلاً كلهم يشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله... وامرأتان مباركتان دخلتا في الدين الجديد ، وجاءتا تسابقان الشوق إلى رؤية الرسول الكريم .

هاتان السيدتان هما :

أم عمارة : نسيبة بنت كعب

أم منيع : أسماء بنت عمرو

وبمحضرهم إلى مكة ، وبلقائهم مع رسول الله ، كان يوم العقبة العظيم ..

* * *

كانت مكة تموج بوفود الحاجّين إليها وإلى أصنامها .. ولم يكن أهلها يدرون أن قريشاً تعيش آخر أيام صلفها وجبروتها وغرورها !!

وكان المسلمون الخمسة والسبعون القادمون من المدينة يقيمون في خيامهم مع مواطنيهم من أهل المدينة الوثنيين الذين لم يتعرفوا للإسلام بعد .

وخلال أيام التشريق ، وبعد الفراغ من الحج اتصلوا في سرّية كاملة

(1) راجع كتابنا « رجال حول الرسول » مصعب بن عمير ـ أول سفراء الإسلام .

محكَمَة برسول الله عليه الصلاة والسلام وواعدوه على اللقاء عند العقبَة ذاتها، التي شهدت من قبل لقاءين مُباركين .

ولندَع الصحابي المباركَ « كعب بن مالك » يروي لنا هــذه الفقرة من النبــأ العظيــم :

« .. فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ..

حتى إذا مضى ثلث الليــل خرجنا من رحالنا لميعــاد رسول الله ﷺ ، تتسلَّل تسَلَّل القَطـا مُسْتَخْفين ، حتى اجتمعنا في الشِّعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا ـ نُسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو ..

فاجتمعنا في الشِّعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له .

فلما جلس ـ كان أول متكلم ـ العباس بن عبد المطلب ... » .

★ ★ ★

في هــدأة الليل وسكونه .. وعلى حين غفلة من قريش المتربصة المتحفزة تمَّ أخطر وأعظم اجتماع في حياة الإسلام كله ، وفي حياة التاريخ الإنساني الذي أثر الإسلام في تكوينه وأسهم في صُنعه ..

وفي ذلك المؤتمر المجدود ، همَس القــدر في أذن المستقبل ، فإذا أبوابه تتفتح على الرحاب مستقبلة كتائب الله ..!!!

وفي ذلك المؤتمر المجدود ، تألَّقت عبقرية القيادة والتنظيم لدى رسول الله وعمــه العباس .

لقد اصطحب الرسول عمه العباس لينتفع برجاحة عقله وذكاء فؤاده في هذا الموطن الذي لم يكن أحد يعرف أبعاده الهائلة مثلما يعرفها رسول الله ..

وسواء كان العباس يومئذ مسلماً يخفي إسلامه ـ كما تقول بعض الروايات

التاريخية ـ أم لم يكن أسلم بعـد •• فقد كان عظيم الحدَب والعطف على الرسول وصَحْبه •

والآن ، وقد أطلعه الرسول على هذا الاجتماع الممعن في السرِّية والتخفِّي ، والبعيدة آثاره وأخطاره ، فقد كان شهوده الاجتماع أمراً محتوماً •

ولقـد بدأ هو الحديث فقال :

« يا معشر الخزرج ••
إن محمداً منا حيث قـد علمتم ، وقـد منعناه من قومنا ، فهو في عـز ومَنَعَة •
وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ••
فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانِعوه ممن خالَفه ؛ فأنتم وما تحملتم من ذلك ••
وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِموه وخاذِلوه بعد خروجه إليكم ؛ فمن الآن فدعوه » ••

ولم يكد يتلقى منهم إجابة مُطَمْئِنة ، حتى شفعها بهذا السؤال الذكي الحصيف :

قال ونظراته الثاقبة تقـرأ أفكارهم وملامح وجوههم :
« صِفوا ليَ الحرب •• كيف تقاتلون عدوكم ؟! » •

إنه [1] يريد أن يطمئن لكفاءتهم في القتال ، بعـد أن اطمأن لإخلاصهم في الإيمـان •

وأثار السؤال كوامن الاعتداد في صدور الرجال ؛ فبادر أحـد شيوخهم وهو عبد الله بن عمرو بن حرام بالجواب :

---

(١) راجع كتابنا : « رجال حول الرسول » •
« العباس بن عبـد المطلب ـ ساقي الحرمين » •

قال :

« نحن والله أهل حرب ، غـُذينا بها ، ومرِنـّا عليها ، وورثناها عن آبائنا ، كابراً عـَن كابر » .

ثم راح بعد هـذه المقدمة الحارة المتحمِّسة المنفعلة ، يصف أسلوبهم في الحـرب .

« نرمي بالنبل حتى تفنى .. ثم نـُطاعِن بالرماح ، حتى تـُكسـَر..
ثم نمشي بالسيوف ، فنضارب بها ، حتى يموت الأعجلُ منا ،
أو مِن عدونا » .

وشاعت الغبطة فوق مخايل العباس ، وقال :

« أنتم أصحاب حرب إذن .. فهل فيكم دروع ..؟! » .

قالوا :

« نعم .. لدينا دروع شاملة » .

ورأى العباس رضي الله عنه وعنهم أجمعين — أنه قد هيـّأ سـُبـُل الحديث ليواصله رسول الله ، فيمم وجهه صَوْب الرسول في صمت ، وحنى رأسـه في إصغـاء :

وتبسـَّم الرسول ، وعيناه الوادعتان توزعان ضياءهما وحنانهما على أصحاب العقـَبـَة المباركين .

وأومأ إليهم ليتحدثوا .

ولكن أصواتهم تلاقت على هـذه الكلمات :

« تكلـَّم يا رسول الله ! فخذ لربك ولنفسك ما أحببت .. » .

وانفرجت شفتاه على أصدق حديث .. وتدفـّق النور من بين ثناياه ..

بدأ ، فتلا بعض ما أنزِل عليه من القرآن العظيم.. ثم راح يحدثهم عن الله ، الواحد الذي لا شريك له ، وعن الإسلام ، الدين الذي يخرِج الناس من الظلمات إلى النور ، ويهدي إلى صراط العزيز الحميد .

ثم قال مُبايعاً :

« أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه (أهليكم) وأبناءكم »..

وسارع « البراء بن معرور » فأخذ بيده الكريمة، وقال :

« نعم، والذي بعثك بالحق... لنمنعنَّك مما نمنع منه (أنفسنا)..
فبايِعْنا يا رسول الله ... فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلْقة ورثناها كابراً عن كابر » ..

ونهض « أبو الهيثم بن التيهان » فقال :

« يا رسول الله !! إن بيننا وبين (اليهود) حبالاً، وإنا قاطعوها ..
فهل عَسَيْتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدَعنا !!؟؟ » .

فتهلَّل وجه الرسول بابتسامة مشرقة وشاكرة، ثم قال :

« بل الدَّمَ الدمَ .. والهَدْمَ، الهدمَ ...
أنا منكم، وأنتم مني.. أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.. »

وعبارة « الدم الدم، والهدم الهدم » تعني أن ذمتي ذمتكم، وحرمتي حرمتكم، وعهدي وعهدكم سَواء .

تعني : أن المحيا محياهم، والممات مماتهم ..

ثم نهض « العباس بن عُبادة الأنصاري » فقال موجهاً الحديث إلى زملائه الأنصار :

« هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل ...؟؟
يا معشر الخزرَج ..
إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم إذا أنهكَت أموالكم، وقُتل أشرافكم أسلمتموه، فمن الآن .
فوالله إن فعلتم لَهُوَ خزيُ الدنيا والآخرة ..

وإن كنتم وافون له رغم نَهْكَة الأموال وقتل الأشراف ، فخذوه .. فهو والله خير الدنيا والآخرة » .

فصاحوا جميعاً :

« إنا نأخذه ، على مصيبة الأموال وقتل الأشراف » .

ثم نادى بعضهم :

« فما لنا يا رسول الله إن نحن وفَّيْنا بذلك ؟ »

وأجاب الصادق الأمين بكلمة واحدة :

« الجنة » ...!!

وفجأة تحول المؤتمر المستخفي إلى مهرجان يدوي في جنباته هذا النداء :

« ابسط يدك يا رسول الله نبايعك » .

وتسابقت الأيدي إلى يمينه المباركة تشدّ عليها في ميثاق عظيم، وحب حميم.

* * *

وتقدمت عبقرية التنظيم التي تتمتع بها شخصية الرسول الكريم تقدمت لتكمل العمل المجيد .

لقد ألقى الرسول نظرة على هذه الطليعة المبشّرة الواعدة ..

لقد كانوا في حساب العد ثلاثة وسبعين رجلاً ، وسيدتين .. ولكنهم في حساب القيمة طَلْعُ أمة عظمى تتشكل الآن وتتكوّن .!!

وحتى لو نظر إليهم بحساب العدد وحده ؛ فإن الرسول بفطنته وبمقدرته لا يدع هذا الرَّعيل خارج دائرة النظام المحكَم الفعَّال .

هنالك قال لهم :

« أخرجوا إليَّ اثني عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم بما فيهم ».

واختاروا اثني عشر نقيباً ؛ سيكونون مسؤولين ، لا عن بقية أصحابهم من الخمسة والسبعين فحسب .. بل وعن المؤمنين القادمين مع الأيام ممن سيفتح الله

صدورهم للإسلام عما قريب ..

وكانت حكمة بالغة ومقصودة من الرسول ، إذ فوّض إليهم اختيار النقباء.

كما كانت حكمة بالغة ومقصودة أن جعلهم اثني عشر نقيباً حتى يوسّع دائرة النفوذ والمسؤولية ، وينفي عنها وطأة التفرّد والتركيز .

* * *

تمت البيعة .. وتم اختيار النقباء . وشهد الليل الهادىء الصامت ذلك المؤتمر الفريد المجيد .. ولم يبق إلا أن يعود المجتمعون إلى خيامهم ، مُتسللين كما جاءوا تسلّل القَطا ، قبل أن يَغْشِيَ بهم ضوء الفجر وتباشير الصباح .

وهكذا دعاهم الرسول للرجوع إلى رحالهم .. لكن وقدة الحماس للحق ، شقّ عليها أن ترجىء يوم الفصل والصدام ، فصاح العباس بن عُبادة الأنصاري قـائلاً :

« والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل مِنى غداً بأسيافنا ».

فقال الرسول في هـدوء :

« لم نُؤْمَرْ بذلك ... ولكن ، ارجعوا إلى رحالكم » .

إن ضبط النفس ، كان من أروع مزايا الرسول الكريم ، ولقـد شهدنا وسنشهد تألق هـذه المزية في كل المواقف التي تطلبتها فألْفَتْها دائماً مهيأة للعمـل الحكيم العميم .

لقد عاد القوم إلى خيامهم قبل أن يرسل الفجر نوره الكاشف ، وطلع النهار ، فإذا قريش تتهامس بما كان ، وعلا الهمس حتى صار خبراً أمضّ أنفسهم وأزعج أمْنَهم ، فخفّ بعض زعمائهم سراعاً إلى خيام الخزرجيين .

« يا معشر الخزرج !!

إنه بلَغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حـربنا ..

وإنه ما من حَيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم » •

وفوجيء مشركو الخزرج بالنبأ ، فراحوا يقسمون ما حدث من ذلك شيء •

ولقد صدقوا •• فهم أنفسهم لا علم لهم بما حدث بالأمس • لقد غادرهم المؤمنون منهم بعد أن ناموا ، وعادوا إلى الخيام قبل أن يستيقظوا •• آخذين مضاجعهم بينهم كأن لم يبرحوها ••!!

وعاد زعماء قريش يجترّون الحيرة والشك ، ولكنهم واصلوا بحثهم حتى تأكد لديهم النبأ العظيم ، فطار صوابهم ، وخرجوا في أعقاب الحجيج الذين كانوا قد بدأوا رحلة العودة إلى بلادهم بعد أن أدوا شعائر الحج ومَناسكه •

كان الركب قد أوْغَل في الطريق . فلم يدرك القرشيون منهم سوى اثنين هما : سعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو •• وكانا من النقباء الاثني عشر •

فأما المنذر ، فقد قاوم واستطاع الفرار منهم •• وعادوا إلى مكة بسعد بن عبادة يضربونه ويعذبونه ، حتى اكتشفوا أنه من زعماء الخزرج ، وأنه طالما حمى لهم قوافلهم الغادية إلى الشام والراحلة منها ، فأطلقوا سراحه وتركوه يرحل عنهم في سلام •

* * *

وهكذا تلقّت قريش أولى الضربات المربكة والموجعة •• وجّهها إليها في هدوء وصَمت وقوة ، رسول الله الذي طالما اتخذوه هو وأصحابه هدفاً لأحقادهم واضطهادهم •

لقد عاشت قريش اثني عشر عاماً توجه ضرباتها في تَشَفٍّ وغرور • واليوم يجيء دورها لتلقّي ضربات القصاص العادل المشروع •

ها هو ذا بلد حافل يفتح ذراعيه ليكون وطناً آمناً للدين الجديد الذي ضاقت به قريش وازْوَرّت عنه في جهالة وعناد •

وغداً ، يهاجر إلى هذا البلد الوَدود ، المؤمنون من أهل مكة ، ريثما يلحق بهم بعد غـد رسولهم الحبيب •

وهناك تتحرر حركتهم من كل قيد ••• وللمدينة استراتيجية هامة ، فهي تمسك بناصية الطريق الذي تجتازه قوافل مكة التي تغـدو بتجارتها وتروح بين مكة والشام •

ودارت الأرض بقريش وهي تدير خواطرها حول هـذه المفاجأة التي أذهلتها ، والاحتمالات الخطيرة التي تفزّعها •

وراحت تقاوم هجرة أصحاب الرسول ، لكنها غُلبت على أمرها ••

وأخيراًعقدت عزمهـا المخبول على اغتيال الرسول •• ولكن الله متمّ نوره ولو كَرِه الكافرون •

* * *

لقد أنجز الرسول يوم العقبة عملاً تناهى في البراعة ، والحنكة والسَّداد •

لقد فَضَّ لِقـاء العقبة وبيعَتُها ذلك السامر الطائش الذي ظلت قريش تملؤه طوال اثني عشر عاماً بسخرياتها العابثة من دين الله ورسوله ، والمؤمنين •

والآن •• ومع بزوغ يوم العقَبة في تاريخ الإسلام ، فلن يكون لقريش سامر ، وستموت بسَماتها المغرورة فوق شفتيها ••!!

أجَل •• لن تتلهّى قريش بعد اليوم بعذاب ضحاياها ، بل ستشغل بالخطر الزاحف ، يحمل لقوى الشرك فيها مصارعها ومناياها •!!

* * *

يَومُ حَمزَة

(وما أصابَكُمْ يَوْمَ التَقى الجَمْعانِ ، فَبِإذْنِ الله)

ذاك يوم يصعب وصفه ..

يوم مشحون بكل ما هو مؤلم ، ومُعَلِّم ، ومثير ..

ويوم « حمزة » هـذا ؛ كما نسميه الآن ؛ هو المعروف في تاريخ الإسلام بيوم « أحُد » ..

وإنما ننعته هنا بيوم « حمزة » لأن غـزوة أحُد ليست غرض حديثنا في هذه الصفحات .. إنما غرض الحديث وموضوعه واقعة من أكثر وقائع هـذه الغـزوة وذلك اليوم إثارةً للوجـدان التاريخي وأكثرها دلالة على شخصية الرسول وطبيعة الرسالة .

هـذه الواقعة المتمثلة في مصرع « حـمزة » واستشهاده ، وفي الضراوة البَشعة التي تشفَّت بهـا أحقاد قريش من جثمانه ..

ثم في مشهد الرسول وهو يرى جثمان عمه الحبيب مبقور البطن ممزق الإهـاب .

ثم ...

ولكن لا ، فلنعد للحديث من أوله ومُبتكَره .

لقد هاجر الرسول إلى المدينة ، وبين أهلها الأنصار المباركين استقر هـو وأصحابه ، متخذاً من المدينة عاصمةً لدينه ولأمّته الجديدة .

لقد صار المؤمنون بعيدين من سياط قريش وعذابها ، لكن ذلك لم يكـن يعني أن المصاعب هادتتهم ؛ فما أبعد هدنة المصاعب عن أصحاب المبادىء والرسالات .

لقد كانت أعظم مزايا الهجرة في أيامها الأولى أنها قدمت لهم وطناً يعبدون الله فيه دون أن يُفتنوا عن دينهم بإرهاب أو بعذاب .

أمّا بعد هذا ، فقد كانت مشقاتُ الحياة وسُنن التمحيص والابتلاء في انتظارهم لتجعل منهم قدوة خفاقة ، ووثيقة صادقة ، تحكي للأجيال عَبْر الزمان : ماذا تعني معارك الحق..؟ وماذا تتطلب من جُهد وشَظَف ، وتضحية وفِداء..؟!!

لقد وجدوا المدينة حين قدموها تعاني من وباء الحمى ، فأصابهم منها البلاء والسقم والرهق ، فما تشاءموا ولا تطيَّروا .. بل قاوموا وصابروا ..

وما كادوا يستقرون بالمدينة حتى أخذ يهودها ومُنافِقوها يكيدون لهم ويسخرون منهم ويأتمرون بهم .

لقد شَنّوا على الدين الجديد الحق ، وعلى حمَلَة رايته من المهاجرين والأنصار ــ والمهاجرين بصفة خاصة ــ حرب أعصاب سافلة وماكرة ، بيد أنهم كانوا عاجزين عن تصعيد حرب الأعصاب ومناورات التشكيك إلى حملات اضطهاد وتعذيب كما كان كفار قريش يصنعون .. وهكذا ، كان على الرسول أن يواجه في المدينة سيلاً لا يؤذن بانتهاء من مناورات أحبار اليهود وزعمائهم رغم ما أعطاهم من عهد وأعطوه من ميثاق .. وسيلاً من لغو المنافقين الذين تظاهروا بالإسلام .

(يُخادِعونَ الله ، وهو خادِعُهم)

ووقف الوحي لهؤلاء ولأولئك بالمرصاد يكشف خبأهم ، ويفضح مكرهم ؛ ويشدّ يقين المؤمنين .. ويزيد الذين اهتدَوْا هُدًى .

وبين الحين والحين . كانت قريش ترسل بعض طلائعها يتشمّمون أخبار المدينة ، فكان الرسول يبعث إليهم ببعض السرايا ، تفضّ جمعهم وتردهم على أعقابهم .

حتى جاء يوم « بَدْر » .. والتقى الجمعان في معركة كبرى دارت الدائرة فيها على قريش .

لقد جاءت تحت إمرة زعمائها في ألف مُقاتل ، كلهم مُدرَّب ومُسلَّح ، تريد غزو المدينة والإجهاز على قُوى النور والخير البازغة في أفقها الرحيب •

وخرج المسلمون بقيادة نبيهم في ثلاثمائة وثلاثة عشر من الرجال ؛ ليس لأكثرهم من الدربة ولا معهم من العتـاد مثلما كان للقوة الغازية ومع هـذا ، استطاع الإيمان أن يفوز بعون الله ونصره •• الإيمان الذي ملأ قلوب القـلة المؤمنة ، وهي تسمع نبيَّها يقول مناجياً ربه :

« اللهم هذه قريش ، قـد أقبلت بخيلائها وفخرها ، تُحادُّك وتكذب رسولك ••

اللهم فَنصركَ الذي وعَدْتَني » •

ثم وهي تراه يغادر خيمته متهللاً ، يقول :

(سَيُهزَمُ الجمع ، ويُوَلّون الدُّبُر) •

صال الإيمان صولته المباركة ، فترنح الكفر وهوى الباطل ، وولَّت قريش الأدبار مخلِّفة تحت تراب الأرض التي دار فوقها القتال جثث فريق من زعمائها الذين أصْلوا المؤمنين المستضعفين عذابهم •

جاءت قريش إلى غزوة بدر يتقدم صفوفها الزاحفة ــ أبو جهل ، وعتبة ، وشيبة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف •• وعادت أدراجها تاركة هـؤلاء جميعاً جثثاً تقبع في ردم القليب ، وتاركة معهم سبعين قتيلاً وسبعين أسيراً •

عادت تلعق هزيمتها المنكرة •• وعادت أحقادها تستغويها من جـديد ، فقضت عامهـا كله تُعد نفسها وبأسها لغزو المدينة والظفر بالإسلام والإجهاز الكامل على الرسول وصحبه •

وفي نفس الموعد تقريباً ، خرجت بأسرها ، ومعها أفواج من بني كنانة وأهل تهـامة •• واصطحب أكثر المقاتلين نساءهم معهم ليبتعثن فيهم كـل حفيظة وضراوة وإصرار •

وكانت غزوة « أحُد » .. وكان يومها الرهيب ..!!

* * *

انتظم الجيش القرشي ثلاثة آلاف ، يقود المشاة أبو سفيان . ويقود الفرسان خـالد بن الوليد .

وخرج الرسول على رأس ألف من المسلمين . تناقص عددهم في منتصف الطريق إلى سبعمائة عندما عاد عبد الله بن أُبَيّ زعيم المنافقين ــ وكان قد أسلم نفاقاً بعـد الانتصار العظيم الذي أحرزه المسلمون في غزوة بدر ــ عاد ومعـه ثلاثمائة ، أغواهم فأطاعوه ..!!

أخـذ جيش الشرك مواقعه .. وصَفّ الرسول أنصاره المؤمنين جاعلاً ظهورهم إلى جبل أحُد ، واضعاً خمسين من الرماة فوق إحدى الروابي العاليـة ليحرسوا ظهور المسلمين ، وليطردوا بنبالهم المشركين إذا همّوا بمباغتة المسلمين من وراء . حيث كانت بالجبل ثغرة عريضة يستطيع المشركون لو نفذوا منهـا أن يلحقوا بالمسلمين أذى كثـيراً .

وبدأ القتال واحتدم أُوارُه ، ودارت الدائرة عـلى القرشيين . ولاذت جموعهم بالفرار . وراح المسلمون يجمعون الغنائم التي تركها أعداؤهم ، ونسي الرماة أمر الرسول لهم ألاّ يبارحوا موقعهم مهما تكن نتيجة القتال .. فهبطوا الوادي يشاركون إخوانهم بهجة النصر وجمع الغنائم والأسلاب .

وفجأة لوى قائد فرسان قريش يومئذ ــ خـالد بن الوليد ــ عنان فرسه وتبعه مائتا فارس ، فنفذوا كالسهام من الفتحة التي بالجبـل والتي كان الرماة يحرسون مدخلها .

باغت الفرسان المسلمين من ورائهم ، وأعملوا فيهم الطعن والضرب ، ورأى المشاة الذين كانوا قد غادروا المعركة هاربين .. رأوا ما أحدثه فرسانهم ، فعـاد بهم قائدهم يومئذ ــ أبو سفيان ــ ..وهكذا وقع المسلمون بين حصار رهيب.. ودارت المعركة من جـديد ، ولكنها كانت في جولتها هذه لحساب قريش التي

استغلت هـذا التفوق المواتي أبشع استغلال .

* * *

أين كان « حمزة » في ذلك اليوم الرهيب ..؟؟

كان هنـاك وسط أصحابه ورفاقه ، يقاتل ويقاتلون في استبسال مروع وعجيب .

لقد قاتل المؤمنون جميعاً يوم أحـُد ، كما لم يقاتلوا من قبل ، ومن بـَعد ..!!

أبو دجـانة .. ومصعب بن عمير .. وحنظلة بن أبي عامر .. وعاصم بن ثابت .. وعلي .. وأبو بكر .. وسعد .. ونسيبة بنت كعب .. وطلحـة .. والزبير .. والحارث بن الصمة .. وجميع الذين وقفوا فوق أرض المعركة من أصحاب القرآن ومحمد .. قاتلوا قتالاً ، نكاد ونحن نقرأ أخباره ، نبصرهم ونبصر عنفوانهم ونسمع صياحهم وهتافهم ..!! وكان « حمزة بن عبد المطلب » مع هؤلاء الذين باعوا أرواحهم لله .. كان معهم يصول ويقاتل ، لا تخطئه العين أبداً ، فهو معروف بسيماه . وريش النعام يزين به صدره كعادته كلما خـاض معـركة وقتالاً .

كان يغيظه مشهد لواء قريش وهو يخفق في سماء المعركة . ومن ثم ركـّز على حمـَلـَته ، فكان ينفذ إليهم كالصقر ، ويرديهم قتيلاً إثر قتيل ..

رأى عثمان بن أبي طلحة يحمل ذلك اللواء، وينشد شعر المباهاة والخيلاء ، فشق الصفوف اليه . وضربه بسيفه فأرداه ، وسقط لواء قريش تحت الأقدام .

ومرق « حمزة » كالسهم وسط الملحمة ، لا تنبو لسيفه ضربة ولا تتخلف المنـايا عن عزمـه .

ومرة أخرى يبصر لواء قريش يرتفع ، فيشق الصفوف إلى حامله أرطأة بن عبد شرحبيل ، فيرديه قتيلاً ، ويتمرغ اللواء من جديد في التراب اللزج بدماء المشركين .

ويعود إلى قلب المعركة ليصيب المنايا بسيفه المطيع على أعداء الله ورسوله..!!

ويبصر خلال لفتة سريعة ، مشركاً ينحني فوق راية قريش يريد أن يرفعها من الأرض لتخفق في يده من جديد ، فيكون أسرع إليه من أنفاسه المترددة في صدره •• وقبل أن يرفع الراية فوق ساريتها يكون سيف « حمزة » قد كومه بجوارها على الأرض الموحلة بالدماء •

حقاً إنه لكما وصفه الرسول « أسد الله وأسد رسوله » ••

إنه ليبلي أصدق البلاء وأروعه ، ويواجه بأس قريش بفؤاد ملؤه اليقين ، وإرادة يشحذها العزم ، وسيف لا يعرف الكلال •

* * *

ولكن قريشاً عندما كانت تجتر أحزانها وعارها يوم بدر •• ثم حين خرجت على بكرة أبيها إلى غزوة أحُد ، كانت قد وضعت نصب تدبيرها وخطتها أن تظفر باثنين • وليكن بعد ذلك ما يكون •

أما الاثنان فهما : الرسول •• وعمه حمزة ••

بل ان احتمال يأسهم من الظفر بالرسول ، الذي يعرفون مدى حب أصحابه له وافتدائهم إياه ، جعلهم يركزون بتخطيطهم وتدبيرهم على الظفر بـ « حمزة » رضي الله عنه وأرضاه •

ولقد رسموا كل الخطة التي تمكنهم من رأسه وهم بمكة قبل أن يغادروها ، واصطنعوا لذلك واحداً من أمهر الرماة ، بل لعله يومذاك كان أبرع من يضرب بالحربة فيصيب على الفور مقتلاً •• ذلكم هو « وحشي » غلام جبير بن مطعم •

كان عبداً رقيقاً من الحبشة ، فوعدوه بعتقه وتحريره إن هو قتل « حمزة » •

وتقدمت هند زوجة أبي سفيان ــ وكانت قد فقدت في بدر أباها ، وأخاها ، وابنها •• تقدمت من « وحشي » تزغلل عينيه بالذهب البراق الذي يُحلي معصميها وجيدها •• حتى إذا رأت لعابه يسيل وعينيه تنبهران لمجرد بريقه ــ فهو لا يطمع في امتلاك هباءة منه ــ ألهبت هند أمانيه وأوقدت نار طموحه إذ خلت بهذا الحلي الكثيف أصابعها فجلجل ، وقالت لوحشي وعيناها على عينيه

تستل منهما إرادته ووعيه :

ــ « كل هذا لك ، إذا أنت قتلت حمزة » •!!

وخرج وحشي معهم إلى الحرب ، بعـد أن أوصوه ألا دور له في المعركة سوى « حمـزة » •

وفي المعـركة ، وعلى أرض القتال كان حمزة كما شهدنا من قبل يصول ويقاتل ويجندل بالمنايا الماحقات أعـداء الله وأعداء رسوله •• وتتكسر قبل أن تبلغه سيوف المشركين الذين كانوا يحاولون مستميتين أن يصيبوه ولو بجـرح يقف نَهمه •• أو كسر يثلم سيفه ••!!

ولكن كان هناك رجـل فارع الطول يقبض على حربته المتحفزة ويتجنب مهاوي السيوف التي يضرب بها المسلمون • وعيناه على « حمزة » تغوصان وراء ووسط الطوفان المتلاحم وتطوفان ــ وكلما أفلت منهما مَرآه توقَّل الرجل مكاناً عالياً ليتابع بعينيه المتلصصتين فريسته وصيده •

يقول واصفاً لحظات من ذلك المشهد :

« ••• ووالله إني لأنظر الى حمزة ، ينطلق في عَرض النـاس ، مثل الجمل الأورق ، يَهُدّ الناس هَدّاً ؛ ما يبقي على شـيء ، فتقدمني إليه سباع بن عبد العزّى ، فصاح به (حمزة) هَلُمَّ إليّ يابن مُقطّعة البُظور •• وضربه ضربة ، فما أخطأ رأسه • عندئذ هززت حربتي ، حتى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه ، فوقعتْ في ثُنّته ــ ما تحت سُرّته ــ حتى خرجت من بين رجليه فأقبل نحـوي فغُلب على أمـره ووقع • وأمهلته حتى مات ، فجئت وأخذت حربتي ، ثم تنحيت عن القتال •• فما كان لي بعده حاجة » •••

★ ★ ★

ومضت المعركة إلى نهايتها المقدورة ــ سيوف تهوي ورماح تقـذف •• وصرعى يسقطون •• لا يُعرف من سقط ومَن بقي ، حتى استنفد اليوم الرهيب

جولتين .. الجولة الأولى التي شهدت انتصار المسلمين ، والجولة الثانية التي غشيتهم فيها محنة تتحدى كل احتمال .

أجـل ، كانت محنة قاسية .. بيد أنها لم تكن هزيمة . فما هُزِم الرسول في حيـاته أبداً .

لقد وعده الله بنصره دوماً .. ولقد صدق وعـده دوماً . والذي حدث في « أحُد » لم يكن شيئاً نقيض النصر .. لم يكن هزيمة أبـداً بأي معيار من معايير الحروب منذ عرفت الأرض الحروب حتى أيامنا هـذه ..

ويُسعدني أن أعْزُوَ هـذا الرأي لصاحبه ، شاهداً أنني فرحت بـه ، واعتقدته ، ورأيت فيه تصويباً وثيقاً للفكرة المغلوطة السائدة ، والتي تصوّر ما حدث يوم أحُد على أنه هزيمة .. نجهد قرائحنا في البحث عن تفسير وتبرير ينفيان عن الإسلام عارَها .

أما صاحب هـذا الرأي السديد ، فهو (مولاي محمد علي) العلاّمـة الهندي ، يعرضه في كتابه « حياة محمد ورسالته » [1] ولأنقل نصَّ كلماته :

« ... إن حالهم — يعني المشركين — لم تكن بأحسن من حـال المسلمين .

إنهم لم يجرؤوا على متابعة الحرب حتى النهاية خشية أن يُفضي ذلك إلى هلاكهم .

وهكذا انقلبوا عائدين مسرعين إلى مكة ، مجتازين عِدَّة أميال في يوم واحـد .

وفي طريق عودتهم تساءلوا عما إذا كان من حقهم أن يزعموا أنهم رجعوا ظافرين ...؟!

إنهم لم يكونوا يحملون أية غنيمة من غنائم النصر يعرضونها على أنظـار شعبهم .

---

(١) نقـله إلى العربية الأستاذ منير بعلبكي ، ونشرته دار العـلم للملايين ، بيروت .

ولم يكـن لديهم أسير حرب واحـد ..

أفيُعدّ هـذا نصراً ..؟؟

وكان الجيش الإسلامي لا يزال مسيطراً على ميدان القتال ..

وكان المشركون قد عجزوا عن احتلال المدينة رغم أنهـا تُركت بغـير دفـاع ..

أفيكون هـذا نصراً للمشركين ..؟؟

ولقد تعقّب المسلمون عدوّهم في اليوم التالي نفسه حتى موضع « حمراء الأسد » على مسافة ثمانية أميال من المدينة ولكن أبا سفيان الذي اعتبر الحصافة خـير عناصر الشجاعة نكص وهو وجيشه على أعقابهم وولّوا هاربين حين بلغتهم أنباء المطـاردة الإسلامية ..

إنه لَمِمّا ينمّ عن جهل بالوقائع التاريخية أن يستنتج المـرء أن المسلمين هُزِموا في معركة أحُد ..

صحيح أنهم مُنوا بخسائر باهظة ، ولكن صحيح أيضاً وبالقـدر نفسه أن قريشاً أُكرِهَت على العودة خائبة .

وهل نقع في التاريخ على حادثة انتصار واحدة ثَبَتَت فيها العدو المغلوب أقدامه في الميدان ؛ بينما انقلب الجيش المنتصر عائداً إلى وطنـه ؛ ليس معه أسير واحد .. بل ويُوَلّي الأدبار من لَدُنْ سماعه نبأ مطارَدة المسلمين له ..؟؟!! » .

* * *

لم يشهد المسلمون إذن تحت قيادة نبيهم الكريمة هزيمة أبداً ..

ولم يكن الذي حدث في أحُد رغم فداحته ليشكل هزيمة بأي معيـار من معايير الحروب .

فكما يقول « مولاي محمد علي » ـــ لم يكن هناك أسير واحد وقـع في

أيدي المشركين .. ولم يحتلوا من أرض الإسلام شبراً واحداً . ولم يحملوا معهم أياً من غنائم الحرب .. وكذلك لم يفرضوا أي شرط على المسلمين ولم يغيروا من واقع حياتهم شيئاً .. بل ووجدوا أنفسهم بعد النصر المزعوم بساعات يغذّون السير هاربين أمام مطاردة المسلمين الذين ظن المشركون أنهم أوقعوا بهم الهزيمة والغلب ..

كان الذي حدث إذن محنة لا غير ، استرد المؤمنون بعدها رباطة جأشهم ، وتوقّد عزمهم ، وأخذوا منها الدرس الذي شاء الله لهم أن يتعلموه ويحذقوه .

* * *

ولْنعُد لنبأ « حمزة » أسد الله وأسد رسوله (١) .

لقد انتهت المعركة في جولتها الثانية .. وقف الرسول بين أصحابه يتهيأ لمعرفة الضحايا والمستشهدين .

كانت متاعب اليوم وأهواله قد أصابت الرسول بإعياء شديد . وكان قد أصيب عليه السلام فكُسرت رباعيته ، وشُجَّ في وجهه ، وكلِمَت شَفَتاه . لكن ذلك كله كان هيناً ومُحتملاً ــ قبل أن تبدأ قوائم الشهداء تُتلى عليه . ثم قبل أن يأخذ طريقه إلى حيث صُرع عمه حمزة ليرى أبشع جريمة ترسم على جسده الكريم وحشيتها ..!!

كان الرسول قد أرسل بعض أصحابه يجوسون خلال أرض المعركة ليحصوا له الشهداء ويعرفوهم .

وجاءه الصحابة بالأنباء .. وراح كلما سمع اسماً من أحبّائه وأصفيائه يحتسب عند الله أجرهم ومصابه فيهم ــ مصعب بن عمير .. سعد بن الربيع .. أنس بن النضر .. أبو سفيان بن الحارث .. حنظلة بن أبي عامر .. عبد الله بن جُبير أمير الرماة الخمسين والذي ظل مكانه فوق الجبل حين هبط الرماة إلى الوادي يجمعون غنائم النصر في الجولة الأولى .. عمرو بن قيس وابنه قيس بن

---

(١) راجع المزيد عن شخصية « حمزة » وعظمة شمائله في كتابنا : (رجال حول الرسول) .

عمرو •• أوس بن ثابت •• عبد الله بن عمرو بن حرام •• عمرو بن الجموح •• وعشرات من إخوانهم ـ مهاجرين وأنصاراً ، ضَمَّخوا (يوم أحُد) بدمائهم الزاكية ، وجادوا بأرواحهم في سبيل الله ، وفازوا برضوانه وجناته ••

ورغب الرسول أن يراهم في مصارعهم ومضاجعهم ، فسار متحاملاً على بعض أصحابه ، عابراً بين الجثث المبثوثة ملقياً عليها سلام الله ورحمته ؛ مودعاً إياها بدعوات باكيات •!!

لكنه بدأ يتقزز ويجزع عندما أبصر بعضهم وقد مُزقت أجسادهم ومُثل بهم ••

ترى ماذا سيكون جزَعه عندما تبلغ به خطواته الوئيدة المجهدة مضجع عمه الحبيب «حمزة» فيرى بطنه مبقوراً •• وكبده منزوعة •• وأمعاءه مبعثرة ••!!!

عليك صلاة الله وسلامه يا خير من حملت الأرض ـ ويا أبرَّ من حملت الأرض ••

عليك وعلى عمك الشهيد المجيد صلاة الله وسلامه •

وعليك وعلى آلك وأصحابك صلاة الله وسلامه وبركاته •

★ ★ ★

كانت قريش قد جُنّ جنونها حين أدركت أنها لم تحرز أي نصر •• فالرسول لا يزال حياً مُعافى ••

وأصحابه لا يزالون حوله أحياء صامدين ••

والمدينة ، لا تزال شامخة ، لم يقتربوا من مشارفها •

وأيديهم فارغة من كل ثمرات النصر •• فلا غنائم ، ولا أسْرى •

إن كل الذي صنعوه بحملتهم التي حشدوا لها كل قواهم وأموالهم لم يزد عن مجزرة •

إن كل الذي فعلوه وهم ثلاثة آلاف ، أمام سبعمائة لا غير ، لم يزد عن قتلهم خمسة وستين من المسلمين •

فلتكن إذن « مجزرة » فوق مستوى ما ألِف الناس والتاريخ من مجازر ، حتى لو اقتضى ذلك منهم أن يلغوا كل رُشْدٍ لهم ، وأن يتخلّوْا عن أبسط مبادىء الشرف والرجولة عند العرب بل وعند الأعراب .

وهكذا راحوا يقترفون جريمة المُثْلَة ، وهي جريمة منكرة حتى بمعايير الجاهلية نفسها ..!!

وطبيعي أن يكون البطل الماجد « حمزة بن عبد المطلب » صاحب الحظ الأوفى من جريمة قريش النكراء ..!!

* * *

وهكذا رآه الرسول حين رآه ..

مزّقوا جسده .. بَقَروا بطنه .. انتزعت هند زوجة أبي سفيان كبده وراحت تلوكها في شماتة .. وانتزعت أمعاءه وجعلت من بعضها قلادة طوقت به عنقها .. وجدَعَتْ أنفه وأذنيه ..!!

ومهما يكن حلم الرسول واستسلامه لأمر ربه ، فقد كان بحاجة إلى ملء الأرض طاقة كي يستطيع أن يحتمل المشهد الذي تتصدع من هوله الجبال ..!!

لقد كظم غيظه .. ولكن إلى متى ..؟ كم من الدقائق ، بل من الثواني يستطيع بَشر مهما أوتي من القداسة أن يكظم غيظه أمام مشهد كهذا ..؟!

ولقد أسْبل جفنيه في أسى ومضض .. ولكن أكان إسبال الجفنين قادراً على إلغاء الحقيقة الصارخة والمشهد المزَلْزِل ..

لك الله ، يا رسول الله ..

لك الله ، يا نور الحياة وشرَفها .. يا خير الخلق ، ويا خاتم المرسلين ..!!

* * *

وقف الرسول يُغالب في نفسه وَقْعَ المشهد وأساه ، ثم قال وعيناه على جثمان عمه الحبيب :

« لَن أصاب بمثلك أبداً .. وما وقفتُ موقفاً قط أغيظُ إليَّ من موقفي هــذا » ..

ثم توالى على خـاطره حشد الذكريات .. فحمزة لم يكـن عم الرسول فحسب . بل هو كذلك تِربْه .. قضيا معاً طفولتهما وشبابهما ، ثم هو كذلك أخـوه من الرضاعة .

توالت الذكريات كلها على خاطر الرسول ، ومرت أمام مخيلته في موكب طويل .. لم تغب منها ذكرى واحدة .. لكأنما جاءت تودع صاحبها ، وتقـدم للرسول العـزاء ..!!

تذكَّر روعة يأسه .. وجلال أمسه ..!!

وكأنما ساءل نفسه ، أو ساءلته الذكريات . أحمزة مَن يُصنع به هذا ..؟!

تُرى أيّ عزاء يُقدم للجسد الممزق وأي تعويض ..؟

وقال الرسول ــ وعيناه تلفّان جسد عمه بِأساهما العميـق ، والكلمات تخرج من تحت أضراسه مغيظة مُنذ رة :

« لولا أن تحزن صفية ــ أخت حمزة وعمة الرسول ــ ولولا أن يكون سُنَّة من بعدي ، لتركته حتى يكـون في بطون السباع وحواصل الطـير ..!! » .

أجل .. فما في الأرض مكان يتسع لوقدة الثأر الذي يهتف بـه الجسد الممزق المفدوح .

أما في بطون السـباع ، فلعلها المكان المناسب لرفات الأسد ..

ثم تابع الرسول قـوله فقال :

« ولئن أظهرني الله على قريش ، في موطـن من المواطن لأمثّلن بثلاثين رجـلاً منهم » .

فصاح أصحابه :

« والله ، لئن أظفرنا الله بهم من الدهر ، لنُمثّلن بهم مُثلةً لم يمثلها أحد من العرب » .

وهنا يستكمل « يوم حمزة » جماله وجلاله ، وتتبدّى حكمة الله في كل ما حدث خلال اليوم للرسول وأصحابه ..!!

فلا يكاد الرسول والمسلمون يفرغون من إلقاء وعيدهم هذا ، حتى يتنزل الوحي من فوره :

(ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن..إن ربك هو أعلى بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين .
وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبْتم به .. ولئن صبرتم لهو خير للصابرين .
واصْبِرْ ، وما صَبرُك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ، ولا تكُ في ضَيْق مما يمكرون .
إن الله مع الذين اتقوْا والذين هم محسنون ..) .

وإن القَدر ترك الأمور في ذلك اليوم تجري لمصايرها التي انتهت إليها لحكمة بالغة .

وها هو ذا يجعل من جسد الشهيد بكل ما أصابه من مُثلة وتشويه موضوع درس اليوم العظيم ، ولتكن أشلاؤه المبتورة والممزقة وسائل إيضاح ..!!

انظروا .. أيها المؤمنون .. يا من تقفون هنا حول رسولكم ويا من ستجيئون عبر الأجيال إلى آخر الزمان ..

هذا هو حمزة .. عم الرسول ..

أكان الله عاجزاً عن استبقاء حياته ..؟؟

وهذا هو جسده الممزق ..

أكان الله عاجزاً عن حمايته من التمزيق والتشويه ..؟؟

أبــداً ..

فلماذا إذن حدث هــذا الذي يهزكم ويزلزلكم ..؟؟

إن رسول الله هنا ليعلمكم ..

ومنه ومن أهل بيته الأبرار يختار القدر نماذج التثقيف والقــدوة .

وما دام الحــق بحاجة إلى تضحيات تحميه وتفتديه ، فإن التضحية إذن هي شرف الإنسان وشرف الحياة .

وما دامت التضحية شرفاً ، فيجب أن يصرف النظر عن الشكل الذي يفرضه عليها الاضطهاد والبغي [1] .

وسواء على البطل أن يستشهد وجسده سليم ، أو يقضي وجسده ممزق .

كل ذلك ، وأكثر من ذلك يغطيه شرف التضحية ويحوّل أساه إلى مجد .. وفواجعه إلى بطولات ..!!

وانظروا .. أيهــا المؤمنون .

هذا رسولكم يغلبه غيظ الحليم ، فيتوعد المجرمين بأن يمثل بثلاثين مــن قتلاهم حين يظفر بهم غداً ، أو بعد غــد ..

فهل تركه الله يردد وعيده ..؟؟

أبــداً ..

لقد سمع الله قوله .. وفي مثل لمح البصر كان الوحي يقــول له : لا .. عاقِبوا بمثل ما عوقبتم به ..

(وَلَئِن صَبَرتُم لَهُوَ خَـيرٌ للصابرين)

* * *

تالله ، ما أروع الدرس وأبهــاه ..

---

(١) راجع كتابنا « أبنـاء الرسول في كربلاء » الفصل السابع (الحصاد والدس) .

فحتى في موطن القتال والحرب، يستهل الله كلامه إلى رسوله بقوله سبحانه :

(ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)

وفي موطن القتال والحرب ؛ لا يقولُ الله لرسوله : وقاتلهم بالتي هي أحسن.

بل يقول سبحانه :

(وجادلْهُم بالتي هي أحسن) .

مؤكداً بهذا طبيعة دوره وجوهر رسالته .. إنها النبوة تنقل إلى الناس هُدى الله بالكلمة الطيبة المقنعة..وليست الحرب تفرض نفسها بالسيف والرمح.

وإذا كان الرسول قد اضطر للحرب ، فلأن أعداءه وأعداء دينه صنعوا الظروف التي جعلت الحرب ضرورة .

وبانتهاء الضرورة واختفاء ظروفها يعود النبي لجوهر دَوْره ووظيفته ورسالته [1] .

* * *

هنا يتجلى صواب اختيارنا هذا العنوان « يوم حمزة » عنواناً على « يوم أحُد » بأجمعه ..

فمصرع حمزة ، والدروس التي أفادها مصرعه كانت مركز الثقل في أحداث اليوم كلها .

كل ما حدث دون مصرعه والتمثيل به وبإخوانه البررة كان يمكن أن يأخذ مكانه بين ما هو محتمل ومألوف .

فقريش كما سبق لم تحرز نصراً .. والمسلمون كما سبق لم تنزل بهم هزيمة.

لقد استشهد منهم خمسة وستون .. وقتل من قريش اثنان وعشرون .. أي أن كل حظ قريش من المعركة التي أعدّت لها عاماً بأكمله ورصدت لها كل قواها وبأسها ــ كان ثلاثة وأربعين قتيلا من المسلمين .

---

(١) راجع كتابنا « كما تحدث القرآن » .

ومجرد هذا الرقم من الضحايا أو حتى ضِعْفه أو أضعافه ، لا يشكل نصراً للضارب ولا هزيمة للمضروب ..

فما الذي جعل من يوم أحُد معلماً على الأسى في عصر الوحي بأجمعه ..

وما الذي أعطاه بين غزوات ذلك العصر وأيامه طابعاً مميزاً وأهمية فريدة..

إنه إذا استثنينا ما وقع للرسول من إصابات ، لم تحدث له قط ولم يتمكن من مثلها أعداؤه أبداً إلا في هـذا اليوم ..

أقول : إذا استثنينا هذا الذي حدث للرسول ، لم يبق هناك ما يرمز ليوم أحُد بنبض قوي مثل مصرع حمزة وما أفاءه من تجارب ودروس .

لقد قال الله لنبيه يومئذ :

(لئن صبرتم لهـوَ خـير للصابرين) .

ولقد صبر الرسول مفوضاً لله أمـره ومصيره ..

فماذا حدث ..؟؟

ماذا حدث مما يمكن أن يكون مثوبة لصبره في هذا اليوم بالذات .

ومما يمكن أن يكون تعويضاً مباشراً عن حمزة ورفاقه الشهداء ؟؟

حدث شـيء عجيب ..

فخالد بن الوليد قائد الفرسان يوم أحُد ــ والذي تسبب في الكارثة كلها وحوّل نصر المسلمين إلى محنة حين باغتهم بفرسانه من الوراء ..

« خالد » هذا بكل عبقريته وجبروته ، قدّمته الأقدار هدية مباركة للرسول وللإسلام وللمسلمين .!!

فبعد غزوة أحُد بعامين اثنين ، كان « خالد بن الوليد » يأخـذ مكانه بين الذين قاتلهم بالأمس مؤمناً أوّاباً ، وجندياً مطيعاً .

أجل .. كان عبقري الحرب وعملاقها يجلس عند قدمي رسول الله ﷺ يتفجر حباً وولاء وإخلاصاً .

ولنتصور الآن : لو أن الرسول والمسلمين ظفروا في موقفهم المغيظ « يوم حمزة » بخالد بن الوليد ، وقتلوه ومثلوا به ، فمن ذا الذي كانت عبقريته ستهيل عرش كسرى وقيصر ...؟؟

من الذي كانت جنوده ستمضي كالقدر ، زاحفة صوب العالم القديم ، رافعة فوق أنقاضه راية القرآن والإسلام ...؟؟

من ذا الذي كانت تدخره الأقدار لكل ما تم على يد « خالد » من فتوح ومعجزات ...؟؟

أو لم يقل الله لرسوله يومها : (ولئن صبرتم ، لهو خير للصابرين) ...؟؟

ولقد صبر ...

وها هو ذا الخير يأتيه في موكب عريض .. فبعد إسلام خالد وعمرو بن العاص ، تتوالى انتصارات الإسلام .. فاليهود تخيب كل مساعيهم ضد الدين القويم ، ويجلون عن المدينة وما حولها .. وغداً ، تفتح مكة ، وتستسلم قريش بأسرها ، ويسارع أبو سفيان قائد جيش الشرك في غزوة أحُد وسواها .. يسارع إلى خيمة الرسول نادماً يعلن إسلامه .. وبعد غد تدخل الجزيرة كلها في دين الله أفواجاً ، ويتم الله نوره ...!!!

كل هذا المستقبل الباهر العظيم ، تلقّى الرسول والمسلمون بُشْراه في نفس ذلك اليوم الذي غشيتهم فيه الفجيعة والأحزان .

ذلك اليوم الذي ناداهم الله فيه وصدورهم تتحرق غيظاً ونقمة . قائلاً لهم : (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) .

فحنوا جباههم لدعوة الله ، واحتسبوا لديه زعيمهم الجليل حمزة واحتسبوا لديه رفاقهم الأبرار شهداء اليوم الرهيب .

أجل .. لقد نفض الرسول عن خاطره فكرة الثأر في نفس اللحظة واحتسب عمه الحبيب بكل ما أصابه عند الله .. حتى حين رأى بعض نساء الأنصار يبكين

حمزة ويَذكُرْنَ مناقبه ثناً منهم أن ذلك يُثلج صدر الرسول ، نهاهن وأمرهن بصمت جميل .

بل وحتى حين رأى عمته (صفية).مقبلة نحو جدث أخيها الشهيد ؛ خشي أن يغلبها الحزن والفجيعة فتتصرف بطريقة تنقص ثواب الاحتساب .

هنالك طلب من ابنها (الزبير بن العوام) أن يلقاها ويرجع بها حتى لا ترى ما أصاب أخـاها .

ووقف الرسول عليه وعلى آله وصحبه الصلاة والسلام .. وقف ملقيـاً سمعه لحديث الزبير وأمه صفية ، فسمعه يقول لهـا :

« إن رسول الله يأمرك أن ترجعي » .

وسمعها تجيبه :

« ولمَ أرجع وقد بلغني أنه مُثِّل بأخي ..؟؟

وذلك في الله ،فما أرضانا بقضائه، لأحتسبن ولأصبرن إنشاء الله.» .

وكانت هـذه الكلمات عزاء جميلاً أبهج صدر الرسول فنادى الزبير :

« خَلِّ سبيلها يا زبير » .

وجاءت ، فسلَّمت على أخيها وصلَّت عليه واستغفرت له ومضت في سلام .

* * *

ودفن « حمزة » بعـد أن صلى عليه الرسول مرة واحـدة .. ثم مرات كثـيرة بعدد الشهداء الذين كانوا يوضعون بجوار « حمـزة » فيصلي عليهم الرسول شهيداً بعـد شهيد .

وثوى البطل العظيم بين رفـاقه العظام .

وعـاد الرسول وصحبه إلى المدينة ليستأنفوا تبعاتهم الجليلة ، وليواصلوا أعباءهم المتجددةفي مسيرة الإسـلام .

يوم الحديبية

(فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا ...
فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً)

أيّ يوم مثير .. وأيّ يوم مبشّر .. وأي يوم باهر القسمات رائع الدلالة، كان هذا اليوم ...؟؟!

إنه ليكاد يكون نسيج وحده في الكشف عن جوهر الرسول وجوهر الرسالة وجوهر المؤمنين .

فلا نكاد نعرف يوماً وضع إيمانَ الصحابة موضع الامتحان الشاق والشاهق، كهذا اليوم ..

ولا نكاد نعرف يوماً جلّى حقيقة الرسول كأبٍ للسلام والمرحمة، وجلّى حقيقة الإسلام كأطيب مُناخ للسلام والمعْدلة كهذا اليوم ..

كذلك، فإن المسافة التي لا منتهى لها، والتي تفصل بين علم الله ومعرفة المخلوق .. بين حكمة الله وحكمة الخلق، قد وَضحت في ذلك اليوم المجيد وتأكدت على صورة تبهر الألباب .

وتبدأ مزايا «يوم الحديبية» .. بمجيئه في أعقاب غزوة الخندق .. هذه الغزوة التي حشدت قريش لها كل بأسها، وخرجت بتحريض اليهود مصطحبة معها حلفاءها، قاصدة المدينة لتغزوها داراً داراً، ولتجْهز في غير رحمة على المسلمين جميعاً .

في ذلك اليوم هدّد المسلمون بخطر ماحق، ورأوا أنفسهم فجأة بين جيش قريش وحلفائها يزحفون على مدينتهم الوادعة من الخارج، ويهود بني قريظة يتهيأون لطعنهم من الداخل .

وليس ثمة ما يعبّر عن المحنة التي وجد المسلمون أنفسهم بين إنيابهـا ، مثل آيات القرآن الكريم التي وصفت وصوّرت ذلك الموقف المدمدم الرهيب :

(.. إذ جاءوكم من فوقكم . ومـن أسفل منكم . وإذ زاغت الأبصار . وبلغت القلوب الحناجر وتظنّون بالله الظنونا .. هنالك ابتلي المؤمنون ، وزُلزِلوا زلزالاً شديداً) ..!!!

ولكن ، من ظلام المحنـة ، بزغ نور الظفر .. ومن حلكة اليأس أضاءت بشائر المستقبل .

فبينما الرسول والمسلمون يحفرون الخندق حول المدينة غَلُظت على بعض الأصحاب صخرة عاتية ، فعلاها الرسول بمعوله وضربها ثلاث ضربات ، ومـع كل ضربة كانت الصخرة المتكسرة تبرق بوهج مجيد ، كبّر الرسول حين أبصره . وحمد الله ، إذ رأى خلال ذلك معظم الأرض الواسعة التي ستخفق فوقها غـداً وبعـد غـد راية الإسلام والقرآن .

وأما قريش وحلفاؤها من بني كنانة وتهامة وغطفان ، فقد سخر الله منهم وأنزل بهم خذلاناً ـ أي خذلان ..!!

لقد أراد الله سبحانه أن يكون هذا اليوم معجزة لدينه ولرسوله . فـلم ينشب قتال .. وصفّى القدر حسابه مع الغزاة البغاة بإحدى معجزاته الباهرات .

ففي بضع ليال متوالية اشتد بردها حتى الصقيع ، جاءت ريح عاصفة كريح السموم اقتلعت خيامهم وأهلكت دوابهم . وشتّتت جموعهم . ووقف أبو سفيان، قائد قريش يقول لجيشه المبعثر :

« يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقـد هلك الكراع ـ الخيل ـ والخُفّ ـ الإبل ـ وأخلفتنا بنو قريظة . ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قِدْر .. ولا تقوم لنا نار . ولا يستمسك لنا بنـاء .. فارتحلوا فإني مرتحل » .

وانسحب الجيش المترنح خزيان صاغراً ذليلاً .

لم تشهد تلك الغزوة أي قتال .. ومن ثم كانت المعجزة ، والمعجزة وحدها ، بطلَ النصر العظيـم ..

وإذا استثنينا الجهد الذي بذله المسلمون في حفر الخندق ، ومبارزتين قتل في إحداهما مشرك ، وهـرب الثاني .. ثم تلك الحيلة البارعة التي أفسد بهـا « نعيم بن مسعود » جو الثقة المتآمرة بين قريش ويهود بني قريظة .

إذا استثنينا هذه الأعمال الثلاثة ، لا نجـد بعد ذلك جهداً بشرياً لكسب حرب لم يصادف المسلمون مثلها ضراوة وتآمراً وبأساً . إنما نجـد « المعجزة » وحدها تؤكد للمسلمين أن النصر من عند الله .. وتؤكـد لهم أن « محمداً » حـق .. وأن « الإسلام » حق .. وأن الله على ما يشاء قدير ..!!

* * *

نقول : كانت أولى مزايا « يوم الحـديبية » أنه يجيء في أعقاب غـزوة الخندق هـذه ، بما سجلته من هزيمة ساخرة وقاهرة للمشركين . ومـن نصر باهر ومعجز للمؤمنين .

كان الرسول قادراً ساعتئذ أن يطارد الجيش الغازي ويجهز عليه . لكنه لم يفعل ، لأن الحرب لم تكن وظيفته .. بل كانت ضرورته .. فإذا انصرف عنه عدوّه حمد الله وعاد إلى وظيفته الأساسية :

(.. شاهداً ، ومُبَشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منـيراً) .

أجل .. إنه لم يتمنَّ الحرب قط ، ولم يسعَ إليها ولا رغب فيها . ولقـد كان يعلم أصحابه فيقول :

« لا تتمنوا لقـاء العـدو وسَلوا الله العافية وإذا لقيتموهم ، فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف . » .

إنه لا يريد الحرب ، لأنه رسول لا مقاتل . ولكن إذا أراد الباطل أن يملي عليه غروره وبغيه ، فجنته حينئذ تحت ظلال سيفه ، يود أن يقتل في سبيل الله ،

ثم يحيا ويقتل .. ثم يحيا ويقتل ..!!

وهكذا عزفت نفسه عن مطاردة جيش كسير ، كان قادراً ـ لو تعقّبه ـ على إبادته أو إعطـابه .

كذلك تسامت نفسه الطاهرة العالية عن زهو المنتصرين وصلف الظافرين . وتمنى أن تكون قريش قد حَذِقت الدرس وتطامنت أمام المعجزة ، وقررت أن تلقي سلاحها وتبرأ من جنون الحرب وعقدة التعاظم .

وأخذه الحنين الوارف إلى بيت الله الحرام بمكة ، ورغب أن يبدأ مسيرة مباركة إليه .. لكن شهر رمضان قد أهلّ هلالُه ، فبقي الرسول بمدينته المنورة رمضان وشوّالاً . وفي شهر ذي القعدة من ذلك العام ـ السادس للهجرة ـ خرج ومعه قرابة ألف من أصحابه قاصدين المسجد الحرام ، ليعتمروا ويزوروا . خرجوا يرتدون ملابس الإحـرام ، ويسوقون الهَدْي أمامهم ، آيـةً أنهم لا يريدون صداماً .

فلنقف الآن مبهورين أمـام هـذا المشهد الفذّ .

رسول ، لا تترك قريش فرصة لقتاله إلا تناولَتْها .. وقد سارت إليه منذ شهرين لا غـير في عشرة آلاف مقاتل من بنيها لتحصد المدينة حصداً .. وهي وإن تك قـد عادت خائبة ، إلا أن جيشها وعتادها لا يزالان سليمَيْن ، ثم إن الخيبة التي نزلتْ بها تزيد حقدها ضراماً .

مع هذا كله ، يذهب الرسول إليها طائعاً مختاراً في ألف فقط أو أقلّ من الألف ، مغمدين سلاحهم ، متجرّدين من قوتهم .

إنها الثقة المطلقة بالله .. ثقة رسول صادق يعلم أن الله اصطفاه لرسالته .

وإنه الولاء الوثيق للسلام يحمل صاحبه دائماً على إحسان الظن بالخصم وتمني الهـدى له .

* * *

خرج الرسول وأصحابه ، تسبقهم أشواقهم إلى البـلد الذي شهد مراتع

صباهم وشبابهم ، وإلى البيت الحرام الذي جعله الله مثابةً للناس وأمناً •• حتى إذا بلغوا عسفان ، على مرحلتين من مكة ، لقيهم من أنبأهم أن قريشاً قد علمت بهذه المسيرة ،وأنها خرجت على بكرة أبيها ، وأخذت مواقعها على مشارف مكة لتصد الرسول والمسلمين بقوة السلاح عن دخولها •

وكان جواب الرسول على هــذه المفاجأة القاسية :

« يا ويح قريش ••
لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر العرب ،
فإن هم أصابوني كان الــذي أرادوا •• وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين •• وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة •
فما تظن قريش ••؟؟
والله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهــره الله أو تنفرد هــذه السالفة ••• » •

وعدل عن الطريق المفضية إلى حشود قريش تفادياً لأي صدام •

عدل عنها رغم استوائها إلى طــريق آخر وعــر ، يضر الأجساد ، ويدمي الأقدام •• وتابع الرسول ســيره حتى بلغت مسيرته وأصحابه مهبط الحديبية على مقربة من مكة •• ونزل المسلمون ونصبوا خيامهم • ووقف الرسول مولياً وجهــه صوب مكة ، وعيناه ترسلان نظراتهما الحانية إلى مشارفها الآســرة ، وراح يقــول :

« لا تدعوني قريش اليوم إلى خـُطـّة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياهــا » !!

إن رحمته لتجاوز الحــدود المألوفة لرحمة البشر •• إنها لتمتد وتنبسط حتى تنال شانئيه وأعــداءه •• إنهم بدل أن يكونوا موضع نقمته ، أصبحوا موضع رثائه وشفقته •• إنه يرجو لهــم التعقل والأناة ليذَروه وشأنه ، يبلّغ كلمة الله ويهدي الى الخير عباده •• بل حتى في حالة الحرب إذا أصروا عليها ،

يشفق عليهم أن يحاربوا وهم يترنحون من إعياء الخيبة التي أدركتهم يوم الخندق، فيتمنى لهم أن يقاتلوا — حين يقاتلون — وبهم وَفْرَة ، كما رأينا في كلماته السالفات ..

أي إنسان كامل كان أبا القاسم صلى الله عليه وسلم ..؟؟!!

* * *

وجاءه وفد من خُزاعة تحت إمرة « بُديل بن ورقاء » وسألوه عليه السلام : ما الذي جاء به ..؟ فأنبأهم أنه جاء ليزور البيت ويؤدي له مناسك التكريم وشعائر التعظيم ، وأنه لم يأتِ لحرب أبداً .

وعاد الوفد إلى قريش يلومهم على احتشادهم المسلح أمام جماعة جاءوا لبيت الله — لكن القرشيين ركبوا رؤوسهم ورفضوا أن يدخل المسلمون ورسولهم مكة بحال .

وأرسلوا مبعوثاً لهم يطلب من الرسول أن يرجع بأصحابه .. وقال له الرسول ما قاله من قبل لبديل بن ورقاء .

وأرسلت قريش مبعوثاً ثانياً ، لم يكد يرى الهديَ يسيل في جنبات الوادي مزداناً بقلائده ، حتى أدرك أن الرسول وصحبه لم يأتوا لغير عبادة ، ونسك ، فاستحيا أن يذهب ببلاغ قريش إلى رسول الله واختصر الطريق وعاد ليقول لقريش :

« أيُصدّ عن بيت الله من جاء معظّماً له ..؟

والذي نفسي بيده ، لتُخَلُّنّ بين محمد وما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد » .

ولم تطامِنْ قريش من غرورها ، فبعثت مبعوثها الثالث .. جاء ليقول للرسول عليه الصلاة والسلام :

« إنها قريش ، قد خرجت معها العوذ المطافيل ، قد لبسوا جلود النمور ، وتعاهدوا ألا تدخلها عليهم عنوة أبداً » .

وطال حديثه إلى الرسول ، وكاد المغيرة بن شعبة صاحب رسول الله يتر

يده بسيفه حين تناول لحية الرسول وهو يحادثه ، لولا بسمة انفرجت شفتا النبي وتهلل بها ثغره ، وإشارة من يمينه المباركة للمغيرة كي يكفّ غضبه ويسكت..!!

وعاد « عروة بن مسعود » مبعوث قريش هذا ، إلى قومه مأخوذاً مبهوراً .

عـاد يقول لهم :

« يا معشر قريش . إني قد جئت كسرى في ملكه .. وقيصر في ملكه .. والنجاشي في ملكه .

وإني والله ما رأيت ملكاً له من المنزلة في قومه مثل ما لمحمد في أصحــابه .

ولقد رأيت في أصحابه قوماً لا يُسْلمونه لشيء أبداً . فَرَوْا رأيكم » .

ودارت الأرض بقريش ..

وبينما شيوخها يفكرون ، قدم عليهم مبعوث للرسول لم يكادوا يبصرونه حتى فجروا غيظهم الأحمق ، فعقروا البعير الذي كان يركبه ، وَهموا به ليقتلوه لولا أن منعتهم الأحابيش وتركوه يرجع سالماً إلى رسول الله .

ولم يجزع النبي ولم ييأس ، فدعا « عثمان بن عفان » وأمــره أن يذهب إلى قريش ليبلغ أشرافها ورجالها أنه لم يأت لحرب .. إنما جاء معتمراً وزائراً لبيت الله الحــرام .

أي بَشر ، مهما تكن حبال صبره طويلة ، لا يغضب لنفسه أمام كل هذا العنت والتجبر ..؟؟

ولكن رسول الله يخرج عن كل نفسه إلى طاعة ربه ورضوانه.وهو لا يتخلى عن الصفح الجميل ونشدان السلام ، حتى حين يساء فهم موقفه النبيل .

وذهب « عثمان » وبلّغ رسالــة الرسول ، ورفضت قريش كل دعــوة للتعقل .. وأذنت لعثمان أن يزور البيت الحرام ويطوف به إذا شاء .. لكنــه رفض ، وقال كلماته العظيمة :

« ما كنت لأفعل ؛ حتى يطوف به أولاً رسول الله » !!

واستبقته قريش عندها ؛ وطارت إلى المسلمين شائعة قوية تعلن مقتل « عثمان » بأيدي قريش •

* * *

شائعة ••؟

ومقتل عثمان ••؟

وهل هذا مقام ، وهل هذه مناسبة يترك الله فيهما رسوله ليكون نَهب شائعة من الشائعات •؟

وإذا لم يسعف الوحي رسول الله باليقين في مناسبة محفوفة بالخطر كهذه المناسبة ، فمتى يكون الإسعاف ••؟!

شبهة قد ترد على خاطر القارىء المتعجل ، لكن مع قليل من الأناة ندرك أن الوحي لم يحرم الرسول في هذا الموقف من بركة اليقين ••

صحيح أن الوحي لم يأته في نفس اللحظة ، ليقول له : إن عثمان لم يقتل ، ولا يزال حياً معافى •• ذلك لأنه كان قبلاً قد بشّر الرسول بعاقبة الموقف كله ، وأعطاه في رؤيا صادقة صورة الموقف كله : دخول المسجد الحرام آمنين ، والرجوع إلى المدينة سالمين ••

ورُسُل الله الأعْلَوْن ، لا يعاملهم الوحي ولا يعلمهم بطريقة التَّهْجية ، بل هو يدَعهم يواجهون عظائم الأحداث والأمور بكدح البشر ومُعاناة الرواد ، وحسبهم ذلك اليقين الأكبر الذي منحهم الوحي إياه حين أعلن إليهم اصطفاء الله إياهم ، ووعده بنصر الرسالات التي ملأ بها قلوبهم وتوّج بها كواهلهم •

وهكذا لم يكن الرسول بحاجة ماسة إلى ما يزيدهُ في موقف الحديبية يقيناً بأن الله منجز وعده ، وحافظه وصحبه في هذه المسيرة التي بشّر بها •• فهناك اليقين العام الذي يعمل الرسول في دائرته •

لقد رأى رؤيا صادقة ـ ورؤيا الأنبياء حق ـ أنه وأصحابه سيأتون مكة ويزورون المسجد الحرام دون أن يعكرَ مسيرتهم حادثة على مستوى قتل صحابي من كبار أصحابه كعثمان بن عفان رضي الله عنه .

فهو لهذا يشعر رغم قوة الشائعة بطمأنينة نفس .. وإذا كان القدر قد ترك في هـذا الموقف قدْراً من الشك والفراغ المجهول بشأن هذه الشائعة ، فذلك طبيعي حتى يأخذ الجهد البشري حظه من حرية الحركة وصنع الأحداث .. فبمثل هـذا تبلغ القدوة بالمرسلين مداها وتعطي ثمارها في دنيا الناس .. وهكذا رأينا الرسول عليه السلام يواجه الموقف بعقلية القائد وطمأنينة الرسول .

فهو أمام شائعة العدوان على حياة مبعوثه يرى أن قريشاً قد أعطته الحق المحتوم في مناجزتها ، فينادي أصحابه إلى بيعة خلَّدها القرآن باسم « بيعة الرضوان » .

وهو أمام طمأنينته بصدق ما رأى وما وُعد ، يحسّ كأن الشائعة غير صحيحة ، ومن ثم نراه عليه السلام بعد أن بايع أصحابه وبايعوه على مناجزة قريش ، يضع إحدى يديه على الأخرى قائلاً :

« وهـذه بيعة عثمان » ..

أي أنه تلقى البيعة من نفسه لنفسه نيابة عن صاحبه عثمان .

وتفسير ذلك أنه عليـه الصلاة والسلام كان ينظر إلى عثمان .. بوصفه « غائباً » لا ميتاً ولا مفقوداً .. ولهذا أثبت له بيعة الأحياء .

إن يوم الحديبية حين نطالع في التاريخ أنباءه ، كان مدرسة رائعة لدروس روائع ..

● إن تأهيل المسلمين لحمل أمانة الإسلام بكل ما يفرضه ويتطلبه من ثقة مطلقة بحكمة الله ، وتسليم مطلق لأمره ، قد تم في ذلك اليوم على خير نسق ..

● وإن وضوح حقيقة الإسلام، كدين يهدي ولا يكرِه ..وسيلته الحجة، لا السيف .. والإقناع لا القهر ، قد تجلى في ذلك اليوم كنور الصباح ..

● وإن أعظم عملية صهر واختبار للقوة النفسية التي يشكلها إيمان المسلمين ، قد تمت في ذلك اليوم ، طاردة عن تلك القوة كلَّ شوائب التردد والضعف ، صاعدة بها إلى أعلى درجات التمكن والوثوق .

* * *

ولقد كان اليوم من أولى ساعاته مفعماً بالأحداث التي شاءها القدر الحكيم لينضج عليها روعة الإيمان الذي يملأ قلوب هذه الثلة المباركة من أصحاب الرسول .

لكن هذه الأحداث بلغت قمة التمركز والجيشان حين أرسلت قريش مبعوثها الأخير « سهيل بن عمرو » لعقد صلح مع رسول الله يكون أساسه العدول نهائياً عن دخول مكة هذه المرة حتى لا يتحدث العرب أن الرسول والمسلمين قد دخلوها عليهم عنوة .

وعلى الرغم من أن « سهيلاً » كان مفاوضاً بارعاً ، إلا أن النجاح الذي أحرزه لم يرجع قط إلى براعته .. إنما يرجع أولاً وأخيراً إلى رغبة الرسول في حقن الدماء ومنح قريش كل فرصة تمكنها من التغلب على غرورها وحمقها وضلالها ، وإقناعها بكل سبيل ؛ أن الإسلام دين محبة وسلام .. وبِر ومرْحمة .

* * *

جلس سهيل أمام الرسول ومن حوله أصحابه يتدارسون شروط الصلح المأمول .

وكلما دار الحديث حول شرط من تلك الشروط ، غلت صدور الصحابة كالقدور .. فقد كان الأمر كله يبدو لصالح قريش دون المسلمين .

ثم جاء دور تسجيل المعاهدة في صحيفة .. ولنُصغِ الآن لما يقوله الذين شهدوا الواقعة :

« .. ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب .

فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم

فقال ـ سهيل ـ لا أعرف هذا .. ولكن اكتب باسمك اللهم ..!!

فقال الرسول لعلي : اكتب : باسمك اللهم ..
ثم قال : اكتب : هـذا ما صالح عليـه (محمد) رسول الله ، سهيل بن عمرو .
فقال سهيل : لو أعلم أنك رسول الله ما قاتلتك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ..
فقال الرسول لعليّ : اكتب ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، سهيل بن عمرو .. اصطلحا على وضع الحـرب عن الناس عشر سنين ، يَأمَنُ فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض ــ على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم .. ومن جـاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه .. وإن بيننا عَيبة مكفوفة ــ أي شر مكفوف ــ وإنه لا إسلال ولا إغلال ــ لا سرقة ولا خيانة ــ وانه من أحب أن يدخل في عهـد محمد دخل فيه .. ومن أحب أن يدخل في عهـد قريش دخل فيه .
وأنك ترجع عنا عامَك هذا فلا تدْخل علينا مكة . وأنه إذا كان عام قابل ، خرجنا عنك فتدخلها بأصحابك تقيمون بها ثلاثاً ، معكم سلاح الراكب ، السيوف في القُرُب ، لا تدخلها بغيرها » ..

* * *

ما نحسب الرسول عليه السلام واجه موقفاً متأزماً ومثيراً كهذا الموقف .. وما نحسب المسلمين واجهوا ــ حتى أيام محنتهم وتعذيبهم بمكة ــ موقفاً هزّهم هزّاً عنيفاً كهذا الموقف في ذلك اليوم .!!

لقد انتصروا على المشركين في كل حرب خاضوها معهم من قبل .. ولقد عجزت قريش عجزاً مطلقاً عن أن تدخل عليهم مدينتهم أو تحتل شبراً واحـداً منها . وها هي ذي لا تزال تجتر مرارة الخيبة التي حاقت بها في غزوة الخندق .. ألم يكن جديراً بهذا كله أن يجعل كفة المسلمين هي الراجحة في صلح كهذا ..؟؟ فما بال الأمر يجري على النقيض ..؟!

تلك حكمة الله ، يا أصحاب الرسول ..

وتلك عَظمة هـذا اليوم الباهر والجليل ..!!

* * *

لقد رفض مبعوث قريش أن يبدأ عهد الصلح بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » لأن كلمتي « الرحمن الرحيم » كانتا تمثلان الوصف الجديد الذي يعرف المسلمون به الله رب العالمين .. ثم رفض بأن يُكتب : « هـذا ما صالح عليه محمد رسول الله » وطالب بأن يُحذف عن الرسول وصف الرسالة .. وفي كلا الأمرين استجاب الرسول من فوره .

ثم فرضت معاهدة الصلح أن يرجع المسلمون عامهم ذاك دون أن يدخلوا مكة ويزوروا المسجد الحرام .

ثم حددت مدة إقامتهم حين يعودون في العام القادم بثلاثة أيام ، لا يبقون بعدها ساعة من نهـار ..

ثم فرضت على المسلمين أن يردوا إلى مكة كل من غادرها إلى المدينة ليعتنق الإسلام من غـير إذن وليّه .

كل هـذا قبله الرسول وأمضاه .. أما المسلمون فقد كاد صوابهم يطير . واستجاش الموقف كل ما في صدورهم من عـزّة وكل ما في عروقهم من دم ، ووقعوا في حيرة مرهقة من كبْت مشاعرهم احتراماً لقرار الرسول ، وترك هـذه المشاعر تتفجّر وتمور نقمة على قريش وغرورها ..!!

وتلاقت نظراتهم حَيْرى متسائلة .. ولم يستطع « عمر بن الخطاب » أن يصمت ، فسأل الرسول :

« ألسْت رسول الله حقـاً ..؟

قال الرسول : بَلى ..

قال عمر : أوَلسنا بالمسلمين ..؟

قال الرسول : بَلى ..

قال عمر : أوَليْسوا بالمشركين ٠٠؟

قال الرسوْل : بَلى ٠٠

قال عمر : فَلِمَ نُعطي الدَّنيَّة في ديننا ؟

قال الرسول : أنا عبد الله ورسوله . لن أخالف أمره ، ولن يضيِّعني » ٠

لقد سمع المسلمون هذا الحوار ٠٠ وعلموا أن الرسول وإن يكُ قد وعدهم بدخول مكة وزيارة البيت الحرام ، فإنه لم يقل لهم : هــذا العام ٠٠٠

ولكن رغم ذلك كلــه كان الموقف صعباً وثقيلاً على قوم أعــزة زادهم الإسلام عزة وصلابة ٠

ولقد زاد الموقف توتراً وصلابة حين أقبل على الرسول شاب يعدو ، وألقى نفسه بين يديه هاتفاً بكلمة الإسلام ٠٠٠!!

كان الرسول قد فرغ لتوِّه من توقيع معاهــدة الصلح ٠٠ وكان الشاب « أبو جَندل » ابن سهيل بن عمرو الذي فاوض الرسول وأمضى المعاهــدة نيــابة عن قريش ٠٠

أخذ أبوه بتلابيبه . وراح يضرب وجهه في وحشية بالغة ٠٠ ولما رأى حنان الرسول يتألق في عينيه صاح قائلاً :

« يا محمد ٠٠ لقد لَجَّت القضية . وتم العهد بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا » ٠

وقال الرسول والأسى يمــلأ نفسه : ــ صدقت ٠٠

لقد صار واجباً على المسلمين بحكم المعاهدة التي تم إبرامها من لحظة أن يردّوا (أبا جندل) إلى قريش ٠٠

وهكذا قاده أبوه أمامه ليرده إلى قريش التي كانت قد شوَّهت جسده بتعذيبها إياه من أجل اعتناق الإسلام ٠٠

قاده أمامه ، يدفعه ويضربه بينما راح (أبو جندل) يتلفت صوب المسلمين وينــادي :

« يا معشر المسلمين ! أتتركونني أُردّ إلى المشركين ، يعذبونني ويفتنونني في ديني ؟. » .

وقال له الرسول عليه السلام :

« يا أبا جندل ! اصبر واحتسب ، فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً » !!

بينما شد هذا المشهد زناد التوتر النفسي إلى أقصاه في نفوس المسلمين . وصار الموت أهون عليهم وأحب إليهم من أن يتخلوا هكذا عن نصرة أخ لهم تطحنه ــ وهم يبصرون ــ أنياب الشرك والطغيان .

لكن الله بالغ أمره ..

ولقد أراد في هذا اليوم المشهود أن يظهر للمسلمين يومئذ ، وللمسلمين القادمين إلى يوم القيامة ، قبساً من حكمته وتدبيره ليعرفوا بعد ؛ كيف يؤمنون به ، ويفوّضون إليه ، ويعتمدون عليه ...

أراد ــ سبحانه ــ أن ينفي عن إيمان المؤمنين كل بقايا التردد والتساؤل ..

وأراد ــ سبحانه ــ أن يُعلّم أولئك الذين امتشقوا سيوفهم دفاعاً عن الإسلام ، أنه مهما يكن نبل المقصد الذي أُشرعت من أجله السيوف ؛ فإن الإسلام دين سلام ... وأنه يجد فرصته المواتية خلال الموادعة والمصالحة والسلام .. وهكذا ، لن يمر عامان من يوم الحديبية هذا حتى يدخل المسلمون مكة في عشرة آلاف يتقدمهم رسولهم الأمين الكريم ، وحتى تدخل مكة كلها في دين الله ، ملقيةً إلى الأبد حقدها على الإسلام وعلى المسلمين .!!

* * *

لقد بدا واضحاً جلياً أن كل أحداث ذلك اليوم كانت من تدبير القدر الحكيم .

بدا ذلك ، حينما كان الرسول والمسلمون في طريق عودتهم إلى المدينة فإذا الوحي يتنزل على الرسول بسورة « الفتح » مفسراً تلك الأحداث ؛ ومعلناً قبساً من حكمة الله فيها .

لقد أعلن الوحي أن صلح الحديبية رغم ما وجده المسلمون فيه من عنت ، إنما هو بوابتهم العريضة المفتوحة على مستقبل يتلألأ بالنصر وبالمغانم .

(إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدَّم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديَك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً) ..!

وأعلن الوحي أن ذلك اليوم الحرور ، كان صهراً رائعاً للقوى النفسية لدى المؤمنين ، وأنهم بهذا الصهر قد اكتسبوا سكينة المؤمنين .

(هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) .

كما أكد أن هذه السكينة التي نالوها ، والتي استقر إيمانهم بها عند أعلى مستويات اليقين هي النصر الحقيقي .. هي أغلى وأثمن من كل نصر عسكري أو سياسي كانوا يطمحون إليه فقال تعالى : (وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً) .

وخلَّد الوحي ذكرى بيعة الرضوان ، واعتبرها مَعْلَماً من معالم المسيرة الإسلامية الكبرى .

(إن الذين يبايعونك ، إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم) ..

(لقد رضي الله عن المؤمنين إذْ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلِمَ ما في قلوبهم ؛ فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ، ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزاً حكيماً) .

وكشف الوحي عن طرف من حكمة الله في هذا الصلح وما واكبه من أحداث ، معلناً أن هذا الذي ظنه المسلمون إخفاقاً ، ليس سوى إدلاف إلى مغانم كثيرة وإظهار لبركة الإسلام الذي سينتشر تلقائياً ومن غير قتال انتشار الضوء والرياح .

(وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها، فعجَّل لكم هذه وكفَّ أيدي الناس عنكم، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطاً مستقيماً).

ثم أكّد الوحي صدق الرؤيا التي رآها الرسول ، والتي بتأثيرها خرج وأصحابه قاصدين مكة والمسجد الحرام .

وأكّد الوحي صدقها وإنجاز وعدها في يوم قريب :

(لقد صدق اللهُ رسولَه الرؤيا بالحق . لتَدخُلُنَّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين مُحلِّقين رؤوسكم ومُقصِّرين، لاتخافون فعَلِم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) .

* * *

ينقل ابن هشام عن الإمام الزهري قوله عن صلح الحديبية :

« ما فُتح في الإسلام فتح قبله ، كان أعظم منه ، فحين كانت الهدنة ووُضِعت الحرب ، لم يكن أحد يسمع بالإسلام إلا دخل فيه ، حتى لقد كان عدد الذين أسلموا في سنتين اثنتين مثل أو أكثر من عدد جميع الذين أسلموا منذ ظهر الإسلام » .

أجَل ... لقد علِم الله ما لم تعلموا ، فجعل مِن دون ذلك فتحاً قريباً ...

لقد كان يوم الحديبية هذا ، في أواخر العام السادس للهجرة .. وفي أواخر العام الثامن للهجرة ، أي بعد عامين اثنين كان عشرة آلاف مسلم يأخذون طريقهم الظافر إلى مكة تحت إمرة رسول الله ﷺ ..

وكان القدَر العظيم قد أعد المشهد إعداداً مثيراً ، فجعل على ميْمنة جيش الإسلام الزاحف خالد بن الوليد ، الذي كان قد شَدَّ رحاله إلى المدينة بعد صلح الحديبية ، وقبيل فتح مكة ، حيث آمن وأسلم وأخذ مكانه بين جنود الله والإسلام .

هكذا كان يوم الحديبية ، بما انطوى عليه من حِكم بالغة ، ومقادير تناهت في الجلال والإعجاز ...!!

* * *

يَوْمُ الفَتْح

(جَاءَ الْحَق ، وَزَهَق الْبَاطِل) ...

عرفنا أنه كان بين بنود صلح الحديبية ، أنّ من أراد الدخول في عهد الرسول دخل فيه ، ومن أراد الدخول في عهد قريش دخل فيه .

ومعنى الدخول في العهد أن يكون الداخل حليفاً للطرف الآخر ينصره ويستنصره ..

ويوم تمّ توقيع المعاهدة دخلت قبيلة « بني بكر » في عقد قريش فصاروا حلفاءها .. ودخلت قبيلة « خزاعة » في عقد الرسول فصاروا حلفاءه .

وبعد توقيع المعاهدة ، ورجوع الرسول إلى المدينة تفرّغ عليه السلام لتوسيع مجال الدعوة إلى الله ، فأرسل رُسُلَه إلى أقطار الأرض حاملين كُتُبَه إلى رؤساء الدول وأباطرتها وملوكها ، يدعوهم إلى الإيمان بالله الواحد الأحد .

فإلى ملك الفرس .. وإلى قيصر الروم .. وإلى نجاشِيِّ الحبشة .. وإلى المقوقس في مصر .. وإلى أقيال العرب في أنحاء الجزيرة العربية .. إلى هذه الدنيا الواسعة العريضة ، انطلق رُسُله المباركون حاملين دعوة الحق والخير والهدى والنور ..

ولقد حافظ الرسول على عهد الحديبية محافظة وثْقى ، فلم يُخِلّ بحرف منها . وحاشاه أن يُخِلّ بعهد أو التزام .

لكن قريشاً وقد أفزعها ما أفاءه السّلام على الإسلام من فرص ثمينة مكّنته من الذيوع السريع وامتداد نفوذه الروحي بغير سلاح وبغير عَناء .

قريش وقد أفزعها ذلك ، راحت تتلمس للغدر بعهدها المكتوب فرصة .

وحدث أن أغـار حلفاؤها « بنو بكر » على « خزاعَة » حلفاء رسول الله والمسلمين••والتجأت « خزاعة » الى البيت الحرام بمكة عائذة بحرمته وبقداسته من بني بكر •• ولكن بني بكر أهدروا ختى حـرمة الحرم وهاجموا خزاعة في داخله وقتلوهم في مجزرة بشعة رهيبة •• وكانت قريش عوناً لها على جريستها •

وبين مَن نجوْا من القتل ، كان « عمرو بن سالم الخُزاعي » الذي أغَذّ السير إلى مدينة الرسول ، وسارع الى المسجد حيث كان عليـه السلام جالساً مع بعض أصحابه ، فألقى السلام وصافح ثم راح يروي مأساة قبيلته خزاعـة في قصيدة مُثيرة :

يا ربِّ إنـي ناشِـدٌ محمـداً حِلفَ أبينـا وأبيـه الأتلـدا
فانصر هـداك الله نصراً أعْتَـدا وادع عبـاد الله يأتـوا مَـددا
إن قريشاً أخلفـوك الموعـدا ونَقَضـوا ميثـاقك المؤكـدا
هُم بيَّتونـا بالوتيرِ هُجَّـدا وقتـلونـا رُكَّعاً وَسُجَّـدا

وجاء على أثر « عمرو بن سالم » وفد من خزاعة ، شرح للرسول عليه الصلاة والسلام تفاصيلَ المأساة الغادرة ودور قريش فيها •

وكان حقاً للرسول ، وحقاً عليه أن ينصر حلفاءه الذين تعرضوا لهجـوم وحشي وغـادر •

هنالك أرسل إلى قريش يخيرها بين دفع دِيَة القتلى من خُزاعة أو التخلي عن بني بكر وإلغاء حلفها معهم •• أو اعتبار معاهدة الحديبية مُلْغاة•• ورحَّبت قريش بالخيار الثالث واختارت إلغـاء المعاهدة •

وكان معنى اختيارها هذا واضحاً جَلِياً ، فهي رغم وجود المعاهدة ناصرت حلفاءها ضد حلفاء الرسول ، ثم رفضت عَرْض الرسول بتسوية عادلة تُدفع فيها دية القتلى•• والآن وقد آثرت إلغاء المعاهدة كلها ، فهي إذن تُمهد لاستئناف عدوانها على الإسلام وعلى المسلمين •

وقرر الرسول فتح مكة ..

* * *

وهنا ، في يوم الفتح نلتقي بواحد من الأيام العظيمة لرسول الله .. يوم تألقت فيه شمائل « ابن عبد الله » وشخصيته الفريدة .

● إن مزية يوم الفتح تتمثل في أنه قدم لأخلاقيات النصر أرفع نموذج عرفه تاريخ البشرية ، مذ كانت حتى يومنا هذا .

● كما تتمثل في إعلانه الأكيد بأنه مهما تكن شرور الدنيا وظلامها وطغيانها وزيفها فإن الغلبة أخيراً للحقيقة والصدق .

فلقد افتأتت قريش بتعذيب المسلمين حتى بَشِمَتْ ، وكانت بكثرتها وبحلفائها وبسيادتها وبصلابة التقاليد التي تحيا بها وتذود عنها .. كانت بهذا كله تبدو ، وكأنها قادرة تماماً على إبادة الدين الجديد الناشئ ، حتى جاء يوم الفتح ليقلب ميزان حسابها . ويقدم غرورها وصلفها وبطشها وآلهتها طعمة ليوم الحساب ..!!

* * *

ولكن يوم الحساب هذا ، يحوله الرسول ــ صلى الله على الرسول ــ إلى آية كبرى في أخلاقيات النصر .. آية كبرى في السمو والتسامح والرحمة والحنان على الإنسان وعلى الحياة .

ها هو ذا يدخل عليه في خيمته الرجل الذي قاد كل حروب قريش ضد الإسلام .. يدخل عليه وهو يرتجف إذ يرى سيف (عمر بن الخطاب) يتلمظ به يريد أن يخطف رأسه .

أجل .. ها هو ذا أبو سفيان تُصمي سمعه وتقدح عينه هتافات النصر ورايات الإسلام .. وهو وحيد أعزل ، لم يعد معه ولم يعد له ذلك الجيش العرمرم الذي طالما حارب به الإسلام ورسوله .

ها هو ذا ، ولا مطمح له أكثر من أن يحقن الرسول دمه ، ويحفظ له

حياته .. فإذا رسول الله تتجلى إنسانياته وتتألق في إجراء ما نعرف له من نظير ..

لقد عزّ عليه ما بدا فيه أبو سفيان من مَذلّة وهوان .. هذا الذي كان من ساعاتٍ زعيم قريش كلها .. هذا الذي تحدّر من أصلاب شيوخ قريش وأمجادها .

لقد كان رديئاً ومقيتاً حين كان معه شرّه وإثمه وبأسه يُحادّ بها الله ورسوله .. أما الآن وقد أكرهته مشاهد النصر العظيم على أن يخلع عنه شرّه وإثمه وبأسه ، فلماذا لا يكون له في هذا اليوم من رحمة الله وبرّه وسموه حظاً جزيلاً من التكريم ..؟؟

لقد أمر الرسول بعض أصحابه أن ينادي :

« من دخل المسجد الحرام فهو آمن

ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن

ومن دخل داره فهو آمن » .

انظروا .. المسجد الحرام ، ودار أبي سفيان .. أي تكريم هذا الذي ما كان ليطوف بخاطر قائد قريش ولا في الأحلام ..؟!

لقد كان حسبه لفتة تسامُح .. كان سيعتبر نفسه أربح الفائزين لو سمع من الرسول عليه السلام مجرد كلمة عفو وصفح .. فإذا به يُرفع له علَم ، حين يعلن منادي الرسول أن دار أبي سفيان هي اليوم أمنٌ وملاذ .. وهي اليوم موضع حرمة ورعاية وتكريم .

يا لَسُموّ نفسك ، ويا لَجلال شمائلك ، يا رسول الله .

إن هذه الدار ، هي دار الرجل الذي دوّخ المسلمين عبر عشرين عاماً .

وفي هذه الدار تقبع هند ، زوجة أبي سفيان التي مزقت يوم أحُد بطن عمك حمزة ، ومضغت في ضراوةٍ كَبِده .. واتخذت من أمعائه قلائد ..

أين في تاريخ البشر ــ جميع البشر ــ تسامح كهذا .. سمو كهذا .. جلال كهذا ..؟؟

صدق ربنا الأعلى :

(وإنك لَعلى خُلُق عظيم) .

* * *

ونواصل متابعة السمو الباهر في يوم الفتح العظيم .

لقد كان سعد بن عُبادة الأنصاري ، أحد قادة الجيش المسلم في ذلك اليوم . وكان عليه أن يدخل مكة على رأس فَيلقه من ناحية المعلاة عند جَبل كَداء ، مهيئاً الطريق لدخول رسول الله ..

وتذكّر سعد بن عبادة في تلك اللحظات ما أصابه من أذى قريش في بيعة العقَبة ، حين نمي خبرها — يومئذ — إلى الزعماء القرشيين فخرجوا يطاردون الأنصار الذين بايعوا الرسول ، فلم يدركوا منهم سوى اثنين ؛ هرب أحدهما ونجا .. وأمسكوا بالثاني وقادوه إلى مكة ليسوموه من تعذيبهم — وكان هو — سعد بن عبادة .

لقد أنزلوا به يومئذ الضُّرَّ ، وأطلقوا سراحه بعد حين ، لما علموا أنه واحد من زعماء المدينة ، طريق تجارتهم إلى الشام .

تذكر (سعد) ذلك الماضي الأسيف ، وأخذه زهو النصر الذي منحه الله عباده المؤمنين في هذا اليوم المجيد ، فصاح وهو يقترب من أبواب مكة :

« اليوم يوم الملحمة .. اليوم تُستباحُ الحُرْمَة » .

ونُقلت كلماته إلى الرسول ، فأغضبته ، وأمر (علي بن أبي طالب) أن يدرك سعد بن عبادة ويتأمَّر على فيلقه ، ويأخذ منه الراية ويدخل بها مكة ..!!!

إنه لا يسمح لأحد أصحابه وقادة جيشه بلحظة واحدة من الزهو في يوم نصر عظيم كهذا ..

ذلك لأنه ليس غازياً ولا فاتحاً ، فتحرّكه مشاعر الغزاة والفاتحين .

بل هو رسول وهادٍ ..

وفي ضجة النصر وهيلمان الفتح لا يكون للزهو مكان في أفئدة المرسلين ولا في أفئدة المؤمنين .. إنما هي الجباه تنحني شكراً لله وإخباتاً حتى تكاد تلامس التراب ..!!!

* * *

كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد تكتم نبأ خروجه إلى مكة ودعا ربه قائلاً :

«اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش، حتى نبغتها في بلادها...»

وكان حرصه على نجاح المفاجأة مظهراً لرحمته الوارفة .. فهو يعلم أنه إذا استيقظت قريش على أخبار الفتح قبل إنجازه ، فسوف تستعد للحرب وتتهيأ . وعندئذ يكون الصدام المسلح ، ويكون القتال والقتل والضحايا ـ الأمر الذي لا يريده الرسول ولا يتمناه .

ولقد كتب الله للخطة توفيقاً ونجاحاً باهرين . وفوجئت مكة بعشرة آلاف مسلم يحملون سيوفهم وأعلامهم ، فلم تحر جواباً ، ولا درت صواباً .

وكان الرسول عليه السلام قد أمر الجيش وقواده ألا يريقوا دماً قط ، وأن يدخلوا البلد الحرام حاملين إليه الأمن والسلام والعافية ..

لقد نفذ المسلمون أمر الرسول بحزم شديد ، ولم يقع سوى حادث أو حادثين ، ذهب فيهما خمسة قتلى من قريش ، وشهيدان من المسلمين .

وفي وهج هذا الانتصار الساحق المبين ، تطل علينا المعجزة بضياء جديد يبهر الألباب .. فهذا هو الرسول المنتصر تواتيه الفرصة لكي يفرض دينه وتعاليمه ، فإذا هو لا يصنع ذلك أبداً .. إنه كان معنياً بأمر واحد ، هو إزاحة مظاهر الوثنية والشرك ونسف ما وراء هذه المظاهر من باطل وضلال .. من أجل هذا لم يكد يطمئن بمكة ، ويطمئن على أهلها وعلى استقرار الهدوء والأمن فيها حتى قصد البيت الحرام فطاف به سبعاً .. ثم دخل المسجد فرأى الأصنام تملأ جنباته وأبهاءه .. تماثيل من رصاص وخشب ، طالما هانت أمامها كرامة

الإنسان وأهدرت لها حرمة العقل والضمير ، فراح ـ عليه السلام ـ يحطمها ويقذف بها أرضاً وهو يردد الآية الكريمة :

(جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زَهوقاً) .

وعلى جدران البيت الحرام أبصر صوراً كثيرة ، صوروا بها ملائكة الله ، تتوسطها صورة كبيرة لأبي الأنبياء (إبراهيم) عليه السلام ، صوّروه فيها وهو يستقسم بالأزلام ، فآلمه المشهد وقال : « ما شأن إبراهيم بالأزلام » ..؟؟

ثم تلا الآية الكريمة :

(ما كان إبراهيم يهودياً ، ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين) .

* * *

كانت قريش لا تزال ترتجف ..

فصحيح أن الجيش دخل مكة في سلام .. ولكن ماذا بعد ..؟؟

ماذا سيصنع الرسول والمسلمون بأولئك الذين طاردوهم بالاضطهاد ثم بالحرب طوال عشرين عاماً ..؟؟

هل سيعاملهم كمجرمي حرب ..؟ وعلى أي شاكلة سيكون القصاص ..؟!

ونُودي الناس ليستمعوا خطاب رسول الله .. واجتمعوا من كل صوب ، ووقفوا مبهورين ، يطويهم الخوف ، وينشرهم الرجاء .. ووقف التاريخ ليسجل للبشرية كلها مشهداً جَلّ عن النظير ..

وعلى باب الكعبة وقف رسول الله واستهلّ خطابه فقال :

« لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ،

صدَق وَعْدَه ، ونصر عَبْدَه ، وهزم الأحزاب وحده » .

نصر عَبْده .. يا لروعة الاختيار ..!

لماذا لم يقل : نصر رسوله أو نبيّه ..؟؟

إنه في هــذا المقام بالذات حيث نشوة النصر قد أسكرت كل شــيء حتى جبال مكة الشامخات ، يكون لكلمة « عبد » ترياقها العظيم .. وهذا هو جوهر عظمة (محمد) ﷺ !!

إنه لا يرى نفسه أبداً شيئاً أكثر من عبد لله وخادم .. وفي هــذا الوطن ، حيث تمّ له النصر والغلَب ، وحيث دالت دولة خصومه وأعدائه ، وحيث ارتفعت راياته تمــلأ في جلال النصر جوّ السماء ... الآن وفي هذا الموطن يبلغ شعوره بالعبودية لله أعمق وأبعــد مداه .!

* * *

وبعد أن يهلل لله ويكبر ، ويوحّد ويمجّد ، يبــدأ خطاب النصر الذي أرهِفت لسماعه القلوب .

ترى كم سيطول خطاب النصر هذا ..؟ وكم سيأخذ من ساعات ذلك اليوم المشهود ..؟؟ وماذا ستكون كلماته الآخذة القاهرة .؟

لننظر ...

« يا معشر قريش ... » .

وفي لحظــة الصمت التي أعقبت هــذا النداء ازدحمت مئات الخواطر في حسبان القرشيين ، كلها تتخيل العبارة التالية ، صاعقة تسحق ما قدّمت أيديهم من شــرّ وسوء .

لكن العبارة التالية كانت أبعد ما تكون عن كل ما توقعه المتوقعون :

« إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظّمها بالآباء ... الناس من آدم . وآدم من تراب ...

ثم تلا الآيــة الكريمة :

(يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شــعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) » .

هـذا رسول كريم ، ليس لديه وقت للضغن ولا للثأر ولا للقصاص • إن كل حياته منذورة لرسالته •

وها هو ذا بعد توحيد الله ، يعلن كرامة الإنسان •• لا تفاخر بالأحساب ، ولا تعاظم بالأنساب •• الناس سواء •• وأكرمهم أتقاهم •••!!

ثم عـاد يقول :

« يا معشر قريش » ••

واشرأبت الأعنـاق من جديد ، وزاغت الأبصار •• لكن البشرى هطلت سريعاً كغيث السماء :

« ما تظنون أني فاعـل بكم » !؟

وهدرت الجموع الوجلة بكلمة واحدة ، كأنما كانوا على اتفاق بترديدها••

« خـيراً •••

أخ كريم ، •••

وابن أخ كريم ••• » •

وتهلل ثغر المصطفى ، وقال :

« اذهبوا •• فأنتم الطلقاء » •••!!!

هـذا هو خطاب النصر في يوم النصر العظيم ••

لم يستغرق سوى دقيقتين أو ثلاث • مُجِّد الله فيها وحُمد •• وأُعلنت كرامة الإنسان الجـديد الذي ينشئه الإسلام •• وغُمر المذنبون الذين كانوا ينتظرون القصاص ويستحقونه ، بأنبل عفو ، وأجمل صفح •••!!

هذا هو سلوك الرسول ومسلك الإسلام ••

* * *

ترى ، فيم إذن كان أمـره عليه السلام بقتل نفـر من المشركين سمّاهم بأسمائهم ، وأمر بقتلهم ولو وُجدوا لائذين بأستار الكعبة ؟

إن الصورة العريضة والمشرقة لسلوك الرسول يوم الفتح تومىء بالجواب.

فلو كان الأمر بقتلهم باعثه الترة والتشفي والانتقام لكان أولى بذلك رجال مثل « أبي سفيان » و « عكرمة بن أبي جهل » وعشرات من أساطين قريش العنيـــدين .

ولو كان للتشفي والرغبة في الانتقام يومئذ وجـود ، لرأينا آثارهما في المسلك العـام للفاتحين .

إذن لا بد أن يكون لهؤلاء من الجرم ما يعلم رسول الله أن قتلهم قصاص يفرضه العـدل والقانون ..

ونأخذ صورة هذا الاستنتاج من أحد هؤلاء الذين أباح الرسول دماءهم . وهو عبد الله بن خطل .. كان مسلماً وبعثه الرسول ذات يوم في مهمة جمـع الزكاة ، وبعث معه مسلماً من الأنصار يخدمه ويعاونه .. ولكنه في الطريق غدر بأخيه المسلم وقتله ، ثم ارتد عن الإسلام الى الوثنية والشرك ..

هـذا إذن قاتل ، ارتكب جريمة قتل عمـد ، ثم غيَّر دينه ليهرب من القصاص ..

إن كل قوانين الأرض ، لا تسمح له طبعاً بهذا الهروب والإفلات ...!!

على أن معظم الذين أمر الرسول بقتلهم يومئذ لم يُقتلوا .. بل جاء بعضهم نادماً فعفا عنه الرسول ، وشفع لآخرين بعض أصحابه فنالهم منه صفح وعافية .

لم يكُـن يوم الفتح العظيم يوم تشفٍ ولا انتقـام .. بل كان يوم برٍ ورحمـة وسلام .

ولقد حدث يومها والرسول يطوف بالبيت أن اقترب منه « فضالة بن عمير » يريد اغتياله .. وظلّ يدافع الزحام حول الرسول حتى حاذاه وأصبح قادراً على توجيه ضربته في غـير عناء ..

وفجأة رأى الرسول يلتفت إليه ويقول :

« أفضـالة ...؟ » .

واضطرب الرجل وأجاب :

نعم ، فضالة ، يا رسول الله ..!!

وسأله الرسول :

« بم تحدث نفسك يا فضالة ..؟

قال فضالة وقد ازدادت بلبلته واضطرابه :

لا شيء .. إنما أذكر الله ..!!

وضحك الرسول ، وقال له : « استغفر الله ، يا فضالة .. » .

ثم وضع يده الحانية المباركة على صدره ..

واسمعوا فضالة يقول :

« والله ، ما رفع يده عن صدري حتى صار ، وما أحد من خلق الله أحبّ إليّ منه » !!

وانضمّ فضالة إلى موكب الإسلام وجماعة المسلمين ..

فهل عرفت الدنيا تسامحاً كهذا التسامح .. وبراً كهذا البرّ .. وإنساناً كهذا الإنسان ..؟؟

إن روعة التسامح الذي شهده يوم الفتح تتمثل في أنه لم يكن مجرد مبدأ يُقرَّر ويُعلَّم ويُبشَّر به .. بل كان تطبيقاً وممارسة داخل ظروف تكافأت فيها عوامل النجاح وعوامل الإخفاق .. بل كانت عوامل الإخفاق ، أعني إخفاق فضيلة التسامح في السيطرة على الموقف ، كانت يومئذ أكبر وأرجح ، بسبب ما لقي المسلمون من المشركين من عذاب وهلاك ..

لكن النبوّة كانت هناك في شخص خاتم النبيين وإمام المتقين فربح التسامح الموقف بغير منافسة وبغير عناء ..

واستطاع رسول الله بتوفيق ربه ونعمته ، ثم بعظمة نفسه ونبل شمائله ، أن يجعل من يوم الفتح هذا شرفاً للإنسان ، ونوراً للحياة ..!!!

يوم حنين

(أعجبتكم كثرتكم، فلم تغن عنكم شيئاً)

لعلّ أصدق وصفٍ لهذا اليوم أن نقول: إنه كان « يوم الله » ..

كان يوم آياته .. ويوم معجزاته .. ويوم التمحيص الذي ردّ المؤمنين إلى ربهم خشّعاً عارفين ..

و « يوم الله » .. الذي تجلّت فيه حكمته سبحانه في اختيار « محمد بن عبد الله » للرسالة، ولقيادة البعث الجديد والمجيد الذي أراده الله للعرب خاصّة وللبشر كافـة ..

* * *

إلى الجانب الشرقي من مكة، كانت تقيم قبيلة من كبريات قبائل العرب، ومن أشدها بأساً، وأكثرها تمرّساً في الحرب وضراوة في القتـال ـ تلك هي قبيلة « هوازن » .. نادَت إليهـا قبائل ثقيف، ونصر، وَجُشم، وقرروا أن يبطشوا بالمسلمين بطشة كبرى .. ظانين أنهم إذا قدروا عليهم وأنزلوا الهزيمة بهم، فإنهم يرثون كل أمجـاد مكة وقريش ..

إن مكة وقريشاً قـد أذعَنتا يوم الفتح . ومَن لم يُسْلِم منهم فقـد استسلم، وانتهت مكة تماماً كمركز لمقاومة الرسول والإسلام .. وإذن فحـين تهزم هوازن وحلفاؤها المسلمين، تصبح صاحبة الحق الأكيد في تبَوّءِ زعامـة العرب وأخذ المكانة التي كانتَ لقريش فيهم .

وتحت إمرة رجل طموح اسمه « مالك بن عوف النّصْري » خرجت تلك القبائل في أعداد لَجِبَة هائلة من المقاتلين الأشداء .

ولمناسبة كلمة (قبائل) أود أن أنقل عن كتابي « رجال حول الرسول » هـذه الفقـرة :

« لا ينبغي أن تخدعنا عن طبيعة تلك الحروب التي كان يخوضها الرسول طوال حياته فنظن أنها كانت مجرد مناوشات بدوية صغيرة .. فليس هناك حروب أشد ضراوة من حروب تلك القبائل في معاقلها ..

وإدراك هذه الحقيقة ، لا يعطينا تقديراً شديداً للجهد الخارق الذي بذله رسول الله ﷺ وأصحابه فحسب .. بل يعطينا كذلك تقديراً صحيحاً وأميناً لقيمة النصر العظيم الذي أحرزه الإسلام والمؤمنون .. ويعطينا رؤية واضحة لتوفيق الله الماثل في هـذا النجاح وذلك الانتصار ... » .

* * *

خرجت تلك القبائل تحت إمـرة ذلك الرجل الطموح ، الذي أخرج مع المقاتلين أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، ليوحي إليهم أنهـا معركة مصير ، وأنهـا معركتهم الوحيـدة ، إذا أصابتهم فيها هزيمة . فستسحقهم وأهليهم وذراريهم وأمـوالهم .

وأرسل الرسول أحد أصحابه ليعرف له أنباء القوم وجِدّية استعدادهم ونواياهم .

وعاد رسوله بصورة واضحة عن الموقف كله . وهو موقف قوم يمسون على شنّ حرب عاتية ضد المسلمين .

كان مع الرسول عشرة آلاف ، هم الذين سار بهم إلى فتح مكة . وانضمّ إليهم ألفان من أهل مكة ، منهم من أسلم يوم الفتح ومنهم من بقي على دينه . وهذه صورة باهرة لبركات الموقف الإنساني المجيد الذي وقفه الرسول يـوم الفتح في أوج انتصاره ...!!

لقد دفع هـذا الموقف القرشيين الذين لم يغادروا دينهم ولم يدخلوا في

الإسلام بعد ، إلى أن يموتوا في سبيله ، فخرجوا معه ــ عليه الصلاة والسلام ــ للقــاء هوازن وحلفائها •

كان تعداد الجيش ــ إذن ــ اثني عشر ألفاً ••• عدد كثير يبعث الزهو ، لا سيما والمسلمون قد فتحوا بالأمس القريب البلد الذي كان عاصمة الوثنية في الجزيرة كلها ، ومركز المقاومة الضارية للإسلام وجماعته •

هنالك ازدهاهم النصر ، والعدد الكثير ، وقالوا :

« لَن نُغلَب اليومَ مِن قِلَّة » •••!!

قِلَّة ، وكَثرة •• ما لجند الله ، وهذا الحساب ••؟!

لقد وضعوا قوتهم الذاتية في الميزان •• بينما الميزان كله بيد الله ، وليس في كفته الراجحة سوى فضل الله على رسوله وعلى المؤمنين •

إن المسلمين بَشر •• ويبدو أن فتح مكة على تلك الصورة السريعة والمذهلة التي تمّ بهــا ، يوشك أن يفتنهم بأنفسهم وبقوتهم فليكن لهم درس سريع يردهم من فورهم هــذا إلى مَدارهم الحق حول الله وحده ، صاحب الفضل والنعمة في كل ما كان ، وما سيكون •

* *

كان وادي حُنين ، الــذي دارت فيه المعركة كثــير الأغوار والمضايق والمنحدرات •

ولقد سبقت هوازن وحلفاؤها إلى الوادي ، وكمنوا في شعابه وأحنــائه ومضايقــه •

وجــاء المسلمون ليحتلوا الوادي ، دون أن يعرفوا أن هوازن قد سبقتهم إليه •• وحــين بلغوه ، كان الصبح يتنفس ويبعث بشائر ضوئه في خفوت • وبينما المسلمون ينسابون بأعدادهم الكثيرة فوق منحدرات الوادي ، إذا النبال والحراب والسيوف تنوشهم في بغتة مزلزلة ، أوقعت في صفوفهم من الفزع والهلع ما لم يصابوا بمثله أبداً حتى في يوم « أُحُد » الرهيب •••!!

وهكذا أراهم الله الخبير العليم أن كثرتهم لم تغْن عنهم شيئاً •

وأنه ليس مــن حقهم أن ينسَوْا ما نزل به الوحي على رسولهم : (وما النصرُ إلا من عنــد الله) .

لقد لقنهم القدر هــذا الدرس في أوانه ..

وانتقل بهم في نفس اللحظة إلى درس آخر جــديد ..

ذلك أنه حين اضطربت صفوفهم ، وولّوا راجعين بعيداً عن المنحدَر العريض الذي فاجأتهم هوازن من مكامنه ، وقف الرسول وحده في ثبات يصعب تصوره... وقف ينادي بأعلى صوته غير مُحاذر أن يدلَّ الصوت أعداءه عليه :

« إليَّ أيها الناس !؟ هلُمّوا إليَّ ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، أنا النبي ، لا كَذِب . أنا ابن عبدِ المطّلِب » .

لم يكن معه ولا حــوله آنئذ سوى أبي بكر ، وعمر .. وعمه العباس ، وابن عمّه عليّ ، وأسامة بن زيد .. وأبي سفيان بن الحارث ، وابنه .. والفضل ابن العباس وأخيه قثَم ، وربيعة بن الحارث ، وأيمن بن عُبيد ..

أجل .. بقي الرسول وحده ، وسط هؤلاء العشرة أو الأحــد عشر من أصحابه ، في قلب المنحــدر الرهيب الذي برزت منه فجــأة مئات المحاربين من هوازن تخفق فوق رؤوسهم رايتهم السوداء ، وتمتلىء أيديهم بسيوف المــوت وحِراب المنــايا ..!!

ثبت الرسول في الموقف الرهيب ليكون ثباته آية يزجيها القدر على أنه في كل غزواته ، لم يكن يستمد الشجاعة من جيشه ، بل كان الجيش هــو الذي يستمد الشجاعة والثبات منه .

هــذه الحقيقة التــي عبّر عنهــا أصدق تعبير الإمام عليّ كرم الله وجهه حــين قال :

« كنا إذا اشتد القتال وحمي الوطيس، احتمينْا برسول الله »..!!

وقف ابن عبد المطلب .. ينادي :

« أنا النبيّ ، لا كذب »

وأمر عمّه العباس ــ وكان جسيماً جهوري الصوت ــ أن ينادي ، فصاح :

« يا معشر الأنصار !! يا أصحاب البيعة !! » .

وصدحت نداءات الرسول وعمه في آذان الذين شتتتهم مفاجأة هوازن . فانقلبوا راجعين كالجبال يطحنون المنحدر طحناً ، وراحت سيوفهم ونبالهم ورماحهم تحاصر هوازن وحلفاءها بالموت وبالأسْر ، وصاح الرسول في حماس وابتهاج :

« الآن حَمِيَ الوَطيس » .

وراحت خيل الله تصهل، وهي تطأ بأظلافها القاهرة خيل اللات وخيل هوازن. وتمّ الدرس الثاني من دروس حنين بنجاح ..

وبعد حين قريب سيسجل الوحي بعض آياته هذه الظاهرة فيقول :

(ويومَ حُنيْن ، إذ أعجبتْكُم كثرتكُم ، فلم تُغْنِ عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رَحُبَتْ ، ثم وليّتم مُدبرين. ثم أنزلَ الله سكينته على رسوله ، وعلى المؤمنين . وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذّب الذين كفروا . وذلك جزاء الكافرين) .

لقد تجلى في هذا المشهد ، مِن أي جوهر فريد يختار الله رسله .. وتجلى في هذا المشهد ثبوت المعجزة الإلهية وعملها .. فمن ذا الذي عصم رسول الله من موت محقق وقد صار وحيداً بين مئات السيوف والنبال والرماح ..؟

لنصغ إلى واحد منهم هو (شيبة بن عثمان بن أبي طلحة) كان أبوه قد قتل بسيوف المسلمين يوم أحُد :

« ... وقلتُ : اليومَ أدركُ ثأري من محمد .. اليوم أقتل محمداً.. فالتفت حوله لأقتله ، فإذا شيء يتغشى فؤادي لا أطيقه، فعلمت أنه معصوم مني » ..!!

ومن الذي ردّ الانكسار المباغت إلى نصر كاسح في مثل لمح البصر ..؟

إنها معجزات الله الصادقة :

(والله غالبٌ على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) •

لقد أسفر القتال عن كثرة كاثرة من قتلى المشركين •• وستة آلاف أسير •• وبحرٍ زاخر من الغنائم والأسلاب •• وفرَّ قائد جيش الشرك (مالك بن عوف النصري) ومعه مجموعة من المنهزمين حيث احتموا وراء حصون الطائف ، فلحق بهم جيش الإسلام وضرب حول الطائف حصاراً محكماً ••

ترى ، لماذا طارد الرسول ـ عليه السلام ـ الجيش المنهزم وفرض على الطائف الحصار ، وهو الذي رأيناه يمارس إجراءاته الحربية في نطاق الضرورة القصوى ••؟؟

إنه طارده ، وحاصر مقره الجديد ، لا تغييراً لمنهجه المسالم الرحيم • بل دَعْماً لهذا المنهج وتمكيناً •• ففي الطائف يمكن للجيش الهارب ولقائده الطموح ، أن يعيدوا تنظيم أنفسهم ليواصلوا الفتنة والحرب من جديد ومعهم حلفاؤهم من ثقيف •

من أجل هذا ، لم يكد الرسول الكريم ، يدرك أنهم قد ملّوا سلاحهم ، وأمسَوْا أعجز من أن يعودوا للقتال حتى اتخذ موقفاً جديداً ، ينقلنا إلى المكرمة الثالثة من مكارم يوم حُنين ودروسه وأمجاده ••

* * *

لقد أمر الرسول برفع الحصار عن الطائف بعد أن لبث قرابة عشرين يوماً•• واقترح عليه بعض أصحابه أن يدعو على ثقيف ويلعنها ، فإذا هو يرفع كفيه إلى السماء ضارعاً :

«اللهم اهْدِ ثقيفاً ، وأتِ بهم مسلمين» ••!!

وانصرف عليه السلام عن الطائف ، حتى بلغ (الجعرانة) فنزل بها مع جيشه• وهناك قدم عليه وفد من هوازن•• القبيلة التي دبرت للإسلام وللمسلمين أخبث مؤامرة ، وأضرى قتال :

جاء وفد يسأل الرسول أن يترك لهم أسراهم ، وكان فيهم كثير من النساء والأطفال الذين أخرجهم مع الجيش قائده (مالك بن عوف النصري) ليثير

وجودهم حمية المقاتلين ، فأمر الرسول بإطلاق سراحهم جميعاً وردّهم إلى ذويهم .

وقائد الفتنة (مالك بن عوف) ماذا صنع الرسول به ..؟؟

هذا الذي خرج يريد رأس محمد .. ودين الله .. وحصد المسلمين ..؟؟

انظروا ، يا أهل الأرض في كل زمان ، ومكان ..

لقد سأل الرسول وفـد هوازن :

« أين مالك بن عوف ..؟؟ »

قالوا : « هو بالطائف مع ثقيف .. »

كان قادراً أن يبعث إليه من يقتله أو يأسره .. بل كان قادراً أن يستخدم وفد هوازن نفسه لإنجاز هذه المهمة كشرط لتسريح أسراهم .

لكنه فعل ما لا يقدر عليه سواه ﷺ ..

فقد قال للوفد :

« أخبروا مالكاً ، أنه إن جاءني مسلماً ، رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائة من الإبل » ..

إنه لا يؤمنه على حياته فحسب .. بل ويضمن له العيش في المستوى الرغد الذي كان يعيش فيه كواحد من زعماء عشيرته ..!!

ويحمل الوفد إلى (مالك) البشرى .. فيأتي مهرولاً إلى الرسول الكريم الرحيم .. ويسلم ، ويحسن إسلامه ، بل ويعبّر عن فرحته بالهدى والإسـلام بقصيد يقول فيه :

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثـله ... في النـاس كلهـم بمثـل محمد

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتُذي ... ومتى تشأ ، يخبرك عمـا في غـد

* * *

أرسول حرب وعنف .. أم رسول سلام ومحبة ..؟؟

إن يوم حُنيْن .. يعطينا أصدق تبيان وتفسير لقضية « الإسلام والحرب » ولأخلاقيات الإسلام في الحرب .. ليس فقط لما شهده ذلك اليوم من مشاهد الصفح والنبل والسموّ .. بل قبل ذلك لموقف المشركين في ذلك اليوم المثير .

إن خروج المشركين للحرب يوم حنين ، يُظهر كنور الصباح حقيقة الظروف التي أكرهت المسلمين إكراهاً على أن يحملوا سيوفهم ويخوضوا المعارك لحماية أنفسهم ودينهم ، فلقد كان المأمول بعد فتح مكة أن تخمد إلى الأبد ثائرة الوثنية، وتضع الحرب أوزارها، ويُسْلم المسلمون سيوفهم إلى السُّبات العميق.

لكن الشرّ كان يخفي أخبث مفاجآته ، فإذا قبائل أخرى تلتقط الراية التي سقطت من قريش ، وتزحف في جيش كثيف لمحاربة الإسلام وأهله .

إن هذه الصورة ، ثم الصورة التي رسمتها غزوة « تَبوك » حين تحرَّش الروم بحدود الجزيرة العربية .. هاتان الصورتان تفسران في صدق موقفَ الإسلام من الحرب ، مثلما يفسر مسلكه النبيل في القتال مدى ولائه للعدل والرحمة والسلام !!

* * *

ويُوشك « يوم حنين » أن يُشارف نهايته التي نلتقي عندها بعجيبة أخرى من عجائبه العظام .

لقد كان الرسول مصمماً على أن يجعل من هذا اليوم « يوم الله » .

لقد رأى نصر الله يتجسَّد أمام عينيه، فلم يدرِ كيف يشكر ربه العليّ الكبير.

لقد انتهت معركة حنين بالنصر ، وكل حرب تنتهي بالنصر تطرح على الفور مشاكل السلام ، وأولى هذه المشاكل ــ غنائم الحرب .

ولقد كانت غنائم الحرب تمثل بالنسبة للمقاتلين المسلمين حقوقاً مكفولة وهامة .. فهي يومئذ من أهم مصادر المعيشة والرزق .

ويوم حنين ، كانت الغنائم من الكثرة بمكان ..

وكان هناك آلاف الإبل والغنم ، تملأ الأعين وتسيل اللعاب .. وبينما المسلمون الأوائل يتطلع كل منهم إلى قَسْمه ونصيبه إذا بالرسول الذي قرر أن يجعل من يوم حنين « يومَ الله » إذا به ينادي المؤلفة قلوبهم من مسلمة الفتح الذين لا يزال إسلامهم على شفا المنفعة والنكوص ، فيعطيهم من الغنائم بغير حساب ، حتى إذا بقي منها قليل راح يوزعه على بعض فقراء المهاجرين ...!!

أما الأنصار ، والمسلمون الأوائل والكبار ، فقد فوجئوا بالغنائم تزاور عنهم إلى الآخرين ..

وكانت مفاجأة لم يعوّدهم الرسول بمثلها من قبل ، وفي زحمة النصر والناس والغنائم ، لم تأت فرصة ليعطي تفسيراً لما حدث . فكان طبيعياً أن يكون الموقف موضع تساؤل ، بل وإحساس بالأسف والمرارة لا سيما من الأنصار الذين لم تُصب الغنائم منهم أحداً .

ولقد عبَّر عن هذا الإحساس شاعر المسلمين والأنصار « حسَّان بن ثابت » فقال :

وأتِ الرسول ، فقل ياخير مؤتَمن ... للمؤمنين إذا ما عُدِّدَ البَشر
علامَ تُدْعى سُلَيم ، وهي نازحة ... قدَّام قومٍ هُمُوا آوَوا وهم نصروا
سماهُم الله أنصاراً ، بنصرهمو ... دينَ الهدى ، وعَوانُ الحرب تستعر

ودخل زعيم الأنصار (سعد بن عُبادة) خيمة رسول الله ، فقال :

« يا رسول الله ، إن هذا الحيَّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء » .

قال الرسول : « فأين أنت من ذلك يا سعد » ؟؟

قال سعد : « ما أنا إلا من قومي » ..

فأمره الرسول أن يجمع له الأنصار ، فجمعهم سعد ، حيث خرج إليهم رسول الله ، وقام فيهم يتحدث ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا معشر الأنصار !!

ما قالةٌ بلغتني عنكم ، وجِدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم ..؟

ألم آتكم ضُلَّالاً ، فهداكم الله .. وعالةً ، فأغناكم الله .. وأعداءً ، فألَّف بين قلوبكم ..؟ »

أجاب الأنصار هاتفين :

« بلى .. الله ورسوله أمَنّ وأفضل »

واستأنف الرسول حديثه فقال :

« ألا تجيبوني أيها الأنصار » !؟

قالوا ، وقد غلبهم الحياء :

« بماذا نجيبك يا رسول الله ..؟ فلله ولرسوله المنّ والفضل . »

قال الرسول :

« أمَا والله ، لو شئتم لقلتم ، فلصَدقْتُم وصُدّقتم :
أتيتنا مكذّباً ، فصدقناك .. ومخذولاً ، فنصرناك . وطريداً ،
فآويناك .. وعائلاً ، فآسيناك ..

أوَجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم من أجل لُعاعَة من الدنيا
تألفتُ بها قوماً ليُسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ..؟؟
ألا ترضوْن يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ..
وترجعوا أنتم إلى رحالكم برسول الله ..؟؟
فوالذي نفْسُ محمد بيده، لولا الهجرة لكنتُ امرءاً من الأنصار.
ولو سلك الناس شِعْباً ، وسلكَت الأنصارُ شعباً ، لسلكتُ
شعب الأنصار .

اللهم ارحم الأنصار..وأبناء الأنصار..وأبناء أبناء الأنصار..»!!!

* * *

لم يكد الأنصار يسمعون هذه التحية الماجدة ، ينثر عليهم زهورَها الصادق الأمين عليه صلاة الله وسلامه حتى فاضت أعينهم من الدمع ، وعلا نشيجهم وبكاؤهم .

لقد رفعهم الرسول في يوم الله هذا ، إلى مُستوى اليوم العظيم وبدا تفسير ما حدث يستبين أمام جميع المسلمين .. إنه يريد أن يجرد نفسه وصحبه في هذا اليوم العظيم من كل كسب إلا الولاء المطلق لله رب العالمين ــ حتى حقهم المشروع في الغنائم والفيء يلقيه وراءهم ظِهْرِياً ليكون يوم الله هذا ، يومَ تجرّد وتبتّل

كاملين ..! وليعلم المسلمون ، ويعلم الناس جميعاً أن غنائم الحرب وإن تكن حقاً مشروعاً للمقاتلين ، وسداداً لحاجات معايشهم وأرزاقهم إلا أنهـا ليست شيئاً مقصوداً لذاته ، وليس لها مع هدف الجهاد في سبيل الله مكان ..!!

ولم يكن هناك بين الغزوات جميعها غزوة يكون تلقين هذا الدرس فيهـا مجدياً وحاسماً وأخاذاً مثل هذه الغزوة في يوم حنين ..

فالغنائم فيها من فضة وذهب ، ومن إبل وغنم ، شـيء يفوق الوصف .. شيء يتطلب الزهد فيه والعزوف عنه قدرةً روحية خارقة . ولقد أراد الرسول أن يكتسب أصحابه وأنصاره هذه القدرة الروحية الخارقة في هذا اليوم الإلهي العظيـم .

وهكذا ، ترك الغنائم التي تفتن الألباب تذهب للمؤلَّفة قلوبهم من حديثي الإسلام، بينما ترك للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار مثوبة الله ورضوانه.. وفردوس الإيمان وجنـانه ..!

لقـد سئل عليه السلام عن صحابيٍّ فقير من غِفار ، اسمه « جُعَيْل بن سراقة الضمْري » لماذا لم يُعطه ، بينما أعطى عُيَيْنَة بن حصن ، والأقرع بن حابس وليس لهما في الإسلام مكان ؟

فكان جواب الرسول :

« والذي نفسُ محمد بيـده لَجُعَيْل بن سراقة خير من مِلء الأرض من أمثال عيينَة بن حِصْن ، والأقرع بن حابس ..
ولـكني تألَّفتُهما ليُسلما .. ووَكَلْتُ جُعيل بن سـراقة لإسـلامه .. » .

أجَل .. لقد جعل عطاء أصحابه الأبرار في ذلك اليوم إيمانهم وتبتُّلَهم ، وربَّانيتَهم ..

وكفى به عطـاءاً .. وكفى به جـزاءاً ..!!

* * *

يـَوْمُ التخيير

(يا أيها النَّبيّ ، قُلْ لأزواجِك ...)

هنا تَنْداحُ مفاتح الزمن ، لتقدّم بين الأيام العظيمة في حياة رسول الله هــذا اليوم الأغر الجليل .

وهو يوم ، تعودنا أن نمــر بوقائعه مسرعين ، لا نكاد نعي منهــا إلا أن الرسول غاضَب أزواجه ، لأنهن أردن منه أن يوفر لهنّ شيئا من مناعم الحياة ، فأبى الرسول ذلك ، ونزل الوحي مؤيداً موقف الرسول ، ومعاتباً زوجـاته في لهجــة التأنيب والتهــديد .

وعلى الرغم من أن النظرة السريعة كافية لإظهار العظمة النادرة التي تنطوي عليها تلك الوقائع ، إلا أن ما وراء النظرة السريعة والشكل الخارجي للأحداث . أمر رائع تكاد القلوب وهي تتسلاّه ، تقفز من مكانها وتطير ..!!

ولكن ، وقبل أن نواجه الموضوع . علينا أن نقف قليلاً مع كلمة « أزواج » حيث اعتاد نفر من المريبين والمستريبين أن يتخذوا منها موضوع غمز .. أو في أحسن مواقفهم ، موضوع تساؤل .

إنهم يتساءلون : لماذا كان لرسول الله هــذه الكثرة من الزوجات ..؟؟

والجواب عن تساؤلهم ، كُتبت فيه كُتب كثيرة . وأسفرت الحقيقة في هذه القضية إسفاراً مبيناً .

لقد بُعث الرسول ــ عليه السلام ــ في سن الأربعين ، وهاجر إلى المدينة بعد ثلاثة عشر عاماً من بعثته ــ أي وهو في الثالثة والخمسين .. وطوال هــذه المــدة المباركة من عمره ، لم تكن له سوى زوجة واحدة ــ هي السيدة خديجة.. رضي الله عنهــا .. وبعد موتها . لم يتخذ لنفسه سوى زوجة واحــدة ، هي

« سَوْدة بنت زمعة » ولبث على ذلك حتى هاجر إلى المدينة ، وهنــاك أعرس بعائشة بنت الصدّيق ٠

إن هذه الحقيقة وحدها تدحض كل تساؤل ، وتظهر في وضوح كامل أن تعــدد الزوجات في حياة الرسول ، كان وليد أغراض أخرى أبعد ما تكون عن الرغبة في إشباعٍ جنسي ٠

وتأتي الحقيقة الثانية ، لتؤكد الأمر ، تلك هي أن جميع زوجاته عدا عائشة ــ كنَّ ثيبات ــ ونصفهن عجائز ٠٠

وتأتي حقيقة ثالثة ، هي أن كل نسائه ــ بعد خديجة ــ تزوج بهن ــ عدا سَوْدَة ــ في المدينة بعد الهجرة ، أي في السنوات التي قضى ليلَها ونهارَها في صراع مستمر لا يهــدأ مع المنافقين في المدينة ، والمشركين في قريش ٠٠ وهوازن وثقيف بعد فتح مكة ٠٠ ثم مؤامرات الروم بعد أن دانت الجزيرة العربية كلها للإســلام ٠

إذن ، فماذا كان سرّ هــذا التعدد ٠٠؟؟

لقد كان النبل ، والأبوّة ، والإحساس العميق بالمسؤولية وراء تعــدد الزوجات في حياة الرسول ٠

ويمكن القول : أن الزواج الذي وقع في حياة الرسول بقصد الزواج ذاته ، إنما حــدث مرتين :

أولاهما ــ زواجه بخديجة ٠

ثانيهما ــ زواجه بعائشة ، بعد موت خديجة ٠

أما بقية الزوجات، فقد كان وراء الزواج بكل منهن، سببٌ غير قصد الزواج٠ والحق أن كل هذه الزيجات كانت « إيواءاً ورعاية » أكثر منها زواجاً ٠

ولعل الآية الكريمة توضح هذا المعنى حين تقول للنبي :

(ترْجي من تشاء منهن ، وتؤوي إليك من تشاء) ٠

كان إيواءً ورعاية لسيدات كريمات، أصابهن من الظروف ما يدعو لإيوائهن ورعايتهن في أرفع مستويات الإيواء والرعاية .

فـ (حفصة) مثلاً .. استشهد زوجها في غزوة بدر ، وبقيت مترملة زمناً ليس بالقصير ، وكان النبي يرى في ترملها مشكلة ترهق مشاعر أبيها ــ عمر بن الخطاب ــ الذي عرضها على (أبي بكر) ليتزوجها فاعتذر .. ثم على (عثمان) فاعتذر أيضاً.. هنالك آواها الرسول إلى عصمته .

و (سَوْدَة) .. أسلمت هي وزوجها (السكران بن عمرو) وهاجرا إلى الحبشة ..و في طريق عودتهما منها ، توفي زوجها . وتمنت أن تقضي حياتها في بيت رسول الله ، فتزوجها .

و (أم حبيبة) بنت أبي سفيان .. أسلمت وزوجها عبيد الله بن جحش ، وهاجرا إلى الحبشة .. وفي الحبشة غيَّر زوجها دينه واعتنق النصرانية .. وبلغ أمرُه رسول الله . فشغلته مأساة الزوجة الوحيدة في بلاد الغربة والهجرة ..

هذه التي أسلمت مبكرة في الوقت الذي كان أبوها وأسرتها يتزعمون اضطهاد المسلمين .

أهناك عزاء وتكريم يقدمان لها في هذه المناسبة خير من أن يضمها الرسول إليه ..؟

ولقد فعل ، فأرسل إلى نجاشي الحبشة يطلب إليه أن ينشىء عقد زواج له بأم حبيبة .. وقام النجاشي بدعوة بعض المسلمين المهاجرين وأشهدهم على عقد الزواج.ودفع هو مهر العروس من ماله نيابة عن الرسول عليه الصلاة والسلام..!!

إن هذه الواقعة ترينا ، كيف كان زواج أولئك الزوجات إيواءً لهنّ ورحمة بهن ..

فالرسول بزواجه من أم حبيبة على البُعد ، لم يكن يقصد الجنس في الزواج .. فهو في بلاد .. وهي في بلاد .. ولقد ظلت بعيدة عنه بعد عقد الزواج سنتين .. إنما أراد بعد أن فعل زوجُها ما فعل ألا يدعها فريسة الظروف الصعبة

التي حاقت بها في بلاد الغربة..وأراد أن يكافىء بما يستطيع ، هذه السيدة العظيمة التي هاجرت إلى الله ورسوله ، تاركة وراءها في بيت أبيهـا وأهلها .. النعمة والرغد والرفاهية .. فلم يجد لتكريمها أفضل من أن يجعلها احـدى زوجاته المباركات .

و (زينب) بنت عمـة الرسول . ذات الحسب والجمال ، خطبها الرسول لزيد بن حارثة الذي كان عبداً وأعتقه الرسول ، ثم تبناه .

لكن « زينب » لم تظهر ارتياحها لهذا الزواج ، وكذلك كان موقف أخيها ، بيد أنهما أمام رغبة الرسول وافقا ، وزُفّت « زينب » إلى « زيـد » .. لكن حياتهما الزوجية اتسمت بفقدان التفاهم والانسجام ، وكان لا بد من الطلاق .

وبعد الطلاق ، رغبت زينب أن تكون زوجـة للرسول ، ورأى الرسول نفسه مسؤولاً عن الزج بها في زواج لم تكن تريده ، فلم يكن هناك تعويض لها أقل من تحقيق رغبتها .. وهكذا ضُمّت إلى أمهات المؤمنين .

و « صَفيّة » بنت حُيي بن أخطب زعيم اليهود في بني النّضير وفي معـركة « خيبر » التي دارت بين المسلمين واليهود ، فقدت أباها ، وزوجها ، وأخاها ، ووقعت هي في أيدي المسلمين بين السبي والأسرى .

ونقل بعض أصحاب الرسول إليه ، نبأها ، والرسول عليه السلام كان وافر الأسى والرحمة لكل عزيز قوم يَذِل ، ولقد دعا « صفية » وخيّرها بين أمرين :

* أن يعتقها ، ويردها إلى من بقي من أهلها
* أو تسلم ، وتكون له زوجة وأماً للمؤمنين .

وصاحت « صفية » مغتبطة وشاكرة :

« اخترت الله ، ورسوله » .

وتزوجها الرسول .

* * *

على هـذا النمط ، كان تعدد الزوجات في حياة الرسول .. كان الزواج في معظمه نوعاً من الإيواء والكفالة والعزاء والتكريم .

على أن التعدد في تلك العصور لم يكن يثير أية مساءلة •• بل على العكس كان يعتبر في أحيان كثيرة نوعاً من التضحية النبيلة •

وماذا نقول عن تعدد الزوجات في حياة أبي الأديان الثلاثة ، وأبي الأنبياء ، وخليل الله « إبراهيم » عليه الصلاة والسلام ••؟؟

ثم في حياة كثـير من الأنبياء •••؟؟

* * *

بعـد هذه الوقفة القصيرة مع ماتثيره كلمة « أزواج » في حياة الرسول نعـود إلى موضوعنا • موضوع التخيير والمفاضلة اللذين نزل بهما الوحي في حَسْم شديد وأكيـد •

ولنبـدأ بتلاوة آية التخيير •

(يا أيها النبي قل لأزواجكَ إن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الحياة الدنيـا وزينتَها ، فتَعاليْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسرِّحْكُنَّ سَراحاً جميلاً •• وإن كنتنَّ تردنَ الله ورسوله والدار الآخـرة ، فإن الله أعَدَّ للمُحْسِناتِ منكنَّ أجراً عظيماً) •

ماذا كان قد حدث حتى يتنزل الوحي بهذه الآيات التي تحمل طابع الاحتجاج والرفض ••؟

إن الذي حدث يومهـا لعجيب ••

كانت الجزيرة العربية قـد دانت جميعها بالإسلام ، وكان المسلمون قـد انتعشت معايشهم بما أفـاء الله عليهم من غنائم ومغانم •• وكانت ضريبة الزكاة تحمـل إلى المدينة من شمالي الجزيرة وجنوبها في مواسم الحصاد والعطاء •• ومن الإبل والغنم والأموال ، وأخذ الرغد النسبيّ طريقه إلى كل دار وكل أسرة •

لكن أسرة واحدة ظلت مثابرة على شظف العيش لا تتحول عنه ولا تريم •• يمـر الشهر والشهران والثلاثة دون أن توقِـد هـذه الأسرة ناراً تطهو عليهـا شيئاً من ألوان الطعـام ••

تلك هي أسرة رسول الله !!!

أسرته جميعها ..

كانت زوجاته يقمن في حجرات منفصلة إلى جوار المسجد ، لكلٍّ منهن حجرتها ومسكنها .. وكنّ جميعاً في شظف العيش سواء .

ليس ذلك فحسب .. بل امتدّ الشّظف إلى بنت الرسول (فاطمة الزهراء) التي تعيش بعيداً مع زوجها الإمام علي .. فكانت كلما ذهبت إلى أبيها الرسول تسأله من العطاء الذي يعطي منه الناس جميعاً ، تسمع منه هذا الجواب :

« لا أعطيكِ ، وأدَع فقراء المسلمين » ...!!

ثم يضمّها إلى صدره حين يرى الدمع يترقرق في مآقيها ، ويقول لها :

ــ ألا أدلك على خير من ذلك ..

« سبّحي الله ثلاثاً وثلاثين

واحمدي الله ثلاثاً وثلاثين

وكبّري الله أربعاً وثلاثين » ..!!!

كان ــ عليه صلاة الله وسلامه ــ يعرف تماماً مكانه وآل بيته من الدنيا ، ومكان الدنيا منهم ..كان يعلم أنه جاء الحياة ليعطي لا ليأخذ .. ومن ثم عاش وحمل أهله ــ على العيش معه في مستوى الكفاف .. والكفافُ كثير ..!!

* * *

وحين فتحت الدنيا على المسلمين ، وزفّ إليهم الكثير من أطايب الطعام واللباس والفراش ، بدا لزوجاته أن يسألنه من ذلك النعيم حظاً .. لم يطلبن ، بل لم يرغبْنَ في أكثر مما يتاح للناس العاديين .. وتحدث بعضهن مع الرسول في الأمر .

كان الرسول يقدر فيهن طبيعة البشر ، وما كان ليضنّ عليهن بتلبية رغباتهن المتعففة اليسيرة .. لكن أين القدوة إذن ؟. وأين حقوق القدوة على من جعلتهن الأقدار أمهات للمؤمنين ..؟

إن القدوة هنا لا تطلب من الرسول وحده ، بل ومن كل من تربطه بالرسول صلة نسب أو قرابة .

ألم يقل للإمام عليّ حين سأله مفاتيح الكعبة يوم الفتح :

« إنما أعطيكم ما تُرزأون ، لا ما تَرزءون » ..؟!

أوَليس قد وضع لأهله قاعدة : أن يكونوا أول من يجوع ، إذا جاع الناس .. وآخر من يشبع إذا شبع الناس ..؟ بلى وها هو ذا يستكثر أن يكونوا ولو آخر الشباع ..!!

ها هو ذا يعيش ويعيشون معه على التمر والماء .. بينما ريح الشّواء تفوح من أكثر البيوت .

ها هو ذا ينام على حصير يترك آثاره الضاغطة على جسده الكريم ، حتى إن عمر بن الخطاب .. ليبكي حين يراه ، ويسأله أن يتخذ له فراشاً ليناً ، فيكون جوابه عليه السلام :

« يا عمر !! إنها نبوّة ، لا مُلْك » !!

ألا إن يوم التخيير هذا .. وإن مسلك الرسول بعد أن فتح الله له ولدينه الجزيرة العربية كلها ، وبعد أن صارت كل خيراتها وحاصلاتها تحت أمره .. نقول إن مسلكه ذاك لأصدق البراهين لمن شاء برهاناً على صدق نبوته ورسالته .

فلأي غرض إذن . لو لم يكن الله غايته ومُرسله ـ كان سيقضي عمره في العبادة والنسك ، ثم في الجهاد الدائب وتحمّل الأهوال التي جابهته بها الوثنية طوال عشرين عاماً ملتهبة بالنار .!

هل ثابر وصابر واحتمل من أجل مجد شخصي .؟ من أجل الاستمتاع الفاغر بالحياة ..؟

فأين هو المجد الشخصي الذي تلفّع به وقد صار سيّد الجزيرة .؟

لقد ظلّ واحداً من الناس .. يرفض أيّ تمايز . ويرفض أن يقوموا له

إذا قدم عليهم ، ويأخذ بجماع ثوبه واحد من صعاليك الأعراب قائلاً :
« أعطني ، فليس المـال مالك ولا مالَ أبيك » ..!!

وأين هو استمتاعه بالحياة ، وقد صار تجبى إليه ثمرات كل شـيء ..؟

لقـد ظل على نهجه ، يشبع يوماً ، ويجوع أياماً .. وينـام على الحصير الخشن .. ويلتحف ببردته .. وتأتيه الهدية من طعام أو كساء وفي أهل بيته من هم في منتهى الحاجة إليها ، فإذا هو يؤثر بهـا فقيراً من أصحابه . ويمر الشهر والشهران وما يوقَد في داره نار تطهو طعاماً ..!!!

لا مجد إذن ينشده ، ولا رفاهية ، ولا سيادة . ففيم كان ركوبه الصعاب واحتمال الأهوال في سبيل الإسلام ..؟

لا شيء ، إلا أن الإسلام كان كلمة الله .. وهو ، كان رسول الله ..

* * *

وهكذا ، رأيناه يغضب ، حين رأى زوجاته يرِدْن الخروج إلى الدنيا .. إلى نعيمها ، ومباهجها وزينتها .. ويتنزل الوحي بتأييد موقفه ، وبرفض موقف الزوجـات .

(يا أيهـا النبيّ ، قل لأزواجك ، إن كنتن ترِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالَيْنَ أمتّعْكُنّ وأسرّحْكُنّ سـراحاً جميلاً . وإن كنتنّ تردنَ الله ورسوله والدار الآخـرة ، فإن الله أعـدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً) .

أجل .. لا مكان للدنيا في بيت النبوّة . والله لا يريد لهن إرغاماً .. فمن شاءت الدنيا وزينتها فلتغادر بيت النبوة ولتتخلّ عن مكان القدوة .. ولتأخـذ من طيبات الدنيا بعد ذلك ما يأخذ بقية الناس .

أما مَن كانت تريد الله ورسوله ، والدار الآخرة ، فلها ذلك ، ولها الأجر العظيم من الله ، شريطة أن تنبذ الدنيا وراءها ظهرياً ، وأن تتقبل في غبطة وراحة

شظف الحياة في بيت النبوة والوحي واليقين..!!!

ونهض الرسول إلى زوجاته يتلو عليهن واحدة بعد واحدة كلمات الله؛ ويبلغهن حكمه وتخييره .

وبدأ بعائشة ، ثم بقية الزوجات .. وما منهن واحدة تسمع آي الله إلا تصيح :

« بل أختار الله ورسوله » ..

وهل كان ينتظر منهن غير ذلك ..

أفئن وضع رضوان الله ورسوله في كفة ، ووضعت مباذخ الدنيا في الكفة الأخرى ، يكون ثمة مكان للاختيار وللخيار . ومن .؟ من زوجات الرسول وأمهات المؤمنين ..!

* * *

لقد أراد الله سبحانه أن يجعل من يوم التخيير ووقائع المفاضلة مزيداً من الإيضاح لجوهر الحياة اللائقة برسله وصفوته من خلقه .. ومزيداً من التوكيد على هوان الدنيا وهوان ما يقتتل عليه الحمقى من زخرفها الباطل وأمجادها الكاذبة .. ثم درساً بليغاً للناس — في كل عصر وزمان ، لكي يبصروا طريق الرشد ، ويختاروا بين عالم الله ، ودنيا الناس ..!!

* * *

يوم الوداع

(فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابا)

أتم الله عليه نعمته ، وأمسى قرير العين والفؤاد إذ رأى الشرك والوثنية قد كُنسا من الجزيرة العربية .. وطهّر بيت الله للطائفين والعاكفين والرّكّع السجود . فلم يعد يطوف بالبيت مشرك ..

ولم تعد هناك « مَناة ، ولا عزّى ، ولا هبل ، ولا اللات » . ولا أي من تلك الأصنام التي طالما سجدوا لها هم وآباؤهم .

عاد دين إبراهيم إلى وطنه . مسبّحاً بحمد الله مقدّساً له .

وبلغت كلمات الله إلى ملوك الأرض عن طريق الرسل الذين انتدبهم الرسول الكريم لهذه المهمة الجليلة .

وعلى قمة ثلاث وعشرين سنة قضاها وصحبه الأبرار في مُعاناة ونضال ، ترتكز الآن سارية النصر حاملة راية الله التي تغطي أرض الجزيرة كلها بمجدها وسناها وهُداها .

ما أروعها من سنوات .. وما أمجدها من حياة ..!!

* * *

وفي أواخر ذي القعدة من السنة العاشرة شدّ رحاله إلى بيت الله الحرام ، وشد المسلمون معه الرحال .

وفي « عرفات » تنزّل عليه الوحي بهذه الآية الكريمة :

(اليومَ أكملتُ لكم دينكم ، وأتممتُ عليكم نعمتي ، ورضيتُ لكمُ الإسلام ديناً) .

كمل الدين . وتمت النعمة . وساد الإسلام ..؟

إذن . فالمهمة قد انتهت ، والرحلة قد شارفت مداها ..

ومن « دار الأرقم » إلى « مدينة الرسول » إلى دنيا الناس وعالم البشر ، يواصل النور سيرته ومسراه .

لقد أوقد « محمد وأصحابه » الشعلة المباركه .. وكتب الله ألا يخفت لها أبداً ضياء .

لقد أديت الرسالة ، وبلغت الأمانة ، وأصبحت كلمة الله هي العليا .

أترى الرحيل . قد آن أوانه ..؟ وحق للمسافر أن يعود إلى داره ..؟؟

بلى .. آن موعد العودة والرحيل .

وفي « منى » بعد أن تمت شعائر الحج ، وآذنت أيام التشريق ، جاءه الوحي بهذه الآيات :

(إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، فسبّح بحمد ربّك واستغفره إنه كان تواباً .) .

وتلا الرسول على أصحابه ــ كعادته ــ هذا الوحي الجديد ، فازدادوا به طمأنينة وفرحاً . لما يحمله من توكيد لاستمرار نصر الله وفتحه ..

لكن أبا بكر ، وعمر ، والعباس فاضت أعينهم بالدمع إذ وجدوا فيه نعياً لرسول الله وإيماءاً بقرب رحيله .. ولقد صدّق الرسول فهمهم هذا ، وأنبأهم أن هذه الآيات تنعى إليه نفسه .

* * *

هكذا يومىء الوحي وينبىء بقرب وفاة الرسول ..

إذا تمت كلمة ربك الحسنى ، وانتصر دينه وتفتحت أمامه الآفاق ورأيت الناس يسعون إليه ويدخلون فيه أفواجاً بعد أن كانوا يستخفون به ، أو يعرضون عنه . فتهيأ للقاء ربك الأعلى ..

لم يعد للرسول مكان في دنيا الناس بعد أن انتهت مهمته .. إنه لا يُعطى ولو بضع سنوات يحتفل خلالها بالنصر ويحيا في بحبوحته ورفاهه .

ولقد كانت هـذه النهاية السريعة تعني أعظم التكريم والتمجيد لرسول رب العـالمين •

ذلك أنها تكشف عن مقـام الرسول عند الله •• إنه رسوله ومبعوثه إلى دنيا البشر •• إنه خلقه واصطفاه لهذه المهمة لا غير •• مهمة التبليغ عنه ، والدعوة إليـه ، وغرس رايتـه في الأرض •

فإذا انتهى دوره ذاك ، صعد على الفور إلى الرفيق الأعلى ، حيث هنـاك وطنه الحـق ومقـامه الأبدي •

ولكن ، لماذا والوحي ينبئه بقرب رحيله ، يدعوه لأن يسبّح ويستغفر ••؟

(فسبّح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا) •

إنه برهان جديد ، ولعله سيد البراهين على أن (محمداً) عليه الصلاة والسلام كان رسول الله ، يتلقى عنه ، ويدعو إليه بإذنه ••

فلو أنه كان يعمل في نطاق شخصي ، وتدفعه حوافز ذاتية مهما يكن نبلهـا ، ثم أحس بدنوّ أجله وأراد أن يعبّر عن إحساسه بكلمات ينعى بها نفسه ، لمـا جاءت على هذا النحو أبداً •• دعوة إلى الاستغفار والمتاب •

لكن ، لأنه رسول الله حقاً ـ ولأن القرآن وحي الله حقاً جاء نعي الرسول على هذه الصورة الفريدة والمجيدة •

فالرسول مهما تكن منزلته ومقامه ، عبد الله •• بل إن حظه من العبودية لله يزداد تبعاً لازدياد رفعته كرسول •• وهو كلما توقل صاعداً في درجات الكمال ازداد تخشعه وتضرعه لربه ، وبلغ إحساسه بالعبودية له أعلى ذراه ••

وهو بهـذه المثابة لا يملك لنفسه في رحلة العودة إلى ربه إلا أن يسبّحه كثيراً ، ويقدسه ويحمده ، وإلا أن يستغفره من ذنبه حتى لو لم يكن له ذنب ••!!

ذلك أن الاستغناء عن الاستغفار يعني الزهو بالطاعة وبالكمال ، أما اللهَج بالاستغفار فيعني الإقرار بنعمة الله ، والإقرار بالعجز عن شكرها •• وفي هـذا آية على صدق العبودية لله ، كما هو آية على رفعة المقـام عند الله ••!!

من أجل هـذا ، رأيناه ـ عليه السلام ـ على الرغم من تفانيه الدائب في عبادة ربه ، يزداد بعد نزول هذه الآيات إمعاناً في النسك وإقبالاً على التعبّد ..

يقول أبو هريرة رضي الله عنـه :

« اجتهد النبي ﷺ بعد نزولها ، حتى تورّمت قدماه ، ونحـل جسمه ، وقلّ تبسمه ، وكثر بكاؤه » ..

هذه أولى نفحات « يوم الوداع » نلتقي بهـا في بواكير صباحه .

والآن ، فإلى ذلك الجمع المشهود ، لنسمع ونرى ..

* * *

هنـا فوق المنبَسط الفسيح من « مِنى » وقف مائة وعشرون ألفـاً من المسلمين .. وقفوا حافّين حول رسولهم الكريم الذي تهيأ ليلقي عليهم من حديثه المضيء بعض النصائح والكلمات .

كان الفرح والبشر والأمل والثقة تشيع في الزمان والمكان ، وتملأ الأنفس حيوية وانبهـاراً ..

لم يكونوا يعلمون أن الرسول نَعي إلى نفسه .. فحتى الذين تُلِيت عليهم سورة « النصر » وسمعوها لم يفهموا منها ما فهمهُ أبو بكر ، وعمر ، والعباس ، رضي الله عنهم وعن الصحابة أجمعين ..

لم يكونوا يدرون إلا أنهم في مهرجان عظيم ، يحتفلون فيه بانتهاء مناسك الحج . كما ينعمون بنصر الله وفضله . فهؤلاء المائة والعشرون ألفاً من المسلمين ، إنما يمثلون هنا الجزيرة العربية كلها بكل قبائلها ومواطنيها .

أجـل .. فما عاد هناك شِرك ، ولا مشركون . إنما هو الإسلام في كـل قبيلة .. وفي كل دار ..!!

وهَمّ الرسول بالحديث ، بينما وقف قريباً منه بعض أصحابه ليبلّغوا عنه ، حتى تصل كلماته إلى جميع المسلمين ..

لم يعدّ الرسول خطابه ، ولم ينمقه حتى يجيء في الصورة المحسوبة لخطبة وداع ـ وأيّ وداع ...!!

بل لعله لم يكن في حسبانه أن يقف اليوم خطيباً ؛ فقد جاءه ما يشغله — التهيؤ للقاء ربه الأعلى .

وكعادته دائماً في إيثاره البساطة ، ونبذه التكلف والتعاظم ، وقف يذكّر أصحابه ، ويزوّدهم ببعض وصاياه ، وتحدّث ، فجمع وأوعى ..

واشرأبت الأعناق ، وأصغت القلوب ، وأرهفت العيون أحداقها ..

وأشرق في الأفق الساكن صوت الرسول :

« أيها الناس ...

اسمعوا قولي ، فإني لا أدري . لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا ، في هذا الموقف أبداً » ...

كلمات لم يكونوا يتوقعونها .. وبداية لم يهيئوا أنفسهم لملاقاتها .. لقد اختطفتهم المفاجأة من جوّ التهلل والحبور الذي كان يغمرهم ..

ماذا ...؟؟ لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا ..؟ أي نذير تفدحنا به يا رسول الله ، وأنت البرّ بنا والرحيم ..؟؟

ولم تستطع شهقاتهم الحزينة أن ترتفع وتولول ؛ فقد علّمهم القرآن من قبل ألا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي . هنالك تحولت كل إرادة التعبير عن الأسى والفجيعة إلى العيون ، فهي التي تستطيع أن تصرخ دون أن يكون لها صوت مسموع .. وهكذا سالت دموع الجمع الحاشد في فيضان عظيم ..!!

وواصل الرسول حديثه :

« أيها الناس ...

إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام ؛

إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ..

وكحرمة شهركم هذا ..

وإنكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم . وقد بلّغت .

فمن كانت عنده أمانة ، فليؤدّها إلى من ائتمنه عليها » ..

هكذا ، وفي خطاب الوداع يركز في إيجاز حاسم على أكثر ما يقدس الناس

من حقوق : حق الحياة •• وحق الجهد •• فعصم الدماء . وعصم الأموال •
لا ينال من ذلك شيء إلا بحقه المشروع • وفي نفس اللحظة ربط ــ كعادته ــ عليه السلام بين العمل الإنساني والوازع الإلهي ليراقب الناس ربهم ويتقوه في رعاية ما يوصي به ويدعو إليه ••

« ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم » ••

ثم هتف برفض الربا كله •• ورفض الثأر كله •• فكلاهما الربا •• والثأر ، عدوان على حق الحياة وحق المال ••

قال عليه السلام : وهو يستأنف خطبته :

« وإن كل ربا موضوع •• لكم رؤوس أموالكم . لا تَظلمون ولا تُظلمون •• قضى الله أنه لا ربا •• وأول ربا أضع . ربا العباس بن عبد المطلب •

وإن كل دم في الجاهلية موضوع •• وأول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب » •

هكذا قدم القدوة من آل بيته •• فربا العباس عمه الذي كان له قبل أن يحرّمه الإسلام ، يكون أول ربا يلغيه الرسول ويبطله •• ودم ابن ربيعة بن الحارث ــ ابن عمه ــ يكون أول دم يلغي به عادة الثأر والانتقام ••

وتتألق في الأفق العريض الواسع أمام رسول الله نعمة الله المتمثلة في كنس الشرك من الأرض التي كانت وطنه ودنياه •• لكنه يعلم أن كل نصر عظيم يخلق تبعات جديدة •• فإذا كان الشيطان قد خسر معركة الوثنية . فإنه سيتشبث بمحاولات الإغواء والإغراء في مجال الذنوب والشهوات •

وكان لا بد للرسول الذي طالما جلّى لأصحابه خطر الخطيئة . أن يذكر به في يوم الوداع ، وأن يحذر منه مهما يكن صغيراً ••

« أيها الناس ••

إن الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضكم هذه ، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم » •

ولما كان الناس يحيون في الزمان .. والزمان شهور وأعوام وأيام .. ولما كان الإسلام قد جعل من بعض الشهور وعاء وميقاتاً لفرائض معينة . فرمضان مثلاً للصوم .. وذو الحجة للحج .. وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب أشهر حُرم . لا يحل فيها غزو ولا قتال . كان لا بد من التركيز في هذا اليوم على إبطال عادة « النسيء » .

والنسيء محاولة كان العرب في الجاهلية يعبثون بها في الترتيب الزمني للشهور .. فإذا جاء « المحرم » مثلاً وهم يريدون القتال ، اعتبروا المحرم « صَفَراً » .. كذلك كانوا يستخدمون الكبس في تقويمهم ، فيحسبون السنة اثني عشر شهراً ، وخمسة عشر يوماً ، فكانت استدارة الشهور الناجمة عن هذه الزيادة ، تجعل الحج يأتي في غير ميقاته .. بل تجعله ينتقل بين جميع الشهور على تعاقب السنين ..

وها هو ذا رسول الله يعطي للمواقيت قرارها واستقرارها .

« أيها الناس ..

إنما النسيء زيادة في الكفر . يُضَلّ به الذين كفروا ، يُحلّونه عاماً ، ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرّم الله ، فيحلّوا ما حرّم الله ، ويحرّموا ما أحلّ الله ..

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض..

وإن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم » ...

* * *

ثم يفيض براً ورحمة وحناناً وهو يقول :

« .. واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عَوان ، لا يملكن لأنفسهن شيئاً .. وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله .. واستحللتموهن بكلمات الله » ..!!

ويتراءى الوقت أمام الرسول قصيراً ، بينما مجال الحديث واسع وطويل . فيلخص كل نُصحه وعِظته في هذه العبارة :

« •• وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به ، فلن تضلوا أبداً •••
كتاب الله •• وسنّة نبيّه » •

أجل ، القرآن ، والسنّة •• حصيلة ثلاث وعشرين سنة عاشها على الأرض رسول السماء •• فيهما كل الهدى ، وكل العافية ، وكل النور •

وكان المتوقع أن تكون هذه العبارة مسك الختام •• بيد أن موضوع العلاقات الإنسانية بين المسلمين والحقوق المكفولة لكل فرد منهم ، يعود فيلحّ عليه من جديد • وهكذا يخصه بالنظرة الأخيرة :

« تعلمُن أن كل مسلم أخ للمسلم •• وأن المسلمين إخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه •• فلا تظلمن أنفسكم » •

ثم احتوى الجموع الحاشدة بعينيه الثاقبتين . ونادى :

« اللهم • هل بلّغت ؟؟ » •

وارتج السهل العريض بالأصوات العالية . تنبعث من حناجر مائة وعشرين ألفاً . تجيب الرسول :

« اللهم • نَعَم » •••

* * *

ومضى على ذلك اليوم المجيد ألف وأربعمائة عام ••

وستمر ألف وأربعمائة عام أخرى ••

ستمر آلاف الأعوام . ما أذن الله لهذه الأرض أن تبقى وتدوم •

وخلال ذلك الزمان — ما بقي الزمان — سيظل رشد الإنسان وضمير الحياة ينبضان بسؤال الرسول :

« هل بلّغت » •••؟؟

وسيظل كل شيء في دنيا الناس يؤوّب . ويشهد . ويجيب :

« اللهم نَعَم » •

« اللهم نَعَم » •

إنسانيات محمّد

منقحة

الإهداء

- يا مَن جئتَ الحياة ، فأعطيتَ ولم تأخـذ •••
- يا مَن قدَّستَ الوجود كلَّه ، ورعيتَ قضية الإنسان
- يا مَن زكَّيتَ سيادة العقـل ، ونهْنهتَ غـريزة القطيع
- يا مَن هيَّأك تفوّقك لتكونَ سيّداً « فـوْقَ » الجميع ، فعشْتَ واحـداً « بيْنَ » الجميـع •
- يا مَن أعطيتَ القدوة ، وضربتَ المثَل ، وعبَّدتَ الطـريق
- يا أيهـا الرسولُ ، والأبُ ، والأخ ، والصديق

إليـــك أهـــدي هـــذه الصفحات

في حياءِ مَن يعلمُ أنه يجاوزُ قدرَه بهـذا الإهـداء

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة

لو لم يكن « محمد » « رسولاً » لكان « إنساناً » في مستوى الرسول ...!!

ولو لم يتلقّ الأمر من ربه : « يا أيها الرسول بلغ ما انزل إليك » .. لتلقاه من ذات نفسه . يا أيها الإنسان بلغ ما يعتمل في ضميرك ..

ذلك ان « محمداً الإنسان » جاوز نضجه وارتقاؤه كل تخوم الذات وحدودها ، ولم يكن ثمة سبيل لوقف انتشار هذا النضج ، وهذا الارتقاء خارج الذات ، وخارج البيئة .. بل خارج كل زمان ، وكل مكان ..

إن عظمته التي فرضت نفسها ، ونادت إليها ولاء المؤمنين ، وإعجاب المعرضين ...

عظمته ، التي لبثت زهاء ألف واربعمائة عام ، وستظل دوماً ، ترسل ضياءها وسناها .. وتبثّ في ضمير الزمن رشدها ، ونهاها ..

* * *

عظمته هذه ، تنبع ـ أول ما تنبع ـ من إنسانية « محمد » .. من الطريقة التي كوّن بها نفسه ، ووجدانه ، وعقله تحت عين الله ورعايته .. ومن الموقف الذي اختاره والتزمه ، تجاه الكون ، والناس والحياة ..

والحق أن « محمداً الإنسان » شيء باهر .. فإذا التقى به « محمد الرسول » ؛ فإن عظمته آنئذ تجاوز كل حدود الثناء ..!

ولكن ، لماذا أضع « الإنسان » مقابل « الرسول » ...؟؟

أوليس « الرسول » إنساناً ...؟؟

بلى .. إن « الرسول » إنسان .

وإنما أريد بصفة « الإنسان » هنا ، التنبيه إلى أنني أركز الحديث على الطابع البشري المحض الذي يشترك فيه « محمد » مع غيره من الناس .. والذي تفوّق فيه على سواه من الناس .

فهذا الطابع البشري بكل انفعالاته ، وبساطته ، وتلقائيته ـ هو الذي يبهجنا ويبهرنا . ، لأنه من صنع واحد منا .. واحد مثلنا .. ومن ثمّ ، فهو يمنحنا ثقة بأنفسنا ، واحتراماً عظيماً لبشريتنا التي تنجب مثل هذا الطراز الرفيع من الخلق ..

* * *

ولست أدري ، هل هذا كتاب عن « محمد » أم هو كتاب لـ « محمد » .. عليه صلاة الله وسلامه .

فلقد بدأت التفكير في الكتاب معتزماً أن أتتبع أحاديث « الرسول » ومواقفه ، وأختار منها ما يكوّن الصورة التي أريدها .. صورة « محمد »

الإنسان ، دون ان اقحم نفسي على هـذه المختارات مدركا ان مجرد تنسيقها ، ووضع كل حديث في مكانه من الصورة ، سيكون فصل الخطاب ٠٠

بيد اني لم اكـد ابدا ، حتى وجدت احاديث « الرسول » عليه السلام ومواقفه ، تعكس على فكـري خبئها النفيس ، وحكمتها المستسرّة ٠٠

وهكذا سمحت لنفسي ان اقفو اثرها ، واستنبط منها معـالم النموذج الـذي يشكل على نحـو جليل ، إنسانيات « محمد » الباهـرة ٠٠

وسمحت لنفسي كذلك ان اسطر ما افاته عليّ هـذه الاحاديث والمواقف من فهم ومعـرفة ٠٠

ولقد آثرت الاقتصار في الاستشهاد ، على احاديث الرسول وتصرفاته ؛ لانهـا ادلّ على إنسانية صاحبها ؛ ولانهـا تصور ـ تماما ـ تلقائية العمـل والنزوع لديـه ٠٠

● هنالك ، نرى الإنسـان الحـاني ، لا تفلت من قلبـه الذكيّ شاردة من آمـال الناس وآلامهم ، إلا لبـاها ٠ ، ورعاها ٠ ، واعطاها من ذات نفسه كـل اهتمـام ، وتاييـد ٠٠

● نرى الإنسان الـذي يكتب لملوك الارض ، طالبـا إليهم ان ينبذوا غرورهم الباطل ٠٠ ثم يصغي في حفاوة ورضا ، لاعرابي حافي القدمين يقـول في جهالة : « اعدل يا محمد ، فليس المال مالك ولا مال أبيك ٠٠!!! » ٠

● نرى العـابد الاوّاب ، الذي يقف في صلاته ، يتلو سورة طويلـة من القرآن في انتشاء وغبطـة ، لا يقايض عليهما بملء الارض تيجانا وذهبا ٠٠ ثم لا يلبث ان يسمع بكاء طفل رضيع ، كانت امـه تصلي خلف « الرسول » في المسجد : فيضحي بغبطته الكبرى ٠ وحبوره الجياش ، وينهي صلاته علـى عجل ، رحمـة بالرضيع الذي يبكي وينـادي أمـه ببكائه ٠٠٠!!!

● نرى الإنسان الـذي وقف امـامه ـ صاغرين ـ جمع الذين شنوا عليـه الحرب والبغضاء ، ومثلوا بجثمان عمـه الشهيد « حمـزة » ومضغوا كبـده في وحشية ضارية ؛ فقال لهم : « اذهبوا ؛ فانتم الطلقاء » ٠٠٠!!!

● نـرى الإنسان الـذي يجمـع الحطب لاصحـابه في بعض اسفارهم ليستوقدوه نارا تنضج لهـم الطعـام ٠٠٠!!

● والذي يرتجف حين يبصر دابة تحمل على ظهرها أكثر مما تطيق !!

● والذي يحلب شاته ٠ ، ويخيط ثوبه ٠٠٠ ويخصف نعـله ٠٠٠!!

● والذي يقف بين الناس خطيبا فيقول : « من كنت جلدت له ظهرا ؛ فهـذا ظهري فليقتد منه » ٠٠٠!!!

اجـل ٠٠ نرى الإنسـان ـ أبهى ، واتقى ، واسمى ما يكون الإنسـان ٠

★ ★ ★

فلنقترب في تهلل ٠٠ ولنقـرأ في انـاة ٠٠

واعلموا يا من تطالعون الآن هـذا الكتـاب ـ أنكم تعيشون لحظـات مترعـة بغبطة الحياة ، مع إنسان ورسول ، رفـع الله به قـدر الحياة ٠٠

الفصل الأول

الرَّحمة مهجته

«إنما أنا رحمة مهداة»

يتيم ...

جعل الله اليتم له مهداً .

وحين كان أترابه يلوذون بآباء لهم، ويمرحون بين أيديهم كطيور الحديقة... كان « محمد » يقلب وجهه في السماء ...

لم يقل قط يا أبي .. لأنه لم يكن له أب يدعوه . ولكنه قال كثيراً ، وقال دائماً : يا ربي ..!!

أيّ سر في اليتم حتى يختاره الله لأعظم حاملَيْن لكلمته مُبلّغين لرسالته : المسيح ، ومحمد ...؟!!

أجَل ، فالمسيح أيضاً كان يتيماً . وحين جاء الدنيا لم يجد له أباً .. بل لقد أنبىء أنه لم يكن له أب على الإطلاق .

وحين كان أترابه كذلك يباهون بآبائهم ، ذهب هو يباهي بخير أب ، فيشير بكفه المضيئة إلى فوق ..

ويقول : أبي .. الذي في السماء ..!!

ترى . هل اختار الله لهما اليتم . ليفجّر الرحمة في نفسيهما تفجيراً ..؟

ربما ... ولنعد لحديثنا ...

ولنمضِ مع « محمد » في رحمته . وإنها لرحمة تبهر الألباب .

والرحمة عند « محمد » لم تكن « ردَّ فعل » ليتمه .. بل كانت « فعلاً » مُتسقاً مع وجوده الذي استَهلَّ يتيماً .

إنها رحمة الأقوياء الباذلين ، لا رحمة الضعفاء البائسين .

ومَن أقوى بين الأحياء جميعاً — من اليتيم الذي يواجه الوجود وحده .. وينهض بالعبء وحده .. ويختفي من حياته « العائل » ، ليظهر فيها « الرجل » .. وليملأ الفراغ كله . وينمو تلقائياً كالشجرة الباسقة ، ويستمد من ذاته أبُوَّة ذاتــه ..؟!!

أجــل ، إن اليتم لأجَلّ مصادر العظمة شأناً حين يواتي طفلاً يحمــل استعداد عظيــم ..

ولقد كان محمد كذلك ...

و « محمد » القويّ يمارس الرحمة ممارسة مؤمن بها ، متضمِّخ بعطرها ، مخلوق من عجينتها .

وإنه — عليه صلاة الله وسلامه — ليهتف بها هُتافاً كلــه ذكاء وحكمة .

وحين نَطوِّف حــول أحاديثه عن الرحمة ، ومواقفه مع الرحمة ، نجــد شيئاً يشبه المعادلات الرياضية . فهــو لا يزجي عن الرحمة مجرد حديث ينعش العاطفة أو يسعف في العــزاء ..

إنما يتحدث عنها حديث خبير بقيمتها ، ويتتبع كل مواطن الحاجة إليهــا ، وكأنه وهو يحيط بها من كل جانب ، يضع لها دستوراً وقانوناً ...

* * *

« الراحمون يرحمهم الرحمن »

« ارحموا من في الأرض ، يرحمكم من في السماء » .

هكذا قال « محمد » ...

ولكن من هم الراحمون ؟؟

إن فاقــد الشيء لا يعطيه .

والذي لا يستطيع أن يرحم نفسه . لا يستطيع أبداً أن يرحم غيره ..

ومن هنا ، يبدأ الحديث عن الرحمة ، ويبدأ الحضّ عليها . وفي براعة الصدق الذي يضيء شخصية « محمد » ويملؤها نوراً ــ يواجه عليه السلام رحمة النفس والذات مواجهة حاسمة ، ويختار لهذا زاوية ما كان يُظنّ أبداً أنه يختارها .

فمحمد رسول ، وعابد ــ جاء ليرفع راية العبادة ، ويسوق الناس إليها .

أفيختار العبادة بالذات ليُنشىء بينها وبين الرحمة مفاضلة ..؟؟

أجل ، لقد فعلها الانسان العظيم ، وأعلن أن الرحمة خير من الافراط في العبادة وأزكى .

« خرج رسول الله ﷺ عام الفتح إلى مكة في رمضان حتى بلغ موضعاً يُدعى ــ كراع الغَميم ــ فصام ، وصام الناس .. ولما رأى بعض الناس قد شقّ عليهم الصيام بسبب وَعْثاء السفر دعا بقدح من ماء ، فرفعه حتى نظر الناس اليه ، ثم شرب ..
ولما قيل له : ان بعض الناس لا يزال صائماً . قال : أولئك العُصاة ....!! » .

* * *

ويحدثنا جابر أيضاً :

« كان النبي ﷺ في سفر ، فرأى رجلا قد اجتمع عليه الناس ، وظُلّل عليه . فقال : ما باله .؟ قالوا : رجل صائم .. فقال عليه السلام : ليس من البِرّ أن تصوموا في السفر ، وعليكم برخصة الله التي رخّص لكم ، فاقبلوها . » .

إن رحمة النفس في اعتبار « محمد » كل شيء .. فهؤلاء الذين صاموا في سفر ، وأدركهم العَياء فلم يتخلوا عن صيامهم ، يدمغهم رسول الله بالعصيان ، لأنهم حوّلوا العبادة الى تعذيب . ولأنهم تخلوا عن أعظم فضائل الإنسان ــ ألا وهي الرحمة .. لا سيما الرحمة بالنفس ، واستبقاء عافيتها وقوتها ..

* * *

ولقد ذهب إلى بيت النبي ذات يوم نفر من أصحابه يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا ، بدا عليهم كأنهم تَقالّوها • فقالوا : وأين نحن من النبي عليه السلام •• لقد غفر الله ماتقدم من ذنبه وما تأخر ••

« قال أحدهم ، أما أنا ، فإني أصلي الليل أبداً ، ولا أنام منه شيئاً ••
وقال آخر : وأنا أصوم الدهر ، ولا أفطر أبداً ••
وقال ثالث : وأنا أعتزل النساء ، فلا أتزوج أبداً » ••

أين حقوق النفس البشرية في كل هذا ، • ؟ وأين واجب الرحمة بها ؟؟

إن « محمداً » عنده كلمة الفصل ، وسوف يحمي الرحمة من كل عدوان ، حتى لو كان عدوان المبالغة في العبادة والفضيلة ، • !

وهكذا ، لا يكاد نبأ هؤلاء يبلغه حتى يسألهم :

« أنتم القوم الذين قلتم كذا ، وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له • لكني أصوم ، وأفطر • وأصلي ، وأرقد • فمن رغب عن سنتي ، فليس مني » •

★ ★ ★

ويبلغه ذات مرة أن عبد الله بن عمرو بن العاص يصوم دائماً ، ويقوم الليل كله . فيقول له :

« بلغني أنك تصوم النهار ، وتقوم الليل ، فلا تفعل ، فإن لجسدك عليك حقاً ، ولنفسك عليك حقاً ، ولزوجك عليك حقاً — صم ، وأفطر ••• صم من كل شهر ثلاثة أيام • فذلك صوم الدهر • قال : يا رسول الله إني أطيق أفضل من ذلك • قال : فصم يوماً ، وأفطر يوماً • وذلك صيام داود • وهو أعدل الصيام ••• قال : يا رسول الله . إني أطيق أفضل من ذلك • قال رسول الله : لا أفضل من ذلك » •

ويحكي الرسول نفسه ، عن نفسه فيقول :

« إني لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطوّل فيها . فأسمع بكاء الصبي ، فأتجاوز في صلاتي — كراهية أن أشقّ على أمه .. » .

لا شيء يكشف عن قيمة الرحمة عند محمد عليه السلام ، مثل وضعها والعبادة في كفتي ميزان ..

عندئذ ترجح كفة الرحمة رُجحاناً ، أيَّ رُجحان ..!! انظروا ...

هل تبصرون هذا الرجل المقبل ، مُهرولِ الخطى إلى رسول الله ، يغشاه الفرح ، وتغمره البهجة .؟؟ إنه قادم يبايع نبيه على الهجرة معه وعلى الجهاد في سبيل الله تحت رايته .

فاسمعوا حوار « محمد » له :

« هل من والدَيْك أحد حيّ ؟؟ قال الرجل : نعم .. كلاهما حي قال « الرسول » : فارجع الى والديك ، وأحسن صُحبتهما » .

وهذا رجل آخر ، جاء إلى « محمد » يسعى ويقول :

يا رسول الله . جئتُ أبايعك على الهجرة ، وتركت أبويَّ يبكيان ..

فيجيبه الرسول :

« ارجع إليهما ، فأضحكهما كما أبكيتهما » .

وثالث يسأل :

— يا رسول الله ، إني أشتهي الجهاد ، ولا أقدر عليه .

فيقول له « الرسول » : « هل بقي من والديك أحد ..؟ »

يقول الرجل : نعم ....

فيقول « محمد » عليه الصلاة والسلام :

« قابل الله في برّهما .. فاذا فعلت ذلك فأنت حاجّ ومعتمِر ، ومُجاهِد » .

* * *

إن بسمةً تعلو شفتَي أب حنون ، وتكسو وجه أم مُتلهفة ، لا تباع عند « محمد » بثمن ، حتى حين يكون الثمن جهاداً يُثبّت دعوته ، وينشر في الآفاق البعيـدة رايتـه .

وهكذا رأيناه يرد إلى والدين دامعين ، ابناً لهما جاء يبايعه على الجهـاد ، وسمعناه يقول له تلك الآية الباهرة :

« ارجع إليهما ، فأضحكهما ــ كما أبكيتهما » .

إن رحمة النفس تتم عند « محمد » برحمة الوالدين وبرهما ، لأنهما مصدر هـذه النفس ووعاؤها .

واذا كانت العبادة تتحول إلى تعذيب، حين تجيء على حساب رحمة النفس .. فإنها ــ أعني العبادة ــ تتحول إلى عقوق . إذا تمّت على حساب رحمة الوالدين .

★ ★ ★

ثم تنتشر الرحمة لدى « محمد » عليه السلام ــ حتى يغطي دفؤها كـل مَقْرور . وحتى تشمل الأحياء جميعاً من إنسان وحيوان .

وفي المواطن التي تعظم فيها الحاجة إليها ، نجـد الرسول يركّز إلحاحه عليها .. فهو ــ مثلا ــ إذا حثّ على الرحمة بالطفل ، يركّز بصورة أشد ، على الرحمة بالطفل اليتيم ، أو الطفل اللقيط .

واذا حثّ على الرحمة بالحيوان وهو يعمل . ، يركّز بصورة أوفى ، على الرحمة بالحيوان وهو يُذبح ..

وهكذا يدور قلبه الكبير مع دواعي الرحمة حيث تدور .!

والرحمة عند « محمد » ليست نافلة من نوافل البِر . بل واجباً من واجبات الرّشد ، وتَبِعة من تبعات الحيـاة .

وهي لهذا تُعبّر عن نفسها في عديد من صور الخير ، والمشاركة ، والأعمال النافعـة .

يقول أبو ذرّ ، رضي الله عنـــه :

« سألت رسول الله ﷺ : ماذا يُنْجي العبد من النار • ؟ قال : الإيمان بالله • قلت يا نبي الله : مع الإيمان عَمل ؟ قال : أن تعطي مما رزقك الله • قلت يا نبي الله ، فإن كان فقيراً لا يجد ما يعطي •؟ قال : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر •• قلت : فإن كان لايستطيع أن يأمر بالمعروف ، ولا يستطيع أن ينهى عن المنكر ؟ قال : فليعِن الأخرق • قلت يا رسول الله ، أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع ؟ قال : فليُعِن مظلوماً • قلت : فإن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يُعين مظلوماً ؟؟ قال ما تريد أن تترك لصاحبك من خير ؟؟! ، لِيُمسك أذاه عن الناس • قلت يا رسول الله • أوَ إنْ فعل هــذا يدخل الجنة ؟ قال : ما مِن عبد مؤمن يصيب خَصلة من هذه الخصال إلا أخَذَت بيده حتى تُدخله الجنة • » •

* * *

إننا نستطيع أن نتصور النار ، على أنها مُنتهى ما ينزل بالشرّير من عذاب نفسي أو مــادي •

وتتصور الجنة على أنها قِمّة ما يناله الخيِّر من مثوبة نفسية أو مادية ، أو هُما معــاً •

وفي هذا الحديث نجد الرسول قد ساق من أعمال الرحمة والخير عدداً غير قليل •• ولم يجعــل قِمّة الثواب وقْفاً على من يفعلها جميعها بل إن واحدة منهــا تكفي •

أجل ، واحدة لا غير ــ قادرة على أن تأخــذ بيد صاحبها إلى تلك القمة • وهذا هو معنى العبارة الجليلة التي جاءت في ختام الحديث •

« ما من عبد مؤمن ، يُصيب خَصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده ، حتى تدخــله الجنة » •

ومثل هذا ، نبأ الأعرابي الذي جاءه يوماً يسأله عملاً يقربه من الجنة ويباعده من النار . فقال له عليه السلام :

« تقول العدل . . وتعطي الفضل ... قال : والله لا أستطيع أن أقول كلمة العدل كل ساعة . وما أستطيع أن أعطي الفضل ... قال : فتطعم الطعام ، وتفشي السلام ... قال : هذه أيضاً شديدة... قال : فهل لك إبل ؟؟ قال : نعم... قال « الرسول » : فانظر إلى بعير من إبلك وسقاء .. ثم اعمد إلى أهل بيت لا يشربون الماء إلا غباً — أي نادراً — فاسقهم ؛ فلعلك لا يهلك بعيرك ، ولا ينخرق سقاؤك حتى تجب لك الجنة ... » .

إن الرحمة في أخف تكاليفها ، وفي أيسر صورها . تكنس من طريق المجهول كل الكوارث المخبوءة ، وتغسل عن الإنسان كل أوزاره ، وتضع عنه كل أثقاله..

هكذا يعلمنا « محمد » وهو يحضنا على الرحمة ويدعونا إليها .

وإنه — عليه الصلاة والسلام — ليرسم هذا المعنى في لوحة فاتنة ، ويوجزه في قصة قصيرة — تتجلى فيها مع صدق الرسول ، عبقرية الفنان .

فلنسمعه يقول :

« تعبد عابد من بني إسرائيل ، فعبد الله في صومعة ستين عاماً... وفي يوم ، أمطرت الأرض ، فاخضرت . فأشرف الراهب من صومعته وقال : لو نزلت . فذكرت الله وازددت خيراً . فنزل ومعه رغيف أو رغيفان ... فبينما هو في الأرض لقيته امرأة . فلم يزل يكلمها وتكلمه حتى غشيها ثم أغمي عليه ، فنزل الغدير يستحم . فجاءه سائل . فأومأ إليه أن يأخذ الرغيفين ثم مات . فوزنت عبادة ستين سنة بتلك الزنية . فرجحت الزنية بحسناته. ثم وضع الرغيفان مع حسناته . فرجحت حسناته . فغفر له !» .

يا « لمحمد » من إنسان شغفته الرحمة حباً . فأعلى مكانها على هذا النحو الجليل ..!!!

إن هذه اللوحة العذبة شبيهة بأختها التي صوّر « الرسول » فيها مصير البغيّ التي ظفرت من الله بالتوبة، والشكران، والجنة. لمجرد كونها رحمت كلباً ظمآن. وهيأت له الشراب..!!

فهل ثمة فتون بالرحمة وإيمان. يعدل هذا الفتون وهذا الإيمان..؟

إن الله يزنُ رحمة الناس بعضهم بعضاً بالروح المتبدي بالرحمة وليس بحجمها.

وكل صنيعة مهما تكن يسيرة، تدفع عن صاحبها وبالاً كبيراً... وكما قال الرسول:

« صنائعُ المعروف، تَقي مصارعَ السُّوء.. ».

ولننظر الآن مشهداً آخر يغرينا الرسول فيه بالرحمة:

« أتى الله بعبد من عباده: كان قد آتاه مالاً. فقال له ماذا عملت في الدنيا ؟؟ فقال: يا رب آتيتني مالاً: فكنت أبايع الناس، وكان من خُلُقي الجَواز ـ أي التسامح ـ فكنت أيَسِّر على الموسر. وأنظِرُ المعسر. فقال الله تعالى. أنا أحق بذلك منك. تجاوزوا عن عبدي... ».

يقول « الرسول » في ختام الحديث: وأدخله الله الجنة.

ويكرر « الرسول » نفس النبأ في صورة أخرى فيقول:

« إن رجلا لم يعمل خيراً قط، وكان يُداين الناس، فيقول لرسوله: خذ ما تيسَّر، واترك ما عَسُر، وتجاوزْ، لعلَّ الله يتجاوز عنا ــ فلما هلك، قال الله له: هل عملت خيراً قط ؟؟ قال: لا.. إلا أنه كان لي غلام، وكنتُ أداينُ الناس، فإذا بعثته « يتقاضى » قلت له: خذ ما تيسر، واترك ما عَسُر، وتجاوز لعلَّ الله يتجاوزُ عنا. قال الله له: قد تجاوَزتُ عنك...!! »

* * *

ألم أقل لكم: أن هيام « محمد » بالرحمة لا يعدله هيام.؟

ها هو ذا ــ عليه السلام ــ يتصور إنساناً لم يعمل خيراً قط في حياته إلا أنه كان يرحم المدين، فيَصبر عليه ولا يتعجله الوفاء.

وها هو ذا يجعل مثوبة هذا الرجل، المغفرة الشاملة ويرجو له عند الله الرحمة الواسعة.

لقد ذكرنا من قبل أن «الرسول» يركز على الرحمة تركيزاً شديداً، كلما اشتدت الحاجة إليها.

ونحن الآن في مقامٍ، الحاجةُ فيه إلى الرحمة بالغة...

مقام أولئك المساكين الذين تسوقهم ضرورات العيش إلى الدَّيْن ثم تعجزهم ضحالة الدخل عن السداد. فيعانون من أجل الديون همَّ الليل، وذُلَّ النهار.

هؤلاء. يتقدم «محمد» البار ليأسوَ جراحهم.

إنه لا يملك أن يقول للدائن: تنازل عن حقك، «فمحمد» عليه السلام ــ خيرُ من يصون الحقوق.

ولكنه يملك أن يهَب الدائن شفاعته. وقلبه، وحُبَّه، ــ إذا هو أرجأ مَدينهُ، وصبر عليه حتى تحين ساعة فرج قريب.

وفي هذا، قال ما تلوْنا من قبل، وقال كثيراً:

«من يسَّر على مُعسر في الدنيا، يسَّر الله عليه في الدنيا، والآخرة.. والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه».

«من أنظرَ معسراً، أو وضَع له ــ أي تنازلَ عن جزء من الدَّيْن ــ أظلَّه الله يوم القيامة تحت ظلِّ عرشه، يوم لا ظلَّ إلا ظله».

«من أراد أن تُستجاب دعوته، وأن تكشف كُربته. فليفرِّج عن مُعسر».

«أيُّكم يَسرّه أن يقيه الله عز وجل من فيْح جهنم؟ قلنا: يا رسول الله، كلنا يسرّه. قال من أنظرَ معسراً، أو وضَع له. وقاه الله عز وجل من فيْح جهنم».

ويُفلسف « الرسول » العظيم الرحمــة فلسفة تسمو بهــا فوق الفضائل الإنسانية كلها ـــ وتجعل كل عمل رحيم عبادة من أزكى العبادات .

فعند « محمد » عليــه السلام ـــ أن أعمالنا الرحيمة التي نسديها للآخرين إنما يراها الله قُرُبات تُوجَّه إليه ذاته ... فإذا زرت مريضاً ، فأنت إنما تزور الله ... وإذا أطعمت جائعاً ، فكأنك أطعمت الله ...

يقول الرسول :

« إن الله عز وجــل يقول يوم القيامة يا ابن آدم : مرضتُ فــلم تعُدْني . قال يا رب : كيف أعودك ، وأنت رب العالمين ؟؟ قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فــلم تعُده ، أما علمت أنك لو عُدتَه لوجدتني عنــده ؟؟...

يا ابن آدم : استطعمتك ، فلم تطعمني.قال يا رب : كيف أطعمك ، وأنت رب العالمين !! قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فــلان فلم تطعمه . أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عنــدي ؟!

يا ابن آدم : استسقيتك ، فلم تَسقني . قــال يا رب : وكيف أسقيك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدي فلان ، فلــم تسقِه . أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي ...!! » .

* * *

والناس يخافون .. وحياتهم ملأى بالمخاوف التي لا تُؤذِن بانتهاء .

وأعظم رحمة تُسدى إليهم ، تحريرهم من الخوف قــدر المستطاع .

إن الخوف غول يلتهم سكينة الناس وأمنهم .

والفزع حين يخلع الأفئدة ، وتصير هواء ـــ لا يبقى للناس ما يمسك عليهم الإيمان بالحياة .. وحين يفقدون إيمانهم بالحياة يستسلمون للضمور ، والفتور ، واللامبــالاة .

وممَّ يخاف الناس ..؟؟

* إنهم يخافون الله .

* ويخافون أنفسهم ـ أعني ، يخاف بعضهم بعضاً ..

أما الخوف من الله : فما كان « محمد » وهو يدعو إلى فضائل يشق على الأنفس فعلها ، أن يستبعده من بين وسائل تربيته . لاسيما في تلك الأزمان البعيدة التي كان الخوف فيها من أهم وسائل الزجر والتربية والتقويم .

ولكن « محمداً » استطاع أن يقيم إلى جوار التخويف من عذاب الله ، الرجاء في رحمته ..

ولو أننا أحطنا بكل الأحاديث التي بث خلالها الأمل العظيم في رحمة الله ، لرأينا محاولة عظمى وناجحة لتنحية الخوف وقهره .

لقد أفاض الرسول عليه الصلاة والسلام في تصوير رحمة الله وفي الحث على أن يكون الرجاء فيه والحب له ، أساس كل علاقة بيننا وبينه سبحانه وتعالى .

وفي رأيي أن « محمداً » بتركيزه على الرجاء في الله ، إنما كان يصطنع منه بديلا للخوف .. بحيث يبلغ الناس آخر الأمر المكانة النفسية والروحية التي يتفوقون فيها على الخوف الديني ، وتصلهم بالله عندها أواصر الحب ، والرجاء ، والإخلاص .

إن رحمة « محمد » تتجلى ، وهو يقول لنا : لا تخافوا .. إن ربكم رؤوف رحيم .

وفي تبشيره بالرجاء ، أعطانا بكلماته الحلوة ، الرطيبة ، المضيئة ، كل وسائل الإقناع والطمأنينة ..

فهو يأمر بالرجاء تارة ويجعل الإسراف في الخوف من الله إثماً ، تارة أخرى .. ويضرب لنا الأمثال بعبقرية إنسان عظيم ..

إن ملء الأرض آثاماً وخطايا ، ليتبدد مزقاً . ويذهب هباء أمام ذرة واحدة من رحمة الله .

اقرأوا هذا الحديث :

« أذنب عبد ذنباً ، فقال : اللهم اغفر لي ذنبي . فقال الله تبارك وتعالى : علم عبدي أن له رباً يغفر ذنبه ! قد غفرت له .. ثم

عاد فأذنب ، فقــال : أيْ رب : اغفر لي ذنبي ، فقال الله تبارك وتعالى : علمَ عبدي أن له رباً يغفر ذنبه ــ قــد غفرت له •• ثم عاد فأذنب فقال : أي رب : اغفر لي ذنبي• فقال الله تبارك وتعالى : علم عبدي أن له رباً يغفر ذنبه•قد غفرت لعبدي ، فليفعل ماشاء »•

إن الإنسان الذي صوّره « الرسول » في هذا الحديث لم يكن في رجعه المكرر للخطيئة سوى صورة لنا جميعاً •• صورة للضعف البشري الذي يُسلمنا لأهــواء النفس ••

وإنه ليتقزّز من الخطأ ••

ويقول : رب اغفر لي •• ثم يعاود الهوى • ثم يعود للرشد ، وهكذا ــ حياته رحــلة دائبة بين الخير والشر ••• ومع هذا فان مجرد إحساسه بالخطأ ، ومجرد إيمانه بأن الله سينالـه برحمته ومغفرته أعني أن رجاءه في الله ، أظفــره حسب سياق الحديث النبوي برحمة الله الواسعة المتمثلة في هذه العبارة :

« قــد غفرت لعبدي ، فليفعل ما شاء ، » ! [1]

وفي حديث آخر يصور لنا رحمة الله الواسعة فيقول :

« جعل الله الرحمة مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين ، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء يتراحم الخلائق • حتى ترفع الدابة حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه •• » •

إن كل ما في الأرض من رحمة نرى مظاهرها ، ليست سوى جزء واحد من مائة جزء ، فلنتصور إذن الأجزاء التسعة والتسعين التي استأثر الله بهــا لنفسه كي يرحم بها الناس ، يوم تشتد إلى رحمته حاجتهم ؟؟

هذه صورة باهرة لرحمة الله تطرد عن الأفئدة كل فزع منه •

ويعززها « الرسول » بصورة أخرى حين رأى أماً تضم طفلها إلى صدرها في حنان بالغ ، فالتفت إلى أصحابه وقال لهم :

---

(١) وعبارة « فليفعل ما شاء » ليست إذناً بالخطيئة ولا إلغاء لمسئولية الإنسان عنها ــ إنما هي صورة لفظية تتم بهــا الصورة التي يرسمها الرسول لرحمة الله بعباده •

« أترون هذه طارحة ولدها في النار ...؟؟ قال أصحابه : لا . والله يارسول الله .. قال : لله أرحم بعبده المؤمن . من هذه بولدها » .

ويقول عليه السلام :

« إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار . ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » .

ويقول أيضاً :

« يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه ، فيقرره بذنوبه فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : رب أعرف . فيقول الله له : فإني قد سترتها عليك في الدنيا . وأنا أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته .. » .

والآن . تنبلج من قلب « محمد » الكبير الرحيم . لوحة تناهت في الابداع ، تصور رحمة الله في بهاء عظيم .

إنها قصة موجزة يقرب فيها من الأذهان — على عادته — الخلاصة النهائية لرأيه الذكي في رحمة ربه الكبير .

انظروا ..

« كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً .. فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه .. فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفساً . فهل له من توبة ..؟ قال الراهب : لا .. فقتله الرجل ، فكمل به المائة . ثم سأل عن أعلم أهل الأرض . فدل على رجل عالم . فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ..؟ فقال له : نعم . ومن يحول بينك وبين التوبة .. انطلق إلى أرض كذا . وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم .. ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ... فانطلق . حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت .. فاختصمت فيه ملائكة الرحمة ، وملائكة العذاب .. قالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً . مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ...

وقالت ملائكة العذاب : أنه لم يعمل خيراً قط .. فأتاهم ملك في صـورة آدمي ، فجعلوه بينهم حكماً ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيتهما كان أدنى فهو لها .. فأوحى الله إلى بلد المعصية أن تباعدي . والى بلد التوبة أن اقتربي ... فقاسوا بين البلدين، فوجدوه إلى بلد التوبة أقرب بشبر ، فغفر له ...!!» .

* * *

إن « الرسول » لا يرضى القتل ، ولا يشجع عليه .. بل إنه لم يعرف جريمة تعادل الشرك بالله ، سوى الإضرار بالناس ... مجرد الإضرار بهم ، فما بالك بقتلهم ، وإزهاق حياتهم ..

وهو في الحديث السالف يضع رحمة الله تجاه أكبر الكبائر وأفدح الجرائم ـ ليرينا كيف أن التوبة الصادقة محت جرائم كثراً ، وأفاءت على صاحبها عفو الله غدقاً ..!!!

ولقد اختار للقصة ختاماً باهراً ..

فجعل الرجل قريباً إلى بلد المعصية . ليرينا أن رحمة الله حين تجيء ، لا يقف في طريقها شيء . حتى القوانين الطبيعية والكونية ... فلقد نقص الله الأرض من أحد أطرافها ، حتى إذا قيست المسافة بين الرجل وبلد التوبة كان إليها أقرب . فتأخذه ملائكة الرحمة ...!!

أي فنان صادق عظيم ، يستطيع أن يرسم لرحمة الله الواسعة لوحة أزهى وأجمع من هذه اللوحة الفاتنة الجليلة ...؟؟!

إن التوبة باب مفتوح بين الله وبين عباده ، يصلهم به بالليل ، وبالنهار .. وإن الله ليفرح بتوبة الانسان ورجوعه عن الخطأ ، أشد من فرح أب حنون فقد ابنه في فلاة موحشة . وفجأة يلقاه أمامه سليماً معافى !!

والطاعات تمثل عند « الرسول محمد » معنى أسمى مما يخطر ببالنا ، فهي ليست مقصودة لذاتها ، لا ، ولا هي مقصودة لما تفضي إليه من ارتقاء نفسي

فحسب .. بل هي قبل هذا وبعد هـذا ، السبيل الذي يؤهلنا لمصافحة الله ، والالتقـاء بـه .

لنقرأمعاً هذا الحديث الذي يتمثله « محمد » حكاية عن ربه :

« يقول الله عز وجـل : من جاء بالحسنة ، فله عشر أمثالها . أو أزيد... ومن جاء بالسيئة ، فجزاء سيئةٍ سيئة" مثلها، أو أغفر.. ومَن تقرَّب مني شِبْراً . تقربت منه ذراعاً .. ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً .. ومَن أتاني يمشي ، أتيته هَرْولة ... ومَن لَقيني بقُراب الأرض خطيئة لا يُشرك بي شـيئاً . لقيته بمثلهـا مغفرة ... » .

لننظر مَلياً هذه الصورة الحانية المشتاقة التي يتصور بها « محمد » حنـان الله علينا . وشوقه إلينـا .

إنه سبحانه يريدنا .. يريدنا بجانبه على أية حال .. طائعين أو آثمين .. إن ذراعيه مفتوحتان تتلقيان لهفتنا ورجاءنا بحنان مفيض .

انظروا هـذه الكلمات :

« من أتاني يمشي . أتيته هَرْوَلَة ... !!! » .

أيّ تصور ذكي مشرق . عارم النفحات ــ هذا الذي يتصور به « محمد » ربه وبارئه .. وربنا وبارئنا ..؟؟

إن الله يريدنا أن نطيعه . لأن الطاعة تجعلنا في حـالة فاضلة تؤهلنا للقائه ، والتلَقّي عنـه .

إن الطاعات هي الخطوط التليفونية التي تصلنا بمركز وجودنا ، الله رب العـالمين ..!!

وإذا أخطأنا .. إذا أذنبنا .. فلا ينبغي أن تتحطم ونسحق تحت وطـأة الشعور بالإثم . بل علينا أن ننهض من جديد .. وألا نخاف الخطيئة أبـداً .. لأننا أكبر منها ، ولأن عفو الله أكبر منا ومنها جميعاً !!

هذا ما نفهمه عن « محمد » . وهو يسدي إلينا أفسح رحمة وحين يحررنا من وطـأة الشعور بالذنب .

انظـروا ...

« والذي نفسي بيده . لو لم تذنبوا لذهب الله بكم . ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون ، فيغفر لهم ... » .

هل كان الرسول بهذا يشايع الخطايا ، ويُروِّج لهـا ..؟؟

كلا .. وإنما هو يعالجها أنجع علاج ، حين يهبنا من الأمـل في رحمة الله ، ما نتفوق به على الضعف أمامها ..

هـذا الضعف الذي لا يولده شـيء . مثل دوام اجترارها . والإحساس الضاغط بهـا .

إن حسن الظن بالله ، هو ما يريده « محمد » من الناس حتى يحبوا ربهم ، وحتى يُنشئوا علاقتهم به سبحانه على أساس رضي مكين من الأمل ، والرجاء ، والشوق .

وهو لهـذا يوصيهم قائلا :

« لا يموتن أحـدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل .. » .

ويقـول :

«قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا دعـاني .. » .

ويقـول :

« إن حسن الظن بالله تعـالى من حسن العبـادة .. »

ويكافح « الرسول الإنسان »جميع أولئك الذين يُقنّطون الناس من رحمة ربهم ، ويمقتهم مقتاً شديداً . ويضرب لهم مثلا فيقول :

« كان ثمّة أخَوان : أحدهما يعبد الله ، والآخر يعصيه .. وذات يوم قال الذي يعبد للآخر : أما آن لك أن ترعوي ..؟ والله لتدخلن النـار ، ولن يغفر الله لك ...

ولما توفاهما الله ، وقفا بين يديه . فقال للعابد ، من الذي أمرك أن تتألَّى عليَّ – أي تتحكم في رحمتي وتحلف على ما لا تملك – ؟ اذهبوا به إلى النار ، وقال للآخر : ادخل الجنة برحمتي » .

إن رحمة « محمد » هنا ، لَتجاوزُ كل حدود الإطراء .. فهو من فَرط رحمته بالناس ، يضن بها على المتجبرين الذين يروجون لليأس . وهو يدرك إدراكاً سديداً رشيداً ، أن الرحمة ليست ترفاً ، إنما هي ضرورة .. وأحق الناس بها ، أكثرهم حاجة إليها... وفي هذا المقام ، مقام الخطيئة والذنب . يصير العصاة أحوج العالمين إلى رحمة الله ، وإلى الأمل في الله .. ومن ثَمَّ فهو يرفض أي تقنيط لهم من رحمة ربهم ، ويعتبر مثل هذا العمل ذنباً أكبر من كل ذنب ..

* * *

وهو يُنَحِّي كل قوى التثبيط واليأس ، عن علاقة الناس بالله ، ويرسم صورة من أعذب وأمتع الصور التي تحكي بِرَّ الله بالناس ، وأبوَّته الحانية لهم جميعاً .

يقول عليه السلام :

« ما من يوم تطلع شمسه إلا وتقول السماء : يا رب ائذن لي أن أسقط كِسفاً على ابن آدم فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكرك .. وتقول الأرض : يا رب ائذن لي أن أبتلع ابن آدم ، فقد أكل خيرك ، ومنع شكرك .. وتقول البحار : يا رب ائذن لي أن أغرق ابن آدم ، فقد أكل خيرك ، ومنع شكرك ، وتقول الجبال : يا رب ائذن لي أن أطْبق على ابن آدم فقد أكل خيرك ، ومنع شكرك . فيقول الله لهم جميعاً : لَوْ خلقتُموه لرحِمتموه دَعوني ، وعبادي .. إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإن لم يتوبوا ، فأنا طبيبهم !!! » .

هذه اللوحة المبهجة التي يرسمها « محمد الإنسان » تناهت في الجلال ، والمغزى ..

فهو يفترض حالة يُحاطُ فيها الإنسان بالأخطار والعداوات من كل جانب ..
من فوقه . ومن تحته ، وعن يمينه ، وعن شماله .. ثم لا يجـد إلا رحيماً ودوداً
واحداً . هو ربه ومولاه ..

ثم هو يكشف في كلمات أخّاذة عن طبيعة الرحمة التي يُظلّل بها عباده ..

إنها رحمة الخالق بخلقه الذي برأه بحكمته ، واصطنعه لنفسه .

إنها رحمة الوالد بولده ..

انظروا هذه العبارة المشرقة : « لو خلقتموه ، لرحمتموه » !!!

إن مكان الناس من الله ، مكان الرائح الغادي بين حبيب وطبيب ..

هكذا رسم « محمد » الصورة حين قال حاكياً عن الله عز وجل .

« دعوني وعبادي .. إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم .. وإن لم يتوبوا،
فأنا طبيبهم » .

وإذا كان الله في حال رضاه عنا ، يكون الحبيبَ الذي لا منتهى لِنفحات
حُبّه ..

وفي حال أسَفه منا ، يكون الطبيب الذي تأسو الجِراحَ لمساتُ طِبّه ..

فكيف إذن يكون مصدر فزع أو خوف ..؟؟!!

حاشاه وسبحانه .. وأكرِمْ به من حبيب .. وأنعِم به من طبيب ..

★ ★ ★

والرحمة عنـد « محمد » ، تعمل عملها في إيجابية قويمة . ويتتبع القلب
الكبير « لمحمد » كل الأسباب التي تجعل الرحمة حقيقة واقعة وسابغة ينعم بها
كل إنسان ..

وفي ضوء هذا الموقف ، ينبغي أن تُفهم جميع التوجيهات والوصايا التي
يدعونا فيها « الرسول » إلى الطاعة وإلى الخير . فهو لا يريد بوصاياه وتوجيهاته
أن يتحكم فينا ، أو أن يسوقنا .

وإنما تمامُ رحمته بالناس أن يدفع عنهم الأخطاء ، ويجنبهم مهابَّ الريح
الباردة واللافحـة .

فإذا دعا إلى خير وحضّ عليه ، فبدافع من رحمته ..
وإذا نهى عن شرٍّ ، وحذّر منه ، فبباعث من رحمته ...
فالرحمة بالإنسانية ، هي التي تشحذ حِرص « محمد » على خيرنا ، وعلى مصيرنا ، وهي التي تجعله يأمر بالحسنى ، وينهى عن السوء .
ومن أجل هذا ، كان يخاف على الناس من ذنوبهم ، وكان يرى تلك الذنوب كأنها أخطار داهمة تتهدد حياتهم وسلامتهم .
يقول عليه السلام :
« إن المؤمن يرى ذنوبه ، كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه » .

و « محمد » على الرغم من أنه « رسول » مسئول عن رسالته ، لا يقف من العصاة موقف المتألّي ، والمسيطر .. بل موقف الرؤوف الرحيم .. العزيز عليه عَنَتهم ، الحريص كل الحرص على نجاتهم وسلامتهم .
وإنه ليحدّد مكانته هذه ، في كلمات جليلة فيقول :
« مَثَلي ومَثَلكم ، كمثل رجل أوقدَ ناراً ، فجعل الجنادِبُ والفَراش يَقعْن فيها ، وهو يذُبُّهن عنها .. وأنا آخذٌ بحجزِكم عن النار ، وأنتم تَفلتون من يدي ...!!! » .

هذا ، هو موقف « محمد » تماماً من الذين يقودهم الهوى إلى الخطأ ... ليس عليهم بمسيطر ، ولا هو عليهم بجبّار .. إنه إنسان يحمل تبعات إنسانيته ورُشده تجاههم ، فهو يدفعهم عن الخطأ ، كمن يدفع الفراش عن النار ... ما أبهج روحه ، وهو يقول : « وأنتم تَفلتون من يدي » ...!!
ويرد « الرسول » الأمر كله إلى رحمة الله ، لا إلى ما للناس من أعمال مهما تكن صالحة .. ذلك أن أعمالنا الصالحات ، مهما تكن كثرتها ووفْرتها ، لا تفي بشكر نعمة واحدة من أنعُم الله الكبرى ..
يقول عليه الصلاة والسلام :
« قاربوا وسدّدوا .. واعلموا أنه لن يَنجُوَ أحد منكم بعمله ..

قالوا : ولا أنت يا رسول الله ٠؟ قال : ولا أنا ٠ إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » ٠

هذا هو « محمد » ٠ لا يأخذه الغرور بما يقدم من عبادة وطاعة ، وإنما لعبادة تثقل بها الموازين ٠ لأنه يعلم أن النعمة كلها من الله ٠ وأنه إذا كان قد هُدِيَ إلى الخير ، فبفضل من الله وحده ٠٠ وهذا يقتضي أن يعرف مكانه تماماً من الآخرين الذين لم يُسعفهم نصيبهم من الهُدى ٠٠ فهو لا يتألّى عليهم ، ولا يستخف بهم ، بل يدعو لهم ويشفق عليهم ، ويُصلّي من أجلهم ، ويتتبع جانب الخير الذي فيهم مهما يكن ضئيلا ، فيشيد به ، ويبتعث منه ثقتهم بأنفسهم ٠٠ انظروا ٠٠٠٠

« جيء الرسول ﷺ ذات يوم برجل قد شرب خمراً ٠٠ فلما أبصره أصحابه قالوا : لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به شارباً ٠٠ فصاح الرسول فيهم : لا تلعنوه ، فانه يحب الله ورسوله ٠٠!! » ٠

أيّ إنسان مشرق كان « محمد » ٠٠٠؟؟؟

إنه لا يهدم أقدار الناس لما فيهم من ضعف ٠ بل يضع عينه على الخير الذي فيهم ، ويهتف به ٠٠٠!!

وها هو ذا ، على الرغم من أنه رسول ، وصاحب رسالة دينية ، تحرم الخمر ؛ وتراها إحدى الموبقات الكبائر ٠٠ يكرم في إنسان يشرب الخمر فضيلة قد انطوى عليها ٠ تلك هي فضيلة الحب ٠٠!!

« لا تلعنوه ، فإنه يحب الله ورسوله !!٠٠٠ » ٠

و « محمد » إذن ، وهو يركّز على حب الخير وفعله وبُغض الرذيلة وتركها ، إنما يفعل هذا ــ كما قلنا ــ بدافع من رحمته بالفرد وبالجماعة ٠

بالفرد ٠٠ حتى لا يُفضي به السوء الذي يقترفه الى بؤسٍ نفسي يكدر صفو حياته ٠

وبالمجموع ٠٠ لأن المجتمع ما لم يَرع الحقوق المشروعة ، ويتواصَ

بالفضائل والخير ، فإنه يصيب نفسه بشر ما يُمزقها .

و « محمد » يدرك هـذا ، ويضرب له مثلا بليغـاً :

« مثلُ القائم في حدود الله ، والواقع فيها ، كمثل قومٍ استَهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعـلاها . وبعضهم أسفلها .. فكان الذين في أسفلها .. إذا استقوا من الماء مرّوا على مَن فوقهم ، فقالوا : لو أننا خرقنا في نصيبنا خرْقاً ، ولم نؤذ من فوقنـا .. فإن تركوهم وما أرادوا ــ هلكوا جميعاً . وإن أخذوا على أيديهم نجَوْا ، ونجوا جميعـاً » .

وهذا الإدراك الإنساني السديد ، يُحدد الطريقة التي يأخذ بها « محمد عليه صلاة الله وسلامه» على أيدي العُصاة..إنها الرحمة أيضاً ، والرحمةدائماً..

ولطالمـا كان يجيئه مُذنبون ، يعترفون له ، فيحاول هـو أن يردهم عن اعترافاتهم ، حتى لا يُضطر إلى أن يُنزل بهم ما شـرع الله من عقاب ، مُرجئاً أمرهم إلىرحمة الله الواسعة !!!

وإنه ليَنأى عن الذين لا همَّ لهم إلا التباؤس بأخطاء الناس ، واليأس من صلاحهم . يقول عليه السلام في هذا المقام :

« إذا سمعتم الرجل يقول : هلَك الناس ، فهو أهلكُهُم .. أي أشدّهم هـلاكاً » .

هنا إنسان بارٌ .. هنا أبٌ للإنسانية . ومَلاذ ..

هنا قلب كبير.. كبير جداً .. لا يعرف القسوة ، ولا الغرور ، ولا التشفي ، ولا اليأس .

هنا « محمد » وكفى ...

* * *

بهذه الرحمة واجَه « محمد » خوفَ الناس من الله ... وذلك الخوف الذي زَحَم قلوبهم ورُؤاهم .

وانتهى بهم إلى رب رؤوف رحيم يُقيلُ العَثْرة ، ويقبَل التَّوب ، ويغفر الذنب ، ويفرح بعودة عباده إليه . فرحَ الوالد الحنون بعودة ابنه المفقود .

بقي أن نرى كيف طارد « محمد » النوع الآخـر من الخوف .. الخوف من الناس .

ماذا يخاف الناس من الناس ..؟

إن الخوف هو فقدان الشعور بالأمن .. فكل ما من شأنه أن يُضعف هذا الشعور أو يُزيله ، فهو عمل من أعمال الإخافة والإرهاب .

ووراء كل الأعمال العدوانية التي تبعث على الخوف ــ يكمن دافع جبَّار ، هو : قسوة القلب .

قسوة القلب ، أو قسوة الضمير ــ هي التي تُفرز كافة الأعمال والتصرفات التي تسْلم ضحاياها للأسى والخوف ..

والقسوة ، حتى حينما تتقمص عملاً مشروعاً ، أو قصاصاً عادلاً ، تجعل هذا العمل ، وذاك القصاص أقرب ما يكونان إلى الظـلم ..

وما أجلَّ الحكمة التي قالها الرومان الأقدمون : « العـدل الصارم ، ظـلم صارم » ..

ولكي يعالج « محمد » عليه السلام دواعي الخوف ــ راح يبدأ من أبعد نقاطها ، ومصدر انطلاقها .. من قسوة النفس ، ثم يتتبع الخوف في كل مظاهره ، وكل دواعيه . حتى تهيىء رحمته الكبيرة حياة بلا مخاوف .

فالقسوة عدو لَدود للرحمة .. « والرسول » لهذا يواجهها مواجهة فاصلة ــ من أبسط مظاهرها ، حتى أكبر هذه المظاهر خطراً .

تقول عائشة رضي الله عنهـا :

« قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ ، فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟؟ فقال ، نعم .. قالوا : لكننا والله ما نُقبل ..! فقـال

رسول الله عليه السلام . أوَ أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة ...؟؟ » .

إن القبلة الأبوية الحانية التي نعرب بها عن حبنا لأطفالنا ، تمثل شيئاً جليلا عند « محمد » .. إنها ليست عملا من أعمال التسلية ، أو اللهو .. إنها الرحمة تتخذ مظهراً مهما يبدو عابراً ، فإن وراءه ذلك الرصيد الضخم الذي يريده « محمد » لجميع الناس من الرحمة ، والعطف ، والحنان ..

وهو لهذا يدمغ الذين ينصرفون عن هذا المظهر العابر للرحمة ، بقسوة القلب . ويخبرهم ، أن الرحمة قد نزعت من قلوبهم .

وفي مستوى أعلى من مستوى العلاقة بين الكبار ، وأطفالهم .. أعنى حينما تكون العلاقة بين الناس بعضهم البعض ، تتحول القبلة إلى مظاهر كثيرة مناسبة..

فالكلمة الطيبة رحمة .. والنظرة العاطفة رحمة .. والهداية المتواضعة رحمة .. والصفح الجميل رحمة .. وعيادة المريض رحمة .. بل وتشميت العاطس رحمة ..

وكل هذه الأعمال التي تبدو بسيطة ، يشكل « الرسول » منها ومن نظائرها ـ نهجاً للسلوك الاجتماعي الذي تنمو فيه روابط الوُدّ ، وتختفي بالتالي أسباب التسلط ، والقطيعة ، والخوف ..

أي أن « محمداً » يكافح ذواعي خوف الناس من الناس ، بإنعاش دواعي الثقة والمودة بينهم ، واتباع التي هي أحسن في كل ما يقال ، وما يُصنع .
فالإنسان للإنسان أخ ..

« لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره .. » .

إن التعبيرات اليسيرة التي تعكس المودة والعطف ، ذات أثر كبير في إحياء الإخاء الإنساني ، ولهذا كان « الرسول » شديد الاهتمام بها ، وكبير الاهتمام أيضاً بأن تصدر عن قلوب سليمة ، وعن نوايا طيبة صادقة .

يقول البَراء بن عازب رضي الله عنـه :

« أمرنا رسول الله ﷺ بسبع •• أمرنا بعيادة المريض ، واتبـاع الجنازة ، وتشميت العاطس ، وإبرارْ المقسِم ، ونصرة المظلوم . وإجابة الداعي ، وإفشاء السلام •• » •

★ ★ ★

ولما كانت القسوة في كثـير من أحوالها ثمرة الغرور •• ولما كان الغُرور مسئولا عن كثـير من الإهانات التي تلحق ببعض الناس ، لا لذنب جَنوه •• ولكن لمجرد أنهم في الكادر الاجتماعي يأخذون مكانهم في الصفوف الخلفية ••

ولما كان وراء هذا الغرور غالباً ، الزَّهو بالمال ، أو بالجاه ، أو بالمنصب •• فقد ذهب « محمد » يُسوي بكل هذه المظاهر التراب ؛ حتى يرعوي كل مغرور صَلِف ، وحتى يطمئن الضعفاء والناس العاديون •

ويضرب « محمد » الأمثلة لقوم يتفكرون ، فيقول :

« احتجَّت الجنة والنار ، فقالت النار : فِيَّ الجبارون والمتكبرون •• وقالت الجنة : فيَّ ضعفاء الناس ومساكينهم • فقضى الله بينهما • قال للجنة : أنتِ رحمتي ، أرحم بك من أشاء •• وقال للنـار : أنتِ عذابي أعذب بك من أشاء • » •

من هذا المثال البليغ نستطيع أن ندرك الطريقة التي يهـدم بها « محمد » كل عوامل التمزق النفسي بين الناس •

فالجبارون والمتكبرون ليسوا في مكان يُغبطون عليه ، أو يؤهلهم للتغطرس على عباد الله •• إنهم في نار الرذيلة التي تسَرْبَلوا بها ، وحرمتهم حبَّ الناس وصلوات قلوبهم ــ رذيلة الكبر ، والتجبر ، والجحود ••

وهؤلاء الذين يبدون ضعفاء مساكين ، لأنهم نَفَضُوا عن أنفسهم كل مظاهر الخيلاء ، والترف ، والتجبر ••

هؤلاء هم الذين ظفروا بجنات الحب ، والطمأنينة ، والسلام ••

ويستمر « الرسول » في نهنهة ضراوة المتجبرين ، فيقول :

« إن الرجل العظيم السمين ، ليأتي يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة ..!! » .

والعظيم السمين هنا ، كناية عن المتعاظم بجاهه ، المتبذخ بثرائه ..

ولنقرأ معاً هذا النبأ :

« مر رجل على النبي ﷺ فقال لرجل عنده جالس : : ما رأيك في هذا ..؟ فأجاب : إنه من أشراف الناس .. وإنه والله لَحرِيٌّ إن خطبَ أن يُنكح . وإن شفَع أن يشَفَّع .. فسكت رسول الله ﷺ .. ثم مرَّ رجل ، فقال له « الرسول » : ما رأيك في هذا ..؟ فقال : يا رسول الله . هذا رجل من فقراء المسلمين . حَرِيٌّ إن خطب ألاَّ يُنكح ، وإن شفع ألا يُشفع ، وإن قال ألاَّ يُسْمع لقوله .. فقال رسول الله عليه السلام : هذا خير من ملِء الأرض من مثل هذا .. » .

لقد أراد « الرسول » حسب هذا النبأ المروي أن يرفع في وجه غرور الجاه ... شرفَ التواضع ...

والرسول لم ينبذ الرجل الأول لمجرد كونه من أشراف الناس .. بل لابد أنه كان من المغرورين بمكانتهم الاجتماعية .. ولقد جعل خيراً منهم الناس العاديين الذين يعملون في صمت ، ويحيون في تواضع وسلام ..

* * *

والإساءات قلما تقع بين ناس متباعدين ... لأنها نتيجة الخُلطة الدائبة ، والاحتكاك الاجتماعي ... فأنت لا تختلف مع رجل لا تعرفه .. إنما يكون الخلاف ــ حين يكون ــ بينك وبين صديق أو قريب ...

لهذا يوصي « الرسول » بالجار ، ويُشدِّد في الوَصاة ..

ذلك لأن الجيران تجمعهم خُلطة دائمة .. وهذه الخُلطة تجعل احتمال

الخلاف والنزاع بينهم كثيراً .. فيطغي القوي على الضعيف ، ويتقطع بينهم ما أمر الله به أن يوصَل ..

وهنا يركز « محمد » في ذكاء عظيم على حق الجوار .

« ما زال جبريل يوصيني بالجار ، حتى ظننت أنه سيُوَرِّثه ..

« والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن . قيل : مَن هو يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمَنُ جارُه بوائقَه .. » .

هذا هو ما يريده « محمد » الإنسان الرحيم..ألاّ يخاف جار « ضعيف »، جارَه القوي .

وهو لهذا ، ينفي الإيمان نفياً أكيداً ، عن كل جار يخافه جاره ولا يأمن غوائِله وشروره .

يا لفِطنة هذا النبي ، ويا لرحمته الحانية ...!!

إنه يعلم حاجة الناس إلى الأمن في جوارهم .. فالجار مطلع على أسرار جاره ، قادر على وضع الأذى في طريقه ..

وهنا يتقدم « محمد » رافعاً لحقوق الجوار لِواءً لا ينبغي لأحد أن يتحدّاه ، فإن فعل ، فقد خلع ربقة الإيمان .

« مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره . خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه وخير الجيران عند الله ، خيرهم لجاره ..»

ولقد قيل له عليه السلام يوماً :

« يا رسول الله : إن فلانة تكثر من صلاتها ، وصدقتها ، وصيامها — غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها ، فقال : هي في النار .. » .

وإنه عليه السلام ، ليشير في رحمة دافقة إلى أهم حقوق الجار فيقول :

« إذا استعان بك أعَنْتَه ، وإذا استقرضَك أقرضتَه ، وإذا افتقرَ عُدت عليه ، وإذا مرضَ عُدته ، وإذا أصابه خير هنّأته ، وإذا أصابته مصيبة عزّيته ، وإذا مات اتبعت جنازته ، ولا تستطل

عليه بالبنيان ، فتحجب عنه الريح إلا بإذنه . ولا تؤذه بقتار ريح قدرك إلا أن تغرف له منها .. وإن اشتريت فاكهة فاهد له فإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده ....!! » .

أية إنسانية شحنت بها هذه الكلمات ..؟؟

وأي قلب كبير هذا الذي وهبه الله « محمداً » ..؟!!

* * *

وما يتطلبه الجوار من رعاية ، تتطلب مثله القرابة ، في ذات الوقت ، ولنفس السبب ..

وهنا يوصي « الرسول » بالرَّحِم .

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر . فلْيَصِل رحمه » .

ويضرب عليه السلام مثلاً رائعاً لأهمية الرحم وجلالها فيقول :

« إن الله تعالى خلَق الخلْق ، حتى إذا فرَغ منهم قامت الرَّحِم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة . قال الله : نعم . أما ترضَيْن أن أصِل من وصَلك ، وأقطع مَن قطعك .؟ قالت : بلى . قال : فذلك لك . » .

* * *

واليتيم ، والأرملة ، والمسكين ــ أكثر الناس خوفاً من المصير ، وأكثرهم حاجة إلى الحنان ، والأمن ، والرحمة .

وهنا يتقدم « محمد » فيبسط عليهم جناحه .

* « أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتيْن ــ مشيراً بأصبعيه السبابة والوسطى » .

* « إن أحب البيوت إلى الله ، بيت فيه يتيم مُكْرَم » .

* « والذي بعثني بالحق ، لا يُعذب الله يوم القيامة مَن رحِم اليتيم ،

وألانَ له في الكلام ، ورحم يُتْمَه وضعفه » .

* « الساعي على الأرملة ، والمسكين ، كالمجاهد في سبيل الله ؛ وكالذي يقـوم الليل ، ويصوم النهار ... » .

* * *

إن « محمداً » يتعقب قسوة القلب في كل مجالاتها ، لأنه يدرك مسئوليتها عن الخوف الـذي يسلطه بعض الناس على بعض . وعن السوء الذي يلحقـه بعض الناس ببعض ..

وهو إذ يوصي بالرحم خيراً ، فلأنه يعلم ما يُلحقه الهجر ، والقطيعة بها من فزَع وأسىً .. ولهـذا صورها لنا وَجِلَةً مُفزعة ، آخذة بعرش الله تقـول في ضراعـة :

« هـذا مقـام العائذ بك من القطيعة » .

و « محمد » حريص على أن يحرر الأحياء من مخاوفهم ؛ ويَدْهَم دواعي الخوف في كل مظانها ..

وإنه ليتعقب تلك المظان واحدة تلْوَ الأخرى . على النسق الذي رأينا ..

وبعبارة واحدة ـ فمحمد الذي أملت عليه رحمته الوافية تحرير الناس من الخوف ـ ينظم حملة واسعة النطاق ضد الشرور الضاربة في الحياة الانسانية .

فتلك الشرور ، هي ما يخاف الناس .. وإنه لن يغادر منها صغيرة ولا كبيرة إلا يدحضها ، ويحذر منها ، ويُطاردها ..

طارد القسوة .. طارد القطيعة .. طارد الصلف والغرور .. كما رأينا في أحـاديثه السالفة ..

ثم هو يطارد الغضب قائلا :

« شركم سريع الغضب ، بطيء الفَيْء . وخيركم بطيء الغضب ، سريع الفَيْء » .

وحين يسأل أحـد أصحابه عن العمـل الذي يدخله الجنـة ، يجيبه :

« لا تغضب ، ولك الجنّــة » .

ويقــول :

« ليس الشديد بالصُّرَعَة ، إنما الشديد من يملك نفسه عنــد الغضب » .

* * *

« ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار ...؟ تُحرمُ على كل هيِّن ، ليِّن ، سهْل » .

ويرسم مشهداً من المشاهد الفاتنة التي تبهــر الأبصار بجمالها وتثْري الأرواح بدلالتها فيقــول :

« إذا جمع الله الخلائق ، نادى مناد : أين أهل الفضل ؟.. فيقوم ناس وهم يسير ، فينطلقون سِراعاً الى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة ، فيقولون : إنا نراكم سِراعاً الى الجنة ، فمن أنتم ...؟ فيقولون : نحن أهل الفضل .. فيقولون . وما فضلكم ، فيقولون : كنّا إذا ظُلِمنا صبرنا ، واذا أُسِيء إلينا حلمنا . فيقال لهم . ادخلوا الجنّة فنعم أجر العاملين » .

ويطارد الحسد والبغضاء فيقول :

« لا تحاسدوا .. ولا تدابَروا ، ولا تَباغضوا ، وكونوا عبــاد الله اخــواناً » .

ويطــارد الفضول في شتّى صوره :

« من اطّلع في بيت قوم بغير إذنهم، فقد حلّ لهم أن يفقئوا عينه » .

« من استمع الى حديث قوم ، وهم له كارهون . صُبّ في أذنيه الآنك ــ أي الرصاص المذاب ــ يوم القيامة » .

وينهى عن السباب والشتم .

« المستبّان شيطانان ، تتهاتران وتتكاذبان .. » .

« إن من أكبر الكبائر أن يلعَن الرجل والديه ... قيل يا رسول الله ، وكيف يلعن الرجل والديه ..؟ قال : يَسُبّ أبا الرجل ، فيسبّ أباه . ويسبّ أمّه ، فيَسبّ أمّه ... » .

وتروي عائشة رضي الله عنها هـذا النبأ الجزل فتقول :

« مَرّ النبي ﷺ بأبي بكر ، وهو يلعن بعض خـدمه . فالتفت النبي إليه ، وقال لعّانين وصِدّيقين ؟!. كلا ورب الكعبة .. فسرّح أبو بكر خدمه تكفيراً عن شتمه لهم ، وجـاء إلى النبي عليه السلام وقال : لا أعود ... » .

وينهى « الرسول » عن ترويع الانسان أخـاه ولو بأتفه مظاهر الترويع .. انظروا ..

« لا يُشِر أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدري .. لعـلّ الشيطان ينزع في يده ــ أي يرمي ــ فيقع في حفرة من النار » .

واتلوا هـذا الحديث أيضاً :

« من أشار الى أخيـه بحديدة ، فان الملائكة تلعنه حتى ينتهي ، وإن كان أخاه لأبيه ، وأمـه » .

ويطارد النميمة ، والغيبة ، والبهتان .

« شرار عبـاد الله ، المشّاؤون بالنميمة ، المفرقون بين الأحبـة ، الملتمسون للبرآء العيب » .

« الغيبة والنميمة يحتّان الإيمان ، كما يعضدُ الراعي الشجرة ».

ويسأل أصحابه يومـاً :

« أتدرون مَن المفلس .؟ قالوا : المفلس فينا مَنْ لا درهم له ولا متاع . فقال عليه الصلاة والسلام : المفلس من أمّتي مَن يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقـد شتم هذا .. وقذف هـذا .. وأكل مال هذا .. وسفَكَ دم هذا .. وضرب

هذا •• فيعطى هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخِذَ من خطاياهم فطرحت عليه» •

★ ★ ★

إن « محمداً » يحمي أعراض الناس ، ويدفع عنها كل لسان ثرثار •• وفي خطبة الوداع ، يجلجل « محمد » بين الملأ قائلا :

« إن دماءكم ، وأموالكم وأعراضكم •• حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا •• في شهركم هذا •• في بلدكم هذا •• ألا هل بلّغت •••؟؟؟ » •

ويقول :

« مَن رَدّ عن عرض أخيه ، ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة » •

أية رحمة وارفة كرحمة هذا « الرسول » الإنسان العظيم ، الذي لم يترك شيئاً ممّا يمكن أن يكون مصدر ألم للإنسان إلا دهمه ، ونهى عنه •

هذا الذي يجعل لسيرة الانسان من القداسة والحرمة • مثل ما لبيت الله الحرام ، الذي هو عند « محمد » وفي رسالته ، قمة القداسة ، والتوقير •••!!

يسأل أصحابه يوماً ليعلمهم :

« أتدرون ما الغيبة •••؟؟ قالوا : الله ، ورسوله أعلم •• قال : ذكرُك أخاك بما يكره • قيل •• أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال عليه الصلاة والسلام : إن كان فيه ما تقول ، فقد اغتبته •• وإن لم يكن فيه ما تقول ، فقد بَهتّه • » •

★ ★ ★

ترى ، هل وقفت رحمة « محمد » عند الانسان وحده •••؟؟

كلا ••• ولقد سعت إلى كل كائن حي ، لتدفع عنه الغوائل والشرور •

فهذه الكائنات المهيضة من ، حيوان ، وطير ، بل وحشرة ••• ينبض القلب الكبير بحقها في الرحمة وحقها في الرفق ، وحقها في الملاذ •

فالحيوان جدير بالرحمة .. بل لعله أحق بها ، وأكثر احتياجاً إليها .. هذا الذي لا يملك أن يشكو ، ويتوجع ، ويقول : رحماكم !.

يقول عليه السلام :

« عذبت امرأة في هرّة حبستها حتى ماتت، لا هي أطعمتها وسقتها.. ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض » .

من فرط إحساسه عليه السلام بحاجة الحيوان إلى الرحمة : كان كأنه يستمع إلى شكاة الحيوان المعنّى ، وكأننا هو نداء النجدة لكل طالب رحمة ، حتى لو يكون حيواناً .

يقول عبد الله بن جعفر :

« دخل رسول الله ﷺ بستاناً لرجل من الأنصار : فإذا فيه جمل : فما إن رأى النبيَّ حتى حَنَّ وذرفَت عيناه . فأتاه رسول الله فمسح ذِفراه فسكت .. وقال « الرسول » : مَن ربّ هذا الجمل ..؟ فقال فتى من الأنصار : هو لي يا رسول الله .. فقال الرسول عليه السلام : ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملّكك الله إياها . فإنه شكى إليَّ أنك تجيعه وتُدئبه » .

وحتى إساءة الحيوان ، أو الحشرات ، ينبغي أن تقابل بالرحمة ، وتعالج بالرفق .. ويضرب « محمد » لهذا مثلا جميلا فيقول :

« قَرَصتْ نملة نبياً من الأنبياء : فأمر بقرية النمل فأحرقت . فأوحى الله تعالى إليه : أنْ قرصتك نملة ... أحرقت أمة من الأمم تسبح » .

انظروا كيف تتألق إنسانية « محمد » وتسمو : فيسمي جماعة النمل « أمّة » ...وأمة تهديها غريزتها إلى أن لها بارئاً خلاّقاً : فهي تسبّح بحمده...؟!

والذي يؤاخذه الله في هذه القصة على تخليه عن الرحمة تجاه حفنة من النمل ، ليس فرداً عادياً .. بل هو نبي من الأنبياء ..

إن الصورة على بساطتها • تتضمن أروع نماذج الرحمة على الاطلاق وتكشف عن نفسية « محمد » العذْبة ، كما لا يكشف شيء مثلها •

حفنة من النمل، لا يدرك الناس لها، ولا لآلاف مثلها قدراً — أيَّ قدر — •• ترتفع في عين « محمد » إلى الحد الذي يتصور لهـا عنده قداسة ، وحُرمة •• وتقدس حقوقها إلى الحـد الذي يؤخذ عنده نبي من الأنبياء ، لأنه اعتـدى عليهـا وتجنى •••!!

بل إنه حين يأمر بقتل حشرة سامة تفترس الناس بلدغها •• يجعل المهارة في قتلها مرادفة للرحمة بها ، ويرجو الثواب من ربه لمن يجهز عليها في غير إيلام لها •

انظـروا ••

« من قتل وزغَة في أول ضربة ، كتبت له مائة حسنة ، وفي الثانية دون ذلك ،و في الثالثة دون ذلك » •

إن الوزغة حشرة سامة كالأفعى ••• والخلاص من شـرها ضروري ••• ولكن حتى هنا لا ينسى « محمد » الرحمة ، فينشيء من مثوبة الله سبحانه جائزة لمن يجهز على تلك الحشرات القاتلة ، دون أن يسبب لها ألمـاً — أيّ ألم ••!!

أجل — جائزة لمن يصيب الهدف دون أن ينبعث منه أنين ••!!

ذلك أن الرفق عند « محمد » هو جوهر الحياة وزينتها •

يقول عليـه السلام :

« إن الرفق ما كان في شـيء إلا زانَه •• ولا نُزِعَ من شـيء إلا شـانَه » •

* * *

هذه ومَضات من رحمة « محمد » ••

رحمته بالناس ••

ورحمته بالأحياء جميعاً •

رحمة الإنسان الذي أرسله الله رحمةً للعالمين •

الفصل الثاني

والعدل شريعته

« فمن يعدل ، إن لم أعدل ؟ »

ذات يوم . تقدم منه أعرابي في غِلظة ، وسأله مزيداً من العطاء ، وقال : اعدل يامحمد ...

والطمأنينة التي دفعت الأعرابي إلى هذا الموقف المسرف في الجرأة .. هذه الطمأنينة وحدها ، تصور عدل « محمد » أصدق تصوير .

فما كان الأعرابي قادراً على أن يقول مقالته تلك ، لو كان « محمد » قد أقام بينه وبين الناس سوراً من التعاظم ، والكبرياء ، وبثّ في نفوسهم الخشية منه والرّهبوت ..!!

لكن « محمداً » حطّم كل معالم التمايز بينه وبين الناس .

وحين دخل عليه رجل غريب ، يختلج ، بل يرتجف من هيبته ، استدناه ، وربت على كتفه في حنان ، وفرْط تواضع ، وقال له عبارته المشهورة :

« هوّن عليك .. فإن أمي كانت تأكل القديد بمكة » .

أجَل .. من هنا يبدأ الفهم الصحيح لعدل « محمد » ..

من هنا .. من إلغائه كل مظاهر التمايز بينه وبين الناس .

فالرسول الذي اصطفاه الله واختاره... والذي هيأه تفوقه الأخلاقي والعقلي والروحي ، لأن يكون أستاذ أمته ورائدها .... وهيأه اصطفاء الله له ، لأن يكون الإمام الذي يُحل ، ويُطاع..«محمد» ، ومعه كل هذه المميزات ، يرفض كل امتياز ، وينحي كل تمايز ، ولا يفتأ يتلو على الناس هذه الآية الكريمة :

« إنما أنا بشرٌ مثلكم » ..!!

إنه ليعلم أن التمايز أشد مظاهر الظلم وقاحة .. فالذي يزعم لنفسه مكاناً خاصاً فوق الناس ، إنما ينتحل ما ليس له بحق . وانما يتعبدهم لشهوة الصلف ، والغرور الكاذب .. ثم هو قبل هذا ، وبعد هذا يضع نفسه حيث تغلبه نفسه ، وحيث يقوده هواه الى ارتكاب كل الآثام الباغية التي هي إفراز حتمي لإحساسه الخاطىء بالتمايز ، وبالاستعلاء ، وبالهيمنة ..

و « محمد » الانسان يعلم هـذا ، وليس في طبيعته إلا الهيام الشديد بالعدل ، والايمان به كفضيلة ، وكضرورة .

من أجل هـذا طهر نفسه تطهيراً من كل شعور بالتعالي .. وتنازل في نبل عظيم ، عن كل امتيازات تفوقه العظيم .

في سلوكه ، كرسول وقائد ، ينبذ التمايز ويرفضه .

يأتيه أصحابه قبيل غزوة أحُد .. يقولون له : إن العـدو في طريقه إلينا يريد أن يقضي علينـا .

فيقول لهم : إني أرى ألا نخرج لقتال ...

يقولون : ونحن نرى أن نخرج ، ونقـاتل ...

فيستمهلهم بضع دقائق .. يغيب عنهم فيها ، ثم يعود إليهم ، وقد ارتدى لباس المعركة احتراماً لمشيئتهم واحتراماً لحقهم ..

ويسأله يوماً أعرابي في بداوة جافة :

يا « محمد » هل هـذا المال مال الله ، أم مال أبيك ...؟؟ ويبتدره عمر بن الخطاب بسيفه يريد أن يجهز عليه، فيرده «الرسول» قائلا :

« دعه يا عمر ... إن لصاحب الحق مقالا » ...!!

وفي سلوكه كصديق . يرفض التمايز أيضاً .. ففي بعض أسفاره يتهيـأ أصحابه لإعداد الطعام . ويتقاسمون العمل فيما بينهم ، فيقول « محمد » عليـه صلاة الله وسـلامه :

« وعليَّ جمـع الحطب .

يقولون : يا رسول الله ، إنا نكفيك هـذا ..

فيجيبهم : قـد علمت أنكم تكفونني إياه ولكني أكره أن أتميز عنـكم » ..

لقـد جعل نفسه واحـداً من الناس .

وإذن فالقانون الذي يحكم الناس يحكمه .. والواجبات التي يُطلب إلى الناس القيام بها ، عليه أن يقوم مثلهم بهـا . بل وأكثر مما يقوم بها الآخرون ؛ لأنه في مكان التأسِّي ، والقدوة .. لا في مكان التدلل والحظوة ...

ونعود إلى النبأ الأول الذي استهللنا به هـذا الفصل من الكتاب ، نبـأ الأعرابي الذي قال له : اعدل يا محمد ..

لقـد ابتسم الرسول عليه الصلاة والسلام ابتسامة المتهلل ، ولم يزد على أن قال للرجـل :

« ويحك .. فمن يعدلُ إن لم أعـدل » ...؟؟!

و « محمد » حين يقول هـذا ، لا يقوله متباهياً ، ولا مختالا .بل مُذكراً الناس بحقهم في أن يتوقعوا منه أقصى فرائض العدالة وفي أن يحاسبوه عليها إذا عنَّ لهم ما يقتضي الحساب .

فإذا لم يقم « محمد » بالعدالة كاملة ، فمن إذن يقوم ؟

إن واجبه أن يفعـل ..

وقبل الواجب ، هناك طبيعته الخيرة النقية ، تجري الفضائل الكبرى خلالها. كما يجري الدم النقي في العروق النظيفة ...

فإذا لم يعدل « محمد » ــ كل العدل ــ فقد أخلَّ بواجبه ..

وإذا لم يعـدل ــ كل العـدل ــ فقد جـافى طبيعته ...

و « محمد » ليس الإنسان الذي يفرط في تبعـاته .

و « محمد » ليس الإنسان الذي يجـافي فطرته ، ويلوي طبيعته ..

هـذا هو معنى قوله عليه الصلاة وأبهى السلام :

« فمن يعـدل ، إن لم أعـدل » .

و « محمد » حين تخلى عن التمايز ، لم يفعل ذلك إشباعاً لفضيلة التواضع . ولو أنه فعل ذلك من أجـل ذلك ، لكان عملا حميداً وجليلا ...

ولكن « محمداً » إنسان تحركه بواعث أخرى تناهت في السمو والجلال .

فهو يرفض التمايز تحقيقاً للعـدل .

وهو يعدل ، لأن سلوكه العادل ، تحقيق لذاته وفطرته .

وذاتـه وفطرته ، لا تتكلفان المساواة وطلب التكافؤ . بل هما مترعتان بمشاعر هذه المساواة وحقيقتها .

ومن هنا فمحمد لا يرى نفسه واحداً من الناس ــ تواضعاً ــ بل هو واحد من الناس ــ حقيقة ــ يجري عليه ما يجري عليهم ..

وإذا كان الله يعاقب الناس إذا ظلموا .. فمحمد سينزل به العقاب إذا ظلم ، بالله ، ما أروع هـذا ...!! انظروا ..

« ذات يوم يرسل خادماً في حاجة قريبة . فيغيب نصف اليوم أو قرابة ذلك .. ويأخذ الرسول ، ما يأخذ كرام البشر من الغيظ الكريم ويظن من يراه ، أنه سينزل بالغلام حين يعود عقاباً أليماً .. وحين يعود الغلام : يلوح « الرسول » في وجهه بالسواك وهو يقول : لولا خوف القصاص من الله لأوجعتك ضرباً بهذا السواك ».

أرأيتم ...؟؟

إن « السواك » عود صغير في حجم فرشاة الأسنان ويؤدي وظيفتها ، ولو ضرب به ، رضيع مائة ضربة ما آلمه ولا أوجعه ، فضلا عن فتى كبـير .

ومع هذا ، فالرسول يكظم غيظه ، ويرفض أن يضرب الغلام بهذا السواك .

لمـاذا ...؟

خوفاً من قصاص الله ..

ألم أقل لكم : إن استمساك « محمد » بالعدل ، لم يكن تباهياً بالتواضع ولا استمتاعاً بلذة العـدل . وإنما توقيراً للعدالة نفسها ، وإدراكاً لحقيقة وضعه

بين الناس .. كواحد منهم .. واحد مثلهم . عليه أن يعدل كما أن على الناس أن يعدلوا ، لأن العدل ميزان الحياة . وأي انحراف بهذا الميزان يُلحق بالحياة أذىً ، ووبالاً .

بل عليه أن يستوصي بالعدل أكثر مما يستوصي الناس : لأنه لهذا خُلِق .. ولهـذا بُعِث ..

ويتصور « محمد » العدل ، تصوراً فذاً ، وينزله أعلى مكان حين لا يجعله فضيلة من فضائل البشر وحدهم ، بل قبل هـذا خُلقاً من أخلاق الله سبحانه ، ونهجاً ألزمه الله نفسه .

« يقول الله تعالى : يا عبادي : إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً ، فلا تَظالَموا » .

وحين يتصور « محمد » أن ربه الفعال لما يشاء . قد حرم الظلم على نفسه . فإنه لابد ناظر إلى الظلم كخطيئة لا تعادلها خطيئة أخرى بين كل خطايا البشر ..

ومن ثم ذهب في التحذير منه مذهباً بليغاً . فيقول :

* « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظُلمات يوم القيامة » .
* « اتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .
* « دعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ، ويقول الرب : وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين » .
* « اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة » .

والظلم عند « محمد » ـ يأكل فضائل الظالم ، ويرعى حسناته كما تَرعى النـار الهشيم ...

ولما كان يوم القيامة ، هو مظهر الجزاء والقصاص ؛ فقد ناط به « الرسول » مصـير الظـالم ..

ونحن من عنـدنا نقول : إن لكل إنسان قيامته ... وإن قانون القصاص لقائم ونافذ . ويوم القصاص منك ، يُمثّل يوم قيامتك . ؛ فلا يقولن ظـالم : هيهات يوم القيامة ، فإنه منه قريب جِدّ قريب .

يقول محمد عليه السلام محذراً الظالم من يوم القصاص :

« اتقوا الظلم ما استطعتم ؛ فان العبد يجيء بالحسنات يوم القيامة. يرى أنها ستنجيه ؛ فما يزال عبد يقول : يا رب ظلمني عبدك مَظْلمة . فيقول الله : امْحوا من حسناته ... وما يزال كذلك حتى ما يبقى له حسنة » .

وقصاص الظلم محتوم ومباغت :

« إن الله ليُملي للظالم ، فإذا أخذه لم يفلِتْ .. » .

* * *

ذات يوم صعد « الرسول » المنبر ، وراح يخطب الناس . قائلا لهم :

« مَن كنتُ أخذت له مالاً ، فهذا مالي ، فليأخذ منه ، ومن كنتُ جلَدتُ له ظهراً ، فهذا ظهري ؛ فليَقتَدْ منه » .

إن الإنسان العظيم يعلم أنه لم يأخذ مال أحد ، لا ولا جَلد ظهر أحد . ولكنه التحري المطلق للعدل ، والرهبة البالغة من الظلم ..

وهو لهذا يوصي الناس فيقول :

« مَن كان عنده مَظلمة لأخيه من عِرض أو من شيء ، فليتحلّله منه اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم .. إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات ؛ أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه » .

ولا شيء يكشف عن إيمان « محمد » بالعدل ، ومقاومته الظلم مثل حديثه المضيء الذي يقول:

« انصر أخاك ، ظالماً أو مظلوماً ، قال رجل : يا رسول الله ، أفرأيت إن كان ظالماً . كيف أنصره ..؟؟ قال : تمنعه عن ظلمه ، فإن ذلك نصره » .

لقد بلغ من بشاعة الظلم عند « محمد » أن الظالم نفسه ، يكون ضحية

ظلمه •• إنه قد أنزل الظلم بنفسه ، في ذات الوقت الذي أنزل فيه الظلم بغيره ••

وهو لهذا ، مظلوم في صورة ظالم •• تَعِس في ثياب جبّار •••!

ومقاومته ، ومنعه عن الظلم ، فوز له وانتصار ، أكثر مما هي زجر وعقاب •

ثم انظروا بهـاء الانسانية وألقها في ضمير « محمد » وهو يقـول : « انصر أخـاك ظالمـاً » ••

لو قال : « قاوم أخاك ظالماً ، وانصره مظلوماً » لكان القول حسب تفكيرنا أقرب إلى السداد ••

ولكنَّ السداد في كلمات « محمد » من طراز آخـر ، يعرف هو أكثر من غيره كيف يُضمنه كلماته الناصعة البهـاء •

فمُدافعة الظلم ، حتى حين تتخذ هـذه المدافعة شكلا جماعياً أو ثورياً — ليست عملا من أعمال التقويض ، بل هي من أعمال البناء والانتصار للحياة •

ولسنا نعرف رذيلة رفع «محمد» مقاومتها إلى هذه المكانة، مثل رذيلة الظلم•

إنه أعطى مقاومة الظلم إيجابية غامرة ، وكساها بهاء ناضراً ، حين جاوز بهـا مستواها •• وجعلها ظفراً وانتصاراً •!!

* * *

والظـلم تتفاوت أخطاره ، بتفاوت مصادره • وشرّ مصادر الظلم جبّار متسلط ، وحاكم باغ • وهنا يواجه « محمد » الظلم في عرينه الخطِر ••

وسبيله هنا • ليس استدرار عطف الحاكم الظالم •• بل حثّ المظلوم على المقاومة •• وحث الناس جميعاً على دحْض الظلم ومكافحته •

هنا يقول « محمد » :

« إذا رأيتم الظالم ، ولم تأخذوا على يديه ، يوشك أن يَعُمكم الله بعـذاب » •

ويقـول :

« إذا عجزت أمتي عن أن تقول للظالم : يا ظالم ! فقد تُودِّع منها» •

ويسأله أحد أصحابه يوماً عن أفضل الجهاد ، فيجيبه عليــه السلام :
« كلمــة حــق عند سلطان جــائر » •

وينظم الرسول عليه السلام مقاطعة الحاكم الجائر ، كوسيلة ناجعة لمقاومة ظلمــه وجوره ، فيقول :

« سيكون بعــدي أمراء • يَظلمون ويكذبون • فمن صدّقهم بكذبهم ، وأعانهم على ظلمهم ، فليس مني ، ولا أنا منه •• ومَن لم يصدقهم بكذبهم ، ولم يمالئهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه » •

ويزيد « الرسول » هــذا المعنى تبياناً وإيضاحاً فيقول :

« يكون أمراء تغشاهم غَواشٍ أو حواش من الناس ــ يكذبون ويظلمون ، فمن دخــل عليهم فصدقهم بكذبهم ، وأعانهم علــى ظلمهم ، فليس مني ولست منه •• ومَن لم يدخــل عليهم ، ولم يصدقهم بكذبهم ، ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه » •

فهنا يشير « الرسول » إلى حاشية الظالم بقــوله « تغشاهم غواش ، أو حواش من الناس يكذبون ويظلمون » •

وهو عليه السلام يدعو إلى مقاطعة الظالم وحاشيته، حتى يمتازوا بظلمهم•• فيقول : « من دخل عليهم فليس مني ولا أنا منه » •

انظروا عبارة « من دخــل عليهم » ••

إن « محمداً » يريد أن يعزلهم عن المجتمع ، حتى يحسّوا بالنبذ وبالهوان ، فيرجعوا عن ظلمهم أو يبوءوا بآثام بغيهم ••

و « محمد » وهو يلم بالحاشية في مقام الحديث عن الحاكم الظالم ، يُعنى بالكشف عن الدور الخطير الذي تلعبه الحاشية في دعم الظلم ، أو دعم العدل •• في إصلاح الحــاكم أو إفساده •

فيقول عليه السلام :

« ما مِن والٍ إلا وله بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عــن

المنكر.. وبطانة لا تألوه خَبالا ـــ أي لاتدَّخر جهداً في إفساده

فمن وُقِيَ شرَّها ، فقد وُقِي » .

ويقــول أيضاً :

« إذا أراد الله بالأمير خيراً ، جعل له وزير صدق إن نسي ذكَّره .. وإن ذكرَ أعانه .. وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ، إن نسي لم يذكره .. وإن ذكر لم يعنه .. » .

* * *

والظــلم يتخذ أشكالا شتى ..

فهناك ظلم بالفعل .. وهناك ظلم بالقول .. وهناك ظلم بالشعور .

قد تظلم الآخرين بأفعال تأتيها .. وقد تظلمهم بكلمات تقولها .. وقــد تظلمهم بمجرد مشاعر كريهة تنطوي عليها نفسك ..

و « محمد » عليه الصلاة والسلام ، يحيط بهــذه الأشكال جميعاً في ذكاء عظيم ، وفي ولاء للعــدل أعظم ...

فلننظر الآن كيف يكافح الظــلم كلــه ...

الظلم الذي يتمثل في حركة .. والظلم الذي يتمثل في كلمــة .. والظلم الذي يتمثل في خلجــة نفس ..

أما الظلم بالفعل، فينتظم كل عدوان على الناس في أنفسهم ..وفي أعراضهم .. وفي أموالهم وكل حقوقهم .

أما الأنفس ، فيحرم كل عدوان عليها ـــ من سفك الدم إلى لطمة الوجه...

يقول عليه السلام :

« أولُ ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدمــاء » .

ويضع قتــل النفس مع الشرك بالله جنباً إلى جنب .. فينهى عن « السبع الموبقات » ويجعل منها قتل النفس بغــير حــق .

ويبلغ « محمد » أوج الإيمان بالنفس الإنسانية حين يقول في كلمات شاهقة :

لزوال الدنيا جميعاً، أهونُ على الله من دمٍ سُفِك بغير حق ».

لو لم يكن « لمحمد » سوى هذا الحديث ، لكان كافياً للدلالة على ما يكنه هــذا الإنسان العظيم من ولاء للحياة منقطع النظير ..!!! ومن تقدير لحرمــة الإنسان ، يفوق كل تقدير ..!

ذات يوم ، عثر أهل المدينة على جثة قتيل لم يعرف قاتله ، فجمع « الرسول » الناس وصعد المنبر غاضباً وقال :

« يُقتلُ قتيل وأنا فيكم ، ولا يُعلم من قتله ...؟ لو اجتمع أهل السماء والأرض على قتل امرىء لعذبهم الله .. ولكبَّهم جميعاً على وجوههم في النار ».

ويقول عليه السلام :

« يجيء المقتول آخــذاً قاتله ، وأوداجه تشخب دماً .. يقول : يا رب سَلْ هــذا . فيمَ قتلني ...؟؟ ».

بل اقرأوا هــذا الحديث :

« لا يقفَنَّ أحدكم موقفاً يُقتل فيه رجل ظُلماً ، فإن اللعنة تنزل على كل من حضَره حين لم يدفعوا عنه ، ولا يقفَنَّ أحدكم موقفاً يُضربُ فيه رجل ظلماً ، فإن اللعنة تنزل على كل من حضره حين لم يدافعوا عنــه ».

* * *

بل إن « محمداً » ليَرى مجرد التهويم بالسلاح ، أو بآلة حادة مؤذية — عملا يستوجب العقاب واللعنــة .

يقول عليه السلام :

« لا يشيرنَّ أحدكم إلى أخيــه بالسلاح ، فإنه لا يدري لعــلَّ الشيطان ينزعُ في يده — أي يدفعه إلى الجريمة ».

ويقــول :

« مَن أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ، حتى ينتهي ».

ويُمعن في استبعاد كل أسباب العدوان فيقول :

« إذا مرَّ أحدكم بمجلس أو سوق ، وفي يده نبل ، فليأخذ بنصالها ـــ لا يَخدِش بهـــا أحـــداً ...!! » .

* * *

ويصون « محمد » الأعراض بنفس العزم الذي يصون به حُرمة الأنفس والحيـــاة ..

و « لمحمد » في هـــذا نبأ يغني عن كل استطراد .

ذات يوم أقبل عليه سائل يسأله في صراحة العربي وجرأته طامعاً في أن يجد للزنا رخصة ... فهو فحل لا يستطيع أن يُغالب في نفسه شبَقَها إلى النساء ..!

رغبة عجيبة حقاً ـــ لا سيَّما حين يتقدم بها صاحبها إلى رسول ..!

ولكن « محمداً » يكشف في هذه الواقعة عن فلسفته تجاه خطيئة الزنا .. بل تجاه الخطايا كلها فإذا خطيئة الزنا جُرم لأنها عُدوان .. لأنها ظُلم ..

لقد استَدنى الرجل منه ، وربت على كتفه وقال والضياء يكسو وجهه ، مُلقياً على الرجـــل سؤالا :

« أتُحب الزنا لأمّك ؟؟؟ قال الرجل : لا .

ـــ أتُحبه لزوجك ؟؟ قال الرجل : لا .

ـــ أتحبه لأختك ؟؟ قال الرجل : لا .

أتحبه لبنتك ؟؟ قال الرجـــل : لا .

فقـــال الرسول : كذلك الناس ـــ يا أخـــا العرب ـــ لا يحبونه لأمهاتهم ، ولا لزوجاتهم ، ولا لأخواتهم ، ولا لبناتهم ...!!! » .

من كان يعرف في تلقين الأدب ، وبثّ الفضيلة ، طريقة أمثل ، وأروع من هـــذه ، فليأتنا بهـــا ..!!

قال الرجل : وقـــد بهره الحِجاج ، وأقنعه المنطق : إذن فادع الله لي كي يحبِّب إليَّ العفّة ، ويُكرّه إليَّ الفسوق ..!!

فوضع الرسول كفـــه الحانية على صدره ودعا له ، يقول الرجل : « والله

ما إن قال الرسول ماقال. حتى انصرفت عنه ولا شيء أبغض إلى نفسي من الزنا..!»

أجل ... كل عدوان عليك ، أو على أحد ممن معك ، لا ترضاه لنفسك . ولا ترضاه لهم . واجب عليك أن تتجنب إيقاعه بغيرك وهذا هو الميزان. والمعيار..

وللمال في حياة الناس أهمية بالغة .

والحاجة إليه . والتزاحم عليه ــ كثيراً ما يثيران الخصومة ، والحقد والعدوان .

وهنا يقف « محمد » حارساً العدل من كل افتيات يفضي إليه التزاحم والمنافسة والطمع ــ ويقف عند الحقوق المالية وقفة بارة طويلة .

تأملوا هذا الحديث جيداً :

« لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة . حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء ... » .

أي حرص على الناس يمكن أن يعبر عنه في توكيد صارم أروع من هذا التعبير ..

ولنتأمل هذا الحديث أيضاً :

« من ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين » .

وكل حيلة لسلب الحقوق . عمل غير صالح .

وذرابة اللسان ، وذلاقة الحجة ، إذا توسل بهما امرؤ لأخذ ما ليس له بحق . فقد باء بإثم كبير .

يقول الرسول محذراً أصحابه :

« إنما أنا بشر ... وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو ما أسمع .. فمن قضيت له بحق أخيه ، فإنما أقطع له قطعة من النار » .

ويعلن « محمد » أن اللقمة الحرام تفسد العبادة نفسها ، وترد الأعمال الصالحة تراباً في تراب .

إنه يقول لسعد بن أبي وقاص :

« يا سعد : أطب مطعمك . تكن مستجاب الدعوة فوالذي نفس محمد بيده : إن العبد ليقذف اللقمة الحرام في جوفه . ما يُتقبل منه عمل أربعين يوماً .... وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » .

ويقول عليه السلام :

« إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً .... وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم .. وقال : يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم .. ثم ذكر الرجل يطيل السفر . أشْعث ، أغْبرَ ، يمد يديه إلى السماء . يا رب ، يا رب ــ ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، ومَلْبسه حرام ، وغُذِيَ بالحرام ! فأنَّى يستجاب لذلك ؟؟ » .

ويضع الأمانة ، وعفة الطعمة في موضع تتضاءل دونه الدنيا بما فيها ، فيقول عليه الصلاة والسلام :

« أربع إذا كُنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة . وصدق حديث ، وحُسْن خليقة ، وعفَّةٌ في طُعمة » .

ويزيل الغشاوة عن أعين أولئك الذين يغبطون المتخوضين في أموال الناس على ما هم فيه من ثراء باطل ، ونَعمة كاذبة ، فيقول عليه السلام .

« لا يُعجبك رَحْبُ الذراعين بالدم ــ أي القاتل ــ ولا جامع المال من غير حِلّه ، فإنه إن تصدَّقَ به لم يُقبل منه ، وما بقي كان زادَه إلى النار » .

« لأن يأخذ أحدكم تراباً ، فيجعله في فيه ــ خير له من أن يجعل في فيه ما حرَّم الله عليه » .

وقد يتصور الناس أن الظلم المتمثل في اغتصاب الأموال، قاصر على أموال الأفراد ..

كلا، وإن أموال الأمة لأشدّ عند « محمد » حرمة، وإنه ليجلجل بالنذير للذين يعيثون في هذه الأموال، يسرقونها ويختلسونها .

إن كل الطاعات والفضائل : لتعجز عن محو خطيئة السرقة من مال الأمة ..

لنقرأ هذا النبأ الرهيب :

« كان للنبي عليه السلام غلام يقال له مِدْعم وفي إحدى الغزوات أصابه سهم وهو يَحطّ رَحْلَ رسول الله فمات .

وجاء أصحاب الرسول يعزّونه في خادمه، ويقولون : هنيئاً له يا رسول الله . لقد ذهب شهيداً ولكن الرسول أجابهم قائلا :

كلا . إن الشملة التي أخذها من الغنائم يوم خيبر، لتشتعلُ عليه ناراً » .

شملة تساوي بضعة دراهم.. أخذها هذا الغلام خفية أو خلسة يوم خيبر..

ثم ها هو ذا يموت شهيداً ..

ولكن استشهاده هذا، لم يدفع عنه غائلة إثمه القديم .. لأنه كان إثماً عظيماً باهظاً .. وعدواناً غير مشروع على مال الناس، مال الأمة ....

لكنها شملة لا تساوي شيئاً ..؟؟

أجل .. ولكن تقديس « محمد » لحرمات الحق، والعدل، والأمانة لا تعرف في هذا المجال تفاوتاً ولا مفاضلة ..

ذات يوم رجع إلى المدينة أحد الولاة، وذهب ليقدم للنبي الأموال التي جمعها من الزكاة .

قدم بعضها وقال : هذا لكم .. واحتجز بعضها الآخر وقال : وهذا أهدي إليّ ..

وفي التوّ، والناس مجتمعون في مسجد رسول الله نهض الرسول وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإنني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله . فيأتي فيقول: هذا لكم .. وهذا هدية أهديت إلي ، أفلا جلس في بيت أبيه حتى تأتيه هديته إن كان صادقاً ..؟؟ والله لا يأخذ أحد منكم شيئاً بغير حقه إلا لقي الله تعالى يحمله يوم القيامة » .

وهكذا يقطع محمد الطريق على السرقات الهاربة من الأبواب الخلفية .. السرقات التي تؤخذ ، متنكرة في ثياب هدايا .. وهي في محض واقعها من شر ألوان الرشوة والسرقة ، والانتهاب .

* * *

هذا هو العدل فيما نفعل ...

أما العدل فيما نقول ، فقد استوصى به الرسول خيراً .. وحمّل الألسنة مسئولية كبرى في إقرار العدل والحق .

وولاء « محمد » لعدل الكلمة يتمثل في عبارة موجزة قالها .. تلك هي :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

هذا هو الإسلام . كفّ اليد واللسان عن ظلم الناس وأذاهم ...

وكف اليد ، يعني دحض كل أعمال العدوان المادي على حياة الناس ، وأجسامهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ..

وكف اللسان ، يعني درءَ كل عدوان ملفوظ من غيبة ونميمة ، ومنطق خلاّب ينتهب أصحابه به الحقوق ..

ولما كانت شهادة الزور من مظالم اللسان التي تضيع بها الحقوق وتختفي بها معالم العدل . فقد صبّ عليها « محمد » كل نقمة .

« كنا عند رسول الله ﷺ فقال : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله .. وعقوق الوالدين .. وشهادة الزور ، ألا وشهادة الزور ، وقول الزور .

وكان متكئاً فجلس ، وما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت » .

وعدوان اللسان ، لا يقف عند شهادة الزور . ولا عند الحديث المنمق الذي يلبس الحق بالباطل .. بل إن كل كلمة مسيئة تعتبر عدواناً ..

ولقد أوصى القرآن الناس قائلا لهم « وإذا قلتم فاعدلوا » .

وهكذا ركّز الرسول على « عدالة القول » في شتى صورها .

ولعله جمعها في كلماته هـذه :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً .. أو ليصمت ».

ويحدثنا سفين بن عبد الله الثقفي فيقول :

« قلت.يارسول الله : حدثني بأمر اعتصم به..قال : قل ربي الله ، ثم استقم . قال : قلت يا رسول الله ما أخوف ما تخـاف عليّ ؟ فأخـذ بلسان نفسه ، ثم قال .. هـذا .!! » .

ذاك جانب من العدل خفيّ ودقيق..ولكن على من يخفى ..؟ على«محمد» الذي قال للناس « مَن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري ، فليقتد منه » ..؟!!

« محمد » .. الذي قدس العـدل فرفعه فوق الميول والأهواء ، واعتبره ــ كما علّمـه ربه ــ واجباً مفروضاً ، لا تستخفّه قرابة قريب . ولا يحتجزه شنآن عـدو ..؟

هنا يدرك « محمد » رسول الله خطر اللسان على العدل ، وخطر الكلمة ، جدها ، وهزلها ، فيقف من حصائد الألسنة موقفاً مترعاً بالفهم ، والحزم .

انظـروا ..

« إن الرجـل ليقول الكلمة ، لا يلقي لها بالاً ، يهوي بهـا في النـار سبعين خريفاً ..!! » .

كلمة ، لا تلقي لها بالاً . قد يضيع بها حق إنسان ، أو ينتقص بها قدره .. يظل وبالها عليك ، وإثمها ممسكاً بخناقك أمـداً بعيداً .

ذات يوم ذكر « الرسول » زوجته « صفية » بخير ، وكأنما مَسّ الحديث من « عائشة » غـيرة فأثارها .

وقالت : وماذا يعجبك فيها ؟ إنها قصيرة ..!!

تلك هي العبـارة التي ألقتهـا عائشة ، ولم تزد .. وإذا الرسول يعقب عليهـا قائلا :

« ماذا يا عائشة ...؟؟ لقد قلتِ كلمة ، لو مُزِجتْ بماء البحـر لمزَجتْه ..!! » .

إنه ساهر على المبـدأ الذي فرضه عليه ربه ، المتمثل في الآيـة الكريمة « وإذا قلتم فاعـدلوا » .

وعدالة القول تقضي ألا تُفضي الكلمة إلى مساءة ــ أية مساءة ــ لإنسان ــ أي إنسان ــ !!

حتى إذا تناولت الكلمة إنساناً بنقيصة هي فيه . تكون قد جافتِ العدل وجانبتْه .

سأله واحـد من أصحابه يومـاً ..

« أرأيت إن كان في أخي ما أقـول ؟ » .

فأجاب « محمد » صلى الله عليه وسلم :

« إن كان فيه ما تقول . فقد اغتبْتَه .. وإن لم يكن فيه ما تقول ، فقـد بَهتَّه » .

* * *

وينتقل « محمد » من « عدالة القول » إلى « عـدالة الشعور » .

إنه يريد للناس أن ينطووا دائماً على مشاعر عادلة ، وأحاسيس نظيفة .

فإذا اعتديت على آخر بيدك ، فهذا ظـلم .. وإذا اعتديت عليه بلسانك فهـذا ظـلم ..

و « محمد » الإنسان يكشف ظلماً آخر لم نكن نعرفه.. ظلماً غير منظور.. بيد أنه سبب مباشر لكل ظلم منظور .. ذلكم هو ظـلم الشعور ..

إن مجرد انطوائك على مشاعر عدوانية تجاه الآخرين ، يسلكك في عِداد الظـالمين .

وهذه المشاعر العدوانية ، تتمثل في آفات كثـيرة ، منها :

الحسد •• وسوء الظن •• والشماتة •• والاحتقار ••

كل هـذه الآفات ــ حتى إذا دارت داخل النفس والشعور ، ولم تعبر عن نفسها بعدوان فعلي •• يعتبرها « محمد » ظلماً •••

وهو لهـذا يتعقبها ، محذراً منها ، ناهياً عنهـا •

يقـول عن الحسد :

« إياكم والحسد ، فإن الحسد يأكـل الحسنات ، كما تأكـل النـار العشب » •

« لا يجتمع في جوف عبـد ، الإيمان والحسد •• » •

« ليس مني ذو حسد ولا نميمة ولا كهانة ، ولا أنا منه » •

ولقد سئل عليه السلام يومـاً من أصحابه :

« يا رسول الله : أيّ الناس أفضل ؟ فأجاب : كل مخموم القلب صدُوق اللسان ــ قالوا : صدُوق اللسان نعرفه ، فما مخمومُ القلب ؟؟ قال : هـو التقيّ النقي الذي لا إثم فيـه ولا بغي ، ولا غـلّ ولا حسد » •

أجل •• إن سلامة الصدر تشكّل عند « محمد » الإنسان العظيم والرسول الكريم ألمع سمات الإيمان ، وأجلّ أركانه ••

وإنه لدائم الحثّ عليها والتذكير بهـا ، والإشادة بفضلها ، لأنـه يعرف دورها في إقرار العدل بين الناس • ونفي الظلم عنهم بصورة شاملة •

ذات يوم كان يجلس ــ عليه السلام ــ مع بعض أصحابه ، فقال لهم « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه ••

فصمم عبد الله بن عمرو ، على أن يعرف عمل هـذا الرجل الذي شهد له « الرسول » بالجنة وبالخير على هـذه الصورة ••

فاصطنع حيلة حتى بايتَه في داره ثلاث ليال ••

فلم يجـد له تعبـداً يفوق الآخرين ...

وقبل أن يهم عبد الله بن عمرو بالرحيل عنه ذكر له مقالة « الرسول » عنه ، وسـأله : إن كان له عمل صالح يخفيه ، حتى استحق كل هذه المكانة .

فأجابه الرجل : « ما لي عمل إلا ما رأيت .. أصلي كما يصلي الناس ، وآتي من الطاعات ما يأتون ... غير أني لا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه ... وآخذ مضجعي كل ليلة ، وليس في قلبي حقـد لأحـد ...!! » .

هذا هو النموذج الذي رفعه «محمد» لأصحابه مثلا أعلى تهوي إليه الأفئدة .

رجل لا يمتاز عن الناس بكثير صلاة ، ولا صيام ... إنما بسلامة صـدر لا تعرف الحقد ولا الحسد .؟!

* * *

وأما سوء الظن ، فقـد كافحه « الرسول » طويلا .

يقـول عليه السلام :

« إياكم والظن ، فإن الظن أكذبُ الحديث » .

ويقـول :

« إنك إن اتبعتَ عورات المسلمين أفسدتهم، أو كدتَ تفسدهم » .

إن الظن عند « محمد » لا يشكل آفة سلبية ، بل هو آفة إيجابية ، لهـا في الإثم والعدوان دور ايجابي ...

فنعته الظن بأنه « أكذب الحديث » يعني إخراج الظن عن مجـرد كونه همهمة نفسية ، إلى حقيقة أنه تحريض فعلي . وشروع في عدوان .

وتَتَبُّعك عورات الآخرين ، ولو بالظنون النفسية وحدها ، سيجعلك تتخذ منهم موقفاً سيئاً .. يجيبون هم عليه بموقف سيىء مثله .. وبهذا تكون قـد أفسدتهم ، وأفسدت نفسك قبلا .

ولما كان الظن يستتبع الفضول والتجسس ، فقد أعلن « محمد » مقته لهما

واشمئزازه منهما ، قال في نفس الحديث الذي نهى فيه عن الظن :

« إياكم والظــن ، فإنه أكذب الحديث . ولا تحسّسوا .. ولا تجسّسوا » .

وكان ينهى أصحابه عن أن ينقلوا إليه أخبار الآخرين ، فيقول لهم :

« لا تحدثوني عن أصحابي شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليــكم منشرحَ الصــدر » .

ألا حيا الله أشرف خلقــه ..!!

إنه بدلا من أن يضع العيون على حركات الناس وخلجاتهم ليكون في مأمن من مكر الماكرين... يغمض هذه العيون ويزجرها عن كل تجسس ، وفضول...!

ذلك أن « محمداً » إنسان صادق . صادق مع نفسه ، صادق مع نهجــه ورسالته .. صادق مع حياته ... صادق في علاقاته بالناس وبالأشياء جميعاً ..

* *

وأما الشماتة . فيقول عنهــا :

« لا تظهر الشماتة بأخيك ، فيعافيه الله ويبتليك » .

ويقــول :

« مَن عَيَّر أخاه بذَنب ، لم يَمت حتى يعمله . » .

ولنا أن نسأل : إن الشامت لم يعتد على أحــد ، فلمَ يعاقب ..؟ إنه مجرد سرور نفسي واتاه حين رأى غريمه في مأزق ..؟؟

هذا عند « محمد » عدوان .. بل وعدوان ينطوي على صَغار ودناءة ..

فعندما يكون الآخرون في مأزق .. يكون واجبنا أن نخف إلى نجدتهم ، ونسارع إلى إنقاذهم .. فاذا تخلينا عن هذا الواجب ، فقد ألحقنا بهم من الأذى بقــدر ما بخلنا به من العون ... ثم زدنا مرارة الأذى في أنفسهم بما ضمّنّاه من فرح ، وتهلل ، وشماتة ..

ولهـذا لم يكن من القصاص بُد ..

وهذا معنى قول « الرسول » العظيم : « فيعافيه الله ، ويبتليك » .

وعن احتقار الآخرين نهى « محمد » الإنسان ، وشدد في النهي . يقـول عليـه السلام :

« إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخرَ أحد على أحد . ولا يبغي أحـد على أحـد » .

« ألا أخبركم بشر عبـاد الله . ؟ الفَظّ المستكبر . » .

ويرى في احتقار الناس أياً كان قدر هذا الاحتقار شراً كبيراً يُلحق بمرتكبه الأذى والوبال ، فيقـول :

« بحسْب امرىء من الشرّ أن يحْقِر أخـاه » .

ويُدمْدمُ على المختالين في كلمات حامية فيقول :

« بئس العبـد ــ عبد تخيَّل واختال ونسي الكبـير المتعـال . بئس العبد ــ عبـد تجبَّر واعتـدى . ونسي الجبـار الأعلى . بئس العبد ــ عبـد طغى ، وبغى . ونسي المبـدأ ، والمنتهى » .

هكذا كافح « محمد » الحسد ، والظن ، والشماتة ، والاحتقار بوصفها مشاعر عدوانية .. وبوصفها نوعاً من الظـلم الخفي الذي يدور داخل النفس ، ثم يفضي إلى مظالم خطيرة ، وشرور كثـيرة .

وفي كل مظاهر الظلم التي أسلفناها ــ المعلن منها ، والمستخفي . كان الحديث يدور حول ظـلم الغير .. أعني الظلم الذي يقع على الآخرين .

ولقد رأينا كيف قاوم « الرسول » ظلم الغير هذا ، في كل مظانه ومصادره ، وأشكاله ــ فعلا كان أو قولا ، أو شعوراً .

لكنَّ ثمة ظلماً لايحسبه الناس ظلماً .. ذلكم هو ظلم النفس .

فكثيراً ما نظن في حمق ممتع « ! » أن من حقنا إلحاق العطب بأنفسنا — ما دامت أنفسنا ..

هذه نفسي .. وإذا لم أملك حق التصرف فيها ، واللهو بها كما أشاء ، فماذا يبقى لي من حق ...؟؟

أنت ظالم إذا فقأت عين إنسان آخر .. لكن إذا بدا لك لأمر مّا أن تفقأ عينك أنت .. فأي ظلم هنا .. ، أليست عينك ، والأذى واقع بك وحدك .. فأين الظلم هنا ، وكيف يكون ظلماً ..؟؟

إن « محمداً » الذي جعل العدل شريعته ، والذي تعقب الظلم في أدق أشكاله ، وأخفى مظانه — سيفسر لنا ظلم النفس هذا .

فنحن هنا خلق الله ، والله لم يخلقنا عبثاً ، إنما خلقنا ليحقق بنا أموراً عظمى .

وفي كل لبنة من بنائنا الإنساني الشامخ ، أعني في كل فرد . سِرّ النوع البشري جميعه .

والله سبحانه حين يصطفي من عباده من يرتادون للناس الطرق المجهولة .. لا يضع عينه على الضخام العظام ذوي الهامة والقامة والثراء والبأس ..

ولطالما انبثق من الصفوف الخلفية أنبياء ومرسلون . وقادة ومصلحون ..

أليس ذلك دليلا على أن عامة الناس وصفوتهم في الميزان سواء ؟ بلى .

وفي ذلك أيضاً دليل على أن الفرد الإنساني له قيمته .. أيّاً كان ذلك الفرد عالماً ، أم ورّاقاً .. ملكاً ، أم كناساً ..

وقيمة الفرد آتية من أنه ينطوي على سرّ نوعه الإنساني ، ويحمل جزءاً من مشيئته . ومن قدرته .

وآتية من أنه خلق الله الذي لا يخلق عبثاً ..

ومن ثم ، فهو لا يملك أن يتصرف في نفسه على هواه ...

وإذا بدا للذين يؤمنون بالله ، أن يضعوا مكان كلمة « الله » كلمة « الطبيعة »

فإن النتيجة لن تتغير •• فالفرد الإنساني بوصفه جزءاً من الطبيعة ، متضمناً سرها، ومشيئتها وقدرتها ، لا يملك أن يفوّت عليها فرصة وجوده والانتفاع به •

والإنسان عند « محمد » ـ عبدُ الله ولكنه عبده الحر الرشيد يختار رأيه ، ويختار عقيدته ، ويختار حياته « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » و « كل نفس بما كسبت رهينة » ، « ولا تزرُ وازرة وزرَ أخرى » و « الإنسان على نفسه بصيرة » •

وموقف « محمد » من الناس ، موقف الناصح الأمين ، فليس عليه إلا البلاغ ، وفي أمر التكليف الذي ألقى عليه تبعات الرسالة ، قال الله له « وما أنتَ عليهم بجبار » ـ « إنما أنت منذر » ـ « ليس عليك هداهم » ـ « إنما أنتَ مذكّر » ـ « ليس عليك إلا البلاغ » •

وحين أراد « الرسول » عليه السلام أن يكافح ظلم الإنسان لنفسه شَطَر واجبه تجاه ذلك شطرين •

الأول ، واجبه تجاه الإنسان كحياة ••

والثاني ، تجاه الإنسان كأداة وسلوك ••

أما الإنسان كحياة• فقد وقف «محمد» موقفاً صارماً ضد ظلم الفرد لحياته•

حياتك ليست ملكاً لك إلا بالقدر الذي تحقق بها إرادتك الحرة السَّويَّة ـ إرادة البناء لا الهدم •

فاذا أردت أن تقوض حياتك بالانتحار مثلا ، فلتعلم حينئذ أنها لم تعد حياتك ، وليس من حقك أن تسها بسوء •

إنك لا تعلم ما في هذه الحياة التي تريد أن تجهز عليها من خير ••

قد يكون في صُلبك عبقري ينتظر ساعة الإنجاب والولادة •

ولو أن آباء الرواد الذين قادوا التاريخ الإنساني • وملأوه روعة ونفعاً •• لو أن آباء هؤلاء استجابوا لدواعي اليأس ، وتخلصوا من الحياة ، فأي ظلم

كانوا سيظلمونه للحياة وللناس ، حين يذهبون وفي أصلابهم تلك العبقريات التي هزت الوجود ، ورَعرعت الحيـاة ٠٠٠؟؟!!

لقد بدأ « محمد » مقاومة ظـلم الانسان لنفسه من هنا ٠٠ من الانتحار ٠٠ انظـروا ٠٠

« من تردّى من جبل فقتل نفسه ، فهو في نار جهنم يتردى خالداً مُخلداً فيهـا أبداً ٠

ومَن تحسَّى — أي شرب سماً ، فقتل نفسه ، فسمُّه في يـده يتحسّاه في نار جهنم خالداً مُخَلداً فيها أبداً ٠

ومن قتل نفسه بحديدة ، فحديدته في يـده يتوجأ بهـا — أي يضرب بها — نفسه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً » ٠

إنه وعيـد رهيب ، لا ريب ٠

ولكن ألا تساوي الحياة أن يُزجر الناس عن إزهاقها، بمثل هذا الوعيد٠٠٠؟؟!!

ويحدثنا جابر بن سمرة صاحب رسول الله أن رجلا أجهز على حياته ، فـلم يصلِّ الرسول عليه ٠

* * *

وكما يكون تقويض الحياة ببترها ، والإجهاز عليها ، يكون أيضاً بتعطيلها وإحباط قـواها ٠٠٠

وكما يكون الانسان ظالمـاً لنفسه حين يقتلها ٠٠ يكون كذلك ظالمـاً لها حين يتركها للسوء والآفات ٠

وهنا يقف محمد وقفة كلهـا ولاء للحياة ، وكلهـا برٌ بإرادة الإنسان ، وبالسلوك الإنساني ٠٠٠

وهنا أيضاً — تتضح الوجهة القويمة لموقف « محمد » من الآثام ٠

ففي سبيل الحيلولة بين الإنسان وظلمه لنفسه قاوم «محمد» الرذائل والآثام٠

لأن الإثم ظلم النفس، بل هو من أكثر أنواع الظلم تنكراً وأشدها وبالاً ...

أجل — هكذا ينبغي أن نفهم موقف « محمد » من الخطيئة .

فهو لم يرد قط أن يتحكم في الإرادة الإنسانية . ولا أن يسوق الناس سوْقَ القطيع ...

إنما أراد أن يمكنهم من وسائل الغلَب والتفوق .

وهو حين ينهى عن الرذائل ، ويشدِّد في النهي عنها . إنما يفعل هذا لما يعرفه تماماً من ضراوة الرذائل الفاتكة ، وقدرتها على تعويق الكمال الإنساني وإحباط مسعى الإرادة الى الخير والارتقاء ..

على أنه في نهيه وزجره عن الإثم ، لم ينس لحظة واحدة ، تلك الظروف الكثيرة التي تجعلنا آثمين ...

فكان مثله مثلَ الوالد الحنون الذي يبصر طفله يبسط كفه الغضة إلى جَمرة متوهجة ليلهو بها ويلعب .

إنه يزجره في عنف ... ولكن وراء هذا الزجر حَنان دافق ..!!

وما كان « لمحمد » رسول العدل والرحمة ، أن يترك هذا اللون اللدود من الظلم — ظلم الانسان نفسه باقتراف الآثام ، دون أن يجنبه هذا الظلم ويحذره عُقباه .

وهكذا مضى يحذر ، وينذر ، ويعلم ...

إنه يدعونا إلى الطاعة والخير .

ويدعونا إلى التوبة دوماً ، لأننا على الدوام عرضة للزلل. يقول عليه السلام :

« يا أيها الناس توبوا الى الله ، واستغفروه ، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة » .

وهو يرسم صورةً للفضيلة الصادقة :

« أنْ تعبد الله ، كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

« اتق الله حيثما كنت ••• وأتبـع السيئة الحسنة تمحُها •••
وخالِق الناس بخلق حسن » •
« إن الله تعالى يغار • وغيرة الله أن يأتي المرء ماحرم الله عليه » •
« الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت •• والعاجز من أتبعَ
نفسه هواها ، وتمنّى على الله الأماني » •

ويقول عليه السلام :

« حُفَّت النار بالشهوات • وحُفَّت الجنة بالمكاره » •
« يتبع الميّت ثلاثة : أهلُه ، ومالُه ، وعمـله ، فيرجـع اثنان •
ويبقى واحد : يرجع أهله ، وماله ، ويبقى عمله » •
« كل أمتي يدخلون الجنـة إلا مَن أبَى ، قيـل : ومَن يأبَى
يا رسول الله • ؟ • قال : مَن أطاعني دخـل الجنة ومن عصاني
فقـد أبى » •

وتتوالى أحاديث « محمد » وكلماته داعية الى الفضائل واحدة واحـدة ، وناهية عن الرذائل ، رذيلة رذيلة •

وهو في كل هذا يهدف كما ذكرنا من قبل الى إقرار العـدل والسلام بين الإنسان ونفسه ـ نفسه بتجنبه الآثام التي يَظلم بمقارفتها ذاته •

لقد لخص الدين في كلمة واحدة فقال : « الدين ، النصيحة •• » •

ولقد نَصح عليه السلام أوفى ما يكون النصح الصادق ، الأمين •

* * *

هذا موقف « محمد » مع العدل ••• بعـد موقفه من الرحمة •

والآن الى مجال آخر من مجالات إنسانياته الباهرة ••

★ ★ ★

الفصل الثالث

والحبُّ فطرته

« ... ولا تؤمنون حتى تحابّوا »

« محمد » مُحبٌّ ، ودود ..!

أطاع الله كثيراً ؛ لأنه أحبه كثيراً .. وبرَّ الناس كثيراً ؛ لأنه يحبهم كثيراً .. وأقبل على الفضائل والواجباتِ جذلانَ مبتهجاً ، لأنه أحبها وأحبَّ من كل قلبه الطهر ، والنقاء ..

وهذا هو سر تفوق عظمة « محمد » .. إنه أحبَّ عظائم الأمور ، ومارسها في شغف عظيم ؛ ممارسة محب مفطور .. لا ممارسة مكلف مأمور ..!!

ووراء كل سلوكه ومواقفه وحياته نجد الحب ..

إذا سجد وأطال السجود ، وسُمع وَجيبُ قلبه ، ونشيج تضرعه وبكائه.. فذاك لأنه في غمرة شوق جارف ، ومحبة آخذة .

ولهذا ، كان ينتظر الصلاة على شوق .. فإذا جاء ميعادها قال لمؤذنه : « أرِحنا بها .. يا بلال » ..

أجل .. أرحنا بها .. لا أرحنا منها ..!!

وهذا هو الفارق بين الحب ، والواجب .

إن الواجب قد يؤدَّى على كره ومضض .. أما الحب فيأخذ طريقه إلى أشق الأمور في ابتهاج وغبطة .

وإذا شغل نفسه وباله بأمور الناس ، وجد في الشغل لذة العاشق ، ونشوة المحب .. ذلك أن عناء الواجب لم يَعُدْ لهُ إلى روح « محمد » سبيل . لقد سيطر الحب وساد ..

وأصبحت الواجبات هواية .. لا بل فوق هذا ، وأجل من هذا .. صارت شعائر يُحبها ، ويعشقها ، ويأنس بها ومعها ..

والحب عند « محمد » ، ليس شهوة .. إنما هو فِطرة .

وفِطرته تنساب ألفة ، وتتفجّرُ محبة .

هكذا كان طفلا ، وفتى ، وكهلا ..

لم تقع عليه عين إلا أحبته وأسلمتْ قلب صاحبها لهيام شديد ..

ذلك أنه كان ينطوي على حب كبير — بل كان هو الحب كله . فإذا رآه مبغض ثلاّب . ذاب بغضة من فوره حين يمسه نفس واحد من أنفاس حبه الجياش الدافىء .

ذات يوم أقبل عليه رجل فظ لم يكن رآه من قبل ، غير أنه سمع أن « محمداً » يسبّ آلهة قريش والقبائل كلها . فحمل سيفه وأقسم ليسوّيَنّ مع « محمد » حسابه ..

وبدأ حديثه عاصفاً مزمجراً .. « والرسول » يبتسم .. وتنطلق مع بسماته أطياف نور آسر .. وما هي إلا لحظات ، حتى انقلب المغيظ المتهجم . محباً يكاد من فرط الوجد والحياء يذوب ، وانكفأ على يدي « محمد » وقدميه يقبلهما ، ودموعه تنحدر في انثيال مُتدارِك ..

ولما أفاق . قال :

« يا محمد ! والله لقد سعيتُ إليك ، وما على وجه الأرض أبغض إليَّ منك ، وإني لذاهب الآن عنك ، وما على وجه الأرض أحب إليَّ منك .. » !!!

ماذا فعل « محمد » بقلب الرجل وروحه ..؟؟

لا شيء ..

لقد أحب « محمد » الرجل من كل قلبه ، فخر جبروته صريع حب وديع ..

و « محمد » لا يتكلف الحب •• بل ولا يبذله •• إنما يبذل الحب عنـد « محمد » نفسه •••!!

وقلب « محمد » مفتوح دائماً لكل الناس ــ الأصدقاء ، والأعـداء •••

والذي حدث عندما اقترب ذلك الرجـل منه ، أن مسته شعاعة من فيض قلبـه الكبـير ••

معذورة قريش ، حين لم تدرك هـذا السر الجليل • فقالت : إن « محمداً » ساحر ••

ما رآه جبار إلا لانَ عوده من فـوره ••

وما أكثر الذين أقبلوا عليه ليزجروه ، ويفتنوه عن دينه • ؛ فما هو إلا أن تعانقهم منه نظرات عينيه الحانيتين حتى يدخلوا في دينه فرحين •••!!

ومن هؤلاء كان « عمر بن الخطاب » ••

ألم يذهب إليه منتضياً سيفه ، والناس يتواثبون من كل مكان ليشهدوا الواقعة الكبرى ••

ولكن « عمر » الجبار ذاب كقطرة ماء امتصتها قطعة من السكر ••

ذاب حتى قبل أن تقع عليه عين « محمد » •• ذاب عندما وقعت عينه على آيات من القرآن أودعها « محمد » وهـو يتلوها ، نبض حبه • وصفاء روحه ، واقتدار مودته ••

* * *

« محمد » ، محب ودود •

والحب عنـده طبيعة ، وفطرة ، لا غرض وشهوة ••

من أجل هـذا ، كان يبذل حبه في سخاوة نفس نادرة النظير •

أحب الله •• وأحب الناس •• وأحب الزمان ، والمكان ، وأحب كل شـيء في كون الله الرحيب •

وحـين تتبع الحب في حياته وفي أحاديثه ، نجـده قد اتسع لكل شـيء وأحاط بكل شـيء •

لقد بدأ فأحب ربه حباً عظيماً •

والله ـــ عند « محمد » ـــ هو بارىء الحياة كلها والأحياء جميعاً • فكل حب له هو في نفس الوقت ، حب للحياة وللأحياء •

ذلك أن الله عند « محمد » وفي عقيدته ، ليس أسطورة مثالية ولا رمـــزاً جميلا ••• إنما هو حقيقة ، بل هو الحقيقة الكبرى •

وإن الجلال المهيب الذي يتبدى عن الكون العظيم ليفعم قلب « محمد » بالحب والتقديس لخالق الكون ومبدعـــه •

وإنه ليهيم حباً ، ويتفجر شوقاً •

ذات يوم وهو في الطائف ، حديث عهد بدعوته ـــ سلط عليه أعداؤه بعض السفهاء ، فانطلقوا وراءه يحصبونه بالحجارة •• فأوى منهم إلى حائط يتقي به الحجارة المقذوفة •• واستجاشت المحنـــة نفسه ، فهطلت دموعه وكأنما كانت الحجارة تلقى في بحيرة ساجية ساكنة ، فأثارتها ، وأهاجت ماءها العذب الوديع •

أجل •• لقد جاشت نفس « محمد » بما تنطوي عليه من حب ، وشوق •• فرفع بصره إلى سماء ربه ومحبوبه • وقال :

« إن لم يكن بك غضب عليَّ ، فلا أبالي » !!

الله أكبر ••

إن « محمداً » لا يخشى العذاب ، ولا الألم إلا إذا كان تعبيراً عن تَخلِّي الله عنـــه •

أما إذا لم يكن الله غاضباً ، ولا عاتبـــاً ، فمرحباً بالألم •• ومرحباً بكـــل ما يكيد به السفهاء •••

« إن لم يكن بك غضب علَيَّ فلا أبالي •••!! »

وفي التوِّ واللحظة يدرك « محمد » أنه لا ينبغي للمحب الصادق في حبـــه أن يشغله استعذاب التضحية ، عن رجاء العافية فيتبع ضراعته السالفة ، بضراعة أخـــرى ويقول :

« ولكن عافيتك أوسع لي ••• » •

إن الحب في غمار التضحية ، شيء جميل •• ولكن الحب في غمار العافية أوفى وأجمل •

و « محمد » موفور الاستعداد لأن يلاقي كل آلام الحب ••• ولكنه شديد الشوق لمباهج الحب ••

ومباهج الحب تتألق في نطاق العافية •• فهو إذن ينشد العافية ، لأنها تتيح له المزيد من الحب •• والمزيد من الطاعة لمن أحب ••

وهكذا ناجى ربه تلك المناجاة الذكية :

« إن لم يكن بك غضب عليّ ، فلا أبالي •• ولكن عافيتك أوسع لي » •

إنه ـ عليه السلام ـ لم يقل « عافيتك أحب إليّ » بل قال : « عافيتك أوسع لي » ••

ذلك أن الحب الصادق لا يختار لنفسه ، ولا يجنح عن إرادة المحبوب واختياره •

و « محمد » لا يحب بنفسه ، ولا يحب لنفسه •• إنما حبه لربه « خفقة » من خفقات الإرادة الإلهية وحدها !!

ذات يوم يدخل على ولده الحبيب « إبراهيم » وهو مسجى في فراش الموت ••• ويتدفق حنان « محمد » غامراً مفيضاً ، فلا يزيد على أن يقول وعيناه تبكيان :

« تدمع العين ••• ويحزن القلب ••• ولا نقول ما يسخط الرب » •

أجل •• هذا هو حب « محمد » ربه ومولاه •• حب فوق مستوى النفس •• حب نابع من الله « وعائد إليه •• حب يحرر صاحبه من كل ما يسخط محبوبه العظيم » •

ولطالما كان « محمد » ينتشي بهذا الحب •• بل هو دوماً مُنتشٍ به انتشاء كله يقظة وصدق •

يقول في بعض أحاديثه الكريمة :

« رأيت الليلة ربي في المنام فوضع يده بين كتفي ، حتى وجدت برْدَ أنامله في صدري » .

تأملوا بهاء هذه الصورة :

« وجدتُ بردَ أنامله في صدري » .

إنها تكشف عن طبيعة المشاعر والأحاسيس التي كان حب « محمد » لربه يعزف على أوتارها .

إنه يجد برد أنامل الله في صدره ..

إن علاقته بالله ، وحبه إياه . بلغا من الشفافية والألق الذروة العليا .

وتبدى الإيجابية في حب « محمد » لله . حين يتبتل له ويخبت ... وحين يضع الصدق في العلاقة بالله موضع التقديس .

وإذ كان الرياء يعني فقدان الصدق في علاقتنا بالله .. وفقدان الصدق يعني بدوره تهالك الحب وزيفه .. فقد شن « محمد » على الرياء هجمات ماحقة . ولم يكن ثمة رذيلة أبغض إلى نفسه الكبيرة منه ..

يقول للناس :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى .. فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله .
ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر اليه » .

إنه يريد أن يكون حبنا لله خالصاً .. وأعمالنا في سبيله خالصة . « ومحمد » يجل العلاقة بالله إجلالا يحمله على اعتبار الرياء شركاً .

يقول لأصحابه :

« إن أخوف ما أخاف عليكم ــ الشرك الأصغر .. قالوا : وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال الرياء . يقول الله عز وجل إذا

جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا الى الذين كنتم تراؤون في الدنيــا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء ...؟ » .

ويقول أيضاً :

« لا يقبل الله عمــلا فيه مثقال حبـــة من خردل من رياء » .

إن الإخلاص ، هو الزنين الذي يكشف صدق الحب وزيفه ، وحبٌ غــير مفعم بالاخلاص ، لا يكون حباً على الاطلاق ولقد أحب « محمد » ربه ، وعلّم الناس كيف يحبونه .

* * *

فإذا جئنا حب « محمد » الناس ، وجدنا نفس الدفء ، ونفس الصدق . ونفس الوجدان العامر العظيم .

انظــروا ..

إن « محمداً » يحب الناس جميعاً ..

ومحمد ألقي إليه بكلمات الهــدى والخير والفلاح .

ومن ثم دفعه حبه للجميع .. لأن يبلغ هذه الكلمات الهادية للجميع .

واستجاب الله له .. أو قولوا : اختاره الله لما كان هو يرغبه ويرجوه .. فأرسله للناس كافــة .

فرسالة « محمد » للناس جميعاً ــ تمثل تبعات حبــه للناس جميعاً .

إن من يحب الناس حباً صادقاً ، يصير مسئولا عن مصايرهم .

وهكذا حمل « محمد » مسئولية حبــه العظيم .

إنه لم يحب عشيرته الأقربين وحدهم .. ولم يحب العرب وحدهم . بــل أحب الناس جميعاً .

وإذن فليحمل المسئولية تجاه الناس جميعاً . وهذا هو معنى أنه رسول للعالمين .

يقــول المحب الودود عليه السلام :

« بُعثتُ إلى الأحمر والأسود .. » .

فشمول رسالته إذن ، ليس مظهر سيطرة ولا طمعاً في نفوذ .

إنما هو مسئولية الحب الذي فطر عليه محمد .. حب الناس جميعاً .. أحمرهم وأسودهم .

وليس أدل على هذا من قوله عليه الصلاة والسلام في حديث آخر :

« بعثتُ إلى الناس كافة .. فإن لم يستجيبوا لي ، فإلى العرب .. فإن لم يستجيبوا لي ، فإلى قريش .... فإن لم يستجيبوا لي ، فإلى بني هاشم .... فإن لم يستجيبوا لي . فإليَّ وحدي . » .

بالله ما أروعه ...!

إنه ليس بمسيطر .. إنه محب .. يدعو من أحبهم إلى الخير . فإن استجابوا فما أسعده بهذا ... وإن لم يستجيبوا ، فقد أدى الذي عليه .

ولقد انتصر حبه العظيم الصادق . وبلغ رسالته للناس جميعاً .

ويدعو « محمد » الناس كي يحب بعضهم بعضا .. بل يجعل الحب آية الإيمان ، فيقول :

« والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا .. ولا تؤمنوا، حتى تحابّوا » .

ويعنى عليه السلام ، بكل ما من شأنه أن ينعش عواطف الحب بين الناس .

ذات يوم كان يجلس معه رجل من أصحابه ، فمر بهما رجل آخر فقال جليس النبي له : يا رسول الله : إني أحب هذا الرجل .

فسأله الرسول : وهل أعلمته بهذا ..؟ قال الرجل لا ..

قال النبي : فأعلمه .. فلحقه الرجل وقال له : إني أحبك في الله .

فأجابه صاحبه : أحبك الذي أحببتني له ..!!

ووضع الرسول لهذا تعليماً وتوجيهاً فقال :

« إذا أحب أحدكم أخاه ، فليخبره أنه يحبه » .

ويقـول :

« إذا آخى الرجلُ الرجلَ ، فليسأله عن اسمه ، واسم أبيـه ، وممن هو فإنه أوصل للمودة » .

والحب عند « محمد » مثوبة نفسه ..

والمحب قد يدرك بحبه ، ما يعجز عن إدراكه بعمله .

يسأله « أبو ذر » ذات يوم عن الرجل : يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم ؟

فيجيبه عليه السلام بعبارته الجامعة : « أنت مع من أحببت » .

أجل .. إن الحب نسب .

فاذا أحببت خيـار الناس ، فأنت منهم وأنت معهم . حتى إذا سبقوك في السعي ، وتفوقوا عليك في العمل .

ويحلق «محمد» عليه الصلاة والسلام بالحب في الله تحليقاً عالياً حين يقول لنا :

« إن من عباد الله أناساً ، ما هم بأنبياء ولا شهداء . يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى .

قالوا يا رسول الله : تخبرنا من هم ؟

قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها . فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور .. لا يخافون إذا خاف الناس .. ، ولا يحزنون إذا حزن الناس . ثم تلا قول الله تعالى : (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) » .

والحب عند الرسول ، يمثل القاعدة الراسخة لسلوكه . وحين تفرض عليه الظروف القاهرة أن يبغض بعض الناس ، فإن هذا البغض لا ينفصل عن قاعـدة الحب ذاتها ... أعني أنه ـ عليه السلام ـ يبغض حين يكون البغض تعبـيراً عن الحب ، وولاء له .

فهو ـــ مثلا ـــ يحب الحــق ••• وهذا الحب يقتضيه أن يبغض الباطل •

وهو يحب العدل ، وحبه العدل يتطلب أن يكره الظــلم •

وهكذا ، فهو لا يبغض عن حقد أو تِرة ••• إنما يبغض حين يكون البغض « موقف دفاع » عن شــيء يحبه •••

وهو لا يحب لنفسه ، ولا يبغض لنفسه • إنما تحدد قيمُه العليا السامية ، ما يحب وما لا يحب •••

على أن بغضاءه هــذه ، عندما يكون موضوعها أناساً يستحقونها •• لم تكن ذات أصالة في طبيعته ولا في سلوكه •• بل مجــرد سحابة رقيقة عابرة ، لا تلبث شمس حبه أن تسطع على أثرها مرسلة دفئها وسناها •

فها هو ذا يلقى من خصوم دعوته في قريش أشد الأذى، وأفدح المؤامرات•••

ولكنه لا يكاد يدخل « مكة » ظافراً مؤيداً حتى يقول للذين أخرجوه منها ، وكادوا له أعظم الكيد ••

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » •

لقد أبغضهم حين أخذوا على عاتقهم إطفاء نور الله ومقاومة قوى الخير والحق•

فلما زال عنهم بأسهم الذي غرهم بالله ، وحرضهم على الشر•• زالت بغضاؤه لهم ، وكأنهــا لم تكن ••!!

ولمحمد الإنسان في هــذا المقام توجيه تناهى في السداد والفطنة •

فهــو يقول :

« أبْغِض بغيضك هونا مّا •• عسى أن يكون حبيبك يوماً ما »•

★ ★ ★

ولما كانت آداب الصحبة والسلوك مما يشد آصرة الحب ، ويزكي مشاعر الود • فقد أولاه « الرسول » عناية واهتماماً ، وتتبع دقائقها فأوصى بها خيراً ••

وإنا لننبهر حقــاً ونحن نطالع وصايا محمد في هــذا المجال :

اقرأوا ..

« إذا كانوا ثلاثة ، فلا يتناجى اثنان دون الثالث، فإن ذلك يحزنه ».

أية إنسانية غامرة ، تلك التي يتضمخ بها قلب « الرسول » الكبير ..؟؟!!

إنه يوصي الأصدقاء .. إذا كانوا ثلاثة : ألا ينفرد اثنان منهم بكلمة سر ، فإن ذلك يسيء إلى شعور الثالث . ، إذ يضعه ، أو قد يضعه موضع الظنة وضعف الثقة به ..

وفي آداب الصحبة يقول كذلك :

« لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ... ولكن توسّعوا ، وتفسّحوا ، يَفْسَح الله لكم . » .

بل يقول ، وما أروع ما يقول :

« لا يحل لرجل أن يجلس بين اثنين إلا بإذنهما .. » .

ألم أقل لكم أنه تتبع دقائق آداب الصحبة ، فجعلها شعائر ..؟

وهو يعتز أيما اعتزاز بتبادل التحية ..

وهاتان الكلمتان «السلام عليكم» تعنيان عند «محمد» شيئاً كثيراً وجليلا.

يقول عليه السلام :

« إذا انتهى أحدكم إلي المجلس فليسلم .. فإن أراد أن يقوم فليسلم .. فليست الأولى بأحق من الأخرى » .

ويحدثنا « كلوة بن الحنبل » فيقول :

« بعثني صفوان بن أمية إلى رسول الله ﷺ بهدية . فدخلت عليه ، ولم أستأذن ، ولم أسلّم ، فقال لي الرسول : ارجع ، فقل : السلام عليكم . أأدخل . ؟ » .

وحتى مع الأهل الذين نراهم دائماً ، ونعيش معهم ، يوصي عليه السلام ، بالحرص على التحية .

يقول أنس رضي الله عنه :

« قال لي رسول الله ﷺ : يا بني !! إذا دخلت على أهلك . فسلم ، يكن سلامك بركة عليك وعلى أهل بيتك » .

ويُسأل « رسول الله » ذات مرة : أيّ الإسلام خير ...؟؟ فيجيب :

« تطعم الطعام .. وتقرأ السلام على من عرفت ، ومن لم تعرف ».

ويقول عليه السلام :

« ثلاث يُصْفين لك وُدّ أخيك :

تسلم عليه إذا لقيته ... وتوسع له في المجلس .. وتدعوه بأحب أسمائه إليه » .

وهو يقول أيضاً :

« تصافَحوا ، يذهب الغل » .

* * *

والوفاء لا ينفصل عن الحب بحال .

ووفاء « محمد » ، شيء باهر . يفوق كل ولاء ، لأنه انعكاس حب عظيم ، يفوق كل حب ...

سئل يوماً ، لماذا يجهد نفسه في العبادة ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ...

فانظروا كيف كان جوابه ؟

« أفلا أكون عبداً شكوراً ...؟؟!! »

أصدق وأروع صور الوفاء لله ..

« أفلا أكون عبداً شكوراً ... ؟؟ !! » .

وذات يوم زارته بالمدينة سيدة عجوز ، فخف عليه السلام للقائها في حفاوة بالغة ، وغبطة حافلة ، وأسرع فجاء ببردته النفيسة وبسطها على الأرض لتجلس عليها العجوز ..

وبعد انصرافها ، سألته عائشة رضي الله عنها عن سر حفاوته فقال :

« إنهـا كانت تزورنا أيام خديجة » .

* * *

وبين غرفته في المسجد ، ومكان المنبر ، حيث كان يؤم المسلمين في الصلاة ، بضع خطوات .. كان يقطعها كل يوم عند كل صلاة ..

ولقد أحبها .. أحب هذه الأمتار من الأرض ، لأنها كانت مَمشاه إلى الله.. وإلى قرة عينه ـ الصلاة ..

ولقد أخـذه إليها مع الحب وفاء عجيب فكرمها وأجلها ، وقال :

« ما بين منبري وبيتي ، روضة من رياض الجنة ... » .

وكان يقـول عن جبل « أحُد » :

« أحُدٌ ، جبل يحبنا ، ونحبه » .

* * *

وكان ـ عليه السلام ـ وهو يخطب الجمعة قبل أن يتخـذ لنفسه منبراً ، يقوم إلى جذع نخلة ، فلما صنع المنبر ، وقف عليه « الرسول » لأول مرة ، أدار وجهه حيث الجذع الذي طالما وقف عليه من قبل ، ودَمَعت عيناه .

وغادر منبره متجهاً إلى الجذع في هيام جارف ، واحتضنه .

ثم عاد وصعد المنبر .. ولما فرغ من الخطبة ومن الصلاة ، أوصى أصحابه أن يضعوا الجذع في سقف المسجد حتى لا يُستهلك في غرض آخر .. تكريماً له ، ووفـاء !

يا ابن عبـد الله ..

مَن مثلك ، يجيد الحب .. ويجيد الوفـاء ؟؟

ألا وإن هـذا ، لمشهدٌ لا ينبغي لأحد أن يتطفل عليه بتعليق وكلام فلنقف أمـامه في انبهار وخشوع ... وهـذا حسبنا .

* * *

ولما كان الخصام عدواناً على حياة الحب وأواصر الود . فقد نهى عنه «محمد» وحذر منه ، وأخبر الناس أنه لا يحل لأحدهم أن يهجر أخاه فوق ثلاث.

بل أنبأهم أن القطيعة إذا استطال أمدها ، تكاد تصير جريمة قتل .

انظروا هــذا الحديث العظيم :

« مَن هجَرَ أخاه سنة ، فهو كَسفْك دمه » .

أجل ... ان القطيعة عند « محمد » (جريمة قتل) لأنها اعتداء على أعظم مقدسات الحياة ــ الحب .!

ويقول عليه السلام :

« كفى بك إثماً ألا تزال مُخاصماً » .

ولمـا كان الخصام يأتي أحياناً من الملاحاة والجــدل المغرض ، فقد أراد « محمد » أن يُنقي جو الحب والإخاء من هذه الشوائب جميعاً .

ذات يوم ، كان أربعة من أصحابه هم : أبو الدرداء ، وأبو أمامة ، ووا ثلة ابن الأسقع ، وأنس بن مالك ــ جالسين يتجاذبون ويتمارَوْن . وعلى الرغم من أن جدالهم كان في شيء من أمر الدين إلا أن حدة الجدل غير مأمونة العاقبة .

وهكذا . وبينماهم يتمارون خــرج عليهم رسول الله ﷺ فغضب غضباً شديداً ثم قــال :

« مهلا يا أمة محمد !! إنما هلك من كان قبلكم بهذا . ذروا المراء لقلة خيره . ذرُوا المراء فإن المؤمن لا يُماري ، ذروا المراء فإن المماري قد تمت خسارته .. ذروا المراء فكفى بك إثماً ألا تزال ممارياً ... ذروا المراء فإن المماري لا أشفع له يوم القيامة ... ذروا المــراء فأنا زعيم بثلاثة أبيات في الجنــة ــ في رياضها ، ووسطها ، وأعلاها ــ لمن ترك المراء وهو صادق . ، ذروا المراء فإن أول ما نهاني عنه ربي بعد عبادة الأوثان ــ المِراء » .

أرأيتم هــذه الدمدمة على المراء ..؟؟

إن من ورائها ولاء « محمد » للحب .. الحب الذي يرجو له الذيوع والسيادة . والذي يحاذر عليه من كل سوء يصيبه ، أو زوبعة تهب عليه !!

* * *

ومما يدوم به الحب بين الناس أن تكون للمعاذير عندهم حرمة ، وللعثرات من مغفرتهم نصيب .

ذلك أن من طبائع الحياة الاجتماعية بما تنطوي عليه من شد وجذب أن يتباين الناس ، ويختلفوا ، ويخطىء بعضهم في حق بعض ..

و « محمد » ، لا يريد أن تكون هذه الأخطاء سبيلا لهدم الحب .. ومن ثم أوصى بإقالة العثرة وقبول المعذرة .

يقول عليه السلام :

« من أقال نادماً ، أقاله الله نفسه يوم القيامة .. » .

ويقول :

« مَن أتاه أخوه متنصلا — أي معتذراً — فليقبل ذلك محقاً كان أو مبطلا . فإن لم يفعل — لم يَرِد عليَّ الحوض » .

ويرسم عليه السلام صورة لشرار الخلق ، وأكثرهم إيغالاً في الشر ، فيقول :

« هم الذين لا يُقيلون عثرة .. ولا يقبلون معذرة .. ولا يغفرون ذنباً » .

أيّ إنسان هذا الذي تتفجر من جوانب نفسه ينابيع برٍّ لا ينضب لها معين ...؟؟

إنه « محمد » .. إنه المحب الودود .

والآن ، لنصغ إلى « محمد » في كلماته الوضاء هذه :

« إن أحبكم إلي ، أحاسنكم أخلاقاً .. الموطّأون أكنافاً .. الذين يألفون ويؤلفون ... وإن أبغضكم إلي ، المشاؤون بالنميمة ... المفرقون بين الأحبة .. الملتمسون للبرآء العيب » .

أبغض الناس إلى « محمد » ، أكثرهم عداوة للحب .. هؤلاء الذين عبَّر عنهم بقوله« المفرقون بين الأحبة ».ألا تَشمُّون أريج هذه الكلمات،وعطرها...؟؟ ألا تسمعون عزفها ، وموسيقاها ...؟ ألا تبهركم عذوبتها وألَقُها ...؟ انظروا .. « المفرقون بين الأحبة » « الأحِبَّة » ...!!

إن اختيار هـذه الصيغة من صيغ الجمْع لم يكن صُدفة ولا اعتباطاً ..

إن ما في كلمة « الأحبة » من رقة ، وشفافية ، وفيض حنان ، تصور لنـا عمق إحساس « محمد » بالحب ، وعظيم ولائه له ..

وها هو ذا يخبرنا أن أحبَّ الناس إليه ، هم الذين يحبون . ويألفون ، ويؤلفون ..

وأن أبغضهم إلى نفسه ، هم الذين يفرقون بين الأحبة .

ذات يوم أقبل عليه السلام على أحـد أصحابه وقال له :

« يا أبا أيوب !! ألا أدلك على تجارة ...؟؟ ألا أدلك على عمـل يرضاه الله ورسوله ...؟؟ قـال أبو أيوب : بلى يا رسول الله !! قال له « الرسول » عليه الصلاة والسلام : صِلْ بين الناس إذا تفاسدوا ... وقرِّب بينهم إذا تباعدوا » .

* * *

هـذا رسول ، أحبَّ الحب ، وأدرك قيمة دوره في حياة البشر .

فقال في الحب قولاً بليغـاً ، وسديداً ..

وعاش حياته كلهـا محباً ، ووَدوداً ..

عليه صلوات ربنا وسلامه .

* * *

الفصل الرابع

وَالسمو حرفته

« أدبني ربي فأحسن تأديبي »

يُروى عنه وهو طفل صغير — أن بعض رفاقه وأترابه جدّوا في البحث عنه طويلا — ذات يوم — حتى وجدوه بعد طول عناء جالساً في ظل حائط عند أطراف مكة .

وهموا به ليأخذوه معهم إلى سامر فيه زمر ، وطبل ، ولهو .. فهز الطفل الصغير رأسه معتذراً ، وقال :

« أنا لم أخْلَق لهذا .. » .

* * *

وبعد أن جاءه الوحي يدعوه إلى حمل تبعاته كرسول للناس وبشير ، ونذير — قامت زوجته خديجة رضي الله عنها ذات ليلة تلتمس مكانه . حتى وجدته أخيراً ، مختلياً وحده يناجي ربه في إخبات عميق .

وخشيت خديجة على صحته من هذا السهر الموصول ، فاقتربت منه في رفق ، وذكرته بحق جسمه في نوم يريحه ، ويشد أزر العافية فيه ، فأجابها « محمد » عليه السلام :

« انتهى عهد النوم يا خديجة ... » .

* * *

وحين انتهى عمله على الأرض ، وأدى الواجب الذي اختير لأدائه ، وأكمل الله له دينه ، وأتم عليه نعمته ، مرض مرض الموت .

وإذ هو راقد في فراشه وحوله بعض أهله ، أخذته نشوة حبيبة .. وأطلق عينيه نحو السماء في حبور عظيم ، وأخذ يقول :

« بَل ِ الرفيق الأعلى ٠ ٠ ٠ » ٠

« بَل ِ الرفيق الأعلى ٠ ٠ ٠ » ٠

وفاضت روحه ، صاعدة إلى الرفيق الأعلى ٠!

« الرفيق الأعلى » ، ٠ هاتان الكلمتان اللتان ختم بهما « محمد » كلامه في الدنيا ــ هما قصة حياته ٠٠٠

وهما ليستا كلمتين فحسب ٠ بل الحقيقة الكبرى التي فتح « محمد » عليها عينيه طفلا وأغمضهما لحظة الموت وهو يلهج بها ويرددها في ولاء منقطع النظير ٠

لقد عاش « محمد » حياته كلهــا مع « الرفيق الأعلى » ٠٠

عاش مع الله ٠٠ وعاش مع المستويات الرفيعة التي حلّق عندها رسل الله ٠٠ وعاش مع القيم العليا التي آثرها على مَتاعم الدنيا وجاهها ، وغرورها ٠٠

وتناول « محمد » تبعاته بيــد أستاذ عظيم ٠٠٠

وهكذا اكتست تصرفاته بطابع ، كله سمو وجمــال وجلال ٠٠

والسمو في حياة « محمد » ، يزدهر ويترعرع ، كما تزدهر البذور وتنمو في مزرعة طيبة التربة ، طيبة المناخ ، ريّانة بالمــاء ٠٠

والسمو عند « محمد » ، ليس جداً صارماً ، ولا تقوى عابسة ، ولا وقاراً مكْفَهِراً ٠٠٠

إنما هي الأناقــة ٠٠٠

أجل ــ أناقة النفس ، وأناقة الجسم ٠٠ وأناقة السلوك ٠٠

أناقة الكلمة التي ينطقها ٠٠ وأناقة الحركة التي يأتيها ٠٠ وأناقــة النوايا التي يضمرها ٠٠

وبعبارة واحــدة ٠ أناقة حياته كلهــا ٠

والأناقة في سلوك « محمد » ، ليست تكلفاً ، ولا محاولة ٠٠ إنما هي طبيعة تنساب تلقائياً ، وتُعبر عن نفسها في مزاج بسيط وعظيم ٠٠

و « محمد » يفرح بكل يوم جـديد ، لأنه سيزداد فيه سمواً ، وصعوداً إلى الرفيق الأعلى ٠٠

إنه يدعو ربه دائماً هـذا الدعـاء ..

« اللهم آتِ نفسي تقواها ، زكّها .. أنت خير من زكّاها » .

فتزكية النفس ، مسألته الكبرى التي يعيش لها .

وهو لا يزكيها بأيٍّ من تلك الوسائل التي تقوم على الانطواء والأنانية ... بل يزكيها وسط المعمعة ...

وفي ضوضاء الحياة اللجّبة ، وبين تناقضاتها المثيرة ، يعمـل « محمد » ليحرز السمو الذي قرر أن يضرب فيه رقماً قياسياً بعيد المنـال .

ومن ثمَّ ، فهو لا يعمل لنفسه وحدها ، بل للناس جميعاً ..

والسمو الذي أدركه لم يذهب به وحده ... ولم يخلفه ميراثاً مقصوراً على الأهل والأقرباء .. بل صار طريقاً عاماً للأجيال الآتية من قريب وبعيد .

حين يتحدث « محمد » نبصر السمو والأناقة في حديثه .

وحين يعمل « محمد » ، نجـد السمو والأناقة في عمـله وتصرفاته .

بل حتى حين اضطره أعداؤه لمنازلتهم ، نجد السمو الرفيع في نزاله وضربه ، فهو يأمر الجيش المقاتل ألا يضرب إلا من يضربه ويرفع عليه السلاح :

« لا تقتلوا امرأة ، ولا وليداً ، ولا شيخاً ، ولا تحرقوا نخيلاً ولا زرعـاً » .

وحتى الذين يرفعون أسلحتهم ويخوضون الحرب ضد « محمد » ودعوته وأصحابه ، ينهى عن التمثيل بهم . وينهى عن تشويههم ويقول لأصحابه :

« اجتنبوا الوجـوه ، لا تضربوها » .

والسمو عند « محمد » يتمثل في نشدانه الأكمل دوماً ، و الأفضل ، أبداً ، كما يتمثل في تعلق إرادته الذكية بكل ما هو جليل ونافع .

ها هو ذا يقـول :

« إن الله يحب معـالي الأمور ، ويكره سَفاسِفَها .. » .

ولقد أحب « محمد » معـالي الأمور تأسّياً بربه ، واستجابة لفطرته .

وحين تتبع أدعية « محمد » التي كان يناجي بها ربه وخالقه ، يتكشف لنا غرامه الشديد بالسمو •• سمو النفس وسمو العمل •

فهو — في دعائه — لا يسأل الله مغنماً خاصاً ، ولا شيئاً من شهوات النفس•• إنما يسأل دائماً وسائل الارتقاء النفسي والسمو الأخلاقي •

« اللهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري ، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير••واجعل الموت راحة لي من كل شر »•

« اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي ، وإسرافي في أمري ، وما أنت أعلم به مني •

اللهم اغفر لي جدي ، وهزلي•وخطئي ، وعمدي وكل ذلك عندي•

اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شيء قدير •• » •

« اللهم إني أعوذ بك من العجز ، والكسل ، والبخل والهرم ، وعذاب القبر ••

اللهم آتِ نفسي تقواها • زكها أنت خير من زكاها • أنت وليها ومولاها » •

« اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ، ومن قلب لا يخشع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن دعوة لا يستجاب لها » •

« اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق، والأعمال، والأهواء »•

« اللهم ألهمني رشدي ، وأعذني من شر نفسي » •

« اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك »•

« اللهم إني أسألك حبك .. وحب من يحبك ، وحب العمل الذي يبلغني حبك » .

« اللهم اجعل حبَّك أحب إلي من نفسي ، وأهلي ، ومن الماء البارد » .

« اللهم إني أسألك الهدى ، والتقى ، والعفاف ، والغنى » .

« يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث . أصلح لي شأني كله ، ولا تكلني إلى نفسي طرفةَ عين .. » .

« اللهم إني أسألك الرضا ، بعد القضا .. وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت .. وأسألك لذة النظر إلى وجهك ، والشوق إلى لقائك — في غير ضراءَ مُضرة ، ولا فتنة مضلة ؛ وأعوذ بك اللهم ، أن أظلِمَ ، أو أظلَمَ .. أو أعتَديَ ؛ أو يُعتدى علي... أو أكسب خطيئة ، أو ذنباً لا تغفره » .

« اللهم اهدني لأحسن الأعمال ، وأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت ..

وقني سيىء الأعمال،وسيىء الأخلاق — لا يقي سيئها إلا أنت .. »

هذا نموذج للدعوات التي كان « محمد » يلح بها على ربه صباح مساء .

كلها تدور في السمو النفسي والسلوكي الذي كان « محمد » يعشقه ، ويعيشه ، ويحياه .

لم يسأل الله جاهاً .. ولا منصباً .. ولا ملكاً ..

إنما سأله الانتصار على ضعفه ، والتفوق على نفسه .. وسأله أحسن الأعمال ، وأحسن الأخلاق .

والكلمات التي صاغ منها دعواته ؛ تكشف عن هيامه العارم ، وشوقه الكبير ، وتعلقه الفذ بهذا السمو الذي دارت حوله كل أدعيته وابتهالاته ..

وتبدأ رحلة السمو عند « محمد » باجتناب الشبهات ، والترفع عنهـا ..
لنستمع له يقـول :

« الحلال بَيِّن ، والحرام بَيِّن ، وبينهما مشتبهات ، لا يعلمهن كثير من الناس . فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه .. ومن وقـع في الشبهات ، وقع في الحرام . كالراعي يرعى حـول الحِمى . يوشك أن يرتَع فيه ... » .

ويحدثنا « وابصةُ بن معبد » فيقول :

« أتيت رسول الله ﷺ ، وأنا أريد ألا أدع شيئاً من البر والإثم إلا سألتُ عنـه .. فقال لي : ادن يا وابصة ، فدنوت منه حتى مسَّت ركبتي ركبته ، فقـال لي : يا وابصة : أخبرك عما جئت تسأل عنه .؟؟ قلت يا رسول الله أخبرني .. قـال : جئت تسأل عن البر والإثم . قلت : نعـم .. فجمع أصابعه الثلاث فجعـل ينكتُ بهـا في صدري ، ويقول يا وابصة . استفتِ قلبك .. البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب .. والإثم ما حاك في القلب وتردد في الصدر ، وإن أفتاك الناس ، وأفتوْكَ .. » .

إن في كل ضمير إنساني ما يشبه « حركة الرادار » تختلج وتهتز حين يوشك سلوكنا أن يرتطم بسيئة ، أو ينحرف إلى ضلالة .

وعندما يتبدى لنا هذا النذير ، علينا أن نكُفَّ ، ونغير الاتجاه . ولا ننتظر حتى يقع الاصطدام ، ونواقع الأخطاء .

هـذا هو ما يعنيه « تجنب الشبهات » .

إن الخطـأ الصغير يفضي إلى الخطـأ الكبـير .

و « محمد » في سموه الذي يحيا به ، ويدعو له ، يحذر من الأخطاء الصغيرة لأنهـا آفـة السمو والتفوق .

إنه يقـول :

« دع ما يَريبك ، إلى ما لا يريبك » .

« لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين ، حتى يَدعَ ما لا بأس به ، حَذراً مما به بأس » .

ويسأله سائل آخر عن الإثم فيقول له :

« إذا حاك في نفسك شيء فدَعْه » .

ويسأله عن الإيمان فيقول :

« إذا ساءتْك سيئتك ، وسرتك حسنتك فأنت مؤمن » .

هـذا هو « النقـد الذاتي » يقرره « محمد » ويجعله الميزان العادل ، والقسطاس المستقيم .

وهذا « النقد الذاتي » بداية كل حياة صاعدة ، وأساس كل تفوق واكتمال .

ولكن هـذا النقد لا ينبغي أن يجاوز مهمته ، فيتحول إلى سوط عذاب ، وإلى ملامة دائمة تثير اشمئزاز الإنسان من نفسه ، وتنمي لديه الشعور الحاد بالإثم وبالدونية .

فهنا يقول لنا « محمد » عليه صلاة الله وسلامه :

« كل بني آدم خطّاء .. وخير الخطائين التوابون » .

كما أن نَأيَ الرسول عن الشبهات لم يكن يعني أنه متزمت ، وأنه يمارس تقـوى صارمة عابسة ..

لا .. فمثل هذه التقوى يكون حظها من السمو الحق ، ضحل وقليل ..

إنما كانت تقوى « محمد » تقوى فرِحَة ، متفتحة ، ناشطة ..

وسموه ــ كان سمو العظماء بالفطرة ، فلا تكلف ، ولا صلف ، ولا انطواء ..

إنه ليمازح أصحابه في وقار ، ويشجعهم على أن يمازحوه في وقـار ..

وإنه ليسابق زوجته عائشة في المسجد ، فيسبقها مرة ، وتسبقه أخرى ..

وإنه ليسأل عائشة يوماً ، وقد زفّت خادماً لها إلى زوجها ــ قائلا :

« هَلا بعثتم معهـا من يغنّي لهـا يا عائشة ؟؟.. » .

وتسأله عائشة .. يغني لها ..؟؟ وماذا يقول في غنائه يا رسول الله ..؟؟

فيجيبها ، يقــول :

« أتينــاكم ، أتينــاكم — فحيــونا •• نحييــكم
ولولا الحنطة السمراء — ما سمنت فتــاياكــم
ولولا الذهب الأحمــر — ما حلَّت بواديكم »••!!

وإنه ، عليه السلام ، ليبتهج ابتهاجاً عظيماً ، بالكلمة الحلوة الطيبة تقــال له •• أو تقــال عنه ••

جلس يوماً في فنــاء بيته يخصف نعله ، وعلى مقربة منه جلست « عائشة » تطهو طعاماً •• ونظرت إليه فوجدته يعاني خصف نعله في مشقة وكبَد ، وجبهته تتفصد عرقاً •• وأرادت أن تسليه ، فقالت : لكأنك المعْنيّ بقول الشاعر يا رسول الله ! فتهلل وجهه ، وقال : وماذا قال يا عائشة ••؟؟

قالت :

ومبَرّأٍ من كــل غُبَّر حيضه — وفساد مرضعــة ، وداءٍ مُغْيِل
وإذا نظرت إلى أســرّة وجهــه — برقت كبــرق العــارض المتهــلل

وإذا الرسول يضحك في جــذل عظيم ، ويغمره حبور مشرق ، ويقول ، وقد أفْعمته النشوة :

« لا فُضَّ فُوكِ يا عائشة ••
لا فُض فُوكِ يا عائشة •• » •

وإنه ليجيئه يوماً أحد المسلمين فزعاً من هَول خطيئة ارتكبها ، فيقــول « الرسول » في بساطة :

« هل شهدت معنــا الصلاة ؟

فيجيبه الرجــل : نعــم •

فيقول الرسول : لا يرُع •• إن الحسنات يُذهبن السيئات » •

ويتهلل وجــه الرجل ، ويسترد ثقته بنفسه من فــوره •

وهكذا كان محمد يمسك بميزان التسامي والتفوق •

* احــذر الخطــأ •••
* فإذا غلبت على أمرك وأخطأت ، فاحــذر اليأس •
أجــل •••
* احــذر الخطــأ •••
* واحــذر اليأس •••
* وامض في طريقك راجياً ، صامداً ، صاعداً •••

والسمو عند « محمد » يعني إتقان العمل الذي تقــوم به •

« إن الله يحب إذا عمــل أحــدكم عملاً أن يتقنه ••• » •

ويعني كذلك حب الجمال ــ جمــال النفس ، وجمال العمل ، وجمال المظهــر والمخبر •

« إن الله جميل يحب الجمَال » •

ويعني البساطة ، والتواضع • ونبــذ الغرور :

« يا أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد •• ألا لا فضلَ لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى ــ إن أكرمكم عند الله أتقاكم •• ألا هــل بلغت !! » •

« من بطأ به عمــله ، لم يسرع به نسبه » •

والسمو كذلك يعني الصدق ، ويتطلبه •

الصدق مع أنفسنا ، والصدق في علاقاتنا بالناس ، وبالأشياء •

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص :

« قلنا : يا نبي الله ، مَن خير الناس ؟ قال : ذو القلب المخموم ، واللسان الصادق •

قلنا : يا نبي الله ، قد عرفنا اللسان الصادق ، فما القلب المخموم ؟•

قال : التقي الذي لا إثم فيــه ، ولا بغي ، ولا حسد • عليكم

بالصدق : فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق حتى يكتب عنـد الله صديقاً •• وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجـور ، والفجور يهـدي إلى النار • وما يزال الرجـل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً •• » •

« كَبُرت خيانة ، أن تحدث أخاك حديثاً ، هو لك به مصدق ، وأنت له به كاذب » •

« شر الناس ذو الوجهين ، الذي يأتي هؤلاء بوجـه ، وهؤلاء بوجـه » •

والسمو أولا ، وأخيراً ، يعني حسن الخلق ، والمعاملة الطيبة الممتازة للناس• يقـول عليه السلام :

« ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن •• وإن الله يبغض الفاحش البذيء » •

« إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق درجـة الصائم والقـائم » •

« إن العبد بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة ، وشرف المنازل » •

« إنكم لـن تسعوا الناس بأموالكم ، ولكن يسعهم منكم بسط الوجـه ، وحسن الخلق ••• » •

وأخـيراً :

« ذهب حسن الخلق بخـير الدنيا والآخرة ••• » •

ما أروع هـذه العبارة الجامعة ••

فالدنيا بما فيها من خير ، والآخرة بما فيها من خير أعظم ، يرجحهما ، ويتفوق عليهما حسن الخـلق •

إن الكلمة الطيبة ، والتصرف الوديع الطيب ، ليبلغان بصاحبهما أشـرف المنازل عنـد الله ، وعنـد الناس ••

وهذا هو السمو عند « محمد عليـه السلام » أن تمتلك ناصية نفسك ، وزمام سلوكك ، وأن يكون اسمك في أسماع الناس كنداء النجدة ، لا كعويل العاصفة •• وأن تقوم علاقتهم بك على أساس من المحبـة ، لا الرهبة •• ومن الثقة ، لا الشك ••• ومن الطمأنينة ، لا الفزع •

لقد بلغ « محمد » في سموه الأخلاقي مبلغاً لا يُطمع بعـده في مزيد ••• ومع هـذا ، فقد كان دائم الابتهال إلى الله بهـذا الدعـاء •••

« اللهم كما حسَّنتَ خَلقي ، فحسِّن خُلُقي •• » •

ويتجلى سمو « الرسول » في حفاظه الشديد على كرامة الكائن البشري ، ومراعاته الذكية لمشاعر الناس •

ذات يوم جيء إليه بسارق • وأقبل الشاهد الذي رآه يسرق ، فقـال : نعم رأيت هـذا يسرق ••

فقال « محمد » رسول الله :

« هلاَّ قلت : رأيته يأخـذ ؟؟!! » •

انظروا الرجل •• وانظروا الإنسان ••!!

إنه ـ عليه السلام ـ طالما تحدث عن السرقة ، كجريمة ، وعن السارقين كجنـاة ••

ولقد أسمى السرقة : سرقة •• وأسمى السارقين ـ سارقين •

ولكن عندما يصير الأمر أمـر فرد بذاته • والتهمة تلقى في وجهـه ، وفي مواجهته •• فهنا ينبغي أن تراعى مشاعره ، لأنه قبل أن يكون مجرماً ، فهـو إنسان ـ فيه أشياء كثيرة ينبغي أن ترحم ، وأن تكرم •

وهكذا ودَّ محمد لو أن الشاهد قال : « رأيته يأخذ » ، ولم يقل « رأيته يسرق » •• !

أين نجـد تكريماً للناس ، ولمشاعرهم • وأين نجد حناناً صادقاً دافقاً ـ مثل هـذا التكريم ، ومثل هذا الحنان ••؟؟

هذه كانت شيمة « محمد » دائمـاً •

لم يكن يواجه أحداً بأخطائه أمـام الناس بل يقول :

« ما بال أقـوام يفعلون كذا ، وكذا !!•• » •

تاركاً الفاعل الحقيقي يحس ذنبه ، ويعرف خطأه ، دون أن يعرف الآخرون عنـه شـيئاً •

وذات يوم ، وهو جالس مـع أصحابه بالمسجد ينتظرون الصلاة ، وكانوا حديثي عهد بوليمة أكلوا فيها لحم جَزور •• انبعثت في المجلس ريح غير طيبة • أدرك « الرسول » أنها من غازات الجوف ، وتنفس الأمعـاء ••

وأدرك أن صاحب هذه الريح قد وقع في حرج شديد •• فالمفروض أنهم جميعاً متوضئون •• وبعد لحظات سيقومون للصلاة ، فإذا أراد ذلك الرجـل المجهول أن يقوم ليتوضأ ، بان للآخرين أنه مصدر الريح الكريهة • وفي هـذا حرج له ، وإخجال ••

وهنا أدار « الرسول » بصره على وجوه الجالسين جميعاً وقال :

« من أكل لحم جَزور •• فليتوضأ ••!! » •

قال أصحابه : كلنا أكلنا لحم جزور يا رسول الله •

قال : « إذن ، كلكم يتوضأ » ••!!

وقاموا جميعاً للوضوء ، ومن بينهم هـذا الذي أنقذته من الحرج لباقة « محمد » وفطنته ، ورقة إحساسه !!

أية شمائل سامية ، هذه التي تُعنى بكل دقيقة وصغيرة تمسّ شعور الناس، وأحاسيسهم •• ؟؟ !!

إن سمو « محمد » ليسبق كل محاولة لوصفه ، أو الإحاطة به •• وأعظم ما فيه أنه ابن الفطرة ، ووليدُ السجية والبديهة •

وليس ثمـة كلمات تستطيع تصوير سموه سوى كلماته هو التي قالهـا متحدثاً بنعمـة الله عليه :

« أدَّبني ربي • فأحسن تأديبي » •

الفصل الخامس

ومشاكل الناس عبادته
« تنام عيني ولا ينام قلبي »

لنبدأ بهـذه القصة ..

كان من بين أصحاب النبي ، صحابي جليـل هـو « عثمان بن مظعون » رضي الله عنـه ..

وكان عثمان متبتلا ، غير مشفق على نفسه في العبادة ، حتى لقد همّ ذات يوم أن يخصي نفسه ، ليتخلص نهائياً من نداء غريزة الجنس ..

وذات مرة دخل الرسول على زوجته عائشة ، فوجد معها بعض النسوة ، ووقعت عينه على إحداهن ، وكانت رثّة الهيئة مكتئبة المُحيا .

فسأل « محمد » عن أمرها ، فقيل له : إنها زوجة عثمان بن مظعون . وإنها تشكو بثّها وحزنها ، فعثمان مشغول عنها بالعبادة ـ يقوم ليلَه ، ويصوم نهاره ..

وذهب الرسول حيث لقي ابن مظعون ، فقال له :

أما لك بي أُسْوة ؟؟

قال : بأبي أنت وأمّي . وماذا ؟؟

قال الرسول : تصوم النهـار ، وتقوم الليـل ؟

قال : إني لأفعـل .

قال الرسول : لا تفعـل . إن لجسدك حقاً ، وإن لأهلك حقاً .

وامتثل « عثمان » نُصْح الرسول وأمره ، وقرر أن يؤدي حق أهله .. «؟!»

والآن ، انظروا بقية القصة ..

ففي صبيحة اليوم التالي ذهبت زوجة « عثمان بن مظعون » إلى بيت النبي عطرة ، نضرة ، كأنهـا عروس .. واجتمع حولها النسوة اللاتي كانت تجلس بينهن بالأمس ، رثة بائسة .

وأخذن يتعجبن من فرط ما طرأ عليها من بهـاء ، وزينة .

قلن لها : ما هـذا يا زوج ابن مظعون ...؟؟

قالت ، وهي تضحك من قلبها :

ــ « أصابنا ما أصاب الناس » ...

بالأمس ، لم يستطع الرسول على الأمر صبراً ، حين رأى أمامه زوجة يؤرقها هجر زوجها ، وتضنيها مرارة الحرمان ، فخف لنجدتها ، وذكر زوجها بما لهـا عليـه من حـق ..

فما إن جَنّ عليها الليل ، ثم طلع عليها صباح يوم بهيج ، حتى كانت تزهو فرحة مطمئنة ، تقول لصاحباتها :

ــ « أصابنا ما أصاب الناس » ...

أليس عظيماً ، قـد أحاطت عظمته بكل شـيء ؟

أليس إنساناً ، قد وسعت إنسانيته كل شيء ؟ ــ هذا الرسول الذي تشغله وتهمه مشاكل الناس إلى هذا الحد ، وإلى هـذه الغـاية ..؟!!

حقـاً ، إنه لرحمـة مهداة ..

وإنه ــ عليه الصلاة والسلام ــ ليجعل السهر على مشاكل الناس . والسعي لحلها ، عبـادة من أفضل العبادات . وقربى من أزكى القربات .

يقـول في هـذا المقـام :

« لأن أمشي مع أخ في حـاجة ، أحب إليّ من أن أعتكف في مسجدي هـذا شهراً » .

ويسأله سائل :

« يا رسول الله : أي الناس أحبّ إلى الله ..؟ فيجيب عليه السلام : أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس » .

ويحض الناس على التكافل حضاً لا ينقطع ، ويرفع خدمة الناس إلى الذروة بين الأعمـال الصالحة .

يقول عليـه السلام :

« إن لله خلقـاً خلقهم لحوائج الناس ، يفـزع الناس إليهم في حوائجهم ، أولئك الآمنون من عذاب الله ! » .

إن زكاة الجاه ، لا تقل شأناً عند « الرسول » عن زكاة المـال والثروة .. والذين يبخلون بجاههم ، وبقدرتهم . ويقبضون جاههم ونفوذهم وجهدهم ــ عن مساعدة الآخرين ومساندتهم ، ليسوا من الله في شيء ، وما لهم بين الخيرين مكان .

وإنما الإنسان حقاً ، والمؤمن حقاً ، هو الذي يكون للآخرين عوناً وناصراً .

يقول عليـه السلام :

« مَن كان وُصلةً لأخيه إلى ذي سلطان في مبلغ بر ، أو إدخال سرور ، أو تيسير عسير ، أعانه الله على إجازة الصراط يوم القيامة عند دحض الأقدام ، ورفَعه في الدرجات العُلى من الجنة . » .

بل إن الرسول ، ليرى في خـدمة الناس ، نعمة من الله أنعمها على الذين يوفقون لهـا .

وهو لهـذا يحذر من مَللها ، والسأم منها ، حتى لا تزول ..

يقول عليـه السلام :

« إن لله أقواماً اختصهم بالنعم لمنافع العبـاد .. يُقرّهم فيهـا ما بذلوها .. فإذا منعوها نزعها منهم ، فحولها إلى غيرهم » .

بيـد أن الرسول يريد هـذه الخـدمة خالصة ، ويريدها أمينة عـادلة .

فإذا شفعت لإنسان ، وسرت معه في حاجته وقضيتها ، فيجب ألا تأخـذ مثوبة شفاعتك ومسعاك ، رشوة محرمة ..

وأيضاً ، يجب ألا يكون مسعاك له ، نوعاً من المحاباة الظالمـة ، والتحيز الذي يضيع على آخر حقـاً ...

أعني ــ أن مساعدة الآخرين ، يجب أن تتم في نزاهة كاملة ، فلا تنتظر عليها أجر المرتشي ، ولا تساعد أحــداً في نيل ما ليس له بحــق ..

يروى عنه عليــه السلام قوله :

« من شفع شفاعة لأحد فأهــدى له هدية عليها فقبلها ، فقد أتى باباً عظيماً من أبواب الكبائر » .

إن « محمداً » أوصى الناس أن يتهادوا ، وأخبر أن تبادل الهدايا فيما بينهم يشد آصرة الودّ والإخــاء .. .

ولكن عندما تصبح الهــدية ، رشوة متنكرة ، فإنه يرفضها ويحذر منهــا على النحو الذي رأينــا .

وأنت حين تشفع لأحــد شفاعة عادلة . فإنك بهذه الشفاعة تؤدي زكاة جاهك ، فإذا تقاضيت عليها مثوبة ، ولو هدية .. كنت كمن يدفع لفقــير زكاة ماله ، ثم يتقاضاه بديلا لهــا ، وعوضاً عنهــا ..!!!

هــذا موقف « محمد » ممن يأخــذ على شفاعته وعونه أجراً ..

أما موقفه ممن يحابي بشفاعته محاباة تضيع حقوق الآخرين فها هو ذا :

« من أعــان ظالماً بباطــل ، ليدحض به حقــاً فقــد برىء من ذمــة الله وذمــة رسوله » .

« مثل الذي يعين قومه على غــير الحق ، كمثل بعير تردى في بئر ، فهو ينزع منها بذنبه ... ــ أي يحاول الخلاص دون أن يقدر عليــه ــ !!.. » .

هكذا ينفي الرسول عن التكافل الإنساني كل خبث ، ويحرره من كــل غرض رخيص ودخيل .

ولمــا كانت حاجات الناس ومشاكلهم ، سيما إذا كانت مشاكل جماعية ، وحاجات اجتماعية ــ تتطلب قدرة لا تتوفر لغير أولي الأمر ، والقائمين بالحكم ..

أقول ، لما كان ذلك كذلك ، فإن الرسول جعل هذه الحاجات أمانة ووديعة بين أيـدي الحاكمين .

فأما من يصون الوديعة منهم فهـذه مثوبته :

« إن المقسطين عنـد الله على منابر من نور ، عن يمين الرحمن ، وكلتـا يديه يمـين » .

وأما من فرّط ، واحتجب عن الناس ، وأهمل شئونهم ، فهذا جزاؤه :

« ما من أمتي أحد ولي من أمر الناس شيئاً لم يحفظهم بما يحفظ به نفسه ، إلا لم يجـد رائحـة الجنة . » .

« ما من إمام يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة ، والمسكنة ـ إلا أغلق الله أبواب السماء دونَ خلته ، وحاجته ، ومسكنته » .

« مَن ولي من أمر الناس شيئاً فاحتجب عن أولي الضعف والحاجة، احتجب الله عنـه يوم القيامة » .

إن محمداً الإنسان البار الكريم ، يزيح جميع العقبات من طريق الناس ، ويفتح جميـع الأبواب لتنفذ منهـا مشاكلهم ومآسيهم .. حتى تلك الأبواب الضخمة المدججة بالحرس والرهبة ـ يفتحها محمد ، ويأمر بإخـلاء الطـريق للضعفاء ، وذوي الحاجة ، حتى يقولوا كلمتهم للحاكم الذي عليـه أن يسمعها وينصت لهـا . ثم ينجز ما تستحقه من رعاية وكفالة .

ولأنَّ رعاية الناس ، وصون مصايرهم ، هما وظيفة الحاكم ، وهما لُباب عمله وواجبه ـ حذر محمد أن توضع هـذه المصاير في أيدٍ مرتجفة ، هزيلة . يقول عليه السلام :

« من استعمل رجلا من عصابة وفيهم مَن هو أرضى لله منـه ، فقد خـان الله ، ورسوله ، والمؤمنين . » .

أجـل .. إن الأيدي القوية ، النظيفة ، العادلة ، البارة ، هي وحدها التي تؤتمن على مصاير الحق ، وحاجات الناس .

إن الحكم تضحية . لا تجارة . وخدمة ، لا استعلاء .

ولكننا نحسبه زَهْواً ، وعلُواً ؛ فنسارع إليه ، ونرتمي عليه . لننظر ماذا يقول « الرسول » :

« ليأتين على القاضي العادل يوم القيامة ساعة ، يتمنى أنه لم يقض بين اثنين في تمرة ..!! » .

قاض عادل ..؟؟ وتَمْرة ..؟؟ فكيف بالظالم إذن ...؟؟

وكيف بالذين يغتالون الحقوق ، ويعصفون بالمصاير ..؟!!

ولنقرأ هذا الحديث أيضاً ..

« إن شئتم أنبأتكم عن الامارة : أولها ملامَة ، وثانيها ندامَة ، وثالثها ، عذاب يوم القيامة ؛ إلا مَن عَدل .. » .

كل هذا ، يقوله محمد حرصاً منه على مصالح الناس ، وحضاً على التفاني في خدمتهم ، وتوفير العدل والأمن والخير لهم .

وكل ذي جاه يبخل بجاهه ..

وكل ذي سلطان يجور بسلطانه ..

فقد خان أقدس أمانة أوصى بها « محمد الأمين » .. ألا وهي : حاجات الناس وحقوقهم ومصايرهم .

« إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، حفظ أم ضيَّع » .

كان « محمد » شديد الاهتمام بالناس ، حتى لقد كان يحرم نفسه ، وأهله ليوفر للناس بعض ما هم إليه يحتاجون .

وإذ كان قومه الذين يعيشون يومئذ بالمدينة ، يعانون قلة الرزق وشظفاً في الحياة ؛ فقد جعل شعاره ونهجه أن يكون هو وأهله ــ أول من يجوع ، إذا أصاب الناس مجاعة .. .. وآخر من يشبع ، إذا واتى الناس شبع ...!

ولطالما كان ينهى ذوي اليسار أن يمسكوا فضل ما عندهم ويختزنوا فائض دخلهم .

يقول « أبو سعيد الخُدْريّ » رضي الله عنه :

« بينما نحن في سفر مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال لنا :
مَن كان معه فَضْلُ ظَهْر ــ أي واحلة فائضة عن حاجته ــ
فليعُدْ به على من لا ظهر له ..
ومَن كان له فضل من زاد ، فليعد به على من لا زاد له ..
ثم ذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا
في فضل ــ أي فيما يزيد عن حاجته » .

ويرفع «الرسول» في هذا المقام مثلا أعلى للناس كي يَحْذوا حذوه،فيقول :

« إن الأشعريين إذا أرملوا في غزو ، أو قلَّ طعام عيالهم بالمدينة
ــ جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد ، ثم اقتسموه بينهم في
إناء واحد بالسوية . فهم مني ، وأنا منهم » .

لقد كان « الرسول » حريصاً على أن تكون طاقات المال والثروة في خدمة الناس جميعاً ، فحث على السخاء والبذل ، وكرَّه إلى الناس الشح والاكتناز . يقول لأصحابه :

« أيكم مال وارثه ، أحب إليه من ماله ....؟
قالوا : يا رسول الله ، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه .
قال : فإن ماله ، ما قدَّم ــ أي أنفق وبذل ــ ومال وارثه ما أخَّر
ــ أي اكتنز وادخر ــ ... » .

ويقول عليه السلام :

« ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان ، فيقول أحدهما :
اللهم أعط منفقاً خلَفاً .. وأعط ممسكاً تلفاً » .

ويضرب الرسول مثلا ، ويرسم صورة جميلة لفضل الله حين يغمر الباذلين ، فيقول :

« بينما رجل يمشي بفلاة ، إذ سمع صوتاً في سحابة يقول : اسقِ

حديقة فلان . فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حـرة ــ أي أرض ملبسة حجـارة سوداء ــ فإذا شرجة ــ أي مسيل ماء ــ قـد استوعبت ذلك الماء كله ، فتتبع الماء ، فإذا رجـل قائم في حديقته يحوّل الماء بمسحاته .. فقال له : يا عبد الله ما اسمك ؟
قال : فلان . وهو الاسم الذي سمعه في السحابة .
فقال له : ولِمَ تسألني عن اسمي ..؟
فقال : إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هـذا ماؤه يقـول : اسق حديقة فلان ، لاسمك ، فماذا تصنع فيها ؟
فقال : أما إذ قلت هـذا ، فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه .. وآكل أنا وعيالي ثلثاً وأرد فيها ثلثاً » .

إنه مثل جميـل يضربه « محمد » للناس ، ليعلموا أن ما يبذلونه في سبيل التكافل الاجتماعي لا يذهب عند الله بدداً ، ولا يضيع عليهم سُدى .. وإنمـا ينميه الله لهم ، ويرده عليهم مغـانم مضاعفة .

« يا معشر الأنصار : كنتم في الجاهليـة ــ إذ لا تعبدون الله ــ تحملون الكَلّ ، وتفعلون في أموالكم المعروف ، حتى إذا مَنّ الله عليـكم بالإسلام ، وبنبيه ، إذا أنتم تحصنون أموالكم ..!!
يا معشر الأنصار : فيما يأكل ابن آدم أجـر .. وفيما يأكـل السبع والطـير أجر !! » .

ولم يكد الأنصار يسمعون هذا القول من رسول الله حتى عادوا ، فهدموا أسوار حـدائقهم ..

ويقارن « الرسول » بين الباذلين والأشحاء مقارنة سريعة لكنها فاصلة ، فيقـول :

« السخي قريب من الله ، قريب من الجنـة ، قريب من الناس ، بعيـد من النـار ..

والبخيل بعيـــد من الله ، بعيـــد من الجنـــة ، بعيـــد من الناس ، قريب من النـــار .. » .

ماذا يريد « محمد » بتوجيهاته هـــذه ؟

إنه يريد أن يكون المال خادماً ، لا سيداً .

ويريد أن تتوفر للناس جميع الفرص التي تبعـــد عنهم مرارة مشاكلهم ، وشظف حياتهم ، حتى يحيوا الحياة الطيبة التي يرجوها لهم .

وخـــدمة الناس عند « محمد » مقدسة ، ومثوبتها من الله عظيمة وسابغة .

و « الرسول » الإنسان البار بالناس ، الحريص عليهم ــ يأمرنا أن يسدي بعضنا لبعض العون ــ أياً كان هـــذا العون ــ .

يقول عليـــه السلام :

« لا تَحقِرنَّ من المعروف شيئاً . ولو أن تفرغ من دلوِك في إناء المستسقي .. ولو أن تكلم أخاك ، ووجهك إليه منبسط .. » .

ولقد ذهب إليه بعض أصحابه يومـــاً آسفين ، لأنهم يريدون أن يتصدقوا من أموالهم ، لينالوا ثواب المتصدقين .. ولكن لا أموال لهم يبذلون منها ..

قـــالوا للنبي :

« يا رسول الله : من أين لنا صدقة نتصدق بهـــا ..؟؟

فقال : إن أبواب الخير لكثيرة : التسبيح ، والتحميد ، والتكبير ، والتهليل ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .. » .

ثم قـــال :

« وتميط الأذى عن الطريق ، وتسمع الأصم ، وتهدي الأعمى ، وتدل المستدل على حاجته ، وتسعى بشدة ساقيك مـــع اللهفان المستغيث ، وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف ، فهذا كله صدقة منك على نفسك » .

تأملوا قوله ـ عليه السلام ـ « تسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث ؛ وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف » إنها كلمات حارة مضيئة ، تصور حنانه الدافق على الناس، وتصور رغبته المجيدة في أن يتبادل الناس المعونة ، والمعروف، ويعيشوا معاً كالبنيان يشد بعضه بعضاً •

و « الرسول » كبير الحرص على كرامة الكائن البشري •

لهذا ينهى الذين يساعدون الآخرين عن أن يبطلوا أعمالهم بالمنّ والأذى •

فإذا كان العون مالياً ؛ يأمر أن تبذله في السر •

وفي كل حالات العون والمساعدة ينهى عن المن ؛ لأن فيه جرحاً لمشاعر الذين تلقوا النصرة ، والمعونة •

يقول عليه السلام :

« خابوا ، وخسروا ••

قال أصحابه : مَن هم يا رسول الله ؟

قال : المسبلُ إزاره خيَلاء ، والمنّانُ بما أعطى ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » •

« المنّان بما أعطى ••! » •

يا لمحمد من إنسان ذكي الفؤاد ، عظيم الحدَب !

إنه يُطهِّر العلاقات الإنسانية من كل أعشابها الضارة ، وأشواكها المؤذية•••

وإنه ليرفع خدمة الناس إلى مستوى الواجب الذي لا ينبغي أن يحول دونه أنانية ؛ ولا يشوهه مَنّ ؛ ولا يفسده غرور •••

★ ★ ★

هـذه خفقة من خفقات قلب كبير عاش مع الناس في آلامهم وفيما يرجون ـ ناصباً لا يهدأ ؛ يقظان لا ينام •••

أجل ـ فلقد نامت عينا « محمد » كما قال ••• ولكن قلبه الناسك

اليقظان .. المتفجر حناناً ورحمة ، لم ينم .. وكأنما لم يكن ينبغي له أن ينـام ؛ فعاش العمر كله في يقظة دائبة ، وصَحْوٍ متفتح ..

ــ مع ربه : يذكره ويعبـده ..

ــ ومع الناس : يدفـع عنهم الكروب ، ويعاونهم عـلى شدائد الزمان ، ويهديهم للتي هي أهدى وأقوَم ..

هذا نهج رسول ، لبُاب عمله العبادة والنسُك .. ومع هذا فهو يعلن أن بضع خطوات يمشيها في حاجة محتاج ــ أحب إليه ، وأزكى لديه من أن يعتكف في مسجده شهراً ــ يقوم ليله ويصوم نهاره ...!!

إنه إنسان ، احتشدت خصائص الإنسانية وفضائلها في نفسه احتشاداً بلـغ الغـاية في القوة ، والاتساق .

ثم هو إلى هذا ، رسول اختاره الله على عِلْم ، وأمدَّه بكل مزايا الاصطفاء .

* * *

وبعـد ..

فهذه « إنسانيات محمد » ... أتراها قد انتهت عند آخر سطور هـذا الكتـاب ؟؟

أوَتحسب أن هذه الصفحات تزعم لنفسها أنها أوفَت على الغاية وشارَفت المنتهى ؟؟

كلا ... فإنسانيات « محمد » متراحبة تراحُب الأفق .. غزيرة كالضوء المنتشر .. ممتلئة كالسحاب الثّقال ...!!

وهذا الجهد الذي أسعفه توفيق الله وعونه ليس سوى « إيماءة » إلى هذه الإنسانيات الحافلة ، التي صبغها الله بصبغته الحسنى ، وجعلهـا للناس منـاراً عاليـاً ، وهـادياً .

فمن شـاء ، فليصطنع لنفسه من هذه « الإنسانيات » قَدْرَ مستطاعه ، أسوة حسنة وقـدوة حافزة ..

ومن شاء فليتخذ من هذه « الإيماءة » دليلا للطريقة التي يحسن أن نفهم بهـا « محمداً » ، و« إخوة محمد » من الأنبياء والمرسلين .



أبناء الرّسول في كربلاء

الإهْـــدَاء

إلى يوم « كَرْبَلاء » ..

بكل آلامه ، وبُطولاته ...

بكل مَأساتِه ، وعظَمتِه ...

بكل أمجـاده ، وحَصادِه ...

وإلى بَطله الأكبر .. وأبطـاله الأبرار ...

الذين جعـلوا منه يوماً « فَوق التاريخ » ..

والذين بذَلوا حياتهم ، من أجـل الواجب ..

وأضاءُوا ضمـير الحياة بجلال التضحية ..

أهـدي ــ في خُشوع وتَقْوى ــ

هــذه الصفحات ...

مقــدمة

من الصعب أن نجد في تاريخ البشرية كلـه ، يومـا كذلك اليوم الفريد والمجيد ‥ وأبطالاً ، كاولئك الأبطـال الشاهقين والباهرين ‥‥!! إذ لم يكن الأمـر في ذلك اليوم ، أمـر شهداء برزوا لمنايـاهم في استبسال وغبطة ‥

ولا أمـر جيش ، خـرج لجيش مثله ، فابلى واحسن البـلاء ‥

إنما الأمـر الذي شغل الدنيـا في يوم كربلاء ، هو أنه اليوم الذي تجلت فيه قداسة الحـق ٠ وشرف التضحية على نحـو متميز وفريـد ‥‥!!

وصحيح أن تـاريخ الإسـلام مترع بالمشاهد الزاخـرة بقداسة الحـق وشـرف التضحية ، أيـام الرسول صلى الله عليـه وسلم ، وفيما تلا عصره الرائـد العظيم من عهـود وعصور ‥ بيـد أن يوم كـربلاء ، تبقى له سمته المجيـدة ، وميزته الفـريدة ٠

فالقضية الجليـلة التي دار مـن اجلهـا الصراع ‥ والقـلة الصامـدة الماجـدة ، التي وهبت حياتها لتلك القضية ‥

والطريقـة التي دار بهـا القتـال بـين أربعـة آلاف فارس مـن جيش ـ ابن زياد ـ ، واثنين وسبعين لا غـير ‥ هم انصار « الإمـام الحسين » ‥

والأحداث المروعـة ، التي سبقت ذلـك اليوم ‥‥

والحصاد الأليم ، والعظيم الذي خلفـه ، بعد ان مالت شمسه للغروب ‥

كل ذلك يجعـل من يوم كربلاء يوماً فريداً في تاريخ الآلام والبطولات ‥ في تاريخ التضحية والمجـد ‥ في تاريخ المأساة والعظمة ‥ وفي تاريخ الحـق الذي شهد في ذلك اليوم ورغم هزيمة ابطـاله ـ سيادة وانتصـارا قـرّت بهمـا عينـاه ‥‥!!

إن اعظـم ما صنع « الحسين » واهـله وصحبه في ذلك اليوم هـو انهم جعـلوا الحـق قيمة ذاته ، ومثوبة نفسه ؛ فلم يعـد النصر « مزية » لـه ‥ ولم تعـد الهزيمة « إزراءً » به ‥‥!!!

لقـد وقف اثنان وسبعون بطـلا ، وراء قائدهم العظيم « ابي عبـد الله الحسين » : ليس لهم في إحـراز النصر على عدوهم ادنى امـل ‥

وليس امامهم سـوى القتل باسلحة خصم فاجـر ، متوحش ، مسعور ‥

وأمامهم فرص النجاة ، إذا هم أرادوها .. لكنهم رفضوا النجاة ؛ ما دامت ستكون غمطا لقداسة الحق ، وثلما لشرف التضحية ..!!

وهكذا راحوا يقاتلون حول قائدهم المجد ، معانقين المنايا ، واحدا بعد واحد .. وهم يصيحون ، بل يغنون :
الله ، والجنة .. الله ، والجنة ..!!

من أجل ذلك ، يرفض هذا الكتاب الوقوف عند اعتبار « كربلاء » مأساة وفاجعة ، ومناسبة للبكاء والعويل ..

ويمد بصره نحو مضمونها الصحيح ، وجوهرها النضير ، فيراها مهرجانا للحق وعيدا للتضحية ، ليس لهما نظير ..!!

إنه يوم لم يعرف المسلمون بعد ، حقه عليهم ، ولا واجبهم تلقاءه .

وإن الأقدار لم تدع رؤوس أبناء الرسول تحمل على أسنة رماح قاتليهم ؛ إلا لتكون « مشاعل » على طريق الأبد .. للمسلمين خاصة ، وللبشرية الراشدة كافة ، يتعلمون في ضوئها الباهر : أن الحق وحده هو المقدس .. وأن التضحية وحدها هي الشرف .. وأن الولاء المطلق للحق ، والتضحية العادلة في سبيله ، هما وحدهما اللذان يجعلان للإنسان وللحياة قيمة ومعنى ..!!!

فهل يأذن حفيد الرسول ، وأبو الأبطال ، أن أقدم عنه وعن رفاقه الأبرار هذه الصفحات ..؟

إني لأجاوز قدري ، إذا زعمت أو توهمت أنني قادر على إيفاء تضحياتهم وعظمتهم حقها ..

لقد وجدت - لا غير - عبير تلك التضحيات وتلك العظمة ؛ فرحت أنادي الناس كي يستمتعوا معي بهذا العبير ..!!!

وليشهدوا - كما لم يشهدوا من قبل - شرف التضحية . وعزمها القدير .. ! !

ويا أبا عبد الله ...

سلام على البيت الذي أنجبك .. وعلى الدين الذي رباك ..

وسلام على رفاقك الأبطال المجدين ، والشهداء الظافرين .

خالد محمد خالد

الفصل الأول

للتضحية خُلقوا

كانت أحبَّ أهلها إلى أبيها ، وأقربهم من قلبه الودود .. وكان ﷺ يشَمّ فيها عبير ذكريات عزيزة وغالية .

ذكريات السنوات الجليلة التي قضاها في صحبة أمها « خديجة » ..

كما كان يتهلَّل غبطة ورضاً ، وهو يرى فيها أمَّ ذريته المباركة وسِبْطه العظيم ..

إنها « فاطمة » ...

بورِكَ الاسم ، وبورِكَتْ صاحبته !!

ولقد ذهبت يوماً الى أبيها الرسول تسأله أن يُدبِّر لها خادماً يُعينها على عمل البيت الذي أمْجَل يديها ، وأضْنى عافيتها ، ومسَّها منه اللغوب .

وكان زوجها العظيم « علي بن أبي طالب » هو الذي نصحها بهذا حين علِم بمقدم بعض السَّبْيِ إلى المدينة ، وحين رآها تكاد تسقط إعياءً تحت وطأة العمل الدائب في خدمة البيت والأولاد .

وفي دار النبوة ــ وما كانت دار النبوة تلك سوى حجرة متواضعة في ناحية من المسجد ــ استقبلها الأب والرسول !

ــ مرحباً ، يا فاطم ..

وجلست « فاطمة » تتحدث مع أبيها ، وبين الحين والحين تحاول الاستنجاد بشجاعتها كي تلقي بين يديه الرغبة التي حفزَتْها إلى المجيء .

لكنَّ الحياء يغلب فيها الشجاعة ، فتكظِم الرغبة ولا تبوح ..

ثم تستمر في حديث آخر أشبهُ ما يكون بالنجوى مع أكرم والد ، وأكرم رسول .!!

وأخيراً تستأذن في العودة إلى دارها ، فيأذن لها أبوها الرسول ، ويودعها بنظرات مشفِقة ، وحانية ..

ويسألها الزوج وقد عادت إليه :

ــ ماذا قال لك رسول الله ..؟

وتجيبه « فاطمة » :

ــ لقد استحييتُ أن أسأله !!

لكن « علياً » يعلم ما تنوءُ به من أعباء ، فيصحبها من فوره إلى الرسول عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، حيث يُنهي إليه رغبتها وحاجتها .

ويرنو بصر « النبي » إلى بعيد .. ويلتمع وجهه المضيء تحت غلالة شفافة من الشجن ، والأسى ، والحنان ..

إنه ليعرف ــ مثلما يعرفان ــ ما تعانيه ابنته الحبيبة من مشقة وشظَف ، وهي التي وُلدت في أحضان نعيمٍ جزْل كانت تزخر به دار أمها « خديجة » ذات المجد الوارف والثراء المُفيض ..!!!

لكنها اليوم ابنة « رسول » جاء الحياة ليعطي ، لا ليأخذ ..

رسول قرر أن يكون حظه وحظ أهله من الدنيا كزادِ الراكب ، بل دون زاد الراكب بكثير ..!!

وإن « فاطمة الزهراء » رضي الله عنها لتعلم هذا النهج وتلتزمه .

ولقد رضيتْ ــ قريرة العين ــ أن يكون كل جهازها الذي زُفّت به ليلة عرسها ــ أعواداً من جريد ، صنع منها سرير واطىء .. ووسادةٌ حشوها ليف .. وسِقاءين للماء .. ورحاءين للطحن .. وقارورتَيْ طيب .. ومنخلا .. ومِنْشَفَة .. وقدحاً ..!

وهي إذ تجيء اليوم إلى أبيها على استحياء . في صحبة زوجها الفقير من عرَض الدنيا ورغَد العيش ، فإنها لا تطلب ما ينأى بها عن منهج الرسول في الزهد وفي الورع .. إنها لا تريد أكثر من خادم يحمل عنها بعض العبء الذي يثقل كاهلها ..!

ولكن ، لا ... فما دامت الأقدار قد أسعدتها وشرّفتها بأن تكون « بنت رسول الله » فإنها في نفس الوقت ولنفس السبب ، تدعوها لأن تتحمل من التضحية أقصى ما يستطيع الناس .

ويحتمل معها ذلك القدَر وأكثر ، زوجُها وبنوها ..!!

وإن مشقّة البيت ، وشظَف العيش لأهْوَنُ تلك التضحيات التي سيُقدَّر لآل هذا البيت المجيد أن يحملوها .!!

من أجل هذا ، لم يجد الرسول في وُسْعه أن يجيب « فاطمة وعلياً » إلى رغبتهما المتواضعة والمشروعة .

ومن ثمَّ غطّى وجه ابنته الحبيبة بنظراته الآسية والحانية ، وقال يخاطبها :

« لا ، يا فاطم .. لا أعطيك ، وأدَع فقراءَ المسلمين ..!! » .

ثم اقترب منهما ، وطوّقهما بذراعيه ، وقال لهما ، وعلى فمه ابتسامة كضوء الفجر :

« ألا أدلكما على خيرٍ من خادم ..؟
إذا أويتُما إلى مضجعكُما ، فسبِّحا الله ثلاثاً وثلاثين ..واحمداه ثلاثاً وثلاثين .. وكبّراه أربعاً وثلاثين .. فذلك خير لكما من خادم » ..!!

إذا نحن جاوزنا شكل هذه الواقعة إلى جوهرها ، أدركنا المَغزى العظيم لها ، وأدركنا كذلك ، الدوْر المجيد والوحيد الذي كان على أهل بيت النبي أن يقوموا به غير منتظرين عليه أجراً . ولا مُتعلّلين براحة ..!!!

وإذا كانت هذه الواقعة ترينا كيف كان الرسول يُزكّي هذا المبدأ في أفئدة آل بيته ، فإنها لم تكن الواقعة الوحيدة في هذا المجال .. بل هي واحــدة من وقائع كثيرٍ كان الرسول عليه الصلاة والسلام يصوغ منها أسلوبه في إعــداد أهل بيته لِدورهم العظيم، هذا الدور الذي ستكون التضحية لُحمته وسداه ..

ففي يوم آخــر .. وكان يوم فتحِ مكة . ذهب « عليّ » إلى رسول الله يسأله أن يمنحه حِجابة البيت الحرام .

وكانت الحجابة وظيفةً تتوارثها من قديم إحــدى عائلات قريش .

ولم يكن ابن عم الرسول حين تمنّاها ، يطمح إلى مغنم أو عرض من أعراض الدنيا الزائلة .

إنما كان يرجو أن يذهب بشرفِ حَمل مفاتيح بيت الله الحرام .

هنالك تقدم من الرسول الذي كان جالساً وسط أصحابه : تقدم ومفاتيحُ المسجد والكعبة في يمينه وقال :

« يا رسول الله!! اجعل لنا الحِجابة مع السقاية، صلىاللهعليك »..

وابتسم الرسول ابتسامته العذبة المعهودة في مثل هــذه المواقف . وبسط يمينه المباركة نحو ابن عمه ، آخــذاً منه المفاتيح ، ثم نادى ، وبصرُه يجول بين الناس :

« أين عثمانُ بن طلحَة » ..؟؟

وكان « عثمان بن طلحة » هو القائم يومها بوظيفة الحجابة هــذه ..

ونهض « ابن طلحة » قائماً ، يلبي نداء رسول الله وألقى الرسول بالمفاتيح إليــه ، وقــال :

« هاكَ مفتاحك يا عثمان .. اليوم ، يوم برٍّ ووفاء » ..

ثم التفت إلى ابن عمــه « عليٍّ » وقال :

« إنما أعطيكُم ما تُرْزَأون ، لا ما تَرْزَأون » ..!!

ياله من درس .. ويالها من نبوءة ..!!

أجل .. هذا هو دور آل محمد في الحياة .. التضحية . بكل ما تتطلبه من شظف . وتبتّل . واستغناء ..

لا شيء دون التضحية . ولا شيء سواها ..

أما الدنيا بكل زينتها وزخرفها وإغرائها ؛ فهي أهونُ على الله من أن يجعلها لهم مثوبة وأجراً ..!!

إن عليهم في هذه الحياة أن يقوموا بدور واحد . عليهم أن يقضوا أعمارهم كلها فوق « منصّة الأستاذية » ؛ ليعلّموا الناس فناً واحداً .. هو فن التضحية والفداء . أروع وأصدق ما تكون التضحية . ويكون الفداء ..!!!

* * *

على هذا النسق الرفيع الباهر . ربى الرسول الكريم « علياً وفاطمة » الأبوين اللذين سيجيء من أصلابهما ، الحسن . والحسين . وزينب ، وبقية الأبناء والحفدة المباركين . الذين سنطالع على صفحات هذا الكتاب جلالَ ما بذلوا من تضحية .. وروعة ما صنعوا من بطولة ..!! .

لقد ربّاهما كما رأينا على التحمّل والتضحية .. وصحيح أنه ربّى جميع أصحابه على ذلك .. بيْدَ أنه كان يطالب ذويه وأهل بيته بأن يبلغوا في هذا المجال أرفع مستويات التفوّق والنبوغ .

فالقدوة التي يجب على « فاطمة » أن تعطيها الآخرين بوصفها بنت رسول الله ..

والقدوة التي يجب على « عليّ » أن يمنحها الآخرين بوصفه ابن عم الرسول ، وتلميذه الأول . وزوج ابنته . ووالد أحفاده ..

هذه القدوة المنتظرة منهما . تختلف في نوعها وفي درجتها .. وتتفوّق في نوعها ، وفي درجتها ..

ولئن كانت القدرة في عُرف البشر « تجسيداً » للمثل العليا التي أبدعها الانسان واكتشفها ، فإنهـا كما علَّم الرسول آل بيته وأصحـابه « تجسيدٌ » للربَّانيَّة التي يريدها الله ..!!

وها هو ذا القرآن العظيم يهتف فيهم :

(كونوا ربَّانيِّين بما كنتُم تُعلِّمون الكتابَ وبما كنتم تدرسون).

فالربَّانية وحدها ، هي التي تضفي على العظمة الإنسانية رُواءَ الصدق ، والإخلاص ، والنُّسُك ..

وهي التي تجعل من التضحيات رُشْداً ورضواناً ..

ولقد كانت القدوة التي تركها « عليّ وفاطمة » والتي سيتركها « بنوهما » من بعدهما رائعة الاتساق مع هذه الغاية الفريدة ، وذلك المستوى البعيد .

لقد كرَّسوا حياتهم للحـق ، أعظم ما يكون التكريس .. وضحَّوا في سبيله ، أصدقَ ما تكون التضحية ..

وإذا كان أكثر ما يُجبِّن الناس عن التضحية ، هو حب المال وحب الحياة.. فإن آل بيت الرسول.. هؤلاء البررة البواسل الأطهار ، قد عرفوا كيف يستهينون بالمـال ، ويستهينون بالحياة ..!!

لقد رأينا ، كيف كان « عـليّ وفاطمة وأبناؤهما » يعيشون في خَصاصة وشَظَف ..

ألا فلْنعلَم أن هـذه الخصاصة لم تكن عليهم ضربة لازِب .. بل كانت من صُنع أيديهم واختيارهم ..

فنصيب « عليّ » من الفَيء ومن الغنائم كان عظيماً .. لكنه ما كان يُبقي عليه ، ولا يدَّخِر منه .

إنما كان يأخـذ منه مثل حَسْو الطـائر .. ثم يهَبُ بقيَّته في سماحٍ وغبطة مسكيناً ، ويتيماً ، وأسيراً ..!!

ولطالما كان يعمد إلى الطعام المقِل الذي يحتاجه لغذائهما طفلاه « الحسن والحسين » ، فيتصدق به على شيخ هرم ، أو أرملة ، أو يتيم ..

وستكون هذه طريقة أولاده وشيمتهم حين يكبرون ..

فبعد قليل ، سنرى « الحسن » وقد كثر راتبه وعطاؤه ، أيام « معاوية » يقاسم الله أمواله ..!! وكذلك سنرى « الحسين » .. سنراهما ينفقان عطاءهما في سبيل الخير ، في سخاوة نفس نادرة المثال .

فإذا دعوا إلى التضحية بالحياة بعد التضحية بالمال ، جادوا بأنفسهم ، وباعوا صفقة رابحة وغالية ومتواضعة لله رب العالمين ..!!

إنهم للتضحية خلقوا .. وللفداء عاشوا ..

ولقد يخدعنا الفهم الزائغ لموقفين وقفهما « علي وفاطمة » فنرى فيهما جنوحاً عن المبدأ العظيم الذي قامت عليه حياتهما .

هذان الموقفان هما :

ــ موقف « السيدة فاطمة » من حقها في ميراث النبي .

ــ وموقف « الإمام علي » من بيعة الصدّيق أبي بكر .

* * *

إن النظرة السريعة المتعجلة لهذين الموقفين ، توقع أصحابها في وهم كبير ، فيحسبونهما عرضاً من أعراض التطلع إلى الدنيا والحفاوة بها .

فأما عن الموقف الأول ، فلم يكن لدى النبي ﷺ ما يورث .

لقد كان يمضي الشهر والشهران والثلاثة ، ما يوقد في بيته نار تطهو طعاماً ..!!

ولقد لقي ربه ، ودرعه مرهونة في حفنات شعير ..!!

كل ما في الأمر ، أن المسلمين في بعض غزواتهم أصابوا أرضاً ، أمر الرسول أن تبقى في أيدي أصحابها ، على أن ينال كل ذي حق فيها نصيبه من ريعها .

وأفاء الله على رسوله من تلك الأرض ــ في خَيْبر ، وفَدَك ــ قطعة صغيرة . كان يُحصَّل نصف ريْعها إلى الرسول فيستعين به على معيشة بيته وأهله . وأبناء السبيل .

ولما انتقل عليه السلام إلى الرفيق الأعلى ، حوَّل خليفته الصدِّيق ذلك الريْع إلى بيت مال المسلمين .

وطالبت به السيدة فاطمة بوصفها وارثة أبيها ، وغاضبت الخليفة من أجل صنيعه ذاك ..

بيد أنها لم تكد تعلم من أبي بكر ، ومن غير أبي بكر من الأصحاب أن الرسول كان قد أعلن في حياته أن الأنبياء لا يورِّثون ، حتى فاءت إلى حكم الشرع وأذعنت لقرار الرسول ، وتقبَّلت في رضاً وتسليم حرمانها من ذلك الريْع الذي كانت في أشد الحاجة إليه .

وهكذا أضافت إلى تضحياتها تضحية جديدة ، وفاءً منها وولاءً للحق الذي قامت عليه حياتها ..!!!

وأما موقف « الإمام عليّ » من بيعة « الصدِّيق أبي بكر » رضي الله عنهما، فما كان امتناعه عن البيعة أول أمرها تحدِّياً منه للمبادىء التي قامت عليها حياته الورعة ، ولا نكوصاً عن التضحية من أجلها .

بل كان في التحليل النهائيِّ له ، صورةً صادقة لاستقامة النهج في ضمير « الإمام » وسلوكه .!!

لقد كان على اقتناع وطيد بأن خير الإسلام في أن يظلَّ لواؤه بيد واحد من بيت النبوة ، لا سيَّما في الفترة التالية لوفاة الرسول ، حيث يُخشى أن تتحرك النزعات القبَليَّة في أحشاء المجتمع من جديد ، متخذةً من منصب الخلافة مجالَ تنافسها ــ الأمر الذي حدث فعلاً يوم السَّقيفة ، إذ رأى بعض زعماء الأنصار أنهم أولى بالخلافة .. ورأى المهاجرون أنهم أحق بها وأجدر ..

وكاد الخلاف يتفاقم لولا أن بسط الله يده فوق عباده . وتحرك الضمير الديني الرشيد الذي غرسه الرسول في أفئدة أصحابه . فذاب الخلاف فور نشوئه في حرارة الإيمان وصدق اليقين ..!!

ولم يكن « علي » في اقتناعه بأولوية بيت النبوة في الخلافة يبتغي لآل البيت امتيازاً خاصاً .

بل كان يرى ذلك امتداداً لواجبهم نحو الدين الذي أكرمهم الله به .

من أجل ذلك ، نراه يجعل هذه الأولوية مشروطة بأن يكون في آل البيت من يؤهله صلاحه وورعه واقتداره لحمل تبعات المنصب الجليل .

ولقد صور اقتناعه هذا في وضوح كامل من خلال حواره مع الراشدين « أبي بكر وعمر » فقال :

« إنكم تدفعون آل محمد عن مقامه ومقامهم في الناس ، وتنكرون عليهم حقهم ..
أما والله ، لنحن أحق بالأمر ، ما دام فينا القارىء لكتاب الله .. الفقيه في دين الله ..
العالم بسنن رسول الله .. المضطلع بأمر الرعية .. القاسم بينهم بالسوية » ..

وفي كلماته للصديق حين وقف فيما بعد يبايعه .

« يا أبا بكر ..
إنه لم يمنعنا من أن نبايعك إنكار لفضلك ، ولا نفاسة عليك لخير ساقه الله إليك .. إنما كنا نرى أن لنا في هذا الأمر حقاً أخذتموه . » [1] .

على أنه ـ كرم الله وجهه ـ سرعان ما انضم لإجماع الصحابة ، وبايع « الصديق » بيعة صدق ويقين .

(١) راجع كتابنا « في رحاب علي » .

وسرعان ما أثبت « الصدّيق » ومن بعده « الفاروق » أنهما خير خلَف ، لأكرَم سلَف ..

ووقف « عليّ » مع كلا الخليفتين يبثّهما الرأي السديد ، والنّصح الأمين مما جعل أمير المؤمنين « عمر » يُشيد بسداد رأيه فيقول !

« لولا علّي ، لهلَك عمر » ..!!

هو إذن لم يكن ينشد الخلافة لدنيا يصيبها ، ولو أرادها لذلك لطالتْها في يُسر يداه..فلطالما حثّه أبو سفيان يومئذ ، بل حرّضه إثر مبايعة الناس أبا بكر على أن يتشبث بحقه في الخلافة ، قائلا له : « إن شئت لأملأنّها عليهم خيلا ورجلا ، ولأسُدّنها عليهم من أقطارها » ..

فما كان جواب الإمام العظيم إلا أن قال له :

« يا أبا حنظَلة !! إنك تدعونا لأمر ليس من أخلاقنا ، ولا من شيَمنا..ولقد سدَدْتُ دونها باباً،وطويْتُ عنها كَشْحاً »..!!

ولقد جاءته الخلافة فيما بعد ، فماذا كانت له .. وماذا كان لها ..؟؟

أما هي ، فكانت له عبئاً فادحاً ، ورُزءاً رهيباً ..

وأما هو ، فكان لها المؤمن الذي لا يصرفه عن مسئوليات إيمانه شيء ، والفدائيّ الذي لا تصرفه عن حب التضحية رغبة ..ولا تُجفله رهبة ..!!

لقد كان قادراً ـ لو أراد ـ أن يطوي بيمينه مائة حاكم من أمثال معاوية .. وأن يطوي بيمينه مائة شام ، لا شاماً واحدة !!

أجل . بقليل من الدهاء ، وبقليل من المسايرة ، كان قادراً على دَحْض التمرد كله .

لكنّ صرامته في احترام مبادئه وتطبيقها جعلته يؤثرُ المركب الصعب دوماً .

كان مؤمناً بأن الحق يجب أن يمضي في طريقه دون مُراوغة ، أو مُسايرة ، أو دهاء .

وحين أشاروا عليه أن يستبقي معاوية بعض الوقت والياً على الشام ريثما تقرّ الأمور وتهـدأ الفتنة . صاح في مُشيريه قائلا :

« أتأمرونني أن أطلب النصرَ بالجوْر ..؟ لا والله ، لن يراني الله مُتَّخِذَ المُضلّين عَضُدا » ..!!

هذا . هو الرجل الذي ربّى « الحسَن ، والحسين » اللذيْن خاضا معـه ، وخاضا من بعده معارك الحـق . في سبيل أن يبقى الدين ديناً ..

هـذا هو الأب الذي أنجب أبطـالَ كَربلاء . الذين سنرى الآن مـن بُطولتهم عجباً ..

وهذا : هو بيت آل النبي .. بين القرابين والشهداء !!

لقد نزل الوحي يوماً بهـذه الآية الكريمة :

(إنما يريدُ الله لِيُذهب عنكُم الرجسَ أهل البيت، ويُطَهِّرَكم تَطهـيراً) ..

ومن فوره . دعا الرسول إليه « علياً ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين » حيث دثّرهم بردائه. وضمّهم بحنانه. وراح يقول فيحبور عظيم : «هؤلاء أهل بيتي» ..

أفكانت الدنيا بكل إغرائها وبَذَخِها وغرورها . هي الرِّجس الذي أذهبه الله عن آل هذا البيت الكريم ، فحالَ بينهم وبينهـا ببحارٍ من دمائهم الزكيّة ، وجبال من تضحياتهم الشاهقة الفتيّة ...؟؟!

الفصل الثاني

النبوة، لا الملك

.. والآن نقترب من جوهر القضية التي نذَر « الإمام علي » لها حياته، حتى قضى في سبيلها شهيداً .

والتي وهبها الحياة كذلك، أبناؤه من بعده، حتى قضَوْا في سبيلها شهداء . لا سيما ذلك البطل الممجَّد الشهيد « أبو عبد الله الحسين بن علي » ..

لقد كشف تمرد معاوية، ورفضه مبايعة « الإمام علي » عن جوهر النضال الذي تحتَّم على الإمام أن ينهض بأعبائه .

وكان السؤال الذي يفرض نفسه يومئذ على المجتمع الإسلامي كله، هو ذا :

ـ لمن يجب أن تكون الغلَبَة ويكون البقاء ..؟

للنبوَّة بكل هَدْيها، وورعها، وجلالها الذي سوَّاه في أحسن تقويم وحيُ الله ومنهج رسوله ..

أم للمُلك بكل مباذِخه ومباذله وتَسلطه الذي باتت ترهص به على نطاق واسع أطماع الأمويين ..؟؟

لقد كان أخشى ما يخشاهُ « الإمام » أن تقوم في الإسلام ـ دولة الطُّلَقاء ـ ..!!

والطلقاءُ، هم أولئك الذين أسلموا يوم فتح مكة راغبين أو راهبين ..

وبعض هؤلاء، حَسُن إسلامه وصفا يقينه ..

وبعضهم بقي تحت جوانحه إلى الجاهلية حَنين ..

وكانت الدولة المسلمة يومذاك ، وبعد أن فُتحت الدنيا لها وعليها . بحاجة ماسة إلى حاكم من ذلك الطراز الربّاني •• بحاجة إلى واحد من أولئك الرجال الذين يمثلون فضائل أيام الوحي وعصر النبوة ••

ولم يكن « الإمام علي » يومئذ الرجل الأفضل والأمْثَل فحسب ، بل كان الرجل الأوحد الذي تتمثل فيه وتهيب به كل حاجات دينه وأمته •

وكان الخروج عليه يومذاك يشكل خروجاً أكيداً على عصر النبوة بكل ما يمثله من هُدى وعدالة ونور •

ولقد كانت بصيرة الإمام من النفاذ والصدق بحيث أبصرَت أبعاد المصير إذا استقرَّ السلطان في أيدي الأمويين فلقد يهون الأمر ، لو بدأ النكوص بمعاوية، وانتهى به •• غير أن « الإمام » كان يرى ببصيرته الصادقة أن الانحراف إذا بدأ . فلن يُؤذِن بانتهاء ••

وكان يرى أن الأمويين إذا أفلحوا في تثبيت ملكهم المنشود ، فسيتحوَّل التراث الجليل الذي تركه الرسول إلى مُلك عَضوضٍ ودنيا جامحة ••

ومِن ثمّ صار دَحْض هذه المحاولة التعسة واجب المؤمنين كافّة •

وهذه كلمات أبي سفيان التي يجترّ بها نوايا أسرته وقومه ، لا تدع مجالاً للشك في أطماعهم وما يبتغون ••

فهو يوصي أهله وذويه قائلا : « لقد صار الأمر إليكم فلا تدعوه يُفلِت ، وتلقّفوه كالكُرة •• فإنما هو الملك ولا أدري ما جنّة ولا نار » ••!!

وهو يمرّ بقبر « حمزة عم الرسول » فيستعيد ذكرى الأيام الماضية ويقول «ياأبا عمارة إن الأمر الذي اجتلدْنا عليه بالسيوف قد صار إلى غلمان بني أمية»••!!

وهو حتى من قديم ، لم يكن يرى في الإسلام إلا مُلْكاً •• فيوم فتح مكة ، وقد صحبه العباس عمّ النبي إلى الرسول ليُسلم ، وينجو بحياته ، نظر إلى الكتائب اللجِبة العارمة تحمل رايات الإسلام ، فإذا به ينظر إلى « العباس »

ويقول : « لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً »•• فيجيبه « العباس » رضي الله عنه :

« يا أبا سفيان •• إنها النبوّة ، لا المُلك » ••

أجل •• هذا هو الفارق الكبير بين تفكير بني هاشم وتفكير بني أميــة ••

فبنو هاشم يرون الدين على حقيقته • نُبوّةً ، وهُدى ، ونورا ••

وبنو أمية يرونه من خلال أمانيّهم وأطماعهم•مُلْكاً ، وتسلُّطاً،وسيادة••!!

وإن « الإمام علياً » لم يُخدع إذن عن جوهر الموقف الذي اتخذه معــاوية حين رفض بيعة الإمام ، ولم يُخدع عن عواقب هــذا الموقف إذا تركه المسلمون يستشري ويتفــاقم •

وإذا كانت مقاومة هــذا الجنوح الخطير واجب المؤمنين •• فمَن أوْلى المؤمنين بهــذا ••؟

إنهم آل بيت النبي •• أهــل التقوى ، وأهــل التضحية ••!!

وهكذا شرع موكب التضحيات في مَسيرة عالية ، كلها قِمم ومُرتفعات •• مُستهلاً بأشرف تلكم القمم وأعلاها •• حياة الإمام الرشيد الشهيد « علي بن أبي طالب » رضي الله عنه وأرضاه ••

ثم بحياة الشهيد المجدّد والعظيم « أبي عبد الله الحسين بن علي » ومعــه عشرات من إخوانه ، وأهل بيته وصحبه ، في يوم يجعل الوِلْدانَ شيباً ••!!

* * *

وهكذا ، لم تكن « كَربلاء » مَلْحمةً ذات فصل واحد ، بدأ وانتهى يوم العاشر من المحــرم ••

بل كانت ذات فصول كثيرة • بدأت قبل كربلاء بسنوات طوال•• واستمرت بعــد كربلاء دهراً طويلا ••!!!

أجَل •• لقد بدأت ملحمة كربلاء ومأساتها ، يوم تمّت خُدعة التحكيم ، وحين وقع التمرد الرهيب والفتنة العمياء في صفوف أتباع الإمام ، ثم حين خــلا الجوّ لراية الأمويين داخل الشام ، وخارج الشام ••!!

ولكأنمّا كان « الإمام علي » يرى ببصيرته الثاقبة كل ذلك المصير ..!

فذات يوم أثناء مسيره مع جيشه إلى « صِفّين » بلغ به السير هذه الرقعة من الأرض ، فتمهّل في سيره ثم وقف يتملّى مشهد الفضاء الرهيب . وسالت عبراته من مآقيه . واقترب منه أصحابه صامتين واجِمين . لا يدرون ماذا أسال من مُقْلتي الأسد الدموع ..!!

ثم سألهم ويُمناه مستدة صوب تلك الأرض التي تعلقت بها عيناه :

ـ ما اسم هذا المكان ؟

قالوا : كربلاء .

قال : « هُنا محَطّ رحالهم ومُهْراق دمائهم » ..!!!

واستأنف سيره مع المقادير ..

تُرى مَن كان يعني .. ومَن كان ينْعى ..؟؟ أكان يعني قُرّة عينه « الحسين » ومَن معه من إخوة له وأبناء ..؟؟

أكان يعني أولئك الأبطال الذين ستشهد هذه الأرض ذاتها استشهادهم الرهيب والمَهيب بعد عشرين عاماً لا غير من هذه النبوءة الصادقة ..؟

رُبما ...

ورُبما لم يَكن إلهامه ولم تكن بصيرته يومئذ معلّقَيْن بواحد بذاته من أهل بيته المباركين .

فهو على أية حال يدرك تماماً أن المعركة التي بدأها من أجل الحق لن تنتهي..

ويدرك أنه لَن يصبر أحد من بعده على لأوائها وضراوتها مثلما سيصبر أبناؤه الذين ورثوا البطولة كابراً عن كابر ..!

وحين يحتدم في البصائر النقيّة وَلاؤها لحق مقدس ، أو لمبدأ جليل .

فإن هذا الاحتدام يتلقى في لحظة إشراق روحيٍّ مدداً من الرؤية غير منظور . يكشف الغيب ويجذب إلى دائرة الاستشراف أحداث الزمن البعيد ..!!

ولعلّ شيئاً كهذا ، حدث ذلك اليوم ، فرأى الإمامُ التقيّ النّقي بلاء

أبنائه وحفدته . رأى بلاءهم العظيم في سبيل القضية التي حمل لواءها . ورأى « محَطِّ رحالهم ، ومُهراق دمائهم » ..!

* * *

القضية إذن ، كانت كما قلنا ، قضية « النبوة » لا « المُلْك » ..

النبوة بكل تألُّقاتها الورِعَة وموازينها العادلة .. لا المُلْك الذي يريد نفر من الأمويين أن يردّوا به وثنية الجاهلية في أثواب تنكّرية ..!!

والذين يدرسون معارك « الجمَل ، وصِفّين ، وكَربَلاء » خارج هذه الدائرة ، لا يأمنون عِثار تفكيرهم ، وزَيْغ أحكامهم .

ولقد رأينا كثيرين ممن تحدثوا عن « كَربَلاء » يُحمّلون « الحسين » مسئولية مصيره ، ومصير الذين خرجوا معه ..!!

و « الحسين » رضي الله عنه ، يتحمل في شجاعة وغبطة مسئولية ذلك المصير ، ولكن ليس بالمعنى الذي يقصده هؤلاء ..

فهم يرون أنه خرج تلبية لدعوة ثوار الكوفة إياه ، باعتبار هذه الدعوة فرصة رآها سانحةً لاسترداد الخلافة من بيت معاوية إلى بيت الإمام ..

وهم يلومونه ، أو يكادون ؛ لأنه لم يُصغ لِنصْح الناصحين من عشيرته الأقربين ؛ كي يبقى مكانه في البلد الحرام « مكة » نافضاً يديه من مشاكل الموقف الكالح الذي نتج عن استخلاف يزيد ..

فهل كان ذلك كذلك ..؟؟

أبداً ..

وإن الأمر لمختلِفٌ جداً ..

فالقضية في ضمير « الحسين » لم تكن قضيةَ فرصةٍ سنحت .. ولا هي قضية حق شخصيّ في الخلافة يبتغي استرداده .. ولا هي من القضايا التي يكون للإنسان الرشيد حق التخلي عنها ..!

القضية في ضمير التقيِّ الشجاع ، كانت قضيةَ دين .. ويستوي عنده تخلّيه عن هذه القضية ، وتخليه عن هذا الدين ..!

صحيح أن « الشكل الخارجي » للقضية تمثّل يومها في استخلاف يزيد .. لكنّ « جوهرها » الصحيح كان واضحاً أمام وعي « الحسين » ورُشْده ونور بصيرته — تماماً كما كان واضحاً من قبل أمام وعي أبيه الإمام ، وأمام رُشده وبصيرته .. ! !

واستخلافُ يزيد على هَوانه ، لا ينفي عن القضية موضوعيتها العميقة ، ولا يقلل من تبعة النهوض بها ، بل هو يزيد من إلْحاح هذه التبعات .

فـ « يزيد » هذا ، لا يمتلك ذرّة من الصلاحية التي تؤهله لأن يجلس من الأمة المسلمة حيث كان يجلس من قبل « أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي » ..!!

لقد كانت خلافةُ واحد من طرازه أدهى كارثة تنزل بالدولة وبالأمة .

لا سيما ، وهو يُستخلَف في عصر لا تفصله عن عصر النبوة والوحي سوى سنوات معدودات .. وفي جيلٍ لا يزال يحيا فيه رجال شامخون أبرار من أصحاب رسول الله أمثال « عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، والحسَن ، والحسين ، وعبد الله بن الزبَيْر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وأبي الدَّرداء ، وقيس بن سعد بن عبادة » ..!!!

ولئن كان هناك من خِيار الصحابة والمسلمين من سكَن لهذا الوضع الأليم بعد وقوعه ، فإنهم لم يفعلوا عن رِضاً واقتناع ، بل عن رغبة في تجنيب المسلمين مزيداً من الحروب والآلام والدماء — الأمر الذي لم يتردّد « الحسَن » نفسه عن النهوض به — من قبل — حين تنازل عن حقه في الخلافة لمعاوية ، على النحو الذي سنراه عما قريب ..

ولو أن معاوية وفَّى بالعهد الذي أبرمه مع « الحسن » أمام المسلمين كافّة ، فترك الأمر من بعده لمشورة الناس واختيار الأمّة ، لتغيَّر موقف « الحسين » ولتغير بالتالي مجرى الأحداث .

* * *

إننا الآن نستطيع أن نبصر عدالة القضيّة التي ناضل دونها الإمام وأبناؤه ، أكثر مما كان مُتاحاً لمعاصريها .. فهم كانوا ينظرون إليها من خلال حدْسِهم وتقديرهم لاحتمالات المستقبل حين يستقر الأمر لبيت أبي سفيان ، وحين تنتهي إلى أيدي أبنائه مصاير الإسلام والمسلمين .

أما نحن اليوم ، فالأمر بالنسبة لنا ليس أمر حدْس أو احتمال ..

إنَّ ما كان حَدْساً بالأمس ، قد صار حقيقة ..

وما كان احتمالاً وظناً ، أصبح واقعاً وتاريخاً ..

فها هو ذا معاوية ، لا يكتفي باغتصابه الخلافة ، ثم لا يرغب وهو على وَشْك لقاء ربه في التكفير عن خطئه ، تاركاً أمر المسلمين للمسلمين .. بل يُمعن في تحويل الإسلام إلى مُلْك عضوض وإلى مزرعة أموية ...!!

فيأخذ البيعة ليزيد كولي عهدٍ له .. يأخذها بالذهب ، وبالسيف ..

ثم ها هو يزيد يتربع على عرش أبيه بعد وفاته ، فيهمل أمر المسلمين،ويعكف على اللهو بفُهوده وقُروده حتى يلقَّب بـ « يزيد القرود » ...!!

ثم يسلط من قواده ورجاله مَن يُنزلون بالعباد والبلاد من الهول ما يخجل الشيطان نفسه من اقترافه ...!!

فابن زياد ، في الكوفة والبصرة ، يحزّ رأس كل من تُسوِّل له نفسه أن يقول : لِمَ ...؟

ثم يقتل أبناء الرسول وأحفاده وآل بيته في كربلاء قتلاً تناهى في البشاعة والرِّجْس ..

ومسلم بن عقبة ، مبعوث يزيد إلى المدينة المنورة دار الهجرة ووطن الأنصار وعاصمة الإسلام، يصنع بها وبأهلها من الوحشية والجريمة ما يتعاظَم كل وصف..

وحتى مكة بمسجدها الحرام ، يُرسل إليها « يزيد القرود » مَن يستبيحها ، ويستبيح مسجدها الحرام .

ثم حين يختفي بيت أبي سفيان بموت يزيد . ويسطو على الخلافة بيت مروان ، وهو شعبة أخرى ، وامتداد آخر للأمويين .. يظهر الحجّاج لينشر الخراب والدمار والقتل في كل مكان باسم الأمويين ، وفي سبيل دعْم ملكهم ووثنيتهم ..

هذه الأهوال كلها ، والتي نراها نحن اليوم بعد وقوعها . كان الإمام عليّ يُحسُّها ببصيرته قبل وقوعها ..

كان بإلْهامه الصادق يرى كل ذلك المصير ، فقام قومته ليمنع الكارثة قبل نزولها ..!!!

وقام من بعده ابنه العظيم «الحسين» ليمنع امتداد الكارثة واستمرارها..!!

وهكذا نرى أن معركتهم الجليلة الباسلة . لم تكن معركة حق شخصي في الخلافة ..

ولا معركة ثأر جاهلي قديم ...

* * *

إن الذي أدركه الإمام .. قبل وقوعه ، فنهض يتحاماه ، كان يدركه معه أولئك الذين وقفوا في صفه . وصمدوا معه إلى النهاية في إخلاص مَكين .

أدركه الصحابي الجليل « عمّار بن ياسر » الذي قال عنه الرسول : « اهتدوا بِهدْيِ عمّار » ..

والذي قال عنه أيضاً : « تَقتل عماراً الفِئة الباغية » ..

والذي أجمع الصحابة بلا استثناء ، وفيهم معاوية ذاته على فضله وورعِه وصدق نهجه وعظمة روحه .

أدرك « عمّار » نفس المصير . وآمن بذات القضية ، فصمَّم على الخروج للقتال مع « الإمام علي » .. مع أنه يومئذ كان قد جاوز التسعين من عمره .

إنه لم يجد عملا أفضل من ذلك العمل ، يختم به حياته المجيدة ، فراح

يصول ويقاتل، ملخّصاً إيمانه بقداسة القضية التي رفع « الإمام » لواءها في هـذه الكلمات المضيئة الثائرة : —

« أيها الناس !!

سيروا بنا نحو هؤلاء القوم الذين يزعمون أنهم يثأرون لعثمان ،
ووالله ما قصْدهم الأخذ بثأره، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستمرأوها،
وعلموا أن الحق يحول بينهم وبين ما يتمرّغون فيه من شهواتهم
ودنيـاهم ..

وما كان لهؤلاء سابقة في الإسلام يستحقون بهـا طاعة المسلمين
أو الولاية عليهم ..

ألا إنهم ليخادعون الناس بزعمهم أنهم يثأرون لدم عثمان ..
وما يريدون إلا أن يكونوا جبابرة وملوكاً ..!!

والذي نفسي بيده، لقد قاتلت بهـذه الراية مع رسول الله ﷺ
وها أنذا أقاتل بهـا اليوم ..!!

والذي نفسي بيده، لو هزَموتا حتى يبلغوا بنا سَعَفات هَجَر ،
ما وهَن يقيني بأننا على الحق وأنهم على الباطل » ..!!

إنها قضية تفوّقتْ بعدالتها وبقداستها حتى على النصر ذاته ..!

فلم يعد النصر مزيّة لها .. كما لن تكون الهزيمة إزْراءً بها ..!

هكذا عاشت في ضمائر أهلها وشهدائها .. كما عبّر وصوّر .. عمّار بن ياسر .. في كلماته السالفة :

« والذي نفسي بيده، لو هزموتا حتى يبلغوا بنا سَعفات هَجَر ،
ما وهَنَ يقيني بأننا على الحق وأنهم على الباطل » ..

* * *

وإذا كان للحديث بقيّة تزيدنا إدراكاً لقداسة القضية التي ذهب «الحسين» شهيداً لها، كما ذهب أبوه « الإمام » من قبل شهيدها..وكما ذهبت معهما ثلّة

مباركة طاهـرة من صفوة المؤمنين والأصحاب ، فلتكن هـذه البقية شهادةَ شاهدٍ من أهلهـا ..!!

وهذا الشاهد هو : « معاوية بن يزيد » ثالث خلفاء بني أمية .

فقبل أن يموت ـ يزيد ـ في العام الرابع والستين للهجرة ، خلَع الخلافة ، أو بتعبير أصحّ خلَع المُلك على أكبر أبنـائه ـ معـاوية ـ الذي عُرف باسم « معـاوية الثـاني » :

وكان « معاوية » هـذا ، شاباً تقياً ، ورعاً ، عابداً ..

وسبحان من يُخرج الحيَّ من الميّت ، والهُدى من الضلال ..!

وعلى الرغم من أنه تسلّم الملك شاباً لم يجـاوز الخامسة والعشرين ، فإن تقوى روحه ، كانت أقوى من إغراء شبابه ، فلم يلبث في منصبه إلا بضعة أشهر حتى ضاق به ، ودعا المسلمين إلى مؤتمر مشهود ، ونهض يخطب الجمع الحاشد فقال :

« أيهـا الناس !!

إن جَدّي معاوية ، نازع الأمر أهلَه ، ومَن هو أحـق به منه لقرابته من رسول الله وسابقته في الإسلام ، وهو : علي بن أبي طالب ...

ولقـد ركب بكم ما تعلمون حتى أتته منيته ، فصار في قبـره رهين أعمـاله ..

ثم تقلد أبي ـ يزيد ـ الأمر من بعده ، فكان غيرَ أهل لـه .. ركِب هواه ، وأخلَفه الأمل .. وقصرَ به الأجـل ، ثم صار في قبره رهين ذنبه ، وأسير جُرمه ..!!

وإن من أعظم الأمور علينا عِلمنا بسوء مُنقلَبه ، وقد قتل عِترة رسول الله ، وأباحَ الحرم ، وخرّب الكعبة ...!!

وما أنا بالمتقلّد أمرَكم ، ولا بالمتحمّل تبعاتكم فاختاروا لأنفسكم ..

والله ، لئن كانت الدنيا خيراً فلقد نِلنا منها حظاً .. ولئن كانت شراً ، فكفى ذرية أبي سفيان ما أصابوا ..

ألا فليُصلِّ بالناس حسّان بن مالك ، وشاوروا في خلافتكم ، يرحمكم الله » ..!!!

ثم غـادر منبره إلى داره . ولبث بها عاكفاً على عبادة الله ، حتى لقيـه راضياً مَرضياً ..

إن هـذه الكلمات التي قالها « معـاوية الثاني » ابن ـ يزيد ـ وحفيد ـ معاوية بن أبي سفيان ـ لتشكّل برهاناً باهراً على عدالة القضية التي هي في غنى عن كل برهـان ..

وهـذا الشابّ الصالح الذي أثقلت ضميره الحرَّ أوزارُ آبائه . قـدَّم بموقفه ذاك .. أو بالأحرى قـدَّم القدَرُ به وبموقفه ، وثيقة الإدانة كاملة وصادقة لأولئك الذين وقفوا من الإمام . ومن أبنائه ، ومن القضية التي حملوا مشعلها . مواقف الكيد والعـداء .

وإننا اليوم . وبعد مضي ما يقرب من أربعة عشرَ قرناً على ذلك الصراع ، لَنجدُ حرارة الصدق ووضوح الحق في موقفْ « الإمام علي » من « معاوية ».. ثم في موقف « الحسين » من يزيد ..

إننا نتصور عصر النبوة ، كما كان في عهد منشـِئه وبانيه «محمد رسول الله» صلى الله عليه وسلم .

ثم نتصوره كما كان في عهد خليفتيه النادريْن الباهريْن « أبي بكـر ، وعمر » . فنرى جلالاً يسحر القلوب والألباب .!! ويأخذنا الأسى ونحن نرى بعضَ الغواشي تغشى ذلك الجلال في عهد « عثمان » لا بسبب قصور في صلاحه وتقواه .. بل بسبب ذلك النفَر من الأمويين الذين أساءوا استغلال سلطانهم .. وكذلك بسبب عوامل تاريخية كان لهـا دورها المسئول [1] .

ثم تُشرق الآمال في عودة ذلك الجلال لمطالعه العظيمة ، وتألقاته الباهرة ؛

---

(١) راجع كتابنا « وداعاً . عثمان » ..

حين يُلقى عبءُ الخلافة على سليل بني هاشم ، وتلميذ الرسول ، وبطل الإسلام « عـلي » ٠!!

ذلك أنه ــ كما تُطالعنا سيرته ــ كان رغـم كل الفتن التي سبقت خلافته وصاحَبَتها ، قادراً على إرجاع السيادة لفضائل عصر النبوة ٠

فدينهُ ، وورعُه ، وزُهـده ، وعِلمه ، وإخلاصه ، وإخباتُ روحـه ، واقتدار عزمـه ٠٠٠

كل ذلك ــ وكم كانت حظوظه منه وافية ــ هيأه بفضل الله ونعمته ، ليكون في تلك الأيام التي تلقى فيها أعباء الخلافة ، الرجل الذي ينتظره زمانه ، ومكانه٠٠ وتنتظره المناسبة على فاقةٍ إليه وشوق ٠٠!!!

أجل ٠٠٠ لقـد كان بشخصيته وبسلوكه وبأخلاقه وبضميره وبدينه ، من أقدر العالمين على تجسيد عصر النبوة ٠٠ بكل قِيَمه السامية وفضائله العالية ٠٠

فهو رجل ورعٍ من أرفع طراز يدخل الكوفة بعد استخلافه ، فيرفض أن يسكن قصر الإمارة الباذخ ويقول : « إنه فتنة » ٠٠ ثم يأوي إلى بيت من طوب نيِءٍ يشبه أكواخ الفقراء ٠٠!! ويعمَد إلى بيت المال فيخرج ما فيه ويوزعه على مستحقيه ٠ ثم ينضحه بالمـاء ٠٠ ثم يُصلّي فيه لله رب العالمين إيذاناً بأن المـال في عصره لن يكون فتنة ٠٠ بل سيكون رحمة !!!

* * *

ورجلُ صدق وشرف من أرفع طراز ــ يقولون له إن معاوية يتألف القبائل والجماعات بالمال ٠ فأعط الناس كما يعطي ٠٠ ؛ فيقسم أنه لن يرشوَ في الحـق أحـداً ٠٠ لن يعطي مالَ الله الذي ائتمنه عليه لغير من يستحقه ٠٠!! ثم يرجونه ويُلحّون عليه أن يدَع الولاة الأمويين في أماكنهم حتى يُبايعوه وحتى تستقر خلافته وعهـده ٠ فيرفض ويقول :

« لا والله ، لا أدَعُ الله يسألني : لماذا أبقيتهم وهم غير أهلٍ لهـا ساعةً من نهـار » ٠٠٠!!؟

* * *

ورجل ديمقراطية وشورى من أرفع طراز ــ يخضع لرأي الأغلبية في موضوع التحكيم ، وهو يؤمن أعمق إيمان بأنه خدعة ستتلوها الكارثة .. ولقد حاول إقناع الذين معه بكل ما أوتي من بلاغة وصدق . ولكن دون جــدوى .. وعلى الرغم من أنه آنئذ كان في حرب قائمة بالفعل مما قد يعطيه الحق في أن يمضي مع اقتناعه . إلا أنه انحنى في جلال وعظمة لحق الشورى ورأي الجماعة ...!!

ويتكرر نفس الموقف حين جرى الحوار لاختيار من يمثلهم في التحكيم ؛ فلقد نادى قوم باختيار « أبي موسى الأشعري » وراح الإمام يفنّد اتجاهاتهم ، ويدعوهم لاختيار « عبد الله بن عباس » أقدر الناس على مواجهة الداهية « عمرو ابن العاص » الذي سيمثل معاوية في التحكيم ، ولكنهم أصرّوا ، وكانوا أغلبية . فتخلّى عن رأيه لرأيهم ...

* * *

ورجلُ عدالة ورحمة من أرفع طراز لقد كان في أمسِّ الحاجة إلى مؤازرة وُلاته في موقفه العسير .. وكان ذلك يقتضيه الملاينة في محاسبتهم .. لكنــه يرفض دائماً أن يطلب النصر بالجوْر .!!!

ومِن الجوْر عنــده أن يتغافل عن أيــة هفوة من وُلاته ، وهكذا راح يحاسبهم بعدالة صارمة ، حتى خسر نُصرة الكثيرين منهم دون أن يُلقي لهــذه الخسارة بالاً ...!!

وأي صورة للعدالة وللرحمة يمكن أن يرقى إليها حاكم كهذه الصورة التي يتجلى فيها « ابن أبي طالب » ودماؤه تنزِف وأجَلُه يسرع ، وقد جيء إليــه بقاتله ، فلا يشغل باله ولا يؤرّق حياته في لحظات وداعها سوى مصير قاتله .. وحين يقدر على الكلام تنفرج شفتاه عن هــذه الكلمات :

« يا بني عبد المطلب !!

لا ألفينّكم تخوضون في دمــاء المسلمين خوضاً ، تقــولون : قُتِــل أمــير المؤمنين ..

أحسنوا نزله .. يعني قاتله .. فإن أعش ؛ فأنا أولى بدمه
قصاصاً أو عفواً .. وإن أمُتْ ؛ فاضربوه ضربة بضربة ..
ولا تمثلوا بالرجل ؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : إياكم
والمثلة ، ولو بالكلب العقور » ..!!!

* * *

ورجلٌ نسك من أرفع طراز ، غزير الدمعة من خشية الله ، دائم الإخبات لله .. يلبس أخشن الثياب ، ويأكل أجشب الطعام .. ويحيا بين الناس كواحد منهم ..

وكان نسكه كخليفة يتمّم نسكه كعابد ، فكان يأبى إلا مشاركة الناس في كل ما ينزل بهم من ضرّ وشظف..ويخص نفسه منذلك بالنصيب الأوفى..!!

ولقد لخص لنا نسك خلافته وإمارته في هذه الكلمات :

« أأقنع من نفسي بأن يقال أمير المؤمنين ، ثم لا أشارك المؤمنين
في مكاره الزمان ..!!؟
والله ، لو شئتُ لكان لي من صفوِ هذا العسل ، ولباب هذا
البُرّ ، ومناعِم هذه الثياب ..
ولكن ، هيهات أن يغلبني الهوى ؛ فأبيت مبطاناً وحولي بطون
غرثى ، وأكبادٌ حرّى » ..!!!

* * *

هذه الومضة من حياته ومن عظمة منهجه وسلوكه ، تصور على نحو متواضع ، القضية التي نهض يقاتل من أجلها .. قضية استمرار عصر النبوة بكل فضائله ومزاياه ؛ وإنها لقضية جديرة بولاءٍ لا ينتهي ، وتضحيات لا تفنى .. وهي لم تكن بالنسبة للإمام « عليٍّ » قضية خاصة ، ولا قضية شخصية . بل هي قضية الإسلام كله ، وقضية كل مؤمن أوّاب .

وإذا كانت الأقدار ستؤثره وأبناءه من بعده ، بأن يكونوا أعظم شهدائها وأشرف قرابينها ؛ فلتكن مشيئة الله ..

إن هناك من يموتون من أجل الباطل . ومن يموتون في سبيل الحق ؛ فما مزية الحق على الباطل في مجال التضحية والفداء ..؟؟

مزيته أن ضحاياه شريفة ورفيعة وغالية .. بينما ضحايا الباطل صغيرة دنيئة مُحقَّرة ..!!

فليكن هو وأبناؤه شرفاً للحق في مماتهم واستشهادهم ، كما كانوا شرفاً له في مَحياهم ..!!

وهكذا كان من الصعب عليه ، بل من المستحيل أن يترك قضية الإسلام للأهواء التي هبَّت عليه جائحة ، جامحة .

كانت « المُهادنة » مستحيلة ..

وكانت « المُسايرة » أكثرَ استحالة ..

ولم يكن أمامه سوى أن يحمل سيفه وكفَنَه ، ثم يمضي ..

فللمسئوليات العظام خُلِق .. وللتضحيات يعيش ..

وإنه لسليلُ بيت ، كانت العظمة دِثاره ، حتى في الجاهلية وقبل الإسلام ..

وإنه لتلميذُ دينٍ نشأ ، ونما ، بين أروع التضحيات وأشرفها وأسماها ..

إنه لَحواريّ رسولٍ جعل صلاته ، ونسكه ، ومحياهُ ومماته لله رب العالمين ..

فأين يذهب من هذا كله ..؟؟

وأين يذهب منه أبناؤه الذين ربَّاهم على نهجه ، وغذَّاهم بفدائيته ..؟؟ .

وماذا ينتظره وينتظرهم من أخطار ..؟؟

الموت ..؟ القتل ..؟ الشهادة ..؟

ليأت الموت ، وليأت القتل ، ولتأت الشهادة .!!!

ليجيء ذلك كله مرة ، وعشراً ، وألفاً .. فذلك دَورهم في الحياة : أن يعلِّموا الناس في جيلهم وفي كل الأجيال، أنّ الوقوف إلى جانب الحق، والتضحية

المستمرة في سبيله هما أصدق مظهر لشرف الإنسان وقداسة الإنسان !!....

أليسوا آل بيت الرسول الذي قال :

« والذي نفسي بيده ، لوددت أن أقتل في سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ، ثم أحيا ، ثم أقتل » ..!!

بلى .. إنهم أهله وأبناؤه ..

ولقد حملوا مصايرهم فوق أكفهم، ومضوا إلى مسئولياتهم في حبور..!!

لم يكن هناك ما يزعجهم ، سوى أن الحرب التي يخوضونها مضطرين ليست من نوع تلك الحروب التي كانوا لا يلاقون فيها سوى جيوش الوثنية والشرك . فيفلُّون سلاحها ويسوُّون أقدارها بالتراب ...!!

ورغم ضراوة الظروف التي فرضت عليهم القتال ، ورغم إلحاحها الدائب ، فإن إيمانهم بأهمية السلام لم يعدم من يجسده من آل البيت ، فيقدم في سبيل حقن الدماء تضحية أخرى عظيمة ..!!!

ذلكم ، هو « الحسن بن علي » رضي الله عنه وأرضاه .

فإلى الكوفة .. لنشهد موقفه ، ونقفو خطاه ..



الفصل الثالث

السيد، يفرض السلام

عندما كان « الإمام علي » يجود بروحه الطاهرة على أثر ضربة غادرة تلقاها من مُغتال أثيم ، سأله بعض أصحابه أن يستخلف مَن يختار من أبنائه وأهله فأبى .. ودعاهم أن يختار الناس بعد موته مَن يُحبون ويرتضون .

أجل .. لم يوصِ لأحد من أبنائه بالخلافة ، فقد كانت هناك وصية أخرى تشغل باله ، ويدّخرها لهم . فدعا إليه « الحسن والحسين » وقال لهما :

« أوصيكما بتقوى الله ..

ولا تبْغيا الدنيا ، وإن بغَتْكما .. ولا تأسَفا على شيء منها زُوِيَ عنكما ..

افعلا الخير ..

وكونا للظالم خصماً ، وللمظلوم عوناً » ..!!!

كلمات جديرة بصاحبها ، ووصيةٌ جديرة بموصيها ..!!

* * *

وتلفّت الناس حولهم ، فوقعت أعينهم وقلوبهم جميعاً على رجل واحد بسطوا إليه أيمانهم مُبايعين .. كان ذلك الرجل الكريم « الحسن بن علي » ، الذي كان أكبر أبناء الإمام الشهيد .

وتلقى « الحسن » البيعة على أثر فراغه من الصلاة على أبيه ودفنه .

تلقاها كارهاً دون أن يتركوا له حق الخيار والاعتذار . إذ قام « قيس بن

سعد بن عبـادة » بطل الأنصار ، والإسلام . فبايع « الحسن » ، حيث تقدمت على أثره الجموع الحاشدة ، ثم الجموع الوافدة ..

ولم يكد الأمر يستقر للحسن .. ولكن لا .. فإن الأمور يومئذ كانت أبعد ما تكون عن الاستقرار !!

ولقد كانت حلكة الأحداث تجعل من قبوله البيعة ؛ فالخلافة ، تضحية من أكبر التضحيات .

ولعل شيئاً ما ، لم يُعِن « الحسن » على تقبلها مثلما أعانه ذلك الأمـر الذي وقر في صدره منذ يفاعته وشبابه .

ذلكم هو حبـه الوثيق للسلام ، ونبوءة الرسول له منذ طفولته بأن الله سيحقن به دماء المسلمين في يوم من الأيام .. إن أصحاب رسول الله يذكرون ذلك اليوم الذي صعد فيه الرسول منبره ، وقد صحب معه حفيده « الحسن » وكان طفلا يحبو . حيث أجلسه إلى جواره ، وضمه إليه ، وقال :

« إن ابني هـذا سيد ..

وعسى الله أن يصلح به بين طائفتين من المسلمين » .

والآن ، يجيء الأوان المناسب ــ أوفى ما تكون المناسبة ــ لتحقيق هـذه النبوءة الصادقة .!!

وها هو ذا أمير المؤمنين « الحسن بن علي » يواجه الموقف بتقديرين :

أحدهما نابع من طبيعته وشمائله ..

وثانيهما ، منبعث من ظروف المعركة وآثارها ..

فأما عن الأول ؛ فقد كان الحسن بطبيعته يؤثر السلام على الحرب . وكان يألف الأناة . ويختار في معالجة المشكلات أقربَ الحلول من السكينة والقصد..

* وعلى سبيل المثال ، نراه حين حوصِرت المدينة في عهد الخليفة « عثمان » وحوصرت دار الخليفة نفسها ، واستنفد الإمام « علي » طاقته وجهده في إطفـاء

الفتنة دون جدوى . يتقدم هو لأبيه الإمام برأيه في أن يُغادر الإمــام المدينة ؛ حتى لا يُقتل الخليفة وهو بها فيتخذها خصومه وحُسَّاده مــادة للتشويش حــوله ..!!

* وكذلك حين استشهد الخليفة « عثمان » وعرَض الثوار الخلافة على « الإمام علي » فرفضها ، ثم عرُضت على آخرين من الصحابة فلم يكــن أمامهم سوى الرفض تأسِّياً بِعليّ .. ثم زحفت الفوضى تهدد كل شيء ، فعاد الثوار إلى « علي » ومعهم قادة الصَحابة المسلمين يلحون عليه بقبولها فقبلها مُكرهاً...

يومئذ ، كان للحسن رأي آخر يتَّسق مع طبيعته ، فَحواه أن يرفض أبوه البيعة . حتى تأتيه بإجماع المسلمين من كافّة أقطار الدولة ..!!

ولقد كان يعلم أن البيعة تنعقــد شرعاً وعُرفاً بمن حضر الحرمَيْن مــن المهاجرين والأنصار . لكنه إمعاناً في نشدان السكينة وتجنّب الفتنة ، رأى أن يركب « الإمام » الصعب من الأمور ، وينتظر مهما تكن الظروف بيعــة جميع الأقــاليم ..

* ومثَل ثالث : موقفه حين خَرجت « السيدة عائشة » ومعها « طلحــة والزّبَيْر » إلى البصرة ، ليحرضوا أهلها ضد قتلة « عثمان » .

يومها رأى « الإمام علي » وقد أصبح بحكم خلافته مسئولا عن أمن الدولة وسلامة الأمة .. رأى أن يخرج وراء هذا الركب ليلوي زمامه عمَّا عساه يُثير حرباً أهلية ، ويشجع حكام الشام على التمرد والعصيان ..!

لكن « الحسن » استجابة لطبيعته المسالمة ، رأى أن يبقى أبوه بالمدينة ، بل وأن يعتكف في داره حتى تمر الفتنة بسلام ..!!

هذه المواقف الثلاثة تكشف عن طبيعة صاحبها ، وعن مدى تعلّقه بالأناة ، وإيثاره السلام .

وأما عن التقــدير الثاني ، الذي أزْجَتْه ظروف الحرب وآثارها ، فإن

الحرب التي خاضها « الإمام علي » كانت قد فجّرت من المشاكل والهموم ما يهدّ الجبال .

وكانت آثارها المرهقة ، قد أجهدت المجتمع والدولة كليهما .

وكان « الحسن » وهو يتلقّى البيعة بيمينه ، يرنّ في سمعه صدى كلمات أبيه الناقمة والآسفة التي وجهها في أخريات أيامه لأهل الكوفة الذين كانوا ــ وهم أنصاره ــ أشدّ إرهاقاً له من خصومه ..!!

« .. أما والله لودِدتُ أن الله أخرجني من بين أظهُركم ، وقبضني إلى رحمته من بينكم ..

فقد والله ملأتم صدري غيظاً ، وجرّعتموني الأمَرَّين أنفاساً ، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان ؛ حتى قالت قريش : إن ابن أبي طالب رجل شجاع ، ولكن لا عِلمَ له بالحرب ..

لله أبوهم !! هل كان فيهم أشدّ لها مراساً وأطول مُعاناةً مني..؟؟

لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين .. وها أنذا اليوم . وقد عدوتُ الستين .. ولكن ، لا رأيَ لمن لا يُطاع » ..!!!

كانت هذه الكلمات للإمام ، يُدوي في سمع « الحسنُ » صداها .. كما كانت تلحّ عليه في وضع نهاية للصراع الذي حاول أبوه أن يتحاماه دون جدوى.

ولكن ذلك لا يعني بحال . أنه آثر السلام وهو في « مركز ضعف » .. لا ، بل آثره وهو في «مركز قوة » مكين .

يقول « الحسن البصري » رضي الله عنه :

« استقبل والله الحسنُ بن علي معاوية بكتائب أمثال الجبال .

فقال عمرو بن العاص لمعاوية : إني لأرى كتائب ، لا تولّي حتى تقتل أقرانها ، فقال معاوية : إذا قتل هؤلاء أولئك ، فمن لي بأمور الناس » .

ورغم ما كان بأهل الكوفة من تفسّخ وتردّد ؛ فقد كان تحت تصرف

« الحسن » حين آثر السلام أربعون ألف مقاتل ، يُشكّلون جبهة واحدة ، قوية وصامدة .. تحت إمرة رجـل من أعظم رجال الإسلام وقوّاده ـ ذلكم هو : « قيس بن سعد بن عبادة » ..

ولقد كانوا مصممين على مواصلة الحرب ضد معاوية تصميماً حمل بعضهم على مُجابهة « الحسن » حـين رأوه يعتزم الصلح وإقرار السلام مجابهة قاسية وعنيفة رغم حبهم له وتوقيرهم إياه .

* * *

هو إذن لم يؤثر السلام على ضعف ولا عن عَجز .

ولم تكن الظروف العسيرة التي تسلم الخلافة فيها لتجاوز قدرها في كونها مجرد « موضوع » لتفكيره في السلام ..

أما « مصدر » تفكيره في السلام فكان طبيعته وخِصاله .

وهكذا قرر أن يعرِض ، بل أن يَفرِض السلام على معاوية ..

وقولنا « يفرض » السلام ، تعبير لا مُبالغة فيه ؛ فقـد تغلّب على ظروف كثيرة لكي يجعل السلام حقيقة ناجزة .

وحسبنا أن نعلم أن أخاه « الحسين » مضى شوطاً بعيداً في معارضته حتى قال له « الحسن » :

« لقد هممتُ أن أحتجزك في دار موصدة الأبواب ، ثم لا أدعُك تخرج حتى أنتهي مما أريد » ..!!

* * *

كان « معاوية » قد تحرك بجيشه من الشام قاصداً الكوفة . عندما عـلم باستشهاد الإمام واستخلاف الحسن ..

وكان الحسن . قد خرج على رأس جيشه للقـائه .

وإذْ هم في طريقهم إلى المدائن ، نهض بين صفوف جيشه وقال :

« إني قد أصبحتُ ، لا أحمل لمسلم ضغينة :
وإني ناظر إليكم ، نظري إلى نفسي ، وقد رأيت رأياً ، فلا تردّوا
عليَّ رأيي :
إن الذي تكرهون من الجماعة، أفضل مما تحبون من الفُرقة »..!!

وثار الجيش — كما ذكرنا من قبل — لكنه كان قد وطّد عزمه على حقن الدماء .

وكان معاوية من جانبه يتوق للسلام تَوْق الغريق إلى زورق النجاة ..

فأرسل مبعوثين إلى المدائن ، للتفاوض مع « الحسن » وكانا : عبد الرحمن ابن سَمُرة .. وعبد الله بن عامر .. أبلغهما « الحسن » شروطه التي لم يكد معاوية يسمع فيها بعد ، حتى تقبلها في غير تردّد أو تساؤل .

وتركزت شروط « الحسن » للصلح في هذه البنود الأربعة :

أولاً : أن ترجع الخلافة بعد معاوية إلى المسلمين حيث يختارون بمشيئتهم الحرة ، من يرونه أصلح لقيادتهم وأجدر .

ثانياً : ألاّ يؤخذ الذين ناصروه وناصروا أباه الإمام من قبل بما صنعوا ضد معاوية ، وألاّ يحرَم أحد منهم حقه وعطاءه ..

ثالثاً : أن يكف الأمويون عن حملة السِّباب واللعن التي يقترفونها ضد الإمام . ويشجعون عليها ..

رابعاً : أن يكون عطاؤه وعطاء أخيه « الحسين » وافراً وجزيلا . ولقد حدد بنفسه مقدار هذا العطاء ..

وإذا كان هناك من بين هذه الشروط ما قد يلتبس علينا أمره ، ويحتاج إلى مناقشة وتفسير ، فذلكم هو الشرط الرابع والأخير .

فلقد يبدو غريباً أن يَفرِط رجل مثل « الحسن » بن علي ، وحفيد الرسول في طلب عطاءٍ كثير له ولأخيه ..

ولكن ، كما يقال : إذا عُرِف السبب ، بَطل العجب ..

وحسبنا أن نعرف فيم كان ينفق « الحسَنان » أموالهما لندرك على الفور الحكمة في هــذا الاشتراط .

وقبل هذا ، علينا أن نذكر أن ميزانية الدولة الإسلامية ، كانت أيامئذ قد بلغت مدى هائلا من الكفاية والثراء .

وبدأ ذلك النمو المطرد منذ فتوح الإسلام في عهد « عمر » .

وفي عهــد معاوية ، كانت أموال غزيرة تُنفق وتُبعثر في سبيل دعم حكمه وتركيز الولاء له .

بينما كان « الإمام علي » وهو خليفــة مسئول في العراق يعطي المسلمين حقوقهم من بيت المال بالسَّوية ، رافضاً أي تمييز أو سَرف ..!!

حتى لقد أغضب بعض أنصاره ، حــين رفض أن يتألف الناس بالمــال ، ويختص بعض القبائل بأكثر من حقها ، قائلا عبارته المأثورة :

« أتأمرونني أن أطلب النصر بالجوْر » ؟!

والآن ، بعــد أن يتصالح الحسن ومعاوية ويصبح أمر الخلافة كلــه له ، فلن يكون هناك سوى بيت مال واحد هو هذا الذي يشرف عليه معاوية بحكم سلطته وسلطانه .

و « معاوية » يعطي الأموال وَفْق مقاييسه الخاصة ..

فماذا يكون الموقف إذا أخلف صلحه أو بعض صُلحِه غداً ، فكفَّ العطاء أو بخل عن بعض أولئك الذين كانوا من قبل يناصرون « الإمام » ويناصرون « الحسن » ؟؟

لا بد للحسن إذن أن يتحوَّط لهــذا الاحتمال ..

وهنــا يُفضي بنا الحديث إلى حيث نعــرف أين كان ينفــق « الحسن والحسين » أموالهما ..

لقد كانا يعودان بالكثير منها على نفـر من الذين فقدوا ثرواتهم في سبيل القضية التي ناصروا فيها الإمام .

وكانا يُغدقان برّهما وندَاهما على أولي الأرحام، وعلى الفقراء والمساكين ..

لقد انفرد « الحسن » بأنه الرجـل الذي قاسَم الله مالَه ثلاث مرات .. وخرج عنه كلــه مرتين ..!!

ورجل هذه شيمته ، لا يطلب المال ليُترف به ، إنما يطلبه ليؤدي به حقوقاً كثــيرة ، أهونُها كفالة الأرامل والأيتام الذين استشهد أزواجهم وآباؤهم وهم يقاتلون تحت راية الإمام ..!!

فمن أجل تلك الحقوق ، ومن أجل شغَفه بالخير والبر اشترط لنفسه ولأخيه وَفْرة العطـاء ..

وحسبنا في هذا المقام شهادة « معاوية » نفسه ، فذاتَ يوم أعدَّ أحمـال الهدايا التي كان يرسلها بين الحين والحين لِصفوة الصحابة في مكة والمدينة .

وبينما القافلة تتهيأ للسفر ، نظر معاوية فيمن حوله وقال لهم : « إن شئتم أخبرتكم بما يصنع القوم بهـذه الهدايا » ..

ثم راح يسمِّي بعض الأسماء ، ويسوق الحديث عنها ، حتى جـاء ذكـر « الحسن والحسين » فقال :

« .. وأما الحسن ، فلعلَّه يدَع لزوجاته بعض الطيِّب ، ثم يترك لمن حـوله كل شيء ..!!
وأما « الحسين » فيبدأ بأيتام الذين قُتلوا مـع أبيه في صِفِّين ، فإن بقي بعد ذلك شيء نحرَ به الجزُر ، وسقى به اللبن » ..!!

أجل .. هذه شهادة « معاوية » .. وفيها فصل الخطاب !!

ومن فصل الخطاب أيضاً ، أن العطاء الجزيل الذي فُرض لهما ، لم يكـن يكفيهما ، مع أنهما لم يُعرف عنهما قط عيش المترفين ولا حياة المسرفين ..!!

ولقد تراكم على « الحسين » دَين ثقيل ، وانتهز معـاوية الفرصة فعرض عليه قدراً كبيراً من المال يقضي به ديونه ، نظير بيعه عين ماء كانت للإمام « علي » بالمدينة ، وكان الإمام قد أهداها فقراء المدينة وأهلها ، يرتوون منها بغير حساب.. ورفض « الحسين » هذا العرض ..

ففيم إذن كانت هـذه الديون رغم وفرة العطاء لقومٍ لا يحيَون في ترف ولا في سـرف ..؟!

إنهـا كانت بسبب حقوق مذخورة ، وعطـايا مبرورة تعوَّدها الكرام ، أبنـاء الكرام ..!!

قبِل معاوية شروط الصلح من فوره ، وتنازل له الحسن عن الخـلافة .. وسارع معاوية إلى الكوفة ليتلقى بيعة أهـل العراق .

وفي الجمع الحاشد من المسلمين ، دعا « الحسَن » لإلقاء كلمـة ، فوقف « الحسن » والأبصار شاخصة إليـه ، والأنفاس معلّقة بشفتيه اللتين لا يدري أحد عن أي نوع من القول ستنفرجان ..

وجاءت كلماته في تلك المناسبة على وِفاق سعيد ومجيد مع صاحبها العظيم.!!

قال بعد أن حمِد الله وأثنى عليه :

« أيها الناس ..

إن الله هداكم بأوّلنا .. وحقَن دماءكم بآخرنا .. ألا إن أكْيَس الكَيْس التّقى ، وإن أعجز العجز الفُجور .. وإن هـذا الأمر الذي اختلفت فيه ومعاوية : إما أن يكون أحقّ به مني ، فقـد تركتُه لـه ..

وإما أن أكون أحقّ به منه فقد تركته لله عز وجل ، ولخير أمـة محمد ﷺ وحقْن دمائها » ..

ثم التفتَ صوْب معاوية وقال :

(وإنْ أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين) ..!!

إن العظمة الإنسانية لتكشف عن أصالتها في مثل هـذه المواقف ، وبمثل هذه الكلمات..حيث يلتقي الصدق، والقوة ، والترفع، والحكمة أسعد لقاء..!!

* * *

ومضى كلٌ إلى سبيله ..

معاوية إلى الشام عاصمة ملكه العريض .. و « الحسن » إلى المدينة ، قرير العين بما حقن من دمـاء ، عظيم الغُنْم بما بذل من فِداء .. مردداً كلماته المضيئة هـذه :

« لقد كانت جَماجِم العرب بيدي في العراق ،تُسالم من سالَمْت..

وتحارب من حاربت .. ثم تركتُها ابتغاءَ وجه الله » ..!!

ولقد وفّى بعهده مع معاوية . ووفّى بالعهد معه أخوه « الحسين » الذي كان قبل إبرام الصلح من أشدّ مُعارضيه .

تُرى ، هـل سيَفي معـاوية ..؟ أم أن إغراء السلطة المطلقـة سَيجشِّمه مشقّة الوفـاء ..؟؟

على أية حال ، فقد أدّى الحسن ما اعتقده واجباً ، وأعطى من ذات نفسه ما هو أهـلٌ له .

لقد ترك للآخرين دنياهم ، وعكَف هو على الطاعة ، والعبادة والخير ..

* * *

* عابداً : يحب الله ويخشاه ، ويخرج إلى الحج من المدينة إلى مكة أعواماً كثيرة ماشياً على قدميه والنجائب تُقادُ بين يديه ، حتى إذا سئل عن سبب هذا الإجهاد لنفسه أجاب :

« إني أستحي أن ألقى ربي، ولم أمشِ على قدميَّ إلى بيته » ..!!

* جواداً : لم يكن يُبقي من ماله شيئاً .. لايعرف مكروباً إلا فرّج كُربته، ولا غارماً إلا قضى دَينه ..

* سيّداً : لا يعرف الدنيّة ولا يقبلها ، ولا يعرف السوءُ طريقـاً إلى لسانه ومقـاله ..

يقول « محمد بن اسحاق » :

« ما رأيت أحداً كان إذا تحدث تمنَّيتُ ألاّ يسكت ، مثل الحسن بن علي .. وما سمعت منه كلمة سوء قط ..وإن أشدّ كلمة سمعتها منه ، هي تلك التي قالها حين وقعت خصومة بينه وبين عمرو بن عثمان ، فقال الحسن : ليس له عندنا إلا ما رغم أنفه .. تلك أشدّ كلمة سمعته يقولها » ..!!

ولقد تحدّث — رضي الله عنه — راسماً للناس صورة المؤمن المثاليّ الرشيد ، فقال :

« إنه مَن تصغُر الدنيا في عينه ويخرج على سلطان بطنه ، وفرجه ، وجهله ..

لا يسخَط ولا يتبرّم ..

إذا جالس العلماءَ ، كان على أن يسمع أحرصَ منه على أن يتكلم ..

وإذا غُلب على الكلام ، لم يُغلب على الصمت ..

لا يشارك في ادّعاء .. ولا يدخل في مِراء ..

لا يغفل عن إخوانه ، ولا يختصّ نفسه بخير دونهم

وإذا تردّد بين أمرين ، لا يدري أيهما أقرب إلى الحق . نظر أيهما أقرب من هواهُ ، فخالفه واتّقاه » ..!!

* * *

هذه خلاصة لدستور حياته ومنهاج نفسه ، أفلا يكون قرير العين إذن بهذا السلام الذي سيوفر له فرصة العكوف على فضائله ومزاياه يُنمِّيها ويزكّيها ..؟!

بلى .. ولقد استقر وأخوه وآل بيتهما بمدينة رسول الله ..

ولم تكد تنزاح عن الناس في شتى الأقطار غمرات ما كانوا فيه من خلاف وصراع ، حتى راحت أرواحهم تهفو نحو المدينة ، وخواطرهم تطوّف من قريب وبعيد حول ريحانتيْ رسول الله ..

ومع مرور الأيام، كان تطلع المسلمين إلى المدينة بما فيها من هدىً ونور، يفوقَ تطلعهم إلى دمشق رغم مافيها من دنيا وإغراء ..!!

وراحت مجالسهم وندواتهم في كل بلد تردد ما نقله الثقات من أصحاب الرسول عن حبه لابنيه «الحسن، والحسين».

كان الناس يسمعون ويتناقلون أنباء هذا الحب العظيم الذي أضفاه عليهما جدّهما النبي، فتكاد أفئدتهم تطير شوقاً إليهما .. حتى بعض أولئك الذين ناصبوهُما من قبلُ العداء.

وراح المسلمون يرددون تلك الأحاديث التي تصور قدرَهما، والتي حباهما الرسول بها كثيراً:

«الحسن، والحسين سيدا شباب أهل الجنة، بعد عيسى ويحيى» ..
«هذان ابناي .. وابنا ابنتي .. اللهم إني أحبهما فأحبَّهما، وأحِبَّ من يُحبهما» ..
«اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس، وطهِّرهم تطهيراً» ..
«الحسن، والحسين ريحانتايَ من الدنيا».
«حسينٌ مني، وأنا من حسين، أحبَّ الله من أحبَّ حسيناً» ..

وهكذا استولى على الناس ولعٌ نبيل، بتتبع أنباء حياتهما — مذ أهلّا على الحياة ..!!

كيف اختار الرسول بنفسه اسميهما ..؟ كيف كان يداعبهما ..؟ كيف كان يحزنه أن يسمع بكاءهما ..؟

وراحت الوفود من كل مصر تشدّ رحالها إلى المدينة لتلقى بها ابنيْ رسول الله وأحب الناس إليه، ولترتشفَ من حكمة «الحسن» الذي عكف على إلقاء الدروس والعظات بمسجد الرسول ..

وكانت حلقات درسه غاية في الجلال والمهابة ..

وصفها معاوية نفسه فقال :

« إذا دخلت مسجد رسول الله ، فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رؤوسهم الطير ، فتلك حلقة أبي عبد الله الحسين » ..!!

كذلك أخذ الشاكون من ظلم ولاة معاوية واستهتارهم ، يغذون السير إلى المدينة حاملين شكواهم إلى « الحسن والحسين » فيدعوان الناس للصبر ، ويرسلان لمعاوية بالنصح ..

ترى ، هل سيصبر بيت أبي سفيان على هذه المكانة المتصاعدة دوماً في قلوب الناس للحسن وأخيه وأهل بيته ..؟؟

كلا ..

وذات يوم ، دس للإمام الحسن السم في الطعام ..!!!

* * *

ويمسك التاريخ في هذه الجريمة الدنيئة ، بإحدى زوجاته وهي ـ جعدة بنت الأشعث بن قيس ـ كما يمسك بأصابع الغدر الأموي ... ومن عجب أن الأشعث بن قيس ، والد جعدة ـ ، كان من أبرز أنصار الإمام علي .. ثم كانت له أثناء خدعة التحكيم وبعدها مواقف مشبوهة ، ومحاولات مريبة .. كانت سبباً في أكثر ما نزل بالإمام يومها من آلام وأخطار ..!!

* * *

ومرض « الحسن » عليه السلام مرض الموت .

وبقيت أصالة فطرته وإيمانه متألقة ، حتى تحت وطأة هذا الاغتيال الخفي ، والسقم الفاجع الأليم !!

ففي علته هذه ، أخذ أخوه « الحسين » يلح عليه كي يبوح له بمن يعتقد أو يظن أنه صاحب هذه الجريمة النكراء .

لكن حفيد الرسول العظيم ، لا ينسى مبادئه تحت سحق آلامه ، فيسأل أخاه :

« وفيمَ سؤالك عمَّن سقاني السُّم ..؟
أتريد أن تُقاتلهم ..؟
لا .. إني أكِلُ أمرهم إلى الله ..!! »

انظروا ..

إنه حتى في غمرة الموت لا تتخلف إرادته عن مبادئه ، ويبقى رجـل الأناة والسلام فيه ، متفوقاً على الألم ،وعلى الكراهية .. بل وعلى حقـه العادل في القصاص المشروع ..!!

وراح يملأ أيامه الباقيات بالصلاة والدعاء ، مُردِّداً منها ذلك الدعاء الذي كان جَدُّه الرسول قد علَّمه له منذ شبابه .

« اللهم اهـدِني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافَيْت ، وتولَّني فيمن تولَّيت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقِني شرَّ ما قضيت ، فإنك تَقضي ، ولا يُقضى عليك ، وإنه لا يذِلُّ من والَيت ولا يعزُّ مَن عاديت تباركتَ ربَّنا ، وتعاليت » ..

لقد هداك الله ــ أبا محمد ــ وعافاك ، وتولاَّك ، وبارك لك فيما أعطاك ..

وما تركتْ مقاديرك العظيمة جُرعة السّم تأخذ طريقها إليك، إلا لتستكمل بالشهادة والفداء ، شرف الانتماء إلى بيت القرابين والشهداء ..!!!

* * *

وبعد .. فقد آن لبطل السلام أن تَزِفَّ إلى الجنة روحه .

ولكن لا تزال أمامنا وصيةٌ يريد أن يوصي بها ، فقد كان شوقه عظيماً لأن يُدفن مع جده الرسول ..

وكان قد استأذن « السيدة عائشة » في ذلك ، فأذِنت له ..

والآن ، وشمس حياته تميل للغروب ، لأخيه الحسين :

« إذا متّ فادفني مع النبي ، فإني كنت قد طلبت ذلك من عائشة وأجابتني •• وإذا عارضك بنو أميـــة ، فلا تراجعهم ، وادفني في البقيع » ••!!

ومِن أسف أن الذي توقعه قد حدث •• فرفض مروان بن الحكم أمـــير المدينة من قِبل معاوية أن تَحقق رغبة الشهيد المسَجَّى •• وأنزَل إلى الشارع حرسه المسلَّح في خسَّة ودناءة ، تليقان بمروان ، وبمن على شاكلة مروان ••!!

ورأى « الحسين » رضي الله عنه ذلك ، فانتضى سلاحه ، وصمم على إنفاذ وصية أخيه ••

لكنّ نفراً من الصحابة الأجــلاّء ذكَّروه بالفقرة الأخـيرة من الوصية وحمَلوه عليهـا :

« فإن منعوك ، فلا تُراجعهم ، وادفنّي في البقيع » ••

* * *

وشَرُفَ ثرى البقيع بهــذا الضيف المجيد ••

وآبتْ إلى وطنها في جنات الخلد ، روح السيّد •• وروح الشهيد !!•••

الفصل الرابع

العاصفة تزأر

خلَص الملك لمعاوية على النحو الذي أراد •• وبتنازل « الحسن » له عن الخلافة سكنت كل الرياح التي كان يخاف هبُوبها على عرشه وحكمه •• فراح يُصرّف شؤون امبراطورية من أقوى امبراطوريات عصره كما يهوى وكما يشاء • وراح يستخدم مزاياه الشخصية وكفايته ، كما يستخدم كفاية الذين حوله أبرع استخدام •

راح يوجه كل المزايا وكل الكفايات نحو غاية واحدة هي دعْم سلطانه •

فحلمه ، ودهاؤه ، وصبره ، وعطاؤه •• كل ذلك يسعَ الناس ما تركوه وسلطانه • ؛ فإذا هدّد هذا السلطان شيء ، فالحلم والدهاء ، والصبر ، والعطاء •• أسلحة تنزل إلى المعركة لتدفع عن السلطان مخاوفه •• فإذا عجزت ؛ فالسيف والقتل بغير إبطاء ! !

وإن له في ذلك عبارة مأثورة :

« إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ، ما لم يَحولوا بيننا وبين سلطاننا » ••!

ولطالما يحدثنا التاريخ عن قوم كانوا يجبهونَه بقوارص الكلم في وجهه وأمام الناس ، فلا يزيد على أن يضحك • ثم يضحك •• ثم يُجزل لهم العطاء !!

ولقد كتب يوماً لزياد ، واليه على الكوفة والبصرة يقول له :

« إنه لا ينبغي أن نسوسَ الناس بسياسة واحدة ، فيكون مقامُنا مقام رجل واحد ••

ولكن تكون أنت للشدة والغلظة . وأكون أنا للرأفة والرحمة ، فيستريح الناس بيننا » ...!!

ولو أن معاوية ـ غفر الله له ـ كان أكثر اهتماماً بسلطان الإسلام منه بسلطان بني أميَّة ، لوفَّر على الإسلام وعلى المسلمين كثيراً من المخاطر والمهالك التي أفضى إليها حرصُه على ذلك السلطان ..

لقد جشَّمه ذلك الحرص من الشَّطط ما كان يعود عليه نفسه بالغُرْم الأكيد .

وإنا لنذكُر ـ مثلا ـ تشجيعه النزعة القبلية بإيثاره في العطاء وفي المكانة بعض القبائل على بعضها الآخر ، فهو يُغدق على « اليمانيَّة » ويميزهم في العطاء . ويجعل لهم كياناً عسكرياً قائماً بذاته .. ثم لا يلبث أمرهم أن يعلو ويتفاقم ، حتى راحوا يمنُّون عليه بما هو فيه من سلطان ، ويقولون : لولا نحن ما كان معاوية .. فيضطرب الأمر في يده ويُعالج الموقف بخطأ جديد حين يتجه إلى قبائل « القيْسيَّة » فيُغدق عليهم الأموال والامتيازات .. ثم لا يُجديه ذلك شيئاً : فيُرهق نفسه في التوفيق بين القوتين الكبيرتين من جديد ..

كذلك نرى أن الحلْم الذي لم يعرَف في التاريخ بمثل ما عُرف به ... نرى هذا الحلْم وهو أبرز خلائقه ومميزاته لا يغني عنه شيئاً في دَرء صفة القسوة والقتل عن عصره وحُكمه .. فمصْرَع « حُجر بن عدِيّ » وأصحابه بأمر معاوية وعلى مقربة من قصره بالشام بغير جريرة ولا ذنب ، حدَثٌ يُجلِّل سلطان معاوية بالسوء ..

لقد كان حادثاً بشعاً ، حتى لقد ندم هو نفسه على اقترافه ، وبقي إلى آخر عمره غُصَّة تُفزعه وتُضنيه ..

ثم وصيته إلى ولده يزيد أن « إذا خرج عليك عبد الله بن الزبير فظفرت به فقطعه إرْباً .. إرْباً » !!..

ثم قسوة ولاته ، واستعلاؤهم على المسلمين بصورة تثير غيظ الحليم .!!

وإنّا هنا ــ في مصر ــ مثــلاً ــ لنحفظ ونذكر خطبة أخيه عتبة بن أبي سفيان الذي ولاّه أمرها بعدَ موت « عمرو بن العاص » إذ استهلَّ حكمه وولايته بأن جمع أهل مصر الطيبين الوُدعاء ، وقام فيهم خطيباً بهــذه القوارع :

« يا حاملي ألأم أنفٍ رُكّب بين أعين ..!!

إني إنما قلّمتُ أظفاري عنكم ، لِيَلين محسناً لكم ، فأما إذْ أبيتم إلا الطعــن على السلطان ، فوالله لأقطّعَن بطــون السياط على ظهوركم..فإن حسَمَتْ أدواءكم ، وإلا فالسيف من ورائكم ..

يا أهل مصر..قد كنتم تُعذَرون ببعض المنع منكم لبعض الجوْر عليكم .. وقد ولِيكم من إذا قال فعــل .. فإن أبيتم درَأكم بيده ، فإن أبيتم درَأكم بسيفه ..

إن البيعة شائعة .. لنا عليكم السمع ، ولكم علينا العدل » .!!

★ ★ ★

إن للسلطة ضراوةً لا تقاوَم ، إذا هي بسطت إغراءها ونفوذها على حاكم يرى فيها غُنْماً لا تضحية ... وزهْواً ، لا واجباً ..

ونحن لا نريد الطعن في معاوية ؛ فإن منهجنا أن نحترم كل الاحترام ، مَن صحِبَ رسول الله وصلّى وراءه .. وجلس بين يديه .. وقاتل تحت لوائه .. مفوّضين أمره فيما يكون له من خطأ إلى الله ..

بيد أننا خلال قيامنا بواجبنا في تحرّي الحقيقة في هذه القضية التي ندرسها، لا نملك إلا إبداء الأسف الشديد ، والجزع الأشد لهــذا النهج الذي سار عليه مؤسس دولة الأمويين . لا سيما حين اتخــذ أفْدح قراراته ، وأكثرها ضراوة وبؤساً .. ذلكم هو أخــذ البيعة لولده ــ يزيد ــ وفرضُه على الدولة المسلمة وعلى الأمــة المسلمة ، الأمر الذي يعنينا الآن بحثه ، والذي كان السبب المباشر والأوحد في مأساة « كَربَلاء » .. وفيما تلا « كرْبلاء » من أهوال شهدتها مكة وشهدتها المدينة على نحو أليم ووبيل .. هذه الأحداث التي كانت هي الأخرى

سبباً مباشراً في ضياع الملك من بيت معاوية وذريته إلى الأبد بعد أربع سنوات من وفاته ، ثم انتقال هـذا الملك إلى بطن آخر من بطون بني أمية ، أولئك هم بنو مروان ..

لقد اهتزت أعطاف « معـاوية » بالإمارة والملك ، أربعين عاماً كاملة .. عشرين عاماً ، أميراً .. وعشرين عاماً ، ملِكاً ..

أفما كان يكفيه ذلك ، ثم يترك الأمر من بعـده لاختيار المسلمين ، ليكون في ذلك على الأقل وفاء بالعهد الذي أبرمه مع « الحسن » والذي كان أهم شروطه للتنازل له عن الخلافة ..؟؟

إن ذلك لم يحدث .. ولقـد قرّر معاوية .. بتدبيرٍ منه ، أو بإيحاءٍ من بعض مُشيريه ، أو بهما معاً ، أن يستبقي السلطان في بيته وأسرته ، واختار لذلك أبعد الناس عن الصلاحية للأمر ولده « يزيد » ..

فحـين أحسّ خُسود صحته ، ودنُوّ نهايته ، شرع على عجـل يفرض ـ يزيد ـ على الناس ويهيىء له مكانه ..

وبدأ بالمدينة حيث كان بهـا نفرٌ جليل من بقية الصحابة ..

ولم يكد واليه عليها وقريبه في نفس الوقت ـ مروان بن الحكم ـ يعرض الأمر على المسلمين الذين احتشدوا في المسجد الكبير ، حتى جابهَتْه مُعارضة رهيبة . لقد وقف « عبد الرحمن بن أبي بكر » يقول لمروان :

« والله ، ما الخيـارَ أردتم لأمّة محمد .. ولكنكم تريدون أن تجعلوها هِرَقليّة ، كلما مات هِرَقل ، قام هِرَقْل .. » .

وتلاه « الحسين » فرفض في كلماتٍ قواطعَ هـذا العبث بمصاير الإسلام والمسلمين ..

وتلاه « عبد الله بن الزبير » فدَمْدَم على مروان وعلى معاوية بكلماتٍ كألسنةِ اللّهب ..!!

وأبلغ أمر المعارضة إلى معاوية ، فلم يحمله ذلك على إعادة النظر في قراره . بل دفعه إلى الإيغال في سرعة إنجازه .

فأرسل إلى ولاته الآخرين على بقية الأمصار ، آمراً إياهم أن يسوقوا الوفود إلى الشام كي تبايع ليزيد ..

وشهدت الشام مهزلة البيعة ومأساتها على نطاق واسع ، بعد أن أدّى الذهب والسيف دورهما في حمل الناس على المبايعة .

ولكن موقف « المدينة » ظلّ يؤرّقه ، فقرر السفر بشخصه إليها .

وهناك حاول إقناع زعماء المعارضة ــ عبد الله بن الزبير ، والحسين بن علي، وعبد الله بن عمر . فلما أعيته الحيلة لجأ إلى القوة في مظاهرة مسلّحة عجيبة..!!

لكن الزعماء الثلاثة صمدوا ، ولم يتحرك منهم لسان ببيعة .. وأمام مناورة الموت التي فاجأهم بها معاوية ، لاذوا بالصمت ، فاستغلّ هو صمتهم وأذاع في الناس أنهم مبايعون ..!!

لقد برّر معاوية أخذه البيعة ليزيد بحرصه على عدم نشوب الخلاف والصراع من جديد بين المسلمين ..

وإنه لتبرير يُدينه أكثر مما يشفع له ..!!

فلماذا خشي الصراع والفتنة إذا هو لم ينقل الملك إلى يزيد .. ولم يخشهما إذا هو وسّد الأمر لغير أهله وسلّم قيادة الدولة المسلمة إلى أكثر العالمين بُعداً عن الصلاحية لها ، وهو يزيد ..؟؟!!

إن هذه النظرة تكشف بوضوح عن أن معاوية كان ينظر إلى الأمر على أنه ــ كما قلنا من قبل ــ سلطان بني أمية ، أكثر مما هو سلطان الإسلام وسلطان المسلمين ..!!

ووضع المسألة على هذا النحو ــ وهو وضع صحيح ــ يجعل المقاومة أمراً محتوماً وقدَراً مقدوراً ..

ولقد بدأت المقاومة بامتناع « الحسين . وابن الزبير ، وابن عمر . وابن أبي بكر » بالمدينة عن البيعة ..

وبدأت بالتذمر الكالح الذي ملأ صفوف الجماهير في كل مكان .. والذي ارتفع به الصوت داخل الأمويين أنفسهم الذين كانوا يشمئزون من يزيد ، ويرون بين رجالهم من هو أحق وأجدر .. كذلك شاع على ألسنة الذين بايعوا من عامّة الناس مُكرهين ..

ذلك أن « يزيد » كان شاباً عابثاً لاهياً .. والتاريخ يصوره دائماً بين بطانته، وهي بطانة سوءٍ . يلهون . ويشربون . ويعربدون ..

وحتى حين أراد أبوه أن يُضفي على سيرته بعض التصوّن والوقار ، فأرسله إلى مكة حاجاً . ولم يُغنه ذلك شيئاً . فقد اصطحب يزيد معه لهوه وعبثه وبطانته ...!!

ويزيد ، قبل هذا ، وبعد هذا . تنقصه كل مقومات الرجل المناسب للمكان المناسب .. فهو مُفلس إفلاساً تاماً من كل ما كان لأبيه من دَهاء ، وشخصية ، وذكاءٍ . ومقدرة ..!

ففيم استخلافُه ..؟ وبأي رُشد وأي ضمير . يُفرض واحد هذا شأنه على الإسلام وعلى المسلمين .؟؟!

ثم أين عهده مع « الحسن » على أن يترك الأمر بعده شورى . حيث يختار الناس مَن يرتضون ..؟!

لكنّ معاوية فعلَها ـ غفر الله لمعاوية ..

وفي العام الستين للهجرة مات ، لينتقل الأمر من بعده إلى يزيد ....

وبدأ يزيد عهده بإنفاذ الوصية التي تركها لها أبوه قُبيل وفاته :

« إني لا أخاف عليك سوى أربعة رجال :

الحسين بن علي..وعبد الله بن عمر..وعبد الرحمن بن أبي بكر..

وعبد الله بن الزبير ..

فأما الحسين بن علي ؛ فإن أهـل العراق لن يتركوه حتى يخرجوه إليهم ؛ فإن فعل فظفرت به فاصفح عنه ..

وأما عبـد الله بن عمر ، فرجل قد وقذته العبادة ، ولا يريـد الخلافة إلا أن تأتيه عفواً ..

وأما عبد الرحمن بن أبي بكر ، فليس له عند الناس ما يجعله يطمح إلى طلبها ، أو يحاول التماسها إلا أن تأتيه عفواً ..

وأما الذي سيجثم لك جثوم الأسد ، ويراوغك روغان الثعلب، حتى إذا أمكنته فرصة وثب عليك؛ فذلك هو عبد الله بن الزبير .. فإن فعـل وظفرت به فقطعه إرباً إرباً ، إلا أن يلتمس منـك صلحاً .. فإن فعل فاقبل منه ، واحقن دمـاء قومك بجهدك .. وكف عاديتهم بنوالك .. وتغمدهم بحلمك .. » .

ترى ، هل كان معاوية يعرف لابنه هـذا جهـداً ، أو نوالاً ، أو حلماً يعالج به الأمور ..؟؟

على أية حال ، فقد جلس يزيد حيث كان يجلس أبوه من قبل ، وسيق الناس إليه يبايعونه ملكاً ، بعد أن بايعوه من قبل أميراً ..

واهتز كيانه فزعـاً ، تحت ضغط مشاعره الوجلة لوجود الحسين وابن الزبير وابن أبي بكر وابن عمر بالمدينة ، فكتب على الفور إلى عامله هناك ــ الوليد ابن عتبة بن أبي سفيان ــ بهذا الأمر الحاسم :

« .. أما بعـد ، فخذ حسيناً ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر بالبيعة أخذاً شديداً ، ليس فيه رخصة حتى يبايعوا ، والسلام » ..

واستنجد الوليد بمشورة قريبه مروان . وكان مروان والياً على المدينة من قبل ، ثم سخط قرار معاوية أخذه البيعة ليزيد ، إذ كان يرى نفسه بحكم سنه

ومشيَختُه في بني أمية أحــق بها وأولى ..

ولخَّص مروان مشورته للوليد في هذه الكلمات السُّود : « .. أما ابن عمر ، وابن أبي بكر ، فلا أراهما يريان القتال .. ولكن عليك بالحسين وعبد الله ابن الزبير ، فابعث إليهما فإن بايعا ، وإلا فاضرب أعناقهما قبل أن يذيع في الناس نبأ موت معاوية ، فَيَثِب كل واحدٍ منهما في ناحية » ..!!

هكذا ، وبكل يُسر واستهتار يُطوِّح مروان بالرقاب !!

اضربْ أعناقهما ..!!

هذا هو نهج الذين اغتصبوا حق المسلمين في خلافتهم ، وأرادوا أن يجعلوه وقْفاً على أنفسهم وعلى ذراريهم حتى آخر طفل فيهم وآخر رضيع ..!!

ومروان هذا ، الذي يُشير بقطع الرقاب ، هو الذي سينتقل إليه الملك بعد أربعــة أعوام من مُلك يزيد .. وهو الــذي سيظل الملك في عقِبه حتى يجيء العباسيون بعد عشراتٍ من السنين ، لا نرى فيها وفي كل أولئك الحاكمين مــن هو للقداسَة أهل سوى « عمر بن عبد العزيز » رضي الله عنه وأرضاه .. هــذا الخليفة العادل الذي سيَضجّ من مظالم قومه وعائلته ، ويبرأ إلى الله منها ..!!

ونعود إلى الوليد بن عتبة وَالي المدينة ، فنراه يرسل في طلب « الحسين ، وابن الزبير » ..

وفي طريقهما إليه يسأل ابنُ الزبير الحسين :

ـ ترى في أيِّ أمر بعث إلينا هــذه الساعة ..؟

ويجيبه الحسين :

ـ أحسب أن معاوية قد مات .. وقد بَعث إلينا للبيعة ..!

ويعودان أدراجهما دون أن يواصلا السير إلى الوليد .

فأما « عبد الله بن الزبير » فقد انتظر مجيءَ الليل ، ثم حمل متاعه ، وركب راحلته ، وسافر إلى مكة ..

وأما الحسين ، فيأخذ نفراً من أتباعه ، ويسير بهم إلى الوليد في دار الإمارة ، ويأمرهم أن ينتظروه خارج الدار ، فإن سمعوا حواراً غاضباً بينه وبين الأمير اقتحموا الدار ليكونوا بجانب الحسين إذا أريد به السّوء .

بيد أن الوليد في هذا الموقف كان خيراً من ألفٍ من طراز مروان ..

ذلك أنه لم يكد يُنهي إلى « الحسين » نبأ وفاة معاوية ، داعياً إياه إلى بيعة يزيد ، حتى قال له « الحسين » رضي الله عنه :

« إن مثلي لا يعطي بيعته سراً ، فاجمع الناس ليبايعوا ، وأبايع على ملأ » ..

ولا نستبعد أن يكون الوليد ، قد أدرك ما في كلمات الحسين من مناوَرَة شريفة ، آثر أن يتغافل عنها ، حتى لا يُلوّث يديه بجريمة العدوان الذي أشار به مروان .

لذلك نراه ، حين أصبح الصباح في اليوم التالي ، وجاءه الخبر بأن الحسين رحل إلى مكة . ولامَه مروان على نبذ مشورته .. نراه يقول يومها لمروان :

« أتشير عليَّ بقتل الحسين بن فاطمة ، بنت رسول الله ...؟؟

والله ، إن الذي يُحاسَب بدم الحسين يوم القيامة لَخفيفُ الميزان عند الله » ...!!

* * *

رحل الحسين إلى مكة .. ذلك البلد الحرام الذي يلتمس الناس فيه الأمْن والملاذ .

واصطحب معه أختيه « السيدة زينب ، والسيدة أم كلثوم » وإخوته « أبو بكر ، والعباس ، وجعفر » وأولاد أخيه « الحسن » وجميع مَن كان بالمدينة من أهل بيته ، عدا أخاه « محمد بن الحنفية » الذي آثر البقاء بالمدينة .

وكان قد سبقه إلى مكة كما ذكرنا ، عبد الله بن الزبير .

كذلك كان قد سبق إليها حَبْرُ الأمّة « عبد الله بن عباس » .

وفي مكة ، استقر الحسن وآله .. وأقبل أهلهــا بل وأقبلت الوفود من من خارجها على ابن بنت رسول الله تلتمس منه الحكمة والهدى والنور .

ولقد كانت مكة آنئذ أنســب مكان يتدبر فيه « الحسين » خواطره وتفكيره حول القضية الجليلة التي تشغله ، والوضع الخطير الذي حاق بالمسلمين ..

* فهنا .. وفي قديم الزمان ، كان هاشم ، وعبد شمس ، أخوان وُلدا لعبد مَناف .. ومِن هاشم ، جاء النبي ، وعَلِيّ ، وبنو هاشم أجمعون ..

ومِن عبــد شمس ، جــاء أمية ، وأبو سفيان ، ومعاوية ، ويزيد ، وبنو أميّة كافّة ..

* وهُنا .. كان هاشم يملأ مكة والجزيرة بِراً ومجداً وكرماً ، فهو الذي يطعم الحجيج ، ويَحمي الذّمار ، ويرسل قوافله إلى الشام وإلى اليمن لتعــود موقَرَة بالخير والرزق للناس ، حتى قال فيه شعراء قريش يومئذ :

عَمْرو الذي هشَم الثّريد لقومه ... قــوم بمكةَ مُسْنِتين عِجاف
سُنّت إليــه الرحلتان كلاهمــا ... سفرُ الشتاءِ ورحلةُ الأصيافِ

بينما عبد شمس مُزمعُ أسفارٍ دائماً لا يحمل تِجاه قومــه ما يجب من تَبِعــات ..

* وهنا .. شهدت مكــة ذات يوم أروعَ مُنجزاتها الأخلاقية والسياسية يوم أقرّت كل قبائلها « حِلْفَ الفضول » .. ذلك الحِلف الذي كان مضمونه وفَحواه أن تُردّ الحقوق إلى أهلها ، وألاّ ينتصر ظالم على مظلوم ، وأن يضحّي المشتركون فيه بحياتهم إذا تعرضت العــدالة لخطر ..!!!

ومِن عجب أن كل قبائل قريش وبطونها ، اشتركت يومئذ في هذا الحلف ما عدا بنو عبد نوفل .. وبنو عبد شمس آباء الأمويين ..!!

* وهنا يستطيع « الحسين » أن يمدّ بصره فيرى الدار التي عاش فيهــا وبزَغ منها جَدّه العظيم « محمد رسول الله » هاتفاً بكلمة الله ، حاملاً مِعْوله الرشيد في وجه وثنيّة الحجَر .. ووثنية البشَر ..!!!

ويستطيع أن يمدَّ بصره ، فيرى « زمزم » التي حفرها جده « المطلب » امتثالاً لرؤيا صادقة ، والتي كانت لقريش حياة وريّاً ، وصارت للمسلمين تراثاً ومَنْسكاً ..

ويستطيع أن يمد بصره فيرى الدّور التي خرج منها مَهديّون أبرار ، آمنوا بالرسول وآزروه في دعوته ووحدته ، وفي مقدمتها دار أبي بكر .. ثم يرى الدّور التي خرج منها أولئك الذين سَخِروا من دعوته ، واضطهدوا أهله وصحبه ، وفي مقدمتها دار أبي سفيان ..!

* وهنا .. يستطيع أن يرى ويسمع الأصداء الصادقة الباهرة لصوت جده « أبي طالب » وهو يقول للرسول :

« يا ابن أخي ، ادْعُ إلى سبيل ربك ما شئت ، فوالله لا أُسْلِمُك إليهم أبداً .. » .

ثم يقف إلى جواره كالطَّوْد مضحيّاً براحته ، وأمْنه ومكانته بين قومه ..

كما يسمع الأصداء الصادقة الباهرة لصوت جدّته « خديجة » وهي تقول للرسول :

« والله لا يُخزيكَ الله أبداً » ..

ثم تنهض إلى جواره في وجه قريش واضعةً كل ثروتها وجاهها في خدمة الدين الحق الجديد ..

* وهنا .. يسمع الحسين بكل سمعه وقلبه كلمات جده الرسول الكريم التي تركها للتاريخ الإنساني بأسره قدوة ونبراساً وهُدًى :

« .. والله ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر، ماتركتُه حتى يقضيه الله، أو أهلك دونه » ..!!

أجل .. هنا سيسمع الحسين صَداها .. ويتراءى له المشهد ، فيتفجّر في نفسه بأسها ، ونِضالها ، وتُقاها ..!!

ولسوف يسأل نفسه : ما هذا الأمر الذي رفض جدّه النبي أن يتخلّى عنه ولو أوتيَ مُلْكَ الشمس والقمر وما بينهما ..؟؟

ويجيبه قلبه : إنه كلمة الله ودينه .

ويعود يسأل نفسه : وأين دين الله اليوم ، ومَن الذي يحمل لواءَه ..؟؟

ويجيبه الواقع : إن دين الله اليوم في مِحنة، إنه يتحوَّل إلى ملك عَضوض.. وإن الذي يحمل لواءه اليوم طاغية عربيد اسمه ، يزيد ..!!

يعود يسأل نفسه : وما المصير ..؟؟

ويُجيبه وَعْيه ورُشده : المصير عودة الجاهلية وسيادة الوثنية ، ودُنوّ ساعة هذه الأمة حيث يرجع كل ما بنَتْ وشادت تراباً في تراب ..!!

ألم يقل جدّك الرسول عليه السلام :

« إذا وُسِّد الأمر لغير أهله ، فانتظر الساعة » .

فها هو ذا قد وُسِّد لغير أهله .. بل لِشرّ أهله !!..

ويعود سائلا نفسه : وما واجبي الآن ؟..

ويجيبه ضميره : المقاومة . الآن . وأبداً .. حتى يفوز الحق . أو تهلِكَ دونه . .. ! !

* * *

على هذا النحو . لا بد أن يكون « الحسين » قد أدار خواطره وتفكيره ..

وفي رأينا أن كل حوافز الثورة على هذا الضلال كانت كامنة في وعيه ووجدانه . وكانت وليدة إدراكه السديد لحق الدين عليه واستعداده للتضحية في سبيله .

وليست نتيجةً لموقف أهل الكوفة الذين أرسلوا إليه كُتبهم ووفودهم يدعونه إليها ليبايعوه . وليسيروا تحت لوائه إلى مقاومة يزيد .

أجل .. ما كان « الحسين » ليدَع دين الله ودنيا الناس ألعوبة في يد يزيد..

بل كان سيبشر بالمقاومة، ويخلق ظروفها المواتية . ثم يضرب ضربته العادلة.

وسواء دعاه أهل الكوفة أم لم يدعوه ؛ فلقد كان يهتدي إلى مسئولياته بنور إيمانه وبصوت ضميره .. وليس بتحريض قوة خارجية .

ولقد عرفنا رأيه القديم في صلح أخيه مع معاوية .. إذ كان يعارض هذا الصلح ، معلناً أن آل أبي سفيان لا عهد لهم ولا أمان .

فإذا كان هذا رأيه والخليفة بالأمس معاوية ، فكيف يكون إذن ، والمستخلف اليوم يزيد ..؟!

ثم إن خروجه من المدينة إلى مكة ، ورفضه البيعة ليزيد يشكلان إعلاناً لمبدأ المقاومة .

فهو يعلم أن يزيد لن يتركه حتى يبايع .. وهو لن يبايع أبداً .. وإذن ستكون المجابهة بينهما أمراً محتوماً ..

ثم إن للحسين طبيعة جياشة ثائرة ، يربطها بالحق ولاء وثيق وعجيب . وتستمد من فضائل الدين العالية ، ومن تراث حسبه العريق زاداً لا يفنى من الصمود والمثابرة .!!

ولن يجد في كيانه ذرة تصبر على رؤية يزيد بن معاوية يجلس حيث جلس من قبل — أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي — .!!

إن ذلك يعني ضياع مقدسات عزيزة وغالية ..

وإذا كانت الطبول تدق في دمشق ، معلنة قيام خلافة كاذبة لحفيد أبي سفيان ، .

فلا بد أن يجد الإسلام من يدفع عنه الكارثة ..

ولا بد أن يجد المسلمون من يدرأ عنهم الطوفان ..!!

الفصل الخامس

البطل، يتقدم

تلك هي القضية تمـاماً ..

وهذه حقيقتها التي تجلّت أمـام الحسين كفلق الصباح .. فهي ليست لغزاً، يحتاج إلى مناقشات تبحث له عن حلول ..

ولا صفقة، ترتبط اهتماماتها بمغنم أو مغرم ..

كما أنهـا ليست طموحاً شخصياً، يحتاج إلى موازنة بين فرص النجـاح واحتمالات الإخفـاق .

إنهـا قضية الحق وحـده ..

حقّ دينٍ، وحق أمة، وحق دولة، وحق مَصير ..!! فإما أن ينتصر هذا الحـق، أو فليمت الأبرار دونه ..

ومَن لقيادة الأبرا رفي هذا المجال، كأبي عبد الله الحسين . خير ابنٍ لخير آباء .. وأكرم وارثٍ لبيت التضحية والبذل والفداء ...؟!

إن ملايين المسلمين في كل العصور والأزمان، يصلون عليـه في صلواتهم آناء الليل وأطراف النهـار .

أليس كل مسلم كان أو سيكون، يختم صلاته قائلاً :

« التحيّات المباركات الصلوات الطيبات لله ..

السلام عليك أيهـا النبي، ورحمـة الله وبركاته .

السلام علينا وعلى عبـاد الله الصالحين ..

أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ..

اللهم صلِّ على محمد ، وعلى آل محمد » ..

وأليس « الحسين » من أولئك الآل ..؟

أليسَ هو درّتهم الفريدة والمجيدة ..؟

إذن ، فإن لهؤلاء الذين يُصلّون عليه عَبْر الزمان والأجيال حقاً عظيماً سيقتضيه تضحيات عظيمة .!!

ومتى تكون التضحية ، إذا لم تكن اليوم ، ودين المسلمين يتحوّل إلى « مزرعة أموية » .. وأمجادهم العظيمة يستولي عليها مخلوق عابث ..ومصايرهم الكبرى تُمسِك بها أيدي وُصوليين جُباة ، وجلاّدين طغاة ..؟!

هكذا لم يكن للحسين بدٌ من أن يقاوِم ، حتى لو لم يدعه من العراق داعٍ ، ولم يأته من الكوفة كتاب ... كل ما صَنعته وفود الكوفة وكتُبها إليه . أنها عجّلت خروجه ..

وهنا ، لا بد أن ننفي عن تفكيرنا وَهْماً ردّده كثيرون ، هو أن « الحسين » رضي الله عنه ذهب ضحية خدعة لم يحسن تدبّرها .. أو ضحية أنصار لم يُحسن تقدير إخلاصهم وثباتهم ..!

كلا ، إن « الحسين » إنما ذهب شهيد إيمان قرّر مختاراً ومشتاقاً أن يكون شهيدَه وقُربانه ..!!

والآن ونحن نواجه الوقائع والأحداث ، سنرى كم كان في تصميمه وبطولته حكيماً ؟ وكيف خطّط لواجبه ومسئولياته في رُشد ، ونُهى ، وسَداد ..

* * *

فعندما جاءته كتُب أهل الكوفة تدعوه إلى القدوم عليهم لمبايعته ، ولدفع العار الذي لحق الأمة باستخلاف يزيد ، لم يُسارع بامتطاء راحلته .. بل رأى أن يبعث إليهم مبعوثاً فطِناً وأميناً يرى الموقف هناك على طبيعته ، ثم يوافيه بالأنباء .

واختار للمهمة ابن عمه « مسلم بن عقيل بن أبي طالب » وحمّله إلى الكوفة هـذه الرسالة :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن عـلي ، إلى مَن يبلغه كتابي هـذا ، من أوليائه وشيعته بالكوفة .

سلام الله عليكم ..

أما بعـد ، فقد أتتني كتبكم ، وفهمت ما ذكرتم من محبتكم ، ورغبتكم في قدومي إليكم .

وإني باعثٌ إليكم بأخي وابن عمي وثقتي من أهـلي « مسلم بن عقيل » ليعلم لي كُنْهَ أمركم ، ويكتب إليَّ بما يتبين من جمعكم ..

فإن يكُ أمـركم على ما جاءتني به كتبكم وأخبرتني رسُلكم .

أسرعت القـدوم إليكم إن شاء الله تعالى » ..

ومضى « مسلم » إلى الكوفة .. ولم يكد يستقر بها حتى سارع الناس إليه يبايعونه على السير تحت لواء « الحسين » مهما تكن التضحيات .

وسارع جواسيس يزيد إلى « النعمان بن بشير » والي الكوفـة وحاكمها يطلعونه على ما يدور ويجري .

وكان « النعمان » رضي الله عنـه صحابياً جليـلا ، فردَّ جواسيس يزيد خائبين ، إذ قال لهم :

« إني لا أقاتل إلا مَن يقاتلني .. ولا أثِبُ إلا على مَن يثِبُ عليَّ ، ولا آخذ بالظِّنَّة أحـداً » ..

وأجابه أحدهم قائلا : (هذا رأي المستضعفين) .. فزجره النعمان قائلا :

« لأنْ أكون من المستضعفين في طاعة الله .. خير من أن أكـون من الجبّارين في معصيته » ..!!

وانصرفوا من حضرة النعمان يائسين ، ليكتبوا إلى سيدهم يزيد ؛ يخبرونه

أن « مسلم بن عقيل » استولى على أفئـدة الناس ، وأن « النعمان بن بشير » لا يُحرك ساكناً .

وفي دمشق اجتمع يزيد مع مستشاريه . وكان أبرزهم ذلك الذي يُسمَّى « سرجون » ..

ترى بم يشير مَجوسي كسرجون ..؟؟

أشار بعزل « النعمان بن بشير » وتولية عبـد الله بن زياد والي البصرة ، والياً على الكوفـة أيضاً .

ولم يكـن عجباً أن يقـع اختيار سرجون على ابن زياد بالذات ، ذلك أن « مُرجانة » أمَّ ابن زياد ، كانت هي الأخرى جارية مَجوسيَّة ..؟!!

وابن زياد هذا ، من أحط وأشقى من حملت الأرض على ظهرها.. لا يَفوق ولَعَه بالقتل وسَفك الدمـاء ، سوى ولَعِه بالقتل وسفك الدمـاء ..!!

* * *

في نفس الوقت ، كان الحسين عليه السلام ، قد أرسل مولاه « سليمان » إلى البصرة حاملاً هذه الرسالة إلى نفر من زُعمائها :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من الحسين بن علي .. إلى مالك بن مسمع ، والأحنف بن قيس ، ومسعود بن عمرو ، وقيس بن الهيثم ، والمنذر بن الجارود ..

سلام الله عليكم ..

أما بعد ، فإني أدعوكم إلى إحياء معالم الحـق ، وإماتة البدعة والباطل ، فإن تجيبوا تهتدوا سُبُل الرشاد » ..

إن رسالة « الحسين » إلى أهـل البصرة ، ترينا كيف كان يعرف مسئوليته ويمضي معها .. فأهل البصرة لم يكتبوا إليه ولم يدعوه إلى بلدهم كما فعل أهل الكوفة .. ومع هـذا فهو يكتب إليهم ويُعدّهم للمجابهة المحتومة ـ ذلك أنه

قرر أن ينهض بتبعات دينه وأمته ، كان قراره هذا آتياً من أعماق روحه وضميره ، وليس من حركة أهـل الكوفة ودعوتهم إياه ..

* * *

لم يكد مبعوثه « سليمان » يصل البصرة ، ويسلّم رسالته لزعمائها ؛ حتى سارع أحدهم وهو المنذر بن الجارود إلى ابن زياد حيث أفشى له سرّها وأطلعه عليها.. وألقى ابن زياد القبض على « رسول الحسين » وفي وحشية تليق به ، قام بقتله وصَلبه .. ثم تهيأ للسفر إلى الكوفة ، ليباشر مهمته المجرمة هناك .!!

وقبل رحيله ، دعا أهل البصرة إلى اجتماع عام خطبهم فيه فقال :

« يا أهل البصرة .. إن أمير المؤمنين يزيد !! قد ولاّني مع البصرة الكوفة ، وإني سائر إليها . وقد خلّفت عليكم أخي عثمان بن زياد .. فإياكم والخـلاف والإرجاف .. فوالله لئن بلغني عن أحد أنه خالف أو أرجَف ، فلأقتلنّه ووليّه ، ولآخذن الأدنى بالأقصى .. والبريء بالمذنب ، حتى تستقيموا — أنا ابن زياد .. وقد أعذَرَ من أنذر » ..!!

هكذا تحدث إلى الناس بالبصرة حديث الطاغية .. على أن التجربة تعلمنا أنه ليس هناك أجبن من الطغاة..وأن ما يتظاهرون به من بأسٍ شرسٍ وشجاعةٍ زائفة ؛ إنما يستمدّونها مما يمسكون بأيديهم من سلطان ..!!

فابن زياد هذا ، بكل طغيانه ، وقسوته ، وإجرامه ، يخاف أن يدخل الكوفة سافِراً منظوراً ، فيدخلها متنكراً ، ومُخفياً سِحنته ووجهه وراء لثام وقِناع ..!

ومن المفارقات الباسمة ، أن أهـل الكوفة الذين كانوا ينتظرون مقـدم « الحسين » على شوق ، لم يكادوا يرون قافلة ابن زياد ، حتى حَسبوها موكب « الحسين » فراحوا يفسحون له الطريق هاتفين :

« مَرحباً بابن رسول الله .. قَدِمْتَ خير مَقـدم » ..!!

ولئن كانت هذه الحفاوة بالحسين قد ملأت نفس ابن زياد مرارة وحقـداً ، إلا أنها ألقتْ على قلبه الجبان كثيراً من الأمن ، إذ اطمأن إلى أنهم لم يعرفوه ،

وبالتالي لن يَصلوا إليه بسوء .

وحين بلــغ دار الإمارة ، واحتمى بشرطتها وحرسها ، راح ينصب شباكه ليقتنص رسول الحسين وابن عمه « مسلم بن عقيل » الذي كان يمارس نشاطه الجليل في همةٍ موفّقة وناجحة .

* * *

كان عــزل « النعمان بن بشير » عن الكوفة ، وتولية ابن زياد مكانه نذيراً رهيباً لمسلم بن عقيل .. فبعد أن كان يجتمع بالناس في غير تحرّج ولا تخوّف ، راح يُغيِّر مقرّه ، فينتقل إلى دار أخرى ، ويحيط نشاطه بكتمان كبير .

كانت الدار الجديدة التي انتقل إليها هي دار « هــانىء بن عُروة » من صَفوة أهل الكوفة وأشرافهم .

وكان ابن زياد قد اصطحب معه من البصرة بعض صفْوتها وزعمائها ، ومن بينهم « شريك بن الأعور » .. وكان « شريك » شيعياً يكتُم إيمانه وولاءه ، كذلك كان صديقاً لـ « هــانىء بن عروة » الذي يتخفّى « مسلم بن عقيــل » في داره ...

ورغب « هانىء » إلى صديقه « شريك » أن ينزل عليه ضيفاً في داره فقبل دعوته ، حيث التقى فيها بمسلم بن عقيل فبارك جهوده وجهاده وحثّه على المثابرة .

وهنا نلتقي بصورة مــن عظَمة آل البيت وأخلاقهم وشرفهم في النضال والقتــال .

ذلك أن « شريك بن الأعور » مرض ، وخفّ ابن زياد لعيادته حيث هــو في دار هــانىء ..

ورآها « شريك » نفسُه فرصة سانحة للإجهاز عليه والتخلص منه . فاتفق مع « مسلم بن عقيل » أن يفاجىء ابن زياد عندما يجيء إليه ، ويضربه بسيفه ضربة تريح منه البــلاد والعباد .

ولكن ابن زياد جــاء ، وجلس ، وطالت جلسته ، ثم غادر الدار دون أن ينــاله سوء ..

وبُعَيد انصرافه عاتب « شريك » « مُسلماً » وسأله : لمَـاذا لم تُنجـز ما اتفقنا عليه وتتقرب إلى الله بقتله ..؟ فأجـابه « مسلم » :

« لقد منعني من ذلك أمران : أولهما ، كراهية هانيء أن يُقتَلَ في داره .. وثانيهما : أن رسول الله ﷺ نهانا عن الغِيلة ، وقال : لا يَفْتِكُ مؤمن » ...!!

هذا هو الخلُق الشريف الذي يُناضل به أهلُ البيت الكرام !!

أما « مسلم » فقد واصل أخذ البيعة سراً حتى بايعه ثمانية عشر ألفاً .

وآنئذ ، وأمام تلك الأعداد الكثيرة من الأنصار والمبايعين ، أرسل « مسلم » إلى « الإمام الحسين » يبشره بما تمّ ، ويدعوه للقدوم ...

وآنئذ أيضاً ، كان ابن زياد قد جُنّ جنونه لإخفاقه في القبض على « مسلم » وفشلِ شرطته في معرفة مكانه ، هنالك لجـأ إلى حِيَله الخبيثة ، فاختار واحداً من مواليه ، واسمه ــ معقل التميمي ــ وأعطاه صرة بهـا ثلاثة آلاف درهم ، وأمره أن يجوب خلال الكوفة ، مُجرداً من نفسه شخصاً غير شخصه .. زاعمـاً ومتظاهراً بأنه واحد من شيعَة « الحسين » يريد أن يأخـذ مكانه بين صفوف أنصاره ، ويريد أن يُسهم بما معه من مال في شراء سلاح لأولئك الأنصار !!

وبعد طـوال تطواف ، وطول تعسُّس ، اهتـدى الجاسوس إلى ضالته المنشودة ، فقد تعرّف إلى رجل صالح من أصحاب « مسلم » قـاده أخيراً إلى مكانه ومقـره ..

وأتقن الخبيث دوره حتى خُدِعوا به جميعاً ، وأصبح أثيراً لديهم ، يزور « مسلماً » كل يوم حيث يقضي معه النهار كله .. ثم يقضي الليل بأجمعه مـع ابن زياد ، ناقلاً إليه الأخبار والأسرار ...!!

وحين تمكّن ابن زياد من قَنصه الثمين ، أرسل في طلب « هانيء » وفاجأه قائلا : « إيه يا هانيء بن عروة ، ما هـذه الأمور التي تُحاك في دارك لأمير

المؤمنين (! !) ، جئت بمسلم بن عقيل وأدخلته دارك وجمعت له السلاح والرجال، وظننت أن ذلك يخفى عليّ » ..

كانت المفاجأة أليمة الوقع على هانىء .. فرأى أن يُخادع ابن زياد بالإنكار ريثما يستعد لمجابهته التي أصبحت فوريّتها محتومة ..

لكن ابن زياد أذهله بمفاجأته الثانية ، فدعا جاسوسه ـ معقلا ـ الذي انتصب أمام « هانىء » كلَيْل الشتاء طويلا بارداً وسأله ابن زياد : أتعرف هذا ؟؟

وسُقِط في يد « هانىء » وأدرك كل شيء .. وسرعان ما سيطرت رجولته على الموقف في لحظة ، وصاح بابن زياد :

« أجلْ أعرفه ..

وإن « مسلماً » في داري ، وهو ضيفي ،

ولن أسْلمه أبداً » !!

وجُن جنون الطاغية ، فنادى جلاّديه وأمرهم أن ينزلوا به كل عذاب دون القتل حتى لا يستريح بالموت !!.

وتناوشه المجرمون ، يكسرون أنفه ، ويمزقون لحم وجهه ، ويهشمون عظامه ، وهو صابر مُحتسب .!!

ولما شَفى ابن زياد نفسه المظلمة بتعذيبه ، أمرهم أن يخرجوا به إلى السوق ويضربوا عنقه ..

وطار خبر مصرعه واستشهاده إلى « مسلم بن عقيل » فجمع رجاله وأنصاره ، وسار بهم إلى قصر الإمارة حيث ضربوا حوله حصاراً رهيباً .

لماذا لم يضرب « مسلم » ضربته من فوره ..؟

لماذا لم يقتحم القصر على ابن زياد ، وقد كان معه ساعتئذ من الأنصار المسلّحين أضعافُ أضعافِ الحرس الذين يحرسون الطاغية ؟؟

لماذا لم يستغل تلك الثورة العارمة التي كانت تشتمل في أنفس الناس نِقمة

وغضباً لمقتل « هانىء بن عروة » ٠٠٠؟؟

هنا ، ينجو ابن زياد مـرة أخرى من قتل مُحقَّق بسبب أناة « مسلم » وفضائله ! !

فـ « مسلم » يعلم أن « الإمام الحسين » إنما أرسله ليأخـذ له البيعة ولم يأذن له بقتـال ٠٠

وهو حريص على أن يلتزم الحدود التي رسمها له ابن عمـه وقائده ٠٠ !

وهكذا قضى اليوم كله مكتفياً بالحصار الذي ضربه وأحكمه ٠

بينما قضى ابن زياد ومَن معه في القصر يومهم في نسْج الشباك وإعمـال الحيلة ، فأوعز إلى بعض زعماء الكوفة وأشرافها الممالئين ليزيد ، والذين كانوا معه داخل القصر ، على أن يُطلِّوا على المحاصرين ساعة الغروب ، ويخبروهم أن جيش الشام في طريقه إلى الكوفة سيصلها غـداً أو بعد غد ٠٠ وسيحيل أحياءها قتلى ، ودورها تُراباً ٠٠ ففعلوا ما أمرهم به ابن زياد ، وأتقنوا عملية بثّ الرعب في القلوب ، ثم نصحوا الثوار أن ينصرفوا على أن تُعالج الأمور فيما بعـد ، بالتفاهم والمفاوضة ٠٠

وانصرف الثوار ـــ بعضُهم صرفه الفزع ٠٠ وبعضهم صرفه احتمال الوصول إلى تفاهم يحقن الدمـاء ٠٠!!

وفي الصباح انبثّت شرطة ابن زياد في طول الكوفة وعَرضها باحثين عـن « مسلم بن عقيل » حتى عثروا عليه في إحدى الدور ، فقاومهم وحـده بسيفه وعزمه ، ولكن دون جدوى ٠٠

وحُمِل إلى الطاغية ، حيث وقف أمامه صامتاً ورافضاً أن يُلقي عليه السلام٠

وسأله ابن زياد : أتُراك ترجو الحياة والبقـاء ٠٠؟؟

فأجـابه « مسلم » :

« إذا كنتَ تريـد قتلي ، فدعني أوصِ إلى بعض الذين هنـا من قـومي » ٠٠

أجل .. لم تشغله حياته .. إنما تشغله حياة ابن عمه « الحسين » الـذي أرسل إليه من قبل يدعوه للقدوم وهو الآن في طريقه إلى الكوفة ! !

كما تشغله ديون اقترضها منـذ قدومه ، حيث أسهم بهـا في شراء العتاد والسلاح .. ! !

وأجابه ابن زياد إلى طلبه ، فأمر ـ عمر بن سعد ـ أن يستمع لوصيته .

وأوصاه « مسلم » فقال :

« إن عليّ بالكوفة ديناً اقترضته ، فإذا قتلت فبع سيفي ودرعي ، وخُذ من غلتّي بالمدينة حتى تقضيه عني .. وإني قد أرسلت إلى « الحسين » أخبره أن الناس ينتظرونه ، وأدعوه للقـدوم ، ولا أراه إلا مُقبلاً . فابعث إليه من يردّه ويخبره أن أهل الكوفـة لا عهـد لهم » ..

ثم أسلمه الطاغية لجلاّديه ، فضربوا عنقـه .. ثم رموا رأسه الكريم من حالق إلى قارعة الطريق .. وأتبَعوا الرأس الجسد ..

ثم انصرفوا إلى لهوهم ومرحهم ، فقد كانت الليلة ليلَة العيد .!

وفي الصباح صلّى « ابن مرجانة » في المسجد الجامع صلاة عيد الأضحى .. ثم أمر برأس « مسلم بن عقيل » ورأس « هانيء بن عروة » فغُرسا في أسِنّة الرماح ثم أرسلهما إلى الشام ، هدية لمن يدعوه أمير المؤمنين ..!!

* * *

في الوقت الذي كان رأس « مسلم وهانيء » يقطعان الفيافي من عراق ابن زياد ، إلى شام يزيد .. كان « الإمام الحسين » يقطع طريقه من مكة إلى الكوفة ، دون أن يعلم بعد ، ما وقع بهـا من أهوال !!!..

وكان قبل خروجه قد صمد لمعارضةٍ عاتية من بعض أهله وأصحابه الذين خشوا عليـه عواقب الخروج .

* فهذا « عبد الله بن عباس » رضي الله عنه ، يُجري معه حواراً طـويلا يتوسل إليه خلاله كي يبقى حيث هو .

يقول له « ابن عباس » :

« يا ابن عم .. إنه قـد أرجَف الناس أنك سائر إلى العـراق ، فبيِّن لي ما أنت صانع ؟ »

فيجيبه « الحسين » :

« إني قد أجمعت المسير في أحد يوميَّ هذين إن شاء الله تعالى » ..

ويعود « ابن عباس » ليقول له :

« إن كانوا قـد دعَوْك إليهم بعـد أن عزلوا أميرهم ، ونفَوْا عدوهم ، ووطئوا أكناف بلادهم ، فسِرْ إليهم .. وإن لم يكونوا فعلوا ، فإنهم إذن يدعونك لفِتنة وقتال .. وإن أهـل الكوفة لا عهد لهم ، وإني أخشى عليك الهلاك ..

أقِم بهذا البلد حيث أنت .. وإذا كنت لا بد خارجاً ، فاذهب إلى اليمن ، فإن به حصوناً وشِعاباً ، ولأبيك به شيعة » ...

ويزداد « الحسين » تصميماً ويقول :

« يا ابن عم .. إني لأعلم أنك ناصح مُشفِق ، ولكني قد عزمت على المسير » ..

وتضيق الأرض بابن عباس ، وتحتدم أعصابه ويقول للحسين :

« لولا أن يُزرِيَ الناس بي وبك ، لشبَّثْتُ يدي في رأسـك ، فلا أدعك تذهب ..

ولكن إذا كنت لا بد سائراً ، فلا تَسِر بأولادك ونسائك ؛ فإني أخشى أن تُقتل وهم ينظرون إليك كما قُتل عثمان » ...!!

* وهذا « عبد الله بن عمـر » لا يعلم بمسيرته إلا بعد خروجه ، فيمتطي

ظهـر راحلته ، ويقطع الطريق وراءه وثبـاً ؛ حتى يلحـق به على بعد ثلاثـة أيـام من مكـة .

ويسأله : أين تريـد ؟؟

فيجيبه : الكوفة ، هذه كتبُ أهلها وبيعتهم ؛ وإني ذاهب إليهم .

فيقول له ابن عمر :

« إني محدّثك حديثاً ..

إن جبريل أتى النبي ﷺ ، فخيَّره بين الدنيا والآخـرة ، فاختار الآخرة ولم يُرد الدنيا .. وإنك بضعة من رسول الله .. والله ما يَليها أحد منكم أبداً ، وما صرفها الله عنكم ، إلا للذي هـو خـير لكم » .

ولكن « الحسين » لا ينقص عزمه ؛ فيضمه « ابن عمر » إلى صدره ويقبله ويقـول وهو يبكي :

« أستودعك الله من قتيل » ..!!

* كذلك كان « أبو سعيد الخدريّ » صاحب رسول الله قد حاول ثنيه عن عزمه قبل خروجه من مكة ، وجلس يقول له :

« لقد سمعت أباك يقول وأنا معـه بالكوفة : والله لقد مللتهم وأبغضتهم ، فما لهم ثباتٌ على أمر .. ولا صبرٌ على السيف .. ومن فاز بهم ، فاز بالسهم الأخيب » !!..

كل تلك المحاولات الحريصة على سلامته وحياته ، لم تلِن له قناة ، ولم توهِن له عزمـاً ..!!

ذلك أن القضية التي خـرج البطل حاملا لواءها ، لم تكن قضيةً شخصية تتعلق بحق له في الخلافة .. أو ترجع إلى عداوة شخصية يضمرها ليزيد .. كما أنها لم تكن قضية طموح يستحوذ على صاحبه ويدفعه إلى المغامرة التي يستوي فيها احتمال الربح والخسران ..

كانت القضية أجلّ ، وأسمى ، وأعظم ..

كانت قضية الإسلام ومصيره ، والمسلمين ومصيرهم ..

وإذا صمت المسلمون جميعهم تجاه هذا الباطل الذي أنكره البعض بلسانه ، وينكره الجميع بقلوبهم ، فمعنى ذلك ، أن الإسلام قد كفّ عن إنجاب الرجال ..!!!

معناه أن المسلمين قد فقدوا أهلية الانتماء لهذا الدين العظيم .

ومعناه أيضاً ، أن مصير الإسلام والمسلمين معاً ، قد أمسى معلّقاً بالقوة الباطشة ، فمن غلب ، ركب .. ولم يعد للقرآن ، ولا للحقيقة سلطان ..!!

هذه هي القضية في رُوع الحسين ..

وبهذا المنطق أصرّ على الخروج ..

ومعنىً آخر نبيل ، أفصحَ عنه في حواره مع ابن عباس حين كان يُلحّ عليه أن يبقى في مكة ، فقال له :

« إني أخاف أن تُستباح بسببي » .!!!

إنه برفضه مبايعة يزيد ، وبتصميمه على مقاومته ، يرى المجابهة أمراً محتوماً ..

ولم يُرد لهذه المجابهة أن تقع في البلد الحرام ، فهو على بينة من سَفالة خصومه .. وهو يعلم أنهم لن يتورّعوا عن هدم المسجد ذاته والكعبة ذاتها إذا اضطرهم القتال لذلك .

ثم إن أهل الكوفة قد دَعَوه ، ووثّقت دعوتهم بكتاب ابن عمه « مسلم ابن عقيل » فقد صار لزاماً عليه وفق اقتناعه بعدالة قضيته أن يُسارع إلى تلك الجبهة التي أعدّت نفسها لمناصرته والمقاومة معه .

ولكن ، ماذا عساه يصنع ، حين يعلم أن ابن عمه قُتِل .. وأن الذين بايعوه قد لاذوا بالفرار ..؟

لن يصنع شيئاً سوى المضي مع عزيمته وعزمه .. ذلك أنه لم يخرج ليُحرز

نصراً مضموناً .. بل خرج ليؤكد حق الإسلام في حماية نفسه من الضلال والإفك ، وليكفر في تضحية مجيدة عن خطيئة الصمت التي اقترفها الناس طائعين ، أو مكرهين ..!!!

وليكن بعد ذلك ما يكون !!

إن الذي يعنيه من ناحية الجوهر ، هو أن يؤدي ما رآه واجباً مقدساً عليه نحو دينه ونحو الحق .

والذي يعنيه من ناحية الشكل ، ألا تدور المعركة بينه وبين يزيد في مكة فيكون سبباً في استباحة حرمتها وقداستها .

« لأنْ أقتَل في أي مكان من الأرض ، أحب إلي من أن أقتَل هنا ، فيستباح البلد الحرام بسببي » ..!!

وهكذا طاف بالبيت الحرام ، مؤدياً له التحية التي لم يكن يدري أنها تحية الوداع ! !

ثم تصدَّر القافلة التي انتظمت أهله المباركين من زوجات ، وأخوات ، وإخوة ، وأبناء عمٍّ ، وأبناء إخوة .. كما انتظمت نفراً من أنصاره وصَحبه ..

ولقد اصطحب معه من أهله كل هذا الجمع ؛ لأنهم — غالباً — تشبثوا بالرحيل معه .. ولأنهم وَفق التدبير الذي كان مرسوماً ، سيقيمون في البيوت التي ستعَدّ لهم في الكوفة ، قريبين منه وتحت عينيه ورعايته .. ولأنه أخيراً — وربما كان هذا أهمَّ دواعي اصطحابهم معه — خشِيَ حين يشتبك مع يزيد في قتال ، أن ينتقم منه في شخص أهله هؤلاء من زوجات وإخوة وأخوات . فيهاجم مكة ، ويستبيحها بسببهم ، الأمر الذي كان « الحسين » يخشاه دائماً ويتوقاه .. ! !

* * *

ومضى البطل إلى غايته ..

وأخذت النُّذُر تلقاه على طول طريقه .. ففي أول الطريق لقيه الفَرَزْدَق الشاعر قادماً من الكوفة .

وسأله « الحسين » : « كيف تركت الناس من ورائك » ؟

فأجابه الفرزدق : « تركتهم ، قلوبهم معك .. وسيوفهم مع بني أمية » .

إنه نذير من رجل له بالأمور فِطنة وبصَر . لكن البطل العظيم لا يزيد على أن يتلو الآية الكريمة :

(لِلهِ الأمرُ من قبلُ ومِن بعد) ..!!

ويمضي في طريقه .. وبعد أيام يلقاه « عبد الله بن مطيع » قادماً هو الآخر من العراق ، فلا يكاد يرى « الحسين » حتى يتعلَّق بثيابه صارخاً وراجياً أن يعود ، قائلاً له :

« أناشِدُكَ الله ألا تذهب للكوفة ، فوالله لئن أتيتها لتُقتَلَنَّ » .

فما يزيد على أن يتلو الآية الكريمة :

(قُل لن يُصيبَنا إلا ما كتَبَ الله لنا) ..!!

ويستأنف السير مع قَدْرِه وقَدَرِه ..

وبعد مرحلة أخرى من الطريق يلقاه رجل من بني أسد . قادم من الكوفة أيضاً ، فيسأله « الإمام » عن أخبارها .

فيجيبه الرجل : لقد قُتل (مسلم بن عقيل ، وهانيء بن عروة) ..!!

نبأ يهدّ الجبال ..

ولكنْ ، مَن هو بإيمانه أقوى من الجبال ، ماذا تكون رُدودُ فعل هذا النبأ الرهيب لديه ..؟

أرسلَ بصره في الأفق البعيد ، ثم قال :

« إنَّا لله ، وإنا إليه راجعون . عندَ الله نحتَسبُ أنفسَنا ولا خيرَ في العيش بعد هؤلاء » ..!!

إن مصرع « مسلم وهـانىء » كان كافياً لصرف « الحسين » عن غايته ، لو أنه كان في موقفه وخروجه إنما يستمد شجاعته وجسارته من مساندة أهـل الكوفة له .. وليس من إيمانه واقتناعه وضميره .

فمعنى قتل « مسلم وهانىء » ، أن الجبهة كلها قد انهارت ، وأن أهل الكوفة — على أحسن الظنون بهم — قد باتوا عاجزين عما كانوا قد جنّدوا أنفسهم له .

وهذا كافٍ لكي يَلْوي « الحسين » زمام قافلته ويعود .

لكن تصميمه الوثيق يقوده .. وقدَرَه العظيم كان يناديه ..!!

سار — رضي الله عنه — يقطع الصحاري المتلظّية ، مجتازاً في مشقّة وكبَد ، أغوارها ونُجودها .. مُعانياً لفحَها الضّارب كريح السّموم ، حتى بلغ مكاناً يُدعى « بطن الرّمّة » ، فحط رحاله ، وضرب خيامه ليستريح ومَن معه ..

ثم كتب لأهل الكوفة كتاباً يخبرهم أنه في الطريق إليهم ، وأعطى الكتاب واحـداً من أصحابه هو : « قيس بن مسهر الصيداوي » وأمره أن يسبقه به إلى الكوفـة .

ومضى « قيس » لسبيله.. بيد أنه لم يكد يبلغ القادسيّة حتى لقيته قوات ابن زياد ، فاعتقلته وصحبته معها إلى الكوفة .

وهنا نرى مشهداً بطَلاً ، لرجل بطَل ! !

فقد أمـره ابن زياد أن يُشرفَ على الناس من شُرفة قصره ، ويلعـن « الحسين » .. ويعلن على الملأ أنه — حاشاه ثم حاشاه — كذّاب وابن كذّاب !!

وتظاهر « قيس » بالطاعة ، وصعد مع الحرس إلى حيث أراد ابن مرجانة ..

ثم ألقى على الجموع التي جمعوها وحشدوها نظرة وابتسامة ثم صاح :

« أيها الناس ..

إن « الحسين بن علي » من خير خَلْق الله ، فأجيبوه وانصُروه ..

وإن الكذّاب بن الكذّاب ، هـو عُبيْد الله بن زياد ، فالْعنوه والعنوا أباه » ..!!

هل تستطيع كل فصاحة البشر ، أن تعلّق على هذا الموقف بثناء ، أو إطراء . أو تمجيـد ..؟؟!!

كلاّ ..

فلنلق نظرة مزدرية على ابن زياد ، لنرى ما أنزل به موقف « قيس » العظيم من خزيٍ وإذلالٍ وسُعار ..

لقد جُن كالكلب المسعور ، وراح يلعن ويرجُم شياطينه لأنهم أمهلوه حياً حتى أكمل عبارته القاصمة .

ثم أمرهم أن يُلقوا به حياً من أعلى سور القصر ، فقُذف به ، حيث اندقّت عظامه ، وغرَبت حياته [1] ..!!

* * *

لم يعلم « الحسين » بمصير « قيس » بعد ..

ولقد استأنف سيره ومسراه حتى انتهى إلى مكان يُدعى — زرود — وهناك أبصر فسطاطاً مضروباً . فسأل عنه فعلـم أنه لـ « زهـير بن القَين » فأرسل « الحسين » في طلبه ، فتثاقل أول الأمر ، ثم ذهب إلى لقائه ضَجِراً ..

وحين التقيا ، أسَرَّ « الحسين » إليه حديثاً ، لم يكد الرجـل يسمعه حتى تهلّل وجهه ، وامتلأ غبطة وبِشرا ..!!

ثم سارع فنقل فسطاطه إلى جوار فسطاط « الحسين » وقال لمن كان معـه من أهله : « مَن أحبَّ منكم أن يتبعني ، وإلاّ فإنه آخر العهد بيننا » .

ثم التفت إلى زوجته وقال لها : « أما أنت ، فالحقي بأهلك ؛ فإني لا أحب أن يصيبك بسببي سوء » ..

وانصرف أقرباؤه عائدين إلى موطنهم ، مصطحبين معهم زوجته ..

ترى ماذا قال له «الحسين » حين ناجاه ..؟!

---

(١) هنـاك رواية تاريخية اخرى تقول : إن صاحب هـذا الموقف ، هو « عبد الله بن يقطر » اخـو « الحسين » من الرضاعة .

هل وعَده بمنصِب ، أو مَغنم ..؟؟

لو كان ذلك ، ما سرَّح زوجته ، ولا قال للذين كانوا معه مُودِّعاً إياهم : « إنه آخر العهد بيننا » ..

ثم بأيِّ مَغنم يَعِده « الحسين » وقد جاءته الأنباء بمقتل رسُله ، وشراسةِ عدوِّه ..؟؟

أغلب الظن أنه حدَّثه عن قضيته العادلة ، ثم ختم حديثه معه قائلا : تلك هي القضية ، ففيم إبطاؤك عن الجنة ..؟!!

وتابعت القافلة سيرها ، كاسِبَةً هذا النصير الجديد ، ومنتظمة رجالاً آخرين كانوا ينضمون إليها خلال عبورها بقُراهم وخيامهم عَبْر الطريق الطويل .

وبعد مسيرتهم من جديد ، أبصروا فارساً يثير النَّقْعَ ، ويطوي الأرض ..

لقد كان رسول ــ عمر بن سعد ــ الذي أوصاه « مسلم بن عقيل » ــ قبل مقتله بأن يرسل للحسين يخبره بما حدث ، وينصحه بالرجوع ..

لم يبق في الأمـر إذن شك ولا ريب .!!

ولم يدر في خاطر الحسين أدنى تردّد ، بل انتضى عزمه وواصل سيره ..

كل ما هنالك ، أنه أعْفى أولئك الذين تطوَّعوا لنصرته من رجال القبائل التي مرَّ بهـا خـلال سفره .

لقد انضمُّوا إليه على أمل النصر .. أما الآن فالأمل في الاستشهاد وحده ..!!

ومضى في صحبة أهله ، وخاصَّته ، والنصير الجديد والعظيم « زهير بن القَيْن » ..

* * *

كان ابن زياد ، قد فرض حـول الكوفة حصاراً مُحكماً ، فلا يخرج مـن أهلهـا أحد ، مَخافة أن ينضموا لموكب البطل القادم إلى الكوفة .

ولم يأذن لأحد من أهلهـا بالخروج إلا إذا كان ذاهباً للحج ، شريطة ألا

يكون يحب « الحسين » أو التشيّع له ..!!

وفي نفس الوقت ، أطلق من وراء مَشارفها وحدودها البعيدة طلائعه وسراياه ، آمراً إياها أن تتربص بقافلة « الإمام الحسين » . فإذا التقَتْ بها إحداها احتجزتها حيث هي ، ثم أرسلت بالخبر لابن زياد .

وعند إحدى القرى الرابضة على حدود العراق ، التقى ركب « الإمام » بإحدى تلك الطلائع .

كانت تضم ألف فارس ، تحت إمرة « الحر بن يزيد التميمي » .

ولم يكن « الحسين » يراهم قادمين نحوه ، يتصببون عرقاً من وقدة الحر وقد تيبَّسَتْ شفاههم من الظمأ ، حتى أمر فتيانه أن يستقبلوهم بالماء ، فشربوا حتى رَوَوْا ، ثم جلسوا في ظلال خيولهم .. وأذَّن مؤذن لصلاة الظهر ، فسأل « الحسين » الحر بن يزيد : (أتصلي بأصحابك وأصلي بأصحابي) ..؟

وأجابه الحر قائلا : « بل نصلي جميعاً بصلاتك » ..

ومضى الوقت بعد الصلاة في حديث وتحاوُر .. ثم صلوا العصر حين جاء موعده . واستأنفوا بعد الصلاة الحوار قال « الحسين » لهم :

« إني لم آتكم حتى أتتني كُتبكُم ، وقدِمَت عليَّ رسُلكم .
فإن أعطيتموني ما أطمئن إليه من عهد وميثاق دخلت معكم مِصركم،
وإن تكن الأخرى انصرفت عنكم » .

لكن — الحر بن يزيد — أنبأ « الحسين » رضي الله عنه أنه لا يدري من الأمر شيئاً ، وأنه كُلِّف من أمير الكوفة والبصرة — عبيد الله بن زياد — بمهمَّة محددة ، هي انتظار ركب « الحسين » حين يجيء ، ثم قيادته إلى ابن زياد بالكوفة..

ابنُ زياد بالكوفة ..؟؟!!

يا لَهوان الدنيا حين يُمسك بمقاليدها السَّفَلة ، وتَهيضُ فيها أقدارُ الكِرام ..!!

قال الحسين : « الموت أدنى إليك مما تريد » ...!! ثم أمر أصحابه ، فحملوا متاعهم، وركبوا رواحلهم،ثم تقدمهم في المسير منصرفاً عن الكوفة،مغيِّراً اتجاهه..

لكن « الحر بن يزيد » أمر فرسانه فقطعوا عليهم الطريق .

وصاح به الحسين : ماذا تريد ..؟

قال الحر : أن تصحبني إلى ابن زياد ..

قال الحسين : إذن والله لا أتبعُك ..

وأجابه الحرّ : إذن والله لا أدعُك ..

وصاح الحسين : إنها الحرب إذن ..!!

وهنا لانتْ عريكةُ الحرّ بن يزيد فقال « إني والله لا أريد قتالك ولم أومَر به ، وإني لأرجو أن يرزقني الله فيك العافية ، ولا أبتَلى بشيء من أمرك . ولقد أمِرت إن أنا لقيتُك ألا أفارقك حتى أخبر الأمير ابن زياد ، فإن رأيت فاتَّخذ طريقاً لا تُدخِلك الكوفة ولا تردّك عنها حتى يأتينا رأي الأمير » .

ومضى ركب « الإمام الحسين » يضرب في تلك الرقعة من الأرض ، يتيامَن، مرة ، ويتياسَر أخرى . وفرسان ابن زياد بقيادة الحرّ يذودون الركب عن البادية كلما همّ أن يُدلِف إليها ويدفعونه تجاه الكوفة في رفق ..

ولم يكد الرَّكْب يبلغ « نينَوى » تلك القرية التي قيل إنها كانت موطن النبي « يونس » عليه السلام ، حتى تراءى لهم من النَّقع المثار ، راكب يغذّ السير ويطوي الرمال .. ولبثوا مكانهم ينتظرون ، فإذا هو رسول ابن زياد للحر ابن يزيد يحمل إليه كتاباً يقول فيه : « .. أما بعد ، فشددْ على « الحسين » في المكان الذي يوافيك عنده كتابي .. ولا تُنزِله إلا بالعراء ، في غير حِصن وعلى غير ماء..وقد أمرتُ رسولي ألا يُفارقك حتى تأتيني بإنفاذ أمري، والسلام »..!!

وتلا ــ الحر ــ الكتاب ، ثم ناوله « الحسين » فتلاه .. وأراد الحسين أن يستأنف سيره متجهاً صوب مَسيل ماء ، فمنعه ــ الحرّ ــ الذي كانت تحاصره

نظرات الرقيب الوافد من عند ابن زياد .. وغيَّر « الحسين » اتجاهه ، وسار بركبه والفرسان عن جانبيه .

ولكن إلى أين ..؟

لقد خَشِيَ الحرّ أن تفلت الفرصة منه ، فتصدّى للركب السائر ، وأصرَّ على النزول حيث انتهت خطواته ..

ونزل الركب من فوق رواحله .

وألقى الحسين بصره على الفضاءِ الموحِش حوله ..

ثم سأل : ما اسم هـذا المكان ..؟

قالوا : اسمه كَرْبَلاء ..

فاختفى تفاؤله وراء إحساسٍ بالجزع ، وتذكّر ذلك اليوم الـذي تحدثنا عنه من قبل .. يوم كان « الإمـام علي » في طريقه إلى « صِفّين » فوقف على نفس المكان ، وقال :

« هُنا ، محطّ رحالهم ، ومُهراقُ دمائهم » ..

تذكّر « الحسين » المشهد كله ، فقد كان يومئذ مع أبيه .

وذابَ الوجود من حوله في لحظاتِ تأمّلٍ حارة ، صاهِرة ..

كَرْبَلاء ..؟؟!!

ها هي ذي بين نُبوءة الأمس ، وواقع اليوم ، ومصير الغد !!

أيّ سِرٍّ للقدر ، ينشُره ويطويه .. يُظهره ويُخفيه ..؟!

وأيّةُ حكمة إلهية ، تقود حياتنا بين مطالعها ومغاربها مُذعِنَةً لقدَرِها الحكيم ، وتقديرها العليم ..!!

لقد راح البطل يستعيد بخواطره ذلك اليوم، وتلك الواقعة، وتلك النبوءة..!!

وراح يهزّ رأسه المضيء في حركة متأمّلة، كمن أدرك الحكمة وطالع المصير..

وارتسمت أمام خاطره بحروف كبار آية القرآن العظيم :

(قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم . وليبتلي الله ما في صدوركم ، وليمحص ما في قلوبكم . والله عليم بذات الصدور) ..

ونهض في قوة وطمأنينة ، وراح يشارك صحبه في شد الخيام ، فقد آن للعقيلات والأخوات أن يسترحن ، بعد ما أضناهن لغوب السفر ، ومشقة الطريق ..

وراح وهو يعمل ، يردد في حبور وتهلل آية الله في كتابه :

(إن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين)...!!



الفصل السادس

المأساة، والعظمة

كان اليوم، غرّة المحرم ...

والعام، الواحد والستين للهجرة ...

والمكان، كربلاء .. على مقربة من نهر الفرات ..

وقبل أن نبلغ اليوم العاشر من المحرم .. يومَ الواقعة الرهيبة، والمهيبة .. يوم الآلام، والمجد .. يوم الفاجعة، والبطولة .. يوم المأساة، والعظمة ..

قبل أن نبلغ هذا اليوم، علينا أن نتابع الأحداث التي سبقته، وكانت جزءاً من صميمه .

إن ابن زياد في الكوفة يعمل ليلَ نهار في إعداد ضربته الآثمة المجرمة التي تلهثُ وراءها روحه المظلمة المسعورة .!!

وها هو ذاك، يختار قواده للمعركة، ويحشد المقاتلين ..

وحين يرى الناسَ يهربون من الانضمام لجيشه . يلجأ إلى طريقته في معالجة العصيان، فيجمع أهل الكوفة أمام قصره . ثم يأتي بأحد المضربين عن الاشتراك في جيشه فيأمر بضرب عنقه، ثم يلقي برأسه ليتدحرج على الأرض أمام الناس الذين يفزعهم المشهد، فيقبلون على طاعته كارهين ومكرهين ...!!

وتذكّر ابن زياد أن لديه جيشاً مجهّزاً، قِوامه أربعة آلاف فارس، كان قد أعده تحت قيادة ــ عمر بن سعد ــ لمجابهة ثورة الديْلم في أرض همَذان . كما كان قد عيّن ــ عمر ــ هذا والياً على الريّ .. فدعاه إليه وأمره أن يخرج بجيشه إلى كربلاء .

واعتذر عمــر بن سعد ، فراراً من أن تتلوث نفسه ويداه بجريمة لا يطيقها ضَميرٌ به مُسْكة من رشاد ..!!

لكن الطاغية هدده بحرمانه من الولاية التي كان يطمح إليهــا وبعزله عن الجيش كلــه ، فضعفت مقاومة ابن سعد وغاب رُشده ، وقَبِل القيــام بالمهمة البشعة ، وسار بجيشه إلى كربلاء ..

وكان مستشار ابن زياد لهذه الحملة الباغية، مسْخٌ شائهُ الخَلْق والخلُق، اسمه شِمْر بن ذي الجون .

رجل مدخول الإسلام ، انشقَّت عنه الأرض بغتة في الأيام الأولى لفتنة الخوارج الذين ناصَبوا الإمام علياً العداء . فأدلى معهم بدَلْوِه ، عاملاً لحساب نفسه الخبيثة ، أو لحساب قوة خفية شِرِّيرة ..

ومن تلك الأيام ، وهو يَكيد للإسلام ، ويُخرِّب في صفوفه متخفياً وراء ذلك القِناع المشبوه ــ قنــاع انتسائه للخوارج وتسلّله بمبادئهم إلى أغراضه المنكرة وأغراض القُوى التي يعمل لحسابها .!

ولقد نفثَ في رُوع ابن زياد أن هذه فرصة عمره ، إذا استطاع أن يجهــز على « الإمام الحسين » ويقدم رأسه هدية لسيده يزيد ..!!

* *

نحن الآن في اليوم الثاني من المحرم .. وقد وافى كربلاء ــ عمر بن سعد ــ في جيشه المكون من أربعة آلاف فارس ، كما ذكرنا من قبل .

ولقد عسكر هناك على مقربة من معسكر « الإمام الحسين » الذي لا يزيد عن اثنين وسبعين من أهله وأنصاره .

وابتدأ عمر بن سعد ، مهمته باختيار أحد رجاله ، واسمه قرة بن سفيان الحنظلي ، آمراً إياه أن يذهب إلى « الحسين » رضي الله عنه ، فيسأله : لماذا جاء ؟؟

وأجــابه « البطَل » :

« إن أهل هذا المصر ــ يعني الكوفة ــ كتبوا إليَّ يذكرون أنهم

لا إمام لهم ، ويسألونني القدوم عليهم ، فجئت إليهم ..
وفي الطريق علمت نكوصـهم ، فأردت الرجوع ، فمنعني الحر بن
يزيد ، وسار بي إلى هـذا المكان » ..

وفرح عمر بن سعد ، بهذه الإجابة التي أثلجت صدره إذ رأى فيها بادرة لإمكان الوصول إلى حل سلمي ينجيه من خوض قتال يتمنى ألا يطوق عنقه بأوزاره الثقال ..!!

فبادر بالكتابة إلى طاغية الكوفة ، الذي أجابه على الفور بكتاب يقول فيه : « قد بلغني كتابك ، فاعرض على الحسين البيعة ليزيد ، فإذا بايع ومن معه فأخبرني وسيأتيك رأيي » ..!

وعرض ابن سعد كتاب الطاغية على « الإمام الحسين » فكان جوابه :
« لا أجيب ابن زياد إلى ذلك أبداً . وإن يكن الموت فمرحباً به » ..!!

ويرسل عمر إلى أميره رد « الحسين » فيكتب ابن زياد إليـه : « امنع الحسين وأصحابه الماء ، وحل بينهم وبينه حتى لا يذوقوا منه حسوة ، كما فعلوا بالتقي عثمان بن عفان » ..!!

يا للفجار حين يتوقحون ...!!

ترى هل سأل ابن زياد نفسه : أين كان يوم منع « عثمان » الماء ..؟؟

وأين كان « الحسن والحسين وأبوهما الإمام » ..؟!

أما هو ، فكان جيفة تنتقل في مراتع الإثم ..

وأما « الإمام » .. ومعذرة إلى الله عن هذه المقابلة التي نلجأ إليها مضطرين ..

نقول : أما « الإمام » فقد كان يحمل قربة الماء على كاهله ، ويخوض بهـا بين الثوار مقتحماً صفوفهم ، متحدياً حصارهم . يذودهم ويذودونه ، ويدفعهم ويدفعونه ، حتى سقطت عمامته من فوق رأسه ، وحتى أنفذ المـاء إلى الخليفة الظمـآن !!

وأما « الحسين وأخوه الحسن » فقد كانا هناك بأمر من أبيهما ؛ يحرسان الخليفة ويذودان عنه عوادي الثوار.

ولقد جُرحا ، وسال منهما الدم .. ورغم ما بذلاه من طاقة وجهد ، فإنهما لم ينجُوا بعد استشهاد « عثمان » رضي الله عنه من لوم أبيهما الشديد ، بل ولَطْمِهما بيديه ، وهو يصرخ فيهما :

« لماذا لم تموتا دونه » ..؟!

والآن ، يزعم هذا الغِرّ الكذوب أنه يثأر لعثمان ، ولا يتورع عن اتخاذ ذكراه وسيلة دنيئة يبرر بها وحشيته وحرمان أبناء الرسول في تلك الأرض القائظة من شربة ماء ..!!

* * *

وعاد الحوار بين « الإمام الحسين » وعمر بن سعد ، فاستمسك « الحسين » بموقفه في رفض مبايعة يزيد .

يقول « عقبة بن سمعان » وهو أحد اثنين من أصحاب « الحسين » خلصا من المعركة :

« صحبتُ « الحسين » من المدينة إلى مكة ، ومن مكة إلى العراق .. وسمعتُ جميع أحاديثه حتى يوم مقتله ..
فوالله ما زاد على أن قال لهم : دعوني أرجع إلى البلد الذي أقبلت منه ، أو دعوني أذهب في هذه الأرض العريضة ؛ حتى ننظر ما يصير إليه أمر الناس .. فلم يفعلوا » !!

هو إذن ، لم يعرض كما تزعم بعض الروايات الدخيلة أن يذهبوا به إلى يزيد فيضع يده في يده ..

هذا تحريف واضح .. وإلاَّ ففيم إذن كان امتناعه عن أن يقول بلسانه : بايعتُ يزيد ، فينفَضّ جيش ابن زياد ، وينتهي كل شيء ..؟!

لقد رفض الذهاب إلى الكوفة للقـاء ابن زياد ..
ثم رفض طلب ابن زياد ، بأن يُبايع يزيد ..

وها هو ذا الهول يحيط به وهو صامد ، يرفض الإذعان لعصابة البغي والإثم في عزّة المتقين ، وإباء الأكرمين .!!

وضاق صدر ابن زياد بصمود البطل ، ففزع إلى مستشاره الزنيم شمر بن ذي الجون ، فأشار عليه أن يقسو على ــ عمر بن سعد ــ في خطابه ، ويأمـره أن يجيء بالحسين ومن معه إلى الكوفة عنوة ، فإن أبوا ، قاتلهم حتى الموت ..

ويلمح شمر ، المتلىء بقذارة النفس وخبث الطوية .. يلمح في ذلك الحوار الدائر بين « الحسين » وعمر بن سـعد بادرة قد تُفضي إلى مهادنة أو تفاهُم ــ الأمر الذي لا يُشبع نَهمَه الخبيث إلى التقويض والتخريب اللذيْن يعمل لهما منذ زعم الإسلام وادّعاه ...!!

هناك هـداه تفكيره الخبيث إلى أن ينتقل بنفسه إلى أرض القتال ، ليتولّى إضرام النار ، إذا هي لم تَضرِم نفسها وليَصِل بالمعركة بعد شُبوبها إلى الغرض الذي يريد .!!

وهكذا اقترح على ابن زياد أن يحمل كتابه بنفسه إلى قائد جيشه عمر بن سعد ، ويبقى هناك عيناً لابن زياد ورقيباً ، ومقاتلا أيضاً ...

واشترك مع أميره الطاغية في صياغة كتابه إلى ابن سعد ، ثم هَرْوَل به إلى كربلاء ..

« من عبد الله بن زياد أمير الكوفة والبصرة ، إلى عمر بن سعد ، فإني لم أبعثك إلى « الحسين » لتكُفّ عنـه ، ولا لتكون له عندي شفيعاً .

ادْعُ « الحسين » إلى ما أمرتك ، فإن نزل وأصحابه على الحكم مستسلمين ، فابعث بهـم إليّ . وإن أبوا ، فازحَفْ عليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم .

وبعد أن يُقتل « الحسين » أوطِيء الخيل صدره وظهره ..
فإن مضيت لأمرنا ، جزيناك جـزاء السامع المطيع .. وإن أبيت
فاعتزل جنـدنا .. وخَلِّ بين شمر بن ذي الجوشن والعسكر
والسلام » ..!!

لم يكد عمر بن سعد ، يتلو خطاب أميره حتى أدرك ما وراءه من كيد ابن ذي الجون ، فقال له :

« لقد أفسدتَ علينا أمراً كنا نرجو صلاحه .. والله لن يستسلم الحسين أبـداً » ..

فأجابه شمر : « امْضِ لأمر أميرك وقاتِل ، أو فخَلِّ بيني وبين الجند » ..

ومرة أخرى ، غَلب ابن سعد على دينه ، واستسلم لأطماعه وهواه ؛ فرضي أن يبقى قائداً لحملة رجيمة ، وجيش ظلوم !!

★ ★ ★

وضَحَتِ النوايا إذَن ، أمام « الحسين » ..
إنهم يريدون إذلاله ، أو يريدون حياته ..

أما المذلةُ ، فالمماتُ دونها !!

وأما حياته ، فليسَ هو أول مَن يجود بها في سبيل الحـق من آل بيتـه العظيم ، ولن يكون آخر من يجود بالحياة منهم ..

الصعب في الأمر ، أنهم لا يريدون أن يقاتلوا قتال الشرفاء ؛ بل ولا قتال الآدميين !!

إنهم لا يقنعون بمواجهته في أربعة آلاف فارس ، بينما كل الذين معـه من أهل وصحب ، اثنان وسبعون لا غـير ..

أجل .. إنهم لا يقنعون بتفوقهم العَدديّ الساحق ، فيحُولون في صَغارٍ ولؤم ، بينه وبين المـاء ؛ وهم يرون مَن وراءه في الخيام من سيدات ؛ وأطفال ، ومرضى !!

لقد حاصروا الطريق إلى شريعة المـاء بخمسمائة فارس .. وجَفَّت القِرَب التي كان أخوه « العباس بن علي » قد ملأها من قبلُ عَنوة ، وقبل أن يَضْرى حولهـا الحصار .

ولقد يصبر « الحسين » ويصبر رجاله على الظمأ إلى حين ، ولكن الأطفال والنسوة الذين لم يعد يُطاق مشهدهم وهم يترنحون تحت وطأة الظمأ القاتل !! ماذا يصنع البطل لهم ..؟!

ترى هل أسِف على خروجه من مكة إلى حيث هو الآن .؟

إن المؤمنين لا يأسفون على خَطر ، ولا يَجزعون من قدَر ..

ولعله قد أسِف لشيء واحد ، هو أنه لم يستمع لنصح ابن عمه « عبد الله ابن عباس » ألاّ يصحب معه الحرائر والأبناء . ومع هذا ، فلله الأمر من قبـل ومِن بعـد !!

ولسوف يصبر على واجبه ، ويُعانق مصيره بما عُرف عن بيته الكريم من رضاً وثبات وولاء ..

هكذا وقف ابن الرسول الأكرم .. وقف ابن « علي » البطل ، و « فاطمة » الزهراء الموقفَ اللائق به ، والمقدورَ له ..

كان يستطيع أن يُخادعهم ، والحربُ خُدعة ..

بل كان من حقه لو شاء أن يبايع بلسانه ، حتى إذا عاد بأهله إلى مكة واطمأن على سلامتهم ، خلى البيعة وألقى بهـا إلى الترابَ ، وله من دينه في مثـل ذلك رُخصةٌ سجلها القرآن في بعض آياته فقال :

(.. إلاّ مَنْ أكرِهَ وقلبُه مطمئنٌ بالإيمان) .

لكنــه سليل بيت ، ليسَ من طرازه ســواه . وابنُ رجـالٍ لا يركَبون الرُّخص ، بل يعانقون العزائم !!...

إن عاقبة المعركة لواضحة مقروءة .. فاثنان وسبعون ، لن يَهزِموا .. بل

يتفلتوا من أربعة آلاف فارس ضربوا حول القلة الصامدة أبشع حصار ... إنه لا أمل في النصر .

ولكن ، أيّ نصر هذا الذي لا أمل فيه ..؟ النصر العسكري في معركة غير متكافئة ..؟؟

ليكن ذلك ، فأين النصر الآخر ، الأعظمُ ، والأكرمُ ، والأبقى ..؟

النصر الذي يتحقق ويتمثل في بذل الحياة من أجل الواجب .. وفي إعطاءِ القدوة بروعةِ الثبات .. وفي إضاءة ضمير الحياة بجلال التضحية ..؟!!

هذا النصر ، هل فقد « الحسين » الأمل فيه ؟؟ لا .. بل لقد تجسّدت فيه كل آماله وآمال الذين معه ، ومن ثم تشبّثَ وتشبّثوا به في ولَهٍ عظيم ، وراح يقاتل ويقاتلون في سبيله على نحوٍ يجلّ عن النظير ..!!

وإننا لنظلم يوم كربلاء ظلماً كبيراً ، حين نظنه مأساة لا غير .. وفاجعة لا أكثر .. ونتخذه مناسبة لاجترار الأحزان والآلام ..

لا .. ثم لا ، يا رجال ! !

إنه مأساة وفاجعة إذا نظرنا إلى الشكل الخارجي للمعركة ، فرأينا السّفلة الأدعياء ينتصرون .. ورأينا الوحشية المجرمة تفتك بأبناء الرسول .

لكنّ يوم كربلاء ليس مأساةً وفاجعة ، إذا نفذنا ببصائرنا إلى جوهره النضير ، فرأينا عظمة الثبات ، وروعةَ البطولة ، وعزّة الإيمان ، وجلالَ التضحية، في مهرجانٍ للحق ، هيهات أن يكون له نظير ..!!

وستكون لنا إن شاء الله وقفة مع هذا المعنى الجليل الخالد في الفصل القادم من الكتاب .

أما الآن ، فإن علينا أن نسارع إلى مكان المعركة الأليمة والعظيمة ؛ فإن ساعاتها الحاسمة تقترب ..!!

* * *

نحن الآن مع اليوم التاسع من المحرم . وقد ولّى نهاره ودَلِف ليلٌ جديد ! !

ولقد أخذ جيش ابن زياد يتحرك للوثوب ..

ورأى الحسين تحركاتهم. وتذكّر واجباً لا بد من أدائه قبل أن يبدأ القتال.

هنالك أرسل إلى قائدهم عمر بن سعد ــ طالباً إرجاءَ القتال إلى غد ..

وأجابه ابن سعد إلى ما طلب .. ولعلّه ظن أن وراء هذه الرغبة في الإرجاءِ عزماً على طلب التسليم وعلى بيعة يزيد !!

ترى . لماذا طلب « البطل » إرجاء القتال ..؟؟

هل ليُدير خواطره من جديد حول موقفه ؟

هل اقترب اليأس من عزمه ، فأراد أن يفكر مع نفسه في البحث عن مخرج يُوَقّيه وأصحابه ما ينتظرهم من هول ..؟

كلا .. لم يكن لشيءٍ كهذا أي وجود في رُوع البطل . ولا في تفكيره .

فهو قد وطّن نفسه على الموت من أولى ساعات المؤامرة التي بدأت مع طلائع جيش ابن زياد ..

وهو لا يعرف خِياراً . بين أمرين ، ثانيهما خذلان الحق وبيعة يزيد ! !

إن أمامه طريقاً واحداً . ليس لمثله أن يسلك في هذه القضية سواه .. ذلكم هو سبيل التضحية بالحياة . ولو أمكَن . فَبِألف حياة ..!!

إنما طلب إرجاء القتال إلى الغد ، لأنه عظيم جدّ عظيم .. ليس لعظمة نفسه منتهى ، وليس لنُبْل روحِه حدود !!

انظروا ...

عندما استبانت له نتيجة المعركة . أراد أن يدفع حياته وحدها زُلْفى لها وقُرباناً ..!!

لم يشأ أن يدفع لسيوف البغي حياة أنصارِه الخمسين ، ومعهم الأشبال

والرجال من أهله وأبنائه ، بعد أن تغير الموقف بالنسبة لهم ..

لقد خرجوا معه على حساب أن الكوفة في انتظارهم ، ليبدأوا منها وبها مقاومة مشروعة ، يدْحَضون بها ضلال حاكم الشام ، ويَدرأون بها عن الإسلام خُبْثَ بني أمية ..

لكنهم فوجئوا بالكوفة تنتظرهم بوجه آخر كالحٍ وعَبوس ..

فرُسُل « الحسن » صُرِعوا ، واستشهدوا ..

والألوف التي أعطت بيعتها لمسلم بن عقيل ، تبدّدتْ واختفت كالجرذان ..!!

وبدلاً من أن يجد البطل في استقباله كتائب الحق من شيعته وأنصاره ، وجد عصابات البغي تنتظره بالغدر وبالمنايا ..!!

إذن ، الموقف قد تغير بالنسبة للذين معه من أهل وأنصار ..

وإن لم يكن قد تغير بالنسبة له ، ولما وطّن عليه إرادته ، وعزمه ، وضميره .

وهكذا طلب إرجاء القتال ، ليجعل أهله وأصحابه في حِلٍّ من كل التزاماتهم تِجاهَه ..!!

وهكذا جمعهم في الليل ، وقال لهم بعد أن حَمِد الله وأثنى عليه : —

« .. أما بعد ، فإني لا أعرف أصحاباً خيراً من أصحابي .. ولا أهلَ بيت أبرَّ ، وأوصلَ من أهل بيتي .. فجزاكم الله خيراً ؛ فقد بررْتم وأعَنْتم ..

وإنكم لتعلمون أن القوم لايريدون غيري .. وإن يومي معهم غده ..!!

وإني قد أذِنت لكم جميعاً ، فانطلقوا في غير حرج . ليس عليكم مني ذِمام ..

هذا هو الليل قد غشيَكم ، فانطلقوا في سواده قبل أن يطلع النهار ، وانجوا بأنفسكم » ..

مَن لمثل هذا الموقف المعجز ، مِثلُ ابن « علي » ، وحفيدِ « محمّد » ؟؟!!

مَن ، يا رجـال ٠٠٠!!؟؟

وهو لم يَقُلها لأهله وصحبه استدراراً لعطفهم ؛ فمـاذا يُغني عطفهم في هـذا المقـام ؟ ؟

إنما كان يعني تماماً كل كلمة قالها ٠٠ كان يعني تماماً ألاّ يُحمّلهم مسئولية الموقف الذي اختاره ، والهولَ الذي قرر أن يُواجهه في استبسال ٠!!

تُرى ، هل يتقبل الأهل والأنصار رأيه هذا،وتوجيهه ؟ كلاّ ٠٠ ولماذا ٠٠٠؟؟

لأن العظَمة ، ولأن البطولة كانتا في ذلـكَ اليوم على موعدٍ مع هـؤلاء الأبرار جميعاً فتياناً وكهولا،لتحققا بهم أروع مشاهدهما، وأسمى أمجادهما٠٠!!!

من أجل ذلك ، لم يكد البطل يفـرغ من كلماته ، حتى تحولوا جميعاً إلى أسود تزأر بالكلمات ، وتشرَقُ بالدموع !!

صاح أخوه لأبيه « العباس بن علي » : ـــ

« مَعاذ الله والشهر الحرام ٠٠ وماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم؟؟
نقول : تركنا سيدَنا وابنَ سيدنا غرَضاً للنبال ، ودريئةً للرماح، وجَزَراً للسباع ٠٠ وفررنا عنه رغبة في الحياة ؟؟!!
معاذَ الله ٠٠ معاذَ الله ٠٠ بل نحيا بحياتك ٠٠ ونموت معك » ٠٠!!

وصاح بمثل ذلك « بَنو عقيل » و « بَنو جعفر » وتقدم ابنه « علي بن الحسين » ـــ فتىً لم تجاوز سِنّه التاسعة عشر ٠٠!!

وسأل أباه :

« ألسْنا على الحـق يا أباه ؟؟ »

قال الحسين :

« بلى ، والذي أنفسنا بيده ٠٠ »

فصاح فتاه العظيم :

« إذن ، والله لا نبالي » ٠٠!!

ومن أصحابه وأنصاره ، قام « زهير بن القَيْن » يَزأرُ وينادي :

« والله ، لوددتُ أن أقْتَل ثم أبْعَث .. ثم أقتَل ثم أبْعَث ..
هكذا ألف مرة ، أكون فيها رِدْءاً عن حياتك وحياة هؤلاء الفتيان
من آل بيتك » ..!!

وتلاه « مسلم بن عَوْسَجة الأسدي » :

« أنحنُ نتخلَّى عنك ، ولم نعْذِر إلى الله في أداءِ حقك ؟؟
أما والله لا أفارقــك حتى أكسر في صدورهم رُمحي ، وأضربهم
بسيفي ما ثبَت قائِمُه بيدي ..!!
ولو لم يكن لي سلاح،لقذفتهم بالحجارة دونك حتىأموت معك»!!

وقام آخــر .. وآخــر .. وآخــر ..

هَبّوا جميعاً يُعطون أمجد بيعة في تاريخ التضحية والفداء . بيعة على موت مُحقق .. فليس هناك لما دون الموت أدنى احتمال !

ألم أقل لكم : إن العظمة والبطولة أرادتا أن تجعلا من ذلك اليوم مهرجاناً وعيــداً ..؟؟!!

لقد ارتفع الأبطال جميعاً إلى مستوى الموقف المجيد ، الذي سيجعلون منه درساً لأجيال الدنيا كلهــا في الولاء الباهر للحــق ، وفي التضحية الشاهقة من أجله..وهاهم أولاءِ ، يعودون لمضاربهم وخيامهم .. يتهيأون للقاء الغد بالصلاة والابتهال وبِشحْذِ سيوفهم ، وبَرْي سهامهم ، وصَقْل رِماحهم !!..

ومِن طريف ما حدث في ليلتهم تلك ، أن « نافع بن هلال البَجَلي » رضي الله عنــه وعنهم أجمعين ، قضى شَطْر ليــله في كتابة اسمه على سِهام نَبْلِه ، إمعــاناً في طلب المثوبة والأجر .. وإمعاناً في السخرية من الخطر .. وإمعــاناً في الترحيب بالموت ..!

* * *

وطلَع الصباح ••• وأقبل اليوم المشهود •• العاشر من المحرم !!

بدأ البطل يومه المجيد بصلاة الفجر •• أمَّ فيها أهله وصحبه •

وطلعت الشمس على سبعين ، أو اثنين وسبعين بطلا في جانب ••

وأربعة آلاف ذئب في الجانب الآخر ••

ووقف « الحسين » يعبِّيء رجاله••فجعل « زهير بن القين » على الميمَنة•• و « حبيب بن مظهر » على الميسرة •• وأعطى الراية أخاه « العباس بن علي » •• وتقدم شباب آل البيت ، ليأخذوا مكانهم في الصف الأول فدفعهم عنه الأنصار قائلين :

« معاذَ الله أن تموتوا ونحن أحياء ، نشهد مصارعكم • بل نحن أولا ، ثم تجيئون على الأثر » ••!!

وهكذا وقفوا في الصف الثاني وراءَ القائد والأنصار • وفي الجانب الآخر وقف ــ عمر بن سعد ــ يُعبِّيء جيشه ، وينظم ميمنته وميسرته •

يا ويْحهم •• ألا يَخجلون ؟؟!! أربعة آلاف ، لاثنين وسبعين •؟؟!!

وفي سبيل ماذا ••؟؟

في سبيل باطــل يروْنَه رأيَ العين ، وفي سبيل أكذوبة صغيرة اسمهــا ــ يزيد ــ ، وجريمة منكرة ، اسمها ــ ابن زياد ــ • ؟ !

ومِن عجبٍ أنهم كما يحدثنا التاريخ ، خرجوا لجريمتهم تلك بعد أن صلَّى بهم قائدهم صلاة الصبح ••!! أصحيح أنهم صَلّوا ، وقرأوا في آخر صلاتهم :

« اللهم صَلِّ على محمد ، وعلى آل محمد ••؟! »

إذن ما بالهم يَنفتِلون من صلاتهم ليحصدوا بسيوفهم الآثمة آل محمد ••؟! لَكَمْ كان «نافع بن هلال البَجَلي» صادقاً وهو يقول لابن ذي الجون الشقي :

« والله لو كنتَ من المسلمين ؛ لَعظُمَ عليك أن تلقى الله بدمائنا •• فالحمد لله الذي جعل مَنايانا على أيدي شِرارِ خلقه » ••!!!

أجل ، الحمد لله .. فتلك مزية ادّخرها القدر للحسين وأصحابه ــ أن يجيء مصرعهم المقدر على أيدي شرارٍ لا يُقيم الله لهم وزناً في الدنيا ولا في الآخرة ..

فلكَمْ يشُقّ على الأنفس المؤمنة أن تجيء مناياها على أيدي قومٍ خِيار !!

أتذكرون كلمات أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » عندما أفاق من غَشْيَة الطعنات الغادرة التي وجهها إليه وهو يصلي ، أبو لؤلؤة المجوسي ..؟

لقد تهلّل وجه « عمر » حين عرف هويّة قاتله .. وحَمِد الله كثيراً ، إذ لم تجئه الضربة من بَرٍّ تقيّ .. وجاءت من ذلك المجوسيّ الزنيم .!!

ومن الحظوظ الوافية للحسين وأصحابه ، أن خُصومهم في تلك المعركة كانوا أشراراً .. أشراراً من الرأس إلى القاع .. ولم يكن فيهم خَيِّرٌ واحد ، ولا بَرٌّ واحد يمكن أن يُشكل وجوده بينهم أمارة احتجاج أو علامة استفهام..؟!!

* * *

أوشك القتال أن يبدأ ..

ولكن قبل أن تنقذف أول سهامه ، وقع حادث عجيب ..

أتذكرون « الحُرّ بن يزيد التميمي » قائد الطليعة التي أرسلها ابن زياد من الكوفة .. والذي التقى بركب « الحسين » واضطره للنزول في كربلاء .؟!

إنه لم يكد يرى القتال على وَشْك البَدء ، حتى أحسّ فداحة الجريمة التي ستلوّثه ، وبشاعة الوزر الذي سيحمله ، وظلام المصير الذي سيكون له عند الله ، فخرج بجواده من صفوف فرسانه ، واقترب من قائد الجيش ــ عمر بن سعد ــ وصاح به :

ــ أمُقاتِلٌ أنت ذلك الرجل ..؟

قال ابن سعد :

ــ نعم والله ، قتالاً أيسرُهُ أن تُبتَر الأيدي ، وتُطوَّح الرؤوس !!

قال الحُرّ :

ــ أوَلستم تاركيه يرجع إلى حيث أتى ، أو يضرب كما قال في الأرض العريضة ..؟

قال ابن سـعد :

ــ لو كان الأمر بيدي لفعلت .. ولكن ابن زياد يأبى ذلك ..

فصاح « الحرّ » وهـو يدفع جواده نحـو صفوف الحسين (إذَنْ ، فقاتِلْني معـه) ..!!

ونزل من فوق جـواده ، يعانق « الحسين » ودموعه تتفجّر من مآقيه ، ويقول لـه : ــ

« قد كان مِني بالأمس ما كان . وقد استبانَ لي حقك ، فجئتك أفتديك بنفسي .

أفترى في ذلك توبةً لي مما صنعت » ..؟؟

وأجـابه البطل ، وهو يضمّه إلى صدره النبيل :

« إنها خير توبة ، فأبْشِر .. فأنت الحرّ في الدنيا .. وأنت الحرّ في الآخرة إن شاءَ الله » ..!!

وكما صنع « الحرّ بن يزيد » صنع بطل آخر ، هو « يزيد الكندي » .. لقد غادر مكانه في جيش ابن زياد ، وبصَق عليه ، ثم انطلق يَعْدو بجواده إلى جبهة « الحسين » العظيم ..!!

* * *

والآن ..

أتبصرون ذلك السهم الذي انطلق يُمزّق الهواء في اتجـاه « الحسين » وأصحابه ؟؟

إنه السهم الذي قذفه ــ عمر بن سعد ــ قائد جيش ابن زياد معلناً بـدء القتـال ..

وتلاه على الأثر ، بروز صف من رجال ابن سعد يطلبون المبارزة •

ومن صفوف الأبطال خرج إليهم أكفاؤهم الأشداء ••

هذا « عبد الله بن عمر الكلبي » •• مؤمن من الكوفة لم يكد يعلم باحتجاز « الحسين » عند كربلاء ، حتى اصطحب زوجته معه وشدّ إليه الرحال •

ها هو ذا يوفّي لله بيعه ••

وها هو ذا ، يخرج إلى مبارزه ، فيصرعه من فوره •

وكان استهلالاً باهراً ، أطار صواب الآخرين ، فهجم عليه الشياطين المرقة حيث ضربه أحدهم بسيفه فطارت أصابع كفه في الهواء • لكنه اثنى على ضاربه فصرعه في لحظة ••

وتكالب عليه آخرون ، تنكّروا حتى لشرف المبارزة وقواعدها ، لا سيّما حين رأوا أن جميع مبارزيهم صرعوا بأيدي الذين خرجوا إليهم من أنصار « الحسين » ••

ولم يتركوا الرجل إلا عندما أبصروا فريقاً من أصحابه يقتربون منهم بسيوفهم المشرعة •• عندئذ ولّوا عنه ، وهو مثخن بجراحه •

واشرأبّت زوجته من بعيد ، فبصرت به ، وانطلقت تهرول إليه حاملة بيمناها حربة طويلة • حتى إذا بلغته راحت تحتضنه بين ذراعيها لينهض قائماً وهي تقول له :

« فداك أبي وأمي ••

قاتل دون الطيّبين من ذرية محمد » !!

لكنه يصيح بها ، ويضرع إليها كي تعود إلى خبائها ، فإذا هي تلعلع بصوتها الواثق :

« لا ، لن أعود •• ولن أدعك تذهب إلى الفردوس وحدك »••!!!

لكنه يزحف بجسده المثخن ، ويدفعها أمامه نحو الخيام • فتستعصي عليه ، وتستميت دون الرجوع •

ويلمح « الحسين » المشهد من بعيد فيناديها :

« جُزيتم عن أهل بيتي خيراً ..

ارجعي يرحمك الله ، فليس عليكُنَّ قتال » .

وآنئذ لا غير ، تمتثل وتطيع ، فإنها لا تستطيع لأمر ابن الرسول عصياناً !!

ويستأنف « عبد الله بن عمر الكلبي » زحفه فوق أرض جاشَتْ بالصراع ، ضارباً بسيفه ذات اليمين وذات اليسار ، حتى غاضَتْ حياته تحت وطأة الهول الذي كان جسده قد تلقَّاه .!!

ومرة أخرى ، تندفع إلى أرض القتال زوجته التي صمَّمت على ألا يذهب قبلها . وألا يذهب دونها إلى الجنة . وراحت تبحث بين جثث الشهداء حتى وجدته ، فجلست بجواره تُسَجِّيه بحنانها ، وتضمُّه بكيانها ، وتقبِّل الجراح التي رصَّعَت جسده وهي تصيح : « هنيئاً لكَ الجنَّة » ..!!

ثم ربضَت إلى جواره ، ويدها على مِقبض سيفه ، لتحرس جثمانه من الوحوش الذين كانوا يعودون إلى الشهداء ، ليحتزّوا رؤوسهم !!

لكن الشقي الزنيم ــ شمر بن ذي الجوْن ــ أبصرها ، فأمر واحداً من شياطينه ، غافَلها من الخلف وهشَّم رأسها ، وهكذا لم تحرم من صحبة زوجها إلى الفردوس الأعلى ..!!

* * *

التحمت الجبهتان التحاماً رهيباً .. ورأى جنود زياد كثرة القتلى الذين يسقطون منهم رغم كثرتهم الهائلة ، فجُنَّ جنونهم ، وهجَم فرسانهم في ضراوة ..

وبرَز لهم فرسان « الحسين » الذين لم يكونوا أكثر من اثنين وثلاثين فارساً ، فدمَّروا هجومهم تدميراً ، وجاوزوا الدفاع إلى الهجوم في سرعة ماحقة ، وأحاطوا بفرسان ابن زياد ، ثم مَرقوا داخل صفوفهم يَطوحون برؤوسهم كالذباب !!

وسُقِط في يد قائدهم (عروة بن قيس) فنادى (عمر بن سعد) من فوق صهوة جواده ، كي يُدركه بالرماة !! وأمر (ابن سعد) جيشه فتقدم بأجمعه ، يتقدمه خمسمائة من الرّمــاة ..

وكَبَّر « الحسين » تكبـيرة هزّت الأرض ونادت زلـْزالهــا . وانقذَف يضرب بسيفه ، فكأنه قدَر ، لارادّ لأمره .. ولا مهربَ من حُكْمِه !!

كان يَشدّ كالليث على غريمٍ فيصرعَه .. ثم يبصر آخر في طريقــه بسيفه الغادر إلى بعض أصحابه ، فينْثَني إليه كالصقر ويرْديه !!

وحــلّ روحهُ الغلاّب في أفئدة أصحابه ، فاشتعل حماسُهم ، واتّقدَ مَضاؤهم وامتلأت أفئدتهم المؤمنة عزماً وشوقاً ، وراحوا يَضربون ويقاتلون ، في استبسال عظيم .

كانوا كلما قلّ عــددُهم بوقوع الشهداء منهم ، ازدادوا إقداماً وقوة .. لكأنما كانت أرواح شهدائهم تستأنف بعــد انطلاقها من أجسادها ، نضالهــا وقِـتالهــا .. !!!

لم يكن أصحاب « الحسين » يتعجّلون النصر ، فما أبعد النصر عن قــوم يقاتلون في مثل ظروفهم وبمثل عددهم .

إنما كانوا يتعجّلون الجنة، إذْ لم يكن لديهم ريب في أنها المُنتهى والمصير..!!

وركّز رُماة الأعداء ضرباتهم على الجياد التي يمتطيها فرسان « الحسين » فعقروها جميعاً ..

وهبط الفرسان إلى الأرض ليقاتلوا مع إخوانهم .

كان كل بطــل من أصحاب « الحسين » يتكاثَرُ عليه عشرات من جيش ابن زيــاد .

وهذه وحدها ، تُرينا كيف كانت ضراوة القتال وعَظمة الاستشهاد !!

ورغم ما كان لجيش الباطل من تفوّق ، فقد كان الفزع من نصيبه وحده .

وليس هناك ما يصور هـذه الحقيقة مثـل إقدامهم على حرْق المضارب والخِيام التي كانت لأهل الحسين وأنصاره .

لقد أحرقوها ، ليشغلوا بإطفاء نارها المندلعة تلك القِلّة الصامدة لقتالهم والمطوّحة برؤوسهم .!!

واشتعلت الحرائق عالية ، فنادى « الحسين » في ثَبات عجيب :

« لا بأس .. اجعـلوا الحـريق وراءَ ظهوركم ، فلا يستطيعوا اجتياز النار إليكم » !!

ونجا فُسطاط « الحسين » مَن الحريق ..

وفي خضمّ هذا الهول الذي شكّله القتال الضاري الوبيل ، وقف«البطل» يُقلّب وجهه في السماء !!

لقد كان ينتظر مَقْدم عـزيز لم يُخلِف قط موعده معه ــ ذلكم هـو الصـلاة .. ! !

أجَل .. لقد انتصف النهار ، وجاءَ ميقات الظهر ، وموعد صلاته .

وللصلاة في ميـدان القتال طريقة خاصّة .. وهكذا نادى « الحسين » لصلاة الظهر ــ صلاة حرب وقتال !

هل رأى الناس شيئاً كهـذا ، في جلالِه ، وجمالِه ، وعظَمتِه ..؟

حتى والموت ينوشه ويَنوش أصحابه من كل جانب ، لا يغفل عن واجب ربه ، ولا عن فرائض دينه ! !

ويَفرغون من صلاتهم ، ليواصلوا جهادهم ، وقـد بدأ النصف الثاني من النهـار ..

أيّ إعجاز كان هـذا الذي حدث ..؟؟

وكيف صمد اثنان وسبعون طيلة هذا الوقت لأربعة آلاف فارس ، ورامٍ .. وكيف ستظلّ بقيَّتهم صامدة حتى آخر النهار ..؟؟

أوَكُلُّ هـذا الثبات ، يهَبُه الحـق أتباعه وأشْياعَه ..؟!

أجل ، وأكثر من هـذا يمنح الحقّ ويُعطي ..

* * *

لقد أحاط الباقون من أصحاب « الحسين » به يقاتلون من حوله ويَذودون عنه .. وكل أمانيّهم أن تواتيهم مناياهم وهم بين يديه ، أو عند قدميه ..!!

* فهـذا « حنْظَلة بن سعد البشامي » ينادي أعـداء الحق :

« إني أخاف عليكم يومَ التّناد .. فإياكم وقتلَ « الحسين » ؛ فقد خابَ مَن افترى » ..

ثم يثبت بين يديه كأنه جبَل ، لا تزحزحه عـن مكانه عشرات السيوف والرماح التي اتخذته هدفاً .. ويظل يقاتل حتى يقع شهيداً ..!!

* وهـذا « سيف بن الحارس وأخـوه مالك » يقتربان من البطـل ، ويعانقانه ، ثم يقولان له :

« موعدُنا الجنّة » ! !

ويقاتلان معه ومن حوله حتى تدركهما الشهادة !!

* وهذا « عبد الله بن عرو ةوأخوه عبـد الرحمن » يخوضان في صفوف الأعـداء ويُصْليانهم سـعيراً ..

ويُثقَل جسداهُما بالطعن وبالضرب والجِراح ، فيقعان على الأرض خائرة قواهما .. ثم لا تكاد أعينهم المجهدة تقع على البطل يقاتل وحده عشرات مـن الأعداء القُساة حتى تنتفض فيهما من جديد عافيةُ الأسود ، ويتضرّم بأسهما .. وينهضان من بين يديه في قتال مرير ، حتى يقع أجرُهُما على الله شهيدين عظيمين !!

* وهذا « شَوْذَب » و « عباس بن أبي شبيب » و « نافع بن هـلال البجلي » و « سويد بن أبي المطاع » وعشرات من إخوانهم المباركين ، راحـوا يقاتلون في جسارة وغبطة .. كلما سقط أحدهم جريحاً نهض فـوق جراحه ، وسبح فوق دمائه حتى يعود فيقاتل .. ويقاتل في عزم شامخ وثبات مَكين ؛ حتى

لحقوا جميعاً بإخوانهم الذين سبقوهم أول النهار ــ « زهير بن القين »و«عبد الله ابن عمر الكليبي » و « الحرّ بن يزيد » و « يزيد الكندي » •• أولئك الأبطال الذين قاتل الواحدُ منهم وكأنه جيش وحده •• والذين أبْلَوْا في المعركة بلاءً يتعاظَمُ كل وصف وكل إطــراء ••!!

* * *

وتقدم آلُ بيت الحسين ••

تقــدم أبناء الرسول نحو مصايرهم العظيمة ••

لم يَعُد الذي يُضْنيهم ، الظمأ إلى الماء الذي حرمهم منه المجرمون •

بل الظمأ إلى الشهادة •• والشوق إلى الجنــة !! لقــد كانوا في لحظاتهم المجيدة تلك ، يشَمُّون عبير جدّهم الرسول •• وجدّتهم خديجة •• وعبــير حمزة •• وجعفر •• وعلي •• وفاطمة •• فيدركون أنهم صاروا في الجنة على قُرب ذراع ، فينطلقون نحوها في هُيام ••!!

وكان أولهم انطلاقاً « علي بن الحسين » ••

فتىً لم يجاوز التاسعة عشرة من عمره !!

انظــروا !!

ها هو ذا ــ في نضْرَة شبابه •• ورَيْعان إهابِه •• في روعة بأسِه •• وشرَف نفْسِه •• يتوسَّط حراب الأعــداء وسيوفهم ، وهو ينشد :

أنا علِيّ بنُ الحسين بن علِيّ
نحنُ وربِّ البيت ، أوْلى بالنبيّ
تالله ، لا يَحكُم فينا ابنُ الدَّعِيّ

تماماً ، كما كان يصنع من قبل جَدّه « الإمام علي » حين كان يقتحم المعارك في عُنفوانه اللجِب ، وهو يزأر :

أنا الذي سمَّتني أمي حَيْدَرَه
كلَيْثِ غابات ، كريهِ المنظَرَة

أوفيهُموا بالصّاع كيل السَّندرة

ها هو ذا ، ابن التاسعة عشرة ، يعيـد إلى الحياة مـرة أخـرى بطولات جـده العظيم .

ذُرِّيَّةٌ بعضُها من بعض !!

ويمضي ، يَضرب ويُضرَب .. حتى تصيبه طعنة رمح ، فيقع على الأرض ، وقبل أن يتحامل على جراحه لينهض من جديد كانت عشرات السيوف الباغية قد مزّقت جسده الغَضّ الشريف !!

ويراه الحسين .. ـ مجّدَ الله الحسين ـ فيُسرع نحوه .. ويسرع معه شباب بني هاشم .!!

وفي رباطة جأش تُذهِل كل حيٍّ ، حمـل البطلُ ابنه الحبيب ، ثم سجّاه على ذراعي واحد من بني عمومته ، وأمره أن يذهب به إلى فُسطاطه .

ولا تكاد الطاهرة البَتول « زينب بنت علي » رضي الله عنها وأرضاها .. لا تكاد تبصر جثمان ابن أخيها حتى تعلُوَ زفراتُ أساها ..

أهـذا الذي كان من دقائق معدودة ، يملأ الأعيُنَ شبابُه ، وبهـاؤه ، وسَناؤه ..؟؟

هنـالك انكبّت على الأشـلاءِ الطاهرة الناضرة ، تُضمّخها بدموعها وشَجُنِها ..

وأثّر في البطل مشهد أخته ، فسار إليها يسألها الصبر .. ويقودها في رفق إلى خِبائهـا .

وعـاد هو إلى ساحة القتال ..

لم يكن هناك على أرض المعـركة سوى أهل بيته ..

أما أصحابه وأنصاره ، فقد رحـلوا جميعاً شهداء ممجّدين . !

ولقد استفتح آل البيت بفتاهم العظيم « علي بن الحسين » ، .

ومن بعـــده تقدموا جميعاً كالصقور الكواسِر ..

* ها هم أولاءِ إخـــوته لأبيه :

عبد الله بن علي بن أبي طالب .. وجعفر .. وعثمان .. ومحمد الأصغر .. وأبو بكــر .. والعباس .. يقذفون بأنفسهم وسط الهول ، وأخوهم العباس يهتف فيهم قائلا :

« تقدموا ؛ حتى أراكم قد نصَحْتُم لله ولرسوله » .

فيتقدمون إلى قلب الجيش المسعور بسيوفه العاوية ، ورماحه الباغية .

وكلما لمحوا خطراً يقترب من أخيهم البطل « الحسين » تلقوه بأجسادهم حتى سقطوا جميعاً صرعى .. بل قولوا : صعدوا جميعاً شهداء ..!!

وعلى ثراها تمددت أجسادهم الكريمة يسبقها جثمان « العباس بن علي » الذي كان لبهاءِ طلعته ، وتألق شخصيته ، يُلقَّب بـ « قَمر قريش » !!

* * *

* وتقــدم أبناءُ « الحسين » وأبناءُ « الحسن » :

أبو البكر بن الحسين .. وعبد الله بن الحسين .. والقاسم بن الحسَن ..

* كما تقــدم أبناء جعفر بن علي بن أبي طالب : عَوْن .. ومحمــد .. وعبــد الله ..

* وأبناء « عَقيل بن أبي طالب » :

عبد الله الأكبر .. وعبد الله الأصغر .. وجعفر ..

* وأبنــاء « مسلم بن عقيل » الذي قتله ابن زياد بالكوفة : محمد .. وعبــد الله ..

* كما تقــدم محمد بن أبي سعيد بن عقيل ..

تقدموا جميعاً في بطولة تتحدى نفسها !!

واندفــع أصغرهم سِناً ــ القاسم بن الحسَن ــ يهزّ سيفه في الهــواء

الساخن ، ثم يهوي به فوق الأعناق الضالّة الظالمة ، حتى نالَتْه سيوفهم فهَوى كالنجم ، ينادي : يا عمّاه ...!!

ونَسِيَ « الحسين » ما حوله من هول ، وانطلق كالصَّقر صوبَ قاتل ابن أخيه ، حيث شَدَّ الليث وضربه بسيفه ، فبتَر يدَه الشقيّة ثم طرحه أرضاً ، حيث داسَتْه خيل جيش ابن زياد ، فهلك تحت حوافرها ..

وانثنى « البطل » نحو ابن أخيه يَضُمّه ، ويشَمّه ، ويتملّى في جسده المُثْخَن ، رَوْنَق الزهور ...!!

ولأول مرة سالت عبرات الأسد ، وقال يخاطب الجثمان المسَجّى بالمجد .

« عَزيزٌ والله على عمّك أن تدعوهُ فلا يُجيبُك .. أو يُجيبك

فلا ينفعك في يومٍ ، كَثُرَ واتِرُه .. وقَلَّ ناصِرُه .. » !!

ثم حمله بين ذراعيه ، إلى حيث أرقده بجوار ابنه عليّ ، ثم عاد لِهوْلِ المعركة من جديد .!!

* * *

لك الله ، أبا عبدِ الله !!

وهل اختارَتْك المقادير لهذا العبء الذي يُدغدغ الجبال ، إلا وأنت له كُفْؤٌ وبه جدير ؟؟

ألا صبراً آل محمد .. فهذا دَوركم في الحياة ، وحظكم من الدنيا .. يا سادة الآخرة ، ويا مُلوك الجنّة ...!!

راح الأبرار يسقطون في الحومة أبطالا .. و « الحسين » يصول هنا .. ويُقاتل هناك .. ودمُه الزكيّ يتفجر من فمه الذي اخْتَرَمه سهم وهو يحاول أن يأخذ جرعة ماء ...!!

ووقف وحيداً أمام أعدائه ..

وحيداً .. فقد رحَل الأهل جميعاً ، بعد رحيل الأصحاب ...

كلهم عانقوا الشَّهادة في سبيل الحــق .

وأحاط به القتلة الذين سُمِّرُوا في أماكنهم ، زائغةً أبصارهم .. واجِفةً قلوبهم ..

لقد كانوا ــ على كثرة ما اقترفوا من جريمة وسفَكوا من دم ــ يَهولُهم دَمُ « الحسين » فيتفادى كل منهم وِزْرَ الإجهاز على حياته .

وهُنا انبعث أشْقاها (شُمر بن ذي الجون) فصرخ فيهم ؛ ليختطفوا رأس البطل .. فاقتربوا منه .. لكنه رغم جراحه ووحْدته ينقَضّ عليهم بسيفه .. ويخرج من الفسطاط غلام صغير ، هو « عبد الله بن الحسَن » فيلمحُ قاتلا يَوجّه سيفه نحو عمه ، فيصيح في براءة الأطفال : « يا ابن الخبيثة أتقتل عمي » .!

فينــاله ، ابن الخبيثة بسيفه الجبان ، فيسقط على الأرض دون أن تصيب الضربة منه مقتلا ، ويسارع إليه عمُّه فيحمله إلى مكانه مـع عمته السيدة زينب التي جلست تستقبل الضحايا ، وتُبصر المصاير ، في تفويض لله ، ورِضاً بقضائه !!

ويواجه البطل أعداءه في جولةٍ أخــيرة . فتقع ضربة سيف على رأســه الشريف فتدميه .. فيشدّه بعصابة ، ويحمل سيفه والدم ينزف من كل جسمه .

والمجرمون يَضربون .. ويضربون .. بيد أنهم لا يزالون يرهبون دمــه ، ويتجنبون مُقاتِله !!

ومرة أخرى ، تخرج « السيدة زينب » من خِدْرها . فترى أخاها وحيداً بين الوحوش ، فتتقدم إلى حيث يسمعها « عمر بن سعد » قائد جيش ابن زياد ، وتصيح به :

« يا عُمر ..
أيُقتَل أبو عبدِ الله وأنت تنظر » ؟؟!

فيُطرقُ « ابن سعد » خزْياً وندامَة ، ويصرف وجهه عنها وقد تفجَّرت عيناه بالدموع .. لكنه لا يستطيع أن ينسلخ من الموقف الذميم الذي ورّطهُ فيه هــواه ..

ويضرع « البطل » إلى أخته كي تعود إلى مكانها ، ثم يصيح في القتَلة :

« أعَلى قتلي تجتمعون ؟••

إني لأرجــو الله أن يُكرمني بهوانكم ، ثم ينتقم لي من حيث لا تشعرون » •

ويطير صواب شمر بن ذي الجون ، فينادي فرسانه من جديد ، ويأمرهم أن يقفوا من وراء مُشاته ِ ورُماته ؛ ليمنعوهم عن النكوص إلى وراء •

ثم يصرخ في الرّماة ، مُتوعّداً إياهم المصير ، عندما يرجعون لابن زياد ، ويهتاج كالمسعور طالباً رأس البطل ••

ويتقدم من « الحسين » واحــد فيضربه بسيفه الأثيم على معصم يُسراه ، فتطير كفّه ، ثم يتقدم ثانٍ فيضربه بسيفه الظلوم على عاتقه ، فيقع على الأرض •• ويحسبون أنه انتهى ، فينصرفون عنه ، لكنهم يُفاجأون بــه ينهض من جــديد متوكئاً على سيفه ، فيسارع إليه آخرون موجهين إليه الضربة الأخيرة •••!!

ويتقدم شمر بن ذي الجون ، رِجْس البشرية كلها ، فيحتزّ رأس البطل •• ثم يحتفظ به ليحمله هدية إلى ابن زياد ، ويزيد ••

تماماً ، كما قُدم من قبــل رأس « يحيى بن زكريا » عليه السلام ، هــدية لِبَغيٍّ من بغــايا بني اسرائيل ••!!!

* * *

كان النهار قد لفظ آخر أنفاسه ••

ومالت الشمس للغروب ، مُخلّفة وراءها شَفَقاً عجيباً في حمرته الزاهية ، ووهَجه المتألّق ••!!

ولقد امتد على طول الأفق ، وكأنه بساطٌ وُضع ومُهّد لِتعْرج عليه إلى جنان الله أرواح الشهداء ••!!

وعلى غـير عادة الطقس والمناخ في ذلك الحـين وفي تلك الأرض ، دوّت طلقات قوية صادعة كأصوات الرعود .

ولقد حسِبها المجرمون نـذيراً لهم .. ولكنْ لا ، فهُم أهونُ على الله من ذلـك ..

إنما هي السماء ، كانت تطلق مَدافِعها تحيّة ..!!

تحيّة إجلال ، للمهمة التي أنجزها الشهداء ..!!

وتحيّة استقبالٍ للأرواح التي كانت قـد بدأت رحلة خُلودها .. حيث تتلقّى من يمين الرحمن ما أعدّه لها من مثوبةٍ ، ونعيم ، وعَطاء ..!!



الفصل السابع

الحصاد، والدرس

.. وانتهى كل شـيء، ليبـدأ كل شـيء!!

انتهى اليوم الرهيب بآلامه وأمجاده..ليبدأ من جديد بدروسه وبحصاده !!

ولقد ألِف المؤرخون والكتّاب أن يتمثّلوا حصاد كرْبَلاء، فيما أصاب قتَلة «الحسين» بعد حين، من قتل وتدمير .. ثم فيما شاده المطالبون بثأره من امبراطوريات ودُوَل سادت الأرض وعَمرتها قروناً طِوالا ..

أما نحن، فلنا وجهةُ نظـر تختلف تماماً ..

فصحيح أن جميع الذين اشتركوا في قتله وقتاله، لَقوا حتْفَهم على أبشع الصُّوَر وأشدها مذلّة وهواناً .. كلهم، من ابن زياد، إلى شمر بن ذي الجوشن، إلى آخر واحد من الذين تحمّسوا للباطل، ووقفوا من ابن بنت الرسول موقف التحـدي والعـدوان.

ومن عجبٍ أن التاريخ تتبّع مصارعهم، فإذا هم جميعاً يُقتلون فارّين هـاربين ..!!

ليس فيهم من مات ميتَة رجل ..

وكأنما كانت هذه أولى بشائر دعوة «الحسين» عليهم حين صاح فيهم، وهو صامد وحده وسط سيوفهم ورماحهم قائلا:

«إني لأرجو الله أن يُكرمَني بهوانكم» ..!!

كلهم قُتلوا وديست جيَفُهم بالأقدام .. ما عدا يزيد .. فقد [illegible] عليه

القدَر بأن يذهب قتيل ثورة أو مقاومة ؛ إذ أن ذلك كان سيضعه إلى حدّ ما ، في الكفّة المقابلة للحسين عليه السلام .

كان الناس سيتحدثون : أن داعية الحق قُتل استشهاداً ..

وأن ملك بني أمية قُتل عقوبةً وقصاصاً .. وهذه مقابلة قد تجعل منه على صورةٍ ما ، نِداً أو كُفْؤاً .. الأمر الذي صمّم القدر على حرمانه منه ، فتركه يعيش أربع سنوات تعيساً مُفزّعاً .. ثم يموت في يأسٍ ، وهوان ، ونِسيان ..!!

★ ★ ★

نقول : صحيح أن قتلة « الحسين » لَقوا جميعاً شرّ مصرع وأسوأ نهاية .

لكنّ ذلك لا يدخل في حسابنا بحال ، ونحن نتتبع الحصاد العظيم ليوم « كَرْبَلاء » ..

فليس لمقتل أولئك الأشقياء شأن يرتفع إلى مستوى ذلك الحصاد .. ولا يُكفّرُ عن دماء الرجال ، بدماء الأنذال !!

★ ★ ★

كذلك لا يدخل في حسابنا لحصاد كربلاء، تلك الدنيا الهائلة الحافلة التي شادها المطالبون بثأر البطل من عباسيين ، وفاطميين ، وعَلويّين .. فإن تلك الدنيا التي شادوها بكل امبراطورياتها ، ودُولها ، وسُلطانها . لا ترتفع إلى مُستوى الجوهر النضير لتضحية « الحسين » وحياته ، وثباته ..

وبالتالي ، لا نستطيع أن نعتبرها مَثوبةً لتلك التضحيات وذلك الثّبات .

إن حصاد تضحيته وتضحية رفاقه ، ليَتجاوز ذلك كله إلى غايات أبعد ، وأمجد ، وأسمى ..

وإن الدرس الذي يُلْقيه يوم كربلاء بآلامه ، وبطولاته .. بمأساته ، وعظمته ، ليتفوّق على نُظرائه في قوة النور الباهر الذي أضاء به ضمير الحياة ..

والآن ، فإن علينا أن نتتبع مواطن العظمة والعبرة في ذلك الحصاد .

★ ★ ★

وأول ما يلقانا في هذا السبيل ، هو أن جذوة الحق والصمود التي أضاءها الحسين وأصحابه بدمائهم ، لم تنطفىء ولم يَخْبُ نورهـا باستشهاده ، بـل ازدادت ألقاً واندلاعاً على نحو يبهر الألباب ..!!

وتمثّل ذلك أول ما تمثّل ، وأبهى ما تمثّل في أخته العظيمة « زينب » ، وفي ابنه « عَلي » وهو غير « علِيٍّ » الأكبر الذي استشهد مع أبيه .

لقد توقعت الدنيا أن تحني الكارثة جباه من بقي من آل بيت الحسين ..

ولكن الطاهـرة البتول « زينب بنت علي » وحفيدة الرسول ، سرعان ما ردّت للدنيا صوابها . حين أرَتْها من عظمة هذا البيت كل عجيب ..

لقد أخذ ـ عمر بن سعد ـ قائد جيش ابن زياد .. أخـذ معه إلى الكوفة أهل بيت البطل الشهيد من سيدات وأخوات ، وأطفال ..

وأراد أن تكون له فضيلة وسط يومه الكئيب المظلم في كربلاء . فحافظ على أهل بيت البطل ، وأكرمهم . وصانهم من كل سوء .

وتوقع ابن زياد قبـل أن يُواجه آل بيت الحسين ، أنه سيلقى انكساراً وضياعاً يستدرّان عطف قلبه الجبان .

لكن « أخت الحسين » . البطلة .. أخت البطل .. وبنت البطل .. علّمته ـ إن كان لمثله أن يتعلّم ـ أنّ الهزيمة التي يتفجّع لهـا الناس ويستكينون ، إنما هي هزيمة الروح ..

وما كان ولا يكون لدعاة الحق وحملة راياته أن تنهَزِم أرواحهم أبداً .. ولا أن تنحني جباههم أبداً ..!!

ولقد لقنته هذا الدرس حين دخلت عليه ومعها أهـل بيت أخيها الشهيد ، فسأل : مَن هـذه ..؟

فلم تجبه .. ثم كـرّر سؤاله مرتين وثلاثاً ، وهي لا تجيبه ، حتى أجابته إحـدى خادماتها قائلة :

« هذه زينب ، ابنة فاطمة ، بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم »..

فقال ابن زياد، مُدارياً خِزيه الذي أنزله به احتقار «السيدة زينب » إياه..

قال البائس التعس : الحمد لله الذي فضحكم ، وقتلكم ..

وهنا مزّقت البتول صمتها بزئيرها العالي :

« .. بَل الحمدُ لله الذي أكرمنا بنبيّه ، وطهّرنا من الرِّجْسِ تطهيراً .. وإنما يفضح الله الفاسق ، ويُكذّب الفاجر . وهو غيرنا ، يا ابن زياد » !!

واستمرّ ابن زياد في مُداراة خزيه أمام الناس ، فعاد يسأل البطلة : كيف رأيتِ صُنْعَ الله بأهل بيتك ..؟؟

فأجابته في عِزّة إيمانها وتُقاها :

« كُتِبَ عليهم القتل ، فبرزوا إلى مضاجعهم ... وسيجمع الله بينهم وبينك ، فتختصمون عنده يوم القيامة » ..!!!

ورأى الجبان أنه أمام بطلة صعبة المراس ، فراح يُجيل بصره في بقية آل البيت حتى وقع على غلام مريض ظنّ ابن زياد أنه فرصة ليدير معه حديثه المتوقّح محاولا إظهار صلفه وغروره .

كان هذا الغلام « علي بن الحسين الأصغر » الذي صار فيما بعد إماماً عظيماً عُرف باسم « علي زين العابدين » .

سأله ابن زياد : مَن أنت ..؟؟

فأجابه الشّبل الكريم :

ـ علّي بن الحسين ..

قال ابن زياد : ألم يقتل الله عليّ بن الحسين ؟؟

فأجابه في أناة :

ـ كان لي أخ أكبر مني يُسمّى « علياً » قتله رجالك .. قال ابن زياد في جهالة وقِحة : بل قتله الله ..

فأجـابه « عليٌّ » :

« الله يتوفَّى الأنفُسَ حين موتها .. وما كان لِنفسٍ أن تموت إلا بإذن الله » .!!!

ودارت الأرض بابن زياد ، بعد أن لفَحتْه إجـابة الغلام الرجل .. فنادى أحد جلاَّديه : خـذ هذا الغلام واضرب عنُقه .

وتقـدم الجلاَّد القاتل ، فاعترضت السيدة العظيمة « زينب » طريقـه ، وضمَّت ابن أخيها بين ذراعيها وصاحت يا بن زياد : « إذن ، فاقتلْني معه » .. هناك انخذل الطاغية ، ولم ينل الغلام بسوء .

* * *

وبمثل مجابهتها هذه لابن زياد ، كانت مجابهتها ليزيد حين أخِذَ الرَّكْبُ إليه بالشام ، تسبقه رؤوس الشهداء وفي مقدمتها رأس البطل العظيم ..!!

هناك وقفت تِجاهـه أمام الحشد الذي جمعه ليظهر أمامه جبروته الكاذب وطغيـانه الرخيص .

وقفت تقول له بمـلء فمها الصادق :

« إنك أمير مُسلَّط . تشتُم ظالمـاً .. وتقهر بسلطانك ..

أظننت يا يزيد أن بِنا هواناً على الله ، وأنَّ بك عليه كرامـة ، فشمَخت بأنفك حين رأيت الدنيا مستوثقة لك ..؟

ألا إنَّ الله إنْ أمهلَك ، فلأنه يقول :

(ولا يحْسبَنَّ الذين كفروا أنَّما نُمْلي لهم خـيرٌ لأنفسهم ، إنما نُملي لهم ليزدادوا إثماً . ولهم عذاب مُهين ..) .

لَترِدَنَّ على الله غداً يا يزيد ، وأنت تودّ لو كنت أبكمَ أعمى..

ولتجدَنَّنا عليك مَغرماً ، حـين لا تجـد إلا ما قدَّمت يداك ، تستصرخ بابن مرجانة .. ويستصرخ بك !!

ولَتعلَمن يوم يحكم الله بيننا ، أيُّنا شرٌّ مكاناً وأضعف جنداً » ..!!

وكما صنع ابن زياد من قبل ، صنع يزيد نفس الصَّنيع ، فراح يلوذ من قوارع « السيدة زينب » بتوجيه حديثه إلى الغلام المريض ..!

قال له : لقد قطع أبوك رَحِمي ، وجَهِل حقي ، ونازعني سلطاني ، فصنع الله به ما رأيت .

فما زاد الغلام الرجُل على أن تلا الآية الكريمة :

(ما أصاب مِن مُصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلاّ في كِتاب
من قبلِ أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير ..
لكَيْلا تأسَوْا على ما فاتكُم ، ولا تفرَحوا بما آتاكم . والله
لا يحبّ كل مختالٍ فَخور) ..!!

راحت كلمات « زينب » الحارّة وأنفاسها الساخنة ، تهَبُ جَذوة أخيها الشهيد مزيداً من التوهّج والتّلألاء . فإذا الناس أفراداً وجماعاتٍ يرفعون جباههم جميعاً متحدّين ذلك النصر الرخيص الذي أحرزه يزيد ، وابن زياد ..

فيقف الصحابي الجليل « يزيد بن أرقم » رغم كُهولة سِنّه ووهن جسمه ، يصرخ في أهل الكوفة :

« يا معشر العرب الذين صِرتم عبيداً .. أتقتلون ابن فاطمة ..
وتؤمِّرون ابن مرجانة » ..؟؟!

ويقف « عبد الله بن حنيف الأزدي » لا يمنعه ذهاب بصره ، وضعف شيخوخته ، فيصيح بابن زياد أمام الملأ من الناس :

(يا ابن مرجانة .. أتقتل أبناء النبيين ، ثم تقوم على المنبر مقام
الصدّيقين ..؟
ألاَ إن الكذاب ، لهُوَ أنت وأبوك..والذي ولاّك وأبوه) ..!!

وتنهض في الكوفة كتائب « التوّابين » مُقْسِمة أن تهَب حياتها لثأر « الحسين » ..

وتشتعل الثورة عارمة في مكة . وفي المدينة حيث يُجرِّد لهـا ـ يزيد ـ من جنده وقواده من ينزلون بالحرمين المقدسين من الدمـار والقتل والإثم ما يخجل الشيطان من اقترافه .

ولكن الجذوة المباركة لا تخبو . حتى يموت بحسرته يزيد ، ويخلفه ابنه « معاوية الثاني » .. وهنا يُوجِّه القدر الحكيم أذكى ضرباته ، فيقف ابن يزيد نفسه ليحمل شعلة الحسين . ويزيد الجذوة ضِراماً . حـين يجمع الناس ليوم مشهود ، ثم يُعلن فيهم ـ كما أسلفنا من قبل ـ أن جدَّه وأباه اغتصبا الحـق من أهـله .وأنه يبرأ إلى الله مما جنَتْ أيديهما .. وأنه يَرْبأ بنفسه وبتقـواه عن أن يجلس على العرش الملوث بالجريمة ..!!

ثم يعلن عليهم اعتزاله منصبه .. ويعتكف في بيته حتى يأتيه الموت ، فليقى الله تقياً . نَقياً ، سعيداً ..!!

* * *

ويلقانا من حصاد كربلاء ودروسها العظيمة: جلالُ الإيمان وسلطانه القاهر..

فالحسين رضي الله عنه حين خرج إلى الكوفة لم يكن طالبَ دنيا ولا جاه . إنما كان مستجيباً لسلطان الإيمان الذي لا يُعْصى ولا يُغلَب .

ولقد رأى الإسلام بكل قِيَمِه الغالية وأمجاده العالية . يتعرض لمحنـة قاسية يفرضها عليه بيت أبي سفيان .

ورأى خطيئة الصَّمْت والسُّكوت تجتاح الناس رغْبةً حيناً ، ورَهْبةً أحيـاناً ..

كانت بيعة يزيـد دَعماً لسلطان الجاهلية على حساب الدين .. ودعْماً لسلطان القبيلة والأسرة على حساب الأمَّة ..

وهكذا صارت مقاومتها دعْماً لسلطان الدين والأمَّة معاً .

ولئن فات « الحسين » دعم هذا السلطان في النظام العام عن طريق الخلافة ،

التي لم يكن له من أمرها شيء ، فإنه لم يتخلَّ عن واجب دعْسِه في الضمير ، عن طريق التضحية والصمود والفداء .

وهكذا .. وفي سبيل إيمانه الوثيق والعريق ضحَّى البطل الشهيد براحته ، ثم بحياته .. وضحى معه أهله الأقربون ، وصحبه الأكرمون .

ولقد يبدو لبعض الذين يفكرون في عجَلة ، أن « الإمام الحسين » ومن قبله والده « الإمام علي » كانا بإيمانهما ، وبما يَنشدان للحياة وللحُكم من ورَع وتقوى يمثلان جُموداً لم تعد تطيقه الحياة بعد التطور البعيد الذي حققه الإسلام وانْفعل به .

فالحق أنهما على العكس تماماً ، كانا يُمثلان رُوح التقدّم وضميره ..

بينما كان الآخرون من بني أميــة بتحويلهم الدين إلى مزرعة أمــوية .. وبتحويلهم الخـلافة إلى مُلكٍ يحتكرونه ويتوارثونه ،وبتحويلهم السلطة إلى سوط .. وبإشاعتهم النزعة القبَلية بعد أن أذابها الإسلام في وحدته الصلْبة . كانوا بذلك كله يمثلون الرجعية المنتكسة إلى عادات الجاهلية وتقاليدها .

لقد كانت تُضيء إيمان الحسين وتَسْتجيشه دوماً ، تلك الكلمات الصادقة التي قالها جَدّه العظيم رسول الله ﷺ :

« هلاكُ أمتي على أيدي أغَيْلِمَةٍ من قريش » .

وها قد جاء زمان الأغَيْلمة مُمثَّلاً ومُمثَّلين في يزيد ، وابن زياد ، وما حولهما من بطانة الإثم والسوء ...!!

وهناك حقيقة كان يدركها « الحسين » تماماً ، ويدركها أبوه « الإمـام » من قبــله ــ هي أن بلاط معاوية وجيش الشام نفسه قــد أفْسحا مكاناً رحْباً وعريضاً لكثيرين من الموتورين الذين تظاهروا بالإســلام ليندسُّوا بين صفوفه مخرِّبين ومُدمِّرين .

فالإيمان الذي حمل « الحسين » لواءه ، وذهب شهيده كان لهــذا كلــه ، وبهذا كلــه ، إيماناً مستنيراً وواعياً ورشيداً .

* * *

كذلك نواجه من حصاد كربلاء ودروسها ، ذلك الدرس العظيم عن عظمة التضحية ، وقداسة الحـق .. فالقدَر الحكيم ، يرتفع بالتضحية في « كربلاء » إلى أعلى مستوياتها المرموقة ، ويجعل منهـا ومن الحـق « قيمة مطلقة » تحقق ذاتهـا داخل ضميرها أولا .. ثم تعكس جلالها وسلوكها على الزمان والمكان بعـد ذلـك ..

إنه يفصلها عن كل شـيء عداهما ، حتى عن النصر ذاته ..

وهكذا رأينا اثنين وسبعين مقاتلا يصمدون لأربعة آلاف فارس يوماً بأكمله ثم يستشهدون جميعاً بعد أن يُنزلوا بعدوِّهم خسائر فادحة تمثلت في زيـادة أعـداد قتلاه عن عدد أولئك المستشهدين .

كأنما أراد القدر أن يقول لنا : إن الدرس الذي أريد إلقاءَه اليوم ، ومن فوق مِنصّة كربلاء الشاهقة ، لا يتمثل في قدرة القلة المؤمنة على إحراز النصر على الكثرة الساحقة ، فطالما ألقيتُ دروساً من هذا الطراز .

إنما درس اليوم عن عظمة التضحية وقداسة الحق . درس اليوم فحواه أن التضحية قيمـةٌ بذاتها ، وأن الحق قيمَة بذاته ...

وهما لا يستمدان جدارتهما ومكانتهما مما يُحرزان من نصر . أو يكتسبان من مَغْنم وسلطة .

فالانتصارات والمغانم يظفر بهما الباطل أحياناً ، ويحققهما الإذعان أحياناً .

وإذن فالصِّفة المميِّزة للتضحية ، أنها التضحية وحسب .. والصفة المميزة للحـق ، أنه الحق وكفى ..

والمَثوبة العظمى التي ينفرد بها أبطال التضحية وأبناء الحق ، هي انتماؤهم العظيم للتضحية وللحـق ..

أجَل .. هذا هو الدرس الجليل الذي كان القدر يلقيه على الدنيا في يوم كربلاء ، متخذاً من حركة القتال وسَير المعركة وسائلَ إيضاح ..!!

فهـو يَدعُ الآلاف الأربعة من فرسان ابن زياد يترنحون تحت ضربات « اثنين وسبعين » لا غير من أنصار « الحسين » وأبناء الحق ؛ ليكشف ــ أعني القَدَر ــ عن قدرته على إبادة ذلك الجيش لو أراد .. لكنه لا يريد ؛ لأنه يُعِدّ هـذه المعركة وذلك القتال لمغزىً آخر يؤكّد شرف التضحية وقداسة الحـق مُستَعلِيَيْن بذاتَيْهما عن كل شـيء حتى عن النصر والنجاح !!

* * *

ولقد أبرزَتْ بطولات كربلاء شرف التضحية على نحو باهرٍ وجليـل ؛ حتى لنكاد نحسب أن الأقدار إنما أرادت ذلـك اليوم بكل أهواله وتضحياته لتؤكّد شرف التضحية في وعي البشرية كلها، ولتضيء بمغزاه العظيم ضمير الحياة..

من أجل ذلك ، اختارت لها في يوم كربلاء ، نماذج رفيعة ، بالغة الرّفعة .. وقضية عادلة ، بالغة العدالة .. ونضالاً باسلاً ، بالغ البسالة ..

إذن هي شرف الإنسان وشرف الحياة .

وما دامت التضحية شرفاً ، فيجب أن يُصرف النظر عن الشكل الذي يفرضه عليهـا الاضطهاد والبغي . فالتضحية ليست حفلاً ساهراً .. وسواء على البطل أن يستشهد وجسده سليم .. أو يَقْضي ، وجسده ممزّق .. أن يبقى رأسـه مكانه من الجسد ، أو ينفصل الرأس ويُمثّل بالجسد !!

كل ذلك ، وأكثر من ذلـك يُغطّيه شرف التضحية ، ويُحوّل أساه إلى مَجْد .. وفواجِعَه إلى بطولات !!

ومن شاء فلينظر ، فهؤلاء نفرٌ من أكـرم الخلق ، وأتقى الناس ، تُمزّق أجسادهم بسيوف الباغين ، ثم تُحتزّ رؤوسهم ــ اثنان وسبعون رأساً ــ وتغرس في أسِنّة الرمـاح ..!!

فهل انتقص ذلك مثقال ذرّة من شرف التضحية وعظمتها ..؟

أبداً .. بل زادها تألّقاً وشرفاً ..

إن الأجساد بمجرد إلقائها النفس الأخـير يُزايلها الإحساس بالألم .. ثم

تنال الأرواح مكانها العالي عند الله بقدر بلائها وتضحياتها ، كما تنال مكانها العالي في ضمير التاريخ بقدر بَذْلِها وعطائها .

ومن ثَمَّ فالناس يخطئون عندما يقفون أمام شكل التضحية وما يصاحبها من ألم وفاجعة ؛ ثم لا يجاوزون هـذا الشكل إلى جـوهر التضحية ، حيث العظمة والجـلال ..!!

ولقد أدرك هذه الحقيقة . وعبَّر عنها في أصالة عظيمة ، بطل الإسلام العظيم « خـالد بن الوليد » حين تمثَّل مأساة حياته في موته على فراشه ، محروماً من شرف القتل على أرض المعارك والنضال . فقال قولته المأثورة :

« لقد شهدتُ كذا ، وكذا زحفـاً .. وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربةُ سيف ، أو طعنة رمح ، أو رمْية سهم .. ثم ها أنذا أموت على فراشي حَتْفَ أنفي ؛ كما يموت البعير ، فلا نامتْ أعينُ الجُبناء » ..!!

* * *

وفي واقعة كربلاء هـذه ، يتألَّق ذلك المغزى تألق النهار .

فإذا كانت في شكلها الخارجي تبعث الأسى والحزن ، فإنهـا في جوهرها العظيم تستجيشُ كل ما في النفس البشرية من إعجاب وإجلال .

إنها تبدو ، وكأنها مهرجان للحـق بالغ الروعة !!

وتبدو ، وكأنها عيد للتضحية نادر المِثال !!

إن المسلمين يحتفلون كل عـام مرة بعيد الأضحى ، ويسمونه « العيـد الأكبر » .. فماذا كانت مُناسبة هـذا العيـد في التاريخ ..؟ كانت مناسبته التضحية .. ولا شيء سواها ..

فخليل الرحمن « إبراهيم » أراد القدر أن يلَقِّن البشرية عن طريقه درساً ليس كمِثله درس في تقديس مشيئة الله وتلبية ندائه وأمره ، فدعاه أن يذبح ولده ، فسارع من فوره ؛ وشحَذ سكّينه ، وتَلَّ ولدَه للجبين .. وفي اللحظة الباهرة

ملأ الوحي روعه وفؤاده :

(يا إبراهيم ، قد صدَّقْتَ الرؤيا ٠٠ إنّا كذلك نجزي المحسنين) ٠٠!!

فهل اتخذ الإسلام من تلك المناسبة عيداً ، لأن الله افتدى « اسماعيل » بِذِبْحٍ عظيم ٠٠؟!

كلا ، فلقد كان سيحتفل بها أيضاً لو انتهى الأمر إلى أن يكون « إسماعيل » الذبيح والقُربان ٠٠

ذلك أن الإسلام يحتفل بمضمون الموقف وجوهره ــ التضحية بأعز شيء ٠٠ وفي سبيل ربّ كل شيء ، وإله كل شيء ٠٠٠!!

ولقد وقف « الحسين » وأهله وأصحابه من أجل الحق موقفاً استحق ببطولاته وتضحياته أن يكون للتضحية عيداً ، أيّ عيد ٠٠!!

لقد رفضوا الباطل ، واختاروا الحق ٠٠

ثم رفضوا الصمت ، وآثروا المقاومة ٠٠

ثم رفضوا المساومة ، وصمدوا مع إيمانهم ٠٠

ثم لما رأوا أنفسهم اثنين وسبعين ، وسط أربعة آلاف فارس ورامٍ ، ولم يعد هناك أدنى ريب في أن الموت هو الذي ينتظرهم ، اقتحموا الهَوْل في مشهد مجيد ، مُقرِّرين بمحض اختيارهم وإرادتهم أن يمنحوا أمتهم ، بل والبشرية كلها هذه القدرة الرائعة في التضحية ٠٠ وهذا العيد الممجّد للفداء ٠٠!!

وفي جلال المُفْتدين ، وإخبات المتقين ، راحوا يؤدون مهمتهم القاسية والعالية ، حتى أنجزوها في نجاح عظيم ٠٠!!!

* * *

وإني لأكادُ أرى المعركة أمامي ٠٠

أرى وَقع السيوف ، وقَذْف الحراب ٠٠ أرى قطع الرقاب ، وتمزق الأجساد ٠٠ أرى وحشية المجرمين ، وصمود المتقين ٠٠

أرى ذلك كله ؛ فلا يخدعني الشكل الفاجع عن الجوهر المجيد ٠٠!

ولا تصرفني مأساة الموت . عن عظمة الشهادة ..!

ولا يشغلني مأتم الأرض . عن انبهار السماء ..!!

أجلْ .. لكأني أرى السماء يومها مُبْتهية وهي ترى الحق يستعيد قداسته في ذلك اليوم الرهيب ، ويثبت استعلاءه بهذا الصمود العجيب .!!

ثم ، وهي ترى حكمة الله في اختياره تتجلّى ..

فقديماً ، وعندما كان الرسول عليه السلام في بدء دعوته ، قال كُفار قريش :

أوَلم يجد الله غير ذلك البيت الهاشمي الفقير ليختار منه رسوله ..؟؟

فأجابهم الوحي صادعاً رائعاً :

(الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

أجَلْ ، الله أعلم ..

وها هو ذا عِلْمُه يتألّق للدنيا ، ولا كمِثله تألّق النهار ..!!

فالرسول لم يكن وحده بطل التضحيات ، لأنه رسول ..

بل ها هو ذا عمه « حمزة » بطل الإسلام في « أحُد » تمزقه السيوف والأحقاد ، حتى تستقر كبده بين أنياب « هند » زوجة أبي سفيان ..!!

وها هو ذا « جعفر » ابن عم الرسول ، بطل « مؤْته » تحصد جسده سيوف الروم ..!!

وها هو ذا « عَليّ » ابن عم الرسول .. بطل الإسلام في كل غزواته ومشاهده .. وبطله في وجه الوثنية الأموية التي أرادت أن تُحوّله إلى مُلْك عَضوض ــ يمضي هو الآخر شهيد اغتيال أثيم ..!!

وها هو ذا « الحسن » بطل السّلام في الإسلام ، تغتال عصابةُ الشيطان حياتَه بالسُّم ، ويأخذ مكانه العالي بين الشهداء ..!!

ثم ها هم أولاء ، أبطالٌ كرام من نفس البيت المجّد والعظيم ، يصارعون أربعة آلافٍ مدجّجين بالجريمة والسلاح .. وليس معهم في ذلك اليوم الرهيب سوى خمسين ناصراً أو مُقاتلا .

ويتقدم الاثنان والعشرون إلى التضحية والموت في استبسال مُعجز .. ويعانقون الشهادة جميعاً ؛ لا يبقى منهم سوى فتىً مريض ..!!

أليس حقاً ، أنَّ الله أعلمُ حيث يجعل رسالته ..؟؟

أليس حقاً ذلك يا رجال ..؟!

* فأي شيء في يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته ؛ فنرى فيه وجه المأساة ولا نرى أمجاد البطولة ..؟؟

ألأنَّهم قاتَلوا ظِماء وماتوا ظِماء ، بينما أمواه الفرات تتفجَّر أمواجها على بُعد خطوات ..؟؟

وأيّ بأس ، وهم بعد ساعات معدودات سيكون لهم كَوثر الرحمن كله .. يَشربون منه علَلاً بعد نَهْل ..؟!

الآن نكاد نعرف .. فلكأن هذا اليوم كان في حساب الوحي يوم نزل على الرسول من ستين عاماً مضت مُعزِّياً ومُبشراً وقائلا :

(إنَّا أعطيناك الكَوْثر) ..!!

* وأيّ شيء في يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته ..؟؟ ألأنهم وحدهم في تلك الفلاة يقاتلون ، وهناك في طول البلاد الإسلامية وعرضها ملايين البيوت أوى إليها أهلها ، واستقروا آمنين تحت سقوفها ..؟؟

وأيّ بأس ؛ ما دام الله سبحانه قد ترك الملايين من تلك البيوت ؛ ثم اختصَّ هذا البيت وحده بأعظم ما في الدنيا من مجد وشرَف ـ شرف اصطفائهم لحمل رسالته ، وإعلاء كلمته ..!

* وأيّ شيء في يومهم ذاك يخدعنا عن حقيقته ..؟ ألأن المعركة ستُخلِّف أجساده فوق أرضها صرعى بينما المجرمون يتلمَّظون بنصر تعِسٍ رخيص ..؟!

سَلوا الله إذن عن حكمته في تلك الصفوف العارمة من القدِّيسين والأبرار الذين صرعهم الباطل عَبر التاريخ من كل أمة ، وعصر ، ودين ..!!

* أم لأنَّ رأس « الحسين » سيُفصل عن جسده ، ثم يحمل هدية لابن زياد ، ويزيد ..؟

سلوا الله إذن عن حكمته في رأس « يحيى بن زكريا » نبيه الكريم والعظيم حين فصل عن جسده . وقدم هدية لبغي من بغايا بني اسرائيل ..!!

* أم لأننا سنرى الفتى المريض المجهد ــ « علي بن الحسين » الذي فقد في المعركة أباه ، وإخوته . وأعمامه يُقيَّد بالأغلال ويُطوَّف به في شوارع الكوفة التعسة ..؟؟

ألا فلنحطم مقاييسنا الجاهلية الضريرة . إذا أردنا أن نبصر جوهر الأشياء ..

وإذا لم يكن بدّ لأقدامنا أن تبقى على الأرض . فلترتفع عنها عقولنا ورؤانا ، إذا أردنا أن نتعرف إلى حكمة السماء ..!

وإذا كانت وحشية المجرمين سترينا في كربلاء وجه الفاجعة التي تذيب الصخر ، وتصهر الحديد .. فإن شرف التضحية وجلال الحق سيريانا فيها روعة المهرجان ، ومجد العيد ..!!

* * *

ونختتم حصاد كربلاء ودروسها بمثوبة التضحية .. فتعلمنا دروسها العظيمة أن التضحية مثوبة نفسها ، وأنها ما دامت في سبيل الحق ، فإن انتظار الأجر عليها جهل « بقيمتها » إلا أن يكون هذا الأجر رضا الله : ورضوانه ، وجنانه ..

وليس معنى كون التضحية مثوبة نفسها أنها تحرم أبطالها من مزاياها وعطاياها .. وإنما معناه أنها ترتفع بتلك المزايا والعطايا إلى مستوى من القداسة، والقدوة ، والخلود ، يزري بكل مغانم الدنيا العاجلة وأمجادها الزائلة !!

إن مظاهر الرقي البشري كثيرة . ولكن شرف الإنسان وجدارته بالحياة لايزالان، وسيظلان منوطين بقدرته على التضحية النبيلة والجليلة من أجل الحق.

واللوحة التي رسمتها تضحيات«الحسين» وأهله وصحبه بوأت هذا الشرف وتلك الجدارة أعلى المنازل والذرى ..

إنهم لم يُقدِموا على تضحية يرجى من ورائهـا النصر . بل أقدموا على التضحية من أجل التضحية ذاتها ..

وهكذا جعلوها وسيلة وغـاية ..

كما أكّدوا معنى أنها مَثوبةٌ نفسها ، وأنها قِيمةٌ بذاتهـا !!

★ ★ ★

وبعد ، فأكاد أسمعكم تقولون : إنك لم تحـدّثنا عـن أجساد الشهداء الأبطـال ، أين استقرّت ..؟ ولا عن رأس « الحسين العظيم » أيّانَ مصيره ، ومُرْساه ..؟؟

أما أجسادهم الكريمة ، فقد استقرت تحت الثّرى الدامي لأرض كربلاء ..!!؟

فعلى أثر رحيل جيش ابن زياد خَفَّ إلى مكان المعركة نفرٌ من بني أسَد ، كانوا ينزلون بالقرب منها ، فدفنوا جثمان البطل العظيم .. وعنـد قدميه دفنوا جثمان ابنه الحبيب « علي بن الحسين » ، ومن حولهما دفنوا أجساد بقية الشهداء الممجّدين .. وحيث وقع « العباس بن علي » أخو « الإمام الحسين » شهيداً ، دفنوا جثمانه الكريم .

★ ★ ★

وأما رأس البطل ، فقـد راحت البقاع الإسلامية تتنافس ادّعـاء شرَف إيوائه ، فيدّعي كل منها أن الرأس عندها يُعطر أرضها ، ويبارك حِماها !!

لكنْ لا يُعرف على وجه اليقين أين هو ..

وذلك أمر يتّسِق مع حيـاة البطل ومصيره .!!

فرأس الحسين ، بكل ما مثّله من صمود وعظمة وتضحية لم يعُد مِلْكاً للحسين ، ولا مِلْكاً لجسده ..

لم يعُد ملْكاً لأرض .. بل ولا لِدينٍ دون دين ..

لقد صار ملكاً للبشرية الراشدة في كل زمان ومكان .

صار ملكاً للحق ، يرفعه في أوديته العامرة والثائرة لواءً وقدوة ، ويمـلأ بِسَناه إرادة الحياة عزمـاً ، وضميرها نوراً .. وكذلك صارت رؤوس أهـله وصحبه .. مشاعلَ فوق طريق الحق ، والشرف ، والإيمان !!

والموعد الله

مقطعة

كيفَ يُفكّرُ أهلُ اللهِ ؟

وَفِيمَ يتحدّثونَ ؟

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

من المؤمنين رجال نعتهم الرسول عليه السلام بأنهم « أهل الله وخاصته » .

أولئك الذين تبتلوا لله ، وحملوا بأيمانهم وفي قلوبهم نور القرآن الكريم . لم يلههم في طول الدنيا وعرضها شيء عن ذكر الله ، بل نذروا لله حياتهم ، وأسلموا إليه وجودهم ، واتخذوه وكيلا ..

وعبر التاريخ الطويل ، كان هناك دائماً ولا يزال ، فريق من أولئك الأبرار . لا يخلو منهم عصر ولا جيل ، وكأنهم أوتاد الحياة يمسكون بها كي لا تميد وتهوي .. وكأنهم ، بل انهم لمصابيح الحياة يؤلقونها بنور الله ...!!

وقد عرفوا عبر التاريخ بأسماء شتى . فتارة نسميهم : « المتصوفة » . وأخرى « أهل الله » . و « أولياء الله » ، و « أهل الطريق » ..

فعن « أولياء الله » كما أسماهم القرآن العظيم .. وعن « أهل الله » كما وصفهم الرسول الكريم ، يتحدث هذا الكتاب .. وإليهم إهداؤه ...!!

* * *

وهو ليس تأريخاً لهم ، ولا تقديماً لسيرهم ، إنما هو محاولة لرؤية أفكارهم وفلسفتهم تجاه طائفة من القضايا التي يناط بها مصير الانسان وخلاصه ..

ومن خلال الكلمات الفاتحة والمضيئة التي عبروا بها عن أنفسهم وضمنوها فكرهم العميق والعريق ، نحاول تحقيق الغرض الذي انعقد عليه عزم هذا الكتاب ..

ألا ، وان للكلمات التي تنفرج عنها شفاههم لمذاقاً فريداً ..!! فالتعبير النهائي للفكرة ، والجمال المتألق في الصياغة ، هما السِّمة المميزة لحديثهم وما ينطقون ..

* فأيكم يعرف في وصف الصداقة الخالصة والإخاء الوثيق أجمع وأمتع من هـذه العبارة :

« لا تتم المحبة بين اثنين، حتى يقول أحدهما للآخر : يا..أنا ؟؟!! »

* وأيكم يعرف في السخرية من النفاق ، وفي التفجع من كثرة المنافقين أجمع وأمتع من هـذه العبارة :

« لو خلق الله للمنافقين أذناباً ، ما وجـد المؤمنون أرضاً يمشون عليها » ؟؟!!

* وأينا لا يستنجد بأقصى طاقات ذكائه ، لكي يدرك السر الكبير الكامن في مثـل قولهم :

« نِعْم الرب ربنا . لو أطعناه ما عصانا » .

وفي مثل قولهم :

« لا أعرف يقيناً لا شك فيه ، أشبه بشك لا يقين فيه ، من هـذا الذي نحـن فيه » .

أو في قولهم :

« ذل من لا سفيه له » ..!!

إن وراء الكلمات التي يرسلونها في تركيز باهر ، فيضاً من الحكمة العميقة ، والتجربة المفعمة ..

* * *

وإنا لنعجب . كيف تواتيهم الحكمة في أكثر أساليبها إشراقاً وسلاسة وألقاً ، هم الذين لم يتخصصوا في فنون البلاغة والقول ، ولم يعنوا برعاية هـذا النوع من الموهبة .. بل هم الذين كانت العبارة الحلوة الآسرة تسبق الى لسان أحدهم عفو الخاطر . فيحتجزها . ويستخدم مكانها عبارة أخرى متقشفة شعثاء ، درءاً لما

قد يطوف بخاطره من طائف الزهو والافتتان !!.

أجل ، نعجب كيف تنبثق الحكمة من أفئدتهم في مثل هـذا الجمال الفريد . لكننا نودع عجبنا سريعاً حين ندرك أنهم إنما ينهلون من المنبع الذي لا يغيض . حيث تتدفق عطـايا ربنا وهباته ، يهبها ــ سبحانه ــ من يشاء . ويؤتي الحكمة من يشاء !!

* * *

ولقد أتيح لي في فترة مبكرة من حياتي ــ ليتها دامت ــ أن أصحب هـذا الرعيل الطاهر في أخبارهم وآثارهم ..

ولطالما بهرتني ــ ولا تزال ــ كلماتهم التي كانت وسيلتهم لابلاغ الصدق ، وتبيـان الحقيقة .

ويزيد كلماتهم تلك جلالاً وقداسة أنها كانت التعبير الأمين الصادق عـن حياتهم ومسلكهم في الحياة ، فما كان بين حياة أحدهم وكلماته فراغ يتسع لمرور خيط دقيـق !!.

- كانت قلوبهم من النقـاء والتبتل ، بحيث ترى الحق كضوء النهـار .
- وكانت عزماتهم من الصلابة والمقدرة ، بحيث تحمل تبعات هـذا الحـق في عـزم الراشدين .
- ثم كانت كلماتهم التي تحكي تجربتهم للناس ، قواطع ماضيات كالسيوف النقية المرهفـة !!.

* * *

والآن يطيب لي أن أقترب من رحابهم في وجل المتطفل ، ورجاء المتوسل ، لأعيش والقراء معي لحظات يضمخها عبير ذكرهم وذكراهم ، بين تراثهم الممتلىء وحكمتهم الهادية ، لنرى : كيف يفكر « أهل الله » وفيم يتحدثون ..

أجل .. مع أفكارهم وكلماتهم .. لا باحثين عن وجـوه البلاغة وقضايا المنطق فيهـا . بل مستسلمين لحبورها ونورها وحكمتها المكنونة في أعمـاق

الضياء !!.

راجين أن نذهب من نورها ومن بركاتها بحظ ونصيب .

* * *

وعلى غير عادتي في التأليف . ستجد القراء كتاباً غير مقسّم الى أبواب وفصول ..

إنه يبدأ . ويمضي . وينتهي . وكأننا نسترسل مع « أهل الله » في حديث واحد متساوق وموصول!!.

وعندما يلتقي القارىء بصفين من النقاط إلى يمين الصفحة ، فتلك علامة على أننا ننتقل من موضوع الى موضوع . أو من إحدى حلقات الحديث الى حلقة أخرى عبر السياق المتثال في تدارك وارتباط .

ولقد تتبعت الكثير الباهر من أقوالهم في مصادر شتى ، ثم رحت أستلهم هذه الأقوال ماتنطوي عليه من فلسفة وأفكار، ثم ما تطرحه من قضايا واتجاهات.

ولست أزعم أنني استوعبتها، أو حتى جئت منها في هذا الكتاب بالكثير .. انما هي عجالة أرجو أن تكون ـ بعون الله ـ بداية لأعمال أخرى مقبلة في هذا السبيل .

* * *

ولنذكر . ونحن نتهيأ للإصغاء الى صوت الحكمة التي تصدح بها كلماتهم الهاطلة . أننا أمام هذا الرعيل الكريم من أهل الله وخاصته ، إنما نتلقى منهم وعنهم طرازاً فريداً من التجربة الانسانية المفعمة بروعة المعاناة . وعظمة الوسيلة . وجلال الغاية !!.

ومهما يكن الخلاف ، أو يطل الحوار حول منهجهم ، فهناك حقيقة تفرض نفسها على أولي الألباب الذين يعنيهم دوماً أن يعرفوا .

* تلك هي أن التجربة الروحية والسلوكية التي شكلتها حياة أولئك الأبرار ليس لهـا من طرازها سواها ..

* وأن حظها من الصدق حظ فريـد ••

* وأنها كانت وستظل تحمل من الرؤى ما ليس للروح الإنساني عنه غنى . وتحمل من الثراء العلوي ما لا يبدد فاقة النفس سواه !!•

★ ★ ★

لقد كان أمرهم عجباً ، وهم ينشئون في دأب رهيب أعظم وأنقى وأبهى مشاهد التبتل والولاء لله رب العالمين ، بوصفه سبحانه أعظم الغايات التي يجب على الوجود الإنساني أن يعيش لها وينمي مواهبه تحت راياتها ••

- تعلّموا العـلم وعلّموه ••
- أنضوا أجسادهم في الصلاة والصيام والنسك كافـة ••
- انتضوا سيوفهم لمقـاتلة الغزاة الذين كانوا يتسورون حرمات دينهم وتخـوم أوطـانهم •
- وعاشوا حياة خارقة في محاولاتهم الباسلة لتتويج إرادة الإنسان •

هؤلاء هم الذين كانوا يوصفون تارة بالصوفية •• وأخـرى بأصحاب الطـريق ••

ولكن اسمهم الحقيقي هو (أهل الله وأولياؤه) ذلك أنهم في كل ما كابدوا وجاهدوا • لم يريدوا وجهاً غير وجـه الله العلي المجيد • والعبارة التي اخترتها عنواناً لهذه الصفحات ، ليست سوى الشعار الذي نحتوه هم لحياتهم •

ذلكم هو : « •• والموعـد الله »

★ ★ ★

لقد رفعوه في وجه الإغراء الزاحف ، والخطر المحدق •• ودمدموا به على كل قوى التثبيط والضلال •• وكان المعراج الذي تسنمته أرواحهم الى روضات الله ذي الجـلال والإكرام •

فليمنحهم الله المزيد من خير ما أعد لهم من نعمة ورفعة وثواب •• وليكن لنا من واسع فضله تمام نعمته وعافيته ، وحسن مآب ••

خـالد محمد خـالد

الأول ... الله

من أشواقهم إليه يبدأون .. والى مثولهم بين يديه ينتهون ..

من الله الملك الحي القيوم تبـدأ مسيرتهم .

وإلى الله الملك الحي القيوم ينتهي مسراهم ومعراجهم .. فهو ـ سبحانه ـ الأول والآخـر .

ورغبتهم في التعرف إليه ، وشوقهم الى محبته ولقائه، يمثلان شدة الزناد .. حيث تنطلق الطاقة المشتاقة في عنفوان مقتدر ، ذاهبه الى هناك .. لا تلوي على شـيء مُيممة وجهها شطر الطريق المفضي الى سدرة المنتهى .. غائصة في البحار المجهولة .. متسلقة جبال الضنى والهول .. مجتازة تخوم المألوف ، الى عـالم كل ما فيه عجيب ، وجليل ، وباهر !!. وعلى الرغـم من أنهم مسافرون إلى الله . فهم في ذات الوقت مسافرون بالله ..!!

فإذا كان سبحانه « الآخـر » الذي يقطعون الأعمـار وثباً في السفر الى رضوانه وجلاله ، فهو أيضاً « الأول » الذي يبدأون الرحلة من دعوته ، ومشيئته، وتوفيقه . ومن إرادته التي تقول للشيء : كن ، فيكون .. ومن حـوله وقوته اللذين لولاهما ما قدر أحـد على حركة أو سكون !!!.

ولقد أدركوا ما عمي عنه كثيرون ، وهو أن رحمة الله قريب من المحسنين ، وأن مزمع السفر الى رضوانه لا يكاد يلوح بعزمه وبأشواقه حتى يجد كل مراكب النعمة في انتظاره ، لتنطلق به في الموكب المجيد والسعيد .. فالرب الذي يشدون الرحال الى رحابه ليس فقط ، الأول في وجوده .. بل والأول في جوده !!.

وهو ـ سبحانه ـ لا يعيق المهاجرين إليه ، والمسافرين إلى رضوانه .. بل يجعل لهم الأرض مهداً والسماء سبلاً ..

ولقــد فهم أولياؤه هــذا فوضعوا أعينهم على أنفسهم حتى لا يؤتوا من قبلها بما يعرض الرحلة للتيه والضلال .

وهنا نلتقي بـ « أبي حازم سلمة بن دينار » يقول في بهــاء عظيم :

« لأنا من أن أمنع الدعاء ، أخوف علي من أن أمنع الإجــابة » .

أي تعبير نهائي لهذه الفكرة يفوق هــذا التعبير [illegible] .. إنه لا يخشى أبداً أن يبسط يد الضراعة الى ربه فلا تسارع اليه يمين الرحمن بكل برها ونجدتها وحنانهــا وعطــاياها .

لا يخشى أن يقرع الباب فلا تفتح له أبواب .. فذاك أمر مفروغ من تيقنه .

إنه على يقــين من قول الله لعبــاده في حديثه القدســي :

« مَن مشى إليَّ شبراً ، مشيتُ إليه ذراعاً .. ومَن مشى إليَّ ذراعاً مشيت إليه باعاً .. ومَن أتاني يمشي ، أتيته هَرْوَلة » .

كما أنه على يقين من قوله تعالى لعباده في قرآنه العظيم :

« ادعوني ، أستجب لكم » .

فتقبل الله أعمالنا ، وفتحه أبواب رحمته وأبواب فضله لنا ، لم يكونا قط موضع تساؤل من أهل الله وأوليائه . إنما المشكلة ماثلة فينا نحن .

فهل نحن أهل لأن نريد ؟. ثم هل نريد حقاً ؟. هذه هي المشكلة . أما حين نريد ونحن للإرادة أهــل ، فان كل قوى السماء والأرض توضع على الفور في خدمة ذلك العبــد المشتاق الذي آثر الله وأراده ، فكان له من الله ما يؤثر وما يريــد !!.

وهنا نلتقي بـ « أبي وائل شقيق بن سلمة » يقول :

« نِعْمَ الرب ربنا لو أطعناه ما عصانا ! »

وهي عبــارة تثير الدهش لا محالة من حيث الصياغة والتركيب فه [illegible] لنا أن نقول عن الله سبحانه : « ما عصانا » ؟.

وما نحن بكل أبرارنا وقديسينا . حتى يطيعنا الله أو حتى يعصمنا ؟!.

لكن أهل الله لهم لغتهم التي أذن لهم بها . ولهم أذواقهم وأحاسيسهم ... ومن ثم تعبيراتهم التي تستمد من أبعد الأعماق وأرحب الآفاق .

إنهم يعرفون كيف يدلّل الله عباده ..!!

ألم يقل لهم :

« من أتاني يمشي . أتيته هرولة » ؟

فمن نحن حتى يهرول الله إلينا ، إذا جئناه مشاة ؟!!.

وألم يقل سبحانه :

« قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، ولعبدي ما سأل » ؟!.

فمن نحن ، حتى يرفعنا الله سبحانه الى هذا المستوى من المنزلة عنده . بل من المنزلة معه ؟!.

إن « أهل الله » يتحدثون بلغة قريبة ، تصور ما أترعت به نفوسهم ومشاعرهم من فهم عن الله وحب له ..!!

وهكذا قال « أبو وائل » رضي الله عنه :

« لو أطعناه ما عصانا » !.

* * *

ونعود الى جوهر القضية ، لنرى أهل الله وهم يدركون أعمق إدراك جوهر العلاقة بين الله وعباده .

إن أبوابه مفتحة لنا جميعاً ــ طائعين وعصاة ، أبراراً وخطائين . إنه بالليل . بالنهار ينادينا :

« هل من مستغفر ، فأغفر له .. هل من مسترزق ، فأرزقه » ؟

وهو يريدنا بكل ما فينا من طين ونور !! فلا يأس أبداً من فضله ، ولا خوف قط من غياب جوده وعطائه وبرّه .

إذا ناديناه ، لبّانا ..

و « لو أطعناه ، ما عصانا » ..

وعلينا إذن أن نزيده بمقـدار قطرة من بحار إرادته لنا ، وحرصه علينا وحبه إيّانا .

تلك هي المشكلة ، ولا مشكلة سواها .. أن نزيده نحن ، ونهفو إليه ، ونرتمي بين يديه ، أما الذي بعد هذا ، فهو ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ،ولا خطر على قلب بشر . فأولئك الذين « يريدون وجهه » لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

ولكن كيف نريد ..؟

* * *

هنا نلتقي بالشيخ « الواسطي » يقول :

« أول مقام ينزله المريد ، هو ، إرادة الحق بإسقاط إرادته » .

ويقدم « أبو يزيد البسطامي » نفس الحقيقة في أسلوب أوضح فيقول :

« إذا قلت : يا رب أين الطريق إليك ؟ جاءك النداء : خلّ نفسك . وتعال ! » .

فأهل الله هكذا يفكرون .. حين تريد أن تريد وجه الله ، فمعنى ذلك أن حظوظ نفسك وهواك لا ينبغي أن يبقى لها في صدارة حياتك ، بل ولا في خلفيتها وجود .

إنك تحتاج الى « البطارية » وتعتمد عليها في الظلام الحالك ، أما في رائعة النهار ومهرجان الشمس ، فإنك لا تفقد الحاجة اليها وحسب — بل إنك تنساها وتنسى وجودها .

كذلك ، فأنت تشعر بذاتيتك ، وبنفسك ، عندما لا يكون معكما ثالث .

أما في حضرة ثالث ، ورابع ، وخامس ، فإن شعورك العاكف على ذاتك يتوزع بعدد الجالسين معك وبمقدار أهمية كل منهم .

وأنت في حضرة انسان عظيم تشعر بالارتباك والخجل ، حتى لتكاد تفقد تماسكك ، كما أنك في حضرته تتنازل عن الكثير من خصائصك وعاداتك .

أفتريد أن تنزل في حضرة الله رب العالمين دون أن يطرأ عليك جديد يتناسب مع ضآلة العبد وكبرياء الرب ؟؟.

إن أهون صور هذا الجديد ، هو تخليك عن نفسك :

« خلِّ نفسك ، وتعال » .

إنه دغدغة هواك .. ونبذه بعيداً ، بعيداً ، وذلك يعني :

« إرادة الحق بإسقاط إرادتك » .

إن ادلاج الانسان ليأخذ مكانه بين « المريدين » يشكل في نظر أهل الله محاولة تتفجَّر رهبة وخطراً وقداسة .. فمعناها أنك تختار بين الله ، ونفسك .

انظر ، كم هو رهيب ذلك الموقف ، وكم هو مقدس !!

ليس ثمة تنكر ولا هروب .. إنما هو الله ونفسك .

ومن ثم قالوا ، أو قال باسمهم « حاتم الأصم » :

« إذا رأيت المريد يتلفت عن مراده فاعلم أنه نذل » !!

وفي تعبير « حاتم » هذا تخفيف وترفق وتلطف « فلفتة المريد عن مراده . ليست في عرفهم نذالة فحسب..إنما هي ردة أيضاً ».. ها هو ذا « ابن الفارض » يقول مناجياً ربه ومولاه :

« ولو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري يوماً قضيت بردّتي »

والتخلي عن النفس هنا كما يريد أهل الله ، هو في الحقيقة أمثل طريق لاستبقاء النفس وتعليتها . فالخروج من ظلماتها الى دائرة الضوء الذي يفيئه ويعكسه جلال ربها وبهاؤه . بعث جديد لها في أكمل نمط ، وأحسن تقويم .

ومن ثم ، ففي قولنا ان المريد يجد نفسه في خيار بين الله ونفسه ، تجوّز كبير . إذ أنه بين الرب والعبد ، لا مجال بل لا وجود لهذا الاختيار . ليس فقط

لما بين المنزلتين من تفاوت يلاشي منزلة العبد ويدسها في التراب .. بل ولأنه ليس هناك وجود حقيقي لغير الله .. ومن ثم . فليس هناك وجود لمن يدخل معه سبحانه في دائرة الاختيار .

لذلك كانت فلسفة « أهل الله » في التخلي عن النفس ماثلة على نحو أكثر في أن تقدر الله قدره ، وتعرف لنفسك عجزها . وحقيقتها .

« وهنا يحدثنا ابن عطاء الله السكندري » يقول :

« كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً ، وبأوصاف عبوديتك متحققاً » .

عندئذ ستختفي نفسك دون تكلف أو محاولة .. سينهار غرورها الكاذب ، وتتلاشى كبرياؤها الباطلة .. ستظهر حقيقتها كخلق ضعيف من خلق الله .. كطفل فوق ثبج بحر عريض قامت قيامة أمواجه ، وليس الى نجاته سبيل ، تمتد إليه في هدوء واثق ، يد حانية وقادرة ، تقهر البحر وتذل الموج وتجعل منه هو الطفل الساذج المرعوب سيد البحر والموج والخطر والهول !!.

أجل .. عندما تتعلق بعظمة ربك ، وتتحقق من عجز نفسك ، فآنئذ تكون قد تخليت عنها ، وتكون في نفس الوقت ولنفس السبب قد وجدتها ، وامتلكتها وربحتها .

ولكن أنّى لإنسان أن يكون بأوصاف الربوبية متعلقاً ؟؟ أليس عليه بادىء ذي بدء أن يتعرف الى الرب ؟. وأنّى له أن يعرف مَن ليس كمثله شيء ، ومَن لا تدركه الأبصار ، ومن تكاد السماوات يتفطّرْنَ منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هداً ؟؟!.

هنا يقول « أهل الله » : نعم هو كذلك وأكبر من ذلك ، ولكنه مع هذا أقرب إلينا منا .. وهو أوضح من كل موجود نلمسه ونشمه ونسمعه ونراه ..

ها هو ذا « ابن عطاء الله » مرة أخرى يقول :

كيف يتصور أن يحجبه شيء ، وهو الذي أظهر كل شيء ؟.

كيف يتصور أن يحجبه شـيء ، وهو الذي ظهر بكل شـيء ؟.

كيف يتصور أن يحجبه شـيء ، وهو الذي ظهر في كل شـيء ؟.

كيف يتصور أن يحجبه شـيء ، وهو الذي ظهر لكل شـيء ؟.

كيف يتصور أن يحجبه شـيء ، وهو الظاهر قبل وجود كل شـيء ؟.

كيف يتصور أن يحجبه شـيء ، وهو أظهـر من كل شـيء ؟.

كيف يتصور أن يحجبه شـيء ، وهو الأحد الذي ليس معه شـيء ؟.

كيف يتصور أن يحجبه شـيء ، وهو أقرب إليك من كل شـيء ؟.

كيف يتصور أن يحجبه شـيء ، ولولاه ما كان وجود أي شـيء ؟.

ففي كل شيء ظهوره ، وبكل شيء ظهوره ، وأظهر من كل شـيء ظهوره ، بل هو الواحد الذي ليس معه سواه ، إذ لا وجود حقيقياً لغيره . ومن ثم : فليس هناك ظهور حقيقي غير ظهوره ، وليس هناك حضور حقيقي دائم غير حضوره !!

إذن فما بالنا نعيش عمياناً عنْ هذا الظهور، تائهين ضلالاً عن هذا الحضور؟.

ماذا يحـول بيننا وبين شهوده ؟.

وماذا يحجبنا كل هـذا الحجب عن رؤية وجوده !!؟.

هو ذا يتم كلماته الهادية فيقول :

« ما حجبك عن الله وجـود موجود معه . بل حجبك عنه توهّم موجود معـه !! »

إذن فالتيه الـذي نعيش في غياهبه وظلماته تيه صناعي موهوم . إذ ليس هناك أي وجود حقيقي لأي شيء مهما عظم حتى يشغلنا عن الله ويحول بيننا وبين شهوده وملاقاته ، إنما هي الأشباح التي تنسجها أوهامنا فتحرمنا الرؤية ، وتعمي علينـا السبيل .

وأخطـر هـذه الأشباح جميعاً شبح النفس « نفسي . ونفسك ، ونفس الآخرين » بكل ما تموج به من أهـواء وأطماع وتفاهات ، وهكذا كان طريقهم

إلى الله ماثلا في تلك الصيحة المباركة :

« خَلِّ نفسك ، وتعـالَ !» »

* * *

وكم من « مريد » خلى نفسه ومضى .. تخلى عن شهواته وآثامه وخطاياه ، وقطع شوطاً طويلا في التطهير والتغيير ، ولكن وهـو على وشك بلوغ المشارف السعيدة للملكوت العظيم ، إذ به يسقط صريع آفة لم يفتح عليها بصيرته . ولم يشحذ لها تصميمه .. تلك هي ــ غرور الطاعة والعبادة !!.

هنا قاصمة الظهر لا ريب فيها .. وهذا الغرور رغم ارتكازه على العبادة ، آية ما لا تزال النفس تعج به من خبث واستعلاء .

ولهذا الغرور وجهان : وجهه الأول رضاك عن نفسك والافتتان بما تأتيه من عبـادة ونسك .. ووجهه الثاني : استعلاؤك على الآخرين بفضلك ؛ بل وتعييرهم بما معهم من قصور ومساوىء .

إن « أهل الله » لايمقتون نقيصة مثلما يمقتون هذا اللون الوقح من الغرور .

ذلك أنه حين تسلم نفسك حقاً من ذاتيتها وأنانيتها ؛ فلن تدل بطاعة أبداً . بل ستظل راكعة لله الذي وفقها ، وهداها . وزكاها . ضارعة إليه ألا يسلبها هذه النعمة بعـد أن أعطـاها .

ثم هي لن تعير بمعصية أبداً ؛ لأنها تعلم علـم اليقين أن ليس بينها في أوج طاعتها وبين الآخرين في أغوار عصيانهم سوى غلالة رقيقة من ستر الله وتوفيقه ، لو تكشفت عنها لأصبحت والآثمين سواء !!.

من أجل هـذا لم ينس « أهـل الله وأولياؤه » هذا المنزلق الوعر والهوة الفاغـرة .

ها هو ذا « أبو علي الهروي » رضي الله عنه وعنهم أجمعين يقول :

« اعرف أن كل طـاعة رضيتها منك ؛ فهي عليك . وكل معصية عيرت بهـا أخاك ؛ فهي إليك » !!.

إن خطـر رضائك عن نفسك في هـذا المجال ، أنك بهذا الرضا ، ومـع تكراره واستمراره ستفقد الاحساس بالخطأ ، ومن ثم تفقد حاسة الاتجـاه إلى الفضيلة والخـير والصواب •

ثم إن هـذا الرضا إذا لم تحسن استخدامه ، سيضع مكان الطموح إلى التكامل والخير • الاغترار بما أصبت من تكامل وخير • ومن ثم فالقعود عن طلب المزيد منهما والشوق إليهما •

أما تعيير الآخرين بضعفهم ، فهـو لا يكشف وحسب عن أن النفس قـد ضلـّت طريقها الى الله • بل وقبل ذلك ، يكشف عن أنها لا تستحق بحال ، شرف السير على هـذا الطريق !!

ولنصغ لفلسفة« أهل الله » تجاه هذه القضية يؤلقها لنا« ابن القيم » فيقول :

« تعييرك أخاك بذنبه ، أكبر إثماً من ذنبه ، ففي تعييرك هـذا ، تبدو صولة الطاعة وتزكية النفس والمناداة عليها بالبراءة من الذنب• ولعل انكسار الذي عيـّرته بذنبه ، وازراءه على نفسه ، وتخلصه مما أصابك من كبر وعجب وادعاء ، ووقوفه بين يدي ربه ناكس الرأس خاشع الطرف ، منكسر القلب ، أنفع له من صولة طاعتك ومـَنـّك بهـا على الله •

ألا ما أقرب هـذا العاصي من رحمـة الله !••

وما أقرب ذلك المدل من مقت الله !•

فذنب تذل به لديه •• أحب من طاعة تدل بها عليه !!•

ولأن تبيت نائمـاً ، وتصبح نادماً •• خير من أن تبيت قائمـاً ، وتصبح معجباً ، فإن المعجب لا يصعد له عمـل ••

وإنك إن تضحك وأنت معترف ، خير من أن تبكي وأنت مدل ••

وأنين المذنبين ، أحب الى الله من زجل المسبحين ، المدلين ••

ولعل الله سقاه بهـذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلا •• هو فيك وما تشعر » !!•

ويتقدم الإمام الجليل « أبو الحسن الشاذلي » رضي الله عنه ملخصاً القضية في ايجاز بليغ فيقول :

« رُبَّ معصية أورثت ذلاً وانكساراً ، خير من طاعة أورثت عجباً واستكباراً » .

فغرور العبادة آفة يتوقاها « أهل الله » ويحاذرونها ويحذرون منها . ذلك أن ارتباط هذا الغرور بالطاعة كثيراً ما يعمي عن خطره ، بل كثيراً ما يتنكر في ثياب فضيلة تكريم الطاعة والتحدث بنعمة الله !!.

يقول « ابراهيم النخعي » :

« إني لأرى الرجل يرتكب أمراً أكرهه ، فما يمنعني أن أعيبه إلا مخافة أن أبتلى بمثله » .

أجل .. مخافة أن يبتلى بمثله ، فهم أكثر من غيرهم إدراكاً لما تعود به خطيئة التألي على الله من قصاص سريع .

يقول الإمام « جعفر الصادق » :

« من كشف حجاب غيره ، انكشفت عورات بيته ، ومن سَلَّ سيف البغي قُتِل به » .

ثم إن لهم حكمة عميقة في رفض ذلك النوع من التألّي والاغترار.. فالناس عندهم لا يحرمون فضلا يغبطون عليه مهما تكن أخطاؤهم .

وإن حسنة واحدة تراها في إنسان لتشفع له بحسن الظن فيه ، لأنها لن تظل واحدة وغريبة .. بل ستنادي إليها غيرها من الحسنات .

يقول « عروة بن الزبير » :

« إذا رأيت الرجل يعمل الحسنة ، فاعلمأ ن لها عنده أخوات ، وإذا رأيت الرجل يعمل السيئة ، فاعلم أن لها عنده أخوات » .

ويرتفع « أبو أيوب السختياني » الى قمة الإدراك السديد للقضية يبتهل إلى الله داعياً ، وقائلا :

« اللهم استرنا بالعافيــة » •

فعافية الله سبحانه هي التي تضع الفارق الشاهق بين الطائع والعاصي •• بين المعافى بالهدى ، المستور بالعافية ، وبين المبتلى بالذنب ، المحروم من العافية •

★ ★ ★

إن الخلاص من هــذا الغرور الديني غرور الطاعة والعبادة ضرورة لكي يصبح المؤمن صالحاً للسير على طريق القوم الراكضين الى الله •• و « أهل الله » يولونه أكبر قدر من اهتمامهم وعنايتهم ، لأنه ليس هناك ما يدل على بقاء سيطرة النفس وتألهها الكاذب مثل هذا النوع من الغرور •

ولقد كان التوقي من هذا الغرور شيمة أهل الله جميعاً ، حتى الذين لهم قدم صدق عند ربهم ، لم يكونوا ليأمنوا مكر النفس واغترارها بالطاعة •

هــذا هو « الربيع بن خيثم » واحد من كبار التابعين • وكان عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله ﷺ لا يكاد يراه إلا ويصيح :

« بَشِّر المخبتين » •

ثم يقول له :

« لو رآك رسول الله لأحبّك » •

هذا « الربيع » عليه رضوان الله ، يطلب إليه أن يعظ الناس، فيكون جوابه :

« ما أنا عن نفسي براض حتى أتحوّل عن ذمّها الى ذم النــاس وما أريــد أن أكون من قوم خافوا الله في ذنوب الناس وأمنوا عــذابه في ذنوبهم !•• » •

ألا ما أعمقــه •• وما آلَقــه ؟!••

ترى من هؤلاء الذين يخافون الله في ذنوب الناس ، ثم يأمنون عــذابه في ذنوبهم ؟!••

إنهم في أحسن مستوياتهم ، وهو في نفس الوقت أسوأها حالاً وعاقبة ،

ليسوا سوى ضحايا غـرور الطاعـة •• أنساهم غرورهم الأعمى ما في أنفسهم البشرية من ضعف ، بل وأنساهم وِزْرَ الغرور نفسه ، فأمنوا مكر الله تجـاه أنفسهم •• بينما راحوا يدمدمون بوعيده ويتعجلون عذابه وبأسه للآخرين !!•

وغرور العبادة هذا ، عرض لمرض آخـر يفطن إليه أهـل الله ، ويقرعون لضحاياه أجراس النذير •

ذلك ما يعبر عنه « ابراهيم النخعي » فيقول :

« ما أحسب أحداً تفرغ لعيوب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه »

فهذا الغرور حين يخدع أصحابه عن أنفسهم ويقنعهم بأنهم انتهوا إلى خير ما يرجون ، ولم يعـد في الا مكان أبدع مما كان ، يعود فيلوي أبصارهم شطر الآخرين حيث يسول لهم غرورهم أنهم فريق الانقاذ لأولئك الغرقى •• ثم ينفخ أوداجهم فيخيل إليهم أنهم الأطهار والأبرار وينظرون من عل إلى أولئك الخطائين نظرة تتضمن الاستخفاف بهم والتلمظ بعيوبهم •

وذلك السلوك في نظر « أهل الله » برهان أكيد على أن صاحبه قد غفل عن نفسه •• والغفلة عن النفس عندهم مهما يكن تقدمها الروحي أدهى خطراً وعاقبة من غفـلة رجل أعزل عن أسد يحاوره ويتربص به ليجعله مضغة شهية بين فكيه وتحت أنيـابه !!•

* * *

وليس معنى هذا الذي رأينا من موقفهم تجاه أخطاء الغير ، أنهم يروجون للخطيئة ، أو يتجاهلون خطر الذنوب والآثام •• فما شهدت الحياة مثلهم أناساً تروعهم الهفوة العابرة يأتونها ، وتكاد تجعلهم مزقاً وأشلاء •• إنما معناه أنهـم وهبوا ذلك الحس اللطيف والدقيق الذي يفرقون بـه بين أخطائهم وأخطـاء الآخرين ، فبينما تأخذهم على أنفسهم قسوة يرتضونها ويقدرون عليها اذا بهـم يحاولون بالرفـق انتشال الآخرين من وهدة الإثم ، رافضين أن يكونوا عـوناً للشيطان عليهم ، مكتفين بأن يرسلوا بين الحين والحين صيحة نذير يجلجلون بها

في صفوف الخطائين ليستيقظوا ، ثم ليقفوا ، وينظروا ، ويسمعوا ..

أما مع أنفسهم ، فلهم شأن آخر عجيب .. فالهفوة الصغيرة تؤرق صاحبها ، وتجعله كجالس عند سفح جبل يوشك أن يساقط عليه ويطمره تحت أنقاضه .

وهم في ذلك معذورون ، لأن ما ذاقوه وما عاينوه من مباهج القرب وأفراح الوصول يجعل حرصهم على استبقائه وخوفهم من فقده أمراً لا يصبر على صبر ، ولا يقـدر على أناة !!.

وهم يدركون أن أهواء النفس وفلتات الإثم هي المنزلق الرهيب الى الردة والانتكاس ـ أي الى ضياع النعيم الروحي الذي أدركوه الى جوار الله .

وهم أدرى الناس بعقبى الهفوات ، ناهيك عن كبائر الذنوب ، فقد سمعوا تحذير نبيّهم وهاديهم من محقرات الذنوب .

« إياكم ومحقرات الذنوب : فإنها تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه » .

ثم إن مذاق الطـاعة ، ومباهج الوصول كشفت لهم نهايات الطعوم المريرة والقاتلة للذنب ، كبيراً كان أم صغيراً .

وحسن إدراكهم لمكايد الشيطان ومصايده جعلهم يحاذرون صغائر الذنوب أكثر مما يتوقّون كبارها ، فلقد علموا أن الهفوات هي التي تخدع المؤمن عـن نفسها ، وتتنكر في ضعفها وضآلتها مستغلة استهانة مراكز المراقبة بشأنها !!.

ومن هنا ، كان توَقّيهم الهفوات عظيماً .

هـذا « إبراهيم التميمي » يقـول :

« إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى، فاغسل يدك منه »!!.

إن التكبيرة الأولى التي يدخل بها المصلي صلاته لا تحتاج إلى عنـاء ولا الى مكابدة .. ومع ذلك فإن « أهل الله » يفطنون لأهمية ، بل لحتمية الحضور الكامل قبل وأثناء أدائها .. وأدنى افتقاد لهـذا الحضور يجعل صاحبه صفراً .. « فاغسل يدك منه » !!.

* * *

ولأنهــم بصراء بالزمان وبالناس ، ألفيناهم يحملون كل هــذا الفزع من الهفوات ومن الأخطــاء .

هذا « يحيى بن أبي كثير » يقول :

« لا تعجب ممن هلك كيف هلك . ولكن اعجب ممن نجا كيف نجــا » ؟؟!

أجــل .. هنا نلتقي بواحد من أهم منطلقاتهم وأذكاها .. فمواقعة الخطايا والتردي في مهالكها ، هما القاعدة .. والنجاة هي الأمر الذي لم يعد مألوفاً ..

وهذه الكثرة الكاثرة من الهالكين بالإثم لم تعد موضع عجب ، ولا مثار تساؤل .. إنما العجب حقاً ماثل في تلك القلة الناجية !. فعندما تفاجأ قافلة عزلاء في أرض مشبعة بوحوش قاتلة تملأ كل شبر في الغــابة ، ثم تنقض على ضحاياها بكل جوعها وعنفها وضراوة الغرائز فيها .. فلن يتساءل أحد عن الصرعى ، لمــاذا صُرعوا ؟.. بل سيتساءلون عن الناجين ، كيف نجوا ؟؟.

والحياة بشرورها .. والنفس بارتكاسها .. والفتن ومضلاتها .. كل أولئك غــابة . يعيش فيها « أولياء الله » على خطر عظيم .

« فالناس هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم » !

* * *

وهم في فرارهم النبيل من الخطايا والهفوات ، لا يكادون يرون لأعمــالهم الصالحات مقــاماً .

فـ « سليمان التيمي » ذلك العابد الأوّاب ، يقول له بعض إخوانه : هنيئاً لك ما وفّقت إليه من طاعة وعمل صالح .. فيكون جوابه :

« لا تقولوا ذلك ، فإني لا أدري ما يبدو لي يوم القيامة من ربي . ألم تقــرأوا قوله سبحانه : (وبَدا لهم من الله ما لم يكــونوا يحتسبون) » !!.

إنه لرائع ، فهم « أهل الله » لحقائق الأشياء وسبر أغوارها انهم لا يستهينون بحسناتهم تواضعاً .. بل لأنهم يرون اللباب المستسرّ والمخبوء للقضية كلها .

فأعمالهم الصالحة ــ أولا ــ لا فضل لهم فيهــا ، لأن الله هو الذي رزقهم إياها وهداهم إليها وأعانهم عليهــا .

ثم هي ــ ثانياً ــ صالحة بمقاييسهم هم وإحساسهم .. أما بالنسبة للمعايير التي يتقبل الله بها الأعمال فلا يدرون ماذا تكون ؟. وهكذا فهموا الآية الكريمة ، ثم زُلزلوا بهــا زِلزالاً شديداً .

(وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون)

ألم يسمعوا صديقهم الأول « أبا بكر » رضي الله عنه يسبقهم الى ذلــك بقــوله المأثور :

« لا آمن لمكر الله ، ولو كانت إحدى رجليّ في الجنة » ؟!..

وهكذا أرقتهم مخاوف الذنوب ، ولم يطمئنهم صوالح الأعمال .. هــذا « يونس بن عبيد » يقول :

« إني لأحصي مائة خصلة من خصال البر ، ما في منها واحــدة » !

وهــذا « مالك بن دينــار » يقول :

« إذا ذُكِر الصالحــون ، فأفّ لي ، وأف » !!

أما « العلاء بن زياد » فيبشره صاحبه بأنه رآه الليلة في منامه كأنه في الجنة ، فيجيبه قائلا :

« ويحك !! أما وجد الشيطان مَن يسخر به غيري وغيرك » ؟!...

إنه أيضاً ليس التواضع .. ولكنه اتهــام النفس الآتي من وقدة المشاعر الوجلة من فلتات الخطايا ، والمزدرية ــ في جنب الله ــ كل الأعمال الصالحات .

ومن فلسفتهم تجــاه الخطايا ، أنها المسئولةعن انطفــاء نور الشخصية وضياع بهــائهــا .

يحدثنا « سليمان التيمي » فيقول :

« إن الرجـل ليذنب الذنب ، فيصبح وعليه مذلته » .

فالذنوب التي نظن أنه قـد سترها علينا ظلام الليل . يفضحنا وإياها ضوء النهـار ..

والذنب ــ أي ذنب ــ وفي أي زمان يرتكب ، وبأي مكان .. يترك علينا بصماته المهينة والمذلـة .

و « أهل الله » الذين يقرأون الوجوه في نظرة ، أكثر الناس إدراكاً ورؤيـة لهذه البصمات . من أجل ذلك فإن حديثهم عنها حديث خبير .

إن للذنب عندهم رائحة تفوح ، وتشوهات تلوح !!

ولئن كانت هذه التشوهات تكسو ظاهر الشخصية بالمذلة والهوان ، فإنها تمـلأ باطنها بالضباب والظلام .

يقـول « ميمون بن مهـران » :

« إن العبـد إذا أذنب ذنباً ، نكَتَ في قلبه بذلك الذنب نكتة سوداء ــ فإن تاب محيت من قلبه فترى قلب المؤمن مجلوّاً مثل المرآة ــ لا يأتيه الشيطان من ناحية إلا أبصره ..

وأما الذي يتتابع في الذنوب ، فلا يزال ينكت في قلبه حتى يسودّ جميعه ، فلا يبصر الشيطان من حيث يأتيه » !.

إنه يستلهم حكمته هذه من حديث مأثور لرسول الله ﷺ وتصلنا هـذه الكلمات بقضية أخرى لها في الفكر الصوفي مقام عظيم، تلك هي قضية« التوبة ».

إن « أهل الله » الذين يهولهم خطر المعصية ، بل والهفوة الى هـذا الحد الذي رأينا ، تتفتح قلوبهم وينفتح وعيهم على رحاب الرحمة والمغفرة فيرون من خلالها واتساعها ما لا يرى سواهم من بقيـة الناس .

يقول أحـدهم ، وهو « أوس بن عبد الله » :

« ليس ثمة ذنب يقول الله له : إني لا أغفرك •• إلا الشرك بـه سبحانه » •

لقد اختار « أوس » رضي الله عنه هذا التعبير الرقيق الشاعري المرهف ، ليعكس شعوره الممتلىء والفياض برحمة الله •

ليس هناك ذنب مهما جشم وغلظ يستطيع أن يتعاظم عفو الله ومغفرته •

إن لحظة عابرة تحمـل توبة صادقة ، لتدك دكاً خطايا عشرات السنين حتى تعود وكأنها ما كانت •• لا ــ بل :

« يبدّل الله سيئاتهم حسنات » !••

الشرك بالله فقط هو الذي يحرم جواز المرور الى عفو الله • وهذا جـزاء طبيعي وعادل ،لأ ن هذا الشرك يتضمن انكار وجود الله بالكمال والجلال اللذين وصف بهما ربنـا ذاته •

ومن ينكر وجود الله ويجحد كمـاله وجلاله ووحدانيته في إصرار أعمى وضلال مهين ، يفقد الحق في رجـاء آلائه ومغفرته •

أما الخطايا دون الشرك فللتوابين منهـا لا رحمة الله فحسب ، بل وحبـه أيضـاً :

(إن الله يحب التوابين ويحب المتطهـرين) •

والتوبة عندهم ، نزوع جـاد وتصميم حـازم على تجنب الإثم وهجـر الخطيئة •• والناس فيها درجات •

يقول « عبد الله التميمي » :

« شتّان ما بـين تائب يتوب من الزلات •• وتائب يتوب مـن الغفلات •• وتائب يتوب من رؤية الحسنات » !!••

فهناك من يتوب من الذنب •• وهناك من لم يذنب ، لكنه غفل بعض الغفلة ، فحقّ عليه أن يتوب !!• وثالث لم يذنب ولم يغفل •• لكن قـد تمر به لحظات

رضاً عن نفسه وشعوره بعبادته .. فهذا البار أيضاً له توبة تناسب مقامه .

لهذا ، كان للتوبة كذلك عندهم درجات .

يقول « أبو علي الدقاق » :

« إنهـا التوبـة .. والإنابـة .. والأوبـة » ..

فالذين على أول الطريق ، لهم التوبة يتطهرون بهـا من ذنوبهم التي تثقـل ظهورهم وذكرياتهم .

والذين في وسطه ، لهم الإنابة ، يتجهون بها الى الله في حياء من التقصير .

والذين وصلوا ، لهم الأوبة يخبتون بهـا الى الله في غبطة وشوق . وفريق من « أهل الله » يصل التوبة من الذنب بخشية الله وصلاً وثيقاً .. وذلك كيما يظل مقت التائب لذنبه قائماً يحول بينه وبين مراجعته ، أو حتى الرغبة في تذكر نشوته الكاذبة .

فيقـرر « سهل بن عبد الله » :

« التوبـة ألاَّ تنسى ذنبك » .

و « أهل الله » .. لا ينظرون الى التوبة باعتبارها مجرد نزوع محمود عن الذنب .. بل هي قبل ذلك وفوق ذلك اعادة صياغة وبناء للإنسان الرباني الفريد .

يقول « إبراهيم النخعي » رضي الله عنه :

« جـلاء القلوب التوبة .. وإنهـا لتدع قلب التائب كالسيف النقي المرهف » .

كما أنهم لا ينظرون الى التائب كرجـل مشبوه ، يطارده ماض ينفر الناس من مصاحبته ومؤاخاته .. لا ، بل « التائب الصادق » عندهم ريحانة من رياحين الله والجنة .. لا يحرصون على مصاحبته فحسب ــ بل ويتقربون إلى الله بهـذه الصحبة .. ويتلمسون عندها رحمة الله !.

هـذا « ابراهيم النخعي » مـرة أخرى ، يوصي فيقول :

« جالسوا التوابين . فإنهم أرق الناس قلوباً ... ورحمة الله إليهم أقرب » ..

بل إن « أهل الله » عليهم رضوان الله وسلامه لينفذون ببصائرهم الى أعماق أبعد ؛ حين يربطون وجودنا الإنساني كله بنعمة الله وبإرادته ، وبفضله ..

وبهذه النظرة الدقيقة والعميقة ، كم من ذنب ، كان اختلاج صاحبه بوقعه ، ثم صدق توبته منه معراجاً الى كمال روحي تعجز عن بلوغه طاعات كثيرة !!.

هـذا « ابن عطاء الله السكندري » يعطينا التعبير النهائي لهـذه الفلسفة البارة المبرورة فيقـول :

« ربما فتح لك باب الطاعة ، ولم يفتح لك باب القبول ..
وربما قضي عليك بالذنب ، فكان سبباً للوصول » !!..

ألا ما أروعـه ، ثم ما أروعـه !!.

فأنت قد توفَّق للطاعة .. ثم لا يفتح لك باب المثول ، ولا تمنح جـواز الوصول ..

بينما آخرون اعترفوا بذنوبهم ، وقذف بهم تفجر الندم الرهيب إلى أعلى ، فإذا هم فجـأة ، وفي مثل لمح البصر في أحضان النعمة والشهود والقبول ..

ذلك أن الطائع قد يتّكل ولو بحسن نية على الثواب المرصود للطـاعة .. أما التائب فماذا له ؟.. ومن له ؟.. إنه بشعوره وباللاشعور فيه يطرح نفسه عند عتبات رحمة الله الكبـير المتعال .

إنه بدموعه وبضراعاته ، وبامتهانه ضعفـه الوالغ في الخطيئة ، وبتجـرده التلقائي والحقيقي من حـَوله ومن قوته إلى حول الله وقوته .. كل ذلك يجعـله من الله جد قريب وجد محبوب !!.

وهم لهـذا يعلمونا دائمـاً حسن اللجـوء إلى الله .

هـذا « إبراهيم النخعي » يدعو ويعلّمنا أن ندعو قائلين :

« رَبِّ ، إن نفسي لم ترحمني فارحمني . ربِّ ، عافني منها ، وعافها مني . ربِّ ، أصلحني لها ، وأصلحها لي » .

وهذا « أبو حازم سلمة بن دينار » يواصل حديث القوم عن فلسفة الذنب ، وفلسفة التوبة ، فيقول :

« إن العبد ليعمل السيئة ، ما عمل حسنة قط أنفع له منها .. وإنه ليعمل الحسنة ، ما عمل سيئة قط أضر عليه منها » ..

ويزيد القضية تفسيراً وتوضيحاً ، فيقول :

« ... وذلك أن العبد يعمل الحسنة فيزهو بها ويتجبر ، ويرى أن له بها فضلا على غيره .. ولعل الله بهذا يحبطها ويحبط معها عملاً كثيراً ..

ويعمل آخر السيئة فتسوءه ... ولعلَّ الله يحدث له بها وجلاً ، حتى يلقاه وإن خوفها في جوفه لباقٍ ... » .

كذلك يواصل حديث القوم عن جلال التوبة وبهاء عقباها ، فيقول :

« عند تصحيح الضمائر ، تغفر الكبائر . وإذا عزم العبد على ترك الآثام ، أمّه الفتوح .. » .

إذا عزم العبد على ترك الآثام ، أمه الفتوح !!

عبارة جليلة بقدر ما هي صادقة .. فالله البر الكريم لا ينتظر من عبده أكثر من رغبة صادقة في الاتجاه إليه ، والسعي لمرضاته ..

وهناك تأتيه من كل مكان وتَفِد إليه من كل أفق معونات الله وفتوحاته . وعند استقامة النوايا والضمائر ، تتلاشى الكبائر وتذوب ، وينادى من سماء صافية وحانية :

« لو جئتني بملء الأرض خطايا ، لجئتكِ بملئها مغفرة » !!

المطلوب كله ، ندم صادق على ما فات .. وتوبة صادقة لما هو آت ..

ويقول « الأسود بن يزيد النخعي » لأصحابه وتلامذته :

« تدرون ما الداء ، وما الدواء ، وما الشفاء ؟

الـداء ، الذنوب ..

والدواء ، الاستغفار ..

والشفاء ، التوبة التي لا رجعـة فيها ولا نكوص » .

وكلما استقام الضمير ، كانت التوبة ناجعة . ليس ذلك فحسب بل :

« إن العبد إذا خلصت سريرته ، قال الله : هـذا عبدي حقاً » .

هكذا قال « مطرف بن عبـد الله » .

إننا حين نفقد يقظة الضمير ، نفقد معها ما هو شر من الإثم ومن الخطيئة . ألا وهو الاستهانة بهما والاستخفاف بعواقبهما ، فلا يبقى هناك معنا أثارة من ندم تجعلنا على الأقل عارفين الخير من الشر ، والإثم من الطـاعة .. كما تجعلنا موصولين ولو بسبب واه مع إرادة الرجوع والتصحيح .

وهكذا نقارف الخطـايا فرحين ولا مبالين .

ثم ماذا تكون العاقبـة ؟..

يقول « بكر بن عبد الله المزني » :

« مَن يأتي الخطيئة وهو يضحك ، دخل النـار وهو يبكي » .

وهو مصير عادل .. إذ لا يستوي من يغلبه ضعفه وهواه فيأتي الذنب وهو مفزع ممرور .. ومن يأتيه جسوراً ، سادراً ، جذلان .

إن الاستهانة بعواقب الذنوب ، ذنب أخطر من الذنب ، لأنها ـ كما يراها أهل الله ـ تجـاوز العصيان إلى التحدي ، لا سيما إذا تضمنت الزهو بالخطيئة والإصرار على غشيانها .. ومن هنا كانت خطيئة السر أرجى للرحمة وأقرب إلى المغفرة من خطيئة الجهر والعلَن .. شريطة أن تنجو من سلوك التبجح والإصرار .

وإضافة الى خطر الذنب على صاحبه ، أياً ما تكن صفة هذا الذنب . فإن الجهر به ينقلب الى مرحـلة أخرى من مراحل الخطـر . تلك التي يعبر عنهـا

« بلال بن سعيد » فيقــول :

« إن الخطيئة إذا أخفيت لم تضرّ إلا أهلهــا . وإذا أعلنت ، ولم تغير ، ضرت العــامة » .

* * *

ويعود « أهل الله » الى التذكير برحمة الله ، والتبشير بعفوه ، وذلك شأنهم دائماً حين يعالجون أزمة السلوك الإنساني .

فلنصغ الى هذه الكلمات الحلوة البارة يحدث بها « بلال بن سعيد »أيضاً :

« إن لكم رباً ، ليس إلى عقاب أحدكم بمسارع ... يقيل العثرة ، ويقبل التوبة ... يثيب المقبل إليه ، ويشفق على المدبر عنه » ..

والحــق أن فلسفتهم هذه تجــاه الإنسان وخطاياه لتنم عن أدبهم الرفيع تجــاه الله ، وليس فقط عن رفقهم الحاني بالإنسان .

ذلك أنهم يقدرون الله حق قدره ، ويدركون كم نحن حتى بطاعتنا عاجزون عن أداء شــيء ــ أي شــيء ــ من حقه وشكره . فالتقصير والقصور . همــا شيمة الإنسان تجاه ما لله عليه من فضل ونعمة ..

من أجل ذلك ، كان « أهل الله » ، أكثر الناس قلقاً من أعمالهم الصالحة مخافة أن يَكِلهم الله إليها ، فلا تفي بشكر نعمة واحدة من نعمه عليهم .. وكانوا كذلك أكثر الناس حتى العصاة منهم فرقاً من مساءلة الله وحسابه .

ولعل أمتع وأجمع تعبير عن هذه الحقيقة نجــده في ذلك الابتهال الذي كان يردده « أبو عمــران الجوني » :

« اللهم اغفر لنا عِلمك فينا » !...

وبهــذه المشاعر الذكية ــ أيضاً ــ كانوا يفرقون بين أن يكــون المؤمن صالحاً .. وأن يجعــله الله صالحاً ..

فأن يكون صالحاً . أمر يرجع الى جهاده واجتهاده الذي هو عرضة للخطأ والزلل .. وربما التوقف أو النكوص ..

أما أن يجعله الله صالحاً ، فأمر مرجعه الى توفيق الله واصطناعه :

« واصطنعتك لنفسي » .

من أجل هذا ، كان دعاء « مالك بن دينار » :

« اللهم أنت أصلحت الصالحين ، فاجعلنا صالحين » !....

. . . .

. . . .

و « أهل الله » إنما يعدّون الأنفس بالخضوع ويطهرونها بالتوبة ؛ لكي تحمل تبعات وجودها ممثلة في الحياة الطيبة التي ترعرعها الأعمال الصالحة والسلوك الفاضل المستقيم .

والعبادة عندهم شرف لصاحبها ، وإعلان لجدارته بأن يكون إنساناً فليس بين رذائل البشر ما يمثل سفالة الروح ونذالة النفس مثل الغدر بالنعمة وعض اليد المبسوطة بالمعروف والجميل .

ونعم الله على عباده زرافات ووحداناً أوضح من الوضوح ذاته ؛ وتحدي إرادته والتصامم عن ندائه ودعائه غدر بنعمه وكفران بفضله .

والذي لا يستطيع أن يرى نعم الله عليه ، ولا يقدر على حفظ جميلها ، لن يرى أية نعمة أخرى يسديها إليه الناس ؛ وهو بالتالي أعجز عن أن يحفظ لمخلوق جميلاً .

لذلك ، فأهمية العبادة عند « أولياء الله » أنها تمثل أوضح ملامح الإنسانية في الإنسان ــ الوفاء ..

والذي لا وفاء له لربه ، إنسان ضاعت منه إنسانيته في زحمة الظلمات .

يقول « يزيد الرقاشي » :

« ألا تحمد من تعطيه فانياً ، فيعطيك باقياً ؟ درهم يفنى ، بعشرة تبقى إلى سبعمائة ضعف ...

أما لله عندك مكافأة ؟.. يطعمك .. ويسقيك ويكفيك .. يحفظك في ليلك ونهـارك ... ويجيبك في ضرائك » ؟!..

ولقد سئل « الجنيد » عن الشكر فقـال :

« ألا يستعان بشـيء من نعم الله على معصيته » .

فشكر الله عندهم ليس ذلك الترداد العفوي لكلمات الحمد ، بل هو العمل الصالح الذي يبرهن به العبد على وفائه للنعمة وولائه للمنعم ..

يقول « أبو حـازم سلمة بن دينـار » :

« مَثَل مَن يشكر الله بلسانه ولا يشكره بطاعته ، كمَثل رجل له كساء أخـذ بأطرافه ، ولم يكس به جميع جسمه .. فهل يقيـه ذلك من حـرّ أو من برد » ؟

من أجل هـذا ، ولأن العبادة تحية وشكر يؤديها العبد لربه في تقصـير شديد وحياء أشد ـ كان لا بد أن تجيء كريمة نقية ـ يرجو بها صاحبها وجه الله في تحـرر من الغرض العاجل .

أجل ، إن العبادة تزكو عند ربنا ، وينتشر عبيرها حين تكون قربى لا صفقة يحاول العبد المساومة بها وعليها من أجل نفع رخيص .

هكذا يحملهم أدبهم مع الله وحياؤهم منه ، أن ينظروا الى العبـادة .

يقول « زين العابدين ـ علي بن الحسين » رضي الله عنه :

« إن قوماً عبدوا الله رهبة من العـذاب ، فتلك عبادة العبيد .. وقومـاً عبـدوه رغبة في غرض ، فتلك عبـادة التجار .. وقوماً عبدوه امتثالا وشكراً فتلك عبادة الأحرار !!. » .

ليس معنى ذلك أنهم يغمطون قدر من يعبد الله ويثابر على طاعته سواء كان حافز العبادة الرهبة أو الرغبة .. إنما معناه أنهم يضعون المقياس المثالي للعبادة ، والذي يجب أن يناط ببلوغه كل جهد المؤمن وجهاده .

ذلك أن أهل الله بقدر مما كانوا يحرصون على أن يكونوا في الدنيا شعثاً ، غبراً ، بسطاء ، مجهولين . فقد كانوا في طاعة الله يتنافسون على الذرى ، ويتزاحمون حول القمم !!.

هـذا « جابر بن زيد » يوصي فيقول :

« إذا جئت يوم الجمعة فقف على باب المسجد ، وقل ، اللهم اجعلني اليوم أوجه من توجه إليك ، وأقرب من تقرب إليك ، وأنجح من دعاك وطلب منك » !!.

إنك لن تجد واحداً يسأل الله أن يجعله أوجه أهل الدنيا .. بل كان دعاء أكثرهم أن يجعله خامل الذكر بين الناس !!.

أما في مقام العبودية والعبادة ، فهنا السباق على أشده والتنافس إلى أقصى مداه .. وهنا الإلحاح على الله من كل ولي لله وعبد صالح أن يرزقه أوجه العبادات وأسمى الطاعات !!.

* * *

و « أهل الله » رضي الله عنهم أجمعين ، إنما يبدأ العمل الصالح عندهم من نقطة هي أبعد ما تكون عن العمل . وفي نفس الوقت أقرب ما تكون إليه وألصق ما تكون به .. بل هي صميمه وجوهره وأعصابه .. تلكم هي : النية .

النيّة روح العمل .. وعمل بغير نية ، جسد بغير روح .

يقول « إبراهيم النخعي » :

« فواتح التقوى ، حسن النية . وخواتيمها ، التوفيق » .

كما يقول :

« من أصلح سريرته ، أصلح الله علانيته » .

فالنية ، هي عبادة السريرة ، وهي مفتاح العمل ونوره .

ولقد كان اهتمامهم بها ، وعكوفهم على تحبيرها أمراً يفوق اهتمامهم

بالعمل ذاته • بل لقد بلغ الأمر ببعضهم أنه حتى عند القاء الموعظة أو النصيحة لم يكن يحرك شفتيه إلا إذا كانت هناك نية صالحة ترسل الكلمات في طريقها •

ها هوذا ، يسأل ذات يوم أن يعظ الناس ، فيصمت قليلا ، ثم يقول :

« لا تحضرني نيَّة !!! »

وتبدأ النية الصالحة بتجرد العبد من حَولِه وقوَّته ملتمساً توفيق الله مخلصاً له الدين •

من أجل هذا كان « سعيد بن جبير » دائب الدعاء :

« اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك » ••

ويقول « يحيى بن أبي كثير » :

« تعلَّموا النيَّة ، فإنها أبلغ من العمل » !•••

فالنية إذن فن عظيم •• ولقد كان لهذا الفن من بين الأولياء المعلمين أساتذة يلقنون أتباعهم أصوله ، ويعلمون مريديهم وتلامذتهم كيف يثرون أعمالهم بالنيات الصالحة إثراءً عظيماً •• وحين تتتبع آثارهم وأخبارهم ترى عجباً حيث تبصر الكثيرين منهم لم يكونوا يهمون بإنجاز عمل ما حتى يحشدوا له نيات كثيرة قد تبلغ الأربعين والخمسين •• وهكذا ينتهي أحدهم من عمله الواحد وقد كتب له عند الله أعمال كثُر بعدد نواياه •

ولقد تعلموا ما للنية الصالحة من قدر من قول الله سبحانه :

« وما أمِروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » •

أدركوا أنهم لم يؤمروا بالعبادة فحسب •• بل بالعبادة المترعة بالإخلاص لله والتجرد له •• والإخلاص ليس عملا • إنما هو روح كل عمل •• والنية الطيبة الصالحة هي مظهره ومخبره •

كذلك تعلَّموا من قول الرسول الكريم :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » •

فهنا لم يدَع الرسول عليه الصلاة والسلام أي شك في أن النيات هي كل شيء في الأعمال الصالحة . وزاد القضية وضوحاً وجلاء حين فصَّل القول فقال :

« فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله .. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

فهنا قوم مهاجرون .. مسافرون في رحلة واحدة ، وفي قافلة واحدة . ومع ذلك فقد يكون بين أحدهم وآخر من التفاوت في المنزلة عند الله كما بين السماء والأرض بعداً .. ولماذا ؟.. بسبب النية وحدها .

إن الهجرة ــ مجرد الهجرة ــ لم ترفعهم إلى مكانة المهاجر إلى الله إلا بقدر ما فيها من نية التوجه الى الله والإخلاص له .

وهنا نلتقي بـ « مالك بن أنس » رضي الله عنه يقول :

« إن لمَن يسجد لله ، ومَن يسجد للصنم صورة واحدة في سجودهما .. ومع ذلك ، فالأول عابد ، والثاني كافر .. لقد فرَّقت بينهما النيات » .

ولقد كان من اهتمامهم بالنية أن صنَّفوا في فضلها وفي فنِّها المصنفات .

لعلَّ كتاب « ابن الحاج » ــ المدخل الى تنمية الأعمال بتحسين النيات ــ والمسطور في أربعة أجزاء .. لعله آية على ما للنية في حياة الإيمان والمؤمنين من شأن وخطر .

يقول « الإمام الغزالي » رضي الله عنه :

« النية والعمل ، بهما تمام العبادة ، فالنية أحد جزءيها . لكنها خير الجزءين » .

ويقول « سالم بن عبد الله » :

« إعلم ، أن عون الله للعبد بقدر نيته ، فمن ثبتت نيته تم عون الله له ...

ومَن قصرت عنه نيته . قصر عنه عون الله بقدر ذلك » .

علامَ يدل كل هــذا الولاء للنية عند « أهــل الله » ؟. إنه يدل ــ أول ما يدل ــ على أن أولئك الأبرار كانوا أفذاذاً يتعاملون مع قلب الأشياء .. وليس مع الوهلة العابرة والسطح المنظور .

ويدل على أنهم كانوا أساتذة في فن إثراء الحياة !!. حقاً إن الدين الخالص ، وإن عبادة الله الواحد القهّار لا يدرك سمو ّهما المجيد إلا من خلال علاقة الأبرار من الناس والمتقين من البشر بالدين وبالعبادة .

إن النظــرة السطحية الى موقفهم من النوايا وربط الأعمال بهــا لتحرم صاحبها من اكتشاف الذكاء العسيم . بل النور العظيم الذي كانت تحمله بصــائر أهل الله وأوليائه .. هؤلاء الشعث الغبر الأبرار الذين لا تقــع عليهم الأعين في زحام الوجاهة الكاذبة والتبذخ الفارغ المغرور .

فإذا كانت الحيــاة الإنسانية لا تقوم إلا بالعمل الصالح والجاد والبنّاء ، فإن إثراء الحياة بهــذا العمل : هو أمثل السبل لإنمائها وإربائها وعدم تقدمها نحــو المصــير .

وشحن الأعمــال بالنوايا الطاهرة والفاضلة توسيع غير محدود لمساحة نفعها ونفوذها .. كما أنهــا تجريد للعمــل ذاتــه من شوائب الارتكاس وهواتف الانحراف .. ثم انها صقل رائع لشخصية الإنسان الذي يصدر عنه العمــل .. إذ هو بهذه النوايا النظيفة المستقيمة التي تواكب دوماً أعماله وحياته ، إنما يجدد باستمرار هــواء عقله وروحه . وإنما يستبقي لوجوده كله مناخــاً مترعاً بكل بواعث العظمة والطهر والاقتدار .

ترى ، هل هناك ما يمنح الحياة الإنسانية رشدها ومجدها أكثر من هــذا السبيل ؟..

وأليس « أهــل الله » بموقفهم هــذا ، إنما يمثلون ذكاء فريداً ويحملون

بصيرة نافــذة ، ويقدمون للإنسان وللحياة أمثل الأفكار والمناهج التي تشــد أزرهما ، وتؤمن مصيرهما ؟؟!!•

إن نوايانا هي شخصياتنا الباطنة ، فالنية النقية الصالحة تدلنا على وجــود قلب نقي صالح وراءها ، والعكس قــائم ••

* * *

واهتمام « أهل الله » بالنوايا إذن يتضمن ، أو يتضمنه اهتمامهم بالقلوب •

يقول « أبو إدريس الخولاني » :

« قلب تقي في ثياب دنسة ، خير من قلب دنس في ثياب نقية » !!

* * *

والعبادة عندهم قوامها الهمة العالية والعزم الرشيد •• ومن ثم كان المثابرون عليهــا أبراراً•

ذلك أن العقبات أمامها وأمامهم كثيرة وشاقة •

يقول « مالك بن دينــار » :

« ما من أعمال البر عمــل ، إلا ودونه عقبة ، فإن صَبَرَ صاحبه أفضت به إلى روح ونعيم •• وإن جزع رجع » •

ومن شفافية الفهم والعبارة ، قــوله رضي الله عنه « أفضت به إلى روح ونعيم » ، فالعقبة هنا وليس العمل هي التي ستفضي به الى الرضوان •• لمــاذا ؟ لأن مكابدة هذه العقبة وعدم الهروب منها والاستسلام لها قد تحولت ــ أعني المكابدة ــ الى فضيلة أخرى قد تفوق العمل البار الذي كان يهم بإنجازه •• كما أكسبت هذه المكابدة روحه من الصلابة والصقل والنور ما جعلها نعمة سابغة بعد أن كانت تبــدو نقمة صماء وعقبة كأداء !!•

ومن عقبات العبادة الكسل والضجر •• و « أهل الله » ينظرون الى هاتين الآفتين نظرة كلها حذر وتربص ، فهم يدركون من رياضتهم وتجربتهم كم يتنكر الضعف الإنساني في الكسل وفي الضجر ، فيقضي بهما على أبهى الأعمــال وهي

لا تزال بعد في عمرها الغض وأيامها الباكرة .

يقول « محمد الباقر » الإمام المرضي :

« يا بني .. إياك والكسل والضجر ، فإنهما مفتاح كل شر .

وإنك إذا كسلت ، لم تؤد حقاً وإذا ضجرت ، لم تصبر على حق »!

أرأيتم عمق الرؤية ، وبُعد الفهم ، ودقة التعبير ؟.

إننا بالكسل ، لا نؤدي حقاً ولا واجباً ..

وإننا بالضجر لا نصبر على حق ولا على واجب ..

وهذا أمر يشاهد في حياة الناس ، حتى بالنسبة للواجبات التي تفيء علينا مغانم عاجلة .. فكيف إذن بالعبادات التي تتطلب التبتل والصبر الطويل ؟..

والضجر في العبادة ، كثيراً ما يكون وليد الوساوس الشيطانية الخبيثة .. فالعابد لا يكاد يبدأ مسيرة عبادته حتى تفور في نفسه وتموج وتتفجر كل رواسب الهوى وكل اغراءات التثبيط .

و « أهل الله » لا يجزعون لهذه الظاهرة .. بل يفرحون بها ويستبشرون ، لأنها علامة أن كفاحهم الروحي إنما يضرب في الصميم وعلامة على أنهم بدأوا يكسبون انتصارات حقيقية تغري بهم وبها ، النفس والشيطان .

هذا هو « العلاء بن زياد » يتحدث :

« إن اللصوص إذا مروا بالمكان الخرب المهجور ، لا يلوون عليه ولا ينظرون إليه ..

فإذا مروا بالبيت العامر الممتلىء تربصوا به وائتمروا عليه » !!.

رائع هو الآخر ، هذا الأواب القديس في عمق ذكائه . وجمال تصويره .

فاللصوص فعلاً لا يعبأون بمكان خرب ليس فيه ما يسيل لهم لعاباً .. وما رسم لص قط محاولة لاقتحام خرابة مهجورة .. إنما هو يخطط ويقرر ويدبر ثم يخاطر ويتسور البيوت العامرة بالمغانم والمتاع . إن قلب المؤمن السائر الى الله ، هو ذلك المكان العامر بالمغانم ، تحاول إغواءه كل قوى الشر من نفس

وشيطان وإخوان سوء .. ومن ثم فهذه القوى تقف عنده وتحاول اقتحام حِماه وتعمل يـد التخريب والنهب فيه ، ومن هنـا لا ينبغي لصاحبه أن يضجر أو يجـزع وييأس .

إن « أهـل الله » يهيبون بـه أن اصمد واثبت واستبشر وامض في طريقك قُدماً .. إن اللصوص ، لصوص الإيمان والخـير ، لم يتسوروا قلبك إلا لأن بداخله كنزاً ثميناً .. هو كل نوايا الهـدى ، وخطة الحياة الجديدة الطاهرة التي تسير بهـا الى الله العلي القدير .. ولو كان قلبك خَرِباً ، ما وقفوا عنده ، ولا بذلوا أي جهد في غزوه واقتحامه .

* * *

ومما يساعد العبـد المؤمن على اقتحام هذه العقبات إدراكه جـلال مسعاه ونبل كفـاحه .

يقول « مورق العجلي » :

« المستمسك بطاعة الله حين يجبن الناس عنها ، كالكار بعد الفار » .

أجل .. هذا بطل المعمعة ، ورجل الرجال .. هذا الذي يقهر إغراء النفس وإغراء البيئة وإغراء الإثم ليقف ولو وحيداً الى جانب الفضيلة والخير والعمـل الصـالح .

و « أهل الله » لا ينظرون الى العمل الصالح باكتراث متواضع .. بل هم مدركون تماماً لما يتطلبه من جهد جهيد ، وعناء شديد .

يقول « إبراهيم بن أدهم » :

« إذا أردت أن تقترب من درجـة الصالحين :

- فأغلق باب الراحـة ، وافتح باب الجهـد ..
- وأغـلق باب النوم ، وافتح باب السهر ..
- وأغـلق باب الأمـل ، وتأهب للمـوت » ..

ولم تكن هـذه النظرة لتقاعسهم عن العبادة أو تخيفهم منهـا .. بل على

العكس كانت مشاعرهم تجاهها مشاعر العاشق المشتاق ، وكان ما تتطلبه من جهد هو الذي يأخذ بأفئدتهم إليها ، ويضرم غرامهم بها . فهم عند أول خطوهم على الطريق قد عشقوا الخطر وكرسوا أنفسهم لـه .

وهـذا هو ابن النوبة الجسور « ذو النون المصري » يقـول في هـذا المعنى الكبـير :

« ما هالني أمـر إلا ركبته » !..

كذلك مما يشد أزر العابد في تحدي تلك العقبات إدراكه الحق بأنه يقاتل في معركة را بحة ، فهو مهما يَطُلْ أمـد نضاله ضد الهوى والنفس والشيطان سيتلقى من ربه الكبير المتعال جـائزة فوزه وتفوقه .. ويوم يلقى الله سبحانه سيخلف وراءه كل ما كان مالك يمينه من مال وجـاه ودنيا .. وسيصحبه في يوم زفافه الى الجنان صديق واحـد وفيّ وحميم .. ذلكم هو عمله الصالح الذي عاناه في الدنيا ثم ربحه واجتناه !.

هكذا يحدثنا « عبيد بن عمير » فيقول :

« كان لرجـل ثلاثة أخِلاء ، نزلت به نازلة فبدأ بأقرب الثلاثـة إلى نفسه يناشده العون ، فتنكَّر له وتخلَّى عنه ..

ثم ذهب الى الثاني ، فأمدّه بقليل من العون ثم تركه ..

وذهب الى الثالث ، فهبَّ لنجدته وقال له : أنا معك حيث تذهب وأيَّان تكـون ..

فالأول ، هو المـال .. يخلفه الإنسان لأهله ولا يتبعه منه شيء ..

والثاني ، هم الأهل والعشيرة والصحب .. يشيِّعونه إلى قبره ، ثم يتركونه وحيـداً .

والثالث ، عمله الصالح ، يبقى معه الى يوم البعث والنشور » !!

هذه الصورة الرامزة الذكية ، هي الحقيقة كاملة .. فليس هناك من أخِلاء الدنيا على كثرتهم من يصحبك ويبقى معك سوى عملك .. فهل يشق جهد ، أو

يغلو ثمن أو تَعزّ تضحية لانتقاء هذا الصديق الذي سيكون رفيق أبد بأسره ، وليس رفيق عمر عابر وسريع ؟!

* * *

و « أهل الله » ــ كما ذكرنا ــ يربطون العمل بالمثابرة والدأب •• فمواصلة العبادة خير سبيل لشحذ إرادة الخير والهُدى ••

وإذا كانت البطالة في أعمال الدنيا مفسدة ونقيصة ، فهي في واجبات الدين وأعمال الآخرة أكثر نكراً •

يقول « فرقد السبخي » في حكمة عميقة وتهكم ذكي :

« إنكم تلبسون ثياب الفراغ والراحة ، قبل أن تعملوا » !

وهذا السلوك يرفضه « أهل الله وأولياؤه » يرفضونه فكراً وسلوكاً • وإن أبلغ توبيخ يوجه لصاحبه لهو هذه العبارة البارعة •

وإنا لنرى منهجهم في العبادة والطاعة ، فنرى عجباً ••

هذا « حسان بن أبي سنان » يُسأل في مرض موته ، ماذا تشتهي ؟•• فيجيب :

« ليلة شاتية طويلة أحيي ما بين طرفيها في عبادة الله » !!••

وهذا هو « الربيع بن خيثم » يصاب بالفالج ، ولا يستطيع الانتقال إلى المسجد إلا بشقة بالغة ، وصلاته في بيته هي رخصة مرضه ، بل ضرورة مرضه •• ومع ذلك يأبى إلا أن يخرج الى المسجد يهادى بين رجلين • ويقول :

« إني لأعلم أن الله يرخص لي بترك الجماعة في المسجد •• ولكني أسمع المؤذن ينادي ، حيَّ على الفلاح •• وجدير بمن نودي إلى الفلاح أن يجيب ولو زحفاً •• ولو حبْواً » !!

ألا رضي الله عنهم ورفع عنده درجاتهم •• هؤلاء الذين قدَروا الله حقَّ قدره . وأحبوه حق حبه ، فلم يقنعوا في عبادته سبحانه إلا بأنفس وأبهى ما تملك

القـدرة البشرية من عمل وبذل وإخبات ..

لقـد قال « شميط بن عجلان » :

« رأس مال المؤمن دينه .. لا يخلّفه في الرّحـال ، ولا يأمن عليـه الرجـال » .

وهكذا حمل « أهل الله » دينهم في قلوبهم، فلم يخلفوه في رحل ، ولم يجاملوا فيه أو يساوموا عليه .

وهم في مزاولتهم واجبات الدين وطاعة الله ، تتنوع مشاربهم ، ففريق يغار ثم يغار على عبادته فيتكتمها ويخفيها ، تحرياً لأقصى درجات التبتل والاخلاص .

فهذا « منصور بن المعتمر » يقضي ليله أشعث أغبر ، يصلي ويفزع ويبكي ، فإذا أصبح الصبح وطلع النهار كحل عينيه ، ودهن رأسه ، ولبس أجمـل ثيابه وخرج الى الناس ...!!

وهذا « الربيع بن خيثم » كان عمله سراً كله ، وإن كان الرجل ليقدم عليه ، وقد نشر المصحف أمامه يقرأ منه ، فلا يكاد يبصر القادم حتى يغطيه بثوبه !!.

وهذا « زين العابدين ، علي بن الحسين » كان من أكثر الناس عطاء . ومع ذلك كان بسبب إمعانه في إخفـاء قربته وعطائه يرمى بالبخل ، فلما مات عرف الناس فجأة أنه كان يقوت مائة بيت وأسرة في المدينة وحدها .. وعرفوا أنه كان يحمل بنفسه وعلى كاهله وظهره أجربة الخبز ليوزعها في ظلمة الليل على المساكين!!

وتحدث المؤرخون أن أناساً من أهل المدينة كانوا يعيشون ولا يدرون من أين يأتيهم معاشهم ، ولا يعرفون مَن هذا الذي يطرق أبوابهم بالليل حاملا إليهم ما يحتاجون حتى مات « زين العابدين علي بن الحسين حفيد رسول الله » فـلم يَعُد الطارق يطرق أبوابهم ولم تعـد الخيرات تحمـل في جنح الليل إليهم . وهكذا قال قائلهم :

« ما فقَدنا صدقة السرّ إلا يوم مـات علي بن الحسين » .

* * *

وثمة فريق آخر لا يرى بأساً في إظهــار عبادته الشامخة وعمله الشاهق ، تحدثاً بنعمة الله عليه . وإرساء لقواعد القدوة الصالحة ونشراً لأعلامها :

يقــول « ربيعة بن أبي عبد الرحمن » :

« لقــد رأيت مشيخة بالمدينة وإن لهم لغــرراً وعليهم المعصفر والمورّد ، في أيديهم مخاصر ، وفي أكفهم أثر الحناء . ومع ذلك فإن دين أحدهم أبعد من الثريا لا تناله رغبة ولا رهبة » !!.

وهذا « محمد بن المنكدر » .. يقوم الليل عابداً مصلياً ثم يذكر الله بصوت مرتفع جهير فسئل في ذلك فقــال :

« إن هناك من يرفعون أصواتهم بالشكوى .. وأنا أرفع صوتي بالنعمــة والشكر » .

* * *

وقــد كانوا يتفننون في أعمالهم الصالحات حتى تخرج في أبهى صيغــة وأحسن تقــويم ..

وما نراه نحن مبالغة منهم وتطرفاً ، بل وتعذيباً لأنفسهم وحرماناً لهــا ، لم يكن في الحقيقة سوى النزوع الشديد والنبيل لاتقــان العمل ، واستفراغ الوسع في تقديم أروع ما يستطيعون وما يملكون لربهم العليّ الأعلى .

هذا « صفوان بن سليم » يقضي الليل في صلاة وعبادة .. في الشتاء يتعمّد أن يقوم فــوق سطح الدار ، وجسده يتلقى وخز الزمهرير ، وفي الصيف يصلّي ليله في حجرة مغلقة ، لا تعبرها نسمة ملطفة .. ثم يناجي ربه قائلا :

« .. هــذا الجهــد من صفوان ، وأنت أعــلم » !!

إنه يعتذر الى الله ، لأنه لا يجــد أو لا يقدر على وسيلة أشق ، يظهر بهــا أمام ربه أشعث أغبر مسكيناً ، حارماً نفسه من الراحة ، ساحقاً تحت قدميه كــل شهوات النفس وطيبات الحيــاة .

وهــذا « الأسود بن يزيد النخعي » يصوم حتى يخضر جسده ويذوي ..

ويحج في حياته ثمانين حجـة ، وكان واحداً من ثمانية من التابعين انتهت إليهم إمـامة الزهد .. ومع هـذا فهو يبكي في مرض موته وينتحب ، ويشفق عليـه أهـله وصحبه ، فيقول لهـم :

« ... ومن أحـق بهذا مني والله لو ضمنت المغفرة من ربي .. لظلّت تؤرقني هموم الحياء منه » ..

إن كل جهـد يبذلون ، وكل معاناة .. وكل تضحية ، وكل ما يأتون من عبادة وتقوى لا يمثل في فطنتهم ويقينهم أي مستوى مما يرجون ويطمعون أن يتقربوا به الى الله من عمـل !.. ذلك أنهم يحملون هماً جسورة عالية ، يزيد من قوتها واقتدارها وحسن توفيقها أنها تحيا في الخير وتعمل له .

وصدق « يزيـد الرقاشي » :

« للأبرار همم تبلغهم أعمـال البر ، وكفاك بهمـة دعتك إلى خـير خـيراً » ....

. . . .

. . . .

و « أهـل الله » لا يعبدون الله اعتباطاً ، ولا يمارسون العمل الصالح عـن جهـالة .. لا ، بل انهم ليقدسون المعرفة والعلم والحكمة ويسعون إليها جميعاً بنفس القدر الذي يقدسون به العبادة والطاعة .

يقـول « ميمون بن مهـران » :

« العلمـاء هم ضالتي في كل بلد ... ولقد وجدت صلاح قلبي في مجالسة العلمـاء » .

ذلك بأنه بغير علم لا تكون ثمة عبادة صحيحة ، بل إن خشية الله وهي روح العبـادة ، وجوهر السلوك لأولياء الله .. هذه الخشية نفسها ، لا يعرفها حـق المعرفة ولا يقدر عليها تمام القدرة سوى العلماء . وانهم ليفهمون تماماً ما تعنيه الآيـة القرآنية الكريمة :

« إنما يخشى اللهَ من عبـادهِ العلمـاء » .

يقول « قتادة بن دعـامة » :

« باب واحـد من العلم يحفظه الرجـل ، يبتغي به صلاح نفسه وصلاح الناس ، أفضل من عبادة حول كامل » .

وهنا يكشف لنا « قتادة » عن قيمة العلم في حياة العابد .. كما يوضح نوع العـلم الذي عنه يتحدثون ..

فهو ليس ذلك الترف الذهني الذي يتخذه أصحابه وسيلة ليكسبوا بـه صلف الجاه ، أو أكثر المـال ، أو مناصب الحياة .. إنما هو الذي يبتغي بـه صاحبه « صلاح نفسه وصلاح الناس » .

سئل « محمد بن المنكدر » عن التقوى ، فقال :

« أن تعمـل بطـاعة الله ، على نور من الله » .

فالعلم عندهم ضروري للتقوى .. وهو نورهم على الطريق ، وزادهم في السفر .. ومن هنا ، كان تحصيله وإخلاص النية في تحصيله من صميم العبادة والتقوى ، وهذا يحتم التماسه من مصادره القويمة من أجل الوصول إلى أهدى طرائق العبادة والعمل الصالح .. أي أن يكون المرجو به وجه الله وحده .

يقول « ميمون بن مهـران » :

« إنَّ فيمن يبتغي هذا العلم مَن يتخذه بضاعة يلتمس بها الدنيا ، ومنهم مَن يلتمسه ليُشار إليـه ، ومنهم من يلتمسه ليُماري به ويجادل .. وخيرهم مَن يتعلَّمه لله » ..

من أجل هــذا ، كانوا يخافون الكلام حتى في العلم والبر ، مخـافة أن تستدرجهم حلاوة الحديث الى الزهو أو الرياء .

يقول « سعيد بن فيروز » :

« لأن أكون في قـوم أتعلَّم منهم ، أحب إليَّ من أن أكون في قـوم أعلّمهم » !!...

ويقول « محمد بن المنكدر » :

« إن المتكلم يخاف مقتَ الله ، وإن المستمع يرجو رحمته » .

بل لقد بلغ بهم الأمر أن جعلوا من الكلام والصمت قضية شغلت تفكيرهم . فمنهم مَن يوصي بالصمت إلا في الضرورات ، مستهدين بوصية الرسول عليه صلاة الله وسلامه :

« أمسك عليك لسانك » .

وقوله عليه السلام :

« وهل يكبّ الناس في النار على مناخرهم إلا حصائدُ ألسنتهم » ؟!...

ومنهم مَن يحض على الحديث ما دام دعوة إلى خير ، وما دام صاحبه لا يرائي به ولا يكذب .

يقول « أبو عبد الله بن أبي زكريا » :

« طلبتُ تعلم الكلام فأدركتُ منه ما أريد وطلبتُ تعلم الصمت فشقَّ عليَّ ذلك » !!

هو — إذن — كما نرى من أنصار الصمت الحكيم الذي أحبّه « أهل الله » ليكون سبيلهم الى التفكير والتدبر ، وسبيلهم الى الارتفاع عن شبهات اللغو والزهو والافتتان .

إن « أهل الله » مشغولون بالتحدث مع الله على طريقتهم .. فصمتهم ليس خواء .. به هو عامر ممتلىء بأذكى التأملات الباطنة في دين الله ودنيا الناس .

ومع تعدد وجهات نظرهم في هذه القضية ، جاء منهم مَن اكتشف الوحدة الكامنة في التعدد المماثل ..

ذلكم هو « بشر بن الحارث » الذي قال :

« إذا أعجبك الكلام ، فاصمت . وإذا أعجبك الصمت ، فتكلم » .

أجل .. فالمقصود كله ألاّ يكون حديثك، كما هو صمتك، تعبيراً عن هوى مفتون، ونية غير صالحة .

إن العلم عندهم هو ذلك النور الذي يهديهم الى خير ما يحب الله لعباده من فضيلة وتقوى .

من أجل ذلك، فالعلم الذي ينشدون يتضمن القدوة السامقة والصالحة .

يقول « شميط بن عجلان » :

« يعمَد أحدهم فيقرأ القرآن، ويطلب العلم، حتى إذا علِمه أخذ الدنيا فضمّها الى صدره وحملها على رأسه، فنظر إليه جهَلة العامة، فقالوا : هذا أعلم بالله منا . فلو لم ير في الدنيا ذخيرة ما أقبل عليها .. فيتهالكون كما تهالك، فمَثَلُه كمثل الذين قال الله عنهم : ومِن أوزار الذين يُضلونهم بغير علم » ..

إن وظيفة العلم عند « أهل الله » أن يدل الإنسان على الله، ويرشده إلى طريق التقوى، ويصاحبه في رحلة الكمال الروحي حتى يلقى الله .. فما لم يثمر العلم التقوى والورع والحياة الصالحة، فلن يكون إذن سوى لغو فارغ .

يقول « زياد بن حرير الأسلمي » :

« ما فَقُهَ قوم لم يبلغوا التقى »

ويرى « أهل الله » أن العلم ليس سلاحاً ضد الجهل وحده .. بل وضد الهوى قبلاً .. وهنا الدور الايجابي والفعال للعلم والمعرفة .

يقول « مالك بن دينار » :

« لا تطلع شمس يوم إلا ويتنازع الإنسان عِلمُه وهواه :
فيوم يغلب العلم الهوى فذلك يوم غنمه
ويوم يغلب الهوى العلم، فذلك يوم جرمه » .

إن « أهل الله » ينظرون للعلم، وللفقه خاصة كقانون للعبادة ومنهج لها .. وكل سائر الى الله ومعه نور الفقه والعلم حريّ أن يبلغ المرفأ ويعانق الغاية .

يقول « محمد بن كعب القرظي » :

« إذا أراد الله بعبد خيراً رزقه خلالاً ثلاثة : فقهاً في الدين ، وزهادة في الدنيا ، وبصراً بعيوبه » .

ويحدد « عطاء بن أبي رباح » مشاهد العبادة وذكر الله عز وجل ، بمجالس العلم والفقه ، فيقول :

« مَن جلسَ مجلس ذِكْر كفَّر الله عنه مجالس السوء ..

قيل : وما مجالس الذكر ؟..

قال : مجالس العلم . تعرفون بها الحلال والحرام ، وتعرفون : كيف تصلّون ، وكيف تصومون ، وكيف تتعاملون » .

لكنهم حريصون في نفس الوقت ، ولنفس السبب ألا يتحول الفقه والعلم إلى قضايا جافة أو مجرد ثراء ذهني . بل لا بد له أن يظل قائماً بوظيفته في هداية السلوك وإعلاء الروح .

يقول « عمرو بن قيس الملائي » :

« حديث يرقّق قلبي ، وأتبلغ به الى ربّي أحبّ إليَّ من خمسين قضية من قضايا شريح » !!

لقد كان « شريح » فقيهاً كبيراً . كما كان من العابدين الصالحين .. ومع ذلك ، فقد اختاره « عمرو بن قيس » مثلا ، لا تعريضاً به بل مبالغة في التحذير من الفقه الذي يتعلمه الناس ليكونوا مجرد فقهاء لامعين .. وعلماء مبرزين ..

ويتقدم « أبو مسلم الخولاني » ليقول لنا :

« العلماء ثلاثة ...

- عالم عاش بعلمه وعاش الناس معه ..
- وعالم عاش بعلمه ، ولم يعش الناس معه ..
- وعالم عاش الناس بعلمه وأهلك نفسه .. » .

وبهذا يحدد « أهـل الله » دور العلماء ــ أن يحيوا بالعلم ويحيا الناس معهم بـه ..

أما حياتهم بالعلم ، فبأن يكونوا صورة صادقة وكاملة لما يهدي اليه العلـم من صلاح ونور .

وعندئذ ، عليهم أن يطرحوه على الناس ، ليحيوا هم الآخرين به ، مثـل حياتهم بالقدوة الصالحة التي يرفعها لهم علماؤهم العاملون الأبرار ..

ولم يحرم « أهل الله » سعة الأفق أبـداً .. فإن معهم من نـور البصيرة وثراء التجربة ، وسماحة الروح ما يجعلهم أكثر الناس حظاً من حسن التقـدير ، ورحـابة التصور .

فالعالم عندهم ، مطالب بأن يحقق علمه في حياته وسلوكه ، ثم يعلمه الناس ويعينهم على تحقيق ما عملوا في حياتهم وسلوكهم ..

بيد أنهم يدركون في نفس الوقت أنه إذا عجز الإنسان عن اكتساب فضيلة وكان قادراً على دعوة الآخرين اليها ممن قد يقدرون بعلمه على اكتساب ما عجز هو عن اكتسابه بعلمه ، فليس له أن يسكت .. إنما عليـه البلاغ ..

وهم في هذا ، « آخذون بقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« رُبَّ مُبلَّغ ، هو أوعى من سامع » .

يقول « زيـد الرقاشي » :

« خذوا الكلمة الطيبة ممن قالهـا ، وإن لم يوفَّق للعمل بهـا ، فإن الله تعالى وصف عباده المحسنين بأنهم : يستمعون القـول فيتَّبِعون أحسَنه » ...

فكلمات العلم الطيبة الهادية ، خليقة بالحرص عليها واهتبال فرصها المواتية دونما نظـر الى مصدرها .

فـ « الحكمة ضالَّة المؤمن ، أنَّى وجـدها أخذها » .

والإنسان الذي يعرف أكثر من الآخرين . ويملك قدرة على إبلاغ الخير للناس ودعوتهم إليه ، واجب عليه أن ينهض بهذا العمل حتى وإن قعد به ضعفه عن فعل ما يدعو اليه ، وفلسفة « أهل الله » في ذلك أن الحقيقة والفضيلة أكبر من أن يحجبهما عن الناس ضعف الداعي . كما أن انتظار الإنسان الكامل الذي لا أخطاء له ، لكي يقدم للناس الحق والخير ـ انتظار سوف يطول ويطول مُضيِّعاً على الناس الكثير من فرص الانتفاع بالحق وبالخير .

هذا إمام من أئمتهم الكبار « عمر بن عبد العزيز » يقول :

« لو أن كل امرىء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى يلزم بذلك نفسه ، لما كان هناك أمر بالمعروف ولا نهي عن المنكر ... ولقلَّ الواعظون والساعون لله بالنصيحة » ...

وهذا « سعيد بن جبير » يقرر نفس المبدأ فيقول :

« لو كان المرء لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر ، حتى لا يكون فيه شيء ، ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر » .

ويعقب « الإمام مالك » على كلمات « سعيد » فيقول :

« صدق سعيد ... فأين هذا الذي ليس فيه شيء » ؟!

* * *

وإذا كان العلم عندهم ضرورة لكي يتابعوا سيرهم الى الله على بصيرة وهدى .. فهذا العلم وهذا الفقه لا بد أن يرتكزا على كتاب الله وسنة رسوله ..

إن حياة التصوف وطريق التبتل مليئان بالمفاجآت والإغراءات ، وما لم يكن مع السالك نور قوي لا يخبو .. وما لم يكن معه دليل لا يضل ، فإن رحلته قد تنتهي الى غاية هي أبعد ما تكون عن الهدف الذي شمَّر له ونهض إليه .

والنور والدليل هما ـ كتاب الله وسنة رسوله .

فكل علم وكل فقه ، يحدثهم بعيداً عن الكتاب والسنة ، لا يمكن أن يكون العلم أو الفقه الذي يوصلهم الى الله .

يقول « إبراهيم التيمي » مبتهلاً الى الله سبحانه :

« اللهم اعصمني بكتابك ، وبسنة نبيك من اختلاف في الحق ، ومن اتباع للهوى ، ومن سبل الضلالة ، ومن شبهات الأمور ، ومن الزيغ واللبس والخصومة » .

من كل هذه الآفات التي تعترض طريق السائر الى الله ، والتي رددها في دعائه ـ لا عاصم سوى كتاب الله وسنة نبيه ..

من أجل هذا ، كان فقد العالم العامل بالكتاب وبالسنة خسارة لا تطاق .

يقول « أيوب السختياني » :

« إنه ليبلغني موت الرجل من أهل السنة فكأنما أفقد بعض أعضائي » !!...

ويوصي « أبو العالية » صحبه فيقول :

« تعلموا القرآن ، فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه .. وعليكم بالإسلام ، فإنه الصراط المستقيم .. ولا تحرفوا الصراط يميناً ولا شمالا .. وعليكم بسنة نبيكم ﷺ » ..

ويصيح « مالك بن دينار » قائلا :

« يا حملة القرآن . ماذا زرع القرآن في قلوبكم ؟؟.
إن القرآن ربيع المؤمن ، كما ان الغيث ربيع الأرض » ..

فالقرآن هو الذي يهدي قلب المؤمن ، وهو الذي يرعرع روحه ، وهو الذي يملأ حياته الفاضلة بالخصوبة ، ويفعمها بالنور ، وهو الذي يؤلق أشواق السائرين الى الله ، ويجعلها دائمة التحليق نحو الملأ الأعلى .

يقول « مالك بن دينار » :

« إن الصدّيقين إذا قرىء عليهم القرآن طارت قلوبهم شوقاً إلى الآخرة » .

ويقول « قتادة بن دعـامة » :

« القرآن بستان العارفين » .

★ ★ ★

ومن أذكى لفتاتهم في علاقتهم بالعلم والمعرفة : وصيتهم ألا يكتفي المريد بعالم واحد يأخذ منه ويتلقى عنه ، فالخير للانسان أن يستكثر من معلميه ما داموا من ذلك الطراز الذي يسير على نور من ربه .

يقول « أيوب السختياني » :

« إنك لا تبصر خطأ معلمك حتى تجالس غيره .. فجالس العلماء وجالس الناس » ...

والعلم عند « أهـل الله » ليس مسألة تحصيل . بل محاولة لرؤية الحقيقة من داخلها ..

وكل تحصيل للعلم ومناقشة للمعرفة إنما يتوسل بهما للعلم الحقيقي الذي يشاهدون به الله في آثار رحمته وجلال قدرته .

يقول « أبو القاسم القشيري » رضي الله عنه :

« هناك علم اليقين .. وعين اليقين .. وحق اليقين .. فعلم اليقين لأرباب العقول .. وعين اليقين : لأصحاب العلوم .. وحق اليقين لأصحاب المعارف » .

ومن أصحاب المعارف ؟. إنهم « أهل الله » الذين أضيئت عقولهم وقلوبهم بنور من الله .

★ ★ ★

وللعلم عندهم ذروة لا يقنعون دون بلوغها ــ تلك هي « الفهم عن الله » .

أجـل ان العلم نورهم على الطـريق ، ودليلهم الى الله ، وعصمتهم من الانحراف والزلل .. ولكنه فوق ذلك : القوة التي تشحذ فيهم البصيرة ، التي يطالعون بها قلب الأشياء .

إنهم بالمجاهدة الصادقة وبالتعلم الحـق ، يمتلكون هـذه الحاسة النادرة والباهرة التي تمكنهم من رؤية الحكمة المستسرة في الأعماق البعيدة الغـائرة لبحار المعرفة ومفاوز السلوك .

وإنهـم ليتعبدون ويتعلمون ، ثم يتعبدون ويتعلمون حتى تجيء الساعة المباركة التي يجنون فيها أولى بركات جهادهم فيمتلكون البصيرة التي تجعلهم يرون ما لا يرى الناس ، ويعرفون ما لا يعرف الناس .

يقول « الربيع بن أبي راشد » في ابتهاله الى ربه :

« اللهم اجعلني ممن يعقل عنك » .

كم هي عميقة وبالغة الدلالة ، هذه العبارة المبتهلة .. فإن يبلغ المرء الدرجة التي « يعقل » فيها عن الله إنه إذن لذو حظ عظيم .

ولقد سئل « عطـاء بن أبي رباح » :

« ما أفضل ما أعطي العباد ؟.. فقال : الفهم عن الله عز وجل » .

فأن يعقـل الإنسان المؤمن عن الله ويفهم ، يعني أنه صار قـادراً على أن يتعامل لا مع الأشياء ، بل مع جوهرها وقلبها..ويعني أنه قد صار « عبداً ربانياً » يرى بنور الله ويضرب بيـده !!.

و « أهل الله » لأنهم بلغوا هذه المنزلة رأيناهم يتحررون من عبادة الأشكال وعبادةا لنصوص .

وعلينا ــ إذن ــ حين نرى أحدهم لا يعبأ بالشكل ، ولا يقف عنـد ظاهر النص ألا نرد تفسير ذلك الى جنوح وتطرف .. بل الى تلك النعمة الكبرى التي معهم ــ « نعمة » البصيرة والفهم عن الله .

على أنهم في مقامهم هذا وبموقفهم هذا لا يتمردون أبداً على العلم بمصادره المعروفة ولا ينفصل سلوكهم قيد شعره عن الخط الذي رسمه القرآن ورسمته السنّة .. إنما يمارسون التعاليم من خلال تجربتهم التي أثراها عطاء الله ، وزاد من إدراكها نوره .

ولهذا ، فإن « بصيرتهم » هـذه تعمل بحرية ملتزمة ، ولكن الى أبعـاد لا تكاد ترى لهـا حـدود .

وهذا يفسر — فيما يفسر — سبب التفاوت الذي نلحظه في أذواقهم وأعمالهم .

فبينما يؤثر بعضهم التقشف والشظف ، يؤثر البعض الآخر التمتع المبـاح بطيبات الحيـاة .

ويفضل بعضهم مثلا إخفاء العبادة — ويؤثر بعضهم إعلانها .

يقول « بكر بن عبد الله المزني » :

« لأن أعافى فأشـكر خـير من أن أبتلى فأصبر » .

ولكن الى جواره ، نجـد آخرين يفضلون البلاء ليطهرهم ويصهرهم .. ثم آخرين ، لا يفضلون هذا ، ولا ذاك .. لأنهم لا يختارون لأنفسهم .. وإنما يختارون ويؤثرون ما يختاره لهم الله رب العالمين .

وهـذا حوار جرى بين اثنين من « أهـل الله » هما « هـرم بن حيان » و « عبد الله بن عامـر » .

كانا يؤمان الحجاز معاً .. وخلال السفر وقد بلغا من الطريق أرضاً مشجرة ، أخذت راحلتاهما تخالجان أوراق الشجر ، فقال هرم لابن عامر :

— أتحب أنك شجرة كهذه ، وتنجو من الحساب والعقاب ؟.

قال ابن عامر : لا والله ، فإني لأرجو من رحمة الله ما هو أوسع من ذلك ..

قال هرم : أما أنا ، فقد وددت لو أني شجرة من هذا الشجر ، تأكلني هذه الراحلة ، ثم تقذفني بعراً ، ولا أكابد الحساب يوم القيامة .

— ويحك يا ابن عامر .. إني أخاف الداهية الكبرى !!

فهذا رجلان من الأبرار يختلف اتجاههما النفسي . فينزع أحدهما الى الرجاء في رحمة الله نزوعاً لا ينسيه أبداً مشاعر التوقير لحساب الله .. وينزع الآخر إلى الخوف الشديد من الله . ودون أن ينسى أيضاً أن الله كتب على نفسه الرحمة .

ولكنهما معاً في هذا التباين لم يذهبا بعيداً عن كتاب الله ولا عن سنة رسوله ولا عن العلم الحق الذي منه ينهلون .

فمنهجهم مختلف ، ولكنه في الحقيقة متفق .. ومتعدد ، لكنه في الحقيقة واحد .

* * *

يقول « داود بن أبي هند القاري » :

« إذا أخذت بالذي أجمعوا عليه ، لم يضرك الذي اختلفوا فيه »..!!

وهي قاعدة ذهبية لا تهدي بنورها السائر فقط في دروب « أهل الله » والماخر عباب عالمهم .. بل هي كذلك « وصفة » بارعة في مجال الفقه ، وعالم الفقهاء .. هذا العالم الممتلىء بوجهات نظر لا تؤذن بانتهاء !!.

ولأنهم أوتوا نعمة « الفهم » عن الله عز وجل ، فقد تفوقوا على كل المتاهات الكلامية التي لم يخرج منها بطائل عبر مئات السنين .

فمسألة « القدَر » مثلا ، ماذا خرج بها لعقل الإنساني خلال معارك الجدل والكلام التي استمرت قروناً ، ولا تزال ؟. ــ لا شيء أبداً .

أما أولئك الذين يطالعون قلب الأشياء ، فقد فهموا روح النصوص التي تناولت القدر في القرآن وفي السنة..فهموا روح النص ، وسمعوا نبضه الوثيق ، وعبروا عن القضية كلها بكلمات تناهت في اليسر ، لكن ليس يفوقها ولا يغني غناءها أي من تلك الفلسفات التي لا يؤذن حديثها بانتهاء .

يقول « المنذر بن مالك » :

« ينتهي القدر الى هذه الآية إن ربك فعّال لما يريد » !!!

أجل .. في قلب هذه الآية الكريمة كل قضية القدر ، لمن ينظر اليها كوجه من وجوه الإيمان .. لا كمشكلة من مشاكل الفلسفة ،وموضوع لاستعراض قدرة الذكاء الإنساني على الجدل والحوار ..

فأن يكون الانسان « مُسيَّراً » أو « مُخيَّراً » أو « هما معاً » فإن ذلك كله لن ينفي حقيقة أن الانسان شيء من أشياء الله وخلق من خلقـه ..وأن الأمر كلـه ، والملك كله لله الواحد القهار ، وأن أعظم مخلوقاته سواء كان الإنسان أو غـيره يفعل أحيانا ما لا يريد . ويريد أحياناً ما لا يستطيع أن يفعل .

أما الله ، فهو ــ وحــده ــ الفعّال لمـا يريد !!.

أجل ، صدق « المنذر بن مالك » وصدق معه « أهل الله العارفون » .

فعند هذه الآية الكريمة ينتهي القدر وعندها يبدأ الفهم الصحيح لقضيته .

فليبذل أهل الأرض جميعاً كل جهودهم لإشقاء إنسان يريد الله إسعاده . فالنتيجة معروفة ولا شك فيها، تؤكدها الآية الفاصلة « إن ربك فعّال لما يريد »!!

وليبذل الطب كل معجزاته لانقاذ حياة من الموت ، قد جاء عند الله أجلها . فالمصير معروف « إن ربك فعّال لمـا يريد »!!.

هذا هو الذي يعني المؤمنين فهمه من القدر . بل وهــذه هي روح قضية القدر أدركها الذين « فهموا » عن الله ، والذين أوتوا « البصيرة » التي تنفـذ في مثل لمح البصر الى « قلب الأشياء » وليس الى أشكالها الباهتة .

. . . .
. . . .

وهذا الفهم عن الله ، أفاء على « أهل الله » تلك النعمة التي تخصصوا فيها وعرفوا بهـا ــ نعمة الزهد والورع .

لقد كان موقفهم من مناعم الحياة ، بل ومن ضروراتها مثار العجب والحديث الطويل من الذين عنوا بدراسة تاريخهم .

ولقد بهروا الدنيا بطريقة استغنائهم عنها وزهدهم فيها .

لقــد كانوا يرفعون أبصارهم نحو أمسهم القريب فيرون طائفة كبيرة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم قد أجادوا فن الزهد في

الدنيا والترفع عن إغرائها ، فصمموا على أن يتبعوهم على نفس الطريق :

يقول « الحسن البصري » :

« والله ، لقد أدركت سبعين بدرياً ـ ممن شهدوا غزوة بـدر ـ أكثر لباسهم الصوف .

لو رأيتموهم لقلتم : مجانين ..

ولو رآكم خيارهم : لقالوا : ما لهؤلاء من خلاق ..

ولو رأوا شراركم ، لقالوا : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب .

ولقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون على أحـدهم من التراب تحت قـدميه ..

يُمسي أحدهم، وما يملك إلا قوتاً كفافاً ، فيقول : لا أجعل هذا في بطني،والله لأجعلن بعضه لله،ويتصدق ببعضه..وهو إليه محتاج!» .

و « أصحاب رسول الله »و « أهـل الله » من بعدهم معذورون في فزعهم الشديد من الدنيـا .. فطالما أنصتوا للقرآن الكريم يحـذر منها وينعتها بدار الغرور .. ثم إن سيرة نبيهم عليه الصلاة والسلام أمامهم تريهم كيف كان يقضي الشهرين والثلاثة لا توقد في بيته نار تطهو طعاماً .. وكيف كان ينام على حشية من لوف .. وكيف كان بعد أن فتحت عليهم الدنيا وكثرت مغانمها يحرم نفسه وأحب الناس إليه « فاطمة » بنته وأهل بيته الأقربين من كل نعيم مكتفياً منهـا له ولأهل بيته بالشظف والكفاف !!

ولقد كان في أصحاب الرسول كذلك من لم يحرم نفسه من طيبات الحياة ما دام يؤدي حق الله فيها ، وما دامت لا تلهيهم عن ذكره وعبادته .

ولقد ورث « أهـل الله » كلا الاتجاهين ، وأضفى كل فريق على اتجاهه روح فلسفته وتفكيره .

بيد أنهم جميعاً متفقون على ضرورة الحذر منها ، وعدم الثقة بها ، فوظيفتها الحقيقية عندهم ـ أنها المكان والزمان اللذان منحهما العبد الصالح ، ليهيىء من

خلالهما لنفسه غــداً أبدياً خــالداً وصالحاً عند الله رب العالمين •

أما ما وراء ذلــك ، فهي آكذوبة كبرى •• أو هي على أحسن الفروض والأوصاف :

« يقين لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه » !

وهم يحاذرونها ، لأنهــا في حقيقتها غــرور •

يقول « أبو حــازم » :

« ما مضى من الدنيــا حــلم ، وما بقي منهــا أماني » •

ويمقتونها لأنهــا فتنة كل تافه ، وبهيمي ، وجشع •

أخــذ « مسروق بن عبد الرحمن » ابن أخ له وصعد به كومة عالية كان الناس يتخذون منها ملقى لكناستهم وزبالتهم •• ولما ارتقاها قال له :

« ها هي دنيــاهم تحت أقدامنا

أكلوها ، فأفنوها •••

ولبسوها ، فأبلوهــا •••

وركبوها ، فأنضوها •••

وسفكوا من أجلهــا دماءهم ، واستحلوا فيها محارمهم ، وقطعوا فيها أرحامهم » !!

أجَل •• إن المنافسة حولها قاتلة وغــير شريفة •• والإنسان في زحامها المجنون يدوس أخاه ويسحق رفيقه كي يصل قبله ويأخذ أكثر منه !••

يقول « أبو حــازم » متهكماً وساخراً :

« لا تكاد تمــد يدك لشيء منهــا ــ أي الدنيا ــ إلا وجــدت آخرين قــد سبقوك إليه » !!••••

ويصف « شميط بن عجلان » عشاقها فيقول :

« حيارى ، سكارى ، عشقوها ولم يفطموا أنفسهم عن رضاعها ••

إذا أحدث الله لأحدهم نعمة تمطى رياء وسمعة ونادى في الناس :
أن تعـالوا وانظـروا ••
دائم البطنة ، قليل الفطنة •• يقول : متى أصبح فآكل وأشرب ••
وألهو وألعب •• ومتى أمسي فأنـام ••
جيفة بالليل بطال بالنهـار » !!••

* * *

ولقد تفرغ « أهل الله » لعبادة الله سبحانه •• فكيف يثقلون ظهورهم ولو بالمناعم والطيبات •• وأنّى يكون لهم في غير مرضاة الله شغل ؟•

وقع حريق كبير بالبصرة ذات يوم ، وعصف الهلع بالناس •• أما « مالك بن دينـار » فقد أخذ بطرف ردائه ومشى في شوارعها لا يلوي على شيء وهو يقول :
« هلك أصحاب الأثقـال » •

وهو رمز جميل وصادق للذين يستكثرون من الدنيا بغير قناعة أو تعقل :
وينسون أن لكل كثير شواغله وهمومه وثمنه الفادح ، وأحياناً المهين •

وعندهم أن من دلائل العصمة التي يهبها الله عبـاده الصديقين ، أن تضن عليهم الدنيـا بحاجاتها •• أو بتعبير أصدق وأصح ، يضنون هم على الدنيـا برغباتهم فيها ومنها •

يقول « إبراهيم النخعي » :
« إن من العصمة أن تطلب الشيء من الدنيا فلا تجـده » •

هذا ، لمن يطلبون •• أما « أهل الله » فلطالما شهدت ساحات الدنيا صراع الجبابرة يجري بينهم وبينها •• هي تريدهم ، وتطاردهم بكل ما فيها من بهـر وإغراء •• وهم يذودونها عن ورعهم ودينهم وتقواهم ومصيرهم المذخور لهم عن الله بكل ما في عزماتهم الشاهقة من بأس وعنفوان •

وإنهم ليرددون كلمات أخ لهم كبير ، هو « أويس القرني » في غبطة وحبور :

« إن بين أيدينا عقبة كئوداً ، لا يجاوزها إلا كل ضامر ومخف ..
فأخف يرحمك الله » !

إن « أهل الله » لا يبكون على دنيا .. ويرون في ترك الحرص عليها والعدو وراءها تصرفاً بدهياً ، ومنطقياً مع أبجديات الإيمان .

يقول « أبو حـــازم » :

« وجدت الدنيا شيئين .. شيئاً لي وشيئاً لغيري .
فأما الذي لغيري ، فلو طلبته بكل حيل الأرض ما وصلت إليه .
وكذلك الذي لي ، لن يستطيع أحـد أن ينـاله مني » .

هي إذن عندهم لا يجـدي معها الحرص حتى لو أرادهـا الحريص ، لأن الأرزاق فيها مُقدَّرة ، ولا سبيل لك إلى ما قُسم لغيرك .. وكذلك لا سبيل لغـيرك إلى ما قسم لك .

من أجل هذا كان المشغولون بها في عذاب .. مَن وجدها ، ومن فقدَها .

يقول « شميط بن عجلان » :

« اثنان معذبان في الدنيـا ..
رجل أعطي الدنيـا ، فهو مشغول بهـا ..
وفقير زويت عنه ، فنفسه تتقطع عليها حسرات » ..

ويعود « أبو حـــازم »فيقول :

« نعمة الله فيما زوي عني من الدنيا ، لا تقل عن نعمته عليَّ فيما أعطـاني منهـا ..
إني رأيته أعطـاها قوماً ، فهلكوا » .

ورأي « أبي حازم » هذا يكاد يمثل ملتقى الاتجاهات جميعاً حول موقف « أهــل الله » من الدنيا .. فكل ما ينالهم من حلالهـا نعمة، وكل ما لم ينالوا نعمة لا تقل في استحقاقها الشكر عن النعمة الأولى ، ثم هم إذا خيِّروا بين الإكثار منها والإقلال فيها ، اختاروا الإقلال ، لأنهم لم يجدوا له صرعى .. بينما صرعى

الإكثار كثيرون !! وانهم ليلفتون أنظار الناس الى إحدى حقائق الدنيا ، ليقل تهالكهم عليهـا .

يقول « أبو حـازم » :

« ما في الدنيا شيء يسرك ، إلا وألصق به شيء يسوءك » ...

ألا إن كل إنسان قادر على أن يحصي مئات الشواهد من حياته ومن حياة الناس على صدق هـذه الحكمة .

وإذن فطلب المزيد من الدنيا حماقة ، لأنها في نفس الوقت تمثل مزيداً من المتاعب والسوء .

من أجل هذا يرى « أهل الله » في الذين أوتوا نعمة القناعة والزهد الملوك الحقيقيين في الدنيا .

يقول « مالك بن دينـار » :

« كن ملكاً في الدنيا والآخرة ... ازهد في الدنيا تكن كذلك » .

ويقول « محمد بن كعب القرظي » :

« أشقى الناس بها أرغبهم فيها ، وأسعدهم بها أزهدهم فيها ...
هي المعذبة لمن أطاعها ، المُهلكة لمن اتبعها ، الغادرة عن انقاد لها..
زيادتها نقصان .. وأيامها دول » !

* * *

ولماذا يحرص « أهل الله » على الدنيا ؟..

أمِن أجل أن يكونوا أثريـاء ؟..

ها هم أولاء يتحدثون على لسان أحدهم « مسروق بن عبد الرحمن » :

« إني لأسعد ما أكون حـالاً حين يقول الخادم : ليس في البيت قفيز ولا درهم » ..

أم لكي يتركوا ثروة لأبنائهم وذرياتهم ؟..

ها هو ذا « إبراهيم النخعي » يجيئه أكثر من عشرين ألف درهم ، فيتصدق بها جميعاً •• فيقال له : لو ادخرت منها لولدك ، فيقول :

« لقــد ادخرتها لنفسي وادخرتُ الله لولدي » !!

ولقد استجاب الله لحسن ظنه به ويقينه •• فلم يكن في الناس يومئذ أكثر ثراء وسعادة من أولاده ••

أم يريدونها ليتقوا بها الحاجة ويستعينوا بها على طاعــة الله ؟•

أجل •• هنا لا غير يذكرون حاجتهم الى الدنيا •• أو على الأصح علاقتهم بالدنيا •• فهم لا يريدون منها سوى لقيمات تُقِمْنَ الصلب •• وثوب يستر الجسد •• وهو قدر لا يجعل للدنيا أي ذكر في تفكيرهم ، ولا في أحلامهم •

ثم إن نِعَم الدنيا لا تتمثل فقط في المــال وفي أطايب الطعام والشراب واللباس ••

إن نِعم الله على الناس لأجــل من أن تحصى وتحمد •• وإذا كان حمقنا وطمعنا وجهلنا يستر عنا تلك النعم ، فلم نعد نراها إلا في مائدة عامرة ، أو ثياب فاخرة •• أو جيوب منتفخة بالأموال ، فإن « أهــل الله » يرون هذه النعم تمــلأ وجودنا وحياتنا ، وتنادي العــين التي ترى•• والأذن التي تسمع •• والقلب الذي يفقــه ••

هذا « يونس بن عبيد » يقصده رجل شاكياً فقره وحاله ، فيسأله«يونس» :

« أيسرك أن يذهب بصرك وتعطى مائة ألف » ؟

يقول الرجل : لا •••

« أيسرك أن يذهب سمعك ، وتعطى مائة ألف » ؟

يقول الرجل : لا •••

« أيسرك أن تذهب يداك ورجلاك وتعطى مائة ألف » ؟

يقول الرجل : لا •••

« أيسرك أن يذهب عقلك ولسانك وتعطى مائة ألف » ؟

يقول الرجل : لا ...

وهنا ضحك « يونس » وقال للرجل :

« انظر — إذن — كم معك من مئات الألوف وأنت تشكو الحاجة » !!...

بعض الناس يرون في مثل هذه الكلمات مجرد عزاء .. وإنهم لمساكين واهمون .. فهذا الذي قاله « يونس بن عبيد » هو عين الحقيقة ولباب اليقين ..

فالعافية نعمة .. بل هي ثروة .. بل هي رصيد فعلي ومادي كهذا الذي يودعه الأثرياء في المصارف والبنوك أو أكثر .. فلماذا لا نرى هذه النعمة أبداً.. ولا نشكر الله عليها نحن الغافلين الجاحدين ؟..

هل نِعم الحياة هي المال فقط ؟.. والمنصب فقط .. والجاه فقط ؟.. فنحن لا نراها إلا من خلال جهالتنا وصغارنا !!..

أجل .. لا نراها إلا مالاً ومنصباً ، وجاهاً . لأن هذه الثلاثة هي التي تتيح لغرورنا ولهوان نفوسنا وغاياتنا أن تتبختر وتختال . طامعة أن تخرق الأرض أو تبلغ الجبال طولا !!.

لذلك نرى « أهل الله » بموقفهم من الدنيا ومن المال ، وبإدراكهم المضيء الباهر لهذه القضية كلها يرتفعون فوق كل مستويات الذكاء الانساني ويعانقون الحقيقة في قلب النهار !.

* * *

إنهم يريدون للناس أن يكونوا أحياء الدنيا لا ضحاياها .. وسادة المال لا عبيده ..

والسبيل لذلك — أن يأخذوا المال من حلّه .. وينفقوه في حله وأن يقنع كل بما يكفيه . ولا يطمح الى ما يطغيه ..

يقول « ميمون بن مهــران » :

« لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد مما يحاسب شريكه •• وحتى يعلم من أين مطعمه ، وملبسه ، ومشربه ـــ من حلال ذلك أم من حــرام » ••

ولكي يعيش الانسان على الحلال مطمئناً ، لا بد أن يبتعد لا عن الحرام •• بل عن تخــوم الحلال المجاورة للحــرام ••

يقول « ميمون بن مهــران » أيضا :

« لا يسلم الحلال لأحــد ، حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزا من الحــلال » ••

كلمات تتفجر ذكاء ونوراً •• وتضعنا أمام « الورع » وجهاً لوجــه •

فكثيراً ما نحسب أن الورع ترف في الفضائل •• لا ، إن « أهــل الله » يعلمونا أنه « ضرورة » لا ترف ، فأنت لا تتوقى النار بحاجز النــار نفسها •• بل بحاجز من الأرض بعيد عنها •• وكذلك المال الحرام لا يتوقى إلا بجزء كبــير من الحلال يحول بينك وبين مواقعة الحرام ، وهذا هو « الورع » ••

والورع عندهم أمــر واضح ويسير ••

يقول « يونس بن عبيد » :

« لا شيء أيسر عليَّ من الورع إذا رابني بشيء تركته » •

إنه يشير بهــذا الى ما علّمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« دع ما يريبك ، إلى ما لا يريبك » •

فعندما نسمع أن أحــد أولئك الأبرار رفض مثلا أن يسد جوعه بواحــدة من البسر أسقطتها الريح على الأرض ، لأن صاحب النخلة لم يأذن له ، فلا نسمي هذا بجهلنا ما تعودنا أن نسميه •• بل نصفه بنعته الحقيقي ، وهو الورع •

إن « أهل الله » يقيسون الأمور بالتحليل النهائي لها ، ولنطالع هذا النبأ :

يقول « مالك بن دينـــار » :

« خرج جابر بن زيد ــ وهو من إخوان مالك في الله ــ يومــاً فمر بحديقة ، فاحتوشته كلابها ، فأخــذ قصبة من حائط وجعل يطرد بهــا الكلاب ، ولما وصل داره قال لأهله : احتفظوا بهــذه القصبة حتى أردها غداً إلى مكانها .

فقالوا : سبحان الله يا أبا الشعثاء ، ما يبلغ الأمــر بقصبة ؟..

فقال : لو أن كل من مرَّ بهــذا الحائط أخذ منه قصبة ما بقي منه شــيء » !!

وهكذا ، لم يكــن ورعهم سذاجة ، بل كان حكمة وعمق تفكير .. كان « أبو حازم سلمة بن دينار » يقول :

« قد رضيت من أحدكم أن يحافظ على دينه ، كما يحافظ علــى نعليــه » !!!.

فنحن في الطريق نتوقى الوحل ونتحاماه حتى لا يصيب نعالنا . وإذا أصابها لم نصبر على تلوثهــا ، بل نسارع الى تنظيفها وتلميعها .. ألا ما أوجع كلمــة « أبي حازم » ؟ إن لها لمثل وخز السهام !!.

إن اتقاءهم الحلال إذن لم يكن تطرفاً . بل كان ضرورة حتى لا يواقعــوا الحرام .. لا سيما حين يفشو الكسب الحرام ويملأ الجيوب والبطون .

يقول « شقيق بن سلمة » :

« إن أهل بيت يضعون على مائدتهم رغيفاً حلالا ، لأهــل بيت غــرباء » !!..

والورع عندهم ليس فضيلة فحسب .. بل واجباً مفروضاً .. لأن معنــاه لا سيما عنــد ــ فساد الذمم ــ ترك الكسب الحرام ، فهل ترك الكسب الحرام نافــلة ؟.

إنه واجب ولزام .. ولو أن كل إنسان يأخذ حقه لا غير ، ويترك للآخرين

حقوقهم ، لتاه الفقر في زحـام الكفاية والغنى .

يقول « ميمون بن مهـران » :

« لو تعاهد كل إنسان كسبه ، فلم يأخذ إلا طيباً .. ثم أدى حق الله فيه ما احتيج الى الأغنياء ، ولا احتاج الفقراء » !!.

ففلسفتهم الحكيمة والعميقة عـن المـال والثروة تضع كلتـا عينيها على « إنسانية الإنسان ــ هذه التي لا يستعبدها شيء كما يستعبدها المـال ــ رغبة فيه ، وتهالكاًدو نه ، وحرصا عليه .

وإنسانية الإنسان تنتصر في معركتها مع المـال في نظر « أهـل الله » إذا سعى الإنسان اليه برفق وأمانة وشرف ، وأدى حق الله فيه لذوي القربى والفقراء والمساكين ، وأسهم به في إرباء المنفعة الاجتماعية وإسعاد الناس .. وبعـد ذلك فلينعم ذو المـال بماله في غير سرف ولا مخيلة .

قيل لـ « مالك بن دينار » إنك تغلظ على الناس في طعامهم ولباسهم فقال « اكتسبوا حـلالاً .. ثم البسوا ما شئتم » .

ويقول « يونس بن عبيد » :

« إنما هما درهمان :

- درهم أمسكت عنه حتى طاب فأخـذته .
- ودرهم وجب فيه حـق الله ، فأديته » .

إن حرصهم لشديد على أن يجيء المال من حلال ، فلا انتهاب ولا اختلاس ، ولا سرقة ، ولا غش ، ولا احتيال .. ثم ينفق في حلال بادئاً بحقوق الله فيه التي لن ينال اللهمنها شيئاً ، إنما يذهب نفعها للمحتاجين ويبقى ثوابها للمنفقين .

ثم لا تكـون ــ أي الأموال ــ أداة للسرف والترف، ، لأن الله لا يحب المسرفين ولا المترفين .. كما لا يكون محرضاً على الشح ، لأن الله يمقت البخلاء الأشحاء ..

يقول « ميمون بن مهـران » :

« في المـال ثلاثة حقوق ، إن نجا صاحبه من واحد ، خيف عليه من اثنين ، وان نجا من اثنين ، خيف عليه من الثالث ••

- أن يكون طيباً•فأيكم الذي يسلم كسبه منحرام أو شبهة ؟••
- وأن يؤدي حـق الله فيه ••
- وأن ينفق في قصد ، فلا سرف ولا تقتير » !!••

ولكي تبقى « إنسانية الإنسان » لا بد أن يكون سعينا للمال ـ كما قلنا ـ سعياً رفيقاً ، وأن تكون وسائلنا كريمة شريفة •

وذلك لا يتيسر إلا لمن راض نفسه على القنـاعة ، وزانها بالورع وأدرك ـ كما سمعنا ـ لأهل الله من قبل أن كل كثرة في المال وزيادة في الدنيا ، إنمـا تحمل معها كثرة في الهموم ، وزيادة في المخاطر •

هذا في دنيا الناس الفانية••أما يوم القيامة فالحساب شديد والعقبة كؤود •

من أجل هذا يرفض « أهـل الله » أن يكونوا ضحايا الكثـير •

يقول « يزيـد التيمي » :

« قدمت البصرة ، فربحت فيها عشرين ألفاً فما اكترثت بهـا •• وما أريد أن أعود إليها ، بعد أن سمعت أبا ذر يقول : إن صاحب الدرهم يوم القيامة ، أخف حساباً من صاحب الدرهمين » !!•

هذا مثال اخترناه من بين عشرات الأمثلة والمواقف ، لأن صاحبه لم يكن فقيراً ، فهو يتعزى عن فقره •• بل هو تاجر ناجح ، كسب في رحلة واحدة عشرين ألفاً ، فما اكترث لها ، ولا بطر بهـا •

بل لقد أثارت في نفسه الحنين الى الربح القليل المتواضع •• لأن صاحب الدرهم ، أخف حساباً يوم القيامة من صاحب الدرهمين •• وصاحب الدرهمين ، أخف حساباً من صاحب الثلاثة ••

من أجل هــذا ، كان أشد ما يأخذون على الناس تهالكهم على المــال .

يقــول « شميط بن عجلان » :

« قد أعطيت ما يكفيك وأنت تطلب ما يطغيك » !

و « أهــل الله » لا يكترثون بالمــال ، لأنهم لا يخشون الفــاقة ..

أولا : لأن إيمانهم بالله الخالق الرازق يمــلأ أفئدتهم باليقين ..

وثانياً : لأن حاجاتهم في الحياة يغطيها أقل شــيء ..

سئل « حسان بن أبي سنان » :

« أما تحدثك نفسك بخوف الفــاقة ؟..

فقال : نعم ..

قيل : فبأي شــيء تردها ؟.

قال : أقول لهــا : لو أصابتك الفاقة غداً ، فستأخذين المسحاة ، وتعملين مع الفعلة ، فتكسبين دانقــاً أو دانقين تعيشين بهما .. ثم تعملين وتعيشين .. وتعملين وتعيشين .. فتسكن وتهدأ » .

هذا « معلم » يعلمنا ألا نفتح على أنفسنا أبواب الحياة فلا نجد بعد ذلك مهما يزد ثراؤنا ، ما يشبع طمعنا وطموحنا .. يعلمنا ألا نستسلم لهلــع النفس الجائعة المسعورة التي تحملق دائماً لا في الكفاية بل في المزيد ، تلو المزيــد ..

و« أهل الله » بهذا لايكرهون للناس الثراء المشروع ولا الرفاهية الشاكرة .

يقول « عمــرو القارىء » :

« كانوا يعدون الغنى والسعة عــوناً على الدين » .

ويقول « إبراهيم النخعي » :

« مَن حسَّن الله صورته ، ووسع رزقه ، وبوّأه منصباً صالحا .. ثم أدى حق الله في كل هذا وتواضع ، كان من خاصة أهل الله » .

أرأيتم ؟...

هنا هيئة جميلة ، ورزق واسع ، ومنصب مبوّأ .. ومع ذلك فإن صاحب

هذا كله ليس مقبولا فحسب ، بل ومن خاصة أهل الله •• لأنه عرف كيف يشكر ربــه ويتواضع لعبــاده ••

وهكذا يقول « أبو قلابة » :

« لن تضرك دنيا ، أديت شكرها لله عز وجل » •

بل لننظر هــذه الواقعة المعبرة :

رأى أبو قلابة أحــد أصحابه يشتري تمراً رديئاً ، فقال له :

« لقــد كنت أظــن أن الله تفعك بمجالسنا •• أما علمت أن الله نزَع من كل رديء بركته » ؟!

أهنــاك أذكى وأبهى من هــذه الكلمات في هــذا المقــام ، يقولها رجل متصوف زاهــد ؟!

ها هم أولاء في زهدهم وورعهم ، يرفضون الرديء ، لأن المؤمن طيب وهو أحــق الناس بالطيبات !•

المشكلة ــ إذن ــ هي في علاقاتنا بالمــال وبالدنيا ••

وبتلون هــذه العلاقات وخضوعها لتيارات كثيرة متناقضة ــ تتغير نظرة « أهل الله » الى الموضوع وتتعدد آراؤهم وتوجيهاتهم •

وإنا لنراهم في نظرتهم الواقعية للمال يذهبون في حسن الانتفاع به مذهباً بعيــداً • فهذا « محمد بن كعب القرظي » يقول :

« التدبير نصف المعيشة والتودد نصف العقــل » •

إذن فهم يباركون حتى الادخار والقصد ••

إن مع « أهل الله » من الفطنة ما يعرفون به ويدركون حاجة الناس لوسائل العيش والحيــاة •

فيقول « نافع بن جبير » :

« إنك من أهل الدنيا ما دمت فيها •• ولا غنى لأهل الدنيا عمــا يصلحهم » ••

بل لنطالع هذين النصين لقطب من أقطابهم هو سعيد بن المسيب رضي الله عنهم أجمعين .

يقول أولا :

« إن الدنيا نذلة ، وهي إلى كل نذل أمْيَل .. وأنذل منهــا مَن أخذها بغير حقها، وطلبها لغير وجهها، ووضعها في غير سبيلها »!!.

ثم يقول مرة أخرى :

« لا خير فيمن لا يحب هذا المــال ليصل به رحمه ، ويؤدي أماناته .. ويستغني به عن الناس » .

كما كان يشير إلى أمــواله ويقول :

« أصون بهــا ديني وحسبي » .

فالدنيا النذلة ــ كما وصفها سعيد ــ والتي هي الى كل نذل أمْيَل .. إنما تكون كذلك وفق الغرض الذي نتوخاه منها والحافز الذي يدفعنا ويسوقنا إليها ، ووفق الوسيلة التي نتوسل بهــا .

وهكذا نراها في صورتها الأخرى ليست نذلة ولا إلى كل نذل أميل بل هي فرصة المؤمن الصالحة الطيبة الى يوم معــاده وحسن مآبــه . فما الذي غيَّر الصورة ؟. إنه نوع العلاقة التي تربط الإنسان بدنياه ..

وهكذا لم يعد المــال وسيلة تستخدمها في تأفف وضجر .. بل هو عَوْن صالح يُحب ، شريطة أن يكون في مصادره ، وفي مصارفه . وفي مسيرته كلهــا كما قال « أهــل الله » مما فصلناه خلال الصفحات السالفة ــ من حــلال طيب يجيء .. وفي حلال طيب ينفق.. لا نتهالك على جمعه.. ولا نبخل به أو نسرف فيه .. ثم نترك لغيرنا حقه فيه ؛ فلا نأخذ منه فوق كفايتنا ..

على أن « أهل الله » حين يكون الأمر متعلقاً بهم ؛ والمصير مصيرهم . فإنهم لا يريدون من الدنيا إلا مثل حسو الطــائر .

إن الدنيا — ذلك المسرح العريض لكل رغبات الناس وشهواتهم وطموحهم، واجتماعهم وانفضاضهم .. الدنيا بكل أسواقها الهائجة ومهرجاناتها المائجة ، لا تعنيهم ولا ينبغي لهم أن يحسوا لها وجوداً .

وهم يدفعون ثمن ذلك من زهدهم وجهادهم وإخباتهم ، والعيش مع شظفها ، والتدثر بالحرمان منها .

يقول « جعفر الصادق » :

« إنما الدنيا للعارفين كفيء الظلال » ..

الدنيا كلها مهما يطل العمر فيها — كلحظات الظل التي يقضيها المسافر تحت أفنان شجرة ثم يمضي .. فلماذا يشغلون إذن بأموالها ومتاعها وفتنتها وأهوائها ؟!

إنها فرصتهم لطاعة الله ، ولتقديم الصالحات الباقيات التي سيحيون فيها إلى جوار الله ، وفي فردوسه الأعلى خالدين مخلدين .

أما بعد ذلك ، فلا تعرفهم الدنيا ولا يعرفونها .

يقول « ابراهيم التيمي » :

« تمثلت نفسي في النار ، أعالج أغلالها وسعيرها وآكل من زقومها، وأشرب من غِسْلينها.. فقلت يا نفسي : أي شيء تشتهين ؟ قالت : أرجع الى الدنيا فأعمل عملا أنجو به من هذا العذاب ..

ثم تمثلتها في الجنة مع حورها — ألبس من سندسها ، وإستبرقها ، وحريرها ، فقلت يا نفسي : أي شيء تشتهين ؟ قالت : أرجع الى الدنيا ، فأعمل عملا أزداد به من هذا النعيم ..

فقلت لها : ها أنت ذي في الدنيا فاعملي » !!.

إنهم يرفضون أن يكون للدنيا في قلوبهم مكان .. بل وفي إحساسهم — مجرد الإحساس ..

فسلامتهم من إغرائها لا تتمثل فقط في الزهد فيها والاستغناء عنها . بل وفي فقدان الشعور بوجودها .

يقول « أبو الأبيض » :

« اعـلم أنك لن تسلم من الدنيا ، حتى لا تبالي مَن آكَلَها مِن أحمـر أو أسود » .

إنهم ليسوا أتقياء وحسب، بإبقائهم الدنيا بعيداً منهم، بل أذكياء أيضاً ..

فأمامهم آلاف مـن المشاهد والصور ، لناس كانت الدنيـا معهم بالأمس تضمخهم بعطرها ، وتغرقهم بخيرها .. وفجأة تولت عنهم إلى غيرهم . وغـداً الى آخرين .. وبعـد غد الى سواهم .

يقول « محمد الباقر » :

« الدنيا مثل مـال أصبته في منامك ، فلما استيقظت لم تجـد معـك منه شيئاً » ...

فلماذا ينخدعون لها ، ويعيشون متوقعين ضرباتها ومفاجآتها ؟ حسبهم منها ما لا يخلّف فقدانه الحسرة والعذاب .

وليضحكوا مع « جابـر بن زيد » وهو يحكي غبطة روحه قائلا وكأنـه يشمت في الدنيا التي لم تستطع اصطياده :

« ما أملك من دنياكم إلا نعلين قديمين وحماراً » !!

وليضحكوا كذلك في غبطة مع « الحجاج بن الفرافصة الباهلي » الذي يقف في السوق عند أصحاب الفاكهة ، فيسأل ما تصنع ؟ فيقول مشيراً الى الفاكهة :

« أنظـر الى هـذه المقطوعة الممنوعة » .

مشيراً بذلك الى فاكهة الجنة التي أعـدها الله للمتقين من عبـاده ، والتي وصفها القرآن الكريم فقـال :

« لا مقطوعـة ولا ممنوعـة » .

* * *

على أن لأهل الله صارفاً آخر يصرفهم عن الدنيا بقوة ولا يملكون له دفعـاً ـ ذلكم هـو الموت ..

أجل •• الموت الذي يعري الدنيا من كل زيفها . ويضع الإنسان وجهاً لوجه أمام مصيره في أبد لا يفنى ولا يزول •• ينتظره فيه نعيم مقيم •• أو عذاب عظيم !!

هنا ، لا ينسون من الدنيا متاعها فحسب ، ولا وجودها فحسب ، بل ينسون اسمها •• وهنا لا خيار أبداً ولا ينبغي أن يكون ثمَّ خيار . حين تكون المفاضلة بين ذلك الشيء الصغير الضئيل التافه الذي يسمى الدنيا ، وبين الآخرة •

فالموت في آذانهم وفي روعهم نذير يصيح : أن استعدوا للرحيل •

* الى أين ؟•• الى دار تحيون فيها خالدين ، حيث النعيم الخالد للمتقين•• والعذاب الماحق للمفسدين ••

* وما هذه الدار التي نحن فيها إذن ؟• هي الدنيا • ألا يذكركم اسمها بحقيقتها ؟ هي دار فانية تقضون فيها أعماراً كأنها لحظات •• .

* ولماذا جئناها إذن ؟• ليبلوكم أيكم أحسن عملا !!

إذن فعلى هذه الدنيا العفاء •• وإذن لن يسنحها « أهل الله » خفقة واحدة من قلوبهم ، ولا بسمة ضاحكة من شفاههم •• وبالتالي فهم لا يريدون من متاعها ولا من زينتها شيئاً — أي شيء — ولتهب رياح السحر لتحمل منهم تسبيح المسبحين ، وأنين الباكين ، وضراعة الضارعين ، وأنفاس شوقهم المشتاق إلى لقاء الله ورضوانه !•

هكذا رأيناهم يشمون في كل مظاهر الدنيا رائحة الموت •

هذا « يزيد الرقاشي » يقول :

« إنْ سَرَّكَ أن تنظر الى الدنيا بما فيها من ذهب وزينة .
فهَلُمَّ أخبرك ••
شيع جنازة ميت •• فهذه هي الدنيا بكل ذهبها وزينتها ••
واحمل القبر دوماً معك ••
لا أقول : احمل تربته •• بل احمل فكرته » ••

يا لروعة التفكير والتعبير يا شيخنا يزيد !!

ألا فلنعد تلاوة عبارته الحكيمة مرة أخرى :

«واحمل القبر دوماً معك .. لا أقول : احمل ترابه .. بل احمل فكرته»

إنهم بهذا المعنى عاشوا يحملون قبورهم في كل زمان وكل مكان .. عاشوا يحملون « فكرة » القبور و « فكرة » الموت ، وكان هذا الذي يحملون أعظم حاجز دفع عنهم طوفان الحياة الدنيا ، وأحاله تحت أقدامهم الى فقاقيع !!.

يقول « إبراهيم النخعي » :

« ما من أحد ينزل الموت حتى منزلته إلا عد غداً ليس من أجله ..
كم من مستقبل يوماً ، لا يملكه .. وراج غداً ، لا يبلغه ..
ولو تنظرون الى الأجل ومسيره ، لأبغضتم الأمل وغروره » .

وهكذا رأيناهم يعزفون عن كل عمارة تخصهم في الدنيا .. وكلما دعوا الى ذلك قالوا ، كما قال « سليمان التيمي » :

« الأمر أعجل من هذا .. فالموت غداً » !

وهم ينادون المؤمنين كافة ألا يدعوا الدنيا تنسيهم الآخرة .. وأولئك الذين يغترفون من طيباتها المباحة المشروعة ، أحق من غيرهم بهذا النذير ، لأن النعم كثيراً ما تنسى !!

يقول « ابراهيم التيمي » :

« إن مَن كانوا قبلكم فروا من الدنيا وهي مقبلة عليهم . وإن معهم من التقوى يومئذ ما معهم .. وأنتم اليوم تتبعون الدنيا . وهي مدبرة عنكم وإن معكم من الخطايا ما معكم » !!

هذا نذير قيل للناس منذ ألف عام .. ترى ماذا يقال لنا اليوم وأين مكاننا نحن من القافلة المزدحمة بألف من الأعوام ؟!.

كذلك يقول « إبراهيم النخعي » :

« إن الصالحين قبلكم ، كانوا يجعلون للدنيا ما فضل عن آخرتهم ..

وإنكم اليوم تجعلون لآخرتكم ما فضل عن دنياكم » .

* * *

و« أهل الله » إذن بتخطيهم الدنيا الى الآخرة ليسوا سذجاً ولا مخدوعين.. إنما هم أذكى الناس قاطبة إذا كانت المسألة مفاضلة بين ربح وخسران .. فأرباح الدنيا وهمية مهما تتشامخ طولا وعرضاً .. لأنها عاجلة ، ومتقلبة ، ثم نهايتها موت يفضي الى حساب وعذاب ..

أما ربح الآخرة ، فهو اليقين الذي لا يقين مثله ، وهو الربح حقاً ..

وكل شيء في الدنيا يتركه الإنسان خوف الفتنة أو الانشغال به عن طاعة ربه ، سيأخذ أحسن منه مضاعفاً يوم الخلود .

يقول « الشعبي » :

« ما ترك أحد في الدنيا شيئاً ، إلا أعطاه الله في الآخرة خيراً منه » ..

بل إن للفقراء موكبهم في الجنة .. ولهم في الآخرة ثواب يتواءم مع الفقر الذي اختاروه في دنياهم طائعين ، أو رزئوا به فصبروا عليه . بل تقبلوه شاكرين..

يقول « إبراهيم النخعي » :

« يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء .. مثلهم في ذلك كمثل سفينتين تمخران البحر ... مرّت الأولى ، وليس فيها شيء من متاع ، فقال الآذن بالعبور : خلّوا سبيلها ..

ومرّت الأخرى مثقلة موقرة ، فقال: احبسوها ، حتى ننظر الذي فيها »!!

مثل بارع .. وكم كانوا بارعين في ضرب الأمثال يعلمون بها الناس .

* * *

وهكذا لم تكن علاقتهم بالموت علاقة خوف ورهبة ، أكثر مما هي علاقة إيلاف ومحبة .

ذلك أن الموت عندهم ليس نهاية ، إنما هو انتقال من دار الى دار .. ومن عالم إلى عالم .. ومن أهل الى أهل ..

هـذا « أبو حـامد الغزالي » رضي الله عنه يقول :

لا تظنوا المـوت موتاً إنـه   لحيـاة وهو غـايات المنى
لا ترعكم هجمـة الموت فما   هـو إلا الانتقـال من هنا

إن الناس في حياتهم الدنيا ، لا يسرهم أن يتجمدوا عنـد منزلة واحـدة من منازلهـا •

فالطالب في المرحلة الثانوية ــ مثلا ــ يجدّ ويجتهد ويدأب لكي ينتقل إلى المرحلة الجامعية •• وحين يبلغها ، يبذل قصارى جهده لينتهي منها ، وينتقل إلى ما بعـدها في حياة الوظيفة والعمل •• والموظف في درجة ما يتوق ويتحرق شوقاً إلى الدرجة التي فوقها •• والناس جميعاً ، بل حتى الطيور ، تبحث دائماً عـن الحياة الأفضل ، وتهاجر الى حيث الرغد والخصب •

هـذا تبسيط لحقيقة « الموت » •• فما هو إلا الانتقال من هنا • كما قال الإمـام الغـزالي ••

من أجل هـذا ، كان مبعث قلق عظيم لأهـل الله وأصفيائه ، وكان مناط أشواقهم أيضاً •

إنهم يتذكرون بهـاء وعظمة الحيـاة التي تنتظر المؤمنين بعـد مغادرتهم هذه الدنيا •• فتطير قلوبهم شوقاً إليها •

ثم هم من شدة خشيتهم الله وتوقيرهم إياه يحاذرون أن تقصر بهم أعمالهم ، فيرهبون هـذا الانتقال !!

بيد أن الشعور الأكثر سيطرة على روعهم هو لا ريب الاطمئنان إلى عفـو ربهم ورحمته ونعمته ورضوانه •

ومن ثم فهم والموت في صداقة حميمة ، يحبونه •• وينتظرون مقـدمه في حبور وشـوق •

قيل للإمام « الجنيد » : إن « أبا سعيد الخراز » كان يفيض وجْداً عندما حضرته الوفـاة •• فقال :

« ليس بعجيب أن تطـير روحه اشتياقاً » !!

إنهم أصدقاء الموت وعشاقه ، ما دام الدليل الذي جاء يأخذ بأيديهم إلى ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر من نعيم الله وعطائه .

يقول « علي بن سهل الأصبهاني » :

« أتظنون أني أموت كما يموت الناس ؟.. إنما أدعى ..
فيقال لي : يا علي ، فأجيب » !!

هذا هو الموت عندهم.. دعوة من الملأ الأعلى يسارع المؤمن الى تلبيتها جذلان ، نشوان !!

ومن عجب أن « ابن سهل » مات كما تنبأ .. فذات يوم وهو يسير بين نفر من إخوانه ومريديه .. وقف فجأة وصاح : لبيك .. ثم مال على أكتاف صحبه وفاضت روحه ..

أعجيب إذن أن تضجرهم الدنيا ، وأن يضيقوا بها ، ويهربوا منها ويتعجلوا الرحيل عنها ، مادام أمامهم ومن ورائها ذلك الخلود المفعم بالمباهج والرضوان؟؟!!

• • • • • • •
• • • • • • •

ترى .. ماذا كان موقفهم العملي في الحياة ؟ هؤلاء الذين اتخذوا من الزهد ومن الورع سفينتهم ، يبحرون بها الى المرافىء البعيدة والسعيدة ..

هل عاشوا لأنفسهم وحدها ، عاكفين عليها ، مولين ظهورهم للناس ولمشاكلهم .. ومحايدين القوى والأوضاع التي تدفع تيار الحياة في الدولة والمجتمع ؟؟

لقد قهر « أهل الله وأولياؤه » الدنيا ، كما لم يقهرها أحد ..

ولقد صاروا ملوكها حقاً حينما نبذوها وراءهم ظهرياً واتخذوها معبراً ، لا مستقراً .

وكان موقفهم من إغراء السلطان وصولة السلاطين آية ما مثلها آية على عظمة النهج الذي شكل زهدهم في الدنيا ، وهدى خطواتهم الراسخة فوق أرضها وبين أهليها .

لقد كانوا يرون أنفسهم وهم في أسمالهم البالية فـوق كل ملوك الأرض وكبرائهم . لا صلفاً أو غطرسة . بل توقيراً لنعمة الله عليهم وحفظاً لحقها ..

إن الله العلي القدير قد كرمهم في كتابه أبلغ تكريم ..

لطالما ضمهم الى جلاله الأعلى وهو يتحدث عنهم فيقول سبحانه :

« أوليـــائي » !!....

ماذا في الدنيا وفي ألف دنيا مثلها ، من تيجان ، وسلطان ، وثراء ، وجاه .. لا أقول يعدل . بل يحدث نفسه بالاقتراب من هذا الشرف الأسنى والأسمى !!.

صحيح أنهم لم يضعوا أنفسهم قط في هذا المقـام من الولاية .. وكانوا يرفضون في قوة كل إطراء لهم بهـا .. وكان إحساسهم الجياش بجلال الحـق سبحانه يجعلهم في أعينهم ضئالا .. لكن رغم هـذا كله ، فقـد كان تقديسهم للرداء الذي كساهم الله إياه قميناً بمنحهم ذلك الشعور الواثق الذي يضع كل مغريات السلطان والمـال والدنيا تحت أقدامهم .

ولم يكن حياؤهم الشديد من الله ، وتلاشيهم أمام جـلاله ليغير شيئاً من حقيقة أنهم أولياؤه المتقون والمقربون .

* * *

إن موقفهم من السلطان ومن الحكام ، ملوكاً أو ولاة ، يبـدأ بالاستغناء المطلق عنهم .. فكل ما بأيديهم من نفوذ ، وجاه ، ومناصب وأموال . أشـياء ودعها « أهـل الله » من زمان بعيد وكبروا عليها تكبيرات الموت ، ولم يفقدوا الرغبة فيها وحسب .. بل صارت ذات رائحة كريهة تملأ نفوسهم بالغثيان ..

بل أكثر من ذلك رأينا الكثير منهم رضي الله عنهم ، لا يهـرب من الوباء القاتل الكاسح حين ينزل بلداً هم فيه.. بينما أخبار هروبهم من المناصب الكبرى التي تفرض عليهم ومن العطايا التي يرسلها الحاكمون إليهم ، بل ومن المـودة الملحفة التي يعرضها عليهم الأمراء .. أقول إن أخبار هروبهم من ذلك كله تزدحم بها كتب التاريخ ، هم الذين لم يكونوا يهربون من الأوبئة الفاتكة الماحقة .

واستغناؤهم عن الأمراء وعما في أيديهم يتمم لنا ــ كما قلنا من قبــل ــ صورةً الزهد الذي اختاروه لأنفسهم •

ولنطالع هــذا النبأ وبطله « صفوان بن سليم » :

« قدم سليمان بن عبد الملك المدينة وأمَّ مسجدها فرأى في زاوية المسجد رجــلا يصلي ، فبهره سمته فسأل عنــه ، فقيل له : إنه صفوان بن سليم •

فأمر تابعه أن يذهب إليه بكيس فيه خمسمائة دينار ووقف التابع بعطــاء الخليفة أمام صفوان وقال له : إن أمــير المؤمنين يرسل إليك هــذه •

فعجب صفوان وقال له : لقد أخطأت ياولدي أنا الذي أرسلك اليه ••

قال التابع : أوَلست صفوان بن سليم ؟• لقد أشار بيده نحوك وسماك لي باسمك •

قال صفوان : إذن فاذهب واستوثق منه مرة أخرى ••

وعاد التابع صوب الخليفة الجالس هناك في ركن قصي من المسجد••

وعندئذ تسلل صفوان من المسجد ، واختفى من المدينة كلها •••

ولم يظهر إلا بعد أن غادرها الخليفة سليمان » !!•

هــذا نبأ يغني عن أنباء كثيرة ، لنرى كيف ، وإلى أي مدى ، وبأي صدق كانوا يرفضون « الهبات الملكية » ويهربون منهــا !!•

لقــد كانوا يرون في قرع أبواب ذوي السلطان والحكم نقصاً في الدين لا يكاد يضاهيه نقصان ••

ها هو ذا « جعفر الصادق » رضي الله عنــه يقول :

« الفقهاء أمناء الرسل ، فإذا رأيتموهم يقرعون أبواب السلاطين فاتهموهم » ••

وهــذا « ميمون بن مهــران » يقول :

« لا تعرف الأمــير • ولا تعرف مَن يعــرفه » •

وهــذا « سعيد بن المسيب » يقول :

« لا تسلأوا أعينكم مــن أعــوان الظلمة إلا وقلوبكم منكــرة حتى لا تحبط أعمــالكم » •••

ولكن ، لماذا يتوقون القرب من الخلفاء والأمراء والوزراء كل هذا التوقي، ولماذا يهربون منهم كما لو كانوا ذئاباً ستختطف منهم إيمانهم ، وتقواهم •

إن «با حازم سلمة بن دينار » رضي الله عنه يعطينا لذلك تفسيراً •

لقد كان « الزهري » إلى جانب صلاحه وتقواه عالماً كبيراً وفقيهاً ومحدثاً•• وكانت له بين الناس مكانة العلماء الهداة •• وكان موضع احترام الخليفة عبد الملك بن مروان ــ ولقد بادله الزهري هذه المودة فكان يزوره ويحضر مجالسه•• ولم يشفع صلاحه ولا خلقه لدى « أبي حازم » • وكان الزهري يجله إجــلالاً كبيراً •• فكتب « أبو حازم » إليه يقول في رسالة مطولة ، نقتطف منها هــذه الفقــرات :

« عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن ، ورحمك من النار ، فقــد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك بها أن يرحمك منهــا •

لقد أثقلتك نعم الله عليك ، بما أصح من بدنك ، وأطال من عمرك، وفقهك في دينــه ••

اعلم أبا بكر أن أدنى ما ارتكبت وأعظم ما احتقبت ، أنك آنست الظــالم ، وسهّلت له طريق الغي ، بدنوّك منه حــين أدنيت •• وإجابتك له حــين دُعيت ••

لقد جعلوك قطباً تدور رحى باطلهم عليك ، وجسراً يعبرون عليه إلى ضلالتهم وتعللاتهم ••

يدخلون بك الشك على العلماء ، ويقتادون بك قلوب العامة إليهم •• وما تبلغ من نفوسهم مكانة أخص وزرائهم وأقوى أعوانهم ، إلا

بقدر ما تروّج لفسادهم ، وتسوق الخاصة والعامة إليهم ..
فما أهون ما عمروا لك ، في جنب ما خربوا عليك ..
وما أقل ما أعطوك ؟ في كثير ما أخـذوا منك » !!...

بهذه الكلمات التي تشرح نفسها ولا تحتاج من الايضاح لمزيد ، يفسر « أبو حازم » موقفهم الصارم من صحبة الحكام ، بل ومن مجرد معرفتهم ..

ترى ، هل يمكن لمن هذا موقفه من زيارة السلاطين والولاة . أن يقبل ولو بجدع الأنف أن يكون سلطاناً ، أو والياً ؟.

لا .. ودون ذلك كل ما بين نواجذ الهول من آلام ..!

لقد كانوا يجلدون ، ويسجنون ، وينفون .. مؤثرين ذلك كله على قبول المناصب التي يتهالك الحمقى عليها تهالك الذئاب .

انظروا .. هذا « ميمون بن مهـران » يقول :

« وددتُ أن إحـدى عينيّ ذهبت وبقيت الأخرى بها ، وأني لم أتولَّ ولايـة قط ..
قيل له : ولا لعمر بن عبد العزيز ؟
قال : ولا لعمـر بن عبـد العزيز » !!

إنه نادم على بضعة أيام قضاها والياً يمضي على صراط مستقيم . وإنه يؤثر ذهاب بصره إلا شعاعة تبقى ليبصر بها طريقه بين داره والمسجد ، على أن يكـون والياً..حتى لعمر بن عبد العزيز..الذي هو « عمر بن عبد العزيز » ولا نزيد !!.

وهـذه صورة أخرى لقديس آخر ، بطلها « أبو وائل شقيق بن سلمة » ..

يقول المعلى بن عرفان :

« كنت مع أبي وائل حين جـاء رجل فقال له : إن ابنك قد عيِّن والياً على السـوق ، فقال : والله ، لو جئتني بنبأ موته لكان أحب إليّ ..
لقد كنت أكره أن يدخل بيتي من ولِّيَ لهم عملا » .

ولقد عين أحــد أبنائه « قاضياً » فقال لخادمه يوصيه : « اذا جاءك ابني بشــيء فلا تقبله منــه » !!٠

كانوا ــ رضي الله عنهم أجمعين ــ يستعذبون العذاب في سبيل ألا يطوقوا بمسئوليات مناصب يعلمون تمام العلم أنهم لن يستطيعوا أن يرفعوها إلى مستوى ورعهم وتقواهم ٠٠ ومن ثم حــق لهم أن يتركوها وينبذوها ٠

بل ــ ويا عجباً ــ لم يكن بعضهم يرى في هذه التضحية حتى مجرد فضيلة ومثوبة ٠٠ بل كان ينظــر للألم الذي ينزله به تعذيب الطغاة تذكــرة وذكرى لعذاب النــار يوم القيامة !!٠

ولندع « الزهري » يقص علينا هــذا النبأ عن « زين العابدين علي بن الحسين » عليه وعلى أبيه وأهــله صلاة الله وسلامه ٠٠

لقد كان « عبد الملك بن مروان » قد استدعاه من المدينة الى الشام ليقيم بجواره ، ورفض ٠٠ فحمله الحرس بالقوة وأثقلوه بالحديد ٠ وقبل رحيلهم به طلب « الزهري » أن يزوره ٠٠ وكانوا يعرفون مكانته عند الخليفة فأذنوا له ٠٠ ولندعه يكمل النبــأ العجيب :

« ٠٠٠ دخلت عليه وهــو في قبة ، والقيود في رجليه ، والغل في يديــه فبكيت ٠٠

وقلت له : وددت لو أني مكانك ولا يصيبك مكروه ٠٠

فقال لي : يا زهري ٠٠ أتظن هــذه السلاسل تكربني ؟٠ أما إني لو شئت ما كان من ذلك شــيء ٠٠

ثم هز يديه فانفرج الغل ٠٠ وهز قدميه فتفسخ القيد ٠٠

وعــاد يقول : ولكن دعها تذكرنا عذاب الله » !!٠

هــذا القديس الأعزل ، يدخل على عبد الملك بن مروان ذات يوم ويمكث معه لحظات ، ثم ينصرف فيتنفس الخليفة الصعداء ويقول لمن حــوله :

« والله لقــد امتــلأ قلبي منه خيفــة » !!

ولقد كان من أولئك الأبرار من يرفض تلك المناصب بالحيلة والدهاء ؛ حتى ينجو من التعذيب الذي يتعرض له الآخرون ..

فهذا « يزيد بن مرثد » أراد الوليد بن عبد الملك أن يوليه عملا .. ورأى أن قد أحيط به فماذا يصنع ؟.. إنه لا يحتمل عذابهم ولا سجونهم . وفي الحيلة متسع للهـروب .

وهكذا جـاء بجلدة خروف مدبوغة وكساها ظهره جاعلا الجلد على الظهر والصوف خارجه .. وسار في الطرقات بلا قلنسوة ولا نعل . متظاهراً بالجنون . حتى نقلت أنبـاء علته هـذه الى الوليد ، فولى غيره .. وبعدها شفي الشيخ من الجنون !!.

* * *

وقد يكون وجود الأمويين على رأس السلطة يومئذ من الأسباب القويـة لرفض الصالحين من عبـاد الله ولاية المناصب الحاكمة .

بيد أن ذلك لا ينفي أبداً وجود ذلك العزوف بل ذلك الرفض للسلطة أياماً تكن قمـة الهرم فيها ـ أموية .. أم عباسية ..

ألم نسمع من قريب قـول قائلهم :

« ... ولا لعمـر بن عبـد العـزيز » ..

ثم لقـد كانوا كذلك في غـير عصر الأمويين ..

فلماذا كان ذلك كذلك ؟ وبم نفسر ذلك الرفض المستمر ؟؟

ها هي ذي عبـارة تفسره بعض الشيء ، يقولها « مكحول الشامي » :

« لأن يضرب عنقي ، أحب إليَّ من أن أليَ القضاء ...

ولأن ألي القضاء ، أحب إليَّ من بيت المـال » ..

فمن روح هـذا الرأي الحكيم نرى رجلا لا يهرب من المسئولية ؛ وإنمـا يهرب من احتمال الخطـأ فيها .

إنه في القضاء عرضة لأن يخطىء في حكم أو تلتبس عليه الأمور .. وذلك عنده أمر أهون منه الموت ، حتى وهو يعلم أن مَن اجتهد وأخطأ فله أجر !!

ولكن إذا لم يكن من الولاية بد ، وكان له الخيار . فالقضاء أحب إليه وأيسر عليه من بيت المـال .

والأمر في هـذه المفاضلة راجع الى تقديره .. والذي يعنينا هنا ما يفيئه علينا حديثه من تفسير لجزعهم من أن يكونوا ولاة وحكاماً .

* * *

وهنا سؤال يواجهون به لا محالة .. فإذا ترك الصالحون الورعون أمـور الحكم ، ففي يد مَن ستسقط ؟.. في يـد الآخرين الذين ليسوا بصالحين ، ولا ورعين طبعاً ، فهل بهـذا الموقف يكون « أهـل الله » قد خدموا القضية التي يعيشون من أجلهـا ؟.

وفي تقديري أنهم باديء ذي بـدء لا يرفضون هذا السؤال فحسب ، بل ويرفضون الحـق في توجيهه .

فكما أن ورعهم وتقواهم لا يؤهلانهم ــ بالضرورة ــ لأن يكونوا أطبـاء أو مهندسين مثلا ، فكذلك لا يؤهلانهم لأن يكونوا حكاماً .

لقد خصص أولئك الأبرار وتبتلوا لغاية أبعد ما تكون عن الحكم ومشاكله .

ثم انهم لا يقبلون ولو أنزل بهم كل عـذاب أن يتخلوا عن ذرّة من ذلك التفوق الروحي الذي أحرزوه .

إنهم يمارسون مسئوليتهم عن أنفسهم في مستوى عـالٍ من الورع .. وبالتالي ، فحين يحملون مسئولية تجاه غيرهم من الناس فلا بد أن يحتفظوا بذلك المستوى لأنفسهم على الأقل إذا لم يستطيعوا أن يرفعوا إليه الذين سيَلون أمرهم .

وهذا موضع شكهم الكبير ــ لا سيما في العهود التي عايشوها .. أيـام الأمويين والعباسيين ، حيث فتحت الدنيا على الناس كل مباهجها وفتنتها وخطاياها .

ولقد رأينا كيف كان بعض أصحاب رسول الله يهربون من مناصب الولاية في عهد « عمر بن الخطاب » إمام الأئمة في ورعه وعدله وتقواه •• أفيُلام أولئك الذين يهربون منها بعد أن تحولت الخلافة الراشدة الى ملك عضوض ؟!•

* * *

ثم إن « أهل الله » في موقفهم هذا ، لم يعدموا التجربة التي تزيدهم تصميماً على موقفهم ، فقد قبل بعضهم الولاية راجياً أن ينقل إليها بعض فضائل القــوم وورعهم •• فما كانت تنقضي شهور ، وربما أيام حتى يفر بدينه !!•

هــذا « هرم بن حيان » يقبل العمل كأمير لإحدى الولايات •• فكان أول ما مــلأ نفسه غثياناً وجزعاً ، ذلك الملق الذي أحــاطه به صغار النفوس ــ وما أكثرهم !!ــ ولكنه تصرف بسرعة •• فذات يوم علم أن بعض الوفود قــادمة لزيارته • فنهض وأوقد ناراً عظيمة أمام داره ، وأخذ كلما خبت زادها وقوداً !!•

وجاء الوفد •• ووقفوا من وراء النــار يحيونه •• وهو يبتسم لهم ساخراً ويقول : مرحباً •• اقتربوا ••

قالوا : ما نستطيع من النار •• إنهــا تحول بيننا وبينك •

وهنا ناداهم بصوت جهــير :

« إنكم تريدون أن تقذفوا بي في نار أشد من هــذه وأعظم •• نــار جهنم » !!

وأدركوا ما يريــد ، ورجعوا بسلام ••

ومضت أيام ، وهو يظن أنه سيصبح قادراً على تحقيق بعض ما يريد ••

ثم جاء يوم غضب فيه على رجل لأمر يستدعي الغضب ، فقام إليه وضربه••

ثم لم يلبث أن أخــذه ندم قاتل ، وصاح فيمن حوله :

« لا جزاكم الله خيراً ، إذ لم تنصحوني ولم تردوني عن غضبي •• والله لا ألي لكم عملا » !!•

ثم ترك الولاية من فوره ••

إنهم إذن مهما يحاولوا لا يستطيعون أن يحيوا إلا في منـاخ آخر . خلـق لهم وخلقوا له .

ومع هذا ، فهل يحسب حاسب أن في موقفهم ذاك أدنى قدر من السلبية ؟.

هيهات أن يصح ذلك ، ثم هيهات ..

فأولئك الذين استعلوا على مناصب يتهافت عليهـا الناس ويتهالكون لم يكن يفزع الخلفاء والسلاطين من خطر ، مثلما تفزعهم أصواتهم الجهيرة تزجرهم عن الظلم وتحقر كل ما معهم من قوة باطشة وجـاه عريض ..

لقد كانت مواعظهم اللافحة تدق قلوبهم بعنف، وتقرع أسماعهم في دوام.. لا مجاملة ولا مصانعة !!

ومن خلال مواعظهم تلك ، نقف على خط من فلسفتهم وأفكارهم حـول وظيفـة الحكم وواجبات الحاكم .

هذا « أبو مسلم الخولاني » رضي الله عنه ، يدخل على « معاوية » وهو من هو بأساساً وملكاً وقوة .. بطانته حافون حوله ، فحياه « أبو مسلم » قائلا :

« السلام عليك أيهـا الأجـير » .

وتتراكض الحاشية في فـزع مما سمعت . ويقولون لأبي مسلم هامسين : قل : أيها الأمير .. فيعيد « أبو مسلم » الكرة ..

« السلام عليك أيهـا الأجـير » .

فيقول « معاوية » لصحبه : دعوه ، فإن أبا مسلم يعرف ما يقول : ويواصل « أبو مسلم » حديثه لمعـاوية :

« إنما مثلك مثل أجير اؤتمن على ماشية ليحسن رعيها ، ويوفر ألبانها ، وينمي الصغيرة ، ويسمن العجفاء ..

فإن هو فعل ، استحق أجـره وزيادة .

وإن لم يفعل نزل به عقاب مستخلفه ولم ينل أجـراً ..

يا معاوية !! إنك إن عدلت مع أهل الأرض جميعاً ، ثم جرتَ على

رجــل واحد ، مال جورك بعدلك ..
يامعاوية !! لا تحسبن الخلافة جمع المال واغداقه إنما الخلافــة ،
العمل بالحق ، والقول بالمعدلة ، وأخذ الناس في ذات الله ..
يا معاوية !! إن الناس لايبالون بكدر الأنهار ماصفا النبع وطاب..
وإن مكان الخليفة من الناس ، مكان النبع الذي يرجون صفاءه »!!

* * *

بمثل هذه الروح ، كانوا يتعاملون مع أولي الحكم والسلطان ، يعظونهم ويجاوزون الموعظة الى الزجر عندما تدعو للزجر دواعيه .

وهم بهــذا إنما يشاركون ــ حقيقة ــ في حمل كل تبعات الحكم الــذي رفضوا مناصبه .. فالحكم قــد يكون محصوراً في وظائفه ومناصبه من ناحية الشكل . أما من حيث الموضوع والمسئولية ، فكل مشورة صادقة تقدم إليه .. وكل نصيحة جادة تسعى إليه .. وكل معارضة أمينة تتوخى تقويمه .. كل أولئك إنما يشكل مشاورة حقيقية وفعالة في حمل مسئولياته الثقال .

يقول « أبو مسلم الخولاني » :

« لا يصلح الناس إلا بإمــام . ولا يصلح الإمــام إلا بالناس » .

فهم إذن لا تغيب عنهم ضرورة أن يكون للناس إمام ورئيس دولة يحمــل مع الآخرين تبعات السلطة الممنوحة له من الأمة ليحقق لها أسباب الحياة العادلة الصالحة الكريمة .. وكذلك لا تغيب عنهم ضرورة أن يكون الناس شــركاء في الحكم ، وأن يكونوا من الجدارة والاعتصام بالحق والعدل والخير الى الحــد الذي ينعكس فيه ذلك كله على إمامهم .. (فكما تكونوا يُوَلَّ عليكم) .

وكما قال أبو مسلم (ولا يصلح الإمام إلا بالناس) .

فالحكم عنــدهم إذن يحلق بجناحين ــ الحكومة والشعب .. ومسئولية الحكم مفروضة على الحاكم والمحكوم معاً ..

وإذا كان « أهل الله » يهربون من مناصبه ومغانمه ومباذله ، فقد استبقوا

لأنفسهم المشاركة في المسئولية عن طريق معارضتهم الشجاعة لكل انحراف ، وتنديدهم الصارخ بكل جنوح .

ولقد كان إخلاصهم الوثيق يفتح لهم قلوب الخلفاء والأمراء طوعاً أو كرهاً .. حتى أولئك الذين كانت قلوبهم موصدة ، كانوا يخجلون ويتضاءلون حين يرون ناساً بسطاء في أسمال بالية يتحدون سلطانهم ، ولا يعبأون بالسيف ولا بالذهب .. وحين كانت كبرياؤهم تدفعهم لاضطهادهم لم يكونوا يأملون قط أن يثنيهم الاضطهاد عن مواقفهم ، إنما كانوا يتوسلون باضطهادهم لتخويف العامة وترويع الناس حتى لا يسلكوا ضدهم ذات السبيل !.

* * *

ولم تكن مجاملة بعض الخلفاء والحكام للكثيرين من « أهل الله وأوليائه » لتحملهم على المهادنة والملاينة .

لقد كان هناك بعض خلفاء بني أمية ــ مثلا ــ مشغوفين بأن يسمعوا مواعظ أولئك الأبرار حتى وإن أحرجتهم وأذلتهم .

أو لا يستحق هذا ، ولو بعض الملاطفة في توجيه النصح والحديث إليهم؟..

إن لكلمة الحق عند « أهل الله » أسلوباً واحداً لا يتغير .. فإن كانت لحاكم متواضع متطلع إلى إصلاح نفسه وحكمه ؛ قالوها رقيقة وادعة .. وإن كانت لمتغطرس صلف ، أو جبار مستكبر لفحوه بها كالسياط المفتولة !

هذا أحدهم ، يقول لمالك بن دينار : ادعُ الله لي ، فيجيبه :

« ... كم من مظلوم بالباب يدعو عليك » ..

وخر ، يسأله الدعاء أيضاً فيجيبه :

« كيف أدعو لكم ، وألف يدعون عليكم أيستجاب لواحد ؛ ولا يستجاب لألف ؟؟ » .

وذاك خليفة آخر ملأ الدنيا بأسه ونفوذه ، تراوغه ذبابة ؛ وكلما هشها سقطت على وجهه ؛ فيتوجه الى « جعفر الصادق » رضي الله عنه بسؤاله ؛ وكان

حاضراً مجلسه ذاك :

« يا أبا عبـد الله ، لماذا خلـق الله الذباب » ؟؟

فيجيبه جعفـر :

« ليذل بـه الجبابرة » !!

ويكتب « زربن حبيش » إلى عبد الملك بن مروان يعظه وينصحه . ثم يقول في آخـر رسالته إليه :

« ولا يطمعك يا أمير المؤمنين في طول الحياة ما ترى من صحتك ،
فأنت أعلم بنفسك . واذكر قول القائل :
إذا الرجـال ولدت أولادهـا
وبليت من كبـر أجسادهـا
وجعلت أسقامهـا تعـودهـا
فذي زروع قد دنا حصادها !! » .

إنه حتى في المرض لايجامله بكلمة مشجعة.. بل ينتهز فرصته ليذكره بالموت، فيقول له : أنت أعـلم بنفسك ، رغم ما يبدو من توهم الصحة .. ثم لا يبشره ، بل يذكره بالمصير المحتوم « فذي زروع قـد دنا حصادها » !!.

* * *

حقاً . لقد كان من رحمـة الله بالناس . ومن آيات توفيقه أن رفض أولئك الأبرار دنيا السلطان والملك ، ووقفوا على منابر من نور الحق يرسلون كلماتهم هذه ، ويتخذون مواقفهم تلك .

لقـد كانوا مرافىء العافية للإيمان وللمؤمنين .. وكانوا الصورة المشرقة والمشرّفة للدين .

وكانوا بنبذهم الدنيا . وبشجاعتهم في الحق . وبولائهم المطلق لله وكلماته . إنما يجددون باستمرار لفضائل الروح شبابها . ويفيئون على الشخصية الإنسانية على اختلاف دينها كل التماسك والصلابة والأمـل ..

وقبل هــذا كله ، كانوا إعلاناً صادقا وبرهاناً وثيقاً على أن القوة الحقة •• القوة الغالبة المنتصرة هي « قــوة الروح » لا قوة العضلات ، ولا قوة المنصب ، أو المــال ، أو الجــاه •

لقد رأى الناس ببركة هــؤلاء الأبرار وبفضل سلوكهم كيف تخضع كل مظاهر القوة والكبرياء لكلمات عزلاء •• كانت مشاهدهم وملامحهم مع الخلفاء والولاة تسري في الديار والأقطــار مسرى الرياح والبشريات فيعب الناس من أنفاسها ما يفجر في أرواحهم أشواقها إلى التسامي والإيمان ، وكان « أهل الله » على إدراك لهذه الحقيقة •• حقيقة أن كل كلمة عادلة وصادقة وشجاعة يقرعون بها أسماع حاكم جــائر ، إنما تمثل وحدها كتيبة من كتائب الهداية والفضيلة والمعــروف •

ولطالما تحدث الناس بذلك الحوار الذي كان يجري بين « أبي حــازم بن دينار » وبين الخليفة الأموي « عبــد الملك بن مروان » فيعتزون به ، ويعزون ، ويرون فيه إعلاناً لسيادة كل مؤمن في كل صقع ومكان • بل إن « الخليفة عبــد الملك » نفسه ، كان ينبهر بروح « أبي حازم » وكلماته ، فلا يترك فرصة يظفــر فيها بمجلس معــه إلا اهتبلها مخاطراً بكل ما تتعرض له هيبته من اهتزاز تحت وقع الكلمات القواطع التي يرسلها « أبو حــازم » في وجــه الخليفة ، ماضيات كالسيوف المرهفــة !!•

ذهب « عبــد الملك » يوماً لزيارة المدينة • ودعى « أبو حازم » للقــائه ، فما كاد يراه حتى دار بينهما هــذا الحوار :

الخليفة : يا أبا حــازم ، ما هــذا الجفاء ؟•

أبو حازم : أي جفــاء رأيت مني يا أمير المؤمنين ؟

الخليفــة : وجوه الناس زاروني ولم تزُرني ••

أبو حازم : ما عرفتني قبل هــذا ، ولا أنا رأيتك •

الخليفــة : يا أبا حازم ، ما لنا نكــره الموت ؟•

أبو حازم : لأنكم عمرتم الدنيا ، وخربتم الآخرة فتكرهون الخروج من العمران الى الخراب .

الخليفة : صدقت .. ترى ماذا لنا عند الله غداً ؟.

أبو حازم : اعرض نفسك على كتاب الله تعرف مكانك غداً ..

الخليفة : وأين أجده في كتاب الله ؟..

أبو حازم : عند قوله تعالى « إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم » .

الخليفة : فأين رحمة الله إذن ؟.

أبو حازم : قريب من المحسنين ..

الخليفة : وكيف لنا أن نصلح أنفسنا ؟.

أبو حازم : تتركون الصلف ، وتتمسكون بالمروءة ، وتقسمون بالسوية ، وتعدلون بين الناس ، وتأخذون المال بحقه ، وتضعونه في حقه .

الخليفة : يا أبا حازم ، ألا تصحبنا ، فننفع بك وتنتفع بنا ؟

أبو حازم : لا ...

الخليفة : ولماذا ؟..

أبو حازم : إني أخاف أن أركنَ إليكم شيئاً قليلا ، فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا أجِدُ لي منه نصيراً .

الخليفة : إذن فارفع إلي حاجتك أقضها لك ..

أبو حازم : تدخلني الجنة ، وتحرم عليّ النار .

الخليفة : ليس ذلك لغير الله ..

أبو حازم : وليس لي حاجة سواها !!

الخليفة : يا أبا حازم ، ما رأيك فينا ؟

أبو حازم : ألا تعفيني من هذا السؤال ؟.

الخليفة : إنها نصيحة تلقيها إلينا .

أبو حازم : إن آباءك اغتصبوا هذا الأمر من الناس .

أخذوه عنوة بالسيف من غير مشورة ولا اختيار ــ يعني بذلك الخلافة والحكم ــ وقد قتلوا من أجله خلقاً كثيرين ، وبعد حين رحلوا ، فلو تدري مصيرهم عند الله ؟!٠٠ » ٠

وهنا ضاق الحاضرون أو بعضهم ، أو تظاهروا بالضيق ، فقال أحدهم لأبي حازم : « بئس ما تخاطب به الخليفة » فلفحه « أبو حازم » بصوت غضوب :

« كذبت ٠٠ إن الله أخذ على العلماء ميثاقه ليُبينُنَّ للناس أمره ولا يكتمونه !! » ٠

وأمسك الخليفة زمام الحديث مسرعاً قبل أن يفلت الزمام ويتفجر غضب « أبي حازم » فتكون كارثة !!٠ وعاد يسأله النصح ٠

الخليفة : يا أبا حازم ، أوصني ٠٠٠

أبو حازم : نعم سأوصيك وأوجز ٠٠

« نَزِّه الله تعالى وعَظِّمه ، بحيث لا يراك حيث نهاك ٠٠٠ ولا يفتقدك حيث أمرك » ٠٠

وهمَّ « أبو حازم » بالانصراف ، فقد منح الخليفة من وقته الثمين ما لم يكن سيظفر منه لولا رغبة « أبي حازم » في أن يوقظه بتلك الكلمات ٠

وإذ هو ينهض ذاهباً ، تناول الخليفة صرة منتفخة بالدنانير، وقال لأبي حازم على استحياء : ألا تقبل منا هذه ؟

ونظرها « أبو حازم » باشمئزاز وقال :

« والله ما أرضاها لك ، فكيف أرضاها لنفسي » ؟٠٠

يريد بذلك أنها ليست حلالاً فيرضاها للخليفة ينفقها على دنياه ٠٠ فكيف إذن لأبي حازم ، والدنيا كلها لا تزيد في نفسه عن حفنة تراب ؟!٠٠

ولأهل الله في هذا المقام مواقف كان أبطالها على يقين من أنها ستنتهي بقتلهم واستشهادهم فما جزعوا وما لانوا ٠٠ ولا تلفتوا باحثين عن خلاص أو نجاة ٠٠

ذلك لأنهم لم يروا الخلاص قط في استبقاء الحياة ؛ بل في استبقاء إيمانهم وفضائلهم واستعلائها فوق الحياة !!.

من هذا الطراز ، وتلكم المواقف ، «سعيد بن جبير» وموقفه من الحجاج..

لقد صمم الحجاج على قتله ، بيد أنه أراد أن يتم مصرع « وليّ الله سعيد » في مشهد درامي يشبع جوع الحجاج وسعاره الى التشفي والانتقام .. كما أراد أن يسترد بعض هيبته بكلمات ظن أن رهبة الموت ستدفعها على لسان « سعيد » في استكانة أو تلطف . لكن « سعيداً » أمام الهول والموت فاجأ الحجاج بما جعله أهون من ذبابة !!.

ولنطالع هذه الفقرة من حوار طويل دار بينهما :

الحجاج : ما اسمك ؟..

سعيد : سعيد بن جبير ..

الحجاج : بل شقيّ بن كسير ..

سعيد : أمي أعلم باسمي منك ..

الحجاج : شقيت وشقيت أمك !!

سعيد : الغيب يعلمه غيرك ..

الحجاج : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظّى .

سعيد : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً !!.

الحجاج : الويل لك يا سعيد ..

سعيد : بل الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخِل النار ..

الحجاج : اختر لنفسك نوع القتلة التي تريد أن تقتل بها .

سعيد : بل اختر أنت يا حجاج ، فوالله لا تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة !!

وتلعثم الحجاج في خبالة ، وفي المهانة التي أنزلها به رجل أعزل تفصله عن القتل والموت دقائق معدودات ، وصاح في حرسه ليذهبوا به ويقتلوه ..

وهنا ضحك « وليّ الله سعيد بن جبير » ضحكة عريضة عالية . زادت الطاغية جنوناً ومهانة . فصرخ في وجهه : ما يضحكك ؟..

وفي هدوء المحيط وقوته أجاب « سعيد » :

« جراءتك على الله . وحلم الله عنك » !!

واقترب الجلاد بسيفه ليطوح برأس سعيد فما اختلج ولا اهتز له جفن ، بل راح يتلو الآية الكريمة :

« وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين » .

وصاح الحجاج في جلاده ليدير « سعيد » عن ناحية القبلة ، إمعاناً في التنفيس عن مهانته ..

ولم يكترث « وليّ الله » أيضاً ، وتلا الآية الكريمة :

« ولله المشرق والمغرب . فأينما تولّوا فثَمَّ وجهُ الله » .

وفقد الحجاج آخر مسكة في عقله فصاح : كبوه على وجهه ..

وفي يقين « أهل الله الأبرار » تلا « سعيد » الآية الكريمة :

« منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

ثم سجى بصره ودعا ربه قائلا :

« اللهم لا تسلطه على أحد بعدي » .

عند مَن ـــ غير أهل الله ـــ نجد كل هذا السمو يا رجال ؟.

إنه في لحظة الهول هذه لا يشغله مصيره .. بل مصاير الآخرين الذين يتلمظ بهم جنون الحجاج وبطشه .

إنه في لحظة الهول هذه ، لا أمنية له ولا رجاء ولا دعاء سوى أن يكون آخر ضحايا الطاغية ، وأن يحمل وحده النير الذي ينتظر الآخرين ..

ولقد استجاب الله دعاءه ، فلم يعش الحجاج بعدها سوى خمسة عشر يوماً ،

قضاها في علة قاتلة لم تمكنه من قتل أحـد بعد سعيد !!.

ترى : أيـة قوة مقتدرة كانت تسـلأ أرواح أولئك الأبرار ؟ إنهـا قوة الإيمان بالله . والفهم عن الله ..

أما الإيمان فتركهم يوقنون أن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم . وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم .. ودائماً وأبداً لن يصيبهم إلا ما كتب الله لهم ..

وأما الفهم عن الله . فقد جعلهم يدركون حقيقة هؤلاء الخلفاء والأمراء .

إنهم ليسوا سوى ناس كبقية الناس .. وإذا كان أحدهم يستطيع بسلطانه أن يقتل . فإن أي معتوه من الناس الذين يملأون الطرقات يستطيع هو الآخر أن يقتل حتى دون أن يقع من المقتول ذنب . أو جريرة ..

إنهم — أبداً — لم يروا في أولئك الحكام العظام جبروت السلطة . ولا تيجان الملك .. بل رأوا ضعف الانسان . ومذلة الخطيئة !!

أجـل .. إن حسن فهمهم عن الله سبحانه . أعطاهم حقيقة هؤلاء الذين يختفون وراء سلطانهم وسيوفهم وسجونهم أضعف الأنفس وأكثرها فزعاً وهواناً !!

لقـد قال أحـد الأبرار :

« ذنوب بني أمية . أسرع إليهم من سيوف المسلمين » .

ولكم كان صادقاً . فظلم الحاكم الجائر . هو السيف الذي يهيأ لتقطع رقبته.. وكلما أوغل في ظلمه . كان ذلك شحذاً للسيف وإرهافاً لحـده !!.

من أجل ذلك. نرى « أهل الله » وهم يلفحون الجبارين بنصحهم وتنديدهم إنمـا يقفون منهم موقف الرثاء لهم لا الشماتة فيهم . لأنهم يعلمون أنهم ضحايا حمقهم وجهلهم وظلمهم وكبريائهم الكاذبة الخادعة . فلو كان معهم وعي وبصر ، لعلموا أنهم أثقل الناس أحمالاً بما وضع فوق كواهلهم من تبعات .. وليسوا أكثر الناس شرفاً ولا امتيازاً ..

ولقد كان « أهـل الله » حريصين على تذكيرهم دائماً بهذه الحقيقة فهـذا — مثلا — « مالك بن دينار » يقول له المهلب بن أبي صفرة :

ــ ألا تعرفني ؟••

فيجيبه « مالك » :

ــ بلى ، أعرفك حــق المعرفة ••

فيسأله المهلب :

ــ وماذا تعرف مني ؟•

ويجيبه « مالك » :

ــ « أمّا أولك ، فنطفة مذرة •• وأما آخرك ، فجيفة قذرة •• وأنت بين أولك وآخرك ، تحمل العذرة » •

إن « مالكاً » رضي الله عنه لا يشتمه ولا يتهكم عليه ولا يسخر به •• إنما هو يذكّره بحقيقته ، التي هي حقيقة كل فرد من بني آدم ••

فكل واحــد منا •• يبــدأ وجوده من نطفة مذرة لزجة •

وكل واحــد منا •• ينتهي في القبر الى جيفــة ••

وطوال العمــر الذي نقضيه بين ميلادنا ورحيلنا نحمل أمعــاء ملأى على الدوام بالفضلات الكريهة ••

فلو أن كل جبار في الأرض يذكر حقيقته تلك لأعانته على تواضع كريم ••

أما وهم لحقيقتهم ناسون ، فإن « أهل الله » يذكرونهم بها في صدع اليقين !!

ولقد تصدى « طاووس » رضي الله عنه يوماً لواحــد من أولئك الحــكام الأشداء •• وأخذ ابنه عليه خيفة ، فاقترب منه وهمس في أذنه ، يخبره أن هــذا الذي أمــامه هو حاكم خراسان •

فقال « طاووسَ » لابنه : « إني لأعرفه •• وإنما ألقّنه هذه الكلمات ليعلم أن لله عباداً لا يعبأون بما في أيديهم من دنيا وسلطان •• وأن سلطانهم بغير تقوى لا يزيدهم في أعيننا إلا هــواناً !! » •

في هــذه الصورة السريعة ، والمختارات المقلة من فلسفتهم تجــاه الحكم وأفكارهم عنه ــ نرى قومــاً يبلغون الذروة في أداء ما ائتمنوا عليه من رعــاية أنفسهم ومبادئهم وحقوق الناس عند ذوي البأس والسلطان •

• • • • • • •

• • • • • • •

ولقـد كانوا يرون في موقفهم ذاك من السلطة جهاداً كتبه الله عليهم ..

ولقد كان الظن بهؤلاء الذين لاذوا بشعاف الجبال فراراً بأنفسهم من الفتن: أن يحصروا جهادهم في جهـاد النفس ــ فما شغلهم في حياتهم مثل نفوسهم التي لم يكونوا يرضون لهـا دون الكمال مقاماً .

هـذا الجهاد . الذي أسماه الرسول عليه السلام ــ بالجهاد الأكبر ..

لكن « أهـل الله » وقد تحقق لهم « التكامل الديني » على أفضل نسق ؛ لم يكن ليفوتهم لله واجب .

ولأنهم نماذج كاملة بحق ، للإسلام كله ــ روحانية وشريعة ــ فقد رأيناهم فـوق أرض القتال في المعـارك التي كانت تدور بين الإسلام وخصومه أكثر المقاتلين غبطة بالموت واستبسالاً فيه !!

ورأينا أفكارهم وكلماتهم عن هـذه القضية أفكار وكلمات أبرار بلغـوا الذروة في حسن الفهم عن الله ، والفهم لدينه .

هـذا « يحيى بن أبي كثير » يقول :

« ست خصال من كُنَّ فيه ، فقد استكمل الإيمان ..

- قتال أعـداء الله بالسيف
- والصيام في الصيف
- وإسباغ الوضوء في اليوم الشاتي
- والتبكير إلى الصلاة في اليوم المطير
- وترك الجـدال والمِراء ، والحق معك
- والصبر على المصيبة .. » .

فهو يجيء بأمور تتصل بالعبادة أساساً ، لكنها تتخذ مع كونها عبادة وسيلة لتربية النفس وتفوقها على ضعفها ..

فهو لا يتحدث عن مجـرد الصوم •• بل عن الصوم في الصيف وهو من مكاره النفس لمـا فيه من إرهاق لهـا •• ولا يتحدث عن مجـرد الوضوء أو الصلاة •• بل عن إسباغ الوضوء أي إتقانه في اليوم الزمهرير •• وعن التبكير للصلاة في اليوم المطير ــ وهما أيضاً من مكاره النفس دائماً أو غالباً •

وهكذا نرى في وضعه « قتال الأعداء بالسيف » على رأس هـذه الخصال الست تبياناً لجزء من فلسفتهم عنه •• فهو ليس فقط ذلك الفرض الديني العظيم، وليس فقط القربى الحافلة لله ولرسوله ولدينه •• بل هــو أيضاً مظهر انتصار النفس على مكاره الطاعات ، الأمر الذي يسعى « أهـل الله » أول ما يسعون لتحقيقه وإحرازه ••

وإنهم ليذكّرون الناس دائماً ، بأن الجهاد في سبيل الله وسيلتهم للنجـاة من عـذابه ••

يقول « يزيـد بن مرثد » :

« عينان لا يمسهما العـذاب

- عين بكت من خشية الله ••
- وعين سهرت من وراء المسلمين » •

يعني عيون المقاتلين التي تسهر لتحمي التخوم وتوفر الطمأنينة ، وتحـقق النصـر ••

كذلك يذكرونهم بأن الجهاد سبيلهم الى الجنة ••

يقول « يحيى بن أبي كثير » :

« موطنان تزخرف فيهما الجنة ، وتزين الحور العين ••••

- عنـــد الصـلاة ••
- وعنـــد القتـــال » •

* * *

ويلح أولئك الأبرار على تمجيد القتـال في سبيل الله إلحاحاً يثير الدهش

حقاً ، فالمهد بهم رجال صوامع ونسك •• لكن مَن ذا الذي يفهم دين الله مثـل فهمهم ؟• ومَن الـذي يدرك مثلهم متى يملأون صوامعهم بالدموع المنثالة من خشية الله •• ومتى يملأون أرض المعارك بدمائهم المهراقة في سبيل الله !•

انظـروا ••••

هذا قديس منهم وبطل « عمرو بن عتبة » رضي الله عنه وعنهم أجمعين •• يخرج للجهاد ضدا لروم وعليه حلة جديدة بيضاء •• يتملاها ويتأملها طـويلا ، ثم يقـول :

« ما أحسن الدم يتحـدر على هـذه !!

وإني سألت الله ثلاثاً ، فأعطاني اثنتين وأنا أنتظر الثالثة ••

- سألته أن يزهدني في الدنيا ، فما أبالي ما أقبل منها وما أدبر •
- وسألته أن يقويني على الصلاة ـ يعني على الاكثار منهـا ـ فرزقنيها •
- وسألته الشهادة في سبيله فأنا أنتظرها وأرجوها » •

ثم اقتحم المعركة كالإعصار ، حتى إذا أصابه أول جراحها نظر إليه فقال :

« انك جرح صغير ، وقد يبارك الله في الجرح الصغـير » !!

بمعنى أنه قد يكون سبباً كافياً للاستشهاد ••

ونال في ذلك اليوم ما تمنى ، ولقي الله في عرس المتقين !!•

وكان قد اشترى قبل خروجه للقتال فرساً بثمن مرتفع أربعة آلاف درهم ، فلاموه على ذلك ، فكان جوابه :

« إن خطوة واحدة يخطوها في سبيل الله ويقربني بها من أعدائه ؛ لأحب إليَّ من أربعـة آلاف درهم » •

بالله كم هم معجزون وباهرون أولئك الأبرار •

إنهم لا يقاتلون وحسب •• بل ويمارسون القتال في نشوة المحب العاشق الودود !!

وإن موقفهم هـذا من الجهاد ليكشف عن تكامل شخصية المسلم والمؤمن والصوفي والولي فيهم على نسط فـريد •

فنفس الهيام والانجذاب والوجـد الذي يغشاهم ويملأ قلوبهم بالفـرح والشوق حينما يذكرون الله ويعبدونه •• نفس هذا الهيام وهذا الوجد هو الذي يعانقون به سيوفهم ، ثم مصارعهم فوق أرض القتال في سبيل الله !!

فعمرو بن عتبة ــ كما شهدنا ــ لا يكفيه مجرد فرس يصلح ليقاتل فـوق ظهره •• بل لا بد أن يتفنن في شرائه ويمهره أغلى المهور والأثمـان ••

ثم ها هو ذا يتملى ثوبه الناصع الذي ارتداه للمعركة خاصة •• ويرى كم هو جميل •• ولكن المشهد لن يكون فاتنا حقاً في نظره إلا إذا ضمخ دمـه القاني هـذا الثوب الجـديد •

ثم يخـرج ، فيداعب جرحه قائلا :

« إنك جرح صغير •• وقد يبارك الله في الجرح الصغـير » !!!

« عاشق يغني لموعـده المرقوب !!

ومتيم بلقـاء الله ، يغـرد لمصيره !!

وكلهم ذلك الرجل •• بل ذلكم « الرجال » ••

فهـذا « شقيق بن سلمة » يقـول :

« لأن يكون لي ولد يقـاتل في سبيل الله ، أحب إليّ من مـائة ألف » !!•••

إنه يتمنى أن يكون له ولد يقـاتل في سبيل الله •• فماذا صنع الذين كان لهم منهم بنون وأولاد ؟

ها هو ذا واحد منهم « صلة بن أشيم العدوي » •• يخرج في غزوةومعـه ولده ، وعند المعركة يتملى وجهه المضيء وشبابه الباهر •• ثم يضمه الى صدره ويدفعه صوب الصفوف الملتحمة وهو يقول :

« أي بني !! تقدم فقاتل حتى أحتسبك » !!

ويندفع الفتى فيقاتل حتى يستشهد •• وأبوه في نشوته العارمة يكاد من البهجـة يذوب ••

ثم ماذا ؟•• صبراً فالإعجاز لم يبلغ بعـد تمامه •• ولسوف يبلغه عندما تذهب النسوة بعـد المعـركة الى زوجة « صلة بن أشيم » وأم الفتى الشهيد ، واسمها « معـاذة العـدوية » •

ذهبن إليها معزيات ، فإذا بهـا تهتف في وجوههن :

« إن كنتُنَّ جئتنَّ لتهنئنني ، فمرحباً بكـنَّ وإن كنتنَّ جئتنَّ لغـير ذلك فارجعن » !!

ويحدثنا « مالك بن دينار » عن أخ له في الله ، هو « عبـد الله بن غالب » وقد رآه بنفسه في إحدى معارك القتال •• يقول « مالك » :

« •• سمعته يقول وقـد تلاحمت الصفوف إني لأرى أمراً ما لي عليه صبراً •• روحوا بنا الى الجنـة •••

ثم كسر جفن سيفه ، وتقـدم فقاتل حتى قُتِل ••

فكان يوجد من قبره ريح المسك ، حتى ان الناس كانوا يحتثون من تراب قبره ويعفرون ثيابهم لتفوح طيباً » !!

* * *

أفهؤلاء من يقال عنهم أنهم يعيشون في عـزلة ؟!!•

أفهؤلاء من يقال عنهم ، أنهم نفضوا أيديهم من مشكلات الناس والحيـاة وعكفوا على أنفسهم وحدها ، لا يعنيهم سواها •

أفهؤلاء ، وقد رأينا نضالهم الباهر في غرفات العرش للخلفاء والملوك تارة•• وفوق أرض القتال مع أعداء الدين والبلاد تارة أخرى •• أفهؤلاء كانوا ــ كما يقال ــ يحيون في عزلة ويعيشون في السحاب ؟•

لننظر الآن ماذا كانت عزلتهم ؟ ماذا كانت حقيقتها ••

وكيف كان فكرهم عنها وموقفهم منهـا ؟••

• • • • • • •

• • • • • • •

يقول « مطرِّف بن عبد الله » :

« أنا أفقر إلى الجماعة من عجوز أرملة ؛ لأنني في الجماعة أعرف قبلتي ووجهي » !!..

هـذه حكمة بليغة نستهل بهـا رؤيتنا لموقف « أهل الله » من العـزلة .. والحق أنهم لم يعرفوا العزلة ، وإن كانوا ــ في تقديرنا ــ قد عرفوا الاعتزال ..

والعزلة ، موقف جانح يحمل صاحبه على الانسلاخ من الجماعة ، وقطـع جميع الخطوط التي تصل المرء بهـا ..

أما الاعتزال فنوع من المراجعة ، يراجع المرء بهـا نفسه ، والناس الذين يصحبهم ويعيش بينهم .

فبمراجعة نفسه ، يعتزل ما يقترف مـن خطيئة ، أو فتور عن الطـاعة .. وبمراجعة الناس، يعتزل منهم الفاسد، وكل من لايكون عوناً على العبادة والخير.

و « أهل الله » كانوا من أنصار الاعتزال بمعناه هذا ... لكنهم لم يكونوا من دعاة العزلة المنهزمة الواضعة بينها وبين الحياة سدوداً شاهقة ..

صحيح أن المريدين في أولى خطواتهم على الطريق ، يحتاجون إلى حيـاة صومعية يربون فيها أنفسهم ويكوّنون إرادتهم الجـديدة .. بيد أنهم حتى في هذه المرحلة لا ينفصلون عن الحياة وناسها ــ فالمساجد ومجالس العلم ومجالس الذكر تجمعهم بالصالحين..ثم إن الاحتكاك الحيوي أحد وسائل التربية الوثقى. لأن فضائل النفس لا تتكوّن في الخواء .. بل في معمعان الحياة وضوضائها حتى يشتد عود هذه الفضائل ، وحتى تصقلها الشدائد والصعاب .

وإذا ما اجتاز المريد والمتعبد هـذه المرحـلة الأولى ، واتسقت شخصيته الصالحة ، بدأت تبعاته حيال إخوانه المؤمنين تشده الى علاقات إنسانية راشدة ، لا تسمح له بالعـزلة أبـداً .

وما يبدو لنا « عـزلة » ليس في الحقيقة إلا كـدأ وجـدأ في السبيل التي اختاروها لأنفسهم ، أو أنعم الله بهـا عليهم ..

نحن نظنهم في « عـزلة » لأننا لا نراهم معنا .. وهم ليسوا معنا ولا بيننا ، لأنهم هناك في مستوياتهم العالية مع قوم من طرازهم يمضون على ذات الطريق.. ومـع ذلك فهم قريبون منا بقدر ما نحسبهم بعيدين .. ومختلطون بنا بقـدر ما نظنهم معتزلين ..

* * *

إنهم يحيون مع الناس وللناس ، ويتخذون من صالحيهم شفعاء إلى الله ..

يقول « مالك بن دينـار » :

« اللهم إن كان أخلق وجهي كثرة ذنوبي ، فهبني لمن أحبَبت من خلقـك » !

ثم إنهم لا يعايشون الحياة والناس فحسب .. بل ويعايشونها على أعـلى مستويات المعايشة والصداقة ..

وإنهم ليرتفعون بمستوى العلاقات الإنسانية إلى ذروة لا يقدر عليها سواهم..

يقول « السرّي السقطي » :

« لا تتم المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر : يا أنا » !

ويتساءل « محمد الباقر » :

« هل يدخِل أحدكم يده في جيب أخيه ، فيأخذ ما يريد ؟..

قالوا : لا ....

قال : إذن لستم إخواناً كما تزعمون » !!

ولطالما عنوا بالعلاقات الإنسانية ، ورسموا لهـا فضائلها ، وحضوا الناس على التواصي بهـا ..

يقول « مالك بن دينار » :

« ليس للملول صـديق » .

مَن ذا الذي يكتشف علاقة الملل بالصداقة في هذه الصورة الباهرة سوى أستاذ في فن الصداقة والعلاقات الإنسانية ؟.

فالملول إنسان عجـول ، قلـق ، منفر ومقبض .. ومن ثم لا يكون لـه أصدقاء .. ولأن « أهل الله » حريصون على إحياء روح الصداقة الفاضلة بـين الناس ، راحوا يحذرونهم من الرذائل التي تقاومها .

والعلاقات بين الناس عرضـة للملاحاة ، ومن ثم لابد من سـعة الصدر والتسامح ..

« إن ظللت تدعو على مَن ظلمك ، فإن الله يقول : هناك آخـر يدعـو عليك ..

فإن شئت استجبنا لك ، واستجبنا فيك ..

وإن شئت وسعكما عفوي يوم القيـامة » ..

ما أروعها من صورة ، وما أبلغها من حكمة .. ليس ذلك فحسب .. بل إن « أهل الله » ليعلمونا أن الإساءة حتى في صورها العنيفة جديرة بأن تنسى .. فالذين يسيئون للناس ، قد ساء من قبل مسلكهم مع الله سبحانه وتعالى .. فما نحن في الميزان تجـاه رب العالمين ..

يقول « عبد الله بن أبي زكريا » :

« ما نقضوا من عهـد الله أكبر مما نقضوا من عهـدكم » ..

وحكمة أخرى يستنبطها من الأعماق أولئك الأبرار .. هي أن الذي يقضي حياته بمنجى كامل من السفهاء إنسان فقَدَ الكثير من أسباب عزته .. تصوروا هذا !.

يقول « عبد الله بن أبي زكريا » :

« ذل مَن لا سفيه لـه » .

أين نجـد مثل هـذه الحكمة في عمقها وإشراقها ودهـاء معرفتها بالحياة وبأسرار النفس والناس ؟..

ذل من لا سفيه له ؟.. كيف ؟..

إنه ــ رضي الله عنه ــ ليفهم فهماً جميلا آية القرآن الكريم :

« وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين » .

إن هذا العدو ، أو هذا السفيه هو الذي يظهر للملأ شموخ فضائلك .. ثم مَن هذا الذي تخلص حياته من عدو يكيد له ، أو سفيه يسلط عليه إلا أن يكون قد تناهى في ضآلة الشأن وتفاهة القدر ؟.

ويهتم « أهل الله » بما بين الناس من عهود ، وبضرورة التناصح حتى يعيشوا إخواناً آمنين .

يقول « بكر بن عبد الله المزني » :

« لو قيل لي خذ بيد خير أهل المسجد ، لقلت دلّوني على أنصحهم للناس ..

ولو قيل لي : خذ بيد شرهم ، لقلت : دلّوني على أكثرهم غشاً للناس » .

وكان « ميمون بن مهران » يقول لصاحبه « جعفر بن برقان » :

« يا جعفر . قل لي في وجهي ما أكره ، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له ما يكره » .

ويقول ميمون أيضاً :

« ثلاثة ، حق المؤمن والكافر فيهن سواء :

- الأمانة ، تؤديها لمن ائتمنك عليها من مسلم وكافر .
- والوالدان ، تبرهما مسلمين أو كافرين .
- والعهد تفي به لمن عاهدت مسلماً أو كافراً » ..

ما أبعد هؤلاء الذين يرسمون فضائل الاجتماع عن العزلة .. هؤلاء الذين لم يقدس حقوق الإخاء أو الصحبة أحد مثل ما فعلوا وقدسوا ..

يقول « خـالد بن معدان » :

« أخ لك كلما لقيك ذكّرك بحظك من الله خـير لك من أخ كلما لقيك وضع في كفّك دينـاراً » .

إنهم يجردون الصحبة من المنفعة للدنيا التي تجعلها صفقة رخيصة وتحولها إلى علاقـات مريبة .

وإنهم ليوصون بالتوادد في كل مناسباته ..

يقول « عطـاء بن ميسرة » :

« امش ميـلاً ، عُد مريضاً
امش ميلين ، أصلح بين اثنين
وامش ثلاثـة ، زر أخـاً في الله » .

ويرعون الإخاء بالمشاعر الطيبة الودود التي لا تكلف الناس شيئا ، ومع هـذا لا يحسنون عطـاءها ..

يقول « عروة بن الزبير » :

« لتكـن كلمتك طيبة ، وليكن وجهك بسطاً ، تكـن أحب الى الناس ممن يعطيهم العطـاء » .

و « أهـل الله » يعلموننا أن نحيي الصداقـة بحسن الظن والمبادرة إلى نسيان الإساءة بمجرد الاعتذار عنهـا .

يقول « ميمون بن مهـران » :

« ما بلغني عن أحـد مساءة إلا كان إسقاطها عنه أحب إليّ من تحققها عليـه ..

فإن قال معتذراً : لم أقل ، كان قوله أحب إليّ من ثمانية شهود يشهدون عليه » !!.

ولقد كانوا يضربون الأمثال للناس . ليس في الصفح وحـده .. بل وفي التفوق البعيد على كل مشاعر الكراهية ..

يقول « إبراهيم التيمي » :

« إن الرجـل ليظلمني ؛ فأرحمه » !!...

إنه يرثي لظالمـه ، لأنه إنسان قد شقي بظلمه وأحـل نفسه من التعاسة ونقمة الأقدار مكاناً أصبح يستحق معه الرثاء والرحمة ..

ويقول « إبراهيم » أيضاً :

« رأيتني في المنـام كأني على نهـر ، وقيل لي : اشرب واسقِ مَن شئت ، بما صبرت وكنت من الكاظمين » ...

* * *

ولقد كانوا يضعون على طـريق الصداقة علامات ، يعرف بها الذين يزكو الإنسان بصحبتهم ، والذين ليسوا أهلاً لدخول جنة الصداقة .

فجعفر الصادق يقول :

« إن صاحبت فصاحب الأخيـار ، فإن الفجّار صخرة لا تتفجّر ماؤها ، وشجرة لا يخضر ورقها ، وأرض لا ينبت غرسها » .

ثم يفصّل بعض صفات الأخيار والأشرار فيقول نقلاً عن والده الإمـام « محمد الباقر » رضي الله عنهما :

« قال لي أبي : لا تصحبن خمسة ، ولا تتخذهم لك إخواناً ...

قلت : مَن هـم ؟..

قـال :

- الفاسق ، فإنه يبيعك بأكلة فما دونها ..

قلت : وهل دون الأكلة شـيء ؟..

قال : نعم ، يطمع فيها ثم لا ينالهـا ..

- والبخيل، فإنه يخذلك بماله، وأنت أحوج ماتكون إلى معونته..
- والكذاب ، فإنه كالسّراب ـ يُبعد منك القريب ، ويُدني البعيـد ..

● والأحمق ، فإنه يريـد أن ينفعك ، فيضرك .

● وقاطع الرحم ، فإنه ملعون في كتاب الله » !

فكل هذا الحديث منهم — رضي الله عنهم — عن الإخاء ، وحقوق الجماعة ، إنما يعطي صورة صحيحة لالتحامهم بالجماعة وبالناس .. بل إن كثيراً من وصاياهم الحكيمة في هذا السبيل ، كانت ثمرة تجربتهم الحية في واقع البشر .. حتى لقد أوصوا الآخرين ألا يكتفوا في معرفة الناس والحكم عليهم بالمظاهر العابرة .. بل بالتجربة الذكية ..

يقول « يحيى بن أبي كثير » :

« لا يعجبك حلم امرىء حتى يغضب . ولا أمانته ، حتى يطمع ..
فإنك لا تدري : على أي شقَّيه يقع » ؟!..

والتحامهم بالجماعة وحملهم تبعات بنائها واضح في موقفهم من الأسرة والعائلة .

فأهل الله يستجيبون لروح الإسلام في إثراء الحياة ودعم النوع البشري بالذرية الصالحة . ومن هنا لم تكن الرهبانية ضمن منهجهم الذي انتهجوه للسير إلى الله .. وقلما نجد منهم من لم يكن زوجاً وأباً . بل طالما كانوا يحذرون الشباب الوافد على العبادة والنسك من الاحجام عن الزواج ..

هذا « طاووس بن كيسان » يقول :

« لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج » .

وإنه ليلقى يوماً — إبراهيم بن ميسرة — أحد العبَّاد الزاهدين ، فيقول له :

« لتتزوجنَّ ، أو لأقولنَّ لك ماقاله عمر بن الخطاب لأبي الزوائد :
لقد قال له : ما يمنعك من الزواج إلا عجز .. أو فجور » !!..

* * *

لكن « أهل الله » وقد كان لهم بالناس وبالزمان بصر عجيب ، لم يكونوا

ليتركوا حب الناس وبذلهم النصح والعون لهم ، يأخذهم بعيداً عن المناخ الروحي المفعم بروح الرضوان •

أجل ، لم يكونوا من السذاجة ، ولا من الاستعداد لبخس أنفسهم العالية••

لقد كانوا يعايشون الناس حقاً ، ويوطئون لهم أكنافهم ، ويدأبون فيهم بالنصح ، ويدرأون عنهم ما استطاعوا ظلم حكامهم وجباريهم •

لكنهم كانوا يتجنبون هذر الجماعة وفتنتها •• وكانوا يعرفون تماماً مع مَن يعيشون ويتعاملون ••

لقد قالوا لمالك بن دينار يوماً : ألا تستسقي لنا ؟• فقال لهم :

« أنتم تستبطئون المطر ؟••

وأنا أستبطيء الحجارة » !!

ويقول « مطرف بن عبد الله » :

« لأن يسألني غداً ، لماذا لم أقتل فلاناً ، أسلم لي مِن أن يسألني : لما ذا قتلته » ؟

هنا يبدو اعتزالهم واضحاً •• فالقوم الذين يدفع أحدهم حياته قرباناً لله وثمناً لكلمة حق يصفع بها وجه سلطان جائر ، يعرفون متى يتقدمون ومتى يستأخرون ••

والقوم الذين يتواضعون للناس حتى لكأنهم أدناهم جميعاً منزلة ، يعرفون كيف يحتفظون لذواتهم بصدارة القدوة الصالحة ••

فإذا رأيناهم يتوقون المخالطة حين يفرغون من واجباتهم تجاه الجماعة ، فذلك حقهم المشروع •• بل هو غالباً ما يكون واجباً عليهم ولزاماً ••

يقول « الشعبي » :

« تعايش الناس بالدين زمناً طويلا، حتى ذهب الدين من نفوسهم••

ثم تعايشوا بالمروءة ، حتى ذهبت المروءة ••

ثم تعايشوا بالحياء . حتى ذهب الحياء ..
وهم الآن يتعايشون بالرغبة والرهبة وسيأتي بعد هذا ما هو شرٌ منه » !!

ويقول « أبو مسلم الخولاني » :
« كان الناس ورقاً . لا شوك فيه .. فأصبحوا شوكاً لا ورق معه ».

فكيف يطلب من الأبرار أن يبتذلوا أنفسهم ويعيشوا وسط ناس يتعاملون بالمنفعة وبالخوف .. ناس هم شوك لا ورق له ... ناس يقول عنهم « أوس ابن عبد الله » :
« إن أحدهم ليأتي عليه جميع يومه لا يذكر الله إلا حالفاً » !!!.

إن « أهل الله » لا يغفلون عن ذكر الله لحظة فكيف يأنسون بمن لا يذكر الله قط إلا حين يحلف باسمه .. وكثيراً ما يكون كاذباً في حلفه ؟..

إنهم يودون أن يعيشوا أعمارهم مع الناس ، ويقضي الناس أعمارهم معهم .. ولكن كيف ؟.

إن الناس في السوق — تعج أسواقهم بالغش والسرقة والخديعة ، وفي مجالسهم .. تعج مجالسهم بالنفاق والثلب والكذب بل إن بيوت الله كثيراً ما يجعلون منها مسرحاً لدنياهم الباطلة .

دخل « أبو مسلم الخولاني » المسجد يوماً ، فوجد فيه قوماً مجتمعين ، ففرح بهم وأقبل عليهم ظاناً أنهم يذكرون الله أو يتدارسون العلم .. فلما دنا منهم إذ هم يلغون ويهذرون ، فنظر إليهم وقال :
« يا سبحان الله !!
إنما مثلي ومثلكم ، كمثل رجل تعرض لمطر غزير فالتفت فإذا باب مفتوح ؛ فقال أدخل هذا البيت وأحتمي به من المطر ..
فدخل فإذا البيت لا سقف له . لقد قصدتكم راجياً أن يكون

مجلسكم مجلس ذكر أو علم أنتفع به . فإذا هو مجلس دنيا في بيت الله » !!.

* * *

إن قلوب « أهل الله » معلقة دائماً بجلاله .. وحين يكون أحدهم معنا بشخصه ، وبمواعظه ، ومعرفته .. يكون في ذات الوقت مع الله بروحه وبقلبه ، وبنيته ورجائه .

وليست في دنيانا كلها ما يغريهم ولا ما يشغلهم عن الله لحظة .

يقول « مسروق بن عبد الرحمن » :

« ما بقي شيء يرغب فيه إلا تعفير وجوهنا في التراب » يعني دوام السجود لله رب العالمين .

أفهذا هو اعتزالهم حبذاه من اعتزال !..

يتحدث صاحب لـ « عمرو بن قيس الملائي » فيقول :

« كنت أطلبه في السوق .. فإن لم أجده في السوق ، وجدته في بيته ، إما يصلي ، وإما يقرأ القرآن ، وكأنه يبادر أموراً تفوته .

فإن لم أجده في بيته ، وجدته في بعض مساجد الكوفة ، وقد أوى إلى زاوية من المسجد ، وجلس يبكي ..

فإن لم أجده في المسجد ، وجدته في المقبرة ينوح على نفسه ..

ولما مات عمرو ، وخرجنا بجنازته إذا البرية تمتلىء بطير أبيض لم نر مثل حسنه وخلقته !.

وأخذ الناس العجب ، فقال أبو حيان التيمي :

مم تعجبون ؟ هؤلاء ملائكة جاءوا يشهدون جنازة عمرو !!! » .

فهذا القديس والعبد الصالح « عمرو بن قيس » يبحث عنه من يريده في البيت مصلياً .. أو في المسجد عابداً .. أو في المقابر معتبراً .. ولكنه أيضاً وقبل ذلك في السوق يمارس عمله وتجارته .

اعتزالهم إذن كان تجرداً لله .. لعبادته والسعي في مرغناته بما يتضمنه السعي من عمل للمعيشة .. ومن عون يبذل للناس .

يقول « خليد بن عبد الله » :

« لا تلقَ المؤمن إلا في ثلاثة مواطن :

- مسجد يعمره بعبادة الله ..
- أو بيت يستره ..
- أو حاجة من أمر الدنيا ، ليس بها بأس » .

أجل .. إنهم ليدأبون في الحياة كدأب الآخرين .. فمنهم التاجر ، والصانع، والمعلم ، والزارع ..

وإنهم ليسعون في عون الناس ويخفّون إلى نجدتهم كلما قدروا واستطاعوا ..

وإنهم ليملأون الحياة بدويّ حكمهم ، وبعبير فضائلهم .. لكن حياتهم الباطنة تجعلهم يبدون بيننا ، وكأنهم غرباء ..

ذلك أنهم كما قال « شميط بن عجلان » :

« أتاهم من الله أمر أقلقهم ، فناموا على خوف وقاموا على وقار » ..

وكما يقول « الحسن البصري » :

« خليق بمن يعلم أن الموت مورده ، والساعة موعده ، والقيام بين يدي الله مشهده أن يطول حزنه » ..

إن أمامهم غاية تناديهم وموعداً يدعوهم .. وليس معهم من العمر ما يكفي ، ومن ثم فهم مهطعون وعداءون .

* * *

« يا بني تميم .. وهبت لكم شبابي ، فهبوا لي شيبتي » ..

هذه صرخة أطلقها « اياس بن قتادة التميمي » في قومه وعشيرته ، ليتركوا له البقية الباقية من عمره يدرك بها الركب المسرع إلى الرضوان العظيم .

ولقد سئل إمام من أئمة القوم . ذلكم هو « أويس القرني » رضي الله عنه :

« كيف الزمان معك ؟

فقال : وكيف يكون الزمان مع رجل إن أصبح ظن أنه لا يمسي ..

وإن أمسى ظن أنه لا يصبح .. مبشر بالجنة . أو مبشر بالنار ..

● إن الموت وذكره لم يدعا لمؤمن فرحاً

● وإن علم المؤمن بحقوق ربه لم يترك له في ماله فضة ولا ذهباً .

● وإن قيامه بالحق لم يترك له صديقاً » !!.

هذا في إيجاز هو الشكل الحقيقي لاعتزالهم .. اعتزال للشرور وللأشرار . حتى لا تنال ولا ينالوا من تقواهم شيئاً .. وفي نفس الوقت رفض للشرور ومجابهة الأشرار في نضال باهر قوامه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهر بكلمة الحق في وجه الخطر ..

إنه ارتفاع عن مستوى الناس بالجهد الخارق الذي يبذلونه في العبادة وتزكية النفس .. لكنه في نفس الوقت إسهام نبيل في خدمة الناس وتبصيرهم بالحق.

كل ذلك دون أن يشغلهم عن ذكر الله ومحبته شيء ..

يقول « عامر بن قيس » :

« والله . لأن تختلف الأسنة في جوانحي . أحب إليَّ من أن أشغل عن ذكر الله ومحبته بشيء » ..

كل ذلك . دون أن يشاركوا أهل الدنيا . ولو في الطيبات المشروعة والمباهج المباحة .. فلقد فضوا أنفسهم عنها وعاشوا وكأنهم غرباء بين أهلها .

ها هو ذا « شميط بن عجلان » يردد شعارهم الذي سرى في حياتهم مسرى الدم في العروق :

« صبراً على لأوائها . والموعد الله » !!..

• • • • • • •
• • • • • • •

والموعد الله

قلنا في أول سطور الكتاب : إنهم من الله العلي الكبير تبدأ مسيرتهم المباركة •• وإلى الله العلي الكبير ينتهي مسراهم ومعراجهم ولو أردنا أن نلخص حياتهم ومنهجهم في عبارة واحدة لكانت : التجرد لله ••

والتجرد عندهم : يعني تكريس كل ما معهم من روح وجسد . وجهد ووقت لعبادة الله ومناجاته •• كما يعني مع التكريس طرح النفس وفناء حظوظها •

يقول « ابن القيم » :

« صاحب التجريد ، لا يستغني إلا بالله . ولا يفتقر إلا إلى الله ••
لا يفرح إلا بمرضاة الله . ولا يحزن إلا على ما فاته من الله ••
ولا يخاف إلا من سقوطه في عين الله » •

وهذا التجرد لله ، والفناء في جلاله . هو عندهم « جوهر الحرية » •• لأنهما — التجرد والفناء — يعنيان أن صاحبهما لم يعد رقيقاً لشيء من أشياء الحياة وعلاقاتها ، وأنه قد صار كما يقول : (فرداً . لفرد) •• هو . والله •• فأي سيادة هذه ، وأي جلال ؟!

إن هذا التجرد يعني عند « أهل الله » أن الشخصية الباطنة للمتجرد قد اتصلت بخطوط مباشرة مع الملأ الأعلى . بعد أن حققت أعلى درجات الانتصار في حياة السريرة والضمير •

يقول « بشر الحافي » :

« مَن أراد أن يذوق طعم الحرية . ويستريح من العبودية .
فليطهر السريرة بينه وبين الله تعالى » •

عندئذ تتفتح له الأبواب على درب الحرية . ويقطع الطريق وثباً في رعاية الله إلى المقامات الرفيعة في التجرد والفناء .

لا مكان لحظوظ النفس عند الذين يحيون في موعد مع الله .. وهـذا هو الإيمان الحق .. وهو الحرية الحقة .. وهو التصوف الوثيق .

يقـول « الجنيـد » :

« التصوف ، أن يميتك الحق عنك ، ويحييك بـه » ...

ويقـول « سمنون » :

« التصوف ، ألا تملك شيئاً ، ولا يملكك شـيء » .

ويقـول « أبو يعقوب المزايلي »:

« التصوف حـال تضمحل فيهـا معـالم الشخصية » .

هذا هو التجرد ، الذي هو بدوره الالتزام الأساسي للسائرين إلى الله .. وهو ليس ترفاً روحياً .. بل فريضة محكمة، لأنه التعبير الصحيح عن توحيد الله..

ومن ثم فالتجرد عند « أهل الله » لا يقف عنـد التجرد عن حظوظ النفس وأهوائها . ولا يعني صرف الأبصار والبصائر عن ناس الحياة وأشيائها .. بـل يتخطى ذلك كله الى البعد المفقود حيث يتجردون حتى عن رؤية الطاعات والقربات والمعاناة التي حققت لهم التجرد وسلكتهم في موكب الواصلين !!.

قال « الشبلي » يومـاً لرجل :

« أتدري لم لا يصح توحيدك ؟.. لأنك تطلبه بك ... » !!

فالذي يظن أنه يطلب الله بجهده هو ، وليس بتوفيق مطلق من الله ، لا يحسن في رأيهم ــ التجرد ، ولا التوحيد .

يقول « ذو النون المصري » :

« عرفت ربي بربي .. ولولا ربي ما عرفت ربي » ...

فالله هو كل شيء ، وبه وحـده تدرك الغايات .

والتجرد من رؤيــة النفس حتى وهي في أبهى فضائلها . بعــد تجردها عن رؤية الأغيار كافة ، هو حقيقة التوحيد . ولبابه ..

وآية ذلك التجرد ماثلة فيما يقول « أبو عبد الله القرشي » :

« ألاّ يبقى لك منــك شــيء » ..

وآيته كذلك : تعــرية كل قوى الحياة من طاقاتها المستعارة . والرجوع بفاعلية الأسباب الى مصدرها الحق سبحانه وتعالى ..

يقول «ميمون بن مهــران » :

« .. يقول أحدهم : اجلس في بيتك . وأغلق عليك بابك . وانظر هــل يأتيك رزقك ؟..

نعم والله . ليأتينّه رزقه ولو أغلق عليه بابه وأرخى ستره إذا كان معه مثل يقين « مريم » و « إبراهيم » عليهما السلام » !!...

إن التجرد في أقصى حالات اكتماله . يتضمن التوكل في أقصى صور كماله.. ويتضمن كل فضائل التفوق الروحي عند « أهل الله وخاصته » .

وفي هذه الفقرة التي طالعناها لميمون بن مهران يقرر حقيقة التوكل وصدقه مقترنة ببرهانها المشهود .

فقبل أن يسأل الناس : كيف ؟ يريهم المشهد ويطوقهم بالبرهان .

فهــذه « مــريم » عليها السلام :

« كلما دخــل عليهــا زكريا المحراب وجــد عنــدها رزقاً ..

قال : يا مــريم أنّى لك هــذا ؟ قالت : هو من عند الله . إن الله يرزق من يشاء بغــير حساب » ..

لقد كانت وهي معتكفة في مصلاها ، تفتح عينيها فجــأة فإذا أمامها وبين يديها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء !!..

وهذا أبو الأنبياء « إبراهيم » عليه السلام :

« قلنــا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » !!..

لقد ألقي به في الأتون المستعر . وراحت النار تأكل نفسها دون أن يمسه منها سوء ــ أي سوء !.

هنا تتعرى الأسباب تماماً من وجودها النسبي دون أن يكون ذلك مدعاة لإهمالها في تفكير « أهل الله » .. إنهم يقفون أمام هذه الظاهرة هاتفين بالمؤمنين ألا يعبدوا الأسباب وألا يقدروها فوق قدرها . وأن يفتحوا بصائرهم على واهب القوى والطاقات والنتائج .. ثم ليتبتلوا إليه تبتيلا ..

* * *

وحين يتوفر للعبد هــذا القدر من التجرد والتبتل يزلف الى مباهج الحب الذي لا حب مثله ، ولا حب بعــده !!.

وهنا الروضات اليانعات التي يتأنق فيها « أهل الله » ويتألقون .. فمحبة الله هي المجلى العظيم لأحلى وأروع أيام العمر عند أولئك الذين قال الله عنهم :

« يحبهم ، ويحبونه » !!

وفي روضات المحبة اليانعات ، تتحول العبادة الى خير ما في الحياة من بهجة ومتــاع .

وفي ظلال هذا الحب يؤدي العابد فروض ولائه وعبــادته في نشوة الكلف المحبور .. لا المكلف المأمور !!.

وهكذا رأينا حب الله يتجاذب « أهل الله » الى آفاق شتى .. فبعضهم يود لو يعمر في الدنيا ألف عــام ليزداد من حلاوة العبادة والشوق .. وبعضهم يود الموت من فوره ويشتريه بكل ثمين وغال ، لكي ينعم بحلاوة اللقــاء ..

يقول « عامر بن قيس » وهو يبكي في مرض موته :

« لست أبكي على دنياكم رغبــة فيها ..

إنما أبكي على ظمأ الهواجر ، وقيام الليالي الشاتية » !!.

بينما يقول « عبد الله بن أبي زكريا » :

« لو خُيِّرت بين أن أعَمَّر مائة عـام أقضيها في عبادة الله . أو أقبَض في يومي هـذا . اخترت الموت الآن شوقـاً إلى الله وإلى رسوله والصالحين من عباده » ..

* * *

وعندما يبلغون هذا المقام ، يبلغ هيامهم بذكر الله وبالصلاة أشده وأقصاه .

إن لهم في هـذا المضمار أسوة حسنة بالرسول الكريم الذي يقول :

« إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا .

قالوا : وما رياض الجنة يا رسول الله ؟

قال : مجالس الذِّكْر » .

والذي كان يقول لمؤذنه بلال عندما يحين موعـد الصلاة :

« أرِحْنـا بهـا يا بلال » !!

ولم يقل « أرحنا منها ... » والذي قال :

« جعِلتْ قُرَّة عيني في الصـلاة » !!..

إن « أهـل الله » لتهزهم هـزاً شديداً هـذه الآيـة الكريمة التي تقول :

« ولَذِكْرُ اللهِ أكبـر » ...

فهم لا يفسرون كلمـة « أكبر » هنا بعظم الأجـر وكبر المثوبة فحسب . بـل يفسرونها أساساً بما تومىء إليه من جـلال الله وجبروته وسلطانه ورفعـة كبريائه وشـأنه .

وكما قال بعضهم :

« لم يتفضل الله علينـا بدعوتنا إلى ذكره وإثابتنا عليه بالجنـة فحسب ..

بل كان فضله قبل ذلك أن سمح لنا بأن تردد ألسنتنا أسمه ، وتستوعب قلوبنا ذكـره » !!.

ويقول « الكناني » رضي الله عنه :

« لولا أن ذكر الله فرض عليّ . لما ذكرته .. إجلالا له !!..
أو مثلي يذكره . قبل أن يغسل فمه بألف توبة متقبّلة » ؟؟!!..

والذكر . ومجالس الذكر .. إنما يعنيان عند « أهل الله » حالات الحضور الحق مع الله سبحانه وتعالى ذاكرين آلاءه ، مقدسين أسماءه .

وهو ليس ترفاً في العبادة ولا نافلة ـ بل فريضة وأساساً .. هو ضروري كي ينتقل العبد من الغافلين إلى الذاكرين .. ومن الذين يعيشون رهن « حلم الله » إلى الذين يحيون في رحاب رحمته ..

يقول « الكناني » :

« الغافلون . يعيشون في حلم الله
والذاكرون . يعيشون في رحمة الله
والعارفون ، يعيشون في لطف الله
والصادقون . يعيشون في قرب الله » .

فذكر الله إذن ينقل المؤمن من عالم ما قبله الى عالم ما بعده .. من عالم حلم الله عنك ، إلى عالم رحمته ولطفه ، وحبه وقربه .. من عالم الغفلة .. إلى عالم الذكر ، فالمعرفة ، فالصدق ..

وعندما نادى الله عباده قائلا :

« فاذكروني ، أذكركم » .

وضع الذكر والذاكرين في أعلى منازل القربات والمقربين ..

ولقد أدرك « أهل الله » هذا ، ليس لما يمثله « الذكر » من شرف المكانة وشرف الصحبة فحسب .. بل ولما يمثله من ضرورة وحتمية .

فإذا كانت حياة العابدين تعتمد على القلوب المرهفة التقية ، فإن خير ما يجلو القلوب ويرهفها هو « ذكر الله » .

يقول « عوف بن عبـــد الله :

« ذكـــر الله صقال القلوب » ..

وهو ضروري للمريد السائر الى الله .. وللولي الذي نزل في ضيافة الله .

فبالنسبة للمريد ، يقول « أبو علي الدقـــاق » :

« الذكر ركن قـــوي في طريق الحـــق سبحانه وتعالى . بل هـــو العمدة في هذا الطريق . ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر ».

وبالنسبة للواصلين يقـــول :

« الذكر منشور الولاية ــ أي المرسوم الذي يعـــلن تبوأ الولي منصب الولاية ــ فمن وفّق للذكر منح المنشور .. ومَن سُلِبَ الذكر ، فقـــد عزل » ..

وكما يتصور الفيزيائيون أن يكتشفوا قوانين تفسر قيام الكون وتماسكه من جاذبية ونسبية .. فإن « أهل الله » يرون في العلاقات القائمة بين العباد وربهم الأعلى والتي يجوهرها ذكـــر الله سبحانه .. يرون في هـــذه العلاقات ســـر بقاء الحيـــاة واستمرارها .

يقول « عون بن عبـــد الله » :

« لو يأتي على الناس ساعة لا يذكـــر الله فيهـــا ، لهلك من في الأرض جميعـــاً » ...

ولكن من حسن حظ البشر ، أنه لا تمر من الزمان لحظة واحـــدة بل ولا جـــزء من اللحظة إلا ولله فيها ذاكرون ومسبحون .. فليس الناس وحدهم هم الذين يذكرون الله ويسبحون بحمده . بل الشجر ، والطير ، والجبال ، والرمال ..

وصدق الله إذ يقول :

(وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) .

وبالنسبة للناس ، يرى « أهل الله » في الذاكرين حراس الحيـــاة !

يقول « عون بن عبـــد الله » :

« ذاكر الله في غفلة الناس . كالرجل القوي الذي يظهر في الفئــة المنهزمة ، فيمنحها التماسك والثبات . ولولاه لدامت هزيمتها .
كذلك من يذكر الله في غفلة من الناس، لولاه لهلك الناس »!!!...

* * *

وإن « أهــل الله » ليولون ذكــر الله من اهتمامهم واستعدادهم وإجلالهم ما يمليه عليهم توقيرهم الله وإدراكهم لجلاله وتأدبهم في حضرته ..

فهذا واحد منهم ـــ هـــو « خليد بن عبد الله » كان يأمر بالبيت فيُنظف ، ثم يغلق باب حجرته ، ويجلس على مصلاه ، ويقول :

« مرحبـــاً بملائكة ربي ..
أما والله لأشهدنكم اليوم خـيراً ..
« خـــذوا باسم الله .... » .

ثم يمضي في تسبيح الله وذكره ، وروحه تتفجر حماساً وشوقاً وغبطة !!.

والذكر عند « أهــل الله » قيمة تعبر عن ذاتها بذاتها.. قيمة يتحد فيهــا الشكل بالمضمون اتحاداً لا يسمح باللغو أبـــداً ..

ومن ثم ، لم يضعوا « مواصفات » خاصة لذكر الله .. فساعة الذكر . إمــا أن يكون العبد ذاكراً لله حقــاً فعندئذ يملي عليه جلال الموقف الشكل المناسب والصيغة الملائمة .. وإما أن يكون مجــرد محترف أو هاو أو متظاهر . فهــذا لا يدخل في حسابهم ، ولا تقع عليه نظراتهم .

أجل .. سواء عند « أهل الله » أن يذكر العابدون ربهم ســـراً أو جهراً .. فرادى ، أو مجتمعين .

المهم أن يكون الذكر ذكراً .. والذاكر ذاكراً.. أي أن يكون هناك حضور كامل قدر المستطاع ، وأدب كامل يملأ الزمان والمكان والمناسبة .

إن « أهل الله » يذكرون الحديث القدسي ويذكّرون به •• الحديث الذي يحكي قول الله سبحانه :

« أنا جليس مَن ذكَرني » !!

هذا الميزان الذي لا ميزان مثله ، ولا ميزان بعــده •

حين تذكر الله فالله جليسك •• يا للرهبة التي تذيب الصخر •• ويا للجلال لذي يدك الجبــال دكــاً !!•

لله جليسك ، فانظر إذن كيف تكون زماناً ، ومكاناً ، وهيئة ، ومناسبة •• في مثل هــذا الموقف لن تكون بحاجة الى مَن ينظــم لك هيئتك ، وسمتك ، حركاتك ، وكلماتك •• أنت وحدك أدرى !!•

* * *

قلنا من قبل : إن « أهــل الله » حين يحققون لأنفسهم التجرد والتوكل ، يزلفون الى رياض المحبة والفناء الذي يحققون به التكامل •• تحيا أرواحهم في شغف مطلق بذكــر الله ، وبالصلاة ••

ولقد رأينا وقفتهم مع ذكر الله ، فلننظر الآن وقفتهم مع الصلاة •• ولكن•• لماذا الذكــر والصلاة خاصة ؟•

إن لكل العبادات وكل القربات قدرها وحرمتها وشغف الأولياء المتقين بها ، بد أن الصلاة والذكر يتوجان العبادات جميعاً والقربات كافة •

ذلك أن الله سبحانه شــرع الصلوات في اليوم والليلة خمس مرات عــدا ا يتخللها من نوافل وسنن ••

و « أهل الله » بما معهم من بصيرة ونور يدركون أن الله الغني عن عباده لم عرض الصلوات خمساً عبر اليوم وليلته إلا لسرّ عظيم وحكمة بالغة ••

لقــد جعلها خمساً •• ثم لم يركزها في زاوية من زوايا النهار أو طرف من طرافه •• بل وزعها توزيعاً مناسباً مع اليوم كله نهاره وليله •• أفلا يدل ذلك

على شـيء ؟. بلى ، « وأهل الله » خير من يفطن لأسرار التشريع وحكمته .

وهكذا تواصوا بالصلاة حين أدركوا أن الله أرادها لتكون خط الاتصال الدائم والمستمر بينه وبين عباده . ولتكون وليمته المباركة في الأرض ينادي إليها الناس كل بضع ساعات مرة . لينزلوا في ضيافة الله ويتزودوا من رضوانه .

فمن ذا الذي يهيىء الله له وسيلة الاتصال المباشر والدائم بحضرته وقدسه . ثم لا يستثمر هذه النعمة بأقصى وأقصى جهده وجهـاده ؟...

والواصلون إلى الله ، والماثلون في حضرته . هم أكثر العابدين حرصاً على هذا الاتصال ــ ليس فقط لمـا يرجون من مزيد النعمة والفضل .. بل ولأنهم يعلمون حاجة العباد الى عون الله حتى يكونوا من الأولياء والأبرار الواصلين .

فلطالما سمعوا عن نبيهم الذي اصطفاه الله واجتباه أنـه كان دائب اللهج بهـذا الدعـاء :

« يا مقلب القلوب . ثَبِّت قلبي على دينك » .

حتى إذا سئل عن سـر إلحاحه بهـذا الدعـاء . قال :

« إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن. يقلبها كيف يشاء » ..

من أجل هذا كان ولاؤهم الوثيق للصلاة .. وكان كذلك لذكـر الله .. فمعنى الاتصال والاستمرار والحاجة في الاثنين واحـد .

والذكر مطلوب في كل آن..وهو لايتمثل وحسب في كلمة « لا إله إلا الله » وإن تك هذه من أعلى شعائر الذكـر وأسماها .. لكنه يتضمن كل خلجة قلب . وكل ابتهالة لسان يتحقق من خلالها الحضور مع الله واستشعار عظمته . ورؤية آلائه ونعمائه وآياته ..

من أجل هذا ، كانت ولا تزال تلاوة القرآن عند « أهل الله » تاج الذكـر والذاكرين .

* * *

على أن ثمة معنى آخر بالغ الأهمية في شغف « أهل الله وأوليائه » بذكر الله وبالصلاة ..

ففي هذا الشغف وهذا الولاء دحض حازم لبعض الدخلاء على الطريق ، الذين يزعمون أنهم بالوصول الى الله سبحانه وتبوئهم مكانة الولاية قد أصبحوا أحراراً في التحرر من بعض التكاليف والعبادات ..

لا ... إن « أهل الله » ليدركون أن طاعة الله في تعاليم دينه هي طريق البدء ، وطريق السير ، وطريق الختام .. وأن كل زيغ عنها أو تفريط فيها إنما يعني ــ والعياذ بالله ــ الطرد من نعمته وحضرته ..

كذلك ، فهم يدركون أن الدأب على أداء فرائض الدين ونوافله ، ليس طريقهم الى المزيد من فضل الله وحبه وحسب ، بل هو أمانهم الوحيد من الخذلان.

فأما أبصارهم وبصائرهم ، تبرق دائماً كلمة الصدّيق الأكبر :

« لا آمن لمكر الله ، ولو كانت إحدى رجلي في الجنة » .

فالتفريط مرفوض بعد أن سمعوا قول الله لرسوله :

« ولا تُطعْ مَن أغفلنا قلبه عن ذكرنا » .

والافراط مرفوض بعد أن سمعوا قول الله لرسوله :

« ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » .

والاتباع ــ وحده ــ اتباع الرسول والقرآن والشريعة ــ هو طريقهم الأوحد الى الله .

من أجل هذا ، وعلى الرغم من أنهم أهل الكرامات والخوارق ، فإنهم لا يجدون للخوارق أية قيمة ما لم تكن صادرة عن ولي تقي ، وما لم يكن صدورها تعبيراً خاصاً في مناسبة خاصة عن دعوة للحق يراد تزكيتها بالكرامة ، أو فضيلة يراد دعمها بها .

هذا هو « أبو يزيد البسطامي » رضي الله عنه يقال له :

ـ إن فلاناً يجيء من بلده إلى مكة في ساعات •

فيجيب قائلا :

ـ وأي بأس ؟•• إن الشيطان يطوف الأرض كلهـا في لحظات !

ويقـال له :

ـ إن فلاناً يطير في الهـواء . ويمشي على المـاء •

فيجيب قائلا :

ـ وأي فضل له ؟•• إن الطير يطـير في الهواء •• وإن السمك يمخـر عباب المـاء !!•••

ثم يقـول :

« لو نظرتم إلى رجـل أعطي من الكرامة حتى يتربع في الهواء . فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف هو عند أمر الله ونهيه •• وحفظ حـدوده •• وأداء شريعته » !!•••

فـ « أهـل الله وأولياؤه » •• أكثر المؤمنين والعابدين التزاماً بشريعة الله . ومن ثم كان ارتباطهم الروحي الذي لا تهـدأ أشواقه الى ذكر الله والى الصلاة . للمعنى الذي أسلفنا شرحه وتبيانه ••

وكما ينهض الذكر لديهم معياراً لاستقامة الضمير والمسير •• فكذلكم الصلاة ••

هـذا « أبو العالية » يقول :

« إني لأرحل إلى العالِم مسيرة أيـام . فأول ما أتفقد من أمـره صلاته ، فإن وجدته يقيمها ويتمها أقمت عنده وسمعت منـه •• وإن وجـدته يضيعها رجعت ولم أسمع منه وقلت لنفسي : هـو لغـير الصلاة أضيع » !!

أجـل •• هو لغير الصلاة أضيع •• فالذي لا يجـد لله ولا لنعمائه حقـاً عنده في خمس فرائض يصليها • فينظف بالوضوء لها جوارحه •• ويزكي بهـا روحه •• ويرضي بها ربه •• الذي لا يقر لله بهذا الحق السهل الأداء . والمتواضع

اليسير ، لا يرجى منه بعد ذلك بر نفسه ولا بر الآخرين •• وليست الصلاة وحسب هي دليل « أهل الله » إلى الخير•• بل إن استقصاء آدابها هو أيضاً دليل•

هذا « أبو يزيد البسطامي » يحدثونه عن رجل مشهور بالعلم والزهد . فيسافر « أبو يزيد » إلى البلد الذي يقيم به الرجل ، وهناك يعلم أنه بالمسجد . فيسارع للقائه •• ولم يكد يبلغه حتى وجده بطريق الصدفة يرمي ببصاقه تجاه القبلة ، فانصرف « أبو يزيد » من فوره عائداً إلى بلده وقال : « هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يوثق بعلمه وزهده وصلاحه » ؟

* * *

إن « الصلاة » عند « أهل الله » تمثل لقاء حقيقياً مع ذي الجلال والإكرام•

من أجل هذا كان يغشى أرواحهم ما يغشى، وهم قائمون بين يديه سبحانه ، يصلون له ويتلون آياته ••

وإنهم ليفرقون بين المحافظة على الصلاة والحفظ لها •

وليست المشكلة عندهم أن نحافظ عليها أي نؤديها في أوقاتها • بل أن نحفظها أي نؤديها بالخشوع الكامل والمثول الحق !!•

يقول « أبو بكر بن العربي » :

« إني لأعرف من الذين يحافظون على الصلاة آلافاً أحصيهم ••
أما الذين يحفظونها فلا أجد منهم خمسة » !

ولقد كانوا يبذلون الجهد الأكبر من رياضة النفس والروح في سبيل اكتساب الموقف الصالح والخاشع لكل صلاة •

يقول « ثابت البناني » :

« كابدت الصلاة عشرين سنة واستمتعت بها عشرين سنة » •

يعني بذلك أنه خلال أربعين سنة قضاها في العبادة الموصولة . كان هناك عشرون عاماً قضاها في تدريب نفسه على كل ما تتطلبه الصلاة من خشوع

وحضور ويقظة .. فلما تم له ذلك بعد معاناته ومكابدته طوال السنوات العشرين، صارت متعته بالصلاة وفيها، تفوق كل متاع.

وإنا لنعجب عجباً لا ينتهي حين تتبع أنباء أولياء الله الصالحين وهم يصلون .. فحفاوتهم بالصلاة، وتوقيرهم إياها. وفناؤهم فيها أمر يتعاظم كل وصف وكل إطراء ..

هذا هو « زرارة بن أوفى » يصلي بالناس صلاة الفجر. فيقرأ بعد الفاتحة .. سورة « المدثر » ويفنى في جلال الصلاة ورهبتها. حتى إذا وصل في تلاوته الآيات الكريمة:

« فإذا نقر في الناقور * فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير ».

تسحته الرهبة الجليلة. فيسقط من فوره ميتاً وشهيداً !!.

وهذا هو « منصور بن المعتمر » كانوا يقولون عنه:

« لو رأيت منصوراً. وهو يصلي. لقلت: يموت الساعة » !!...

ولقد كانت ابنة جار له تبصر في هزيع الليل شيئاً يشبه الخشبة المنصوبة فوق سطح دار « منصور » .. وذات ليلة أرسلت بصرها حيث تعودت أن ترى ذلك الشيء الذي حسبته خشبة فلم تجده مكانه فسألت أباها:

— أين الخشبة التي كنت أراها كل ليلة منصوبة فوق سطح « منصور »؟..

فأجابها أبوها:

— « يا بنية ...

ذاك « منصور » نفسه: يقوم الليل مصلّياً » !!...

تلك هي الصلاة حقاً. يفنى فيها « أهل الله » فناء الأيقاظ المشاهدين، ولا يصرفهم عن جلالها رغبة ولا رهبة.

فـ « عمرو بن عتبة » يقف في ظلام الليل وهدأته يصلي، ويسمع أصحابه

القائمون الى جواره في الفضاء المكشوف زئير أسد يقترب ، فيولون هاربين ●● ويستمر « عمرو » في صلاته لا يهتز ولا يختلج ●●

ويقترب منه الأسد ، ويطوف حوله ويتشمم ويحملق ●●

و « عمرو بن عتبة » كأنه غير موجود ●● وينصرف عنه الأسد في سلام ، ويعود أصحابه فيسألونه بعد أن أتم صلاته :

ــ أما خفت الأسد ؟●●● فيجيبهم :

ــ « إني لأستحي من الله أن أخاف شيئاً سواه وأنا بين يديه » !

وعن « عمــرو بن عتبة » هــذا ، رضي الله عنه ؛ وعنهم أجمعين يقــول « أبو نصر بشر بن الحارث » :

« كان عمرو بن عتبة يصلي والغمام فوق رأسه ؛ والسباع حــوله تحــرك أذنابها » !!●●

لقد كانت الصلاة قرة أعينهم إلى الحد الذي كانوا يستقلون أعمارهم مهما تطل لكي يقدموا منهــا المزيد الى الله ●

هــذا « ثابت البنــاني » يضرع إلى الله داعيــاً :

« اللهم إن كنت أعطيت أحــداً من خلقك نعمة الصلاة في القبر ، فاعطنيها » ●●●

إنه يكاد يتمنى الخلود ليمــلأه صلاة ثم صلاة ثم صلاة ثم صــلاة ! أما والخلود في هذه الدنيا غير ميسور ، فهو يسأل ربه في ضراعة : إن كان يحق له أن يطمع في فضل ربه ورحمته ونعمته ، فيعطيه من الحياة قبساً برزخياً يمكنه من أداء الصلاة في قبره ، ويظفره بنعمتها وحلاوتها !؟●

* * *

لكم الله ، يا أهــل الله ●● لكم أنتم في الحياة نورها ، وشرفها ، وضميرها ، وعافيتها ، وهــداها !●●●

الفهرس

الدين للشعب

كما تحدث القـرآن

كما تحدث الرسول

الجـزء الأول

كما تحدث الرسول

الجـزء الثاني

كما تحدث الرسول

الجزء الثالث

عشرة أيـام في حياة الرسول

انسانيات محمد

أبنـاء الرسول في كربلاء

والموعـد الله

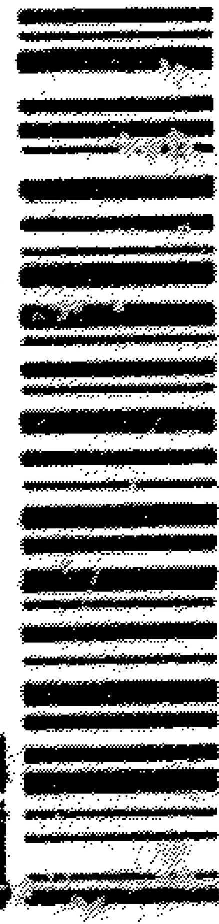
منشـــــورات

دار الفكر ـ بيروت
لبنـــان

مكتبة التحرير ـ بغداد
العراق ـ هاتف ٨٨٨٠٨٩١

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٢٤٨ لسنة ١٩٨٤

سعر النسخة ـ ر٦ دنانير


Bibliotheca Alexandrina
05335238